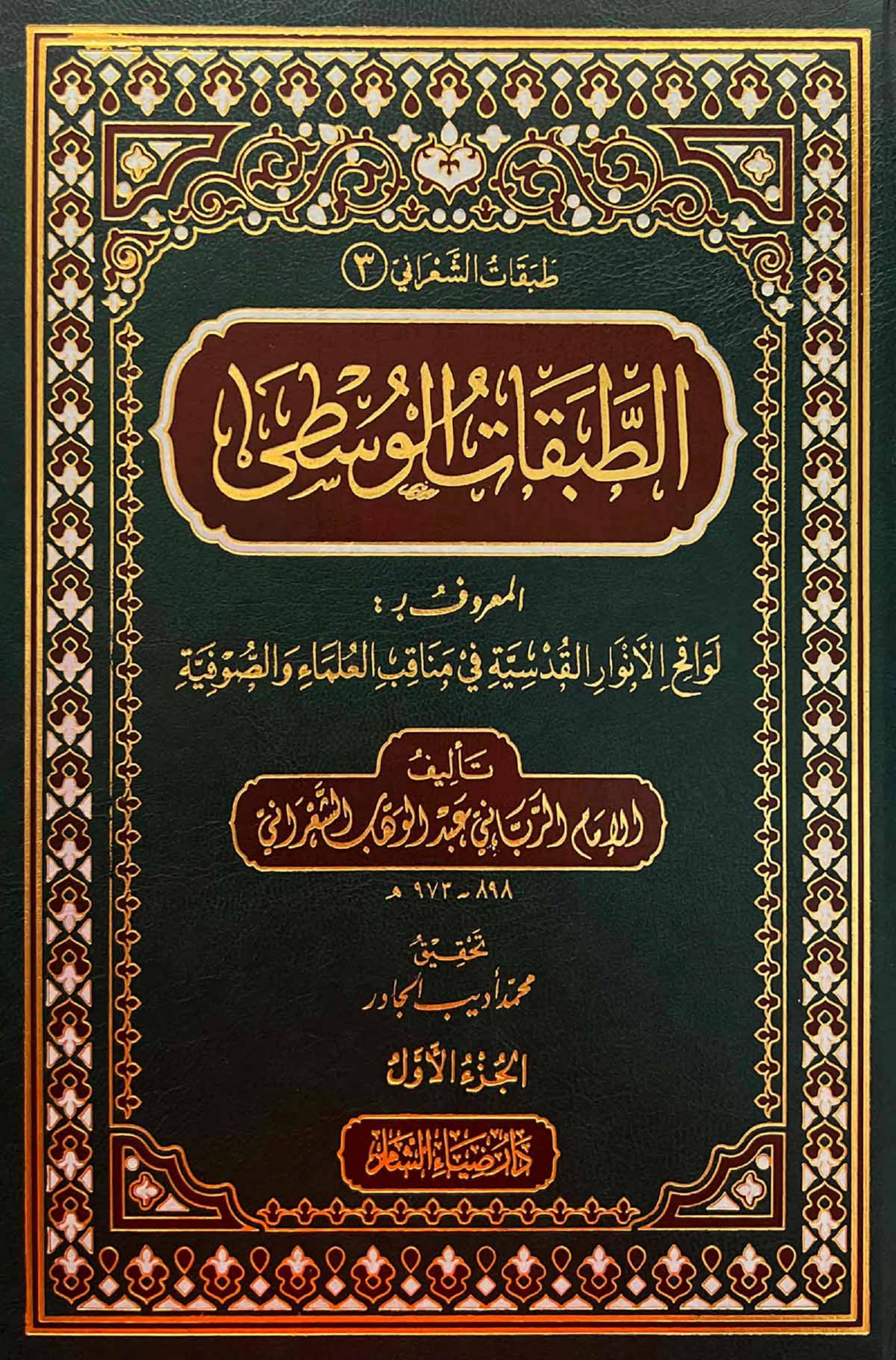
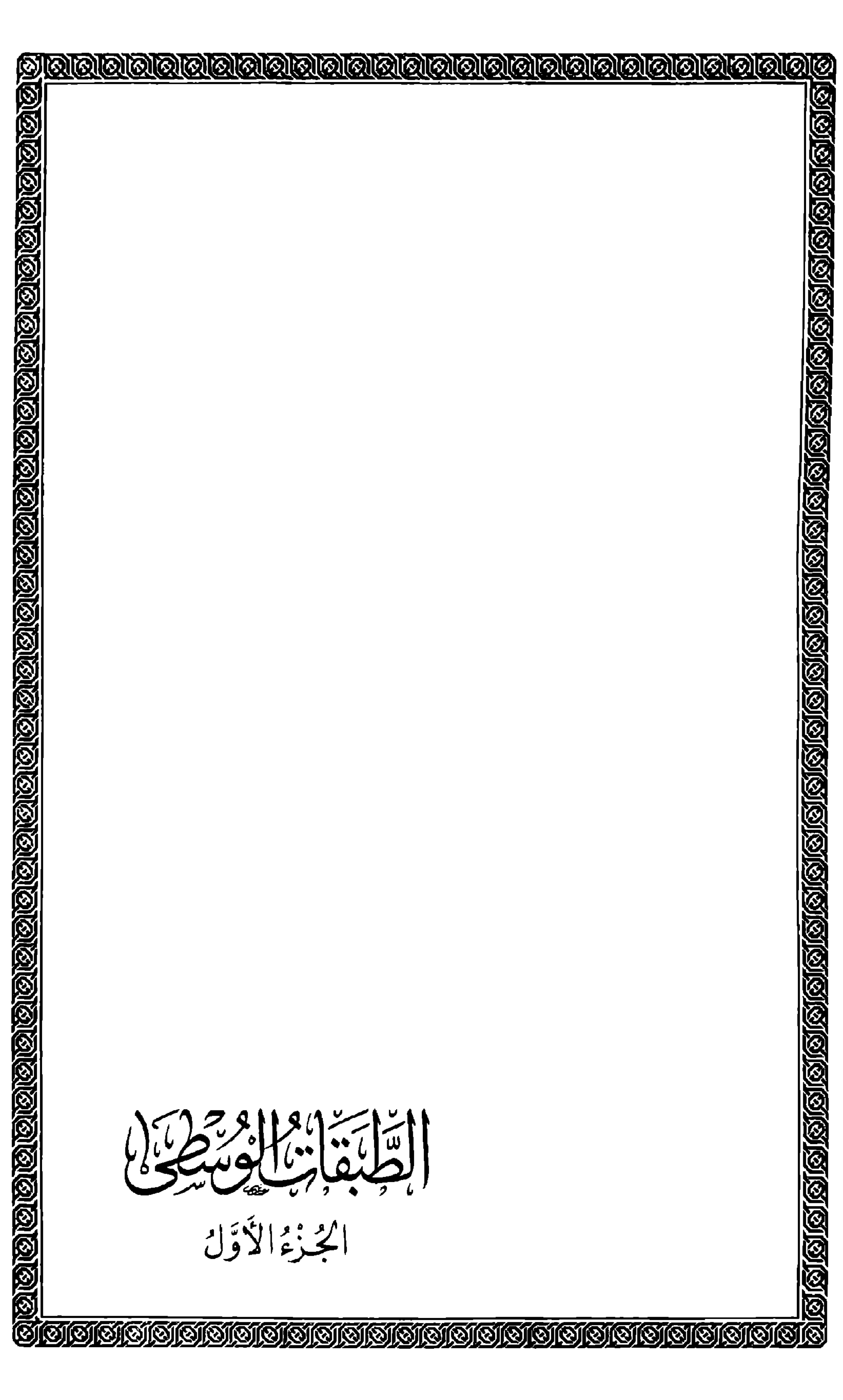

طبقات الشعراني ٣
الطبقات الوسطى
المعروف بـ:
لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية
تأليف
الإمام الرباني عبد الوهاب الشعراني
٨٩٨ - ٩٧٣ هـ
تحقيق
محمد أديب الجادر
الجزء الأول
دار ضياء الشام


الطبقات الوسطى
الجزء الأول



الكتـــاب :	الطبقات الوسطى - الجزء الأول (لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية)
المـؤلـــف :	الإمام الرباني عبد الوهاب الشعراني
تحقيـــق :	محمد أديب الجادر
الناشـــر :	دار ضياء الشام
التنفيذ الطباعـي:	مطبعة ضياء الشام
عدد الصفحات :	٤٩٦
سـنة الطباعة :	١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م
بـلد الطباعة :	سوريا
الطبعـــة :	الأولى

ISBN: 978-9933-9326-1-9





سـورية - دمشـق - حلبـوني
هاتـــف: ٤٢ ٦٨ ٢٢٤ ١١ ٠٠٩٦٣
جوال: ٩٣٣٨٧٨٠٧٥ ٠٠٩٦٣/٠٠٩٦٣ ٩٥٨٨١١٧٠٠
البريـد الإلكتـروني : deaa.nsr@gmail.com

الطبقات الوسطى

المعروف بـ:

لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية

تأليف

الإمام الرباني عبد الوهاب الشعراني

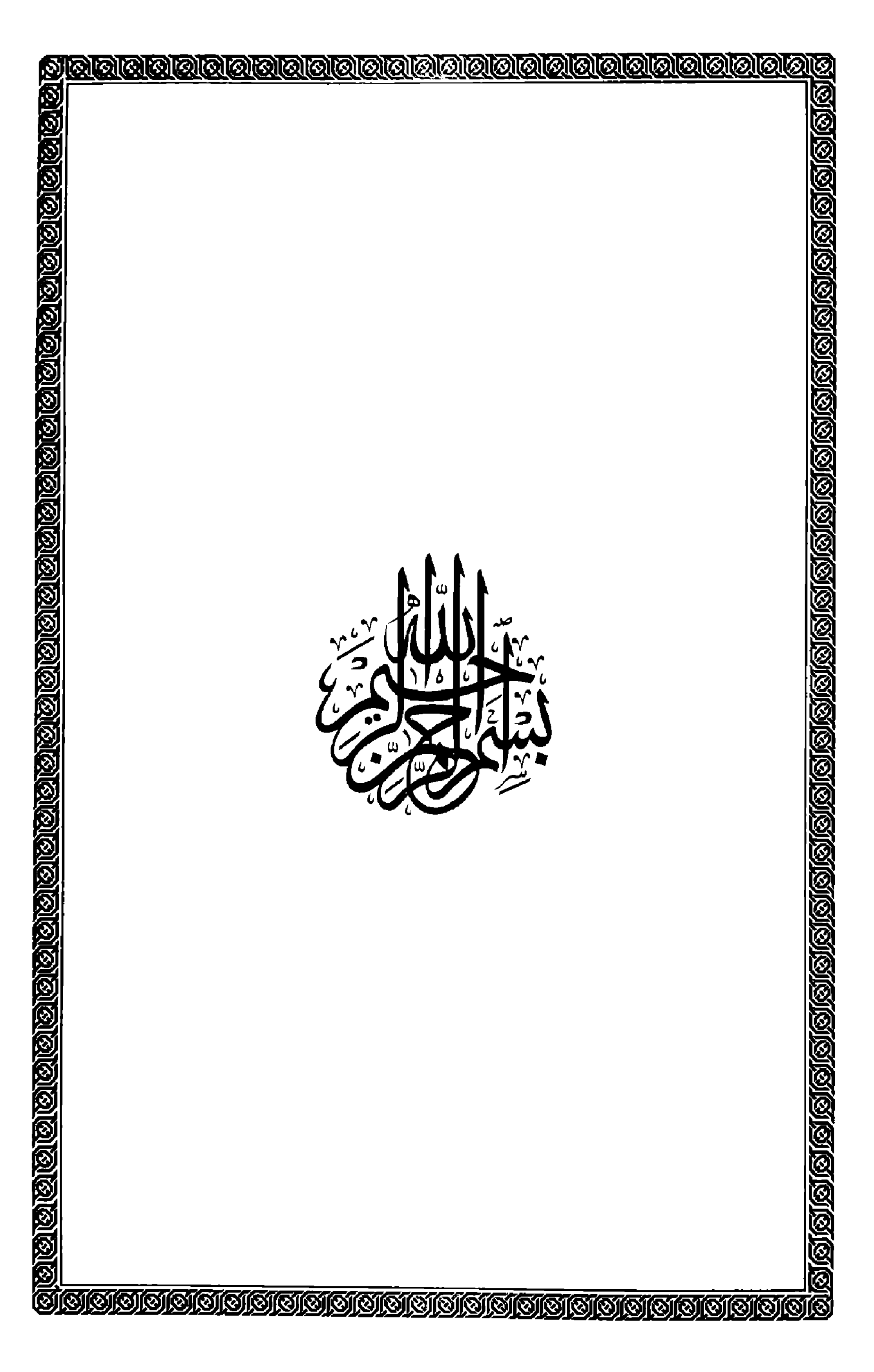
٨٩٨ - ٩٧٣ هـ

تحقيق

محمد أديب الجادر

الجزء الأول

دار ضياء الشام



بسم الله الرحمن الرحيم

قَالُوا فِي الإِمَامِ الشَّعْرَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

• قَالَ الإِمَامُ الخَطِيبُ الشِّرْبِينِي فِي تَفْسِيرِهِ السِّرَاجِ المُنِيرِ :
شَيْخُ وَقْتِهِ الشَّيْخُ عَبْدُ الوَهَّابِ الشَّعْرَانِي . (٢/٢٩٠)
وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ :
وَحَضَرَ عِنْدِي سَيِّدِي الشَّيْخُ عَبْدُ الوَهَّابِ الشَّعْرَانِي نَفَعَنَا اللَّهُ بِبَرَكَتِهِ . (٢/٥٣٦)

• وَقَالَ الإِمَامُ الغَزِّي فِي الكَوَاكِبِ السَّائِرَةِ :
الشَّيْخُ الإِمَامُ العَارِفُ الشَّعْرَانِي ... لَهُ طَبَقَاتُ الأَوْلِيَاءِ ثَلَاثٌ ،
وَالعُهُودُ ، وَالسُّنَنُ وَغَيْرُ ذَلِكَ ، وَكُتُبُهُ كُلُّهَا نَافِعَةٌ . (٢/١٥٧)

• وَقَالَ الإِمَامُ الشَّرْقَاوِي فِي التُّحْفَةِ البَهِيَّةِ فِي طَبَقَاتِ الشَّافِعِيَّةِ :
الإِمَامُ العَالِمُ العَامِلُ المُعْتَقَدُ العَارِفُ بِاللَّهِ وَالدَّالُّ عَلَيْهِ . (٧٠١)

ديباجة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله ، الملك الحقُّ المبين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله إلى الخلق أجمعين ، اللهم ؛ فصلِّ وسلِّمْ وبارك عليه وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين وعلىٰ آلهم وصحبهم أجمعين .

وبعدُ : **فهـٰذه طبقاتٌ عظيمة ذكرتُ فيها جملةً صالحة من مناقب الصالحين والعلماء العاملين** ، ممَّن لهم كلامٌ في الشريعة والحقيقة ، أو حالٌ يُنهضُ همَّةَ الطالبين إلىٰ طلب طريق الله عز وجل ، دون ذكر مَنْ لم يبلغْنا عنه حالٌ ولا قال ، وإن كان عند الله عظيماً ، **وابتدأتُ بذكر الإمام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وختمت برجال سنة ثمانٍ وستين من القرن العاشر**(1)

ولا أعلمُ أحداً أنهى الطبقات إلىٰ هـٰذا الحدِّ في عصره ولا غيره ، ولا التزم هـٰذا الالتزام مع أنَّها في غاية الاختصار ؛ **فإنِّي لا أذكر من كلام كلِّ شيخٍ وأحوالِهِ إلا ما غلب اختصاصُهُ به ، ولم يشركْهُ فيه أحدٌ إلا في النادر** ، فليس فيه بحمد الله تعالىٰ كلمةٌ واحدةٌ يُرمىٰ بها ، أو يَستغني المؤمنُ في دينه عن التخلُّق بها ، بخلاف تأليف غيرنا ؛ فربَّما ذكر حكاياتٍ قليلةَ النفع ، أو ضمَّ كلامَ ذلك الصالح أو العالم إلىٰ بعضه بعضاً ، ولا يفرِّقُ بين ما قاله في بدايته ولا ما قاله في توسُّطه للطريق ، ولا بين ما قاله في نهايته .

واعلم يا أخي : أنَّ العلماء هم الصالحون عندنا ؛ لأن حقيقةَ الولي أنَّه عالمٌ عَمِلَ

---

(1) هـٰذا مع ذكره في نهاية الكتاب أن آخر ما التزم ذكره كان سنة (٩٦٥هـ) ، وأنه قد أعاد تبييضها سنة (٩٦٦هـ) انظر (٢/ ٤٧٤ـ ٤٧٥) .

بعلمه على وجه الإخلاص ، ولا يصحُّ أن يرتقي وليٌّ عن هـٰذا الحدِّ أبداً ، وإنما فرَّقتُ بينهما في الاسم تبعاً لما اصطلح الناس عليه في عرفهم من قولهم : فلان فقيه ، فلانٌ صوفي ، فيسمُّون كلَّ من لم يخلَّ بالعملِ بما علم صوفياً ، وكلَّ مَنْ أخلَّ به فقيهاً ، وفي الحقيقةِ لا فرق ؛ فكلُّ فقيهٍ صوفيٌّ ، وكلُّ صوفيٍّ فقيهٌ ، وكلُّ عبدٍ قُسم له من العلم والعمل نصيبٌ لا يتعدَّاه . . فهو عالمٌ بقدر ما أعطاه الله ، وهـٰذا كان هو اصطلاحَ السلف الصالح رضي الله عنهم .

وفي كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه : (إنْ لم يكن العلماءُ أولياءَ الله فليس لله تعالىٰ ولي) انتهىٰ .

وقد بسطنا الكلامَ علىٰ ذلك في كتابنا « بهجة الأبصار والفهوم فيما تميَّزَ به أهلُ الله من الأخلاق والعلوم » فراجعه .

وقد رتَّبتُ هـٰذه الطبقات علىٰ ثلاثة أقسام :

القسم الأول : في ذكر مناقب من لم ندركْهُ من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والأئمة المجتهدين ومن بعدهم إلىٰ جدِّي الأدنى ؛ الشيخِ العارفِ بالله تعالىٰ شيخِ العباد ، وقدوةِ المتورعين في عصره : الشيخ علي الشعراني رضي الله عنه ، وقد توفي في سنة إحدىٰ وتسعين وثمان مئة ، ودفن بزاويته ببلده ساقية أبي شعرة بالمنوفية ، ولم تزل أهلِ القلوب وجيرانُهُ يَسمعون تلاوةَ القرآن من قبره كما كان في حالِ حياته رضي الله عنه .

القسم الثاني : في ذكر مناقب العلماء والصالحين الذين أدركناهم في مصرَ وقُراها ، في النصف الأول من القرن العاشر ممن كان قاطناً بمصر ، أو وارداً عليها ؛ من مسلِّكين ، وأربابِ أحوال ، ومجاذيبَ ، ممَّنْ أخذنا عنه الطريق وخدمناه حتىٰ مات ، وكنَّا نتردَّدُ إليه ، ونقتبسُ من أنوار أعماله وأحواله ، مما سيأتي بيانه في الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

القسم الثالث : في مناقب من أدركناهم من العلماء العاملين من أهل المذاهب الأربعة ، رضي الله عنهم .

فعليك يا أخي بالاقتداء بهم ؛ فإنهم مصابيحُ الدُّجىٰ ، ولا يحجبك عن الاقتداء بهم حجابُ المعاصرة في هٰذا الزمان الذي أظلمتْ فيه الدنيا بالنسبة لمن كانوا قبلنا ؛ وذلك ليستضيء أهلُ عصرهم بأنوارهم ، ويتعطَّروا بنفحات أخلاقهم وصفاتهم ، وما كانوا عليه من الزهد والورع في الدنيا عما حرَّم الله تعالىٰ عليهم ، وكثرةِ الخوف من الله تعالىٰ .

وليعلم أهلُ الدعوىٰ للعلم والصلاح في هٰذا الزمان : بأنَّ أحوالَ من مضىٰ أوائل القرن العاشر كانوا علىٰ غاية الكمال ، بخلاف حالِ غالب الناس اليوم ، حتىٰ إني سمعتُ بعضَهم يقول : أَنا بحمد الله أكملُ في المقام من أشياخي .

وسمعت بعضَهم يقول : إن كان الأشياخُ الذين مضوا مثلَ مشايخ زماننا ففي سبيل الله بناءُ الأضرحة والقباب لهم .

وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب « الأخلاق والمنن » ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

ولنشرع في مقصود الكتاب مبتدئين بنبذة صالحة من أخلاقه صلى الله عليه وسلم تبركاً ، فأقول وبالله التوفيق :

نبذة عن أخلاق النبي ﷺ

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أورعَ الناس ، وأزهدَ الناس ، وأعلمَ الناس ، وأكرمَ الناس ، وأعبدَ الناس ، وأعزَّ الناس ، وأبعدَهم عن مواضع الريب .

وكان إذا وعظَ الناسَ لا ينصُّ علىٰ أحدٍ معيَّنٍ خشيةَ أن يُخجله ، وإنما يقول : « مَا بالُ أقوامٍ يفعلونَ كذا ، أو يقولونَ كذا »[1]

وكان صلى الله عليه وسلم أقنعَ الناس ، فربما أكلَ كفّاً من حشفٍ واكتفىٰ به[2] ، وربما لم يجدْ شيئاً ، فيطوي الليالِيَ والأيامَ ولا يُعلِمُ أحداً بذلك .

وكان إذا دخل الخلاء يتقنَّعُ بردائه حياءً من الله عز وجل مع أنَّ الأرض كانت تبتلع ما يخرج منه .

وكان يقول : « اللهمَّ ؛ لا تُرني في أمتِي سوءاً »[3] ، وقد استجابَ اللهُ سبحانه

---

(١) فمنها : ما رواه البخاري (٤٥٦) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما بال أقوام يشترطون. . . » ، ومنها أيضاً : ما رواه البخاري (٧٥٠) أن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة » ، ومنها : ما رواه مسلم (١٤٠١) عن سيدنا أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا » .

(٢) **الحشف من التمرِ** : أردؤه ؛ وهو الذي يجفُّ ويَصْلُبُ ويتقبَّضُ قبل نضجه ، فلا يكون له نوىٰ ، ولا لحاء ، ولا حلاوة ، ولا لحم . « المعجم الوسيط » (ح ش ف) .

(٣) روىٰ مسلم في « صحيحه » (٢٠٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم : تلا قول الله عز وجل في إبراهيم : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي . . . ﴾ الآية ، وقال عيسىٰ عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فرفع يديه وقال : « اللهم ؛ أمتي أمتي » وبكىٰ ، فقال الله عز وجل : « يا جبريل ؛ اذهب إلىٰ محمد وربك أعلم ، فسله ما يبكيك ؟ » فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله : « يا جبريل ؛ اذهب إلىٰ محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك » .

قال النووي في « شرحه » (٣/ ٧٨) : (هـٰذا الحديث مشتمل علىٰ أنواع من الفوائد ؛ **منها** : =

دعاءه في ذلك ، فلم يُره اللهُ في أمته سوءاً حتىٰ قُبض .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يمدُّ قطُّ عينيه إلىٰ شيءٍ من متاع الدنيا ، ولم يقعْ منه قطُّ خائنةُ الأعين .

وكان لا يغتسلُ قطُّ عرياناً ، ولو في ليلٍ حياءً من الله وملائكته .

وكان صلى الله عليه وسلم يلبسُ ما وجدَ ، فمرَّةً شملةً ، ومرةً بردَ حبرةٍ يمانياً ، ومرةً جبةً صوفاً ، ما وجدَ من المُباح لبسَ .

وكان صلى الله عليه وسلم أشدَّ الناس تواضعاً .

وكان يُردفُ خلفه عبدَهُ أو غيره ، وتارةً يردفُ خلفه وأمامه وهو في الوسط ، كما كان يفعلُ مع الحسن والحسين .

وكان يركبُ ما وجدَ ، فمرَّةً فرساً ، ومرة بعيراً ، ومرة بغلةً ، ومرَّة حماراً ، ومرة يَمشي حافياً راجلاً بلا رداءٍ ولا قَلَنْسُوة ؛ ليعودَ المرضىٰ في أقصى المدينة .

وكان صلى الله عليه وسلم يحبُّ الطيبَ ، ويكرهُ الرائحةَ الرديئة .

وكان يُؤاكلُ الفقراء والمساكين ، ويفلي لهم ثيابهم .

وكان يُكرم أهلُ الفضل على اختلاف طبقاتهم ، ويتألَّفُ أهلَ الشرف بالإحسان إليهم .

وكان يُكرم ذوي رحمه من غير أن يُؤثرَهُم علىٰ من هو أفضل منهم .

وكان لا يجفو علىٰ أحدٍ بقولٍ ولا فعلٍ ، ولو فعلَ معه ما يبيح الجفا .

وكان صلى الله عليه وسلم يقبلُ عذرَ المعتذر ، ويمزحُ مع الصبيان والنساء ، ولا يقولُ إلا حقّاً .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا ضحك تبسَّمَ من غير صوت .

= بيان كمال شفقة النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ أمته واعتنائه بمصالحهم واهتمامه بأمرهم ، **ومنها** : البشارة العظيمة لهٰذه الأمة) ، ثم قال : (وأما قوله تعالىٰ : « ولا نسوءك » فقال صاحب التحرير : هو تأكيد للمعنىٰ ؛ أي : لا نحزنك) .

وكان يرى اللعبَ المُباح فلا يُنكره ، وتُرفع عليه الأصواتُ بالكلام الجافي فيحتمله .

وكان لا يُؤاخذُ من أساء ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولـٰكن يعفو ويصفح .

وكان صلى الله عليه وسلم له خدمٌ لا يرتفعُ عليهم في مأكلٍ ولا ملبس ، وكان يأكلُ هو وإياهم في إناءٍ واحد .

وكان منديلُهُ باطنَ قدميه في أكثرِ أوقاته .

وكان يُجيبُ من دعاه إلىٰ وليمةٍ ، ويشهدُ جنائزَ المسلمين مَنْ عرفهم ومن لم يعرفهم .

وكان صلى الله عليه وسلم مُقبلاً علىٰ عبادة ربِّهِ ليلاً ونهاراً ، لا يمضي له وقتٌ في غير عملٍ لله عز وجل ، أو فيما لا بدَّ له منه من إصلاح نفسه أو المسلمين .

وكان يخرجُ إلىٰ بساتين أصحابه ، فيأكلُ منها ، ويحتطبُ ، ثم يحملُ الحطب إلىٰ بيته .

وكان لا يحقرُ مسكيناً لفقره ، ولا يهاب مَلكاً لملكه ، يدعو هـٰذا وهـٰذا إلى الله عز وجل دعاءً واحداً .

وكان أرحمَ الخلق بالخلق ؛ إذا وقع منه شتمةٌ لأحدٍ تأديباً قال : « اللهمَّ ؛ اجعلْها عليهِ كفارةً وطهوراً ورحمةً »[1] ، ولم يلعن رسولُ صلى الله عليه وسلم قط امرأةً ولا خادماً ولا بعيراً .

وكان إذا سئل أن يدعو علىٰ أحدٍ عَدَلَ عن الدعاءِ عليه ودعا له ، وما ضرب بيده قطُّ امرأة ولا خادماً ولا غيرَهما إلا أن يكونَ في الجهاد .

وكان إذا دعا الخادمَ ولم يُجبه قال له : « لولا خشيةُ القصاصِ يومَ القيامةِ لأوجعتُكَ بهـٰذا السواكِ »[2]

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦١) بلفظ : « اللهمَّ ؛ فأيُّما مؤمنٍ سببتُهُ فاجعل ذلك له قربةً إليك يوم القيامة » عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه مسلم (٢٦٠٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (١٨٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٧٨) ، =

وكان لا يدعوه صلى الله عليه وسلم أحدٌ من حرٍّ أو عبدٍ أو عجوز أو أَمَةٍ إلا قام معه في حاجته جبراً لخاطره .

وكان لا يعيبُ مضجعاً قط ، وكانوا إذا فرشوا له شيئاً اضطجع عليه أو جلس ، وإن لم يفرشوا له شيئاً اضطجع على الأرض أو جلس .

وكان صلى الله عليه وسلم هيِّناً ليِّناً ليس بفظٍّ ولا غليظ ، ولا صخَّابٍ بالأسواق ؛ أي : صياح فيها .

وكان يبدأ بالسلام كلَّ من لقيه من المسلمين ، وإذا أخذ أحدٌ بيده صلى الله عليه وسلم سايره حتىٰ يكونَ ذلك الشخصُ هو المفارقَ له

وكان إذا لقي أحداً من أصحابه صافحه ، ثم أخذ بيده فشابكه ، ثم شدَّ قبضته علىٰ يده كعادة العرب .

وكان لا يقومُ ولا يجلس إلا علىٰ ذكرِ الله عز وجل .

وما جاءه صلى الله عليه وسلم أحدٌ وهو يُصلِّي إلا خفَّفَ صلى الله عليه وسلم الصلاة ، ثم قال له : « ألكَ حاجةٌ ؟ »[1] ، فإنْ كان له حاجةٌ قضاها له وعاد إلىٰ صلاته .

وكان جلوسُه صلى الله عليه وسلم أن ينصب ساقيه جميعاً ، ويمسك بيده عليهما شبهَ الحبوة .

وكان صلى الله عليه وسلم يجلس حيث انتهىٰ به المجلس ، فلم يكنْ له مجلسٌ يُعرف فيه من بين أصحابه ، فكان الغريبُ إذا جاءَه يسألُ عن أمر دينه لا يعرفُهُ ، فيُكلِّمُ

= والطبراني في « الكبير » (٢٣/٢٧٦) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٦٩٤٤) عن السيدة أم سلمة رضي الله عنها

(١) أورده الغزالي في « الإحياء » (٣/٤١٩) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) ، قال الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » [(٧/١٠٩)] : (قلت : ولكن روىٰ أحمد في « مسنده » [(٣/٥٠٠)] ، عن رجل من الصحابة قال : كان مما يقول للخادم : « ألك حاجة ؟ » وهـٰذا يدل إذا جاءه الخادم ووجده في الصلاة كان يخفف ويقبل عليه بالسؤال عن الحاجة) .

أصحابَهُ في شيءٍ يتميَّز به ، فجعلوا له دكاناً من طينٍ يجلسُ عليهِ[١] ، وفرشوا له عليه حصيراً من خُوص النخل .

قال أنس : (وما رأيتُهُ صلى الله عليه وسلم قطُّ مادّاً رجليه يُضيِّقُ بهما على أحدٍ إلا أن يكونَ المكان واسعاً) .

وكان يجلسُ إلى القبلة ويقول : « إنَّهُ سيِّدُ المجالسِ »[٢]

وكان يُكرمُ كلَّ داخلٍ عليه ، ويؤثره بالوسادة التي تكون تحته ، فإن أبى أن يقبلَ عزم عليه حتى يقبلَها ، وربما بسطَ ثوبَهُ أو رداءه لمن ليستْ بينه وبينه قرابةٌ ولا رضاعٌ يجلسه عليه .

وكان يُلاعبُ الحسنَ والحسينَ ، وربما اركبَهما على ظهره صلى الله عليه وسلم ، ويمشي بهما على يديهِ ورجليه ، ويقول : « نعمَ الجملُ جملُكما ، ونعمَ العدلانِ أنتُما »[٣]

وكان صلى الله عليه وسلم يُعطي كلَّ جليسٍ حظَّهُ من البشاشة ، حتى يظنَّ ذلك الجليسُ أنَّه أكرمُ عليه من جميع أصحابه .

وكانت عيناه صلى الله عليه وسلم تهملان من الدموع في أكثر أوقاته ، حتى كأنَّه قريبُ عهدٍ بمصيبة .

وكُسفتِ الشمسُ مرةً ، فجعل صلى الله عليه وسلم يدخل ويخرج من بيته ويبكي ويقول : « يا ربِّ ؛ ألمْ تعدني ألا تعذِّبَهم وأنا فيهِمْ وهمْ يستغفرونَ ؟! ونحنُ نستغفرُكَ يا ربِّ »[٤]

---

(١) الدُّكان : المصطبة .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٢٣٥٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٥٢) عن سيدنا جابر رضي الله عنه ، قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ٢٩١) : (وفيه مسروح أبو شهاب ، وهو ضعيف) .

(٤) أخرجه أبو داود (١١٩٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، وفيه بعد قوله : « وأنا فيهم » : « ألم تعدني ألا تعذبهم وهم يستغفرون ؟! » .

وكان صلى الله عليه وسلم أكثرَ الناس تبسُّماً ما لم ينزلْ عليه قرآنٌ ، أو يذكر القيامة ، أو يخطب الناس .

وكان أحبُّ الطعام إليه ما كثرتْ عليه الأيدي

وكان صلى الله عليه وسلم لا يأكلُ الحارَّ ويقول : « أبردُوه ثم كلُوا ؛ فإنَّ اللهَ لمْ يطعمْنا ناراً »[١] ، وفي رواية : « إنَّ الحارَّ غيرُ ذي بركةٍ »[٢]

وكان يأكل القثَّاءَ بالرطب وبالملح .

وكان صلى الله عليه وسلم أحبُّ الفواكه الرطبة إليه الرُّطبَ والعنبَ .

وكان صلى الله عليه وسلم يأكلُ البِطيخ بالخبز وبالسكر ، وربما أكله بالرطب ، ويستعين باليدين جميعاً .

وكان صلى الله عليه وسلم يأكلُ العنبَ خرطاً[٣] يُرىٰ [رؤاله] علىٰ لحيته كخرز اللؤلؤ[٤] ، وهو الماءُ الذي يتقاطرُ منه .

وكان صلى الله عليه وسلم يجمع التمرَ باللبن ويُسميهما الأطيبين .

وكان أكثرُ طعامه التمرَّ والماءَ .

وكان صلى الله عليه وسلم أحبُّ الطعام إليه اللحمَ من غير إكثارٍ منه ، ويقول : « إنهُ يزيدُ في السمعِ ، وهوَ سيِّدُ الطعامِ في الدنيا والآخرةِ »[٥]

وكان صلى الله عليه وسلم يأكلُ الثريد باللحم والقرع ، ويحبُّ القرعَ ، ويقول :

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٧٠١٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦٢٠٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٣٢) عن سيدنا جابر رضي الله عنه ، وانظر « كشف الخفا » (٣٦) .

(٣) **خرط العنقود واخترطه** : إذا وضعه في فيه ، ثم يأخذ حبَّهُ ، ويخرج عرجونه عارياً منه . « النهاية » (خ ر ط) .

(٤) في النسخ : (زواله) ، **والرؤال** : الماء الذي يتقاطر منه

(٥) أورده المتقي الهندي في « كنز العمال » (٤١٠٥٤) وعزاه للحاكم في « تاريخه » عن سيدنا صهيب رضي الله عنه .

« إنهُ شجرةُ أخي يونسَ عليهِ السلامُ »[١]

وكان صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة : « إذا طبختِي دبَّاءَ فأكثِري من مرقتِها ؛ فإنَّهُ يشدُّ قلبَ الحزينِ »[٢]

وفي هـٰذا القدر كفاية ، وقد بسطتُ الكلامَ علىٰ أخلاقه صلى الله عليه وسلم أول كتاب « العهود المحمدية » وأواخر كتاب « كشف الغمة عن جميع الأمة » ، فراجعهما ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

ولنشرع في ذكر أولياء هـٰذه الأمة ، فنقول وبالله التوفيق :

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٢٠) بلفظ : « فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يتتبع الدُّبَّاءَ » ، ومسلم (٢٠٤١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، بلفظ : « يحبُّ القرع » ، وابن ماجه في « سننه » (٣٣٠٢) ، وانظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٧٤٠) .

(٢) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (٩٥٦) .

القسم الأول

في ذكر مناقب بعض الصحابة رضي الله عنهم

القسم الأول

وهو من أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكرَّم وجهه إلىٰ جدِّي الأدنى الشيخ عليٍّ رحمه الله تعالىٰ .

فأولهم وأفضلُهم على القطعِ والتحقيق :

(٢) الإمام أبو بكر الصديق رضي الله عنه[1]

كانوا يشمُّون من جوفه رائحةَ الكبد المشويِّ من شدَّة الخوف من الله عز وجل .

وكان رضي الله عنه يقول : (أكيسُ الكيس التقوىٰ ، وأحمقُ الحمق الفجور ، وأصدقُ الصدق الأمانة ، وأكذبُ الكذب الخيانة) .

وكان رضي الله عنه يحتاطُ في مأكله ومشربه وملبسه أشدَّ الاحتياط .

وكان إذا أكلَ طعاماً فيه شُبهةٌ ، ثم علمَهُ استقاءَ من بطنه ، ثم يقول : (اللهم ؛ لا تُؤاخذني بما شربَتْهُ العروقُ ، وخالطَ الأمعاء) .

وكان يقول : (إن هـٰذا الأمرَ لا يصلحُ آخرُه إلا بما يصلحُ أوله ، وهو السيف) .

وكان إذا وعظ أحداً يقول له : (إنْ أنت حفظتَ وصيَّتي فلا يكن غائبٌ أحبَّ إليك من الموت ، وهو آتيك) .

وكان يقول : (إنَّ العبدَ إذا دخلَ قلبَه العُجبُ بشيءٍ من زينة الدنيا مقته اللهُ حتىٰ يُفارقَ تلك الزينة) .

وكان يقول : (يا معشر المسلمين ؛ استحيوا من الله ، فوالذي نفسي بيده ؛ إني لأدخلُ الخلاءَ ، فأتقنَّعَ بردائي حياءً من الله عز وجل) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٢٧) (١) ، وجاء في هامش النسخة (ج) بعد أن ذكر نسب سيدنا أبي بكر : (كذا في النسخة التي قال المصنف : إنه فرغ في تبييضها في خامس عشر شهر رجب سنة اثنين وخمسين وتسع مئة ، وهي متقدمة علىٰ تبييض هـٰذه النسخة بأربع عشرة سنة) .

وكان يأخذُ بطرف لسانه ويقول : (هٰذا الذي أوردني المواردَ) .

وكان فمُهُ لم يزلْ فيه حجرٌ ، ويقول : (إنَّه يُذكِّرني بالسكوت) .

وكان إذا سقطَ خطامُ ناقته يُنيخُها ، ثم يأخذُهُ ، فيُقال له : هلا أَمرتنا نناوله لك ، فيقول : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني ألا أسألَ الناسَ شيئاً .

ولما تولَّى الخلافةَ قال للصحابة : (قد وُلِّيتُ أمركم ، ولستُ بأخيركم ، فأعينوني ، وإذا رأيتموني استقمتُ فاتَّبعوني ، وإذا رأيتموني زغتُ ، فقوِّموني) .

توفي رضي الله عنه بين المغرب والعشاء ثاني عشرين جُمادى الآخرة سنة ثلاثَ عشرةَ من الهجرة ، وهو ابنُ ثلاثٍ وستين سنة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣) الإمام عمر بنُ الخطاب رضي الله عنه[١]

كان من أكثر الناس علماً وزهداً وتواضعاً ورفقاً بالمسلمين ، وتعظيماً لآثارِ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأتاه ابنُهُ يوماً فقال له : قد تخرَّقَ إزاري ، فقال : نكِّسْهُ بعد قطعه ، وإياكَ أن تكون يا ولدي من الذين يجعلون ما رزقهم اللهُ تعالىٰ في بطونهم وعلىٰ ظهورهم .

وكان يقول لأهله : (لا تنخلوا الدقيقَ ؛ فإنه طعامٌ كلُّهُ) .

وكان كثيراً ما يُدني يده من النار ويقول : (يا عمر ؛ ألك صبرٌ علىٰ هٰذا ؟! لا والله) .

وكان لا يجمعُ في سِماطه بين أُدمين .

وصبَّت ابنتُهُ حفصةُ رحمها الله له مرةً زيتاً علىٰ مرقٍ بارد ، فقال : إداماان في إناءٍ واحد ؟! فلا آكله حتىٰ ألقى الله عز وجل .

وكان في قميصه أربعُ رقاع بين كتفيه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٢٨) (٢) .

وكان إزارُهُ مَرقوعاً بقطعةٍ من جراب ، وأما قميصُهُ فكان فيه أربع عشرَة رقعة ؛ إحداها من جلدٍ أحمر .

ولما خرجَ مرَّةً للعمرة قال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لا تَنسنَا يا أُخيَّ منْ دعائِكَ »[١]

وكان من أكثر الصحابة احتمالاً

وكان أكثرَهم اهتماماً بأمر المسلمين حتىٰ كادَ يهلك .

وكان يأتي المجزرة كلَّ يومٍ ومعه الدِّرَّةُ ، فكلُّ من يراه يشتري اللحمَ يومين متتابعين يضربُهُ بالدِّرَّةِ ، ويقول له : هلا طويتَ بطنك لجارك وابن عمك ؟!

وأبطأ يوماً عن الخروج لصلاة الجمعة ، ثم خرج ، فاعتذر إلى الناس ، وقال : إنما حبسني عنكم غسلُ ثوبي هٰذا ، كان يُغسل ، وليس عندي غيره .

وخطبَ الناس يوماً فقال : أيُّها الناس ، اسمعوا نُصحي ، فقال له حذيفة والله ؛ لا نسمعُ لك نصحاً ، فقال له : لمَ ؟! فقال : لأنَّ عليك ثوبين ، وعلىٰ كلِّ واحدٍ منَّا واحدٌ ، فصاحَ بأعلىٰ صوته على المنبر لولدِهِ عبدِ الله ، فأجابه ، فقال : أنشدك بالله ، أما هٰذا الثوبُ الذي عليَّ ثانياً لك ؟! فقال : نعم ، فقال له حذيفة : قلِ الآن نسمعْ لك .

وكان إذا وجد في نفسِهِ عُجباً بالخلافة يَحملُ الحطبَ من السوق بنفسه .

وحملَ مرَّةً قربةَ ماء ، وخرج بها ، وطاف بها في الناس ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنَّ نفسي أعجبتني فأردتُ أن أذلَّها

ولما قدمَ الشام تلقَّاه أبو عبيدة بنُ الجراح علىٰ بَكْرٍ خطامُهُ حبل[٢] ، ففرح به عمر وقال : الحمدُ لله الذي لم تُغيِّرِ الولايةُ صاحبي ، فمسك أبو عبيدة يدَ عمر فقبَّلَها .

ولما ولي عمر الخلافة كان لا ينام ليلاً ولا نهاراً ، ويقول : (إن نمتُ في النهار

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٨) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (١/ ١٢٩).

(٢) البَكْر : الفتيُّ من الإبل .

ضيَّعتُ الرعية ، وإن نمتُ في الليل ضيَّعتُ نفسي) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنَّ نفسي تشتهي خروفاً مشوياً في التنور ؛ ولـٰكنَّ خوفَ الحساب يوم القيامة يمنعني من ذلك) .

وكان ربَّما يَشتهي شهوةً بدرهم ، فيؤخِّرُها سنةً كاملة مجاهدةً لنفسه .

وكان رضي الله عنه يقول : (من خافَ من الله لم يشفِ غيظه ، ومن اتَّقى الله لم يصنعْ ما يُريد) .

وصعِدَ المنبرَ يوماً فقال : الحمدُ لله الذي صيَّرني ليس فوقي أحدٌ ، ثم نزل ، فقيل له : ما حملك على هـٰذا ؟! فقال : إظهاراً لشكرِ الله عز وجل .

وحجَّ رضي الله عنه من المدينة إلىٰ مكة ، فلم تُضربْ له خيمةٌ ولا خباءٌ حتىٰ رجع .

وكان إذا نزلَ منزلاً يُلقىٰ له كساءٌ أو نِطعٌ علىٰ شجرةٍ ، فيستظلُّ بذلك .

وكان رضي الله عنه أبيضَ تعلوه حمرةٌ ، وإنما صار في لونِهِ سمرةٌ من عام الرمادة[1] حين أكثر من أكلِ الزيت توسعةً على الناس في زمنِ الغلاء ، فترك اللحمَ واللبن والسمن ، وكان قد حلفَ ألا يأكلَ غيرَ الزيت حتىٰ يوسِّع اللهُ على المسلمين ، وكانت أيام الغلاءِ تسعةَ أشهر ، وكانتِ الأرضُ قد صارت سوداءَ مثلَ الرماد ، وكان يخرجُ يطوف بالبيوت ويقول : من كان مُحتاجاً فليأتنا .

وكان يقول : (اللهم ؛ لا تجعلْ هلاكَ أمَّةِ محمدٍ في أيامي) .

وكان رضي الله عنه يبكي حتىٰ صارَ له خطَّان أسودان من كثرةِ الدموع .

وكان إذا مرَّ بالآية في ورده خنقه البكاءُ حتىٰ يسقطَ ، ثم إنه يلزمُ البيتَ حتىٰ يصير يُعادُ كالمريض ، وكانوا يسمعون خنينَهُ من وراء ثلاث صفوف .

---

(١) **عام الرمادة** : كانت سنة ثماني عشرة ، أصاب الناسَ مجاعةٌ شديدة ، وجدب وقحط ، وكانت الريح تسفي تراباً كالرماد ، فسمي عامَ الرمادة ، واشتد الجوع حتىٰ جعلت الوحش تأوي إلى الإنس ، وحتىٰ جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها ، وفيه كان طاعون عمواس . انظر « الكامل في التاريخ » (٢/ ٣٧٤) .

وكان يقول : (ليتني كنتُ كبشَ أهلي ، فسمَّنوني ما بدا لهم ، ثم ذبحوني ، فأكلوني ، فأخرجوني عذرةً ، ولم أكن بشراً) .

ولما حضرته الوفاةُ قالوا له : استخلفْ ولدَك عبدَ الله ، فقال : يكفي واحدٌ من آل الخطاب يأتي يومَ القيامة ويداه مغلولتان إلىٰ عنقه[(١)]

وكان رأسُه في حِجْرِ ولده عبد الله ، فقال له : ضعْ رأسي على الأرض ، فقال : لا فرق بين حجري وبين الأرض ، فقال : ضعْ رأسي ؛ لعلَّ اللهَ أن يرىٰ ذُلّي فيرحمني ، ثم قال : وددتُ أني أخرجُ من الدنيا كما دخلتُ لا أجرَ ولا وزرَ ، ثم بكىٰ وقال : يا ربِّ ، قد كَبُرَ سنِّي ، وضعفتْ قوّتي ، وانتشرتْ رعيتي ؛ فاقبضني إليك غيرَ مضيِّعٍ ولا مفرِّط ، فلما مات رآه العباسُ رضي الله عنه ، فقال له : كيف وجدتَ الأمر ؟ فقال : كادَ عرشُ عمرَ يهوي به لولا أنَّه وجد ربّاً رحيماً

وكان رضي الله عنه إذا مرَّ علىٰ مزبلةٍ يقفُ عندها ويقول : (هٰذه دنياكم التي تَحرصون عليها) .

وكان يبكي ويقول : (ليتني لم أخلق ، ليت أمي لم تلدني ، ليتني لم أك شيئاً ، ليتني كنتُ نسياً منسياً) .

وكان أحبُّ التهجُّدِ إليه وسطَ الليل .

وكان إذا حصلَ بالناس همٌّ يخلعُ ثيابه الحسنة ، ويلبس ثوباً خشناً قصيراً لا يكادُ يبلغُ ركبتيه ، ثم يرفعُ صوتَهُ بالبكاء والاستغفار والتضرُّعِ حتىٰ يُغشىٰ عليه .

وكان يحملُ جرابَ الدَّقيقِ علىٰ ظهره للأرامل والأيتام ، فقال له بعضهم : دعني أحملْ عنك ، فقال : ومَنْ يحملُ عني ذنوبي يوم القيامة ؟!

وأحواله مشهورةٌ كثيرة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) أخرج أحمد في « مسنده » (٥/ ٣٢٣) عن سيدنا عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من أمير عشرة إلا يُؤتىٰ به يوم القيامة مغلولاً ، لا يفكُّه منه إلا عدلُهُ » .

ومنهم :

(٤) الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه[١]

كان من أعبدِ الصحابة .

ولما حصروه استسلمَ لربِّه عز وجل ، وكان مدةُ حصاره تسعةَ وأربعين يوماً ، ثم قتلوه والمصحفُ مفتوحٌ بين يديه ، وهو يقرأُ ، فطار الدمُ من مخِّهِ على المصحف .

وكان رضي الله عنه من أشدِّ الناس خوفاً وحياءً .

وكان إذا اغتسلَ لا يُقيم صلبَهُ ، مع أنه كان لا يغتسلُ إلا وعليه قميصٌ .

وكان يصومُ النهار ، ويقوم الليل إلا هجعةً من أوله .

وكان كثيراً ما يختمُ القرآن في ركعةٍ واحدة

وكان يخطبُ الناسَ وعليه إزارٌ غليظ ثمنُهُ أربعةُ دراهم .

وكان يُطعم الناس طعامَ الإمارة ، ثم يدخلُ بيتَهُ فيأكل الخلَّ والزيت .

وكان إذا ركبَ أردفَ غلامَهُ خلفه ، ولا يستعيبُ ذلك .

وكان إذا مرَّ على المقابر يبكي حتىٰ تبتلَّ لحيتُهُ ، رضي الله عنه .

ومناقبه وأحواله كثيرة مشهورة .

ومنهم :

(٥) الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

كان أكثرَ الصحابة نطقاً بالحكمة .

وكان يقول : (الدنيا جيفةٌ ؛ فمن أرادَ منها شيئاً فليصبرْ علىٰ مُخالطة الكلاب) .

وكان أبو عبيدة يقول : (ارتحلَ الإمامُ علي بنُ أبي طالب رضي الله عنه عن تسع

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٣١) (٣) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٣٢) (٤) .

كلمات قطعَ بهنَّ الأطماعَ عن اللحاق بواحدةٍ منهن ؛ ثلاثٌ في المناجاة ، وثلاثٌ في العلم ، وثلاثٌ في الأدب ؛ فأما التي في المناجاة فهي قوله : كفاني عزّاً أن تكونَ لي ربّاً ، وكفاني فخراً أن أكون لك عبداً ، أنت لي كما أحبُّ ، فوفِّقني لما تُحبَّ ، وأما التي في العلمِ فهي قوله : المرءُ مَخبوءٌ تحت لسانه ، وقوله : تكلَّموا تُعرفوا ، وقوله : ما هلك امرؤٌ عرف قدرَهُ[1] ، وأما التي في الأدب فهي قوله : أنعمْ على من شئت تكن أميرَهُ ، واستغن عمن شئت تكنْ نظيرَه ، واحتجْ إلىٰ من شئت تكنْ أسيره) .

وكان رضي الله عنه يحلفُ ويقول : (واللهِ ؛ لا يُحبُّني إلا مؤمنٌ ، ولا يُبغضني إلا منافق) .

وكان رضي الله عنه يقول : (موتُ الإنسان بعد أن كبرَ وعرفَ ربَّهُ خيرٌ من موته طفلاً بلا حسابٍ في الآخرة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أعلمُ الناس بالله أشدُّهم حبّاً وتعظيماً لأهلِ لا إلـٰه إلا الله) .

وقيل له مرَّةً : ألا نحرسُكَ يا أمير المؤمنين ؟ فقال : حارسُ كلِّ إنسانٍ أجلُهُ .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا كان يوم القيامة أتتِ الدنيا بأحسن زينتها ، ثم تقول : يا ربِّ ؛ هبني لبعضِ أوليائك ، فيقول الله عز وجل لها : اذهبي يا لا شيءَ ، فلأنتِ أهونُ من أن أهبَكَ لبعضِ أوليائي ، فتُطوىٰ كما يُطوى الثوب الخَلَق ، ثم تُلقىٰ في النار) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يَرجوَنَّ العبدُ إلا ربَّهُ ، ولا يخافنَّ إلا ذنبه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يَستحي أن يَسألَ عما لا يعلمُ إلا جاهلٌ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أخوفُ ما أخاف عليكم اتِّباع الهوىٰ ، وطولَ الأمل) .

---

(١) في (ز) : (ما خاب) بدل (ما هلك) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الفقيه كل الفقيه من لم يقنِّطِ الناسَ من رحمة الله ، ولم يؤمِّنهم من مكرِ الله ، ولم يرخِّص لهم في معاصي الله ، ولم يتركِ التهجُّدَ بالقرآن في الليل) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كونوا مصابيحَ الليل ، خلقان الثياب ، جددَ القلوب ، تُعرفون به في ملكوت السماء ، وتُعرفون به في الأرض) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لو حننتم حنينَ الواله الثكلان ، وجَأَرتُم جُؤَار مُبتلَى الرهبان ، ثم خرجتم من أموالكم وأولادكم في طلبكم من الله غفران سيئةٍ واحدة . . لكان ذلك قليلاً في جنب ما تطلبون)[١]

وكان رضي الله عنه يقول : (خيرُ القلوب أوعاها للخير ، ثم يتنهَّدُ ويقول : هاه هاه ، إنَّ ها هنا لعلوماً لو أصبنا لها حملةً) ، ويُشير إلىٰ صدره .

وقُدِّم له مرةً فالوذجاً ، فوُضع بين يديه ، فقال : إنَّك طيِّبُ الريح ، حسنُ اللون ، طيِّبُ الطعم ، ثم تركه وقال : أكره أن أعوِّدَ نفسي ما لم تعتد ، فلما قُتل عثمان ، ونُهبتِ الدار لم يأكل طعاماً إلا مختوماً ؛ حذراً من الشبهة ، وكان قوتُهُ وكسوته يأتيانه من المدينة .

وكان رضي الله عنه يرقِّعُ قميصَهُ ، ويقول : (لبسُ المرقَّع يُخشِعُ القلبَ ، ويقتدي به المؤمن) .

وكان يقطعُ من كمِّ قميصه ما زاد علىٰ رؤوس الأصابع ، وكذلك كان عمرُ يفعل رضي الله عنهما .

وكان رضي الله عنه يبردُ في الشتاء حتىٰ ترتعدَ أعضاؤه من البرد ، فقيل له : ألا نأخذُ لك كساءً من بيت المال ؟! فقال : لا

وكان رضي الله عنه يقول : (التقوىٰ : هي تركُ الإصرار على المعصية ، وتركُ الاغترار بالطاعة) .

---

(١) أخرج الخبر أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٧) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لم يبقَ من الدنيا شيءٌ أستأنسُ به سوى الليل وظلمته) .

وكان يُحاسبُ نفسه على كلِّ شيءٍ ، ويُعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطَّعامِ ما غلظ .

وكان طولَ ليله يُصلِّي ولا يهجع إلا قليلاً

وكان يقبضُ على لحيته ، ويتململُ تململَ السقيم ، ويبكي بكاءَ الحزين حتى يصبحَ .

وكان يُخاطب الدنيا ويقول : (يا دنيا ؛ غرِّي غيري ؛ فإني قد طلَّقتُكِ ثلاثاً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (آهِ آهِ من قلة الزاد ، وبُعدِ السفر ، ووحشة الطريق) .

وكان يقول : (من أشدِّ الأعمال مواساةُ الأخ في المال) .

وكان يقول : (ما نلتَ من دنياك فلا تفرح به ، وما فاتكَ فلا تأسَ عليه ، وليكن همُّك فيما بعد الموت) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إن مع كلِّ إنسانٍ ملكين يحفظانه مما لم يقدَّر عليه ، فإذا جاءَ القدرُ خَليا بينه وبينه ، فليس للعبدِ جُنَةٌ حصينةٌ إلا الأجل) .

وكان آخرُ كلامه : لا إلـه إلا الله محمد رسول الله .

وكان رضي الله عنه ينشد كثيراً : [من الوافر]

حقيقٌ بالتَّواضعِ مَنْ يموتُ ... ويكفي المرءَ مِنْ دنياه قوتُ
فما للمرءِ يُصبحُ ذا هُمومٍ ... وحرصٍ ليس يُدركهُ النعوتُ
فيا هـٰذا سَترحلُ عنْ قريبٍ ... إلى قومٍ كلامُهُمُ السُّكوتُ

إلى آخر ما قال رضي الله عنه .

ومنهم :

(٦) طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه[١]

كان ممن ثبتَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحدٍ ، ووقاه بنفسِهِ وبيده ، فشَلَّت يدُهُ ، وجُرح يومئذٍ أربعةً وعشرين جرحاً ، وسمَّاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « طلحةَ الخيرِ » .

وكان يتصدق بنحو المئة ألف في يوم وهو محتاج إلىٰ ثوب يخرج به إلى المسجد .

وكان رضي الله عنه يقول : (إن شخصاً تبيتُ عنده الدنانيرُ لا يَدري ما يطرقه من الله لمغرور) .

وكان إذا لم يجدْ من يَقبلُ نفقتَهُ تلك الليلة لا يأوي إلىٰ منزله إلى الصباح .

قُتل يومَ الجملِ سنة ستٍّ وثلاثين ، وقبرُهُ بالبصرة مشهور رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٧) الزبير بن العوام رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

كان من شجعان يوم بدر ، وقاتلَ قتالاً شديداً حتىٰ كانَ الرجلُ يُدخلُ يدَهُ في الجراحِ في ظهره وعاتقِهِ .

ولما حضرته الوفاةُ كان عليه من الدَّين مئتا ألف [وألفا] ألف[٣] ، وليس عنده وفاءٌ ، فقال له أولاده : ما نفعلُ في هـٰذا الدَّين ؟ فقال لهم : قولوا يا مولى الزُّبير ؛ اقض دينَهُ ، فقضاه الله عنه جميعاً .

وعُذِّبَ في الله عز وجل ليكفرَ به ، فأبىٰ ، وكان عمُّهُ يحرقُهُ بالنار ، ويقول له : اكفرْ بالله ، فيقول : لا أكفرُ بالله تعالىٰ أبداً .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٣٦) (٥) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٣٧) (٦)

(٣) في النسخ (ألفي) ، وفي (ي) وحدها : (مئتي ألف درهم) ، والمثبت من المصادر .

وكان له ألفُ مملوكٍ يؤدُّون إليه الخراجَ كلَّ يومٍ ، وكان يتصدَّقُ به آخر النهار في مجلسٍ ، ولا يقوم منه بشيء ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٨) سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه[1]

من أقوى الصحابة يقيناً ، ومن أكثرِهم إجابةً لدعائه .

ولما مرضَ للموت قال : يا ربِّ ؛ إنَّ لي بنين صغاراً ، فأخِّرْ عني الموت حتىٰ يبلغوا ، فأخَّره الله تعالىٰ عنه إلىٰ عشرين سنة ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون : ١١] .

ووقع بينه وبين خالد بن الوليد كلامٌ ، فذهب رجلٌ يقعُ في خالدٍ عنده ، فقال : إن الذي بيننا لم يبلغ ديننا .

ولما وقعت فتنةُ عثمان رضي الله عنه اعتزل الناسَ ، فلم يخرجْ من بيته .

وكان من أكثر الصحابة صدقةً على الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام .

وكان رضي الله عنه أشجعَ الناس ، رمىٰ يومَ أحدٍ بألفِ سهمٍ ، وأوصىٰ أن يُدفنَ في جبَّةٍ كان قد لقي المشركين فيها يوم بدر ، فكُفِّنَ فيها ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٩) سعيد بن زيد رضي الله عنه[2]

كان مجابَ الدعوة ، وكان يقول : (من أرادَ أن اللهَ يستجيبُ دعوتَه فلا يعصي ربَّهُ لا سرّاً ولا جهراً) .

وادَّعتْ عليه أروىٰ بنتُ أُويس عند مروان أنَّه أخذَ لها قطعةً من أرضها ، فقال

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٣٧) (٧) .
(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٣٨) (٨) .

سعيد : اللهم ؛ إن كانتْ كاذبةً فاعمِ بصرَها ، واقتلْها في أرضها ، فعميتْ ، ثم إنَّها وقعتْ في حفرةٍ من أرضها ، فماتت .

توفي رضي الله عنه بالعقيق ، وحُمل إلى المدينة ، فدُفنَ بها سنة خمسٍ وخمسين ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٠) عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه[1]

كان من أكثر الصحابة صدقةً على الفقراء والمساكين ، وربَّما تصدَّقَ بالسبع مئة راحلة بأقتابها وأحلاسها .

ولم يزل شديدَ الخوف من منذ قالَ له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إني رأيتُكَ دخلتَ الجنةَ حبواً ، فأقرضِ الله قرضاً حسناً يُطلقْ لكَ قدمَيكَ »[2] ، ثم إن جبريلَ عليه السلام نزلَ فقال : يا محمد ؛ مُرْ عبد الرحمـٰن فليضفِ الضيفَ ، وليطعمِ المسكينَ ، فإذا فعلَ ذلك كان كفارةً لما هو فيه .

وَرُوي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صلَّىٰ خلْفه ، وعمَّمَهُ مرَّةً بيده[3] ، وسدلَها بين كتفيه ، وقال : « إنَّهُ عبدٌ صالحٌ » .

وكان رضي الله عنه كثيرَ التواضع لا يُعرفُ من بين عبيده

توفي سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٣٨) (٩)

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣١١) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (١٦١٦) ، والبزار في « مسنده » (١٠٠٥) عن سيدنا عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه ، وقد شهد عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه بدراً والحديبية ، وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وصلَّىٰ خلفه .

(٣) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ٣٦٣) عن عطاءٍ الخراساني رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(١١) أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه يقول : (أَلا رُبَّ مبيِّضٍ لثيابه مُدنِّسٍ لدينه ، ألا رُبَّ مكرمٍ لنفسهِ وهو لها مهين) .

وكان يقول : (بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات ، فلو أنَّ أحدَكم عملَ من السيئات ما بين السماء والأرض ، ثم عملَ حسنةً واحدةً لعلتْ فوق سيِّئاته حتىٰ تقهرهنَّ) .

وكان يقول : (مثلُ المؤمن مثلُ العصفور ، يتقلَّبُ كلَّ يومٍ كذا كذا مرة) والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٢) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[٢]

كان صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكثرَ الناس دخولاً علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان صاحبَ وسادِهِ وسواكه ونعليه وطهوره في السفر .

وكانوا يشبِّهونَه برسول الله صلى الله عليه وسلم في هَدْيه ، وحسنِ سمته .

وكان من أحسنِ الناس ثياباً ، وأطيبهم ريحاً ؛ تعظيماً لخلطةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وحمله نعله .

وكان يُلبسُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نعليه ، ويَمشي أمامه بالعصا حتىٰ يُدخله حِجْر نسائه ، فإذا جلس صلى الله عليه وسلم نزعَ نعليهِ ، ثم أدخلهما في ذراعه تبرُّكاً بهما ، ثم أعطىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم العصا .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٣٩) (١٠) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٤٠) (١١) .

وكان رضي الله عنه دقيقَ الساقين ، فضحك بعضُ الصحابة مرَّةً من دقَّتِهما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسِي بيدِهِ ؛ لَهُما أثقلُ في الميزانِ منْ جبلِ أحدٍ »[١]

وكان حسنَ الصوتِ ، فكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يستمعُ لقراءته في الليل ويقول : « مَنْ سرَّهُ أنْ يقرأَ القرآنَ رطباً كما أُنزلَ ، فليقرأه على قراءةِ ابنِ مسعودٍ »[٢]

وكان رضي الله عنه قليلَ الصوم ، كثيرَ الصلاة ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني إذا صمتُ ضعفتُ عن الصلاة ، وهي عندي أهمُّ من الصوم .

وسمع رضي الله عنه مرَّةً رجلاً يقول : اللهم ؛ اجعلني من المقرَّبين ، ولا تجعلني من أصحابِ اليمين ، فقال عبد الله : ها هنا رجلٌ يودُّ أنه إذا ماتَ لا يُبعث ، يعني بذلك نفسَهُ مخافةَ يوم القيامة .

وكان إذا بكىٰ في الليل يلاقي دموعَهُ بكفَّيهِ ، ثم يرشُّ بدموعه على الأرض من كثرتها

وكان من أكره الناس للشُّهرة .

وخرج معه مرَّةً ناسٌ يشيِّعونه ، فزجرهم ، وقال : إنها ذلَّةٌ للتابع ، وفتنةٌ للمتبوع .

وكان يقول : (لو تعلمون من نفسي ما أعلم لحثيتم علىٰ رأسي التراب) .

وكان يقول : (حبذا المكروهان ؛ الموت ، والفقر) .

وكان يقول : (إن الرجلَ الدَّيِّنَ ليدخلُ على السلطان ، فلا يخرج ومعه شيءٌ من دينه ؛ وذلك لأنه يعصي الله ؛ إمَّا بفعله ، وإما بقوله ، وإما بسكوته) .

وكان يقول : (ما أصبحتُ قطُّ علىٰ حالةٍ فتمنَّيتُ أن أكونَ علىٰ سواها ؛ رضاً بما يفعلُ الله) .

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (١/ ١١٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣١٧) ، عن سيدنا قُرة رضي الله عنه ، وأبو يعلىٰ (٥٣١٠) عن سيدنا زر بن حبيش رضي الله عنه ، قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ٢٨٩) : (رواه البزار والطبراني ورجالهما رجال الصحيح) ، تقدم تخريجه (١/ ١٤٠) .

(٢) رواه ابن ماجه (١٣٨) ، وأحمد في « مسنده » (١/ ٢٦) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (١/ ١٤٠) .

وكان يقول : (لو أن رجلاً قامَ بين الركن والمقام سبعين سنة يعبدُ اللهَ عز وجل ، وهو يحبُّ الدنيا لبعثه اللهُ يومَ القيامة معها ، ولو أنَّ رجلاً عبد اللهَ كذلك سبعين سنة ، وهو يحبُّ ظالماً لبعثه الله يومَ القيامة معه) .

ولما مرضَ عاده عثمان بنُ عفان رضي الله عنه فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمةَ ربي ، قال : ألا نأمرُ لك بطبيبٍ ؟ قال : الطبيبُ أمرضني ، قال : ألا آمرُ لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي به ، قال : يكونُ لأولادك من بعدك ، قال : أتخشىٰ علىٰ أولادي الفقر وإني أمرتُهم أن يقرؤوا كلَّ ليلةٍ سورة الواقعة ، وإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « منْ قرأَ سورةَ الواقعةِ كلَّ ليلةٍ لمْ تُصبْهُ فاقةٌ أبداً »[1]

وكان يقول : (ليس العلمُ بكثرة الرواية ، إنما العلم بالخشية) .

وكان يقول : (ويلٌ لمن لا يعملُ بعلمه) ، سبع مرات .

قلتُ : يعني : أنه ما ليس له وقتٌ من العبادات التي تتكرَّرُ ، وإلا فالعبادات التي تتكرَّرُ ربما تزيد على الآلاف ، والله أعلم .

وكان يقولُ كثيراً : (ذهب صفوُ الدنيا وبقي كدرُها ، وصار الموتُ اليوم تحفةً لكلِّ مؤمن) .

وكان يقول : (لا يحلُّ أحدٌ بذروةِ الإيمان حتىٰ يكونَ الفقرُ أحبَّ إليه من الغنىٰ ، والذُّلُّ أحبَّ إليه من العزِّ ، ويستوي عنده ذامُّهُ ومادحُهُ) .

وفسَّر أصحابُهُ هـٰذه الجملة فقالوا : حتىٰ يكونَ الفقرُ في الحلال أحبَّ إليه من الغنىٰ في الحرام ، وحتىٰ يكونَ التواضعُ في طاعة الله أحبَّ إليه من الشرف في معصية الله ، وحتىٰ يكون ذامُّهُ ومادحُهُ عنده في الحقِّ سواء .

وكان يقول لأصحابه : (أنتم أكثرُ صلاةً واجتهاداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم كانوا أزهدَ منكم في الدنيا ، وأخوفَ منكم لله) .

---

(١) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (٢٢٦٨) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٨٠) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (١/ ١٤١) .

وكان يقول : من بلغَهُ ظلمُ ظالمٍ فرضيه فهو شريكُهُ يُحشر معه ، فقيل له : فإذا سكتَ عنه وهو غيرُ راض ؟ فقال : إنْ سكتَ مع قدرتِهِ على الكلام حُشر معه كذلك ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٣) خباب بن الأَرَت رضي الله عنه(١)

كان من أصبر الصحابة على التعذيبِ في دين الله عز وجل ، وعذَّبوه بالنَّارِ وغيرها ثلاثةَ أيام ليرجعَ عن دين الإسلام ، فلم يرجع .

ولما اتَّسعتْ عليه الدنيا كان يبكي ويقول : مضىٰ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يأخذوا من الدنيا شيئاً ، وتخلَّفنا بعدَهم ، فأخذنا من المال ما لا نجدُ له موضعاً إلا التراب ، ولولا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن ندعو بالموتِ علىٰ أنفسنا لدعوتُ به .

وقال له عمر بن الخطاب يوماً : ما أشدُّ ما لقيتَ من المشركين ؟ فقال : أوقدوا لي ناراً ، فما أطفأها إلا ودكُ ظهري(٢)

توفي بالكوفةِ وصلَّىٰ عليه علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٤) أبيٌّ بن كعب رضي الله عنه(٣)

كان من أقرأ الصحابة ، وقرأ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سورة : (لمْ يكنِ الذينَ كفروا . . .) إلىٰ آخر السورة بأمرِ الله عز وجل له في ذلك .

وكان يقولُ : (من كان منكم مُقتدياً فليقتدِ بمن ماتَ من أصحابِ رسول الله

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٤٣) (١٢) .
(٢) الودك : الشحم .
(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٤٣) (١٣) .

صلى الله عليه وسلم ؛ فإنَّ الحيَّ لا يؤمنُ عليه الفتنة) .

وكان يقول : (اقتصادٌ في سُنَّةٍ خيرٌ من اجتهاد في بدعة) .

وكان يقول : (ما ترك عبدٌ لله شيئاً إلا عوَّضه اللهُ خيراً منه من حيث لا يحتسب) ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٥) عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[1]

كان رضي الله عنه يحذِّرُ الناسَ من الذنوب ، ويقول : (يا صاحبَ الذنب ؛ لا تأمنْ شرَّ عاقبتِهِ ؛ فإنَّ ضحكَكَ وفرحَكَ بعد الذنبِ وأنت لا تَدري ما اللهُ صانعٌ بكِ . . أعظمُ من الذنب ، وعدمُ اضطرابِ قلبك من نظر الله إليك وأنتَ على الذنبِ . . أَعظمُ من الذنب) .

وكان في وجهه خطَّان أسودان من كثرة الدموع كالشِّراك البالي .

وكان يقول : (لو بغىٰ جبلٌ علىٰ جبلٍ لَدُكَّ الباغي منهما)

وكان يقول : (سيأتي على الناس زمانٌ يُعرَجُ فيه بعقول الناس حتىٰ لا تكاد تجدُ أحداً في ذلك الزمان له عقلٌ) .

وكان يجلس يوماً للتأويلِ ، ويوماً للفقه ، ويوماً للمغازي ، ويوماً للشعر ، ويوماً لأيام العرب .

وكان يقول : (لا يقبلُ اللهُ صلاةَ امرئ وفي جوفه حرام) .

وكان يقول : (عيادة المريض مرة سُنَّةٌ ، فما زدتَ فهو نافلة) والله تعالىٰ أعلم .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٥١) (٢١) .

ومنهم :

(١٦) عبد الله بن الزبير رضي الله عنه[(١)]

كان من عُبَّاد الصحابة .

وكان إذا قام للصلاة كأنه عودٌ من الخشوع .

وكان إذا سجدَ يُطيلُ السجودَ حتىٰ تنزلَ العصافيرُ علىٰ ظهره ، لا تحسبُهُ إلا جدارَ حائط .

وكان يُحيي الليلَ ، فتارةً يُحييه بركعةٍ ، وتارةً بسجدة ، وتارةً بالقيام حتىٰ يُصبحَ من غير سجودٍ ، فيسجد بعد الفجر .

وكان يُسمَّىٰ حمامة المسجد .

قُتِلَ رضي الله عنه سنة ثلاثٍ وسبعين وهو ابنُ اثنين وسبعين سنة ، وصُلبَ علىٰ باب الكعبة .

وكان أطلسَ لا لحية له[(٢)] ، قتله الحَجاجُ حين بُويع له بالخلافة ، وأطاعه أهلُ الحجاز ، واليمن ، والعراق ، وخراسان ، وأقام في الخلافة تسعَ سنين ، ثم حاصره الحَجاجُ بمكة ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٧) الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[(٣)]

كان أشبهَ الناسِ برسول الله صلى الله عليه وسلم في الخَلْق والصفات .

وسمع مرَّة رجلاً يسأل اللهَ عشرة آلاف درهم ، فذهب ، وأرسلها إليه من البيت .

وكان يقول : (إني لأستحيي من الله أن أَلقاه ولم أَمشِ إلىٰ بيته الحرام) ، فمشىٰ عشرين مرة من المدينة علىٰ رجليه ، وإنَّ الجنائبَ لتُقاد معه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٥١) (٢٢) .

(٢) الأطلس : الخفيف العارض ؛ أي : جانب الوجه

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٥٢) (٢٣) .

وكان يُقاسمُ الله تعالىٰ في كلِّ شيءٍ دخل يده ، حتىٰ إنه ليتصدَّقُ بالنعل ويُبقي عنده الآخر .

وكان إذا اشترىٰ من أحدٍ بستاناً أو شيئاً ، ثم افتقرَ البائعُ يردُّه إليه مع الثمن .

وما سُئل شيئاً قطُّ فقال لا

وكانت مدَّةُ خلافته سبعةَ أشهرٍ ، بايعه أهلُ الحجاز ، والعراق ، واليمن ، وخراسان ، وغيرُهم .

مات رضي الله عنه مسموماً ، يقال : إنَّ امرأته سمَّتْهُ لتتزوجَ بيزيد بن معاوية ، فلما شربَ السُّمَّ تقطَّع كبدُهُ ، فقال : إني قد سقيت السُّمَّ مراراً فلم أُسق مثلَ هـٰذه المرة ، فقال له أخوه الحسين : من تتَّهم لنقتله ؟ فقال : إنْ يكن الذي أظنُّ فالله أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً ، وإن لم يكن فما أحبُّ أن يُقتل بي بريءٌ ، فلما اشتدَّ به النزعُ قال : أَخرجوا فراشي إلىٰ صحن الدار ، فأُخرج ، فقال : اللهم ؛ إني أحتسبُ نفسي عندك ؛ فإني لم أُصبْ بمثلها[1] ، **ثم توفي سنة خمسين ، ودُفن بالبقيع ، والله أعلم .**

وكان رضي الله عنه حليماً كريماً ورعاً ، وقد دعاه ورعُهُ إلىٰ أن تركَ الدنيا والخلافة لله عز وجل .

وكان من المُبادرين إلىٰ نصرة عثمان رضي الله عنه .

ووليَ الخلافةَ بعد قتل أبيه رضي الله عنه ، وبايعه أكثرُ من أربعين ألفاً ، ولما بلغه أن معاويةَ سارَ إليه من الشام سار هو إلىٰ معاويةَ ، فلما تقاربا علمَ أنه لن يَغلبَ إحدى الطائفتين حتىٰ يَقتلَ أكثر الطائفة الأخرىٰ ، فأرسلَ إلىٰ معاوية ، وبدأه بتسليمِ الأمر إليه علىٰ أن تكونَ الخلافةُ له بعده ، وعلىٰ ألا يطلبَ أحداً من أهل المدينة ، والحجاز ، والعراق بشيءٍ مما كان أيام أبيه ، وغير ذلك من الأمور التي فيها مصلحةٌ للمسلمين ، فأجابه معاويةُ لما طلب ، واصطلحا علىٰ ذلك ، وظهرتِ المعجزةُ النبوية في قوله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ ابني هـٰذا سيِّدٌ ، ولعلَّ اللهَ يُصلحُ بهِ بينَ فئتينِ عظيمتينِ من

---

(١) روى الخبر المسعودي في « مروج الذهب » (٣/ ١٨٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/ ٢٨٤) ، وأورده النويري في « نهاية الأرب » (٥/ ١٩٣) .

المسلمينَ »[١] ، وكلُّ ذلك كان في سنة إحدىٰ وأربعين .

وبلغنا : أنه قال لأصحابه : (أيُّها الناس ؛ إن كان هـٰذا الأمرُ لي ، وأنا أحقُّ به فإني قد نزلتُ عنه لمعاوية بطيب نفسٍ ، وإن لم يكنِ الأمرُ لي ، ومعاويةُ أحقُّ به فقد سلَّمته إليه) والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٨) الإمام الحسين بنُ علي بن أبي طالب رضي الله عنهما[٢]

ولد رضي الله عنه في شعبان سنة أربعٍ من الهجرة ، وكان له من الولد خمسةٌ : علي الأكبر ، وعلي الأصغر ، وله العقبُ ، وكلُّ الأشراف منه[٣] ، والثالث جعفرٌ ، وفاطمة ، وسُكينة المدفونة بالمراغةِ بمصر كما قيل بالقُرب من السيدة نفيسة[٤] ، ومن مقام عمِّها محمدٍ الأنور .

وكان من أزهدِ الناس ، وأعبدِ الناس ، وأعفِّ الناس ، وأحلمِ الناس ، وأعلمِ الناس ، وأكرمِ الناس ، وأحسنِ الناس .

وحجَّ رضي الله عنه خمساً وعشرين حجَّةً ماشياً ، وجنائبُهُ تُقادُ بين يديه تواضعاً لله عز وجل .

وكان رضي الله عنه يقول : (اعلموا أنَّ حوائجَ الناس إليكم من جملةِ نِعَمِ الله عليكم ، فلا تملُّوا من تلك النعم ؛ فتعود عليكم نقماً) .

وكان يقول : (من جاد ساد ، ومَنْ بخلَ رذل ، ومن تعجَّل لأخيه خيراً وجده إذا قدمَ علىٰ ربِّه غداً) .

قُتل رضي الله عنه شهيداً يوم الجمعة في عاشر المحرم سنة إحدىٰ وستين ، وهو ابن ستٍ وخمسين سنة .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٧) عن سيدنا الحسن رضي الله عنه .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٥٤) (٢٤) .

(٣) قوله : (وله العقب ، وكل الأشراف منه) يعني : كل الأشراف الحسينيين من علي زين العابدين ، كما نبه الشعراني علىٰ ذلك في ترجمته للإمام محمد الباقر رحمه الله . انظر (١/ ٦٩) .

(٤) أجمعت المصادر التي ذكرت ترجمتها علىٰ أن وفاتها كانت بالمدينة ، وليست في مصر ، وقال المناوي في « طبقاته » (١/ ١٥٠) معقباً علىٰ قول الشعراني : (وليس ذلك بصحيح) .

وعطَّشوه قبل القتل في يوم حارٍّ[١] ، وصاروا يتراؤون له بكيزان البلّورِ وفيها الماء ، فيقول : أقسمتُ عليكم بجدِّي ألا سقيتموني شربةً أُبرِّدُ بها كبدي ، فلم يُجيبوه .

وكان الحسنُ البصري رضي الله عنه يقول : (واللهِ ؛ لو كنتُ مع قتلة الحسين ، أو مع مَنْ رضي بقتله ما دخلتُ الجنةَ حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفاً من نظره إليَّ بعين الغضب) .

وسألوه مرةً عن دم البعوض ، فقال : تستحلُّون دمَ الحسين ، وتسألون عن دم البعوض ، ما رأيتُ أجهلَ منكم !

ورأيتُ في كُتب السِّير : (أنَّ الله عز وجل قتلَ بسبب يحيى بنِ زكريا خمسةً وتسعين ألفاً ، وذلك ديةُ كلِّ نبيٍّ) .

ثم رووا أن الله عز وجل أوحىٰ إلىٰ محمدٍ صلى الله عليه وسلم : (إني قتلتُ بيحيى بنِ زكريَّا خمسةً وتسعينَ ألفاً ، ولأقتلنَّ بالحسينِ ابنِ بنتِكَ قَدْرَ ذلكَ مرَّتينِ)[٢]

ورووا أنهم لما قتلوا الحسين احتزُّوا رأسَهُ ، وقعدوا في أولِ مرحلةٍ يَشربون الخمرَ ، فخرجَ عليهم قلمٌ من حديدٍ من حائطٍ ، فكتبَ على الحائط سطراً : [من الوافر]

أَتـــرجُـــو أمَّـــةٌ قتلَـــتْ حُسينـــاً ... شفـــاعـــةَ جـــدِّهِ يـــومَ الحســـابِ

وأنشدتْ أختُهُ زينبُ[٣] ترفعُ صوتَها ، ورأسُها خارجةٌ من الخباءِ ، رضي الله عنها :

ماذا تَقولونَ إنْ قالَ النبيُّ لكمْ ... مــاذا فعلتُــم وأنتــمْ آخــرُ الأُمــمِ
بعتــرتــي وبــأهلِـي بعــدَ مُفتقــدِي ... منهمْ أُسارىٰ ومنهمْ ضُرِّجُوا بدمِ

---

(١) الموافق في ١٠/ ١٠/ ٦٨٠م .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٣١٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وانظر « الموضوعات » لابن الجوزي (١/ ٤٠٨) .
(٣) في غير (ج) : (سكينة) ، والمثبت من (ج) و« تاريخ دمشق » (٦٩/ ١٧٨) ، و« الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٥٥) .

ما كانَ هـٰذا جزائِي إذْ نصحتُ لكمْ أنْ تَخلُفوني بسوءٍ في ذَوي رحِمِي

ودفنوا رأسَهُ ببلاد الشرق ، ثم أُرشي عليها طلائع بنُ رُزِّيك نائبُ مصر بثلاثين ألف دينار ، ونقلها إلىٰ مصر ، وبنىٰ عليها المشهدَ الحُسيني ، وخرج هو وعسكرُهُ إلىٰ نحو الصَّالحية بطريق الشام مشاةً حفاةً يتلقَّون الرأسَ ، فوضعها في بُرنسٍ من حريرٍ أخضرَ ، علىٰ كرسي آبنوس ، وفرشوا تحتها الطيبَ والعنبر والمسكَ .

وقد زرناها مراراً ، وحضر معي شيخُ الإسلام الشيخُ شهابُ الدين بنُ الشلبي الحنفي يوماً ، وكان لا يعتقدُ صحَّةَ دفنها في هـٰذا المشهد تبعاً لبعضِ أهل التواريخ ، فلمَّا جلسَ ثقلتْ رأسُهُ ، فنام ، فرأىٰ خادماً خرج من الضريح ، وذهب ماشياً إلى الحجرةِ النبوية ، فوقف علىٰ رأسِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ، إنَّ عبدَ الوهاب وأحمد الحنفي عند رأسِ ابنك الحسينِ يَزورانها ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم ؛ تقبَّلْ منهما ، ثم أفاق صارخاً بأعلىٰ صوته : آمنتُ وصدَّقت أن رأسَ الإمام الحسين هنا ، ودامَ علىٰ زيارتها إلىٰ أن مات . رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(١٩) أُوَيْس القَرَني رضي الله عنه[1]

وذكرته في الصحابة ، وإن كان الأصحُّ أنه تابعيٌّ ؛ لما نقله بعضُهم : أنه اجتمعَ برسول الله صلى الله عليه وسلم سرّاً مرات ، وحضر معه في وقعة أحد ، وقال : واللهِ ؛ ما كُسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم حتىٰ كُسرت رباعيتي ، ولا شُجَّ وجهُه حتىٰ شجَّ وجهي ، ولا وُطئ ظهره حتىٰ وُطئ ظهري .

وكان رضي الله عنه من أكابر الزهاد ، رثَّ البيت ، قليلَ المتاع .

وكان لم يزل ضارباً بلحيته إلىٰ صدره ، رامقاً ببصره إلى الأرض ، واضعاً يده علىٰ شماله .

وكان له طِمران من الثياب ، ويأتزرُ بإزارٍ من صوف .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٥٩) (٢٥) .

وكان قوتُهُ مما يَلتقطُ من النوىٰ .

وكان الناسُ لا يرونه إلا نحو كلِّ سنةٍ مرةً ؛ لأنهم لمَّا نسبوه إلى الجنون بنىٰ له خصّاً علىٰ باب دار أهله ، فلم يخرج إلى الناس .

وقال له رجلٌ مرَّةً : أوصني ، فقال : عليك بكتاب الله ، وسُنَّة المرسلين ، وصالحي المؤمنين ، وذكرِ الموت ، وعدم مفارقة الجماعة .

وقال له آخر : ادعُ لي ، فقال : حفظكَ اللهُ ما دمت حيّاً ، ورضَّاك من الدنيا باليسير ، وجعلك من الشاكرين لما أعطاك .

وكانتِ الوحدةُ أحبَّ إليه من الشهرة ، ويقول : (إني ما دمتُ مع الناس فأنا في غمٍّ) .

وكان كلَّما يمشي يتصدَّقُ بكلِّ ما في بيته .

وكان يلتقطُ الكِسَرَ من المزابل .

وتعرَّىٰ مرةً ، فلم يجدْ شيئاً يستره ، فجلس في قَوْصَرَّةِ تمرٍ [1]

وقال له هَرِم بنُ حيان : أوصني ، فقال : توسَّدِ الموتَ إذا نمتَ ، واجعله نُصبَ عينك إذا قمتَ .

وكان يقول : (الدعاءُ بظهر الغيب أفضلُ وأَسلمُ من الزيارة واللقاء ؛ لأنَّ اللقاءَ قد يعرضُ فيه التزيُّنُ والرياء) .

ولما دفنوه رجعوا فلم يجدوا لقبره أثراً .

وكان إذا أَمسىٰ يقول : (اللهم ؛ إني أعتذرُ إلىٰ كلِّ كبدٍ جائع ؛ فإنه ليس عندي إلا ما في بطني) .

وكان يقول : (لم يدعْ لي الأمرُ بالمعروف صديقاً ، وكلَّما نَهيناهم عن المنكرِ شتموا أعراضنا ، ووجدوا علىٰ ذلك من الفاسقين أعواناً ، واللهِ ؛ لقد رمونا بالعظائم بسبب ذلك) .

---

(١) القَوْصَرَّة : وعاء للتمر من قصب .

وكان يقول : (لا يبلغُ الرجلُ مقامَ الخوف حتىٰ يكونَ كأنه قتلَ الخلقَ أجمعين) .

وقال له رجل : أوصني ، فقال : فرَّ إلىٰ ربِّك ، فقال : فمن أين المعاش ؟! فقال : أفٍّ لقلوبٍ خالطها الشكُّ ، يرزقُكَ وأنت مُدبرٌ عنه ، ولا يَرزقُكَ وأنتَ مُقبلٌ عليه ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٢٠) الإمام سلمان الفارسي رضي الله عنه[١]

كان أميراً علىٰ زهاءِ ثلاثين ألفاً من المسلمين ، وكان عطاؤه خمسةَ آلاف ، ومع ذلك كان يخطب الناسَ في عباءةٍ يفترشُ بعضها ويلبس بعضها ، ولم يكن بيتٌ يُظلُّهُ ، إنَّما كان يدور مع الظلِّ حيث دار .

وكان يأكلُ من عمل يديه ، ويطحنُ مع الخادم ، ويعجنُ عنها إذا أرسلها في حاجةٍ ، ويقول : لا نجمعُ عليها عملين .

وكان يضفِرُ الخوصَ ، فيأخذ خُوصاً بدرهمٍ ، فيضفِرُهُ ويعمله قِفافاً ، فيبيع ذلك بثلاثة دراهم ، فيردُّ درهماً فيه ، ويُنفق علىٰ عياله درهماً ، ويتصدَّق بدرهم .

وكان لا يأكل من صدقات الناس ، ويقول : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « سلمانُ منَّا أهلَ البيتِ »[٢]

وكان غالبُ الناس يسخِّرونه في حملِ أمتعتهم لرثاثة ثيابه ، فربما عرفوه ، فيقولون له : نحملُ عنك ، ويعتذرون إليه ، فيقول : لا أترُكُكُم حتىٰ أحملَه إلى المنزل ، وها هو ذاك .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٤٤) (١٤) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢١٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٩٨) عن عمرو بن عوف رضي الله عنه ، وإسناده في المرفوع ضعيف ، وقد صح موقوفاً علىٰ علي رضي الله عنه . انظر « مجمع الزوائد » (٦/ ١٣٠) .

وكان يقول : (مثلُ المؤمن في الدنيا كمثلِ مريضٍ معه طبيبه الذي يعلم داءه ودواءه ، فإذا اشتهىٰ ما يضرُّه منعَهُ ، وقال : إن أكلتَهُ هلكتَ ، وكذلك المؤمن يشتهي أشياءَ كثيرةً ، فيمنعه الله عز وجل منها حتىٰ يموتَ ، فيُدخلُه الجنة) .

وكان يقول : (ربَّ ضاحكٍ ولا يدري : أربُّهُ راضٍ عنه أم ساخط ؟!) .

وكان قليلَ المتاع في الدنيا ، ويقول : (إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عهد إلينا عهداً فقال : « ليكنْ بُلغةُ أحدِكمْ منَ الدنيا كزادِ الراكبِ »)[(١)]

وكتب إليه مرَّةً أبو الدرداء : هلمَّ يا أخي إلىٰ بيت المقدس ؛ فلعلَّكَ تموتُ فيه ، فكتب إليه سلمان : أما بعد ، فإنَّ الأرضَ لا تقدِّسُ أحداً ، وإنما يُقدِّسُ كلَّ إنسان عملُهُ ، والسلام . انتهىٰ .

فكان كلامُه أعلىٰ من كلام أبي الدرداء في المقام .

عاش مئتين وخمسين سنة[(٢)] ، وتُوفي في خلافة عثمان رضي الله عنه ، وقبرُهُ بإسدود ظاهرٌ يُزار[(٣)] بالقرب من بيت المقدس ، وقد دُفن عنده سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه .

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (٥/٤٣٨) ، وابن ماجه (٤١٠٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٩٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣١٧) وصححه ، ووافقه الذهبي . تقدم (١/١٤٥) .

(٢) قال الإمام الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١/٥٥٥) : (وقد فتشت فما ظفرت في سنه بشيء ، ومجموع أمره وأحواله وغزوه ينبئ بأنه ليس بمعمَّر ولا هرم ؛ فقد فارق وطنه وهو حدث ، ولعله قدم الحجاز وله أربعون سنة أو أقل ، فلم ينشب أن سمع بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ثم هاجر ، فلعله عاش بضعاً وسبعين سنة ، وما أراه بلغ المئة ، وقد ذكرت في « تاريخي الكبير » [(٢/٢٨٦)] أنه عاش مئتين وخمسين سنة ، وأنا الساعة لا أرتضي ذلك ، ولا أصححه) .

(٣) المشهور : أن قبره بالمدائن بالعراق ، ويُعرف اليوم بسليمان باك ؛ أي : الطاهر ، وإسدود : مدينة ساحلية فلسطينية على البحر المتوسط

ومنهم :

(٢١) الإمام تميم الدَّاري رضي الله عنه[١]

كان لا يتركُ قيامَ الليل سفراً ولا حضراً ، وربما قامَ فتهجَّدَ بآيةٍ واحدة إلى الصباح يُرَدِّدُها ويبكي .

وكان لا يقدرُ على سماع سورة القارعة ونحوها من آياتِ الخوف .

وكان له هيبةٌ عظيمة ، ولباسٌ حسن .

وهو أوَّلُ من قصَّ على الناس بأمر عمرَ بنِ الخطاب .

وكان له حُلَّةٌ اشتراها بألف درهم ، لا يلبسها إلا في الليلة التي يُرجىٰ أن تكون ليلةَ القدر ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٢) أبو الدرداء عُويمر بن زيد رضي الله عنه[٢]

كان رضي الله عنه من أخوفِ الناس على زوال إيمانه ، ويقول : (واللهِ الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ ما أَمِنَ أحدٌ علىٰ إيمانه أن يُسلبَ إلا سُلبَ) .

وكان يقول : (إني لآمرُكُم بالخير ولا أفعله ؛ رجاءَ أن يحصلَ لي الخيرُ مِنْ قبلكم ؛ لأني دللتُكم عليه) .

وكان يقول : (تفكُّرُ العبدِ ساعةً فيما فرَّط في جنب الله خيرٌ له من قيامِ ليلة) .

وكان يقول : (مثقالُ ذرةٍ من عملٍ مع تقوىٰ أفضلُ من أمثال الجبال من أعمال المغترِّين) .

وكان يقول : (من فقه الرجلِ رفقُهُ في معيشته) .

---

(١) واسمه : تميم بن أوس بن خارجة ؛ أبو رقية ، وقد تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٤٥) (١٥) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٤٦) (١٦) .

وكان يقول : (إذا ناقدتَ الناسَ ناقدوك ، وإنْ هربتَ منهم تبعوك) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ لو تعلمون ما أعلم لما أكلتُم شهوةً ، ولا شربتم ماءً إلا وهو مخلوطٌ بدموعكم ، ولـٰكن الله رحمكم بالغفلة) .

وكان يقول : (أدركنا الناسَ وهم ورقٌ لا شوكَ فيه ، فصاروا اليومَ شوكاً لا ورق فيه) .

وكان يقول : (من أراد أن يدخلَ الجنة وهو يضحكُ فليكن لسانُهُ رطباً من ذكر الله) .

وكان يقول : (لا تُبغضْ من أخيك المسلمِ إذا عصىٰ إلا عملَهُ ، فإذا تركَهُ فهو أخوك) .

وكان يقول : (نعم صومعةُ الرجل بيتٌ يُكنُّه ، ويكفُّ به لسانه وفرجه وبصره) .

وقالتْ له أمُّ الدرداء[1] : إنِ احتجتُ بعدك أفآكلُ من الصدقة ؟ قال : لا ، اعملي وكلي ، فإن ضعفتِ عن العمل فالتقطي السُّنبل ، ولا تأكلي الصدقة .

وخطبها معاويةُ ، فقالت : واللهِ ؛ لا أغيِّرُ علىٰ أبي الدرداء أحداً .

وكان رضي الله عنه لم يزلْ يدفع الدنيا بيديه ، ويقول لها : إليك عني .

وكان يقول : (لا يفقُهُ الرجلُ كلَّ الفقه حتىٰ يمقتَ نفسَهُ في جانب الله عز وجل)

وكان يقول : (ليس في المؤمن بِضْعَةٌ أحبَّ إلى الله من لسانه ، فليحفظْه ، وإلا أدخله النار) .

وكان يقول : (إنا لنضحكُ في وجوه قومٍ ، وإنَّ قلوبَنا لتلعنُهم) .

وكان يقول : (إذا تركك أخوك وانعوجَ فلا تتركه ، فإنَّ الأخ يستقيمُ مرةً ، ويَعوجُّ أخرىٰ) .

---

(١) هي أم الدرداء الصغرىٰ ؛ هجيمة الحميرية ، الدمشقية ، العالمة الفقهية ، عرضت القرآن وهي صغيرة علىٰ أبي الدرداء ، وطال عمرها ، واشتهرت بالعلم والعمل والزهد ، وأما أم الدرداء الكبرىٰ : فهي خَيرة بنت أبي حدرد . انظر « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٢٧٧) .

وكان هـٰذا مذهبَ عمرَ بنِ الخطاب ، والنخعي ، وجماعةٍ ، فكانوا لا يهجرون أخاهم عند الذنب ، ويقولون : إنَّه سيرجع .

وكان يقول : (إياكم أن تتحدَّثوا بزلات العلماء ؛ فإنهم يرجعون إلى الله سريعاً) .

وكانت زوجتُه تقول : سمعتُ أبا الدرداء يقول : (ما وجدتُ شيئاً في العبادات أشفىٰ لصدري ، ولا أفضلَ من مجالس الذكر) .

وكانوا يحضرون عند أمِّ الدرداء فيذكرون الله ، وتذكرُ معهم .

وكانت تعظُ الوعاظ ، وأرسلت مرة إلىٰ نَوف البِكالي وهو يعظُ الناسَ ، فقالت له : اتَّقِ الله ، ولتكنْ موعظتُكَ لنفسك ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٢٣) الإمام عبد الله بن عمر رضي الله عنهما[١]

كان من عبَّاد الصحابة وزهَّادهم ، لم يضعْ لبنةً علىٰ لبنة ، ولا غرسَ شجرةً منذ مات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان رضي الله عنه يقول : (يا بن آدم ؛ صاحبِ الدنيا ببدنك ، وفارقْها بقلبك وهمِّك) .

وكان يقول : (لا يكونُ الرجلُ عالماً حتىٰ لا يحسدَ مَنْ فوقه ، ولا يحتقرَ من دونه ، ولا يبغي بالعلم ثمناً) ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٤) الإمام أبو ذر رضي الله عنه[٢]

كان من أخوف الصحابة ، وأكثرِهم تفكُّراً في أمر معادِهِ ، فربَّما يظلُّ نهارَهُ أجمعَ يتفكَّرُ فيما إليه مَصيرُهُ .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٤٨) (١٧) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٤٨) (١٨) .

وكان لا يبني قطُّ شيئاً من داره إذا انهدم ، ويقول : (إنَّ ربَّ المنزل لا يدعنا نقيم فيه إلا بعضَ أيام) .

وكان رضي الله عنه لا يدَّخرُ قوتَ غدٍ ، ويقول : إن ذلك حرام .

وكان الرجلُ إذا دخل عليه لا يجدُ في بيته شيئاً من أمتعة الدنيا ، إنَّما هو خَلَقتُهُ[1] ، ومطهرتُهُ ، ومصحفُهُ ، رضي الله عنه .

وكان يقول : (إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : « يا أبا ذرٍّ ، إنِّي أحبُّ إليكَ ما أحبُّ لنفسِي ، لا تأمَّرَنَّ على اثنينِ ، ولا تلينَّ مالَ يتيمٍ »)[2] ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٥) حذيفة بن اليمان رضي الله عنه[3]

كان صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان يقول : (مِنْ أحبِّ الأعمال إلى الله عز وجل كثرةُ ذكره ، والصلاةُ علىٰ نبيِّه صلى الله عليه وسلم) .

وكان يقول : (أحبُّ الأيام إليَّ يوم يأتيني الخادمُ فيقول : ما في بيتنا اليوم شيءٌ نأكلُهُ) .

وبكىٰ يوماً في صلاته ، ثم التفتَ فرأىٰ رجلاً وراءه ، فقال : لا تُعلمنَّ بهـٰذا أحداً .

وكان يقول : (سيأتي على الناس زمانٌ يُقال للرجل : ما أظرفه ! ما أعقله ! وما في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من إيمان) .

وكان يقول : (ليس خيرُكم الذي يتناولُ من الدنيا الكَفافَ ؛ ولـٰكنَّ خيرَكم الذي

---

(١) الخَلَق : البالي .

(٢) أخرج الحديث مسلم في « صحيحه » (١٨٢٦) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/١٤٩) (١٩) .

يكسبُ صالحاً ، ويتصدَّقُ بما زاد عن كفايته) .

وكان يقول : (أكملُ الرجال من كان رجلاً في أمر الدنيا وأمر الآخرة) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٦) الإمام أبو هريرة رضي الله عنه[١]

كني بهرَّةٍ صغيرة كانت عنده .

وكان غزيرَ الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول : لولا آيةٌ في كتاب الله ما حدَّثتكم بشيءٍ أبداً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ. . . ﴾ [البقرة : ١٧٤] الآية .

وكان يخدمُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ويقنعُ منه بما يسمعُ من المواعظ ، ولا يطلبُ منه غيرَ ملءِ بطنه .

وكان يُغشىٰ عليه من الجوع ، ولا يسألُ الناس شيئاً

وكان من ورده : أنه يُسبِّحُ كلَّ يومٍ [اثنتي][٢] عشر ألف تسبيحة ، ويقول : (إنَّ عددَ ذنوبي كلَّ يومٍ أكثرُ من تسبيحي) .

ورفع يوماً علىٰ جاريته سَوطاً ، ثم قال : لولا خشيةُ يوم القيامة لضربتك به ، ثم قال : اذهبي فأنت حرةٌ .

وكان هو وامرأتُهُ وجاريتُهُ يقتسمون الليلَ أثلاثاً ، ثم يُصلِّي كلٌّ منهم ثلثَهُ ، فكانوا يُحيون الليلَ كلَّهُ .

وكان يقول : (أَحبُّ الأوجاع إليَّ الحُمَّىٰ ؛ لأنها تُعطي كلَّ مفصلٍ حقَّهُ من الأجر ؛ بسبب عموم الوجع)

وكان يحملُ حزمةَ الحطب علىٰ رأسه وهو أميرُ المدينة[٣] ، ويقول : افسحوا لأميركم ، وهو يبتسمُ .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٤٩) (٢٠) .

(٢) في النسخ (اثني) .

(٣) كان مرات أميراً على المدينة من قبل معاوية رضي الله عنهما

وكان خليفةً لمروان[١]

ولما حضرته الوفاة بكىٰ ، وقال : قد أصبحتُ علىٰ شفا جُرفٍ هارٍ ، لا أدري أي الدارَيْنِ أنزل .

توفي رضي الله عنه في المدينة في خلافة معاوية ، وله من العمر ثمانٌ وسبعون سنة[٢] ، وكان إسلامُه قبل موتِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين ، رضي الله عنه

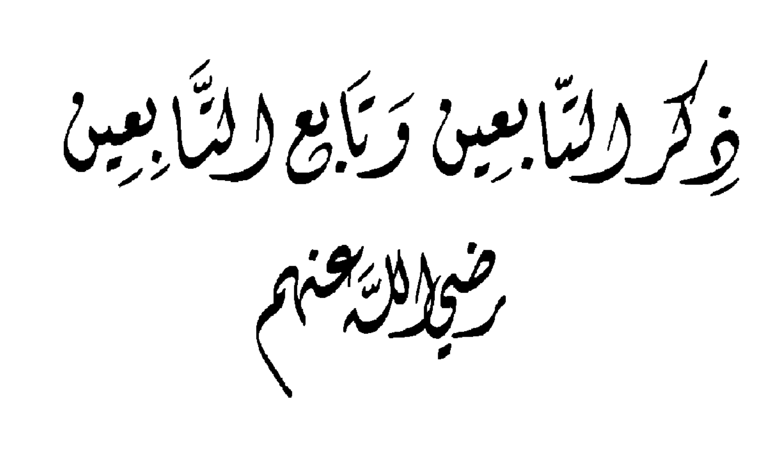
ومناقبه كثيرة مشهورة ، والله تعالىٰ أعلم .

* * *

ولنشرع في ذكر التابعين وتابع التابعين رضي الله عنهم أجمعين ، فنقول وبالله التوفيق :

(١) وكان مروان بن الحكم يلي المدينة ، وربما ناب في المدينة عن مروان . انظر « صحيح مسلم » (٨٧٧) .

(٢) ذكره ابن العماد في « شذرات الذهب » (١/ ٢١٦) ضمن وفيات سنة سبع وخمسين .


ذِكر التّابعين وتَابع التَّابِعين
رضي الله عنهم

فمنهم :

(٢٧) الإمام المُجمعُ علىٰ جلالته الحسن البَصري رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه كثير البكاء والحزن ، لا يراه أحدٌ إلا ظنَّ أنَّه قريبُ عهدٍ بمصيبة ؛ لما به من الحزن .

وكان يقول : (لو نادىٰ مُنادٍ علىٰ باب المسجد : ليخرجْ أفسقُ الجماعة وأقلُّهم حَياءً من الله عز وجل. . ما سبقني أحدٌ إلى الخروج ، إلا إن كان معه فضلُ قوَّةٍ عليَّ) .

وكان يقول : (لو نادىٰ منادٍ من السماء : كلُّ الناس يدخلون الجَنَّةَ إلا واحداً ، لخشيتُ أن أكون أنا ذلك الواحد) .

وكان يقول : (لقد أدركنا أقواماً كنَّا في جنبهم لصوصاً ، ولو أنهم رأونا اليوم لقالوا : هـٰؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أدركنا الناسَ وهم ينامون مع نسائهم علىٰ وسادةٍ واحدة عشرين سنة ، يبكون حتىٰ تبتلَ الوسادةُ من دموعهم ، لا يشعرُ عيالُهم بذلك) .

وكان رضي الله عنه يقول : (زرتُ عمر بنَ عبد العزيز أيام خلافته ، فأخرجَ لي نصفَ رغيفٍ ، ونصفَ خيارة ، وقال : كُلْ يا حسن ؛ فإن هـٰذا زمانٌ لا يحتملُ الحلالُ فيه السَّرَفَ) .

وكان ميمون بنُ مِهْران يقول : زرتُ الحسنَ البصري بعد موت عمرَ بنِ عبد العزيز ، فلما دققتُ الباب ، خرجتْ إليَّ جاريةٌ خُماسية[٢] ، فقالت : من تكون ؟ فقلتُ لها : ميمون بن مِهْران ، فقالتْ : كاتبُ عمر بن عبد العزيز ؟ فقلتُ لها : نعم ، فقالت : وما حياتُك يا شقيُّ بعد صاحبك إلىٰ هـٰذا الزمان الخبيث ؟! ثم استأذنتِ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٦٦) (٣٣) .

(٢) أي : أن طولها خمسة أشبار .

الحسنَ ، فأذنَ لها ، فأدخلتني إليه ، فرحَّبَ بي ، وأخرجَ لي كسرةً وشقةَ بِطيخ ، رضي الله عنه .

وكان يقول : (الزاهدُ في الدنيا مَلِكٌ في الدنيا والآخرة) .

وكان يقول : (من أقبلَ بقلبه على الله أقبلَ اللهُ تعالىٰ إليه بقلوب عباده ، ولولا أنَّ المخلصين يحبُّونَ نفرةَ الناس عنهم خوفاً أن يشغلوهم عن ربِّهم . . لما تفرَّقَ الناس عنهم قطُّ) .

وكان يقول : (**من علامة محبِّ الدنيا** : أن يكونَ دائمَ البِطنة ، قليلَ الفطنة ، همُّه بطنُهُ وفرجُهُ ، فهو يقولُ في النهار : متىٰ يدخلُ الليلُ حتىٰ أنام ؟ ويقول في الليل : متىٰ أُصبح حتىٰ ألهو وألعبَ ، وأجالسَ الناس في اللغو ، وأسألَ عن أحوال الناس ؟) .

وكان يقول : (لم يبقَ من روح الدنيا إلا ثلاث : لقاءُ الإخوان ، والتهجُّدُ بالقرآن ، وذكرُ الله تعالىٰ في بيتٍ خالٍ عن الناس وعن رؤية النفس) .

وكان يقول : (ما بقي للناس أخٌ يساعدهم علىٰ عمل الآخرة ، وما بقي إلا من يُفسدُ على الناس قلوبَهم) .

وكان يقول : (إني لأكره أن يأتيني أخي إلىٰ منزلي ؛ خوفاً ألا أقومَ بواجب حقِّه) .

وصلى الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة .

وكان أكثرُ مشيه حافياً .

وكان له هيبةٌ عظيمة ، وكان يدخلُ على الولاة فيأمرُهم وينهاهم ، لا يخافُ في الله لومةَ لائم .

وكان يقول : (واللهِ ؛ لو كنتُ ممن أعانَ علىٰ قتلِ الحسين أو رضي به ، وعُرضتْ عليَّ الجنة . . ما دخلتها حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخوفاً أن ينظرَ إليَّ نظرةَ غضب) .

وكان سفيان الثوري يقول : (الحسنُ البصري أجلُّ أصحاب علي بن أبي طالب ، وكان يُصلِّي خلفه ، وكان ليلةَ قتلِ عليٍّ يُصلِّي خلفه) .

وكان والده من أهل مَيْسَان[١] ، فسُبي ، فهو مولىً للأنصار .

وكان الغالبُ عليه الخوفَ ، حتىٰ كأنَّ النارَ لم تُخلق إلا له وحده .

وكان يقول : (ذهب المعارفُ وبقيتِ المناكر ، ومن بقي اليوم من المسلمين فهو مغمومٌ) .

وكان ينشدُ كثيراً : [من الخفيف]

ليسَ مَنْ ماتَ واستراحَ بميْتٍ إنَّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ[٢]

وكان من أكثر الناس ورعاً ، حتىٰ كان يقول : (وددتُ أني أكلتُ أكلةً من حلالٍ ، فصارتْ في جوفي مثل الآجُرَّةِ ؛ فإنه بلغني أنها تقيمُ في الماء ثلاث مئة سنة) .

وقيل له مرة : إنّ الفقهاءَ يقولون كذا وكذا ، فقال : ويحكم ، وهل رأيتم فقيهاً قطُّ ، إنما الفقيهُ الزاهدُ في الدنيا ، البصيرُ بذنبه ، المداومُ علىٰ عبادة ربّه ليلاً ونهاراً لا يفتر .

وكان يحلفُ بالله مراراً : أنه ما أحبَّ الدرهمَ أحدٌ إلا أذلَّهُ اللهُ ، ولا تركه أحدٌ إلا أعزَّهُ الله .

وكان إذا استأذن عليه أحدٌ من إخوانه لا يأذنُ له ، إلا إن كان عنده شيءٌ يُطعمه له ، فإنْ لم يكن عنده شيءٌ خرج له ، وكذلك كان إذا دقَّ بابَهُ أحدٌ لا يخرجُ له إلا إن كان يطلبُ أمر دينه .

وكان يقول : (المحبُّ لله : سكرانُ هيمانُ حيران لا يفيقُ إلا عند مشاهدة محبوبه) .

وكان يقول : (يُستعانُ علىٰ وسواس إبليس بالذكر والقرآن ، وعلىٰ وسواسِ النفس بالصوم ، والصلاة ، والمجاهدة ، والرياضة) .

---

(١) مَيْسَان : اسم كورة واسعة كثيرة القرىٰ والنخل ، بين البصرة وواسط ، فتحت في أيام سيدنا عمر بن الخطاب ، ووليٰ عليها النعمان بن عدي بن نضلة ، وكان من مهاجرة الحبشة . « معجم البلدان » (٥/ ٢٤٢) .

(٢) تقدم البيت وتخريجه في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٦٧) (٣٣) .

وكان يقول : (إذا أراد اللهُ بعبدٍ خيراً لم يشغلْهُ عنه بأهلٍ ولا ولدٍ ولا مال) .

وكان يقول : (مِنْ شرط المتواضع : ألا يرىٰ نفسَهُ فوق أحدٍ من المسلمين ، بل يرىٰ نفسَهُ دون كلِّ أحدٍ ، وكلٌّ له الفضلُ عليه) .

وكان يقول : (إذا أذنب العبدُ ثم تاب لم يزددْ من الله إلا قرباً ، وهٰكذا كلَّما أذنب ؛ لأنه دائمُ السير بذنبٍ وبلا ذنب حتىٰ يصلَ إلى الآخرة) .

وقال له رجلٌ : أشكو إليك قساوةَ قلبي ، قال : عليك بمجالسِ الذكر ، والإحسانِ إلى اليتيم .

وكان يقول : (أشرُّ الناس للميت أهلُهُ يبالغون في البكاء عليه ، ولا يهون عليهم قضاءُ دَينِهِ ليبرِّدوا مضجعَهُ من الدَّين) .

وكان يقول : (أدركنا أقواماً كانوا فيما أحلَّ اللهُ لهم أزهدَ منكم فيما حرَّمَ الله عليكم) .

وكان يقول : (الجاهلُ يشتري مودَّةَ رجلٍ بعداوة ألف رجل) .

وكان يقول : (الطمعُ في الدنيا يشينُ العالِم ، ويُذهبُ بحرمته وهيبته من القلوب) .

وكان يقول : (ذمُّ الرجل نفسه في العلانية مدحٌ لها) .

وقيل له : هل في البصرة منافق ؟ فقال : لو خرج المنافقون منها لاستوحشت منهم ؛ لمشاركتي لهم في الصفات .

وكان يقول : (أكرمُ إخوانِكَ هو الذي يدومُ لك ودُّهُ ، وليس بأخيك من احتجتَ إلىٰ مُداراته)

وكان إذا جلس بين الناس يجلسُ ذليلاً كالأسير ، وإذا تكلَّمَ يتكلَّمُ كلامَ رجلٍ قد أُمر به إلى النار

وكان يقول : (من لبس الصوفَ تواضعاً لله تعالىٰ زاده نوراً في بصره وقلبه ، ومن لبسه إظهاراً للزهد في الدنيا ، والتكبُّر به على الإخوان في نفسه كُوِّرَ في جهنم مع الشياطين) .

وكان يقول : (ما كلُّ الناس يصلحُ للبس الصوف ؛ لأنه يطلب صفاءً ومراقبة لله عز وجل) .

وقيل له مرة : ما سببُ لبسك الصوف ؟ فسكتَ ، فقيل له : أَلا تُجيب ؟! فقال : إن قلتُ : زهداً في الدنيا زكَّيتُ نفسي ، وإن قلتُ : فقراً وضيقاً شكوتُ ربي ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٨) عامر بن عبد الله بن قيس رضي الله عنه[١]

كان يقول : (لو أنَّ الدنيا كانت لي كلَّها ثم أمرني اللهُ بإخراجِها لأخرجتها من غير تردُّدٍ) .

وكان قد جعل علىٰ نفسه كلَّ يومٍ ألف ركعة ، فكان لا ينصرفُ منها إلا وقد انتفختْ قدماه وساقاه ، ثم يقول لنفسه : يا نفسُ ، إنما أُريدُ إكرامَكِ عند الله غداً ، واللهِ ؛ لأعملنَّ بك عملاً حتىٰ لا يأخذَ الفراشُ منك نصيباً .

وكان يقول : (لا أبالي إذا أَحببتُ الله عز وجل علىٰ أيِّ حالٍ أصبحت أو أمسيت) .

قلت : وذلك لأنَّ المحبَّ لا يقعُ في معصية محبوبه ، فليس المرادُ أنه لا يبالي بالمعصية إذا وقع فيها ، فاعلم ذلك .

وكان يقول : (منذ عرفتُ اللهَ لم أخف سواه) .

وكان إذا دعا علىٰ إنسانٍ ظلمَهُ قال : (اللهم ؛ أكثرْ مالَهُ ، وأصِحَّ جسمَهُ ، وأطلْ عمره) .

وكان يقول : (ربما يودُّ العالِمُ يومَ القيامة أنه لم يكن عَلِمَ شيئاً حين يُحاسب علىٰ عمله بعلمه)

وكان رضي الله عنه إذا سافر يأخذُ معه ركوةً ، فإن شاءَ صبَّ فيها ماءً للوضوء ،

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٦١) (٢٦) .

وإن شاء صبَّ منها عسلاً ، وإن شاء صبَّ منها لبناً

وكان معه بعضُ دراهم ، فكان يُنفقُ منها ما شاء على المساكين ، ولا يُنْقَصُ منها شيءٌ .

وكان يقول : (إني أستحيي ألا أُعطي السائل أقلَّ من رغيف) .

وقيل له مرةً : من هو خيرٌ منك ؟ فقال : من كان صمتُهُ تفكُّراً ، وكلامُهُ ذكراً ، ومشيُهُ تدبُّراً ، فهـٰذا خيرٌ مني .

وكان يقول : (ذكرُ اللهِ عز وجل شفاءٌ ، وذكرُ غيرِهِ داء) .

وكان يقول : (مِنْ جهلِ العبدِ : أن يخافَ على الناس من ذنوبهم ، ولا يخافَ هو علىٰ نفسه من ذنوبه) .

وكان يقول : (ليس خيرُكم بخيرٍ ، ولـٰكنَّهُ خيرٌ من أشرَّ منه) .

وكان كثيراً ما يدخلُ للمجانين ، فيطعمهم ، فيقول الناس له : إنهم لا يدرون بذلك ، فيقول : الله يدري به .

وكان يقول : (تفقَّهْ ثم اعتزل) .

وكان يقول : (إذا متُّ فلا تُعلِموا بي أحداً ، وقدِّموني إلىٰ ربي ؛ فهو أرحمُ بي من الناس) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق : ٢] : (أي : من كلِّ شيءٍ ضاقَ على الناس) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٢٩) مسروق بن عبد الرحمـٰن رضي الله عنه[١]

كان قد سُرِق وهو صغير ، فوجدوه ، فسمَّوه مسروقاً

وكان يقول : (من ادَّعى العلمَ بغيرِ خشيةٍ فهو كاذب) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٦٣) (٢٧) .

وكان يقول : (إذا بلغ أحدُكم أربعين سنة فليأخذْ حذرَهُ من الله عز وجل) .

وكان يُصلِّي حتىٰ تورَّمتْ قدماه .

وكان له سترٌ يُرخيه بينه وبين الناس إذا دخلوا عليه ، فكان يشتغلُ بالصلاة ، ويدعُهم في كلام دنياهم .

وكان يقضي بين الناس ، ولا يأخذُ علىٰ ذلك أجراً من بيت المال ولا غيره .

وكان يقول : (ما بقي للمؤمن في هٰذا الزمان خيرٌ من لحدٍ) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٣٠) علقمة بن قيس رضي الله عنه[١]

كان يكره الشُّهرةَ ، ويُحبُّ الخمول للذكر .

وقيل له مرَّةً : أَلا تجلسُ تُعلِّمُ الناس القرآن ؟! فقال أكره أن يطأَ عقبي أحدٌ ويقال : هٰذا علقمة[٢]

وكان لا يدخلُ على الولاة ، ويقول : إني أخافُ أن أدخلَ عليهم فيُصيبوا من ديني وأنا لا أشعر .

وكان يقول : امشوا بنا نزدد إيماناً ؛ أي : تفقهاً

وكان يتزوَّجُ بناتِ الفقراء ؛ يُريد بذلك التواضعَ والإحسان إليهنَّ في ضمن التزويج من حيث لا يَشعر بذلك أحد .

مات ولم يَرِثوا بعده سوىٰ ردائه ، وبرذونه ، والمصحف ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١ / ١٦٣) (٢٨) .

(٢) العقب : مؤخر القدم ، وفلان موطأ العقب ؛ أي : كثير الأتباع .

ومنهم :

(٣١) الأسود بن يزيد النَّخَعي رضي الله عنه[١]

كان يجهدُ نفسَهُ في العبادة والصوم حتى اخضرَّ جلدُهُ واصفرَّ ، وكانوا إذا قالوا له : ارفقْ بنفسك يقول : إنَّ الأمرَ كلَّهُ جدٌّ .

وذهبت إحدىٰ عينيه من كثرة البكاء والجوع .

توفي بالكوفة سنة خمسٍ وسبعين ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٣٢) الربيع بن خُثَيْم رضي الله عنه[٢]

كان يقول : (من انتظرَ الناسَ يرشدونه إلىٰ عيبه فقد ضلَّ سعيُهُ) .

وكان يقول : (كنْ وصيَّ نفسك وإلا هلكت ولا تشعر) .

وأصابه الفالج ، فقالوا له : ألا تتداوىٰ ؟! فقال : قد علمتُ أنَّ الدواء مشروعٌ ، ولـٰكنْ عن قريبٍ لا يبقى المتداوي ولا المداوي .

وكان أكثرُ عمله سرّاً ، لا يطَّلع عليه إلا أهلُ بيته .

وكان إذا دخل أحدٌ عليه وهو يقرأ في المصحف غطَّى المصحفَ بكمِّهِ .

وكان يقول : (كلُّ ما لا يُبتغىٰ به وجهُ الله يضمحلُّ) .

وكان إذا وجد غفلةً من الناس يخرجُ إلى المقابر ويقول : كنَّا وكنتم ، ثم يُحيي الليلَ كلَّهُ عندهم ، فإذا أصبح كأنَّه نُشرَ من قبره .

وكان يخرجُ لصلاة الجماعة يُهادىٰ بين رجلين ، فيقول الناس له : إن اللهَ قد رخَّصَ لك ! فيقول : صحيحٌ ، ولـٰكنْ ماذا أصنعُ إذا سمعتُ منادي ربي يقول : حيَّ على الصلاة ، حيَّ على الفلاح .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٦٤) (٢٩) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٦٤) (٣٠) .

وكان دائم التهجد في الليل ، حتىٰ كانتِ ابنةُ جاره تعتقدُ أنه أُسطُوانةٌ ، فلما ماتَ قالتْ لأمِّها : يا أماه ؛ ما صنعتِ الساريةُ التي كانت تحت سقيفة جارنا ؟ فقالت لها : يا بُنية ، إنما كانت تلك الأُسطوانةُ هي جارُنا الذي ماتَ ، كان يظلُّ ليلَهُ قائماً ، ولعلَّ البُنيةَ ما كانت تصعدُ سطحَهم إلا ليلاً حتىٰ ظنَّتْ ذلك[1]

وكان يُمسك جلده ويقول : (يا جُليدة ؛ كيف حالُكَ إذا بُسَّتِ الجبال بسّاً ، ودُكَّتِ الأرض دكّاً ؟) .

وكان لا يُمكِّنُ أهلَهُ من كنسِ بيته ، ويقول : إنا أحقُّ بالخدمة منكم ، وأحبُّ لنفسي المهنة .

وكان يقول : (لو رأونا أصحابُ محمدٍ لقالوا : هـٰؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب) رضي الله عنه .

مات في سنة سبع وستين في أيام معاوية[2]

ومنهم :

(٣٣) هَرم بن حيان رضي الله عنه[3]

كان من أعبد التابعين وأزهدِهم في الدنيا .

وكان يقول : (أخرجوا حبَّ الدُّنيا من قلوبكم تدخلها الآخرة) .

وكان يقول : (اللهم ؛ إني أعوذُ بك من زمانٍ يتمرَّدُ فيه صغيرُهم ، ويُؤمِّلُ فيه كبيرُهم ، وتُقرَّبُ فيه آجالُهم ، ويرون فيه أعزَّ إخوانهم علىٰ معصية فلا ينهونه) .

وكان يقول : (عليكم بقلَّة الكلام ؛ فإنَّ صاحب الكلام إما أن يقصِّرَ فيه فيُخصم ، أو يُبالغ فيه فيأثم) ، والله تعالىٰ أعلم .

---

(١) وردت مثل هـٰذه القصة في ترجمة منصور بن المعتمر رحمه الله تعالى . انظر (١/ ٢١٢) ، و(٣/ ١٠٢) .

(٢) قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٤/ ١٦١) : (قيل : توفي سنة خمس وستين) ، وقال ابن حجر في « تهذيب التهذيب » (٣/ ٢٤٢) : (مات بعد قتل الحسين سنة « ٦٣هـ » ، وأرخه ابن قانع سنة « ٦١هـ ») .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٦٥) (٣١) .

ومنهم :

(٣٤) أبو مسلم الخولاني رضي الله عنه[١]

كان دائمَ الإقبال على عبادة ربِّه ، حتى لو قيل له : إنَّ جهنَّمَ تُسعَّرُ لك ما قدرَ على أن يزيدَ في عمله شيئاً

وكان قليل الأكل ويقول : (إنما تجري الخيلُ المُضمرةُ)[٢]

وكان يقول : (مَنْ شدَّ قدميه في الصلاة ثبَّتها اللهُ على الصراط) ، والله تعالى أعلم .

ومنهم :

(٣٥) سعيد بن المسيَّب رضي الله عنه[٣]

كان يقول : (ما فاتتني فريضةٌ في جماعةٍ منذ أربعين سنة) .

وكان قوَّامَ الليل ، وكان يقولُ لنفسه إذا دخلَ الليلُ : (قومي إلى خدمة ربِّك يا مأوى كلِّ شرٍّ ، تُريدين أن تغفُلي في النهار ، وتنامي بالليل ، واللهِ ؛ لأدعنَّكَ تزحفي زحفَ البعير) .

وكان يُصبحُ كلَّ ليلةٍ وقدماه منتفختان .

وكان يقول : (لا خيرَ فيمن يتعبَّدُ ولا يجمعُ الدنيا ليصونَ بها دينَهُ وحسبَهُ ، ويصلَ بها رحمَه) .

وكان يقول : (لأن أُخلِّفَ بعدي دنيا أُحاسبُ عليها يومَ القيامة أحبُّ إليَّ من أن

---

(١) **واسمه** : عبد الله بن ثوب ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (١٦٦/١) (٣٢) .

(٢) **تضمير الخيل** : أن تُشَدَّ عليها سروجها ، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها ، فيذهب وهلُها ، ويشتد لحمها ، ويحمل عليها غلمان خفاف يجرونها ، ولا يعنفون بها ، فإذا فعل ذلك بها أُمِن عليها البُهر الشديد عند حُضرها ، ولم يقطعها الشدُّ . « تاج العروس » (ض م ر) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (١٦٩/١) (٣٤) .

أتجرَّدَ للعبادة وأنا مُحتاجٌ إلى الناس) .

وكان يقول : (لي منذ ثلاثين سنة ما أذَّنَ المؤذِّنُ قطُّ إلا وأنا في المسجد) .

وصلىٰ رضي الله عنه الصبحَ بوضوء العشاء خمسين سنة .

وكان يقول : (ما فاتتني تكبيرةُ الإحرام منذ خمسين سنة) .

وكان يقول وقد أتتْ عليه أربع وثمانون سنة : (ما شيءٌ أَخوفُ عندي من النساء) .

وكان يقول : (الناس كلُّهم تحت كنفِ الله ، يعملونَ أعمالَهم السيئةَ ، فإذا أرادَ اللهُ تعالىٰ فضيحةَ عبدٍ أخرجه من تحت كنفه ، فبدتْ للناس عورتُهُ) .

قلت : وقد استحبَّ بعضُهم للعبدِ إذا رأىٰ أمارات الخذلان أن يقول : اللهم ؛ إنْ كنتَ قدَّرتَ عليَّ المعصيةَ الفلانية فاسترني فيها ، واغفر لي ، وإن لم يكنْ سبقَ عليَّ تقديرُ شيءٍ فأزل عني هـٰذه الأوهام التي أدافعها ؛ فإنَّ الله عز وجل يُجيبُهُ إن شاء الله تعالىٰ ، ويسترُهُ في تلك المعصية ؛ فإنه أولىٰ من وفَّىٰ بحقِّ من التجأ إليه ، والله أعلم .

وكان يقول : (من ملأ عينَهُ من رؤية ظالمٍ مَيْلاً إليه حبطَ عملُهُ) .

وضربه عبدُ الملك بن مروان حين امتنعَ من مبايعته ، وألبسه المُسوحَ ، ونهى الناسَ عن مجالسته ، فكان كلُّ من نسي وجلسَ إليه يقول له : قمْ لا تُجالسني ؛ فإنهم قد جلدوني ، ومنعوا الناسَ من مُجالستي ، فكان الناسُ يقومون عنه .

وكان يمنعُ الناسَ أن يقولَ أحدُهم : مُسيجد ومُصيحف ، ويقول : (عظِّموا كلَّ ما نُسب إلى الله عز وجل) .

وكان الناس يستأذنون عليه هيبةً له كما يَستأذنون على الأمراء ؛ بل أشد .

وكان يقول : (ما استغنىٰ أحدٌ بالله إلا وافتقرَ الناسُ إليه) .

وكان يقول : (ليس من شريفٍ ولا دنيء ، ولا عالمٍ ولا جاهل إلا وفيه عيبٌ ؛ ولـٰكنْ من كان فضلُه أكثرَ من نقصه وهِبَ نقصُه لفضله) .

وكان يقول : (ليس كلُّ الناسِ يُذكر عيوبهم ؛ خوفاً أن يتجرَّأَ الناسُ على الذنوب) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٣٦) عروة بن الزُّبير رضي الله عنه[١]

كان يحثُّ أولادَه على تعلُّم العلم ، ويقول : (إنكم إن كنتم الآن صغارَ قومٍ فستكونونَ كبارَ قومٍ آخرين ، ما أقبح الجهلَ سيما من شيخ !) .

وكان ينهىٰ عن المشي إلى الولاة ، فخرج إلى الوليد بن عبد الملك ، فوقعت في رجله الأَكَلَةُ ، فقطعوها ، فكانوا يرون ذلك عقوبةً لمشيه بها إلى الوليد ، وكان يقول : الحمدُ لله الذي لم يبتل الرِّجلَ الأُخرى

وكان يسردُ الصوم ، فقطعوا رجلَه وهو صائمٌ ، لم يُمسكه أحدٌ ، وهو متجلِّدٌ حتىٰ قُطعت .

وكان يقول : (إذا رأيتم من رجلٍ حسنةً فأحبُّوه ، واعلموا أنَّ لها عنده أخواتٍ ، وإذا رأيتم منه سيئةً فأبغضوه ، واعلموا أنَّ عنده لها أخواتٍ ، ومن أحبَّ رجلاً صالحاً فكأنَّما أحبَّ الله) .

وكان يقول : (من طلبَ الآخرة طلبته الدنيا حتىٰ يأخذَ منها حاجته ، وما رأينا أحداً تبع الدنيا فطلبته الآخرة أبداً) .

وكان يقول : (يقيِّضُ اللهُ تعالىٰ للعلمِ أقواماً لا ينتفعون به في أنفسِهم كيلا يضيعَ ، فيكونون حملةً له فقط) .

وكان يقول : (أدركنا المصاحف وهي لا تباع ، إنما يأتي الرجل بورقةٍ عند المنبر ، فيقوم الرَّجلُ المحتسبُ فيكتبُ له ما شاء الله ، ثم يجيء آخر فيكتبُ له ما شاء الله من تلك السورة حتىٰ يختمَها) .

مات رضي الله عنه وهو صائم سنة أربعٍ وتسعين ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٧٠) (٣٥) .

ومنهم :

(٣٧) محمد بن الحنفية ابن الإمام علي رضي الله عنهما[١]

وهو جدُّنا الأعلىٰ من جهة الأم .

كان يقول : (من كرمتْ عليه نفسُهُ لم يكن للدنيا عنده قدر) .

وكان يقول : (ليس بحليمٍ من لم يُعاشرْ بالمعروف من لم يَجدْ من معاشرته بدّاً) .

وكتب ملكُ الروم إلىٰ عبد الملك بن مروان كتاباً يتوعَّدُهُ فيه ، ويحلفُ : ليحملنَّ إليه مئة ألف في البرِّ ، ومئة ألف في البحر ، أو يُؤدِّي إليه الجزية ، فلم يجدْ عنده كاتباً يكتبُ له عبارةً يردُّ بها الجواب ، فكتب إلى الحجَّاج أَنْ أرسل كتاباً إلىٰ محمد بن الحنفية وتوعَّده وهدِّده ، واطلبْ منه الجواب ، وأرسلْ جوابَهُ إليَّ لأُرسلَهُ إلىٰ ملك الروم ، ففعل الحجاجُ ذلك ، فأرسل ابنُ الحنفية إلى الحجاج كتاباً يقول فيه : إن لله عز وجل ثلاث مئة وستين نظرةً إلىٰ عباده في اليوم والليلة ، وأنا أرجو أن ينظرَ اللهُ تعالىٰ إليَّ نظرةً يمنعُني بها منك ، فبعثَ الحجَّاجُ بذلك إلىٰ عبد الملك ، فكتب مثلَهُ إلىٰ ملك الروم ، فردَّ ملكُ الروم له الجواب ، وقال : هـٰذا الجوابُ لستَ من أهله ، ولا أنتَ كتبتَهُ ، وإنما خرجَ هـٰذا من بيت نبوة . انتهىٰ .

توفي رضي الله عنه بأرضه بغيبغات ؛ قريةٍ بقرب الينبع ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار ، والله سبحانه أعلم .

ومنهم :

(٣٨) الإمام زين العابدين
عليُّ بنُ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٢]

وهو عليٌّ الأصغر ، وأما عليٌّ الأكبر فقُتل مع الحسين رضي الله عنهم أجمعين .

ولما قُتل أخوه عليٌّ الأكبر كان عمره ثلاث عشرة سنة[٣] ، وكان مريضاً نائماً ، فلم

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٧١) (٣٦) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٧٢) (٣٧) .

(٣) والذي ورد في « تهذيب الكمال » (٢٠/ ٣٨٤ ، ٣٨٥) ، و« سير أعلام النبلاء » (٤/ ٣٨٦) : =

يقتلوه رضي الله عنه ، ثم إنَّهم قتلوه ، وحملوا رأسه إلىٰ مصر[١] ، ودفنت بالمشهد قريباً من مجراة القلعة بمصر العتيق ، وقبره بيِّنُ الأثر اليوم ، ظاهرٌ يُزار ، وعليه قبّةٌ عظيمة ، ومع الرأس الإمام زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب كما قرأتُهُ مَنقوشاً بخطٍّ قديمٍ علىٰ قبره ، رضي الله عنه .

وكان زينُ العابدين رضي الله عنه إذا توضَّأ للصلاة اصفرَّ وجهُهُ ، ويقول : (إنكم لا تدرون عظمةَ من أريد أن أقفَ بين يديه) .

وكان رضي الله عنه إذا مشىٰ لا تجاوز يدُهُ فخذَهُ ، ولا يخطرُ بيده .

وكان إذا بلغه عن أحدٍ أنه يَثْلِبُ من عرضه يذهبُ إلىٰ منزله ، ويتلطَّفُ به ، ويقول : يا أخي ، إنْ كان ما قلتَهُ فيَّ حقّاً فأَسألُ الله أن يغفرَ لي ، وإن كان غيرَ ذلك فأسألُ الله أن يغفرَ لك .

وكان بعضُ الناس يقفُ يسبُّه علىٰ رأسِهِ في المسجد بحضرة الناس ، وهو ساكتٌ لا يقول شيئاً ، فإذا انصرفَ الناسُ تبعه إلىٰ منزله ، وتلطَّفَ به ، وقال : يا أخي ؛ أتعبتَ نفسك بسبِّي ، فاجعلني في حلٍّ ، فكان بعضُهم يقومُ له ، ويقبِّلُ رأسه ، ويقول : اجعلني في حلٍّ حياءً منه . وكان ينشد[٢] : [من الوافر]

ومـا شـيءٌ أحـبَّ إلـىٰ لئيـمٍ　　　إذا شَتَـمَ الكـريـمَ مـنَ الجـوابِ

وكان يقول : (فقدُ الأحبَّةِ غربة) .

وكان يقول : (عبادةُ الأحرار إنما تكون محبَّةً لله ، لا رغبةً ولا خوفاً) .

وكان يقول : (ليس بصاحبكم من إذا فتحتم كيسَهُ بغيرِ إذنه ، وأخذتم منه ما شئتم . تكدَّرَ ولم ينشرح) .

= أن عمره كان ثلاثاً وعشرين سنة ، ويؤيده ما سيذكره المؤلف رحمه الله بنهاية الترجمة أنه مات سنة (٩٤هـ) وله (٥٨) عاماً ، فيكون مولده سنة (٣٨هـ) ، ومأساة كربلاء كانت سنة (٦١هـ) .

(١) الذي في كتب التراجم أنه توفي سنة أربع وتسعين ، وقيل : تسع وتسعين للهجرة بالمدينة ودفن في البقيع في قبر عمه الحسن بن علي ، ولم يذكروا أنه قتل ، والله أعلم .

(٢) ينسب البيت للأصمعي . انظر « الجليس الصالح » (١/ ٥٨٧) ، وتقدم (١/ ١٧٣) .

وكان يقول لأشياعه : (أحبُّونا حبَّ الإسلام ؛ فإنَّه ما برحَ بنا حبُّكم حتىٰ صارَ علينا عاراً) ؛ إشارةً إلىٰ ما وقع له مع عبد الملك بن مروان حين حملَهُ مثقلاً بالحديد في يديه ورجليه وعنقه إلى الشام ، ولما بلغَ الزهريَّ ذلك دخلَ علىٰ عبد الملك ، فشفع في زين العابدين ، وقال له : ليس زينُ العابدين كما تظنُّ به من أنه يطلبُ الخلافة ، إنما هو رجلٌ مشغولٌ بنفسه وعبادة ربِّه ، فسمع له وأطلقه .

وكان رضي الله عنه يحبُّ ألا يعينَهُ علىٰ طَهورِهِ أحدٌ ، وكان يملأُ مطهرتَهُ لقيام الليل ، ويُخمِّرُها حين يقوم من الليل .

وكان يقول : (إن اللهَ عز وجل يحبُّ المؤمن المذنبَ التوَّاب) .

وكان كثيرَ الثناء والترحُّم علىٰ أبي بكر ، وعمر ، وعثمان .

وكان وردُه في اليوم والليلة ألفَ ركعة .

وكان رضي الله عنه كثيرَ الخوف ، فربما ثارتِ الريح ، فيخرُّ مَغشيّاً عليه .

ولمَّا حجَّ قال : لبَّيك اللهم لبيك ، ثم سقطَ مَغشيّاً عليه .

وسبَّه مرةً رجلٌ ، وبالغ في سبِّهِ ، فكان الإمامُ يتغافلُ عنه ، فقال له : إيَّاك أعني ، فقال له : وعنك أُغضي .

وخرج يوماً من المسجد ، فلقيه رجلٌ فسبَّهُ وبالغ في سبِّهِ ، فثارت إليه العبيدُ والموالي ، فكفَّهم عنه ، وقال : مهلاً على الرجل ، ثم إنه أقبلَ عليه ، وقال : ما سُتر عنك من أمرنا أكثرُ مما ظهرَ لك ، ألك حاجةٌ نُعينُكَ عليها ؟ فاستحى الرجلُ ، فألقىٰ عليه خميصته التي كانت عليه ، وأمرَ له بعطاءٍ فوق الألف درهم ، فقال الرجل : أشهدُ أنك من أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم حقّاً .

وقيل له مرةً : ألا تسبَّ هـٰذا الذي يسبُّكَ ؟! فقال : هو يَسبُّني بما يعرف فيَّ ، ولستُ أعرفُ فيه شيئاً أسبُّهُ به ، رضي الله عنه .

توفي رضي الله عنه وهو ابن ثمانٍ وخمسين سنة ، ودفن بالبقيع ما عدا رأسَهُ كما تقدَّم ، وذلك في سنة أربعٍ وتسعين رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٣٩) الإمام محمد الباقر بن علي زين العابدين رضي الله عنهم[١]

وهو أبو جعفرٍ الصادقِ

قال النَّوويُّ رضي الله عنه : (ويُسمَّىٰ بالباقر ؛ لأنَّه بقرَ العلم ـ أي : شقَّه ـ حتىٰ عرف أصلَهُ ، وما خفي عنه)[٢] انتهىٰ .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنَّ الصواعقَ لتصيب المؤمنَ وغيرَهُ ، ولا تصيب قطُّ الذَّاكرين لله عز وجل) .

وكان يقول : (ما دخلَ قلبَ امرئٍ شيءٌ من الكِبْرِ إلا نقصَ من عقلِهِ مثلُ ما دخله من الكبر) .

وكان يحبُّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويُبالغ في مدحه ، ويقول : (من لم يقلِ الصدِّيق فلا صدَّقَ اللهُ له قولاً) .

ويلغه عن جماعةٍ من أهل العراق أنَّهم يُبغضون أبا بكر وعمر ، ويزعمون أنهم يحبُّون أهلَ البيت ، فكتبَ إليهم : (إني بريءٌ ممن يُبغض أبا بكر وعمر ، ولو أني وليت لتقرَّبتُ إلى الله بدماءِ من يَكرههما) .

وكان يقول : (ما من عبادةٍ أفضلُ من عفَّةِ بطنٍ وفرج) .

وكان إذا ضحك قال : (اللهم ؛ لا تمقتني) .

وكان يقول : (ليس شيءٌ يميلُ الإخوان إليك مثلَ الإحسان إليهم) .

وكان يقول : (بئس الأخُ يرعاك غنيّاً ويقطعك فقيراً) .

وكان يقول : (اعرفِ المودَّةَ في قلب أخيك بما له في قلبك) .

---

(١) في النسخ : (محمد الباقر بن علي بن زين العابدين) بزيادة (بن) بين (علي) و(زين العابدين) والتصويب من المصادر ؛ فإن (زين العابدين) : هو لقب (علي) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٧٤) (٣٨) .

(٢) انظر « تهذيب الأسماء واللغات » : (١/ ٢٤٧) ، وفيه : (وعلم خفيَّهُ) بدل (وما خفي عنه) .

قال الأصمعي : (وذرِّية الحسينِ كلُّهم من قبل زين العابدين ، فهو أبُ الحسينيين كلِّهم) .

مات سنة سبعَ عشرةَ ومئة وهو ابنُ ثلاث وسبعين سنة ، وأوصىٰ أن يُكفَّن في قميصه الذي كان يُصلِّي فيه ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٠) الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر رضي الله عنه[١]

كان مجابَ الدعوة .

وكان إذا احتاجَ إلىٰ شيءٍ قال : يا ربَّاه ؛ أنا محتاجٌ إلىٰ كذا ، فما يفرَغُ من قوله إلا وذلك الشيءُ موضوعٌ إلىٰ جنبه .

وكان يقول : (أربعٌ لا ينبغي لشريفٍ أن يأنفَ منهن : قيامُهُ لأبيه ، وخدمتُهُ لضيوفه ، وقيامُهُ علىٰ دابَّته ، ولو أن له مئةَ عبدٍ ، وخدمتُهُ لمن يتعلَّمُ منه العلم) .

وكان يقول : (لا يتمُّ المعروف إلا بثلاث خصال : أن يصغِّرَهُ في عينه ، ويسترَهُ ، ويعجِّلَهُ) .

وكان يقول : (إذا أقبلتِ الدُّنيا علىٰ إنسانٍ أَعطتْهُ محاسنَ غيره ، وإذا أدبرتْ عنه سلبته محاسنَ نفسه)

وكان يقول : (إذا بلغك عن أخيك ما تكرهُهُ فاطلبْ له العذرَ إلىٰ سبعين عذراً ، فإن لم تجدْ له عذراً ، فقل لنفسك : لعل له عذراً لا تعرفيه) .

ودخل عليه سُفيان الثوري ، فرأىٰ عليه ثوباً من خزٍّ ، فقال له : إنكم من بيتِ نبوةٍ تلبسون هـٰذا ؟! فقال : يا ثوري ؛ أدخلْ يدك ، فأدخلها ، فإذا تحته مسحٌ من شعرٍ خشنٍ[٢] ، ثم قال : يا ثوريُّ ؛ أرني ما تحت ثوبك هـٰذا الغليظ ، فإذا تحته قميصٌ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٧٦) (٣٩) .

(٢) **الخزُّ**: ما ينسج من صوفٍ وإبريسمٍ ، **والمِسْحُ** : ثوب من الشعر غليظ . « تاج العروس » (خ ز ز) (م س ح) .

أرقُّ من بياض البيض ، فخجل سفيان ، فقال : يا ثوري ؛ لا تُكثِرِ الدخولَ علينا تضرُّنا ونضرُّكَ) .

وكان يقول : (نلبسُ الجبَّةَ لله ، والخزَّ لكم ، فما كان لله أخفيناه ، وما كان لكم أبديناه) .

ودخل أبو حنيفة مرَّةً علىٰ جعفر الصادق ، فقال : يا أبا حنيفة ؛ بلغني أنك تقيسُ في دين الله تعالىٰ ، لا تفعل ؛ فإنَّ أولَ من قاس إبليس ، فقال : إنما أقيسُ فيما لم أجدْ فيه نصّاً ، فقال : لا بأس إذن .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا بلغكم عن مسلمٍ كلمةٌ فاحملوها علىٰ أحسنِ ما تجدون ، فإن لم تجدوا فلوموا أنفسَكم) .

وكان يقول : (لا تأكلوا من يدٍ جاعتْ ثم شبعت) .

وكان يقول : (إذا أذنبتَ فاستغفر ؛ فإنَّما هي خطايا مطوَّقةٌ في أعناق الرجال قبل أن يُخلقوا ، وإياكم والإصرارَ على الذنب) .

توفي بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومئة .

وكان يقول : (منِ استبطأ رزقَهُ فليكثرْ من الاستغفار) .

وكان يقول : (من أُعجبَ بشيءٍ من أحواله ، وأراد بقاءَه عليه . . فليقل : ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف : ٣٩]) .

وكان يقول : (أوحى اللهُ إلى الدنيا : يا دنيا ؛ من خدمني خالصاً فاخدميه ، ومن لم يخدمني فاستخدميه) .

وكان يقول : (العلماءُ أُمناء الرسل ما لم يأتوا أبوابَ السلاطين) .

وكان يقول : (اللهم ؛ ارزقني مواساةَ المقترين في الرزق ، وكلُّهُ من فضلك) والله أعلم .

ومنهم :

(٤١) الإمام عمر بنُ عبد العزيز رضي الله عنه[١]

كان من الخلفاء الراشدين .

وكان الذئب يرعىٰ مع الشاة في زمنه من شدَّةِ عدله ، فلما تُوفي عدا الذئبُ علىٰ شاةٍ ، فقال الراعي : قد ماتَ عمر رضي الله عنه ، فقالوا له : من أين عرفتَ ذلك مع بُعْدك عن المدينة ؟! فقال : عدمُ احترام الذئب للشاة .

وكانت حجزةُ إِزاره غائبةً في عُكَنه قبل الخلافة[٢] ، فلما تولَّى الخلافة فلو شئتَ أن تعدَّ أضلاعَه لعددتَها .

وكانت غلَّتُهُ خمسين ألف دينار ، فكان يُنفقها كلَّها حتىٰ لا يبقىٰ له إلا قميصٌ واحد لا يخلعه إلا إنِ اتَّسخَ ، فإذا اتَّسخَ وغسله مكثَ في البيت حتىٰ يجفَّ

قالت زوجتُه فاطمةُ بنتُ عبد الملك : (ولما ولي عمرُ الخلافةَ لم يغتسلْ قطُّ من جنابةٍ إلىٰ أن مات) .

قالت : (ولما ولي الخلافة خيَّرنا ، وخيَّر جواريه بين الإقامة والفراق ، وقال : قد جاءني ما يَشغلُني عنكنَّ حتىٰ يفرغَ الناسُ من الحساب بينِ يدي الله عز وجل)

قالت : (وخيَّرني بين الإقامةِ عنده من غير مسيسٍ ، وبين أن أَلحقَ بدارِ أبي ، فاخترتُ الإقامةَ ، ووضعتُ جميع ما أملكه في بيت المال ما عدا قميصٍ ألبسه ، وعلا البكاءُ والنحيبُ من جواريه حتىٰ كأنه ماتَ إياساً منه) ، رضي الله عنه .

قالت فاطمة : (وما بلغني عن أحدٍ من الرجال ما رأيتُهُ من عمر رضي الله عنه ، كان إذا دخلَ عندي البيتَ ألقىٰ نفسه على الأرض يبكي حتىٰ تغلبَهُ عيناه ، ثم يستيقظ فيبكي ليلَهُ أجمع ، وربما نام في سطحِ غرفته ، فبكىٰ في سجوده ، فينزلُ علينا دموعُهُ من الميزاب ونحن تحته حتىٰ يظنَّ الظانُّ أنَّ السماء أمطرت) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٧٨) (٤٠) .
(٢) العُكْنَة بالضم : ما انطوىٰ وتثنَّىٰ من لحم البطن سمناً .

وكان يخطبُ الناسَ بقميصٍ مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه ، فقال له رجلٌ : يا أمير المؤمنين ؛ إنَّ الله تعالىٰ قد أعطاك ، فلو لبستَ لك ثوباً جديداً ، فنكسَ رأسَه ساعةً ثم قال : أفضلُ القصدِ عند الجِدَة[1] ، وأفضلُ العفو عند المقدرة .

وكانت بناته يُرقِّعن ثيابهنَّ حتىٰ يتخرَّقن بالكلية ، وربما دعا الواحدةَ منهنَّ ، فلم تُجبْه من عذرِ العري ، فيأمر لها بخيشةٍ ، فيُلبسُها إيَّاها .

وكثيراً ما كان يبكي الدمَ حين تَنفَدُ الدموع .

وكان يجتمعُ بالخضر عليه السلام كثيراً بالمدينة .

وقال يوماً للخضر : أوصني ، فقال : يا عمر ؛ إياك أن تكونَ وليّاً لله في العلانية وعدواً له في السرِّ ، فخرَّ عمر مغشيّاً عليه .

وكان كلَّ قليلٍ يُرسلُ قاصدَهُ بالسلام علىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وعلىٰ أبي بكر وعمر ، ليس له حاجةٌ بإرساله إلا لذلك .

وكان له سَرَبٌ ينزل فيه كلَّ ليلةٍ[2] ، وفيه غلٌّ ، فيضع الغلَّ في عُنقه ، ولا يزالُ يبكي ويتضرَّعُ إلى الصباح .

وكان يقول : (إياكم والدخولَ علينا ، ولو أمرتمونا ونهيتمونا ؛ فإنَّ من دخل علىٰ والي جورٍ لا يسلمُ من الإثم) .

وكان يقول : (لو أرادَ اللهُ تعالىٰ ألا يُعصىٰ ما خلق إبليس) .

وكان يقول : (لو تعلمون مني ما أعلم من نفسي ما نظرتم إلىٰ وجهي) ، وكانوا يقولون : ما أنور وجهه ! إذا مرَّ عليهم .

وكان يقول : (ليس الزهدُ في الشُّبهات ؛ إنما يكون الزهد في الحلال ، أما الشُّبهات والحرام فنارٌ تسعرُ في بطون الآكلين ، ولولا أنَّهم أمواتٌ لوجدوا ألمَ النارَ في بواطنهم) .

---

(١) **الجِدَة** : الغنىٰ واليسار والسعة .

(٢) **السَّرَب** : حفير تحت الأرض لا منفذ له .

مات رضي الله عنه سنة إحدىٰ ومئة مسموماً .

قالت فاطمة : (واللهِ ؛ إن خوفَهُ من الله كان أقوىٰ من مرضه من السُّمِّ) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٢) مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه[1]

كان من أكثر التابعين خوفاً ، حتىٰ كان يقول : (لو أتاني آتٍ من ربِّي عز وجل وخيَّرني بين أن أدخلَ الجنة بعد الحساب أو أكونَ تراباً لاخترتُ أن أكون تراباً) .

وكان له ولدٌ صالح ، فمات ، فلبس أحسنَ ثيابه ، وسرَّحَ لحيته ، فقيل له في ذلك ، فقال : أتأمروني أن أستكينَ للمُصيبة ، واللهِ ؛ لو كانتِ الدنيا كلُّها وما فيها لي ، ثم وعدني ربي علىٰ تركها كلِّها بشربة ماء في الآخرة . . لاخترتُ تلك الشربةَ علىٰ أخذها .

وكان يقول : (لأن أبيت نائماً وأُصبح نادماً أحبُّ إليَّ من أن أبيتَ قائماً وأُصبح معجباً) .

وكان يقول : (إذا تساوتْ سريرةُ العبدِ وعلانيتُهُ قال الله تعالىٰ له : قد صرتَ عبدي حقّاً) .

وكان إذا دخلَ بيته وسبَّحَ الله تُسبِّحُ معه آنيتُهُ بلسانٍ فصيح .

وكان مجابَ الدعوة ، وظلمه رجلٌ مرةً ، فقال : أماتك اللهُ عجلاً ، فمات في الحال ، فطلبوه إلىٰ زيادٍ وهو على البصرة ، فقال : هل مسَّه ؟ فقالوا : لا ، فقال : هل هي إلا دعوةُ رجلٍ صالح صادفتْ قدراً ؟! وأمر بإطلاقه

وكان يقول : (اللهم ؛ إني أعوذ بك من شرِّ كلِّ عملٍ ادَّعيتُ أني مخلصٌ فيه ، وأني أردتُ به وجهَكَ) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٨٠) (٤١) .

وكان يقول : (اللهم ؛ ارضَ عنَّا ، فإن لم ترضَ فاعف ؛ فإنَّ المولىٰ قد يعفو عن عبده وهو عنه غيرُ راض) .

وكان يقول : (أجلُّوا اللهَ عز وجل وعظِّموه عن أن تذكروه عند كلبٍ أو حمار ، فتقولون للكلب : أخزاك الله ، أو للحمار : فعل الله بك كذا) .

وكان يقول : (لولا الغفلةُ تُعرضُ لقلوب الصدِّيقين لماتوا من عظيم ما تجلَّىٰ لقلوبهم من عظمة الله عز وجل) .

وكان يقول في دعائه : (اللهم ؛ لا تردَّ هـٰؤلاء السائلين معي من أجلي) .

وكان يلبس المطارفَ والبرانس ، ويركبُ الخيول .

توفي بعد الطاعون الجارف[(١)] لما تولَّى الحجَّاج العراق سنة سبعٍ وثمانين ، والله أعلم[(٢)]

ومنهم :

(٤٣) أبو العلاء بن الشخِّير أخو مطرِّف رضي الله عنه فيما قيل[(٣)]

كان رضي الله عنه يقول : (العافيةُ مع الشكر أحبُّ من البلاء مع الصبر) .

قال سفيان الثوري : وذلك لأن الله تعالىٰ مدحَ سُليمان عليه السلام مع العافية بقوله : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [صٓ : ٣٠] ، وقال في أيوب مع البلاء : ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [صٓ : ٤٤] فاستوتِ الصفتان ، وهـٰذا معافىً ، وهـٰذا مبتلىً ، فوجدنا الشكر قد قامَ مقام الصبر ، فلمَّا اعتدلا كانت العافيةُ مع الشكر أحبَّ من البلاء مع الصبر ، والله أعلم .

---

(١) **الطاعون الجارف** : طاعون وقع في البصرة سنة (٨٧هـ) ، فهلك به خلق كثير . انظر « طبقات ابن سعد » (٧/ ١٤٥) .

(٢) ذكره ابن تغري بردي في « النجوم الزاهرة » (١/ ٢١٤) ضمن وفيات ستٍّ وثمانين ، وذكره ابن العماد في « شذرات الذهب » (١/ ٣٨٦) ضمن وفيات خمس وتسعين ، والله أعلم .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٨٣) (٤٢) .

ومنهم :

(٤٤) صفوان بن محرز المازني رضي الله عنه[١]

كان من أقنع الناس .

وكان يقول : (إذا وجدتُ بعد يومين رغيفاً وكوزَ ماء فعلى الدنيا العفاء) .

وكان له سَرَبٌ ينزله ويبكي فيه .

وكان لا يخرجُ من بيته إلا لصلاة الجماعة .

وانكسر جذعٌ من بيته ، فقالوا له : ألا تُصلحُهُ ؟! فقال : إنَّ ربَّ المنزل لا يدعنا نقيمُ فيه حتىٰ نُصلحه ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٥) أبو العالية رضي الله عنه[٢]

كان يكرهُ للرجل أن يلبسَ زِيَّ الرهبان من الصوف ، ويقول : (زينةُ المسلمين التجمُّلُ بلباسهم) .

وكان يحبُّ الوحدة ، ويكره الشهرة .

وكان إذا جلسَ إليه ثلاثةٌ قام وتركهم خوفاً من اللغو .

وكان يقول : (ما مسستُ ذكري بيميني منذ خمسين سنة) .

وكان يقول : (من لم يخشعْ في صلاته فمتىٰ يخشع ؟!) .

وكان يقول : (من أعظمِ الخسران حفظُ الرجل القرآن ثم ينام ولا يتهجَّدُ به في الليل) ، رضي الله عنه .

توفي سنة تسعين من الهجرة رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٨٣) (٤٣) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٨٤) (٤٤) .

ومنهم :

(٤٦) بكر بن عبد الله المزني رضي الله عنه[١]

كان يقول : (كلّما ازددتُ في المطعم واللباس واتّساعِ الدار ازددتُ من الله بُعداً ، وكل يومٍ ازددتُ فيه مالاً ازددتُ من الله مقتاً) .

وكان يقول : (إذا وجدتَ من إخوانك جفاءً فتبْ إلى الله تعالىٰ ؛ فإنك أحدثتَ ذنباً ، وإذا وجدتَ من إخوانك محبّةً وزيادةَ وُدٍّ فذلك لطاعةٍ أحدثتها ، فاشكرِ الله) .

وكان يقول : (إذا رأيتم الرجلَ موكلاً بعيوب الناس ، خبيراً بها ، فاعلموا أنه قد مُكر به)

توفي رضي الله عنه سنة ثمان ومئة .

ومنهم :

(٤٧) صِلَة بنُ أَشْيَم العدوي رضي الله عنه[٢]

كان إذا مرَّ علىٰ قومٍ يلعبون ويضحكون يقول لهم : أخبروني عن قومٍ أرادوا سفراً ، فقطعوا نهارَهم في اللَّعب ، وليلَهم في النوم ، متىٰ يصلون إلىٰ مقصدهم ؟!

وكان رضي الله عنه يُصلِّي حتىٰ يزحفَ إلىٰ فراشه .

وكان لا يحزنُ علىٰ أحدٍ مات من إخوانه ، وكانوا إذا أخبروه بأحدٍ مات يقول : قد أخبرني الله به قبلكم في قوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر ٣٠] ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٨) العلاء بن زياد رضي الله عنه[٣]

كان مجلسُهُ قعرَ بيته ، لا يخرجُ منه إلا لصلاة جماعةٍ أو فعل خير .

وكان يقول : (واحزناه على الحزن !) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٨٤) (٤٥) .
(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٨٥) (٤٦) .
(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٨٥) (٤٧) .

وكان قد بكىٰ حتىٰ غَشِيَ بصرُهُ ، وكان يبكي السبعةَ أيام مُتوالية لا يذوقُ فيها طعاماً ولا شراباً حتىٰ يرقَّ له أهله وجيرانه .

وكان يقول : (لو علم الناسُ ما أمامهم ما اطمأنُّوا ساعةً في هٰذه الدار ، ولا أكلوا ، ولا شربوا ، ولا ناموا ، ولا زرعوا ، ولا بنوا) .

وجاءه مرةً شخصٌ فقال : يا سيدي ، رأيتُكَ البارحةَ في الجنة ، فقال : أما وجدَ الشيطانُ أحداً يسخرُ به غيري وغيرك .

وكان يقول : (إنكم اليومَ في زمانٍ أقلُّكم الذي ذهبَ عشرُ دينه ، وسيأتي زمانٌ أقلُّهم الذي يبقىٰ معه عشرُ دينه) .

توفي أيام الحجَّاج ، والله أعلم[1]

ومنهم :

(٤٩) محمد بن سيرين رضي الله عنه[2]

كان ذا خشوعٍ وسمت حسن .

وكان رضي الله عنه قليل المجالسة للناسِ .

وكان إذا وقع أنه جالسَ الناس ، وذكروا أحداً بسوء يذكرُهُ هو بخير ، ثم يفرُّ هارباً منهم .

وكان لا يدعُ أحداً يمشي معه إذا خرج إلىٰ مكان .

وكان إذا كلَّمَ أُمَّهُ لا يرفعُ صوتَهُ إجلالاً لها .

وكان كريماً جدّاً ، فحُبِسَ مرَّةً في دَيْنٍ ، فقال له السجَّانُ : امض إلىٰ بيتك ، وتعالَ آخر النهار ، فقال : لا أُعينك علىٰ خيانة أمانتك .

---

(١) قال الذهبي في « تاريخ الإسلام » (٢/ ١١٥٢) : (ذكر ابن حبان أنه توفي بالشام في آخر ولاية الحجاج سنة أربع وتسعين) ، وذكره ابن تغري بردي في « النجوم الزاهرة » (١/ ٢٠٢) ضمن وفيات سنة تسع وسبعين .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٨٧) (٤٩) .

قال : وسببُ حبسي : أني كنتُ عيَّرتُ رجلاً حُبس في دَيْنٍ ، وقلت : لأيِّ شيء استدان ، هلا صبر ، فعوقبتُ بذلك .

وكان يقول : (من الظلم البيِّن : أن تذكرَ شرَّ ما في أخيك حالَ غضبك عليه وتكتمَ محاسنه) .

وذكروا الحجَّاجَ عنده بسوءٍ ، فقال : إن الله تعالىٰ حَكَمٌ عدلٌ ، فكما ينتقمُ من الحجاج كذلك ينتقمُ منكم للحجَّاج .

وكان يقول : (واللهِ ؛ لو كان للذنوب ريحٌ لما قدر أحدٌ أن يجلس إليَّ ؛ من شدَّةِ نَتْنِ ريحي) .

وكان يقول لمن رأىٰ رؤيا تهولُهُ : (اتَّقِ الله في اليقظة ، ولا يضرُّك ما تراه في نومك) .

وقال له رجل مرَّةً : اجعلني في حلٍّ ؛ فإني اغتبتُك ، فقال : معاذ الله أن أُحلَّ ما حرَّم الله من عرضي ، ولـٰكن غفرَ الله لك يا أخي .

وكانوا إذا مدحوه في علمه وقالوا : إنَّ الصحابة لم يكونوا يُحسنون أكثرَ من هـٰذا فقال : والله لو أردنا فقههم لما أدركَتْهُ عقولُنا .

توفي رضي الله عنه سنة عشر ومئة ، وهو ابن نيفٍ وثمانين سنة رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٠) ثابت بن أَسلم البُناني رضي الله عنه[١]

كان يقومُ الليلَ خمسين سنة ، فإذا جاء السَّحَرُ يقول : (اللهم ، إنْ كنتَ أعطيتَ أحداً أن يُصلِّي في قبره ؛ فأعطني ذلك) ، فلما ماتَ وسدُّوا عليه اللَّحدَ وقعت لبنةٌ ، فإذا هو قائمٌ يُصلِّي في الحال ، وشهد ذلك من حضر جنازته .

وكان يقول : (الصلاةُ خدمةُ الله في الأرض ، ولو كان شيءٌ أفضلَ من الصلاة لما قال تعالىٰ : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [آل عمران : ٣٩]) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٨٨) (٥٠) .

وكان يقول : (كابدتُ الصلاةَ عشرين سنة ، وتنعَّمتُ بها عشرين سنة) .

وكان الناس يسمعون قراءتَهُ في قبره مدَّةً ، ثم اختفىٰ عن الناس ، رضي الله عنه[١] .

ومنهم :

(٥١) محمد بن واسع رضي الله عنه[٢]

كان رضي الله عنه قليلَ المتاع في الدنيا ، وكان لا يزيد في لباسه علىٰ قميصٍ ، ولا يزيدُ في أُدمِهِ علىٰ إدامٍ واحد .

فلما ماتَ رآه بعضُهم هو وجماعة من الصلحاء علىٰ باب الجنة ، فنظر أيَّ الناسِ يدخلُ قبل صاحبه ، فدخل محمد بنُ واسع ، فسأل الملائكةَ : ما سببُ تقديمه في الدخول ؟! فقالوا : إنه كان له قميصٌ في دار الدنيا ، وكان للناس قميصان فأكثر ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٢) مالك بن دينار رضي الله عنه[٣]

كان من أخوفِ التابعين من الله عز وجل حتىٰ كأنَّ النارَ لم تُخلق إلا له وحده .

وقالوا له مرة : لا نراك تلبسُ الصوفَ ؟! فقال : لا أرىٰ نفسي أهلاً له .

وكان إذا حدَّثَ بحديثٍ ومرَّتْ سحابةٌ يقطع الحديثَ ، ويتمعَّرُ وجهُهُ ، ويقول : اصبروا حتىٰ تمرَّ هـٰذه السحابة ؛ فإني أخشىٰ أن يكون فيها حجارةٌ يُرجمُ بها مالك .

وكان لا يخرجُ مع الناس للاستسقاء ، ويقول : أخاف أن يردَّهم اللهُ بلا قضاءِ حاجةٍ لأجلي .

---

(١) اختلف في تاريخ وفاته ، فقيل : ثلاث وعشرين ومئة ، وقيل : سنة سبع وعشرين ومئة ، وفي « ميزان الاعتدال » (١/ ٣٦٢) : (قال ابن علية : مات سنة سبع وعشرين ومئة) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٨٩) (٥٣) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٩٠) (٥٥) .

وكان يقول : (الناسُ يستبطئون المطرَ ، ومالكٌ يستبطئ الحجر) .

وكان يقول لمن يُحدِّثهم : (والله ؛ لو رآني عمر بنُ الخطاب وأنا أُحدِّثكم لضربني بالدِّرَّةِ ، وأقامني ، وقال : مثلُكَ لا يصلحُ لإملاءِ الحديث) .

وكان كثيراً ما يُجالسُ الكلابَ على المزابل ، ويقول : (هم خيرٌ من قرناء السوء) .

وكان يقول : (لولا أني أَخشىٰ أن تكونَ بدعةً لأوصيتُ أني إذا أنا متُّ أنهم يغلُّوني بالحديد ؛ لأُدفعَ إلىٰ ربي مغلولاً كما يُدفعُ العبدُ الآبق إلىٰ مولاه) .

وكان يقول : (أدركنا الصحابةَ وهم لا يعيبُ بعضُهم علىٰ بعضٍ في الملابس ، فكان صاحبُ الخزِّ لا يعيبُ علىٰ صاحب الصوف ، وصاحبُ الصوف لا يعيبُ علىٰ صاحب الخزِّ) .

وكان يقول : (قد اصطلحنا كلُّنا علىٰ حبِّ الدنيا ، فلا عالمٌ ولا صالح يعيبُ علىٰ أخيه حبَّهُ لها ، مع أنَّها رأسُ كلِّ خطيئة) .

وكان يقول : (إذا صحَّ الودُّ فلا تضرُّك غيبةُ أخيك إذا منعَهُ من لقائك شغلٌ أو حياء) .

وكان إدامُهُ طولَ سنته الملحَ ، فكان يُشترىٰ له الملحُ بدرهم ، فيأتدمُ به طول السنة .

وكان لا يأكل اللحمَ إلا من أضحيته ؛ لما ورد فيها[1]

وكان يقول لعياله : (من وافقني منكم على التقلُّلِ من الدنيا فهو مني وأنا منه ، وإلا فالفراق) .

وكان يقول : (اللهم ؛ لا تُدخل بيتَ مالك شيئاً زائداً على القوت) .

وكان يتقوَّتُ من عمل الخوص ، وكتابةِ المصاحف .

وكان بيتُهُ خالياً من أمتعة الدنيا ، ليس فيه سوىٰ مصحفٌ ، وإبريق ، وحصير .

---

(١) قال تعالىٰ في سورة الحج (٢٨) : عن الأضحية : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ ، وقال في الآية (٣٦) : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ .

وكان يقول : (هلك أصحابُ الأثقال) .

وكان يقول : (لولا أنْ يقولَ الناس جُنَّ مالك بنُ دينار للبستُ المسوح ، ووضعت الرماد علىٰ رأسي كما يفعل أهلُ المصائب) .

وكان أكثرُ لباسه السوادَ ، ويقول : إنه شعارُ أهل المصائب في دنياهم ، وأنا أولىٰ به ؛ لأنَّ مُصيبتي في ديني ، وهي أعظمُ من جميع مصائب الدنيا .

وكان يقول : (إذا تعلَّمَ العبدُ العلم ليعملَ به كثُر علمُهُ ، وإذا تعلَّمه لغير العمل قلَّ علمُهُ ، وزاد فجورُهُ ، وتكبَّرَ به على العوام) .

وقال له الخليفة مرَّةً : ادعُ لي ، فقال : كيف أدعو لك وألفُ واحدٍ يدعون عليك .

توفي سنة إحدىٰ وثلاثين ومئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٣) محمد بن المنكدر رضي الله عنه[١]

كان يقول : (كابدتُ نفسي أربعين سنة حتى استقامتْ علىٰ آثار السلف) .

وكان يقول : (لما تبتُ عن أكل الحرام والشُّبهات صرتُ آكل من حشيش الأرض ثلاثين سنة ، ثم نُوديتُ : الآن قد نقي بدنك من الشبهات) .

وكان يحجُّ بأطفاله كلَّ سنةٍ ، ويقول : نعرضُهم علىٰ ربِّهم في تلك المواقف ، فلعلَّ اللهَ ينظرُ إليهم برحمته .

وكان يقول : (إن المفتي يدخلُ بين الله وبين عباده ، فلينظرْ كيف يفعل) .

وكان يقول : (إني لأستحي من الله أن أرىٰ رحمتَهُ تعجزُ عن أحدٍ من العصاة ، ولولا النصُّ ورد في المشركين لما أخرجتهم[٢] ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦]) .

توفي رضي الله عنه بالمدينة سنة ثلاثين ومئة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٩٢) (٥٦) .

(٢) أي لما أخرجتهم من رحمة الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٥٤) صفوان بن سليم رضي الله عنه[١]

كان يقومُ الليلَ حتىٰ تورَّمتْ قدماه .

وكان يتهجَّد في الشتاء فوق السطحِ حتىٰ لا يأخذَه النومُ ، ويتهجَّد في قعرِ البيت في الحرِّ حتىٰ لا يأخذه النوم .

وكان من أَزهد الناس في الدنيا وفي الشهرة .

دخل عليه يوماً سليمان بنُ عبد الملك وهو جالسٌ في المسجد ، فأعجبه سمتُهُ ، فأرسل إليه بألف دينار مع الغلام ، فقال للغلام : يا أخي ، أنت غلطت ، ارجع فاستثبت الخبرَ ، فلما خرجَ الغلام هربَ صفوان من المسجد ، فلم يظهرْ حتىٰ سافر سليمانُ من المدينة .

توفي بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين ومئة .

ومنهم :

(٥٥) الإمام موسى الكاظم رضي الله عنه[٢]

هو ابنُ جعفر الصادق .

وكان يقول : (إذا تغيَّرَ صاحبُك عليك فاعلمْ أن ذلك من ذنبٍ أحدثته ، فتبْ إلى الله تعالىٰ من كلِّ ذنبٍ يستقمْ لك ودُّهُ) .

قلت : وروى الطبراني حديث : « ما تَوَادَّ اثنانِ فيُفرَّقُ بينَهما إلا بذنبٍ يُحدثُهُ أحدُهما »[٣] والله أعلم .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٩٣) (٥٧) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٩٣) (٥٨) .

(٣) رواه الإمام أحمد في « مسنده » (٢/ ٦٨) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٢٣٨٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٠١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

وكان يلقَّب بالعبد الصالح ؛ لكثرةِ عبادته في الليل والنهار .

وكان إذا بلغه أنَّ أحداً يكرهُهُ ويستغيبه يُرسلُ إليه بمالٍ جزيل .

ولد رضي الله عنه بالمدينة سنة ثمان وعشرين ومئة ، وأقدمه المهديُّ إلى العراق ، ثم ردَّه إلى المدينة ، فأقام بها إلىٰ أيام الرشيد ، فلما قدم الرشيدُ المدينة حمله معه إلىٰ بغداد ، وحبسه بها إلىٰ أن تُوفي بها مَسموماً سنة ثلاث وثمانين ومئة .

وقبره بها مشهور رضي الله عنه . والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٥٦) محمدُ بن كعب القُرظي رضي الله عنه(١)

كان يحثُّ أصحابَه علىٰ كثرة ذكر الله تعالىٰ ليلاً ونهاراً ، ويقول : (لو رُخِّص لأحدٍ في ترك الذكر لرُخِّصَ لزكريا عليه السلام حين نذر ألا يكلِّمَ الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ؛ فإنه تعالىٰ لم يرخِّصْ له في ترك ذكره ؛ بل قال له : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [آل عمران : ٤١]) .

وقال له رجلٌ مرَّةً : أُريدُ أن أُعطي الله عز وجل عهداً وميثاقاً ألا أعصيَهُ أبداً ، فقال له : ومَنْ أَعظمُ الآن منك جرماً ، وأنت تتألَّىٰ على الله ألا يَنْفُذَ فيك قضاؤه وقدره ، إنما على العبد أن يتوبَ كلَّما أذنبَ .

وكان رضي الله عنه يقول : (يسيرُ الدنيا يشغلُ عن كثير الآخرة) .

وكان يقول : (لا تنزلُ الحكمةُ في قلبٍ فيه عزمٌ علىٰ معصية)(٢)

وكان يقول : (إذا صحَّتِ الضمائرُ ، غُفرت الكبائر) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٩٤) (٥٩) .

(٢) في هامش (ج) : وإلىٰ هـٰذا يشير قول الإمام الشافعي رضي الله عنه : (من الوافر)

شكوت إلىٰ وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلىٰ ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يؤتىٰ لعاصي

توفي سنة سبع عشرة ومئة ، وكان يعظُ الناسَ في المسجد ، فسقط المسجدُ عليه ، فمات ، ومات أهلُ مجلسه كلُّهم .

ومنهم :

(٥٧) عبد الرحمـٰن بن هرمز الأعرج رضي الله عنه[١]

كان يقول : (إياكم ومحبَّةَ الإكثار من الإخوان ؛ فإنكم لا تقدرون على القيام بحقوقهم ، وربما يعجزُ الواحد منَّا عن القيام بِواجب حقِّ صاحبٍ واحد) .

وكان يقول : (كان بين قول فرعون : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص : ٣٨] وبين قوله : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات : ٢٤] أربعون سنة) .

وكان يقول : (كم من مستورٍ في الدنيا يُكشفُ للناس أمرُهُ يومَ القيامة حين يُنادي المنادي : لينضمَّ كلُّ حزبٍ إلىٰ حزبه)

وكان يُعاتب نفسه كثيراً ، ويقول لها : (يا مأوىٰ كلِّ شرٍّ ، ما أراك سلمتِ من خطيئةٍ واحدة ، وعن قريبٍ ينادي المنادي في القيامة : يا أهلَ خطيئةٍ كذا ؛ قوموا ، فتقومينَ معهم قهراً عليك ، ثم ينادي : يا أهل خطيئة كذا ؛ قوموا ، فتقومين معهم ، وهـٰكذا حتىٰ تقومي مع أهل الخطايا كلهم ، فأراك يا أعيرج تقومُ مع كلِّ طائفةٍ)

توفي سنة أربعين ومئة .

---

(١) كذا في النسخ ، وصاحب الترجمة لا يمت إلى الأخبار الواردة بصلة ، فالأخبار لسلمة بن دينار أبي حازم المتوفىٰ سنة (١٤٠هـ) والتي تقدَّمت ترجمته قبل في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٨٦ ، ١٩٤) (٤٨) ، ولا أدري من أين تسرَّب الخطأ ؟ ففي « الطبقات الكبرىٰ » لا توجد ترجمة لعبد الرحمـٰن بن هرمز الأعرج ، وإنما الأخبار الواردة ملصقة بترجمة محمد بن كعب خطأ ، وهنا صرَّح بالاسم ، وقد مشىٰ علىٰ هـٰذا الخطأ المناوي في « طبقاته الصغرىٰ » (ص ٤١١) إذ نقل منه دون أن يتأكد ، أما عبد الرحمـٰن بن هرمز الأعرج فهو الإمام الحجة الحافظ المقرئ المدني الأعرج مولىٰ محمد بن ربيعة ، سافر آخر عمره إلىٰ مصر ، ومات مرابطاً بالإسكندرية سنة (١١٧هـ) . انظر « سير أعلام النبلاء » (٥/ ٦٩) .

ومنهم :

(٥٨) عُبيد بن عُمير رضي الله عنه[١]

كان يقول : (من علامة كمال الإيمان : أن يُسبغَ العبدُ الوضوءَ على المكاره والبرد ، وأن يخلو بالمرأةِ الحسناء فلا يخطرُ بباله جِماعُها) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ ما المجتهدُ فيكم إلا كاللاعب فيمن مضىٰ) .

قلت : ومما يقعُ لي كثيراً : أنني ما استكثرت عملي في عيني يوماً من الأيام إلا ورأيتُ تلك الليلة أني ألعب مع المحبظين ؛ تنبيهاً من الله تعالىٰ علىٰ كثرةِ جهلي ، والله أعلم .

وكان يقول : (ما بقي للمؤمن في الدنيا سرورٌ إلا لزومَ بيته إلىٰ أن يموت ؛ فإنَّ رؤية الناس الآن تورثُ الغمَّ) .

وكان يقول : (طوبىٰ لمن لا يَشتهي الخطايا بقلبه) .

وكان يقول : (من علامة الإخلاص عدمُ طلب محمدةِ الناس ، ومحبَّةُ ذمِّهم له) .

وكان يقول : (**حقُّ الضيف عليك ثلاثٌ** : ألا تطعمَه إلا من حلال ، ولا تتكلَّف له ، وأن تحفظَ عليه أوقات الصلاة بإعانته علىٰ طهوره) .

وكان يقول : (**علامةُ المتقلِّلِ من الدنيا** : ألا يأخذَ منها شيئاً ، إلا إنْ كان بحيثُ لو لم يأخذه لأثم) .

ومنهم :

(٥٩) مجاهد بن جبر رضي الله عنه[٢]

كان يقول : (إني لأرى الرجلَ علىٰ معصيةِ الله تعالىٰ ، فأرجو له المغفرةَ أكثرَ من رجائي المغفرة في طاعاتي ، وربما استحييتُ أن أقولَ له : إني رأيتُك علىٰ كذا) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٩٥) (٦٠) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٩٦) (٦١) .

وكان يقول : (إذا نظرنا إلىٰ عظمةِ من عصيناه كانتِ الصغائرُ كبائرَ) .

وكان يقول : (لا يكون الرجلُ من الذاكرين كثيراً حتىٰ يذكرَ الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً) .

وكان يقول : (إن النَّملةَ التي كلَّمتْ سليمانَ كانت كالذئب العظيم) .

وكان يقول : (ليس أحدٌ إلا ويُؤخذُ من كلامه ويُتركُ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وكان يقول : (يؤمرُ يومَ القيامة بعبدٍ إلى النار ، فيصيرُ يلتفتُ وراءه ، فيقول الله عز وجل له وهو أعلم : لِمَ تلتفتْ وراءك ؟ فيقول : واللهِ يا ربِّ ؛ ما كان هـٰذا ظنِّي فيك ، وأنت تعلمُ ، فيقول اللهُ عز وجل : « فما كان ظنُّك بي ؟ » فيقول : أن تغفرَ لي ، فيقول الله عز وجل : « خلُّوا سبيله ، أنا عند ظنِّ عبدي بي »[(١)]

وكان يقول : (ليكنْ آخرُ كلامِ أحدكم عند منامه : « لا إلـٰه إلا الله » ؛ فإنها وفاةٌ لا يدري لعلَّها تكونُ منيته) .

توفي رضي الله عنه وهو ساجدٌ سنة اثنتين ومئة ، وله ثلاثٌ وثمانون سنة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٦٠) عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه[(٢)]

كان إذا حدَّثهُ شخصٌ بحديثٍ وهو يعلمه أصغىٰ إليه إصغاءَ مَنْ لم يسمعْهُ قطُّ ؛ كي لا يُخجلَ من يحدِّثُهُ .

وكان يقرأ في كلِّ قيامٍ من صلاة الليل المئتي آية وأكثر .

وكان لا يأذنُ لأحدٍ استأذن على الدخول عليه حتىٰ يقولَ له : بأيِّ نيَّةٍ جئت ؟ فإذا

---

(١) أخرجه أحمد في « الزهد » (٢٢٢١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٩٢) عن مجاهد رحمه الله تعالىٰ .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٩٧) (٦٢) .

قل له : جئتُ لزيارتك يقول له : ليس مثلي يُزار ، ثم يقول : لقد خبثَ زمانٌ يُزار مثلي فيه .

وكان يقول : (من جلسَ مجلسَ ذكرٍ كفَّر الله عنه بذلك المجلس عشرةَ مجالس من مجالس اللغو الباطل) .

وكان عطاءٌ مولىً لأبي مَيْسَرةَ الفِهري ، ونشأ بمكَّة ، وكان من أعلمِ أهل زمانه بالتفسير .

وكان أحمد بنُ حنبل رضي الله عنه يقول : (خزائنُ العلم لا يقسمُها اللهُ إلا علىٰ من أحبَّ ، ولو كان يَخصُّ بالعلم أحداً لخصَّ به أهلَ النسب ؛ فإنَّ عطاءً كان عبداً حبشيّاً ، وكان يزيد بنُ أبي حبيب نُوبيّاً ، وكان الحسنُ البصري مولىً ، وكان عكرمةُ مولىً ، وكان ابنُ سيرين مولىً للأنصار ، وكان مكحولُ مولىً ، وكان طاووس مولىً ، وكان النَّخعيُّ مولىً ، وكان ميمون بن مهران مولىً ، وكان الضحَّاكُ بنُ مزاحم مولىً كما قاله الزهري وغيره ، فهٰؤلاء علماءُ الإسلام ، وكلُّهم كانوا موالي) .

وكان عطاءٌ يُعلِّم العلمَ للأكابر والأصاغر ، وجلس عندهْ سليمان بنُ عبد الملك حين حجَّ حتىٰ يُعلِّمَهُ المناسك ، ثم التفت سليمانُ إلىٰ أولاده وقال : تعلَّموا العلم ، وانظروا إلىٰ ذُلِّي بين يدي هٰذا العبد الأسود حتىٰ يُعلِّمني أمرَ ديني .

حجَّ عطاءٌ رضي الله عنه سبعين حجَّةً ، وعاش مئة سنة ، **وتوفي بمكة سنة خمسة عشر ومئة .**

ومنهم :

(٦١) عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنه[١]

كان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء : ١٧] قال : (الدنيا كلُّها قريبٌ ، وكلُّها جهالةٌ) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٩٨) (٦٣) .

وكان يقول : (من قرأ سورة « يسٓ » في يومٍ لم يزلْ في سرورٍ ذلك اليوم حتىٰ يُمسي) .

وكان يقول : (سعةُ الشمس سعةُ الأرض وزيادة ثلاث مرات ، وسعةُ القمر سعةُ الأرض مرة) .

وكان قد جزَّأ الليلَ ثلاثة أجزاء : ثلثاً ينام ، وثلثاً يحدِّث ، وثلثاً يصلي ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٦٢) طاووس بن كيسان اليماني رضي الله عنه[1]

كان من أكثر الناس سياسةً حتىٰ كان يقول : (كان يُقال : « قمْ للقرد في دولته ») .

وكان يقول : (تعلَّمِ العلم لنفسك ، ولا تتعلمْهُ للناس ؛ فإنَّ الناسَ قد ذهب منهم العملُ بالعلم) .

وكان يقول : (أفضلُ العبادة أخفُّها) .

وكان يقول : (لو وزن خوفُ المؤمن ورجاؤه لاعتدلا) .

وكان من أعبد التابعين ، حجَّ رضي الله عنه أربعين حجَّةً ، وكان من أخوفِ الناس من الله عز وجل ، وكان إذا رأى النار يكادُ عقلُهُ يطيش .

ورأىٰ مرَّةً روَّاساً يُخرجُ رأساً من التنُّور ، فخرَّ مغشيّاً عليه .

وكان كثيرَ الورع ، حتىٰ كان لا يسقي دابَّتَهُ من بئرٍ حفرها أحدٌ من الولاة .

صلَّى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة .

وكان قوَّالاً بالحقِّ للولاة وغيرهم ، لا تأخذه في الله لومةُ لائمٍ ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١٩٨/١) (٦٤) .

ومنهم :

(٦٣) وهب بن منبِّه رضي الله عنه(١)

كان يقولُ : (رأيت في التوراة : من علامةِ الرَّجل الناصح : أن يخاصِمَهُ قومُهُ وجيرانه ؛ لكثرة ما يَنصحُهم) .

وكان يقول : (أدركنا الناسَ وهم ورقٌ لا شوكَ فيه ، فصرتم اليوم شوكاً لا ورق فيه ؛ إن ترككم إنسانٌ تبعتموه وآذيتموه) .

وكان يكره الشعر ، ويقول : إني أكرهُ أن يوجدَ في صحيفتي يومَ القيامة شعرٌ .

وكان يكرهُ القياس في الدين ، ويقول : (أخافُ على العالم أن يقيسَ ، فتزلَّ قدمُهُ بعد ثبوتها) .

وكان يقول : (إذا قرأ الشريفُ العلمَ تَواضعَ ، وإذا قرأه الوضيع تكبَّر) .

وكان يقول : (من لم يسمح لعدوِّه بالمال احتاجَ إلىٰ قتاله) .

وكان يقول : (عليكم بالاكتساب بالبيع والشراء ؛ فإنه ما افتقر أحدٌ إلا رقَّ دينُهُ ، وقلَّ عملُهُ ، وذهبتْ مروءتُهُ ، واستخفَّ به الناس) .

وكان يقول : (البلاءُ للمؤمن كالشِّكالِ للدابة)(٢)

وكان يقول : (إنَّ للعلم طغياناً كطغيان المال) .

وكان يقول : (اتخذوا عند الفقراء يداً ؛ فإنَّ لهم دولةً يوم القيامة) .

وكان يقول : (خُلق ابنُ آدم أحمقَ ، ولولا حمقُه ما هنأه العيش) .

وقال له رجلٌ يوماً : إني رأيتُ فلاناً يشتمك ، فقال : أما وجدَ إبليسُ رسولاً يرسله

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٩٩) (٦٥) .

(٢) **الشِّكال** : العقال والقيد ؛ أي : الحبل الذي يشد قوائم الدواب ، ويقال : بالفرس شكال إذا كان تحجيله في يدٍ ورجلٍ من خلاف .

لي غيرك ؟! ثم غضب على الرجل ، وخرج إلىٰ دار الشاتم فقبَّل رأسَهُ ، وقال : أنت في مسامحةٍ مني فيما قلتَ .

وكان يقول : (قرأتُ نيفاً وتسعين كتاباً من كتب اللهِ عز وجل ، فوجدت فيها كلِّها : « إنَّ من وكَّلَ إلىٰ نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر ، ورأيتُ فيها : إنَّ الله تعالىٰ يقول : يا بنَ آدم ؛ ما قمتَ لي بما يجبُ لي عليك ، أذكرُكَ وتنساني ، وأدعوك وتفرُّ مني ، خيري إليك نازلٌ ، وشرُّك إلي صاعد ») .

وكان يقول : (قد أصبحَ علماؤنا يبذلون علمَهم لأهل الدنيا لينالوها منهم ، فهانوا في أعينهم ، وزهدوا في علمهم) .

وكان يقول : (من كانت بطنه وادياً من الأودية فكيف يصحُّ له زهدٌ في الدنيا ؟!) .

وكان يقول : (قال موسىٰ عليه السلام : يا ربِّ ؛ احبسْ عنِّي كلامَ الناس ، فقال الله عز وجل : لو فعلتُ ذلك لأحدٍ لجعلته لنفسي ؛ فإنهم جعلوا لي زوجةً وولداً ، وقالوا : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة : ٦٤]) .

وكان يقول : (أوحى الله إلىٰ داود عليه السلام : أنَّ أسرعَ الناس مروراً على الصراط الذين يَرضون بحكمي ، وألسنتُهم رطبةٌ من ذكري) .

وكان يقول : (من أعظم الذنوب بعد الشِّركِ بالله السخريةُ بالناس) .

وكان يقول : (إذا صام الإنسانُ زاغَ بصرُهُ ، فإذا أفطرَ علىٰ حلاوةٍ عاد بصره) .

وكان يقول : (من تعبَّدَ ازدادَ قوةً ، ومن كسل ازداد وهناً وضعفاً) .

وكان يقول : (قال : عيسىٰ عليه السلام للحواريين : بحقٍّ أقولُ لكم : إنَّ أكلَ خبز الشعير ، ولبسَ المسوح ، والنومَ على المزابل لكثيرٌ علىٰ من يموت) .

وكان يقول : (الإيمانُ عُريان ، وثوبه التقوىٰ ، وزينتُهُ الحياءُ) .

صلىٰ رضي الله عنه الصبحَ بوضوء العشاء عشرين سنة .

وتوفي بصنعاء سنة أربع عشرة ومئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٦٤) ميمون بن مهران رضي الله عنه[١]

كاتبُ عمرَ بنِ عبد العزيز .

كان يقول : (كراهةُ الرجل للمعصية أثقلُ في ميزانه يومَ القيامة من كثرة الطاعات مع الميل إلى المعاصي) .

وكان يحثُّ أصحابه على الكسبِ ويقول لهم : (حصِّلوا قوتكم ، ثم أغلقوا عليكم بيوتكم) .

وقالوا له مرةً : إن ها هنا أقواماً يقولون : نجلسُ في بيوتنا حتىٰ يأتينا رزقُنا ، فقال : هـٰؤلاء قومٌ حمقىٰ ، هـٰذا لا يصحُّ إلا لمن كان له يقينٌ كيقين إبراهيم الخليل .

وكان يقول : (أولو العزمِ من الرسل هم : نوحٌ ، وإبراهيم ، وموسىٰ وعيسىٰ ، ومحمد صلى الله عليه وسلم) .

وكان يقول : (يا قرّاءَ القرآن ؛ لا تتخذوا القرآنَ بضاعةً تحترفون بها ، اطلبوا الدنيا بالدنيا ، واطلبوا الآخرة بأعمالها) .

وكان يقول لأصحابه : (قولوا لي ما أكرهُ في وجهي ؛ فإن الرجلَ لا ينصحُ أخاه حتىٰ يقولَ له في وجهه ما يكره) .

وكان يقول : (أدركنا الناسَ إذا رأوا شخصاً راكباً وأحدٌ يجري خلفه يقولون له : قاتلك الله من جبّار) .

وكان يقول : (إذا تأكَّدَتِ المودَّةُ بين الأخوين فلا بأسَ ببعد الزمن في زيارتهما) .

وصبّتْ جاريتُهُ مرةً عليه مرقاً حارّاً ، فأحرقَتْ رأسَه ، فارتعدتْ ، فقال : لا بأس عليك ، أنت حرَّةٌ لوجه الله عز وجل ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٠١) (٦٦) .

ومنهم :

(٦٥) أبو وائل شقيق بن سَلَمة رضي الله عنه[1]

كان من أخوفِ الناس من الله عز وجل ، وأكثرِهم تعظيماً للمساجد .

وكان يقول : (واللهِ ؛ إني لأستحيي من الله عز وجل أن أطوفَ حولَ بيته بقدمي ، وقد مشتْ إلىٰ غيرِ مرضاته فيما مضىٰ من الزمان) .

وكان لا يتجرَّأ يدخلُ الحِجْرَ فضلاً عن البيت .

وسمع مرَّةً رجلاً يقول : فلانٌ متَّقٍ ، فقال له : ويحك ، وهل رأيتَ متَّقياً قطُّ ، إنَّ المتَّقي من إذا سمعَ بذكر النار ذهبتْ روحُه .

وكان إذا صلَّىٰ بالليل يسمعُ جيرانُهُ تسبيحَهُ .

وكان إذا سمعَ بذكر اسم الله ينهضُ قائماً ، ويرعد كالطير المذبوح .

وكان يقول : (أستحي من الله أن أخافَ شيئاً دونه) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ إنَّ قوماً يجدون في هٰذا الزمان رغيفاً من حلالٍ يضعونه علىٰ مائدتهم لَغرباءُ في هٰذا الزمان) .

وكان يقول : (ما دام الرجلُ يعلمُ أنَّ الله تعالىٰ يراه فهو في ذكرٍ ، وإن كان في السوق) .

وكان يقول : (كم بينكم وبين القوم ! أقبلتْ عليهم الدنيا فهربوا منها ، وأدبرتْ عنكم فاتَّبعتموها) .

ومنهم :

(٦٦) إبراهيم التيمي رضي الله عنه[2]

كان يقول : (كفىٰ من العلم الخشية ، وكفىٰ من الجهل أن يُعجبَ الرجلُ بعمله) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٠٢) (٦٧) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٠٣) (٦٨) .

وكان يقول : (حملتنا المطامعُ علىٰ أسوءِ الصنائع) .

وكان يكره الشهرةَ ، ويحبُّ الخمول .

وقالوا له مرة : ألا تتكلمُ على الناس فتؤجر ؟! فقال : أما يرضى المتكلِّمُ أن ينجوَ كفافاً ؟!

وكان الأعمشُ يقول : قلت لإبراهيم التيمي : بلغني أنك تمكثُ شهراً لا تأكلُ شيئاً ، فقال : نعم وشهرين ، وما أكلتُ منذ أربعين يوماً إلا حبةَ عنبٍ ، ناولنيها أهلي ، فأكلتها ثم لفظتها في الحال .

وكان يقول : (إذا رأيتم الرجلَ يتهاونُ في التكبيرة الأولىٰ مع الإمام حتىٰ يفوته بعضُها . . فاغسلوا أيديكم منه) .

توفي رضي الله عنه في حبس الحجاج سنة اثنتين وتسعين .

وكان سببُ حبسه : أن الحجَّاج طلب إبراهيم النخعيَّ ، فجاء الرسول فقال : أخرجوا إبراهيم ، فأخرجوا إبراهيمَ التيمي ، فلما وصلَ إلى الحجَّاج أمرَ بحبسه في الدِّيماس[1] ، ولم يكن له ظلٌّ من الشمس ، ولا كنٌّ من البرد ، وكان كلُّ اثنين في سلسلةٍ ، فتغيَّرَ إبراهيمُ ، وضنيَ جسدُهُ حتىٰ مات ، فرأى الحجَّاجُ في منامه قائلاً يقول : مات الليلةَ في حبسك رجلٌ من أهل الجنة ، فقال : انظروا من ماتَ ، فوجدوا إبراهيمَ ، فقال : حلمٌ من الشيطان ، فأَمَرَ به فأُلقيَ على المزبلةِ ، فاللهُ يقابله بما يستحق إن شاء الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٦٧) إبراهيم بن يزيد النَّخَعي رضي الله عنه[2]

كان يقول : (أدركنا الناسَ وهم إذا اجتمعوا يخافون من أن يُحدِّثَ الرجلُ بأحسن ما عنده) .

---

(١) الدِّيماس : سجن للحجاج بمدينة واسط . انظر « معجم البلدان » (٢/ ٥٤٤) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٠٤) (٦٩) .

وكان يقول : (لا بأس أن يقولَ المريضُ إذا سُئل : كيف نجدُك ؟ أن يقولَ : بخيرٍ ، ثم يشكو لأخيه ما به ، ليسألَ اللهَ له العافية) .

وكان يقول : (ما أُوتي أحدٌ بعد الإيمان أفضلَ من الصبر على الأذىٰ) .

وكان يُخفي أعمالَه الصالحةَ خوفَ الشُّهرة ، حتىٰ إنه كان لا يجلسُ قطُّ إلىٰ أُسطُوانة .

وكان يقول : (أدركنا الناسَ وهم يَهابون أن يُفسِّروا القرآن ، والآن قد صار كلُّ من أراد تفسيره جلس له)

وكان يقول : (وددتُ أني لم أكن تكلَّمتُ بعلمٍ ، وإنَّ زماناً صرتُ فيه فقيهاً لزمانُ سوء) .

وكان يقول: (لا بأس أن تبشَّ للنصرانيِّ إذا كان لك إليه حاجةٌ ، أو بينكما معروفٌ).

وفي روايةٍ عنه : (لا بأس أن تُسلِّمَ على النصراني) .

قلت : ويجبُ تأويلُهُ علىٰ قوله : كيف حالك ؟ لا علىٰ قوله : السلام عليك ؛ لأنه لا يجوز ، ويُحتملُ أنَّ مرادَه ما إذا تعارضتْ عندنا مفسدةُ عدمِ السلامِ ومصلحةُ السلامِ ؛ فإنه يفعلُ أخفَّها مفسدةً ، والله أعلم .

وكان يقول : (إنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمة من العلم ليصرفَ بها وجوه الناس إليه ، يهوي بها في جهنمَ سبعين خريفاً ، فكيف حالُ من كانت نيَّتُهُ كذلك من أول جلوسه إلىٰ أن يفرغ ؟!) .

وكان إذا استعار دابةً ليركَبَها إلىٰ موضعٍ ، فوقع سَوْطُهُ يميناً أو شمالاً يُوقفها وينزلُ ، فيأخذه ويقول : إنما ركبناها لنذهبَ بها إلىٰ كذا لا إلىٰ كذا .

وكان يقول : (كفىٰ بالمرء إثماً أن يُشار إليه بالأصابع في دِيْنٍ أو دنيا ، إلا من حفظَ الله تعالىٰ) .

وكان يلبسُ الثيابَ المصبوغة بالزعفران أو العُصفرِ حتىٰ لا يعرفَهُ من يراه أهو من القرّاء أم من الفتيان .

توفي سنة خمس وتسعين ، رضي الله عنه(١)

ومنهم :

(٦٨) عون بن عبد الله بن عُتبة رضي الله عنه(٢)

كان يقول : (إن لكلِّ شخصٍ سيِّداً من عمله ، وإنَّ سيدَ الأعمالِ كلِّها ذكرُ الله عز وجل) .

وكان يقول : (كفىٰ بك كبراً أن ترىٰ نفسك علىٰ من دونك) .

وكان يقول : (إياكم والكبرَ ؛ فإنَّه أولُ ذنبٍ عُصي اللهُ به)

وخرج أصحابُهُ يوماً ، فرأوه نائماً في الحرِّ والغمامةُ تظلُّه ، فلما استيقظَ أخذ عليهم العهدَ ألا يذكروا ذلك في حياته لأحدٍ .

وكان يقول : (إذا لم تقدرْ على الفرارِ من أرضِ المنكر فاعتزلْ أهلها) .

وكان يقول : (مجالسُ الذكر صقالٌ للقلوب ، وشفاءٌ لها من الأمراض) .

وكان يلبسُ أحياناً الخزَّ ، وأحياناً الصوفَ ، فقيل له في ذلك ، فقال : ألبس الخزَّ لئلا يستحي ذو الهيئة أن يجلسَ إليَّ ، وألبس الصوفَ لئلا يهابني المساكينُ أن يجلسوا إليَّ .

وكان يقول : (من اتَّهم نفسَه بالنفاق فليس عنده نفاق) .

وكان من أحلمِ الناسِ عند القدرة .

وكان إذا خالفَهُ غلامُهُ يقول له : (ما أشبهك بمولاك مع ربِّه عز وجل) .

وكان يقول : (من تمامِ التقوىٰ : ألا يشبع العبدُ من العلم ؛ لأن طلب العلم

---

(١) وذكر الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٥٢٧) : أنه توفي سنة ست وتسعين .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٠٦) (٧٠) .

محمودٌ إذا صلحتِ النية فيه ، عَمِلَ به أو لم يعمل ، وإنَّما كَره قومٌ زيادةَ العلم لكونهم لم ينتفعوا به) .

وكان يقول : (من ضبطَ ما يدخلُ بطنه فقد ضبطَ الأخلاقَ الصالحة) أي : لأنها تنشأُ من اللقمة ، كما أنَّ من لم يضبطْ ما يدخلُ جوفه ضبطَ الأخلاق السيئة كلَّها .

ومنهم :

(٦٩) سعيد بن جُبير رضي الله عنه[١]

كان أكثرُ أوقاته بكَّاءً علىٰ تفريطه في جنب الله ، حتىٰ عمشتْ عيناه ، ويقول : (من بكىٰ هنا فرحَ هناك) .

وكان كثيراً ما يختم القرآنَ في ركعةٍ في جوف الكعبة .

وكان يقول : (كلُّ موجبةٍ فهي كبيرة) .

وكان يقول : (بلغتُ من حقارة نفسي ألا أراها أهلاً أن تنهىٰ أحداً عن فعلٍ رديء) ؛ أي : كان ينهى الناسَ ، ولا يرىٰ نفسَه أهلاً لذلك .

وكان له ديكٌ يقوم يتهجَّدُ علىٰ صياحه كلَّ ليلةٍ ، فلم يصحِ الديكُ ليلةً ، فنام سعيدٌ عن ورده ، فدعا على الديك ، فمات لوقته ، فعزم ألا يدعو بعد ذلك علىٰ أحدٍ .

وكان يقول : (من علامة الإجابة حلاوةُ الدعاء) .

ولما أخذه الحجَّاجُ قال : ما أُراني إلا مقتولاً ، فكان كذلك .

ودخلتْ عليه ابنتُهُ ، فرأت القيدَ في رجله ، فبكتْ ، ثم إنه دُعي ليُقتل ، فصاحت ، فقال : يا بُنية ؛ ما بقاءُ أبيك بعد سبعٍ وخمسين سنة ؟!

ولما قطع الحجَّاجُ رأسَهُ صاحتِ الرأسُ : (لا إلـٰه إلا الله) مرتين ، ثم قالتِ الثالثة فلم تُتمَّها .

ولما وعده بالقتل بكرةَ النهار قال للحرس : دعوني أتأهَّبْ للموت ، وآتيكم غداً ،

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٢٠٧) (٧١)

فتنازعوا في ذلك خوفَ الهرب ، ثم إنه غلبَ عليهم اعتقادُ صدقه ، فأطلقوه ، ثم جاءهم من الغد ، فقدَّموه للقتل ، ثم بُسط النِّطعُ ، وجاء السيَّافُ ، فذبحه على النِّطع ، وكان قد قال : اللهم ؛ لا تُسلِّطِ الحجَّاجَ على أحدٍ بعدي ، فعاش الحجاج بعده خمس عشرة ليلة ، ووقعتِ الأَكَلَةُ في بطنه ، فكان يُنادي بقيَّةَ حياته : ما لي ولسعيد بن جبير ، كلما أردتُ النوم أخذوا برجلي فجرُّوني .

قُتل رضي الله عنه سنة خمسٍ وتسعين .

وكان كثيراً ما يقول لأصحابه : (من أطاعَ الله تعالىٰ فهو ذاكرٌ ، ومن عصاه فهو غافل ، وإن أَكْثَرَ التسبيحَ وتلاوةَ القرآن) .

وقيل له مرة : مَنْ أَعبدُ الناس ؟ فقال : رجلٌ وقع في الذنوب كثيراً ، ثم تابَ منها ، فكلما تذكَّرَ ذنوبَهُ احتقرَ عمله .

وكان إذا طلع الفجرُ لا يتكلَّمُ بغير ذكر الله تعالىٰ حتىٰ تطلع الشمس ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٧٠) عامر الشعبي رضي الله عنه[١]

كان من أكثر الناس إجلالاً لله عز وجل ، وكان إذا سمع أحداً يَستغيبُهُ يقول : قد سامحتُكَ لمن أنتَ عبدُهُ ، ثم يُنشد[٢] : [من الطويل]

هنيئاً مَريئاً غيرَ داءٍ مُخامرٍ لعزَّةَ من أَعراضِنا ما استحلَّتِ

وكان يقول : (إياكم والقياسَ في الدين ؛ خوفَ الزيادة فيه) .

وكان يقول : (لأن أقيم في حمامٍ أحبُّ إليَّ من أن أُقيمَ بمكة) ، قال سفيان : (إعظاماً لها ، وخوفاً من وقوع ذنبٍ فيها) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٢٠٨) (٧٢) .
(٢) البيت لكثير عزة . انظر « ديوانه » (ص ١٠٠) .

وكان يقول : (اتَّقوا الفاجرَ من القرَّاء ، والعابدَ الجاهل ؛ فإنهما فتنةٌ لكلِّ مفتون) .

وكان يقول : (لم يحضرْ وقعةَ الجمل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أربعةٌ : عليٌّ ، وعمار ، وطلحة ، والزبير ، فإن جاؤوا بخامسٍ فأنا كاذب)[1]

ووصفوه مرةً بالفقه والعلم ، فقال : (لستُ بفقيهٍ ولا عالم ؛ إنَّما نحن قومٌ سمعنا حديثاً ، فنحن نحدِّثُكم بما سمعنا ، وإنما الفقيهُ من تورَّعَ عن محارم الله ، والعالِمُ من يخشى اللهَ بالغيب) .

وكان يقول : (تعايشَ الناسُ بالدِّين طويلاً حتىٰ ذهبَ الدِّين ، ثم تعايشوا بالمروءة طويلاً حتىٰ ذهبتِ المروءة ، ثم تعايشوا بالحياءِ طويلاً حتىٰ ذهب الحياء ، ثم تعايشوا الآن بالرغبة والرهبة ، وسيأتي بعد ذلك ما هو أشدُّ منه) .

وكان يقول : (ليتني لم أتعلَّمْ علماً ، وخرجتُ من الدنيا كفافاً لا عليَّ ولا لي) .

وكان يقول : (ما بكينا قطُّ من زمانٍ إلا وبكينا عليه) .

وكان يقول : (أدركنا الناسَ وهم لا يُعلِّمون العلمَ إلا لعاقلٍ ناسك ، وقد صاروا اليوم يُعلِّمونه لمن لا عقلَ له ولا نسك) .

توفي رضي الله عنه بالكوفة سنة أربعٍ ومئة ـ وهي السنةُ التي ولد فيها الإمامُ الشافعي[2] ـ عن سبعٍ وتسعين سنة .

ومنهم :

(٧١) ماهان بن قيس رضي الله عنه[3]

كان لا يفترُ عن ذكر اللهِ عز وجل ، ويقول : (أما يستحي العبدُ أن تكونَ دابتُهُ أكثرَ ذكراً لله منه) .

---

(١) ولعل مراده الرعيل الأول من الصحابة ، وكانت وقعت الجمل سنة (٣٦) للهجرة .

(٢) المعروف كما في كتب التراجم أن الشافعي ولد سنة خمسين ومئة ، وتوفي سنة أربع ومئتين .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٠٩) (٧٣) .

ولمَّا صلبَهُ الحجَّاجُ علىٰ بابه كان يذكر اللهَ على الخشبة ، فيهلِّلُ ، ويسبِّحُ ، ويكبِّرُ ، ويعقد بأصابعه حتىٰ بلغ تسعاً وعشرين ، ثم طعنوه علىٰ تلك الحالة ، فمات ، ومكثَ شهراً مصلوباً .

وسئل مرةً عن أعمال الصحابة ، فقال : كانت قليلةً ؛ ولـٰكنَّ قلوبَهم سليمةٌ ، وأنتم أعمالُكم كثيرة ، وقلوبُكم غيرُ سليمة .

ومنهم :

(٧٢) رِبعي بن حِراش رضي الله عنه[1]

كان من أعبدِ الناس ، وأكثرِهم مجاهدةً .

وكان يقول : (لا تعوِّدوا نفوسَكم الراحة في الدنيا ، فتُسبقَوا غداً يومَ القيامة) .

وكان يقول : (إنِ استطعتَ ألا تُعرفَ في هـٰذا الزمان فافعلْ ؛ فإن الدنيا فسدتْ ، وما بقي للعبد إلا العزلةُ عن الكبير والصغير ، إلا في مواضع الاجتماع المشروع) .

وكان يقول : (من فائدةِ الجوع : أن يُميتَ الهوىٰ ، ويُصفِّي الفؤاد ، ويُورث فهم دقائق العلوم) .

وكان يقول : (من أكلَ حلوى الأمراء مالَ إلىٰ هواهم) .

وكان يقول : (من قلَّد غيرَه استراح من ورطة الجدال) .

وكان يقول : (من شبعَ من الحلال يُوشكُ أن يشبعَ من الحرام) .

وكان أكثرُ صومِهِ رضي الله عنه في أيام الصيف .

وكان قد آلىٰ علىٰ نفسِهِ : أنه لا يضحكُ قطُّ حتىٰ يعلمَ أين مصيرُهُ : إلى الجنة أم إلى النار ، فضحكَ علىٰ مُغتسله ، وقال : قدمتُ علىٰ ربٍّ كريم .

وكان يُنفق مالَه كلَّه علىٰ أصحابه ، ويضيِّقُ علىٰ نفسه ، ويقول : إنْ لم ينفقِ السُّلطان علىٰ عسكره عُصِي أمرُهُ ، وربما قاتله ، والإحسان إلى الأصحاب يقيِّدُهم على

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢١٠) (٧٤) .

الطاعة ، فلما نفدَ مالُهُ كلُّه دخلوا عليه ، فوجدوه يعجنُ عجينَهُ في جفنةٍ ودموعُهُ تسيل ، فقيل له في ذلك ، فقال : لمَّا قلَّ مالي جفاني أصحابي .

توفي رضي الله عنه سنة أربعٍ ومئة .

ومنهم :

(٧٣) طلحة بن مُصَرِّف رضي الله عنه(١)

كان يقول : (استعينوا على الشيطان بالله عز وجل ؛ فإنه ربَّما جلبَ على الإنسان بمثل ربيعةَ ومضرَ حتىٰ يُوقعَهُ فيما سُلِّطَ به عليه)(٢)

وكان من أعظمِ الناس ورعاً وزهداً .

ودخلتْ جاريةٌ مرةً داره تطلبُ ناراً ، فقالت لها امرأته : اصبري حتىٰ نشوي لطلحة قديدَهُ ، فصبرتِ الجاريةُ لها ، فلم يأكلْ من ذلك القديد ، وقال : حتَّىٰ تُرسلي لسيِّدِها يُسامحنا في تعويق جاريته عندنا لأجلي .

وشوتْ له امرأتُهُ مرَّةً لحماً علىٰ سيخ حديد كان عندها للناس ، فلم يأكلْ من ذلك الشويِّ .

وكانوا إذا رفعوه فوق أحدٍ من علماء زمانه يذهبُ إلىٰ ذلك العالِمِ ، ويجلسُ بين يديه ، ويقرأ عليه ؛ ليدفعَ ما توهَّمَهُ الناسُ فيه من أنه أعلمُ منه .

وكانوا إذا ذكروا عنده الاختلافَ ينهاهم ، ويقول : لا تقولوا : الاختلاف ، وقولوا : السَّعَةُ على المسلمين .

وكان يقول : (لقد أدركنا أقواماً لو رأيتموهم لاحترقتْ أكبادُكم ، وقد كنا نرىٰ أنفسَنا في جنبهم لصوصاً ، ونرىٰ كثرةَ أعمالنا لعباً) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢١١) (٧٥) .

(٢) جلب علىٰ فرسه : أي : صاح به من خلفه واستحثَّهُ ، قال ابن عاشور في تفسير ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ ﴾ [الإسراء : ٦٤] (١٥/ ١٥٣) : (وهو تمثيل لحال صرف قوته ومقدرته على الإضلال بحال قائد الجيش يجمع فرسانه ورجالته) .

وكان يقول : (العتابُ مفتاح التقالي[١] ، فقلَّ ما عاتبَ أحدٌ أخاه علىٰ أمرٍ إلا وقلاه بعد ذلك ، فالتجاوزُ عن زلات الإخوان واجبٌ) .

وكان يقول : (إنْ خافَ الإنسانُ حصولَ حقدٍ من تركِ العتاب . فالعتابُ أولىٰ) .

وكان يقول : (أكرموا سفهاءكم ؛ فإنهم يكفونكم العارَ والنار) .

وكان يقول : (إذا اعتذرَ إليك أخوك فتلقَّه بوجهٍ طلقٍ ، إلا أن تكونَ مأموراً بهجره) .

توفي رضي الله عنه سنة اثنتي عشرة ومئة .

ومنهم :

(٧٤) زُبَيْد اليامي رضي الله عنه[٢]

كان ورعاً زاهداً ، ذا هيبةٍ ، يَراه الرجلُ فيرجُفُ فؤادُه من هيبته .

وكان يقسمُ الليلَ أثلاثاً ؛ ثلثٌ عليه ، والثلثان علىٰ أخويه[٣] ، فكان يقومُ ثُلثَهُ ، ثم يجيءُ إلىٰ أخيه ، فربما يركُضُهُ برجله ، فيجده كسلاً ، فيقول له : نم ، أنا أقومُ عنك ، ثم يأتي لأخيه الآخر ، فيفعلُ معه كذلك إذا رآه كَسِلاً ، فكان يقوم الليلَ كلَّهُ

توفي سنة اثنين وعشرين ومئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٧٥) منصور بن المعتمر رضي الله عنه[٤]

كان إذا وقفَ للصلاة كأنَّه ميتٌ .

وكان سفيان الثوريُّ يقول : (لو رأيتم منصور بنَ المعتمر وهو يُصلِّي لقلتم إنه يموتُ الساعةَ) .

---

(١) **التقالي** : التباغض .

(٢) في النسخ : (البامي) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وقد تقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢١٢) (٧٦) .

(٣) في النسخ : (أخويه) ، وفي المصادر : (ابنيه) .

(٤) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢١٢) (٧٧) .

وكانت لحيتُهُ تلصقُ بصدره في الصلاة .

وكان يقول : (من لم تعمشْ عيناه من البكاء فليس بباك) .

وكان يقوم الليل علىٰ سطحِ داره ، فلما توفي قالت ابنةُ جيرانه لأمها : ما فعلت تلك الأُسطُوانة التي كانت فوقَ سطح جارنا ؟ فقالت لها : ليست تلك بأسطوانة ، ولـٰكنها كانت جارَنا ؛ لأنه كان يقومُ الليلَ كلَّهُ ، فظنَّتْ أنه عمود ، وتقدَّم مثلُ ذلك في الربيع بن خُثيم[١]

وصام ستين سنة وقامها لم ينمْ[٢] ، ولم يُفطر نهاراً .

وكان يبكي حتىٰ يرحمَهُ أهلُهُ طولَ ليله ، وكان إذا أصبحَ كحل عينيه وادَّهن ، وخرج إلى الناس ، وأظهر النشاطَ ، يُوهمُهم أنه كان نائماً .

وكان قد عَمِشَ من شدَّةِ البكاء .

وحبسوه شهراً لِيَليَ القضاء ، فلم يفعلْ ، فقالوا لعامل الكوفة : لو نترتَ لحمَهُ لم يتولَّ القضاءَ ، فخلَّىٰ سبيله ، وحلَّ قيده .

وكان دائماً لا يراه أحدٌ إلا مُنكسرَ الطرف ، مُنخفضَ الصوت ، رطبَ العينين ؛ إذا حرَّكته جاءتْ عيناه بالدموع .

وكان يقول : (لو لم يكن لنا ذنبٌ إلا محبَّتَنا للدنيا لاستحقَّينا دخولَ النار) .

وكان يقول لعلماء زمانه : (إنَّما أنتم تتلذَّذون بالعلم ، يسمعُ أحدُكم المسألة من العلم فيحكيها ، ولو أنكم عملتم بالعلم لتجرَّعتم مرارةَ الدنيا ؛ لأنه ليس شيء من العلم يأمركم بمحبَّتها أبداً) .

وكان يقول : (من أعظمِ الزهد في الدنيا الزهدُ في لقاءِ الناس ، وانشراح الصدر إذا جفوك) .

---

(١) تقدم (٣/ ٦١) .

(٢) في (ز) : (وقام ليلها لم ينم) .

وكان يقول : (اللهم ؛ لا تجعلْ لي مالاً ولا ولداً ولا خادماً ولا داراً ، وما أعطيتَهُ لي مما يشغلني عنك فخذْه مني سريعاً) .

توفي سنة اثنتين وثلاثين ومئة .

ومنهم :

(٧٦) سليمان بن مِهْران الأعمش رضي الله عنه[١]

كان يُكرمُ الفقراء ، ويهينُ الأمراء ، حتىٰ كان الملوكُ والأمراء في مجلسه أحقرَ الحاضرين ، مع أنه كان مُحتاجاً إلىٰ رغيف .

وكان يقول : (نقضُ العهد وفاءٌ بالعهد لمن ليس له عهد) .

وكان إذا قام من النوم فلم يجدْ ماءً يضربُ يديه على الحائط ويتيمَّمُ محافظةً على الطهارة حتىٰ يجدَ الماء ، ويقول : (أخافُ أن أموتَ علىٰ غير طهارةٍ ؛ فإنَّ الموتَ يأتي بغتةً) .

ومكث نحو سبعين سنة لا تفوتُهُ تكبيرةُ الإحرام مع الإمام .

وكان يحثُّ أصحابه علىٰ ترك المعصية أكثرَ من حثِّهم علىٰ فعلِ الطاعة ، ويقول : (أما يخشىٰ أحدُكم إذا عصا الله أن يثورَ من تلك المعصية دخانٌ يسوِّدُ وجهَ أحدِكم بين الناس ، أو يشتبكَ ذَكَرُ الزاني في فرج الزانية حتىٰ يراه الناسُ)

وكان يقول : (من علامةِ فساد الناس أن يؤمَّرَ عليهم شرارُهم) .

وكان يقول : (إذا أنا متُّ فلا تعلموا بي أحداً ، واذهبوا بي فاطرحوني في لحدي ؛ فإني أحقرُ من أن يمشي أحدٌ في جنازتي) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ إني لأستحيي من الله تعالىٰ أن أجلسَ في المسجد بعد صلاة الجماعة ، ولولا أن الشرعَ أمرني بالحضورِ ما تجرَّأت أن أحضرَ) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ لو كانت نفسي بيدي لطرحتُها في بيت الخلاء) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢١٣) (٧٨) .

ومنهم :

(٧٧) أبو إدريس الخَولاني رضي الله عنه[١]

كان يقول : (ليس بفقيهٍ من لم يعملْ بما عَلِمَ) .

وكان يقول : (لا يهتك اللهُ سترَ عبدٍ وفي قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من خير) .

وكان يقول : (إعرابُ اللسان يقيمُ جاهَكَ عند الناس ، وإعرابُ القلب يقيمُ جاهَكَ عند الله) .

وكان يقول : (لي كذا كذا سنة ما عملتُ عملاً أستحي من أن يراني الناس عليه ، إلا الجماع والغائط) .

وكان يعلِّقُ سَوْطَه في موضعِ صلاته ، فإذا وجد في نفسه كسلاً ضربَها به ، ويقول : أنا أحقُّ بالسَّوطِ من الدوابِّ ، فيضرب ساقيه حتىٰ ينتفخا .

وكان يمشي علىٰ دجلة بغداد والناس يَنظرون ، رضي الله عنه

ومنهم :

(٧٨) مكحول الدمشقي رضي الله عنه[٢]

كان يقول : (من أحيا ليلةً واحدةً بذكر ربِّه أصبحَ كيومَ ولدته أمُّهُ) .

وكان يقول : (إن كان الفضلُ في الجماعة فإن السلامةَ في العزلة) .

وكان يقول : (إذا كان في أمَّةٍ خمسةَ عشرَ رجلاً يستغفرون الله عز وجل كلَّ يومٍ خمساً وعشرين مرة . . لم يؤاخذِ الله عز وجل تلك الأمة بعذابِ العامة) .

وكان يقول : (من طاب ريحُهُ زادَ عقله ، ومن نظف ثوبُهُ قلَّ غمُّهُ) .

وكان يقول : (إذا بلغك القولُ عن الرجلِ فأنْكَرَهُ فخذْ بقوله ، ودع ما بلغك عنه) .

وكان يقول : (كنا نمزحُ ونضحك ، فلما بلغنا السنَّ الذي يُقتدىٰ بنا فيه أَمسكنا عن ذلك) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢١٤) (٧٩) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢١٥) (٨٠) .

وكان يقول : (إذا تكلَّمَ الفقيهُ بالإعراب ذهب الخشوعُ من قلبه) .

وكان يقول : (لا تكملُ محبَّةُ الأخ في الله تعالىٰ حتىٰ يكونَ أحبَّ إليك من الأب والأم والأخ الشقيق) .

وكان يقول : (طولُ الكمد أعجبُ من طول الدمعة للخائفين) .

وكان يقول : (إنَّ العقلَ إذا طاشَ فُقدتِ الحرقة ، وإذا فُقدتِ الحرقة قلصتِ الدمعةُ ، وإذا ثبتَ العقلُ فهم صاحبُهُ الموعظةَ فأحرقته ، فحزن وبكىٰ) .

وكان يقول مناجياً لله عز وجل : (ما أراكَ تُعذِّبنا قطُّ وتوحيدُك في قلوبنا ، ولو أنك فعلتَ بنا ذلك لجمعتَ بيننا وبين قومٍ طالما عاديناهم وقاتلناهم لأجلك) .

وكان يقول : (كان العلماءُ إذا عملوا عملاً لا يرون نفوسَهم علىٰ من لم يعمل ، وكانوا إذا عملوا بعلمهم اشتغلوا بنفوسهم ، وإذا اشتغلوا بنفوسهم فُقدوا ، وإذا فُقدوا طُلبوا ، وإذا طلبوا هربوا) .

وكان يقول : (لا تبذلْ علمَكَ قطُّ لمن لا يسأله ؛ فإنه يستهين به) .

وكان يقول : (أدركنا الناسَ وهم يسمون الدنيا الدنية ، ولو وجدوا لها اسماً أشرَّ منه لسمَّوها به) .

وكان يقول : (كانت أحبارُ بني إسرائيل ـ الصغيرُ منهم والكبير ـ لا يمشي إلا بالعصا مخافةَ أن يختالَ أحدُهم في مشيته ، فيمقته الله عز وجل) .

ومنهم :

(٧٩) كعب الأحبار رضي الله عنه[١]

كان يقول : (ما استقرَّ لعبدٍ ثناءٌ في الأرض إلا بعد أن استقرَّ في السماء) .

وكان يقول : (أنيروا بيوتَكُم بذكر الله كما تُنيروا به قلوبَكم) .

---

(١) كعب بن ماتع الحميري : أبو إسحاق ، أسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقدم المدينة من اليمن في أيام عمر رضي الله عنه ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢١٦/١) (٨٢) .

وكان يقول : (يأتي على الناس زمانٌ تكثرُ فيه المسألةُ ، فمن سأل في ذلك الزمان لم يُبارك له فيما يأخذ) .

وكان يقول : (ما أحدٌ يُساقُ إلى النار إلا وهو مُسوَّدُ الوجه ، قد وضعتِ الأَنكالُ في قدميه ، والأغلالُ في عنقه ، إلا من كان من هـٰذه الأمة ؛ فإنهم يُساقون إلى النار بألوانهم من غيرِ تسويدِ وجوههم ؛ لأنهم كانوا يَسجدون عليها في دار الدنيا) .

وكان يقول : (إنما سُمي الخليل أواهاً[1] ؛ لأنه كان إذا سمعَ بذكر النار قال : أوَّه من النار ، أوَّه من النار) .

وكان يقول : (يوشكُ أن تروا جهَّالَ الناس يتباهون بالعلم ، ويتغايرون به على التقدُّم عند الأمراء كما تتغايرُ النساء على الرجال ، فذلك حظُّهم من علمهم) .

وكان يقول : (صلاةٌ بعد صلاة ليس بينهما لغوٌ كتابٌ في علِّيين) .

وكان يقول : (لا يذهبُ ألمُ الموت عن الميت ما دام في قبره) .

توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه .

ومنهم :

(٨٠) عبد الرحمـٰن بن عمرو الأوزاعي
الإمام الجليل رضي الله عنه[2]

كان رضي الله عنه يكرهُ صيدَ الطير أيامَ فراخه رحمةً بالولدِ والأم أن يُفرَّقَ بينهما[3] .

وكان لا يأكلُ من الصيدِ إلا ما لا ولد له صغير .

وكان لا يدخلُ الخلاء إلا كلَّ شهرٍ مرة ، فلما مشتْ بطنُهُ صار يَدخلُ في الشهر مرتين .

---

(١) قال تعالىٰ في (سورة هود) الآية (٧٥) : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢١٧) (٨٣) .

(٣) في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢١٧) : (يكره صيد البر أيام فراخه رحمة بأمه وبه) .

وكان يقول : (تباركَ من خلقك يا بن آدم ، وجعلك تنظرُ بشحمٍ ، وتسمعُ بعظمٍ ، وتتكلمُ بلحم) .

وكان يقول : (ليس ساعةٌ من ساعات الدنيا إلا وهي معروضةٌ على العبد يومَ القيامة يوماً بيوم ، وساعةً بساعة ؛ فالساعةُ التي لا يذكرُ اللهَ فيها تنقطعُ نفْسُ العبدِ عليها حسرات ، فكيف إذا مرت عليه ساعةٌ مع ساعةٍ ، أو يومٌ مع يوم ؟!) .

وكان يقول : (أدركنا الناسَ وهم أولَ ما يستيقظون من النوم يتفكَّرون في أمر معادهم ، وما هم صائرون إليه ، ثم يفيضون بعد ذلك في الفقه والقرآن ، ونراهم اليومَ أول ما يستيقظون لا يتفكَّرون إلا في أمور الدنيا) .

ودخل عليه المنصورُ يوماً ، فقال : عظني ، فوعظَهُ ، فبكىٰ ، فقال : ادعُ لي ، فقال : ما من أحدٍ من رعيتك إلا وهو يشكو بليَّةً أوصلتها إليه ، أو ظُلامةً سقتها إليه ، فما ينفع دعاءُ عبد الرحمٰن لك ؟!

وكان يقول : (لقاءُ الإخوان خيرٌ من لقاء الأهل والمال) .

وكان يقول : (الفارُّ من عياله كالآبق ، لا يُقبلُ له صلاةٌ ولا صومٌ حتىٰ يرجعَ إليهم) .

وكان يقول : (لو قبلنا من الناس كلَّ ما يُعطوننا لهُنَّا في أعينهم) .

ولد رضي الله عنه سنة ثمان وثمانين ، ومات سنة سبعٍ وخمسين ومئة .

وكان مولدُهُ ببعلبك ، ومات في حمام بيروت ، دخلَ الحمامَ ، فذهب الحماميُّ في حاجةٍ ، وأغلق عليه الباب ، ثم جاء فوجده ميتاً متوسِّداً يمينه ، مستقبلَ القبلة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٨١) حسان بن عطية رضي الله عنه[1]

كان من أعبدِ الناس .

وكان إذا صلَّى العصر يتنحَّىٰ في ناحيةِ المسجد، فيذكر الله تعالىٰ حتىٰ تغيبَ الشمس .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢١٨) (٨٤) .

وكان يُدمنُ قيام الليل ويقول : (من أطالَ القيامَ في الليل هوَّن الله تعالىٰ عليه طولَ يوم القيامة) .

وكان يقول : (ما ازدادَ العبدُ في علمه وعمله إخلاصاً إلا ازدادَ الناسُ منه قرباً) .

وكان يقول : (بكىٰ آدمُ علىٰ خطيئته سبعين عاماً ، وبكىٰ علىٰ خروجِهِ من الجنَّةِ سبعين عاماً ، وبكىٰ على ابنه هابيل لما قُتل أربعين عاماً ، وأقام بمكة مئة عام) .

ومنهم :

(٨٢) عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه[١]

أدركَ الحسنَ البصري وغيرَهُ .

وكان يقول : (مَثَلُ المؤمن مثلُ الولد في الرحم ، لا يحبُّ الخروجَ ، فإذا خرجَ لم يحبَّ أن يرجعَ ، فكذلك المؤمنُ إذا خرج عن الدنيا) .

وكان يقول : (عليكم بالتقلُّل من الدنيا ، وعليكم بالخبزِ والملح ؛ فإنه يذيبُ شحم الكلىٰ ، ويزيدُ في اليقين) .

وكان يقول : (أحسنُ أحوال العبد مع الله تعالىٰ موافقتُهُ ، فإن أبقاه في الدنيا لطاعته كان أحبَّ إليه ، وإن أخذه كان أحبَّ إليه) .

وكان يقول : (ما من عبدٍ أُعطي من الدنيا شيئاً ، فابتغىٰ إليه شيئاً ثانياً إلا سلبه اللهُ تعالىٰ حبَّ الخلوة معه ، وبدَّله بعد القرب بعداً ، وبعد الأُنس وحشة) .

وصلَّىٰ رضي الله عنه الصبحَ بوضوء العشاء أربعين سنة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٨٣) أبو بشر صالح المُرِّي رضي الله عنه[٢]

كان كثيرَ البكاء ، يبكي كبكاءِ الثكلىٰ علىٰ ولدها ، ويجأَرُ جؤار الرهبان ، ويرتعدُ حتىٰ تكادَ مفاصلُه تتقطَّع .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢١٩) (٨٥) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢١٩) (٨٦) .

وكان إذا رأى المقبرةَ يمكثُ مبهوتاً اليومين والثلاثة لا يعقلُ ولا يتكلَّم ، ولا يأكلُ ولا يشرب ولا ينام .

وكان يسمعُ كلامَ الموتىٰ ، ويسمعُ ما يعظونه به ويقولون : ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف : ٤٤] ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٨٤) أبو المهاصر بن عمرو القيسي رضي الله عنه[1]

واسمه : رياح .

كان رضي الله عنه يقول : (لي نيفٌ وأربعون ذنباً قد استغفرتُ الله عز وجل عن كلِّ ذنبٍ مئة ألف مرة ، وما ثَمَّ إلا عفوه ومغفرتُهُ) .

وكان يقول : (من شأن العاقل : ألا يجعلَ لبطنه علىٰ عقله سبيلاً ؛ فإنَّ الدنيا أيامٌ قلائل) .

وكان لا يأكلُ دائماً إلا سدَّ رمقٍ .

وكان يقول : (إياكم وأكلَ اللحم ؛ فإنَّ أكلَ مثقالٍ من لحمٍ يقسِّي قلبَ أحدكم أربعين صباحاً) .

وكان يقول : (تحويلُ الجبل من مكانه أهونُ من إزالة حبِّ الرئاسة إذا استحكم في النفس) .

وفي روايةٍ أُخرىٰ عنه : (نحتُ الجبال بالأظافير أهونُ من مخالفة الهوىٰ إذا تمكَّنَ في النفس) .

---

(١) في النسخ : (المهاجر) بدل (المهاصر) ، والمثبت من : « الإكمال » (٧/ ٢٠٤) ، و« القاموس المحيط » (هـ ص ر) ، و« تبصير المنتبه » (هـ ص ر) ، و« تاج العروس » (هـ ص ر) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٢٠) (٨٧) .

وكان يقول : (رحمَ اللهُ أقواماً زاروا قبورَ إخوانهم بقلوبهم ، وهم في محاريبهم) .

وكان ينهىٰ أصحابَه عن الجلوس علىٰ حوانيت الصيارفة ، ويقول : إنها أماكنُ الرِّبا .

وكان يقول : (إذا قال رفيقُكَ قصعتي فليس برفيقٍ حتىٰ يقولَ قصعتنا) .

وكان يقول : (لمَّا التقى الخضرُ مع موسىٰ كان من جملة ما أوصاه : إياكَ يا موسىٰ أن تتعلَّم العلمَ لغيرك فلا تعملُ به أنت ، فيكون لغيرك نورُهُ ، وعليك وِزرُهُ) .

وكان يقول : (كما لا تنظرُ أبصارُ الخفافيش إلىٰ نور الشمس كذلك لا تنظرُ قلوبُ محبِّي الدنيا إلىٰ نور الحكمة) .

وكان يقول : (لا يبلغُ الرجلُ إلىٰ منازل الصدِّيقين حتىٰ يتركَ زوجتَه كأنها أرملةٌ ، وأولادَهُ كأنهم يتامىٰ ، ويأوي إلىٰ مزابلِ الكلاب) .

وكان إدامُهُ دائماً الخبزَ والملحَ لا يزيدُ عليه ، ويقول لنفسه : أمامكِ الشوي وطعامُ العرس في الدار الآخرة

وكان يقول : (عليك بمجالسِ الذكر ، وحسنِ الظن بمولاك ، وكفىٰ بهما خيراً) .

ومنهم :

(٨٥) عطاء السَّلِيمي رضي الله عنه[١]

كان الغالبُ عليه الخوفَ من الله عز وجل والحزنَ علىٰ ما فرَّطَ في جنب الله ، حتىٰ إنه مكثَ في بيته لا يخرجُ من البيت ولا يقدرُ أن يقومَ أربعين سنة ، وكان يُومئ بالصلاة علىٰ فراشه .

وكان يخدمُهُ داخل بيته المخنَّثون ، فقيل له : ألا تُطهِّرَ بيتك من هٰؤلاء الأقذار

---

(١) تقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٢١) (٨٨) ، وفي النسخ (السلمي) بدل (السليمي) ، والمثبت من مصادر ترجمته .

والجيف ؟! فقال : واللهِ ؛ لَهُم عندي أطهرُ من نفسي .

ونظر مرَّةً في التنُّورِ وهو يُسجرُ ، فغُشيَ عليه

وكان يبكي الثلاثة أيام بلياليها متواليةً لا يَرقأُ له دمعٌ حتىٰ يبكي الدمَ .

وكان إذا بكىٰ يدخلُ الداخلُ فيظنُّ أنَّ رشاشَ دموعِهِ على الأرض أثرُ الوضوء ، وإنما هي دموعُهُ ، كان يتلقَّاها بيديه ، ويرشُّها حوله .

وكان إذا خرجَ لجنازةٍ يُغشىٰ عليه في الطريق مرات ، ويخرُّ من على الدابة ، ثم يرجعُ ، وربما رجعوا به في نعشِ الميت .

وكان إذا نزلَ بالمسلمين بلاءٌ يقول : (هٰذا كلُّهُ بذنبِ عطاء ، لو مات عطاءٌ استراح الناسُ منه) .

ومنهم :

(٨٦) عُتبة الغلام بن أبان رضي الله عنه[١]

وسمي بالغلام ؛ لأنه كان في العبادة كأنه غلامُ رهان[٢] ، لا لصغرِ سِنِّه .

وكان يقول : (جاءني عبدُ الواحد بنُ زيد فقال لي : ما بال فلان يصفُ من قلبه منزلةً لا أعرفها في قلبي ؟! فقلتُ له : لأنك تأكلُ مع خبزك تمراً وهو يأكل حافاً) .

وكان عتبةُ يأوي إلى المقابر والصحارىٰ ، ويَخرجُ إلى السواحل فيقيم فيها ، فإذا كان يوم الجمعة دخل البصرة ، فيُصلِّي الجمعةَ ، ويزورُ إخوانه ثم يرجع .

وكان الغالبُ عليه الحزنَ حتىٰ كانوا يشبِّهونه بالحسن البصري .

وكان يهجعُ أولَ الليل هجعةً ، ثم يقوم يُصلِّي إلى الصباح .

وكان يلبسُ الشعر تحت ثيابه ، إلا يوم الجمعة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١ / ٢٢٢) (٨٩) .

(٢) كذا في عامة النسخ : (رهان) ، وفي المطبوع من « الكبرىٰ » (١ / ٤٧) (رهبان) والصواب ما أثبت .

وكان لباسه كساءين أغبرين ، يأتزرُ بواحدةٍ ويَرتدي بالأخرىٰ .

وكان له بيتٌ مغلقٌ لا يفتحه إلا ليلاً ، فلما مات فتحوه ، فوجدوا فيه قبراً محفوراً وغُلاً من حديد ، كان يجعلُه في عنقه ، ويوبِّخُ نفسه بذلك .

مات شهيداً في قتال الروم رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٨٧) سفيان بن سعيد الثوري رضي الله عنه[١]

كانوا يُسمُّونه أميرَ المؤمنين في الحديث .

ولد رضي الله عنه سنة سبعٍ وتسعين ، وخرج من الكوفة إلى البصرة سنة خمسٍ وخمسين ومئة ، وتوفي بالبصرة سنة إحدىٰ وستين ومئة .

وكان عالمَ الأمة وعابدَها وزاهدَها .

وكان رضي الله عنه لا يُعلِّمُ أحداً العلم حتىٰ يتعلَّمَ الأدبَ عشرين سنة ثم يُعلِّمُهُ .

وكان يقول : (إذا فسدَ العلماءُ فمن بقي في الدنيا يُصلحهم ؟! ثم ينشد : [من الرجز]

يا معشـرَ العُلماءِ يا ملحَ البلدْ ما يُصلحُ الملحَ إذا الملحُ فَسَدْ

قيل له : فبأيِّ شيء يَفسُدُ العلماء ؟ قال : بميلهم إلى الدنيا ؛ فإنَّ الطبيبَ إذا كان يجرُّ الداءَ إلىٰ نفسه كيف يُداوي غيره ؟!

وكان يقول : (إذا لم يكنْ تحت الحنكِ من العمامةِ شيءٌ فهي عِمامةُ إبليس)[٢]

وكان يقول : (من تصدَّرَ للعلم قبل أن يحتاجَ الناسُ إليه فقد تعجَّل الذلَّ) .

وكان يمكثُ اليومين والثلاثة لا يأكلُ ؛ شغلاً بما هو فيه من العبادة ، فإذا اشتدَّ به الجوع وتضرَّر به أكلَ سدَّ الرمق .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٢٣) (٩٠) .

(٢) سيأتي مثل هـٰذا القول (٣/ ١٣٧) من قول الإمام مالك .

وكتب مرَّةً إلىٰ عبَّاد بن عبَّاد : (أما بعد ، فإنك يا أخي في زمانٍ كان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوَّذون بالله أن يُدركوه ، مع أنَّ معهم من العلم والدين واليقين ما ليس معنا ، فكيف بنا حين أدركناه علىٰ قلَّةِ علمٍ ودينٍ ، وضعفِ يقينٍ ، وقلَّة صبرٍ ، وقلَّةِ أعوانٍ على الخير ، وفسادٍ من الزمان ، وكدرٍ من الدنيا ؟! فعليك يا أخي بالأمرِ الأول ، والتمسُّكِ به ، وعليك بإخمالِ ذكرك ما استطعت ؛ فإنَّ هـٰذا زمانُ الخمول ، وعليك بالعزلة ، وقلَّةِ مخالطة الناس ، فقد كان الناسُ إذا التقوا ينتفعُ بعضُهم ببعضٍ ، وأما اليوم فقد ذهبَ ذلك ، فالنجاةُ الآن في تركهم ، وإياك والقربَ من الأمراء ومخالطتهم في شيءٍ من الأشياء ، ويُقال لك : لتشفعَ وتدرأَ عن مظلومٍ ، أو تردَّ مظلمةً ؛ فإنَّ ذلك من خديعةِ إبليس ، وإنما اتَّخذَ ذلك القرَّاءُ سُلَّماً للقُربِ منهم ، واصطياداً للدنيا بذلك) .

وكان إذا جلس للعلم وأعجبه منطقُهُ يقطعُ الكلام ويقوم ، ويقول أُخذنا ونحن لا نشعر .

وكان يُملي الحديثَ ويقول : (واللهِ ؛ لو رآني عمر بنُ الخطاب لضربني بالدِّرَّة وأقامني وقال : مثلُك لا يصلحُ لحديثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1]

وكان يقولُ للناس إذا طلبوا منه الحديث : (واللهِ ؛ ما أرىٰ نفسي أهلاً لإملاء الحديث ، ولا أنتم أهلٌ أن تسمعوه ، وما مَثَلي ومَثَلُكُم إلا كما قال القائل : افتضحوا فاصطلحوا) .

وكان قد امتنعَ من الجلوس للعلم ، فقيل له في ذلك ، فقال : (واللهِ ؛ لو علمتُ أنهم يُريدون بالعلم وجهَ الله عز وجل لأتيتهم في بيوتهم ، وعلَّمتهم ، ولـٰكن إنما يُريدون بالعلم المباهاة ، وقولَهم حدثنا سفيان)

وكان يقول : (إذا تزوَّجَ الرجلُ فقد ركب البحر ، وإذا ولِدَ له ولدٌ فقد سافر به المركب) .

وكان يقول : (من شأن العاقل ألا يُزاحمَ على الفُتيا إذا كفاه غيرُهُ) .

---

(١) تقدمت هـٰذه المقولة من قول مالك بن دينار رحمه الله تعالىٰ (٣/ ٨٠) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ ما كنا نظنُّ أننا نعيشُ إلىٰ هـٰذا الزمان الخبيثِ ، وظهورِ هـٰذه المنكرات) .

وكان رضي الله عنه ربما يخرج إلى السوق ، فيرى المنكر ، فلا يقدرُ علىٰ إزالته ، فيبول الدمَ قهراً .

وكان رضي الله عنه يقول : (كيف يحبُّ العاقلُ البقاءَ مع هـٰؤلاء الناس ، وهو مقتدٍ بالأموات ؟! فإننا إذا ذكرنا الأمواتَ حييت القلوبُ ، وإذا ذكرنا الأحياءَ ماتت) .

وكان يقول في مناجاته : (إلـٰهي ؛ البهائم يزجُرُها الراعي فتنزجرُ عن هواها ، وأُراني لا يزجرني كتابُكَ عما أهواه ، فيا كشف سوأتاه يومَ الحساب !) .

وكان رضي الله عنه من كبار المتورِّعين ، لا يكادُ يأكلُ طعامَ أحدٍ من أصحابه ، وربما دعوه إلى الوليمةِ ، فيأخذُ معه رغيفَهُ ، فإذا شعرَ به صاحبُ الطعام يقول له : أنت تعرفُ حالَ خبزك ، وأنا أعرفُ حال خبزي .

وكان يقول : (قال رجلٌ لعيسى بنِ مريم عليه السلام : أوصني ، فقال له : انظرْ رغيفَك من أين هو) .

وقيل له : إن فلاناً يدخلُ على المهدي ويقول : أنا بحمد الله في خلاصٍ من دخولي له ، فقال سفيان : كذبَ والله فيما قال ، أما رأىٰ إسرافَه في مأكله وملبسه ، وملبس خدمه وخيله ورجله ، وكلُّه من بيت مال المسلمين ؟! فهل قال له يوماً : هـٰذا لا يحلُّ لك ؟!

وكان يقول : (رضا المتجنِّي عليك غايةٌ لا تُدرك) .

وكان يقول : (اجتمعتُ بأبي حبيب البدوي رضي الله عنه ، فقال لي : يا سفيان ؛ عليك بالرِّضا عن الله عز وجل إذا منعك ما طلبتَ ؛ فإنَّ منعَ الله لك عطاءٌ ؛ لأنه ليس عن بخلٍ ولا عدمٍ ، وإنما هو نظرٌ واختبار) .

وكان يقول : (قد صار المالُ في زماننا هـٰذا صلاحاً للمؤمن ، أو قال : سلاحاً) .

وكان يقول : (أُحبُّ لطالبِ العلم أن يكونَ في كفايةٍ ؛ فإنَّ ألسُنَ الناس تُسرعُ بالوقيعة فيه إذا احتاجَ وذَلَّ) .

وكان يقول : (لا طاعة للوالدين في أكلِ الشُّبهات فضلاً عن الحرام) .

وكان يقول : (إنما فُضِّل العلمُ على غيره من الأعمال إذا عَمِلَ به صاحبُهُ) .

وكان يقول : (شكوى المريض إلىٰ أحدٍ من إخوانه ليس من شكوى الله عز وجل) .

وكان يقول للمهدي كلَّما اجتمع به : احذرْ من هـٰؤلاء الأعوان ، والمتردِّدين إليك من القرَّاءِ ؛ فإنَّ هلاكَك علىٰ يديهم ، يأكلون طعامَك ، ويأخذون دراهمَك ، ويغشُّونك ، ويمدحونَك بما ليس فيك ، وإنَّ أظلمَ الظالمين لنفسه مَنْ قَبِلَ مدحَ من لا يعرفه وهو يعرفُ من نفسه ضدَّ ذلك) .

وكان يقول : (أئمةُ العدل خمسةٌ : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر بن عبد العزيز ، من قال غير ذلك فقد اعتدىٰ) .

وكان سفيان رضي الله عنه رثَّ الهيئة ، حتىٰ قيل إنهم قوَّموا ثيابَهُ التي عليه حتى النَّعلَ فبلغَ درهماً وأربعةَ دوانق .

وكان رضي الله عنه لا يجلسُ قطُّ في صدر مجلس ، وإنما كان يقعدُ بجنب حائطٍ ، ويجمعُ بين ركبتيه .

وكان يقول : (لا ينبغي أن يأمر السلطان[١] إلا من كان عالماً عاملاً بما يأمره به ، بشرطِ الرفق والعدل ، وتمهيد بساطٍ للنصح قبل ذلك) .

وقال له رجلٌ مرةً : قد ذهبَ الناسُ يا أبا عبد الله علىٰ خيلٍ دُهم ، وبقينا بعدهم علىٰ حمير دَبرةٍ[٢] ، فقال له الثوري : ما أحسنَ حالُها لو كانت على الطريق ، لـٰكنها مع كونها علىٰ حميرٍ دبرةٍ قد اعوجَّتْ .

---

(١) في (هـ ، و ، ح) : (يُؤمِّر) بدل (يأمر) .

(٢) الدَّبَرة بالتحريك : القرحة . « القاموس المحيط » (د ب ر) .

وكان يقول : (إذا بلغَكَ عن قريةٍ أنَّ بها رُخصاً فارحل إليها ؛ فإنَّه أسلمُ لقلبك ودينك ، وأقلُّ لهمِّكَ) .

وكان يقول : (لا تُجبْ أخاك إلىٰ طعامٍ ، وتقول : « منْ دعاهُ أخاهُ فليُجبْ »[١] حتىٰ تعلمَ أنَّ قلبَك يصلحُ علىٰ طعامه)

ونصح يوماً إنساناً رآه يخدمُ الولاة ، وقال : ابعدْ عنهم ، فقال له : فما أصنع بعيالي ؟! فقال سفيان : ألا تسمعوا إلىٰ هـٰذا ؟! يقولُ إنه إذا عصى الله تعالىٰ رَزَقَ عيالَهُ ، وإذا أطاعَهُ ضيَّعهم .

وكان يقول : (لا تقتدوا بصاحبِ عيالٍ قطُّ ؛ فإنه قلَّ أن يسلمَ من التخليط)

وكان يقول : (حُجَّةُ كلِّ متهوِّرٍ في أكل الحرام والشُّبهات قولُهُ : عيالي) .

وكان يقول : (لو أن عبداً عبدَ الله تعالىٰ بعبادة الثقلين ، وهو يحبُّ الدنيا . . إلا نُودي عليه علىٰ رؤوس الأشهاد : ألا إنَّ هـٰذا قد أحبَّ ما أبغضَ اللهُ ، فيكاد يذوبُ من الخجل) .

وكان يقول : (لأن أُخلِّفَ بعدي ثلاثين ألف دينار أُحاسبُ علىٰ كلِّ درهمٍ منها يومَ القيامة . . أحبُّ إليَّ من أن أحتاجَ إلى الناس ؛ فإنَّ المال ما كان يُكره إلا فيما مضىٰ ، وأمَّا اليومَ فقد صارَ ترساً للمؤمن يتَّقي به حاجتَهُ إلى الملوك والأغنياء) .

وكان يقول : (أمسكوا ما بيدكم من المال بنية الإنفاق لا يضرُّكم ذلك ؛ فإنَّ من احتاج إلى الناسِ لا بدَّ أن يبذلَ لهم دينه) .

وكان يقول : (لا تصحبْ من يتكرَّمُ عليك في السفر ؛ فإنَّكَ إن ساويته في النفقة أضرَّ بك ، وإن تفضَّلَ عليك استعبدك) .

وكان يُخرج للضيفِ اللقمةَ اليابسة وحصاةَ الملح ، ويقول : (الحلالُ في زماننا لا يحتملُ السَّرَف ، وأما الحرامُ والشُّبهات فما كُلِّفنا أن نضيِّقَ منه أحداً) .

---

(١) كذا في النسخ : (أخاه) ، والحديث رواه مسلم (١٤٢٩/ ٩٧) بلفظ : « إذا دعي أحدكم إلى الوليمة فليُجبْ) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما . وقوله : (أخاه) كذا الأصل .

وكان يقول : (خرجتُ مرةً في الليل ، فنظرتُ إلى السماء ، ففقدتُ قلبي ، فقلت ذلك لبعض إخواني ، فقال : إنما فقدتَ قلبَكَ ؛ لأنَّك لم تنظرْ إليها نظرَ اعتبار ، وإنما نظرتَ إليها نظرَ تلهِّي) .

وكان يردُّ ما يُعطاه ، ويقول : لو علمتُ أنهم يكتمون ذلك لأخذته منهم وأنفقته ، ولكنهم يأبون إلا أن يقولوا : أخذَ منَّا سفيان كذا وكذا على وجه الافتخار عليَّ .

وكذلك كان يجوعُ ولا يقترضُ ، ويقول : إنَّ أحدَهم يقول : اقترضَ اليومَ مني سفيان كذا .

وكان يقول : (الأذانُ بخراسان خيرٌ من المجاورة بمكة) .

وكان يقول : (الزهدُ في الدنيا : هو قِصَرُ الأمل لا غير ، وكيف يزهدُ فيها من يحبُّ البقاءَ فيها ، ولو بلبس الخيش ، وأكل النخال ؟!) .

وكان يقول : (ازهدْ في الدنيا ، ونمْ عن الفضائل ولا عليك ؛ فإنَّ الزهدَ مع تركِ الفضائل أفضلُ من فعلِ الفضائل مع الرغبة في الدنيا كما عليه طائفةُ أهل الأسواق) .

وكان يقول : (إذا رأيتم العالمَ يلوذُ بباب السُّلطان فاعلموا أنه لِصٌّ ، وإذا رأيتموه ببابِ الأغنياء فاعلموا أنه مراءٍ) .

وكان يقول : (إنَّ الرجلَ ليكونَ عنده المالُ وهو زاهدٌ في الدنيا ، وإنَّ الرجلَ ليكون راغباً فيها وهو فقير) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ إني لأُحبُّ أن أكونَ في مكانٍ لا يعرفه أحدٌ) .

وكان إذا ذكر الموت يرتعدُ ، ويصيرُ أياماً لا يَنتفعُ به أحدٌ .

وكان يقول : (إذا عرفتَ نفسك فلا يضرُّك ما قيل فيك) .

وكان يقول : (أصلُ كلِّ عداوةٍ اصطناعُ المعروف إلى اللئام) .

وكان يقول : (إذا رأيتَ أخاك حريصاً على أن تُقدِّمَهُ في الإمامة أو في المجلس . . فأخِّرْهُ) .

وكان قد جعل على نفسه ثلاثةَ أشياء : ألا يخدمَهُ أحدٌ ، ولا يَطوي له ثوباً ، ولا يضع لبنة على لبنة .

وكان يقول : (هـٰذا زمانٌ عليك فيه بخويصَّةِ نفسك ، ودعْ عنك أمرَ العامة) .

وكان يقول : (أَبعِدِ القرَّاءَ الذين يحبُّون الدنيا ، فلأَن أشتري شيئاً من فتىً يتغنَّىٰ أحبُّ إليَّ من الشراءِ من قارئ ؛ فإنَّ القارئ يحبُّ أن لو نقصَ من حقِّك ، والمغنِّي يُعطيك حقَّك كاملاً مروءةً أو ديانة) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ ما نازعتُ قارئاً في شيءٍ إلا خفتُ أن يسعىٰ في سفك دمي) .

وكان يقول : (إذا كان لك إلىٰ قارئٍ حاجةٌ فلا تذكرْ أحداً من أقرانه بخيرٍ عنده ؛ فإنه يقفُ عن قضاء حاجتك) .

وكان إذا سُئل عن الغوغاء من هم ؟ يقول : هم الذين يطلبون بعلمهم الدنيا .

وكان يقول : (للعلمِ درجاتٌ ، فأولُ الأمر تعلُّمُهُ ، ثم العملُ به ، ثم الصمتُ ، ثم نشرُهُ للناس) .

وكان يقول : (لو أنَّ أهلَ العلم أخلصوا فيه لم يكن عملٌ أفضلَ منه ، لـٰكنهم خلطوا) .

وكان يمسك بيده الدنانير ويقول : (لولا جمعُنا هـٰذه لتمندلوا بنا) .

وكان يقول : (إيَّاكم وكثرةَ الإخوان ؛ فإنَّ كثرةَ الإخوان من رقَّةِ الدين) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ ما أدري ما يقعُ مني إذا نزل بي بلاءٌ ، فلعلي أكفرُ ولا أشعر) .

وكان يقول : (عجبتُ من كون النساء أكثرَ أهلِ النار ، مع كون معاصي الرجال أكثر من معاصيهنَّ) .

وكان يقول : (من رأىٰ نفسَهُ علىٰ أخيه في العلم والعمل حبطَ أجر علمِهِ وعمله ، ولعلَّ أخاه يكون أورعَ منه عمَّا حرَّم الله عز وجل) .

وكان إذا تفكَّر في أمرِ الآخرة وأهوالها يصيرُ كالمجنون لا يعي ، يقول : هاه هاه .

ولما بعثَ أبو جعفر المنصور الخشَّابين أمامه حين خرجَ إلىٰ مكة قال : إنْ رأيتم

سفيانَ الثوري فاصلبوه ، فوصلوا مكةَ ، ونصبوا الخشبَ ، وجاؤوا إليه ، فوجدوه نائماً ؛ رأسُهُ في حِجْر الفُضيل بنِ عياض ، ورجلاه في حِجْر سفيان بنِ عيينة ، فقالوا : يا أبا عبد الله ؛ اتَّق الله ولا تشمِتْ بنا الأعداء ، فتقدَّمَ سفيان إلىٰ أستار الكعبة ، فأخذ بها وقال : برئتُ من هـٰذا البيت إنْ دخلها أبو جعفر ، فمات قبل أن يدخلَ مكة .

وكان يقول : (إن الملكين ليجدان ريحَ الحسنات والسيئات إذا عقدَ القلبُ علىٰ ذلك ، فكما لا يُؤذونك لا تؤذيهم) .

وسئل مرةً عن رجلٍ يكتسبُ لعياله ، ولو صلَّىٰ في الجماعة لفاته القيامُ عليهنَّ ، ماذا يصنع ؟ فقال : يكتسبُ لهم قوتهم ، ويُصلِّي وحده .

وكان يقول : (كثرةُ النساءِ ليس من الدنيا ؛ لأنَّ عليّاً رضي الله عنه كان من أزهد الصحابة ، وكان له أربعُ نسوة ، وتسع عشرَة سرية)

وكان يحثُّ أصحابَهُ على الخمول ، ويقول : (هـٰذا زمانٌ لا يأمنُ فيه الخاملُ علىٰ نفسه ، فكيف بمن له صيتٌ ؟!)

وكان يقول : (إذا سمعتم بدعةً من أحدٍ فلا تحكوها لأصحابكم ، ولا تُلقوها في قلوبهم يفعلونها ، ويقولون : قد فعلها غيرُنا)

وكان يقول : (قد صار أهلُ السُّنَّة غرباءَ في زماننا هـٰذا)

وكان يقول : (إني لأعرفُ محبَّةَ الرجل للدنيا بكثرة تملُّقِه إلىٰ أهلها ، والسؤال عنهم إذا غابوا) .

وكان يقول : (إذا رأيتم شرطيّاً نائماً في وقتِ صلاةٍ فلا توقظوه لها ؛ فإن نومَهُ أحسنُ للناس ؛ لئلا يؤذيهم) .

وقيل له مرَّةً : ألا تدخلُ على الولاة مُتحفِّظاً منهم ، فتعظهم وتأمرُهم وتنهاهم ؟! فقال : أتأمروني أن أسبَحَ في بحرٍ ولا تبتلَّ قدماي ، وإني أخافُ أن أدخلَ عليهم ، فيرحِّبوا بي ، فأميل إليهم ، فيحبطَ عملي .

وشكا إليه رجلٌ مرةً مُصيبةً ، فقال : قم عني ، ما وجدتَ أحداً أهونَ في عينك مني حتىٰ تشكوَ اللهَ عندي .

وكان يقول : (علامةُ العلماء بالله : أن يخشوه ، ويقفوا عند حدوده) .

وكان يقول : (إن أرضيتَ ربَّك أسخطْتَ الناس ، وإذا أسخطتَ الناس فتهيَّأ للسهام ، ولا شكَّ أن التهيؤَ للسهام أحبُّ إلى العاقل من ذهاب دينه) .

وكان يقول : (إذا رأيتم جيرانَ الفقيه يُحبونه فاعلموا أنه مُداهنٌ) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٨٨) سفيان بن عُيينة رضي الله عنه[١]

حفظ رضي الله عنه القرآنَ وهو ابنُ أربع سنين ، وكتب الحديث وهو ابنُ سبعِ سنين .

وكان يقول : (من لا تنتفعُ به فلا عليك ألا تعرفه) .

وكتب مرَّةً لبعض إخوانه : (أما آن لك يا أخي أن تستوحشَ من الناس ، وتأخذَ بجانبٍ عنهم ؟! واللهِ ؛ لقد أدركنا الناسَ إذا بلغ أحدُهم أربعين سنة جفا معارفه ، وأنكر قرابته ، وصار كأنه مختلطُ العقل من شدَّة تأهُّبِهِ للموت) .

وكان إذا جاء عطاؤه يقول : (أعطوه لمن هو أحوجُ مني ؛ فإني غنيٌّ عنه ، مع أنه ليس عنده رغيفٌ ، إيثاراً علىٰ نفسه) .

وكان يقول : (من صبرَ على البلاءِ ، ورضي بالقضاء . . فقد كمل أمره) .

وكان يقول : (يكفي ابنَ آدم من الشرِّ أن يرىٰ في نفسه فساداً فلا يُصلحه) .

وكان يقول : (خصلتان يعسرُ على الإنسان علاجُهما : تركُ الطمع فيما في أيدي الناس ، وإخلاصُ العمل لله تعالىٰ) .

وكان يقول : (إذا كان نهاري نهارَ سفيه ، وليلي ليلَ جاهلٍ غافلٍ عن الله . . فما أصنعُ بالعلم الذي كتبته ؟!) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٢٤٧) (٩٥) .

وكان يقول : (مَنْ زِيْدَ في عقلِهِ نقصَ من رزقه) .

وكان يقول : (« لا إلـٰه إلا الله » بمنزلةِ الماء في الدنيا ، فمن لم يكن معه « لا إلـٰه إلا الله ». . فهو عطشان ميتٌ) .

وكان يقول : (ما أنعم اللهُ على العباد بنعمةٍ أفضل من نُطقهم بـ : « لا إلـٰه إلا الله » ، وإنَّ « لا إلـٰه إلا الله » في الآخرة كالماء في الدنيا) .

وكان يقول : (السكوتُ عن تفسير نحو حديث : « منْ غشَّنا فليسَ منَّا » أفضلُ وأزجرُ للناس)[1]

وكان يقول : (الزهدُ في الدنيا هو الصبرُ ، وارتقاب الموت)

وكان حرملة يقول : (دخلتُ علىٰ سُفيان بنِ عيينة زائراً ، فأخرج لي رغيفاً من شعير ، وقال لي : دع ما تقول الناسُ فيَّ ، فواللهِ ؛ إنه لطعامي من منذ ستين سنة) .

وكان يقول : (طلبُ ما لا بدَّ للإنسان منه ليس من الدنيا) .

وكان يقول : (ماءُ زمزم بمنزلة الطيب ، لا ينبغي لأحدٍ ردُّهُ) .

وكان يقول : (إياكم والغيبةَ ؛ فإنها أشرُّ من الدَّين ، وإذا كان نَفْسُ المؤمن معلقةً بدَينه حتىٰ يُقضىٰ عنه كما في الحديث ، فكيف بالغيبة ؟! فإن الدَّين يُقضىٰ والغيبةَ لا تُقضىٰ) ، ثم يقول : (**وإيضاح ذلك** : أنه لو أصابَ رجلٌ مالاً حراماً لرجلٍ ، ثم تورَّعَ عنه بعد موته ، وجاء به إلىٰ ورثته . . لَكُنَّا نرىٰ أنَّ ذلك كفارةٌ له ، ولو أنه اغتابه ، ثم تورَّعَ وجاء بعد موته إلىٰ ورثته وإلىٰ جميعِ أهل الأرض ، فجعلوه في حلٍّ . . ما كان في حلٍّ ؛ لأنَّ عرض المؤمن أشدُّ من ماله) .

وكان يقول : (من وصيةِ الخضر لموسىٰ عليهما السلام : يا موسىٰ ؛ لا تُعيِّرْ أحداً بذنبٍ) .

---

(١) أخرج الحديث مسلم في « صحيحه » (١٠١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ومعناه : ليس علىٰ طريقتنا ومذهبنا ، لا أنه يخرج عن الملة ؛ ولهـٰذا قال سفيان : السكوت عن تفسير هـٰذا الحديث أفضل ؛ ليكون أزجر لهم ، وتقدم تخريجه (١/ ٢٤٨) .

وكان يقول : (إن للأنبياء سرّاً ، وللعلماء سرّاً ، وللملوك سرّاً ، فلو ظهر سرُّ النبوة للعامة لفسدتِ النبوة ، ولو ظهر سرُّ العلماء لفسدت العامة ، ولو ظهر سرُّ الملك لفسد الملك) .

وكان يقول : (العلم إن لم ينفعْكَ ضرَّك) .

وكان إذا فرغ من صلاته يقول : اللهم ؛ اغفر لي ما كان فيها .

وكان يقول : (لا يكملُ عقلُ طالب العلم حتىٰ يرىٰ نفسَهُ دون المسلمين كلِّهم) .

وكان يقول : (إذا لم تصلْ إلىٰ حقِّك إلا بالخصومةِ والسُّلطانِ فدعه ؛ لما ترجو من سلامة دينك) .

وكان يقول : (كم من شخصٍ يُظهرُ الزهدَ في الدنيا ، والله يعلمُ من قلبه أنه لها محبٌّ) .

وكان يقول : (عليكم بكتمانِ الفقر ؛ فإنه من الأعمال الصالحة ، وهو من أشدِّ ما يكون على النفس) .

وكان يقول : (الجهاد عشرةُ أجزاء ؛ فجهادُ العدوِّ واحدٌ منها ، وجهادُ النفس تسعةُ أجزاء) .

وكان يقول : (إنما عُرفوا لمحبَّتهم ألا يُعرفوا ، ولو أنهم أحبُّوا أن يُعرفوا ما عُرفوا) .

وكان يقول : (ائتوا الصلاةَ قبل النداء ، ولا تكونوا كالعبد السُّوء ، لا يأتي إلى الصلاة حتىٰ يُدعىٰ إليها) ؛ يعني : تهاوناً بها .

وكان يقول : (ليس على الإنسان شيءٌ أضرَّ من علمٍ لا يعملُ به) .

وكان يقول : (أشرارُ أهل العام الماضي خيرٌ من خياركم في هـٰذا العام) .

وكان يقول إذا أفتى الناس : (واللهِ ؛ إن الزمانَ الذي يحتاجُ الناس فيه إلىٰ مثلي لزمانُ سوء)

ولد رضي الله عنه بالكوفة في سبعٍ ومئة ، وسكن مكة ، وتوفي بها سنة ثمانٍ

وتسعين ومئة ، وهو ابنُ إحدىٰ وتسعين سنة ، ودفن [بالحَجون][1] ؛ يعني : باب المعلىٰ ، وبجنبه الفُضيل بن عياض ، وأبو القاسم القُشيري ، واليافعي ، والشيخ بدر الدين بن جماعة ، والشيخ بهاء الدين ابن السُّبكي ، رضي الله عنهم .

ومنهم :

(٨٩) شُعبة بن الحَجَّاج رضي الله عنه[2]

كانوا يُسمُّونه أميرَ المؤمنين في الرواية والحديث

وكان يقول : (والله ؛ إن الشيطان صار يلعبُ بالقرَّاء كما يلعب الصبيانُ بالأُكْرَة[3] ، فكيف بغير القراء ؟!)

وكان من أعبد الناس ، عبدَ الله تعالىٰ حتىٰ جفَّ جلدُهُ علىٰ عظمه ، فليس بينهما لحمٌ .

وكان يصومُ الدهر كلَّه ، ويعيبُ علىٰ من يلبس ثوباً بثمانية دراهم ، ويقول : هلا اشترىٰ أحدُكم قميصاً بأربعة دراهم ، وتصدَّق بأربعة

وكان إذا مرَّ بسائلٍ يذهبُ إلى البيت ، فيُخرجُ له جميعَ ما وجده فيه .

وكان يسألُ للفقراء والمحاويج ، ويقول : (لولا سؤالي لهؤلاء ما جلستُ إلىٰ أحدٍ) .

وكان لونُ ثيابه رضي الله عنه لونَ التراب ، وكان إذا حكَّ جلدَه انتثرَ منه التراب .

وكان إذا سأله إنسانٌ شيئاً ولم يكن عنده أعطاه الحمار ، وقال : بعْهُ ، وخذ منه حاجتك ، ووسِّعْ علىٰ نفسك بالباقي ، ويصيرُ يمشي في حوائجه حتىٰ يجدَ له ثمنَ حمار .

وكان إذا قعدَ في مركبٍ أعطى الأجرةَ عن جميع مَنْ في المركب .

---

(١) في النسخ : (بالحجرة) ، والمثبت من « الكبرىٰ » (١/ ٢٤٩) ، ومصادر ترجمته .
(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٥٠) (٩٦)
(٣) الأُكْرَة : الكرة . « المعجم الوسيط » (١/ ٢٢)

وقوَّموا مرةً حمارَ شُعبة وسرجَهُ ولجامه فبلغ سبعةَ عشرَ درهماً ، وقوَّموا ثيابه فلم تكن تساوي عشرة دراهم ، وكانت قميصاً ورداءً وإزاراً وعِمامة .

وأرسل له المهديُّ ثلاثين ألف درهم ، ففرَّقها في المجلس ، ولم يأخذْ منها درهماً ، وإنَّ عياله لمحتاجون إلىٰ رغيفٍ .

توفي رضي الله عنه بالبصرة وهو ابنُ سبعٍ وتسعين سنة ، في سنة ستين ومئة ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٩٠) مِسْعر بن كِدَام رضي الله عنه[١]

بكسر الكاف .

كان يقول : (إن لله عباداً لو يعلمون بما ينزلُ القدر لاستقبلوه استقبالاً ؛ حبّاً لربِّهم ولقدره ، فكيف يكرهونه إذا وقع ؟!) .

وكان إذا فتح المصحفَ ، ورأىٰ فيه قصَّةَ قومٍ عذَّبهم الله.. يقول : إلـٰهي ، قد أدخلتَ رحمتَهم قلبي ، فإن شئتَ فاغفرْ لي ، وإن شئتَ عذِّبني .

وكان يقول : (لا ينبغي للمؤمن أن يُرىٰ فارغاً من عمل الدنيا أو الآخرة ؛ فإنَّ الموتَ ربما أتاه علىٰ بغتة) .

وكان ربَّما ينشدُ الشعرَ بعد الصلاة ، ويقول : النفسُ تكونُ هـٰكذا وهـٰكذا .

وسئل مرَّةً : مَنْ أفقهُ أهل المدينة ؟ فقال : أفقههم أتقاهم لله عز وجل .

وكان لا ينام كلَّ ليلةٍ حتىٰ يقرأَ نصف القرآن ، فإذا فَرَغَ من ورده لفَّ رداءه ، ثم هجع هجعةً خفيفة ، ثم يثبُ مرعوباً كالرجل الذي ضاع منه شيءٌ عزيز ، فهو يطلبه ، ثم يستاكُ ويتطهَّرُ ويستقبلُ المحراب إلى الفجر .

وكان يجتهدُ في إخفاء أعماله الصالحة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٥١) (٩٧) .

وكان يقول : (أشتهي أن أسمعَ صوتَ باكيةٍ حزينة) .

وقيل له مرةً : أتحبُّ من يبصِّرُكَ بعيوبك ؟ فقال : إن كان صديقاً فنعم ؛ لأنه نصحني ، وإن كان يُريد أن ينقصني بين الناس فلا .

وكان إذا ذُكر يومُ القيامة يبكي حتىٰ يرثي له الحاضرون .

وكان لا يخرجُ من المسجد إلا لخدمة أُمِّه ، ويقول : لولا أمي لما خرجت من المسجد .

وكان إذا خرج بكىٰ ، وإذا دخلَ بكىٰ ، وإذا صلىٰ بكىٰ ، وإذا جلس بكىٰ ، كأنَّ النارَ لم تُخلق إلا له وحده .

ودخل عليه سفيانُ الثوري في مرضِ موتهِ فقال له : ما هـٰذا الجزعُ يا مسعر ؟! واللهِ ؛ إني أودُّ أني أموت الساعة ، فقال له مِسْعَر : إنك إذاً لواثقٌ بعملك يا سفيان ، لـٰكني واللهِ كأني علىٰ شاهقِ جبلٍ ، لا أدري أين أهبطُ ، فبكىٰ سفيان ، وقال : أنت أدركتَ ما لم نُدرك .

وكان سفيان إذا حدَّثَ عنه يستحي أن يقول : مِسْعَر ، وإنما يقول : أبو سلمة .

وكان في جبهته مثلُ ركبة العنز من السجود .

وكان يقول : (لا ينبغي أن يُثنىٰ علىٰ عالمٍ ، وهو يأخذُ جوائز السلطان ، ويبني بيته بالآجُرِّ) .

وطلبت منه أمُّهُ مرَّةً كوزَ الشرب ، فما أتاها به حتىٰ وجدها نامتْ ، فوقفَ والكوزُ علىٰ يده ينتظرُ استيقاظها من بعد العشاء إلى الفجر تعظيماً لها) .

ولما طلبه أبو جعفر المنصور ليُولِّيه القضاءَ أبىٰ ، وقال : واللهِ ؛ يا أمير المؤمنين ، إنَّ أهلي يُرسلوني أشتري لهم حاجةً بدرهم ، فلا يرضون بشرائي ذلك ، فكيف يولِّيني أميرُ المؤمنين القضاء ؟! فأعفاه منه ، وقال له : لو كان في المسلمين مثلُك لخرجتُ إليه ماشياً .

وكان يقول : (من رضي بالخلِّ والبقل لم يستعبدْه الناس) .

وكان يقول : (مضاحكةُ الوالدين على الأسرَّة أفضلُ من مجالدة السيوف في سبيل الله) .

وكان إذا سأله أحدٌ الدعاءَ ، قال له : ادعُ أنت حتىٰ أؤمّنَ أنا ؛ فإنَّ الدعاء من صاحب الحاجة أبلغ

وكان رضي الله عنه يقول : (شكوى المريض للطبيب ليس من شكوى الله عز وجل ؛ لأنه إنما يذكرُ للطبيب قدرةَ الله عز وجل) .

وكان يقول : (اللهم ؛ من ظنَّ بنا خيراً أو ظننا به خيراً فصدِّقْ ظننا وظنَّهُ) .

وكان يقول : (قيامُ الليل نورٌ للمؤمن يوم القيامة يسعىٰ به بين يديه ومن خلفه ، وصيام النهارِ يُبعد العبد من حرِّ السعير) .

وكان يبكي ويقول : (وهل خُلقتِ النارُ إلا لمثلي ؟!)

وكان إذا ظلمه إنسان يقول : (اللهم ؛ لا تُمته حتىٰ تجعلَه محدِّثاً أو مفتياً) .

وكان يقول : (يُنادي منادٍ يوم القيامة : يا مادحين الله ؛ قوموا ، فلا يقومُ إلا من كان يكثر قراءة « قل هو الله أحد ») .

وكان يقول : (أعرفُ الناس بعَوَرِ الناس الأعورُ) .

توفي رضي الله عنه بالكوفة سنة خمس وخمسين ومئة .

ومنهم :

(٩١) (٩٢) الحسن بن صالح وأخوه علي رضي الله عنهما[١]

كانا من العبَّاد الزهَّاد .

وكانا قد قسما الليل ثلاثةَ أجزاء ، فكان عليٌّ يقوم الثلثَ ، ثم ينبِّهُ الحسنَ وينام ، ثم يقوم الحسنُ ، فإذا فرغ نبَّه أُمَّه ، فقامتِ الثلثَ الآخر ، فلما ماتت أمُّهما قسما ثُلثَها عليهما ، فكان كلُّ واحدٍ يقومُ نصفَ الليل ، فلما ماتَ عليٌّ قام الحسنُ الليلَ كلَّهُ .

---

(١) تقدمت ترجمتهما مع ذكر مصادرهما في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٢٥٣) (٩٨) و(٩٩) .

وكان كلُّ واحدٍ يقرأ في ثُلثِهِ ثلثَ القرآن ، فلما ماتَ صاحبُهُ زادَ ما كان يقرأ على قراءته .

وكان الحسنُ كثير الصدقة ، وكان إذا لم يجدْ في داره ما يُعطيه للسائل أعطاه شعلةً من نار ويقول : امض بها إلى منزل قومٍ عسى يعطوك شيئاً تتبلَّغُ به .

وكان يستحي أن يُواجه أحداً بالنُّصح ، وإنما يُرسلُه له في ورقةٍ ، أو يدفعها إليه .

وكان يقول : (صاحبُ التخليط في مطعمِهِ أو في صحبتك لا يفلح) .

وكان يقول : (إذا لم يخشَ العالمُ ربَّهُ فليس هو بعالم) .

وكان يقول : (لا ينبغي لمؤمنٍ أن يأكلَ أو يشربَ أو يخرجَ أو يدخل أو يفعل شيئاً إلا بنيَّةٍ صالحة) .

وسُئل مرَّةً عن الدليل على قولهم : (الكريم لا يستقصي حقَّهُ) ، فقال : دليله قوله تعالى : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ [التحريم : ٣] .

وكان يقول : (أنا أستحي من الله أن أتكلَّفَ النومَ ، وإنما أجلسُ بين يديه كلَّ ليلةٍ حتى يصرعَني النومُ ، فإذا نمتُ ثم استيقظتُ ثم عدتُ نائماً فلا أنامَ الله عيني) .

وكان لا يقبلُ من أحدٍ شيئاً ، لا هديةً ولا غيرها ، ويقول : قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه : من جلس في المسجد وقَبِل كلَّ ما يُعطاه . . فقد ألحف في المسألة .

وكان يقول : (أولُ من أخبر أهلَ فارس بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم جنيٌّ في صورة كلب ؛ وذلك أنه أتى إلى كلبٍ من كلاب فارس ، فقال : أطعمني وأنا أخبرك خبراً ، فأَطعَمَهُ ، فقال : محمدٌ مات) .

وسئل مرةً عن سترة المُصلِّي ، فقال : سترته التقوى .

وسئل عمَّا يقطعُ الصلاة ، فقال : يقطعُها الفجور .

وكان لا يوجدُ في بيته شيءٌ يؤكل ، ويجيء إليه ولدُهُ في المسجد ، فيقول : يا أبتِ ؛ إني جيعان ، فيعلِّله حتى يروحَ .

وكان له جاريةٌ يأكلُ من غزلها الخبزَ والشعير .

وكان يتنخَّمُ الدمَ من شدَّة الخوف من الله عز وجل

وكان يقول : (فتَّشنا الورعَ ، فلم نجده في شيءٍ أقلَّ منه في اللسان)

وكان إذا أشرفَ على المقابر يخرُّ مغشيّاً عليه .

وكان إذا ذهبَ إلىٰ جنازةٍ لا يستطيعُ أن يرى الميتَ وهم يُدخلونه القبر ، فوقع بصرُهُ عليه مرةً ، فأُغمي عليه ، ورجعوا به محمولاً على النعش .

وكان إذا بكىٰ سمع الناسُ صراخَهُ كبكاءِ أهل المصائب .

وكان يقول : (عملُ الحسنات يقوِّي البدن وينوِّرُ القلبَ والبصر ، وعملُ السيئات بالعكس) .

وكان يقول : (لا يُسمَّى الرجلُ فقيهاً إلا إن صار يفرحُ إذا زَوى اللهُ عنه الدنيا ، ويحزنُ إذا دخلت عليه الدنيا) .

توفي عليٌّ رضي الله عنه سنة أربع وخمسين ومئة ، وتوفي بعده أخوه الحسن بثلاث عشرة سنة ، رضي الله عنهما .

ومنهم :

(٩٣) الإمام عبدُ الله بن المبارك رضي الله عنه[1]

ولد سنة ثمان عشرة ومئة .

وكانوا يقدِّمونه في الأدب علىٰ سفيان الثوري ، وكان سفيان نفسُهُ يعترفُ بالقصور عن درجته ، ويقول : (جهدتُ جهدي علىٰ أن أداومَ ثلاثةَ أيام في السَّنة علىٰ ما عليه عبد الله بن المبارك فلم أقدر) .

وكان يقول : (لا تقتدوا بعلماء زمانكم ، وانظروا في سير الصحابة والتابعين ؛ فإنه أهدىٰ لكم) .

وكان يقول : (إذا دخلتْ سنة مئتين ففرُّوا من مجالسة الناس ، إلا في حضورِ واجب) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٥٥) (١٠٠) .

وكان يقول : (إذا قرأتم من القرآنِ ما تقيمون به صلاتكم فاشتغلوا بالعلم ؛ فإنه يُطلعكم علىٰ معاني القرآن) .

وكان يقول : (كيف يطلب أحدُنا في هـٰذا الزمان إخوانَ الصدق ، ولا نعرفُ أحداً قطُّ من إخواننا الآن يأخذُ نصيحةَ أخيه بانشراح قلب ؟!) .

وكان يقول : (لا يُسمَّى العالمُ عالماً حتىٰ لا تخطرَ محبةُ الدنيا له علىٰ بال) .

وسئل مرَّةً عن سَفِلة الناس من هم ؟ فقال : هم الذين يتعيَّشون بدينهم .

وكان يقول : (ما أتىٰ حاملُ القرآن معصيةً قطُّ إلا وهو يُناديه به في جوفه : أفٍ لك ، كيف تعصي الله وأنا في جوفك ؟! ألا ترىٰ زواجري ، ولا مواعظي ، ولا ترعوي بها ؟!) .

وكان يقول : (من علامة من عرفَ نفسه أن يكون أذلَّ من كلبٍ) .

وكان يقول : (من ختمَ نهاره بذكرِ الله عز وجل كتبه اللهُ كمن ذكر النهارَ كلَّهُ) .

وكان يتحرَّىٰ هـٰذا العمل كلَّ يومٍ .

وكان يقول : (رُبَّ عملٍ صغير تجعله النيةُ كبيراً ، وربَّ عملٍ كبير تجعله النية صغيراً) .

وكان ينشد هـٰذين البيتين كثيراً من كلامه رضي الله عنه : [من المتقارب]

وهـلْ بـدَّلَ الـدِّيـنَ إلا الملـوكُ ... وأحبـارُ سُـوءٍ ورهبـانُهـا

لقـدْ رتـعَ القـومُ فـي جيفـةٍ ... يَبِيـنُ لِـذي العلـمِ إنتـانُهـا

وكان يقول : (مسكين ابنُ آدم ، قد وُكِّلَ به خمسةُ أملاك ؛ ملكان بالليل ، وملكان بالنهار يجيئان ويذهبان والخامسُ لا يفارقُهُ ليلاً ولا نهاراً) .

وكان إذا اشتهىٰ شيئاً لا يأكلُهُ إلا مع ضيفٍ ، ويقول : بلغنا أنَّ طعام الضيف لا حسابَ علىٰ صاحبه .

وكان له رضي الله عنه سفرةٌ تُحمل علىٰ عجلةٍ أو عجلتين .

قال أبو إسحاق الطالقاني : ورأيتُ بعيرين مملوءَين دجاجاً مشوياً لسفرة عبد الله بن المبارك .

وكان يُطعم أصحابه الفالوذج والخبيص[١] ، ويظلُّ هو نهارَهُ صائماً .

وما دخلَ رضي الله عنه الحمامَ قطُّ .

وقيل له مرةً : قد قلَّ مالُكَ ، فأقللْ من صلة الناس ، فقال : إن كان المالُ قد قلَّ فإنَّ العمر قد نفد .

وكان يقول : (أربعُ كلماتٍ انتُخبتْ من أربعةِ آلاف حديث : لا تثقنَّ بامرأة ، ولا تحمِّل معدتَك ما لا تطيق ، ولا تغترَّ بمالٍ ، وتعلَّمْ من العلم ما تعلمُ أنك تعمل به فقط) .

وكان إذا بلغه عن أصحابه أنهم نسبوا إليه مسألةً من العلم يأمرهم بكشطها ، ويقول : (من أنا حتىٰ يُكتبَ قولي في القراطيس ؟!) .

وكان يقول : (كن محبّاً للخمول ، كارهاً للشهرة ، ولا تظهرْ من نفسك أنك تحبُّ الخمول ، فترفع نفسك ، وتقع في أشدَّ من الخمول)

وكان يقول : (دعواك الزهد من نفسك يُخرجُكَ من الزهد) .

وكان يقول : (سلطانُ الزهدِ أعظمُ من سلطان الرعية ؛ لأنَّ سلطانَ الرعية[٢] لا يجمعُ الناس إلا بالعصي ، والزاهدُ يُنفِّرُ الناس عنه ، فيتبعونه) .

ولمَّا قدم هارونُ الرشيد الرقَّةَ وردَ عبدُ الله بنُ المبارك ، فانجفلَ الناس إليه[٣] ، وتقطَّعت نعالُهم ، وارتفعتْ أصواتهم ، وثارتِ الغبرةُ ، فأشرفت أمُّ ولدٍ لأمير المؤمنين من برج قصر الخشب ، فلما رأتِ الناس وكثرتَهم قالت : ما هٰذا ؟! قالوا : عالمُ خراسان ، فقالت : هٰذا هو المُلكُ ، لا مُلك هارون الرشيد ؛ فإن هارون إنَّما

---

(١) **الفالوذج** : نوع من الحلوىٰ ، يُسوَّىٰ من لُبِّ الحنطة ، **والخبيص** : حلواء أيضاً معمول من التمر والسمن .

(٢) في (ز) : (الرهبة) بدل (الرعية) .

(٣) **انجفل الناس إليه** : أي : ذهبوا مسرعين نحوَهُ .

يُجمعُ الناسُ إليه بالعصي والشُّرط والأعوان .

وكان إذا قرأ شيئاً من آيات التخويف كأنه بقرةٌ منحورةٌ من البكاء ، لا يجترئ أحدٌ منَّا أن يدنو منه ، ولا يسألَهُ عن شيءٍ .

وكان يكرهُ للعلماء قبولَ الزكوات ، فقالوا له : إنْ منعناهم الزكاة حرموا تحصيل العلم ، فقال : أعطوهم ليحصلوا العلم .

وكان يقول : (لئن أَردَّ درهماً من شُبهةٍ أحبُّ إليَّ من أن أتصدَّقَ بمئة ألف دينار) .

وقيل له مرة : ما التواضع ؟ فقال : التكبُّرُ على الأغنياء ثقةً بالله عز وجل .

وكان لعبد الله صاحبٌ يقال له : إسماعيل بنُ عُلَيَّة ، وكان يُجاريه في العبادة والزهد ، فتولَّى ابنُ عُليَّةَ أمرَ الصدقات ، فكتب إليه عبد الله بنُ المبارك : [من السريع]

يا جاعلَ العلمِ لهُ بازياً	يصطادُ أموالَ السَّلاطينِ
احتلتَ للدُّنيا ولذَّاتِها	بحيلةٍ تذهبُ بالدِّينِ
وصرتَ مجنوناً بهَا بعدمَا	كنتَ دواءً للمجانينِ
أينَ رواياتُكَ والقولُ في	لزومِ أَبوابِ السَّلاطينِ
إنْ قلتَ أُكرهتُ فما هٰكذا	زلَّ حمارُ الشَّيخِ في الطِّينِ

وذكروا لعبد الله بن المبارك مرَّةً ما كان عليه يوسفُ بنُ أسباط من العبادة والتجرُّد عن الدنيا ، فقال : لقد ذكرتمونا بأقوام ينزلُ بهم الغيثُ ، ولٰكنْ إنْ فعل الناسُ جميعُهم ذلك فمَنْ لحفظِ سُنَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! ومَنْ لعيادةِ المرضىٰ وشهود الجنائز ؟! وعدَّ أنواعاً من القُرَبِ .

وسئل مرَّةً : كيف تعلمُ الملائكةُ أنَّ العبدَ قد همَّ بحسنةٍ ؟ فقال : يجدون ريحَها ، وقد تقدَّم نظيرُ ذلك عن سفيان بن عُيينة[1]

وكان يقول : (عجبتُ من حامل القرآن والعلم كيف تدعوه نفسُهُ إلىٰ محبَّة الدنيا ، ويخالف ما حمل من القرآن والعلم ؟!) .

---

(١) الذي تقدم نظير ذلك عنه : هو سفيان الثوري رحمه الله تعالى : (٣/ ١١٩) .

وكان يقول : (بلغنا : أنَّ الرحمةَ تنزل عند ذكر الصالحين)[١]

وكان رضي الله عنه من أورعِ الناسِ ، وَرَدَ مرةً من مرو إلى الشام في ردِّ قلمٍ استعاره ونسيَهُ في رَحْلِهِ ، وسافر به .

وكان يحثُّ جميعَ أصحابه على الأدب ، ويقول : (كاد الأدبُ أن يكون ثُلُثَي الدِّين) .

وكان قليلَ الخلاف على أصحابه ، وينشد[٢] : [من الرمل]

وإذا صاحبْتَ فاصحبْ ماجداً ... ذَا عفافٍ وحياءٍ وكرمْ
قولُهُ لِلشيءِ لا إنْ قلتَ لا ... وإذا قلتَ نعمْ قالَ نعمْ

وكان يقول : (يجبُ على العاقلِ ألا يستخفَّ بثلاثةٍ : بالعالم ، والسلطان ، والأخ الصادق ؛ فإنَّ من استخفَّ بالعالم ذهبَتْ آخرتُهُ ، ومن استخفَّ بالأخ ذهبت مروءته ، ومن استخفَّ بالسلطان ذهبتْ دنياه) .

وكان يقول : (لا يقل أحدُكم ما أجرأَ الظالم الفلاني على الله ! ولكن ليقل : ما أغرَّ فلاناً بالله ! فإنَّ الله أكرمُ وأجلُّ من أن يجترِئ عبدُهُ عليه) .

وكان يقول : (عليكم بالبخورِ في اللِّحىٰ والأكمام ؛ فإنَّ مجامرَ الرجال فيها ، كما أنَّ مجامرَ النساء تحت القميص) .

وكان يقول : (ليس من الدنيا قوتُ يومٍ يضعُهُ العبدُ في بيته) .

وكان يقول : (ما أودعتُ قلبي قط شيئاً من علمٍ أو غيره فخانني) .

وكان ينشدُ إذا ودَّع شخصاً من إخوانه : [من الطويل]

وهوَّنَ وجدِي أنَّ فُرقةَ بيننا ... فِراقُ حياةٍ لا فراقُ مماتِ

---

(١) قال السخاوي في « المقاصد الحسنة » (٧٢٠) : (قال شيخنا : لا أستحضره مرفوعاً ، وسبقه لذلك شيخه العراقي فقال في « تخريج الإحياء » : « ليس له أصل في المرفوع وإنما هو من قول سفيان بن عيينة ») ، ثم قال السخاوي : قلت : وسأل أبو عمرو بن نجيد أبا جعفر بن حمدان وهما صالحان : بأي نية أكتب الحديث ؟ فقال : ألستم ترون أن عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ؟! قال : نعم ، قال : فرسول الله صلى الله عليه وسلم رأس الصالحين .

(٢) تنسب هٰذه الأبيات لابن الأعرابي . انظر « الأمالي » (٢/ ١٨٢) .

وكان يقول : (لا يُخرجُ العبدَ عن الزهد إمساكُهُ الدنيا ليصونَ بها عِرضَه عن سؤال الناس) .

وقيل له مرة : إنَّ شيبان يزعم أنك مُرجئٌ ، فقال : كذب ؛ فإني خالفتُ المرجئة في ثلاثة أشياء ؛ وذلك أنهم يزعمون أنَّ الإيمان قولٌ بلا عمل ، وأنا أقول : إنه قولٌ وعمل ، ويزعمون أنَّ تاركَ الصلاة جاحداً لا يكفر ، وأنا أقول : إنه يكفرُ ، ويزعمون أنَّ الإيمانَ لا يزيدُ ولا ينقص ، وأنا أقول : إنه يزيدُ وينقص .

توفي رضي الله عنه سنة إحدىٰ وثمانين ومئة ، ودُفن بقريةٍ علىٰ بحر الفرات ، **يقال** لها : هيت ، لمَّا رجع من الغزو .

وكانت إقامته بخراسان ، وكان مولدُهُ سنة ثمانٍ ومئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٩٤) الإمامُ الأعظمُ أبو حنيفة النُّعمان بن ثابت رضي الله عنه[١]

كان من أعبدِ الناس ، وأزهد الناس ، وأورع الناس ، وأعفِّ الناس ، وأفقه الناس ، وأخوف الناس ، رضي الله عنه .

ولد سنة ثمانين من الهجرة ، وتوفي ببغداد سنة خمسين ومئة وهو ابن سبعين سنة .

وكان في زمنه أربعةٌ من الصحابة : أنس بنُ مالك ، وعبدُ الله بن أبي أوفىٰ ، وسهل بنُ سعد ، وأبو الطُّفيل ، وهو آخرهم موتاً ، ولم يأخذْ عن أحدٍ منهم . قاله النووي رضي الله عنه[٢]

وكان عبد الله بن المبارك يقول : لمَّا دخلتُ الكوفة قلتُ لهم : من أعلمُ الناس في بلدِكم هـٰذه ؟ فقالوا كلهم : أبو حنيفة ، فقلتُ لهم : فمن أزهدُ الناس فيها ؟ فقالوا كلُّهم : أبو حنيفة ؟ فقلت لهم : فمن أورعُ الناس فيها ؟ فقالوا كلُّهم : أبو حنيفة ، فقلت لهم : فمن أَخوفُ الناس فيها من الله ؟ فقالوا كلُّهم : أبو حنيفة رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٣٩) (٩٣) .

(٢) انظر « تهذيب الأسماء واللغات » : (٢/ ٤٦٠) .

وأَكرهوه علىٰ تولية القضاء أيامَ مروان ، وضربوه علىٰ رأسهِ ضرباً شديداً ، فلم يلِ .

وكان يقول لمَّا أطلقوه : (واللهِ ؛ إن غمَّ والدتي عليَّ كانَ أشدَّ عليَّ من الضرب) .

وكان الإمامُ أحمد إذا ذُكِرَ أبو حنيفة بكىٰ وترحَّم عليه .

ثم إن أبا جعفر المنصور أكرهه بعد ذلك ، وأشخصَهُ من الكوفة إلىٰ بغداد ، فأبىٰ وقال : لا أكونُ قاضياً ، فحبسه حتىٰ تُوفي في السجن ، وكانوا يُخرجونه كلَّ قليلٍ من الحبس ، ويتوعَّدونه ليليَ القضاء ، فيأبىٰ ، ويقول : يا أبا جعفر[1] ؛ اتَّقِ الله ، ولا تولِّي إلا من يخافُ الله ، واللهِ ؛ ما أنا مأمونٌ في الرضا ، فكيف أكونُ مأموناً في السخط ؟!

ويقال : إنه تولَّى القضاءَ يومين أو ثلاثةً قهراً ، ثم مرض ، فمات بعد ستةِ أيام .

وقال ابن الجوزي : دعا أبو جعفر أبا حنيفة والثوري ومسعراً وشريكاً ليولي أحدَهم القضاء ، فقال الإمام أبو حنيفة : أنا أخمِّنُ لكم تخميناً ؛ أما أنا فأحتال وأتخلَّصُ ، وأما مِسْعر فيتحامقُ ويتخلَّص ، وأما سفيان فيهرب ، وأما شريك فيقع ، وكان الأمرُ كما قال .

وكان مِنْ تَحامقِ مِسْعر : أنه لمَّا دخلَ للخليفة قال : كيف حالُكَ ؟ وكيفَ طبيخُك ؟ وكيف حميرك ؟ فقال : أخرجوا هـٰذا ؛ فإنه مجنون ، وأما سفيان فلبس ثيابَ الفتيان من المعصفرات ، وأمسك العصا ، وخرج إلىٰ بلاد اليمن ، ولما بلغه أن شريكاً تولَّىٰ هجره سفيان ، وقال : قد كان يُمكنك الهرب فلم تهرب .

وكان الإمامُ أبو حنيفة حسنَ الوجه ، حسن الثياب ، طيِّبَ الريح ، كثيرَ الكرم ، حسنَ المواساة لإخوانه .

وكان يُعرف بريح الطيب إذا أقبل في ظلام .

وكان يقول : (ما صلَّيت قطُّ إلا ودعوتُ لشيخي حماد ، ولكلِّ من تعلَّمتُ منه علماً ، أو علَّمته) .

---

(١) ما أثبت من (ز) وحدها ، وفي باقي النسخ : (يا أبا منصور) .

وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يمدحُ أبا حنيفة ، ويقول : (الناسُ عيالٌ علىٰ أبي حنيفة في الفقه) .

وكان أهلُ عصره يسمُّونه الوتد ؛ لكثرة صلاته بالليل .

وصلَّى الصبحَ بوضوء العشاء أكثرَ من أربعين سنة .

وكان رضي الله عنه لا يجلسُ في ظلِّ شجرةِ مَنْ له عليه دينٌ ، ويقول : (« كلُّ قرضٍ جرَّ نفعاً فهوَ رباً »[1] ، وإنَّ لي علىٰ صاحب هـٰذه الشجرة ديناً) .

وكان عامَّةُ ليله يُصلِّي بالقرآن في ركعةٍ واحدة .

وكان جيرانُهُ يسمعون بكاءَهُ في الليل حتىٰ يرحموه ، كأنه قَتَلَ ألف نفس .

وختم القرآن في المكان الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة .

وقال عبد الله بن المبارك : بلغنا عن أبي حنيفة : أنه صلى الصلوات الخمس أربعين سنة بوضوءٍ واحدٍ .

وكان نومُهُ جالساً ، فينام لحظةً بين الظهر والعصر ، وفي الشتاء ينام لحظة من أول الليل .

وكان يقول : (إذا قَبِلَ القاضي الرِّشوةَ فهو معزول ، وإن لم يعزلْه الإمام) .

وسُئل مرةً : أيُّما أفضل : الأسودُ أم علقمة ؟ فقال : واللهِ ؛ ما نحن بأهلٍ أن نذكرَهُم ، فكيف نُفاضل بينهم ؟!

وكان من أخوفِ الناس من الله عز وجل ، ويقول : سمعتُ عطاء يقول : (ما من مَلَكٍ مقرَّبٍ ، ولا نبيٍّ مرسل إلا ولله الحجةُ عليه ؛ إن شاء غفرَ له ، وإن شاء عذَّبه) .

وكان يقول : (إنما سُمِّي المرجئة بذلك ؛ لأنَّهم أرجؤوا أمر العصاة إلى الله لمَّا سُئلوا : أين منزلهم في الآخرة ؟ ؛ فإنَّ الكفار في النار ، والمؤمنين في الجنة) .

وكان رضي الله عنه من أحسن الناس جاراً ، حتىٰ إنه كان له جارٌ يهودي ، وكانت

---

(١) روى الحديث الحارث بن أبي أسامة في « مسنده » كما في « بغية الباحث » (٤٣٧) عن سيدنا علي رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (١/ ٢٤٠) .

قصبةُ خلائه تخرُّ على الإمام كلَّ يومٍ ، فكان يجمعُ كلَّ يومٍ ما تحصَّلَ ، ويحملُه إلى الكوم وهو ساكتٌ ، فمكث على ذلك عشر سنين ، فبلغ ذلك اليهوديَّ ، فبكى ، ثم جاء وأسلمَ .

وكان يقول : (لو أنَّ الله تعالى قسم لعبدٍ من العبادة ما صارَ به مثلَ السَّوط من المجاهدة لم يقبلْ ذلك منه ، إلا إنْ كان يعلمُ ما يدخلُ جوفه : أحلالٌ هو أم حرام) .

وكان يقول : (جالستُ الناس خمسين سنة فما وجدتُ أحداً منهم غفرَ لي ذنباً فيما بيني وبينه ، ولا وصلني حين قطعتُهُ ، ولا سترَ عليَّ عورةً ، ولا ائتمنتُهُ على نفسي إذا غضب ، فالاشتغالُ بهؤلاء حمقٌ) .

وكان يقول : (لو لم يكن من صفة الدنيا إلا كون الحقِّ يُعصى فيها . لكان ذلك كفايةً في بغضنا لها) .

وكان يقول : (الملحُ مع الخبز شهوةٌ) .

ورئي رضي الله عنه بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفرَ لي ، فقيل له : بالعلم ؟ فقال : هيهات ، إن للعلم شروطاً وآفاتٍ قلَّ من يتخلَّصُ منها ، فقيل له : فبم غفر الله لك ؟ فقال : بقولِ الناس فيَّ ما ليس فيَّ .

وكان يقول : (لا ينبغي أن يُتركَ القاضي على القضاء أكثر من سنة ؛ لأنه إذا مكث فيه أكثرَ من سنةٍ ذهب فقهه) .

وكان يقول : (من هان عليه فرجُهُ هان عليه دينُهُ) .

وكان يقول : (إذا تكلَّمَ العبدُ بما علم فلا إثم ؛ إنما الإثمُ في الظنِّ) .

وكان يقول : (بلغني : أنه ليس في الدنيا أقلُّ من فقيه ورع)[١]

وكان إذا أفتى يقول : (هـٰذا أحسنُ ما قدرنا عليه من العلم ، فمن قدرَ على غير ذلك فهو وذاك) .

---

(١) في « الطبقات الكبرى » : (أعزُّ) بدل (أقلُّ) .

وكان يقول : (لا ينبغي لمن لم يعلمْ دليلي أن يفتي بكلامي) .

وقال رجل يوماً : إني أحبُّك ، فقال : وما يمنعُك من محبَّتي ، ولستُ بجارك ، ولا ابنِ عمٍّ .

وكان يقول : (غوغاء الناس هم القصَّاصُ الذين يستأكلون بوعظهم الدنيا) .

ومناقبه رضي الله عنه كثيرةٌ مشهورة .

وقد بسطتُ القول في مناقبه في مقدمة كتابنا « مختصر السُّنن الكبرىٰ » للبيهقي ، فراجعه ، والله أعلم .

ومنهم :

(٩٥) الإمامُ الأعظم مالك بنُ أنس رضي الله عنه[١]

كان من صفته : أنَّه رجلٌ طوالٌ ، عظيمُ الهامة ، أصلعُ ، أبيض الرأس واللحية ، شديدُ البياض ، وكان لباسُهُ الثيابَ العدنية الجياد .

وكان يُدير طرف عمامته من تحت حنكه ، ويقول : (إذا لم يكنْ من العمامة شيءٌ تحت الحنك ، فهي عِمامة الشيطان)[٢]

وكان إذا أراد أن يجلسَ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لبسَ أحسنَ ثيابه ، وتبخَّر وتطيَّب واغتسل ، ومنع الناس أن يَرفعوا أصواتهم ، ثم يُحدِّثهم

وكان شغلُهُ إذا دخل بيته تلاوةَ القرآن في المصحف ، وكانت الخلفاء تهابه .

وكان يقول : (قصُّوا الشاربَ حتىٰ تبدو حمرةُ الشفة ، ولا تحلقوه ؛ فإنه مثلة) .

وكان يقول : (ما ثَمَّ أحدٌ يُخاف عليه يومَ القيامة أكثرُ من العلماء ؛ فإنهم يُسألون عما يُسألُ عنه الأنبياء) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٣٧) (٩٢) .
(٢) تقدّمت مثل هـٰذه المقولة من قول سفيان الثوري أيضاً (٣/ ١١٢) .

وكان يقول : (مَثَلُ المنافقين في المسجد كمثلَ العصافير في القفص إذا فُتح بابُ القفص طارت) .

ومكث رضي الله عنه خمساً وعشرين سنة لم يشهدِ الجماعة ، فقيل له : ما يمنعك عن الخروج ؟! فقال : أخاف أن أرىٰ مُنكراً فلا أغيِّره .

قلت : وإنما سُومح مِنْ مثلِ ذلك ؛ لأنَّه مُجتهدٌ ، فلو فعل مثلَ ذلك من ليس بمجتهدٍ فلا يُسامح بذلك ، بل يخرجُ للجماعة .

وكان يقول : (إذا مدحَ الرجلُ نفسَهُ ذهب بهاؤه) .

وكان رضي الله عنه مُهاباً ، فكان إذا قال في مسألةٍ : (لا) أو : (نعم) لا يتجرَّأُ أحدٌ يقول له : من أين قلت ذلك ؟!

وكان يقول : (أخذتُ العلمَ عن تسع مئة شيخ ؛ منهم ثلاث مئة من التابعين) .

وكان يقول : (ليس العلمُ بكثرة الرواية ؛ وإنما هو نورٌ يضعه الله في القلب يفرِّقُ به الإنسانُ بين الحقِّ والباطل) .

وقيل له مرةً : ما تقول في طلب العلم ؟ فقال : حسنٌ جميل ، ولـٰكنِ انظرْ ماذا يلزمك من حين تصبح إلىٰ أن تُمسي فالزمْهُ .

ولما ضربه جعفر بن سليمان في طلاقِ المكره ، وحملَهُ علىٰ بعيرٍ ، وقال له : نادِ علىٰ نفسك بأنك مُوافقٌ لنا ، فقال رضي الله عنه : ألا من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفْني فإني مالك بنُ أنس ، أقول : طلاقُ المكره ليس بشيءٍ ، فبلغ ذلك جعفراً ، فقال : أدركوه وأنزلوه ؛ فإنه يُعلن بمخالفتنا .

وكان يقول : (حقٌّ علىٰ من طلب العلم أن يكونَ له وقارٌ وسكينة وخشية) .

وكان يقول : (لا ينبغي للعالم أن يتكلَّمَ بالعلم عند من لا يُطيعه ؛ فإنه ذلٌّ وإهانة للعلم) .

وكان يمشي في أزقَّةِ المدينة حافياً ، ويقول : (إني أستحي من الله تعالىٰ أن أطأَ موضع قدمِ نبيِّه صلى الله عليه وسلم بنعلٍ أو بحافر دابة) .

ولما اختفىٰ رضي الله عنه أيام الفتنة قال لمُطرِّفِ بنِ عبد الله : ماذا يقولُ الناس فيَّ ؟ فقال : أمَّا الصديق فيُثني عليك ، وأما العدو فيقع ، فقال : ما زال الناس هٰكذا لهم عدوٌّ وصديق ، ولٰكن نعوذُ بالله من تتابع الألسنة كلِّها بالذم .

وسُئل رضي الله عنه مرَّةً عن كيفية الاستواء على العرش ، فقال بعد إطراقٍ وتفكُّر : (الكيفُ غيرُ معقول ، والاستواءُ غيرُ مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأظنُّكَ صاحبَ بدعة) ، ثم أَمَرَ به فأُخرج .

ومناقبه رضي الله عنه كثيرةٌ مشهورة .

ولد رضي الله عنه سنة ثلاث وتسعين ، وتوفي سنة سبعٍ وسبعين ومئة[1] ، ودفن بالبقيع ، وعلىٰ قبره جلالةٌ وهيبة .

وقد زرته سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة ، فحصل للخلق بكاءٌ عند قبره حتىٰ تناحبوا ، ولم يقعْ لهم ذلك عند قبر غيره ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٩٦) الإمامُ الأعظم محمد بنُ إدريس الشافعي رضي الله عنه[2]

وشهرتُهُ تُغني عن تعريفه ، ولٰكن نذكرُ طرفاً من مناقبه وأحواله تبرُّكاً به رضي الله عنه ، فنقول وبالله التوفيق :

هو ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يلتقي معه في عبدِ مناف .

ولد رضي الله عنه بغزةَ ، ثم حُمل إلىٰ مكة وهو ابن سنتين ، **وأقام بمصرَ أربع سنين ، ثم تُوفي بها ليلةَ الجمعة بعد المغرب سنة أربعٍ ومئتين ، وعمره أربع وخمسون سنة .**

ونشأ رضي الله عنه يتيماً في حِجْرِ أمِّهِ في قلَّةِ عيشٍ وضيق حال .

وكان في صباه يُجالس العلماء ، ويكتب ما يستفيده منهم في العِظام ونحوها ؛

---

(١) كذا في النسخ ، والمشهور أنه توفي سنة تسع وسبعين ومئة كما في كتب التراجم .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٣٠) (٩١)

لعجزه عن ثمنِ الورق ، حتىٰ ملأ منها حباباً[1]

وتفقه في مكة علىٰ مسلم بن خالد الزَّنْجي .

وكان منزله شعب الخيف منها ، ثم قدم المدينة فلزم الإمامَ مالك رضي الله عنه ، وقرأ عليه « الموطأ » حفظاً ، فأعجبه قراءتُهُ ، وقال له : يا محمد ؛ اتَّقِ الله تعالىٰ ، فسيكون لك شأنٌ ، وكان سِنُّهُ لما أتىٰ مالكاً بالمدينة ثلاث عشرة سنة .

ثم رحل إلى اليمن حين تولَّىٰ عمُّه القضاء بها ، واشتهر بها

ثم رحل إلى العراق ، وبرع في الاشتغال بالعلم ، وجدَّ فيه ، وناظر محمد بنَ الحسن وغيرَهُ ونُصِرَ .

ونشر علم الحديث والسنة ، وأقام بمذهبه أهله ، واستخرج الأحكام من السنة ، ورجع كثيرٌ من العلماء عن مذاهبهم إلىٰ مذهبه .

ثم خرج إلىٰ مصر آخر سنة تسع وتسعين ومئة ، وصنَّف كتبَهُ الجديدةَ بها ، ورحل الناسُ إليه من سائر الأقطار .

قال : الربيع بنُ سليمان : (رأيتُ علىٰ بابِ دار الإمام الشافعي سبع مئة راحلة تطلبُ سماعَ كتبه ، رضي الله عنه) .

ولما خرج من بغداد أنشد : [من الطويل]

سأطلبُ علماً أو أموتَ ببلدةٍ ... يقلُّ بها قَطْرُ الدُّموعِ علىٰ قبري
وليسَ اكتسابُ العلمِ يا نفسُ فاعلمِي ... بميراثِ آباءٍ كرامٍ ولا صهرِ
ولٰكنْ فتى الفتيانِ مَنْ راحَ واغتدَىٰ ... ليطلبَ علماً بالتجلُّدِ والصَّبرِ
فإنْ نالَ علماً عاشَ في الناسِ سيِّداً ... وإنْ ماتَ قالَ الناسُ بالغَ في العذرِ

وأنشد قبل أن يخرج من بغداد : [من الطويل]

لقدْ أصبحتْ نفسِي تتوقُ إلىٰ مصر ... ومِنْ دونِها أرضُ المهامِهِ والقفرِ
فواللهِ ما أدريْ أَللفوزِ والغنىٰ ... أُساقُ إليها أمْ أُساقُ إلىٰ قبرِي

---

(١) في (أ ، و ، ز ، ج) : (خبايا) ، والحُبُّ : وعاء الماء كالجرة ونحوها .

وكان مذهبه رضي الله عنه الحديثَ ، ويقول : (إذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي) .

وكان يقول : (وددتُ أنَّ الخلقَ تعلَّموا هـٰذا العلم ، ولا يُنسبُ إليَّ منه حرف) .

وكان يقول : (وددتُ أني إذا ناظرتُ أحداً ألا أُظهرَ عليه الحجة ؛ بل أحبُّ أن يُظهرَ اللهُ الحقَّ علىٰ يديه) .

وكان يقول : (طلبُ العلم علىٰ وجهِ الإخلاص أفضلُ من صلاة النافلة) .

وكان يقول : (من أرادَ الآخرة فعليه بالإخلاص في العلم) .

وكان يقول : (من طلبَ العلم بعزِّ النفس لم يُفلح ، ومن طلبه بذلِّ النفس وخدمةِ العلماء أفلح) .

وكان يقول : (تفقَّهْ قبل أن ترأسَ ، فإذا رأستَ فلا سبيلَ إلى التفقُّهِ) .

وكان يقول : (دقِّقوا في العلم ؛ لئلا تضيعَ دقائقُهُ) .

وكان يقول : (جَمالُ العلماء كرمُ النفس ، وزينتُهم الورعُ والحلم) .

وكان يقول : (ما ثَمَّ للعلماء عيبٌ أعظمُ من رغبتهم في الدنيا) .

وكان يقول : (ليس العلمُ ما حُفظ ، إنَّما العلمُ ما نفع) .

وكان يقول : (فقرُ العلماء اختيارٌ ، وفقر الجهَّال اضطرار) .

وكان يقول : (لا تُماروا في العلم ؛ فإنَّ المراء يُقسِّي القلب ، ويُورث الضغائن) .

وكان يقول : (الناسُ في غفلةٍ عن هـٰذه السورة : « والعصر إن الإنسان لفي خسر ») .

وكان جزَّأَ الليلَ ثلاثةَ أجزاء : الثلثُ الأول يكتب ، والثاني يُصلِّي ، والثالث ينام .

وفي رواية : وكان نومُهُ في الليل دونَ ساعةٍ ، وكان يختمُ القرآنَ في كلِّ يومٍ مرة ، يستنبطُ منه الأحكام .

وكان يقول : (ما كذبتُ قطُّ ، ولا حلفتُ بالله لا جادّاً ولا هازلاً ، وما تركتُ غُسلَ الجمعة قطُّ في سفرٍ ولا حضرٍ ، ولا صيفاً ولا شتاءً ، وما شبعتُ من الطعام من

منذ ست عشرة سنة ، إلا شبعةً واحدة طرحتُها من ساعتي) .

وكان يقول : (من لم تعزُّهُ التقوىٰ فلا عزَّ له) .

وكان يقول : (ما فزعتْ نفسي من الفقرِ قطُّ) .

وكان يقول : (طلبُ فضول الدنيا عقوبةٌ عاقبَ الله تعالىٰ بها عباده) .

ولما بلغ الأربعين سنة مشىٰ على العصا ، فقيل له في ذلك ، فقال : لأذكر أني مسافرٌ من الدنيا .

وكان يقول : (من شهد الضعفَ من نفسه نالَ الاستقامة ، ومن غلبته شدَّةُ الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها ، ومن رضي بالقنوعِ زالَ عنه الخضوع) .

وكان يقول : (من أحبَّ أن يُنوِّرَ الله عليه قلبه فعليه بالخلوة ، وقلةِ الأكل ، وترك مخالطة السفهاء ، وبعضِ طلبة العلم الذين ليس معهم إنصافٌ ولا أدب) .

وكان ينشد : [من مجزوء الكامل]

مـا حـكَّ جسمَـكَ مثـلُ ظفـرِكْ فتـولَّ أنـتَ جميـعَ أمـرِكْ
وإذا سـألـتَ لحـاجـةٍ فـاسـألْ لمعتـرفٍ بقـدرِكْ

وكان يقول : (لا بدَّ للعالم من خَبِيْئَةٍ من عملٍ تكون بينه وبين الله[1] ؛ فإنَّ العلمَ قليل الجدوىٰ في الآخرة إلا من حفظ الله) .

وكان يقول : (لا يعرفُ الرياءَ إلا المخلصون)

وكان يقول : (لو أَوصىٰ رجلٌ لأعقلِ الناسِ صرفتُهُ إلى الزهَّاد) .

وكان يقول : (سياسةُ الناس أشدُّ من سياسة الدواب) .

وكان يقول : (العاقلُ من عَقَلَه عقلُهُ عن كلِّ مذموم) .

وكان يقول : (عليكم بالمروءةِ ؛ فإنها رأسُ الإيمان ، وواللهِ ؛ لو علمتُ أنَّ الماءَ البارد يُنقِصُ مروءتي ما شربتُهُ) .

---

(١) في (ح ، ك) : (خبية) بدل (خبيئة) ، وفي « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٣٣) : (لا بد للعالم من وردٍ من أعماله)

وكان يقول : (أصحابُ المروءات في جهدٍ في كلِّ زمانٍ) .

وكان يقول : (من أحبَّ أن يختمَ اللهُ له بخيرٍ فليحسنِ الظنَّ بالناس) .

وكان يقول لطلبة العلم : (سدُّوا بابَ التزويج عنكم ؛ فإنَّ لي منذ أربعين سنة أسألُ إخواني المتزوِّجين عن تزويجهم وما حصلَ لهم ، فكلُّهم يقول : ما رأيتُ خيراً قطُّ) .

وكان يقول : (ليس بأخيك من احتجتَ إلىٰ مُداراته) .

وكان يقول : (من علامةِ الصادق في مودَّةِ أخيه : أن يقبلَ عللَهُ ، ويسدَّ خللَهُ ، ويغفر زَلَلَهُ) .

وكان يقول : (من علامة الصديقِ : أن يكونَ لصديقِ صديقه صديقاً) .

وكان يقول : (ليس سرورٌ يعدلُ صحبةَ الإخوان ، ولا غمٌّ يعدلُ فراقهم ، ولولا محادثةُ الإخوان والتهجُّدُ في الأسحار ما أحببتُ البقاء في هـٰذه الدار) .

وكان يقول : (لا تقصِّرْ في حقِّ أخيك اعتماداً علىٰ مروءته ، ولا تبذل وجهك لمن يهونُ عليه رَدُّك) .

وكان يقول : (من برَّكَ فقد أوثقك ، ومن جفاك فقد أَطلقك) .

وكان يقول : (لا تُشاورْ من ليس في بيته دقيق) .

وكان يقول : (أظلمُ الظالمين لنفسه مَنْ تواضع لمن لا يُكرمه ، ورغبَ في مودَّة من لا ينفعه ، وقبل مدحَ من لا يعرفه) .

وكان يقول : (زينُ العالِمِ الفقرُ والقناعة) .

وكان يقول : (عاشرتُ الصوفية عشر سنين ، فممَّا استفدتُه منهم قولُهم : الوقتُ سيفٌ إن لم تقطعه قطعك[1] ، وقولهم : إن لم تُشغلْ نفسَك بالخير شغلتك بالشرِّ) .

وكان يقول : (أفضلُ العصمةِ ألا تجد) .

وكان يقول : (من نمَّ لك نمَّ عليك ، ومن نقل إليك نقل عنك ، ومن إذا أرضيتَهُ

---

(١) جاء في هامش (ج) : (قوله رضي الله عنه : « الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك » يعني : إن لم تقطعه بالعمل اقتطعك بالأمل . انتهىٰ) .

مدحَكَ بما ليس فيك . . كذلك إذا أغضبتَهُ ذمَّك بما ليس فيك) .

وكان يقول : (من وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانيةً فقد فضحه وشانه) .

وكان يقول : (من سامَ بنفسه فوق ما تُساوي ردَّهُ اللهُ إلىٰ قيمته قهراً عليه)

وكان يقول : (من تزيَّنَ بباطلٍ هُتك سترُهُ) .

وكان يقول : (التكبُّرُ من أخلاق اللئام) .

وكان يقول : (شرُّ الناسِ اللئيم ؛ إذا ارتفع جفا أقاربَهُ ، وأنكرَ معارفَهُ) .

وكان يقول : (إذا ولي أخوك ولايةً فارضَ منه بعُشْرِ ودِّهِ الذي كان قبل ولايته ؛ فمن كلَّفَهُ مثلَ ما كان قبل ولايته فقد ظلمَهُ ؛ لكثرة اشتغاله بأمر رعيَّتِهِ)

وكان يقول : (القناعةُ تورثُ الراحة) .

وكان يقول : (أرفعُ الناس قدراً من لا يرىٰ قدرَهُ ، وأكثرُهم فضلاً من لا يرىٰ فضلَهُ) .

وكان يقول : (من كتم سرَّهُ كانت الخيرةُ في يده) .

وكان يقول : (ما ضحك الناسُ من خطأ رجلٍ في مسألةٍ إلا ثبتَ صوابُها في قلبه) .

وكان يقول : (الإكثارُ من الدنيا إعسارٌ ، والإعسارُ منها إيسارٌ) .

وكان يقول : (الانبساطُ إلى الناس مجلبةٌ لقرناء السوء ، والانقباضُ عنهم مجلبةٌ للعداوة ؛ فكنْ بين المنقبض والمنبسط) .

وكان يقول : (ما زدتُ في إكرام شخصٍ فوق قدره إلا نقصَ من قدري بقدر ما زدتُ) .

وكان يقول : (لا وفاءَ لعبدٍ ، ولا شكرَ للئيم) .

وكان يقول : (صحبةُ من لا يخاف العارَ عارٌ يوم القيامة ، ومن عاشر اللئام اكتسب اللؤم) .

وكان يقول : (من اتَّعظ بقلبه كان واعياً ، ومن اتَّعظَ بفعله كان هادياً ؛ لأن فعله يؤيِّدُهُ ، ومن سمع بإذنه كان حاكياً) .

وكان يقول : (من الذلِّ حضورُ مجلس العلم بلا نسخةٍ ، وعبورُ الماء بلا قطعة ، ودخول الحمام بلا قصعة ، وتذلُّلُ الرجل للمرأة أو للئيم لينالَ من مالهما شيئاً) .

وكان يقول : (مداراةُ الأحمق غايةٌ لا تُدرك) .

وكان يقول : (من ولي القضاء ولم يفتقرْ فهو لصٌّ) .

وكان يقول : (ينبغي للعالِمِ أن يكونَ بجنبه سفيهٌ يردُّ عنه ألسنة السفهاء) .

وكان يقول : (أحبُّ لكلِّ مُسلمٍ أن يُكثرَ من الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وكان يقول : (إذا رأيتُ رجلاً من أصحاب الحديث فكأني رأيتُ رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم) .

وكان يقول : (لو رأيتُ صاحبَ بدعةٍ يمشي على الماء ما قبلتُهُ) .

وكان يقول : (من لم يصنْ نفسَهُ لم ينفعْهُ علمُهُ) .

وكان يقول : (الكرمُ والسخاء يُغطِّيان عيوبَ الإنسان في الدنيا والآخرة) .

وكان يقول : (من استُغضِبَ فلم يغضبْ فهو حمار ، ومن استُرضي فلم يرضَ فهو شيطان) .

وكان يقول : (احذروا معاملةَ الأعور ، والأحول ، والأعرج ، والأحدب ، والأشقر ، والكوسج ، وكلِّ مَنْ به عاهةٌ في بدنه ؛ فإن فيه التواءً ، ومعاشرتُهُ عسرةٌ) .

وكان يقول : (من طلب الرئاسةَ قبل حينها فرَّتْ منه) .

وكان يقول : (ليس من المروءة أن يُخبرَ الرجلُ بسنِّهِ ؛ لأنه إنْ كان صغيراً استحقروه ، وإن كان كبيراً استهرموه) .

وكان يقول : (من نظَّفَ ثوبَهُ قلَّ همُّهُ ، ومن طاب ريحُهُ زادَ عقله ، وقهر عدوَّهُ) .

وكان يقول : (لينوا لمن يَجفو ، فقلَّ من يصفو) .

وكان يقول : (ما نصحتُ أحداً فقبلَ مني النصحَ إلا عظمَ في عيني ، وزدتُ في مودَّته ، ولا ردَّ عليَّ أحدٌ النُّصحَ إلا سقط من عيني ورفضتُهُ) .

وكان رضي الله عنه من أكرم الناس ، قدمَ من اليمن بعشرة آلاف دينار ، فضرب خباءَهُ خارج مكة ، ففرَّقها كلَّها في مجلسٍ واحد على الناس .

وكان إذا سأله أحدٌ شيئاً احمرَّ وجهُهُ حياءً من السائل .

وكان رضي الله عنه يخضبُ لحيتَهُ بالحنَّاء حمراء قانية ، وتارةً يخضبُها بصُفرة .

وكان كثيرَ الأسقام والأمراض ؛ منها البواسير ، كانت دائماً تنضحُ الدَّمَ حتىٰ كان لا يجلسُ للحديث إلا والطستُ تحته يقطرُ فيه الدمُ .

وكان يونس بنُ عبد الأعلىٰ يقول : (ما رأيت أحداً لقي من السقم والمرض ما لقي محمد بن إدريس) .

وكان رضي الله عنه مقتصداً في لباسه .

وكان نقش خاتمه : (كفىٰ بالله ثقةً لمحمد بن إدريس)

وكان اللهُ تعالىٰ قد أَلقىٰ عليه الهيبةَ ، حتىٰ كان أصحابُهُ لا يتجرَّؤون أن يَشربوا وهو ينظرُ إليهم هيبةً له .

وكان يتوشَّح بالرداء ، ويتكئ على الوسادة ، وتحته مضرَّبتان[١]

وكان إذا اشترىٰ جاريةً يشترطُ عليها ألا يقربَها ؛ لأنه كان عليلاً على الدوام .

قال الربيع : ولما اشتدَّ المرضُ بالشافعي رضي الله عنه ليلةَ موته دخلتُ عليه ، فقلتُ له : كيف أصبحتَ ؟ قال : أصبحتُ من الدنيا راحلاً ، ولإخواني مُفارقاً ، ولكأسِ المنية شارباً ، ولسوءِ أعمالي ملاقياً ، وعلىٰ ربِّي الكريمِ وارداً ، ثم بكىٰ ، فكان ذلك آخرَ عهدي به ، رضي الله عنه .

---

(١) المضربة : كساء أو غطاء كاللحاف ، ذو طاقين مخيطين خياطة كثيرة ، بينهما قطن ونحوه . انظر « المعجم الوسيط » (ض ر ب) .

وكان الشريفُ البعلبكي المدفون تحت شباك الإمام البحري يقول : (إذا زرتمُ الإمامَ الشافعي فقفوا عند الشباك ؛ فإنه موقفُ الأبدال) انتهىٰ ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٩٧) الإمام أحمد بن حنبل إمامُ السُّنَّة رضي الله عنه[١]

وشهرته في اتِّباع السنة ومعاقبتُهُ عليها أشهرُ من أن تذكر .

وكان رضي الله عنه يقول : (طوبىٰ لمن أُخمل ذكرُهُ في هـٰذه الدار) .

وكان يقول : (رأيتُ ربَّ العزة في المنام كذا كذا مرة ، فقلت له في مرةٍ : يا ربِّ ؛ بم يتقرَّبُ إليك المتقرِّبون ؟ قال : بكلامي ، فقلت : يا ربُّ ؛ بفهمٍ أو بغير فهم ؟ فقال : بفهمٍ وبغير فهم) .

وكان إذا جاءه شابٌّ أمردُ يطلب الحديث لم يحدِّثْهُ حتىٰ يأتي ومعه غيرُهُ ، وكذلك كان يفعلُ يحيى بنُ معين .

وكان يقول : (إنما تزوَّجَ يحيى بنُ زكريا مخافةَ النظر) .

وكان رضي الله عنه لا يتركُ قيامَ الليل أبداً ، وله في كلِّ يومٍ وليلة ختمٌ ، وكان يسترُ ذلك عن الناس .

وكان أبو عصمة يقول : بتُّ ليلةً عند الإمام أحمد أطلب الحديث ، فأتىٰ بماءٍ فوضعه عند رأسي ، فلمَّا أصبحَ نظرَ إلى الماء كما هو لم يُستعمل ، فقال : يا سبحان الله ! رجلٌ يطلبُ العلم ولا يكونُ له وردٌ من الليل ! ولم يحدِّثني .

وكان يلبسُ الثيابَ النقية البياض ، ويتعهَّدُ شاربَهُ وشعرَ رأسه وبدنه .

وكان مجلسُهُ خاصّاً بأمور الآخرة ، لا يكاد يُذكرُ فيه شيءٌ من أمر الدنيا .

وكان يجيبُ إلى العرسِ والأملاك والختان ويأكل .

وجاءته زكاةٌ يوماً ، فردَّها ، فقيل له : إنَّ أولادَكَ عراةٌ ، فقال : العريُ خيرٌ لهم

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٤٢) (٩٤) .

من أوساخ الناس ، وإنها أيامٌ قلائل ، ثم نرحل من هـٰذه الدار .

وكان إذا جاعَ يأخذُ الكِسرةَ اليابسةَ ، فينفضُها من الغبار ، ثم يصبُّ عليها الماء في قصعةٍ حتىٰ تبتلَّ ، ثم يأكلها بالملح .

وكان إذا اشتهى الطعامَ طبخوا له عدساً وشحماً في فخَّارة .

وكان أكثرُ إدامه الخلَّ .

وكان لا يمكِّنُ أحداً يمشي معه في الطريق إلا إن كان له حاجةٌ .

ولما مرضَ عَرَضوا بولَهُ على الطبيب ، فنظر إليه وقال : (هـٰذا بولُ رجلٍ قد فتَّتَ الحزنُ والغمُّ والخوف كبده) .

وكان يُحيي الليل كلَّهُ من حين كان غلاماً .

وكان من أصبرِ الناس على الوحدةِ ، لا يراه أحدٌ إلا في مسجدٍ أو جنازة أو عيادة .

وكان يكرهُ المشيَ في الأسواق .

وكان وِردُهُ كلَّ يومٍ وليلة ثلاث مئة ركعة ، فلما ضُرب بالسياط ضعف بدنُهُ ، فكان يُصلِّي مئةً وخمسين ركعة كلَّ يومٍ وليلة .

وحجَّ خمس حجَّات ؛ ثلاثاً منها ماشياً ، وكانت نفقتُهُ في كلِّ حجَّةٍ نحو عشرين درهماً .

ولمَّا قُدِّم للسياط أيام المحنة أغاثه الله تعالىٰ برجلٍ يقال له : أبو الهيثم العيَّار ، فوقف عند رأسه وقال : يا أحمد ؛ أنا فلانٌ اللصُّ ، واللهِ ؛ لقد ضربوني ثمانية عشر ألف سوط لأُقِرَّ ، فلم أُقرَّ وأنا على الباطل ، فاحذرْ أن تقلقَ من حرارة الضرب وأنت علىٰ حقٍّ ، فكان أحمدُ كلما أوجعه الضربُ يذكرُ كلام ذلك اللص ، وكان بعد المحنة لم يزلْ يتذكَّرُ كلامَهُ ، ويترحَّمُ عليه .

قال داود : (وكان أحمدُ من أنورِ الناس وجهاً) .

ولما دخلوا به على المتوكِّل بعد أن رفعوا عنه المحنة قال المتوكِّلُ : يا أمَّاه ؛ قد نارتِ الدارُ بهـٰذا الرجل ، ثم أتوه بثيابٍ نفيسة ، فألبسوها له ، فبكىٰ وقال : سلمتُ

منهم عمري كلَّهُ ، حتىٰ إذا دنا أجلي بُليت بهم وبدنياهم ، ثم نزعها لما خرجَ من عنده .

وكان يُواصلُ الصومَ ، ويُفطرُ كلَّ ثلاثة أيام علىٰ تمرٍ وسَويق .

وكان الفُضيل بنُ عياض يقول : حُبس الإمام أحمد ثمانيةً وعشرين شهراً ، وكان يُضرب فيها كلَّ قليل بالسياط إلىٰ أن يُغمىٰ عليه ، وينخسونه بالسيف ثم يُرمىٰ على الأرض ، ويُداس علىٰ بطنه ، فلم يزلْ كذلك إلىٰ أن مات المعتصم[(١)] ، وتولىٰ بعده الواثقُ[(٢)] ، فاشتدَّ الأمرُ علىٰ أحمد ، وقال : لا أسكنُ بلداً فيه الواثق ، فاختفىٰ أحمد ، ولم يخرج لصلاةٍ ولا غيرها حتىٰ مات الواثقُ ، وولي المتوكِّلُ[(٣)] ، فرفعَ المحنةَ عن أحمد ، وأمرَ بإحضاره وإكرامه وإعزازه ، وكتب إلى الآفاق برفعِ المحنة ، وإظهار السُّنَّة ، وأن القرآنَ غيرُ مخلوق ، وخمدتِ المعتزلة ، وكانوا أشرَّ طوائف المبتدعة .

قال أحمد بن غسان : (ولمَّا حُملتُ مع أحمد إلى المأمون تلقَّانا الخادم وهو يبكي[(٤)] ، ويمسح دموع عينيه ، وهو يقول : واللهِ ؛ قد عزَّ عليَّ يا أبا عبد الله ما نزلَ بك ، قد جرَّدَ أميرُ المؤمنين سيفاً لم يجرِّدْهُ قطُّ ، وبسط نِطعاً لم يبسطْهُ قطُّ ، ثم حلف وقال : بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا رفعتُ السيفَ عن أحمد وصاحبه حتىٰ يقولا القرآن مخلوق ، فجثا أحمد علىٰ ركبتيه ، ورمقَ السماءَ بعينيه ، ودعا ربَّهُ ، فما مضى الثلثُ الأول من الليل إلا ونحن بصيحةٍ وضجَّةٍ ، فأقبل علينا خادمُهُ وهو يقول : صدقتَ يا أحمد ، القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوق ، قد مات واللهِ أميرُ المؤمنين) .

وكان قد لقيه رجلٌ من أولياء الله قبل أن يدخلَ المدينة ، فقال : يا أحمد ؛ احذرْ أن يكونَ قدومُك مشؤوماً على المسلمين ؛ فإن الله تعالىٰ قد رضيك لهم وافداً ، وكلُّهم

---

(١) **المعتصم بالله** : محمد بن هارون الخليفة العباسي (١٧٩ـ٢٢٧هـ) .

(٢) **الواثق بالله** : هارون بن محمد الخليفة العباسي (٢٠٠ـ٢٣٢هـ) .

(٣) **المتوكل على الله** : جعفر بن محمد الخليفة العباسي (٢٠٦ـ٢٤٧هـ) .

(٤) **المأمون** : عبد الله بن هارون الرشيد أبو العباس (١٧٠ـ٢١٨هـ) .

ناظرون إلىٰ ما تقول فيقولون به ، فقال أحمد : حسبنا الله ونعم الوكيل .

قال الفُضيل بنُ عياض : (ولمَّا سجنوا أحمد وضعوا في رجليه أَربعةَ قيود) .

وكان ابن أبي دُوَاد هو الذي تولَّىٰ مُناظرةَ أحمد عن الخليفة ، وقال للخليفة : إن أحمدَ ضالٌّ مُبتدع ، ثم يلتفتُ إلىٰ أحمد ، ويقول : قد حلف أميرُ المؤمنين أنه لا يقتلك بالسيف ؛ وإنما يضربُكَ ضرباً بعد ضرب إلىٰ أن تموت .

قال داود : وما زالوا يُناظرون أحمد إلىٰ أن ضجرَ الخليفةُ من ذلك ، فلما طالَ بهم الحال قال ابن أبي دُواد : يا أمير المؤمنين ؛ اقتلْهُ ودمُهُ في أعناقنا ، فرفع الخليفة يدَهُ ، ولطمَ بها وجهَ أحمد ، فخرَّ مَغشيّاً عليه ، فخاف الخليفةُ علىٰ نفسه من أصحاب أحمد وشيعته ، فدعا بماءٍ ، ورشَّ علىٰ وجه أحمد .

ولما قُدِّم أحمد للضرب ، والناسُ بين يدي الخليفة قياماً قال إنسانٌ لأحمد : أمسكْ رأسَ الخشبتين بيديك ، وشدَّ عليهما ، فلم يفهمْ أحمد مقالته ، فخُلعتْ يدا أحمد ، ولم يزلْ يتوجَّعُ منهما إلىٰ أن مات .

ومكث أحمدُ بعد الضربِ يقطعون اللحم والجلدَ من مقاعده سنين إلىٰ أن مات ، رضي الله عنه .

وكان بِشرُ الحافي يقول : (قد امتُحن أحمد بالنارِ فخرج ذهباً إكسيراً ، فمن مثلُ أحمد ؟!) .

وكان الهيثم يقول : (كان أحمد حجَّةَ الله علىٰ أهل زمانه في تحمُّلِ المحنِ والورع ، وكان الفضيل بن عياض حجَّةَ الله علىٰ أهل زمانه في الحزن) .

وكان أحمد يقول : (إذا كان في الرجل مئةُ خصلةٍ من الخير ، ثم شربَ الخمرَ مرةً . . محتِ المرةُ سائرَ الخصال) .

وكان يقول : (لا تأخذوا العلم عمن يشتري به ثمناً قليلاً) .

ومرض جارٌ لأحمد فقال له ولده : ألا تعودُ جارَنا ؟ فقال : يا ولدي ، إنه لم يعدْنا لمَّا امتُحنَّا حتىٰ نعودَهُ .

وسألوه مرَّةً عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : (لم يجئ لنا في

الفضائل لأحدٍ من الصحابة ما جاءَ لعليٍّ بن أبي طالب) .

ولما امتُحن أرسلَ إليه الخضر عليه السلام وقال : (يا أحمد ؛ إنَّ ساكنَ السماء ومَنْ حول العرش راضون عنك بما صبرتْ نفسُك لله عز وجل) .

ومناقبه كثيرة مشهورة .

توفي رضي الله عنه سنة إحدىٰ وأربعين ومئتين ، وقد استكمل سبعاً وسبعين سنة .

ولمَّا مرضَ اجتمعَ الناس و[أصحاب][1] الدولة علىٰ بابه لعيادته حتى امتلأتِ الشوارع والدُّروبُ ، فلما قُبض صاح الناسُ ، وارتفعتِ الأصوات بالبكاء ، وارتجَّتِ الدنيا لموته ، وخرج أهلُ بغداد إلى الصحراء يُصلُّون عليه ، فحزروا من حضر جنازته من الرجال ثمان مئة ألف ، ومن النساء ستين ألفاً ، سوىٰ من كان في الأطراف والسفن والأسطحة ؛ فإنهم بذلك يكونون أكثر من ألف ألف .

وفي روايةٍ : فحزروا من صلَّىٰ عليه فبلغوا ألفي ألف ، وخمس مئة ألف .

وأسلم يومئذٍ عشرون ألفاً من النَّصارىٰ واليهود والمجوس ، وسمعوا الجنَّ تنعيه ليالي وأشهراً في جزائر البحار وغيرها ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٩٨) عبد العزيز بن أبي رَوَّاد رضي الله عنه[2]

بكىٰ حتىٰ ذهب بصرُهُ مدة عشرين سنة ، لم يعلمْ به أهلُه ولا ولده .

وكان شُعيب بنُ حرب رضي الله عنه يقول : (جالستُ عبد العزيز خمس مئة مجلس فما أظنُّ أنَّ كاتبَ الشِّمال كتبَ عليه لفظةً واحدة) .

وكان يوسف بنُ أسباط يقول : (مكث عبد العزيز أربعين سنة لم يرفعْ طرفَهُ إلى السماء)

وقيل له : كيف أصبحتَ ؟ فبكىٰ ، فقيل له في ذلك ، فقال : كيف حالُ من

---

(١) انظر (١/ ٢٤٦) الحاشية رقم (١) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦٠) (١٠١) .

أحاطتْ به ذنوبُهُ حتىٰ فجأَهُ الموت ، ولا يدري إلىٰ ماذا يصير إلىٰ جنةٍ أم إلىٰ نار ؟!

توفي بمكة سنة تسع وخمسين ومئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٩٩) أبو العباس بن السَّماك رضي الله عنه[١]

كان من أزهد الناس ، وأورعِ الناس .

وكان يقول : (من علامةِ الزاهد : أن يفرحَ إذا حوَّلَ اللهُ عنه الدنيا)

وكان يقول : (قد صُمَّتِ الآذانُ في زماننا هـٰذا عن المواعظ ، وذَهَلتِ القلوب عن المنافع ، فلا الموعظةُ تنفع ، ولا الواعظ ينتفع) .

وكان يقول : (هبْ أن الدنيا كلَّها في يديك ، فانظرْ ما في يديك منها عند الموت) .

وكان يقول : (كم من مُذكِّرٍ بالله وهو له ناس ! وكم من داعٍ إلى الله وهو من الله فارٌّ ! وكم من تالٍ لآيات الله وهو منسلخ منها !) .

توفي رضي الله عنه بالكوفة سنة ثلاث وثمانين ومئة

ومنهم :

(١٠٠) أبو عبد الرحمـٰن بن النضر الحارثي رضي الله عنه[٢]

كان من أعبد الناس ، راقبه إنسان أربعين يوماً بلياليها فما رآه نائماً لا ليلاً ولا نهاراً .

وكان يوسف بنُ أسباط يقول : (شهدتُ غُسل أبي عبد الرحمـٰن حين مات ، فلو جُرِّدَ كلُّ لحمٍ عليه ما بلغ رطلاً) .

وكان قليلَ الرواية لشغله بالعبادة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦٠) (١٠٢) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦١) (١٠٣) .

وكان إذا ذكر الآخرة ارتعدتْ مفاصلُه ، وقال : سلام سلِّمْ[١]

ومنهم :

(١٠١) محمد بن يوسف الأصبهاني رضي الله عنه[٢]

كان عبدُ الله بنُ المبارك يُسمِّيه عروسَ الزهّاد والعبَّاد .

وكان يقول لنفسه : (هبي أنك قاض أو عالمٌ أو صالح ، ماذا يكون لك الأمر من وراء ذلك كلِّه ؟! فكان يقطعُ أطماع نفسه عن الوقوف مع مراتب الدنيا) .

وكان إذا وردَ عليه نصرانيٌّ أكرمه وأضافه وأتحفه ، يبتغي بذلك ميلَهُ إلى الإسلام .

وكان يقول : (ذهب أصحابُنا إلىٰ رحمة الله ، وتخلَّفنا نحن في حشوش الدنيا للبول والغائط) .

وبعثوا إليه مرةً مالاً ليُفرِّقَهُ على الفقراء ، فأبىٰ ، وقال : السلامةُ مقدَّمةٌ على الغنيمة ، ومن جمعه فهو أولىٰ بتفرقته

وكان لا ينام الليل لا صيفاً ولا شتاءً ؛ لـٰكن كان يتمدَّدُ بعد طلوع الفجر ساعةً ، ثم يقومُ للصبح .

وكان إذا أصبح كأن وجهَهُ وجهُ عروسٍ من مناجاةِ الحقِّ جل وعلا .

توفي سنة أربع وثمانين ومئة ، وهو ابن نيِّفٍ وثلاثين سنة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٠٢) يوسف بن أسباط رضي الله عنه[٣]

كان يقول : (لا يكملُ الرجل في مقامِ التواضع حتىٰ يخرجَ من بيته ، فلا يرىٰ أحداً إلا رأىٰ نفسَهُ دونه حتىٰ يرجع)

---

(١) في (أ ، هـ ، و ، ح) : (يا سلام سلِّم) ، وفي (ج) : (سلام سلام) .
(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦١) (١٠٤) .
(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦٢) (١٠٥) .

وكان يقول : (لو أن شخصاً تركَ الدنيا كما تركها أبو ذرٍّ وأبو الدرداء . . ما قلتُ له زاهداً ؛ وذلك لأن الزُّهدَ لا يكونُ إلا في الحلال المحض ، والحلالُ المحض لا نعرفه اليوم) .

وأقام أربعين سنةً ليس له إلا قميصان ؛ إذا غسل أحدَهما لبس الآخر .

وكان يعمل الخُوْصَ بيده ويتقوَّتُ حتىٰ مات .

ومرضَ مرَّةً ، فأتوه بطبيبٍ من أطباء الخليفة ، وهو لم يعلم ، فلما أرادَ الانصرافَ أعلموه ، فقال لهم : ما عادتُهُ[1] ؟ فقالوا : دينار ، فقال : أعطوه هٰذه الصُّرةَ ، ففتحوها فإذا فيها خمسة عشر ديناراً ، فقال : إنما فعلتُ ذلك لئلا يعتقدَ أحدٌ أن الخليفةَ أكبرُ مروءةً من الفقراء .

وكان يقول : (اصبروا تحت ما قدَّرَ اللهُ عليكم ؛ فإنه قلَّ من فرَّ من شرٍّ إلا وقع في أشرَّ منه ، وانظروا إلى المسيح عليه السلام لمَّا فرَّ من خضوع بني إسرائيل له ، وهرب إلى البراري . . عبدوه من دون الله ، وكان مكثُه بينهم أولىٰ) .

وكان يقول : (من قرأ القرآن ، ثم مال إلىٰ محبَّة الدنيا فقدِ اتخذَ آياتِ الله هزواً ولعباً) .

وكان يقول : (لا يكونُ العالمُ عالماً حتىٰ يكونَ يرىٰ خيرَ أعماله أضرَّ عليه من ذنوبه) .

وكان يقول : (إياكم ولذَّةَ إقبالِ الناس عليكم ؛ فإني دخلتُ المِصِّيصة مرةً ، فأقبلَ أهلُها عليَّ ، فما وجدتُ قلبي إلا بعد سنتين) .

وكان يصوم ويجوعُ حتىٰ مات وليس علىٰ جسمه أوقيةُ لحم .

توفي سنة نيِّفٍ وتسعين ومئة[2]

---

(١) **ما عادته** : أي : ما أَجْرُهُ .

(٢) في « الوافي بالوفيات » (٢٩/ ٤٥) : (توفي في حدود المئتين رحمه الله) ، وفي « تهذيب التهذيب » (٤/ ٥٨٥) أن وفاته سنة (١٩٥هـ)

ومنهم :

(١٠٣) حُذيفة المَرْعَشي رضي الله عنه[١]

كان يقول : (والله ؛ لو قال لي إنسانٌ : إن عملَكَ عملُ من لا يؤمن بيوم الحساب لقلتُ له : صدقتَ ، فلا تُكفِّرْ عن يمينك) .

وكان يقول : (إنْ لم يَخفِ العالمُ أن يعذِّبه اللهُ علىٰ أفضل أعماله فهو هالك) .

وكان يقول : (ربما أُحبُّ لقاءَ أخي في الله تعالىٰ ، فأخافُ أني إذا لقيته أتصنعُ له ، فأترك لقاءه) .

وكان يقول : (لا أعلمُ شيئاً من أعمال البرِّ أفضلَ من لزوم المرء بيته ، ولو كانت لي حيلةٌ في عدم الخروج إلى الفرائض تُخلِّصني لفعلت)

توفِّي سنة سبعٍ ومئتين .

ومنهم :

(١٠٤) اليمان أبو معاوية الأسود رضي الله عنه[٢]

كان يقول : (كلُّ إخواني خيرٌ مني ؛ لأنَّهم كلَّهم يرون لي الفضلَ عليهم) .

وكان يقول : (يقبحُ علىٰ حامل القرآن أن يسعىٰ في تحصيل أقلَّ من جناح بعوضة ، أو يزاحمَ عليها) .

وكان ذهب بصرُهُ ، فكان إذا أرادَ أن يقرأَ في المصحف ردَّ اللهُ عليه بصره ، فإذا ردَّ المصحفَ ذهب بصرُهُ .

واستطال شخصٌ في عِرضه ، فمنعه الناسُ ، فقال : دعوه يشتفي ، ثم قال : (اللهم ؛ اغفرْ لي الذنب الذي سَلَّطتَ عليَّ به هـٰذا) .

وكان يلتقطُ الخروقَ من المزابل ، ويغسلُها ، ثم يُطبِّقُها علىٰ بعضها ، ويسترُ بها عورته ، ويقول : أمامنا اللبسُ إن شاء الله في دار البقاء ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦٣) (١٠٦) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٤) (١٠٧) .

ومنهم :

(١٠٥) [سَلْم] بن ميمون الخوَّاص رضي الله عنه(١)

كان من أورعِ الناس ، وأعبدِ الناس ، وأكثرهم خوفاً من الله عز وجل .

وكان يقول : (من طلبَ الحلال في هـٰذا الزمان لم يجدْ رغيفاً يُخرجُهُ لضيفٍ) .

وكان يقول : شكوت لشيخي عدمَ وجودي حلاوة القرآن إذا قرأته ، فقال لي : مثِّل نفسَك كأنك تقرأه عليَّ ، ففعلتُ ، فزدتُ حلاوةً ، فقلتُ له ، فقال : مثِّل نفسَك كأنك تقرأ علىٰ رسول الله ، فوجدتُ حلاوةً ، فقلت له في ذلك ، فقال : مثِّل نفسَك كأنك تقرأه علىٰ جبريل ، ففعلت ، فازددت حلاوة ، فقلت له في ذلك ، فقال : مثِّل نفسَك كأنك تقرأه على الله عز وجل ، فجاءت الحلاوة كلُّها .

وكان يقول : (من أعظمِ أخلاقِ الرجال تحمُّلُ الأذىٰ من الناس إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم) .

ومنهم :

(١٠٦) أبو عبيدة الخوَّاص رضي الله عنه(٢)

كان يقول لأصحابه : (عليكم بسيرةِ السلف الصالح فانظروا فيها ، واهتدوا بهديهم ؛ فإنَّكم في زمانٍ قد قلَّ فيه الورعُ ، وحَمَلَ العلمَ فيه مفسدوه ، وأَحبُّوا أن يُعرفوا بحمله ، وكرهوا أن يُعرفوا بإضاعة العمل به ، فنطقوا فيه بالرأي ؛ ليزيِّنوا ما دخلوا فيه من الخطأ ، فذنوبهم ذنوبٌ لا يُستغفر منها) .

ومكث رضي الله عنه سبعين سنةً لا يرفعُ طرفه إلى السماء حتىٰ مات ، حياءً من الله عز وجل .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦٤) (١٠٨) ، وفي النسخ : (مسلم) بدل (سلم) ، والمثبت من مصادر ترجمته .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦٥) (١٠٩) .

وكان من شدَّة الخوف لا يستطيعُ أن يقرأَ سورة القارعة ، ولا أن تُقرأ عليه ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٠٧) أبو بكر بن عيَّاش رضي الله عنه[١]

كان يقول : (مسكينٌ ابنُ آدم ؛ يسقطُ منه دينارٌ فيظلُّ نهارَهُ يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ويقع منه دينُهُ ، ويذهب عمرُهُ فلا يحزنُ عليه) .

وكان يقول : (أدنىٰ ضرر المنطق الشهرةُ ، وكفىٰ بها بليَّةً) .

وكان يقول : (رأيتُ عجوزاً مشوَّهةً حدباء ، تُصفِّقُ بيديها ، وحولها خلائقُ يتبعونها ، ويصفِّقون ، فلما حاذتني أقبلت عليَّ وقالت : آهِ لو ظفرتُ بك لصنعتُ بك مثلَ ما صنعتُ بهـٰؤلاء ، فقلت لها : من أنت ؟! فقالت : الدنيا) .

وكان يقول : (ختمتُ القرآن ثمانيةَ عشر ألف مرة ، وأودُّ أن لو كانتْ سبباً للصفح عن زلَّةٍ واحدة وقعتُ فيها) .

توفي سنة ثلاث وتسعين ومئة ، وله ثلاثٌ وتسعون سنة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٠٨) أبو علي [الحسن] بنُ يحيى الخُشَني رضي الله عنه[٢]

كان يقول : (ما في جهنَّمَ من دارٍ ، ولا مغارٍ ، ولا قيد ، ولا غلٍّ ، ولا سلسلة . . إلا واسمُ صاحبها مكتوبٌ عليها) .

وكان يقول : (من حكمة لقمان : أنَّه كان يقول : لا يطأ بساطَكَ إلا راغبٌ أو راهب ؛ فأما الراهبُ منك فأدنِهِ من مجلسك ، وتهلَّلْ في وجهه ، وإياك والغمزَ من

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦٥) (١١٠) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦٦) (١١١) ، وفي النسخ (الحسين) بدل (الحسن) ، والمثبت من مصادر ترجمته .

ورائه، وأما الراغبُ فيك فأظهرْ له البشاشةَ مع صفاء الباطن ، وابذلْ له النَّوالَ قبل السؤال؛ فإنك متىٰ ألجأتَهُ إلى السؤال أخذتَ من حرِّ وجهه ضعفي ما أَعطيته) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٠٩) وكيع بن الجراح رضي الله عنه[١]

كان يقول : (ما بقي اليومَ زهدٌ في الدنيا يصحُّ ؛ وذلك لأنَّ الزهدَ لا يكون إلا في الحلال ، والحلالُ قد فُقد ، فأَنزلوا الدنيا بمنزلةِ الميتةِ ، وخذوا منها ما يُقيمُكم ، فإنْ كانتْ حلالاً كنتم قد زهدتم فيها ، وإن كانتْ حراماً كنتم قد أخذتم منها ما يُقيمكم ؛ لأنه هو الذي يحلُّ لكم منها ، وإن كانت شبهاتٍ كان حسابُها يسيراً) .

قلت : وقوله : (قد فُقِدَ) بالنظر لحاله ومقامه ؛ لأنَّ الله تعالىٰ قد أمرنا بالأكلِ الحلال في كلِّ زمان ، ولولا وجودُهُ ما صحَّ خطابنا بطلبه ، فافهم ، والله أعلم .

وكان يقول : (طريقُ القوم بضاعةٌ لا يرتفعُ فيها إلا صادق) .

وكان يصومُ الدهر ، ويختمُ القرآن في كلِّ ليلةٍ

وكان إذا شتمه شخصٌ أو آذاه يرفع الترابَ علىٰ رأس نفسه ، ويقول : لولا ذنبي ما سُلِّطَ هـٰذا عليَّ ، ثم يأخذُ في الاستغفار حتىٰ يسكنَ ذلك الذي يؤذيه .

ولد رضي الله عنه سنة تسعٍ وعشرين ومئة ، وتوفي سنة سبعٍ وتسعين ومئة بطريق العراق حين رجعَ من الحجِّ ، وعمرُهُ ستٌّ وستون سنة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١١٠) عبد الرحمـٰن بن مهدي رضي الله عنه[٢]

كان يختمُ القرآنَ كلَّهُ في كلِّ ليلةٍ ، ويتهجَّدُ بنصفه ، وكان له هيبةٌ عظيمة .

وكان إخوانُه إذا جلسوا عنده كأنما علىٰ رؤوسهم الطير ، وضحكَ واحدٌ منهم مرَّةً

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦٧) (١١٢) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦٧) (١١٣) .

في مجلسه ، فأقامه ، ومنعه من الجلوس معه شهرين ، وقال : يطلبُ أحدُكم العلمَ وهو يضحك ، إنما ينبغي للعبد أن يطلبَهُ وهو يبكي ؛ لأنه يُريدُ به إقامةَ حجَّة الله عليه يومَ القيامة ، مع زيادة تكليفه العمل به في دار الدنيا .

وقام ليلةً إلى الصباح ، ثم رمىٰ بنفسه على الفراش ، فنام من لينِهِ عن صلاة الصبح في الجماعة ، فمنع نفسَه النوم علىٰ ذلك الفراشِ شهرين .

وكان يقول : (لا أغبطُ اليومَ إلا مؤمناً في قبره مُستريحاً فيه) .

ولد سنة خمسٍ وثلاثين ومئة ، وتوفي سنة ثمان وتسعين ومئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١١١) محمد بنُ أسلم الطُّوسي رضي الله عنه[١]

كان يقول : عليكم بالسوادِ الأعظم ، فقالوا : وما السَّوادُ الأعظم ؟ فقال : هو الرجل العالِمُ العامل ، أو الرجلان العاملان بسُنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس المراد به مُطلقَ المسلمين ، فمن كان مع ذلك العالم ، أو مع ذينك الرجلين وتبع . . فهو مع الجماعة ، ومن خالفَ فقد خالفَ أهلَ السُّنة والجماعة .

وكان يُخفي أعماله التي يتطوَّعُ بها ويقول : (لو أمكنني أن أُخفيها عن الملكَيْنِ لفعلت) .

وكان إذا دخلَ دارَه يبكي حتىٰ يرحمَه أولادُه وجيرانه ، فإذا خرج غسلَ وجهَه ، واكتحل .

وكان يَخرجُ بصدقته في الليل وهو متلثِّمٌ ، لا يعرفه أحدٌ .

وكان يأكلُ الشعيرَ العتيق الأسود ، ويقول : إنه يصيرُ إلى الكنيف ؛ يعني : البطن .

وكان يقول : (لو أنَّ أحدَكم اشترىٰ طعاماً ، وبالغ في طيب طعمه ورائحته ، ثم

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦٨) (١١٤) .

ألقاه في الحُشِّ لقلتم : هـٰذا مجنون ، وأحدُكم ليلاً ونهاراً يطرحُ ذلك في الحُشِّ ؛ يعني : بطنه) .

توفي سنة ستٍّ وعشرين ومئتين رضي الله عنه[1]

ومنهم :

(١١٢) محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه[2]

كان من العلماء العاملين ، وممن تنزلُ الرحمةُ عند ذكرهم ، وكان صائمَ الدهر لا يفطرُ إلا لمرضٍ أو عذرٍ شرعي .

وجاع رضي الله عنه حتى انتهىٰ أكلُهُ كلَّ يومٍ إلىٰ تمرةٍ أو لوزة تورُّعاً ، وحياءً من الله عز وجل أن يراه متردِّداً إلى الخلاء .

ولد ببُخارىٰ سنة أربعٍ وتسعين ومئة ، وتوفي ليلةَ عيد الفطر سنة ستٍّ وخمسين ومئتين ، ودفن بخَرْتَنْك قريةٍ علىٰ فرسخين من سمرقند .

وكان رضي الله عنه كثيرَ الاحتمال للأذىٰ .

وكان يقول : (المادحُ والذامُّ من الناس عندي سواء ؛ اكتفاءً بعلم الله عز وجل) .

وكان يقول : (أرجو أن أَلقى اللهَ تعالىٰ ولا يُطالبني بغيبةِ أحدٍ من المسلمين) .

وما باعَ شيئاً ولا اشتراه قطُّ .

وكان زاهداً ورعاً قوَّاماً لليل .

كان ينامُ في الظلامِ لقلَّةِ دراهم من حلالٍ يشتري بها زيتاً .

---

(١) ذكر الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٢/ ٢٠٤) وفاته سنة (٢٤٢هـ) ، وكذا في « قلادة النحر » (٢/ ٥١٩) ، وذكر الخليلي في « الإرشاد في معرفة علماء الحديث » (٣/ ٨٣١) وفاته سنة (٢٤٥هـ) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦٩) (١١٥) ، و (٢/ ٥٢٧) (٤٣٨) ، وسترد ترجمته (٤/ ٤٦٦) (٥٧٤) .

وربما كان يقومُ في الليلة الواحدة نحو عشرين مرة يقدحُ الزِّناد ، ويُسرِجُ الفتيلة ، ويكتبُ بعض أحاديث ، ثم يضعُ رأسه ، ثم يقوم .

وكان تهجُّدُه في كلِّ ليلةٍ آخرَ الليل ثلاث عشرة ركعة ، يُوترُ بواحدةٍ منها ، يقرأ فيها بثلث القرآن .

وكان يختمُ القرآنَ في كلِّ ثلاث ليال من رمضان ، ويقول : (بلغنا : أن عند كلِّ ختمٍ دعوةً مُجابة) .

وما وضع حديثاً واحداً في « الصحيح » حتىٰ صلىٰ عقبَهُ ركعتين شكراً لله عز وجل .

وكان رضي الله عنه لا يأكلُ لأحدٍ شيئاً مُطلقاً .

وكان أبوه يُطعمُه من ماله ، ويقول له : يا محمد ؛ كلْ ؛ فإني لا أعلمُ في مالي شيئاً من الحرام ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١١٣) يزيد بن هارون الواسطي رضي الله عنه[1]

كان أحسنَ الناس صلاةً ، وكان يقومُ كأنَّه أُسطُوانة .

وكان يقول : (من طلبَ الرئاسةَ قبل أوانها حُرِمَها في وقتِ أوانها) .

ومكث نيِّفاً وأربعين سنة إذا صلى العشاء لا يزالُ يُصلِّي حتىٰ يطلعَ الفجر .

وكانت عيناه جميلتين ، فلم يزلْ يبكي حتىٰ ذهبت إحداهما ، وعمشتِ الأخرىٰ .

وقال له إنسان مرة : أين تلك العينان الجميلتان ؟! فقال : ذهب بهما البكاء في الأسحار علىٰ ما فرَّطتُ في جنب الله .

توفي رضي الله عنه سنة ست ومئتين .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٧٠) (١١٦) .

ومنهم :

(١١٤) يُونس بن عُبيد رضي الله عنه[١]

كان من أكثرِ الناس زهداً وورعاً .

وكان يقول : (يُعرفُ ورعُ الرجل في كلامه إذا تكلَّم ؛ فإنَّ جميعَ البِرِّ قد يَشوبه شيءٌ إلا ما كان من حفظ اللسان فإنه من البِرِّ ، ولا يَشوبه شيءٌ ، وقد يُكثرُ الرجلُ الصلاةَ والصيام ، ويُفطرُ على الحرام ، ويقومُ الليلَ يُرائي بذلك ، ويقعُ في اللغو وشهادة الزور إذا تكلَّم ، وإذا سكتَ فقد برَّ عمله كله) .

وكان يقول : (أودُّ أني وجدتُ درهماً من حلال ، فكنت أشتري به قمحاً وأطحنُهُ ، وأجعله عندي سَوِيقاً للمرضىٰ ؛ فكلُّ مريضٍ تناول منه شيئاً برئ لوقته) .

وكان رضي الله عنه يقول : (خصلتان إذا صلحتا من العبد صلح ما عداهما : أمرُ صلاته ، وأمرُ لسانه) .

وكان يقول : (لا يزالُ العبدُ بخيرٍ ما دام يُبصر مُفسداتِ أعماله) .

وكان يقول : (ما لزم أحدٌ السكوتَ إلا صلح حاله) .

وكان إذا مدحَهُ أحدٌ يقول : (واللهِ ؛ إنِّي لأعرفُ نحوَ مئةِ خصلةٍ من البِرِّ ، ما فيَّ واحدةٌ منها) .

توفي رضي الله عنه سنة تسع وثلاثين ومئة .

ومنهم :

(١١٥) عبد الله بن عون رضي الله عنه[٢]

كان يقول : (لا ينبغي لعاقلٍ أن يُعاتبَ أحداً في زماننا هـٰذا ؛ لأنه إن عاتبه أعقبَهُ بأشدَّ مما عاتبه عليه) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٨٨، ٢٧٠) (١١٧) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٧١) (١١٨) .

وكان يقول : (مِنْ عقلِ الرجلِ : ألا يُكثرَ المزحَ مع أصحابه ، وإن مزحَ لا يقولُ إلا حقّاً ؛ لأنَّ العاقلَ في شغلٍ بنفسه ، وبما هو صائرٌ إليه عن المزح والمجون) .

وكان إذا صلى الغداة مكثَ في مُصلاه مستقبلَ القبلة يذكرُ الله عز وجل إلىٰ طلوع الشمس ، فإذا طلعتِ الشمسُ أقبلَ علىٰ أصحابه .

وكان يصومُ يوماً ويُفطر يوماً ، وكان طيِّبَ الريح ، حسنَ الملبس .

وكان إذا دخل بيته يجلسُ صامتاً متفكِّراً .

وما دخل حماماً قطُّ[١]

وكان يكرهُ أن يطلعَ أحدٌ علىٰ شيءٍ من أعماله وأخلاقه الحسنة .

وكان ابنُ مهدي يقول : (صحبتُ ابنَ عون أربعاً وعشرين سنة ، فما أظنُّ أنَّ الملائكةَ كتبت عليه خطيئةً واحدة) .

وكان بارّاً بوالدته ، ومِنْ بِرِّه لها : أنه لم يأكلْ معها في وعاءٍ منذ وعىٰ علىٰ نفسه ؛ خوفاً أن يَسبقَ بصرُها إلىٰ لقمةٍ ، فيأخذها من حيث لا يشعر .

ودعته أمُّه يوماً لحاجةٍ ، فأجابها برفعِ صوتٍ ، فأعتق ذلك اليوم رقبتين كفارةً لرفع صوته علىٰ صوتها .

وكان له دُوْرٌ كثيرةٌ يُبيحها للسكَّان ، ولا يكريها لأحدٍ من المسلمين ؛ خوفاً أن يروِّعهم الجابي عند طلب الأجرة .

توفي سنة إحدىٰ وخمسين ومئة .

ومنهم :

(١١٦) [أبو] عبد الله الصُّوري رضي الله عنه[٢]

كان يقول : (أعمالُ الصادقين بالقلوب ، وأعمالُ المرائين بالجوارح) .

---

(١) أي : حماماً عاماً خارج بيته .

(٢) قد تقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٧٢) (١١٩) .
في النسخ : (عبد الله الصوري) ، والمثبت من مصادر ترجمته .

وكان يقول : (في القلب وجعٌ لا يُبرئُهُ إلا حبُّ الله عز وجل) .

وكان يقول : (من شغلَ نفسَهُ بما لا حاجةَ له إليه ضيَّعَ من أحواله ما يحتاج إليه) .

وكان يقول : (إذا لم تنتفع بما تقول فكيف ينتفعُ به غيرُك ؟!) .

وكان يقول : (من تهاونَ بالسُّنن ابتُليَ بالبدع) .

وكان يقول : (من زعمَ أنه من أهلِ الطريق فليستعدَّ للبلاء ، ثم لا بدَّ أن يضعفَ عن فعل آدابها ، ولا بدَّ له من أن يفتضحَ ، ومن مُحيَ اسمُه من أهلها لم يمت حتىٰ تُشدَّ إليه الرِّحال) .

وكان يقول : (كم من يدَّعي العبوديةَ ، ويفضحه ظهورُ أوصاف الربوبية !) .

وكان يقول : (من أعظمِ أخلاقك أن يسلمَ المسلمون من سوءِ ظنِّك) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١١٧) عبد الله بن عبد العزيز العُمَري رضي الله عنه[١]

كان من أعبدِ الناس .

وكان يسكنُ المقابر ، فيصفُّ قدميه فيها من العشاء إلى الصباح .

وكان يقول : (ما رأيتُ أوعظَ من قبرٍ ، ولا أسلمَ للدِّين من الوحدة) .

وكان يقول : (من ترك الأمرَ بالمعروف خوفاً من المخلوقين نُزعتْ منه هيبةُ الله عز وجل) .

توفي رضي الله عنه بالمدينة سنة أربعٍ وثمانين ومئة ، وهو ابنُ ستٍّ وستين سنة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٧٣) (١٢٠) .

ومنهم :

(١١٨) أبو إسحاق الهروي رضي الله عنه[١]

صحب إبراهيم بنَ أدهم .

وكان من أهل التوكل والتجريد ، وكان أكثرُ حجِّهِ متجرِّداً .

وكان من دعائه : (اللهم ؛ اقطعْ رزقي من أموال الولاة ، وزهِّدْ أهلَ بلدي فيَّ ، فكان بعد رجوعه من الحجِّ يأتي عليه الأيامُ الكثيرة لا يجدُ فيها شيئاً يأكله) .

وكان إذا مرَّ بسوق هراة سبُّوه وشتموه .

وكان يقول : (أقمتُ في البادية سنةً لا آكلُ ولا أشرب ، ولا أشتهي شيئاً ، فعارضتني نفسي : أنَّ لي مع الله تعالىٰ حالاً ، فلم أشعرْ أن كلَّمني رجلٌ عن يميني وقال : يا إبراهيم ؛ تُرائي الله عز وجل في سرِّك ؟! ثم قال لي : يا إبراهيم ؛ أتدري كم لي ها هنا لم آكل ، ولم أشرب ، ولم أشته شيئاً ، وأنا زَمِنٌ مَطروح ؟ قلت : اللهُ أعلم ، قال : لي ثمانون شهراً ، وأنا أستحي من الله عز وجل أن يقعَ مني خاطرُك هـٰذا ، ولو أني أقسمتُ على الله عز وجل أن يجعلَ لي هـٰذا الشجر ذهباً لفعل ، قال : فرأيتُ الشجرَ كلَّهُ ذهباً ، فكان ذلك تنبيهاً لي وتأديباً) .

ومنهم :

(١١٩) أبو نُعيم الأصفهاني رضي الله عنه[٢]

صاحبُ كتاب « حلية الأولياء » ، وكتاب « الطبقات »[٣] وغيرِهما .

ولد سنة ستٍّ وثلاثين وثلاث مئة ، وتُوفي بأصفهان سنة ثلاثين وأربع مئة عن أربعٍ وتسعين سنة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٧٤) (١٢١) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٧٤) (١٢٢) .

(٣) هو كتاب : « طبقات المحدثين والرواة » .

أخرجه أهل أصفهان من بلده ، وآذوه أذىً كثيراً ، ومنعوه أن يجلسَ في الجامع ، أو أن يجلسَ أحدٌ إليه ، فتولَّىٰ علىٰ أصفهان السلطانُ محمود بن سُبُكْتِكين ، وولَّىٰ عليهم والياً من قِبَلِهِ ، ورحل عنها ، فوثب عليه أهلُ أصفهان وقتلوه ، فرجع عليهم السُّلطان وأمَّنهم حتى اطمأنُّوا ، ثم قتلهم حتىٰ أتىٰ علىٰ أكثرِ من نصف المدينة ، وكانوا يعدُّون ذلك من كرامة أبي نعيم ، رضي الله عنه .

وكان حافظاً للحديث ، أملىٰ كتابَ « الحلية » كلَّهُ من صدره بعد أن زادَ عمرُهُ على الثمانين سنة ، والله تعالىٰ أعلم .

* * *

ذكر جماعة من عباد النساء وزهادهن رضي الله عنهن

فمنهن :

(١٢٠) معاذة العدوية رضي الله عنها[١]

كانت إذا جاء النهارُ قالتْ : هـٰذا يومي الذي أَموتُ فيه ، فلا تنامُ حتىٰ تُمسي ، وإذا جاء المساءُ قالت : هـٰذه ليلتي التي أموتُ فيها ، فلا تنام حتىٰ تُصبح .

وكانت إذا غلبها النومُ قامتْ ، فجالت في الدار ، وهي تقول : يا نفس ؛ اصبري عن النوم ؛ فإن النومَ أمامك في القبر ، ثم لا تزالُ تدورُ في الدار إلى الصباح ، تخافُ أن تموتَ علىٰ غفلةٍ أو حالِ النوم .

وكان وردُها في اليوم والليلة ست مئة ركعة .

ولم ترفعْ بصرها إلى السماء أربعين عاماً من منذ تابت إلى الله تعالىٰ عن الغفلة

ولما ماتَ زوجُها لم تتوسَّدْ فراشاً بعده إلىٰ أن ماتت .

أدركتْ معاذةُ هـٰذه أمَّنا عائشةَ رضي الله عنهما ، وروت عنها .

ومنهن :

(١٢١) رابعةُ العدوية رضي الله عنها[٢]

كانت كثيرةَ البكاء والحزن ، وإذا سمعتْ بذكرِ النار غُشي عليها .

وكانت تقول : (استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفار) أي : لعدم الصدق فيه .

---

(١) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٧٦) (١٢٣)

(٢) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٧٧) (١٢٤) .

وكانتْ كلَّ ليلةٍ تتطيَّبُ وتأتي إلىٰ زوجها ، فتقول له : ألك حاجةٌ ؟ فإذا قضت حاجتَهُ تطهَّرتْ ، ونصبتْ أقدامها إلى الصباح حتىٰ مات زوجُها ، فلما ماتَ لم تتزوجْ بعده أحداً شُغلاً بالعبادة

وكانت تصفُّ قدميها للعبادة من بعد صلاة العشاء ، وتقول : (وعزَّتِك وجلالك ؛ هـٰذا موقفي بين يديك ما عشتُ) .

وكانت لا تقبلُ من أحدٍ شيئاً ، وتقول : (ليس لي بالدنيا حاجةٌ) .

ولما بلغت ثمانين سنة كان جسمُها كالشَّنِّ البالي[1] ، حتىٰ كانت إذا مشتْ تكادُ تقع .

وكان كفنُها لم يزل موضوعاً عندها .

وكانوا يجدون موضعَ سجودها كهيئة الماء المستنقع من كثرةِ دموعها

وسمعتْ مرَّةً سفيانَ الثوري يقول : وا حزناه ! فقالت له : قلْ وا قلةَ حزناه ! فإنك لو كنتَ حزيناً ما هنَّاكَ عيشٌ ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهن :

(١٢٢) ماجدة القُرشية رضي الله عنها[2]

كان الغالبُ عليها قِصَرَ الأمل .

وكانت تحلفُ : أنها ما رفعتْ قدماً ، ولا لقمتْ لقمةً إلا ظنَّتْ أنها تموتُ في أثرها .

وكانت تقول : (يا لها من عقول ما أنقصها ! سكانُ دارٍ نُودي فيهم بالرحيل ، وهم في لهوهم يلعبون ، كأنَّ المرادَ غيرُهم ، والنداءَ ليس لهم ، والمعنيَّ سواهم) .

وكانت تقول : (واللهِ ؛ ما نال المطيعون ما نالوا من رضا الرحمـٰن ، وحلولِ الجنان إلا بتعبِ الأبدان) ، والله أعلم .

---

(١) الشَّن : القِرْبةُ الخَلَقُ الصغيرة .

(٢) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٧٧) (١٢٥) .

ومنهن :

(١٢٣) عائشة بنت جعفر الصادق رضي الله عنها[١]

كانت تقول : (وعزَّتك وجلالِك ؛ لئن أدخلتني النارَ لآخذُ توحيدي بيدي ، وأدورُ به على أهلِ النار ، وأقولُ لهم : وحَّدتُهُ فعذَّبني) .

توفِّيتْ رحمها الله سنة خمسٍ وأربعين ومئة ، ودُفنت قريباً من باب القَرَافة بمصر ، ولمقامها منارٌ رحمها الله

ومنهن :

(١٢٤) أمةُ الله امرأةُ رياح القيسي رضي الله عنها[٢]

كانت تقوم الليل كلَّه .

وكان إذا مضىٰ ربعُ الليل قالت لزوجها : قمْ يا رياح ، فإذا لم يقمْ قامتْ هي إلىٰ نصف الليل ، ثم تقول له : قم يا رياح ، فإذا لم يقم ، قامتْ ثلاثةَ أرباع الليل ، ثم تقول : قم يا رياح ، فإذا لم يقم ، قامتِ الربعَ الآخر ، ثم تقول : قم يا رياح للصبح ، فقد مضىٰ عسكرُ الليل وأنت نائمٌ ، فليتَ شعري من كان غرَّني بك يا رياح .

وكانت تأخذُ تبنةً من الأرض ، وتقول : (واللهِ ؛ للدنيا وشهواتها أهونُ عليَّ من هـٰذه) .

وكانت إذا صلَّتِ العشاء تلبسُ ثيابها ، وتتطيَّبُ وتتزيَّنُ ، ثم تقول لزوجها : ألك حاجةٌ ؟ فإن قال لا ، نزعت ثيابَ زينتها ، وصلَّت إلى الفجر رحمها الله .

ومنهن :

(١٢٥) فاطمة النيسابورية رضي الله عنها[٣]

كان ذو النُّون المِصري رضي الله عنه يقول : (فاطمةُ النيسابورية أُستاذتي) .

---

(١) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٧٨) (١٢٦) .
(٢) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٧٨) (١٢٧) .
(٣) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٧٩) (١٢٨) .

وكانت تقول : (مَنْ لم يراقبِ الله تعالىٰ في كلِّ حالٍ انحدرَ في كلِّ ميدان ، وتكلَّم بكلِّ لسان ، ومن راقبَ الله في كلِّ حالٍ أخرسه إلا عن الصدق ، وألزمه الحياءَ والإخلاص) .

وكانت تقول : (من عملَ لله تعالىٰ على المشاهدةِ فهو عارفٌ ، ومن عمل علىٰ مشاهدةِ الله له فهو مخلصٌ) .

وكان أبو يزيد البِسطامي يقول : (ما رأيتُ مثلَ فاطمة ، ما فاوضتها في مقامٍ إلا كان الخبرُ لها عياناً) .

ماتت في طريق العُمرة بمكة سنة ثلاثٍ وعشرين ومئتين ، رحمها الله .

ومنهن :

(١٢٦) رابعة بنت إسماعيل رضي الله عنها[١]

كانتْ تقومُ الليل من أوَّله إلىٰ آخره .

وكانت تقولُ : (إذا عمل العبدُ بطاعةِ الله أَطلعَهُ علىٰ مساوي عمله ، فتشاغل بها دون الخلق) .

وكانت تصومُ الدهرَ ، وتقول : (ما مثلي يفطرُ في الدنيا) .

وكانت تقول لزوجها : (لستُ أحبُّك حبَّ الأزواج ؛ وإنما أحبُّك حبَّ الإخوان) .

وكانت تقول : (ما سمعتُ الأذان قطُّ إلا ذكرتُ منادي يوم القيامة ، ولا رأيتُ الثلجَ قطُّ إلا ذكرتُ تطايرَ الصحف ، ولا ذقتُ حرّاً إلا ذكرتُ يوم الحشر) .

وكانت ترى الجنَّ حين يمرُّون عليها

وكانت تقول : (رأيتُ مرةً الحورَ العين يتستَّرْنَ مني بأكمامهن) ، رضي الله عنها

---

(١) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٧٩) (١٢٩) .

ومنهن :

(١٢٧) أم هارون رضي الله عنها[١]

كانت من الخائفات العابدات .

وكانت تأكلُ الخبزَ وحده ، وتجلس وحدَها ، وتقول : (ما أفرحُ إلا بدخول الليل ، وإذا طلعَ النهار جاءني الغمُّ) .

وكانت تقومُ الليلَ كلَّه وتقول : (إذا جاء السَّحَرُ دخلَ قلبي الروح) .

وسمعتْ مرَّةً قائلاً يقول : خذوها ، فوقعت مغشياً عليها .

وما دهنتْ رأسها قطُّ بدهنٍ منذ عشرين سنة ، وكانت إذا كشفتْ وجهها يكون كالقمر ، وإذا كشفتْ رأسَها يكون أحسنَ من شعورِ النساء اللاتي يَدَّهِنَّ .

وكانت سوَّاحةً ، فكان إذا عرضَ لها الأسدُ في البرية قالت له : (إن كان لك رزقٌ فيَّ فكلني ، فيولي راجعاً عنها) ، رحمها الله .

ومنهن :

(١٢٨) عمرةُ امرأة حبيب رضي الله عنها[٢]

كانت تقوم الليل كلَّه ، وزوجُها نائم ، فتقول له : قم يا رجل ، فقد ذهبَ الليل ، وجاء النهار ، وانفضَّ موكبُ الملأ الأعلىٰ ، وسافرتْ قوافلُ الصالحين والعابدين وأنت راقدٌ .

واشتكت عينَها مرةً ، فقالوا لها : ألا تُداوينَها ؟! فقالت : وجعُ قلبي شغلني عنها ، والله أعلم .

---

(١) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٨٠) (١٣٠) .

(٢) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٨١) (١٣١) .

ومنهن :

(١٢٩) أَمَةُ الجليل رضي الله عنها[١]

كانت من العابدات الزاهدات .

وكانوا إذا اختلفوا في شيءٍ من أحوال الصالحين يأتون إليها .

واختلفوا مرَّةً في تعريف الولاية ، فقالوا : امضوا بنا إلىٰ أمَةِ الجليل ، فقالتْ لهم : (ساعاتُ الولي ساعاتُ شغلٍ عن الدنيا ، ليس لوليٍّ ساعةُ فراغ أبداً) ، ثم قالتْ : (من حدَّثكم أنَّ وليّاً لله شُغِل بغيرِ الله عن الله فلا تصدِّقوه) .

ومنهن :

(١٣٠) عَبيدة بنت أبي كُلاَّب رضي الله عنها[٢]

كانت تتردَّدُ كثيراً إلىٰ مالك بن دينار .

وسمعتْ مرةً شخصاً يذكرُ القدومَ على الله عز وجل ، فخرَّتْ مغشيّاً عليها .

وكانت تقولُ : (بلغتُ من مقام الرِّضا عن الله أنني لا أُبالي علىٰ أيِّ حالٍ أصبحتُ أو أمسيت) .

وكان الناسُ يقدِّمونها علىٰ رابعة العدوية .

ومنهن :

(١٣١) عُفيرة العابدة رضي الله عنها[٣]

كانتْ علىٰ قدمٍ عظيم من الزهد والعبادة .

وكان عُبَّادُ زمانها يزورونها ، فدخلوا عليها يوماً ، فقالت : ما شأنُكم ؟ قالوا :

---

(١) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٨١) (١٣٢) .

(٢) في النسخ : (عبدة) ، والمثبت من المصادر ، وتقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٨١) (١٣٣) .

(٣) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٨٢) (١٣٤) .

نسألك الدعاء ، فقالت : لو أن الخاطئين خرسوا لكنتُ أولَ من خرس وصار أبكم ، ولـٰكنَّ الدعاءَ سنةٌ ؛ أسألُ الله أن يجعل قِراكم من بيتي دخولَ الجنة[1] ، وجعل ذكرَ الموت مني ومنكم علىٰ بال ، وحفظَ علينا الإيمان إلى الممات ، آمين .

ومنهن :

(١٣٢) شعوانة رضي الله عنها[2]

كانت لا تفترُ عن البكاء خوفَ النار ، وتقول : (واللهِ ؛ إني أودُّ لو بكيتُ الدم ولا أشتفي ، ولا يبقىٰ في عروقي دمٌ) .

وكانت تقول : (من لم يستطعِ البكاء فليرحمِ البكائين ؛ فإن الباكي إنما يبكي لمعرفته بذنوبه ، وبما هو صائرٌ إليه) .

وكانت تبكي وتقول : (إلـٰهي ، إنك تعلم أن العطشانَ من حبِّك لا يُروىٰ أبداً) .

وكانت خادمتُها تقول : (من منذ وقع بصري علىٰ شعوانة ما مال قلبي إلى الدنيا ببركتها ، ولا استصغرتُ في عيني أحداً من المسلمين) .

وكان الفضيل يأتيها ويتردّدُ إليها ، ويسألُها الدعاء ، رضي الله عنها .

ومنهن :

(١٣٣) آمنةُ الرملية رضي الله عنها[3]

كان بشر بنُ الحارث يزورُها ويتردَّدُ إليها .

ومرض بشرٌ مرةً ، فعادته آمنة ، وعنده أحمد بنُ حنبل يعودُه ، فقال لبشر : من هـٰذه ؟! فقال له بشر : هـٰذه آمنة الرملية ، جاءتْ من الرملة تعودُني ، فقال أحمد لبشر : فسلها تدعو لنا ، فقال لها بشر : ادعي لنا ، فقالت : اللهم ، إنَّ بشر بنَ

---

(١) في « الطبقات الكبرىٰ » : (من نبق الجنة) .

(٢) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٨٢) (١٣٥) .

(٣) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٨٣) (١٣٦) .

الحارث وأحمدَ بن حنبلٍ يَستجيران بك من النار ؛ فأجرْهما ، قال الإمام أحمد : فلما كان من الليل نزلتْ عليَّ رقعةٌ من الهواء مكتوبٌ فيها : بسم الله الرحمٰن الرحيم قد أجرناكما من النار ، ولدينا مزيد .

ومنهن :

(١٣٤) مَنفوسة بنتُ زيد بن أبي الفوارس رضي الله عنها(١)

كانت من الصابرات على البلاء

وكانت إذا مات لها ولدٌ تضعُ رأسَهُ في حِجْرها وتقول : واللهِ ؛ لتقدُّمُك أمامي خيرٌ عندي من تأخُّرك بعدي ، ولصبري عليك أولىٰ من جزعي عليك ، ولئن كان في فراقك حسرةٌ فإن في توقُّع أجرك لخيرة ، ثم تُنشد قول عمرو بن معدي كرب(٢) : [من الطويل]

وإنَّــا لَقــومٌ لا تَفيــضُ دمــوعُنــا ... علىٰ هالكٍ منَّا وإنْ قُصِم الظَّهرُ

رضي الله عنها .

ومنهن :

(١٣٥) السيدةُ نفيسةُ بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين(٣)

ولدت بمكة سنة خمسٍ وأربعين ومئة ، فهي أسنُّ من الإمام الشافعي بخمس سنين .

---

(١) تقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٨٣) (١٣٧) .

(٢) انظر « ديوان عمرو بن معدي كرب » رضي الله عنه (ص ٢٠٥) ، ونسبه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦/ ٦٣) والقالي في « أماليه » (١/ ٢٦٧) لأبي الهيذام المري .

(٣) وهـٰذه نفسية الصغرىٰ رضي الله عنها ، وأما نفيسة الكبرىٰ فهي بنت زيد الأبلج ، وهي عمتها رضي الله عنهم أجمعين ، وتقدمت ترجمتها مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٨٤) (١٣٨) .

ونشأتْ في العبادة ، وتزوَّجتْ إسحاقَ المؤتمن ، ورُزقت منه ولدين ؛ القاسم ، وأم كلثوم ، وأقامت بمصرَ سبع سنين ، ثم توفيت سنة ثمانٍ ومئتين ، ودفنت بالمراغة مكانٍ معروف ، بينه وبين مشهدِها الذي يُزار اليوم مسافةٌ بعيدة ، ثم ظهرتْ في هٰذا المكان ؛ لأن حكمَ باب البرزخ حكمُ الإنسان الذي يُتركُ في تيارٍ جارٍ ، فيطفو بعد ذلك في مكانٍ آخر ، فقد طفتْ في هٰذا المكان الذي فيه الآن ، وخاطبتْ بعضَ الأولياء من هٰذا المكان ، ثم إذا بُعثتْ تخرجُ من المحلِّ الذي دُفنت فيه في المراغة ، هٰكذا قال لي سيدي عليٌّ الخواص رضي الله عنه .

وقد دخلتُ أنا لها مرَّةً ، فوقفتُ علىٰ باب مشهدها الأول ، وقلت : هي حريمٌ ، ودخل أصحابي إلىٰ قبرها ، فلما نمتُ جاءتني وعلىٰ رأسها مئزرُ صوف أبيض ، وقالت لي : أنا نفيسة ، فإذا جئتَ للزيارة فادخلْ إلىٰ قبري ، فقد أذنتُ لك ، فمن ذلك اليوم وأنا أدخل لزيارتها ، وأجلسُ تجاه وجهها رضي الله عنها

وبلغنا : أنَّ الإمام الشافعيَّ لما دخل مصر كان يزورُها ، ويتردَّدُ إليها ، ويُصلِّي بها التراويح في مكانها التي هي مدفونةٌ فيه الآن .

قال الشيخُ سِراج الدين بن الملقِّن : (ولما ماتت خرجَ زوجُها من مصر بولديها القاسم وأم كلثوم إلى المدينة حتىٰ ماتوا ، ودُفنوا بالبقيع علىٰ خلافٍ في ذلك) انتهىٰ .

ورأيتُ في كلام الشيخ أبي المواهب الشاذلي قال : (رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال لي : يا محمد ؛ إذا كان لك إلى الله حاجةٌ فانذرْ لنفيسةَ الطاهرةِ ولو بدرهم . . يقضي اللهُ حاجتك) انتهىٰ .

ومناقبها كثيرةٌ مشهورة في مصر وقراها .

وكانت ابنةُ عمِّها السيدةُ سكينة المدفونة قريباً من دار الخلافة بمصر مقيمةً بمصر قبلها ، ولها الشهرة العظيمة ، فلما دخلتِ السيدةُ نفيسة خلعت عليها الشهرة والنذور ، واختفتْ رحمها الله ، والله أعلم .

خاتمة في ذكر :

(١٣٦) (١٣٧) سعدون المجنون وبهلول المجنون رضي الله عنهما[١]

كان سعدون يُجنُّ ستةَ أشهرٍ ، ويفيق ستةَ أشهر

وكان إذا هاجَ عليه الحالُ صعد إلى السطح ، فينادي في الليل بصوتٍ رفيع : (يا نيام ؛ انتبهوا من رقدةِ الغفلة قبل انقطاع المهلة ؛ فإن الموت يأتيكم بغتة) .

وكان **بُهلول المجنون** مُقيماً في المقابر ليلاً ونهاراً ، وكان الناسُ يزورونه في المقابر .

وزاره مرةً هارونُ الرشيد ، فقال له : كنتُ أشتهي رؤيتك يا بُهلول ، فقال له : لـٰكني لم أشتق إليك يا هارون قطُّ ، فقال له : عظني ، فقال له : بم أعظك ؟! انظرْ إلىٰ هـٰذه القبور ، وانظر إلىٰ قصورِ أهلها ، فها هم أمامك ، ثم قال : يا هارون ؛ تفكَّرْ في مصيرك ، ووقوفك بين يدي الجبار جلَّ وعلا ، وجميعُ رعيتك يُطالبونك بحقوقهم التي ضيَّعتها ، وأنت جيعان عطشان عريان ، فخنقتْ هارونَ العبرةُ والبكاء ، ثم إنه أمرَ له بصلةٍ ، فردَّها عليه ، وقال : ردَّها إلىٰ من أخذتها منه قبل أن يُطالبَك يومَ القيامة ، فترسله إلى البهلول ، وأنا ما معي شيءٌ ، فبكىٰ هارون وانصرف .

وكان رضي الله عنه مُجابَ الدعوة .

وقالوا له مرةً : لِمَ لا تسكنُ العمران ؟ فقال : هـٰؤلاء القبورُ أصبرُ علىٰ أذايَ ؛ إن بصقتُ عليهم لا يُقابلوني ، وإن غبتُ عنهم لا يَستغيبوني ، وكان ينشد : [من الهزج]

دعِ الحِرصَ على الدُّنيا ... وفي العيشِ فلا تطمَعْ
و[لا] تجمعْ من المالِ[٢] ... فلا تَدري لمن تَجمعْ
فإنَّ الرِّزقَ مَقْسُومٌ ... وسُوءُ الظنِّ لا ينفعْ
فقيرٌ كلُّ ذي حِرصٍ ... غنيٌّ كلُّ مَنْ يقنعْ

رضي الله تبارك وتعالىٰ عنه .

---

(١) تقدمت ترجمتهما مع ذكر مصادرهما في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٨٥) (١٣٩ ، ١٤٠) .
(٢) في النسخ : (ما) بدل (لا) ، والمثبت من ديوان سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ومنهم شيخُ سلسلة القوم :

(١٣٨) معروف بنُ فيروز الكرخي رضي الله عنه[١]

كان من جملة المشايخ المشهورين بالورع والزهد ، وإجابة الدعوة ، والفتوة ، يُستسقىٰ بقبره إلى الآن

وهو من موالي علي بن موسى الرِّضا

صحب داودَ الطائي ، وصحبَ الطائيُّ الحسنَ البصري ، والحسن البصريُّ صحب عليَّ بن أبي طالب .

مات رضي الله عنه ببغداد ، ودفن بها سنة مئتين ، وقبره بها ظاهر يزار .

ومن كلامه رضي الله عنه : (إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فتح عليه باب العمل بما علمَ ، وأغلق عليه باب الجدال ، وإذا أراد الله بعبدٍ شرّاً أغلق عليه باب العمل ، وفتح عليه باب الجدال) .

وكان يقول : (ما أكثر الصالحين ! وما أقلَّ الصادقين منهم !) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لولا خروجُ الدنيا من قلوب العارفين ما قدروا علىٰ فعل هٰذه الطاعات ، ولو بقي من حبِّ الدنيا ذرةٌ في قلوبهم لما سلمتْ لهم سجدةٌ واحدة)

وكان يقول : (العارف يرجع إلى الدنيا اضطراراً ، والمفتونُ يرجع إليها اختياراً)[٢]

وكان يقول : (إذا عملَ العالم بعلمه استوتْ له قلوب المؤمنين ، فلا يكرهُهُ إلا من في قلبه مرض) .

وكان يقول : (إذا أرادَ الله بعبدٍ خيراً زوى الخذلان عنه ، وأسكنه بين الفقراء

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٢٩٦) (١٤٤) .

(٢) في (أ) وحدها : (والمتقون يرجعون) بدل (والمفتون يرجع) .

الصادقين ، وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ شرّاً عطله اللهُ من الأعمال الصالحة ، وأسكنه بين الأغنياء) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٣٩) السَّرِيُّ بنُ المغلِّس السَّقطي رضي الله عنه[1]

خالُ الجنيد ، وأستاذه ، صحب معروفاً الكرخي .

وكان أوحدَ أهل زمانه في الورع والزهد ، والأحوال السنية ، وسائر مقامات الطريق ، وهو أول من تكلَّمَ في علم التوحيد ببغداد ، وإليه انتمىٰ أكثرُ المشايخ ببغداد .

مات رضي الله عنه ببغداد سنة إحدىٰ وخمسين ومئتين ، وقبره بها بالشُّونيزية ظاهرٌ يُزار .

ومن كلامه رضي الله عنه : (من أراد أن يسلمَ له دينُهُ ، ويستريحَ بدنُهُ ، ويقلَّ غمُّهُ . . فليعتزلِ الناسَ ؛ لأن هـٰذا زمانُ عزلةٍ ووحدة) .

وكان يقول : (من أقوى القوة : أن تغلبَ نفسَك علىٰ تركِ شهواتها ، ومَنْ عجزَ عن أدبِ نفسه فهو عن أدب غيره أعجز) .

وكان يقول : (من علامةِ الاستدراجِ للعبد : عماه عن رؤية عيبِ نفسِه ، واطِّلاعُهُ علىٰ عيوب الناس) .

وكان يقول : (كيف يَستنيرُ قلبُ فقيرٍ ، وهو يأكلُ من طعامِ من يغشُّ في معاملته ، أو من طعام القضاة والظلمة ؟!) .

وأرسل له بعضُ إخوانه مرةً بحبِّ السعال ، وكان به سُعالٌ ، فردَّهُ ، وقال للرسول : قل لأخي : يقولُ لك سريٌّ : نحن نُعلِّمُ الناسَ منذ خمسين سنة ألا يأكلوا بدينهم ، فكيف نأكلُ حَبَّكَ ؟! ولـٰكنْ إن أرادَ أننا ننتفع به فليأخذْ ثمنَهُ ، فقوَّمه بدراهم ، وأرسلها إليه ، ثم أكله .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٠١) (١٤٦) .

وكان يقول : (من صغىٰ بأذنه إلىٰ قولِ الناس عنه أنه وليُّ الله فهو أسيرٌ في يد نفسه ما برح) .

وكان يقول : (لو علمتُ أن جلوسي في بيتي أفضلُ من خروجي إلى المسجد ما خرجت له) .

وكان يقول : (ثلاثةٌ من علامة سَخَطِ الله على العبد : كثرةُ الغفلة ، والاستهزاءُ بالناس ، والغيبةُ لهم) .

وكان يقول لإخوانه : (إياكم ومجاورةَ الأغنياء وقُرَّاء الأُمراء ؛ فإنهم يُفسدون كلَّ من جالسهم) .

وكان يقول : (لا تكمل المحبةُ بين اثنين حتىٰ يقولَ أحدُهما لأخيه : يا أنا) .

وكان يقول : (ما رأيتُ شيئاً أحبطَ للأعمال ، ولا أفسدَ للقلوب ، ولا أسرعَ في هلاك العبد ، ولا أدومَ لاضطراره ، ولا أقربَ من المقت ، ولا ألزمَ لطريق الرياء والعُجبِ والرياسة . . من قلّة معرفةِ العبد بذنوبه) .

وكان يقول : (الدنيا أفاعي قلوب العلماء ، وسحَّارةُ قلوب العبَّاد والقراء ، تلعبُ بهم كما يلعبُ الصبيان بالأُكْرَة)

وكان يقول : (كم من أطبقَ أهلُ بلده على اعتقاده ، وهو من الهالكين) .

وكان يقول : (خصلتان تُباعدان العبدَ من الله تعالىٰ : عملٌ بالجوارح من غير صدقٍ بالقلب ، وأداءُ النوافل مع تضييع الفرائض) .

وكان يبكي ويقول : (قد توعَّرتْ علينا طريقُ الصالحين ، وقلَّ فيها السالكون ، وهُجرتِ الأعمالُ ، وقلَّ فيها الراغبون ، ورُفض الحقُّ ، ودرس هـٰذا الأمرُ ، فلا أراه إلا في لسانِ كلِّ بطَّالٍ ينطقُ بالحكمة ، ويُفارقُ الأعمال ، قد افترش الرُّخَصَ ، وتمهَّد التأويلات ، واقتدىٰ بذلك الهالكون) ، ثم يتأوَّه ويقول : (وا غمَّاه من فتنةِ العلماء ! وا كرباه من حيرةِ الأدلاء !) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إني لأنظرُ إلىٰ أنفي في اليومِ كذا كذا مرةً مخافةَ أن يكون قد اسودَّ من سوء ما أصنع) .

وكان إذا قام من النوم يمسحُ وجهَهُ ويقول : (إنما أمسحُهُ مخافةَ أن يكونَ قد مُسخ وجهَ خنزير ، فما أطمئنُّ حتىٰ أمسَّهُ بيدي) .

وكان قد يبس جلدُهُ علىٰ عظمه من الجوع والمجاهدة .

وكان الجُنيد يقول : (ما رأتْ عيني أعبدَ من السَّرِيِّ ، أتت عليه ثمانٌ وتسعون سنة ما رُئي مضطجعاً إلا في علَّةِ الموت) .

قال : وكان يقول لنا : (اعملوا وجدُّوا قبل أن تصيروا عاجزين مثلي) ، قال الجنيد : (وكنَّا لا نُدركُهُ) .

وكان يقول : (من قام بين يدي الله في الظلامِ نُشرتْ له يوم القيامة الأعلام) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٤٠) أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه[١]

كان أبوه يبيعُ الزُّجاج ؛ فلذلك كان يُقال له : القواريري .

أصله رضي الله عنه من نهاوند ، ومولده ومنشؤه بالعراق ، وكان فقيهاً يُفتي علىٰ مذهب أبي ثور صاحبِ الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وراوي مذهبِهِ القديم .

صحب خالَهُ السريَّ السقطي ، والحارثَ المُحاسبي ، ومحمد بن علي القصَّاب .

وكان من كبار أئمة القوم ، وكلامُهُ مقبولٌ علىٰ جميع الألسنة ، حتىٰ جعلوا اعتقادَ صحة طريقه من جملة الدِّين .

مات رضي الله عنه يوم السبت سنة سبعٍ وتسعين ومئتين ، وقبره ببغداد ظاهر يُزار ، رضي الله عنه

ومن كلامه رضي الله عنه : (إنَّ صفاءَ القلوب يكونُ علىٰ حسب صفاء ذكر الله وخلوصه من الشوائب)

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٣٠) (١٦٦) .

وكان يقول : (الغفلةُ عن الله تعالىٰ أشدُّ من دخول النار) .

وكان يقول : (إذا لقيتَ الفقيرَ فالقه بالرفق ، ولا تبدأه بالعلم ؛ فإن الرفق يُؤنسه ، والعلمَ يُوحشه) .

وكان يقول : (كلامُ الأنبياء عن حضورٍ ، وكلامُ الصدِّيقين عن مشاهدات) .

وكان يقول : (من زعمَ أنه يعرفُ الله ، وهو كاذبٌ في دعواه ، مساكناً لغيره ابتلاه الله بالمحن ، وحجبَ ذكرَهُ عن قلبه ، وأجراه علىٰ لسانه ، فإن تنبَّهَ وانقطعَ إلى الله وحده كشفَ اللهُ عنه المحنَ ، وإنْ دامَ على السكونِ إلىٰ غيره نزعَ اللهُ من قلوبِ الخلقِ الرحمةَ عليه ، وألبسه لباسَ الطمع فيهم ، فهو لا يرجعُ عن مطالبتهم ، وليس في قلبهم رحمةٌ له ، فتصير حياتُهُ عجزاً ، وموته كمداً ، وآخرتُهُ أسفاً ، فنعوذ بالله من الرُّكون إلىٰ غيرِ الله) .

وكان يقول : (إذا رأيتم الواعظَ أعرفَ الناسِ بالآفات فهو أكثرُهم آفات)

وسئل مرةً عن العارف ، فقال : لونُ الماء لونُ إنائه ؛ أي : هو بحكم وقته .

وكان يقول : (مكابدةُ العزلة أَيسرُ من مُداراة الخلطة ، فالعاقل من اختار فيه الوحدة) .

وأتاه شخصٌ مرةً بخمس مئة دينار وقال له : فرِّقها على الفقراء ، فقال : أتطلبُ زيادةَ مالِكَ ؟! فقال : نعم ، فردَّها وقال : أنت أحوجُ منَّا إليها ؛ فإنَّا لا نطلب زيادةً عما في يدنا .

وكان يعظِّمُ طريقَ القوم وأهلها .

ودعاهم يوماً تاجرٌ إلىٰ طعامه ، فلما مُدَّتِ المائدة وقف التاجرُ علىٰ رأس الفقراء ، وقال : كلوا واشبعوا ؛ فإنَّ كلَّ لقمة يأكلُها عندي فقيرٌ تُساوي خمس مئة دينار ، فلما سمع الجُنيد منه ذلك قال : لا أحدَ يأكلُ له طعاماً ؛ فإنَّ صاحبكم دنيء الهمَّةِ ، يُعادلُ لقمةَ فقيرٍ بخمس مئة دينار ، ثم خرجوا ، ولم يأكلوا له طعاماً .

وكان رضي الله عنه دائمَ المراقبة لله عز وجل ، حتىٰ إنه بلغنا : أنَّ الشيطانَ خدمه عشر سنين ، فكان يوضِّئُه ويُرسله في حوائجه ، ويترقَّب له ساعةَ غفلةٍ يغويه فيها ، فما

وجدَ ، فلما ضجرَ الشيطانُ منه قال له عند فراقه : ما رأيتُ مثلَ إقبالك على الله تعالىٰ ، لي منذ سنين أخدمُكَ لأجدَ طريقاً أغويك بها فلم أجدْ ، وأنا إبليس ، فقال له الجنيد : قد أعلمني الله تعالىٰ بك ساعةَ دخولك لي ، ولم أزل أستخدمُكَ وأخاطبك ، وأنا أعلمُ أنَّك اللعينُ .

وكان رضي الله عنه يجالسُ الفقراء المقيمين عنده ، ويفلي ثيابهم كأنه واحدٌ منهم .

وقالوا له مرةً : جلوسُ هـٰؤلاء عندك شهرةٌ لك بين الناس ، فقال : إنَّما أقمتُهم عندي لأتذكَّر بهم فاقتي وحاجتي إلى الله كلما احتاجوا إليَّ في شيء .

وكان يقول : (ما دام الشاكرُ يطلبُ من الله المزيدَ بشكره فهو غارقٌ في حظِّ نفسه ما برح ، إنما الشُّكرُ : أن يرى العبدُ أنه ليس بأهلٍ أن تنالَهُ رحمةُ الله كالكفَّار ؛ من شهوده كثرة معاصيه ، وإنما اللهُ تعالىٰ هو الذي يتفضَّلُ عليه بالرحمة مع عدم استحقاقه لشيءٍ منها) .

وكان يقول : (إذا صدقَ المريدُ أغناه الله عن حفظ النقول بنورٍ يجعلُهُ في قلبه ، يُفرِّق به بين الحقِّ والباطل) .

وكان يقول : (إذا أراد اللهُ بمريدٍ خيراً أوقعه إلىٰ هـٰؤلاء الصوفية الجامعين بين العلم والعمل ، ومنعه صحبة القراء الذين دأبهم الجدالُ من غير عمل) .

وكان يقول : (أسَّسْتُ لي قاعدةً مع الدنيا حتىٰ صرتُ لا أتأثَّرُ علىٰ شيءٍ فاتني من محبوباتها ، ولا من وقوع شيءٍ من مكروهاتها ؛ وذلك أني علمتُ أن من شأن الدنيا : أن تأتي الإنسان بما يكره بحكم طبعها ، فكلُّ شيءٍ جاءني من ذلك أعلم أنه من طبعها ، فلا أريد أن أغيِّرَ طبعَها الذي خلقها الله عليه لأجل هوىٰ نفسي ، وكلُّ شيءٍ جاءَني من محبوبات النفوس أشكرُ الله الذي عجَّله لي ، وخالفت الدنيا فيه طبعها) .

وكان يقول : (لو جلسَ عن يميني أحبُّ الناس إليَّ يُسمعني أطيبَ الكلام ، ويُشمُّني أطيبَ الطيب ، ويُطعمني ألذَّ الطعام ، وجلس عن يساري أبغضُ الخلق إليَّ ، يقطعُ من لحمي ، ويُطعمني الزقوم ، ويشمُّني أنتنَ الروائح . . ما زاد ذاك عندي ، ولا نقص هـٰذا عندي ؛ لأني مع الله ، لا مع هـٰؤلاء) .

وكان يقول : (الطريقُ مسدودةٌ إلا على المُقتفين آثارَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن لم يحفظِ القرآن ، ويكتبِ الحديث لا يُقتدىٰ به في هٰذا الشأن) .

وكان يقول : (طريقُنا هٰذا مشيَّدٌ بالكتاب والسنة ، فلو رأيتم رجلاً قد تربَّعَ في الهواء فلا تقتدوا به حتىٰ تَنظروه عند الأمرِ والنهي) .

وكان يقول : (التصوفُ : عنوةٌ لا صلحَ فيها) .

وسُئل مرةً عن التصوُّف ، فقال : (هم أهل بيتٍ لا يصحُّ أن يدخلَ معهم غيرُهم ، وهم مع الله بلا علاقةٍ في الدنيا والآخرة) .

وكان يقول : (إذا رأيتم الصوفيَّ يعبأُ بظاهره فاعلموا أنَّ باطنه خراب) .

وكان يقول : (لقيتُ إبليسَ وأنا شابٌّ عرياناً ، وبيده كسرةٌ يأكلها ، فقلت له : أما تستحيي من الناس ؟! فقال : وهل بقي أحدٌ من هٰؤلاء يُستحيا منه ، إن الذين يُستحيا منهم تحت التراب) .

وسُئل مرةً عن التوحيد الخالص ، فقال : (أن يرجعَ آخرُ العبد إلىٰ أوَّله ، فيكون كما كان قبل أن يكون) .

وكان يقول : (التوحيدُ الذي انفردَ به الصوفيةُ هو إفرادُ القِدَم من الحَدَث ، والخروجُ عن كلِّ محبوبٍ يقطعهم عن الله ، وتركُ الاعتماد علىٰ كلِّ ما عُلم وجُهل ، وأن يكونَ الحقُّ تعالىٰ مكان الجميع ، لا يعوِّلون إلا عليه) .

وكان يقول : (قد طُويَ علمُ التوحيد ، وطُويَ بساطُهُ من منذ عشرين سنة ، والناس يتكلمون في حواشيه) .

وسُئل عن سبب اضطرابِ قلبِ الفقير وجوارحه عند السماع ، فقال : (سببُ ذلك : أنَّ الله تعالىٰ لما خاطبَ الذرية في الميثاق الأول بقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] استفرغتْ عذوبةُ سماعِ كلامه تعالى الأرواحَ ، فإذا سمعوا الأنغامَ الطيبة حرَّكهم ذلك إلىٰ ذكرِ الله) .

وكان يقول : (تنزلُ الرحمةُ على الفقراء في ثلاثة مواطن : عند السماع ، وعند الطعام ، وعند مجاراةِ العلم ؛ وذلك لأنهم لا يسمعون إلا من حقٍّ ، ولا يقومون إلا

عن وجدٍ ، ولا يأكلون إلا عن فاقةٍ ، ولا يتذاكرون إلا في أحوال الأولياء) .

وكان يقول : دخلتُ مرةً على السريِّ السَّقَطي رضي الله عنه ، فرأيتُ عنده شخصاً مَغشياً عليه ، فقلتُ : ما بالُهُ ؟! فقال : سمعَ آيةً من كتاب الله عز وجل ، فقلتُ : تُقرأُ عليه الآيةُ ثانياً ، فقُرئتْ ، فأفاق ، فقال السريُّ : من أين علمت هٰذا يا ولدي ؟! فقلت له : إنَّ قميصَ يوسف ذهبَ بسببه عينا يعقوب ، ثم عاد به بصرُهُ ، فاستحسنَ ذلك مني .

وقيل للجُنيد مرةً : ممن استفدتَ هٰذا العلم الذي لم يكن مع أشياخك ؟ فقال : استفدتُهُ من جلوسي بين يدي الله تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة ، ثم أَوْمَأَ إلىٰ سُلَّمٍ في داره .

وكان يقول : (مبنى التصوفِ علىٰ ثمانيةِ أخلاق لثمانٍ من الأنبياء ؛ وهي : السخاءُ وكان لإبراهيم ، والرِّضا عن الله وكان لإسحاق ، والصبرُ وكان لأيوب ، والإشارةُ وكانت لزكريا ، والعزوبةُ وكانت ليحيىٰ ، ولبسُ الصوف وكان لموسىٰ ، والسياحة وكانت لعيسىٰ ، والفقرُ وكان لمحمدٍ عليه وعليهم الصلاة والسلام) .

وكان يقول : (لا تصفو القلوبُ لعمل الآخرة إلا إذا تجرَّدتْ من حبِّ الدنيا ، فاعملوا في ابتداء أمركم علىٰ إخراج حبِّ الدنيا حتىٰ لا يبقىٰ عليكم منها دقيق هوىً كامن فيكم ، فيوقفكم عن النفاذ والترقِّي ، ولو كان شيخكم من أكبر الأولياء) .

وسُئل مرةً عن المعرفة بالله : هل هي كسبٌ أو ضرورة ؟ فقال : معرفةُ الله لها طريقان ، فما كان منها حاضراً أدركناه بالحسِّ ، وما كان منها غائباً أدركناه بالدليل ، ولما كان الحقُّ تعالىٰ غيرَ بادٍ لحواسِّنا كانتْ معرفته بالدليل والفحص ؛ إذ كنَّا لا نعلمُ الغيب والغائب إلا بالدليل ، ولا نعلمُ الحاضر إلا بالحسِّ) .

وكان يقول : (ما رأيتُ أحداً عظَّمَ الدنيا فقرَّتْ عينه فيها أبداً ، وإنما يقرُّ بها عينُ من حقَّرها وصغَّرها) .

وكان يقول : (إذا فتحَ اللهُ تعالىٰ علىٰ عبدٍ بنيَّةٍ حسنةٍ فقد فتحَ عليه سبعين باباً من التوفيق ، ومن فتح علىٰ نفسه باباً بنيَّةٍ سيئة فتحَ اللهُ عليه سبعين باباً من الخذلان) .

وكان يقول : (ما استحىٰ صاحبٌ أن يطلبَ حاجته من صاحبٍ إلا لنقصٍ في أحدِهما) .

وكان رضي الله عنه ضنيناً بالعلم علىٰ من لا يستحقُّهُ ، ويقول : (إن للعلم ثمناً ، فلا تُعطوه حتىٰ تأخذوا ثمنَهُ) ، قيل : وما ثمنُهُ ؟ قال : (وضعُهُ عند من يعمل به) .

وقيل له مرةً : ما بال أصحابك يأكلون كثيراً ؟! فقال : لأنهم يجوعون كثيراً ، قيل : فما بالهم لا تؤثِّرُ فيهم قوةُ شهوة الجماع ؟! فقال : لأنهم يأكلون الحلالَ[1] ، قيل : فما بالهم إذا سمعوا القرآن لا يطربون ؟! فقال : لأنه كلَّه أحكامٌ ومواعظُ قد كُلِّفوا بالعمل بها ، فلا يخرجون عن العُهدَة إلا بالوفاء بالعمل به ما داموا في هـٰذه الدار ، ومَنْ كُلِّفَ بأمرٍ قد يخلُّ به كيف يطربُ به ؟! ولـٰكن سوف يطربون به في الجنة إذا سمعوه من الله عز وجل .

قيل : فما بالهم يطربون عند سماع القصائد ؟! فقال : لأنها كلامُ جنسهم ومِمَّا عملتْ أيديهم ، بخلاف القرآن ؛ فإنه حقٌّ صدرَ عن حقٍّ ، لا مُجانسةَ بين صاحبه وبينهم .

قيل فما بالهم لا يقبلون هدايا الناس ؟! فقال : لأنهم في مقام المُجاهدة وإفرادِ القصد لله تعالىٰ ، وقبولُهم هدايا الناس يُميِّلُ قلوبهم إليهم ، فينقطعون عن الحقِّ تعالىٰ ، فاختار الحقُّ لهم ألا يميلوا لسواه .

ولما حضرته الوفاةُ أوصىٰ أن يُدفن معه جميعُ ما هو منسوبٌ إليه من علمه ، فقيل له : ولم ذلك ؟! فقال : غيرةً علىٰ سُنَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُتركَ مطالعتُها ويطالعَ الناسُ كلامي .

ودخل عليه أبو محمد الجَريري في مرض موته ، فقال : ألك حاجةٌ ؟ فقال : إذا متُّ فغسِّلني وكفِّني ، وصلِّ عليَّ ، فبكى الجَريريُّ ، وبكى الناس معه ، ثم قال الجُنيد : وحاجةٌ أخرىٰ ، فقال : ما هي ؟ فقال : تصنعُ طعاماً يومَ موتي ، فإذا رجع أصحابُنا من الجنازة تجمعهم عليه ؛ خوفاً من تشتُّت أمرهم ، فبكى الجريري ، ثم

---

(١) في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٣٥) : (لأنهم لم يذوقوا طعم الزنا ، ويأكلون الحلال) .

قال : والله ؛ لئن فقدنا هاتين العينين لا اجتمعَ منَّا اثنان أبداً .

قال أبو جعفر الفرغاني : (فكان واللهِ كذلك الأمرُ بعد وفاةِ الجنيد ، وكنا نعدُّ ذلك الاجتماعَ إنما كان ببركة لحظه ورؤيته) .

قال الجَريري : (وكان في جوار الجنيد رجلٌ مُصابٌ في خربةٍ ، فلما ماتَ الجُنيد ، ورجعنا من دفنه ، تقدَّمَنَا ذلك المصابُ ، فصعِدَ علىٰ موضعٍ عالٍ ، وقال : يا أبا محمد ؛ أتراني أرجعُ إلىٰ تلك الخربة ، وقد فقدتُ ذلك السيد ؟ ثم أنشأ يقول : [من مخلع البسيط]

وَا أسفِي مِنْ فِراقِ قومٍ ... هُمُ المصابيحُ والحصونُ
والمُدْنُ والمُزْنُ والرَّواسِي ... والخيرُ والأمنُ والسُّكونُ
لمْ تتغيَّرْ لنا اللَّيالي ... حتىٰ توفَّتْهُمُ المَنونُ
فكلُّ جَمْرٍ لنا قُلوبٌ ... وكلُّ ماءٍ لنا عيونُ

ثم إن ذلك المُصاب غابَ عنَّا ، فكان ذلك آخرَ العهد به ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(١٤١) أبو علي الفُضيل بنُ عِياض رضي الله تعالىٰ عنه[١]

هو ابن مسعود بن بشر التميمي ، ثم اليربوعي ، خراسانيُّ المنشأ ، من ناحية مرو ، من قريةٍ تُعرف بفُنْدِيْن ، مات في الحرمِ الشريف في شهر الله المحرم سنة سبعٍ وثمانين ومئة رضي الله عنه ، ودفن بجنب سُفيان بنِ عيينة كما مرَّ في ترجمته[٢] .

ومن كلامه رضي الله عنه : (أهلُ الفضل هم أهلُ الفضل ما لم يروا فضلَهم) .

وكان يقول : (من أحبَّ أن يُصغي الناسُ إلىٰ كلامه إذا تكلَّم فليس بزاهدٍ في الدنيا) .

وكان يقول : (إذا اغتابك عدوُّك فهو أنفعُ لك من الصديق ؛ فإنه كلما اغتابك كانَ لك حسناتُهُ ، والصديقُ لا يُعطيك شيئاً من حسناته) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٨٦) (١٤١) .
(٢) تقدم (٣/ ١٢٣) .

وكان يقول : (سيأتي على الناسِ زمانٌ يسودُ القبيلةَ منافقوها ، وهناك يكون الناسُ داءً لا دواء له) .

وكان يقول : (فرَّ من الناس غيرَ تاركٍ للجماعة) .

وكان يقول : (ليس هـٰذا زمانَ فرحٍ ، وإنما هو زمانُ همومٍ وغموم) .

وكان يقول : (لكلِّ شيءٍ ديباجةٌ ، وديباجة القراء تركُ الغيبة) .

وكان يكره لقاءَ الإخوان خوفاً من وقوعِ التزيُّنِ منه ومنهم .

وكان يقول : (من أعطاه اللهُ فهمَ القرآن فقد أُعطي علمَ الأولين والآخرين) .

وكان يستقي الماء على الروايا[1] ، ويبيعُ ذلك ، وينفقُ منه علىٰ نفسه وعياله .

وكان يقول : (إذا أحبَّ اللهُ عبداً أكثرَ غمَّهُ في الدنيا ، وإذا أبغضَ عبداً وسَّع عليه دنياه) .

وكان يقول : (لو حلفتُ أني مُراءٍ لكان أصدقَ من أن أحلفَ أني لستُ بمراءٍ) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ لو قيل لي : إنَّ أمير المؤمنين داخلٌ عليك ، فسوَّيتُ لحيتي بيدي .. لخفتُ أن أُكتبَ في جريدة المنافقين)

وكان يمسكُ لحيته ويقول : (كنتُ في شبيبتي فاسقاً ، وصرتُ في كبر سني مُرائياً ، واللهِ ؛ للمرائي شرٌّ من الفاسق) .

وكان يقول : (لا ينبغي لحاملِ القرآن أن يكونَ له إلىٰ أبناء الدنيا حاجةٌ ، إنما ينبغي أن تكونَ حوائجُ الناس إليه ؛ وذلك لزهده) .

وكان يقول : (تباعدْ من القرَّاء ما استطعتَ ؛ فإنهم إن أحبُّوك مدحوك بما ليس فيك ، فغطَّوا عليك عيوبَكَ ، وإن أبغضوك جرحوك زوراً وبهتاناً ، وقبل الناسُ منهم ذلك) .

ودخل عليه سفيان بنُ عُيينة مرةً ، فقال : عظني بموعظةٍ يا أبا علي ، فقال : ماذا أقولُ لكم أيُّها العلماء ، كنتم سُرُجاً يُستضاء بكم في البلاد ، فصرتم ظلمةً ، وكنتم

---

(١) الروايا : جمع راوية : وهي كل دابة يستقى الماء عليها . « تاج العروس » (ر و ى) .

نجوماً يُقتدىٰ بكم ، فصرتم حيرةً ، يأتي أحدُكم إلىٰ هـٰؤلاء الولاة ، فيأكل من طعامهم ، ويجلسُ علىٰ فُرشهم ، ثم يدخل المسجدَ فيسندُ ظهره إلىٰ ساريةٍ ، ثم يقول : حدَّثني فلانٌ عن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واللهِ ؛ ما هـٰكذا كان حملةُ العلم الذين أدركناهم ، فبكىٰ سفيان بنُ عيينة وخرج .

وكان يقول : (قرَّاءُ الرحمـٰن أصحابُ خشوعٍ وذبول ، وقرَّاءُ الأمراء أصحابُ كبْرٍ وعُجْبٍ ، وازدراء للناس) .

وكان يقول : (إياكم ومجَالسةَ القرَّاء ؛ فإن الغيبةَ قد صارت فاكهتَهم) .

واجتمع مرةً هو وشُعيب بن حرب في الطواف ، فقال : يا شعيب ؛ إن كنتَ تظنُّ أنه شهدَ هـٰذا الموقفَ من هو شرٌّ مني ومنك فبئس ما ظننت) .

وكان يقول : (من طلبَ صاحباً بلا عيبٍ بقي بلا أخٍ) .

وكان يقول : (لا تواخِ من إذا غضب منك كذبَ عليك) .

وكان يقول : (أدركنا الإخوانَ وهم يَعُولون أولادَ أخيهم إذا مات حتىٰ يُبلِّغَهم رشدَهم احتساباً لوجه الله ، وقياماً بواجب الأُخوة ، وهـٰذا أمر قد بطلَ من الناس ؛ فكلُّ من لا ينفعك فلا عليك من هجره) .

وكان يقول : (ليس بأخيك من إذا طلبَ منك شيئاً فمنعته . . غضبَ عليك) .

وكان يقول : (إنما كان لقمانُ قاضياً لبني إسرائيل مع كونه كان عبداً حبشيّاً ؛ لكونه كان صادقاً في حديثه ، تاركاً ما لا يعنيه) .

وكان يقول : (بلغنا : أن طولَ الصراطِ خمسةَ عشرَ ألف فرسخ ، فانظرْ يا أخي كيف تكونُ عليه حتىٰ تخلصَ منه) .

وسأله إسحاق بنُ إبراهيم أن يحدِّثَ ، فقال : بذلُ الدنانير أحبُّ إليَّ من بذلِ الحديث ؛ لأن كلَّ حديثٍ يطلب مني أن أعملَ به قبل أن أُحدِّث به الناس) .

وكان يقول : (من حملَ القرآنَ سُئل عن تبليغه يوم القيامة كما يُسألُ الرُّسلُ) .

وكان يقول : (عالِمُ الآخرة علمُهُ مستور ، وعالمُ الدنيا علمُهُ مَنشور ، فاحذروا

عالِمَ الدنيا أن تجالسوه ؛ فإنه يفتنُكم بغروره وزخرفته لقوله ودعواه العلم من غير عملٍ ، أو دعواه العلم من غير صدق) .

وكان يقول : (لو أنَّ أهلَ العلم زهدوا في الدنيا لخضعت لهم رقابُ الجبابرة ، وانقادَ لهم أكثرُ الناس ؛ ولـٰكنهم بذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليُصيبوا بذلك مما في أيديهم ، فذلُّوا وهانوا في أعين الناس) .

وكان يقول : (من علامة إخلاصِ العالم : أن يفرحَ إذا ذمُّوه عند الأمراء ، ويحزنَ إذا مدحوه عندهم ؛ لأنه هاربٌ مما يقرِّبُهُ منهم) .

وكان يقول : (من عرفَ ما يدخلُ جوفَهُ صار عند الله صدِّيقاً) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٤٢) أبو إسحاق إبراهيم بنُ أدهم بن منصور رضي الله عنه[١]

هو من كورةِ بلخ ، وكان من أولاد الملوك ، وصار من رؤوس الزهاد .

ومن كلامه : (من علامة نورِ القلب : أن يكونَ أكبرُ همَّة صاحبِهِ العبادةَ ، وأكثرُ كلامه الثناءَ والمدحةَ ومناقبَ الصالحين) .

وكان رضي الله عنه يتمثَّل كثيراً بهـٰذا البيت : [من البسيط]

لَلقمــةٌ بجَـريــشِ الملــحِ آكُلُهــا   أَلَذُّ مِنْ تمرةٍ تُحشىٰ بزُنْبُورِ[٢]

أي : فيها شبهة ، أو دخلها علَّةٌ .

وكان رضي الله عنه يقول : (أثقلُ الأعمال في الميزان أثقلُها على الأبدان ، ومن وفَّىٰ بالعملِ وفِّي له بالأجر ، ومن لا عملَ له لا أجرةَ له) .

وصحبه مرةً رجلٌ ، ثم فارقه ، فقال لإبراهيم : يا أخي ، إن كنتَ رأيتَ فيَّ عيباً

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٨٩) (١٤٢) .

(٢) البيت لأبي السري . انظر « حماسة الظرفاء » (١/ ٣١) ، ومعنى الزنبور : التين الحلواني . « القاموس المحيط » (ز ن ب ر) .

فنبِّهني عليه ، فقال له : إني لم أرَ فيك عيباً ؛ لكوني لاحظتُك بعينِ الوداد ، فاستحسنتُ كلَّ ما رأيتُهُ فيك ، فسلْ عن ذلك غيري .

وكان رضي الله عنه يقول : (إني لأتمنى المرضَ حتىٰ لا تجبَ عليَّ الصلاةُ في جماعةٍ ، ولا أرى الناسَ ولا يروني) .

وكان يُغلق بابَهُ من خارجٍ ، فيأتي له الرجلُ ، فيظنُّ أن ليس في البيت أحدٌ ، فيرجع .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص : ٨٣] (من علوِّكِ في الأرض : أن تستحسنَ شِسع نعلك علىٰ نعل أخيك ، وتأنفَ نفسُك أن تلبسَ نعلاً خَلَقاً مثل أخيك) .

وكان يقول : (**ثلاثةٌ لا يلامون علىٰ ضجرٍ** : المريض ، والمسافر ، والصائم) .

وكان يقول : (بلغنا : أنَّ الرجلَ يُحاسبُ يوم القيامة بحضرةِ أصحابه الذين كانوا يَعتقدون صلاحه ؛ ليكون أبلغَ في توبيخه)

وكان يقول : (ما صدقَ اللهَ تعالىٰ عبدٌ أحبَّ الشُّهرةَ بعلمٍ أو عمل ، أو كرمٍ أو معروفٍ)

وكان رضي الله عنه من أورع الناس ، كان إذا لم يجدْ طعاماً حلالاً يأكلُ الترابَ ، حتىٰ إنه مكثَ شهراً يأكلُ الطين ، ويقول : واللهِ ؛ لولا أخافُ أن يُؤتىٰ علىٰ نفسي لأكلتُ الترابَ ما عشت .

وكان يحصدُ بالأُجرة ، ويحرسُ البساتين ، فربما أعطوه الأجرةَ آخرَ اليوم أو آخر السنة ، فينظر إليها ، ثم يتركُها ، ويقول : قد رزقني اللهُ من غيرها ، وأخاف ألا أكونَ نصحتهم في شغلي ، ولا بذلتُ وسعي .

وكان يقلِّلُ الأكل ما استطاع ، ويقول : (ما بقي الحلالُ يحتملُ السرَفَ)

وربما أكلَ كلَّ خمسةَ عشرَ يوماً أكلةً ، وربما صلاها كلَّها بوضوءٍ واحد .

وكان يقول : (اطلبوا العلمَ للعمل ؛ فإن أكثرَ الناس قد غلطوا ، فصار علمُهم كالجبال وعملُهم كالذرِّ) .

وكان يقول : (مررتُ في سياحتي علىٰ حجرٍ مكتوب عليه : اقلبني تعتبرْ ، فقلبتُهُ ، فوجدتُ فيه مكتوباً : أنت بما تعلمُ لا تعمل ، فكيف تطلبُ علمَ ما لا تعلم ؟!) .

وكان رضي الله عنه قد جفَّ جلدُه علىٰ عظمه ، حتىٰ ربَّما تهيجُ الريح فيكادُ أن يقعَ .

وقال له رجلٌ مرةً : عظني يا أبا إسحاق ، فقال : كنْ ذَنَباً ولا تكن رأساً ؛ فإن الرأسَ يذهب ، والذنبَ ينجو .

وقال له رجلٌ مرةً : أريدُ أن أصحبك ، فقال : بشرطِ أن أكون أحقَّ بمالك منك ، فقال : لا طاقةَ لي بذلك ، فقال : اذهبْ إلىٰ حالِ سبيلك .

وزاره مرةً بعضُ إخوانه ، فمرضَ ، فباع حمارَهُ ، وأنفقَهُ عليه ، فلما تعافى الرجلُ من المرض طلب بلدَهُ ، فحمله إبراهيمُ علىٰ ظهره كذا كذا مرحلة .

وكتبَ إليه الأوزاعي : إني أريدُ أن أصحبَكَ يا إبراهيم ، فقال له إبراهيم : إنَّ الطيرَ إذا طار مع غيرِ شكله كذوات الأربع طارَ الطيرُ وتركه .

ومنهم :

(١٤٣) أبو الفيض ذو النُّون المِصري رضي الله عنه[١]

واسمه ثَوبان بن إبراهيم ، كان أبوه نُوبيّاً[٢]

توفي سنة خمسٍ وأربعين ومئتين .

وكان نحيفاً ، تعلوه حمرةٌ ، وليس بأبيض اللحية .

ومات بجيزة مصر ، وحملوه في قاربٍ مخافةَ أن ينقطعَ الجسرُ من كثرة الناس مع جنازته ، ورأوا طيوراً خضراً ترفرفُ علىٰ جنازته حتىٰ وصلوا به إلىٰ موضع قبره في القَرَافة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٩٢) (١٤٣) .

(٢) **النوبة** : جيل من السودان .

وكان من أورع الناس ، وأزهدِ الناس في زمنه .

وكان يقول : (إياك أن تكونَ للمعرفة مُدَّعياً ، أو بالزهد محترفاً ، أو بالعبادة متعلِّقاً ، وفرَّ من كلِّ شيءٍ إلىٰ ربِّك) .

وكان يقول : (من ادَّعىٰ مقاماً حُجب به عن الله ؛ لأن من كان الحقُّ مشهودَهُ لا يحتاجُ إلىٰ دعوىٰ)

وكان يقول لعلماء زمانه : (أدركنا الناسَ وأحدُهم كلَّما ازدادَ علماً ازدادَ في الدنيا زهداً ، وأَحدُكم اليوم كلَّما ازدادَ علماً ازدادَ في الدنيا رغبةً ومزاحمةً عليها ، وكانوا يُنفقون الأموالَ في تحصيل العلم ، وأنتم اليوم تُنفقون العلمَ في تحصيل المال) .

وكان يقول لأصحابه : (من أرادَ منكم الطريقَ فليلق العلماء بالجهل ، والزهَّادَ بالرغبة ، والعارفين بالصمت ؛ وذلك ليزيدوه علماً إلىٰ علمه ، وزهداً إلىٰ زهده ، وصمتاً إلىٰ صمته) .

وسُئل مرَّةً عن سفلة الناس من هم ؟ فقال : هم من لا يعرفُ الطريقَ إلى الله تعالىٰ ، ولا يتعرَّفُهُ .

وكان يقول : (سيأتي على الناس زمانٌ تكونُ الدولةُ فيه لأهل الدنيا علىٰ أهل الآخرة) .

وكان يقول : (لم يزلِ المنافقون يَسخرون بالفقراء في كلِّ عصرٍ ؛ ليكون للفقراء أسوة بالأنبياء) .

قال : وقد جاءتني امرأةٌ يوماً ، فقالت : إنَّ التمساحَ أَخذ ولدي ، فلما رأيتُ حرقتَها عليه أتيتُ بحرَ النيل ، وقلت : اللهم ؛ أظهرِ التمساحَ ، فخرج إلى الشطِّ ، فشققنا جوفَه ، وأخرجنا ابنَها حيّاً صحيحاً ، فأخذَتْهُ ومضتْ ، ثم قالت لي : يا ذا النُّون ؛ اجعلني في حلٍّ ؛ فإني كنتُ كلما رأيتُك سخرتُ بك .

وكان يقول : (من علامة سخطِ الله على العبد أن يخافَ من الفقر) .

وكان يقول : (لكلِّ شيءٍ علامةٌ ، وعلامةُ طردِ العارف عن حضرة الله انقطاعُهُ عن ذكره)

وكان يقول : (إذا تكاملَ حُزنُ المحزونين قلصتْ دمعتُهم ؛ وذلك أن القلبَ إذا رقَّ سلا ، وإذا جمدَ غلظَ وشجا) ، ومنه قول عمرَ بنِ الخطاب لما رأىٰ شخصاً يبكي عند تلاوة القرآن : هٰكذا كنَّا حتىٰ قستْ قلوبُنا ؛ أي : غلظت وقويتْ علىٰ تحمّل ما تسمعُ وترىٰ .

قلت : فهو وصفٌ لنفسِهِ بالكمال من باب التحدُّث بالنعم ، لا وصف لها بالنقص .

وتذاكر الفقراءُ يوماً عنده في المحبَّة ، فقال : (كفُّوا عن هٰذه المسألة ؛ خوفاً أن تدَّعيها النفوسُ بغير حقٍّ ؛ فإن من أحبَّ الله لا يحبُّ سواه إلا بإذنه ، وما منَّا أحدٌ إلا وله شهواتٌ يحبُّها) .

قال : (ولقد دخلتُ يوماً إلىٰ مغارةٍ في بعض الجبال ، فوجدتُ هناك شخصاً يعبد الله في تلك المغارة ، فسألتُهُ عن مسألةٍ في المحبة ، فذاب كما يذوبُ الرَّصاص ، ثم صار قدرَ النُّطفة بلا عظمٍ وبلا لحم[١] ، فالتقطتُهُ بقطنةٍ ، ودفنته) .

وكان يقول : (من القلوبِ قلوبٌ تستغفرُ قبل أن تُذنبَ ، فتُثابُ قبل أن تتوبَ وتطيع) .

وكان يقول : (لولا اللِّسانُ لكان الإنسانُ كالبهيمة يُومئ بالرأس ، ويشير باليد) .

وكان يقول : (كنا إذا رأينا شابّاً يتكلَّم في مجلسِ الرجال أيسنا من خيره) .

وكان يقول : (كلُّ فقيرٍ لا يفتِّشُ علىٰ رغيفه من جهة الحلِّ لا يفلحُ في الطريق) .

وكان يكرهُ إرسالَ السلام للنساء ، ومن النساء للرجال ، ويقول : شهامةُ الرجل فوق ذلك .

وكان يقول : (لا يُكثرُ من الإخوان إلا قليلُ العقل) .

وكان يقول : (أعربنا في الكلام ولحنَّا في العمل ، فعكسنا الحالَ الذي كان عليه السلف)

---

(١) في (أ ، هـ ، ز) : (بلا شحم) بدل (بلا لحم) .

وكان يقول : (مَنْ آنسَهُ اللهُ بقربه أعطاه العلمَ بغير تعب) .

وكان يقول : (ليس بعاقلٍ من عُرف بالعلم ، ثم آثر بعد ذلك هواه على مرضاة الله ، وليس بعاقلٍ من لم يُنصفْ من نفسه ، وطلبَ الإنصافَ من الناس) .

وكان يقول : (لا تتواضعْ للمتكبِّر تذلَّ نفسَكَ في غير محلٍّ ، وتكبر نفسُه بغيرِ حقٍّ) .

وكان يقول : (من عميَ عن عيوب نفسه انكشفتْ له عيوب الناس ، فمقتته القلوب) .

وكان يقول : (من طلب مع الخبزِ ملحاً يأكلُهُ به لم يُفلحْ في طريق الله تعالىٰ أبداً) .

وسئل رضي الله عنه عن كمال العقل ، وعن كمالِ المعرفة ، فقال : إذا كنتَ بالله قائماً بما أُمرتَ ، تاركاً لتكلف ما كُفيت كنتَ كاملَ العقل ، وإذا كنتَ بالله عز وجل مُتعلِّقاً غيرَ ناظرٍ إلىٰ سواه حتىٰ من أعمالك وأحوالك فأنت كاملُ المعرفة) .

وكان يقول : (قد صار عبَّادُ زماننا ونُسَّاكه وقرّاؤه غارقين في شهوة بطونهم وفروجهم ، أقبلوا علىٰ أكل الحرام والشُّبهات ، ورضوا من العلم بالاسم ، هم عبيدُ الدنيا لا عبيد الله ، لبسوا الثياب علىٰ قلوب الذئاب ، اتخذوا مساجدَ الله للغو والجدال بالعلم من غيرِ عملٍ ، اتخذوا علمهم شبكةً يصطادون بها الدنيا ، فإياكم ومجاورتَهم أو مجالستَهم) .

وكان يقول : (لولا شغلي بنفسي لاشتغلتُ بكتابة الحديث ؛ فإنه من أركان الدين) .

وكان يقول : (لولا نقصٌ دخلَ علىٰ أهل الحديث والفقه لكانوا خيرَ الناس في زمانهم ، ألا تراهم بذلوا علمهم للناس لينالوا من دنياهم ؟! فضلُّوا وأضلوا) .

وسُئل مرةً عن أهل القرآن من هم ؟ فقال : (هم الذين أنصبوا الرُّكَبَ والأبدان حتىٰ نحلتْ أبدانُهم ، وذبلتْ شفاهُهم ، ووبلت دموعُهم) .

وكان يقول : (من علامة إعراض الله عن العبد : أن تراه ساهياً ، لاهياً ، لاغياً ،

مُعرضاً عن ذكر ربِّهِ ، تثقلُ عليه مجالسةُ الذاكرين) .

وكان يقول : (إن الله يغارُ أن يجمعَ بين أحبابه وأعدائه في دارٍ واحدة ؛ فلذلك جعلَ لكلِّ فريقٍ داراً) .

وكان يقول : (العارفُ في هـٰذه الدار مثلُهُ كمثل رجلٍ تُوِّجَ بتاج الكرامة ، وأُجلسَ علىٰ سريرٍ ، وعُلِّق علىٰ رأسه سيفٌ بشعرةٍ ، وأُرسل علىٰ بابه سبعون [ضارياً][1] ، فأنّىٰ له السرور) .

قال بعضهم : والمرادُ بالسيف المعلَّق : الأحكام التي كُلِّف بها ، [والضاريون] على الباب الأوامر والنواهي[2]

وكان يقول : (من تقرَّبَ إلى الله تعالىٰ بما فيه تلفُ نفسه حفظَ اللهُ نفسَهُ) .

وكان يقول : (ما شبعتُ قطُّ إلا عصيتُ ، أو هممتُ بمعصيةٍ) .

وكان يقول : (كنْ عارفاً خائفاً ، ولا تكن عارفاً واصفاً) .

وكان يقول : لمَّا حُملتُ من مصر في الحديد والأغلال إلىٰ بغداد ، حين رُميْتُ بالزندقة . . لقيتني امرأةٌ زَمِنَةٌ ، فقالتْ : يا ذا النون ؛ إذا دخلتَ على المتوكل فلا تهبْه ، ولا تَرىٰ أنه فوقك ، ولا تجبْ عن نفسك محقّاً أو متَّهماً ؛ لأنك إنْ هبتَهُ سُلِّط عليك ، وإن حاججتَ عن نفسك بغير حقٍّ لم يزدْك ذلك إلا وبالاً ؛ لأنك باهتَّ الله تعالىٰ ، وإن كنت بريئاً فادعُ اللهَ تعالىٰ أن ينتصرَ لك ، ولا تنتصرْ لنفسك ، فيَكِلك اللهُ إليها ، فقلت : سمعاً وطاعة .

فلما أدخلوني عليه سلَّمتُ عليه بالخلافة ، فقال لي : ما تقولُ فيما يقولون فيك من الكفر والزندقة ؟ فسكتُّ ، فقال وزيرُهُ : هو حقيقٌ عندي بما قيل فيه ، ثم قال لي : لِمَ لا تتكلَّم ؟ فقلتُ : يا أمير المؤمنين ؛ إن قلتُ : لا كذَّبتُ المسلمين فيما قالوا ، وأنا أستحي أن أُكذِّبَ مُسلماً ، وإن قلتُ : نعم كذبتُ علىٰ نفسي بشيءٍ لا يعلمه الله مني ،

---

(١) في النسخ : (ضارباً) ، وفي « مناقب الأبرار » (١/ ١٠١) : (سبعان ضاريان) ، وفي « حلية الأولياء » (٩/ ٣٦١) : (أسدان ضاريان) .

(٢) في النسخ : (والضاربون) بدل (والضاريون) .

فافعلْ أنت ما ترىٰ ؛ فإني غيرُ مُجيبٍ عن نفسي اليومَ ، وقد جعلتُ الله تعالىٰ وليِّي ، فقال المتوكلُ : الذي عندي أنه رجلٌ بريء مما قيل فيه ، ثم صنع لي محفَّةً ، وفرشَ تحتي الذهبَ لأُنفقَهُ في الطريق ، وردَّني مُكرَّماً ، فخرجتُ من عنده إلىٰ تلك العجوز ، فقلت لها : جزاكِ الله عني خيراً ، وقد فعلتُ ما أَمرتِني به ، فمن أين لك ذلك ؟ فقالت : من حيث ما خاطب به الهدهدُ سليمانَ عليه السلام .

وكان ذو النون بعد ذلك يقول : (من أراد تجريدَ التوحيد ، وخالصَ التوكل فعليه بالمرأة الزَّمنة ببغداد) .

ومناقبُهُ وحكاياته وسياحته مشهورةٌ مفرَّقةٌ في كتب الرقائق ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٤٤) أبو نصر بشر بنُ الحارث الحافي رضي الله عنه[١]

أصله من مرو ، وسكن بغداد ، ومات بها عاشر المحرَّم سنة سبعٍ وعشرين ومئتين .

صحب الفُضيل بنَ عياض .

وكان عالماً ورعاً ، كبيرَ الشأن ، أوحدَ أهل زمانه علماً وحالاً

ومن كلامه رضي الله عنه : (لا يجدُ حلاوةَ أعمال الآخرة رجلٌ يحبُّ أن يعرفه الناس) ؛ يعني : علماً وعملاً وزهداً وخوفاً ، ونحو ذلك .

وكان يقول : (سيأتي على الناس زمانٌ تكون الدولةُ فيه للأراذل علىٰ أهل العقول والأكابر) .

وكان يقول : دخلتُ داري يوماً فإذا رجلٌ جالسٌ في الدار ، فقلت له : كيف دخلتَ الدارَ بغيرِ إذن صاحبها ؟ فقال : أنا أخوك الخضر ، فقلت له : ادعُ الله لي ، فقال : هوَّنَ اللهُ عليك طاعته ، فقلت : زدني ، فقال : وسترها عليك .

قال : ودخلتُ مرةً أُخرىٰ داري ، فرأيتُ رجلاً طويلاً قائماً يُصلِّي ، فراعني ذلك ؛

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٩٧) (١٤٥)

لأن المفتاحَ كان معي ، فلما سلَّمَ من صلاته قال لي : لا تفزعْ ، أنا أخوك الخضر ، فقلت له : علِّمني شيئاً يَنفعني اللهُ به ، فقال : قل : أستغفرُ الله من كلِّ عهدٍ نقضتُهُ ، ومن كلِّ نعمةٍ استعنتُ بها علىٰ معصية .

وكان يقول : قال لي رجلٌ من المتصوفة : يا أبا نصر ؛ قد انقبضتَ عن أخذ البرِّ من أيدي الناس لإقامة الجاه ، فإن كنتَ متحقِّقاً بالزهد ، مُنصرفاً عن الدنيا . . فخذْ من أيديهم لتمحو جاهك عندهم ، ثم أخرجْ ما يعطوك إلى الفقراء سرّاً ، ولا تذقْ منه شيئاً ، فاشتدَّ هـٰذا القولُ علىٰ أصحابي ، فقلت له : جزاك اللهُ من أخٍ خيراً ، ولـٰكن اسمعْ جوابي ، فقال : نعم ، فقلتُ له : اعلمْ أن الفقراءَ علىٰ ثلاثة أقسام : فقيرٌ لا يسأل ، وإن أُعطي لا يأخذ ، فذاك من الرُّوحانيين ، وفقيرٌ لا يسأل ، وإن أُعطي قبلَ ، فذاك من أوسطِ القوم ، وفقيرٌ اعتقدَ الصبر ومدافعة الوقت ، فإذا طرقتْهُ الحاجةُ خرجَ إلىٰ إخوانه ، وقلبُهُ إلى الله بالسؤال ، فكفارةُ مسألته صدقُهُ في السؤال ، فقال الصوفي : رضيتُ ، رضي الله عنك .

وكان يقول : (حسبك أقوامٌ موتىٰ تحيا بذكرهم القلوب ، وأقوامٌ أحياءٌ تُقَسَّىٰ برؤيتهم القلوب)(١)

وكان يقول : (طلبةُ العلم في زمننا هـٰذا إنما هم متلذِّذون متفكِّهون بالعلم ، يسمعونه ويحكونه لا غير ، ولو عملوا بما علموا لتجرَّعوا مرارةَ العلم ، ويحهم ! إنما يُراد بالعلم العمل ، فاسمعوا يا إخواننا ، وتعلَّموا ، ثم اعملوا واهربوا ، ألا ترون إلىٰ سفيان الثوريِّ كيف طلبَ العلم وتعلَّم ، ثم عمل وهرب ؟!) .

وكان يقول : (كلُّ حرفٍ من العلم يدلُّ صاحبه على الهرب من الدنيا ، فإذا أقبلَ الناسُ علىٰ عالمٍ فإنما ذلك بواسطةِ ميل نفسه إلى الدنيا ، ومداهنته لأهلها) .

وكان يقول : (أفضلُ الصدقة ما كان سرّاً ، وهي أفضلُ من الحجِّ والجهاد والعمرة ؛ لأن الحاجَّ والمجاهد يراه الناس ، والمتصدِّقَ سرّاً لا يراه إلا الله) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ إني لأُجلُّ اللهَ عز وجل أن أذكرَهُ عند من لا يُجلُّهُ) .

---

(١) في (أ ، ز ، ح) : (تفنىٰ) بدل (تقسىٰ) .

وكان يقول : (أمس قد مات ، واليوم في النزع ، وغداً لم يُولد ، فبادروا بالأعمال الصالحة وقتكم) .

وكان يقول : (إذا أرسلتَ لأخيك كتاباً فلا تزخرفْه بحسنِ الألفاظ ؛ فإني كتبتُ مرةً كتاباً ، فعرض لي كلامٌ إن كتبتُهُ حَسُنَ الكتاب وكان كذباً ، وإن تركتُهُ سمجَ الكتاب وكان صدقاً ، فعزمتُ على ذكر الكلام السمج الصدق ، فناداني هاتفٌ من جانب البيت : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧]) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من طلبَ أن يكونَ عزيزاً في الدنيا ، سليماً في الآخرة . . فلا يُحدِّثْ ، ولا يشهد ، ولا يؤم ، ولا يأكل لأحدٍ طعاماً) .

ولما تركَ بشرُ الحافي الحديثَ طلب منه ذلك الناسُ ، وألحُّوا عليه ، فأبىٰ أن يجلسَ له ، فقالوا له : ما تقول لربِّك يا بشرُ يومَ القيامة إذا قال لك : لِمَ لا تحدِّثْ عبادي بحديث نبيِّي محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أقولُ له يا رب ، قد أمرتني بمخالفةِ نفسي عن هواها ، وإنَّ نفسي كانتْ تحبُّ الحديثَ والرياسة ، فخالفتها ، ولم أُعطها سؤلها .

وفي رواية : فقال بشر : أقولُ له : يا رب ، إنك أمرتني في علمي بالإخلاص فيه ، ولم أجدْ عندي إخلاصاً في الجلوس للعلم .

وكان يقول لإخوانه : (لا تُؤثروا علىٰ حذفِ العلائق شيئاً ؛ فإني لو أَجبتُ نفسي إلىٰ كلِّ ما تشتهي لخفتُ أن أكونَ مكَّاساً أو شرطيّاً) .

وكان يقول : (من لم يحتجْ إلى النساء فليتق الله ، ولا يألفْ أفخاذهنَّ ، ولو أنَّ رجلاً جمع بين أربع نسوة يحتاجُ إليهنَّ ما كان مسرفاً) .

وقيل له مرةً : لِمَ لا تتزوَّجُ ؟ فقال : (واللهِ ؛ لو أمكنني طلاق نفسي لطلقتها) .

وفي روايةٍ أخرىٰ : فقال : أنا مشغولٌ بالفرض عن هـٰذه السنة ، فقيل له : وما هو الفرض ؟ فقال : مجاهدةُ نفسي ، وتصفيتُها من الأخلاق الرديئة .

وكان يقول : (صحبةُ الأشرار تورثُ سوءَ الظنِّ بالأخيار ، وصحبةُ الأخيار تورثُ

حسنَ الظنِّ بالأشرار ، وإن الله عز وجل لا يسألُ قطُّ عبداً في الآخرة : لِمَ حسَّنْتَ ظنَّك بعبادي ؟) .

وكان رضي الله عنه يقول في مرض موته : (إلٰهي ، رفعتني فوق قدري ، وشهرتني بين الناس بالصلاح ، ولست صالحاً ؛ فأسألك بوجهك الكريم ألا تفضحني يومَ الحساب) .

وكان إذا رأىٰ أحداً يضحك غافلاً يقول له : احذر أن يأخذَكَ اللهُ علىٰ هٰذا الحال

وكان يقول : (غنيمةُ المؤمن في هٰذا الزمان غفلةُ الناس عنه ؛ فإن لقاءَ غالب الناس اليوم خسران) .

وكان يقول : (لا يفلحُ مريدٌ يقول : بأيِّ شيءٍ آكلُ خبزي) .

وكان يقول : (سكونُ النفس إلىٰ قبول مدحها من الناس أشدُّ من ارتكاب المعاصي الظاهرة ؛ لأنه لا يكادُ يتوب من محبَّةِ حمد الناس له ، فيهلك ولا يشعر) .

وكان لا يعبأُ بعلماء زمانه إلا إن رآهم عاملين بما علموا ، فقيل له في ذلك ، فقال : كيفَ أعبأُ بهم واللهُ ساخطٌ عليهم ، وقد أدركنا العلماءَ وفيهم ثلاثُ خصال : صدقُ الحديث ، والزهدُ في الدنيا ، وأكلُ الحلال ، ولا نرىٰ فيهم اليومَ واحدةً من هٰذه الثلاث .

وكان يقول : (كيف يدَّعي هٰؤلاء العلمَ وهم يتحاسدون على الدنيا ، ويتغايرون على القرب من الأمراء ، وينقصون أقرانَهم عندهم حتىٰ لا يَميلوا إلىٰ غيرهم ، كلُّ ذلك من حرصهم على الدنيا التي زهَّدهم اللهُ فيها) .

ودخل عليه مرةً جماعةٌ من العلماء ، فقال : (ويحكم ! أنتم ورثةُ الأنبياء في زعمكم ، والأنبياءُ لم يورِّثوا إلا العلم ، فحملتموه ، وزُغتم عن العمل به ، وجعلتموه حرفةً تكتسبون بها معاشكم ، واللهِ ؛ إني أخافُ عليكم أن تكونوا من أول مَنْ تُسعَّرُ بهم النار) .

وكان يقول : (مثلُ الذي يأكلُ الدنيا بالعلم والدين كمثل الذي يغسل بدنه من الزهومة بماءِ تنظيف السمك القديد) .

وكان يقول : (إذا قصَّر العبدُ في العمل فيما بينه وبين الله سلبَهُ من كان يؤنسه ؛ من أخٍ أو علمٍ أو حال) .

وسئل مرَّةً عن التصوف ، فقال : (هو اسمٌ لثلاث معان : ألا يطفىءَ نورُ عرفانه نورَ ورعه ، وألا يتكلَّمَ بباطنٍ ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ، وألا تحمله الكراماتُ علىٰ هتك أستارِ محارم الله عز وجل) والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٤٥) أبو عبد الله الحارثُ بنُ أسد المحاسبي رضي الله عنه[١]

كان من أجلِّ علماء القوم في علوم الشريعة ، وعلم الأصول والمعاملات ، وله التصانيفُ المشهورة ، وهو أستاذُ أكثرِ البغداديين ، وهو بصريُّ الأصل .

مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومئتين .

ومن كلامه رضي الله تعالىٰ عنه : (من صحح باطنَهُ بالمراقبة والإخلاص زيَّنَ اللهُ ظاهره بالمجاهدة واتِّباعه السُّنة)[٢]

وكان يقول : (خيارُ هـٰذه الأمة هم الذين لا تشغلهم آخرتُهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم) .

وسمع مرةً شخصاً ينشد : [من مجزوء الرمل]

أنَا في الغُربةِ أبكي ... مَا بكتْ عينُ غريبِ
لمْ أكنْ حينَ خُروجي ... عنْ مكانِي بمُصيبِ
عجباً لي ولتركي ... وطناً فيهِ حبيبي

فقام وتواجدَ حتىٰ رَثىٰ له الحاضرون .

قلتُ : وقد خمَّس هـٰذه الأبيات سيِّدي علي بنُ وفا رضي الله عنه بقوله :

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٠٤) (١٤٧) .

(٢) في (ز) وحدها : (زيَّن) بدل (صحح)

قَـدْ سمعـتُ الـرُّوحَ تحكـي   أنَّ نفـسَ المتـزكِّـي
أنشـدَتْ كـالمتشكِّـي   أنَـا فـي الغُـربـةِ أبكـي
مـا بكـتْ عيـنُ غـريـبِ

بعْـدَ روضِـي ومُـروجِـي   وارتفـاعِـي وعُـروجِـي
صرتُ في الضيقِ الحريجِي   لـمْ أكـنْ حيـنَ خـروجِـي
عـنْ مكـانِـي بمصيـبِ

كنـتُ حقّـاً روحَ ملكِـي   فتغـرَّبْـتُ بـدركِـي
مَـعَ وهـمِ خلـفَ إفـكِ   فـاعجبُـوا لـي ولتـركِـي
وطنـاً فيـهِ حبيبِـي

وسئل مرةً عن المتوكل : هل يلحقه طمع ؟ فقال : نعم ، يلحقه طمعٌ من طريق الطباع ، خطراتٌ لا تضرُّهُ شيئاً .

وكان يقول : (بليةُ طالب الدنيا : تعطيلُ قلبه من ذكر الآخرة ، وحينئذٍ تحدثُ الغفلةُ في قلبه) .

وقيل للإمام أحمد بنِ حنبل : إنَّ الحارث المحاسبيَّ يتكلَّمُ في علوم الصوفية ، ويحتجُّ عليها بالآي والحديث ، فهل لك أن تسمعَ كلامه من حيث لا يشعر ؟! فقال : نعم ، فحضر معه ليلاً من أول الليل إلىٰ آخره ، فقال : لم أنكرْ من أحواله ولا أحوال أصحابه شيئاً ، واعترفَ بفضله وقال : كنتُ أسمع عن الصوفية خلافَ هٰذا ، فأستغفرُ اللهَ وأتوب إليه .

وكان الحارث يقول : عملتُ كتاباً في المعرفة ، وأعجبتُ به ، فبينا أنا أنظرُ فيه مُستحسناً له إذ دخل عليَّ شابٌ نحيفُ البدن ، رثُّ الهيئة ، فسلَّم عليَّ وقال : يا أبا عبد الله ؛ هل المعرفة حقٌّ للحقِّ في الخلق ، أو حقٌّ للخلق على الحقِّ ؟ فقلت له : حقٌّ للحقِّ على الخلق ، فقال : هو أولىٰ أن يكشفَها لمستحقِّها ، فقلت : بل حقٌّ للخلق على الحقِّ[1] ، فقال : هو أعدلُ من أن يظلمَهم ، ثم سلَّم عليَّ وخرج ،

---

(١) في (ب ، ج ، هـ ، و ، ح ، ي ، ك) : (بلىٰ) بدل (بل) ، والمثبت من (أ ، ز ، ط) .

فأخذتُ الكتاب وغسلتُهُ ، وقلتُ : لا عدتُ أتكلَّمُ في المعرفة بعد ذلك أبداً ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٤٦) أبو سليمان داود بنُ نُصير الطائي رضي الله عنه[1]

كان كبيرَ الشأن في العلم والزهد والورع ، حتىٰ إنهم دخلوا عليه في مرضِ موته فلم يجدوا في بيته شيئاً غيرَ دنٍّ مزفَّتٍ فيه خبزٌ يابس ، ومطهرةٍ ، ولَبِنَةٍ من التراب يضعُها تحت رأسه وسادةً .

وكان يقول لأصحابه : (إياكم أن يتَّخذَ أحدُكم في داره شيئاً زائداً علىٰ زاد الراكب) .

وقيل له مرةً : دُلَّنا علىٰ شخصٍ نجلسُ إليه لنربحَ بمجالسته ، فقال : تلك ضالةٌ لا توجد .

وكان يقول : (إنما شُرع تعلُّمُ العلم ليَعْمَلَ به الطالب أولاً فأولاً ، وأما إذا قَطَع عمرَهُ في تحصيله فمتىٰ يعمل ؟!) .

ومكث رضي الله عنه أربعاً وستين سنة أعزب ، فقيل له : كيف صبرتَ على النساء ؟! فقال : كابدتُ ردَّ شهوتي إليهنَّ أول شبابي سنةً ، ثم ذهبت شهوتُهنَّ من قلبي .

وكان لا يتجرَّأ يسألُ اللهَ الجنةَ ، ويقول : (وددتُ أني أنجو من النار ، وأصيرُ تراباً) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ قد مللنا حياتنا لكثرةِ ما نقعُ فيه من الذنوب) .

وكان يقول : (من علامةِ كمالِ الزهد في الدنيا تركُ مُجالسة أهلها ، وتركُ عيادتهم إذا مرضوا ، إلا بنيةٍ خالصة عن العلل) .

ودخلوا عليه مرةً ، فرأوا في داره جرَّةً فيها ماءٌ قدِ انبسطتْ عليها الشمسُ ، فقالوا

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٠٥) (١٤٨) .

له : ألا تُحوِّلُها ؟ فقال : حين وضعتُها لم يكن عليها شمسٌ ، وأنا أستحي من الله أن يَراني أمشي في شهوة نفسي ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٤٧) شقيق بن إبراهيم البلخي رضي الله عنه[1]

كان من أجلِّ مشايخ خراسان ، وله لسانٌ حسنٌ في التوكُّل .

وقيل : إنَّه أولُ من تكلَّمَ في علم الأحوال بكُورةِ خراسان .

صحب إبراهيم بن أدهم ، وأخذ عنه الطريقةَ ، وهو أستاذُ حاتم الأصم .

وكان رضي الله عنه يقول : (عملتُ بالقرآن عشرين سنة حتى ميَّزتُ أعمال الدنيا من أعمال الآخرة ، ووجدتُها في حرفين ، وهما قوله : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ﴾ [القصص : ٦٠]) .

وكان يقول : (الزاهدُ يُقيمُ زهدَهُ بفعله لا بلسانه) .

وكان يقول : (الفقراءُ إذا طمعوا في الأغنياء فقد اتَّخذوهم أرباباً من دون الله) .

وكان يقول : (إذا صارَ الفقيرُ يخافُ من الغِنىٰ مثلما يخافُ من الفقر فقد تمَّ زهدُهُ) .

وكان يقول : (مثلُ المؤمن في هـٰذه الدار كمثل رجلٍ غرسَ نخلةً ، وهو يخافُ أن تحملَ شوكاً ، ومثلُ المنافقِ مثلُ رجلٍ غرسَ شوكاً وهو يطمع أن يجتني رُطباً) .

وكان يقول : لقيتُ إبراهيم بنَ أدهم بمكة ، فقال لي : اجتمعتُ بالخَضِرِ عليه السلام ، فقدَّم لي قدحاً أخضر ، فيه رائحةُ السِّكباج[2] ، فقال لي : كُلْ يا إبراهيم ، فرددتُه عليه ، فقال : إني سمعتُ الملائكة تقول : من أعطي[3] فلم يأخذ ، سألَ ولم يُعطَ .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٠٦) (١٤٩) .

(٢) **السِّكباج** : طعام يعمل من اللحم والخلِّ وأفاويه . « المعجم الوسيط » (س ك ب ج) ، **والأفاويه** : التوابل التي يعالج بها الطعام .

(٣) في النسخ : (سئل) ، والمثبت من « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٠٧) .

وكان يقول : (الرعاةُ في كلِّ عصرٍ العلماءُ والصوفية ، ولـٰكن إذا صارت الرعاةُ للغنم هم الذئابَ فمن يحفظ الغنم ؟!) واللهُ تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٤٨) أبو يزيد طيفور بنُ عيسى البِسطامي رضي الله عنه[1]

مات سنة إحدىٰ وستين ومئتين .

وكان من أكابر المشايخ .

وكتبَ إليه ذو النُّون المصري : إلىٰ متى الدَّعةُ والراحة وقد سارتِ القافلة ؟! فقال له أبو يزيد : ليس الرجلُ من يسيرُ مع القافلة ، وإنما الرجلُ من ينامُ إلى الصباح ، فيصبح أمامَ القافلة في المنزل .

وكان رضي الله عنه يقول : (مددتُ رجلي ليلةً في الظلام في محرابي ، فهتفَ بي هاتفٌ : من يُجالس الملوك ينبغي أنْ يُجالسهم بالأدب) .

وكان رضي الله عنه يقول : (اختلافُ العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد ، ولقد عملتُ في المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدتُ شيئاً أشقَّ على العبد من العمل بما علم) .

وكان يقول : (عرفتُ الله بالله ، وعرفتُ ما دون الله بنور الله) .

وكان يقول : (إنما خلعَ اللهُ تعالىٰ على العبادِ النِّعمَ ليرجعوا بها إليه ، فعكسوا الأمر ، واشتغلوا بها عنه) .

وكان يقول في مُناجاته : (إلـٰهي ، إنك خلقتنا بغيرِ علمنا ، وقلَّدتنا أمانةً بغير إرادتنا ، فإن لم تُعنَّا فمن يُعيننا ؟!) .

وسُئل مرةً عن الفرضِ والسُّنة ، فقال : (الفرضُ الاعتمادُ على الله ، والسُّنةُ تركُ الدنيا) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٣٠٨) (١٥٠) .

وكان يقولُ : (رأيتُ ربَّ العزة جلَّ وعلا ، فقلت : يا ربِّ ؛ كيفَ أجدُك ؟ فقال : اتركْ نفسَك وتعال) .

وسئل عن صفة العارف ، فقال : صفتُهُ صفةُ أهلِ النار ، لا يموتُ ولا يحيا .

وقيل له : متىٰ يكون الرجلُ متواضعاً ؟ فقال : إذا لم يرَ بعينه أحداً شرّاً منه .

وكان يقول : (أولياءُ الله عرائسُ في الدنيا والآخرة ، لا يراهم إلا من كان منهم) .

وكان يقول : (كراماتُ الأولياء على اختلاف طبقاتهم من حضرة أربعة أسماء : الأول والآخر ، والظاهر والباطن) .

وكان يقول : (إنما لم يكنِ العارفُ صاحبَ حالٍ ؛ لأن هويَّتَهُ فنيتْ في هوية غيره ، وآثارُهُ غُيِّبتْ في آثار غيره ، فالعارفُ طيَّار ، والزاهدُ سيَّار) .

وكتب يحيى بن معاذ إلىٰ أبي يزيد : إنني سكرتُ من كثرةِ ما شربتُ من كأسِ محبَّته ، فكتب إليه أبو يزيد : ها هنا رجلٌ ـ يعني : نفسَهُ ـ شربَ بحارَ السماوات والأرض وما رويَ بعدُ ، ولسانُهُ خارجٌ يقول : هل من مزيد .

وكان يقول : (لو شفَّعني اللهُ تعالىٰ في جميعِ أهل عصري لم يكن ذلك عندي بكبير ؛ لأنه شفَّعني في قطعةِ طين) .

ودخل عليه فقيهُ بلده وعالمُها إبراهيمُ بنُ [استنبه] الهَرَوي[1] ، فقال : يا أبا يزيد ، علمُكَ هـٰذا أخذتَهُ عمَّن ؟ فقال أبو يزيد : علمي من عطاء الله ، وعن الله ، ومن حيث قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « منْ عملَ بما عَلِمَ ورَّثَهُ اللهُ علمَ ما لمْ يعلمْ »[2] ، فسكتَ الفقيه .

وسئل أبو علي الجوزجاني عن الكلام المنقول عن أبي يزيد مما لا يُفهم ، فقال : يُسلَّمُ لأبي يزيد حالُهُ ، وأيُّكم جاهدَ نفسَهُ كما جاهد أبو يزيد ؟! دعا نفسَهُ يوماً إلىٰ عبادةٍ ، فأبت ، فمنعها الماءَ سنةً ، فجاهدوا تفهموا إشاراته) ، والله تعالىٰ أعلم .

---

(١) في النسخ (شيبة) بدل (استنبه) ، والمثبت من مصادر ترجمته .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٥) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (١/ ١٣٠) .

ومنهم :

(١٤٩) أبو محمد سهل بن عبد الله التُّستري رضي الله عنه[١]

هو أحدُ أئمة القوم ، وأكابر علمائهم في علوم الإخلاص والرياضات وعيوب الأفعال .

صحب خالَهُ محمد بنَ سوار ، وشاهد ذا النُّون سنةَ خروجه إلىٰ مكة في سنة ثلاثٍ وسبعين ومئتين .

مات سهلٌ سنة ثلاث وثمانين ومئتين .

ومن كلامه رضي الله عنه : (الناسُ نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، وإذا انتبهوا نَدموا ، وإذا ندموا لم تنفعْهم ندامتُهم)

وكان يقول : (ما طلعتْ شمسٌ ولا غربت علىٰ أهلِ الأرض إلا وهم جهَّالٌ بالله عز وجل ، إلا من آثرَهُ علىٰ نفسه ، وولده ، وزوجته ، ودنياه وآخرته)

وكان يقول : (إن الله تعالىٰ مُطَّلعٌ على القلوب في ساعات الليل والنهار ، فأيُّما قلبٍ رأىٰ فيه حاجةً إلىٰ سواه سلَّط عليه إبليس) .

وكان يقول : (مما يلزمُ الفقير ثلاثةُ أشياء : حفظُ سرِّه ، وصيانةُ فقره ، وأداء فرضه) .

وكان يقول : (اللهُ تعالىٰ قبلةُ النية ، والنية قبلة القلب ، والقلب قبلةُ البدن ، والبدن قبلة الجوارح ، والجوارح قبلة الدنيا) .

وكان يقول : (من سلمَ من سوءِ الظنِّ سلمَ من التجسُّسِ ، ومن سلم من التجسسِ سلم من الغيبة ، ومن سلم من الغيبة سلم من الزُّور ، ومن سلم من الزور سلم من البهتان) .

وكان يقول : (لا يستحقُّ الإنسانُ الرئاسةَ على الناس إلا إن احتملَ أذاهم ، وبذلَ لهم ما في يديه ، وزهد فيما في أيديهم) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣١٠) (١٥١) .

وكان يقول : (من أخلاقِ الصدِّيقين ألا يحلفوا بالله لا صادقين ولا كاذبين ، ولا يغتابون أحداً ، ولا يُغتاب عندهم أحدٌ ، ولا يشبعون قطُّ ، ولا يُخلفون عهداً) .

وكان يقول : (دخلتِ الغيبةُ على الخاصَّةِ من الرُّخص والتأويلات ، ودخلتِ الفتنةُ على العارفين من تأخيرِ الحقِّ الواجب إلىٰ وقتٍ آخر) .

وكان يقول : (أصولُ طريقنا هـٰذا سبعةُ أشياء : التمسُّكُ بكتاب الله ، والاقتداءُ بسُنَّة رسول الله ، وأكلُ الحلال ، وكفُّ الأذىٰ ، واجتنابُ المعاصي ، والتوبةُ ، وأداءُ الحقوق) .

وكان يقول : (من أحبَّ أن يطَّلعَ الناسُ علىٰ ما بينه وبين الله عز وجل فهو جاهلٌ بالله) .

وكان يقول : (قد أيس علماؤنا عن هـٰذه الثلاث خلال : ملازمة التوبة ، ومعانقة السنة ، وترك الأذىٰ للناس) .

وكان يقول : (العيشُ علىٰ أربعة أقسام : عيشُ الملائكة في الطاعة ، وعيشُ الأنبياء في العلمِ وانتظارِ الوحي ، وعيشُ الصدِّيقين في الاقتداء ، وعيشُ سائر الناس في الأكل والشرب كالبهائم) .

وكان يقول : (ما عمل عبدٌ بما أمره الله عند فساد الزمان إلا جعله الله إماماً يُقتدىٰ به ، وصار غريباً في زمانه) .

وسئل مرةً عن الولي ، فقال : (هو من توالتْ أفعالُهُ على الموافقة) .

وسئل مرةً عن ذات الله عز وجل ، فقال : ذاتُ الله غيرُ مُدْرَكَةٍ بالإحاطة ، ولا مرئيَّة بالأبصار في دار الدنيا ، وهي موصوفةٌ بالعلم ، موجودةٌ بحقائق الإيمان من غير حدٍّ ولا حلول ، وتراه العيون في العُقبىٰ ظاهراً في مُلكه وقدرته ؛ فإن الله تعالىٰ قد حجبَ الخلقَ في الدنيا والآخرة عن كُنْهِ ذاته ، ودلَّهم عليه بآياته ، فالقلوبُ تعرفُهُ ، والأبصارُ لا تُدركه ، ينظرُ إليه المؤمنون في الآخرة بالأبصار من غير إحاطةٍ ولا إدراك نهاية) .

وكان يقول : (قد خلقَ اللهُ الخلقَ ولم يحجبْهم عنه ، فجاءهم الحجابُ من تدبيرهم واختيارهم مع الله ؛ وذلك هو الذي كدَّرَ على الخلق عيشهم) .

وكان يقول : (مُخالطةُ الفقير للناس ذلٌّ ، وبُعده عنهم عزٌّ ، وقلَّ ما رأيتَ ولياً لله عز وجل إلا مُنفرداً عن الناس) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما من وليٍّ لله صحَّتْ ولايتُهُ إلا ويحضر إلىٰ مكة في كلِّ ليلةِ جمعة ، لا يتأخَّرُ عن ذلك)

وكان يقول : أنا حجَّةُ الله على الخلق ، وأنا حجَّةٌ علىٰ أولياء زماني[1] ، فبلغ ذلك أبا زكريا السَّاجي ، وأبا عبد الله الزُّبيري ، فذهبا إليه ، فقال له أبو عبد الله الزبيري ، وكان جسوراً ؛ لأنه ضريرٌ ، فقال : بلغنا عنك أنك تقولُ : أنا حجَّةُ الله على الخلق ، فبماذا صرتَ حجَّةً ولستَ بنبيٍّ ولا صدِّيق ؟! فقال سهل : لم أذهبْ حيث ظننتَ ، ولستُ بنبيٍّ ، وإنما قلتُ ما قلتُ ؛ لأني صحَّحتُ أكلَ الحلال دون غيري ، فقال له : كيف صحَّحتَ أكله ؟ فقال : لأني لا آكلُ دائماً إلا حلالاً ؛ وذلك لأني قسمتُ عقلي ومعرفتي وقُوَّتي علىٰ سبعةِ أقسام ، فأتركُ الأكلَ حتىٰ يذهبَ منها ستةُ أقسام ويبقىٰ جزءٌ واحد ، فإذا خفتُ أن يذهبَ ذلك الجزءُ الواحد ، وتتلف معه نفسي أكلتُ بقدر البُلغة ؛ خوفاً أن أكونَ أعنتُ علىٰ نفسي ، ولتُردَّ عليَّ الستةُ أقسام ، فبهـٰذا صحَّ لي الحلال ؛ لأني كالمضطرِّ ، فقال الزبيري صدقت حينئذ في كونك حجَّةً علىٰ أهل زمانك ، لأنا لا نُطيق المداومةَ علىٰ ذلك ، ولا نعرفُ نقسِّم عقلَنا ومعرفتنا وقوَّتنا علىٰ سبعةِ أجزاء ، واعترفَ بفضله وانصرف

وكان يقول : (سيأتي على الناس زمانٌ يذهبُ الحلالُ من أيدي الأغنياء ، وتكون أموالُهم من غير حلٍّ ، فيسلِّطُ الله بعضَهم علىٰ بعض بالأذىٰ والمرافعات عند الحكام ، فتذهبُ لذَّةُ عيشهم ، ويلزمُ خوفُ الفقر قلوبَهم ، وتشمتُ بهم الأعداء ، فلا يَهْنَؤُهُمُ العيشُ ، ولا يجدُ لذَّةَ العيش إلا غلمانُهم ومماليكهم ، وأما السادةُ فهم في بلاءٍ وعناء ، وشقاء وخوفٍ من الظلمة ، وهناك لا يلذُّ بالعيش إلا المنافقُ الذي لا يُبالي من أين أخذ ، ولا فيم أنفقَ ، ولا كيف يُهلك نفسَهُ ، وهنا تكون رتبةُ القراء رتبةَ الجهال ، وعيشُهم عيشَ الفجَّار ، وموتُهم موت أهل الحيرَة والضلال) .

---

(١) في (أ) وحدها : (أهل) بدل (أولياء) .

وكان رضي الله عنه يقول : اجتمعتُ بشخصٍ من أصحاب المسيح عليه السلام في ديارِ قوم عاد ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ عليَّ السلامَ ، ورأيتُ عليه جبةَ صوف فيها طراوةٌ ، فقال : إن لها عليَّ من أيام المسيح ، فتعجَّبتُ من ذلك ، فقال : يا سهل ، إن الأبدال لا تَخلُقُ ثيابُهم ، وإنما يُخلِقُها رائحةُ الذنوب ، ومطاعمُ السُّحت ، فقلت له : فكم لهٰذه الجبة عليك ؟ فقال : لها عليَّ سبع مئة سنة ، فقلت له : هل اجتمعت بنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : نعم ، وآمنت به حين آمن به الجنُّ الذين أوحي إليه في حقهم : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن : ١] .

قلت : ومن هٰذه القصة يُعلم صحةُ قول من قال عن الخضر عليه السلام : إن عليه إزاراً ورداءً من صوف لا يخلقان ، ولا يبليان ؛ لأنه عليه السلام معصومٌ من الذنوب ، ولأكلِهِ من الحلال .

وقد وقع لجدي الأدنى الشيخ عليٍّ الشعراني : أنهم وضعوا والدي عنده بعد إحدىٰ وعشرين سنة ، فوجدوه كما وضعوه طريّاً لم يتغيَّرْ منه شيءٌ ؛ لأنه كان لا يأكلُ إلا حلالاً من شدَّة ورعه ، حتىٰ كان لا يأكلُ من فراخِ الحمام ، ولا من عسلِ النحل ؛ لأكله من زهر فواكه الناس ، رضي الله عنه .

وكان سهل رضي الله عنه يقول : (إياكم ومعاداةَ من شهره الله تعالىٰ بولايةٍ ؛ فإنَّه كان بالبصرة وليٌّ لله ، فعاداه أهلُ البصرة وآذوه ، فغضب الله عليهم ، وأهلكهم أجمعين في ليلةٍ) .

وكان يقول : (طوبىٰ لمن تعرَّف بالأولياء ؛ وذلك لأنه إذا تعرَّف بهم ربَّما استدركَ ما فاته من الطاعات ، وإن لم يستدركْ شفعوا فيه عند الله تعالىٰ ؛ لأنهم أهلُ الفتوة) .

وكان يقول : (الدنيا حرامٌ على الصفوة من خلق الله ، فلا يتناولون منها إلا بقدر الضرورة) .

وكان يقول : (إذا قامَ العبدُ بما يجبُ لله تعالىٰ عليه قام الله بما يجب عليه من الحقوق ، ومن طلبَ من الله كثيراً من الدنيا طالبه بكثيرٍ من العمل ، ومن قنعَ من الدنيا باليسير رضيَ الله منه بقليل العمل) .

وكان يقول : (من لم يكن مطعمُهُ حلالاً لم يُكشف عنه حجابٌ ، وترادفت عليه العقوباتُ ، ولم تنفعه صلاةٌ ولا صيام ولا صدقة) .

وكان يقول : (أعظمُ ما يحجبُ به العبدُ عن مشاهدة الملكوت ، وعن دخول حضرة الله عز وجل . . سوءُ المطعم ، وأذى الخلق) .

وكان يقول : (ما دامتِ النفسُ تشتهي المعصيةَ فلا يصلُ إلى القلب شيءٌ من نور الطاعات ، فأدِّبوا نفوسَكم بالجوع والعطش ، فإذا صارتْ لا تُريد منكم معصيةً فأطعموها ما شاءت ، ودعوها تنامُ من الليل ما أحبَّت) .

وسئل مرةً عن الذي يجوع أياماً ولا يأكلُ طعاماً أين يذهبُ لهبُ جوعه ؟ فقال : يُطفئه نورُ القلب .

وكان يقول : (حياةُ القلوب التي تموتُ بذكر الحيِّ الذي لا يموت) .

وكان يقول : (من علامةِ المؤمن الكامل ألا يخافَ من أحدٍ دون الله)

وكان يقول : (خيارُ الناس العلماءُ العاملون المخلصون إلى الموت) .

وكان يقول : (سامحوا الكفارَ وفسقة المسلمين الذين يقعون في غيبةِ الناس ما استطعتم ؛ فإنهم ليس لهم أعمالٌ تخلص إلى الآخرةِ[١] ، أو تكفي أخصامَهم حتىٰ يفضلَ لكم شيءٌ من أعمالهم تأخذوه ، وأمسكوا على العلماء العاملين وصالحي المؤمنين ، ولا تسامحوهم في كلمةٍ واحدة تنفعهم في دار الدنيا ، وإن لم تسامحوهم وجدتم معهم في الآخرة أعمالاً تأخذوا منها حقَّكم) ، والله أعلم .

ومنهم :

(١٥٠) أبو سليمان عبد الرحمـٰن بن عَطية الدَّاراني رضي الله عنه[٢]

وداريا قريةٌ من قرىٰ دمشق ، من بني عنس .

وكان كبيرَ الشأن في علوم الحقائق ، وفي شدَّةِ الورع .

---

(١) في (أ ، ز) : (تصلح) بدل (تخلص) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣١٥) (١٥٢) .

مات سنة خمسَ عشرة ومئتين .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا ينبغي لفقيرٍ أن يزيدَ في نظافة ثوبه على نظافة قلبه ؛ ليشاكلَ ظاهرُهُ باطنَهُ) .

وكان يقول : (ليتَ قلبي في القلوب مثلُ ثوبي في الثياب) ، قال ابن أبي الحواري : (وكانت ثيابُهُ وسطاً) .

وكان يقول : (من صارعَ الدنيا صرعته ، وإذا سكنتِ الدنيا في قلبٍ ترحَّلتْ منه الآخرةُ) .

وقال أحمد بن أبي الحواري : قلتُ لأبي سُليمان الداراني : إني صلَّيت أمس صلاةً في خلوةٍ ، فرأيت لها لذَّةً ، فقال : وأيُّ شيءٍ ألذَّك منها ؟ فقلت : كونه لم يرني أحد ، فقال : يا أحمد ، إنك لضعيف حيث خطرَ بقلبك ذكرُ الخلق .

وكان أبو سليمان يقول : (أقربُ ما يتقرَّبُ به العبد إلى الله أن يطَّلعَ تعالىٰ علىٰ قلبه ، فيراه لا يُريدُ أحداً غيرَهُ في الدارين) .

وكان يقول : (الدنيا تطلبُ الهاربَ منها ، وتهربُ من الطالب لها ، فإن أدركتِ الهاربَ منها جرحته ، وإن أدركها الطالبُ لها قتلته) .

وكان يقول : (إنما يُعجَبُ بعمله الذي يرىٰ له شركةً حقيقةً مع الله في الفعل ، أما الذي يرىٰ نفسَهُ مستعملاً بقدرة الله لا بقدرته فلا عُجْبَ عنده) .

وكان يقول : (لو اجتمعَ الناسُ علىٰ أن يضعوني كاتِّضاعي عند نفسي ما قدروا عليه ، ومن رأىٰ لنفسِهِ قيمةً لم يجدْ حلاوةَ الخدمة)

وكان يقول : (إنِّي لآكلُ من الشُّبهة ، فأجدُ راناً علىٰ قلبي من الجمعة إلى الجمعة ، فكيف بفقراءِ زماننا هـٰذا الذين يعدُّون شبعَ بطونهم من أيِّ شيءٍ وجدوه غنيمة ؟!) .

وكان يقول : (إن اللهَ ربَّما يفتحُ على العارف من الأخلاق المحمودة علىٰ فراشه ما لا يفتحه عليه وهو قائمٌ يُصلي) .

وكان أحمد بنُ أبي الحواري يقول : قال لي أبو سليمان : يا أحمد ؛ من أكل طعامَ

أخيه ليسرَّهُ بأكله لم يضرُّهُ ؛ وذلك لأن لكلِّ شيءٍ أُريدَ به وجهُ اللهِ عاقبةً حميدةً) .

وكان يقول : (من صَغُرَ المؤمنُ في عينه استخفَّ بحرمته ، ومن لم ينسَ ذكرَ كلِّ شيءٍ في حال ذكره لله لم يجد لذكرِه صفوةً) .

وكان يقول : (إذا أردتَ قضاءَ حاجةٍ من حوائج الدنيا أو الآخرة فعليك بالجوع ، ثم اسأل ؛ فإن الأكلَ يغيِّرُ العقل ، ويحجبُ القلبَ عن مشاهدة الربِّ) .

ورئي رضي الله عنه بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، وما كان عليَّ شيءٌ أضرَّ من إشارات القوم ؛ أي : لما فيها من الانفرادِ عن الأقران ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٥١) الفتح بنُ سعيد الموصلي رضي الله عنه[١]

كان من أقران بشر بنِ الحارث ، والسَّري السَّقَطي .

وكان كبيرَ الشأن في باب الورع والمعاملات

ومن كلامه رضي الله عنه : (من لازمَ ذكرَ الله تعالىٰ بقلبه أورثَهُ ذلك الفرحَ بالمحبوب ، ومن آثره علىٰ سواه وهواه أورثه ذلك حبَّهُ إياه ، ومن اشتاق إلى الله لا تقرُّ عينُهُ بسواه) .

وكان يقول : (إذا مُنع القلبُ الذكر مات ، كما أنَّ من مُنع من الطعام والشراب مات) .

وقيل للمُعافى بن عمران : هل كان الفتحُ الموصلي كثيرَ عملٍ ؟ فقال : كفاك من عمله تركُهُ للدنيا ؛ فإن من أحبَّ الدنيا لا ينفعه كثيرُ عملٍ ، ولو صار علىٰ عبادة الثقلين

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣١٧) (١٥٣) .

ومنهم :

(١٥٢) أبو عبد الرحمـٰن حاتم بن عُنْوان الأصم رضي الله عنه[١]

كان من قدماء المشايخ بخراسان ، وأصله من بلخ .

صحب شقيقاً البلخي ، وهو أستاذُ أحمد بن خضرويه .

مات بواشَجَرْد سنة سبعٍ وثلاثين ومئتين ، ودفن عند رِباط يقال له : سَرُوند[٢] ، فوق جبل فوق واشَجَرْد ، بالجيم .

وكان يقول : (إذا رأيتَ المريد أظهرَ غيرَ مُرادِ شيخه فقد أظهرَ نذالتَهُ[٣] ، وقد مُكر به) .

وكان يقول : (من ادَّعىٰ ثلاثاً بغير ثلاثٍ فهو كذاب : من ادَّعىٰ خشيةَ الله من غير تورُّعٍ عن محارمه فهو كذاب ، ومن ادَّعىٰ حبَّ الجنة من غير إنفاق ماله في طاعة الله فهو كذاب ، ومن ادَّعىٰ محبَّة النبيِّ صلى الله عليه وسلم من غير محبَّة الفقراء فهو كذاب) .

وأرسل عصام بن يوسف مرةً إلىٰ حاتم شيئاً ، فقبله علىٰ خلاف عادته ، وعدم قبول ما يأتي من الولاة ، فقيل له في ذلك ، فقال : رأيتُ في قبوله ذلَّ نفسي ، وفي ردِّه عزَّها .

وكان يقول : مررتُ براهبٍ ، فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من بلخ ، فقال : من كنتَ تُجالس ؟ فقلتُ : كنتُ أجالس شقيقاً البلخي ، فقال : أيش سمعته يقول ؟ فقلت : سمعته يقول : لو أنَّ السماءَ كانت من نحاس ، والأرضَ من حديد ، فلا السماءُ تمطر قطرةً ، ولا الأرضُ تنبت حبةً ، وكان عيالي ملءَ ما بين الخافقين . . لم أُبالِ ، فقال الراهب : هـٰذا رجلُ سوء ، لا ينبغي الجلوس إليه ، قلت له : لِمَ ؟!

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣١٧) (١٥٤) .
(٢) في « طبقات الصوفية » (ص٩١) : (رأس سروند) .
(٣) في (أ ، ج ، ز ، ي ، ك) : (بذالته) .

فقال : لأنه تفكَّر فيما لم يكن كيف لو كان ، إنما ينبغي له أن يفكِّر فيما كان كيف كان ؛ لا تجالسْهُ ؛ فإنه فاسدُ الفكر .

ودخل حاتمٌ مرةً على عالمٍ ببلده[1] ، فرأىٰ داراً واسعة ، وأمتعةً كثيرة ، وغلماناً واقفين بين يديه ، فقال : لا فرقَ بينكم يا علماء السوء وبين أهل الدنيا المُتكالبين عليها ، واللهِ ؛ إنكم فتنةٌ وفساد لمن اقتدىٰ بكم من العامة ، ثم قال حاتم لذلك العالم : أريدُ أن تعلِّمني الوضوء ، فقال له العالم : توضَّأْ وأنا أنظر ، فغسلَ حاتمٌ ثلاثاً في المضمضة والاستنشاق ، فلما جاءَ إلىٰ غسلِ اليد اليسرىٰ غسلها أربعاً ، فقال العالم : أسرفتَ في غسل ذراعك أربعاً ؛ واللهُ لا يحبُّ المسرفين ، فقال حاتم : سبحان الله ! تُنكر عليَّ الإسراف في كفِّ ماءٍ ، ولا تُنكر علىٰ نفسك في هـٰذه الدور والمساكن والفُرش والأطعمة والملابس ؟! فعلم العالمُ أنَّ حاتماً إنما قصد بتعليمه الوضوء هـٰذه القضية ، فتنبَّه العالمُ لنقص حاله ، وتاب إلى الله تعالىٰ ، وخرج من داره ، وتصدَّق بجميع أمتعته ، ولحق بالفقراء .

ومنهم :

(١٥٣) أبو زكريا يحيى بنُ معاذ الواعظُ الرازي رضي الله عنه[2]

كان أوحدَ وقته في زمانه ، وله كلامٌ عالٍ في الرَّجاء وفي المعرفة .

أقام ببلخ مدَّةً ، ثم عادَ إلىٰ نيسابور ، **ومات بها سنة ثمانٍ وخمسين ومئتين** .

ومن كلامه رضي الله عنه : (كيف يكونُ زاهداً من لا ورع عنده ؟! تورَّعْ عمَّا ليس لك ، ثم ازهدْ فيما هو لك) .

وكان يقول : (علىٰ قدر شغلك بالله يشتغلُ في أمرك الخلقُ ، وإذا اشتغلوا بذمِّك فإنما ذلك تنبيهٌ لك من الله ؛ لترجع إليه) .

وكان يقول : (جميعُ نعيم الدنيا من أولها إلىٰ آخرها لا يُساوي غمَّ ساعة ،

---

(١) هو محمد بن مقاتل . انظر « الطبقات الكبرىٰ » (١/١٣٨) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٣١٩) (١٥٥) .

فكيف تغتمُّ عمركَ فيها مع قلَّة نصيبك منها ؟!) .

وكان يقول : (الزاهدون غرباءُ في الدنيا ، والعارفون غرباءُ في الآخرة)

وكان يقول : (اجتنبوا معاشرةَ ثلاث : العلماء الغافلين ، والقراء المُداهنين ، والمتصوفة الجاهلين) .

وكان يقول : (من لم ينتفعْ بأفعال شيخه لم ينتفعْ بأقواله) .

وكان يقول : (لا يزال العبدُ متمزِّقاً ما دام قلبه بالدنيا متعلقاً) .

وكان يقول : (الجوعُ نورٌ ، والشبعُ نار ، والشهوةُ الحطبُ يتولَّدُ منه الإحراقُ ، فلا ينطفئ حتىٰ يحرقَ صاحبه) .

وكان يقول : (لبس الصوف حانوتٌ ، والكلام في الزهد حرفة) .

وكان يقول : (من شرط الولي : ألا يُرائي ، ولا يُداهن ، ولا ينافق ، وما أقلَّ صديق مَنْ كان هـٰذا خلقه) .

وكان يقول : (الوليُّ ريحانُ الله في الأرض ، يشمُّهُ الصدِّيقون ، فتصل رائحتُهُ إلىٰ قلوبهم ، فيشتاقون به إلىٰ مولاهم ، ويزدادون به إقبالاً على الله) .

وكان يقول : (بئس الأخُ أخ يَحتاجُ أن يَقولَ له أخوه : ادعُ لي ، وبئس الأخُ أخٌ تحتاج أن تعتذرَ إليه عند زلَّتك أو إخلالك بحقِّه) .

وكان يقول : (العلماءُ العاملون أرأفُ بأمَّة محمد صلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتِهم ؛ وذلك لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا ، والعلماءُ يحفظونهم من نار الآخرة) .

وكان يقول : (من صحبَ الأولياء بصدقٍ ألهاه ذلك عن أهله وماله ، وعن جميع أشغاله ، فإذا صحَّ له هـٰذا المقام فهناك يترقَّىٰ إلىٰ مقام الاشتغال بالله عز وجل ، ومن لم يصحَّ له هـٰذا الاشتغال مع الأولياء لا يَشَمُّ من الاشتغال بالله رائحةً) .

وكان يقول : (الناسُ يحتاجون إلى العلماء في الجنة كما يحتاجونُ إليهم في الدنيا ؛ وذلك أنه يقال للعامة : تمنَّوا ، فلا يَدرون ما يتمنون ، فيقولون : ارجعوا بنا

إلىٰ أهل العلم فنسألهم ، فيكون ذلك من تمامِ مكرمةِ أهل العلم في الجنة) .

وكان يقول : (إياكم والركونَ إلى الإقامة في دار الدنيا ؛ فإنها دارُ ممرٍّ لا دار مقر ، الزادُ منها ، والمقيلُ في غيرها) .

وكان يقول : (لو أن شخصاً بلغ من العلم كما بلغَ ابنُ عباس ، وهو محبٌّ للدنيا . لنَهينا الناسَ عن مجالسته ؛ فإنه لا ينصحُكَ من خان نفسَهُ) .

وكان يقول : (مثلُ العلماء العاملين مثلُ الصياد ؛ لأنهم يصطادون المريدين من أفواه الشياطين ، ولو لم يصدِ العالمُ منهم طولَ عمره إلا واحداً لكان خيراً كثيراً) .

وكان يقول : (طلب الزهد فراراً من مشقة الأعمال الشاقة بطالةٌ ، ولبس الصوف من غير إماتة النفس جهالةٌ ، وترك المكاسب مع الحاجة إليها كسلٌ ، والكسبُ مع وجود الاستغناء عنه كلفةٌ ، والصبرُ على العزلة وقلَّة الاشتياق إلىٰ لقاء الناس من علامة سلوك الطريق ، والتعبُّدُ مع تضييع العيال جهلٌ) .

وكان يقول : (كم بين من يُريد الحضور للوليمة لأجلِ الطعام وبين من يُريد الوليمة لأجل لقاء الحبيب في الوليمة !) .

وكان يقول : (من شرط **الصدِّيقين** : محاربتُهم لنفوسهم مع الخطرات ، ومن شرط الأبدال : محاربتُهم لنفوسهم مع الفكرات ، ومن شرط الزهَّادِ : محاربتهم لنفوسهم عند كلِّ شهوةٍ ، ومن شرط التائب : محاربتُهُ لنفسه عند كلِّ زلَّةٍ) .

وكان يقول في مناجاته : (إلـٰهي ، إني لا أقوىٰ علىٰ شروط التوبة التي أَمرتني بها ؛ فاغفرْ لي بلا توبة) .

وكان يقول : (لا يكونُ العالمُ حكيماً حتىٰ يلحظَ النساء بعين الشفقة لا بعين الشهوة) .

وكان يقول : (جالسوا الذاكرين ؛ فإنهم ملازمون بابَ الملك) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٥٤) أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي رضي الله عنه[١]

هو من كبار مشايخ خراسان .

صحب أبا تراب النَّخْشَبي ، وحاتماً الأصم ، ورحلَ إلىٰ أبي يزيد البِسطامي ، ورأىٰ أبا حفص الحداد ، وهو من المشهورين بالفتوة .

مات سنة أربعين ومئتين ، رضي الله عنه .

ومن كلامه : (الوليُّ لا يُوسم نفسَهُ بسيما ، ولا يكون له اسمٌ يتسمَّىٰ به غير العبد) .

وكان يقول : (من صبرَ على الصبر فهو الصابر) .

وكان يقول : (بلغني أنَّ شخصاً من الأغنياء طلبَ زيارةَ شخصٍ من الزهاد ، فدخل عليه ، فرآه يفطرُ علىٰ خبزِ الشعير والملح في رمضان ، فرجع التاجر إلىٰ داره ، وأرسل للزاهدِ ألفَ دينار ، فردَّها ، وقال لغلامه : هـٰذا جزاءُ من أفشىٰ سرَّهُ علىٰ مثلك ، الفقراءُ إنما يزهدون في مطاعم الدنيا اختياراً لما يجدونه في قلوبهم من الرقَّة والنور عند عدم الشهوات) ، والله أعلم

ومنهم :

(١٥٥) أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه[٢]

واسم أبي الحواري ميمون ، من أهل دمشق .

صحب أبا سليمان الداراني ، وسُفيان بن عُيينة ، وجماعةً من المشايخ .

مات سنة ثلاث ومئتين[٣]

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٢٢) (١٥٦) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٢٢) (١٥٧) .

(٣) كذا في النسخ ، وعند القشيري في « رسالته » (ص ١٤٢) أنه توفي سنة (٢٣٠هـ) ، وقال=

وكان الجُنيد يقول : (أحمد بن أبي الحواري ريحانةُ الشام)

ومن كلامه رضي الله عنه : (الدنيا مزبلةٌ ومجمعُ الكلاب ، وأقلُّ من الكلاب من عكف عليها وخاصمَ الناس عليها ؛ فإن الكلبَ يأخذ منها حاجته وينصرف ، والمحبُّ للدنيا لا يتركها بحالٍ ، وكلما ازداد منها ازدادَ فقراً إليها) .

وكان يقول : (علَّمني الخضر عليه السلام رقيةً للوجع ، فقال : إذا أصابك وجعٌ ، فضعْ يدك على الموضع ، وقل : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء : ١٠٥] فلم أزلْ أقولُها على الوجع ، فيذهب لساعته) .

وكان إذا اطَّلع أحدٌ على أخلاقه الحسنة لغيرِ اقتداءٍ يلومُ نفسه ويقول : (إنما ظهرتْ محاسنك للناس ؛ لكثرةِ غفلتك عن نفسك بالدنيا) ، والله تعالى أعلم .

ومنهم :

(١٥٦) أبو حفص عمر بنُ سالم الحداد النيسابوري رضي الله عنه[١]

من قرية يقال لها كُورْداباذ بباب مدينة نيسابور على طريق بُخارى .

صحب عُبيد الله المهدي ، والنَّصراباذي[٢] ، ورافق أحمد بن خضرويه البلخي ، وإليه ينتمي شاه بنُ شجاع الكرماني .

وكان أحدَ الأئمة السادة ومن كبار المشايخ المُشار إليهم .

مات سنة سبعين ومئتين .

وكان إذا ذُكر الله يتغيَّر عليه الحالُ حتى لا يكادُ يَعرفُ أحداً من الخلق .

= المزي في « تهذيب الكمال » (١/ ٣٧٤) : قال أبو زرعة : (ومات أحمد بن أبي الحواري مدخل رجب سنة ست وأربعين ومئتين) .

(١) كذا في النسخ : (عمر بن سالم) ، وعند السلمي في « طبقاته » (ص ١١٥) : (**واسمه** : عمرو بن سلم ، ويقال : عمر بن سلمة ، وهو الأصح إن شاء الله) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (١/ ٣٢٣) (١٥٨) .

(٢) **والمراد به** : علياً النصراباذي ، كما ذكر ذلك السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١١٥) .

وكان من أكرم الصوفية ، فقيل له في ذلك ، فقال : من هوانِ الدنيا عندي : أني لا أبخلُ بها على أحدٍ .

وقيل له مرةً : إن فلاناً من أصحابك يدورُ حول السماع ، فإذا سمع بكىٰ وصاح ومزَّقَ ثيابه ، فقال : أيشٍ يعملُ الضعيف ؟! هو مثلُ الغريق يتعلَّقُ بكلِّ شيءٍ يظنُّ فيه نجاته .

وكان يقول : (حرستُ قلبي عشرين سنة ، [ثم حرسني قلبي عشرين سنة][1] ثم وردَ عليَّ بعد ذلك حالةٌ أخرىٰ صرنا جميعاً محروسَيْنِ .

وكان يقول : (ما استحقَّ اسم السخي من ذكر العطاءَ ، ولمَحَهُ بقلبه) .

وسئل مرة : ما علامة الولي ؟ قال : هو أن يؤيَّد بالكرامات ، ويغيبُ عن البدع .

وسئل مرَّةً عن أدب الفقير ، فقال : أدبُهُ حفظُ حرمات المشايخ ، وحسنُ العشرة مع الإخوان ، والنصيحةُ للأصاغر ، وتركُ الخصومات في الإرفاق ، وملازمةُ الإيثار ، ومجانبةُ الادِّخار ، وتركُ صحبة من لا يحبُّ طريق الفقراء ، ومعاونةُ الإخوان في أمرِ دنياهم وآخرتهم ، فكلُّ من ادَّعىٰ أنه فقيرٌ فليعرضْ هـٰذه الصفات علىٰ نفسه ، فإن وفىٰ بها فهو فقير .

وكان يقول : (قد دخل فسادُ الأحوال من ثلاثة أشياء : تبسُّطُ[2] العارفين في المآكل والملابس والمناكح ، وخيانةُ المحبِّين ، وكذب المريدين) .

وقال أبو عثمان الحيري في شرح ذلك : (فسق العارفين : إطلاقُ الطرف واللسان والسمع إلىٰ أسباب الدنيا ولذَّاتها ، وكذب المريدين : أن يكونَ ذكرُ الخلق وشهودُهم أغلبَ علىٰ قلوبهم من ذكر الله ومشاهدته ، وخيانة المحبين : اختيارُ أهوائهم علىٰ مرضات الله عز وجل) .

وكان يقول : (إذا رأيت ضوءَ الفقير في ثيابه فلا ترجُ خيرَه) والله أعلم .

---

(١) ما بين معقوفين ليس في النسخ ، وأثبت من « طبقات الصوفية » (ص ١١٩) .

(٢) كذا في النسخ (تبسط) وفي « الكبرىٰ » (١/ ٣٢٤) : (فسق) ، وهو الأنسب ليوافق ما بعده .

ومنهم :

(١٥٧) أبو تُراب عسكر بن الحسين النَّخْشبي رضي الله عنه(١)

صحب حاتماً الأصم ، وأبا حاتم العطار .

وهو من جملة مشايخ خراسان وكبارهم المشهورين بالعلم والزهد والفتوة والتوكل .

مات رضي الله عنه بالبادية ، فنهشته السباعُ سنة خمسٍ وأربعين ومئتين .

ومن كلامه رضي الله عنه : (إن الله تعالىٰ ينطقُ علىٰ لسان علماء كلِّ زمان بما يُشاكلُ حال أهل ذلك الزمان وعملهم) .

وكان يقول : (من أشغلَ مشغولاً بالله عن الله أدركه المقتُ في الوقت) .

وكان يقول : (لا أعلمُ شيئاً أضرَّ على المريد من مسافرته في هوىٰ نفسه بغير إذنِ أستاذه ، وعشرته للأضداد) .

وكان يقول : (من أدبِ العارف : ألا يضيفَ إلىٰ نفسه شيئاً من المال ، ألا ترىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السلام حيث قال : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ [طه : ١٨] وادَّعى الملكَ لها كيف قال له الحق : ﴿ أَلْقِهَا ﴾ ؟! فلما قلبتْ عينُها لجأ وهرب ، فقيل له : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ [طه : ٢١]) .

وكان رضي الله عنه يقول : رأيتُ رجلاً بالبادية ، فقلتُ له : من أنت ؟ فقال : أنا الخضرُ الموكَّل بالأولياء ، أردُّ قلوبَهم إذا شردتْ عن حضرةِ الله تعالىٰ ، يا أبا تراب ، التلفُ في أول قدمٍ ، والنجاةُ في آخر قدم .

وكان أبو تراب يقول : (إذا ألفَ القلبُ الإعراضَ عن الله صحبته الوقيعةُ في أولياء الله ؛ لأن العبدَ إذا أقبل على الله عرفَ أهلَ حضرته ، وإذا أدبرَ عنها جهلهم) ، والله تعالىٰ أعلم .

---

(١) كذا في النسخ : (عسكر بن الحسين) ، وفي مصادر ترجمته : (عسكر بن الحصين) ، وقد تقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٢٥) (١٥٩) .

ومنهم :

(١٥٨) أبو محمد عبد الله بن خُبَيْق الأنطاكي رضي الله عنه[١]

صحب يوسف بنَ أسباط .

وهو من زهَّاد الصوفية الأكياس في أكل الحلال ، وتحقيق المقامات .

أصله من الكوفة .

وطريقُهُ في التصوف طريقةُ سفيان الثوري ؛ فإنه صحب أصحابه .

ومن كلامه رضي الله عنه : (إذا دنا حاملُ القرآن من المعصية ناداه القرآنُ من صدره : واللهِ ؛ ما لهٰذا حملتني ، فلو أنَّ العاصي سمعَ ذلك الصوت لخرَّ مغشياً عليه ، وترك المعصية) .

وكان يقول : (بلغنا : أن حبراً من أحبار بني إسرائيل كان يقول : يا ربِّ ؛ كم أعصيك ولا تعاقبني ؟! فأوحى الله إلىٰ نبيٍّ ذلك الزمان : قل لفلان : كم أُعاقبُك وأنت لا تدري ؟! ألم أسلبْك حلاوةَ مناجاتي ؟! ألم أجعلْك لا ترجو إجابةَ دعائك ؟! ألم ، ألم . . . إلىٰ آخره) .

وكان يقول : (أنت لا تُطيع من يُحسن إليك وهو الله ، فكيف تطلبُ طاعةَ من لا تُحسن إليه ، فضلاً عن كونك تسيءُ إليه ؟!) .

ومنهم :

(١٥٩) أبو علي أحمد بن عاصم الأنطاكي رضي الله عنه[٢]

هو من أقران بشر بن الحارث الحافي ، والسريِّ السقطي ، والحارثِ المحاسبي .

وكان أبو سليمان الداراني يُسمِّيه جاسوسَ القلوب ؛ لحدَّةِ فِراسته .

---

(١) ترددت النسخ بين (جنيق) وبين (جبيق) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وقد تقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٢٦) (١٦٠) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٢٧) (١٦١) .

وكان يقول : واللهِ ؛ ما كنتُ أظنُّ أني أعيش إلىٰ زمانٍ يصيرُ فيه الإسلام غريباً عند العلماء فضلاً عن العامة ، فقيل له : وما ذاك ؟ فقال : لا ترغبُ في محبة عالمٍ إلا وتجدُهُ مفتوناً بحبِّ الدنيا[1] ، وحبِّ الرئاسة والتعظيم ، آكلاً بعلمه الدنيا ، ولا ترغبُ في محبَّة عابدٍ معتزلٍ في جبل إلا وتجدُه مفتوناً جاهلاً بالله ، مغترّاً به ، معتمداً علىٰ أعماله ، مخدوعاً لنفسه أو لإبليس ، واللهِ ؛ إن علماءَ زماننا وعُبَّادَهُ قد صاروا سباعاً ضاريةً ، وذئاباً مختلسة . فهٰذا وصفُ عُبَّاد ذلك الزمان وعلمائه .

وكان يقول : إذا جالستم الفقراء من أهلِ الصدق فجالسوهم بالصدق ؛ فإنهم جواسيسُ القلوب ، يدخلون في قلوبكم ويخرجون وأنتم لا تشعرون ، فقيل له : ومن هم أهل الصدق : فقال : مَنْ آثرَ الخمول على الصيت ، وأحبَّ ألا يُعرف ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٦٠) منصور بن عمَّار الواعظ رضي الله عنه[2]

هو من أهل مرو ، أقام بالبصرة

وكان من كُمَّل العارفين ، كبيرَ الشأن في باب التقلُّل والورع .

وكان يقول : (إذا أراد الشيطانُ أن يسخرَ برجلٍ جعله ينقلُ النميمة ؛ فإنه لو كان يهابُهُ ما جعله يحملُ هٰذه القاذورات التي تُسخط الله عليه) .

وكان يقول : (سبحان مَنْ جعلَ قلوب العارفين أوعيةً للذكر ، وقلوبَ أهل الدنيا أوعيةً للطمع ، وقلوب الفقراء أوعيةً للقناعة !) .

وكان يقول : (عجباً لهٰؤلاء القراء كيف يَهجرون أخاهم بسبب زلَّةٍ وقع فيها سنين كثيرة ! ولا يرون أنه تابَ عقبها ، ثم إنهم إذا رأوا ظالماً يأخذُ مالاً بغيرِ حقٍّ ثم يَتوارىٰ

---

(١) في (ز) : (في صحبة) بدل (في محبة) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٢٧) (١٦٢) .

بجدارٍ ، ثم يُعطيه لهم . . يقولون : هو حلال ، ويحتملُ أن يكونَ أبدله بغيره ، فلا يقولون إنَّ صاحب تلك الزلَّة تابَ بعد ذلك ، والقاعدةُ واحدة) ، والله أعلم .

ومنهم :

(١٦١) حمدون بن أحمد القصار النيسابوري رضي الله عنه[١]

هو شيخُ الملامتية بنيسابور ، ومنه انتشر مذهبُهم .

وصحب أبا تُراب النَّخْشبي ، والنصراباذي .

وكان فقيهاً عالماً يذهبُ مذهبَ سفيان الثوري .

وكان عبد الله بنُ مبارك من أجلِّ أصحابه في أخذ طريقته على التمام .

مات حمدون سنة إحدىٰ وسبعين ومئتين بنيسابور ، ودفن في مقبرةِ الحيرة .

وكان يقول : (من ظنَّ أنَّ نفسه خيرٌ من فرعون فقد أظهرَ الكِبر) .

وكان يقول : (لا تخلُّوا أنفسَكم من مطالعة أحوال السلف ؛ فإنكم لا تعرفون تقصيركم إلا بذلك) .

وقيل له مرةً : ما لنا نرىٰ كلامَ السلف يؤثِّر فينا أكثرَ من كلام أهل زماننا ؟ فقال : لأنَّ السلفَ إنما تكلَّموا لعزِّ الإسلام ، ونجاةِ النفوس ، ورضا الرحمـٰن ، ونحن نتكلَّمُ لعزِّ النفوس ، وطلبِ الدنيا ، وحبِّ الرئاسة على العباد .

وكان يقول لعلماء زمانه : أنتم نقلةُ العلم لا واعوه ، فإذا أشكلَ عليكم شيءٌ منه فاسألوا عنه واعوه ، وهم الصوفية ، يُزيلوا عنكم إشكاله ، لـٰكن لا تسألوهم إلا ببذلِ النفس ، والاعترافِ بالجهل ، واعتقادِ أنهم أعلمُ منكم ؛ فإنهم أهلُ الحكمة ، ومن لم يتأدَّبْ معهم لا يُعلِّمونه الحكمة ، وإنما يكتمونها عنه خوفاً أن يظلموها) .

وكان يقول : (جمالُ الفقراء في التواضع ، فإذا تكبَّروا صاروا أسوأَ حالاً من الأغنياء) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٢٨) (١٦٣) .

وكان يقول : (أحسنُ الصحابة صحابةُ الصوفية ؛ لأن للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير ، وليس للحَسَنِ عندهم كبيرُ موقعٍ يعظِّمون العبد به) ، والله أعلم .

ومنهم :

(١٦٢) أبو الحسن المقرئ رضي الله عنه[١]

كان يقول : (لو أنَّ حامل القرآن عمل بالقرآن ما أحرقتْهُ نارُ الدنيا أبداً ، فمن ادَّعىٰ أنه قد عمل بالقرآن فأمروه أن يجلسَ في النار ؛ فإن لم تحرقْه فهو صادقٌ) .

وكان يقول : (يقبحُ علىٰ قارئ القرآن أن يَعصي الله مرةً في عمره كلِّهِ ، فكيف بمن تتكرَّرُ منه المعاصي كلَّ يوم ؟!) .

وكان يقول : (من أعظم الكبائر فسادُ العلماء ، ومن أعظمِ المصائب زنى القراء) .

وكان يقول : (يأتي القرآن يوم القيامة في أحسنِ صورة ، وحوله المخلصون كأنهم الجمال البُخت ، ويدور حوله قومٌ آخرون ، فيقول لهم : سحقاً سحقاً ، أضعتموني في الدنيا ، فلا تصحبوني في الآخرة) والله أعلم

ومنهم :

(١٦٣) أبو عثمان الحيري النيسابوري رضي الله عنه[٢]

أصله من الرَّي .

صحب قديماً يحيى بنَ معاذ الرازي ، وشاه بنَ شجاع الكرماني ، ثم رحل إلىٰ نيسابور قاصداً أبا حفص الحداد ، فزوَّجه ابنتَهُ ، وأخذ عنه طريقته .

وكان أوحدَ أهل زمانه في سيرته ، ومنه انتشرتْ طريقة التصوف بنيسابور .

مات سنة ثمانٍ وتسعين ومئتين بنيسابور .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٢٩) (١٦٤) ، و(٢/ ٥٣١) (٤٥٥) ، (٤) (٤٧٤) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٣٦) (١٦٧) .

ومن كلامه رضي الله عنه : (لا يكملُ الرجلُ عندنا حتىٰ يستوي في قلبه أربعةُ أشياء : المنعُ ، والعطاءُ ، والذلُّ ، والعزُّ) .

وكان يقول : (صحبتُ أبا حفص الحداد وأنا شابٌ فطردني مرة وقال : لا تجلسْ عندي ، فقمت ، ولم أولِّ ظهري أدباً معه ، وانصرفتُ إلىٰ ورائي ، ووجهي إلىٰ وجهه حتىٰ غبتُ عنه ، وعزمت أني أحفرُ لي علىٰ بابه حُفيرةً لا أخرج منها إلا بأمره ، فلما رأىٰ مني رائحةَ هـٰذا الأدب أدناني ، وجعلني من خواصِّ أصحابه) .

وكان يقول : (أصلُ العداوة ثلاثةُ أشياء : الطمعُ في مال الناس ، وفي إكرامهم ، وفي قبولهم) .

وكان يقول : (الخوفُ من الله يُوصلك إلى الله ، والكِبر والعُجْب في نفسك يقطعانك عن الله تعالىٰ ، واحتقارُك للناس مرضٌ عظيم لا يكادُ يبرأُ منه إلا الخواص)

وكان يقول : (أنت في سجنٍ ما تبعتَ مُرادك ، فإذا فوّضتَ أمرك إلى الله استرحتَ من السجن) .

وكان يقول : (من شرطِ الفقير أن يصحبَ الأغنياء بالتعزُّز ، والفقراءَ بالتذلُّل)

وقيل له : ما طريقُ الفقير في أن يقيمَ العذرَ لمن ظلمه ؟ فقال : طريقُهُ : أن يعلمَ أنَّ الله هو الذي سلَّطه عليه بذنوبه .

وكان يقول : (من صحبَ أولياء الله بالأدب أوصلوه إلى الله وإلىٰ طريقه ، ومن صحبهم بغير أدبٍ لم يوصلوه إلىٰ شيءٍ ؛ بل ربَّما طُرد إلىٰ مزابل الكلاب ، وهي الدنيا) .

وكان يقول : (لا يرىٰ أحدٌ عيبَ نفسه ، وهو يستحسنُ منها شيئاً ، وإنما يرىٰ عيبَ نفسه مَنْ يَستقبح أفعالَها ، ويتَّهمُها في سائر أحوالها)

وكان يقول : (من علامة الزاهد في الدنيا : ألا يُبالي بمن أخذ الدنيا بحذافيرها ، ولا يحسده) .

وكان يقول : (إن الله يُعطي الزاهدَ فوق ما يُريد ، ويُعطي المستقيمَ موافقةَ ما يريد من الخير) .

وكان يقول : (من لم تصحَّ إرادتُهُ لا تزيده الأيامُ إلا إدباراً عن طريق الله ، شاء أم أبىٰ) .

وكان يقول : (إذا صحَّتِ المحبةُ تأكَّدَ عليك ملازمةُ الأدب) .

وكان يقول : (السماعُ علىٰ ثلاثة أقسام :

الأول منها : للمُريدين والمبتدئين يَستدعون بذلك الأحوالَ الشريفة ، ولٰكن يُخشىٰ عليهم مع ذلك الفتنة والمراءاة .

الثاني للصادقين يَطلبون به الزيادةَ في أحوالهم ، ويسمعون من ذلك ما وافقَ أوقاتهم .

الثالث : لأهلِ الاستقامة من العارفين ، وهو حقٌّ في حقٍّ) والله أعلم .

ومنهم :

(١٦٤) أبو الحسين أحمد بن محمد النُّوري رضي الله عنه[١]

بغداديُّ المولد والمنشأ ، يُعرف بابن البغوي .

وكان من جلَّة المشايخ وعلماء القوم ، لم يكن في وقته أحدٌ أحسنَ طريقةً منه ، ولا ألطف كلاماً منه .

صحب السَّريَّ السَّقطي ، وحمدونَ القصار ، وكان من أقران الجُنيد .

مات سنة خمسٍ وتسعين ومئتين .

وكان رضي الله عنه يقول : (أعزُّ الأشياء في زماننا هٰذا شيئان : عالمٌ يعملُ بعلمه ، وعارفٌ ينطق عن حقيقةٍ) .

وكان يقول : (الجمعُ بالحقِّ تفرقةٌ عن غيره ، والتفرقةُ عن غيره جمعٌ به) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٣٨) (١٦٨) .

وكان يقول : (ليس التصوفُ رسوماً ولا علوماً ، وإنما هو أخلاقٌ) .

وكان يقول : (من لم يعرفِ الله تعالىٰ في الدنيا لم يعرفْهُ في الآخرة) .

وكان يقول : (منذ عرفتُ ربِّي ما اشتهيتُ شيئاً قطُّ ، ولا تمنَّيته ، ولا استحسنتُهُ) .

وكان يقول : (من رأيتَهُ يركنُ إلىٰ غير أبناء جنسه فلا تقربنَّ منه ، ومن رأيته يسمعُ القصائدَ ، ويحبُّ الرفاهية فلا ترجُ خيرَهُ ، ومن رأيته غافلَ القلب عند السماع فاتَّهمه في دعواه الفقر) .

وكان يقول : (لكلِّ شيءٍ عقوبةٌ ، وعقوبةُ العارف انقطاعُهُ عن الذكر) .

وكان يقول : (قد صارتِ المعرفةُ في هٰذا الزمان زللاً ، والمعروفُ دَغَلاً[1] ، والصوابُ خطأً ، والودادُ دَخَلاً)[2]

ومرَّ على النوريِّ يوماً أدنانُ خمرٍ للمعتضد ، فكسرها ، فحملوه إلى المعتضد ببغداد ، فقال له المعتضد : من أنت ؟ وكان سيفُهُ قبل كلامه ، فقال : محتسبٌ ، فقال له : من ولاك الحسبة ؟ فقال : الذي ولاك الخلافة ، فأغلظَ القولَ عليه ، وتوعَّده ، فأشاروا على النوريِّ أن يخرجَ إلى البصرة ، فيقيم بها ، فأقام بها إلىٰ أن تُوفي المعتضدُ .

وكان يقول : وقفتُ مرةً علىٰ شيخٍ يُضرب بالسياط ، فعددتُ عليه ألفاً ، وهو ساكتٌ ، فاستحسنتُ صبرَهُ مع كبر سنه ، فلما أُدخل الحبسَ بعد الضرب دخلت عليه ، فسألتُهُ عن صبره مع كِبَر سنِّه ، فقال : يا أخي ، إنما يحملُ البلاءَ الهممُ لا الأجسام .

فقال بعضُهم : وسبب تسمية أحمد بالنُّوريِّ : أنه كان إذا دخلَ مسجدَ الشُّونيزية بطلَ ضوءُ السراج من ضياءِ وجهه ؛ فلذلك سُمِّي النُّوري .

وكان إذا حضرَ مع الفقراء في مكان فيه براغيثُ لا تؤذي البراغيثُ أحداً ببركته رضي الله عنه .

---

(١) الدَّغَل : العيب المفسد للأمر .
(٢) الدَّخَل : الريبة ، والغدر ، والمكر ، والخديعة .

ومنهم :

(١٦٥) أبو عبد الله محمد بن يحيى بن الجلاَّ رضي الله عنه[١]

ويقال : أحمد ، وهو الأصحُّ .

بغداديُّ الأصل ، أقام بالرملةِ ودمشق ، وكان من جلَّةِ المشايخ بالشام .

صحب أباه ، وذا النُّون المصري ، وأبا عُبيد البُسري[٢]

وكان عالماً عاملاً ، كريماً عفيفاً ، وهو أستاذُ محمد بن داود الدُّقِّي .

ومن كلامه رضي الله عنه : (من استوىٰ عنده المدحُ والذم فهو زاهد ، ومن حافظَ على الفرائض في أوَّل وقتها فهو عابد ، ومن رأى الأفعال كلَّها من الله فهو موحِّد) .

وكان يقول : (من غيرةِ الحقِّ : أنه جعلَ الخلق في مفاوز التحيُّرِ في عظمته يركضون ، وفي بحارِ الظنِّ يغرقون ، فمن ظنَّ أنَّه واصلٌ فاصَلَهُ ، ومن ظنَّ أنه فاصلٌ واصَلَهُ ، فلا وصولَ إليه ، ولا مهرب عنه ، ولا بدَّ منه) .

وكان يقول : (من علت هِمَّتُهُ عن الأكوان وصل إلىٰ معرفة مكوِّنها ، ومن التفتَ إلىٰ شيءٍ سوى الحقِّ فاته الحقُّ ؛ لأنه تعالىٰ أعزُّ من أن يَرْضىٰ معه شريكاً) .

وكان يقول : (لو أنَّ رجلاً عصى الله بحضرتي ، ثم توارىٰ عني بجدارٍ . . لم يسعْني من الله أن أعتقدَ عدمَ توبته)

وهـٰذا نظيرُ ما قالوا فيمن أخذ مالاً حراماً ، ثم توارىٰ بجدارٍ ؛ فإنهم قالوا : يحتمل أنه بدَّله ، والله تعالىٰ أعلم .

---

(١) كذا (الجلاَّ) بالقصر ، وفي « القاموس » (ج ل و) : (وابن الجلاَّ : مشددة مقصورة) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٤٠) (١٦٩) .

(٢) في النسخ : (أبا عبد الله) ، والمثبت من مصادر ترجمته .

ومنهم :

(١٦٦) أبو محمد رُويم بنُ أحمد رضي الله عنه[١]

هو بغداديُّ الأصل ، من جلَّة مشايخ بغداد ، وكان فقيهاً علىٰ مذهب داود الأصفهاني ، رضي الله عنه .

مات رضي الله عنه سنة ثلاث وثلاث مئة ، ودفن بالشُّونيزية قريباً من أبي القاسم الجُنيد رضي الله عنه .

ومن كلامه رضي الله عنه : (من عقلِ العاقل ، وحكمةِ الحكيم : أن يوسِّعَ العبدُ علىٰ إخوانه في الأحكام علىٰ حسب ما ورد من التخفيف ، ويضيِّقَ علىٰ نفسه ؛ فإنَّ التوسعةَ على الناس من اتِّباع العلم ، والتضييقَ علىٰ نفسه من حكم الورع) .

وكان لا يعبأُ بالمريد إذا لم يبذلْ روحَه في الطريق ، ويقول : (لا يُنالُ طريقُ أهل الله عز وجل إلا ببذلِ الأرواح ، فمن لم يُمكنْهُ الدخولُ في طريق الله علىٰ هٰذا الشرط فليس له نصيبٌ ، وغايتُهُ زخرفةُ كلام الناس نقلاً بغير ذوق) .

وكان يقول : (من جلسَ مع القومِ وخالفهم في شيءٍ مما يتحقَّقون به نزعَ اللهُ منه نورَ الإيمان) .

وكان يقول : (لا يزالُ الصوفية بخيرٍ ما تنافروا ، فإذا اصطلحوا هلكوا ، وفترتْ همَّتُهم) .

وسئل عن المحبَّة ، فقال : هي الموافقةُ في سائر ما يحبُّ المحبوب ، وأنشد : [من الطويل]

ولوْ قلتَ لي متْ متُّ سمعاً وطاعةً   وقلتُ لداعي الموتِ أهلاً ومرحبا

وقيل له مرة : كيف حالُكَ ؟ فقال : كيف حال من دينُهُ هواه ، وهمَّتُهُ شقاه ، ليس بصالحٍ تقيٍّ ، ولا بعارفٍ نقي .

وكان يقول : (لكلِّ عارفٍ مرآةٌ إذا نظر فيها تجلَّىٰ له مولاه جل وعلا) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٣٤١) (١٧٠) .

وكان يقول : (لي منذ عشرين سنة لم يخطرْ في قلبي ذكرُ الطعام حتىٰ يحضر ، ولي منذ عشرين سنة أُصلِّي الغداةَ بوضوء العشاء الآخرة) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٦٧) أبو عبد الله محمد بنُ الفضل البلخي رضي الله عنه[١]

أصلُه من بلخ ، ولـٰكنه أُخرجَ منها بسبب مذهبه من إجراء آيات الصفات علىٰ ظاهرها من غير تأويلٍ .

وأقامَ بسمرقند ، واستوطنها حتىٰ مات بها سنة تسعَ عشرة وثلاث مئة

كان من كبار مشايخ خُراسان .

وصحب أحمد بنَ خضرويه وغيرَه من المشايخ

ولم يكن أبو عثمان الحيري يميلُ إلىٰ أحدٍ من المشايخ ميلَهُ إليه ، وكان يقول : لو وجدتُ في نفسي قوةً لرحلتُ إلىٰ أخي محمد بنُ الفضل سمسار الرجال .

وكان يقول : (الدنيا هي بطنُك ، فبقدر زهدك في بطنك يكون زهدُك في الدنيا) .

وكان يقول : (العجبُ ممن يقطعُ المفاوزَ والبراري حتىٰ يصلَ إلىٰ مكة ؛ لأن فيها آثارَ الأنبياء كيف لا يقطع نفسَه وهواه ليصلَ إلىٰ قلبه ؛ لأن فيه آثارَ مولاه؟!) .

وكان يقول : (إذا رأيتَ المريدَ في زيادةٍ من أمتعة الدنيا وملابسها . فذلك من علامة إدباره عن الطريق) .

وكان يقول : (من الشقاء : أن يُرزق العبدُ صحبةَ الصالحين ولا يحترمهم) .

ولمَّا أخرجه أهلُ بلخ منها قال لهم : لا أَخرجُ حتىٰ تضعوا في عُنقي حبلاً ، وتُنادوا عليَّ في أزقَّة البلد : إنَّ هـٰذا رجلٌ مبتدعٌ ، نُريد أن نخرجَه من بلدنا ، فلما فعلوا به ذلك ، وخرجَ التفت إليهم وقال : اللهم ؛ امنعْ أهلَ بلخ الصدقَ في حبِّ الطريق ، قالوا : فلم يخرجْ من بلخ بعده صدِّيقٌ أبداً ، مع أنها كانت أكثرَ بلادِ الله صوفيةً ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٤٢) (١٧١)

ومنهم :

(١٦٨) أبو بكر أحمد بنُ نصر الزقَّاق الكبير رضي الله عنه[١]

كان من أقران الجنيد ، ومن كبار مشايخ مصر .

وكان الكتاني يقول : (منذ مات الزَّقاق انقطعتْ حجَّةُ الفقراء في دخولهم مصر) .

وكان رضي الله عنه يقول : (آفةُ المريد في ثلاثةِ أشياء : في التزويج ، وفي كتابةِ العلم بغيرِ فهمٍ ، وفي معاشرة الضدِّ) .

وكان يقول : (لا تصلحُ هـٰذه الطريق إلا لأقوامٍ كنسوا بأرواحهم المزابلَ رضاً منهم واختياراً) .

وكان من أكابرِ المتورِّعين ، حتىٰ قيل مرةً : إنه عطشَ عطشاً شديداً ، فاستقبله جنديٌّ ، فسقاه شربةً من ركوته ، فعادت قساوتُها علىٰ قلبه ثلاثين سنة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٦٩) أبو عبد الله عمرو بنُ عثمان المكي رضي الله عنه[٢]

كان يُنسب إلى الجُنيد في الصحبة .

ولقي أبا عبد الله النِّباجي ، وأبا سعيد الخراز ، وغيرَهما من المشايخ .

وكان شيخَ القوم في وقته وإمامَهم في الأصول والطريقة .

وله كلامٌ حسنٌ ، وروى الحديثَ عن محمد بن إسماعيل البخاري وغيرِه .

مات سنة إحدىٰ وتسعين ومئتين .

وكان رضي الله عنه يقول : (التوبةُ فرضٌ علىٰ جميع المذنبينِ والعاصين ، صَغُرَ الذنبُ أو كبر ، وليس لأحدٍ عذرٌ في تركه التوبةَ) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٤٣) (١٧٢) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٤٤) (١٧٣) .

وكان يقول : (كلَّ ما توهَّمَه قلبُك ، أو سبحَ في مجاري فكرتك ، أو خطر في نفسِك من حسنٍ أو بهاء ، أو نورٍ أو جمال أو أنس ، أو شبحٍ أو شخصٍ أو خيال . . فالله عز وجل بخلاف ذلك كلِّه ، هو أجلُّ وأعظمُ وأكبرُ مما تصل إليه العقولُ السليمة فضلاً عن غيرها) .

وكان يقول في قول الله تعالىٰ عن الكفار : ﴿ آمْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ [صَ : ٦] : (إن في هـٰذه الآية توبيخاً عظيماً لنا إذا تركنا الصبرَ علىٰ مُهمات ديننا ، والصبر على الشدائد التي تَنُوبُنا ؛ أي : فنحن أولىٰ بالصبرِ علىٰ ديننا) .

وحُكي : أنَّ عمرو بنَ عثمان المكيَّ دخل يوماً على الحلاج ، فرآه يكتبُ شيئاً ، فقال : ما هـٰذا ؟ فقال : هـٰذا كلامٌ نزل علىٰ قلبي من الله ، فدعا عليه عمرو بن عثمان بالبلاء ، وهجره . قال الأشياخ : الذي نراه : أنَّ جميعَ ما حلَّ بالحلاج من البلاء كان من دعاءِ عمرو بنِ عثمان عليه ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٧٠) أبو الحسن سمنون بنُ حمزة الخوَّاص رضي الله عنه[(١)]

ابتُليَ بعلَّةِ أسرِ البول ، فلم يصبرْ ، فكان يدورُ على الأطفال في المكاتب ويقول : (ادعوا لِعَمِّكم الكذاب الذي كان يدَّعي الصبرَ على البلاء ، فلم يصبر) .

صحب رضي الله عنه السَّريَّ السَّقَطي وغيرَهُ .

وكان يتكلَّمُ في المحبَّة أحسنَ كلام .

مات بعد الجُنيد علىٰ ما قيل[(٢)]

وسُئل مرَّةً عن المحبة : ما هي ؟ فقال : (لا يُعبَّرُ عن شيءٍ إلا بما هو أرقُّ منه ، ولا شيءَ أرقَّ من المحبة ، فبم يُعبَّرُ عنها ؟!) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٤٥) (١٧٤) .

(٢) كذا في « طبقات السلمي » (ص ١٩٥) ، وعند القشيري في « رسالته » (ص ١٧٠) : (مات قبل الجنيد) ، وكانت وفاة الجنيد سنة (٢٩٧هـ) .

وقال علي بنُ الحسين : (رأيتُ سمنون يوماً جالساً علىٰ شاطئ الدجلة ، وبيده قضيب يضربُ به ساقَه وفخذه ، حتىٰ تبدَّد لحمُه وتناثر ، وهو ينشدُ بصوتٍ شجيٍّ ويقول : [من المديد]

كـانَ لـي قلـبٌ أعيشُ بـهِ ... ضـاعَ منِّـي فـي تقلُّبِـهِ
ربِّ فـارددْهُ علَـيَّ فقـدْ ... عيـلَ صبـرِي فـي تطلُّبِـهِ
وأغِـثْ مـا دامَ لـي رمـقٌ ... يـا غيـاثَ المُستغيـثِ بـهِ

وسُئل مرةً عن التصوف ، فقال : هو ألا تملك شيئاً ، ولا يملكك شيءٌ .

وكان يقول : اجتمعتُ برجلٍ قد نقرَ له خشبةً ، ودار بها في البحر منذ ثلاثين سنة فِراراً من الناس أن يشغلوه عن ربِّهِ عز وجل ، فقلت له : حدِّثني بأعجب ما رأيتَ في البحر ، فقال : هبَّتْ عليَّ في بعض الليالي ريحٌ عظيمة حتىٰ أظلمَ البحرُ ، فداخلني من ذلك وحشةٌ عظيمة ، فطلبتُ من الله شيئاً يُزيلُ تلك الوحشةَ ، وإذا بتنِّينٍ عظيمٍ فاتحٍ فاه ، فألقتني الخشبةُ نحوه ، فدخلتُ في فيه ، وجلستُ علىٰ نابٍ من أنيابه ، وصلَّيتُ ركعتين ، فزالتِ الوحشةُ من قلبي ، وحصل لي أُنسٌ عظيم ، قال : وكان طولُ ذلك التنين مسيرةَ يوم ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٧١) ومنهم أبو عُبيد البُسري رضي الله عنه(١)

هو من كبار المشايخ وقدمائهم ، صحب أبا تُراب النَّخشبي وغيرَه .

وكان له كلامٌ في الحقائق .

ومن كلامه رضي الله عنه : (لا تدخلُ العلَّةُ إلا من الأمْن ، ولا يوجد المزيدُ إلا من الحذر ؛ فإن أقواماً حذروا فسلموا ، وأمِن أقوامٌ فعطبوا) .

وكان يقول : (ذكرُ الله باللِّسان مع الغفلة رياءٌ ، وذكرُهُ مع الحضور إخلاص) .

---

(١) في النسخ : (أبو عبد الله) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وقد تقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٤٦) (١٧٥) .

وكان يقول : (لا يزالُ الذاكرُ يذكرُ اسمَ الله حتىٰ يغلبَ عليه شهودُ أنَّ اللهَ يراه ، ويستصحبُ ذلك على الدوام أبداً ما عاش ، وهـٰذا هو الذكرُ الحقيقي) والله أعلم .

ومنهم :

(١٧٢) أبو علي الحسن بنُ علي الجُوزجاني رضي الله تعالىٰ عنه[1]

كان من أكابر مشايخ خراسان ، وله التصانيفُ المشهورة في علوم الطريق والرياضات والمجاهدات والمعارف .

صحب محمد بنَ علي التِّرمذي الحكيم ، ومحمد بن الفضل البلخي ، وغيرَهما ، رضي الله عنه .

وكان يقول : (من علامة سعادةِ العبدِ : تيسيرُ الطاعات عليه ، وموافقةُ السُّنة في أفعاله وأقواله وعقائده ، ومحبتُهُ لأهل الصلاح ، وحفظُ أخلاقه مع الإخوان ، وبذلُ معروفه للخلق ، واهتمامُهُ بأمر المسلمين ، ومراعاتُهُ لأوقاته ، ومن علامة شقاءِ العبد : أن يكونَ بالضدِّ من ذلك) .

وكان يقول : أصحُّ الطُّرق إلى الله تعالىٰ وأَعمرُها وأبعدُها عن التشبيه : اتِّباعُ السُّنة قولاً وفعلاً ، وعزماً وعقداً ونية ؛ لأن الله تعالىٰ قال : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ يعني : رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ﴿تَهْتَدُواْ﴾ [النور : ٥٤] ، فقيل له : كيف الطريقُ إلى اتِّباع السنة ؟ فقال : مجانبةُ البدع ، واتِّباعُ ما أجمع عليه أهلُ الصدرِ الأول من علماء الإسلام ، والتباعدُ عن مجالس أهل الكلام ، ولزومُ طريقة الاقتداء لمن سبق ، قال الله تعالىٰ : ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل : ١٢٣] .

وكان يقول : (الخلقُ كلُّهم في ميادين الغفلة يركضون ، وعلى الظُّنون يعتمدون ، وعندهم أنهم على الحقيقة يتقلَّبون ، وعن المكاشفة يَنطقون) ، والله تعالىٰ أعلم .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٣٤٦) (١٧٦) .

ومنهم :

(١٧٣) أبو الفوارس شاه بن شجاع الكَرماني رضي الله عنه[١]

كان من أولاد الملوك .

صحب أبا تُراب النَّخْشبي ، وأبا عُبيد البُسري .

وكان من أجلِّ الفتيان ، وعلماء هٰذه الطبقة ، وله رسالاتٌ كثيرة مشهورة .

ومن كلامه رضي الله عنه : (من صحبك ووافقك علىٰ ما تحبُّ ، وخالفك فيما تكره . . فإنما صحبك لهواه ، فهو طالبٌ بصحبتك راحةَ الدنيا لا غير ، فلا ترجُ خيرَهُ) .

وكان يقول : (لأهلِ الفضل فضلٌ ما لم يروه ، فإذا رأوه فلا فضلَ لهم ، ولأهل الولاية ولايةٌ ما لم يَروها ، فإذا رأوها فلا ولايةَ لهم) .

وكان يقول : (من أعظم نتيجة المريد : التحببُ إلىٰ شيخه ؛ فإنه إذا أحبَّ شيخَهُ فقد أحبَّ الله ، وإذا أحبَّهُ الوليُّ فقد أحبَّهُ الله) .

وكان يقول : (علامةُ المحجوب عن ربّه أن يُعجبَ بشيءٍ من أحواله) .

وكان يقول : (إذا كان علماءُ زماننا قد صاروا في ظُلمة علمهم ، فكيف بالجاهلين المُقيمين في ظلمة جهلهم ؟! وذلك لأن ظلمةَ العلمِ أشدُّ من ظلمة الجهل ؛ لأنها غلبتْ نورَ العلم) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٧٤) أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنه[٢]

كان شيخَ بلاد الرَّيِّ والجبال في وقته ، وكان عالماً أديباً ظريفاً

وكان من خُلُقِهِ إسقاطُ الجاه ، وتركُ التصنُّع ، واستعمال الإخلاص .

صحب ذا النُّون المصري ، وأبا تُراب النَّخشبي .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٤٧) (١٧٧) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٤٨) (١٧٨) .

مات سنة أربعٍ وثلاث مئة .

وكان يقول : (لما علمَ القومُ أن الله تعالىٰ يراهم على الدوام ، وهم بين يديه ، شعروا أو لم يشعروا . . استحيوا أن يُراعوا شيئاً سواه) .

وكان يقول في مُناجاته : (اللهم ، إننا نباتُ زرائع نعمتك ؛ فلا تجعلْنا حصائدَ نقمتك يا أرحم الراحمين) .

وكان يقول : (أرغبُ الناس في الدنيا : أكثرُهم ذمّاً لها عند أبنائها ؛ لأن ذمَّها عندهم حرفةٌ ، وما أقبحها حرفة ! يزهِّدُهم فيها ، فإذا زهدوا فيها أخذها هو منهم ، وربما وقع ذلك في مجلسٍ وعظه ، وأزهدُ الناس في الدنيا أَقلُّهم ذكراً لها ، إنما الغالبُ عليه ذكرُ الآخرة ، وتشويقُ الناس لأعمالها) .

وكان يقول : (نظرتُ[1] في آفات الصوفية فرأيتها في معاشرةِ الأضداد ، وتتبُّعِ الرُّخص ، والميل إلى النسوان)

وكان يقول : (للدنيا طغيانٌ ، وللعلم طغيان ، فمن أرادَ النجاةَ من طغيان العلم فعليه بالعبادة ، ومن أراد النجاة من طغيان المال فعليه بالزهد فيه) .

وكان يقول : (بالأدب يُفهم العلم ، وبالعلم يصحُّ لك العمل ، وبالعمل تنالُ الحكمةَ ، وبالحكمة تقيم الزهد وتُوفَّق له ، وبالزهد تتركُ الدنيا ، وبتركِ الدنيا ترغبُ في الآخرة ، وبالرغبة في الآخرة تنال رضا الله عز وجل) .

وكان يقول في حديث : « أرحْنا بهَا يا بلالُ »[2] : (يعني بالصلاة ، ويؤيدُه حديثُ : « وجُعلتْ قرَّةُ عينِي في الصلاةِ »[3]

وكان يقول : (إن أردتَ أن تعرف العاقل من الأحمق فحدِّثه بالمحالات ، فإن قبلها فاعلمْ أنه أحمق) .

---

(١) في النسخ (رأيت) ، والمثبت من « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٤٩) .

(٢) رواه أبو داود في « سننه » (٤٩٨٥) عن سلم بن أبي الجعد رحمه الله تعالىٰ ، وتقدم تخريجه (١/ ٣٤٩) ، و(٢/ ٢١٦) .

(٣) رواه النسائي (٧/ ٦١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (٢/ ١١٥) .

وكان يقول : (إذا رأيتَ المُريدَ يشتغلُ بالرُّخصِ فاعلم أنه لا يجيءُ منه شيء) .

وكان يقول : (من غرقَ في بحارِ التوحيد لم يزددْ على ممرِّ الأيام إلا عطشاً) .

وكان يقول : (**توحيد الخاصةِ** : هو أن يكون بسرِّه ووجده وقلبه كأنه قائمٌ بين يدي الله ، تجري عليه تصاريفُ تدبيره ، وأحكامُ قدرته في بحار توحيده بالفناء عن نفسه ، وذهاب حسِّهِ بقيام الحقِّ تعالىٰ له في مُراده منه ، فيكون كما هو قبل أن يكون في جَريان حكمه عليه) .

وكان يقول : (لله تعالىٰ في كلِّ أمةٍ ذخيرةٌ ووديعة أخفاهم عن خلقه ، فإن يكنْ منهم أحدٌ في هـٰذه الأمة فهم الصوفية) .

وكان رضي الله عنه إذا سمع القرآنَ لا تقطرُ له دمعةٌ ، وإذا سمعَ شعراً قامتْ قيامته ، ثم يلتفتُ إلى الحاضرين ويقول لهم : (أتلومون أهل الراز في قولهم[1] : يوسف بنُ الحسين زنديق ، هم مَعذورون ؛ وذلك لأنَّ القرآن ليس هو من جنسِ كلامنا حتىٰ نطربَ له ، وكلُّه تكاليفُ ، بخلاف رقيقِ الشعر) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٧٥) أبو عبد الله محمدُ بن علي بن الحسين الترمذيُّ الحكيمُ رضي الله عنه[2]

لقي أبا تُراب النَّخْشي ، وصحب أحمد بنَ الجلا وابن خضرويه .

وهو من كبار مشايخ خراسان ، وله التصانيفُ المشهورة في الحديث والتصوف وغيرهما .

وكان يقول : (ما صنَّفتُ قطُّ حرفاً عن تدبيرٍ ، ولا ليُنسب إليَّ شيءٌ من المؤلفات ، وإنما كان إذا اشتدَّ عليَّ وقتي أتسلَّىٰ بذلك) .

وسئل مرةً عن حقيقة الخلق ، فقال : (ضعفٌ ظاهرٌ ، ودعوىٰ عريضة) .

---

(١) أي : أهل الرَّيِّ .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٥٠) (١٧٩) .

وكان يقول : (من شرائطِ الخدَّام : التواضعُ والاستسلام) .

وكان يقول : (كفىٰ بالرجلِ عيباً أن يسرَّهُ ما يضرُّهُ) .

وكان يقول : (إنما دعا الله الموحِّدين للصلاة رحمةً منه عليهم ، وإنما نوَّعَ لهم فيها الأقوال والأفعال ؛ لينالَ العبدُ من كلِّ قولٍ وفعل شيئاً من عطاياه تعالىٰ ؛ فالأفعالُ كالأطعمة للضيف ، والأقوالُ كالأشربة له ، فالموحِّدون عرشُ الوحدانية) .

وكان يقول : (صلاحُ الصبيان في المكاتب ، وصلاحُ قطاع الطريق في السجن ، وصلاحُ النساء في البيوت) .

وكان يقول : (المحدَّثون من أهل الله والمكلَّمون إذا تحقَّقوا في درجتهم . . لم يخافوا حديثَ النفس ، فكما أنَّ النبوة محفوظةٌ من إلقاء الشيطان بالنسخ الإلـٰهي ، فكذلك محلُّ المكالمة والمُحادثة محفوظٌ عن إلقاء النفسِ ، محروسٌ بالحق) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٧٦) أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق رضي الله عنه[١]

أصلُهُ من ترمذ ، وأقام ببلخ .

لقي أحمد بن خَضرويه ، وصحب محمد بنَ سعد الزاهد[٢] ، ومحمد بن عمر البلخي .

وله التصانيفُ المشهورة في أنواع الرياضات والآداب والمعاملات .

وكان يقول : (لو قيلَ للطمعِ من أبوك ؟ لقال : الشكُّ في المقدور ، ولو قيل له : ما حرفتُكَ ؟ قال : اكتسابُ الذلِّ ، ولو قيل له : ما غايتُك ؟ لقال : الحرمان) .

وكان رضي الله عنه يمنعُ أصحابَه من السفر والسياحات ، ويقول : (مفتاحُ كلِّ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٥١) (١٨٠) .

(٢) في النسخ : (أحمد بن سعد) . والمثبت من مصادر ترجمته .

بركةِ التصبُّرُ في موضع إرادتك إلىٰ أن تصحَّ لك الإرادة ، فإذا صحَّت لك الإرادة فقد ظهرتْ عليك أوائلُ البركة) .

وكان يقول : (**الناسُ ثلاثة** : العلماء ، والفقراء ، والأمراء ، فإذا فسدَ الأُمراء فسدَ معاشُ الناس ، وإذا فسد العلماء فسدتِ الطاعات ، وإذا فسدتِ الفقراءُ فسدتِ الأخلاق) .

وكان يقول : (من اكتفىٰ بالكلامِ من العلم دون الزهد والفقه تزندقَ ، ومن اكتفىٰ بالزُّهد دون الكلامِ والفقه ابتدعَ ، ومن اكتفىٰ بالفقهِ دون الزُّهد والورع تفسَّق ، ومن جمع هٰذه الأمور كلَّها أخلصَ وتخلَّص) .

وكان يقول : (خضوعُ العصاة ، وانكسارُ قلوبهم أفضلُ من صولة المطيعين) .

وسئلَ مرةً عن عوامِّ أهل الطريق ، فقال : (هم الذين سلمتْ صدورُهم ، وحَسُنتْ أعمالُهم ، وطهرت ألسنتُهم وفروجُهم ، فإذا خلوا من هٰذه الصفات فهم من قسم الفراعنة ، لا من عوام الفقراء) .

وكان يقول : (إذا فسدتِ العلماء غلبَ الفسقةُ علىٰ أهل الصلاح ، وغلب الكفار على المسلمين ، وغلب الكذبةُ على الصادقين ، وغلبَ المراؤون على المُخلصين ، وتلف الدينُ كلُّهُ ، فإنَّ العلماءَ هم الزِّمامُ) .

وكان يقول : (إذا غلبَ الهوىٰ أظلم القلبُ ، وإذا أظلمَ القلبُ ضاقَ الصدر ، وإذا ضاق الصدرُ ساءَ الخُلُق ، وإذا ساءَ الخلقُ أبغضه الخَلقُ ، وبغضَهم الآخرُ كذلك وجفاهم ، وهناك يصيرُ شيطاناً)(١)

وكان يقول : (الخلافُ يهيجُ العداوةَ ، والعداوةُ تجلبُ البلاء) .

وكان يقول : (ما أحبَّ أحدٌ نفسَهُ إلا عشقه الكِبرُ والحسدُ ، والذلُّ والمهانة) .

---

(١) في « طبقات الصوفية » (ص ٢٢٦) : (أصل غلبة الهوىٰ مقارفة الشهوات ، فإذا غلب الهوىٰ ساء الخلق ، وإذا ساء الخُلق أبغضه الخَلق ، وإذا أبغضه الخلق أبغضهم ، وإذا أبغضهم جفاهم ، وإذا جفاهم صار شيطاناً) .

وكان يقول : (من أحبَّ أن يذوقَ شيئاً من طريق الزاهدين فليزهدْ في حبِّ الرئاسة ، والعلوِّ على الإخوان) .

وكان يقول : (راعِ اللهَ تعالىٰ بقلبك إن أردتَ أن تكونَ عنده صدِّيقاً ، فلو أنَّ أحداً عَلِمَ علمَ العلماء ، وفهم فهمَ الفهماء ، وعرفَ سحرَ كلِّ ساحرٍ لم يستطعْ أن يسترَ عورة نفسه التي وقعَ فيها بينه وبين ربِّهِ إلا بالصدق مع الله تعالىٰ) .

ومنهم :

(١٧٧) أبو سعيد أحمد بنُ عيسى الخرَّاز رضي الله تعالىٰ عنه[١]

هو من أهل بغداد .

وصحب ذا النُّون المِصري ، وسَري السَّقطي ، وبشرَ الحافي ، وغيرَهم .

وهو من أئمة القوم ، وجِلَّة المشايخ .

قيل : إنه أولُ من تكلَّم في علم البقاء والفناء

توفي سنة تسعٍ وسبعين ومئتين .

ومن **كلامه رضي الله عنه** : (إن الله عز وجل عجَّل لأرواح أوليائه التلذُّذَ بذكره ، والوصولَ إلىٰ قربه ، وعجَّلَ لأبدانهم النعمةَ بما نالوه من مصالحهم ؛ فعيشُ أبدانهم عيشُ الجسمانيين ، وعيشُ قلوبهم عيشُ الروحانيين ، ولهم لسانان : ظاهرٌ وباطن ؛ فلسانُ الظاهر يُكلِّم أجسامَهم ، ولسانُ الباطن يُناجي أرواحهم) .

وكان يقول : (العارفُ يستعينُ بكلِّ شيءٍ ، فإذا وصلَ استغنىٰ بالله ، وارتفعتْ همَّتُهُ عن الوقوف علىٰ أحدٍ سواه ، وافتقرَ الناسُ إليه) .

وكان يقول : (مثلُ النفس في الصفات كمثلِ ماءٍ واقفٍ طاهر صافٍ ، فإذا حرَّكتَهُ ظهرَ ما تحته من الحَمْأَة ، وكذلك النفس تظهرُ مرتبتُها عند المحنِ والفاقة والمخالفة لأهوائها ، ومن لم يعرفْ ما طُوي عنه من صفات نفسه كيفَ يدَّعي معرفةَ صفات ربِّهِ ؟!) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٥٣) (١٨١) .

وكان يقول : (العارفون خزائنُ الله تعالىٰ ، أودعَ فيها علوماً غريبة ، وأخباراً عجيبةً ، يتكلَّمون فيها بلسان الأبدية ، ويُخبرون عنها بعبارة الأزلية) .

وكان يقول : (لولا أنَّ الله أدخلَ موسىٰ في كنفه لأصابه عليه السلام ما أصابَ الجبل) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٥] : (المتوسِّمُ : هو العارفُ بما في سُويداء القلوب بالاستدلال والعلامات ، فيميِّزُ أولياء الله من أعداء الله) .

وكان يقول : (إذا أرادَ الحقُّ تعالىٰ أن يفتحَ علىٰ عبدٍ الطريقَ إليه حبَّبه في ذكره ليلاً ونهاراً ، فإذا استلذَّ بالذكرِ فتح عليه بابَ القرب ، ثم رفعه إلىٰ مجلسِ الأنس ، ثم أجلسَهُ علىٰ كرسيِّ التوحيد ، ثم رفعَ عنه الحُجُبَ ، وأدخله دارَ الفردانية ، وكشفَ له عن الجلالِ والعظمة ، فإذا وقع بصرُهُ على الجلال والعظمة بقي بلا هو ، وفني عن نفسه ، فإذا فني عن نفسه وقعَ في حفظ الله ، وبرئ من دعاوي نفسه) .

وكان يقول : (أولُ مقامٍ في التوحيد : فناءُ ذكر الأشياء عن قلب الذاكر ، وانفرادُه بالله وحده) .

وسئل رضي الله عنه : هل يصل العارفُ إلىٰ حالٍ يرتفعُ منه البكاء ؟ قال : نعم ، إنما البكاءُ في وقت سيرهم إلى الله عز وجل ، فإذا نزلوا إلىٰ حقائقِ القرب ، وذاقوا طعمَ الوصول من برِّهِ تعالىٰ . . زال عنهم البكاءُ ؛ ولذلك ورد : « فإنْ لمْ تبكُوا » يعني : حالَ انتهاء سيركم « فتباكوا »[1] أي : تنزَّلوا في المقام ليَقتدي بكم السائرون .

وكان لأبي سعيد الخرّاز ولدٌ صالح ، فمات ، فرآه في المنام ، فقال : يا ولدي ؛ أوصني ، قال : لا تجعلْ بينك وبين الله قميصاً ، فما لبسَ أبو سعيد قميصاً بعد ذلك ثلاثين سنة .

وكان يقول : (ينبغي للصوفي أن يكونَ لطيفَ اللبسة ، ملازماً للخلوة ، حسنَ

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٧) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٩٥) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (١/ ٣٥٤)

الصيانة ، مطلوباً عند وجود الفاقات ، فإن لم يكن كذلك فهو كاذبٌ) .

وكان يقول : (أبعدُ الناس من الله عز وجل مَنْ يدَّعي المعرفةَ والقرب ، وأكثرُهم إليه إشارةً أمقتهم عنده) .

وكان يقول : (المجنونُ من الناس من ينسىٰ ذكرَ ربه نَفَساً واحداً) .

وكان يقول : (لا يتَّصفُ عبدٌ بالشرف حتىٰ تصيرَ الأذكار غذاءه ، والتراب فراشه) .

وكان يقول : لا تفرحْ بصفاء العبودية ؛ فإن فيه نسيان الربوبية ، فقيل له : فما الخلاص ؟ قال : أن تشهدَ صنعَ الربوبية في إقامة العبودية ، فتنقطعَ عن نفسك ، وتسكنَ إلىٰ ربِّك ، وهناك تسلم من الاستدراج .

وسُئل عن الوقفة التي تكونُ بين بعض الفقراء من بعضهم بعضاً ، فقال : إنما قدَّرَ اللهُ ذلك عليهم غيرةً منه عليهم أن يسكنَ بعضُهم إلىٰ بعض ، ولٰكن إذا وقعَ لهم كمالُ السير ذهبت الوقفةُ ؛ فإنَّ الكاملَ لا يرىٰ إذْ ذاك من يرسلُ غضبه عليه من الخلق إلا والحقُّ تعالىٰ معه ، فيستحي أن ينتهكَ جنابَ من رأى الحقَّ معه أدباً مع الله تعالىٰ .

ومنهم :

(١٧٨) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربي رضي الله عنه[١]

كان أستاذَ إبراهيم الخوَّاص ، وإبراهيم بن شيبان ، صحب عليَّ بنَ رزين .

وعاش مئةً وعشرين سنة ، ودُفن علىٰ جبلِ طُور سَيناء مع أستاذه علي بنِ رزين ، وكانت وفاته سنة تسع وسبعين ومئتين[٢] .

وكان يأكلُ من أصول الحشيش دون ما وصلتْ إليه يدُ بني آدم ، رضي الله عنه .

ومن كلامه رضي الله عنه : (الفقيرُ المجرَّدُ من الدنيا ـ وإن لم يعملْ شيئاً من أعمالِ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٥٦) (١٨٢) .

(٢) كذا في « طبقات الصوفية » (ص ٢٤٤) ، للسلمي ، وعند القشيري في « رسالته » (ص ١٧٧) أن وفاته ، (٢٩٩هـ) .

الفضائل ـ أفضلُ من هـٰؤلاء المتعبِّدين ومعهم الدنيا ؛ بل ذرةٌ من عمل الفقير المجرَّدِ أفضلُ من الجبال من أعمال أهل الدنيا) .

وكان يقول : (لله تعالىٰ عبادٌ أَسبغَ عليهم باطنَ العلوم وظاهرها ، وأخملَ ذكرهم ، فلا يعدُّون قطُّ مع العلماء : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢]) .

وكان يقول : (ما فطنتُ للأمرِ إلا هـٰذه الطائفة ، لـٰكنها احترقتْ بما فطنت ، فلا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) .

وكان يقول : اجتمعتُ بشخصٍ من أصحاب أبينا إبراهيم الخليل ، فقلت له : أين مَسكنُك ؟ فقال : في الهواء من منذ رُمي إبراهيم في المنجنيق ، فقلت له : ما حملك في الهواء وأنت من بني آدم ؟! فقال : توكُّلي على الله عز وجل ، فقلت له : وما التوكلُ ؟ فقال : النظرُ إلى الله تعالىٰ دائماً بلا عين تطرف ، والذِّكرُ له بلسانٍ لا يتحرَّك ، والجولانُ في مصنوعاته بلا قلب يغفُلُ ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٧٩) أبو العباس أحمد ابن مسروق رضي الله عنه[١]

هو من أهل طُوس ، وسكن بغداد ، ومات بها سنة تسعٍ وتسعين ومئتين .

صحب الحارثَ المحاسبي ، والسريَّ السَّقطي ، وغيرهما .

وكان من كبار مشايخ القوم وعلمائهم .

وكان ينهى المريدين عن سماع التغزلات ويقول : (لا ينبغي لفقيرٍ سماعُ شيءٍ من التغزلات ، إلا إنْ كان مُستقيماً في الظاهر والباطن ، قويَّ الحال ، تامّاً في العلم ، وأما الضعفاءُ فلا يليقُ بهم سماعُها ؛ لأن قلوبهم لم تألفِ الطاعات إلا تكلُّفاً أو لعلَّةٍ ، ونخشىٰ إنْ سامحنا في رخصةٍ أن تتعدَّىٰ ذلك إلى ارتكاب عدَّة رُخصٍ) .

وكان يقول : (من لم يحترزْ بعقله من عقله لعقله هلكَ بعقله) .

وكان يقول : (من كان مؤدِّبُهُ ربَّهُ لم يغلبه أحدٌ من الخلق) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٥٧) (١٨٣) .

وكان يقول : (الزاهدُ هو الذي لا يملكُهُ دون الله سبب) .

وكان يقول : (لا أزال أحنُّ إلىٰ بدء إرادتي ، وقوةِ همَّتي ، وركوبي الأهوال طمعاً في الوصول ، وها أنا اليوم في أيام الفترة أتأسَّفُ علىٰ أوقاتي الماضية ، وأتمنَّىٰ صفاءَ وقتٍ كما كنتُ فلا أجده ، علىٰ أنه ما ثَمَّ إلا بدايةٌ ما دام وراء مقام العبد مقامٌ ، وذلك شأنه أبداً ما عاش ، فلا يظنَّ بعارفٍ إذا قال : وقعَ لي كذا في بدايتي أنه يظنُّ بنفسه النهاية ، حاشا العارفين من ذلك) .

وكان يقول : (من شكا لكم الضعفَ في بدنه فقولوا له يُكثر من ذكر الله ، كما وصفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك لفاطمةَ لما شكتْ من الرَّحىٰ ، فأمرها أن تُسبِّحَ اللهَ عند النوم ثلاثاً وثلاثين ، وتحمدَهُ ثلاثاً وثلاثين ، وتكبِّرَ ثلاثاً وثلاثين ، وتختم المئة بلا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو علىٰ كلِّ شيء قدير ، وقال : « هي لكِ خيرٌ منْ خادمٍ »[1] فما شكتْ بعد ذلك تعباً ، فعُلمَ أنَّ كلَّ من تقوَّىٰ بالطعامِ والشراب فهو في طبع البهائم ، إلا أن يضمَّ إليه كثرة ذكرَ الله عز وجل) .

وكان يقول : (ما سُرَّ أحدٌ بغير الحقِّ تعالىٰ إلا أورثه ذلك السرورُ طولَ الهموم والأحزان) .

وعمل أبو العباس مرَّةً وليمةً ، فجاء شخصٌ ، فدخل بلا دعوةٍ ، فمنعه بعضُ الناس ، فقال أبو العباس : لله عليَّ ألا أدعَهُ يمشي إلا علىٰ خدِّي حتىٰ يجلس موضع الأكل ، فوضع خدَّه على الأرض ، ومشىٰ عليه ذلك الرجلُ إلىٰ أن بلغ موضع جلوسه على المائدة ، وقال : مثلُ هـٰذا الرجل يتواضعُ لي ويحضرُ وليمتي بلا دعوةٍ ، بأيِّ شيءٍ أُكافيه ؟ فقام القومُ ، وقبَّلوا رأسَ أبي العباس لأجل هـٰذا الخُلق العظيم .

وكان يقول : رأيتُ كأنَّ القيامةَ قد قامت ، ورأيتُ موائدَ قد نُصبت ، فأردت أن أجلسَ عليها ، فمُنعتُ ، وقالوا : هـٰذه للصوفية ، فقلت : ألستُ منهم ؟! فقالوا :

---

(١) رواه البخاري (٣٧٠٥) ، ومسلم (٢٧٢٧) عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (١/ ٣٥٧) .

بلىٰ ، ولـٰكنك اشتغلتَ عن الله بكثرة كتابة الحديث ، وحبك التميُّز بذلك على الأقران ، قال : فمن ذلك اليوم تبتُ إلى الله تعالىٰ عما كنتُ فيه ، وقلتُ : للحديثِ رجالٌ غيري ، وأقبلتُ على الاشتغالِ بالله وحده .

وكان يقول لأصحابه : (عليكم بالتقلُّلِ من المأكل والملبس والنوم ما أمكن إنْ أردتمُ اللُّحوقَ بالقوم ، فواللهِ ؛ لقد كنتُ أطوي الأيامَ ، وألبسُ المسوحَ والليفَ في بداية أمري ، وكنت لا أجتمع بشيوخي إلا يوم الجمعة في الجامع ، فكنت أنصرف من عندهم فلا أحتاج إلىٰ طعام ولا شراب إلى الجمعة الآتية ؛ ببركة لحظهم) .

وكان يقول : (كنت في بداية أمري آوي إلىٰ مسجدٍ فيه سدرةٌ ، فيأوي إليها بُلبلان في الليل لا ينامان الليل ، فكنت أقولُ في نفسي : كيف تنامين والبلبلُ سهران لا ينام ؟! ثم إن أحدَهما فقدَ صاحبه ، فكان يصيحُ صياحَ الحزين علىٰ صاحبه ثلاثةَ أيام علىٰ غصنٍ ، لا يلتقطُ شيئاً ولا يشربُ حزناً علىٰ صاحبه ، فمرَّ به بلبلٌ ، فصاحَ ، فذكَّره بصاحبه ، فوقع ميتاً من على الغصن) .

قال بعضهم : ولما حكىٰ أبو العباس هـٰذه الحكاية لتلامذته خرَّ منهم أربعةٌ موتىٰ أثَّرتْ فيهم هـٰذه الحكاية ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٨٠) أبو الحسن علي بنُ سهل الأصفهاني رضي الله عنه[١]

هو من قدماء مشايخ أصفهان ، وكان يُكاتبُ الجُنيد ويُراسلُهُ ، وكان من أقرانه .

صحب ابنَ مَعْدان رضي الله عنه ، ولقي أبا تراب النَّخشبي .

وكان من أكرمِ الناس وأشفقِهم على المسلمين .

وكان إذا بلغه عن أحدٍ : أنَّ عليه ديناً . . يُرسل يُوفي عنه الدَّين من غيرِ علمِ المديون ، فيأتي صاحبُ الدين ويقول : قد وفَّى اللهُ دينَك يا أخي ، وقد برئتْ ذمَّتُك ،

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٥٩) (١٨٤) و(١/ ٣٨٢) (٢٠٠) وسيذكرها ثانية (٣/ ٢٦٦) (٢٠٠) .

فيقول المديون : ومن أوفىٰ عني ديني ؟! فيقول : ما معي إِذْنٌ أنْ أتكلَّم ؛ لأنه كان يُوصي صاحبَ الدين ألا يعيِّنَ اسمَهُ ، فما علم بذلك الناسُ إلا بعد موت أبي الحسن رضي الله عنه

وكان يقول : (من لم تصحَّ مبادئُ إرادته لا يسلمُ في مُنتهىٰ عاقبته) .

وكان يقول : (حرامٌ علىٰ قلبٍ عرف الله أن يسكنَ إلىٰ سواه ، فإنْ سكنَ استحقَّ العقوبةَ) .

وسأله رجلٌ عن القلب : ما هو ؟ فقال : يا أخي ، أسمعُ الناسَ يقولون : القلب القلب ، وما رأيت أحداً منهم يقدرُ علىٰ وصفه .

وكان يقول : (الفقيهُ هو الذي لا يدخلُ تحت المنسوبات إليه) .

وكان يقول : (تعوَّذوا بالله من غرورِ حُسنِ الأعمال مع قسوةِ القلوب ، وفساد الأسرار) .

وكان يقول : لا تصحبوا من ليس عنده شوقٌ للطريق ؛ فإنه لا يزداد علىٰ ممرِّ الأيام إلا إدباراً ، فقيل له : وما علامةُ الشوق إلى الطريق ؟ فقال : أن يُلهيَهُ شوقُه عن الطعام والشراب والمنام ، كما ذقتُ ذلك في بدايتي .

وكان يقول : (حقيقةُ التوحيد أنه بعيدٌ من الحقائق ، قريبٌ من الطرائق) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٨١) أبو محمد أحمدُ بنُ محمد بن الحُسين الجَريري رضي الله عنه[١]

كان من أكابر أصحابِ الجُنيد ، وصحب سهل بنَ عبد الله التُّستري .

وأُقعد[٢] بعد موت الجُنيد في موضعه لتمامِ حاله ، وصحةِ طريقته ، وغزارة علمه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٦٠) (١٨٥) .

(٢) في (ز) وحدها : (وأجلس) .

مات سنة إحدىٰ عشرة وثلاث مئة[١]

وكان يقول : (من استولتْ عليه نفسُهُ صار أسيراً في حكم الشهوات ، محصوراً في سجن الهوىٰ ، وحرَّمَ اللهُ علىٰ قلبه الفوائد ، فلا يستلذُّ بكلام الله تعالىٰ ، ولا يستحليه ؛ لأنه تعالىٰ يقول : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] يعني : أحجبُهم عن فهمها ، وعن التلذُّذ بها ؛ وذلك لأنهم تكبَّروا بأحوال النفسِ والدنيا ، فصرفَ الله تعالىٰ عن قلوبهم فَهْمَ مخاطباته ، وسدَّ عليهم طريق فهم كتابه ، وسلبهم الانتفاعَ بمواعظه ، وحبسهم في سجنِ عقولهم وآرائهم ، فلا يعرفون طريقَ الحقِّ ولا يتعرَّفونه ؛ بل تراهم يُنكرون علىٰ أهل الحقِّ ، ويحرِّفون كلامهم إلىٰ معانٍ لم يقصدوها) .

وكان يقول : (من لم يُحكِّم بينه وبين الله التقوىٰ والمراقبة لم يصلْ إلى الكشف والمشاهدة ؛ فإن من لا تقوىٰ عنده لوحُ قلبهْ مطموس ، ومن لا مراقبةَ عنده فحالُهُ معكوس) .

وكان يقول : لما قدمتُ من مكةَ بدأتُ بأبي القاسم الجنيد لئلا يتعنَّىٰ بالمجيءِ إليَّ ، فسلَّمت عليه ، ثم مضيتُ إلىٰ منزلي ، فلما صلَّيتُ الصبحَ إذا أنا به خلفي في الصف ، فقلتُ له : إنما جئتُكَ أمس لئلا تتعنَّىٰ بالمجيءِ ، فقال لي : ذلك فضلُك ، وهـٰذا حقُّكَ .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] : (أي : سامعين من الله ، قائلين بالله) .

وكان يقول : (لو رأيتُ من يهجرني لله تعالىٰ لوضعتُ له خدِّي ، إنما يَهجروني لحظوظِ نفوسهم) .

وكان يقول : (من رضي بالدرجات في الجنة في نظيرِ قراءته القرآن فقد رضي بالقليل بدلاً عن الكثير ؛ لأن الجنةَ مخلوقة ، والقرآنُ غيرُ مخلوق ، ومعظمُ الفائدة في قراءة القرآن إنما هي مُجالسته تعالىٰ ، وفهمُ مخاطباته) .

---

(١) كذا في « طبقات الصوفية » (ص ٢٥٩) ، و« الرسالة القشيرية » (ص ١٨٠) .

وكان يقول : (انكسفَ القمرُ ليلةَ الجمعة وأنا في مدينةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا به أسودُ مكتوبٌ في وسطه بالنور : أنا وحدي ، فغُشيَ عليَّ إلى الصباح) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ حكايةً عن مريم : ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٣] : (إنما قالتْ ذلك ؛ لأن اللهَ تعالىٰ كان قد أَطلعها علىٰ أنَّ ولدها عيسىٰ يُعبدُ من دون الله ، فساءها ذلك ، وغمَّها ، ومعنى الآية : يا ليتني متُّ قبل أن أحملَ بمن يُتَّخذُ إلـٰهاً من دون الله ؛ فلذلك أنطق الله تعالىٰ لها عيسىٰ عليه السلام بقوله : ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [مريم : ٣٠] فلا يضرُّني ما يدعونه فيَّ من الألوهية جهلاً بالله وكفراً) والله أعلم .

ومنهم :

(١٨٢) أبو العباس أحمد بنُ محمد بنِ سهل بن عطاء الأَدَميُّ رضي الله عنه[١]

كان من ظِراف مشايخ الصوفية وعلمائهم ، له لسانٌ عظيمٌ في فهم القرآن يختصُّ

صحب الجُنيد ، وإبراهيم المارستاني ، ومن فوقهم من المشايخ[٢]

وكان أبو سعيد الخرّاز يعظِّم شأنه ، حتىٰ قال يوماً : (التصوّفُ إنما هو خُلُقٌ ، وما رأيتُ من أهله إلا الجُنيَد وابنَ عطاء) .

مات سنة تسعٍ وثلاث مئة .

وسُئل مرةً عن المروءة ، فقال : (هي ألا تستكثر لله تعالىٰ عملاً) .

وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول : (خلقَ اللهُ تعالى الأنبياءَ للمشاهدة لقوله تعالىٰ : ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [قٓ : ٣٧] وخلقَ الأولياء للمجاورة لقوله صلى الله عليه

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٦٢) (١٨٦) .

(٢) كذا في النسخ ، وفي « طبقات الصوفية » (ص ٢٦٥) : (فوقهما) بدل (فوقهم) .

وسلم : « عزَّ جارُكَ »[1] وخلقَ الصالحين للمُداومة على كلمة التقوى ، قال تعالى ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ﴾ [الفتح : ٢٦] وهي تكرارُ « لا إله إلا الله » ، وخلق العوام للمجاهدة ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩])

وكان يقول : (من تأدَّبَ بآدابِ الصالحين صلحَ لبساطِ الكرامة ، ومن تأدَّبَ بآداب الأولياء صلح لبساط القُربة ، ومن تأدَّب بآداب الصدِّيقين صلحَ لبساط المشاهدة ، ومن تأدب بآداب الأنبياء صلح لبساط الأنس والانبساط) .

وكان يقول : (لما عصى آدم عليه السلام بكى عليه كلُّ شيءٍ في الجنة إلا الذهب والفضة ، فأوحى الله تعالى إليهما : لِمَ لا تَبكيان على آدم ؟! فقالا : لا نبكي على أحدٍ عصاك ، فقال الله تعالى : وعزَّتي وجلالي ؛ لأجعلنَّ قيمةَ كلِّ شيءٍ بكما ، ولأجعلنَّ بني آدم خدماً لكما ؛ يعني بهم خدام الدنيا لا خدام الله تعالى ؛ لقوله تعالى في حديث آخر : « يا دنيا ؛ منْ خدمَني فاخدمِيهِ ، ومنْ خدمَكِ فاستخدمِيهِ »)[2] ، والله أعلم .

وكان يقول : (السكونُ إلى مألوفات النفوسِ يقطعُها عن بلوغ درجات الحقائق) .

وكان يقول : (أدنوا قلوبَكم من مجالس الذاكرين ، لعلها تنتبه من غفلتها ، وإياكم أن تحضروا مع الذاكرين ولا تذكرون الله معهم ، فتُمقتوا) .

وكان يقول : (المحبُّ يُقيمُ العتاب على نفسه على الدوام ، لا يرى أنه وفَّى بحقِّ محبوبه) .

وكان يقول في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة : ١١٨] : (أي لم يخلق لهم المعصيةَ ؛ فإن الحقَّ تعالى ما دام يخلقُ لهم المعصيةَ لا يصحُّ لهم أن يتوبوا ، فإذا تركَ تعالى خلقَ المعصية تابَ الخلقُ لا محالة ؛ يعني : فما لم يتعطَّفِ الحقُّ تعالى على عبيده بالرحمة ، لا ينعطفون على الله بالطاعة) .

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذي (٣٥٢٣) عن سيدنا بريدة رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (١/ ٣٦٢) .
(٢) أخرج الحديث ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٩٤) ، والشهاب القضاعي في « مسنده » (١٤٥٣) ، وأورده الماوردي في « أدب الدنيا والدين » (ص ١٨٤) عن سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠] : إن آدم عليه السلام قال : يا ربِّ ؛ لم أدَّبتني ، وإنما أكلتُ من الشجرة طمعاً للخلود في جوارك ؟! فقال : يا آدم ؛ طلبتَ الخلودَ من الشجرة لا مني ، وليس الخلودُ إلا بيدي ، فأشركتَ بي من حيث لا تشعرُ ، فنبَّهتُك بالخروج من الجنة حتىٰ لا تنساني في عمرك .

وكان يقول : (رأيتُ في بعض الكتب الإلـٰهية : يا بن آدم ؛ إنْ أعطيتُكَ الدنيا اشتغلتَ بها عني ، وإن منعتُكها اشتغلت بطلبها ، فمتىٰ تتفرَّغُ لي ؟!) .

وكان يقول : (من شرطِ المبتدئ : أن يجدَّ في العمل بما علم ، ولا يقفَ ولا يلتفت) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] : (أي : في الظواهر من الأخلاق الشريفة ، والعبارات المرضية دون البواطن والأسرار والإشارات ؛ فإنه لا طاقةَ لأحدٍ من الأمة بالتأسِّي به صلى الله عليه وسلم في ذلك ، ألا ترىٰ إلىٰ قوله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطل[1]

إشارةً إلى الكون ، وإلىٰ ما يليقُ بالكون الذي باين أُمَّته ، من حيث شهوده خلاف شهودهم منه) .

وكان يقول : (من لم يتنعَّمْ بذكر ربِّه في الدنيا لا يتنعَّمُ برؤيته في الآخرة) .

وكان يقول : (من قلَّ ورعه قلَّتْ هيبتُه في قلوب الناس ، ومن هنا كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا رآه من لا يعرفه ـ فضلاً عمَّن يعرفه ـ هابَهُ وارتعدَ من رؤيته ؛ لكونه أكثرَ الخلقِ ورعاً) .

وكان يقول : (من كانتْ ذنوبُهُ دائماً نُصبَ عينيه فهي أفضلُ من كثيرٍ من طاعاته ؛ لأن الطاعات ربما أورثته العُجْبَ بنفسه) .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤١) ، ومسلم (٢/٢٢٥٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وهـٰذا صدر بيت للبيد بن ربيعة تمثل به النبي صلى الله عليه وسلم ، وعجزه : وكل نعيم لا محالة زائل .
ولم يكن هـٰذا في يوم الخندق ، وإنما ذكر أنه في يوم الخندق ابن خميس الموصلي في « مناقب الأبرار » (٢/ ٥٣٠) ، وتقدم تخريجه (١/ ٣٦٤) .

وكان يقول : (لما قُبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قام أبو بكر يَسوسُ الخلقَ بقضيبٍ مع قوة نسيم النبوة ، فلما تُوفي أبو بكر أقام عمرُ حدودَ الله بِدِرَّته ، ولم يقدرْ عثمان على سياسة الناسِ بالدِّرةِ ، فأخرج السَّوطَ ، فلم يستقمْ له الأمر كما استقام لصاحبيه ، فلما قُتل عثمان رضي الله عنه لم يقدرْ عليٌّ رضي الله عنه على شيءٍ يسوس به الناس غير السيف ؛ إذ رأى ذلك صواباً) .

وكان يقول : (ما ارتفعَ منِ ارتفعَ بكثرةِ صومٍ ولا صلاة ولا مجاهدة ، وإنما ارتفعَ بالخُلُقِ الحسن) .

وكان يقول : (ليس مهرٌ من مُهور الجنة أحبَّ إلى الحور العين من إعراضِ العبد عن الدنيا ، وليس للعبدِ وسيلةٌ عند الله أعظمَ من إعراضه عن نفسه) .

وكان يقول : (إنما ابتُلي الخلقُ بالفراق لئلا يكونَ لأحدٍ سكونٌ مع غير الله عز وجل) .

وكان يقول : (قوامُ الإسلام وقوامُ شرائعه بالمنافقين ، وقوامُ الإيمان وشرائعه بالعارفين بالله عز وجل) .

وكان يقول : (العارفُ سكوتُهُ تسبيحٌ ، وكلامُهُ تقديسٌ ، ونومُهُ ذكرٌ ، ويقظتُهُ صلاة ؛ وذلك لأنَّ أنفاسَهُ تخرجُ على ضربٍ من المشاهدة والمعاينة) .

وكان يقول : (العارف لا يتكلَّفُ لعبادة ، كما لا يتكلَّفُ لدخول النَّفَسِ وخروجه ؛ لكون العبادةِ هي سببَ مجالسته لله تعالى ، فلا تَعَبَ عنده ولا نَصَبَ بالأفعال الشاقة على غيره) .

وهو معنى قول بعضهم : العارف لا تكليفَ عليه ، فافهم .

وكان يقول : (ورعُ الورعين يتولَّدُ من كثرة الخوفِ على مؤاخذتهم بالذرة والخطرة ، ولولا ذلك الخوفُ ما صحَّ لهم ورعٌ) .

وكان يقول : (كيف يزكِّي أحدُنا نفسَهُ وهو لا ينفكُّ عن الخسران ، ويخالطُ أهل العصيان ، وهي نفسه ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [النجم : ٣٢] أي : لأنها لا تنفكُّ عن معصيةٍ ، أو تقصيرٍ في طاعة) .

وكان يقول : (علامةُ الوليِّ ثلاثٌ : يصونُ سرَّهُ فيما بينه وبين الله ، ويحفظُ جوارحَهُ فيما بينه وبين الناس ، ويُداوي الخلقَ علىٰ تفاوت عقولهم) .

وكان يقول : تاه مريدٌ لبعض الإخْوان في البادية ، فورد علىٰ عينِ ماءٍ ، فإذا عليها جاريةٌ كالقمر ، فوقف عندها يتعجَّبُ من حُسنها ، فقالت : إليك عنِّي ، فقال : قد اشتغلَ كلِّي بك ، فقالت له : فلو رأيتَ الجاريةَ التي علىٰ تلك العين ؛ فإني لا أصلحُ أن أكونَ خادمةً لها ، فالتفتَ إلىٰ ورائه ، فقالت له : ما أقبح الكذب ! تقول : اشتغل كلِّي بكِ ، ثم تلتفتُ إلىٰ غيري ، ثم اختفت ، فلم يَدرِ أين ذهبت .

وكان يقول : (القرآنُ كلُّه يرجع إلىٰ شيئين : مراعاةِ أدب العبودية ، وتعظيمِ حقِّ الرُّبوبية)

ومنهم :

(١٨٣) أبو إسحاق إبراهيم الخوَّاص رضي الله عنه[١]

هو من أجلِّ أصحاب التوكُّل

وكان أوحدَ المشايخ في وقته ، وهو من أقران الجُنيد وأبي الحُسين النُّوري .

وله في الرياضات والسياحات مقامٌ يطول شرحه .

مات بجامع الرَّيِّ سنة إحدىٰ وتسعين ومئتين ، ومات بعلَّةِ البطن ، فكان كلَّما أخذته البطنةُ قام وتوضَّأ ، وصلَّىٰ ركعتين ، فدخل الماءَ يوماً ، فمات وسط الماء

وكان يقول : (العالِمُ : هو من عَملَ بعلمه ، وإن كان علمه قليلاً) .

وكان يقول : (التاجرُ برأس مالِ غيره حكمُهُ حكمُ المفلس) .

وكان يقول : (علىٰ قدرِ إعزاز المؤمن أمرَ الله عز وجل يُلبسُهُ اللهُ من عزِّهِ ، ويُقيم له العزَّ في قلوب المؤمنين) .

وكان يقول : (من شرط الفقير : أن تكونَ أوقاتُه مستويةً في الانبساط ، صابراً علىٰ فقره وقناعته ، مستوحشاً من الرفاهيات ، متنعِّماً بالخشونات ، يُعزُّ الفقر

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٦٧) (١٨٧) .

ويعظِّمُهُ ، ويعظِّمُ أهله ، أقل ما يعظِّم الفقير كالأمير ، لا يرىٰ لله تعالىٰ عليه منَّةً أعظمَ من الضرِّ وخلوِّ اليد من الدنيا) .

وكان يقول : (**شيئان عزيزان** : عالمٌ يعملُ بعلمه ، ومريدٌ لا طمعَ عنده) .

وكان يقول : (لقيتُ الخَضِرَ عليه السلام في باديةٍ ، فسألني الصحبةَ ، فخشيت أن يُفسدَ عليَّ توكُّلي بالسكون إليه ، ففارقته) .

وكان يقول : (المفاخرةُ والمكاثرةُ يمنعان الراحة ، والعُجْبُ يمنع من معرفة عيوبِ النفس ، والتكبُّرُ يمنعُ من معرفة الصواب ، والبخلُ يمنع من الورع) .

وكان يقول : (ليس من صفةِ الفقراء مؤالفةُ الأغنياء ولا أهل الغفلة) .

وكان يقول : (من ذمَّ الدُّنيا في العلانية ، واعتنقَها في السرِّ فقد كمل مقتُهُ) .

وكان يقول : (الهالكُ : هو من ضلَّ أواخر عمره حين قارب المنزل) .

وكان يقول : (يجبُ على المريد صحبةُ من يكشف له عن عيوبه ، ويدلُّهُ علىٰ مواضع الزيادة ، ويهيج حاله) .

وكان يقول : (أعظمُ ما يؤتىٰ على المريد النقصُ من قلة الوفاء بالعهد) .

قال أبو الحسن البحراني صاحبُ إبراهيم الخواص : (كنت من أشدِّ المُنكرين على الطائفة ، وكنتُ أبغضُ كلَّ من يجتمع عليهم ، وكنت مشغولاً بكتابة الحديث ، حتىٰ كتبتُ قدر وِقْرَيْ بعيرين ، فألقتني المقاديرُ إلىٰ بغداد ، فجلستُ في حَلْقَةِ إبراهيم الخوّاص ، وصغيتُ إلىٰ كلامه ، فرأيتُهُ علماً صحيحاً لا بدَّ للخلقِ من استعماله ، فلزمتُهُ من ذلك المجلس ، ومكثتُ أياماً كثيرةً لم يلتفتْ إليَّ ، فلما عرفَ صدقي قرَّبني وأدناني ، ولم أفارقْهُ حتىٰ مات ، وفرَّقتُ جميعَ كتبي استغناءً بكلامه الذي كنتُ أسمعه منه) .

وكان رضي الله عنه إذا دُعي إلىٰ وليمةٍ فرأىٰ فيها خبزاً يابساً لم يأكل منه ويقول : (هـٰذا خبزٌ مُنع حقُّ الفقراء منه حتىٰ بات ولم يُؤكلْ من يومه) .

وكان يقول : (التسليمُ لله : هو أن تعلمَ أنه تعالىٰ أشفقُ عليك من نفسك) .

وكان يقول : (أشدُّ ما يُعذِّبُ اللهُ به عباده مفارقةُ حضرته) .

وكان يقول : (آفةُ المؤمن ثلاثٌ : حبُّ الدِّرْهَم ، وحبُّ النساء ، وحبُّ الرئاسة ؛ فيُدفعُ حبُّ الدرهم بالورع ، وحبُّ النساء بترك الشهوات وترك الشِّبعِ ، ويُدفعُ حبُّ الرئاسة بملازمةِ الخمول وعدم إظهار الكمالات) .

وكان يقول : (إذا تحرَّكَ العبدُ لإزالة منكرٍ ، فحالتْ دونه الموانعُ ، فإنما ذلك لفسادِ العقدِ بينه وبين الله تعالىٰ)

وكان يقول : (من شربَ من كأس حبِّ الرئاسة فقد خرجَ من إخلاص العبودية) .

وكان يقول : عطشتُ في طريق الحجاز لمَّا تهتُ ، فإذا أنا بفارسٍ حسنِ الوجه ، فسقاني الماءَ ، وأردفني خلفه ، ثم قال : انظرْ نخيلَ المدينة ، وانزل وأقرئ صاحبَها مني السلام ، وقل : أخوكَ الخَضِرُ يُقرئُك السلام

ومنهم :

(١٨٤) أبو محمد عبد الله بنُ محمد الخرَّاز رضي الله تعالىٰ عنه[١]

كان من كبار مشايخ الرَّاز[٢] ، جاور بالحرم المكي سنين كثيرة ، وكان من الورعين .

صحب أبا عمران الكبير ، ولقي أبا حفص النيسابوري ، وأصحابَ أبي يزيد .

وكان جميعُ الأولياء في عصره يُعظِّمونه .

وكان يقول : (الجوعُ طعام الزاهدين ، والذِّكرُ طعام العارفين) .

وكان يقول : (من لم يتَّهمْ نفسَهُ في سائر كمالاتها لم يُكتب في ديوان الرجال) .

وكان يقول : (من ادَّعىٰ أنه برٌّ ، فلا يؤذي الذرَّ) .

وكان يقول : (من نقضَ عهدَهُ مع شيخه فليجدِّدِ الصحبةَ ، وإلا فلا تزيدُهُ الصحبةُ إلا إدباراً ، وقلَّ مريدٌ نقضَ عهده فعادَ إلىٰ حالته الأولىٰ) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٧٠) (١٨٨) .
(٢) أي : الرازيين ، نسبة إلى الري . انظر « طبقات الصوفية » (ص ٢٨٨) .

وحُكي عن أبي حفص النيسابوري : أنه رأى الخرَّازَ وهو فتىً ، فقال : إن عاشَ هٰذا الفتىٰ ، وبقي علىٰ طريقته صارَ أحدَ الرجال .

مات قبل العشر والثلاث مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٨٥) أبو الحسن بُنان بنُ محمد الحمَّال رضي الله عنه(١)

كان أصلُه من واسط ، وسكن مصر واستوطنها ، ومات بها ، ودفن بالقرافة بالقرب من الجبل المقطَّم ، تجاه جامع محمود سنة ستَّ عشرة وثلاث مئة .

وكان من أكابر المشايخ القائلين بالحقِّ .

صحب الجُنيد وغيرَه من مشايخ الوقتِ ، وكان أستاذَ أبي الحسين النُّوري .

ومن كلامه رضي الله عنه : (من أجلِّ أحوال الصوفية : الثقةُ بالمضمونِ ، والقيامُ بالأمر ، والمراعاةُ للسرِّ ، والتخلِّي عن الكونين ، والتعلُّقُ بالحقِّ وحده) .

وكان يقول : رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال لي : يا بُنان ، من أكلَ بشَرَهِ نفسٍ أعمى الله عينَ قلبه ، فانتبهتُ ، وعقدتُ مع الله تعالىٰ أني لا أشبعُ بعدها أبداً ، قال : وكنتُ أكلتُ تلك الليلة رغيفين وقصعةَ عدس .

وكان يقول : (من رضي من الدنيا بالقليلِ مع ذلِّ النفس ، فقد أصابَ الطريقَ) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٨٦) محمد بن أبي الورد رضي الله عنه(٢)

كان من كبار مشايخ العراقيين ، ومن أقاربِ الجُنيد ، ومن جلسائه .

صحب السَّريَّ السَّقطي ، والحارثَ المُحاسبي ، وبشر الحافي ، وأبا الفتح الحمَّال .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٧٠) (١٨٩) .
(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٧١) (١٩٠) .

وطريقُهُ في الورع طريقُ بشر .

وكان يقول : (الغفلةُ عن طاعة الله نقمةٌ)

وكان يقول : (من علامة الولي : أن يُوالي أولياءَ الله ، ويُعادي أعداءه) .

وكان يقول : (من كانت نفسُهُ لا تحبُّ الدنيا فأهلُ الدنيا يحبُّونه ، ومن كان قلبُهُ لا يحبُّ الدنيا فأهلُ السماء يحبُّونه) .

وكان يقول : (من شرطِ الفقير : عدمُ اللَّوم علىٰ مُحبِّي الدنيا تعييراً لهم واحتقاراً ، إنما الواجبُ الدُّعاءُ لهم بالرحمة ، وكشفِ الحجاب) .

وكان يقول : (إنما منعَ الناسَ من الوصول لتضييعهم الأصول) .

ومنهم :

(١٨٧) أخوه أحمدُ بنُ أبي الورد رضي الله عنه[١]

صحب السريَّ السقطيَّ وغيره ، وكان من كبار مشايخ الوقت

وكان يقول : (إنما بُسطَ بساطُ المجد للأولياء ليأنسوا به ، ويُرفع به عنهم حشمةُ بديهة المشاهدة ، وإنما بُسط بساطُ الهيبة للأعداء ليستوحشوا من قبائح أفعالهم لعلهم يرجعون عنها) .

وكان يقول : (من علامة الوليِّ : أنه كلما زاد خلُقُهُ زاد تواضعه ، وكُلَّما زاد مالُهُ زاد سخاؤه ، وكلَّما زاد عمرُهُ زاد اجتهادُه) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٨٨) أبو حمزة محمد بنُ إبراهيم البغدادي رضي الله عنه[٢]

صحب سريّاً السَّقطي ، وحسناً المُسُوحي .

وكان فقيهاً عالماً بالقراءات ، وكان ينتمي إلى المُسُوحي أكثر من السَّريِّ .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٧١) (١٩١) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٧٣) (١٩٢) .

وكان يتكلَّم ببغداد في مسجد الرُّصافة قبل كلامه في مسجد المدينة .

وكان سببُ موته : أنه تكلَّم في المحبة ، فتغيَّرَ عليه الحالُ ، وسقط من الكرسيِّ ، فمات بعد جمعةٍ ، وكان موتُه قبل الجنيد ، وكان من رفقاء أبي تراب النخشبي في أسفاره .

وكان الإمام أحمد بنُ حنبل إذا وقعَ في مجلسه شيءٌ من كلام القوم يقول لأبي حمزة : ما تقولُ في هـٰذا يا صوفي ؟

ودخل البصرة مراراً ، وصحب بشر الحافي .

ومات سنة تسع وثمانين ومئتين(١)

وكان يقول : (من المحال أن تدَّعي محبَّةَ الله وأنت لا تذكرُهُ ، ومن المحال أن تذكرَهُ ثم لا يُوجدك طعمَ ذكره ، ومن المحال أن يُوجدك طعمَ ذكره ثم يُشغلك بغيره) .

وكان يقول : وقفتُ علىٰ راهبٍ في طريق الروم ، فقلت له : هل عندك شيءٌ من خبر من مضىٰ ؟ فقال : نعم ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورىٰ : ٧] .

وكان يقول : (لا يصبرُ علىٰ حبِّ ضيق العيش إلا صدِّيق) .

وكان يقول : (إذا فتحَ اللهُ عليك بشيءٍ من المقامات فإيَّاك أن تنظرَ إليه علىٰ وجه الافتخار ، بل اشتغل بذكرِ المُنعم بذلك(٢) ؛ فإنَّ الحقَّ تعالىٰ غيورٌ لا يحبُّ أن يرىٰ عبدَهُ محبّاً لغيره إلا بإذنه ، وكذلك إذا ابتلاكَ بمرضٍ فإياك أن تشتغلَ بالمرض عن المُمْرِض ، بل ارجعْ في البلاء إلىٰ من أنزله ، فهو أولىٰ) .

وكان يقول : (قد يُقطعُ بقومٍ في الجنة ، كما وقع لآدم عليه السلام ، وهم الذين يُقال لهم : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] فإنه شغلهم عنه بالأكل والشرب ، ولو كانوا يقدرون على الجمعِ بين شهودِهِ تعالىٰ حالَ الأكل ما نُهينا عن الأكل حالَ الصلاة في دار الدنيا) .

---

(١) طبقات الصوفية (ص ٢٩٦) ، الرسالة القشيرية (ص ١٨٦) .

(٢) في « طبقات الصوفية » (ص ٢٩٨) : (ولـٰكن اشتغل بشكر من وفَّقك لذلك) .

وسئل مرةً : هل يتفرَّغُ المحبُّ لشيءٍ سوىٰ محبوبه ؟ فقال : لا ؛ لأنه في بلاءٍ دائم ، وأوجاعٍ مُتَّصلةٍ ، وغُصصٍ يتجرَّعُها لا يعرفها إلا من باشرها

ورُوِي أنه تكلَّم يوماً على الناس ، فأحسن ، فهتف به هاتفٌ : تكلَّمتَ فأحسنتَ ، بقي عليك أن تسكتَ فتُحسن ، فما تكلَّمَ على الناس بعد ذلك حتىٰ مات ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٨٩) أبو بكر محمد بنُ موسى الواسطي رضي الله عنه[١]

أصلُه من فرغانة .

وكان من قدماءِ أصحاب الجُنيد والنُّوري ، ومن مشايخ القوم الكبار .

لم يتكلَّم أحدٌ مثله في أصول التصوف ، وكان عالماً بأصول الدين .

دخل خُراسان ، واستوطن كورة مرو ، ومات بها بعد العشرين والثلاث مئة .

وكلامُه عند أهل مرو ليس بالعراق منه شيءٌ ؛ لأنه خرجَ منها وهو شابٌّ ومشايخُهُ أحياء

وكان يقول : (قد ابتُلينا بزمانٍ ليس فيه آدابُ الإسلام ، ولا أخلاقُ الجاهلية ، ولا أحلامُ ذوي المروءة) .

وكان يقول : (إن خفتَ منَ الله نسبتَهُ إلى البخل ، وإن رجوتَهُ اتَّهمته ، ولا بدَّ لك منهما ، فلذلك كان النقصُ من لازمِكَ) .

وكان يقول : (ربما كان الذاكرُ في ذكره أشدَّ غفلةً من الناسي لذكره) .

وكان يقول : (التقوىٰ : أن يتقي العبدُ رؤيةَ تقواه) .

وكان يقول : (إذا تجلَّى الحقُّ على السرائر ذهب الخوفُ والرجاء) .

وكان يقول : (احذروا من لذَّةِ العطاء ؛ فإنها غطاءٌ ، ولولا شهودُ الحقِّ ما هنئ لعارف عيش) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٧٤) (١٩٣) .

وكان يقول : (قد ذهبتِ الطريقُ وأهلُها ، ولم يبق إلا حسرات) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٩٠) أبو عبد الله السِّجْزي رضي الله عنه[١]

صحب أبا حفص الحداد .

وكان من أكابر مشايخ خراسان ، قطع الباديةَ مراراً على التوكُّل .

ومن كلامه : (من لم يقدِّسْ علمَهُ عن الشوائب لم يُقدِّس عملَهُ ، ومن لم يقدِّس عمَلَهُ لم يقدِّس بدنَهُ ، ومن لم يقدِّس بدنه لم يُقدِّس قلبَهُ ، ومن لم يقدِّسْ قلبه لم يقدِّسْ نيَّتَهُ ، فرجعتِ الأمورُ كلُّها إلى النية ، فلذلك ورد : « إنما الأعمال بالنيات »[٢] .

وكان يقول : (من علامة الولي ثلاث : تواضعٌ عن رفعةٍ ، وزهدٌ عن قدرة ، وإنصافٌ عن قوة) .

وكان يقول : (من عصىٰ بقلبه وجوارحه لا يكفيه إلا التوبةُ بقلبه وجوارحه ، ولا يكفيه لسانُهُ فقط) .

وكان يقول : (لا تُعيِّرْ أحداً إلا إن تيقَّنتَ أن جميعَ ذنوبك مغفورةٌ ، وهـٰذا أمرٌ لا يصحُّ لك علمُهُ في هـٰذه الدار) .

وكان يقول : (أنفعُ شيءٍ للمُريد : صحبةُ الصالحين ، وزيارةُ قبور الأولياء ، وخدمةُ الأصحاب والرفقاء) .

وكان يقول : (لا ينبغي لبس المرقعة إلا لمن لا يشغلُهم شيءٌ عن الله ، أولـٰئك هم الفتيان) ، والله أعلم .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٧٦) (١٩٤) .

(٢) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (٢/ ٢٠) .

ومنهم :

(١٩١) محفوظ بنُ محمود النيسابوري رضي الله عنه[١]

هو من أصحاب أبي حفص النيسابوري ، وكان من قدماء مشايخ نيسابور وجِلَّتهم .

وصحب أبا عثمان الحيري إلىٰ أن مات ، وكذلك صحب حمدون القصار ، وسَلْم الباروسي[٢] ، وعليَّ النَّصراباذي ، وغيرهم .

وكان من أورع المشايخ ، وألزمِهم لطريقة المتقدِّمين .

مات سنة ثلاثٍ أو أربع وثلاث مئة بنيسابور ، ودفن بجوار قبر أبي حفص .

وكان يقول : (التائبُ عندنا قد قطعَ بحار الذنوب المحضة ؛ وإنما يتوبُ من نقص طاعاته) .

وكان يقول : (من ظنَّ بمسلمٍ فتنةً فهو مفتون) .

وكان يقول : (من أراد أن يُبصرَ عيوبَ نفسه فليتَّهمْها في فعل الطاعات ، ويرىٰ أنها كلَّها محشوةٌ من الآفات) .

ومنهم :

(١٩٢) طاهر المقدسي رضي الله عنه[٣]

هو من جلَّة مشايخ الشام وقدمائهم ، رأىٰ ذا النُّون المصري ، وصحب يحيى الجلاَّ .

وكان عالماً عاملاً ، وسمَّاه الشبليُّ حَبْر الشام .

ومن كلامه : (لا يطيبُ العيشُ إلا لمن وطئ علىٰ بساط الأنس ، وعلا علىٰ سرير القدس ، وغيَّبه الأُنسُ بالقدس ، والقدسُ بالأنس ، ثم غاب عن مشاهدتهما بمشاهدة القدُّوس) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٧٧) (١٩٥) .

(٢) في (أ ، ز) : (حامد) بدل (سلم) ، وفي باقي النسخ : (سالم) ، والمثبت من مصادر ترجمته .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٧٨) (١٩٦) .

وكان يقول : (المفاوزُ إليه منقطعةٌ ، والطرقُ إليه مُنطمسة ، والعاقل من وقفَ حيث وقف العوام والسلام) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٩٣) أبو عمرو الدمشقيُّ رضي الله عنه[١]

هو أحدُ مشايخ الشام ، كان علماءُ الشام يذعنون له في سائر العلوم ، لا سيما في علوم الحقائق .

صحب أبا عبد الله محمد بن الجلاَّ ، وأصحاب ذي النُّون المصري .

وله كتابٌ في الردِّ علىٰ من قال بقِدَمِ الأرواح .

مات سنة عشرين وثلاث مئة .

ومن كلامه رضي الله عنه : (إن الله قد افترضَ على الأولياء كتمانَ الكرامات لئلا يُفتتنَ بهم الخلقُ ، وأوجب على الأنبياء إظهارَها بياناً وبرهاناً للحقِّ) .

وكان يقول : (**التصوف** : غضُّ الطرف عن كلِّ شيءٍ ناقص ، ومشاهدةُ من هو منزَّهٌ عن كلِّ نقص) .

وكان يقول : (استحسانُ الكون على العموم دليلٌ علىٰ صحة المحبة ، واستحسانُهُ على الخصوص يؤدي إلى الفتنة والظلمة) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(١٩٤) أبو بكر محمد بنُ حامد الترمذي رضي الله عنه[٢]

هو من أعلمِ مشايخ خُراسان ، وأطهرِهم خلقاً ، وأحسنهم سياسة .

لقي قدماء المشايخ ؛ مثل أحمد بن خضرويه ومَنْ دونه .

وله أصحابٌ ينتمون إليه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٧٨) (١٩٧) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٧٩) (١٩٨) .

ومن كلامه رضي الله عنه : (إذا مكثتِ الأنوارُ في السرِّ نطقتِ الجوارحُ بالبر) .

وكان يقول : (لا يقعُ إنكارُ الكرامات إلا من القلوبِ المحجوبة عن ربِّها ؛ فإن الكراماتِ إنما هي صنعُ الحقِّ جلَّ وعلا) .

وكان يقول : (الوليُّ دائماً في سَتْرِ حاله ، والأكوانُ ناطقةٌ بولايته ، والمدَّعي للولاية ناطقٌ بولاية نفسه ، والكونُ كلُّه يكذِّبُهُ)

وكان يقول : (الاستهانةُ بأولياء الله من قلَّة المعرفة بالله ، وما وصل عبدٌ إلىٰ مقامٍ إلا وهو محترمٌ أهل ذلك المقام ؛ إذِ الإخلالُ بواجبِ حقوقهم يطردُهُ عن حضرتهم) .

وكان يقول : (لا يُسمَّىٰ عالماً إلا من لم يتعدَّ حدودَ الله مرةً في عمره)

وكان يقول : (ما استصغرتُ أحداً من المسلمين في عيني إلا وجدتُ نقصاً في إيماني ومعرفتي) .

وكان يقول : (ما مُنِعَ القومُ من الوصول إلا لركضهم في الطريق بغير دليل ، وأكلهم الشهوات ، وارتكابِ الرُّخص) .

وكان يقول : (رأسُ مالك قلبُك ووقتك ، وقد شغلتَ قلبَك بهواجس الظنون ، وضيَّعتَ أوقاتك باشتغالك بما لا يعنيك ، ومتىٰ يربحُ من يخسرُ رأسَ ماله ؟!)

ومنهم :

(١٩٥) أبو الحسين محمد بنُ سعد الورَّاق رضي الله تعالىٰ عنه[١]

هو من كبار المشايخ ، وقدماء أصحاب أبي عثمان رضي الله عنه ، وله كلام علىٰ سَنَن كلامه .

وكان عالماً بعلوم النقل ، ودقائق المعاملات ، وعيوبِ الأفعال .

مات قبل العشرين والثلاث مئة .

---

(١) في النسخ : (أبو الحسن محمد بن سعيد) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وتقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٨٠) (١٩٩) .

وكان يقول : (من تمامِ العفو : ألا تذكرَ جنايةَ صاحبك بعد أن عفوتَ عنه) .

وكان يقول : (اللئيمُ لا ينفكُّ عن ضيق الصدر أبداً) .

وكان يقول : (أهنأُ العيش المعيشةُ مع شهود الحقِّ) .

وكان يقول : (كانت أحكامُنا في مبادئ أمرنا ونحن بمسجد أبي عثمان الحيري الإيثارَ بما يفتحُ اللهُ علينا ، وألا نبيتَ علىٰ معلومٍ ، وكلُّ من استقبلنا بمكروهٍ لا ننتقمُ لأنفسنا منه ، بل نعتذرُ إليه ، ونتواضعُ له ، وإذا وقعَ في قلبنا حقارةٌ لأحدٍ من المسلمين قمنا بواجبِ خدمته والإحسان إليه حتىٰ يزولَ ذلك) .

ووجد مرةً في نفسه ثقلاً من شخصٍ ، فأقسم باللهِ أن ذلك الشخصَ يدوسُ بنعله علىٰ خدَّيه ، ولا يرفعهما حتىٰ يزولَ ذلك الثقلُ .

وكان يقول : (أنفعُ العلومِ : العلمُ بأحكام الشريعة ، وأعلا العلوم العلمُ بالله وأسمائه ، وصفاته ، وآداب حضرته) .

وكان يقول : (خوفُ القطيعة أذبلَ قلوبَ المحبِّين ، وأحرقَ أكبادَ العارفين) .

وكان يقول : (الأنسُ بالخلق وحشةٌ ، والطمأنينةُ إليهم والسكون إليهم عجزٌ ، والاعتماد عليهم ضعفٌ ، والثقةُ بهم ضياعٌ) ، والله أعلم .

ومنهم :

(١٩٦) ممشاذ الدينوري رضي الله عنه[(١)]

كان من كبار مشايخ القوم ، صحب ابن الجلاَّ ومَنْ فوقه من المشايخ .

وكان عظيم المرمىٰ في علومِ القوم ، كبيرَ الحال ، ظاهرَ الفتوَّة .

مات سنة سبع وتسعين ومئتين ، ودُفن بقَرَافة مصر تحت الجبل المقطَّم .

كانت النُّسورُ تُظلُّه في الهجير إذا وقف يُصلِّي في البرية .

---

(١) كذا في (ز) ، وفي سائر النسخ : (أبو الحسن الصائغ) بدل (ممشاذ) ، وفي (ك) : (أبو الحسن علي بن سهل الصائغ) ، والمثبت موافق لما في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٨٣) (٢٠٢) ، ولـ« مناقب الأبرار » (٢/ ٦١٤) (٦٠) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها .

وكان يقول : (طريقُ الحقِّ بعيد ، والصبرُ على مقدور الله شديدٌ ، والصبرُ مع الله يُذيب الجليد) .

وكان يقول : (لو أنك جمعتَ علمَ الأولين والآخرين ، وحصل لك أحوالُ الأولياء والمقرَّبين لا تصلُ إلىٰ درجاتِ العارفين حتىٰ يسكنَ سرُّك إلى الله ، وتثقَ بضمانه فيما وعدك وقَسَمَ لك) .

وكان يقول : (من كان الحقُّ همَّتَهُ ، لم تستطعْهُ الأقدار ، ولم تملكْهُ الأخطار) .

وكان يقول : (ما دخلتُ قطُّ على فقيرٍ إلا وأنا فارغٌ من جميع العلوم والمعارف والآداب ، أنتظرُ بركات ما يردُ عليَّ من رؤيته وكلامِه ؛ لأن من دخل على الشيوخِ بحظِّ نفسٍ انقطعَ عنه الإمدادُ ، وربما مُقت) .

وكان يقول : (أحسنُ الناس حالاً : من أسقطَ عن نفسه رؤيةَ مراعاة الخلق ، وراعىٰ سرَّهُ مع الله تعالىٰ ، واعتمدَ عليه في جميعِ أموره) .

وكان يقول : (أرواحُ الأنبياء لا تزالُ في حضرة المكاشفة والمشاهدة ، وأرواحُ الأولياء لم تزلْ في القُرب والاطِّلاع) .

وكان يقول : (تناولتُ مرَّةً شهوةً ، ففقدتُ قلبي عشرين سنة ، ثم جمعتُهُ على الحقِّ عشرين سنة ، ثم تركتُ قولي للشيءِ « كنْ » فيكون عشرين سنة أدباً مع الله تعالىٰ) .

وكان يقول : (كان عندي مريدٌ أخذ في تقليل الأكل حتىٰ وقفَ علىٰ نواةٍ ، ثم تركَ النواةَ ، واكتفىٰ بالماء إلىٰ أن مات) .

وقيل له مرةً : إذا جاعَ الفقيرُ أَيش يعمل ؟ قال : يصلي ، قيل : فإن لم يقدر ؟ قال : ينامُ ، قيل : فإن لم يقدر ؟ قال : إن الله تعالىٰ لا يُخلِّي فقيراً عند هٰذه الثلاث من ثلاث : إما يقوِّيه ، وإما يغذِّيه ، وإما يأخذه إليه ، والله أعلم .

ومنهم :

(١٩٧) أبو الحسن خير النسَّاج رضي الله عنه(١)

أصلُه من سُرَّ من رأىٰ ، إلا أنه أقام ببغداد .

وصحب أبا حمزة البغدادي ، ولقي السريَّ السقطي ، وهو من أقران أبي الحسين النُّوري .

وعُمِّرَ مئةً وعشرين سنة علىٰ ما قيل .

وتاب في مجلسه الخوَّاصُ ، والشِّبليُّ ، وكان أستاذَ الجماعة .

وكان يقول : (الصبرُ من أخلاق الرجال ، والرضا من أخلاق الكرام) .

وكان يقول : (العملُ الذي يصلُ العبدُ به إلى الدرجات العُلىٰ هو رؤيةُ التقصير والعجز والضعف) .

وكان يقول : (قصَّ موسىٰ عليه السلام يوماً في بني إسرائيل ، فزعقَ واحدٌ من القوم ، فانتهره موسىٰ ، فأوحى اللهُ إليه : يا موسىٰ ، بطيبي باحوا ، وبوجدي صاحوا ، فلِمَ تُنكر علىٰ عبادي ؟!) .

ولما حضرتْ خيرَ النساج الوفاةُ رأىٰ مَلَكَ الموت ، وقال له : قف عافاك الله ، حتىٰ أُؤدِّي فريضةَ العصر ؛ فإنَّكَ عبدٌ مأمور ، وأنا عبدٌ مأمور ، وما أُمرتَ به أنت لا يفوتك ، وما أُمرتُ أنا به يفوتني ، ثم تشهَّدَ ومات ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(١٩٨) أبو حمزة الخراساني رضي الله عنه(٢)

يقال : إن أصله من نيسابور ، من محلَّة مَلْقَاباذ .

صحب مشايخ بغداد ، وهو من أقرانِ الجُنيد ، وسافر مع أبي تراب النَّخشبي وأبي سعيد الخراز ، وكان من أورع المشايخ .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٨٥) (٢٠٣) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٨٥) (٢٠٤) .

مات سنة تسع وثلاث مئة .

وكان الإمامُ أحمد يُكرمه ويُجلّه .

وكان يقول : (بقيتُ في بداية أمري مُحرماً في عباءةٍ أسافرُ ألفَ فرسخٍ كلَّ سنةٍ ، كلّما تحلَّلْتُ أحرمتُ جديداً سنين عديدة) .

قلت : ولعل المراد بالتحلُّل إتيانُ شهوةٍ من الشهوات ، والمراد بالإحرام التوبةُ منها ، والله أعلم .

ومنهم :

(١٩٩) أبو إسحاق إبراهيم بن داود القصار الرقي رضي الله عنه[١]

من كبار مشايخ الشام ، من أقران الجنيد وابن الجلاَّ ، إلا أنه عَمَّر طويلاً ، وصحب أكثر المشايخ من الشام .

وكان ملازماً للفقر ، مجرداً فيه ، محبّاً لأهله .

مات سنة ست وعشرين وثلاث مئة .

وكان يقول : (حسبك من الدنيا شيئان : صحبة فقير ، وحرمة وليٍّ) .

وكان يقول : (الأبصار قوية ، والبصائر ضعيفة)

ومنهم :

(٢٠٠) أبو الحسن بن سهل الصائغ الدينوري[٢]

من كبار المشايخ ، **أقام بمصر** ، **ومات بها في سنة ثلاثين وثلاث مئة** .

وكان كبيرَ الهيبة ، يهابه كل من رآه ، وكان من المخلصين في المعاملة مع الله .

كان رضي الله عنه يقول : (ينبغي للمريد أن يتركَ الدنيا مرتين : الأول : يتركها

---

(١) انفردت بهـٰذه الترجمة النسخة (ز) ، وذلك موافق لما في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٨٣) (٢٠١) .

(٢) انفردت بهـٰذه الترجمة النسخة (ز) ، وذلك موافق لما في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٥٩، ٣٨٢) ، و(٣/ ٢٤٥، ٢٦٦) .

بمناصبها ونعيمها ، وألوان مطاعمها ومشاربها ، وجميع ما فيها ، ثم إذا عرف بترك الدنيا وعُظِّم وبُجِّل ، وأكرم بسبب تركها . . ينبغي له إذ ذاك أن يستر حاله بالإقبال على أهلها ؛ لئلا يكون تركه للدنيا هو أعظم من الإقبال عليها ، وطلبها فتنة أعظم منها) .

وكان يقول إذا سئل عن الاستدلال بالشاهد عن الغائب يقول : (كيف يُستدلُّ بصفات من [يُشاهَد][1] ويُعايَنُ وذي مثلٍ على صفات من لا يُشاهَدُ ولا يُعايَنُ، ولا مثلَ له ولا نظير) .

وكان يقول : (من تعرض لمحبة الله جاءته المحن والبلايا والآفات من سائر الأقطار) .

وكان يقول : (يجب على الإخوان كلما اجتمعوا أن يتواصوا بالحق ، ويتواصوا بالصبر ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر : ٣]) .

وكان يقول : (محبتك لنفسك هي التي أهلكتك) ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومنهم :

(٢٠١) أبو عبد الله الحسين بنُ عبد الله بن بكر الصُّبَيْحي رضي الله عنه[2]

كان من أكابر مشايخ أهل البصرة .

وكان مُعتزلَ الناس ، مكثَ في سَرَبٍ في داره لم يخرج ثلاثين سنة[3]

وكان اجتهادُهُ فوق الحدِّ ، لا يفترُ عن العبادةِ ، حتى أخرجَهُ أهلُ البصرة منها إلى السُّوس[4] ، فمكثَ بها حتى ماتَ ، وقبرُهُ بها ظاهر .

---

(١) في (الأصل) : (لا يشاهد) ، والتصحيح من « الكبرى » ، « ومناقب الأبرار » (٢/٦٠٧) .
(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (١/٣٨٦) (٢٠٥) .
(٣) السَّرَب : البيت ، أو الحُفير تحت الأرض .
(٤) السُّوس : مدينة الأهواز في القديم . انظر « الروض المعطار » : (ص ٣٢٩) .

وكان عالماً بالكتاب والسُّنة ، وصاحبَ ورعٍ ولسانٍ في الطريق .

وكان يقول : (السماعُ بالتصريح جفاء ، والسماعُ بالإشارة تكليف ، وألطفُ السماع ما جلا بلا تكلُّف)[١]

وكان يقول : (علامةُ من يحبُّ الدنيا : أن تقطعَهُ عن الآخرة ؛ فإن الحكمَ للأغلب).

وكانوا إذا اجتمعوا يكونُ هو المشارَ إليه دونهم .

وكان يقول : (ابتُلِيَ الخلائقُ بالدعاوى العريضة في المغيب ، فإذا أظلَّتْهُم هيبةُ المشهد خرسوا وانقمعوا ، وصاروا لا شيءَ ، ولو صدقوا في دعاويهم لثبتوا عند المشاهدةِ ، كما برزَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم للشفاعة دون غيره ، ويقول : « أنَا لهَا أنَا لهَا »[٢] ولم ترعْهُ هيبةُ الموقف ؛ لما كان عليه من قدم الصدق) .

وكان يقول : (ليس الغريبُ الذي بَعُدَ عن وطنه ، وإنما الغريبُ الذي قلَّ جنسُهُ ، وقلَّتْ أشكالُه) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٢٠٢) أبو جعفر أحمد بنُ حمدان بن علي بن سِنان رضي الله عنه[٣]

كان من كبار المشايخ بنيسابور .

صحب أبا عثمان الحيري ، ولقي أبا حفص الحداد .

وكان من أورعِ الناس ، وأخوفِهم من الله عز وجل ، جاور في مكَّة آخرَ عمره عشرين سنة متوالية .

---

(١) في « طبقات الصوفية » (ص٣٢٩) : (وألطف السماع ما يُشكل إلا على مستمعه) .

(٢) جزء من حديث طويل رواه البخاري (٧٥١٠) ، ومسلم (١٩٣/٣٢٦) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهـٰذه الكلمة يقولها صلى الله عليه وسلم عندما تتوجه إليه الخلائق كافة يوم الحشر طالبة منه الشفاعة ؛ وذلك بعد أن سألوا سيدنا آدم ، وإبراهيم ، وموسىٰ ، وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام وكلهم يقول : لست لها ، وتقدم تخريجه (١/ ٣٨٩) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٨٧) (٢٠٦) .

وكان أوحدَ مشايخ الحرم في وقته .

مات رضي الله عنه سنة إحدىٰ عشرة وثلاث مئة .

وكان يقول : (تكبُّرُ المطيعين على العصاة بطاعتهم شرٌّ من معاصيهم ، وأضرُّ عليهم منها ، كما أن التهاون بالتوبةِ عن الذنب شرٌّ من الذنب) .

وكان يقول : (كيف يُبغض أحدُكم أخاه بذنبٍ واحدٍ ارتكبه ولا يبغض نفسه بذنوبٍ كثيرةٍ ارتكبها وتيقنها ؟!) .

وكان يقول : (من سكنتْ عظمةُ الله قلبَهُ عظَّم كلَّ من انتسب إلى الله بالعبودية)

وكان يقول : (من علامة صدقِ من انقطع إلى الله تعالىٰ ألا يشغلَه عن الله شيءٌ في الكونين) والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٢٠٣) أبو بكر دُلَفُ بنُ جَحْدر الشبلي رضي الله عنه[١]

خراسانيُّ الأصل ، بغداديُّ المولد والمنشأ ، تابَ في مجلس خيرِ النسَّاج .

وصحب أبا القاسم الجُنيد ومن في عصره من المشايخ ، وصار أوحدَ أهل الوقت علماً وحالاً وظرفاً .

تفقَّه علىٰ مذهب الإمام مالك ، وكتبَ الحديث الكثير .

عاش سبعاً وثمانين سنة ، **ومات سنة أربعٍ وثلاثين وثلاث مئة** ، ودفن ببغداد بمقبرة الخيزران ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

وكانت مُجاهداتُهُ في بدايته فوقَ الحدِّ .

وكان يقول : (اكتحلتُ بالملح كذا كذا ليلةً لأعتادَ السهر ، فلا يأخذني النومُ ، فلما قوي عليَّ الحالُ حمَّيتُ المِيلَ ، واكتحلتُ به) .

وكان والياً بالبصرة ، فلما تابَ كان يقول : (أَرْضَيْتُ بحمدِ الله سائرَ أخصامي ،

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٨٨) (٢٠٧) .

إلا درهم واحد لبقَّال لم أجدْه ، فتصدَّقتُ عنه بألوفٍ ، وما على قلبي أثقلُ منه) .

وكان يقولُ في علمِ القوم : (ما ظنُّك بعلمٍ كان علمُ العلماء فيه تهمةً ؟!) .

وقيل له مرةً : إن أبا تُراب النَّخْشبي جاعَ في البادية ، فرأى الباديةَ كلَّها طعاماً ، فقال : هذا عبدٌ رُفقَ به ، ولو بلغ إلى محلِّ التحقيق لظلَّ يُطعمُهُ ربُّهُ ويسقيه ، كما كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل له : متى يكملُ حالُ المريد ؟ فقال : إذا استوتْ حالاتُهُ في السفر والحضر ، والمشهد والمغيب .

وسئل مرةً عن الدنيا : ما هي ؟ فقال : (قِدْرٌ يغلي ، وكنيفٌ يُملأُ) .

وكان يقول في مناجاته : (الخلقُ يحبُّونك لنعمائك ، وأنا أحبُّك لبلائك) .

وكان يقول : (رفع اللهُ العبادَ على قدرِ علوِّ هممهم ، ولو أنه أجرى على الأولياء ذرَّةً مما أجراه على الأنبياء لذابوا وتقطَّعوا)

ووقع له مرةً أنَّه أخَّرَ العصرَ حتى دنتِ الشمسُ إلى الغروب ، فقام وصلَّى ، وأنشأ مداعباً متبسماً : [من الوافر]

نسيتُ اليومَ منْ عِشقِي صلاتِي ... فلا أدري عشائِي من غدائِي

وكان يقول : كلُّ صدِّيقٍ لا يكون له كرامةٌ فهو كذَّاب ، فلما أدخلوه البيمارستان دخلَ عليه الوزيرُ ، فقال له : أين قولُك : كلُّ صدِّيقٍ لا يكون له كرامةٌ فهو كذَّاب ؟! فما كرامتك أنت ؟ فقال : كرامتي موافقةُ الله في أوامره ونواهيه

وكان يقول : (ليس للمريد فترةٌ ، ولا للعارف علاقةٌ ، ولا للمحبِّ سكونٌ ، ولا للصادق دعوى ، ولا للخائف قرارٌ ، ولا للخلقِ من الله فرارٌ) .

وكان يقول : (العارفون نيامٌ ، والجاهلون أموات) .

ومزَّقَ مرةً ثيابَهُ على العيد ، فقالوا له : كيف تمزِّقُ ثيابك والعيدُ قد أقبل ؟! فقال : زينةُ الفقير فقرُهُ وصبرُهُ على فقره .

وكان يقول : (إنما تصفرُّ الشمسُ عند الغروب ؛ لأنها عُزلتْ عن مكانِ التمام ،

فاصفرَّتْ لخوفِ المقام ، وهٰكذا المؤمن إذا قاربَ خروجُهُ من الدنيا اصفرَّ لونُهُ ؛ لأنه يخافُ المقام ، وإذا طلعتِ الشمسُ طلعتْ مضيئةً منيرة ، وكذلك المؤمن إذا خرجَ من قبره خرجَ ووجهُهُ مشرقٌ مُضيءٌ) .

وكان يقول : (بلغتُ من مقام الذُّلِّ إلىٰ أن صار ذُلِّي قد عطَّل ذُلَّ اليهود) .

وجاءه رجلٌ فقال : يا سيدي ، كثرتْ عيالي ، وقَلَّتْ حيلي ، فقال له : ادخلْ دارك ، فكلُّ من رأيتَ رزقَهُ عليك دونَ الله فأخرجْه من الدار .

وكان من شأنه : أنه إذا أعجبه صوفٌ نفيس ، أو قلنسوةٌ نفيسة ، أو عِمامة . . لفَّها وأدخلها النار فحرقها .

ووقع له : أنه لبس يومَ عيدٍ ثوبين جديدين ، فرأى الناسَ يُسلِّم بعضُهم علىٰ بعضٍ لأجل الثياب ، فطرح ثوبيه في التنُّور ، فقيل له في ذلك ، فقال : أردتُ أن أحرقَ ما يعبدُ هٰؤلاء ، ثم لبسَ ثياباً زرقاء سوداء .

قلت : وهٰذا مما تُنكره ظواهرُ الشريعة ، **والجواب** : أن ذلك من قاعدة إذا تعارضَ مفسدتان ارتكبنا الأخفَّ منهما ، ولا شكَّ أنَّ العاقلَ إذا نظرَ إلىٰ عظمة الله عز وجل استصغرَ إتلافَ الدنيا كلِّها لو كانت بيده إذا شغلتْهُ عن الله عز وجل ، والله تعالىٰ أعلم .

وقيل له مرَّةً : متىٰ تستريح ؟ فقال : إذا لم أرَ للهِ ذاكراً .

يعني به : أني لا أستريحُ إلا إذا دخلتُ حضرةَ الشهود ؛ لأن حضرةَ الشهود لا ذكرَ فيها استغناءً بالشهود عن الذِّكر ؛ لأن الذكرَ إنما هو للغائب

وقيل له مرةً : لِمَ سُمِّيتِ الصوفيةُ بهٰذا الاسم ؟ فقال : لبقيَّةٍ بقيتْ عليهم ، ولولا ذلك ما تعلَّقتْ بهم تسميةٌ .

وكان يقول : (من ذاقَ ذرَّةً من التوحيد عجزَ عن حمل بقَّةٍ ؛ لثقلِ ما حُمِّلَ) .

وسُئل مرةً عن المعرفة ، فقال : (بدايتها الله ، وآخرُها ما لا نهاية له) .

وكان يقول : (العارفُ لا يكون لكلامِ غيره لاقطاً ، ولا للغيرِ لاحظاً ، ولا يرىٰ لنفسه غيرَ الله حافظاً) .

وكان يقول : (المحبُّ إذا لم يتكلَّم هلك ، والعارفُ إذا تكلَّم هلك) .

وفي رواية عنه : (إذا تكلَّمَ العارفُ أهلك نفسه ، وإن سكتَ أهلك غيره[١] ، فنجاةُ نفسه أولىٰ ، والسلام) .

وصلىٰ مرَّةً خلفَ إمامٍ فقرأ : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ . . . ﴾ الآية [الإسراء : ٨٦] ، فزعق زعقةً كادت روحُهُ تزهقُ ، فقال : هـٰذا خطابُهُ لأحبابه ، فكيف خطابُهُ لأعدائه كأمثالنا ؟!) .

وكان يقول : (سمعتُ الحقَّ تعالىٰ يقول : من نامَ غَفَلَ ، ومن غفَلَ حُجب ، وهـٰذا كان سببَ اكتحالي بالملح حتىٰ لا أنام) .

وقال مرةً لتلميذه الحصْري في بداية أمره : (يا حُصْريُّ ؛ إنْ خطرَ في بالك من الجمعةِ إلى الجمعة الثانية غيرُ الله فلا تعدْ تحضرني ؛ فإنك لا يجيءُ منك شيءٌ) .

وكان يقول : (في البيت الحرام آثارُ خليله عليه السلام ، وفي القلبِ آثارُ الحقِّ جلَّ وعلا ، وللبيت أركانٌ ، وللقلب أركانٌ ، فأركانُ البيتِ من الصخر ، وأركانُ القلب من معادن أنوار معرفته) .

وكان يقول : قيل لمجنون ليلىٰ : أتحبُّ ليلىٰ ؟ قال : لا ، قيل : ولِمَ ؟ قال : المحبةُ ذريعةٌ إلى الوصلة ، وقد سقطتِ الذريعةُ ؛ فليلىٰ أنا وأنا ليلىٰ .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور : ٣٠] قال : (أبصارُ الرُّؤوس عمَّا حرَّم الله ، وأبصارُ القلوب عمَّا سوى الله) .

وكان يقول : (أهلُ البلاء : هم أهلُ الغفلة عن الله) .

وكان إذا دخل عليه فقيرٌ يقول : أعندك خبرٌ من ليلىٰ ، ثم ينشد : [من الطويل]

أسائلُ عنْ ليلىٰ فهلْ منْ مُخبِّرٍ ... يُخبِّرُنا عِلماً بها أينَ تَنزلُ

ثم يقول : وعزَّتك ؛ ما عنها في الدَّارين مخبرٌ .

---

(١) في (هـ ، ح ، ط ، ك) : (إذا تكلم العارف أهلك نفسه وغيره ، وإن سكت أهلك غيره) .

وكان يقول : ما ظنُّك بمن جميعُ الشموسِ فيه ظُلمةٌ ، ثم ينشد[١] : [من الخفيف]

أيُّها المُنكِحُ الثُّريا سُهيلاً ... عمرُكَ اللهُ كيفَ يلتقيانِ

هيَ شاميَّةٌ إذا ما استهلَّتْ ... وسهيلٌ إذا استهلَّ يمانِي

وتواجد شخصٌ في مجلسه بغير صدقٍ ، فأمرَ برميه في الدجلة ، وقال : إن كان صادقاً نجَّاه الله كما نجَّىٰ موسىٰ ، وإن كان كاذباً أغرقَهُ الله كما أغرقَ فرعون .

ومناقبه كثيرة مشهورة ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٠٤) أبو محمد عبدُ الله بنُ محمد المُرتعش النيسابوري رضي الله عنه[٢]

صحب أبا حفص ، وأبا عثمان ، والجُنيد ، وأقام ببغداد حتىٰ صارَ أوحدَ مشايخ العراق .

وكانوا يقولون : عجائبُ بغداد في التصوف ثلاثةٌ : الشبليُّ في الإشارات ، والمُرتعش في النُّكت ، وجعفر الخلدي في الحكايات .

وكان مقيماً في جامع الشُّونيزية إلىٰ أن مات ببغداد سنة ثمانٍ وعشرين وثلاث مئة .

وكان يقول : (سكونُ القلب إلىٰ غير الله عقوبةٌ عجَّلها الله للعبد في الدنيا) .

وكان يقول : (قد ذهبتْ حقائقُ الأمورِ في عصرنا هٰذا ، وما بقي منها إلا الأسماء ؛ فالحقائقُ مفقودةٌ ، والدَّعاوي الكاذبةُ موجودةٌ ، وفي السرائر مكتوبة) .

وكان يقول : (من كَمُلَ إسلامُه أحبَّهُ الخلق ، ومن كمل إيمانُهُ استغنىٰ عن الخلق) .

ودخل المسجدَ مرَّةً يعتكفُ في رمضان ، فرأى المتعبِّدين يتهجَّدون ، والقرَّاء يقرؤون ، فقطعَ الاعتكافَ وخرج ، فقيل له في ذلك ، فقال : لما رأيتُ تعظيمهم

---

(١) البيتان لعمر بن أبي ربيعة . انظر « ديوانه » (ص ٤٩٥) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٩٤) (٣٠٨) .

لعباداتهم ، واعتمادَهم عليها دون الله . . لم يسعني إلا الخروج ؛ خوفاً من نزولِ البلاء عليهم ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٢٠٥) أبو علي الرُّوْذْباري رضي الله عنه[١]

واسمه : أحمد بن محمد ، من ذرِّيةِ كسرىٰ ، وهو من أهل بغداد .

سكن مصرَ ، وكان شيخَها ، **وبها مات رضي الله عنه سنة اثنين وعشرين وثلاث مئة** ، ودُفن بالقَرَافة بجوار ذي النُّون المصري .

صحب الجُنيد ، والنُّوري ، وأبا حمزة البغدادي .

وكان حافظاً للحديث ، ظريفاً ، عارفاً بالطريقة .

وكان يفتخرُ بمشايخه ويقول : (شيخي في التصوف الجُنيد ، وفي الفقهِ أبو العباس ابنُ سريج ، وفي الأدب ثعلب ، وفي الحديث إبراهيم الحربي ، رحمهم الله) .

وكان يقول : (الإشارةُ تصحبها العلل ، والعللُ بعيدةٌ من الحقائق)

وسئل عمن يسمعُ الملاهي ويقول : إنها لا تؤثِّرُ فيَّ ؛ لأني وصلتُ إلىٰ مقامٍ لا يؤثِّرُ فيَّ الاختلافُ ، فقال : قد وصلَ ، ولـٰكن إلىٰ سَقَر .

وكان يقول : (لو تكلَّم أهلُ التوحيد بلسان التجريد لم يبق محبٌّ إلا مات لوقته) .

وكان يقول : (سبحان من لا يَشهدُهُ شيءٌ ، ولا يغيبُ عنه شيء) .

وكان يقول : (لمَّا تشوَّقتِ القلوبُ إلىٰ مشاهدة ذات الحقِّ ألقىٰ إليها الأَسامي ، فسكنتْ وركنت إليها ، والذات مستترة إلى التجلِّي الأُخروي ، وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] أي : قفوا معها عن إدراك الحقائق) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٩٥) (٢٠٩) .

وكان يقول : (المشاهداتُ للقلوب ، والمكاشفاتُ للأسرار ، والمعايناتُ للبصائر ، والمرئيات للأبصار) .

وكان يقول : (من نظرَ إلىٰ كمالِ نفسه مرةً عمي قلبُهُ عن النظرِ إلىٰ شيءٍ من الأكوان علىٰ وجه الاعتبار) .

وكان يقول : (ما ادَّعىٰ أحدٌ قطُّ دعوةً إلا لخلوِّهِ عن الحقائق ؛ إذ لو تحقَّقَ بشيءٍ لنطقتْ عنه الحقيقةُ ، وأغنته عن الدعاوىٰ) .

وكان يقول : (التصوفُ : هو الإناخةُ علىٰ باب الحقِّ ، وإن طردوه) .

وكان يقول : (أدركنا الناسَ وهم يجتمعون لا عن مواعدةٍ ، وإذا شاورهم فقيرٌ في الذهاب يُعرِضون عنه بعدمِ الجواب) .

وكان يقول : (من علامةِ مقتِ الله للعبد : أن يضجرَ من طولِ مجالسِ الذكر ؛ لأنه لو أحبَّ الحقَّ تعالىٰ لكان مجالستُهُ له ألفَ سنةٍ كلمحةٍ) .

وكان يقول : (لا ينبغي أن يتصدَّىٰ لتربية الأحداث إلا الكُمَّلُ ، لعظم سياستهم ؛ لأن الأحداث شعبةٌ من الجنون وقد كان أحدهم يربي الحدث حتىٰ تطلع لحيته ، لا يعلم بذلك إلا من الناس) .

قال : وكان عندنا ببغداد عشرة فتيان معهم عشرة أحداث ؛ كل واحد منهم معه حدث ، وكانوا مجتمعين في موضع ، فوجهوا واحداً من الأحداث ليأخذ لهم حاجة ، فأبطأ عليهم ، فغضبوا لتأخره عنهم ، ثم أقبل وهو يضحك وبيده بطيخة يُقلِّبها ، فقالوا له : بكم اشتريتها ؟ فقال : بعشرين درهماً ، فقالوا له : ما السبب في غلوها ؟! فقال رأيت فقيراً وضع يده عليها ، فالتمست لكم البركة بوضع يده عليها ، فرضوا منه ذلك وتقاسموها ، وقالوا : زادك الله تعظيماً لأهل الطريق ، فما مات الحدث حتىٰ صار من أكابر أهل الطريق][1]) .

وكان يُطعم الفقراءَ الحلوىٰ ، حتى اتَّخذَ مرَّةً أَحمالاً من السُّكَّر الأبيض ، ودعا

---

(١) ما بين معقوفين زيادة من « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٩٧) .

جماعةً ممن يعمل الحلاوة ، فعملوا من ذلك السُّكَّر جداراً ، وعليه شرافاتٌ ومحاريبُ علىٰ أعمدةٍ مَنقوشة ، كلُّها من السكر ، ثم دعا الفقراءَ ، فهدموها وكسروها وانتهبوها ، وهو يتبسم ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٠٦) أبو علي محمد بنُ عبد الوهاب الثقفي رضي الله عنه[١]

لقي أبا حفص الحداد ، وحَمدون القصَّار .

وكان إماماً في علوم الشريعة ، مقدَّماً في كلِّ فنٍّ ، ثم ترك ذلك كلَّهُ ، واشتغل بعلمِ الطريق فقط ، فتكلَّمَ فيها أحسنَ كلامٍ ، وبه ظهرَ التصوفُ بنيسابور .

مات سنة ثمانٍ وعشرين وثلاث مئة .

وكان يقول : (من صحبَ المشايخ من غير طريقِ الحُرمةِ حُرم فوائدَهم وبركاتِ نظرهم ، ولم يظهرْ عليه من أنوارِهم شيءٌ) .

وكان يقول : (من غلبتْهُ شهوتُهُ فهو حمار ، ومن غلبه هواه تَوارىٰ عنه عقلُهُ)

وكان يقول : (قد وسَّعَ اللهُ عز وجل علىٰ عباده بالغفلة عنه ، ولولا هي ما هنَّأَهم العيشُ من عظيم ما كانوا يشاهدون) .

وكان يقول : (لو أنَّ رجلاً جمعَ العلوم كلَّها ، وصحب طوائفَ الناس ، لا يبلغُ مبالغ الرجال إلا بالتأدُّبِ علىٰ يدِ شيخٍ ناصح ، فإنْ لم يلقَ شيخاً ناصحاً ، وادَّعى الطريقَ . . فكلُّ دعاويه رعوناتُ نفسٍ ، ولا يجوز لأحدٍ الاقتداء به في تصحيح المعاملات) .

وكان يقول : (يأتي علىٰ هـٰذه الأمة زمانٌ لا تطيبُ فيه المعيشةُ لمؤمنٍ إلا بعد استناده لمنافقٍ يحميه) .

وكان يقول لأصحابه : (قد بعتم كلَّ شيءٍ بلا شيء ، واشتريتم لا شيءَ بكلِّ شيءٍ) ، والله أعلم .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٣٩٨) (٢١٠) .

ومنهم :

(٢٠٧) [عبد الله] بن محمد بن مُنازل النيسابوري رضي الله عنه[١]

كان شيخَ الملامتية ، وأوحدَ وقته بنيسابور ، وله طريقةٌ تفرَّد بها .

صحب حمدونَ القصَّار ، وأخذَ طريقه .

وكان عالماً بالشريعة ، كتبَ الحديث الكثير .

مات بنيسابور سنة تسعٍ وعشرين وثلاث مئة .

وكان يقول : (مَنْ مقتَ نفسَهُ عند نفسه عاشَ الناسُ في ظلِّه) .

وكان يقول : (لا تُعبِّروا إلا عن أحوالكم ، وإياكم أن تكونوا حاكين أحوالَ غيركم ؛ فإن الطريقَ إنما هي ذوقٌ) .

وكان يقول : (إذا لم ينتفعِ الإنسانُ بعلمِ نفسه فكيف ينتفع به غيرُهُ ؟!) .

وكان يقول : (ما تهاون أحدٌ بالسُّنن إلا ابتُلي بالوقوع في البدع) .

وكان يقول : (لا يجتمعُ التسليمُ والدَّعاوىٰ لأحدٍ بحال) .

وكان يقول : (لو صحَّ لأحدٍ نَفَسٌ من أنفاسه خالياً من الرياء والنِّفاق لعادَ عليه بركةُ ذلك إلىٰ آخر عمره) .

وكان يقول : (لا تنظر إلىٰ عيوبِ من أنتَ محتاجٌ إلىٰ علمه ؛ فإن نظرَكَ إلىٰ عيوبه يحرمُكَ بركةَ الانتفاع بعلمه) .

وكان يقول : (من أفضلِ أوقاتك وقتٌ يسلمُ الناسُ فيه من سوء ظنِّك) ، والله أعلم .

---

(١) في النسخ : (أبو عبد الله) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وتقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٩٩) (٢١١) .

ومنهم :

(٢٠٨) أبو مُغيث الحسين بنُ منصور الحلاج رضي الله عنه[١]

كان من أهل بيضاء فارس ، ونشأ بواسط العراق .

وصحب الجُنيد ، والنُّوري ، وعَمرو بن عثمان المكي ، والفُوطي ، وغيرَهم .

وقد اختلف المشايخُ في أمره ؛ فمنهم من ردَّهُ ، ومنهم من قبله ، وهم الجمُّ الغفير[٢]

فممَّن قبله : أبو العباس بنُ عطاء ، ومحمد بنُ خفيف ، وأبو القاسم النَّصراباذي ، وأثنوا عليه ، وصحَّحوا حالَهُ ، وحكوا عنه كلامَهُ في الطريق وعقائده ، وجعلوه من المحقِّقين ، حتىٰ كان محمد بنُ خفيف يقول : (الحسين بنُ منصور عالمٌ ربَّانيٌّ) .

قُتل رضي الله عنه بباب الطَّاق ببغداد يوم الثلاثاء لستٍّ بقين من ذي القعدة سنة تسعٍ وثلاث مئة .

قال ابن خلكان[٣] : الذي اطَّلعتُ عليه من طبقات الأشياخ المحقِّقين : أنَّ الحلاجَ قُتل ، ولم يثبتْ عنه ما يُوجبُ القتل ؛ وذلك أنه لمَّا وقع في المحنة قام معه غالبُ العامة ، فخاف الخليفةُ منهم ، فجعلَ الأمرَ للوزير ، فلما عقدوا المجلسَ قال القاضي للحلاج : من أين لك ما تقول يا مُراقَ الدم ؟! فحفظها الوزيرُ ، وذهب إلى الخليفة ، فقال : قد حكمَ القاضي بكفرِهِ ، فقال : اصلبوه ، فما وسعه إلا التسليمُ لأمرِ الله عز وجل ، ولم يتَّفقْ مراجعةُ القاضي في قوله : يا مراق الدم إلا بعد الصلب ، ثم راجعوا القاضي بعد ذلك ، فقال : إنَّما قصدتُ بقولي : مراقَ الدم الشَّتمَ له لا غير .

وكان من جملة من أثبتَ للحلاجِ الصلاح الإمامُ أبو القاسم القشيري ، ولكن لما

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٠٠) (٢١٢) .

(٢) الكلام من « طبقات الصوفية » (ص ٣٠٧) ، وفيه : (ردَّه أكثر المشايخ ، ونفوه ، وأبوا أن يكون له قدم في التصوف ، وقبله آخرون ، من جملتهم) .

(٣) لم أجد قوله هـٰذا في المطبوع من « وفيات الأعيان »

كان إماماً مُتَّبعاً سترَ أمرَهُ عن العامة ، فذكره أولَ « رسالته »[١] وزكّىٰ عقيدته فتحاً لبابِ إحسان الظنِّ به ، ولما ذكرَ مناقبَ الرجال ذكره في أواخرهم[٢] ؛ لئلا تتطرَّقُ التهمةُ إلىٰ أهل الله ؛ لما قيل فيه .

وكان أبو العباس الرازي يقول : كان أخي خادماً للحُسين بن منصور ، قال : فسمعتُهُ يقول : لما كان الليلةُ التي وُعِدَ من الغد بقتله ، وأُخرج للقتل . . قال : حسبُ الواحدَ إفرادُ الواحد ، ثم إنه خرج يتبخترُ في قيده ويقول[٣] : [من الهزج]

نَديمي غيرُ مَنسوبٍ إلىٰ شيءٍ مِنَ الحَيْفِ
سقاني مثلَ ما يشر بُ فِعلَ الضيفِ بالضيفِ
فلمَّا دارتِ الكاسُ دَعا بالنِّطعِ والسيفِ
كذا مَنْ يشربُ الرَّاحَ معَ التِّنينِ في الصيفِ

قال القُضاعي : وكان قتلُه في خلافة جعفر بن المُعتضد ، وقطعوا يديه ورجليه أولاً ، ثم حزُّوا رأسه ، وأحرقوه بالنار .

وكان من شأن الحلاجِ كثرةُ التطوُّر في أغلب أحواله ، ولما طلبوه للقتل كان مُتطوِّراً في بيته ، حتىٰ ملأ البيتَ ، فلم يقدرْ أحدٌ علىٰ إخراجه ، فذكروا ذلك للجُنيد ، فأتىٰ إليه ، وقال : يا حسين ، فتحتَ في الإسلام ثغرةً لا يسدُّها إلا رأسُك ، فاخرجْ وسلِّمْ ، فانفشَّ بدنُهُ ، وخرج مُستسلماً .

ومن كلامه رضي الله عنه : (حجبهم بالاسم فعاشوا ، ولو أبرزَ لهم علوم القدرة لطاشوا ، ولو كشفَ لهم عن الحقيقةِ لماتوا) .

وكان يقول : (إذا تخلَّصَ العبدُ إلىٰ مقام المعرفة أوحي إليه بخواطره ، وحرسَ سرَّه أن يسبحَ فيه غيرُ خاطر الحق) .

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٨٦ ، ٩٦) .
(٢) الرسالة القشيرية (ص ٦٢٢) .
(٣) انظر « ديوانه » (ص ١٤٩) ، وهاذه من الأبيات المنسوبة إليه ، وهي للحسين بن الضحاك الخليع ، والتنين : ضرب من الحيات السود العظيمة ، وهو لقب إبراهيم بن المهدي الأمير العباسي ، لقب به لسواد لونه وسمنه .

ثم قال : (ومن علامة العارف : أن يكونَ فارغاً من أمور الدنيا والآخرةِ ، مُشتغلاً بالله) .

وسئل مرةً عن صفة المريد الصادق ، فقال : (هو الرامي بأولِ قصده إلى الله تعالىٰ ، فلا يعرجُ حتىٰ يصلَ) .

وسئل عن التصوف ، وهو مصلوبٌ ، فقال : أهونُهُ ما ترىٰ .

وكان يقول : (من لاحظَ الأعمال حُجبَ عن المعمول له ، ومن لاحظَ المعمول له حُجب عن الأعمال) .

وكان يقول : (لا يجوزُ لمن يرىٰ غيرَ الله أن يدَّعي أنّه عرفَ الله عز وجل) .

وكان يقول : (من أسكرته أنوارُ التوحيد حجبتْهُ عن عبارة التجريد) .

وكان يقول : (من طلبَ الحقَّ بنورِ الإيمان كان كمن يطلبُ الشمسَ بنور الكواكب) .

وكان يقول : (ما انفصلَ الخلقُ عنه ، ولا اتَّصلوا به) .

وكان يقول : (من شرط المتوكِّلِ : ألا يأكل شيئاً وهو يعلمُ أن في بلده من هو أحوجُ منه) .

وكان يقول : (لما تجلَّى الحقُّ لموسىٰ عليه السلام بدا له من الحقِّ بادٍ ، فلم يبق لموسىٰ أثرٌ ، وفني موسىٰ عن موسىٰ ، فلم يكنْ عند موسىٰ خبرٌ من موسىٰ ، ثم لما كُلِّم كان المكلم هو المتكلم بحضور موسىٰ في حالِ الجمع وفنائه عنه ، فبالله قام موسىٰ ، وبه سمعَ) .

وكان يقول : (إذا دامَ البلاءُ بالعبد أَلِفَهُ ؛ وذلك من رحمة الله بأهل النار من حيث لا يشعرون) .

وقال القنَّاد رضي الله عنه : لقيت الحلاج ، فأنشدني : [من الوافر]

ولي نفسٌ ستُتلَفُ أو سترقىٰ ... لَعمرُكَ بي إلىٰ أمرٍ عظيمِ

فما مضىٰ أيامٌ إلا وقد قُتل .

وكتب إلىٰ أبي العباس بن عطاء : (أطالَ الله في حياتك ، وأعدمني وفاتَك علىٰ أحسن ما جرىٰ به قدرٌ ، أو نطقَ به خبرٌ ، مع ما لَكَ في قلبي من لواعجِ أسرار محبَّتك ، وأفانين ذخائر مودَّتك ما لا يُترجمُهُ كتابٌ ، ولا يحصيه حسابٌ ، ولا يفنيه عتاب) .

ثم كتب تحت ذلك : [من الطويل]

كتبتُ ولمْ أكتبْ إليكَ وإنما ... كتبتُ إلىٰ روحِي بغيرِ كتابِ
وذلكَ أنَّ الرُّوحَ لا فرقَ بينَها ... وبينَ محبِّيها بفَصْلِ خطابِ
وكلُّ كتابٍ صادرٌ منكَ واردٌ ... إليكَ بلا ردِّ الجوابِ جوابِي

ولما ضربوه بالسيف اكتتب دمُهُ على الأرض : الله ، الله ، إشارةً لتوحيده .

فإن قيل : إن دمَ الحسين بنِ علي لم يبلغنا أن دمَهُ اكتتبَ على الأرض كما وقع للحلاج ، مع أنَّ الحسين بنَ علي كان أَعْلىٰ مقاماً من الحلاج ؟

فالجواب : أن الحسين بنَ علي لم يُقتل من جهة دينِهِ ، وإنما قُتل من جهة المُلك والخلافة ، فلم يحتجْ إلىٰ من يزكِّيه ، بخلاف الحلاج ؛ فإنه قُتل من جهة قولهم بكفره ، فكان دمُهُ شاهداً له بالتوحيد ، رحمه الله تعالىٰ

ومنهم :

(٢٠٩) أبو الخير الأقطع التِّيناتي رضي الله عنه[١]

وتينات : قريةٌ من بلاد المشرق ، وكان أصله من المغرب ، وله آياتٌ وكرامات .

صحب أبا عبد الله بن الجلاَّ ، وغيرَهُ من المشايخ .

وكان أوحدَ أهلِ زمانه في التوكل .

وكانت السِّباعُ والهوامُّ تأنسُ به ، وله فِراسة حادَّةٌ .

مات بمصر سنة نيِّفٍ وأربعين وثلاث مئة ، ودفن بالقَرَافة علىٰ باب تربة سيدي مسلم

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٠٤) (٢١٣) .

السُّلمي بجنب منارةِ الديلمية بالقَرَافة الصغرىٰ قريباً من ذي النُّون المصري .

وكان يقول : (أتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فوقفتُ تجاه قبره ، وقلت : يا رسول الله ؛ أنا جائعٌ ، وتنحَّيت ، ونمتُ خلف المنبر ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقبَّلتُ بين عينيه ، فدفع لي رغيفاً ، فأكلتُ نصفَهُ ، وانتبهت وبيدي النصفُ الآخر) .

وكان يقول : (لا يجوز التصدُّرُ للمشيخة إلا لمن فرغَ من تهذيب نفسه ؛ وذلك ليتفرَّغ للمريد ، ومن بقي عليه بقيَّةٌ فهو مُريد ، والمريدُ لا يكون له مريد) .

ودخل عليه جماعةٌ من البغداديين ، فادَّعوا دعاوىٰ عريضة ، ثم خرجوا ، فلقيهم السَّبُعُ ، فرجعوا هاربين ، فقال لهم : أين تلك الدعاوىٰ ؟! فافتضحوا .

وكان إبراهيم الرقِّي يقول : قصدتُ أبا الخير التيناتي زائراً ، فلما صلَّى المغربَ قرأ الفاتحة ، قرأها غيرَ مستوٍ ، فقلت : ضاعتْ سفرتي ، فلما سلَّمْتُ خرجتُ للطهارة ، فقصدني السَّبُعُ ، فعدتُ إليه ، وقلت : إنَّ الأسدَ قصدني ، فخرج وصاحَ عليه ، وقال : ألم أقلْ لك : لا تتعرَّضْ لضيفاني ؟! فتنحَّى الأسدُ ، ومضيتُ أنا وتطهَّرتُ ، فلما رجعتُ قال لي : (اشتغلتم بتقويم الظواهر فخفتم الأسدَ ، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسدُ) .

وكان يقول : (لا تسألوا الله أن يصبِّرَكم ، واسألوه اللطفَ بكم ؛ فهو أولىٰ ؛ لأن تجرُّعَ مرارات الصبر شديدةٌ علىٰ أمثالنا ؛ فإن زكريا عليه الصلاة والسلام لما نَشروه ، وبلغ المنشارُ إلىٰ رأسه . أَنَّ أنَّةً من شدَّةِ الوجع ، فأوحى الله إليه : يا زكريا ، وعزَّتي وجلالي ؛ لئن صعدتْ منك أنَّةٌ ثانيةٌ لأمحونَّ اسمَك من ديوان النبوَّة ، فعضَّ زكريا على الصبر حتىٰ قُطِعَ شطرين) .

وكان سببُ قطع يده : أنه كان عَقَدَ مع الله تعالىٰ عقداً ألا يمدَّ يده إلىٰ شيءٍ مما تنبت الأرضُ لشهوةٍ ، فنسي وتناول عنقوداً من شجرِ البطم ، فبينما هو يلوكُهُ إذ تذكَّر العَقد ، فرمىٰ بالعنقودِ ، وبصق ما في فمه ، وجلس نادماً ، فما استقرَّ فيَّ الجلوس حتىٰ دارَ به فرسانٌ ورجَّالة وقالوا : قمْ .

قال : فساقوني إلىٰ أن أخرجوني إلىٰ ساحل بحر إسكندرية[١] ، فرأيتُ هناك أميراً ، وبين يديه سودان كانوا قد قطعوا الطريق ، فوجدوني أسود اللون ، ومعي ترسٌ وحربةٌ وسيف ، فقالوا : هٰذا منهم بلا شكٍّ ، فقطع أيديهم وأرجلهم حتى انتهىٰ إليَّ ، فقال لي : قدِّم يدك ، فمددتُها فقطعَها ، فقال : مدَّ رجلك ، فمددتُها ، ثم رفعتُ رأسي وقلت : إلٰهي وسيدي ومولاي ، يدي جنتْ ، فما بالُ رجلي ؟! فدخل علينا فارسٌ ، وألقىٰ نفسَهُ على الأمير ، وقال : هٰذا رجلٌ صالحٌ يُعرف بأبي الخير التيناتي ، فرمى الأميرُ بنفسه إلى الأرض ، وأخذ يدي المقطوعة من الأرض وقبَّلها ، وتعلَّق بي يبكي ويعتذر إليَّ ، فقلتُ له : جعلتك في حلٍّ من أوَّل ما قطعتها ، وقلتُ : يدٌ خانتْ عهدَ الله ، فقُطعت ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٢١٠) أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني رضي الله عنه[٢]

أصلُه من بغداد .

صحب الجُنيد ، والنُّوري ، وأبا سعيد الخراز .

وأقام بمكة ، وجاور بها إلىٰ أن مات سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة .

وكان أحدَ الأئمة في علم الطريق .

وكان المُرتعشُ يقول : (الكتاني سراجُ الحرم) .

وكان يقول : (كنْ في الدنيا ببدنك ، وفي الآخرة بقلبك) .

وكان يقول : (خوفُ القطيعة أفضلُ من عبادة الثقلين) .

ورأىٰ مرةً رجلاً يَسألُ الناس آخرَ عمره ، فقال : (هٰذا رجلٌ ضيَّعَ حقَّ الله في صغره ، فضيَّعَهُ اللهُ في كِبَرِه) .

---

(١) كذا في النسخ : (إسكندرية) ، والذي ورد في المصادر : أنه دخل أنطاكية ، وإسكندرونة مدينة في شرقي أنطاكية ، فلعلها صحفت إلىٰ (إسكندرية) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٠٦) (٢١٤) .

وكان يقول : (الشهوةُ زِمامُ الشيطان[١] ، ومن أخذ الشيطانُ بزمامه كان عبدَهُ) .

وقال : (ثلاثٌ لا يُنازعُ أحدٌ في صحَّتها : الزهد في الدنيا ، وسخاوةُ النفس ، والنصيحة للخلق) .

وكان يقول : (من علامةِ الزهدِ في شيءٍ من الدنيا : سرورُ القلب بفقده ، وتحمُّلُ الأذىٰ من جميع الخلائق) .

وكان يقول : (الصوفيةُ عبيدُ الظواهر ، أحرارُ البواطن) .

وكان يقول : (إن الله نظرَ إلىٰ بعضِ عبيده ، فرآهم لا يصلحون لمجالستِهِ[٢] ، فشغلهم بخدمته) .

وكان يقول : (كنا في بداية أمرنا نصلِّي الصبحَ بوضوء العشاء ، فإذا وقعَ أنَّ أحداً منَّا ينامُ ، نراه أفضلَ منَّا) .

وكان يهجرُ المريدَ إذا رآه مشىٰ خطوةً في طلب الرزق[٣] ، ويقول : (هٰذا خروجٌ عن سياج الطريق ، وإنما شأنُ الفقير أنَّ الدنيا تتبعُهُ) .

وكان يقول : رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ؛ ادعُ الله لي ألا يميت قلبي ، فقال : قل في كلِّ يومٍ أربعين مرة : يا حيُّ يا قيوم ، لا إلٰه إلا أنت .

وكان يقول : رأيت مرة حوراء ، فقلت لها : لمن أنت ؟ فقالت : لمن يحبسُ نفسَهُ عن مألوفاتها .

وكان يقول : (النقباء ثلاث مئة ، والنجباء سبعون ، والأبدالُ أربعون ، والأخيار سبعة ، والعُمُد أربعةٌ ، والغوثُ واحدٌ ؛ فمسكنُ النقباءُ بلاد المغرب ، ومسكن النُّجباءُ مصر ، ومسكن الأبدال الشام ، والأخيار سيَّاحون في الأرض ، والعُمُدُ في زوايا الأرض ، والغوثُ مسكنه بمكة ، فإذا عرضت حاجةٌ من أمر العامَّةِ ابتهل فيها النقباء ،

---

(١) في (ز) : (الشهرة) بدل (الشهوة) .

(٢) في « طبقات الصوفية » (ص ٣٧٤) : (أهلاً لمعرفته) .

(٣) في (ب ، ج ، د ، هـ ، ك) : (الرزق) ، وفي « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٠٨) : (الدنيا) .

ثم النجباء ، ثم الأبدال ، ثم الأخيار ، ثم العُمُد ، ثم الغوث ، فلا يفرغ الغوثُ من مسألته حتىٰ تُجاب دعوته) .

وكان يقول : (الأُنسُ بالمخلوقين عقوبةٌ ، والقربُ من الدنيا وأبنائها معصيةٌ ، والرُّكون إليهم مذلَّةٌ) .

وكان يقول : (العبادةُ اثنان وسبعون باباً ، إحدىٰ وسبعون منها في الحياء من الله تعالىٰ ، وواحدٌ في جميع أنواع البرِّ) .

وكان يقول : (من أصبحَ وعنده همَّان : همُّ المعاصي وهمُّ جمع المال فاللهُ تعالىٰ منه بريء) والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومنهم :

(٢١١) أبو يعقوب إسحاق بنُ محمد النَّهْرَجُوري رضي الله عنه[1]

كان من أكابر المشايخ .

صحب الجُنيد ، وعمرو بن عثمان المكِّي ، وأبا يعقوب السُّوسي ، وغيرَهم .

جاور بالحرم سنين ، **ومات سنة ثلاثين وثلاث مئة** .

وكان يقول في معنىٰ حديث : « احترسُوا منَ الناسِ بسوءِ الظنِّ »[2] أي : (بسوء الظنِّ بأنفسكم لا بالناس) .

وكان يقول : (من كان شبعُهُ بالطعام لم يزل جائعاً ، ومن كان غناه بالمال لم يزل فقيراً ، ومن طمعَ في الخلق لم يزلْ محروماً ، ومن استعانَ علىٰ أمرٍ بغيرِ الله لم يزل مخذولاً) .

وكان يقول : (إنما ساد أهلُ الله الخلائق لطلبهم الحقائق) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٠٩) (٢١٥) .

(٢) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (ص ٢٤٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٩٨) مرفوعاً عن سيدنا أنس رضي الله عنه ، قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ٨٩) : (فيه بقية بن الوليد ، وهو مدلس) ، وتقدم تخريجه (١/ ٤٠٩)

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ ﴾ [يوسف : ٢٠] : (لو جعلوا ثمنه الكونين فهو بخسٌ في نظير مشاهدته وما خُصَّ به) .

وكان يقول : (مشاهدةُ القلوب تعريفٌ ، ومشاهدةُ الأرواح تحقيقٌ) .

وسئل مرةً عن التصوف ، فقال : (﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ [البقرة : ١٣٤]) .

وكان يقول : (ما رأته العيونُ يُنسب إلى العلم ، وما شاهدته القلوبُ يُنسب إلى اليقين) .

وسأله إنسانٌ عن الطريق ، فقال : (استعملِ العلمَ ، وداومِ الذكرَ ، وأنت إذاً من أهل الطريق) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢١٢) علي بن محمد المزيِّنُ رضي الله عنه(١)

هو من أهل بغداد .

صحب سهل بن عبد الله ، والجُنيد ، ومن في طبقتهما من البغداديين .

أقام بمكة مجاوراً ، ومات بها سنة ثمانٍ وعشرين وثلاث مئة .

وكان من أورع المشايخ ، وأحسنِهم حالاً) .

وكان يقول : (إذا غلبَ ذكرُ الله فنيتْ فيه الدنيا والآخرةُ) .

وسئل مرة عن التوحيد ، فقال : (هو أن ترجعَ إلى الله وحده في جميعِ أمورك ، وتعلمَ أن ما حصلَ في قلبك فاللهُ بخلافه ، وأنه تعالىٰ مُباينٌ لأوصاف خلقه) .

وكان يقول : (كانتِ الطرقُ إلى الله تعالىٰ بعددِ النجوم ، فلم يبقَ منها إلا طريقٌ واحد ، وهو الفقرُ إلى الله تعالىٰ) .

وكان يقول : (من طلبَ الطريقَ إلى الله تعالىٰ بنفسِهِ تاه في أولِ قدمٍ) .

وكان يقول : (من لم يصلحْ لمشاهدته شغلَهُ بخدمته) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤١٠) (٢١٦) .

وكان يقول : (لو كان الإنسانُ علىٰ عبادةِ الثقلين ، وهو يساكنُ الدنيا بقلبه . . لا يعبأ اللهُ به ، وكلُّ من أبقىٰ عنده قوتَ غدٍ فهو مساكنٌ للدنيا) .

وكان يقول : (العُجبُ في العبد مقتٌ ، وربما أدَّىٰ إلىٰ مقتِ الأبد) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٢١٣) أبو علي [الحسن] بنُ أحمد الكاتب رضي الله عنه(١)

كان من أكابر مشايخ المصريين .

صحب أبا بكر المصري ، وأبا علي الرُّوذْباري وغيرَهما .

وكان أوحدَ مشايخ وقته ، وكان أبو عثمان المغربي يعظِّمُهُ ويعظِّمُ شأنه .

مات سنة نيِّفٍ وأربعين وثلاث مئة .

وكان يقول : (المعتزلةُ نزَّهوا اللهَ عز وجل من حيث العقول فأخطؤوا ، والصوفيةُ نزَّهوا الله من حيث العلم فأصابوا) .

وكان يقول : (من سمعَ الحكمةَ ، ولم يعملْ بها . . فهو منافق) .

وكان يقول : (صحبةُ الفسَّاقِ داءٌ ، ودواؤها مفارقتُهم) .

وكان يقول : (إن الله تعالىٰ يقول : من صبرَ علينا وصلَ إلينا) .

وكان يقول : (روائحُ نسيمِ المحبَّة تفوحُ من المحبِّين وإن كتموها) .

وكان يقول : (إن اللهَ تعالىٰ يرزقُ العبدَ حلاوةَ ذكره ، فإن فرحَ به وشكرَهُ آنسه بقربه ، وإن لم يشكرِ اللهَ علىٰ ذلك أجرى الذِّكرَ علىٰ لسانه ، وسلبه حلاوته) والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

---

(١) في النسخ : (الحسين) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وتقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤١٢) (٢١٧) .

ومنهم :

(٢١٤) أبو الحسين بن بُنان الحمَّال رضي الله عنه[١]

كان من كبار مشايخ مصر ، صحب الخرَّازَ ، وغيره .

ومات في التِّيه ، وسببُ ذلك : أنه وردَ علىٰ قلبه شيءٌ ، فهام علىٰ وجهه ، فلحقوه في وسط التيه في الرمل ملقىً ، ففتح عينيه وقال : [من مشطور الرجز]

اربعْ فهـٰذا مربعُ الأحباب

وكان يقول : (الناسُ يعطشون في البراري ، وأنا عطشانُ علىٰ شاطئ النيل) .

وكان يقول : (كلُّ فقيرٍ قام في قلبه همُّ الرزق فلزومُ الكسبِ والحرفة له أَوْلىٰ) .

وكان يقول : (من علامة سكونِ القلب إلى الله عز وجل : انشراحُهُ إذا زالتْ عنه الدنيا) .

وكان يقول : (اجتنبوا دناءةَ الأخلاق كما تَجتنبون الحرام) .

وكان يقول : (ذكرُ الله باللسان يورثُ الدرجات ، وذكرُهُ تعالىٰ بالقلبِ يُورث القربات) .

وكان يقول : (الإكثارُ من الوحدةِ ، وقلَّة مجالسةِ الناس من علامة الصديقين) .

وكان يقول : (لا يُعظِّم قدرَ الأولياء إلا من عظَّمه الله عنده) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٢١٥) أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهري رضي الله عنه[٢]

هو من كبار مشايخ الجبلِ ، ومن أقران الشِّبلي .

صحب يوسف بنَ الحسين الرازي ، [ومظفَّر] القَرْمِيسيني[٣] ، وغيرَهما .

وكان عالماً ورعاً .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤١٣) (٢١٨) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤١٤) (٢١٩) .

(٣) في النسخ : (أبا مظفر) ، والمثبت من مصادر الترجمة .

مات قريباً من الثلاثين وثلاث مئة .

وكان يقول : (من كان من أهلِ الجمعِ فلا يشهدْ إلا الله ، وحُجب عنه الكونان ، فلا يَراهما)

وكان يقول : (سببُ استغفار نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم إنما هو لأجلِ أنَّ الله أطلعه على ما يقعُ من أمته من الاختلاف والفتن في الدنيا ، فكان إذا تذكَّر ذلك استغفرَ اللهَ لهم) .

وقيل مرةً له : ما بالُ الإنسان يحتملُ من معلِّمه ما لا يحتمله من أبويه ؟! فقال : لأن أبويه كانا سببَ حياته الفانية ، ومعلِّمَه كان سبباً لحياته الباقية ، وتصديقُ ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أُغدُ عالماً أو متعلِّماً ، ولا تكنْ فيما بينَ ذلكَ فتهلِكَ »[1]) .

وكان يقول : (في الوقوعِ في المحن [ثلاثة] أمور : التطهير ، والتكفير ، والتذكير ؛ فالتطهيرُ من الكبائر ، والتكفير من الصغائر ، والتذكير لأهلِ الصفا) .

وكان يقول : (همَّةُ الصالحين الطاعةُ بلا معصية ، وهمَّةُ العلماء المزيدُ في الصواب ، وهمَّةُ العارفين زيادةُ تعظيم الله في قلوبهم ، وهمَّةُ أهل الشوقِ سرعةُ الموت ، وهمَّةُ المقرَّبين سكونُ القلب إلى الله عز وجل) والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومنهم :

(٢١٦) مظفر القَرْمِيسِيني رضي الله عنه[2]

كان من كبارِ مشايخ الجبل وجلَّتِهم ، ومن الفقراءِ الصَّادقين .

صحب عبد الله الخرَّاز ، ومن فوقه من المشايخ .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٥٠) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٢٦٦٤٤) بلفظ : « اغدُ عالماً أو مُتعلماً ، ولا تَغْدُ بين ذلك » ، وروى الطبراني في « الأوسط » (٥١٦٧) ، و« الصغير » (٧٧٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٣٧) عن أبي بكرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اغدُ عالماً ، أو متعلماً ، أو مستمعاً ، أو محبّاً ، ولا تكن الخامسة فتهلك » ، والخامسة : ألا يكون من هؤلاء ، وتقدم تخريجه (١/ ٤١٥) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (١/ ٤١٥) (٢٢٠) .

وكان واحداً في طريقته .

وكان يقول : (الصومُ على ثلاثة أوجه : صومُ الروح بقصرِ الأمل ، وصومُ العقل بخلاف الهوىٰ ، وصومُ النفس بالإمساك عن الطعام والشراب والمحارم) .

وكان يقول : (إياكم وصحبةَ الأحداث ؛ فإنه إذا كان من يَصحبهم علىٰ شروطِ السلامة يعطبُ ، فكيف بمنْ يصحبهم علىٰ هوىٰ نفس ؟!)

وكان يقول : (أخسُّ الفقراء قيمةً من يقبل رفقَ النسوان والظَّلَمَةِ ، فمن قَبِلَ ذلك فلا مروءةَ له ولا دين) .

وكان يقول : (خيرُ الأرزاق ما جاءَكَ من غيرِ سعيٍ ولا طلبٍ) .

وكان يقول : (ليس لك من عمرك إلا نَفَسٌ واحد ، فإياك أن يكون نَفَسٌ من أنفاسك عليك) .

وكان يقول : (من تأدَّبَ بآداب الشريعة تأدَّبَ به أتباعُه ، ومن تهاون بالآداب هلَكَ وأهلك ، ومن لم يأخذِ الأدبَ عن حكيمٍ لا يتأدَّبُ به مُريد) .

وكان يقول : (يبلغُ الفقيرُ إلىٰ مقامٍ لا يصيرُ يحتاجُ إلىٰ سؤال الحق في شيءٍ ؛ لفناء مرادِه في مرادِه) ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢١٧) أبو الحسين علي بن هند القُرشي الفارسي رضي الله عنه[١]

من كبار مشايخ الفرس وعلمائهم .

صحب جعفرَ الحذَّاء ، وعمرو بن عثمان المكيَّ ، ومن فوقهم .

وله الأحوالُ العالية ، والمقامات الزكية .

وكان رضي الله عنه يقول : (شرطُ المستمسك بكتاب الله ألا يخفىٰ عليه شيءٌ من أمر دينه ودنياه علىٰ ممرِّ الأوقات) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع مصادرها ذكر في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤١٧) (٢٢١) .

وكان يقول : استرح مع الله ، ولا تسترحْ عن الله ؛ فإن من استراحَ مع الله نجا ، ومن استراحَ عن الله هلك ، فقيل : كيف الاستراحةُ مع الله ؟ قال : تروُّحُ القلب بذكره ، وأما الاستراحةُ عن الله فهي المداومةُ على الغفلة .

وكان يقول : (من رزقَهُ اللهُ حرمةَ الأكابر جعل اللهُ حرمته في قلوب الخلق ، ومن حُرم ذلك نزعَ الله حرمتَهُ من قلوب الخلق ، فلا تراه إلا ممقوتاً ، ولو كان علىٰ عبادة الثقلين ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ منْ إجلالِ اللهِ إكرامَ ذي الشيبةِ المسلمِ »)[1] والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٢١٨) أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ شيبان القَرْمِيسِيني رضي الله عنه[2]

كان شيخَ الجبل في وقته ، له المقاماتُ في الورع والتقوىٰ ، يعجزُ عنها غالبُ الناس .

صحب أبا عبد الله المغربي ، وإبراهيمَ الخوَّاص .

وكان شديداً على المدَّعين ، متمسِّكاً بالكتاب والسنة ، ملازماً لطريقة المشايخ والأئمة ، حتىٰ قال فيه عبد الله بن مُنازل : إبراهيم بن شيبان حجَّةُ الله على الفقراء وأهل الآداب والمعاملات .

وكان يقول : (من أرادَ أن يتعطلَ عن السير فليلزمِ الرُّخص) .

وكان يقول : (ما قطع الفقراءَ عن الطريق وأهلكهم إلا ميلُهم إلىٰ ما عليه أبناءُ الدنيا) .

وكان يقول : (علمُ البقاء والفناء يدورُ على الإخلاص للوحدانية ، وصحة العبودية ، وما كان غيرُ ذلك فهو المغاليطُ والزندقة) .

وكان يقول : (من علامة السفلة : أن يخطرَ العطاءُ علىٰ بالهم علىٰ وجهِ المنَّةِ به) .

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٤٣) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٤١٨) (٢٢٢) .

وكان يقول : (من تركَ حرمةَ المشايخ ابتُلي بالدعاوى الباطلة ، وافتضح) .

وكان يقول : (من تكلَّمَ في الإخلاص ، ولم يطالبْ نفسَه بذلك . . ابتلاه اللهُ بهتك ستره عند الأقران والإخوان) ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢١٩) أبو بكر الحسينُ بنُ علي بن يَزْدَانيار رضي الله عنه[١]

كان من أهل أرمينية[٢] ، وله طريقةٌ في التصوف يختصُّ بها .

وكان يُنكر على بعض مشايخ العراق أقاويلهم الفاضحة لأسرارِ الطريق .

وقال [علي بن إبراهيم الأُرْموي][٣] : سمعتُ ابنَ يَزْدَانيار يقول : (تروني تكلَّمتُ في الصوفية بما تكلَّمتُ إنكاراً على الطريق ، لا واللهِ ، إنما تكلَّمتُ في الجُنيد وأمثاله غَيرةً على الطريق ، حيث أفشوها لعامَّةِ المريدين ، وأظهروها لغير أهلها ، وإلا فهم السادةُ ، وبمحبَّتهم أتقرَّبُ إلى الله تعالىٰ) .

وكان يقول : (رضا الخلقِ عن الله تعالىٰ رضاهم بما يفعلُ ، ورضاه عنهم أن يوفِّقهم للرِّضا عنه) .

وكان يقول : (من استغفرَ اللهَ تعالىٰ وهو ملازمٌ لشهوة الذنب حرَّمَ الله عليه التوبةَ والإنابة إليه) .

وكان يقول : **الحياءُ على ثلاثين قسماً ؛ منها** : حياء الخيانة[٤] ؛ كما رُوي أن آدم عليه السلام لما أكلَ من الشجرة هامَ علىٰ وجهِهِ في الجنان ، فأوحى الله إليه : أَفراراً مني يا آدم ؟! قال : لا يا ربِّ ، بل حياءً منك ، **ومنها** : حياءُ التَّقصير ؛ كقول

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر في مصادرها « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤١٩) (٢٢٣) .

(٢) كذا في النسخ ، وفي « طبقات الصوفية » (ص ٤٠٦) : (أُرْمِية) ، وأرمية : اسم مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان ، وقد أخرجت كثيراً من العلماء ، والنسبة إليها : أرموي .

(٣) في النسخ : (وقال إبراهيم الأموي) ، والمثبت من « طبقات الصوفية » (ص ٤٠٨) .

(٤) كذا في النسخ ، وفي « الرسالة القشيرية » (ص ٤٩١) و« الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤١٩) : (حياء الجناية) .

الملائكة : سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك ، ومنها : حياءُ الإجلال ؛ كما رُوي أن إسرافيلَ تسربلَ بجناحه حياءً من ربِّهِ ، وقد ذكرنا بقيَّةَ الأقسام في « الطبقات الكبرىٰ »(١) ، فراجعها .

وكان يقول : (إذا ابتُليتَ بمعاشرة الناس فالزمِ الأدبَ ، لا تفعلْ بحضرتهم فعلاً يزدرونك به ، فتسقط من عينهم) .

وكان يقول : (بابُ التوبة مفتوحٌ حتىٰ تطلعَ الشمسُ من مغربها ، فمن وقعَ في هفوةٍ فليتبْ إلى الله ، وليؤمِّل أنه يَقْبَلُ توبته بفضله ، وإياه وسوءَ الظنِّ بالله تعالىٰ) ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٢٠) أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ أحمد بن المُولَّد رضي الله عنه(٢)

هو من كبار مشايخ الرَّقَّةِ وفتيانهم ، ومن أحسنهم سيرةً .

صحب أبا عبد الله بن الجلا الدمشقي ، وإبراهيم بن داود القصَّار الرقِّي .

وكان يقول : (من تولَّتْهُ رعايةُ الحقِّ تعالىٰ فهو أجلُّ ممن تولَّته رعايةُ العلم) .

وكان يقول : (خُلقتِ الأرواحُ في الأفراح ، فهي تعلو أبداً إلىٰ محلِّ الفرح من المشاهدة ، وخلقتِ الأجسادُ من الأكماد ، فهي لا تزالُ ترجعِ إلىٰ كمدها من طلب الشهوات الفانية ، والاهتمام بها) .

وكان يقول : (من أدب الفقير : ألا يمدَّ يدَهُ إلى الإرفاق من النسوان والإخوان ، إلا في وقتِ الضرورة ، ثم إذا أكلوا فهو بقدر سدِّ الرمق ، ولو كان بين يديهم طعامٌ كأمثال الجبال ؛ وذلك ليبقوا لغيرهم شيئاً منه) .

وكان يقول : (من قامَ إلىٰ أوامرِ الله بالله كان مقبولاً بلا شكٍّ ، ومن قام بنفسه كان بين قبولٍ وردٍّ) .

---

(١) الطبقات الكبرىٰ : (١/ ٤١٩) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٢٥) (٢٢٤) .

وكان يقول : (الفترةُ بعد المجاهدة من فسادِ الابتداء ، والحجبُ بعد الكشف من السكونِ إلى الأحوال) .

وكان يقول : (نفسُكَ سائرةٌ بك ، وقلبُك طائرٌ بك ، فكنْ مع أسرعِهما وصولاً) .

ومنهم :

(٢٢١) أبو عبد الله محمد ابن سالم البصري رضي الله عنه(١)

هو صاحب سهل بنِ عبد الله التُّستري ، وراوي كلامه ، لا ينتمي إلىٰ غيرِه من المشايخ .

وكان من أهل الاجتهاد ، وطريقتُهُ طريقةُ أستاذه سهل رضي الله عنه .

وله بالبصرة أصحابٌ ينتمون إليه ، وإلىٰ ولده أبي الحسن أيضاً .

وكان يقول : (من أطاقَ التوكُّلَ فالكسبُ له غيرُ مباح ، إلا علىٰ وجه المعاونة دون الاعتماد ؛ فإن التوكُّلَ حالُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والكسب سُنَّتُهُ ، ومن ضعفَ عن حالِ رسول الله صلى الله عليه وسلم فليكتسب ؛ لئلا يسقطَ من درجة سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سقطَ عن درجة حاله)

وكان يقول : (يُعرفُ الأولياء في كلِّ عصرٍ بقبولهم عذرَ كلِّ من اعتذر إليهم ، وكمالِ شفقتهم علىٰ جميع الخلق ؛ برِّهم وفاجرهم) .

وكان يقول : (من أحبَّ أن يسترَ اللهُ عورته عن الناس . . فليحلمْ علىٰ من جنىٰ عليه ، وليتكرَّمْ على الناس بما في يديه) .

وكان يقول : (من شأنِ كلِّ عاقلٍ الزهدُ في مصاحبة أبناء الدنيا ؛ وذلك لأنهم يشغلوه بذكرِها عما هو متوجِّه إليه من مصالح دينه ودنياه) ، والله أعلم .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٢٦) (٢٢٥) .

ومنهم :

(٢٢٢) محمد بن عَلْيَان النسوي رضي الله عنه[١]

هو من كبار مشايخ نَسا ، ومن أصحاب أبي عثمان الحيري ، الذي قيل فيه : إنه إمامُ أهل المعارف .

وكان يخرج من نسا قاصداً إلىٰ أبي عثمان في مسائلَ تقعُ له ، فلا يأكلُ ولا يشرب في الطريق حتىٰ يدخلَ نيسابور ويسألَهُ عن تلك المسائل .

وكان من أعلا المشايخ همَّةً ، وله الكرامات الظاهرة .

وكان يقول : (الزهدُ في الدنيا مفتاحُ الرغبة في الآخرة) .

وكان يقول : (آياتُ الأولياء وكراماتهم رضاهم بما يسخطُ العوام من مجاري المقدور) .

وكان يقول : (لا يصفو للسخيِّ سخاؤه إلا بتصغير ما أعطاه ، وتعجيله ، وتستيره ، ورؤية الفضل لمن أخذه منه) .

وكان يقول : (من خدمَ الله تعالىٰ لطلبِ ثوابٍ ، أو خوف عقاب فقد أظهرَ خسَّته ، وأبدىٰ طمعَهُ ؛ فإنه قبيحٌ بالعبد أن يخدمَ سيِّدَه لغرضٍ دنيوي أو أخروي) .

وكان يقول : (من أظهر كراماتِه فهو مدَّعٍ ، ومن أخفاها فظهرت بغيرِ اختياره فهو وليٌّ) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٢٣) أبو بكر أحمد بنُ محمد بن [أبي] سعدان رضي الله عنه[٢]

بغداديُّ الأصل .

صحب الجُنيد ، والنُّوري .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٢٧) (٢٢٦) .

(٢) في النسخ : (أحمد بن محمد بن سعدان) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وتقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٢٨) (٢٢٧) .

وهو من أعلم شيوخ وقته بعلومِ هـٰذه الطائفة .

وكان عالماً بمذهب الإمام الشافعي ، وكان ذا لسانٍ وبيان .

وطلب الخليفةُ من يُرسلُه إلى الروم ، فلم يجدوا في طَرَسوس أحداً أعلمَ منه ولا أفصح .

وكان الناس يقولون : ما بقي في الطائفة علىٰ وجه الأرض إلا رجلان أبو علي الرُّوذْباري بمصر ، وأبو بكر بن أبي سعدان بالعراق ، وأبو بكر أفهمُ الرجلين .

وكان يقول : (من أراد صحبةَ الصوفية فليصحبْهم بلا نفْسٍ ولا ملك)

وكان يقول : (لا يكملُ حالُ الفقير حتىٰ يعلمَ علم الرواية ، ثم علمَ الدِّراية ، ثم علم الرعاية ، وهناك يهتدي إلىٰ سبيل الحقِّ) .

وكان يقول : (إذا بدتْ علومُ الحقائق طمستْ آثار الفهوم والعلوم) .

وكان يقول : (الصوفي لا يقفُ مع النعوت ، ولا مع الرسوم) .

ومنهم :

(٢٢٤) أبو سعيد أحمد بنُ محمد ابن الأعرابي الأدمي رضي الله عنه[١]

هو بصريُّ الأصل ، وسكن مكة ، وكان أوحدَ وقته في مكة ، وكانوا يلقِّبونه : شيخ الحرم .

مات بمكة سنة إحدىٰ وأربعين وثلاث مئة .

وصنَّفَ في الطريق كتباً كثيرة .

وصحب النُّوري ، والجُنيد ، وعمرو المكي ، والمسوحي ، وأبا جعفر الحفار .

وكان يقول : (قد ثبت الوعدُ والوعيد عن الله عز وجل ، فإذا كان الوعدُ قبلَ الوعيد فالوعيدُ تهديدٌ ، وإذا كان الوعيد قبل الوعد فالوعيدُ منسوخ ، فإذا اجتمعا معاً

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٢٩) (٢٢٨) .

فالغلبةُ والثبات للوعد ؛ إذِ الوعدُ حقُّ العبد ، والوعيدُ حقُّ الله ، والكريمُ يتفضَّلُ بترك حقِّه) .

وكان يقول : (قلَّ من ادَّعى القوةَ في أمرٍ إلا وخُذل ، ووكِلَ إلىٰ نفسه) .

وكان يقول : (لو قيل للعارف : إنك تبقىٰ في الدنيا لماتَ كَمَداً ، ولو قيل لأهل الجنة : إنكم تخرجون منها لماتوا كمداً ، فما طابتِ الدنيا للعارفين إلا مع ذكرهم الخروج منها ، وما طابتِ الجنةُ لأهلها إلا بذكرهم الإقامة فيها) .

وكان يقول : (مدارجُ العلوم تكون بالوسائط ، وأما مدارجُ الحقائقِ فلا تكون إلا بالمكاشفة) .

وقيل له : ما أفضلُ أوقاتك ؟ فقال : وقتٌ يكونُ الحقُّ عني راضياً .

وكان يقول : (من أخلاقِ الفقراء : السكون عند الفقد ، والاضطرابُ عند الوجود ، والأنسُ بالهموم ، والوحشةُ عند فرح الناس بالدنيا) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٢٥) أبو عمرو محمد بنُ إبراهيم الزُّجَاجيُّ رضي الله عنه[١]

نيسابوريُّ الأصل .

صحب الجُنيد ، والنُّوري ، وأبا عثمان ، ورُويماً ، والخوَّاص .

ودخل مكة ، وأقام بها ، وصار شيخَها والمنظورَ إليه فيها ، وحج قريباً من ستين حجة .

ومات في المحرَّم سنة ثمانٍ وأربعين وثلاث مئة .

وكان يجتمعُ هو والكتاني ، والنَّهرجوري ، والمرتعش ، وغيرهم ، فيكون صدرَ الحلقة ، وإذا تكلَّم في شيءٍ رجعوا كلُّهم إلىٰ كلامه .

ومكث بمكة أربعين سنة لم يبل قطُّ ، ولم يتغوَّطْ في الحرم ، بل كان يخرجُ إلى الحلِّ كلما بال .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٣٠) (٢٢٩) .

وكان يقول : (من تكلَّم علىٰ حالٍ لم يصل إليه كان كلامُهُ فتنةً لمن يسمعه ، وحرَّم الله تعالىٰ عليه الوصولَ إلىٰ ذلك الحال) .

وكان يقول : (من جاورَ بالحرم وقلبُهُ معلَّقٌ بشيءٍ سوى الله فقد أظهرَ خسارتَهُ) .

وكان يشدِّدُ النَّكير علىٰ من سرقَ بالحرم شيئاً ، ويقول : (من سرقَ من الحُجَّاج شيئاً أبعدَهُ الله ، ووكل قلبَهُ بالشحِّ ، وأطلق لسانَه بالشكوىٰ ، ومسح قلبَهُ من المعارف ، وخرجت منه أنوارَ اليقين ، ومقته بين خليقته) .

وكان يقول : (مما جرَّبناه لردِّ الضالة : اللهم ، يا جامعَ الناسِ ليومٍ لا ريب فيه ؛ اجمعْ عليَّ ضالَّتي ، ويقرأ قبله سورةَ « والضحىٰ » ثلاث مرات) .

قال : (وقد وقعَ مني فصٌّ في دجلة ، فدعوتُ به ، فوجدتُ الفصَّ في وسط أوراقٍ كنتُ أتصفَّحُها) .

وسئل عن حديثِ : « تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ منْ عبادةِ سنةٍ »[1] . . فقال : المرادُ بالتفكر هنا : هو نسيان النفس ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٢٢٦) جعفرُ بن محمد بن نصير الخوَّاص رضي الله عنه[2]

ويعرف بالخُلْدي ، بغداديُّ المولد والمنشأ

صحب الجُنيد ، وعُرف بصحبته ، وإليه كان ينتمي ، وصحب النُّوري ، ورُويماً ، وسمنون ، والجريريَّ ، وغيرَهم من المشايخ .

وكان المرجعُ إليه في فهم كلام القوم وحكاياتهم وسيرهم ، حتىٰ قال يوماً : (عندي مئةٌ ونيِّفٌ وثلاثون ديواناً من دواوين الصوفية) .

حجَّ قريباً من ستين حجة .

ومات ببغداد سنة ثمانٍ وأربعين وثلاث مئة ، وقبره بالشُّونيزية عند قبر سريٍّ السَّقطي ، والجنيد .

---

(١) أورده الغزالي في « الإحياء » (٤/ ٤٢٣) ، وانظر كلام العراقي عليه (ص ١٧٩٨) ، وتقدم تخريجه (١/ ٤٣٢) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٣٢) (٢٣٠) .

وكان يقول : (لا يقدحُ في الإخلاص كونُ المريد يعملُ ليصل إلى المقامات العالية) .

وكان يقول : (ينبغي أن يكونَ معظمُ سعي الأحرار لإخوانهم لا لأنفسهم ؛ وذلك ليكونَ الحقُّ تعالىٰ في حاجتهم كما ورد)[1]

وكان يقول : (من أخلصَ لله في المعاملة أراحَهُ الله من الدعاوى الكاذبة) .

وكان يقول : (جعتُ مرةً في الحجر ، فسألتُ الله في الحجر أن يرزقني شيئاً ، فوقع عليَّ مسمارُ فضةٍ من مسامير الميزاب ، فقضيتُ به حاجتي) .

وكان يقول : (لا أعلمُ شيئاً أفضلَ من الاشتغال بالعلم والعمل علىٰ وجه الإخلاص ؛ فإن بالعلم عُرف الله ، وبه أُطيع ، وبه استحى المستحيون ، وإنما كره بعضُهم العلم إذا لم يكن صاحبُهُ يعملُ به) .

وكان يقول : (عليكم بصحبة الفقراء ؛ فإنهم كنوزُ الدنيا ، ومفاتيحُ الآخرة) .

وكان يقول : (الفقيرُ لا يأكل إلا عند وجودِ جوعٍ ، أو لوقت يريد أن يجوع فيه) .

ومنهم :

(٢٢٧) أبو العباس بنُ القاسم بن مهدي ابن بنت أحمد بن سيار رضي الله عنه[2]

كان من أهل مرو ، وهو شيخُهم ، وأوَّلُ من تكلَّم عندهم في بلدهم في حقائق الأحوال ، وكان فقيهاً محدِّثاً .

صحب أبا بكر الواسطي ، وإليه كان ينتمي في علوم هٰذه الطائفة .

وكان من أحسن المشايخ لساناً في علوم التوحيد ، وجميعِ مَنْ بكورتِهِ من أهل السُّنَّة والجماعة .

مات سنة اثنتين وأربعين وثلاث مئة .

---

(١) وهو الحديث الذي رواه مسلم (٢٦٩٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٣٥) (٢٣١) .

وكان يقول : (كيف السبيلُ إلىٰ ترك ذنبٍ كان عليك في اللوح محفوظاً ؟! وإلىٰ صرفِ قضاءٍ كان به العبد مربوطاً ؟!) .

وكان يقول : (من أعظمِ ما يروِّضُ به المريدُ نفسَهُ الصبرُ علىٰ فعل الأوامر ، واجتنابُ المناهي ، وصحبة الصالحين ، وخدمةُ الإخوان ، ومجالسةُ الفقراء) .

وكان يقول : (حقيقةُ المعرفة الخروجُ عن المعارف) .

وكان يقول : (ما التذَّ عاقلٌ بمشاهدة الحقِّ قطُّ ؛ لأن مشاهدته تعالىٰ فناءٌ ، ليس فيه لذَّةٌ ولا التذاذٌ ولا حظٌّ ولا احتظاظ ؛ وذلك لأنه لا مجانسة بينه تعالىٰ وبين خلقه ، ومعلومٌ : أن الالتذاذ لا يكونُ إلا بالمجانس ؛ ولذلك كان الإنسانُ ينفرُ من رؤية الجنِّ لعدم المجانسة) .

وكان يقول : (ما أخبر أحدٌ عن الحقِّ إلا وهو محجوبٌ عن الحقِّ) ؛ أي : عن الإحاطة به .

وكان يقول : (ظلمةُ الأطماع تمنعُ أنواعَ المشاهدات) .

وكان يقول : (لباسُ الهيبة للعارفين ، ولباس التقوىٰ للمقربين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦]) .

وكان يقول : (من دقَّقَ الورعَ هنا اتَّسع عليه الصراطُ هناك ، ومن وسَّع علىٰ نفسه هنا ضَيَّقَ عليه الصراط هناك) .

ومنهم :

(٢٢٨) أبو بكر بن داود الدينوري الدُّقِّي رضي الله عنه[١]

أقامَ بالشام ، وكان من أقران أبي علي الرُّوذباري .

وعُمِّرَ زيادةً عن مئة سنة .

وصحب أبا عبد الله بنَ الجلاَّ ، وأبا بكر الزقَّاق الكبير ، وأبا بكر المصري .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٤٣٦) (٢٣٢) .

وكان من أجلِّ مشايخ وقته ، وأحسنهم حالاً ، وأقدمهم صحبةً للمشايخ .

مات بعد الخمسين وثلاث مئة .

وكان يقول : (من علامةِ الصوفي : أن يكون مشغولاً بما هو أولىٰ في كلِّ وقتٍ) .

وكان يقول : (إذا انحطَّ الفقيرُ من حقيقة العلم إلىٰ ظاهره فقد أساءَ الأدبَ مع الله تعالىٰ في حاله ، بخلاف الفقهاء) .

وكان يقول : (أهلُ المعرفة أحياء ؛ لحياةِ معروفِهم ، فلا حياةَ حقيقةً إلا لهم ، وحياةُ غيرهم مجاز) ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٢٩) أبو محمد عبدُ الله بن عبد الرحمـٰن الرَّازي رضي الله عنه[١]

أصله من الراز[٢] ، ومولده ومنشؤه بنيسابور .

وكان يعرف : بالشَّعراني .

صحب : الجُنيد ، وأبا عثمان الحِيري ، ورُويماً ، ومحمد بنَ الفضل ، وسمنوناً ، والجوزجاني ، ومحمدَ بنَ حامد وغيرهم .

وهو أجلُّ أصحاب أبي عثمان ، وكان أبو عثمان يُكرمه ويبجِّله[٣]

وكان من كبار مشايخ نيسابور في وقته ، وله من الرياضات ما تعجزُ عنه الأسماع .

وكان عالماً بعلوم هـٰذه الطائفة ، وكتب الحديثَ الكثير ، وكان ثقةً تقيّاً .

مات سنة ثلاثٍ وخمسين وثلاث مئة .

---

(١) في « طبقات الصوفية » (ص ٤٥١) : (أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمـٰن الرازي) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٣٧) (٢٣٣) .

(٢) الراز : أي الري .

(٣) في « طبقات الصوفية » (ص ٥٥١) : (ويُجلُّه) .

وكان يقول : (المعرفةُ تهتكُ الحجبَ بين العبد وبين مولاه)

وقيل له مرةً : ما بالُ الناس يعرفون عيوبهم ، ويحبُّون ما هم فيه ، ولا ينتقلون عن ذلك ، ولا يرجعون إلىٰ طريق الصواب ؟! فقال : لأنهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم دون استعماله ، واشتغلوا بأبحاث الظواهرِ دون البواطن ، فأعمى اللهُ قلوبهم عن النظر إلى الصواب ، وقيّدَ جوارحَهم عن العبادة ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٣٠) أبو عمرو إسماعيل بنُ نُجيد السُّلمي رضي الله عنه[١]

هو جدُّ الشيخ أبي عبد الرحمـٰن السُّلمي ، شيخ أبي القاسم القُشيري .

صحب أبا عثمان ، وكان من أكبر أصحابه ، ولقي الجُنيد .

وكان من أكبرِ مشايخ وقته ، وله طريقةٌ ينفردُ بها من صحة الحال وصون الوقت .

وهو آخرُ من مات من أصحاب أبي عثمان في سنة ستٍّ وستين وثلاث مئة .

وسمع الحديث ورواه ، وكان عالماً صالحاً .

وكان يقول : (كلُّ حالٍ لا يكون نتيجةَ علمٍ فضررُهُ علىٰ صاحبه أكثرُ من نفعه) .

وكان يقول : (من كرمتْ عليه نفسُهُ هان عليه دينُهُ) .

وكان يقول : (كل من لم تهذِّبْك رؤيتُهُ فهو غيرُ مهذَّبٍ) .

وكان يقول : (لا يصفو لأحدٍ قدمٌ في العبودية حتىٰ يشهدَ أفعالَهُ كلَّها رياءً ، وأحوالَهُ كلَّها دعاوىٰ) .

وكان يقول : (إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً رزقَهُ صحبةَ الصالحين ، والعملَ بما يُشيرون به عليه) .

وكان يقول : (الدعاوىٰ من أحوال المغترِّين بالله ، وأصلُ الدعاوىٰ من فساد الابتداء) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٣٨) (٢٣٤) .

وكان يقول : (الموحِّدُ لا يدَّعي قطُّ ؛ لأنه يرى الأمورَ كلَّها لله دون نفسه) .

وكان يقول : (بقدرِ ما تشتغلُ بالناس بقدر ما تضيِّعُ من حقِّ ربِّك وأوامره) .

وكان يقول : (من الجهل إظهارُ العبد محاسنَهُ لمن لا يملك نفعَهُ ولا ضرَّه) .

وكان يقول : (من استقامَ لا يعوجُّ به أحدٌ اقتدىٰ به ، ومن اعوجَّ لا يستقيمُ به أحدٌ) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٣١) أبو الحسن بن أحمد بن سهل البُوشَنْجي رضي الله عنه[١]

كان من أوحدِ فتيان خراسان .

لقي أبا عثمان ، وصحب بالعراق ابنَ عطاء ، والجَريري ، وبالشام طاهرَ المقدسي ، وأبا عمرو الدمشقي ، وتكلَّمَ مع الشِّبليِّ في مسائل .

وهو من أعلم المشايخ بعلوم التوحيد وعلومِ المعاملات ، ومن أحسنِ الناس طريقةً في الفتوة والتجريد .

وكان معظِّماً للفقراء ، حسنَ الخُلق جدّاً .

مات سنة ثمانٍ وأربعين وثلاث مئة .

سئل رضي الله عنه عن التصوف ، فقال : كان حقيقةً ولا اسمٌ ، وهو الآن اسمٌ ولا حقيقة .

وكان يقول : (من شرطِ الوليِّ : أن يكونَ باطنُهُ أفضلَ من ظاهره ، ومن شرط العالم : استواءُ ظاهره وباطنه ، ومن علامةِ الجاهل : أن يكونَ ظاهرُهُ أفضلَ من باطنه ؛ وكذلك لا ينصفُ من نفسه ويطلبُ الإنصافَ من غيره) .

وكان يحطُّ علىٰ نفسه ، ويبكي ، ويقول : (واللهِ ؛ إن الخيرَ منَّا زلَّةٌ ، والشرَّ لنا صفةٌ) ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٤٠) (٢٣٥) .

ومنهم :

(٢٣٢) أبو عبد الله محمد بنُ خفيف الضَّبيُّ الشِّيرازي رضي الله عنه[١]

هو شيخُ المشايخ ، وأوحدُهم في وقته ، وكان عالماً بالشريعة والحقائق ، حسن الأحوال في المقامات ، وجميل الأخلاق .

مات سنة إحدىٰ وسبعين وثلاث مئة .

وكان يقول : (**التصوفُ** : إخمادُ صفات البشرية ، ومُجانبةُ الدعاوى النفسانية ، ومنازلةُ صفات الروحانية ، والتعلُّقُ بعلوم الحقائق ، والنُّصحُ بالشريعة لجميع الأمة).

وكان يقول : (ليس شيءٌ أضرَّ على المريد من مسامحة نفسه بالرُّخص والتأويلات) .

وكان يقول : (**الذكرُ علىٰ قسمين** : ذكرُ الله بأسمائه ، وذلك هو الذكرُ الظاهر ، وذكرُ الله بأنه يراهُ على الدوام وهو بين يديه ، فذلك هو الذكرُ الباطن) .

وكان يقول : (رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول : من عرفَ طريقاً إلى الله فسلكه ثم رجعَ عنه عذَّبَهُ الله عذاباً لم يعذِّبْ به أحداً من العالمين) .

وكان يقول : (عليك بمن يعظُكَ بلسانِ فعله لا بلسان قوله) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٣٣) أبو الحسينُ بُندار بن الحسين الشيرازي رضي الله عنه[٢]

سكنَ أرَّجان[٣] ، وكان عالماً بالأصول ، وله اللسانُ المشهور في علم الحقائق .

كان الشبليُّ يعظِّمه ، ويُعظِّم قدره .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٤١) (٢٣٦) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٤٢) (٢٣٧) .

(٣) في النسخ : (أذربيجان) ، والمثبت من مصادر ترجمته .

مات سنة ثلاثٍ وخمسين وثلاث مئة ، وغسَّله أبو زُرعة الطبري .

وسُئل عن الفرقِ بين الصوفيِّ والمتصوف ، فقال : (الصوفيُّ : من صافاه الحقُّ تعالىٰ ، واختارَهُ من غير تكلُّفٍ ولا اجتهاد ، والمتصوِّفُ : هو المزاحمُ على الرتبة مع تكلُّفٍ ، وكون رغبتِهِ في الدنيا[1] ، خلافَ ما يظهره من الزهد) .

وكان يقول : (يصلُ العبد إلىٰ مقامٍ لا يُخاصم فيه نفسه ؛ لأنه يراها مُلكاً لله لا له) .

وكان يقول : (ليس من أدبِ المريد أن يسألَ رفيقَهُ إلىٰ أين ؟ أو في أَيش ؟) .

وكان يقول : (من لم يجعلْ قبلتَهُ ربَّهُ فسدتْ صلاته) .

وكان يقول : رأيتُ مجنونَ بني عامر بعد موته ، فقلت له : ما فعلَ الله بك ؟ فقال : غفرَ لي ، وجعلني حجَّةً على المحبِّين .

وقيل له مرةً : ما هي الدنيا ؟ فقال : الدنيا ما دنا من القلب ، وشغلَهُ عن الحقِّ تعالىٰ .

وكان يقول : (من أقبلَ على الآخرة أحرقته بنورِها ، فصار سبيكةَ ذهبٍ يُنتفع به ، ومن أقبل على الله أحرقَهُ بنورِ التوحيد ، وصار جوهراً لا يقابل بثمن) ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٢٣٤) أبو بكر الطَّمَسْتاني رضي الله عنه[2]

كان من أجلِّ مشايخ الصوفية ، وأعلاهم حالاً ، منفرداً بحاله ، لا يُشاركُهُ فيه أحدٌ ولا يُدانيه ، وكان الشبليُّ يُجلُّه ويُكرمه .

صحب إبراهيم الفارسي وغيرَه من مشايخ الفرس[3] ، وكانوا جميعاً يحترمونه .

---

(١) في (ج ، ط ، ك) : (وكمون رغبة) بدل (وكون رغبته) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٤٣) (٢٣٨) .

(٣) في « طبقات الصوفية » (ص ٤٧١) ، و« الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٤٣) : (صحب إبراهيم الدباغ وغيره من مشايخ الفرس) .

وورد نيسابور ، ومات بها سنة أربعين وثلاث مئة .

وكان يحثُّ أصحابَهُ على العزلةِ والجوعِ والسهرِ ، وقلَّةِ الكلام ، ويقول : (مرجعُ أركان الطريق كلِّها إلى الجوع ؛ فإن العبدَ إذا جاعَ قلَّ كلامُهُ ونومُهُ ، وأحبَّ العزلةَ عن الناس ، وإذا شبع فبالعكس) .

وكان يقول : (خيرُ الناس من رأى الخيرَ في غيره ، ورأىٰ نفسَهُ دون إخوانه ، ولو ارتفعَ في الرتبة ؛ وذلك ليرىٰ تقصيره عن القيام بما كُلِّفَ به) .

وكان يقول : (من اتَّبعَ الكتابَ والسنة ، وهاجر إلى الله بقلبه ، واتَّبع آثارَ الصحابة . . لم تسبقْهُ الصحابة إلا بكونهم رأوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لا غير) .

وكان يقول : (يقظةُ أهل الآخرة لعمارة الآخرة ، ويقظةُ أهل الدنيا لعمارةِ الدنيا)[١]

وكان يقول : (من صدقَ في إقباله على الله لم يشغله الخلقُ عن الله) .

وكان يقول : (النفسُ كالنار ؛ إذا طُفئتْ في موضعٍ تأجَّجت في موضعٍ آخرَ ، وكذلك النفس إذا هدأتْ من جانب ثارت من جانب) .

وكان يقول : (إذا لم تقدروا علىٰ أن تصحبوا اللهَ تعالىٰ بالأدب . . فاصحبوا مَنْ يصحبُهُ ؛ لتوصلكم بركاتُ صحبته إلىٰ صحبة الله تعالىٰ) ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٣٥) أبو العباس أحمد بنُ محمد الدِّينوري رضي الله عنه[٢]

صحب يوسف بنَ الحسين ، وعبد الله الخرَّاز ، وأبا محمد الجَريري ، وأبا العباس ابن عطاء ، ولقي رُويماً .

---

(١) قال الشعراني في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٤١) معقباً علىٰ هـٰذه المقولة : (هـٰذا إذا لم يقصد المحترف بحرفته نفع العباد ، واقتصر علىٰ جمع الدنيا فقط ، فإذا نوىٰ بحرفته نفع العباد فقد عمر الدنيا والآخرة ، والله أعلم) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٤٥) (٢٣٩) .

وورد نيسابور ، وأقام بها مدَّةً ، وكان يعظُ الناس ، ويتكلَّمُ علىٰ لسان المعرفة بأحسنِ كلام ، ثم رحل من نيسابور إلىٰ سَمَرْقَند ، ومات بها بعد الأربعين وثلاث مئة .

وكان يقول : (العلماءُ متفاوتون في ترتيب مشاهداتِ الأشياء ؛ فقومٌ رجعوا من الأشياء إلى الله ، فشاهدوا الأشياءَ حيثُ الأشياء ، ثم رجعوا منها إلى الله ، وقومٌ رجعوا من الله إلى الأشياء من غيرِ غيبتهم عنه ، فلم يروا شيئاً إلا ورأوا الحقَّ قبله ، وقوم بقوا مع الأشياء ؛ لأنهم لم يكن لهم طريقٌ منهم إلى الله) .

وكان يقول عن أهل زمانه : إن هـٰؤلاء نقضوا أركانَ التصوف ، وهدموا سبيلها ، وغيَّروا معانيها بأسامٍ أحدثوها ، فسمُّوا الطمعَ زيادةً ، وسوءَ الأدب إخلاصاً ، والخروجَ عن طريق الحقِّ شطحاً ، وسوءَ الخُلق حالاً ، والسؤالَ عملاً ، وما هـٰكذا كان القوم ، إنما درجوا على الحياءِ والأدب ، والعفَّة والزهد في الحظوظ ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٣٦) أبو عثمان سعيد بن سلاَّم المغربيُّ رضي الله عنه[١]

أصلُه من القيروان ، من قرية يقال لها : كَرْكِنْت[٢] ، أقام بالحرمِ المكي مدةً ، وكان شيخها .

وصحب أبا علي الرُّوذْبادي ، وابن الكاتب ، وحبيباً المغربي ، وأبا عَمرو الزُّجاجي ، ولقي النَّهْرَجوري ، وأبا الحسن بن الصائغ الدينوري ، وغيرهم .

ولم يُرَ مثلُهُ في علوِّ الحال ، وصونِ الوقت ، وصحة الحكم بالفِراسة ، وعظمِ الهيبة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٤٤٦) (٢٤٠) .

(٢) في النسخ : (كوكب) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وكَرْكِنْت : كذا ضبطها ياقوت في « معجم البلدان » (٤/٤٥٣) ، وأما ابن الأثير فضبطها في « اللباب » (٣/٩٣) بكسر الكافين ؛ وهي قرية من قرى القيروان ، علىٰ ساحل البحر في جزيرة صقلية .

ورد نيسابور ، ومات بها سنة ثلاثٍ وسبعين وثلاث مئة ، وأوصىٰ أن يُصلي عليه الإمام أبو بكر بن فُورك .

وكان يقول : (من حفظَ جوارحَهُ تحت الأوامر فهو في اعتكافٍ على الدوام) .

وكان يقول : (أبى الملكُ الجبَّارُ إلا أن يختبرَ أولياءه بتسليط عدوِّهم عليهم ؛ ليرىٰ كيف صبرُهم علىٰ أعدائهم ، فمن صبرَ صار إماماً يُقتدىٰ به ، ومن لم يصبرْ نكصَ علىٰ عقبيه) .

وكان يقول : (إن الله جعل أنسَ الناس في رؤية الأولياء) .

وكان يقول في معنىٰ حديث : « أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلْهُ »[1] : (المراد بهم : البله في دنياهم ، الفقهاء في دينهم) .

وكان يقول : (من آثرَ صحبةَ الأغنياء علىٰ صحبة الفقراء ابتلاه الله بموتِ القلب) .

وكان يقول : (العاصي النادمُ خيرٌ من الطائع المُدَّعي ؛ لأن العاصي يطلبُ أبداً طريقَ توبته ، ويعترفُ بنقصه ، والمدَّعي يتخبَّطُ في خيال دعواه)[2] .

وكان يقول : (أفواهُ العارفين لم تزلْ فاغرةً لمناجاة القدرة) .

وكان يقول : (قد يكون الوليُّ مستوراً ، ولـٰكن لا يكون مَفتوناً) .

وكان يقول : (من لم يسمعْ من نهيقِ الحمار كما يسمعُ من أصواتِ العود ودواخل المغنِّين فسماعه معلول) .

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٣٣٩) والطحاوي في « مشكل الآثار » (٢٩٨٢) ، والشهاب القضاعي في « مسنده » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٦٧) عن سيدنا أنس رضي الله عنه ، قال ابن الأثير في « النهاية » (ب ل هـ) : (**الأبله** : هو الغافل عن الشر ، المطبوع على الخير) . وتقدم (١/ ٤٤٧) .

(٢) في (أ) : (خبال) بدل (خيال) ، وفي (ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ز ، ح ، ك) : (حبال) ، وفي (ي) : (حال) ، والمثبت من (ط) .

ومنهم :

(٢٣٧) أبو القاسم إبراهيم بنُ محمد النَّصْرَاباذِي رضي الله عنه[١]

كان شيخَ خراسان في وقته ، نيسابوريُّ الأصل والمولد والمنشأ .

وكان مُفنَّناً في العلوم ، وكان أوحدَ المشايخ في وقته علماً وحالاً

صحب أبا بكر الشِّبليَّ ، وأبا علي الرُّوذْباري ، وأبا محمد المُرتعش ، وغيرهم .

أقام بنيسابور ، ثم خرج أواخر عمره إلىٰ مكة ، وحجَّ سنة ستٍّ وستين وثلاث مئة وكتب الحديث ورواه .

مات مجاوراً بمكة سنة سبع وستين وثلاث مئة .

وكان يقول : (من عقلِ الفقير إذا اشتهرَ بالزهد في الدنيا : أن يتظاهرَ بإمساكها بين الناس ؛ ليقطعَ عنه نسبةَ الزهد ، والمدارُ على القلب ، إلا أن يكونَ له أتباعٌ يتبعونه في إمساك الدنيا ، فليس له إمساكُها خوفاً أن يبلغهم) .

وكان يقول : (من أدبِ العارف : أن يعظِّمَ ما عظَّم الله من أمور الكون) .

وسُئل عن فقيرٍ يُجالس النساءَ ، وينظرُ إليهن ، ويقول : أنا محفوظ ، فقال : (ما دامتِ الأشباحُ باقيةً فالعبدُ مخاطبٌ بالأمر والنهي على العموم) .

وكان يقول : (من عملَ علىٰ رؤية الجزاء كانت أعمالُه بالعددِ والإحصاء ، ومن عمل على المشاهدة أذهلته المشاهدةُ عن التعداد والعدد ، وكان أجرُهُ بلا عدد) .

وكان يقول : (دماءُ المحبِّين تجيشُ وتغلي ، وهم واقفون مع الحقِّ في مقامٍ إن تقدَّموا غرقوا ، وإن تأخَّروا حُجبوا) .

وكان يقول : (الجذبُ أسرعُ في الوصول من السلوك ؛ فإن كلَّ جذبةٍ من الحقِّ تُغني العبدَ عن أعمال الثقلين) .

وكان يقول : (أصلُ التصوف : ملازمةُ الكتاب والسُّنة ، وتركُ الأهواء والبدع ،

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٤٤٧) (٢٤١) .

وتعظيمُ حرمات المشايخ ، وإقامةُ المعاذير للخلق إذا جنوا عليه ، والمداومةُ على الأوراد ، وتركُ ارتكاب الرُّخص والتأويلات ، وما خالف أحدٌ ما قلناه إلا انحطَّ عن مقام الرجال) .

وكان يقول : (الزاهدُ غريبٌ في الدنيا ، والعارفُ غريبٌ في الآخرة) .

وكان يقول : (إنما سمَّى اللهُ تعالىٰ أهلَ الكهف ﴿ فِتْيَةٌ ﴾ [الكهف : ١٣] لأنهم آمنوا بلا واسطة) .

وكان يقول : (نهاياتُ الأولياء بدايةُ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) .

ومنهم :

(٢٣٨) أبو الحسن علي بنُ إبراهيم الحُصْرِي رضي الله عنه[١]

هو بصريُّ الأصل ، وسكن بغداد ، ومات بها يوم الجمعة سنة إحدىٰ وسبعين وثلاث مئة .

وكان شيخَ العراق في وقته ، وهو أستاذُ العراقيين ، وبه تأدَّبَ من تأدَّبَ منهم .

صحبه الشبليُّ ، وإليه كان ينتمي ، وصحبَ غيرَهُ من المشايخ كالجُنيد والنُّوري .

وكان يقول : (مكثتُ زماناً لا أستعيذُ بالله من الشيطان إذا قرأتُ القرآن في بداية أمري ، وأقول : مَنِ الشيطانُ حتىٰ يحضرَ كلامَ الحقِّ ؟! حتىٰ منَّ الله عليَّ ، فعلمتُ أن الشيطان لا يفارقُ مستقيماً ولا أعوجَ) .

وكان يقول : (عرِّضوا للإخوان بالأمور ولا تصرِّحوا ؛ فإن ذلك أسترُ لهم) .

وكان يقول : (من علامة الحاسدِ لك : ألا يقدرَ يصوِّرُ عليك دعوىٰ صحيحةً عند حاكمٍ ولا عند الله يوم القيامة ، ومثلُ ذلك لا ينبغي لعاقلٍ أن يلتفتَ إليه) ، والله تعالىٰ أعلم .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٤٩) (٢٤٢) .

ومنهم :

(٢٣٩) أبو عبد الله أحمد بنُ عطاء ابن أخت أبي علي الرُّوذْباري[١]

كان شيخَ الشام في وقته ، يرجعُ إلىٰ أحوالٍ يختصُّ بها ، مُفنَّناً في علوم الشريعة وتوابعها ، عابداً زاهداً .

مات بصور سنة تسع وستين وثلاث مئة .

وكان يقول : (أهلُ الغَيبة عن الله إذا شربوا طاشوا ، وأهلُ الحضور إذا شربوا عاشوا) .

وكان يقول : (أقبحُ من كلِّ قبيح صوفيٌّ شحيح) .

وكان يقول : (من اتَّبعَ طريقَ القوم انتفىٰ عنه البخل ، ومَنْ كتبَ الحديث انتفىٰ عنه الجهل ، ومن اجتمعَ فيه الكرمُ والعلمُ كان إماماً) .

وكان يقول : (من خدم الأولياء بلا أدبٍ هلك) .

وكان يقول : (ليس كلُّ من يصلحُ للمجالسة يصلحُ للمؤانسة ، ولا كلُّ من يصلح للمؤانسة يُؤتمن على الأسرار) .

وكان من شأنه رضي الله عنه إذا خرج إلىٰ مكانٍ أن يمشي علىٰ أثر الفقراء ، لا يتقدَّمهم ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٤٠) أبو عبد الله محمد بن محمد التُّرُوغْبَذِيُّ رضي الله عنه[٢]

هو من جِلَّة مشايخ طُوس .

صحب أبا عثمان الحيري ، وطائفةً من المشايخ ، وتخلَّف بعدهم حتىٰ صار أوحدَ أهل زمانه ، وظهرتْ له كرامات .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٥٠) (٢٤٣) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٥١) (٢٤٤) .

وكان متجرِّداً من الدنيا عالي الهمَّةِ والحال .

مات بعد الخمسين وثلاث مئة .

وكان يقول : (من طلبَ الدنيا للدنيا فذلك من علامة حبِّهِ لجمعِ الدنيا) .

وكان يقول : (من ضيَّعَ حقَّ الله في صغره أذلَّهُ الله بالحاجةِ إلى الناسِ في كبره) .

وكان يقول : (ما رأينا أحداً خدمَ الفقراء بصدقٍ إلا وحصل له العزُّ في الدنيا قبل الآخرة) .

وكان يقول : (الزاهدُ في حظِّ نفسه غارق ، والعارفُ في رضا ربِّهِ)

وكان يقول : (يُنزلُ الله تعالىٰ علىٰ كلِّ عبدٍ من البلاء بقدرِ ما وهبه من المعرفة ؛ وذلك لتكون معرفتُه عوناً له علىٰ بلائه) .

وكان يقول : (ما جزعَ صلى الله عليه وسلم قطُّ من أمرٍ يتعلَّق به ؛ وإنما كان يجزعُ علىٰ ما يتعلَّقُ بأمَّتِهِ) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٤١) أبو الحسن علي بن بُندار الصَّيْرفي رضي الله عنه[١]

كان من جلَّة مشايخ نيسابور .

رُزق من صحبةِ المشايخ ما لم يُرزقْهُ غيرُهُ ، صحب بنيسابور أبا عثمان ، ومحفوظاً ، وببغداد الجُنيد ، ورُويماً ، وسمنونَ ، وابنَ عطاء ، والجريري ، وبالشام طاهرَ المقدسي وابن الجلاَّ ، وبمصر أبا بكر المصري ، والزقَّاق ، والرُّوذْباري ، وكتبَ الحديث ورواه .

وكان يقول : (إذا دخلتم بلداً فابدؤوا بالصوفية قبل المحدِّثين ؛ ليعلِّموكم الأدبَ مع المحدِّثين) .

---

(١) في٤٥١ النسخ : (الصوفي) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وتقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٥٣) (٢٤٥) .

وسئل عن التصوف ، فقال : (هو عدمُ الوقوف مع الخلقِ ظاهراً وباطناً) .

وكان يقول : (تفسدُ القلوبُ على حسب فسادِ الزمان) .

وكان يقول : (لا يكملُ حالُ الفقير حتى يكتمَ فقرَهُ عن إخوانه ، ويكتمَ رضاه به وفرحَهُ به) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ إن زماناً يُذكر فيه أمثالُنا بالصلاح لا يُرجى فيه الصلاح) .

وكان إذا لقي فقيراً قد لقي أحداً من الأولياء ، وهو لم يلقه ، يُقبِّلُ يدَهُ ، ويُركبُهُ دابَّتَهُ ، ويمشي خلفه ، ويقول : إنك لقيتَ فلاناً ، وأنا لم ألقَهُ ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٤٢) أبو بكر محمد بنُ أحمد بن جعفر النيسابوري رضي الله عنه[١]

كان من أعلم مشايخ نيسابور في وقته ، وأكثرِهم فتيا .

صحب أبا عثمان الحيري .

ومات قبل الستين وثلاث مئة .

وكان يقول : (**الفتوةُ** : بذلُ المعروف إلى كلِّ برٍّ وفاجر ، وحسنُ الخُلق مع سائرِ الناس) .

كان يقول : (إذا شهدَ أحدٌ من المسلمين فيكم بشرٍّ . . فخافوا ، ولو كانَ عدوّاً لكم ؛ فإن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال للمسلمين : « أنتمْ شهداءُ اللهِ في الأرضِ »[٢] ، فيجبُ على كلِّ عاقلٍ أن يتفقَّدَ ما انطوى عليه من الشرِّ ، ويتوبَ منه ؛ فإن شهادة الناس عندَ الله تعالى مقبولةٌ ، وإذا أُقيمت البيِّنةُ عند الحاكم ، وهي عادلة . . حكمَ بها لا محالةَ ، إلا أن يكونَ الشاهدون من المجرمين ؛ فإنهم لا يُقبلون لعداوتهم للمؤمنين) ، والله تعالى أعلم .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (١/ ٤٥٤) (٢٤٦) .

(٢) رواه البخاري (١٣٦٧) ، ومسلم (٩٤٩) عن سيدنا أنس رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (١/ ٤٥٤) .

ومنهم :

(٢٤٣) أبو بكر محمد بنُ أحمد بن حَمْدون الفرَّاء رضي الله عنه[١]

كان من كبار مشايخ نيسابور .

صحب : أبا علي الثقفي ، وعبد الله بن مُنازل ، والشِّبلي ، وأبا بكر بن طاهر ، وغيرَهم .

وكان أوحدَ وقته في طريقته .

مات سنة سبعين وثلاث مئة .

وكان يقول : (مِنْ شرطِ العاقل : أن يكتمَ حسناتِهِ أكثرَ مما يكتمُ سيئاته ؛ فإنه بذلك يرجو النجاةَ) .

وكان يقول : (لا يدخلُ نورُ المعرفة قلباً من القلوب حتىٰ يُؤْثِرَ صاحبُهُ الحقَّ علىٰ كلِّ شيءٍ) .

وكان يقول : (لا تتواضعْ لمن لا يكرمُكَ تَظلمْ نفسك ، ومَنْ زهدَ فيك فازهدْ فيه ، ومن أتىٰ إليك فاذهبْ إليه ، ومن ذكرَكَ فاذكرْهُ ، ومن نسيك فانسَهُ ، وعاملِ الوجود بحسب ما يعاملُكَ ، إلا أن تُريدَ الفضلَ فلا حرج) ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٤٤) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المقرئ رضي الله عنه[٢]

صحب يوسف بن الحسين الرَّازي ، وعبد الله الخرَّاز ، ومظفَّرَ القَرْمِيسيني ، ورُويماً ، والجريري ، وابن عطاء ، وغيرَهم .

---

(١) في (أ ، ز ، ط) : (عبد الله) بدل (أبو بكر) ، وفي (ج ، د ، هـ ، ح ، ي) : (أبو عبد الله) ، والمثبت من « طبقات الصوفية » (ص ٥٠٧) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٥٥) (٢٤٧) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٥٥) (٢٤٨) .

وكان من أسخى المشايخ ، وأعلاهم همَّةً .

مات سنة ستٍّ وستين وثلاث مئة .

وكان يقول : (إذا ظنَّ الناسُ فيك الخوفَ من الله ، أو قيامَ الليل ، أو الورعَ ، أو الزهدَ في الدنيا . . فحقِّقْ ظنَّهم فيك ، وإياك أن يظنوا فيك خيراً وأنت مُتمادٍ علىٰ ضدِّه ؛ فإنَّ ذلك خسرانٌ ونفاق) .

وكان يقول : (إن الله يسوقُ إلى العبد أرزاقَ الخلائق بقدرِ ما في قلبه من الكرم والجود) .

وكان يقول : (إذا استرعاك اللهُ أحداً من الفقراء في زاويتك فلا تغفلْ عن تربيته وتأديبه ، ولا تخصَّ نفسَك عنه بشيءٍ إلا لعذرٍ ؛ فإن الله قد وصَّاك عليه ، ولو أن أحداً من الملوك وصَّاك علىٰ غلامِهِ لقمتَ بواجبِ حقِّهِ كما ينبغي ، فاللهُ أحقُّ أن تَعتني بمن وصَّاك عليه) ، والله اعلم .

ومنهم :

(٢٤٥) أخوه أبو القاسم بن أحمد بن محمد المقرئ رضي الله عنه[١]

كان أوحدَ المشايخ بخُراسان في وقته وطريقته ، عالي الحال ، شريفَ الهمَّة ، حسنَ السَّمت والوقار .

صحب ابن عطاء ، والجريري ، وابن [أبي] سعدان[٢] ، وابن مُمْشاذ الدِّينوري ، والرُّوذْباري .

مات سنة ثمانٍ وسبعين وثلاث مئة بنيسابور .

وكان يقول : (من كمال خُلق الفقير : أن يُحَسِّنَ خُلقه مع عدوِّه ، ويبذلَ له المال ، ويوافقَ إخوانه في كلِّ مباح طلبوه منه) .

---

(١) واسمه : جعفر بن أحمد ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٥٥) (٢٤٩) .

(٢) في النسخ : (وابن سعدان) ، والمثبت من مصادر ترجمته .

وكان يقول : (من أدبِ الفقير : تصديقُ المشايخ في جميعِ ما يُخبرون به من كراماتهم ، فإن لم يصدِّقْهم حُرم بركتهم) .

وكان يقول : (من تعزَّز عن خدمة الإخوان ابتلاه اللهُ بذُلٍّ لا ينفكُّ عنه حتىٰ يموت) .

وكان يقول : (السماعُ علىٰ ما فيه من اللطافة فيه خطرٌ عظيم ، إلا لمن سمعَهُ بغيرِ هوىٰ نفسٍ ، وكان له حالٌ صحيح ، بحيث لو أراد قلعَ شجرةٍ كبيرةٍ من الأرض لقدرَ ، وقد وقعَ للشِّبلي : أنَّه ملخَ شجرةَ جميز تظلُّ نحو خمس مئة فارس ، فقام شخصٌ يتشبَّه به ، فأشارَ إليه الأشياخ ، فجلسَ ؛ خوفاً منهم أن يفتضحَ ، فيُسيء الحاضرون ظنَّهم به) .

ومنهم :

(٢٤٦) أبو محمد عبد الله الرَّاسِبي رضي الله عنه[١]

هو بغداديُّ الأصل ، من جِلَّة المشايخ .

صحب ابنَ عطاء ، والجريري .

ورحل إلى الشام ، ثم عادَ إلىٰ بغداد ، ومات بها سنة سبعٍ وستين وثلاث مئة .

وكان يقول : (إذا امتحنَ اللهُ تعالىٰ قلبَ العبدِ بالتقوىٰ . ترحَّلَ منه حبُّ الدنيا وشهواتُها ، واطَّلعَ على المغيَّبات ، ومن لم يصحَّ له التقوىٰ فهو غارقٌ في حبِّ الدنيا ، محجوبٌ عن كلِّ غيبٍ)

وكان يقول : (المحبَّةُ إذا ظهرتْ فضحتِ المحبَّ ، وإذا كتمت قتلتْهُ كمداً) .

وكان يقول : (ما طلبَ أحدٌ الدنيا إلا دعاه اللهُ إلى الآخرة ، ولا طلبَ أحدٌ الآخرةَ إلا دعاه الحقُّ إلىٰ قربه) .

وكان يقول : (من البلاء العظيم صحبتُكَ لمن لا يُوافقُك ولا يُفارقك) ، والله أعلم .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٥٧) (٢٥٠) .

ومنهم :

(٢٤٧) أبو عبد الله الدِّينوري رضي الله عنه[1]

هو من جِلَّة المشايخ ، وأعلاهم حالاً وهمَّةً ، وأفصحهم في علومهم .

أقام بوادي القُرىٰ سنين ، ثم عاد إلىٰ دِيْنَور ، **ومات بها سنة نيِّفٍ وسبعين وثلاث مئة .**

وكان يقولُ : (صحبةُ الأصاغر للأكابر من التوفيق والفطنة ، ورغبةُ الأكابر في صحبة الأصاغر من الخذلان والحمق) .

وكان يقول : (لا يغرنَّكَ ما ترىٰ من الفقراء من اللباس الظاهر ؛ فإنهم ما زيَّنوا الظواهر وعَمَروها إلا بعد أن خربوا البواطنَ من حظوظ النفوس) .

وكان يقول : (تعبُ الزاهد في بدنه ، وتعبُ العارف في قلبه) .

وكان يقول : (أَرفعُ العلوم قدراً علومُ هـٰذه الطائفة) .

وكان يقول : رأيتُ في بعض أسفاري رجلاً يقفزُ بإحدىٰ رجليه ، فقلتُ له : ما لَكَ وللسفرِ مع فقدان كمال الآلة ؟ فقال : أمسلمٌ أنت ؟ فقلت : نعم ، فقال : أما تقرأُ قوله تعالىٰ : ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الإسراء : ٧٠] ؟! فإذا كان هو الحاملَ حَمَلَ بلا آلةٍ .

وكان يقول : (إن كثرة الكلام ينشِّفُ البدن من الحسنات ، كما تُنشَّفُ الأرضُ إذا بعد عنها الماء) ، رضي الله عنه .

---

(١) هو محمد بن عبد الخالق ، تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٤٥٨/١) (٢٥١) .

ومنهم :

(٢٤٨) الشيخُ الكاملُ القطبُ الغوث أبو صالح[١] عبد القادر الجيلاني الشريف الحسيب رضي الله عنه[٢]

وهو ابن موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم أجمعين .

ولد رضي الله عنه سنة سبعين وأربع مئة ، وتوفي سنة إحدىٰ وستين وخمس مئة ، ودفن ببغداد .

وأفرده الناسُ بالكرامات في عدَّةِ مؤلفات ، آخرُهم الشيخ سراجُ الدين ابن الملقن الشافعي رضي الله عنه[٣]

وها نحن نُلخِّصُ لك عيونَ جميعِ ما قالوه فيه ، ونقلوه عنه ، وإذا نطقوا ظهرت مراتبهم ، فأقول وبالله التوفيق :

كان رضي الله عنه يقول : (عثر الحسينُ الحلاج عثرةً ، فلم يكن في زمنه من يأخذُ بيده ، وأنا لكلِّ من عثرَ مركوبُهُ من جميع أصحابي ومريدي ومحبِّي إلىٰ يوم القيامة . . آخذٌ بيده كلما عثر حيّاً وميتاً ؛ فإن فرسي مسرج ، ورمحي منصوبٌ ، وسيفي مشهور ، وقوسي موتور لحفظ مريدي وهو غافل) .

وكانت والدةُ الشيخ عبد القادر تقول : لما وضعت ولدي عبد القادر كان لا يرضعُ ثدييه في نهار رمضان ، فكان الناسُ إذا شكُّوا في هلالِ رمضان بعد أن كبر . . يرجعونَ إليه ، فإذا صامَ صاموا ، وإن أفطر أفطروا ؛ لِما رأوا من حفظه واعتناء الحقِّ به حال رضاعه .

---

(١) كذا في النسخ ، وقد أجمعت المصادر أن كنيته : (أبو محمد) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٤٥٩) (٢٥٢) .

(٣) واسم كتابه : « درر الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر » .

وكان رضي الله عنه يلبسُ لباسَ العلماء ، ويتطيلسُ ، ويركب البغلة ، وتُرفع الغاشيةُ بين يديه ، وإذا تكلَّم جلسَ علىٰ كرسيٍّ عالٍ ، وربما خطا في الهواء علىٰ رؤوس الأشهاد ، ثم يرجعُ إلىٰ جلوسه على الكرسيِّ .

وكان يقول : (بقيت في بداية أمري أياماً لم أستطعمْ فيها طعاماً ، فلقيني إنسانٌ ، فأعطاني صُرَّةً فيها دراهم ، فأخذتُ منها خبز سميدٍ وخبيصاً ، فلما جلستُ آكل ، وإذا برقعةٍ مكتوب فيها : إنما جعلتُ الشهواتِ لضعفاء عبادي ، ليستعينوا بها على الطاعات ، أما الأقوياءُ فما لهم وللشهوات ، فتركتُ الأكل ، وانصرفتُ) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ إنه ليَرِدُ عليَّ الأثقالُ كالجبال الرواسي ، بل لو وضعت على الجبل لتفسَّخ من ثقلها ، فأضع جنبي على الأرض وأصيرُ أكرِّرُ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥-٦] حتىٰ ينفرجَ عني تلك الأثقال) .

وكان يقول : (قاسيتُ في بدايتي جميعَ الأهوال ، فما تركتُ هولاً إلا ركبته ، وكان لباسي جبةَ صوفٍ ، وعلىٰ رأسي خُريقة ، وكنتُ أمشي حافياً في الشوك والوعر ، فلا أجدُ نعلاً أمشي فيه ، وكنت أقتاتُ بخرنوب الشوك ـ وهو شجرُ السَّنْط[1] في بلاد مصر ـ وكثيراً ما كنتُ أقتات بقمامة البقل ، وورقِ الخسِّ من شاطىء النهر ، ولم أزل آخذ نفْسي بالمجاهدة حتىٰ طرقني من الله الحالُ ، فخرجتُ علىٰ وجهي أسيحُ في البراري وبين الناس ، لا أعي غير ما أنا فيه .

وكنت أتظاهرُ بالتخارس والجنون ، وحُملت إلى البيمارستان مراتٍ .

وطرقتني مرةً الأحوالُ حتىٰ متُّ ، وجاؤوا بالكفن والغاسل ، ووضعوني على المُغتسل ليغسِّلوني ، ثم إنه سُرِّي عني ، وقمت) .

وكان يقول : (لا يخرجُ الإنسانُ عن العجب إلا إن رأىٰ أمورَهُ كلَّها من الله ، وأخرج نفسه من البين) .

---

(١) السَّنْط : شجر من الفصيلة القرنية ، ثمره القرظ ، يكثر بمصر ، وهو أجود حطبهم ، ويدبغون به .

وكان الذبابُ لا يجلسُ على ثيابه ، وراثةً من جدِّه صلى الله عليه وسلم[١] ، فقيل له في ذلك ، فقال : أيشٍ يعملُ الذباب عندي ، وليس عندي شيءٌ من دبس الدنيا[٢] ، ولا عسل الآخرة ؟!

وكان يقول من باب التحدُّثِ بالنعم : ما مرَّ مسلمٌ على باب مدرستي إلا خفَّفَ الله عنه العذابَ يوم القيامة) .

وأخبروه مرَّةً بشخصٍ يصيحُ في قبره ، فمضى إليه وقال : إنَّ هـٰذا رآني مرةً ، ولا بدَّ أن يرحمَهُ الله ، فمن ذلك الوقت ما سمعَ أحدٌ له صراخاً .

وجلس مرةً يتوضأ ، فزرقَ عليه عصفورٌ ، فرفع إليه رأسه ، فخرَّ ميتاً ، فغسل الثوبَ ، ثم تصدَّقَ به عن العصفور ، وقال : إن كان علينا إثمٌ فذلك كفارته .

وكان يُفتي على مذهب الإمام الشافعي وأحمد ، وكانت فتاواه تُعرضُ على علماء العراق ، فتعجبُهم أشدَّ الإعجاب ، ويقولون : سبحان من أعطاه .

ورفعوا إليه مرةً سؤالاً في رجلٍ حلف بالطلاق الثلاث : أنه لا بدَّ أن يعبدَ الله عز وجل عبادةً ينفردُ بها دون الخلقِ أجمعين في ذلك الوقت ، فما خلاصُهُ ؟ فقال على الفور : خلاصُهُ : أن يأتي مكة ، ويُخلَّى له الطواف ، ويطوفُ أُسبوعاً وحده ، وينحل يمينه ، فأعجبتْ علماءَ العراق ، وكانوا قد عجزوا عن الجواب .

وكان رضي الله عنه يُقرئ الناسَ في ثلاثة عشر علماً : في التفسير ، والحديث ، والخلاف ، والأصول ، والنحو ، والقراءات السبع ، وغير ذلك .

وكان وقتُه كلُّهُ معموراً ، ويقول : (لا ينبغي لفقيرٍ أن يتصدَّرَ لإرشاد الناس إلا إن أعطاه الله علمَ العلماء ، وسياسةَ الملوك ، وحكمةَ الحكماء) .

ورفعوا له مرةً شخصاً ادعى أنه يرى الله بعيني رأسه ، فقال له : أحقٌّ ما يقولون عنك ؟ فقال : نعم ، فزجره وانتهره ، ونهاه عن هـٰذا القول ، وعاهده على ألا يعود

---

(١) من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذباب لا ينزل عليه . انظر « غاية السول في خصائص الرسول » لابن الملقن : (ص ٧٨) .

(٢) في النسخ جميعها ما عدا (ح) : (دنس) بدل (دبس) ، والمثبت موافق للمصادر .

يذكُره ، ثم التفتَ إلى العلماء الحاضرين ، وقال : هو محقٌّ في قوله ، ملبَّسٌ عليه ؛ وذلك أنه شهد ببصيرته نورَ الجمال ، ثم خُرِقَ من بصيرته إلىٰ بصره منفذ ، فرأىٰ بصرُهُ بصيرته ، وشعاعها متَّصلٌ بنور شهوده ، فظنَّ أن بصرَهُ رأىٰ ما شهدتْهُ بصيرتُهُ ، وإنما رأىٰ بصرُهُ نورَ بصيرته فقط ، وهو لا يدري ، قال تعالىٰ : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : ١٩ـ ٢٠] ، فأُطرب العلماء والصوفية من سماع هـٰذا الكلام ، ودهشوا من حسن إفصاحه عن حالِ الرجل ، ومزَّقَ جماعةٌ ثيابَهم ، وخرجوا عرايا إلى الصحراء .

ثم إنَّ الشيخَ ذكر أنه تراءىٰ له نورٌ عظيم ، ملأ الأفقَ مرَّةً من المرات ، وبدا له في ذلك النور صورةٌ ، قال : فنادتني : يا عبد القادر ؛ أنا ربُّك ، وقد أبحتُ لك المحرَّمات ، فقلت : اخسأْ يا لعين ، فإذا بذلك النور ظلام ، وإذا بالصورة دخان ، ثم صرخَ فيَّ : يا عبد القادر ؛ نجوتَ مني بعلمك بحكم ربِّك ، وفقهك في أحكام منازلاتك ، ولقد أضللتُ بمثل هـٰذه الواقعة سبعين من أهل الطريق ، فقيل للشيخ : بمَ عرفتَ أنه شيطان ؟ فقال : من قوله : (قد أبحت لك المحرمات) .

وسئل مرةً عن الهمَّة ، فقال : (هي أن يَتعرَّى العبدُ بنفسه عن حبِّ الدنيا[1] ، وبروحه عن التعلُّق بالعقبىٰ ، وبقلبه عن إرادته غير ما أراده له ربُّه ، ويتجرَّد بسرِّه عن أن يلمحَ الكون ، أو يخطرَ علىٰ باله الركون إليه دون الله) .

وكان يقول : (أخرجوا الدنيا من قلوبكم إلىٰ أيديكم ؛ فإنها لا تضرُّكم) .

وكان يقول : (الفقيرُ الصابرُ مع الله أفضلُ من الغنيِّ الشاكر ، والفقيرُ الشاكرُ لله أفضلُ منهما ، والفقيرُ الصابرُ الشاكرُ أفضلُ من الكلِّ ، وما أحبَّ البلاء وتلذَّذَ به إلا من عرف المبلي) .

وكان يقول : (ما دمتَ تراعي الخلق لا تهتدي لعيب نفسك ، وما دمتَ تراعي نفسك فأنت في حجابٍ عن ربِّك) .

ولما اشتهرَ أمرُ الشيخ عبد القادر في الآفاق . اجتمعَ له مئةُ فقيهٍ من علماء بغداد

---

(١) في (ط ، ي) : (يتعدَّىٰ) بدل (يتعرىٰ) .

يمتحنونه في العلم ، فجمع كلُّ واحدٍ له عدَّةَ مسائل ، وجاؤوا إليه ، فلما استقرَّ بهم المجلسُ ، أطرق الشيخُ ، فظهرتْ من صدره بارقةٌ من نور ، فمرَّتْ على صدور المئة فقيه ، فمسحتْ ما في قلوبهم ، وبهتوا ، واضطربوا ، وصاحوا صيحةً واحدةً ، ومزَّقوا ثيابهم ، وكشفوا رؤوسَهم ، ثم صعِدَ الكرسيَّ ، وأجاب عن جميع مسائلهم ، فاعترفوا بفضلِهِ ، وخضعوا له من ذلك اليوم .

وكان مع جلالته يُجالسُ الفقراءَ ، ويَفلِي لهم ثيابهم .

وكان معظِّماً للفقراء دون الأغنياء ، ولم يقمْ قطُّ لأحدٍ من الأمراء ، ولا أركان الدولة ، ولا ألمَّ ببابِ وزيرٍ ولا سلطان ، وكان لا يقبل قطُّ من الخليفة هديةً .

وطلبوا منه مرَّةً تفَّاحاً في غير أوانه ، فخطفَ من الهواء تفاحاً وأطعمهم .

وعتبه الخليفةُ مرةً على عدم قبوله هديته ، فقال : أرسلْ ما بدا لك ، واحضرْ معه ، فحضر الخليفةُ مع شيءٍ من التفاح ، ففلقه الشيخُ ؛ فإذا كلُّ تفاحةٍ محشوة دماً وقيحاً ، فقال للخليفة : كيف تلومُنا على عدمِ أكلنا من هٰذا وكلُّه محشوٌّ بدماء الناس ؟! فاستغفرَ الخليفة ، وتابَ على يديه ، وصحبه إلى أن مات ، وكان يأتي ، فيقف بين يدي الشيخ كآحاد الناس .

وكان يقول : (لا يكملُ الفقيرُ إلا بتجريد التوحيد مع الوقوف على قدم العبودية ، لا بشيءٍ ولا لشيء) .

وكان أبو الفتح الهروي يقول : (خدمت الشيخَ عبد القادر أربعين سنة ، فكان يُصلِّي الصبحَ بوضوء العشاء المدةَ كلَّها ، وكان كلما أحدثَ توضأ ، ثم صلى ركعتين ، لا يجلسُ قطُّ على حدثٍ ساعة) .

وكان يصلي العشاء ، ويدخل خلوته ، فلا يُمكِّن أحداً يدخلها معه ، ولا يفتحها إلا عند طلوع الفجر ، حتى إن الخليفةَ أتاه ليلاً يُريد به الاجتماعَ ، فلم يتيسَّرْ له الاجتماع إلى الفجر .

قال الهرويُّ : وبتُّ عنده ليلةً من الليالي ، فرأيتُهُ يُصلِّي أول الليل يسيراً ، ثم يذكُرُ اللهَ إلى أن يمضي الثُّلثُ الأول ، ثم يقول : المحيطُ الربُّ ، الشهيد الحسيب ،

الفعَّال الخلاق ، الخالق البارئ المصوِّر ، فتتضاءل جثَّتُهُ مرَّةً ، وتعظم مرَّةً ، ويرتفع في الهواء إلىٰ أن يغيبَ عن بصري مرَّةً ، ثم يُصلِّي قائماً علىٰ قدميه ، يتلو القرآنَ إلىٰ أن يذهبَ الثُّلثُ الثاني ، وكان يُطيلُ سجودَهُ جدّاً ، ثم يجلسُ متوجِّهاً مُراقباً مُشاهداً إلىٰ قريب طلوع الفجر ، ثم يأخذُ في الابتهال والدعاء والتذلُّل ، ويغشاه نورٌ يكادُ يخطَفُ الأبصار إلىٰ أن يغيبَ فيه عن النظر .

قال : وكنتُ أسمعُ عنده : سلامٌ عليكم ، سلامٌ عليكم ، وهو يردُّ السلامَ إلىٰ أن يخرجَ لصلاةِ الفجر .

وكان الشيخ عبدُ القادر يقول : (أقمتُ في صحراء العراق وخرائبه خمساً وعشرين سنة مجرَّداً سائحاً ، لا أعرفُ الخلقَ ولا يعرفوني ، وكان يأتيني طوائفُ من رجال الغيب ، ومن الجانِّ ، فأُعلِّمُهمُ الطريقَ إلى الله تعالىٰ)

ورافقني الخضرُ عليه السلام أول دخولي العراق ، ولم أكنْ أعرفه ، وشرطَ عليَّ ألا أُخالفَهُ ، وقال لي : اقعدْ ها هنا ، فجلستُ في المكان الذي أقعدني فيه ثلاث سنين ، يأتيني في كلِّ سنةٍ مرَّةً ، ويقول في كلِّ مرةٍ : لا تبرحْ من مكانك حتىٰ آتيك .

قال : (ومكثتُ سنةً في خرائب المدائن آخذُ نفسي بطريق المجاهدات ، وكنت آكلُ المنبوذَ ، ولا أشرب الماءَ ، ومكثتُ فيها سنةً أشربُ الماءَ ولا آكل المنبوذ ، ومكثتُ سنةً لا آكل ولا أشرب ولا أنام .

ونمتُ مرةً في إيوان كسرىٰ في ليلةٍ باردة ، فاحتلمتُ ، فقمتُ وذهبتُ إلى الشَّطِّ واغتسلت ، ثم نمت ، فاحتلمتُ ، فذهبتُ إلى الشطِّ واغتسلتُ ، وقعَ لي ذلك في تلك الليلة أربعين مرةً ، وأنا أغتسلُ في كلِّ مرةٍ ، ثم صعدتُ جدارَ الإيوان خوفَ النوم .

ودخلتُ في ألف فنٍّ حتى استرحتُ من الدنيا وأهلها) .

وكان رضي الله عنه يرى الجلوسَ علىٰ بساطِ الملوك والأمراء من العقوبات المعجَّلة للفقير .

وكان كثيراً ما يرى الخليفةَ قاصداً له ؛ فيدخلُ الخلوة ، ثم يخرجُ حتىٰ لا يقومَ له ؛ إعزازاً لطريق الفقراء .

وتكلَّمَ يوماً في القضاء والقدر في مدرسة النظامية بحضرة الفقراء والعلماء ، فبينما هو يتكلَّمُ إذ سقطتْ عليه حيَّةٌ عظيمة من السقف ، ففرَّ منها كلُّ مَنْ كان حاضراً عنده ، ولم يبق إلا هو ، فدخلتِ الحيةُ تحت ثيابه ، ومرَّتْ على بطنه ، وخرجت من طوقه ، والتفَّتْ على عنقه ، وهو مع ذلك لم يقطعْ كلامَهُ ، ولا غيَّر جلسته ، ثم نزلتْ إلى الأرضِ ، وقامتْ على ذنبها بين يديه ، فصوَّتَتْ ، ثم كلَّمها بكلامٍ لم يفهمْه الحاضرون ، ثم ذهبت ، فرجع الناس ، وسألوه عما قالت ، فقال : قالت لي : لقد اختبرتُ كثيراً من الأولياء ، فلم أرَ مثلَ ثباتك ، فقلت لها : وهل أنت إلا دُويدةٌ يُحرِّكُك القضاءُ والقدر الذي نحن نتكلَّمُ فيه ؟!

ثم إنها جائتني بعد ذلك وأنا أُصلي ، ففتحت فمَها موضع سجودي ، فدفعتُها ، وسجدتُ مكانها ، فالتفَّتْ على عُنقي ، ثم دخلتْ من كمِّي ، وخرجت من الكمِّ الآخر ، ثم دخلتْ من طوقي ، ثم خرجتْ ، فلما كان الغدُ دخلتُ خربةً ، فرأيت شخصاً عيناه مشقوقتان طولاً ، فعلمتُ أنه جنِّيٌّ ، فقال لي : أنا الحيَّةُ التي رأيتَها البارحة ، ولقد اختبرتُ كثيراً من الأولياء بما اختبرتُك به ، فلم يثبتْ منهم أحدٌ كثباتك ، قال : وسألني أن يتوب على يدي ، فتوَّبتُه .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما ولدَ لي مولودٌ إلا وأخذتُهُ على يدي وقلتُ : هـٰذا ميتٌ ، فأُخرجُهُ من قلبي أولَ ما يُولد ، حتىٰ لا يَشغلني عن ربِّي طرفةَ عينٍ) .

قال ابن الأخضر : (وكنا ندخلُ على الشيخ عبدِ القادر في شدَّةِ بردِ الشتاء ، فنجدُ عليه قميصاً واحداً ، وعلى رأسه طاقية ، والعرقُ يخرجُ من جسده ، وحوله من يروِّحُهُ بمروحةٍ كما يكون في شدَّةِ الحرِّ) .

وكان يقول : (اتَّبعوا ولا تَبتدعوا ، وأطيعوا ولا تمرقوا[1] ، واصبروا ولا تجزعوا ، وانتظروا الفرج ولا تيئسوا ، واجتمعوا على ذكرِ الله ولا تفرَّقوا ، وتطهَّروا بالتوبة عن الذنوب ولا تلطخوا ، وعن بابِ مولاكم لا تبرحوا) .

وكان يقول : (كونوا بوَّابين على باب قلوبكم ، وأدخلوا ما يأمُركم اللهُ بإدخاله ،

(١) في (أ ، ب ، د ، ط ، ي ، ك) : (ولا تمزقوا) .

وأخرجوا ما أمركم اللهُ بإخراجه ، ولا تُدخلوا الهوىٰ قلوبَكم فتهلكوا) .

وكان يقول : (احذروا ولا تركنوا ، وخافوا ولا تأمنوا ، وفتِّشوا ولا تغفلوا ، فتطمئنوا ، ولا تضيفوا إلىٰ أنفسكم حالاً ولا مقاماً ، ولا تدَّعوا شيئاً من ذلك ، ولا تُخبروا أحداً بما يُطلعُكم اللهُ عليه من الأحوال ؛ فإن الله تعالىٰ : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] في تغييرٍ وتبديلٍ ، يحولُ بين المرءِ وقلبه ، فيزيلكم عما أخبرتم الناسَ به ، ويعزلكم عما تخيَّلْتُم ثباته ، فتخجلوا عند من أخبرتموه بذلك ، بل احفظوا ذلك ولا تتعدُّوا به إلىٰ غيركم ، فإن كان الثباتُ والبقاء فاشكروا ربَّكم عليه ؛ فإنه موهبةٌ منه، وإن كان غيرَ ذلك كان فيه زيادةُ علم ، ومعرفة ونور ، وتيقُّظ ، وتأديب).

وكان يقول : (لا تخترْ جلبَ النَّعماءِ ، ولا دفعَ البلوىٰ ؛ فإن النَّعماءَ واصلةٌ إليك بالقسمة ، استجلبتَها أم لا ، والبلوىٰ حالَّةٌ بك ولو كرهتها ، فسلِّم لله في الكلِّ يفعل ما يشاء ، فإن جاءتك النَّعماءُ فاشتغل بالذكر والشكر ، وإن جاءتك البلوىٰ فاشتغلْ بالصبر والموافقة ، وإن كنتَ أعلىٰ من ذلك فبالرضا والتلذُّذِ بها ، واعلموا أن البلية لم تأتِ المؤمن لتُهلكه ، وإنما أتته لتختبرَهُ) .

وكان يقول : (لا تشكونَّ ضرّاً نزل بك لغير الله : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ١٧] ، واحذرْ أن تشكو ربَّك وأنت معافىً ، أو تشكو ضيقَ رزقك وعندك قوتُ يومٍ ، فربما غضبَ الحقُّ عليك ، فأزالَ عنك العافيةَ ، وعسَّرَ عليك أسبابَ الرزق عقوبةً لك علىٰ كفرانك النعم) .

وكان يقول : (لا يصلحُ لمجالسةِ الحقِّ تعالىٰ إلا المطهَّرُ من رجسِ الزلات ، ولا يفتحُ أبوابَهُ تعالىٰ إلا لمن خلا عن الدعاوىٰ والهوسات ، ولما كان الغالبُ على الناس عدمَ التطهُّر ابتلاهم بالأمراض كفارةً وطهوراً ؛ ليصلحوا لقُربه ومجالسته ، شعروا بذلك أم لم يشعروا) .

وكان يقول : (دوامُ البلاءِ خاصٌّ بأهل الولاية الكبرىٰ ؛ وذلك ليكونوا [دائمي] العكوف علىٰ خطابه ومناجاته)[1]

(١) في النسخ : (دائمين) بدل (دائمي) .

وكان يقول : (لا تظلموا أحداً ولو بسوءِ ظنّكم ؛ فإنه لا يجاوزُ ربُّكم ظلمَ ظالم) .

وكان يقول : (إياكم أن تُحبُّوا أحداً أو تكرهوه إلا بعد عرضِ أفعاله على الكتاب والسُّنة ؛ كيلا تحبُّونه بالهوىٰ ، وتبغضونه بالهوىٰ ، واعلموا أنه لا يجوزُ لكم هجرُ أحدٍ على الظنِّ والتهمة) .

وكان يقول : (إذا رأى الحقُّ ميلَ وليِّهِ إلىٰ ولدٍ أو مالٍ . . أراحه منهما غيرةً عليه) .

وكان يقول : (قد يُلاطفُ اللهُ تعالىٰ عبدَهُ المؤمن ، ويفتحُ قبالة قلبه بابَ الرحمة والمِنَّة والإنعام ، فيرىٰ بقلبِهِ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلب بشرٍ ؛ من مطالعة الغيوب ، والتقريب ، والكلامِ اللطيف ، والوعدِ الجميل ، والدلال ، وإجابة الدعاء ، وغير ذلك من النِّعم السابغة على المقرَّبين ، ثم في لمح البصرِ يُغيِّرُ عليه ذلك الحالَ ، ويفتحُ عليه أنواعَ البلايا والمحن في النَّفْس والمال والولد والإخوان ، ويزولُ عنه جميعُ ما كان فيه من النعم ، فيصير متحيِّراً مُنكسراً ؛ إن نظرَ إلىٰ ظاهره رأىٰ ما يَسوءُهُ ، وإن نظر إلىٰ باطنه نظرَ ما يُحزنه ، وإن سألَ الله كَشْفَ ما به من الضُّرِّ . . لم يرجُ إجابةً ، وإن طلبَ الرجوعَ إلى الخلق لم يجدْ إلىٰ ذلك سبيلاً ، وإن عملَ بالرُّخص تسارعتْ إليه العقوباتُ ، وتسلَّطتِ الخلائقُ علىٰ جسمه وعرضه بالأذىٰ ، وإن طلبَ الإقالةَ من ذلك لا يُقال ، وإن رامَ الطيبةَ والتنعُّم بما به من البلاء لم يُعطَ ذلك ، وحينئذ تأخذُ النفسُ في الذوبان ، ويشددُ عليه البلاء ، حتىٰ تفنىٰ أوصافُ بشريَّتِهِ ، ويبقىٰ روحاً فقط ، وهناك يسمعُ النداءَ من قِبَلِه : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : ٤٢] وردَّ اللهُ عليه جميعَ تلك الخلع وأزيد منها ، وتولَّى الحقُّ تربيتَهُ بنفسه : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧] فإياكم والاغترارَ بصفاء الأوقات ؛ فإن في طيِّها آفاتٍ) .

وكان يقول : (ما سأل أحدٌ أحداً من الخلق دون الحقِّ إلا لجهله بالحقِّ ، وما تعفَّفَ متعفِّفٌ إلا لوفور علمه بالحقِّ) .

وكان يقول : (إنما كان الحقُّ تعالىٰ لا يُجيبُ عبدَهُ في كلِّ ما سأل رحمةً به ،

وشفقةً أن يغترَّ بذلك ، فيتعرَّض للمكر به ، وهو يغفُلُ عن آداب الخدمة ، وكما أنه تعالىٰ دعاه إلىٰ فعلِ كلِّ مأمورٍ فلم يفعل . . كذلك دعا العبدُ ربَّهُ فلم يُجبه جزاءً وفاقاً) .

وكان يقول : (من علامة ابتلاء العبد علىٰ وجه العقوبة : عدمُ الصبر عند وجودِ البلاء ، والجزعُ والشكوىٰ إلى الخلق ، وعلامةُ ابتلائه علىٰ وجه التكفير لخطاياه : وجودُ الصبرِ الجميل من غيرِ شكوىٰ ولا جزع ولا ضجر ، ولا ثقل في أداءِ الأوامر ، وعلامةُ الابتلاء علىٰ وجه رفعِ الدرجات : وجودُ الرضا والموافقة ، وطمأنينة النفس ، والسكونُ تحت جريان الأقدار ، حتىٰ تنكشفَ) .

وكان يقول : (من علامة حبِّ الآخرة : الزهدُ في الدنيا ، ومن علامة حبِّ الله : الزهدُ فيما سواه) .

وكان يقول : (ما دامَ في قلبِ العبد شهوةٌ لشيءٍ يكرهُهُ الله . . فهو عدوُّ الله) .

وكان يقول : (كلما جاهدتَ النفس وقتلتَها في الطاعات كلما حييت ، وكلما أكرمْتَها ولم تُهنْها في مرضاة الله ماتت)

قال : (وهـٰذا هو معنىٰ حديث : « رجعنا منَ الجهادِ الأصغرِ » يعني : في الكفار « إلى الجهادِ الأكبرِ »[1] ؛ يعني : جهاد النفس) .

وكان يقول : (من علامةِ خوفِ المؤمن من ربِّه عز وجل : أن يُفتِّش كلَّ ما دخلَ جوفه ، ولا يعتمدَ علىٰ ما قسم ، فيفوته أجرُ التفتيش) ، قال : (ومن هنا ورد : « المؤمنُ فتَّاشٌ والمنافقُ لفَّافٌ »[2]) .

ومناقبُه رضي الله عنه كثيرة في « البهجة »[3] وغيرها ، وفي هـٰذا القدر كفايةٌ ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الزهد » (٣٧٣) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وتقدم تخريجه (١/ ٤٧٣) .

(٢) لم أجده فيما بين يدي من مصادر .

(٣) هو كتاب : « بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في بعض مناقب القطب الرباني محيي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني » لعلي بن يوسف الشطنوفي .

ومنهم :

(٢٤٩) الشيخُ الكامل شيخُ الطريق
سيدي أحمدُ بنُ أبي الحسن الرِّفاعي رضي الله عنه[١]

منسوبٌ إلىٰ بني رِفاعة ، قبيلةٍ من العرب ، وسكن أم عَبيدة بأرضِ البطائح إلىٰ أن مات بها .

وانتهت إليه الرئاسةُ في علوم الطريق ، وشرح أحوال القوم ، وكشف مشكلات منازلاتهم .

وكان إمامَ المشايخ بالبطائح ، وتخرَّجَ بصحبته جماعاتٌ كثيرة ، وتلمذَ له خلائقُ لا يُحصون .

ورثاه المشايخُ والعلماء لما مات ، وهو أحدُ من قهر أحوالَهُ ، وملكَ أسراره ، وله كلامٌ عالٍ علىٰ لسان أهلِ الحقائق .

وسُئل مرَّةً عن وصف الرجل المتمكِّن ، فقال : (هو الذي لو نُصب له سِنانٌ علىٰ أعلا شاهقٍ في الأرض ، وهبَّتْ عليه الرياحُ الثماني ما غيَّرته) .

قال يعقوب الخادم : وقلتُ مرَّة لسيِّدي أحمد : أنت القطب ؟ فقال : نزِّهْ شيخَك عن القطبية ؛ فإن من كان في حضرة الله لا مقام له .

قال : ودخلتُ عليه مرةً ، فصارَ يذوبُ حتىٰ صار نقطةَ ماءٍ على الأرض ، فحصلَ عندي رعبٌ ، ثم رجعَ إلىٰ حاله ، فقلت له : ما هٰذا الحال ؟! فقال : نظرَ الحقُّ تعالىٰ إليَّ نظرةَ جلالٍ ، فذبتُ ، ثم نظرَ إليَّ نظرةَ رحمةٍ ، فأَنشأني ثاني مرة ، ولولا لطفُهُ بي لما رجعتُ إليكم أبداً .

وكان يقول : (الزهدُ أساسُ الأحوال المرضية والمراتب السنية ، وهو أولُ قدمِ القاصدين إلى الله عز وجل ، والمنقطعين إليه ، والراضين عنه ، والمتوكلين عليه ، فكلُّ من لم يحكمْ أساسَهُ في الزهد ، لم يصحَّ له شيءٌ مما بعده) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٩٤) (٢٦٦) .

وكان يقول : (الفقراء أَشرافُ الناس ؛ لأن الفقرَ لباسُ المرسلين ، وجلبابُ الصالحين ، وتاجُ المتقين ، وغنيمةُ العارفين ، ومنيةُ المريدين ، ورضا ربِّ العالمين ، وكرامةٌ لأهل ولايته) .

وكان يقول : (لا يصحُّ الأنس بالله تعالىٰ إلا لمن كملتْ طهارتُهُ[(١)] ، واستوحشَ من كلِّ ما يشغله عن الله تعالىٰ ، فعند ذلك آنسه اللهُ به) .

وكان يقول : (**التوحيدُ** : وجدانٌ عظيمٌ في القلب يمنعُ من التعطيل والتشبيه) ، وكان يكره لأصحابه الخوضَ في الذات والصفات ، ولو علىٰ وجهِ التعظيم) .

وكان يقول : (لو خطا رجلٌ من قاف إلىٰ قاف . . كان جلوسُه أفضلَ) .

وسئل مرَّةً : كيف كان سلوكُك ؟ فقال : مررتُ وأنا صغيرٌ على الشيخ عبد الملك الخرنوبي[(٢)] ، فقال : يا أحمد ، اسمعْ ما أقول لك : ملتفتٌ لا يصلُ ، ومتسلِّلٌ لا يفلحُ ، ومن لم يعرفْ من نفسه النقصانَ فكلُّ أوقاتِهِ نقصان ، فخرجتُ من عنده ، وجعلت أكرِّرُها سنةً ، ثم رجعتُ إليه ، فقلتُ : أوصني ، فقال : ما أقبحَ الجهل بالألبَّاء ! والعلّة بالأطباء ! والجفاء بالأحباء ! ثم خرجتُ وصرتُ أكرِّرها سنةً ، فانتفعتُ بكلامه ؛ لكونه اختصرَ لي الطريق .

وكان يقول : (أكرهُ للفقراء دخولَ الحمام ، وأحبُّ لهم الجوعَ والعري ، والفقر والذلَّ والمسكنة ، وأفرح لهم إذا نزلَ بهم ذلك) .

وكان يقول : (الشَّفقةُ على الإخوان مما يُقرِّبُ العبدَ إلى الله) .

وسأله شخصٌ أن يدعو له ، فقال : يا أخي ، إن عندي اليوم قوتَ يوم ، ومن كان عنده قوتُ يومه لم يُقبل له دعاء ، فإذا بلغك يا أخي أنه ليس عندي ما يأكلُه ذو كبد فاسألني الدعاء ؛ فإن لي حينئذٍ أسوةً برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وسأله يعقوب الخادم أن يدعو لرجلٍ على الباب له منذ ثلاثة أيام ، فلم يدعُ له ،

---

(١) في (ح) وحدها : (كملت نهايته وطهارته) .

(٢) في (أ ، ج) : (الخربوني) ، وفي (ب ، د ، ط ، ك) : (الخربوتي) ، وفي (هـ ، ي) : (الجربوني) ، والمثبت من (و ، ز) .

وقال : الرجلُ المتمكِّنُ منا إذا قُضيت له حاجةٌ في الدنيا نقصَ تمكُّنُه درجةً ، ثم قال : يا يعقوب ؛ كنْ ذَنَباً ولا تكنْ رأساً ؛ فإن الضربةَ أولُ ما تقعُ في الرأس ، وإياكَ ورؤيةَ نفسك على الإخوان ، فمن رأىٰ نفسَه على الإخوان لا تُقال له عثرةٌ ، ولا يُساعده أحدٌ ، وانظر إلى النخلة لما رفعتْ رأسَها ، وأشرفتْ على الجيران . . جعلَ الله ثقلَ حملها عليها ، ولو حملتْ مهما حملت ، لا يُساعدُها أحدٌ ، وانظر إلىٰ شجرةِ اليقطين لما اتَّضعتْ وألقتْ خدَّها على الأرض كيف جعلَ ثقلَ حملها علىٰ غيرها ، ولو حملت مهما حملت لا تحسُّ به) .

وكان يقول : (أفضلُ العبادات البدنية الصدقةُ) .

وكان يقول : (أخوكَ الذي يحلُّ لك أكلُ ماله بغير إذنه . . هو الذي تنشرحُ نفسُك عند الأكل منه) .

وكان ينهىٰ أصحابَهُ عن لبس الصوف قبل تهذيب نفوسهم .

ورأىٰ مرةً علىٰ فقيرٍ جبَّةَ صوف ، فقال : يا ولدي ، انظر بزِيٍّ من تزييت ، قد لبستَ لبسةَ الأنبياء ، وتحلَّيت بحلية الأتقياء ، هـٰذا زِيُّ العارفين ، فاسلك طريقَهم ، وإلا فانزعْه) .

وكان يقول : (إذا صلح القلبُ صارَ مهبطَ الوحي والأسرار والأنوار والملائكة ، وإذا فسدَ صارَ مهبطَ الأباطيل والظُّلم والشياطين) .

وكان يقول : (إذا صلحَ القلبُ أخبرك عما وراءك وأمامك ، وإذا فسدَ حدَّثك بأباطيل يغيبُ معها الرشدُ ، وينتفي معها السعدُ) .

وكان يقول : (من شرط الفقير : أن يرىٰ كلَّ نَفَسٍ من أنفاسه أعزَّ من الكبريت الأحمر ؛ فلا يضعُ في كلِّ نَفَسٍ إلا أعزَّ ما يصلحُ له) .

وكان يقول : (السفرُ للمريد يمزِّقُ دينه ، ويشتِّتُ شمله) .

وكان يقول : (في حديث : « من تزوَّج لله كُفيَ ووقيَ »[1] : (معناه : أن يتزوَّج

---

(١) لم أجده بلفظه ، وروىٰ أبو داود في « سننه » (٤٧٧٨) : « ومن زوج لله تعالىٰ تَوَّجَهُ الله تاج المُلك » ، وروى الترمذي عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله =

امتثالاً للأمرِ ، لا بحكم الشهوة البهيمية) .

وكان يقول : (من لم ينتفعْ بأفعالي لم ينتفعْ بأقوالي) .

وكان يقول : (كلُّ أخٍ لا ينفعُ في الدنيا ، لا ينفع في الآخرة) .

وكان يقول : (طريقنا مبنيَّةٌ علىٰ ثلاثة أشياء : لا نسألُ ، ولا نردُّ ، ولا ندَّخر) .

وكان يقول : (من علامةِ سعادةِ المريد : أن يفتخرَ به شيخُه لشدَّة مجاهدته) .

وكان يقول : (من غضب لنفسه تَعِبَ ، ومن سلَّم أمره إلىٰ مولاه نصره من غير أهلٍ ولا عشيرة) .

وكان يقول : (من شرطِ الفقير : ألا يكونَ له نظرٌ في عيوب الناس) .

وكان يقول : (إياكم وتعاطي أسبابِ الشهرة والفرح بالمحبين والمعتقدين ، فكم طيَّرتْ طقطقةُ النعال حول الرجال من رأسٍ ! وكم أذهبتْ من دِينٍ !) .

وكان يقول : (ما من ليلةٍ إلا وينزل فيها نثارٌ من السماء ، يُفرَّقُ علىٰ قلوب المستيقظين) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ ما كان لي خيرةٌ إلا في الوحدة ، فيا ليتني لم أعرفْ أحداً ، ولم يَعرفني أحدٌ) .

وكان يقول : (ما وقف أحدٌ مع الخلق في عباداته إلا سقطَ من عين رعاية الله) .

وكان يقول لأصحابه : (من تَمشيخَ عليكم فتلمذوا له ، ومن تقدَّمَ عليكم فقدِّموه ، ومن مدَّ لكم يدَه لتقبلوها فقبِّلوا رجله) .

وكان يقول : (وعدني ربِّي ألا أعبرَ عليه وعليَّ شيءٌ من لحم الدنيا) ، قال يعقوب الخادم : (ففني لحمُه بأجمعه قبل خروجه من الدنيا) .

وكان يقول : (إذا تمكَّن العبدُ من الأحوال ، وبلغَ محلَّ القربِ من الله . . صار الحقُّ تعالىٰ يرضىٰ لرضاه ، ويسخطُ لسخطه) .

= عليه وسلم : « ثلاثة حقٌّ على الله عونُهم : المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح يريد العفاف » .

وكان يقول : (إذا أرادَ اللهُ أن يُرَقِّيَ عبداً إلىٰ مقامات الرجال كلَّفه بأمرِ نفسه أولاً ، فإذا أدَّبَ نفسَهُ واستقامتْ معه كلَّفه بأهله ، فإن أحسنَ إليهم ، وقام بحقوقهم ، ونصحهم . . كلَّفه بجيرانه وأهلِ محلَّته ، فإنْ هو أحسنَ إليهم وساسهم كلَّفه بأهلِ بلده ، فإنْ هو أحسنَ إليهم وساسهم كلَّفه جهةً من البلاد ، فإن هو نصحَهم وساسهم ، وأصلحَ سريرته مع الله . . كلَّفه تربيةَ ما بين السماء والأرض ؛ فإن بينهما خلقٌ لا يعلمهنَّ إلا الله ، ثم لا يزالُ يرتفعُ من سماء إلىٰ سماء حتىٰ يرتفعَ ويصلَ إلىٰ محلِّ القطبِ الغوث ، وهناك يُطلعُه اللهُ علىٰ غيبه ، فلا تنبتُ شجرةٌ ، ولا تخضرُّ ورقةٌ إلا بعلمه ، وهناك يتكلَّمُ عن الله بكلامٍ لا تسعُهُ العقولُ ، وربما ذهبتْ به إيمانُ جماعة من المنكرين .

وكان رضي الله عنه إذا صعِدَ الكرسي يَسمعُ حديثَهُ البعيدُ مثلُ القريب ، حتىٰ إن أهلَ القرى التي حول أمِّ عَبيدة كانوا يسمعون صوتَهُ ، ويعرفونَ جميعَ ما يتحدَّث به كأهلِ القاسمية ، والمنارة ، ومرجوان ، وكان الأطروشُ والأصمُّ إذا حضرَ يفتحُ اللهُ أسماعَهما لكلامه .

وكان مشايخُ الطريق يحضرونه ، وكان أحدُهم يبسطُ حِجره ، فإذا فرغَ من وعظه ضمُّوا حجورهم إلىٰ صدورهم ، وقصُّوا الحديثَ إذا رجعوا إلىٰ أصحابهم علىٰ جَليَّه وراثةً إبراهيمة .

وكان رضي الله عنه يقول : (القريبُ عندي والبعيدُ في الحقِّ سواء) .

وقال لولده صالح : (إن لم تعملْ بعملي فلستُ أنا أباك ، ولا أنت ولدي) .

وكان إذا جلسَ علىٰ جسمه ناموسةٌ لا يُمكِّن أحداً أن يطيِّرَها ، ويقول : دعوها تشربُ من هٰذا الدم الذي قسمه الحقُّ لها .

وكان إذا جلسَ علىٰ ثوبه جرادةٌ يمكثُ حتىٰ تطير ، ويقول : إنها لاذتْ بنا

ونام علىٰ كمِّه هرةٌ مرةً ، وجاء وقتُ الصلاة ، فقطع كمَّهُ من تحتها ، ولم يوقظها ، فلما فرغَ من الصلاة ، وقامتِ الهرةُ أخذَ كمَّهُ فخاطه ببعضه ، وقال : لم ينقص .

ووجد مرَّةً كلباً أجربَ قد أخرجَهُ أهلُ أمِّ عَبيدة وقذروه ، فأخذه ، وخرج معه إلى

البرية ، وضربَ عليه مظلَّةً ، وصار يطليه بالدُّهن ، ويطعمُهُ ويسقيه ، ويحتُّ الجربَ بخرقةٍ ، فلما بَرِئ سخَّن له ماءً وغسله ، وقال : خفتُ أن يُؤخذ حُميدٌ بهـٰذا الكلب يومَ القيامة ، ويقول لي الحقُّ جل وعلا : يا أحمد ؛ أما علمتَ أنه خلقٌ من خلقي ؟! أما أمرتُك بالرحمةِ لكلِّ مبتلىً ؟!

وكان إذا رأىٰ فقيراً يقتل قملة أو برغوثاً يقول له : (لا واخذك الله يا ولدي ، تُنفذُ غضبَك في قملةٍ قرصتك تقتلها ، هلا قرصتَها كما قرصتك ؟!) .

وكان يقول : (أسماء الله تعالىٰ بعددِ ما خلقَ ، فكلُّ مخلوقٍ له اسمٌ يخصُّه من الرمال والأوراق وغيرها) .

وكان رضي الله عنه يمشي إلىٰ حارة المجذومين والزَّمنىٰ ، فيغسل لهم ثيابَهم ، ويفلي رؤوسهم ولحاهم ، ويحمل إليهم الطعامَ ، ويأكل معهم اللبن ، ويجالسُهم ، ويسألهم الدعاء ، ويقول : زيارة هـٰؤلاء واجبةٌ لا مُستحبة .

ومرَّ يوماً علىٰ صبيان يلعبون ، فهربوا منه هيبة له ، فتبعهم ، وصار يقول لهم : اجعلوني في حلٍّ ، فقد روَّعتكم .

ومرَّ يوماً علىٰ ولد ، فقال له : ابنُ منْ أنت ؟ فقال : أيش فضولك ! فصارَ يردُّدها ويقول : أدَّبتني يا ولدي ، فجزاك الله خيراً .

وكان إذا رأىٰ خنزيراً يقول له : انعمْ صباحاً ، فقيل له في ذلك ، فقال : أعوِّدُ لساني الجميلَ .

وكان يعودُ الفقيرَ إذا مرض من مسيرة يومٍ أو يومين .

وكان يذهبُ إلىٰ مواضع السخر ، فيلبسُ لبسَ الفعلاء ، ويقول : إنما فعلتُ ذلك خوفاً أن يسخِّروا ذا عيالٍ ، ويعوِّقوه عن مصالحه ، وأنا لا يفوتُ لي مصلحة .

وكان يخرجُ إلى الطريق ، ينتظر العميان يقودُهم إلىٰ مكانهم .

وإذا رأىٰ شيخاً كبيراً . . يذهبُ إلىٰ أهلِ حارته ، ويُوصيهم عليه ، ويقول : قد وردَ في الحديثِ مرفوعاً : « منْ أكرمَ ذا شيبةٍ سخَّرَ الله تعالىٰ لهُ من يُكرمُهُ عندَ كبرِهِ »[١]

(١) أخرجه الترمذي في « سننه » (٢٠٢٢) بلفظ : « ما أكرمَ شابٌ شيخاً لسنِّهِ إلا قيَّض الله له من=

وكان إذا قدمَ من سفرٍ ، وقربَ من أمِّ عَبيدة بلدِهِ يشدُّ وسطَهُ ، ويُخرج حبلاً مدخراً معه ، ويجمعُ حطباً ، ثم يحملُهُ علىٰ رأسه إلى الدار ، ويفعل كذلك الفقراء ، فإذا دخلَ البلدَ فرَّق ذلك الحطبَ على الأرامل والمساكين والعميان .

قال خادمه يعقوب : وكان الشيخُ أحمد كثيراً ما يتجلَّى الحقُّ تعالىٰ عليه بالعظمة ، فيذوب حتىٰ يصيرَ بقعةَ ماء ، ثم يتداركه اللطفُ فيصير يجمدُ شيئاً فشيئاً حتىٰ يُردَّ إلىٰ جسمه المعتاد ، ويقول : لولا لطفُ الله تعالىٰ بي ما رجعتُ إليكم ، وقد قدَّمنا الإشارة إلىٰ ذلك[1]

قال : وكان الشيخ يحتملُ من الخلق ما لا يحتمله غيرُهُ من الأذىٰ ، ويقول : إنهم من أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقيه مرَّةً جماعةٌ ، فسبُّوه ، وقالوا له : يا أعور في الرجال ، يا مستحلاً للمحارم ، يا مبدِّلاً للقرآن ، يا مُلحد ، يا [كلب][2] ، فكشف سيدي أحمد رأسَهُ ، وقبَّل لهم الأرضَ ، وقال : اجعلوني في حلٍّ ، وصار يُقبِّلُ أيديهم وأرجلهم ، فلما أعجزهم قالوا : ما رأينا مثلَكَ في الفقراء يحتملُ منَّا هـٰذا الشتم ! فقال : هـٰذا ببركتكم ، ثم التفتَ إلىٰ أصحابه وقال : ما كان إلا الخيرُ ، أرحناهم من كلامٍ كان مكتوماً عندهم ، وسامحناهم ، وربما لو وقعَ منهم ذلك لغيرنا ما كان يحتملُهم ، ولا يُسامحهم .

وأرسل إليه الشيخُ البُستي كتاباً يحطُّ عليه فيه ، فقال سيدي أحمد للرسول : اقرأه لي ، فقرأه ، فإذا فيه : أي أعور الرجال ، أي مُبتدع ، أي كلب ، أي جامع بين

= يُكرمه عند سنِّهِ » عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (١/ ٥٠٢) ، وأخرجه أبو داود بلفظ مقارب ، وهو : « إن من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ، والجافي عنه ، وإكرامَ ذي السلطان المقسط » عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(١) تقدم (٣/ ٣٢٨) .

(٢) في النسخ بالنصب ، والمثبت من المصادر .

الرجال والنساء ، ونحو ذلك ، فلما فرغَ الرسولُ من قراءة الكتاب أخذه سيدي أحمد ، وقرأه ، وصار يقولُ : صدق أخي فيما قال، وجزاه الله عني خيراً، ثم أنشد : [من الطويل]

فلستُ أُبالي مَنْ رماني بريبةٍ إذا كنتُ عندَ اللهِ غيرَ مُريبِ

ثم قال للرسول : اكتبْ له الجواب : من هٰذا اللاش[1] أحمد إلىٰ سيدي الشيخ إبراهيم البُستي رضي الله عنه ، وقد قرأتُ كتابكم ، وفهمتُ ما فيه ، والمسؤول من صدقاتكم أنَّ الشيخَ يدعو لي ، ولا يخلِّيني من حلمه وفضله ، فلما وصل الكتاب إلى البُستي هام علىٰ وجهه ، فما عرفوا إلىٰ أين ذهب .

وكان من خُلقه رضي الله عنه : أنه إذا علمَ من الفقراء أنهم عزموا علىٰ ضرب أحدٍ من الفقراء في الليل لزلَّةٍ وقعَ فيها أو غيرِ ذلك . . يأتي إلىٰ ذلك الفقير ، ويلبسُ ثيابه ، ويرقدُ مكانه ، فيضربونهَ ولا يعرفونه ، فإذا فرغوا من ضربه يكشفُ لهم عن وجههِ ، ويقول لهم : أنا حُميد ، فيُغشىٰ عليهم من هيبته ، فيرشُّ علىٰ وجوههم الماء ، ثم يقول لهم : يا أولادي ؛ ما كان إلا خيراً ، أكسبتمونا الأجرَ والثواب ، فيستغفرون ويقولون لبعضهم بعضاً : تعلَّموا هٰذه الأخلاق الشريفة .

وكان يقول لأصحابه : من رأىٰ منكم في حُميد عيباً فليُعْلِمْهُ به صدقةً عليه ، فقام شخصٌ مرةً وقال : يا سيدي ؛ لك عيبٌ عظيم ، فقال : وما هو يا حبيبي ؟ فقال : كون مثلنا يُسمَّىٰ من أصحابك ، فبكى الفقراء ، وعلا نحيبُهم ، وبكىٰ سيدي أحمد معهم ، وقال : أنا خادمُكم إن رضيتم بي .

وكان لسيدي أحمد شخصٌ يحطُّ عليه، وينقصُهُ ، ويُرسلُ إليه مكاتباتٍ قبيحةً ، من جملتها : أي ملحدُ ، أي باطني ، أي زنديق ، فإذا قرأ سيدي أحمدُ الكتاب تبسَّمَ .

وفَعَلَ معه ذلك فقيرٌ ، ثم جاء مكشوفَ الرأس ، وفي عُنقه حبلٌ يَقودونه حتىٰ دخل عليه الزاوية ، فقام إليه الشيخ ، واعتنقه ، وقال : ما أحوجَك يا أخي إلىٰ ذلك ؟!

---

(١) أي : اللا شيء .

فقال : اعفُ عني ، فعفا عنه ، وأخذ عليه العهد ، وصار من أخصِّ أصحابه إلىٰ أن مات .

وكان يقول : (لا يحصلُ لعبدٍ صفاءُ الصدر حتىٰ لا يبقىٰ في قلبه شيءٌ من الخبثِ والبُغض لأحدٍ من المؤمنين ، وهناك تأنسُ به الطيور والوحوش ، ولا تنفر منه) .

قال يعقوب الخادم : (وكان سببُ موتهِ : أنه حَدَثَ على الخلْقِ بلاءٌ عظيم ، فتحمَّلَهُ عنهم ، فاشتراه بما بقي من عمره) .

وكان في مرضِ موته يُمرِّغُ شيبته في التراب ويبكي ، ويقول : يا ألله ؛ العفو ، ثم يقول : اللهم ؛ اجعلني سقفاً للبلاء الذي ينزلُ علىٰ هـٰؤلاء الخلائق .

وكان مرضُهُ بالبطن ، فكان يخرج منه كلَّ يوم ما شاء الله ، فبقي مريضاً شهراً ، فقيل له : من أين لك هـٰذا كله ولك عشرون يوماً لم تأكلْ ولم تشربْ ؟! فقال : يا أخي ؛ هـٰذا اللحمُ يندفعُ ويخرج ، وقد ذهبَ اللحمُ ، وما بقي إلا المخُّ ، اليوم يخرج وغداً نعبرُ على الله عز وجل .

قال يعقوب : (فخرج منه شيءٌ أبيض مرَّتين أو ثلاث ، وانقطع) .

وتوفي يوم الخميس وقتَ الظهر ثاني عشر جُمادى الأولىٰ سنة سبعين وخمس مئة ، وكان يوماً مشهوداً .

قال يعقوب الخادم : (وكان آخرُ كلامه : أشهدُ أن لا إلـٰه إلا الله وأشهدُ أنَّ محمداً رسول الله ، ودفن في قبرِ الشيخ يحيى النجار ، رضي الله عنه) .

وكان شافعيَّ المذهب ، كتابُه « التنبيه » للشيخ أبي إسحاق الشيرازي[١]

قال : (ولم يتصدَّرِ الشيخُ أحمد قطُّ في مجلسٍ ، ولا جلس علىٰ سجَّادةٍ لغيره تواضعاً مع إخوانه) .

وكان كلامُه لا يكادُ يُسمع لخفض صوته ، رضي الله عنه .

---

(١) كذا في النسخ : (كتابه « التنبيه ») ، وفي « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٠٥) : (اقرأ كتاب « التنبيه ») .

ومنهم :

(٢٥٠) الشيخ الإمام ، أبو النجيب عبد القاهر السُّهْرَوردي[١]

شيخُ الخرقة رضي الله عنه ، ويلقب أيضاً : بضياء الدين .

انعقد عليه إجماعُ المشايخ والعلماء بالاحترام ، وكان له القبولُ التام في الصدور ، والمهابة في القلوب .

وتخرَّجَ بصحبته جماعةٌ من أكابر المشايخ ؛ كالشيخ شهاب الدين السُّهروردي ، والشيخ عبد الله بن مسعود الرومي .

واشتُهر ذكره في الآفاق ، وقُصد من كلِّ قطر .

وكان يقول : (التصوفُ أوله علمٌ ، وأوسطه عملٌ ، وآخره موهبةٌ ؛ فالعلم يكشف عن المراد ، والعملُ يُعين على الطلب ، والموهبةُ تبلغ غاية الأمل) .

وكان يقول : (أفضل المقامات عندنا : عدُّ الأنفاس ، فلا يقع له نَفَسٌ واحدٌ في غفلةٍ عن الله تعالىٰ) .

وكانت مجاهداتُه ومجاهداتُ أصحابه فوق الحدِّ .

وله كلامٌ عالٍ في الطريق لا يذوقُهُ إلا الكُمَّل ، فتركناه

سكن بغداد إلىٰ أن مات بها سنة ثلاثٍ وستين وخمس مئة ، ودفن بمدرسته علىٰ شاطئ الدجلة ، وقبره بها ظاهر يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٥١) الشيخ الإمام أبو مَدْين المغربي[٢]

شيخُ الخرقة ، رضي الله عنه .

كان من أعيان مشايخ المغرب ، وصدورِ المقرَّبين ، واسمه : شُعيب .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٩٣) (٢٦٥) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٣٠) (٢٧٩) .

وولده مَدْين هو المدفون بمصر في جامع الشيخ عبد القادر الدَّشْطوطي ببركة القرع ، وقبره ظاهرٌ يُزار .

وأما أبو مَدْين : فهو مدفونٌ بمدينة تِلِمْسان بأرض المغرب في تربةِ العباد ، مات وقد ناهز الثمانين سنة .

وكان مُقيماً بِبجَاية ، ثم إنَّ سُلطان تِلِمْسان بلغه خبرُهُ وما كان فيه من الشهرة ، فأمرَ بإحضاره من بِجَاية ليتبرَّكَ به ؛ لتعذُّر وصول السلطان إلىٰ زيارته ؛ خوفاً من اختلال رعيَّتِهِ ، فأجاب بالسمع والطاعة ، ثم قال بخفض صوت : ما لنا وللسلطان ؟! الليلةَ نزورُ الإخوان ، ثم نزلَ بتِلِمْسان ، واستقبل القبلةَ ليلةَ دخوله ، وتشهَّدَ وقال : ها قد جئتُ ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه : ٨٤] ثم قال : اللهُ الحيُّ ، ففاضت روحُهُ ، فلم يمكثْ في تلمسان شيئاً .

وكان الشيخ أبو الحجاج الأَقصري رضي الله عنه يقول : سمعت شيخي الشيخ عبدَ الرزاق يقول : اجتمعتُ بالخَضِرِ عليه السلام سنة ثمانين وخمس مئة ، فسألته عن شيخنا أبي مدين ، فقال : هو إمام الصدِّيقين في هٰذا الوقت ، وقد أعطاه اللهُ تعالىٰ مفتاحاً من السرِّ المصونِ بحجاب القدس ، فما في هٰذه الساعة أجمعُ لأسرارِ المرسلين منه ، ثم إن أبا مدين مات بعد ذلك بيسير .

وقال الشيخ محيي الدين بنُ العربي رضي الله عنه : ذهبت أنا والشيخ عمران موسىٰ وبعضُ الأبدال إلىٰ جبل قاف ، فلما مررنا على الحيَّةِ المحدقة به سلَّمنا عليها ، فردَّتْ علينا السلام ، ثم قالتْ : من أي البلاد أتيتما ؟ فقلنا لها : من بجايَة ، من أرض المغرب ، فقالت : ما حالُ أبي مدين مع أهلها ؟ فقلنا لها : يرمونه بالزندقة ، ويكرهونه ، ويؤذونه أشدَّ الأذىٰ ، فقالت : عجباً والله لبني آدم ، كيف يُؤذون أولياءَ الله ؟! واللهِ ؛ ما كنتُ أظنُّ أنَّ الله عز وجل يوالي عبداً من عبيده فيكرهه أحدٌ ، إنه واللهِ ممنِ اتَّخذه الله وليّاً ، وأنزل محبَّتَه في قلوب عباده ، فقلت لها : ومن أعلمَك به ؟ فقالت : أعلمني به اللهُ عز وجل . انتهىٰ .

وقد أجمعتِ المشايخ علىٰ تعظيمه وإجلاله ، وتأدَّبوا بين يديه .

وكان جميلاً ظريفاً ، مُتواضعاً زاهداً ، ورعاً محقِّقاً ، قد اشتملَ علىٰ أكرمِ الأخلاق ، رضي الله عنه .

وكان يقول : (ليس للقلبِ إلا وجهةٌ واحدة ، متىٰ توجَّهَ إليها حُجب عن غيرها) .

وكان يقول : (من خرجَ إلى الخلق قبلَ وجودِ حقيقةٍ تدعوه إلىٰ ذلك . . فهو مفتونٌ ، وكلُّ من رأيتموه يدَّعي مع الله حالةً لا يكون علىٰ ظاهره منها شاهدٌ فاحذروه) .

وكان يقول : (من تحقَّق بمقام العبودية لله عز وجل شهدَ أعمالَهُ بعين الرياء ، وأحوالَهُ بعين الدعوىٰ ، وأقوالَهُ بعين الافتراء) .

وكان يقول : (ما وصلَ إلىٰ مقامِ الحرية من بقي عليه من نفسه بقيَّةٌ) .

وكان يقول : (لا تنظرْ إلىٰ مشاهدتك له ، وانظرْ إلىٰ مشاهدته لك) .

وكان يقول : (الفقرُ نورٌ ما دمْتَ تستره ، فإذا أظهرتَهُ ذهب نوره) .

وكان يقول : (كلُّ فقيرٍ كان الأخذُ أحبَّ إليه من العطاء فهو كاذبٌ ، لم يَشَمَّ للفقر رائحةً) .

وكان يقول : (من لم يصلحْ لخدمته شغلَهُ بالدنيا ، ومن لم يصلح لمعرفته شغله بالآخرة) .

وكان يقول : (من لم يخلعِ العذار ، لم تُرفع له الأستار) .

وكان يقول : (إياكم أن تقرروا مقاماً قبل إحكامه ؛ فإن ذلك يقطعكم عن كمال الوصول إلىٰ حقيقته) .

وكان يقول : (إياكم وصحبةَ الأحداث المبتدئين في الطريق ، ولو كانوا أبناء سبعين سنة ، إلا بعد تعين ذلك عليكم) .

ومكث رضي الله عنه في بيته سنةً لا يخرجُ إلا للجمعة ، فاجتمعَ الناسُ علىٰ باب داره ، وطلبوا منه أن يتكلَّمَ عليهم ، فلما ألزموه خرجَ ، فرأته العصافيرُ التي علىٰ سِدْرة في داره ، ففرَّتْ ، فرجع ، وقال : لو صلحتُ للحديث عليكم لم تفرَّ مني الطيور ، فجلس في البيت سنةً أُخرىٰ ، ثم جاؤوا إليه ، فخرج ، فلم تفرَّ منه الطيور ، فتكلَّمَ

على الناس ، ونزلتِ الطيورُ تضرب بأجنحتها وتصفِّقُ حتىٰ ماتَ منها طائفةٌ كثيرة ، ومات رجلٌ من الحاضرين .

وكان يقول : (كلُّ فقيرٍ لا يعرفُ زيادته من نقصه فليس بفقير) .

وكان يقول : (نسيانُ الحقِّ سبحانه وتعالىٰ طرفةَ عينٍ خيانة من العبد ، يستحقُّ بها العقوبة) .

وكان يقول : (الحضورُ مع الله تعالىٰ جنةٌ ، والغيبةُ عنه نار ، والقربُ منه لذَّةٌ ، والبعدُ منه حسرةٌ وموت ، والأنسُ بذكره حياةٌ) .

وكان يقول : (من طلبَ الطريقَ بلا توبةٍ من سائر الآثام فهو جاهل) .

وكان يقول : (من قطع موصولاً بحضرة ربِّهِ قُطع به ، ومن أَشغل مشغولاً بربِّه أدركه المقتُ في الوقت) .

وكان يقول : (من شرط العارف : أن يتحكم فيما بين العرش إلى الثرىٰ) .

وكان الحقُّ تعالىٰ قد أذلَّ له الوحوشَ ، فإذا رآه الوحشُ ارتعدَ من هيبته .

ومرَّ يوماً علىٰ حمارٍ والسَّبُعُ قد أكلَ نصفه ، وصاحبُ الحمار ينظرُ إليه من بعيدٍ ، لا يستطيع أن يقربَ منه ، فقال لصاحب الحمار : تعالَ ، فذهبَ به إلى الأسد ، وقال له : أمسكْ بأذنِهِ ، واستعمله مكانَ حمارك حتىٰ يموتَ ، فأخذ بأذنِهِ وركبَهُ ، وصار يستعملُهُ سنين موضعَ حماره حتىٰ ماتَ الأسد ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٥٢) الشيخ أبو الحسن الشاذلي(١)

شيخُ الخرقة الشاذلية ، رضي الله عنه ، وشاذلة : قريةٌ بإفريقية .

وكان ضريراً ، نزل رضي الله عنه إسكندرية حين جاء من أرض المغرب .

وكان كبيرَ القدر ، عالي المقام .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٦٨) (٣١٣) .

صحب الشيخَ نجم الدِّين الأصفهاني ، وابن مَشيش ، وغيرَهما .

ومات ابنُ مشيش مقتولاً ، قتله ابن أبي الطواجن ببلاد المغرب .

وحجَّ مراتٍ ، ومات بصحراء عيذاب قاصداً الحج ، فدُفن هناك في ذي القَعدة سنة ستٍّ وخمسين وست مئة .

وترجمه الشيخ تاجُ الدين بنُ عطاء الله : بأنه قطبُ الزمان ، وحجَّةُ الله على الصوفية ، لم يدخل في طريق الصوفية حتىٰ كان يعدُّ للمناظرة في سائر العلوم الشرعية .

وشهد له الشيخ أبو عبد الله بنُ النعمان بالقطبانية .

وكان الشيخ تقيُّ الدين بنُ دقيق العيد يقول : (ما رأيتُ أعرفَ بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (عليك بالاستغفار ، وإن لم تستحضرْ لك ذنباً ، واعتبرْ باستغفار النبيِّ صلى الله عليه وسلم بعد البشارة واليقين ، بأنَّ اللهَ تعالىٰ غفرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر[1] ، هـٰذا في معصومٍ لم يقترفْ ذنباً قطُّ ، وتقدَّسَ عن ذلك ، فما ظنُّك بمن حسناتُهُ ذنوبٌ) .

وكان يقول : (إذا عارضَ كشفُكَ الكتابَ والسُّنَّة فاعملْ بالكتاب والسنة ، ودعِ الكشفَ ، وقل لنفسك : إن الله تعالىٰ قد ضمن لي العصمةَ في الكتاب والسُّنة ، ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الإلهام) .

وكان يقول : (لقيتُ الخَضِرَ عليه السلام في صحراء عَيْذاب فقال لي : يا أبا الحسن ؛ أَصْحبك اللهُ اللطفَ الجميل ، وكان لك صاحباً في المقام والرحيل) .

وكان يقول : (كلُّ علمٍ تسبقُ إليك فيه الخواطر ، وتميلُ النفسُ إليه ، وتلتذُّ به . . فارمْ به ، وخذ بالكتاب والسنة ، وأفعالِ الأئمة الهداة المبرَّئين من الهوىٰ . . تسلمْ من الشكوك والظنون والأوهام ، وماذا عليك أن تكونَ عبداً لله عز وجل ولا علم

---

(١) قال تعالىٰ في سورة الفتح [١-٢] : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ .

ولا عمل ؟! وحسبك من العلم العلمُ بالوحدانية ، ومن العمل تأديةُ الفرائض مع محبّة اللهِ ورسوله ، ومحبّة أصحابه ، واعتقاد الحقِّ للجماعة ؛ « فإنَّ المرءَ معَ مَنْ أحبَّ » ولو قصَّرَ في العمل كما ورد)[1]

وكان يقول : (من علامة نفاقك : ثقلُ ذكر الله على لسانك ، فتُبْ إلى الله يخفَّ الذكرُ على لسانك) .

وكان يقول : (من أحبَّ ألا يُعصى الله في مملكته كلِّها فقد أحبَّ ألا تظهرَ مغفرتُهُ ورحمته ، وألا يكون لنبيِّه شفاعةٌ) .

وكان يقول : (ارجعْ عن منازعة أقدارِ ربِّك تكنْ موحِّداً ، واعملْ بأركان الشريعة تكنْ سنياً ، واجمع بينهما تكنْ محقِّقاً) .

وكان يقول : (لا يَشَمُّ رائحةَ الولاية من لم يزهدْ في الدنيا وأهلها) .

وكان يقول : (إذا ذهبتْ عنك الدنيا وافتقرتَ فسلِّمْ لربِّك ، وإذا ظلمك أحدٌ فاصبرْ واحتملْ ، واسكنْ تحت جريان الأقدار ؛ فإنها سحابةٌ سائرة) .

وكان يقول : (الشيخُ : من دلَّكَ على الله من أقربِ الطرق) .

وكان يقول : (من أدبِ مُجالسة الأكابر : عدمُ التجسُّس على عقائدهم ، ومن أدب مجالسةِ العلماء : عدمُ تحديثهم بغيرِ المنقول ؛ فمن أرادَ الأدبَ معهم فليحدِّثْهم بالعلوم المنقولة ، والروايات الصحيحة ، ومن أدبِ مُجالسة العبَّاد والزهَّاد : أنْ تحدِّثَهم بأحوال الزهاد والعُبَّاد ، وتحلي لهم ما استمرؤهُ ، وتسهِّل عليهم ما استوعروه ، وتذوِّقهم من المعرفة ما لم يذوقوه ، ومن أدب مجالسة الصديقين : أن تفارقَ ما تعلمُهُ لتظفرَ بالسرِّ المكنون) .

وكان يقول : (من دعا الناسَ لغير ما دعا له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فهو بدعيٌّ) .

وكان يقول : (إذا استنصرَ الفقيرُ لنفسه ، وأجابَ عنها . . رجعَ إلى وراء) .

---

(١) روى الحديث البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤٠) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (٢/ ٢٧ ، ٧٠ ، ١٩٨) .

وكان يقول : (كلُّ من لم يُواظبْ على الصلوات الخمس في الجماعة ، فلا تَرْجُ له خيراً في الطريق) .

وكان يقول : (من استحسنَ شيئاً من أحواله الظاهرة أو الباطنة ، وخافَ زوالَهُ . . فليقل : ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف : ٣٩] يأمنْ من الزوال) .

وكان يقول : (وِرْدُ المحبين المحقِّين : إسقاطُ الهوىٰ ، ومحبةُ المولىٰ ؛ فإن المحبّةَ أبتْ أن تستعمل محبّاً لغير محبوبه في عموم الأوقات) .

وكان يقول : (لا يتمُّ لعالم سلوكُ طريق القوم ولو ارتفعتْ درجته في العلم إلا بصحبة شيخٍ ناصح) .

وكان يقول : (لكلِّ وقتٍ سهمٌ من العبودية ، فإياك أن تؤخِّرَ طاعةَ وقتٍ لوقتٍ ، فتعاقب بفوتها ، أو بفوتِ غيرها ، أو مثلها جزاءً لما كفر من ذلك الوقت[١] ، ومن هنا قال القوم : الوقتُ سيفٌ إن لم تقطعْه قطعَكَ ، وأمّا تأخيرُ عمر رضي الله عنه الوترَ إلىٰ آخرِ الليل فتلك عادةٌ جاريةٌ ، وسُنَّةٌ ثابتةٌ ألزمه اللهُ إياها مع المحافظة عليها ، وأنّىٰ لك بها مع ميلك إلى الراحات ، وأكلِ الشهوات ، والغفلةِ عن مشاهدة الحقِّ في جميع الأوقات ، هيهات هيهات) .

وكان يقول : (من أرادَ عزَّ الدارَيْن فليرِحْ من الدنيا جسدَهُ وقلبه) .

وكان يقول : (من مدَّ رجله بين يدي الله للتعب لم يعاقبْهُ اللهُ) .

وكان يقول : (هـٰذا الطريقُ ليس بالرهبانية ، ولا بأكل الشعير والنخالة ، وإنما هو بالصبر والحضور مع الله تعالىٰ) .

وكان يقول : (من لم يزدَدْ بعلمه وعمله تواضعاً للخلق فهو هالكٌ) .

وكان يقول : (سبحان من قطعَ كثيراً من أهلِ الصلاح عن ربِّهم برؤيتهم صلاحهم) .

وكان يقول : (الزمِ جماعةَ المؤمنين ، وإن كانوا فاسقين ، واهجرْهم حال فسقهم

---

(١) في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٧٣) : (ضيَّع) بدل (كفر) .

رحمةً بهم ؛ ليرجعوا وينزجروا ، وكُلْ من طعام فسقةِ المسلمين ، ولا تأكلْ من طعامِ رهبان المشركين) .

وكان يقول : (من أدب المتقين : التواضعُ ، وحملُ أحدِهم متاعَهُ من السوق ، وجمع الحطب للطعام ، وحمله على الرأس ، والمشيُ مع الزوجة إلى السوق في حاجةٍ من حوائجها ، وركوبها معه على الحمار ، وغيره) .

وكان يقول : (الصادقُ لو كذَّبه أهلُ الأرض جميعاً لا يزدادُ بذلك إلا يقيناً ، ولو صدَّقه جميعُ أهلِ الأرض لم يزدَدْ بذلك تمكيناً)

وكان يقول : (لا يُعطى الكرامات من طلبها ، ولا من حدَّثَ بها نفسه ، أو استعمل نفسَهُ في طلبها ، وإنما يُعطاها من لا يرىٰ نفسَهُ أهلاً لها) .

وكان يقول : (من أكرمه اللهُ عز وجل بكرامةِ الإيمان ، ومتابعةِ السُّنة واشتاقَ إلىٰ غيرِهما . فهو مفترٍ كذَّابٌ ، وهو كمن جالَسَ الملكَ ، فاشتاق إلىٰ سياسة الدواب) .

وكان يقول : (سمعتُ هاتفاً يقول لي : إنْ أردتَ كرامتي فعليك بطاعتي ، وإياك ومعصيتي) .

وكان يقول : (رأيتُ كأني واقفٌ بين يدي ربي عز وجل ، وهو يقول لي : لا تأمنْ مكري في شيءٍ وإن أمَّنتك ؛ فإن علمي لا يُحيطُ به محيط ، وهـٰكذا درج أصفيائي) .

وكان يقول : (لا تركنْ إلىٰ علمٍ ، ولا عملٍ ، ولا مددٍ ، وكنْ مع الله بالله ولله ، وإياك أن تنشر علمَكَ ليصدِّقك الناسُ ، وإنما الشأنُ أن تنشرَ علمك ليصدِّقك الله تعالىٰ ؛ فإن العلومَ كالدَّراهم في اليد ؛ إن شاءَ اللهُ نفعَكَ بها ، وإن شاء ضرَّكَ) .

وكان يقول : (من أقبلَ على الخلق قبل خمود نارِ بشريَّته سقطَ من عين رعاية الله ، فاحذروا هـٰذا الداء العضال ؛ فإنه قد هلَكَ به خلقٌ كثير ، وقنعوا من العامة بتقبيل الأيدي والأرجل مع ارتكابهم في أنفسِهم ما لو أظهروه كانوا به فاسقين)

وكان يقول : (إذا طلب الوليُّ النُّصرةَ ممن ظلمه خرجَ عن الولاية ، قال الله تعالىٰ للمعصوم الأكبر : ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] أي : فقد لا أشاءُ أن أُهلكَهم) .

وكان يقول : (منْ أبغضِ الخلق إلى الله مَنْ تملَّقَ إليه بالطاعات في الأسحار ؛ ليطلبَ بذلك القربَ من عباد الله) .

وكان يقول : (من تلذَّذَ بمطامح الأبصار إليه في صلاته ، وعند إطراقِ رأسه فلا أجرَ له ؛ لأن خيانة العباد بالإضافات ، ورؤيةِ الطاعات ، وإجابة الدعوات . . أقبحُ من خيانتهم بالمعاصي الظاهرة) .

وكان يقول : (إذا أرادَ اللهُ هوانَ عبدٍ سترَ عنه عيوبه ، وإذا أراد عزَّهُ كشفها له ؛ ليتوبَ منها) .

وكان يقول : (إذا تركَ العارفُ الذكر نَفَساً أو نَفَسَيْن عُوقب بالبين) .

وكان يقول : (من الأولياءِ من يسكرُ عند رؤية الكأس ، ولم يذقْ بعدُ شيئاً ، فما ظنُّك به بعد ذوق الشراب ؟!) .

وكان يقول : (إذا ضيَّقَ اللهُ عليك في المعيشة فاعلمْ أنه يريدُ أن يواليك ، فاثبتْ ولا تضجرْ) .

وكان يقول : (إذا وقعَ الفقيرُ في الزلَّةِ المرَّةَ بعد المرة فهو ظالمٌ متعدٍّ حدودَ الله ، والظالمُ لا يكون إماماً ، ومن ترك المعاصي جملةً ، وصبر على ما ابتلاه الله به فهو الإمامُ ، وإن قلَّتْ أتباعه ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة : ٢٤]) .

وكان يقول : (مريدٌ واحدٌ يصلحُ لوضع السرِّ فيه خيرٌ من عشرة آلاف مريد لا يصلحون للسرِّ) .

وكان يقول : (منِ انتهى أمرُهُ إلى الوقيعة في العلماء والصالحين ، وموالاة الظالمين . . فقد تفلَّتَ منه الإسلام كله ، فلا يضرُّك ما توسَّمَ به ظاهراً من العلم والعبادة ؛ فإنهم صورٌ لا أرواحَ لها ؛ فإن روحَ الإسلام حبُّ الله ورسوله ، وحبُّ الصالحين) .

وكان يقول : (أبى المحققون أن يشهدوا غيرَ الله في دار الدنيا) .

وكان يقول : (لن يصلَ عبدٌ إلى حضرة الله عز وجل ومعه شهوةٌ من شهواته ، أو مشيئةٌ من مشيئاته) .

وكان يقول : (لا تختَرْ مع ربِّك شيئاً ، واخترْ ألا تختار ، وفرَّ من ذلك المختار ، ومن فرارك ، ومن كلِّ شيءٍ إلىٰ ربِّكَ : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص : ٦٨] ، وليس من اختيارِكَ المذمومِ اختيارُ فعل مختارات الشرع وترتيباته ؛ فإنها من مختارِ الله تعالىٰ) .

وكان يقول : (كلُّ ورعٍ لا يثمرُ لك النورَ والعلم فليس له ثمرة ، وكلُّ سيئةٍ أعقبها الخوفُ والهرب إلى الله تعالىٰ فلا وزرَ لها إن شاء الله تعالىٰ) .

وكان يقول : (لا ترقَ قبل أن يُرقىٰ بك ، فتزلَّ قدمُك) .

وكان يقول : (أشقى الناسِ : من يحبُّ أن يعامله الناسُ بكلِّ ما يُريده ، وهو لا يجدُ من نفسه بعضَ ما يُريد) .

وكان يقول : (طالبْ نفسَك بعدم إكرامك للناس ، ولا تطالبِ الناسَ بإكرامهم لك : ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ [النساء : ٨٤]) .

وكان يقول : (قد يئستُ من منفعة نفسي لنفسي ، فكيفَ لا أيئسُ من منفعة غيري لي ؟!) .

وكان يقول : (إن أردتَ ألا يصدأَ لك قلبٌ ، ولا يلحقك همٌّ ولا كربٌ ، ولا يبقىٰ عليك ذنبٌ فأكثرْ من قول : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر ») .

وفي روايةٍ : (فأكثرْ من قول : « سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، لا إلـٰه إلا الله ، اللهم ؛ ثبِّتْ علمَها في قلبي ، واغفرْ لي ذنبي ») .

وكان يقول : (لا كبيرةَ عندنا أكبرُ من اثنتين : حبِّ الدنيا وإيثارِها على الآخرة ، والمقامِ على الجهل بأحكام الدين) .

وكان يقول : (إن أردتَ أن يكونَ الحقُّ راضياً عنك فتبرَّأْ من نفسك ، ومن حولك وقوَّتك إلى الله تعالىٰ) .

وكان يقول : (إن أردتَ الصدقَ في القول فأكثر قراءة : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، وإنْ أردتَ الإخلاصَ في جميع أحوالك ، فأكثر من قراءة : « قل هو الله

أحد » ، وإن أردتَ تيسيرَ الرزق كالمطرِ فأكثر من قراءة : « قل أعوذ برب الفلق » وإن أردتَ السلامة من الشرِّ فأكثر من قراءة : « قل أعوذ برب الناس ») .

وكان يقول : (أربعٌ لا ينفعُ معهن علمٌ ولا عمل : حبُّ الدنيا ، ونسيانُ الآخرة ، وخوفُ الفقر ، وخوفُ الناس) .

وكان يقول : (أدلُّ الأعمالِ على محبّة الله لك بغضُك الدنيا وأهلها ، مع الموافقة للأوامر) .

وكان يقول : (لا تسرفْ بترك الدنيا فتغشاك ظلمتُها ، وتنحل أعضاؤك لها ، فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها ؛ إما بالهمة ، أو بالفكرة ، أو بالإرادة ، أو بالحركة) .

وكان يقول : (خصلةٌ واحدة إذا فعلها العبدُ صار إماماً يُقتدىٰ به ؛ وهي : الإعراض عن الدنيا) .

وكان يقول : (إذا تداين أحدُكم فليتوجَّه بقلبه إلى الله تعالىٰ ، ويتداين على الله ؛ فإن كل ما تداينه العبدُ على الله تعالىٰ فعلى الله أداؤه من فضله) .

وكان إذا تداين يقول : (اللهم ؛ عليك تَداينتُ ، وعليك توكَّلتُ ، وأمري إليك فوَّضْتُ) .

وكان يقول : (خصلةٌ واحدةٌ تحبطُ الأعمال ، ولا يتنبَّهُ لها غالبُ الناس ، وهي سخطُ العبد علىٰ قضاء الله عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد : ٩]) .

وكان يقول : (خصلتان لا يضرُّ معهما كثرةُ السيئات : الرِّضا بقضاء الله ، والصفحُ عن عباد الله) .

وكان يقول : (من علامة مَنْ هَجَرَ المعاصي : ألا تخطرَ له المعاصي علىٰ بال ؛ فإن حقيقةَ الهجرِ نسيانُ المهجور) .

وسُئل عن الغِلِّ في القلب : ما صورته ؟ فقال : (الغِلُّ : هو ربطُ القلب على الخيانة والمكر والخديعة ، والحقدُ : هو شدَّةُ ربط القلب علىٰ هـٰذه المذكورات) .

وكان يقول : (اتَّقِ المعاصي جملةً وتفصيلاً ، والميلَ إلى الدنيا صورةً وتمثيلاً إن أردتَ أن تكون من أهل حضرة الله مسيراً وسبيلاً) .

وكان يقول : (من وقعَ في المحرَّمات عُوقب بالعذاب ، ومن أساءَ الأدبَ في الطاعات عُوقب بالحجاب ، ومن رَكَنَ إلىٰ أحواله انقطعَ عنه المزيد ، ومن وقعَ في القلق والاستعجال عوقب بخراب السرِّ) .

وكان يقول : (من اعترضَ علىٰ أحوالِ الرجال فلا بدَّ أن يموت قبل أجله ثلاث موتات : موت بالذلِّ ، وموت بالفقر ، وموت بالحاجة إلى الناس مع عدم الرحمة له) .

وكان يقول : (من النفاق : التظاهرُ بفعل السُّنة ، والله يعلم من سريرتك غيرَ ذلك) .

وكان يقول : (من الشرك الخفيِّ : اتخاذُ الشُّفعاء من دون الله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة : ٤] ، ولا يَخلُصُ العبدُ من ذلك إلا إن جعل الوسائطَ طريقاً إلى الله تعالىٰ من غير وقوفٍ معهم) .

وكان يقول : (مَنْ شفع عند الحكام طلباً للجاه والمنزلة ، أو لغرضٍ من الدنيا فهو من أهلِ النار) .

وكان يقول : (من سوءِ الظنِّ بالله تعالى : استنصارُ العبدِ في دواهيه بغيرِ الله) .

وكان يقول : (منْ غَفَلَ عن تفقُّدِ قلبه اتَّخذ دينَهُ هزواً ولعباً ، ومن ركنَ إلى الخلقِ اتَّخذ دينه لعباً) .

وكان يقول : (إذا كان من يعملُ على الوفاقِ لا يسلمُ من نفاق ، فكيف بمن يعملُ علىٰ خلاف السنة ؟!) .

وكان يقول : (ضيقُ المعيشة شرفٌ لكلِّ الناس إلا لخليفةٍ ، أو قطبٍ ، أو ذي مروءة ، أو أمينٍ لا يخون الله برؤية نفسه إذا أنفقَ على الفقراء) ، والله تعالىٰ أعلم .

وقد بسطنا الكلامَ علىٰ حاله رضي الله عنه وذكرنا كلامَهُ لأهلِ الخصوصيات في « الطبقات الكبرىٰ »[١] ، والله غنيٌّ حميد .

---

(١) الطبقات الكبرى (٢/ ٦٨) .

ومنهم :

(٢٥٣) شيخُ الخرقة أبو العباس أحمدُ البدويُّ الحسيبُ النسيب رضي الله عنه[١]

وشهرتُهُ في مصر ، والشام ، والحجاز ، واليمن ، والهند ، والسند ، والروم ، والغرب تُغني عن تعريفه ، ولـٰكن نذكرُ لك يا أخي جملة من أحواله علىٰ سبيل التبرُّكِ ، فأقول وبالله التوفيق :

اعلم : أن مولده بمدينة فاس بالمغرب ؛ فإن أجدادَه الشرفاءَ انتقلوا أيام الحجاج إلىٰ أرض المغربِ لما كثرَ القتلُ في الأشراف .

ولما بلغَ سبع سنين سمع أبوه قائلاً يقول له في منامه : يا علي ؛ انتقلْ من هـٰذه البلاد إلىٰ مكة ؛ فإن لنا في ذلك شأناً ، وذلك في سنة ثلاثٍ وست مئة .

قال الشريفُ حسنُ أخو سيدي أحمد : (فما زلنا ننزلُ عند عربٍ ، ونرحلُ من عربٍ ، ويتلقَّونا بالترحيبِ والإكرام حتىٰ دخلنا مكة في مدَّةِ أربع سنين ، فتلقَّانا شرفاءُ مكة كلُّهم ، وأكرمونا ، وجلسنا عندهم في أرغدِ عيشٍ حتىٰ تُوفي والدنا سنة سبعٍ وعشرين وست مئة ، ودفن بباب المعلىٰ) .

قلت : وقبرُه هناك ظاهرٌ يُزارُ في زاوية .

قال الشريف حسن : فأقمتُ أنا وإخوتي ، وكان أحمدُ أصغرَنا سنّاً ، وأشجعنا قلباً ، وكان لكثرةِ ما يتلثَّمُ سمَّيناه بالبدوي ، فأقرأتُهُ القرآنَ مع ولدي الحسين ، ولم يكنْ في فرسان مكةَ أشجعَ من أخي أحمد ، حتىٰ كانوا يسمونه في مكة العطَّاب .

فلما جاءته المواهبُ الإلـٰهية وحَدَثَ عليه حادثُ الوله تغيَّرتْ أحواله ، واعتزلَ عن الناس ، ولازمَ الصمتَ ، فكان لا يُكلِّمُ الناسَ إلا بالإشارة ، فلما حصلتْ له الجمعيةُ استغرقتْهُ إلى الأبد ، ولم يزل حالُه يتزايدُ حتىٰ كان من أمره ما كان .

---

(١) جاء في هامش (ج) : (أبو العباس أحمد البدوي ، أبو الفتيان ابن السيد علي بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر المغربي الأصل) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٧) (٢٩١) .

ثم إنه في شوال سنة ثلاث وثلاثين وست مئة رأىٰ في منامه ثلاثَ مرات قائلاً يقول له : قمْ ، واطلبْ مطلعَ الشمس ، فإذا وصلتَ مطلعَ الشمس فاطلبْ مغربَ الشمس ، ثمَّ سرْ إلىٰ طندتا ؛ فإن بها مقامَك أيُّها الفتىٰ ، فاستيقظَ من منامه ، وشاورَ أهلَه ، وسافر إلى العراق ، فتلقَّاه أشياخُها الأحياء والأموات ، فلما زارهم وأقامَ عندهم مدَّةً خرجنا بعد ذلك قاصدين طندتا ، فأحدق بنا الرِّجالُ من سائر الأقطار يُعارضونا ، فأومأ إليهم سيدي أحمدُ البدوي ، فوقعوا ، ثم رجعوا هاربين .

ومضينا إلىٰ أُمِّ عَبيدة ، فزرنا سيدي أحمدَ بن الرفاعي ، وذهب سيِّدي أحمدُ إلىٰ فاطمة بنت بري ، وكانت امرأةً لها حالٌ عظيم ، وجمالٌ بديع ، وكانتْ تسلبُ الرجال الواردين على العراق أحوالَهم ، فسلبَها سيدي أحمدُ ، وتابتْ علىٰ يديه ، وأخذ عليها العهد أنها لا تتعرضَ لأحدٍ بعد ذلك اليوم .

وكان قد اجتمعَ معها قبائلُ كثيرةٌ من العرب عوناً لها علىٰ سيدي أحمد ، فرجعوا كلُّهم إلىٰ أماكنهم ، وكان يوماً مشهوداً بين الأولياء .

ثم إنَّ سيدي أحمد سمع قائلاً يقول : سرْ إلىٰ طندتا ، ورَبِّ الرجال ، وذلك في شهر رمضان سنة أربعٍ وثلاثين وست مئة .

فدخل رضي الله عنه إلىٰ مصر أولاً ، ثم قصد طندتا ، فدخلَ في الحال مُسرعاً إلىٰ دار ابن شحيطة شيخِ البلد ، فصعد إلىٰ سطوحِ غرفته ، فأقام فوق السطح نحو [اثنتي عشرة] سنة[١] .

وكان طولَ نهاره وليله واقفاً شاخصاً ببصره إلى السماء ، وقد انقلبَ سوادُ عينيه بحمرةٍ تتوقَّدُ كالجمر .

وكان يمكث الأربعين يوماً وأكثر لا يأكلُ ولا يشرب ولا ينام . ذكره الحافظ ابن حجر رضي الله عنه .

ثم إنه نزلَ من السطح إلىٰ ناحيةِ فيشا المنارة ، فصحب بها عبدَ العال ، وعبدَ المجيد .

---

(١) في النسخ (اثني عشر) .

فأما عبد المجيد : فسألَهُ ليكشفَ له عن لثامه ليرىٰ وجهه ، فقال له سيدي أحمد : يا عبد المجيد ؛ كلُّ نظرةٍ بنَفْسٍ ، فقال : يا سيدي ؛ أرني وجهك ولو متُّ ، فكشفَ اللِّثام عن وجهه ، فخرَّ عبدُ المجيد ميتاً .

وأما عبد العال : فعاشَ إلىٰ أن مات سيدي أحمد ، واستُخلف بعده ، وربَّى الرجال ، وفرَّقهم في نواحي البلاد .

وكان سيدي أحمدُ يربِّي بالنظر ، فكان سيدي عبدُ العال يأتيه بالرَّجل الجاهل الخالي من المدد ، فينظر إليه نظرةً ، فيملؤه مدداً ، ويقول له : قلْ له : يسكنِ البلدَ الفلاني ، هٰكذا كانت تربيته للرجال ، وكان يقلب أعيانهم بالنظرِ من غير مجاهدة ، وكل ذلك كان بالسطح الذي كان فوقه في دار ابن شحيطة ، ومن هنا كان الناسُ يقولون : فلان من أصحاب السطح ، ويقولون : سيدي أحمد السطوحي .

قالوا : ولما دخل سيدي أحمدُ طندتا كان هناك سيدي حسن الصائغ الإخنائي ، وسيدي سالم المغربي .

وكان سيدي حسن يقول لمَّا قربَ مجيء سيدي أحمد البدوي : ما بقي لنا إقامةٌ هنا ، صاحبُ البلاد قد جاء لها ، فكان الناسُ لا يعرفون مرادَهُ ، فلما دخل سيدي أحمدُ خرج سيدي حسن إلىٰ إخْنا ، فأقام بها إلىٰ أن مات ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يزار إلى الآن .

وأقام سيدي سالم المغربي : فسلَّم لسيدي أحمد إلىٰ أن مات بطندتا ، وقبره قريب من مقام سيدي أحمد .

وأنكر بعضُهم علىٰ سيدي أحمد ، فسُلب وانطفأَ اسمُهُ .

وانتصر جماعةٌ من خطباء طندتا لسيدي وجهِ القمر صاحبِ الإيوان العالي بها ، وبنوا له منارةً ، فجاء سيدي عبد العال ورفسها برجله ، فغارت إلىٰ وقتنا هٰذا .

ولما دخلَ سيدي أحمدُ إلىٰ مصر خرجَ الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات هو وعسكره ، فتلقَّوا سيدي أحمد ، وأكرموه غاية الإكرام ، وأنزله في دار الضيافة ، وكان

ينزلُ لزيارته لما أقام بناحية طندتا ، وكان يعتقدُه اعتقاداً عظيماً

وكان إذا لبسَ ثوباً أو عِمامة لا يخلعها حتىٰ تذوبَ ، فيبدلُوها له بغيرها .

وكان يُرخي لعمامته اللِّثامين بالغرزتين .

والعِمامةُ التي يلبسها الخليفة كلَّ سنة في المولد هي عِمامته بيده ، وأما البشتُ[١] الصوف الأحمر الذي يلبسه الخليفة مع العمامة فهو بشتُ سيدي عبد العال ، والقميصُ الذي تحت البشت هو قميص سيدي أحمد ، وهو من قطنٍ مفرَّج من وراء ومن قدَّام .

مات رضي الله عنه سنة خمسٍ وسبعين وست مئة .

وأما مناقبه ؛ من مجيئه بالأسرىٰ من بلاد الإفرنج وغيرها ، وحضوره عند مُريديه في الشدائد.. فكثيرةٌ مشهورة ، وقد ذكرنا جملة صالحة منها في « الطبقات الكبرىٰ »[٢] ، والله أعلم .

وقد بلغنا : أنَّ مشايخَ بلاد الغربية أتوا سيدي أحمدَ البدوي لمَّا قدِمَ طندتا ، ينظرون أحوالَهُ ، ويسألونه الدعاءَ ، فأتاه الشيخ عبد الحليم المدفون في ناحية كوم النجار ، وقال له : شيء لله ، فقال : إن الله تعالىٰ قد جعلَ في ذرِّيَّتِك الخيرَ والبركة .

ثم أتاه الشيخ عبد السلام القليبي رضي الله عنه فقال له : شيء لله ، فقال : قد جعلَ اللهُ تعالىٰ لك الشهرةَ بالولاية والصلاح إلىٰ يوم القيامة عند الأمراء والملوك وغيرِهم .

ثم جاءه سيدي عبد الله البِلتاجي فقال : شيء لله ، فقال : قد جعلَ الله تعالىٰ لك كلَّ يومٍ حاجةً تُقضىٰ إلىٰ يوم القيامة .

ثم جاءه جماعةٌ من مشايخ الغربية ، فقالوا : شيء لله ، فقال : عليكم الطمس والخفاء إلىٰ يوم القيامة ، فلم يشتهرْ لأحدٍ منهم اسم . انتهىٰ .

---

(١) **البشت** : كساء من صوف غليظ النسج لا كمين له ، يرتديه أهل الريف في الشتاء . « المعجم الوسيط » (١/ ٥٧) .

(٢) « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٧ ، ١٧) .

[سؤالُ ابن حجر وجوابه في سيدي أحمد البدوي]

وقد رأيتُ سؤالاً وجوابَهُ لشيخ الإسلام الحافظ الشيخ ؛ شهابِ الدين بن حجر في سيدي أحمد البدوي ، فأحببتُ ذكره هنا ؛ ليعتمد العلماءُ عليه ، فإن أصحابَ كتب الرقائق قد يحكون في مؤلفاتهم ما لم يصحَّ ، بخلاف المحدثين رضي الله عنهم ، فأقول وبالله التوفيق :

قدَّم بعضُ الفضَلاء سؤالاً صُورته : ما يقولُ سيدنا ومولانا شيخُ الإسلام الحافظُ أمير المؤمنين في الحديث نفعَ اللهُ به المسلمين في سيدي أحمد البدوي ؟

فقال رضي الله عنه : هو أبو الفتيان أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر القُرَشي الأصل ، الملثَّمُ ، ولد سنة ستٍّ وتسعين وخمس مئة ، وتوفي ثاني عشر ربيع الأول سنة خمسٍ وسبعين وست مئة .

وحج أبوه في سنة تسعٍ وست مئة ، وهو معه ، وأخوه حسنٌ ، وأمُّهم كلهم فاطمة بنتُ محمد بن أحمد ، وأقاموا بمكة المشرَّفة ، ومات بها أبوه سنة سبعٍ وعشرين وست مئة ، ودفن بباب المعلىٰ ، وقبرُه الآن ظاهرٌ يُزار .

وعرف بالبدوي ؛ لملازمته اللثام ، ولبس لثامين ، حتىٰ كان لا يفارقُهما ، وعُرض عليه التزويج ، فامتنع لإقباله على العبادة .

وكان قد حفظ القرآن كلَّهُ ، ثم قرأ شيئاً من الفقه علىٰ مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

واشتَهر بين الناس بالعطَّاب ؛ لكثرة عطبِهِ مَنْ يُؤذيه ، ثم لازمَ الصمتَ ، حتىٰ كان لا يتكلَّمُ إلا بالإشارة ، ثم اعتزلَ الناس جملةً لما ظهر عليه الوله ، ثم لما دخلَ المحرَّمُ سنة ثلاثٍ وثلاثين وست مئة ذكروا أنه رأىٰ في المنام قائلاً يقول له ويبشِّرُه : بأنه سيكونُ له شأنٌ عظيم ، وحالةٌ حسنة بمصر .

ثم إن أخاه حسنُ بن علي دخلَ العراق ، وأخذه معه .

ولازم سيدي أحمد الصيامَ ، حتىٰ كان لا يفطرُ إلا كل أربعين يوماً ، فكان يمكثُ الأربعين يوماً لا يأكلُ ، ولا يشرب ، ولا ينام .

وكان أكثر أحواله شاخصاً ببصره إلى السماء ، وعيناه كالجمرتين ، ثم رحل إلىٰ مصر سنة أربعٍ وثلاثين وست مئة ، فدخل إلىٰ ناحية طندتا من الغربية في أسفل مصر ، فأقام بها علىٰ سطحِ دارٍ لا يُفارقُهُ ليلاً ولا نهاراً .

وكان إذا عرض له الحال يصيحُ صياحاً عظيماً مُتَّصلاً ، وكان يُكثرُ من الصياح في غالبِ أوقاته .

وأما صفتُهُ رضي الله عنه : فكان طويلاً غليظَ الساقين ، عَبْلَ الذِّراعين[1] ، كبيرَ الوجه ، ولونه بين البياض والسمرة .

ويؤثر عنه كراماتٌ كثيرة ، وخوارقُ شهيرة ؛ من أشهرها :

قصةُ المرأة التي أَسَرَ ولدها الفرنجُ ، فلاذتْ به ، فأحضره إليها في قيوده .

ومرَّ به رجلٌ يحمل قربَة لبنٍ ، فأشار الشيخُ بإصبعه إلى القربة ، فانقدَّتْ ، فانسكبَ اللبنُ ، وخرجت منه حيَّةٌ عظيمة ميتةٌ ، قد انتفخت .

قال شيخُ الإسلام رضي الله عنه : ويؤثر عنه شعرٌ ؛ لـٰكنه مع كونه موزوناً غير معرب .

قال : وقد لازمَ جماعةٌ من أهل تلك البلاد خدمته رضي الله عنه ، وبنوا علىٰ قبره مقاماً ، واشتَهرت كراماته ، وكثرتِ النذورُ التي تُحمل إليه من البلاد ، وعظم أمرُهُ ، وأثنوا عليه ، وميَّزوه عن أشياخ عصره .

وقام بأتباعه صاحبُهُ الشيخ الصالحُ عبدُ العال ، فسمَّوه خليفة الشيخ أحمد ، وعُمِّر بعده طويلاً ، حتىٰ مات سنة ثلاثٍ وثلاثين وسبع مئة .

واشتَهر أتباعه بالسُّطوحية ، وحدث لهم بعد مدةٍ عملُ المولد الشريف النبوي عنده ، وصار يوماً مشهوداً يقصده الناس من النواحي البعيدة .

قال : وشهرةُ هـٰذا المولد في عصرنا تُغني عن وصفه ، وقد قام جماعةٌ من العلماء ومن تدين من الأمراء في إبطاله ، فلم يتهيأْ لهم ذلك إلا في سنة إحدىٰ وخمسين

---

(١) عبل الذراعين : أي : ضَخْمُهما

وثمان مئة . انتهىٰ ما ذكره الحافظُ ابن حجر رضي الله عنه في جوابه .

قلت : وقد أُعيد بعد ذلك ، واستمرَّ إلىٰ عصرنا هـٰذا ، ولله الحمد .

ورأيت أيضاً بخطٍّ سبطِهِ الإمام العالم المحدِّث العدل الرضي ؛ أبي المحاسن يوسفَ ترجمةً لسيدي أحمد البدوي ، حين سُئل عنه ، فقال :

هو أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر البدويُّ ، المعروف بالسُّطوحي ، رضي الله عنه .

أصله من بني بري ؛ قبيلةٌ من عرب الشام ، تسلك علىٰ يد الشيخ بري ، أحد تلامذة الشيخ أبي نعيم ، أحدِ مشايخ العراق ، وأحدِ أصحاب سيدي أحمد بن الرفاعي .

ومولده : بفاس سنة ستٍّ وتسعين وخمس مئة ، وطاف البلاد ، وأقام بمكة والمدينة ، ثم بمصر ، ثم دخل طندتا سنة أربعٍ وعشرين وست مئة ، وأقام بها علىٰ سطحِ دارٍ حتىٰ تُوفي يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وست مئة .

وأخذ عنه الشيخُ المُعمَّرُ عبد العال كما سيأتي بيانه في ترجمته بعد إحدىٰ وستين شيخاً من هـٰذه « الطبقات »[1] ، وبيان جميع من بلغنا أنه من أصحابِ السطح ، وأتباعهم المفرَّقين في أقاليم الأرض ، فراجعه .

ومما بلغني من جماعةٍ من أهل بيروت قالوا : أَسَرَنا الفرنجُ ، وكنا اثني عشر رجلاً ، فأقمنا في بلاد الفرنج ، يستخدمونا في الأعمال الشاقة ، حتىٰ كدنا نموت ، فألهمنا الحقُّ تعالىٰ يوماً أننا قلنا : يا سيدي أحمد يا بدوي ؛ إنَّ الناسَ يقولون : إنك تأتي بالأسرىٰ إلىٰ بلادهم ، وقد سألناك بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم أن تردَّنا إلىٰ بلادنا ، قالوا : ففي ذلك اليوم نزلنا مركباً ليس فيها أحد ، وقدمنا ، فلم يشعرْ بنا الإفرنجُ حتىٰ سرنا في البحر نحو ميلين ، فخرجوا وراءنا ، فلم يدركونا إلىٰ أن وصلنا إلىٰ بلادنا ببركة سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه . انتهىٰ .

ومما رأيته أنا بعيني سنة ثلاثٍ وأربعين وتسع مئة أني كنت جالساً في مقام سيدي

---

(١) سيأتي (٣/ ٣١٨) .

أحمد البدوي ، فسمعتُ ضجَّةً عظيمة في منارةِ سيدي عبد العال آخرَ الليل ، فطلعتُ فإذا أسيرٌ مقيَّدٌ مغلول ، وهو غائب البال ، فنزلوا به ، فمكثَ ثلاثة أيام ، ثم أفاق ، فقال : كنتُ أسيراً في بلاد الفرنج ، فبينا أنا واقفٌ علىٰ سطحٍ ؛ إذ توسَّلتُ بسيدي أحمد البدوي ، فأتاني شيءٌ ، فخطفني ، ثم طار بي في الهواء حتىٰ نزلتُ على المأذنة ، فطاش عقلي من شدَّة الخطفة والطيران ، ففككنا قيودَهُ ، وجاور في مقام سيدي أحمد البدوي حتىٰ ماتَ .

وحكىٰ شخصٌ آخرُ اسمُهُ الشيخُ سالم قال : كنتُ أسيراً في بلاد الفرنج ، فكان الفرنجيُّ يقول لي : إن سمعتُك تقولُ يا أحمد يا بدوي ضربتُك وعاقبتُك ، ثم خاف أنه يخطفني ، فصارَ ينوِّمني في صندوقٍ كبير ، ويقفله عليَّ بقفلٍ ، وينام فوقه ، فقلت : في نفسي ليلةً من الليالي : يا سيدي أحمد ؛ أنجدني ، فما استتمَّ القولُ إلا وقد جاءَ سيدي أحمد ، وحمل الصندوقَ بي وبالفرنجي ، فصرتُ أسمعَ دويّاً تحتي عظيماً ، فما أصبحَ الصباحُ إلا وأنا أسمع أصواتاً وكلاماً كثيراً ، ففتحوا الصندوق ، وأخرجوني ، فوجدتُ نفسي في ساحلِ القيروان ، والفرنجي واقفٌ ، والناس حوله ، فحكىٰ لهم قصةَ سيدي أحمد ، ثم أسلمَ الفرنجي ، وجاء إلىٰ مقام سيدي أحمد ، وزاره ، ثم سافر إلى القدس . انتهىٰ .

ومما رأيته أنا : أني كنتُ جالساً علىٰ سطح المقام وقتَ الزوال ، فرأيت هلالَ قبَّةِ سيدي أحمد يدور ويزعق كالحجر العظيم من حجارة المعصرة الذي ليس تحته حبٌّ ، فدار نحو ثلاث دورات ، ثم جاءَ الخبرُ بنصرةِ السُّلطان سليمان بن عثمان علىٰ أهل رودس في ذلك الوقت .

وكذلك ما يسمعنا تابوته يقرقع ويزعق إلا ويحدثُ في المملكة أمرٌ .

وأخبرني الخواجا حسن الحلبي قال : بينا أنا مسافرٌ بحمل قماشٍ إلى المولد ؛ إذا أنا بسبعة فرسان من العرب أحاطوا بي ، يأخذون ما معي ، فقلت في نفسي : يا سيدي أحمد ؛ أنا في دركك اليوم ، فلم يستتمَّ مني القولُ حتىٰ خرجَ عليهم فارسٌ علىٰ حصان أبيض ملثَّمٌ لا يُرىٰ منه إلا عيناه ، فطردهم حتىٰ غابوا عني ، فعرفتُ أنه سيدي أحمد .

وأخبرني شيخُنا الشيخُ محمد الشناوي قال : ضاعتْ حمارةُ أخي الشيخ محمد في

أيام المولد ، فأتىٰ إلىٰ قبرِ سيدي أحمد ، وقال له : والله ؛ لا أخرجُ حتىٰ تأتيَني بحمارتي ، فبينا هو جالسٌ في قبة سيدي أحمد وإذا بالحمارةِ واقفة بجنب التابوت ، فخرج بها الشيخ محمد فتعجَّب الناسُ من ذلك . انتهىٰ .

ومما وقع لي : أنني دخلتُ مع شيخي الشيخ محمد الشناوي رضي الله عنه لزيارة سيدي أحمد ، فشاوره الشيخُ علىٰ سفره للمدينة ليشتري رصاصاً للحمام الذي عمَّره بطندتا ، فقال له سيدي أحمد من القبر : سافر وتوكَّل على الله ، وسمعتُ لفظَهُ هٰذا بأذني .

وكراماته رضي الله عنه كثيرةٌ مشهورة ، رضي الله تعالىٰ عنه ، ونفعنا ببركته ، آمين .

ومنهم :

(٢٥٤) الشيخُ الصالح ، القطب الربَّاني
سيِّدي إبراهيم الدسوقي القرشي شيخُ الخرقة البرهانية رضي الله عنه[١]

كان صاحبَ العلوم اللَّدنية ، والمعارف الربَّانية ، والمحاضرات القدسية رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يتكلَّم باللِّسان الأعجمي ، وباللسان السرياني ، والعبراني ، والزنجي ، وسائر لغات الوحوش والطيور .

وكتب مرة إلىٰ بعض مُريديه بعد السلام : (وبعد ، فإني أحبُّ الولد ، وباطني خليٌّ من الحقد والحسد ، ولا بباطني شطا ولا حريق لظا ، ولا لوي لطا ، ولا جوي من مضىٰ ، ولا مضص غضا ، ولا نكص بضا ، ولا سقط نطا ، ولا نطب عطا ، ولا عطل خطا ، ولا شنب شوىٰ ، ولا سلب شبا ، ولا عتب غبا ، ولا عتت فجا ، ولا سمداد ولا سبدا حمدا ، ولا بدع رجحا ، ولا سطف حرا ، ولا حمس حس ، ولا عمس عس ، ولا خمس حنس ، ولا جوارِ كنس ، ولا عسعس كنس ، ولا عبر

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٥٥٨) (٢٩٠) .

عنس ولا حدس ، ولا حمل حندس ، ولا سمطا ويش ، ولا عيطا فش ، ولا هطا مرش ، ولا سطا روس ، ولا سوس أرس ، ولا ركاش قوش ، ولا سملاد نوش ، ولا كساد سمطلوله الروس ، ولا بوسع كموس ، ولا قنعاد أفاد ، ولا كمدا نكار ، ولا بهداد ، ولا شهداد ، وما لنا فعلٌ إن شاء الله تعالىٰ إلا في الخير والنوال) . انتهىٰ .

وكتب مرةً إلىٰ بعضِ مُريديه أيضاً : (سلامٌ على العرائس المحشورة ، في ظل وابل الرحمة .

وبعد : فإنَّ شجرةَ القلوب إذا هُزَّت فاحَ منها شذىً يغذي الروح ، فيستنشقُهُ من ليس عنده زكم ، فتبدو له أنوارٌ وعلوم مختلفة ، مانعة محجوبة ، معلومة لا معلومة ، معروفة لا معروفة ، غريبة عجيبةٌ ، سهلةٌ شطة ، فائقة طعمٍ ورائحة ، وشم ميم محل جليل محل جهد أب علوب ، لغط سوط ، هربط سهبط حرموط ، عميط علب عمر عسب غلب عرماد ، علمود علىٰ عرور علماس سرور ، قدقد فرضم صاع صع صيوب ينوب ، جهمل حماية جربوعس قنبود سماع ساع سرنوع ، ختلوف كراف كرورب كنوف ، شهدا شهبدنيك ، خلولف خبوف ، دمص ما من فدقد فهود ، سعىٰ طبوطا طائر ظالمك ؛ كهر حربيد فنلودماب كعلودات كبكل كلوب ، فافهم مبرم ، واقرم منعم ، واحبر سهدم ، سوس سيفوس كلابيد ، لا تهنو عن غيلا يسعدس مسح بومل ، ولا تنكو كع زند جدا هرام شكهرل ، وقد سطرنا لك يا ولدي تحفةً سنية ، ودرةً مُضيئة ، ربَّانية سريانية ، شمسية قمرية ، كواكب درية ، وأنجم خفية علوية ، وإنما يفصحُ المبهم المغلق المعرب المعلق ، الذي سرُّه مغطّىً بالرموز) . انتهىٰ .

وكتب إلىٰ بعض مُريديه أيضاً : (سلام إن هب الحلوب المغنق ، أو الصبا المعنق ، أو الضحى المرونق ، أو الشمس المتحفة ، أو الأصحبة المعترفة في الأبرجة ، المعونقة والمحيرة المخوننة ، والمسرة المحتوطفة ، واللطيفات المختطفة المسوخفة ، والأداغ والأرياح المفولجة المسودجة ، والسهار والأنهار المشوطح ، والصعر المزرورق المفتوح ، والمعنوع والسنبابوا ، والسرياموا والشوشايد ، والسربو ساشع ، والبر قوشائد ، فتفهَّم يا ولدي ما قلتُهُ لك ؛ فإن الكلام المعرب لا يُشاكله

المعرب ، وما ليس من لغةِ العرب لا يَفهمُهُ إلا من له قلب ، أو من فهَّمَهُ الربُّ ، ولا إنكار على علماء الحقيقة ، وهم يتكلَّمون بكلِّ لسانٍ ، ولهَم لسان عجام) .
انتهىٰ .

وكتب سلاماً إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسله مع الحُجَّاج : (وبعد : فالسلامُ علىٰ أمير المحيا ، جميلِ المعنىٰ ، سخي المراشف ، أرخى المعاطف ، كريم الخلق ، سني الصدق ، عرفوط الوقت ، وردساني الفهم ، نافث الرحب ، محبول الرحب ، مطان النعل ، فيدوح النماطة ، بيدوح النياطة ، سرسامعي الرحب ، نهرباني الوعب ، نهب شاني الحداقة ، سهيري الساقة ، أمور الرموز ، عموز النهور لسلاحايب ، أفق فردفانية ، أمق شوامق السوامق ، حيدر قرقند ، وقرنماط الأسباط ، وسبط البساط للانبساطات الكزقولية ، والعيد القيلولية ، إن جدول سدول ، وإن عردل خردل السد البسل سط المعود ، النماحة النباحة ، حلهوي نبا كلكوي سبا معطعات حميه ، ومحكمات حكيم بدائع لوامع ، إن شدت أنشدت عنبقيات رسمانية ماتوئية نامهتية بابلية ، أرس أرسون ، كمين كنبوت ، تاتون ميم وحميم ، ونقطة عين تنعم اريح هدم سح هج زهير زغبوب ، فيداق فتدف عرائس مجليات شعشعانية علىٰ فطط النبط لا النمط ، والتعب لا الشطط ، ملاق العندم ، خلاق الزندم ، دابقي الهندم ، إن خطا وطا ، وإن تعاطا عاطا في الاستبرق ، يسمعُ غبن السك ، وعسى السك من أرياح فوائده ، وأرواح قلائده ، ليس من لفظِ قسِّ الإيادي ، ولا له بها أيادي ، بهدابانية البها ، سهبانية الربا ، قد فشنفلت بالنباهة أبيا ، وتعطرفت بالساهة عبيا ، طرامعاً عجباً عرائفها حسا ، إن تمادا تمدا ، وإن بعدا عدد لفظه تارق ، ولحظه خارق ، إن أنَّ ينشرُ فرد قرنيه ، قد اغتدت بالرشطاط من فروزيات وحرز رموزات ، كردم المرشاه ولا أشباه ، ألم بك ولا ربك ولا درك) انتهىٰ .

وقد ترجمه بعضُهم بأنه : أحدُ الأئمة الذين أبرزَ اللهُ لهم المغيَّبات ، وخرقَ لهم العادات ، وأوقع لهم الهيبةَ في القلوب ، وانعقد علىٰ فضله إجماعُ المشايخ ، وكان مقصوداً بحلِّ المشكلات ، وكشف خفيَّات الموارد ، رضي الله عنه .

وترجمه بعضهم أيضاً بأنه : الشيخُ الكامل الراسخ ، أحدُ أعيان المشايخ

الواصلين ، وصاحبُ الكرامات والخوارق في حياته وبعد مماته .

انتهتْ إليه رئاسة الكلام علىٰ خواطر الخلق ، وتلمذَ له خلائقُ من العلماء والصلحاء والقضاة ، وكان له أربعون خادماً من أرباب الأحوال .

وجاءه مرةً سبعةٌ من القضاة يمتحنونه ، فلما وصلتْ مركبُهم إلى البرِّ بناحية دسوق أرسل النقيبَ لهم ، وقال له : ادفعهم خلف جبل قاف ، فوجدوا أنفسهم هناك ، فأقاموا سنةً يأكلون من حشيش الأرض ، حتىٰ تغيَّرتْ أجسادُهم ، وخَلَقَتْ ثيابهم ، ثم تذكَّروا ما وقعوا فيه ، فتابوا هناك ، فأرسل لهم النقيبَ ، فدفعهم ، فوجدوا أنفسهم علىٰ ساحلِ دسوق ، ومسحَ اللهُ تعالىٰ من قلوبهم تلك الأسئلة كلَّها ، واعترفوا بما كانوا جاؤوا لأجله ، فقال لهم الشيخ : قولوا ما عندكم من المسائل ، فضحكوا ، وقالوا : يكفينا ما جرىٰ لنا ، وأخذَ عليهم العهدَ ، وصاروا من جملة تلامذته حتىٰ ماتوا

وترجمه بعضُهم أيضاً بأنه : الشيخُ الكامل ، صاحبُ الانفهاقات العرفانية ، والعلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، من كان له المقامُ العالي في قلوب العلماء والملوك ، والمهابةُ في الصدور ، وقُصد للزيارة والتبرك من سائر الآفاق .

وأمرَ التمساحَ أن يلفظَ الصبيَّ الذي ابتلعه ، فخرج التمساحُ ولفظَهُ بحضرة الناس ، رضي الله عنه .

وترجمه بعضهم بأنه : الشيخُ الكامل الراسخ ، من أجلاء مشايخ مصر ، وسادات العارفين ، صاحبُ الكرامات الظاهرة ، والأفعال الفاخرة ، والأحوال الخارقة ، والمقامات السنية ، والهمم الفخيمةِ ، صاحبُ الفتح الموفَّق ، والكشف المخرق ، والتصدر في مواطن القدس(١) ، والترقِّي في معارج المعارف ، والتعالي في مراقي الحقائق .

كان له الباعُ الطويل في التصريف النافذ ، واليدُ البيضاء في أحكام الولاية ، والقدمُ الراسخ في درجات النهاية ، والطورُ السامي في الثبات والتمكين ، وهو أحدُ من ملك أسراره ، وقهر أحواله ، وغلب علىٰ أمره وهو أحدُ أركان الطريق . انتهىٰ .

---

(١) في (ز) : (مقامات) بدل (مواطن) .

وترجمه بعضُهم بأنه : صاحبُ المحاضرات القدسية ، والمعراجِ الأعلىٰ في المعارف ، والمنهاجِ الأسنىٰ في الحقائق ، والطورِ الأرفع في المعالي ، والقدمِ الراسخ في أحوال النهايات ، واليد البيضاء في علم الموارد ، والباعِ الطويل في التصريف النافذ ، والكشفِ الخارق عن حقائق الآيات ، والفتحِ المضاعف في معنى المشاهدات ، وهو أحدُ من أظهره الله عز وجل إلى الوجودِ ، وأبرزَهُ رحمةً للخلق ، وأوقعَ له القبولَ التامَّ عند الخاصِّ والعام ، وصرَّفه في العالم ، ومكَّنه في أحكام الولاية ، وقلبَ له الأعيان ، وخرقَ له العادات ، وأنطقه بالمغيبات ، وأظهرَ علىٰ يديه العجائب ، وصومه في المهد .

وكان يقول : (أشهدني اللهُ تعالىٰ ما في العلا وأنا ابنُ سبع سنين ، ونظرتُ في اللوح المحفوظ وأنا ابنُ تسع سنين ، وقلبت السماوات[1] وأنا ابنُ إحدىٰ [عشرة] سنة)[2] ، وذكَرَ أشياء كثيرة رضي الله عنه .

وله كلامٌ كثيرٌ عالٍ علىٰ لسان أهل الحقائق .

فمن كلامه رضي الله عنه : (من لم يكنْ مُجتهداً في بدايته ، لا يفلح له مريدٌ في نهايته ؛ فإنه إنْ نامَ نام مريدُهُ ، وإن غفلَ غفل مريده ، وإن رغبَ في الدنيا رغب فيها مريده ، وهـٰكذا في سائر الأخلاق ، وبالعكس) .

وكان يقول : (من أمرَ الناس بالعبادة وهو بطَّال ، أو توبهم عن الباطل وهو يفعله ضحكوا عليه ، ولم يسمعوا منه) .

وقالوا له مرةً : انصحنا وأدِّبنا ، فأنشد :

لا تعذلينَ الحرائرَ حتىٰ تكوني مثلَهنَّ يقبحُ علىٰ معلولةٍ تَصِفُ دوا للناسِ

وكان يقول : (يجبُ على المريد ألا يتكلَّم قطُّ إلا بدستور شيخه إن كان جسمه حاضراً ، وإن كان غائباً استأذنَهُ بالقلب ؛ وذلك حتىٰ يترقَّىٰ إلى الوصول إلىٰ هـٰذا المقام في حقِّ ربِّه عز وجل ؛ فإن الشيخَ إذا أراد به هـٰكذا رقَّاه إلى الأدبِ مع الله ،

---

(١) في (أ) : (فككت) بدل (قلبت) ، وفي (هـ ، و ، ي) : (نلت) .

(٢) في النسخ : (عشر) بدل (عشرة) .

وربّاه بلطيفِ الشراب ، وأسقاه من ماءِ التربية ، فيا سعادة من أحسنَ الأدب مع مربِّيه) .

وكان يقول : (من عاملَ اللهَ بالسرائر جعله على الأسرَّة والحظائر) .

وكان يقول : لا تكليفَ على من غابَ بقلبه في حضرة ربّه ما دام فيها ، فإذا خرجَ من تلك الحضرة ورُدَّ إليه عقلُهُ .. وجبَ عليه ما على المكلَّفين ، وهـٰذا حالُ المبتدئين ، وأما الأقوياء فالتكليفُ لهم دائمٌ لقوَّتهم ، فلا يفوتهم فرضٌ ولا سُنة ، بخلاف المبتدئين يجبُ عليهم قضاءُ ما فاتهم مدَّةَ غيبتهم ؛ ولذلك لما قيل للجنيد : إنَّ الشبليَّ يغيبُ عن حسِّهِ ، فقال : هل يُردُّ له عقلُه أوقاتَ الصلاة ؟ فقالوا له : نعم ، فقال الجنيد : الحمد لله الذي لم يُجرِ عليه لسان ذنب .

وكان يقول : (من لم يكنْ متشرِّعاً متحقِّقاً نظيفاً عفيفاً فليس هو من أولادي ، ولو كان ابني لصُلبي ، ومن كان مُلازماً للشريعة والحقيقة ، عاملاً بما علم .. فهو ولدي حقًّا ، وإن كان من أقصى البلاد) .

وكان يقول : (ما كلُّ من خدمَ يعرفُ آدابَ الخدمة ؛ ولذلك كثرتْ ردَّةُ المُريدين عن الطريق) .

وكان يقول : (يا أولادي ؛ بالله عليكم ، كونوا خائفين من الله عز وجل ؛ فإنكم غنمُ السكين ، وكباشُ الفنا ، وخرافُ العلف ، وتنورُ شوائكم قد وهج) .

وكان يقول : (لا يكملُ الفقير حتى يكونَ محباً لجميع المسلمين ، مُشفقاً عليهم ، ساتراً لعوراتهم ، فإنِ ادَّعى الفقرَ وهو بضدِّ ذلك فهو غيرُ صادق) .

وكان يقول : (لا تُنكروا على فقيرٍ حاله ، ولا لباسه ، ولا طعامه ، ولا شرابه ، إلا إنْ خالف ظاهرَ الشرع ؛ فإن الإنكارَ يُورث الوحشةَ ، والوحشةَ تورثُ الانقطاع عن طريق الله عز وجل ؛ فإن الناسَ خاصٌّ ، وخاصُّ الخاص ، ومبتدئ ومنتهي ، ومتشبِّه ومتحقِّق ، ويرحم الله البعضَ بالبعض ، والقويُّ لا يقدرُ يمشي معه الضعيف) .

وكان يقول : (إذا ضحك الفقيرُ في وجه أحدِكم فاحذروه ، ولا تخالطوه إلا بالأدب) .

وكان يقول : (الشريعةُ أصلٌ ، والحقيقةُ فرعٌ ؛ فالشريعةُ ما ظهر من الشرع ، والحقيقةُ ما خفي منه ، وجميعُ المقامات مندرجةٌ فيهما ، ولكلٍّ منهما أهلٌ ، والكاملُ من جمع بينهما) .

وكان يقول : (لا يجبُ على المريد من العلمِ إلا بقدر ما يعرفُ أن يعملَ به ، ثم يشتغلُ بالفحص عن أخلاق الصالحين ويعملُ بها) .

وكان يقول : (منهم رجلٌ ، ونصفُ رجل ، وربع رجل ، وكاملٌ ، وبالغ ، ومدركٌ ، وواصل) .

وكان يقول : (كلُّ من وقف مع مقامٍ حُجب عن الله عز وجل) .

وكان يقول : (احذرْ يا ولدي أن تدَّعي أن لك معاملةً خالصةً مع الله ، واعلمْ أنك إن صمتَ فهو الذي صوَّمَكَ ، وإن قمتَ فهو الذي قومك ، وإن اتَّقيتَ فهو الذي وقاك ، وليس لك في الوسط شيءٌ ، وإنما الشأنُ : أن ترىٰ أنك عبدٌ عاص ليس لك حسنةٌ ، وهو صحيح ، من أين لك حسنةٌ وهو الذي أحسنَ إليك ؟! وإنْ شاء قبلَكَ ، وإن شاء ردَّك) .

وكان يقول : (ولدُ القلبِ خيرٌ من ولد الصلب ؛ فإن ولد الصلب له إرثُ الظاهر ، وولد القلبُ له إرثُ السرائر) .

وكان يقول : (آه آه آه من مريدي هـٰذا الزمان ! وكثرةِ التفاتهم إلى الحظوظ النفسانية ، وحفظِ كلام الصوفية من غير تخلُّقٍ به ، فكلُّ من سمعَهم ظنَّ أنهم من القوم) .

وكان يقول : (ما ثَمَّ عارفٌ ينطق عن غيره ، وإنما يضيفُ الكلامَ إلىٰ غيره تستيراً علىٰ نفسه من عوارض الشهرة ، أو تنفيساً لما يجدُهُ في نفسه من ألم الكتمان) .

وكان يقول : (جميعُ المعبِّرين والمفسرين والمتكلمين في القرآن العظيم لم يصلوا إلىٰ معشارِ عُشر معرفة كُنْهِ إدراك معنىٰ حرفٍ واحدٍ من حروفه ، ولا يصلُ الرجلُ إلىٰ مقامِ الكمال حتىٰ يصيرَ يقدرُ علىٰ تخريج أحكام الشريعة المطهَّرة من أيِّ حرفٍ جاء من حروف الهجاء) .

وكان يقول : (أولُ الطريق : الخروجُ عن النفسِ والحظِّ ، والرضا بالتلف والضيق ؛ فإن الفلاح لا يصحُّ إلا لمن تركَ الحظَّ ، وقابل الأذىٰ بالاحتمال ، والشرَّ بالخير ، ووسَّع خُلُقَهُ) .

وكان يقول : (الفقيرُ لا يكون له يدٌ ولا لسانٌ ، ولا فعل رديء ، ولا يصرفُهُ عن محبوبه صارفٌ ، ولا تردُّهُ السيوفُ والمتالف) .

وكان يقول : (أكلُ الحرام يوقفُ العمل ، ويوهن الدِّين ، ويُفسد على العامل عملَهُ ، وكذلك القول الحرام يفسد على العامل عمله) .

وكان يقول : (معاشرةُ أهلِ الأدناس تُورثُ الظلمةَ في البصر والبصيرة) .

وكان يقول : (من دخل حضرةَ الله نظر الدنيا والآخرة) .

وكان يقول : (إياكم ومؤاخاةَ النساء والأحداث ؛ فإن ذلك نفوسٌ وشهوات ، ومن أحدثَ في طريق القوم ما ليسَ فيها فليسَ هو منا ولا فينا) .

وكان يقول : (إن اللهَ يحبُّ من عباده أطهرَهم لساناً ، وفرجاً ، ويداً ، وقلباً ، وبصراً ، وسمعاً ، وأكثرهم ذكراً ، وأوسعهم صدراً) .

وكان يقول : (عليك بالعمل بالشريعة ، وإياك وشقشقةَ اللسان بالكلام في الطريق دون التخلُّقِ بأخلاق أهلها ، وانظر إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو أستاذُ كلِّ سالكٍ إلى الله : كيف كان يجوعُ حتىٰ يشدَّ الحَجَرَ علىٰ بطنه[١] ، وقام في الليل حتىٰ تورَّمتْ قدماه[٢] ، وتبعه أصحابُهُ علىٰ ذلك : فقاموا ، وجاعوا ، وجاهدوا نفوسهم ، وخافوا من الله أشدَّ الخوف ، حتىٰ كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا

---

(١) روى البخاري في « صحيحه » (٤١٠١) عن سيدنا جابر رضي الله عنه قال : (إنا يوم الخندق نحفِر ، فعرضت كُدْيةٌ شديدة ، فجاؤوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : هـٰذه كُدْية عرضت في الخندق ، فقال : « أنا نازلٌ » ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نَذُوق ذَوَاقاً . . .) الحديث .

(٢) روى البخاري (٣٤٧١) ، ومسلم (٢٨١٩) عن سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، قام النبي صلى الله عليه وسلم حتىٰ تورَّمت قدماه ، فقيل له : غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

تنهَّدَ يشمُّ من حلقِه رائحةُ الكبد المشويِّ ، وأنفق مالَهُ في سبيل الله .

وكان عمر بنُ الخطاب رضي الله عنه لا يُرىٰ فارغاً قطُّ في ليلٍ أو نهار ، ورقع دلقَهُ بالجلود[١] ، ولفَّ رأسَهُ بقطعة خيش .

وكان عثمان رضي الله عنه يختمُ القرآنَ في ركعةٍ في الليل .

وكان عليٌّ رضي الله عنه من زهَّاد الصحابة ، وجاهد في دين الله في حياةِ رسول الله وبعد موته حتىٰ فتح أكثرَ البلاد ؛ فهٰؤلاء هم خواصُّ الصحابة ، لم يكتفوا بالإيمان والعلم من غيرِ عملٍ ؛ بل جاعوا وأنفقوا أموالهم ، وجاهدوا واجتهدوا ، وأحكموا الشريعةَ والحقيقة ؛ فمن أراد أن يكونَ إماماً يُقتدىٰ به فليُحَكِّمِ الشريعةَ والحقيقة ؛ فإنه ما سُمِّيت حقيقةً إلا لكونها تُحقِّق العلوم بالأعمال وتنتج الحقائق من بحر الشريعة) .

وكان يقول : (ما دام لسانُكم يذوقُ الحرام فلا تطمعوا أن تذوقوا شيئاً من الحِكَم والمعارف) .

وكان يقول : (للباصر في العين بصرٌ ، وللقلب لسانٌ يَدِقُّ عن الإدراك) .

وكان يقول : (أحببْ ربَّك يحبَّك أهلُ الأرض والسماء ، وأطعْه يطع لك الجنُّ والإنس ، ويجفِّفْ لك البحر والماء ، ويطع لك الهواء) .

وكان يقول : (يا ولدي ؛ عليك بالتخلق بأخلاق الأولياء لتنال السعادةَ ، وأما إذا قنعت بورقةِ الإجازة ، وصرت تقولُ لكلِّ من نازعك : هٰذه إجازتي بالمشيخة دون التخلُّق . . فأنت لا شيء ، وأنت غارقٌ في حظِّ نفسك ، لٰكنِ اقرأ الإجازة ، وانظر ما أوصاك فيها أهلُ الطريق ، واعمل به ، وهناك تحصلُ على الفائدة ؛ فإن هٰذه هي طريقُ مدارج الأولياء قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل إلىٰ آخر الدنيا) .

وكان يقول : (مطالعةُ المريد لحكايات الصالحين جندٌ من جنود الله عز وجل ما لم يقنعْ بحفظِ حكاياتهم دون التخلُّق بأخلاقهم) .

وكان يقول : (الطريقُ كلُّها ترجعُ إلىٰ كلمتين : أن يعرفَ العبدُ ربَّهُ ، ويعبدَهُ ؛ فمن فعلَ ذلك فقد أدركَ الشريعة والحقيقة ، وليس في هٰذا تعطيل العلماء ؛ لأن العلم

---

(١) **الدلق** : للفقير كالمرقعة ، وكان اللباسَ الذي يرتديه العلماء والقضاة والصوفية في مصر .

أسُّ العمل ؛ إذ الشريعةُ هي الشجرة ، والشريعة هي الثمرة) .

وكان يقول (الطريقُ إلى الله تعالىٰ تُفني الجلاد ، وتذيبُ الأكباد ، وتُضني الأجساد ، وتدفع السهاد ، وتسقم القلب ، فإذا رُفع له الحجاب فهناك يتنعَّمُ بسماع الخطاب ، ويقرأ الرموز من اللوح المحفوظ ، ويطَّلعُ علىٰ معانٍ دقَّتْ ونُشرت ، بأوانٍ رقَّتْ ، ويكون مع قلبه ، ثم يكون مع مُقلبه ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال : ٢٤]، فإذا جاوز الكلَّ طال لسانه بلا لسان ، وزاد اجتهادُهُ في العمل ، ودام فضلُ الله عليه)

وكان يقول : (إذا كمل العارفُ في مقام العرفان أورثَهُ اللهُ علماً بلا واسطة ؛ لكن من باطن شريعة محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؛ إذ لا يتعدَّىٰ تابعُ دائرةِ علمَ متبوعِهِ أبداً) .

وكان يقول : (من كملَ سلوكُهُ أخذَ العلوم المكنونة في ألواح المعاني ، ففهم رموزَها ، وعرف كنوزها ، وفكَّ طلِّسْماتها ، وأطلعه اللهُ على العلوم المودعة في النقط والشكل ، وعلىٰ ما هو مكتوبٌ علىٰ أوراق الأشجار والماء والهواء ، والبر والبحر ، وما هو مكتوبٌ في صفحة قبَّةِ السماء ، وما في جباه الإنس والجنِّ مما يقع له دنيا وأُخرىٰ ، وأطلعه علىٰ ما هو مكتوبٌ بلا كتابةٍ من جميع ما هو فوق الفوق وتحت التحت ، ولولا خوفُ الإنكار علينا لنطقنا بما يُبهرُ العقول ، ولا عجبَ من حكيمٍ يتلقَّىٰ علماً من حكيمٍ عليم ؛ فإن بعضَ مواهب السرِّ اللدني قد ظهرَ في قصة موسىٰ مع الخَضِرِ عليهما السلام) .

وكان يقول : (مِنْ أولياء الله عز وجل من لا يدري الخطابَ ولا الجواب ، فهو كالحجارة مودعة أسراراً ناطقة بلسان حال ، صامتة عن الكلام ، مودعة من غوامض الأسرار ؛ فمنهم عارفٌ ، ومنهم محبٌّ ، ومنهم ناطقٌ وصامت ، ومُستغرق وصاح ، وصائم مفطر ، وصائمٌ صائم ، وقائم دائم ، ونائم واصل ، وواصلٌ سهران ، وواقفٌ ذاهل ، وداهشٌ حيران ، وباكٍ وضاحك ، ومقبوضٌ وخائف ، ومختلط ومختبطٌ ، ومنهم من مزَّق الثياب حين تحقَّق ، وغلب عليه الحالُ القوي ، فضعف عن حمله)

وكان يقول : (يا أولادي ؛ طوبىٰ لمن وصلَ إلىٰ حالةٍ تُقرِّبُهُ إلى الله تعالىٰ ، ثم وقفَ يدعو الناس إليها بإذن الله) .

وكان يقول : (رأسُ مال المريد : المحبةُ والتسليمُ للأولياء ، والسكون تحت مرادهم ؛ وذلك ليسلمَ من القطع والانتكاس ؛ فإن عوارضَ الطريق كثيرة) .

وكان يقول : (يا أولادي ؛ إذا لم يُحسنْ أحدُكم أن يتبعَ القومَ علىٰ مجاهداتهم فلا يقع في أحوالهم ؛ فإن الفقراء كانوا يتكلَّمون بلسانِ التمزيق ، وبلسان التحقيق بحسب الحضرات التي يدخلونها ، وأنت يا ولدي لم تذقْ حالَهم ، ولا تمزَّقْتَ ، ولا دخلتَ حضراتهم ، فمن أين لك أن تقولَ إنهم على الضلال ؟! أفتعومُ يا ولدي البحرَ وأنت لستَ بعوَّام ؟! ثم إذا غرقتَ فقد متَّ ميتةً جاهلية ؛ لأنك ألقيتَ نفسَك للمهالك ، والحقُّ قد حرَّمَ عليك ذلك ، بلِ الواجبُ عليك يا ولدي أن تطلبَ دعاءَ القوم ، وتلتمسَ بركاتِهم ما لم تقدرْ على اتِّباعهم ، فإنِ اتبعتَهم سعدْتَ بهم ، وتركتَ الإنكار عليهم .

واعلم يا ولدي : أنَّ ألسنَ القوم إذا دخلوا الحضرات : منها : ما هو أعجميٌّ فلا يُفهم ، ومنها : ما هو عربيٌّ فيفهم ، وكذلك من أحوالهم ما يُعبَّر عنه ، ومنها : ما لا يُعبَّرُ عنه ، وكذلك من أسرارِهم ما لا يصلُ إلىٰ فهمه مُؤوِّلٌ ولا مُعبِّر ولا مفسِّر ؛ لأن أسرارهم مكنونُ سرِّ الله ، وقد عجز القومُ عن معرفة أسرار الله تعالىٰ في نفوسهم ، فكيف بأسراره في غيرهم ؟! فعليك يا ولدي بحسن الظنِّ بالقوم ؛ فإني لك ناصحٌ ، فإن من رمىٰ أحبابَ الله تعالىٰ بالبهتان والزُّور أبغضَه اللهُ تعالىٰ ، ومقته في الدنيا والآخرة) .

وكان يقول : (من أرادَ أن يُكشف له عن الأنوار ، ويُسقىٰ من دنِّ الدُّنوِّ وخمار الخمار ، ويطلعَ من قلبه شموسُ المعاني والأقمار . . فليقمْ لعبادة ربِّه في الأسحار ، ويلازمِ الاستغفارَ) .

وكان يقول : (كم من شخصٍ يتلو الاسمَ الأعظم ولا يدريه ، ولا يفهم معناه ، وما لمس الأولياءُ الشجرةَ فأثمرت إلا به ، وما سالَ الماءُ من صخرةٍ إلا به ،

وما سُخِّرَتِ الوحوش لوليٍّ إلا به ، وما نزلَ المطرُ بدعاء وليٍّ إلا به ، وما أُحْيي الموتىٰ إلا به) .

وكان يقول : (لا يكملُ الرجلُ في مقام العرفان حتىٰ يفرَّ من قلبه وسرِّه ، وعمله ، ووهمه وفكره ، وعن كلِّ ما يخطرُ بباله غير ربِّهِ ، فآه آه لو كُشف الحجابُ عن الأثواب ! وأبصرَ الأعمى الحرفَ الذي ليس بحرف ولا ظرف ، وفكَّ المُعَمَّىٰ ، وفتح الأقفال ، فوا شوقاه لصاحب تلك الحضرات !) .

وكان يقول : (من نظرَ إلىٰ أقواله وأفعاله بعينِ العُجْب فهو محجوبٌ عن مقام التوحيد، ولا يُزفُّ الوليُّ إلىٰ ربِّهِ حتىٰ يتركَ الوقوف مع كلِّ ما سواه من مقامٍ أو حال) .

وكان يقول : (إن أردتَ أن تجتمعَ بقلبك علىٰ ربِّك فطهِّر باطنَك من الصفات الردية ، وأخلصْ لله النية) .

وكان يقول : (إياك يا ولدي أن ترجعَ إلى العملِ بالرُّخَصِ بعد عملك بالعزائم ؛ فإن ذلك من وساوس إبليس ، فينقلك من رُخَصِ الشريعة إلىٰ فعل معاصيها ، ثم يقول لك : هـٰذا مقدَّرٌ عليك قبل أن تُخلق ، وأيشٍ كنتَ أنت ؟! فلا يزال بك حتىٰ يُدخلَكَ النار) .

وكان يقول : (إياك يا ولدي أن تقنعَ بورقةِ الإجازة ، فربما غُيِّرتْ وبُدِّلت بعد ذلك ، ومن شرطِ المُجاز : أن يكونَ أبعدَ الناس عن الآثام ، كثيرَ الصيام والقيام ، مواظباً علىٰ ذكرِ الله على الدوام ، فليستِ الإجازةُ الحقيقية إلا لمن يزدادُ إقبالاً علىٰ ربِّه كلَّ نَفَسٍ من الأنفاس حتىٰ يموت) .

وكان يقول : (إياك أن تدَّعي المشيخةَ ، ثم تعصي ربَّك بعد ذلك ؛ فإنَّ الله تعالىٰ يقول لك : أفٍّ عليك ، أما تستحي ؟! أين دعواك القرب مني ؟! أين غسلُكَ أثوابك المدنسة لمجالستي ؟! كم ترعَىٰ في بطنك من الحرام ! كم تنقل أقدامك إلى الآثام ! كم تنامُ وأحبابي قد صفوا الأقدام ! أنت مدَّعٍ كذَّاب ، والسلام) .

وكان يقول : (اللهُ تعالىٰ خصمُ كلِّ من شَهَرَ نفسَهُ بطريقنا ، ولم يقمْ بواجب حقِّها ، واستهزأ بعهودنا) .

وكان يقول : (من خانَ لا كان ، ومن لم يتَّعظْ بكلامنا فلا يمش في ركابنا ، ولا يلمَّ بنا) .

وكان يقول : (لا أحبُ من أولادي إلا من كان شاطراً مليحَ الشمائل ؛ وذلك حتىٰ يترقَّىٰ إلىٰ مقامٍ يصلحُ لوضع السرِّ فيه .

فيا أولادي ؛ ناشدتُكم الله ، لا تسوءوا طريقي ، ولا تلعبوا في تحقيقي ، ولا تدلِّسوا ولا تلبِّسوا ، وكما اجتبيناكم واخترناكم ، فلا تكدِّروا علينا ، ولا ترموا بطريقتنا وتكتفوا فيها بالكلام ، وكما وفَّينا لكم بحقِّ التربية والنصح ، فوفُّوا لنا بالسماعِ وقبول النصح ، وإنما آمُرُكم بما أَمَرَكم به ربُّكم ، فإن نقضتم العهدَ فإنما هو عهدُ الله ، لا عهدي ، وإن كنتم صحبتمونا لتأخذوا منَّا أوراقاً من غير عملٍ فلا حاجةَ لنا بكم) .

وكان يقول : (بالله عليكم يا أولادي اسمعوا مني ما ينفعُكم ؛ فإني بايعتُ الله تعالىٰ علىٰ أني لا أطلبُ أموالَكم ، ولا آخذ تُراثَكم ، ولا أدنِّسُ خرقتي بما في أيديكم ، فعلىٰ أموالِكم الأمانُ مني ، ومن جماعتي الذين خلصوا معي) .

وكان يقول : (يا ولدي ؛ إياك أن تقولَ أنا فعلتُ ، أنا ولَّيت أنا عزلتُ ؛ فإن الله تعالىٰ يُعجز كلَّ مدعٍ ، ولو كان علىٰ عبادة الثقلين هبط ، أو صاحب منزلة سقط) .

وكان يقول : (والله يا أولادي ؛ لو وجدنا إلى الخلوةِ سبيلاً ، أو وجدنا من يُساعدنا على الانقطاع عنهم في بيوتنا لفعلنا ؛ فإن القلبَ في هٰذا الزمان متعوب ، والكبدَ كلَّ وقت يذوب ، فكيف الملجأُ والمفرُّ من أهل هٰذا الزمان ؟! زمانٌ قد كثر فيه القال بلا حال ؛ لٰكن من بلانا بأهله يدبِّرنا معهم) .

وكان يقول : (من ابتلاه اللهُ فليصبرْ ؛ فإن الحقَّ تعالىٰ ما ابتلاه إلا وهو يُريد أن يرقِّيه أو يطردَهُ) .

وكان يقول : (ما عصىٰ عبدٌ ربَّهُ ومرَّ على الهوام الضعيفة إلا وتمنَّتْ : أنَّ الله يُعطيها قوةً لتبطش به ؛ غيرةً علىٰ جناب الحقِّ ، ولا يمرُّ علىٰ طيرٍ أو وحش إلا ويستعيذون بالله من رؤيته ، ولا يَرِدُ ماءً إلا ويودُّ الماءُ أن لو كان مرّاً ، ويكرهُهُ كلُّ مَنْ في الوجود تبعاً لله عز وجل) .

وكان يقول : (من كظمَ غيظَهُ ، وعفا عمن ظلمه وآذاه.. رقَّاه اللهُ إلىٰ مراقي الرجال) .

وكان يقول : (إذا صدق العبدُ في الإقبال على الله أحبَّهُ المؤمنون ، فلا يُبغضُه إلا كافرٌ أو منافق) .

وكان يقول : (ما قطع مريدٌ وردَهُ إلا قطع اللهُ عنه إمدادَهُ في ذلك اليوم ؛ فإن مَدَدَ كلِّ شيخٍ يأتي مريده من قراءته أو فعله) .

وكان يقول : (من ادَّعى الطريقَ ، وخالف قواعدها وآدابها رفضتْهُ الطريقُ كرهاً عليه ، كيف يدَّعي فقيرٌ الطريق ، وهو لا يغضُّ بصرَهُ ، ولا يطهِّرُ فرجَهُ ولا لسانه من الآثام ؟!)

وكان يقول يا حامل القرآن : (لا تفرحْ به حتىٰ تنظرَ هل عملتَ به أم لا ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ﴾ [الجمعة : ٥]) .

وكان يقول : (واللهِ العظيم ؛ قد حيَّرني أمرُ أولادي ، كم غرورٍ ! كم لهوٍ ! كم زهوٍ ! كم لعبٍ ! كم غيٍّ ! كم هوىً ! كم افتراءٍ ! كم نكدٍ ! كم غدرٍ ! كم لهوٍ ! كم سهوٍ ! كم نسيانٍ ! كم غفلةٍ ! كم زلَّةٍ ! كم إجرامٍ ! كم زورٍ ! كم فتورٍ ! كم أَعِظُكُم ولا تسمعون ! ما أنتم إلا أمواتٌ) .

وكان يقول : (لو انفتحَ أقفالُ القلوب لاطَّلعتم علىٰ ما في القرآن من العجائب والعلوم ، واستغنيتم عن النظر فيما سواه ؛ فإن فيه جميعَ ما سُطِرَ في كتب العلماء ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ ﴾ [الأنعام : ٣٨]) .

وكان يقول : (لا تَقنعوا من الطريق بالوصف دون الذوق ، وما تكلَّمَ القومُ إلا علىٰ شيءٍ ذاقوه ، فبالله عليكم يا إخواني ويا أولادي إذا سألَكُم أحدٌ عن شيءٍ من مقامات الطريق فلا تُجيبوه إلا إن كنتم متحقِّقين به ؛ فإنه يُنادىٰ يومَ القيامة على العصاة : هـٰذا الذي قنعَ بالقشور في دار الغرور) .

وكان يقول : (لا تُنكروا على الأشياخ لباسَهم الصوف الرقيق ؛ فإنهم وصلوا إلىٰ

مقاماتِ اللطافة ، وخرجوا عن الكثافة والرعونة ، حتىٰ إن بعضَهم من شدَّةِ لطافته صارَ لا يقدرُ علىٰ لبس القميص الرقيق ، وتعرىٰ ما عدا ساتر العورة ، وهـٰذا بخلافِ حال المريد في بداية أمره ، يلبسُ الخشنَ ، ويأكل الخشن ، ليؤدِّب نفسه ، وتخضعَ لمولاها ، فكلما رقَّ الحجاب ثقلت الثياب ، والسلام) .

وكان يقول : (يا ولدي ؛ إن أردتَ الطريقَ فالزمِ الصمتَ ، واتركِ الجدالَ ، واركبْ جواد الطريق ، واحتمِ حميةً قبل الشربة لتخلي للشربة موضعاً يصلح لها ، وقد قال بعضُ الحكماء : لا بد لمريد الشربة من منع الواصل ، ونزح الحاصل ؛ آه آه ما أحلىٰ هـٰذه الطريق ما أسناها ! ما أمرها ! ما أَقتَلَها ! ما أجلاها ! ما أصعبها ! ما أكبرها ! ما أكثر مصائدها ! ما أعجب واردها ! ما أعمق بحرها ! ما أكثر سباعها وعقاربها وحيَّاتها ! فبالله عليكم يا أولادي ؛ اجمعوا قلوبكم علىٰ أستاذكم يحميكم اللهُ من آفاتها) .

وكان يقول : (كيف يطلبُ أحدُكم ليلىٰ وهو ليلاً ونهاراً مع عذَّالها ولوَّامها ، والمنكرين علىٰ أهل حضرتها ، والمعترضين عليهم ، والخائضين في أعراضهم ، والخائنين لعهودهم ؟! إنما تبرز ليلىٰ لمن تهتَّكَ فيها ، ولم يقبلْ عذلَ عذَّالها ؛ فإن ليلىٰ لا تحبُّ من يكره أهلَ حضرتها ، أو يحبُّ سواها ، وإنما تحبُّ من كان بشرابها ثملان ، ولهان ذهلان غرقان نشوان هيمان ، حتىٰ لو اجتمع الثقلان علىٰ أن يلووا قلبَهُ عنها ، أو يحلُّوا عقدةَ عهدها معها ما استطاعوا ، فانظروا أحوالَكم يا أولادي) .

وكان يقول : (يا أولادي ؛ لا تُجالسوا أربابَ المحال ، وزخرف الأقوال ، ولقلقة اللسان ، وجالسوا المُقبلين علىٰ ربِّهم ، الذين أخذتْ منهم الطريقُ ، ودقَّقهم التمزيق ، وتفرَّقَ عنهم كلُّ صديق ، حتىٰ عادتْ أبدانُهم كالخلال ، وذابَ جسمُهم من تجرُّع المرارات والسموم ، فهو أنفعُ لكم) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ لقد فاز المعتقدون لأهل الطريق ، وخسر المستهزئون بهم ، فقد يقذفُ الله تعالىٰ في قلب وليِّه ما لا يطَّلعُ عليه أحدٌ من العلماء) .

وكان يقول : (من علامة الصادق من أولادي في محبَّة الطريق : أن يكونَ سائراً فيها ليلاً ونهاراً ، غدوّاً وإبكاراً ، لا مقيلَ له ولا هدوء ، جوادُهُ قد فرغَ من اللحم ،

وامتلأ من الشجاعة والعزم ، لا يفنِّدُ همَّتَه مفنِّدٌ ، ولا يهولُه مهلكٌ ، ولا تردُّهُ ضربات الصوارم ، ولا يفشله شيطانٌ غوي ، ولا ماردٌ جني ، كلٌّ من خاصمه في محبوبه عادَ مخصوماً ، لا يهدأُ ولا ينام ولا يصحىٰ ؛ بل الدهرُ عنده كلُّهُ سواء حتىٰ يدخلَ خيام ليلىٰ ، ويضعَ خدَّه علىٰ أطناب خيامها ، ويسمعَ خطابَها بالترحيب ، وهناك ينتعشُ ويطيب ، ويسمع القائل هناك يقول : استرحْ يا طولَ ما قطعتَ براريَ وقفاراً ، وجبالاً وبحاراً ، وظلاماً وناراً ، يا طول ما تعبتَ وتعنَّيتَ ، يا طول ما رجعَ غيرُك من الطريق وجئتَ ، فأكرمَ الله مثواك ، ولا خيَّبَ مسعاك ، أنت اليوم نزيلُنا وضيفُنا ، وضيافتُنا لا تنقضي) .

وكان يقول : (من شأن الصادق من أولادي : ألا يكونَ عنده حسدٌ ولا غيبة ، ولا بغيٌ ولا مخادعة ، ولا مكابرةٌ ولا مماراة ، ولا ممالقةٌ ولا مكاذبة ، ولا كبر ولا عُجْبٌ ولا افتخار ، ولا شطحٌ عن ظاهر الشريعة ، ولا تصدُّرٌ في مجلسٍ ، ولا جدال ولا انتقاص ، ولا سوء ظنٍّ بأحدٍ من أهل الطريق ، ولا بمن تزيَّقَ بالزيق) .

وكان يقول : (من كان صادقاً من أولادي فلا يلتفتْ إلىٰ مراعاة المخلوقين له في الحرمة والجاه ، والقيام والقعود ، والقبول والإعراض ، وليراعِ اللهَ وحدَهُ ؛ فإنه هو سيِّدُهُ ورازقُهُ ، ومحييه ومميتُهُ) .

وكان يقول لمريده : (ما دمتُ أنا أنا وأنت أنت فلا محبَّة ، إنما المحبةُ ممازجةُ الأرواح بالأجساد) .

وكان يقول : (ليس في القوم أحدٌ مبتدعٌ ، إنما هم متَّبعون لسيد الأمم ، ولما نزلَ قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ [النور : ٢٧] كان أحدُهم إذا وقفَ على البابِ يقول : نعم ، نعم ، نعم ، ثلاث مرات ، فإن أُذِنَ له دخل ، وإلا رجع من حيث أتىٰ) .

وكان يقول : (كان السلفُ الصالح يخافون من آفاتِ الاجتماع ؛ فلذلك آثروا العزلة ، إلا في أوقاتِ الجماعات ، ومجالس العلم التي لا رياءَ فيها ولا جدال ولا عجْب ، والسلامةُ من هـٰذه الأمور في زماننا هـٰذا قلَّ أن توجد ، فعليك بالوحدة يا ولدي ؛ فإنك من القرن السابع الذي أكثرُهم يجعلون الحقيقةَ مخالفةً للشريعة ،

وحقيقةَ المحبة بدعاً في الطريقة ، ويقولون : إن بابَ العطاء قد أُغلق ، حين رأوا بابَ العطاء قد أُغلقَ دونهم ، وما علموا أنَّ لله تعالىٰ عباداً أفاضَ عليهم من جوده ما لا عينٌ رأَت من العلوم والمعارف والأسرار) .

وكانوا إذا سألوه عن أحدٍ من القوم يقول : ماذا أقولُ في قومٍ يدَّعون أنهم طالبون الله تعالىٰ ، وقد قيل للجُنيد : إن قوماً يتواجدون ويتمايلون ، فقال : دعوهم مع الله يفرحون ؛ فإن هـٰؤلاء القومِ قد قطعتِ الطريقُ أكبادَهم ، ومزَّقَ التعبُ والنَّصَبُ فؤادهم ، وضاقوا ذرعاً ، فلا حرجَ عليهم إذا تنفَّسوا مداواةً لحالهم ، ولو أنك يا أخي ذقتَ مذاقهم لعذرتهم في صياحهم وشقِّ ثيابهم ، فالله يُلهم أولادي سلوكَ طريق الرشاد .

وكان يقول : (مَنْ جهلَ أخلاقَ القوم فهو في حرمان عظيمٍ) .

وكان يقول : (أسلمُ التفسير ما كان مروياً عن السلف الصالح ، وأنكرُهُ عند الناس ما فتحَ اللهُ به علىٰ قلب العبد في كلِّ عصرٍ ، ولولا محرِّكٌ يحرِّكُ قلوبنا لما نطقتْ إلا بما ورد عن السلف ، فإذا حرَّك قلوبَنا واردٌ استفتحنا بابَ ربِّنا ، واستأذناه ، وسألنا الفهم في كلامه ، فنتكلم في ذلك الوقت بقدرِ ما يفتحُ الله علىٰ قلوبنا ، فسلِّموا لنا تسلموا ؛ فإنا فخَّارةٌ فارغة ، والعلمُ علم الله لا علمنا) .

وكان يقول : (فيضُ الربوبية إذا فاض أغنىٰ عن الاجتهاد ، وقد يُعطي المولى القاصرَ ما لم يعطِهِ لأصحابِ المحابر ، وليسَ مطلوبُ القوم إلىٰ مجالسة الحقِّ في كلِّ أمرٍ سلكوه ، فإذا حضروا عنده عرفوا بتعريفه كلَّ شيءٍ من غير تعبٍ ولا نَصَبٍ) .

وكان يقول : (من لم يكن عنده شفقةٌ ورحمة علىٰ خلق الله . . لا يرقىٰ مراقي أهلِ الله ، وقد ورد : أنَّ موسىٰ عليه السلام لما رعى الغنمَ لم يضربْ واحدةً منهن بعصاه ، إنما كان يهشُّ بها فقط ؛ وكذلك كان لا يجوِّعها ولا يؤذيها بعطشٍ ، وجاء بها مرةً إلىٰ نهرٍ ليسقيها ، فوجد منهن شاةً عرجاء ، لا تقدرُ على الوصول إلى الماء ، فحملها ، ونزل بها فأسقاها ، فلما رأى الحقُّ تعالىٰ منه قوةَ شفقته علىٰ غنمه بعثه الله نبيّاً وكليماً ، راعياً لبني إسرائيل ، وناجاه بالتوراة وغيرها ، فمن رحمَ رعيَّتَهُ ، وشفق عليهم اصطفاه الله من بين الخلق ، والسلام) .

وكان يقول : (والله ؛ لو هاجرَ الناسُ مهاجرةً صحيحة طالبين الله خالصاً ، ودخلوا تحت أوامره.. لاستغنوا عن الأشياخِ ، ولكنهم جاؤوا إلى الطريق بعللٍ وأمراض فاحتاجوا إلى حكيم) .

وكانت صورةُ أخذِ سيدي إبراهيمَ العهدَ على المريد أن يقولَ له : يا فلان ؛ اسلكْ طريقَ النُّسك على كتاب الله تعالى ، وسُنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ، وعلى أن تتبعَ جميعَ الأوامر المشروعة ، والأخبارَ المرضيَّة ، والاحتفال بطاعة الله عز وجل قولاً وفعلاً واعتقاداً ، وألا تنظرَ يا ولدي إلى زخارف الدنيا ومطاياها ، وقماشِها ورياشها ، وحظوظها ، واتَّبعْ نبيَّك في أخلاقه ، فإن لم تستطعْ فاتَّبع خُلُقَ شيخك ، فإن نزلتَ عن ذلك هلكتَ .

واعلم يا ولدي : أن التوبةَ ما هي بكتَابةِ درجٍ ورقٍ ، ولا كلامٍ من غير عمل ، إنما التوبةُ العزمُ على ارتكاب ما الموتُ دونه ، فصُفَّ أقدامَكَ يا ولدي في حِنْدِسِ الليل البهيم[١] ، ولا تكنْ ممن يشتغلُ بالبطالة ، ويزعم أنه من أهل الطريق ؛ فإن من استهزأ بالطريق استهزأتْ به ورفضته) .

وجاءه مرة فقيرٌ يطلبُ منه أن يُلبسَه الخرقة ، فنظر إليه وقال : (يا ولدي ؛ التلبيس في الأمور ما هو جيد ، لا يصلحُ للبس الخرقةِ إلا من دَرَسَتْهُ الأيام ، وقطعته الطريق بجهدها ، وأخلصَ في معاملته ، وقرأ معاني رموز الطريق ، ونظرَ في أخبار أهلها ، وعرف مقاصدَهم في حركاتهم وسكناتهم ، وأسفارهم وأخلاقهم ، فإن كنتَ يا ولدي تعقدُ التوبةَ في هذا الوقت فلا تكنْ مجَّاناً ولا لعَّاباً ، ولا صبيَّ العقل ، فما الأمرُ بقولِ العبد : « تبتُ إلى الله » باللفظ دون القلب ، ولا بكتابة الورقِ والدرج ، وإنما التوبة : أن يتوبَ العبدُ عن أن يلحظَ الكون بعيني قلبه ، أو يراعي غيرَ مولاه ، فإذا صحَّ للفقير هذا الأمر هناك يرجى له صحةُ التوبة) .

---

(١) **الحندس** بالكسر : الليل المظلم ، يقال : ليل حندس ، وليلة حندسة « تاج العروس » (ح ن س) .

وكان يقول : (قوتُ المبتدئ : الجوع ، ومطره الدموعُ ، وفِطره الرجوع ، يصوم حتىٰ يرقَّ ويلين ، وتدخلَ الرقَّةُ قلبه ، وتنفتح مسامعُ لبِّهِ ، فيسمع حينئذ القرآنَ ومواعظه بقلبٍ حاضر ، فينتفع ، وأما من أكلَ ونام ، ولغا في الكلام ، وترخَّص وقال : ما علىٰ فاعل ذلك ملام ، فلا يجيءُ منه شيءٌ ، والسلام) .

وكان يقول : (ما بُنيت طريقتُنا هـٰذه إلا على النارِ ، والبحر الهدَّار ، والجوعِ والاصفرار ، ما هي بالمشدقة ولا بالفشار ، دعونا من هـٰذه البطالات ، فما وجدنا من أولادنا إلىٰ هـٰذا الوقت أحداً اقتفىٰ آثارَ الرجال ، ولا صلحَ أن يكون محلاً للأسرار ، فآه آه من هـٰذا الزمان الغرَّار !) .

وكان يقول : (من شرطِ الفقير : أن يكونَ كالسُّلطانِ مهابةً ، وكالعبد الذليل تواضعاً ومهنة) .

وكان يقول : (الشيخُ حكيمُ المريد ، فإذا لم يعملِ المريد بقولِ الحكيم لم يحصلْ له شفاء) .

وكان يقول : (مذ صرفنا همَّتَنا إلىٰ ربِّنا لم نعرفْ سواه ، ولا نعرف إبليس) .

وكان يقول : (خلوةُ الفقير سجَّادتُهُ ، وجلوته سرُّه وسريرته) .

وكان يقول : (يجبُ علىٰ تالي القرآن أن يطهِّرَ فمه للتلاوة كلما تلاه من اللغط والنطق الفاحش ، ولا يأكل إلا حلالاً بقدر الحاجة من غيرِ سرفٍ ، ويعطرَ ثيابه وبدنه ومكانه أيضاً ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يتعطَّرُ لذلك ، حتىٰ كان إذا لمسَ صبيّاً يمكثُ يفوح الطيبُ منه أياماً ، وكان وبيصُ المسك يلمعُ من مفرقه صلى الله عليه وسلم ، وقد صارتِ الغيبةُ والدَّنَسُ في هـٰذا الزمان فاكهةَ القراء ، ومزابلَ الصالحين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) .

وكان يقول : (يا أولادنا ؛ لا تُودِعوا كلامَنا إلا عند من كان منَّا ، وأحبَّ أن يسلكَ طريقنا ، ولا تذكروه إلا لمحبٍّ محقٍّ يدخلُ تحت حكمنا ، وينقادُ لنا ، وقد قالوا : ذكرُ الكلام لغير أهله عورة) .

وكان يقول : (طريقُنا هـٰذه ما هي طريقُ تمليق ، بل هي طريقُ تحقيق وصدق

وتصديق ، وموتٌ وكدٌّ ، وجهد وسُهْدٌ[1] ، وكرمٌ وكسر نفس من غير دعوىٰ ، ومن لم يكن عنده خضوعٌ وذلُّ نفسٍ لا يجيء منه شيء ، فيا أولادي ؛ إن عملتم بموعظتي هـٰذه وإشاراتي كانت إجازتي لكم صحيحةً مطهَّرةً من الشوائب) .

وكان يقول : (لا يكونُ الفقير فقيراً حتىٰ يكونَ حمَّالاً للأذىٰ من جميع الخلق ، لا يؤذي من يؤذيه ، ولا يتحدَّثُ فيما لا يعنيه ، ولا يشمت بمصيبةٍ ، ولا يذكر أحداً بغيبةٍ ، ولا يقعُ في المحرمات ، ولا يأكلُ شيئاً من الشبهات ، إذا بُلي صَبَرَ ، وإذا قدرَ غفر ، غضيضُ الطرف عن كلِّ ما نهاه الشرع عن رؤيته ، يعمرُ الأرضَ بجسده ، والسماءَ بقلبه ، طريقُه الكظمُ والبذلُ والإيثار ، والعفو والصفح والاحتمال لكلِّ من يتحدَّث فيه بما لا يُرضيه) .

وكان يقول : (وا غوثاه من أهل هـٰذا الزمان ! واللهِ ؛ لو علمتُ أن في الأجل فسحةً لسكنتُ أكمَ الجبال ، وبطونَ الأودية بين الوحوش حتىٰ أموت ؛ فإن الرجلَ الآن مع هـٰؤلاء الناس في أشدِّ جهاد ؛ قلوب شاردة ، وأحوال مائلة ، وشهوات غالبة ، قد عدموا الصدقَ في الأحوال ، وكيف يقدرُ الضعيفُ علىٰ صون نفسه حال عشرتهم ، وغضِّ بصره عن رؤية أفعالهم الردية ليلاً ونهاراً ، ويصبر معهم علىٰ كلِّ فتنةٍ وشهوة من غير أن يُقابلَهم بمثله ؟! فهـٰذا لا يطيقُهُ إلا الصالحون) .

وكان يقول : (كم من واقفٍ في الماء وهو عطشان ؛ لعدم صدقِهِ في طلب مولاه ، فاعملوا على الإخلاص لتَرْووا من ظمأ العطش ؛ فإن طريق الله لا تنالُ إلا بقتل الأنفس ، وذبحها بسيوف المجاهدة) .

وكان يقول : (كيف يدَّعي أحدُكم أنه مريدُ طريق الله ، وهو ينامُ وقتَ القيام ، ووقتَ فتح الخزائن ، ووقت نشرِ العلوم وإظهار المكتوم ، وتجلِّي الحيِّ القيوم ؟! فيا كذابون ؛ أما تستحيون ؟! هممُكُم راقدة ، وعزائمُكم خامدة ، ما هـٰكذا درجَ أهلُ الطريق) .

وكان يقول : (ليس الزهدُ في شيءٍ خرج الإنسان عنه ، وإنما الزهدُ : أن يكونَ

---

(١) السُّهد : الأرق ، وقلة النوم .

داخلاً في إمارته أو ضيعته ، وقلبُه خارجٌ عنها ، جائلٌ في ملكوت الله ، ذاكرٌ فاكر حائر ، مُجاهد مرابط ، مخمولُ الذكر بين الناس ؛ فإن الصالحين من شأنهم القيامُ في حِرَفِهم سترةً لهم بين الناس ، قال الله تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور : ٣٧] ، فوصفهم بالرُّجولية مع قيامهم في الأسباب ؛ لكونها لم تلههم عن ذكرِ الله ، فهـٰؤلاء هم فحولُ العارفين ، كما أنه من لم يقم في الأسباب فهو من إناث القوم) .

وكان يقول : (عليكم يا أولادي بالصدق مع الله ، فمن صدقَ مع ربِّه وأخلص لا يلمسُ أحداً في نومٍ أو يقظة إلا برئ من الأمراض ، ونبعت من قلبه الحكمةُ ، وحصل عنده الزهدُ في هـٰذه الدار ؛ فإن الدنيا كحلقةٍ بين أعين أهل التمكين ، لا يلتفتون إليها لحقارتها

يا أولادي ؛ لا أحبُّ منكم إلا من كان يترقَّىٰ في كلِّ ساعةٍ من مقام إلىٰ مقام ، وهناك تقرُّ عيني به) .

وكان يقول : (يا ولدي ؛ إن أردتَ أن يسمعَ الحقُّ تعالىٰ دعاءك فاحفظْ لسانك عن الكلام في الناس ، وبطنَكَ عن تناول الشُّبهات ، فمن أطاعَ أُطيعَ ، وسخَّر اللهُ تعالىٰ له الماء والنار ، والخطوة في الهواء ، وأذعن له الإنسَ والجن) .

وكان يقول : (لا تفيدُ الخلوة للمريد إلا إن كانت بإشارة شيخٍ ، وإلا فضررُها أكثرُ من نفعها ، ومن لم تزكِّهِ الشريعةُ بوقوفه عند حدودها لا يصلحُ أن يتصدَّرَ لإرشاد غيره) .

وكان يقول : (الإنسان ثلاثةُ أجزاء : قلب ، ولسان ، وأعضاء ؛ فاللسانُ والأعضاء تولتهما الملائكةُ ، والقلب تولاه الله ؛ ولذلك كان تطهيرُهُ مقدماً علىٰ بقية البدن) .

وكان يقول لمن يُريدُ السُّلوك في الحقيقة : (اسلكْ يا ولدي أولاً طريقَ النُّسك والعبادة علىٰ وفق الكتاب والسُّنة الباهرةِ الزاهرة ، التي نورُها يُجلي الظلم حتىٰ أنارَ بطاحَ مكة والمدينة ، والشام ومصر ، والعراق واليمن ، والمشرق والمغرب ، والأفق العلوي والسفلي ، فإذا عملتَ بذلك انقدح لك منها علمُ الحقائق والأسرار ، فاسلكْ

يا ولدي كما قلت لك شيئاً بعد شيء ، والله يحفظُكَ إن صدقت) .

وكان يقول : (ما ثَمَّ عملٌ أزكىٰ ولا أطهر ولا أنور ولا أكثر فائدةً من عمل أهل الله عز وجل ؛ فإن الذرَّةَ منه ترجحُ على الجبال من عمل غيرهم ؛ لخلوِّها من العلل ؛ فإن عَمَلَ القومِ بقلوبهم وأبدانهم ، وعملَ غيرهم بأبدانهم دون قلوبهم ؛ ولذلك يطرقُهم الإعجابُ والكِبْرُ بالطاعات) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ لو خشعَ قلبُ أحدكم في صلاته مثلاً لاختلطَ عقلُهُ ، وذهب لبُّهُ ، ولم يقدرْ علىٰ قراءة سورة واحدةٍ من كتاب الله في تلك الحضرة ؛ فإن موسىٰ عليه السلام لما حَضَرَ قلبُهُ مع الله خرَّ صعقاً متخبِّطاً كالطير المذبوح ، مع كونه ما تجلَّىٰ له من عظمة الحقِّ تعالىٰ كما قيل إلا مقدارُ جزءٍ واحد من تسعةٍ وتسعين جزءاً من سَمِّ الخِياط ، فإذا كان هـٰذا حالُ أولي العزم من الرُّسل ، فكيفَ بأمثالنا الغارقين في شهوة بطونهم وفروجهم ؟! قال : وهـٰذا التجلي واقع لكلِّ مصلٍّ لو عَقَلَ عَقْلَ موسىٰ ، فالحمد لله علىٰ كلِّ حال) .

وكان يقول : (كما أنَّ أهلَ الشريعة يُبطلون الصلاةَ باللحن الفاحش ، فكذلك أهل الحقيقة يُبطلون الصلاة بالخلق الفاحش ، فإذا صلىٰ وفي باطنه حسدٌ أو حقد أو غلٌّ ، أو خديعة ، أو سوءُ ظنٍّ بأحدٍ من المسلمين ونحو ذلك . . فصلاته باطلةٌ عندهم ، ويجمعُ ذلك كلَّه حبُّ الدنيا ؛ لأن من أحبَّها حُجب عن حضرة الله ، وطُرِدَ عن دخولها ، ولا تصحُّ مناجاةُ الحقِّ تعالىٰ كما ينبغي إلا لمن دخلَ حضرته ، وعرف قدرَ عظمته تعالىٰ ، فإذا مُنِعَ من دخول حضرته فكأنه ما صلىٰ) .

وكان يقول : (يا ولدي ؛ اجتنب معاشرةَ أولي المقال والجدال الذين لم يتخلَّقوا بأخلاقِ الصالحين ، والعلماء العاملين ، ولا تتخذ أحداً منهم صاحباً ، وجالسِ العلماءَ العاملين ؛ فإنهم أعوانٌ لك علىٰ مقصودك) .

وكان يقول : (إن أردتَ أن تكونَ ولدي حقّاً ، ومتَّبعي صدقاً فأخلصِ العبودية لله ، واجعلْ واعظَكَ من قلبك ، وكن عاملاً بجسدك وقلبك ، ولا تأخذ لأحدٍ من المريدين درهماً ؛ فإن هـٰذه طريقي ، ومن أحبَّني سلك معي فيها ؛ فإن الفقيرَ الصادق هو الذي يُطعمُ الناس ولا يُطعمونه ، ويُعطيهم ولا يُعطونه ؛ فإن الرِّشا في

الطريق حرامٌ ، يرشي المريدُ شيخَهُ حتىٰ يميلَ إليه ، فإذا مال كان حكمُهُ حكمَ القاضي إذا قبل الرِّشوة ليحكم بحكم الله ، وذلك شديدُ التحريم ، وشيخُكم قد بايعَ الله عز وجل ألا يأخذَ لأحدٍ فلساً ولا درهماً ، ولا يأكلَ لهم طعاماً إلا إن سلمَ من العلل ، وما أعلمتُكم بذلك إلا لتقتدوا بي ، لا للمشيخةِ عليكم ؛ فإني أرىٰ نفسي دونَكم ، وإنما المرادُ سلامةُ الذِّمة وبراءتُها من الخلل في نصح الإخوان .

واعلموا يا أولادي ؛ أن من استحسنَ درهماً أو لقمةً في طريقي حين لعبَ به هواه ، وسوَّلتْ له نفسه فقد خرجَ عن طريقي وطريق الأشياخ ؛ فإن أوساخَ الدنيا تسوِّدُ القلوبَ ، وتُوقف عن المطلوب ، وتكتبَ بها الذنوب ، وإني غيرُ راضٍ من أحدٍ في إجازته فلساً واحداً ؛ فإن من أخذَ الدنيا بإلباسِ الفقراء الخرقةَ مقتَهُ اللهُ ، ولو أنه عمل له حرفةً ، وكفىٰ نفسَهُ كان خيراً له ، وإني أبرأُ إلى الله ممن يأخذُ على الطريق عَرَضاً من الدنيا ، ويتلفُ طريقي من بعدي ، ويخالفُ ما كنت عليه أنا وأصحابي .

اللهم ، إن كان أحدٌ من أصحابي يفعلون خلافَ طريقي ؛ فلا تُهلكْني بذنوبهم ؛ فإن اللهَ يُبغضُ الفقيرَ الذي يبيعُ أخلاقَ أهل الطريق بلقمةٍ ، وطريقي إنما هي طريقُ تحقيقٍ وتدقيق) .

وكان يقول : (أُحبُّ من أولادي كلَّ مَنْ كان متنسِّكاً لا يفترُ ولا يحيدُ ، خاشعاً خاضعاً ، حمَّالاً للأذىٰ ، سكراناً من حبِّ مولاه ، لا التفاتَ له إلىٰ زوجةٍ ولا ولدٍ ولا أخٍ ولا صاحبٍ ولا وظيفةٍ دنيوية ؛ اهتماماً بمولاه ، حتىٰ صارَ لا يلتفتُ لسواه) .

وكان يقول : (يا أولادي ؛ إنْ صحَّ عهدُكم معي فأنا منكم قريبٌ ، وأنا في ذهنكم ، وفي سمعكم وبصركم ، وجميعِ حواسِّكم الظاهرة والباطنة ، وإن لم يصحَّ لكم معي عهدٌ فلا تشهدون مني سوى البُعد ، وإذا كنتُ لا أرضى اللعبَ لأحدٍ من خلق الله ، فكيف أرضاه لولدِ قلبي ؟! فإن أخذتم يا أولادي عهدي ، وعملتم بوصيَّتي سمعتم كلامي ، ولو كان أحدُكم بالمشرق وأنا بالمغرب ، ورأيتم شبحَ شخصي .

فمهما وردَ عليكم من مشكلات سرِّكم ، أو شيءٍ تستخيرون فيه ربَّكم ، أو عَرَضَ لكم أحدٌ بأذىً . فوجِّهوا وجهكم ، وصفوا سرَّكم ، وأطبقوا عينَ حسِّكم ، وافتحوا عينَ قلبكم ، فإنكم تروني جهاراً ، وتستشيروني في جميع أموركم ، وتطلبوا مني

حوائجَكم ، فمهما قلتُهُ لكم فاقبلوه وامتثلوه ، وهٰذا ليس خاصّاً بي ، بل بكلِّ شيخٍ صدقتم في محبَّته ، وقد يعلمُ ذلك شيخُكم وقد لا يعلمه ، هٰكذا جرتْ سُنَّةُ أولياء الله تعالىٰ مع مُريديهم) .

وكان يقول : (يا ولدي ؛ إن كنتَ تصومُ الدهر ، وتقومُ الليل ، ولك سريرةٌ ظاهرة ، ومعاملةٌ خالصةٌ . . فلا تدَّعي قطُّ أنك شممتَ لطريقِ القوم رائحةً ، ولا تَشهدْ نفسَك إلا أنك عاصٍ مفلسٌ من جميع الأعمال الصالحة ، واحذرْ من نفسك ، فكم تلِفَ من غرورها وزورها فقير !) .

وكان يقول : (من أحبَّ أن يكونَ من أولادي حقّاً فليقمْ قياماً دائماً ، وليجاهدْ نفسَهُ جهاداً ملازماً ، ولا يملَّ ، ولا يُوَلِّي ، ولا يُرخِّص لنفسه في تركِ الاشتغال بالعبادة في حجةِ خوف الملل ؛ فإن الناقدَ بصير ، والنفسَ من شأنها التلبيس علىٰ صاحبها) .

وكان يقول : (ليس كلُّ من تزيَّا بزِيِّ القومِ يكونُ منهم في الباطن ، فإياكم أن تقنعوا بالظواهر دون البواطن ؛ فإن القومَ إنما ترقَّوا بالأعمالِ الجوَّانية ، وما رأينا أحداً لبسَ له جبةً ، وأرخىٰ له عذبةً ، وجلس علىٰ سجادةٍ . . فبلغ بذلك مبلغَ الرجال ، بل يقفُ عن السير ، أو يرجعُ من حيث جاء) .

وكان يقول : (يا أولادي ؛ إياكم أن تغفُلوا عن ربِّكم في ليل أو نهار ؛ فإن الله تعالىٰ يطَّلعُ علىٰ عباده في كلِّ يومٍ وليلة [ثنتين][1] وسبعين مرة ، فنظِّفوا محلَّ نظر ربِّكم ، واجعلوه طاهراً مُطهَّراً ، حسناً نقيّاً ، زاهراً نيِّراً ، صادقاً خالصاً ؛ ليرتعَ في رياض القرب ، ويظهرَ فيه النورُ ؛ فإن الإناء إذا لم يكنْ شفَّافاً لا يظهرُ للفتيلة فيه نورٌ أبداً) .

وكان يقول : (يا ولدي ؛ اشتغلْ بمراقبة رقيبك عن الخلق ، وبنفسك عن القيل والقال ، ولا تلتفتْ قطُّ إلىٰ صحبة من يتكرَّمُ بضياع أوقاته وأنفاسه في الغفلات ؛ فإن صحبتَهُ هلاكٌ لك) .

---

(١) في النسخ (اثنين) .

وكان يقول : (يجبُ على الفقير أن يطهِّرَ أعضاءَهُ وقلبَهُ من الغفلات عن ذكر الله ، كما يجبُ تطهيرُها عن المعاصي الظاهرة من باب : حسنات الأبرار سيئاتُ المقرَّبين)[1]

وكان يقول : (لا ينبغي لحاملِ القرآن أن يُدنِّسَ فمَهُ بكلامِ حرام ، أو طعام حرام ، ومثالُ من يتلفَّظُ بالقرآن بعد أن تكلَّم بغيبةٍ أو نميمة مثالُ من لطَّخَ المصحفَ بالقذر ، وقد أفتى العلماءُ بكفره) .

وكان يقول : (إن طلبتم أن تكونوا من أولادي حقّاً فلا يُسرَّ أحدٌ منكم سريرةً سيئة ؛ فإن اللهَ سيُظهر ما كان العبدُ يكتمُهُ ويخفيه ويسترُهُ ، ويُنادىٰ عليه في عَرَصات القيامة بالتصريحِ والتوبيخ : فلانٌ عملَ كذا وكذا ، وكان يستترُ من الناسِ ، ولا يستترُ من الله ، فلانٌ كان يرتكبُ المحارمَ والفضائح ويُظهرُ للناس الصلاحَ زوراً وبهتاناً ، فلانٌ كان ينظرُ إلى النِّساء قصداً ، ويدَّعي أنها نظرةُ فجأة ، ويعطفُ طرفه ، ويميلُ كأنه لصٌّ سارق ، فيا فضيحة من تزيَّا بِزيِّ الفقراء ، وخالف طريقَهم ، فيا أولادي جميعكم ؛ لا ترموا من كلامي شيئاً ؛ فإنما هو تذكيرٌ وتحذيرٌ ، وتأديب لمن تأدَّبَ) .

وكان يقول : (يا أولادي ؛ إذا صحبتُم غيري من بعدي فاصبروا علىٰ جفائه ؛ فإنه ربَّما امتحنكم ليريدَ بكم الخيرَ ، وأن يجعلَكم محلاً لأسراره ، ويرقِّيكم بذلك إلىٰ معرفةِ ربِّكم ، فمن اشتغل قلبُهُ بمحبَّةِ شيخه ترقَّىٰ إلىٰ محبَّةِ الله عز وجل ، ولولا أن الشيخَ سُلَّمٌ لتربية المريدين لمقتَ اللهُ كلَّ قلبٍ وجد فيه محبَّةً لسواه) .

وكان يقول : (يا ولدي ؛ البسْ قميصَ الفقراء النظيف ، فما الأمرُ بلبس الثياب ، ولا بسكنى القباب ، ولا بلبس الصوف ، إنما الفقرُ أن تُخلصَ عملَكَ بقلبك) .

وكان يقول : (يا أولادي ؛ الفقراءُ كلُّهم عندي ملاح ، فليكونوا عندكم كذلك) .

وكان يقول : (خواصُّ الخواصِّ جعلوا زواياهم قلوبَهم ، ولبسَهم تقواهم وخوفَهم

---

(١) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (١/ ٣٥٧) : (هو من كلام أبي سعيد الخراز كما رواه ابن عساكر في ترجمته ، وعدَّه بعضهم حديثاً ، وليس كذلك ، وعزاه الزركشي في « لقطته » للجنيد) ، وتقدم تخريجه (١/ ٥٨٥ ، ٥٨٨) .

من ربِّهم ، قد رفضوا الكرامات ، ولم يرضوا بها ، وخرجوا عنها لعلمهم أنها من ثمرةِ أعمالهم ، فلم يطيروا في الهواء ، ولم يمشوا على الماء ، ولم تسخَّرْ لهم الهوام ، ولم تُبصبصْ لهم الأسود ، ولم يضربوا رجلَهم بالأرض فيفجَّر لهم الماء ، ولا مسَّ أحدُهم أجذمَ ولا أبرص فبرِئ ، فخرجوا من الدنيا وأُجورُهم كاملة ، رضي الله عنهم) .

وكان يقول : (يا أولادي ؛ عمرُكُم في انتهابٍ ، وأجلُكم في اقتراب ، وقد طُويت الدنيا ، وجئنا أولها عند آخرها ، فالسعادةُ كلُّ السعادة لمن طوىٰ منكم صحيفتَهُ كلَّ يومٍ مضمَّخةً معنبرةً ممسَّكة معطرةً بأعماله الزكية ، وشيمهِ المرضية ، والشقاوةُ كلُّ الشقاوة لمن طوىٰ صحيفتَهُ كلَّ يومٍ علىٰ زلاتٍ وقبائحَ عظيمات .

يا أولادي ؛ كأنكم بالساهرةِ وقد مُدَّتْ ، وبالجبال وقد دُكَّت ، وبالحجارةِ وقد صاحت ، وبالحصىٰ وهو يقطر دماً ، هٰذه وصيتي لكم ، وهديَّتي إليكم) .

وكان يقول : (إياكم أن يدَّعي أحدُكم أنه من الصالحين ، وهو يقعُ في الأفعال الرديئة ، ويأكلُ طعامَ المكاسين ، وأهلِ الرشا والربا والظلمة وأعوانهم ، وكيف يدَّعي أنه من الصالحين وهو يقعُ في الكذبِ والغيبة ، والوقيعة في الناس ، وفي أعراضهم ؟! وكيف يطلبُ أن يكونَ عند الله صادقاً ، وهو يقعُ في شيءٍ من المناهي ؟!) .

وكان يقول : (إن أردتَ أن تفهمَ أسرارَ القرآن فاقتلْ نفسَ دعواك ، واطرحْ نفسَ نفيستك تحت قدمِ أقدامك ، واشهدْ أنَّ نفسَك قبضةٌ من تراب ، واعترفْ بكثرة ذنوبك ، وخف أن تُرَدَّ عليك طاعاتك ، فإن لم تفعلْ ذلك فبابُ الفهم عنك مسدود ، وعزَّةِ ربِّي ؛ إن كلَّ حرف من القرآن يعجزُ عن فهمه الثقلان ، ولو اجتمعَ الخلقُ كلُّهم أن يعلموا معنىٰ باء أو جيم بعقولهم لعجزوا) .

وكان يقول : (العقلُ في القلب ؛ لحديث : « إنَّ في الجسدِ مضغةً »[1] ولٰكن إذا فكَّرت في كُنْهِ العقلِ وجدتَ الرأس يُدَبِّرُ أمرَ الدنيا ، ووجدت القلبَ يُدبِّرُ أمرَ الآخرة ، فمن جاهدَ شاهد ، ومن رقدَ تباعد) .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما ، وتقدم تخريجه (١/ ٥٨٩) ، (٢/ ٤٦٣) .

وكان يقول : (إذا لبسَ حاملُ القرآن حراماً ، أو أكلَ حراماً لعنَهُ القرآنُ من جوفه ، وقال : لعنةُ الله علىٰ من لم يجلَّ كلام الله) .

وكان يقول : (من أحبَّ أن يكونَ ولدي حقّاً فليحبس نفسَهُ في قمقم الشريعة ، وليختمْ عليها بخاتم الحقيقة ، وليقتلها بسيفِ المجاهدة ، وليتجرَّعِ المرارات ، ومن رأىٰ أن له عملاً يُقبل فقد سقطَ من عين رعاية الحقِّ تعالىٰ) .

وكان يقول : (العارفُ يرىٰ حسناتِهِ ذنوباً) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ إنَّنا كلُّنا مساكين في أضعفِ حالٍ ، وآخرِ زمانٍ) .

وكان يقول : (يا أولادي ؛ اعلموا وتحقَّقوا : أن صحة هـٰذا الطريق وقاعدتَها ومجلاها ومحكمها الجوعُ ، فإن أردتم السعادةَ فعليكم بالجوع ، ولا تأكلوا إلا علىٰ فاقةٍ ؛ فإن الجوعَ يغسلُ من الجسد مواضعَ إبليس ، تريدون شربةً بلا حميةٍ ، هـٰذا ما لا يكون) .

وكان يقول : (اتقوا فِراسة الفقراء ؛ فإنهم ينظرون بواطنكم بنور الله ، فيجدون فيها ما يُسخطُ الله) .

وكان يقول : (إياكم أن تقنعوا بتقبيلِ أيديكم والرئاسةِ علىٰ أقرانكم ؛ فإن الفقير لا يكملُ إلا إن تكلَّمَ بمعاني الحقيقة ذوقاً لا نقلاً ، وفعلاً لا قولاً ، وتحلَّىٰ في باطنه بحلية الأصفياء بالسرِّ والمعنىٰ) .

وكان يقول : (يا ولدي ؛ إنْ كنتَ ولدَ قلبي حقّاً فكنْ علىٰ حذرٍ من الدخلاء السوء ؛ فإنا نحن في آخر زمان ، وقد قلَّ النُّصحُ فيه من الإخوان ، حتىٰ لا تكاد تنظرُ ناصحاً بعينك ، وعادَ مَنْ تُوليه سروراً يوليك شروراً ونكداً ، ومَنْ ترفعُهُ يريدُ أن يضعك ، ومَنْ تُحسن إليه يُسيء عليك ، ومَنْ تُشفقُ عليه يودُّ أنه لو رماك على الشوك وأسنَّةِ الرماح ، ومَنْ تنفعُهُ يضرُّك ، ومن تُوصله يقطعك ، ومن تُطعمه يحرمك ، ومن تُربِّيه يقول : أنا الذي ربَّيتك ، ومن تُقدِّمُه يؤخِّرُك ، ومن تخلص له يغشُّك ، ومن تبشُّ له يكشُّ لك .

فواعجباً للدنيا ولأهلها ! وإذا كان مالك بنُ دينار يقول في زمانه : « لو نبتَ

للمنافقين أذنابٌ في هٰذا الزمان لما وجدَ المؤمنُ مكاناً يمشي فيه ». . فكيف بأهلِ القرن السابع ؟!

فإن استطعتم يا أولادي الوحدةَ عن أهل السوء فافعلوا ، ولا تتشبَّهوا بأهل التمكين ؛ فإن أهل التمكين قد تركوا أخلاق الأراذل من الناس ، وغفروا للناس أفعالهم ، وغضُّوا عن نقائصهم بأبصارهم ، وصمُّوا آذانَهم عن سماع أقوالهم ، وتركوا الكلَّ لله تعالىٰ ، وقابلوا سيئاتهم بالحسنات ، ومضرَّاتهم بالمسرَّات والمبرَّات)

وكان يقول : (المريدُ مع شيخه علىٰ صورةِ الميت ، لا كلامَ ولا حركةَ ، ولا يقدرُ على النطق بين يديه إلا بإذنه ، ولا يتحرَّكُ ولا يسكنُ إلا بإذنه ، هٰكذا كانت طريقةُ السلف والخلف مع أشياخهم ؛ فإن الشيخَ هو والدُ القلب ، ويجب على الولدِ عدمُ عقوق الوالد ، ولا نعرفُ للعقوق ضابطاً يضبطُهُ ، إنما الأمرُ عامٌّ في سائر الأحوال ، وما جعلوه إلا كالميت بين يدي الغاسل ، فإياكم ومخالفةَ الأشياخ ؛ فإن كثيراً من الفقراء صحبوا الأشياخ بلا أدبٍ ، فماتوا بغصصهم ، آهٍ من صدودِ الرجال ، ومن صحبةِ الأضداد !) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أنا موسىٰ في مُناجاته ، أنا عليٌّ في حملاته ، أنا كلُّ وليٍّ في الأرض خلعتُهُ بيدي ، أُلبسُ منهم من شئتُ ، أنا في السماء شاهدتُ ربي ، وعلى الكرسيِّ خاطبتُهُ ، أنا بيدي أبوابَ النيران غلَّقتها ، وبيدي جنةَ الفردوس فتحتها ، من زارني أسكنتُهُ الفردوسَ ، فإياك يا ولدي أن تعترضَ علىٰ مقالنا ؛ فإن أولياء الله مُتَّصلون بحضرة الله ، وما اتَّصلَ أحدٌ بحضرة الله إلا وهو يناجي ربَّهُ كما كان موسىٰ يناجي ربه ، وما من وليٍّ لله إلا ويحملُ على الكفار كما كان عليُّ بنُ أبي طالب يحملُ ، وقد كنتُ أنا وأولياء الله أشباحاً في الأزل بين يدي القديم الأزل .

وإن اللهَ خلقني من نورِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان اجتماعنا على الدرة البيضاء ، فأمرني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن أخلعَ علىٰ جميعِ الأولياء بيدي كما يخلعُ غلامُ السُّلطان بأمره علىٰ من أراد ، وقال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : أنتَ نقيبٌ عليهم ، فكنتُ أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخي عبد القادر الجيلي خلفي ، وابنُ الرفاعي خلف عبد القادر ، ثم التفتَ إليَّ رسولُ الله صلى الله

عليه وسلم وقال : يا إبراهيم ؛ سرْ إلىٰ مالك خازن النار ، وقل له : يُغلقْ أبوابها ، وسرْ إلىٰ رضوان خازن الجنان وقلْ له : يفتح أبوابها ، ففعلا ذلك) ، وأطال في ذكر معاني هـٰذا الكلام ، ثم قال : (وما يعلمُ ما قلته إلا من انخلعَ من طبعه ، وصار كالملائكة) .

مات رضي الله عنه سنة ستٍّ وسبعين وست مئة ، ودفن بدسوق علىٰ ساحل بحرِ النيل الغربي ، ومقامُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، يقصدُهُ الناس من سائرِ الآفاق .

وكراماته كثيرة مشهورة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٥٥) الشيخ أبو بكر بن هوارا البطائحي رضي الله عنه[١]

وهو الذي أخبرَ وبشَّرَ بسيدي الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه .

كان شاطراً يقطعُ الطريق ، فوقع له سماعُ هاتفٍ بالليل : أما آن للعاصي أن يتوبَ إلى الله تعالىٰ ؟! فتابَ من وقته .

وهو أول من ألبسه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثوباً وطاقيةً في المنام ، فاستيقظَ فوجدَهما عليه .

وكان رضي الله عنه يقول : (أخذتُ من ربي عز وجل عهداً ألا يحرقَ بالنار جسداً دخل تُربتي) ، فيقال : إنه ما دخلها لحمٌ أو سمكٌ قطُّ وأنضجته النار .

وكان يقول : (الخوفُ من الله : هو ألا يأمنَ العبدُ وقوعَ البطش به مع الأَنْفاس) .

وكان يقول : (احتقار الناس مرضٌ عظيم لا دواءَ له) .

وكان يقول : (**التصوفُ** : ذكرٌ باجتماع ، ووجدٌ باستماع ، وعملٌ باتباع) رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٧٣) (٢٥٣) .

ومنهم :

(٢٥٦) الشيخ أبو محمد الشَّنْبَكي رضي الله عنه[1]

هو أحد أعيان مشايخ العراق .

تخرَّجَ به الشيخُ أبو الوفا ، والشيخُ منصور .

وكان في بدايته يقطعُ الطريق على القوافل ، فتاب على يدِ الشيخ أبي بكر بن هُوارا البَطائحي ، وصار يُبرئ الأكمهَ والأبرص والمجنون بدعوته .

وكان يقول : (أصلُ الطاعةِ : الورعُ والتقوىٰ ، وأصلُ التقوىٰ : محاسبةُ النفس) .

وكان يقول : (من لم يسمع نداءَ الحق كيف يُجيبُ داعيه ؟! ومن استغنىٰ بشيءٍ دون الله فقد جهلَ قدرَ الله) .

وكان يقول : (من قهرَ نفسه بالأدب فهو الذي يعبد الله بالإخلاص) .

وكان يقول : (حجابُ الخلق عن الحقِّ تعالىٰ هو تدبيرُهم مع الله) .

وكان يقول : (شهوةُ الصادقين : المجاهدةُ ، وضيقُ العيش ، وشهوة الكاذبين : النومُ والكسل ، والتبسُّط في الدنيا) .

وكان يقول : (من ادَّعىٰ حالاً مع الله لا يشهد له ظاهرُ كتابٍ ولا سنة . . فاتَّهموه في دينه) .

وكان يقول : (من أكلَ من طعامِ مريدٍ رجعَ عن طريقِ الفقراء قسا قلبُه أربعين صباحاً)

وكان يقول : (من علامة الوليِّ : أن يسترَ حاله ، والكونُ كلُّه ناطقٌ بولايته) .

وكان يقول : (صلاحُ القلب في الاشتغال بالعلم والعمل علىٰ وجه الإخلاص) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٧٥) (٢٥٤) .

ومنهم :

(٢٥٧) الشيخ عزاز البَطائحي رضي الله عنه[١]

انتهت إليه الرئاسةُ في الطريق ، وأجمع المشايخُ على تعظيمه .

وكان يقول : (الغفلةُ على قسمين : غفلةُ رحمة ، وغفلةُ نقمة ؛ فالغفلةُ التي هي نقمةٌ : غفلةُ العبد عن طريق الاستقامة ، والغفلة التي هي رحمةٌ : غفلةُ العبد عن القيامِ بأوصاف العبودية حين تجلَّى لقلبه عظمةُ الله عز وجل) .

وكان يقول : (إذا مازجتِ المحبةُ الأرواح طارتْ ، وإذا خالطتِ العقول أدهشتْ ، وإذا لابستِ الأفكار حارتْ) .

وكان يقول : (من أنسَ بالله أنسَ به كلُّ شيءٍ ، ومن خاطبه اللهُ خاطبه كلُّ شيءٍ ، ومن دخلَ حضرة الله هابه كلُّ شيء إجلالاً له ، ومن عرف اللهَ جهلَهُ كلُّ شيءٍ ، لعظيم ما أودعه اللهُ فيه من الأسرار) والله أعلم .

ومنهم :

(٢٥٨) الشيخ منصور البطائحي رضي الله عنه[٢]

هو خالُ سيدي أحمد بن الرِّفاعي ، وتخرَّج به جماعةٌ من الأولياء .

وكانت أمُّه تدخل وهي حاملٌ على شيخه الشيخ أبي محمد الشَّنْبَكي ، فينهضُ لها قائماً ، فسألوه عن ذلك ، فقال : إنما أقومُ للجنين الذي في بطنها ؛ فإنه أحدُ المقرَّبين إلى الله أصحاب المقامات ، وسيصيرُ له شأنٌ عظيم .

وكان رضي الله عنه يقول : (من عرفَ الدنيا زهدَ فيها ، ومن عرف اللهَ آثر رضاه على هوى نفسه ، ومن لم يعرفْ نفسَه فهو في أعظم الغرور) .

وكان يقول : (ما ابتلى اللهُ عز وجل عبداً ابتلاءً أشدَّ من الغفلة عنه ، وإذا أحبَّ اللهُ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (١/ ٤٧٦) (٢٥٥) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (١/ ٤٧٧) (٢٥٦) .

عبداً قادَهُ إلىٰ حضرته في اليقظة والمنام)

وكان يقول : (كلما ارتفعتْ منزلةُ القلب كانت العقوبةُ والمؤاخذةُ إليه أسرع) .

وكان يقول : (الصبرُ زاد المضطرِّين ، والرِّضا درجةُ العارفين ، فمن صبرَ علىٰ صبره فهو الصابر) .

وكان يقول : (من فرَّ بذنبه إلى الله تعالىٰ وهو يتَّهِمُهُ في رزقه.. فهو يفرُّ له لا إليه) .

وكان يقول : (كلُّ شيءٍ في الدنيا لا يكونُ لك عوناً علىٰ تركها فهو عليك لا لك) .

وكان يقول : (ثلاثُ خصالٍ من صفات الأولياء : الثقة بالله تعالىٰ في كلِّ شيءٍ ، والغِنىٰ بالاستناد إليه عن كلِّ شيءٍ ، والرجوع إليه في كلِّ حال) .

وكان يقول : (من شهد الرياء في إخلاصه فهو كاملٌ ، ومن شهد الإخلاصَ في أعماله فهو ناقص) .

وكان يقول : (الأُنسُ بالله : هو استبشارُ القلوب بالقرب منه تعالىٰ) .

وكان يقول : (من اغترَّ بصفاء العبودية داخله نسيانُ الربوبية ، ومن سكنَ إلىٰ ربِّه دون حظوظ نفسه سَلِمَ من الاستدراج) .

ولما حضرته الوفاةُ قالتْ له زوجتُهُ : أوصِ إلىٰ ولدي بالمشيخة بعدك ، فقال : المشيخة لأحمد ابن أختي ، فكرَّرتَ عليه القولَ ، فقال لابنه ولابنِ أخته أحمد : ائتياني بنجيل من أرض كذا[1] ، فأتاه ولدُه بنجيل كثير ، ولم يأت ابنُ أخته بشيءٍ ، فقال له : يا أحمد ؛ لمَ لمْ تأتِ بنجيلٍ ؟ فقال : وجدتُهُ كلَّهُ يُسبِّحُ الله تعالىٰ ، فاستحييتُ أن أقطعَ شيئاً يُسبِّح اللهَ ، فسكتتْ زوجتُهُ ، وعلمتْ أن هـٰذا الأمرَ لا يكون بالتشهِّي ، إنما هو وعدٌ من الله تعالىٰ .

(١) النجيل : ما تكسَّر من ورق الهَرْم ، وهو ضرب من الحَمْض ، والحمض من النبات : كل نبت مالح أو حامض يقوم علىٰ سوق ولا أصل له .

ومنهم :

(٢٥٩) الشيخ تاجُ العارفين أبو الوفا رضي الله عنه[١]

كان من أعيانِ مشايخ العراق في وقته ، وله الكراماتُ الخارقة ، وكان له أربعون خادماً من أرباب الأحوال .

ولما أخذَ عليه شيخُهُ الشَّنْبَكيُّ العهدَ قال : (وقعَ اليوم في شبكتي طائرٌ لم يقعْ مثلُهُ في شبكة شيخ) .

وكان مشايخُ العراق إذا ذكروا اسمَه يضعون أيديَهم علىٰ وجوههم يتبرَّكون باسمه .

وكان سيدي عبدُ القادر الجيلي يقول : (ليس بباب الحقِّ كرديٌّ مثل أبي الوفا) .

وهو أول من سُمِّي بتاج العارفين بالعراق .

وكان يقول : (من هيَّمه آثارُ النظر أقلقه سماعُ الخبر ، ومن تقطَّعَ في مفاوز الأشواق لم يلتفتْ إلى الآفاق) .

وكان يقول : (الأجسامُ أقلام ، والأرواح ألواح ، والنفوسُ كؤوس ، والوجد حسرةٌ تلهب) .

وكان يقول : (التسليمُ : إرسالُ النفس في ميادين الأحكام ، وتركُ الشفقة عليها من الطوارق) .

وكان يقول : (لو صدقَ المريدُ حين نادىٰ شيخَهُ لأجابه ـ وهو نائم ـ كلُّ ذرةٍ في الشيخ ، ولم يحتج إلى استيقاظه) والله أعلم .

ومنهم :

(٢٦٠) الشيخ حمَّاد بن مسلم الدبَّاس رضي الله عنه[٢]

كان أحدَ العلماء الراسخين في علوم الحقائق ، انتهت إليه الرئاسة في التربية ، وانعقد عليه إجماعُ الشيوخ ، وانتمىٰ إليه معظمُ مشايخ بغداد .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٧٩) (٢٥٧) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٨١) (٢٥٨) .

وهو أحدُ من صحبه الشيخ عبدَ القادر ، وأثنىٰ عليه ، وحكىٰ كراماته .

وكان يقول : (**القلوبُ ثلاثةٌ** : قلبٌ يطوف بالدنيا ، وقلبٌ يطوف بالأخرىٰ ، وقلب يطوف بالله عز وجل لا فيه ؛ لأن من طافَ فيه تزندق)

وكان يقول : (**أقربُ الطرقِ إلى الله حبُّهُ** ، ولا يصفو حبُّهُ حتىٰ يبقى المحبُّ روحاً بلا نفْسٍ ؛ فإن من له نفسٌ لا يصحُّ أن يذوقَ من محبَّة الله شيئاً أبداً) .

وكان يقول : (إن وعدَكَ الحقُّ تعالىٰ بشيءٍ فتوكَّلْ ، وإن قدَّرَ عليك بشيءٍ فاستسلم ، وإن قال لك : اخترْ فقل : فوَّضتُ أمري إليك ، وإن قال لك : اطلب فقل : قد آمنتُ وصدَّقت ، وإن قال لك : اعبدني فقل : وفِّقني ، وإنْ قال : وحِّدني فقل : اجذبْني) ، رضي الله عنه .

منهم :

(٢٦١) الشيخ يوسف بن أيوب [الهَمَذاني] رضي الله عنه[١]

هو أحدُ أئمة العراق ، وإليه انتهت الرئاسةُ بخراسان .

وكان يقول : (السماعُ : سفرٌ إلى الحقِّ ، ورسولٌ من الحقِّ ، والسماعُ هتَّاك للأستار ، وكشَّافٌ للأسرار ، وشمسٌ طلعت علىٰ بساط القرب من غيرِ نفس تكون هناك ، فترىٰ أهلَ السماع وَالِهين حيارىٰ ، رامقين أُساریٰ ، خاشعين سُكارىٰ) .

وكان يقول : (إن الله تعالىٰ خلقَ من نورِ بهائه سبعين ألف مَلَكٍ من الملائكة المقرَّبين ، وأقامهم بين العرشِ والكرسيِّ في حضرة الأنس ، لباسهم الصوفُ الأخضر ، ووجوههم كالقمرِ ليلةَ البدر ، فقاموا مُتواجدين وَالِهينَ حيارىٰ ، خاشعين سُكارىٰ ، منذ خُلقوا يهرولون من ركنِ العرش إلىٰ ركنِ الكرسي ؛ لما بهم من شدَّةِ الوله ، فهم صوفيةُ أهلِ السماء ، إخوانُنا في النسب ، فإسرافيلُ قائدهم ومرشدُهم ، وجبريلُ رئيسُهم ومتكلِّمهم ، والحقُّ تعالىٰ أنيسُهم ومليكهم ، فعليهم السلامُ من الله عز وجل) .

---

(١) في النسخ : (الهمداني) بالدال المهملة ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وتقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٨٢) (٢٥٩) .

وتكلم الشيخُ يوسف يوماً على الناس ، فقال له فقيهان كانا في مجلسه : اسكتْ يا مُبتدع ، فقال لهما : اسكتا أنتما لا عشتما . فماتا في الحال في مكانهما .

وجاءته امرأةٌ من همذان ، أَسرَ ولدَها الفرنجُ ، وهي باكيةٌ ، فقال لها : ما لك ؟ فقالت : أسرَ الفرنجُ ولدي ، فقال : اللهم ؛ فكَّ أسرَهُ ، وعجِّل فرجَهُ ، ثم قال لها : اذهبي إلىٰ دارك ، فستجدين ولدَكَ إن شاء الله تعالىٰ ، فذهبت ؛ فإذا ولدُها في الدار ، فتعجَّبتْ من ذلك ، وسُئل الولدُ : كيف كان الأمر ؟! فقال : كنتُ الساعةَ في القسطنطينية العظمىٰ ، والقيودُ في رجلي ، والحرسُ عليَّ ، فأتاني شخصٌ ، فاحتملني ، وأتىٰ بي إلىٰ هنا في لمح البصر .

ولد رضي الله عنه في حدود سنة أربعين وأربع مئة ، وتوفي سنة خمسٍ وثلاثين وخمس مئة ، ودفن ببامَيين علىٰ طريق مرو مدَّةً ، ثم حُملتْ جثَّته إلىٰ مرو ، ودفن بها في الحضرة المنسوبة إليه ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٦٢) الشيخ عقيل المنبجي رضي الله عنه[١]

هو شيخُ شيوخ الشام في وقته ، وهو شيخُ عدي بنِ مسافر .

وهو أولُ من دخل بالخرقة العمرية إلى الشام .

وكان يُسمَّى الطيار ؛ لأنه لما أرادَ الانتقال من قريته التي كان مُقيماً بها ببلاد الشرق . صعدَ إلىٰ منارتها ، ونادىٰ بأهلِها ، فلما اجتمعوا طار في الهواء ، والناسُ ينظرون إليه ، فجاؤوا فوجدوه في مَنْبج ، رضي الله عنه .

وكان يقول : (خوفُ العارفين : هو أن يوجدَ هواهم في أمره تعالىٰ ، وخوفُ المتقين أن يروا نفوسَهم عند رؤية الخلقِ ؛ فالخوف ملاكُ الأمرِ كلِّه ، ولولا الخوفُ لنازعوا ربَّهم في الربوبية) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٨٣) (٢٦٠) .

وكان يقول : (طريقُ سلوكنا : الجدُّ والكدُّ ، ولزومُ الحدِّ حتىٰ ينقد ؛ فإما أن يبلغَ الفتىٰ مناه ، وإما أن يموت بداه)[١]

وكان يقول : (من طلبَ لنفسه حالا أو مقالاً فهو بعيد عن الطريق) .

وكان يقول : (الفتوَّةُ : هي رؤيةُ محاسنِ العبيد ، والغيبةُ عن مساويهم) .

وكان يقول : (فقدُ الأسف والبكاء في مقامِ السلوك عَلَمٌ من أعلام الخذلان) .

وكان رضي الله عنه إذا نادىٰ وحوش الفلاة جاءتْ صاغرةً لدعوته حتىٰ تسدَّ الأفقَ .

وكان عكَّازُهُ لا يستطيعُ أحدٌ حملَهُ

سكن منبجَ واستوطنها نيِّفاً وأربعين سنة ، وبها مات ، وقبره بها ظاهرٌ يزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٦٣) الشيخ أبو يَعِزَّىٰ المغربي رضي الله عنه[٢]

انتهتْ إليه الرئاسةُ في تربية الصادقين بالمغرب ، وتخرَّجَ بصحبته جماعةٌ من مشايخها وزهَّادها ، وكان أهل المغرب يستسقون به فيسقون .

وكان يقول : (كلُّ حقيقةٍ لا تمحو أثرَ العبد ورسومَهُ فليست بحقيقة) .

وكان يقول : (من طلبَ الحقَّ من جهة الفضل وصلَ إليه ، وإلا لم يصل)

وكان يقول : (أنفعُ الكلام : ما كان إشارةً عن مشاهدة ، أو إخباراً عن حضور) .

وله كلامٌ عالٍ في الطريق ذكرناه في « الطبقات الكبرىٰ » .

أقام رضي الله عنه في بدايته خمس عشرة سنة لا يدخلُ البلاد والقُرىٰ ، وإنما طعامُهُ في البراري ورقُ الشجر ، وكانت الأُسْدُ تأوي إليه ، والطيرُ تعكف عليه .

وكان إذا قال للسباع : لا تسكنوا هنا يأخذون أشبالَهم ، ويخرجون بأجمعهم .

---

(١) في « روض الرياحين » (٢/ ٣٢) : (يبلغ الفتىٰ إلىٰ شفائه أو يموت بدائه) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٨٥) (٢٦١) .

قال الشيخ أبو مدين : وزرتُه مرَّةً في البرية ، وحوله السباعُ والوحوش والطيور تشاوره على أحوالها ، وتسمعُ إشارتَهُ ، وكان الوقتُ وقتَ غلاء ، فإذا قال لوحش : اذهبْ إلى مكان كذا فهناك قوتُك. . يذهب إليه كما قال ، فيجد قوته ، وكذلك للطيور ، فتنقاد لأمره ، ثم قال : يا شعيبُ ؛ إن هـٰذه الوحوشَ والطيورَ إنما تحمَّلت هـٰذا الغلاء في هـٰذه البلاد لمحبَّتِها في مجاورتي لا غير ، فتحمَّلتْ ألمَ الجوع لأجلي .

قال الشيخ محيي الدين بن عربي : (وكان أبو يَعِزَّىٰ لا يراه أحدٌ إلا عَمِي من نور وجهه ، ومن جملةِ من عَمِيَ عند رؤيته الشيخُ أبو مَدْين ، فكان لا يُبصر من يراه إلا إن مسحَ بثوب أبي يَعِزَّىٰ على وجهه ، فهناك يرتدُّ بصيراً) ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٦٤) الشيخ عدي بن مسافر رضي الله عنه[١]

هو أحدُ أركان هـٰذه الطريقة .

وكان الشيخُ عبد القادر الجيلي ينوِّهُ بذكره ، ويُثني عليه ، ويشهدُ له بالسلطنة ، وقال له : (لو كانتِ النبوَّةُ تُنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بنُ مسافر ؛ فإنه بالغَ من المجاهدة في بدايته حتىٰ أعجزَ المشايخ بعده) .

وكان إذا سجدَ سمعوا لمخِّه في رأسه صوتاً كصوت وقع الحصاة في القرعة اليابسة من شدَّةِ ما ساح في الصحارىٰ والجبال سنين عديدة[٢]

وكانتِ الحيات والهوامُّ والسِّباع تألفُهُ وتشاورُهُ علىٰ أمورها .

وهو أولُ من تصدَّرَ لتربية المريدين ببلاد المشرق ، وقصده الناسُ بالزيارة من سائر أقطار الأرض .

وكان يقول : (لا تنتفعُ بشيخٍ إلا إن حصل في قلبك له الاعتقادُ التام الذي ما فوقه

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٣٨٦) (٢٦٢) .

(٢) في (هـ ، و ، ي) : (إقامته) بدل (ما ساح)

اعتقاد ، وهناك يجمعُكَ في حضوره ، ويحفظُك في مغيبه ، ويهديك بأخلاقه ، ويؤدِّبُك بإطراقه ، وينوِّر باطنَكَ بإشراقه ، وإن كان اعتقادُكَ فيه ناقصاً فلا تشهدْ فيه شيئاً مما قلناه ، بل تنعكسُ ظلمةُ باطنك عليك ، فتشهد صفاته الكاملةَ علىٰ صورةِ صفاتك الناقصة ، فلا تنتفع به ولو كان أكبرَ الأولياء) .

وسُئل عن حُسْنِ الخُلق : ما هو ؟ فقال : (هو معاملةُ كلِّ شخصٍ بما يُؤنسه ، فمع العلماء بحسنِ الاستماع ، ومع أهل المعرفة بالسكون والانكسار ، ومع أهل التوحيد بالتسليم) .

وكان يقول : (إذا رأيتم الرجلَ تظهر له الكراماتُ والخوارق فلا تعبؤوا به حتىٰ تنظروه عند الأوامر والنواهي ؛ فإن جماعةً من الرهبان أظهروا خوارقَ وعجائب وهم كفار) .

وكان يقول : (من لم يأخذْ أدبه عن المتأدِّبين أفسدَ كلَّ منِ اتَّبعه ، ومن كان فيه أدنىٰ بدعةٍ فاحذروا مجالسته ؛ لئلا يعودَ عليكم شؤمُها ولو بعد حين) .

وكان يقول : (منِ اكتفىٰ بالكلامِ في العلم من غير عملٍ انقطعَ عن الله ، ومنِ اكتفىٰ بالتعبُّدِ من غير فقهٍ خرج من دين الله ، ومنِ اكتفىٰ بالفقهِ دون ورعٍ اغترَّ بالله ، ومن قام بما يجب عليه من الأحكام نجا) .

وكان يقول : (أولُ ما يجبُ علىٰ سالك طريقنا هـٰذه تركُ الدعاوى الكاذبة ، وإخفاءُ المعاني الصادقة)

وكان أكثرُ إقامته في الجزيرة السادسة من البحر المحيط .

وكان يأمرُ الريحَ أن يسكنَ فيسكن لوقته .

سكن جبل الهَكَّار مدة[١] ، واستوطن لاَلُش إلىٰ أن مات بها سنة ثمانٍ وخمسين وخمس مئة ، ودفن بزاويته المنسوبة إليه ، وقبره بها ظاهر يُزار ، رضي الله عنه .

---

(١) في (ج ، د) : (قرىٰ) بدل (جبل) .

ومنهم :

(٢٦٥) الشيخ علي بنُ وهب رضي الله عنه[١]

انتهتْ إليه تربية المريدين بسِنْجار وما يليها .

وتلمذتْ له جماعةٌ من الأكابر ؛ مثل الشيخ سويد السِّنجاري ، والشيخ أبي بكر الجاوي[٢] ، والشيخ سعد ، وغيرهم .

ومات عن أربعين خادماً ، كلُّهم من أرباب الأحوال .

ولما مات اجتمعَ هٰؤلاء الخدَّامُ في روضةٍ تجاه زاويته ، فجعل كلُّ واحدٍ منهم يأخذُ من تلك الروضة قبضةً من نباتها ، ويتنفَّسُ عليها ، فتهتز من جميع الأزهار المختلفة الألوان ؛ من أصفر وأخضر وأزرق وأبيض ، وغير ذلك ، حتىٰ أقرَّ بعضُهم لبعضٍ بالتمكين والتصريف .

وكان يقول : (حفظتُ القرآن العظيم وأنا ابن سبع سنين ، وكنت أتعبَّدُ في مسجدٍ ، فبينا أنا نائمٌ ذات ليلةٍ رأيتُ أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، فقال لي : يا علي ؛ أُمرتُ أن أُلبسك هٰذه الطاقية ، وأخرجَ من كمِّهِ طاقيةً ، ووضعها علىٰ رأسي ، ثم جاءني الخَضِرُ عليه السلام بعد أيام وقال لي : يا علي ؛ اخرجْ إلى الناس وانفعهم ، فتثبَّتُّ في أمري ، ثم رأيتُ أبا بكر الصديق ، وقال لي كمقالة الخضر عليه السلام ، فاستيقظتُ وتثبَّتُ في أمري ، ثم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليلة الثالثة ، وقال لي كمقالة الصديق ، فاستيقظت وعزمتُ على الخروج ، ونمتُ في آخر الليل ، فرأيتُ الحقَّ جلَّ وعلا ، وقال لي : يا عبدي ؛ قد جعلتُك من صفوتي في أرضي ، وأيَّدتُكَ في جميع أحوالك بروحٍ مني ، وأقمتك رحمةً لخلقي ، فاخرجْ إليهم ، واحكمْ فيهم بما علَّمتك من حكمي ، وأظهرْ لهم بما أيَّدتُك به من آياتي ،

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٤٨٩) (٢٦٣) .

(٢) في « بهجة الأسرار » : (ص ٥١١) ، و« قلائد الجواهر » : (ص ٩٥) : (الخبازي) .

فاستيقظتُ ، وخرجت للناس ، فهرعوا إليَّ من كلِّ جانبٍ) رضي الله عنه .

وكان يقول : (معرفةُ الله عزيزةٌ لا تُدرك بالعقل ، بل يقتبس أصلُها من الشرع ، ثم تتفرَّعُ حقائقُها على قدر القرب ؛ فقومٌ عرفوه بالوحدانية فاستراحوا ، وقومٌ عرفوه بالقدرة فتحيَّروا ، وقوم عرفوه بالعظمة فوقفوا على أقدام الدهشة ، وأيقنوا أنه لن يدركَ أحدٌ عينَهُ ، وقومٌ عرفوه بعزَّةِ إلـٰهية ، فنزَّهوه عن الكيفية والماهية ، وقومٌ عرفوه بصنائعه ، واستدلَّوا عليه ببدائعه فشاهدوه بإبدائه ، وقومٌ عرفوه بالتلوين[١] فمنحهم بالثبات والتمكين ، وقومٌ عرفوه بلا غير فأراهم من آياته ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) .

وكان يقول : (الزهد فريضةٌ ، وفضيلة ، وقربة ؛ فالفرضُ في الحرام ، والفضلُ في المتشابه ، والقربةُ في الحلال ، والزهدُ أعمُّ من الورع ؛ لأن الورعَ فيه إبقاءُ شيءٍ ، والزهدَ قطعُ الكلِّ) .

وكان يقول : (من سكنَ بسرِّه إلى غير الله نزعَ الله تعالى الرحمةَ من قلوب الخلق عليه ، وألبسَهُ لباسَ الطمع فيهم ، فلا هو يرجعُ عن سؤالهم ، ولا هم يعطونه شيئاً) .

مات بسِنْجار ، وقبرُهُ بها ظاهر يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٦٦) الشيخ موسى بن ماهين الزولي رضي الله عنه[٢]

هو أحدُ الأئمة الذين خرقَ الله تعالى لهم العادات ، وأوقع اللهُ تعالى له الهيبةَ في القلوب ، وانعقد عليه إجماعُ المشايخ ، وقُصد لحلِّ المشكلات وكشف الخفيَّات .

وكان الشيخ عبد القادر يُثني عليه ويعظِّم شأنه ، وقال مرةً لأهل بغداد : ستطلعُ عليكم شمسٌ ما طلعت بعدُ على أحدٍ ، فقيل : ومن هو ؟ فقال : الشيخ موسى الزولي .

---

(١) في (هـ ، و ، ح ، ي) : (التكوين) بدل (التلوين) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (١/ ٤٩١) (٢٦٤) .

وله كلامٌ عالٍ في الطريق لا يكادُ يفهمُهُ أكابرُ الأولياء فضلاً عن غيرهم ، أودعنا طائفةً منه في « الطبقات الكبرىٰ » .

وكان كثير المشاهدةِ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يشاورُهُ في جميع أموره .

وكان إذا مسَّ الحديدَ بيده لانَ حتىٰ يصيرَ كاللُّبان .

وكان يقولُ للصبيِّ الذي عمره أربعة أشهر فأقل : اقرأ سورةَ كذا ، فيقرؤها الصبيُّ بلسانٍ فصيح ، ولا يزالُ يتكلَّمُ من ذلك الوقت .

استوطن رضي الله عنه ماردين ، وبها مات ، وقد كبر سنُّهُ ، وقبره بها يُزار .

ولما وضعوه في قبره نهضَ قائماً يُصلي في اللَّحدِ ، واتَّسعَ له القبرُ ، وأُغمي علىٰ من نزلَ قبرَه من الناس ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٦٧) الشيخ علي بن الهِيتي رضي الله عنه[1]

هو من أكابر مشايخ العراق ، وهو أحدُ من انتسب إلى القطبية العظمىٰ .

وكان عنده الخرقتان اللَّتان ألبسهما أبو بكر الصديق رضي الله عنه لأبي بكر بن هُوارا في النوم ، واستيقظ فوجدهما عليه ، وهما : ثوبٌ وطاقية .

وكان ابنُ هُوارا أعطاهما للشَّنْبَكي وأعطاهما الشنبكيُّ لتاج العارفين أبي الوفا ، وأعطاهما أبو الوفا ، للشيخ علي بن الهِيتي ، وأعطاهما ابنُ الهيتي للشيخ علي بنِ إدريس ، ثم فُقدتا .

وهيت : قريةٌ من قرى العراق .

قالوا : ومكث الشيخ عليٌّ هـٰذا ثمانين سنة ليس له خلوةٌ ولا معزلٌ يعتزل فيه في ليلٍ أو نهار ، وكان ينام بين الفقراء لا يحتاجُ إلىٰ خلوةٍ ولا عزلة ولا غيرهما من أركان الطريق .

وقد كان الشيخ عبدُ القادر يقول : (ما دخل أحدٌ العراق إلا وهو في ضيافتنا ،

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٠٥) (٢٦٧) .

إلا علي بن الهِيتي فإنَّا نحن في ضيافته) .

وكان يقول : (انفتحَ رتق قلبِ علي بن الهِيتي وهو ابنُ سبعِ سنين ، فكان يُخبر بالمغيَّبات ، وتظهرُ على يديه الكرامات ، وأجمعتِ العلماء على جلالته وعلوِّ منصبه) ، رضي الله عنه .

وكان يقول : (الشريعةُ : ما ورد به التكليف ، والحقيقةُ : ما حصل به التعريف ؛ فالشريعةُ مؤيَّدةٌ بالحقيقة ، والحقيقةُ مقيَّدةٌ بالشريعة ، والشريعةُ وجود الأفعال لله تعالى ، والقيام بشروط العلم بواسطة العمل ، والحقيقةُ شهود الأحوال بالله ، والاستسلامُ لغلبات الحكم بغير واسطة) .

وكان يقول : (ما دام التمييزُ باقياً فالتكليف متوجِّهٌ) .

وكان يقول : (علامةُ صحة الحال : أن يكونَ صاحبُهُ محفوظاً في حال غيبته كما كان مغلوباً في حال صحوه) .

وكان يقول : (الحقُّ تعالى وراء جميع ما أدركه الخلق بعقولهم وعلومهم ومعارفهم ، وكان يتمثَّلُ كثيراً بهذه الأبيات : [من البسيط]

إنْ رحتُ أطلبُهُ لا ينقضي سفرِي ... أوْ رمتُ أحضرُهُ أُوحشتُ في الحضرِ
فما أراهُ ولا ينفكُّ عنْ نظرِي ... وفي ضميرِي ولا أَلقاهُ في عُمُرِي
فليتني غبتُ عنْ جسمِي برؤيتِهِ ... وعنْ فؤادِي وعنْ سَمعِي وعنْ بصرِي

سكن رضي الله عنه زَرِيران[1] ؛ بلدة من قرى نهر الملك إلى أن مات سنة أربعٍ وستين وخمس مئة ، عن نيفٍ وعشرين سنة بعد المئة ، وبها دُفن ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار .

زَرِيران : على وزن فقيران .

---

(١) في (ب ، ج ، د) : (زربلان) ، وفي (هـ ، و ، ح ، ي) : (وزيران) ، وفي (ز) : (زويلان) ، والمثبت من (أ ، ط ، ك) ، قال ياقوت الحموي في « معجمه » (٣/ ١٤٠) : (**زريران** : بفتح الزاي وكسر الراء وياء ساكنة وراء أخرى وآخره نون : قرية بينها وبين بغداد سبعة فراسخ ، بها قبر الشيخ الصالح الزاهد العابد علي بن أبي نصر الهيتي) .

ومنهم :

(٢٦٨) الشيخ عبد الرحمـٰن الطَّفْسونجي رضي الله عنه[١]

كان من أكابر مشايخ العراق ، وأعيان العارفين ، وصدور المقربين .

وكان يقول : (لا تصحُّ المراقبةُ لعبدٍ إلا بعد متابعته لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أفعالِهِ وأحواله وأقواله ، فمنِ ادَّعىٰ مراقبةَ الله وهو علىٰ غير قدم الاتِّباع فهو كاذبٌ في دعواه) .

وكان يقول : (أنا بين الأولياء كالكُرْكي أطولُهم عنقاً) .

وكان يتكلمُ في الشريعة والحقيقة علىٰ رؤوس العلماء علىٰ كرسيٍّ عال .

وكان يقول : (منِ اشتغل بحبِّ الدنيا ابتلاه الله بالذُّلِّ فيها ، ومن تعامىٰ عن نقائص نفسه طغىٰ وبغىٰ ، ومن تزيَّنَ بباطلٍ فهو مغرور) .

وكان يقول : (أنفعُ العلومُ : العلمُ بأحكام العبودية ، وأرفعُ العلوم : علمُ التوحيد) .

وكان يقول : (لا يضرُّ مع التواضع بطالةٌ إذا قام بالواجبات والسنن ، ولا ينفع مع الكِبر عملٌ مبرورٌ ، ولا علم ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٠]) .

وكان يقول : (من قامَ بالله ثبتَ ، ومن قام بنفسه سقطَ) .

سكن رضي الله عنه طفسونج ؛ بلدة بأرض العراق ، وبها مات ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٢٦٩) الشيخ بقاء بن بطُّو رضي الله عنه[٢]

هو من أعيان مشايخ العراق ، وأكابر الصديقين .

وكان سيدي عبدُ القادر يُثني عليه كثيراً ، ويقول : (كلُّ المشايخ أُعطوا بالكيل إلا الشيخ بقاء بنَ بطو فإنه أُعطي جُزافاً) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٥٠٧) (٢٦٨) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٥٠٩) (٢٦٩) .

وانتهت إليه الرئاسة فيما وراء نهر الملك وما يليه .

وتلمذ له خلائقُ لا يُحصون من العلماء والصلحاء ، وقصدوه بالزيارة والنذور .

وكان يقول (الفقرُ : هو تجرُّدُ القلب من علائق الدنيا والآخرة ثقةً بالله عز وجل ، وعلامةُ صحة تجرُّدِهِ : ألا يتغيرَ عليه الحالُ بوجود الأسباب أو فقدها ، ولا يشهد له مع ذلك صفة فقر) .

وكان يقول : (من أنصفَ الناس من نفسه ، وقَبِلَ النصيحة ممن هو دونه . . أدركَ شرفَ المنازل) .

وكان يقول : (من لم يجدْ له من قلبه زاجراً فهو من إخوان الشياطين ، وقلبُهُ خراب) .

وكان يقول : (من لم يستعن بالله علىٰ نفسه صرعته) .

وكان يقول : (من لم يقم بآداب البدايات ، فكيف يقومُ بآداب النهايات ؟!)

وبات عنده ثلاثةٌ من الفقهاء ، فصلُّوا خلفه العشاء ، فلم يقرأ كما يُريدُ الفقهاء ، فساءَ ظنُّهم به ، وناموا عنده في الزاوية ، فأجنبوا ثلاثتُهم ، وخرجوا علىٰ نهرٍ علىٰ باب الزاوية ، فنزلوا فيه يغتسلون ، فجاء أسدٌ عظيمُ الخلقة ، وبركَ علىٰ ثيابهم ، وكانتْ ليلةً شديدة البرد ، فأيقنوا بالهلاك ، فخرج الشيخُ من الزاوية ، فجاء الأسدُ وتمرَّغَ علىٰ رجليه ، فاستغفروا الله في حقِّ الشيخ وتابوا

سكن باب نوس ؛ قرية من قرىٰ نهر الملك ، وبها مات سنة ثلاث وخمسين وخمس مئة ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار .

ومنهم :

(٢٧٠) أبو سعيد القِيلُوي رضي الله عنه[١]

هو من أكابر العارفين ، والأئمة المحققين ، وكان يُفتي ببلده وما حولها .

وكان يتكلم بقِيلُوية في علوم الشرائع والحقائق علىٰ كرسيٍّ عالٍ .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥١١) (٢٧٠) .

وكان يقول : (من شرط الفقير : ألا يملكَ شيئاً ، ولا يَملكُهُ شيءٌ ، وأن يصفو قلبُهُ من كلِّ دنسٍ ، ويكونَ سليمَ الصدر لكلِّ مسلم ، ولا يكونَ عنده شحُّ نفسٍ لشيءٍ من الدنيا) .

وكان يقول : (التصوُّفُ : هو عدم الميل إلىٰ غير الحقِّ إلا بإذن الحقِّ ، قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٧]) .

وكان يقول : (التوحيدُ : غضُّ الطرف عن الأكوان بمشاهدة الحقِّ تعالىٰ) .

وكان يقول : (العارفُ وحدانيُّ الذات ، لا يقبلُ أحداً ، ولا يقبله أحدٌ) .

وكان الخضر عليه السلام يأتيه كثيراً .

سكن رضي الله عنه قِيلُويَة من قرىٰ نهر الملك ، قريبة من بغداد ، وبها مات قريباً من سنة سبعٍ وخمسين وخمس مئة ، وقبره بها ظاهر يُزار .

وكان يلبس لباسَ العلماء ، ويتطيلسُ ، ويركب البغلة .

ودعي مرَّةً إلىٰ طعامٍ هو وأصحابه ، فمنعهم من أكله ، وأكله كله وحده ، وقال : إنما منعتكم من أكله ؛ لأنه كان حراماً ، ثم إنه تنفَّس ، فخرج من أنفه دخانٌ عظيم كالعمود ، وتصاعد في الجوِّ ، والناسُ ينظرون إليه ، ثم خرجَ من فمه عمودُ نارٍ ، وتصاعدَ في الجوِّ حتىٰ غاب عن أبصار الحاضرين ، ثم قال : هـٰذا الذي رأيتموه هو الطعامُ الذي أكلته عنكم ، وصرفته عني ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٧١) الشيخ مطر الباذرائي رضي الله عنه[١]

هو من أجلاء مشايخ العراق ، وسادات العارفين ، أجمعَ العلماءُ علىٰ جلالته .

وكان شيخُه تاجُ العارفين أبو الوفا يقول : (الشيخ مطر وارثُ حالي ومالي) .

وكان الغالبُ عليه حالةَ السكر .

---

(١) في غير (ج ، ي) : (البادرائي) بالدال بالمهملة ، والمثبت من (ج ، ي) ومصادر ترجمته ، وتقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥١٢) (٢٧١) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لذَّةُ النفوس في مناجاة القدُّوس ، ولذَّةُ الأرواح الشربُ بكأس المحبة من أيدي عرائس الفتح اللدني في خلوةِ الوصل على بساط المشاهدة ، ولذَّةُ الأسرار مطالعةُ نسيم الحياة الدائمة ، والوصولُ إلى حقائق الغيوب بضمائر القلوب ، ولذَّةُ القبول ملاحظةُ أسرار الملكوت الخفية عن الأبصار) .

وله كلام عالٍ في الطريق ذكرنا جملةً منه في « الطبقات الكبرى » .

وكان رضي الله عنه من الأكراد ، وسكن باذراء ؛ قرية من أعمال النجف بأرض العراق ، وبها مات ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٧٢) أبو محمد الشيخُ ماجد الكردي رضي الله عنه[١]

هو من أعيان المشايخ العارفين ، والصدور المقربين ، انعقد عليه إجماعُ المشايخ بالإجلال والتعظيم .

وكان يقول : (قلوبُ المشتاقين منوَّرةٌ بنور الله تعالى ، فإذا تحرَّك فيها الاشتياقُ أضاءَ نورُهُ ما بين السماء والأرض ، فيباهي اللهُ تعالى به الملائكة) .

وكان يقول : (من لم يكنْ عنده أنسٌ بربِّه فليس هو بمحبٍّ لربه) .

وكان يقول : (الشوقُ : نارُ الله الموقدة ، لا تهدأُ إلا بلقاء الله ، والنظرِ إليه) .

وكان يقول : (كفى بالمرء علماً أن يخشى الله عز وجل ، وكفى به جهلاً أن يُعجبَ بنفسه) .

وكان يقول : (العُجْب فضلةُ حمقٍ ، يريدُ صاحبُه أن يُغطِّي به عيوب نفسه ، فلا تتغطَّى) .

وكان يقول : (ما أوجدَ اللهُ تعالى عجيبةً إلا وأصلُها في صورة الآدمي ، فهو نسخة العالم المختصرة)[٢]

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (١/ ٥١٤) (٢٧٢) .

(٢) في « روض الرياحين » (٢/ ٧١) و« الطبقات الكبرى » (١/ ٥١٥) : (ما خلق الله سبحانه =

وجاءه مرةً فقيرٌ يُريدُ الحجَّ علىٰ قدم التجريد ، فأخرج له الشيخُ ماجد ركوةً ، وقال : إنك تجدُ ماءً فيها إنْ أردتَ الوضوء ، ولبناً إن عطشتَ ، وسَوِيْقاً إن جعتَ ، فلم يزلِ الرجلُ يُخرجُ من تلك الركوة ما يريد حتىٰ رجعَ إلىٰ بلاده بالعراق .

سكن رضي الله عنه جبل حمرين من أرض العراق[1] ، واستوطنه ، **إلىٰ أن مات به سنة إحدىٰ وستين وخمس مئة** ، وقبره ظاهرٌ يزار .

ومنهم :

(٢٧٣) الشيخ جاكير رضي الله عنه[2]

هو من أكابرِ المشايخ ، وأعيان العارفين .

وكان الشيخ تاج العارفين أبو الوفا يُثني عليه كثيراً ، وبعثَ إليه طاقيةً مع الشيخ عليٍّ الهيتي ، وأمرَهُ بأن يضعها علىٰ رأسه نيابةً عنه ، ولم يكلِّفْهُ الحضور إليه ، وقال : سألتُ اللهَ أن يكونَ جاكيرُ مُريدي ، فوهبه لي .

وكانت مشايخ العراق تقول : ما رأينا فقيراً انسلخَ من نفسه كما تنسلخُ الحيةُ من جلدها إلا جاكير) .

وكان يقول : (ما أخذتُ العهد علىٰ مريدي إلا بعد أن رأيتُ اسمَهُ مكتوباً في اللوح المحفوظ أنه من أولادي) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من شاهد الحقَّ تعالىٰ بقلبه سقطَ الكونُ من شهوده) .

وكان رضي الله عنه يُنفق من الغيب .

= وتعالىٰ من عجيبةٍ إلا ونقشها في صورة الآدمي ، ولا أوجد أمراً غريباً إلا وسلكه فيها ، ولا أبرز سراً إلا وجعل فيها مفتاح علمه ، فهو نسخة مختصرة من العالم) .

(١) في « بهجة الأسرار » (ص ٣٦١) ، و« قلائد الجواهر » (ص ١٠٧) ، (من أهل قُوسَان ؛ قصبة من أعمال العراق ، وبها توفي) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥١٦) (٢٧٣) .

وله كلامٌ عالٍ في الحقائق ، ذكرنا بعضَه في « الطبقات الكبرىٰ » .

سكن رضي الله عنه صحراء العراق بالقرب من قنطرة الرصاص علىٰ مسيرة يومٍ من سامراء ، واستوطنها إلىٰ أن مات بها ، وعَمَّر الناسُ عند قبره قريةً يطلبون التبرك بالقرب منه ، وكان من الأكراد .

ومنهم :

(٢٧٤) الشيخ أبو محمد القاسم بن عبدٍ البصري رضي الله عنه[١]

كان من أعيان مشايخ العراق وأجلاء المقربين .

كان يُفتي علىٰ مذهب الإمام مالك ، وله الكراماتُ والخوارق .

وكان يتكلمُ في الشريعة والحقيقة علىٰ كرسيٍّ عالٍ .

وكان يقول : (الوجد جحودٌ ما لم تكن عن شهود ، وشاهدُ الحقِّ ينفي شاهد الوجود ، ويمنعُ النوم) .

وكان يقول : (أرواحُ الواجدين عطرةٌ لطيفة ، وكلامهم يحيي مواتَ القلوب ، ويزيدُ في العقول) .

وكان يقول : (كلُّ وجدٍ لا يسقطُ التمييز ، ويجعل الأماكنَ كلها واحداً ، والأعيان عيناً . فليس بوجدٍ ، إنما هو تلاعبٌ) .

وكان يقول : (الصحو إنما يكونُ بالحقِّ ، فإذا كان بغير الحقِّ فهو حيرة)[٢]

وكان يقول : (المواجيدُ : ثمراتُ الأوراد ، ونتائج المنازلات) .

---

(١) في (هـ ، و ، ح ، ي) : (أبو محمد القاسم بن عبد الله البصري) ، والمثبت موافق لمصادر ترجمته ، وتقدمت مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥١٧) (٢٧٤) .

(٢) في « بهجة الأسرار » (ص ٣٧٠) : (فالصحوة إنما هو بالحق ، وكلُّ ما كان في غير الحقِّ لم يَخلُ من حيرة ، لا حيرة في شبهة ، بل حيرةٌ في مشاهدة نور العزة ، وكلُّ ما كان بالحق لم تعتور عليه علته) .

وله كلامٌ عال في الطريق ، ذكرنا بعضَهُ في « الطبقات الكبرىٰ » .

وكان رضي الله عنه إذا خرجَ من خلوته لا يمرُّ علىٰ شجرةٍ يابسة إلا أورقت في الوقت ، ولا بذي عاهةٍ إلا عُوفي لوقته .

سكن رضي الله عنه بالبصرة ، وبها مات قُبيل سنة ثمانين وخمس مئة ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار .

ولما صلى الناسُ علىٰ جنازته سمعوا في الجوِّ أصواتَ طبولٍ تُضرب ، وكانوا كلما رفعوا أيديهم في تكبيرات الصلوات سمعوها .

ومنهم :

(٢٧٥) الشيخ عثمان بن مرزوق القرشي رضي الله عنه[1]

هو من أكابرِ مشايخ مصر المشهورين ، وصدور العارفين .

انتهتْ إليه الرئاسةُ في الطريق ، وأجمع العلماءُ علىٰ جلالته وكراماته .

وكان يُفتي بمصر علىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وناظروه ، فقطعهم بالحُجَج .

وكان يقول : (لا سبيلَ لأحدٍ إلىٰ معرفة كُنْهِ ذات الحقِّ تعالىٰ ، وإنما يصلُ الناسُ في معرفته إلى الفكر والاعتبار بآياته ومصنوعاته) .

وكان يقول : (لو تناهتِ الحِكَمُ الإلـٰهيةُ في حدِّ العقول ، أو انحصرت القدرةُ الربانية في درك العلوم . . لكان ذلك تقصيراً في الحكمة ، ونقصاً في القدرة) .

وكان يقول : (جميعُ المخلوقات من الذَّرَّةِ إلى العرش العظيم طرقٌ مُتَّصلةٌ إلىٰ معرفته ، وحججٌ بالغةٌ علىٰ أزليته ، والكونُ كلُّه ألسنٌ ناطقة بوحدانيته) .

وكان يقول : (من عرفَ نفسَه لم يغترَّ بثناء الناس عليه ؛ لكونه يعرفُ أنها مأوىٰ كلِّ شرٍّ) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥١٩) (٢٧٥) .

وكان يقول : (من لم يقدرْ علىٰ صحبة مولاه لقلَّةِ صبره عليه ، ابتُلي بصحبة العبيد) .

وكان يقول : (من تحقَّق بالرِّضا تلذَّذَ بالبلا) .

وكان يقول : (من حِلية العارف الخشيةُ والهيبة) .

وكان يقول : (دليلُ تخليطك صحبتُك للمخلِّطين ، ودليل بطالتك ركونك للبطَّالين ، ودليل وحشتك أنسُك بالمستوحشين) .

وكان يقول : (من غلب عليه حالُهُ فلا يحضرْ مجلسنا في السماع) .

وكان له كلامٌ عالٍ في الحقائق ذكرنا جملةً منه في « الطبقات الكبرىٰ » .

وطلب منه أصحابُهُ مرةً أن يحدِّثَهم بشيءٍ من الحقائق ، فقال لهم : كم أصحابي اليوم ؟ قالوا : ست مئة مُريد ، فقال : استخلصوا لي منهم مئةً ، ثم استخلصوا لي من المئة عشرين ، ثم استخلصوا لي من العشرين أربعةً ، ففعلوا ، وكان الأربعة : ابن القسطلاني ، وأبو طاهر ، وابن الصابوني ، وأبو عبد الله القُرطبي ، فقال الشيخ : لو تكلَّمتُ بكلمةٍ من الحقائق لكانَ أولُ من يفتي بقتلي هـٰؤلاء الأربعة .

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يخرجُ في الليل من مصر إلىٰ مكة ، فيطوف ويشرب من ماء زمزم ، ويتركَّع تحت الميزاب ، ثم يخرج إلى المدينة المشرَّفة ، فيزور النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ويُصلِّي في الروضة ما شاء الله ، ثم يخرجُ إلىٰ بيت المقدس ، فيصلي فيه إلىٰ قرب السحر ، ثم يرجع إلىٰ مصر ، فيُصلِّي بها الصبح .

قال خادمه : وكنا إذا مشينا معه لا نحسُّ بتعبٍ .

وكان يتكلَّمُ بسائر اللغات .

توفي رضي الله عنه بمصر سنة أربعٍ وستين وخمس مئة ، وقد جاوز السبعين سنة ، ودفن بالقَرافة فيما بين الإمامِ الشافعي والجبل ، وقبرهُ هناك ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٢٧٦) الشيخ سويد السِّنجاري رضي الله عنه[١]

هو من أعيان مشايخ بلاد المشرق .

انتهت إليه الرئاسةُ في الكلام على الشريعة والحقيقة بِسنجار وما يليها ، وقصدوه بالزيارة من سائر الأقطار .

وله كلامٌ عالٍ في الطريق أودعنا منه جملةً في « الطبقات الكبرىٰ » .

وكان يقول : (**العلومُ ثلاثةٌ** : علمٌ من الله ؛ وهو العلم بالأمر والنهي ، والأحكام والحدود ، وعلمٌ مع الله ؛ وهو علمُ الخوف والرجاء والمحبة والشوق ، وعلمٌ بالله ، وهو العلم بنعوته وصفاته ، وكلُّ باطنٍ لا يقيمه ظاهرٌ فهو باطل)[٢]

وكان يقول : (من وقع في أولياء الله ابتلاه الله تعالىٰ بانعقاد لسانه عند النُّطق بالشهادتين عند الموت) .

ووقعَ ذلك لشخصٍ في حياته كان حاضراً كلامَهُ ، فأنكر عليه ، فحضر الشيخُ وعفا عنه ، فانطلق لسانُهُ .

ورأىٰ مرةً رجلاً يحدِّقُ بصرَه إلى امرأةٍ ، فنهاه ، فلم ينته ، فقال : اللهم ؛ أعمِ بصرَهُ ، فعمي في الوقت ، ثم جاءه الرجلُ بعد سبعةِ أيام ، واستغفرَ وتاب ، فقال : اللهم ، إن كان صادقاً في توبته ؛ فردَّ عليه بصرَهُ ، وأعمِهِ عن رؤية ما لا يحلُّ له ، فأبصرَ في الحال ، قالوا : وكان الرجلُ بعد ذلك إذا أراد أن ينظرَ إلىٰ محرَّمٍ عليه لا يُبصر شيئاً .

وجاءه مرَّةً أعمىٰ ، فقال : يا سيدي ، أنا ذو عيال ، وقد عجزتُ عن الكسب ، فقال : اللهم ؛ ردَّ عليه بصرَهُ ، فردَّ الله عليه بصره ، ومكث عشرين سنة بصيراً بعد ذلك حتىٰ مات .

سكن رضي الله عنه سنجار ، واستوطنها إلىٰ أن مات بها ، وقبره بها ظاهر يزار .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٢٣) (٢٧٤) .

(٢) في (ب ، ج ، د ، ك) : (يشمه) بدل (يقيمه) .

ومنهم :

(٢٧٧) الشيخ حياة بن قيس الحرَّاني رضي الله عنه[١]

هو من أجلاء المشايخ ، وأكابر العارفين ، وأعيان المحقِّقين .

وهو أحدُ الأربعة الذين يتصرَّفون في قبورهم بأرضِ العراق .

وكان أهلُ حرَّان يَستسقون به ، فيُسقون) .

وكان يقول : (من أطفأ نورُ معرفته نورَ ورعه فقد خرجَ عن الطريق) .

وكان يقول : (من أحبَّ أن يرىٰ خوفَ الله تعالىٰ في قلبه ، ويُكاشفَ بأحوال الصديقين فلا يأكلُ إلا حلالاً ، ولا يعملُ إلا في سُنَّةٍ أو فريضة ، وما حُرم من الوصول ، وحُجب عن الملكوت أحدٌ إلا بسوء الطعمة ، وأذى الخلق) .

وكان يقول : (من أرادَ رقَّةَ القلبِ فليحضرْ مجالسَ الذكر ، ومن أراد نورَ القلب فليدمْ على الجدِّ) .

وكان يقول : (لا يكملُ فقيرٌ إلا بملازمته السنة والفريضة ؛ فالسُّنَّةُ تركُ الدنيا ، والفريضةُ صحبةُ الحقِّ جل وعلا) .

وكان يقول : (اجعلِ الزهدَ عبادتك ، واحذرْ أن تجعلَهُ حرفتك) .

سكن رضي الله عنه حرَّان ، واستوطنها إلىٰ أن مات بها سنة إحدىٰ وثمانين وخمس مئة ، ودفن بظاهرها ، وقبرهُ بها ظاهرٌ يُزار .

ومنهم :

(٢٧٨) الشيخ رسلان الدمشقي رضي الله عنه[٢]

هو من أكابر مشايخ الشام ، وأعيان العارفين ، وأكابر المتصرفين ، وأجمع العلماءُ علىٰ جلالته .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٢٦) (٢٧٧) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٢٧) (٢٧٨) .

وكان يقول : (لا تأكلُ النارُ لحماً دخل زاويتي) .

ووقع أن رجلاً أدركته الصلاة ، ومعه لحمٌ نيء ، فدخل به الزاويةَ ، ثم أوقد عليه النار إلىٰ أن عجز وهو لم ينضجْ ، وظهر بذلك صدقُ مقالة الشيخ) .

وكان يقول : (العارفُ قلبُهُ لوحٌ منقوش بأسرار الموجودات ، فهو يُدرك حقائقَ تلك السطور ، ولا تتحرَّكُ ذرَّةٌ حتىٰ يُعلِمَه الله تعالىٰ بها) .

وكان يقول : (الحدَّةُ : مأوىٰ كلِّ شرٍّ ، والغضبُ يُحوجك إلىٰ ذُلِّ الاعتذار) .

وكان يقول : (**مكارمُ الأخلاق** : العفو عند القدرة ، والتواضعُ عند الرفعة ، والعطاءُ بغير منَّة) .

وكان يقول : (الكريمُ : من احتمل الأذىٰ ، ولم يَشْكُ لأحدٍ عند البلوىٰ) .

وكان يقول : (**سببُ الغضب** : هجومُ ما تكرهه النفس عليها ممن هو دونها[1] ، فتحدث السطوة والانتقام) .

قال شيخ الإمام تقي الدين السبكي رضي الله عنه : (وحضرتُ مرَّةً سماعاً فيه الشيخُ رسلان ، فأنشد القوَّالُ شيئاً ، فكان الشيخُ رسلان يثبُ في الهواء ، ويدورُ فيه دوراتٍ ، ثم ينزل إلى الأرض يسيراً يسيراً ، فعل ذلك مراراً ونحن نشاهدُهُ ، فلما استقرَّ على الأرض أسندَ ظهره إلىٰ شجرة تين كانتْ يبستْ ، ووقعَ ورقُها ، ولها سنين لم تحملْ شيئاً ، فأورقتْ وأثمرتْ في تلك السنة)[2]

---

(١) في النسخ : (فوقها) بدل (دونها) ، والخبر في « بهجة الأسرار » (ص ٣٩٩) : (سبب الغضب : هجوم ما تكرهه النفس عليها ممن هو دونها ، وسبب الحزن : هجوم ما تكرهه النفس ممن هو فوقها) .

(٢) توفي الشيخ رسلان الدمشقي كما في « سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٣٨٠) سنة (٥٥٠هـ) ، وتوفي الشيخ تقي الدين السبكي كما في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (١٠/ ٣١٦) سنة (٧٥٦هـ) ، وذكر القصة اليافعي في « خلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر » دون التعرض لذكر التقي السبكي ، فلعل هناك وهماً ، والله أعلم .

سكن رضي الله عنه دمشق ، واستوطنها إلىٰ أن ماتَ ، ودفن بظاهر دمشق ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار[١] .

ولما أن حُمل نعشه علىٰ أعناق الرجال ، جاءتْ طيورٌ خضر ، فعكفت علىٰ نعشه حتىٰ دفنوه ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٧٩) الشيخ أبو محمد عبد الرحيم المغربي القِناوي رضي الله عنه[٢]

هو من أجلاء مشايخ مصر المشهورين ، صاحبُ الكرامات والخوارق .

وكان إذا سمعَ المؤذِّنَ يتشهَّدُ يقول : شهدنا بما شهدنا ، وويلٌ لمن كَذَبَ على الله .

وكان يقول : (أدركتُ جميعَ صفات الله تعالىٰ إلا صفة السمع) .

وكان يقول : (جميع المتكلِّمين يُدندنون حولَ الحقِّ ، ولا يصلون إليه أبداً) .

وله كلامٌ عالٍ في الحقائق ذكرنا جملةً منه في « الطبقات الكبرىٰ » .

ونزل مرةً شَبَحٌ في مجلسه من الجو ، لا يدري الحاضرون ما هو ، فأطرقَ الشيخ عبدُ الرحيم ساعةً ، ثم ارتفعَ الشبحُ إلى السماء ، فسألوه عنه ، فقال : هـٰذا هو ملكٌ وقعتْ منه هفوةٌ بالنظر لمقامه ، فسقطَ يستشفع بنا ، فقبل اللهُ شفاعَتَنا فيه ، فارتفع .

وكان إذا شاوره إنسانٌ علىٰ شيءٍ يقول له : تمهَّلْ حتىٰ أستأذنَ لك فيه جبريل عليه السلام ، فيمكث ساعة وهو مطرقٌ ، ثم يقول : افعل أو لا تفعل .

قال بعضُهم : والمراد بجبريل هـٰذا ليس جبريل الذي يأتي الأنبياء ، إنما هو مَلَكٌ اسمُه جبريل على اسم جبريل الأعظم .

---

(١) قبره إلى الشرق من باب توما (٣٠٠ متر) ، اختاره مكان خيمة خالد بن الوليد لما فتح دمشق ، وبُني عليه مسجد .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٣٤) (٢٨٠) .

وكان رضي الله عنه إذا قال لعاميٍّ أو صغير : يا فلان ؛ تكلَّمْ لنا في معاني هٰذه الآية . . يتكلَّمُ فيها بكلامٍ ما طرقَ الأسماعَ مثلُهُ حتىٰ لو كان هناك ألفُ محبرةٍ تكتبُ لعجزتْ ، ثم إذا قال له : اسكت يا فلان ، لا يجدُ عنده كلمةً واحدة مما كان يقوله .

ولما مات قال بعض العارفين : لو مكَّنوني من عدم دفنه في الأرض لم أدفنْهُ ؛ بل أتركُهُ علىٰ وجه الأرض ؛ فكلُّ مَنْ نظرَ إليه نطقَ بالحكمة .

توفي رضي الله عنه بقِنا من صعيد مصر الأعلىٰ ، وقبرُه بها مشهور يزار .

وأخبرني شيخُنا الشيخُ محمد الشناويُّ رضي الله عنه قال : مرَّ كلبٌ علىٰ سيدي عبد الرحيم ، فقام له ، فقالوا له في ذلك ، فقال : إنما قمتُ إجلالاً لأثرِ الفقير الذي برقبته ، فرأوا فوجدوا في عنقه شرموطاً من جُبَّةِ فقيرٍ من صوف .

وقال له مرَّةً رجلٌ : أوصني ، فقال : (كن كتيس الغنم مع الغنم ، ساكتٍ على الدوام مع عدم غفلته عن مصالح رعيَّته) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٨٠) الشيخ أبو الحجَّاج الأَقْصُري رضي الله عنه[١]

كان من الأئمة الراسخين في طريق الولايةِ ، وأجمع الخلائقُ علىٰ إجلاله وإكرامه وتبجيله ، وكان متجرِّداً على الدوام .

وهو تلميذُ الشيخ عبد الرزاق المدفون بإسكندرية ، وهو تلميذُ الشيخ أبي مَدْين التِّلمساني .

وله كلامٌ عالٍ في الطريق ، وزاويته وقبرُهُ بناحية الأقصرين من صعيد مصر الأعلىٰ .

ومناقبه في الصعيد كثيرةٌ مشهورة .

وأنكر عليه مرةً أميرٌ ، فقال : تُنكرُ عليَّ وأنت رقاصٌ مغان ؟! فما ماتَ ذلك الأميرُ حتىٰ عُزلَ ، وصار رقاصاً كما قال الشيخ إلىٰ أن مات .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٥٣٩) (٢٨٢) .

وكان يقول : (كلُّ من رأيتموه يطلبُ الطريقَ فدلُّوه علينا ، فإن كان صادقاً أوصلناه إلىٰ مقصوده ، وإن كان كاذباً طردناه لئلا يتلفَ المريدين) .

وبلغه أنَّ مريداً يُريد أن يقتلَ شيخَهُ ليرثَ مقامه ، فأرسل إليه ، وقال : يا ولدي ؛ إن قتلتَ شيخَك غضبَ اللهُ عليك ، فكيف يُعطيك مقامه ؟! فاستغفرَ الفقيرُ ، وتاب إلى الله عز وجل .

وكان خادمُهُ أبو زكريا يقول : (دخلتُ على الشيخ أبي الحجاج مرةً ، فرأيت له عينين فوق الحاجبين) .

وكان الشيخ أبو الحجاج يقول : (كنتُ في بداية أمري إذا رأيتُ مقامي يعلو مقامَ أحدٍ من إخواني أقول : اللهم ؛ أعلِ مقامَهُ فوق مقامي ، كذلك درج الإخوان الصادقون ، لا حسدَ بينهم ولا حقدَ) .

وكان يقول : كنتُ أذكر في بدايتي (لا إلـه إلا الله) لا أغفُلُ عنها ، فقالتْ لي نفسي مرةً : مَنْ ربُّك ؟ فقلت لها : ربي الله ، فقالتْ لي : لا ، ليس لك ربٌّ إلا أنا ؛ وذلك أني أقولُ لك : أَطعمني واسقني ، فتفعلُ ، ثم أقول لك : قم تقوم ، أو امش تمشي ، فأنت تمتثلُ أوامري كلَّها ، فإذاً أنا ربُّك ، وأنت عبدي ، فبقيتُ متحيِّراً ، فظهر لي عينٌ من الشريعة وقالت لي : جادلها بكتابِ الله عز وجل ، فأفحمتُها .

وقيل له مرةً : من شيخُك في البداية ؟ فقال : أبو جِعْران[1] ، فقالوا : كيف ؟! قال : كنتُ ليلةً من ليالي الشتاء سهران ، وإذا بأبي جعران يصعَدُ منارةَ السراج ، فيزلَقُ ، ويرجعُ ؛ لكونها ملساء ، فعددْتُ عليه في تلك الليلة سبع مئة مرة ، وهو يقعُ ولا يرجع ، فقلت في نفسي سبع مئة مرة وهو يقع ولا يرجع ، ثم خرجتُ إلىٰ صلاة الصبح ورجعت ؛ فإذا هو جالسٌ عند الفتيلة ، فأخذتُ من ذلك ما أخذتُ .

وكان يقول : (لا يقدحُ عدمُ الاجتماع بالشيخ في صحة الاقتداء به ؛ فإننا نحبُّ اللهَ ورسولَهُ والصحابة والتابعين وغيرَهم ونقتدي بهم ، وما رأيناهم ؛ وذلك لأن صورةَ

---

(١) أبو جَعْران : كنية الجُعل ؛ وهي دويبة سوداء صغيرة تألف المواضع الندية ، وهي من الخنافس . « معجم متن اللغة » (ج ع ل) .

المعتقدات إذا ظهرت لا يحتاجُ معها إلىٰ صورةِ الأشخاص ، بخلاف صورة الأشخاص إذا ظهرت تحتاج إلىٰ صورة المعتقدات ، فإذا حصلَ الجمعُ بين المعنيين فهو الكمالُ) .

وكان الشيخُ يعيشُ بنُ محمود أحدُ أصحاب الشيخ أبي الحجاج يقول : جئتُ أنا واثنان من إخواني إلىٰ زيارة الشيخ بعد الصُّبح ، فوقفنا بالباب متأدِّبين ؛ وإذا بالخادمِ قد خرج ، فقال : يدخلُ يعيش ورفيقُهُ فلان ، ويذهب الثالثُ يستحمُّ ؛ فإنه جنبٌ ، قال : فدخلنا ، وقد هُدَّتْ أركانُنا من هيبته ، فدخلنا ، فوجدنا الشيخَ مُتَّكئاً ، فقال : يستغفرُ صاحبُكم ثم يدخل ، ففعلَ ، ودخلتُ ، فأنشدتُ الشيخَ في لسانِ الحال أبياتاً ، فتواجدَ وقام كأنه لم يعرفنا قطُّ ، وهي :

قد بلى القادوسُ بِهَمٍّ طويل	مُمتلي الرأس ودمعُه يَسيل
وقد ربطَ بالطونس وبالسحيل	وجميعُه بالحبال موثق
وألفُ كرَّةٍ في النَّهارِ يغرق	ما تراه نازلْ علىٰ قمته
وحبيل ناشوش في رقبته	قد عجزَ وتناقصَتْ همته
له رفيقٌ بقليلٍ يسبقه	له سنين يَجري وما يلحقه

فأخذ العهد على الشاب بالتوبة ، وطمَّعَه في عفو الله عنه إن تاب ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٨١) تلميذُه الشيخُ كمال الدين بنُ عبد الظاهر بإخْمِيم رضي الله عنه[1]

صحب الشيخَ أبا الحجَّاج وهو بقُوص .

وتجرَّدَ في بدايته عن الثياب والزرع وغيره ، ثم رجعَ إلىٰ لبس الثياب والمزارعات .

وصحب الشيخ إبراهيم الجَعْبَري المدفون بباب النصر من القاهرة المحروسة ، ثم

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٤٢) (٢٨٣) .

رجعَ إلىٰ إخْمِيم ، وبها مات علىٰ حالةٍ شريفة .

وكان يسمعُ وعظ الشيخ إبراهيم من مصر وهو في إخْمِيم إلىٰ أن يفرغَ من وعظه كأنه جالسٌ عنده .

وله كراماتٌ كثيرة مشهورة ببلاده رضي الله عنه ؛ منها : أنه لما جاور بمكة رأى الحَجَرَ الأسود وقد خرجَ من مكانه ، وصار له يدان ورجلان ووجه ، فمشىٰ ساعةً ، ثم رجع إلىٰ مكانه ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٨٢) الشيخ قطبُ الدين ابن القسطلاني رضي الله عنه[١]

كان مُقيماً بالقاهرة يُدرِّسُ في علمي الظاهر والباطن ، ويدعو الناسَ إلى الله تعالىٰ ، ويُلبسُهم الخرقةَ من طريق السُّهْروردي رضي الله عنه .

ومكث نحو ثلاثين سنة لا يضعُ جنبَهُ الأرضَ .

ولم يأكل من مالِ أحدٍ من الولاة حتىٰ مات .

ومنهم :

(٢٨٣) الشيخ أحمد الملثَّمُ رضي الله عنه[٢]

هو من أجلاء مشايخ مصر ، قصده الناسُ بالزيارة من سائر الأقطار ، وتأدَّبَ علماءُ مصر بين يديه .

وكان من أولاد ملوك المشرق ، وله مكاشفاتٌ غريبة في مستقبلِ الزمان .

وكان يُكاشف الناسَ بما في ضمائرهم ، ويقول : (ما أتكلَّمُ إلا بإذنٍ من ربِّي عز وجل) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٤٣) (٢٨٤) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٣٧) (٢٨١) .

وكان إذا لم يجدْ شيئاً يُعطيه للفقراء يقفُ يتمنَّىٰ في الأسواق ، فإذا أعطوه شيئاً تصدَّقَ به على المحاويج .

وكان الناس مُختلفين في عمره ؛ فمنهم من يقول : هـٰذا من قوم يُونس ، ومنهم من يقول : إنه رأى الإمامَ الشافعي بمصر .

قال الشيخ عبدُ الغفار القوصي : وسألته مرة عن عمره ، فقال : عمري الآن أربع مئة سنة .

وكان يدخل علىٰ حريمِ الناس ، فلا يمتنعون منه ، فأنكرَ عليه بعضُ الفقهاء ، فقال : يا فقيه ؛ اشتغلْ بنفسك ، وتطهَّرْ من زلاتك ، فإنه بقي من عمرك سبعةُ أيام ، فمات يومَ السابع كما قال الشيخ .

وكان لا ينضبطُ في ملبسه علىٰ حال .

وأنكر عليه مرةً شخصٌ من القضاة ، وكتب فيه محضراً ، وأراد يطلعُ به إلىٰ سُلطان مصر بكرةَ النهار ، فوضعه في صندوقه ، فمدَّ الشيخُ أحمد يده في الليل ، فأخذَ المحضرَ من صندوق القاضي ، ثم أرسل يقول له : الذي يقدرُ علىٰ مدِّ يده إلىٰ صندوقك يأخذُ المحضر . . أما تخشىٰ أن يمدَّ يدَه إلىٰ إيمانك فيأخذه من قلبك ؟! فتاب القاضي ، ورجعَ عن الإنكار .

تُوفِّي رضي الله عنه بمصر ، ودُفن خارجَ باب الفتوح ، عند الحمصانيين ، وقبره في زاويةٍ يُزار

وأطعموه السُّمَّ ثلاث مرات ليقتلوه ، فيعافيه الله .

وكان يقول : (لم تكنِ الأقطاب أقطاباً ، والأوتادُ أوتاداً ، والأولياء أولياء . . إلا بتعظيمهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ومعرفتِهم به ، وإجلالِهم لشريعته ، وقيامِهم بآدابها) .

وكان يقول : (إذا امتلأ القلبُ بالنور دك كل حجاب بين العبد وبين ربِّهِ) .

ومنهم :

(٢٨٤) الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه[١]

تلميذُ الشيخ أبي الرَّبيع المَالَقي رضي الله عنه .

كان جليلَ المقدار .

وكان يجتمعُ كثيراً بالخَضِرِ عليه السلام ، ويبيتُ الخضرُ عنده ، وكان كثيراً ما يطبخ شوربةَ القمح ويُحبُّها ، ويقول : إن الخضر عليه السلام بات عندي ليلةً ، وطلب مني أن أطبخ له شوربة قمح ، فلم أزلْ أحبُّها من تلك الليلة لمحبَّة الخضر .

وكان يقول : (ما رأينا أحداً قطُّ أنكرَ على الفقراء ، أو أساءَ بهم الظنَّ . . إلا ومات على أسوء حالٍ ، ومن احتقرَ الفقراءَ صارَ من الأَراذل ، حتى يُنادى عليه في الأسواق بالهوان) .

وكان يقول : (من غضَّ من وليٍّ لله عز وجل ضُرِبَ في قلبه بسهمٍ مسموم ، ولم يمتْ حتى تفسدَ عقيدتُهُ) .

وكان يقول : (لا تطبخوا في بيوتكم إلا لوناً واحداً ، حتى لا يتميَّزَ أحدٌ على أحد) .

وكان الشيخ أعمى أجذم مزمن ، فطلبَ التزويجَ بجميلةٍ من البنات ، فأبينَ ، فاختارته واحدةٌ من بنات أصحابه ، وعقدوا عقدها عليه ، فعايرها النساءُ ، فابتلاهن اللهُ تعالى بالبلايا والجنون ، فلما زُفَّتْ إلى الشيخ دخل الشيخ وهو يزحف إلى الخلاء ، وخرجَ وهو شابٌّ جميلٌ ، حسنُ الثياب ، طيِّبُ الرائحة ، فسترت وجهَها منه ظانَّةً أنه غيرُ الشيخ ، فقال لها : لا تستري وجهك ، أنا القرشيُّ ، فعرفته ، فقال لها : إن شئتِ أكونُ معك على هذا الحال فعلتُ ، فقالت : بل أختارُ حالتَكَ الأولى ؛ طلباً لمرضاةِ الله عز وجل ، فرجع الشيخُ من تلك الصورةِ الجميلة إلى ما كان عليه من الجذام والعمى والزمانة ، ولم تزلْ تخدمُهُ إلى أن مات .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (١/ ٥٤٣) (٢٨٥) .

[زوج أبي عبد الله القرشي]

وكانت تضعُ الإناءَ تحت أطرافِ أصابع يديه ورجليه ، فيجتمعُ فيه الصديدُ ، فتأخذه وتشربُهُ عِوضاً عن الماء ، فلما قُبض الشيخُ أجلسها أصحابُهُ مكانَهُ ، وأخذوا عنها الطريقَ .

ومن كلامها رحمها الله : (الزموا العبوديةَ وآدابها ، ولا تطلبوا بها الوصولَ إليه تعالىٰ ؛ فإنه إذا أرادكم له أوصلكم إليه بلا سؤال ؛ وذلك أعزُّ من الوصول بسؤال) .

وكانت تقول : أبتِ البشريةُ أن تتوجَّهَ إلى الله إلا في الشدائد ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : عطشتُ مرةً في طريق الحاجِّ ، فقلتُ لخادمي : اغرفْ لي من البحر المالح ، فغرفَ لي ماءً حلواً ، فلما ذهبتِ الضرورةُ غرفت من البحر ، فإذا هو مالح .

وكانت تقول : (لا يكونُ الابتلاء إلا لفحولِ الرجال) .

ولم تزلْ حرمتُها بين أصحاب الشيخ كحرمة الشيخ حتىٰ ماتت رضي الله تعالىٰ عنها .

ومنهم :

(٢٨٥) الشيخ محمد ابن أبي جبرة رضي الله عنه[١]

وهو بالباء الموحدة لا بالميم ، كما رأيته بخط الشيخ رضي الله عنه .

وهو غير عبد الله بن أبي جَمرة تلميذِ ابن الحاج المالكي المغربي .

كان الشيخُ محمدٌ هـٰذا مقبوضَ الظاهر ، معمورَ الباطن .

وكان الغالبُ عليه آثارَ الجلال .

وكان معظِّماً للشريعة وأهلِها كلَّ التعظيم .

وأنكروا عليه رؤيةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليقظة ، وعقدوا له مجلساً ، فانقطعَ في بيته لا يخرجُ إلا للجمعة عشر سنين ، رضي الله عنه .

وكان يقول : (لا يفهمُ عنك إلا من أشرقَ فيه ما أشرقَ فيك) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٥٤٥) (٢٨٦) ، وجاء فيها : (جمرة) بدل (جبرة) .

وكان يقول : (لما كان العلماءُ والأولياء ورثةَ الرسل والأنبياء فلا بدَّ من حصول فتراتٍ بين العالم والعالم ، والولي والولي ، فإذا اندرستْ طريقةُ الداعي أتىٰ بعد أزمانٍ من يجدِّدُها ، ولما كان يحصلُ في فترات الأنبياء عبادةُ الأصنام كذلك يحصلُ في فترات العلماء والأولياء عبادةُ الأهواء ، وتبديل الأفعال بالأقوال ، وغير ذلك) .

وكان يقول : (لو قدرتُ أن أقتلَ مَنْ يقول : لا موجودَ إلا الله تعالىٰ لفعلت ، كيف يقولُ من يبولُ ويتغوَّطُ ويتألَّمُ من قرصةِ برغوث : أنا الحق ؟! هـٰذا واللهِ من أضلِ الضلال) .

وكان يقول : (لو تدبَّرَ الفقيهُ في معنىٰ ما يقرؤه لاحترقَ بأنوار القرآن ، وهامَ علىٰ وجهه ، وتركَ الطعام والشراب والنوم) .

وكان من فِراسته إذا رأى الفدانَ القصبَ مثلاً يقول : يجيءُ منه كذا وكذا قنطارٌ من العسل والسكر ، فلا يُخطئ شيئاً .

ولما زاره السلطانُ طلبَ أن يبني له زاويةً ، فأخذ بيد السلطان ، ودخل به جامعَ ابن طولون ، وقال : هـٰذا الجامع كلُّه لي ، لا أَحدَ يُنازعني في أيِّ مكانٍ جلست فيه ، فسكت السلطان .

وكان يقول : (لا ينبغي لإنسانٍ أن يطأَ زوجتَهُ إذا حملت إلا لضرورةٍ ؛ فإن البهيمةَ بمجرَّدِ ما تحمل لا تدع فحلاً يعلوها) .

وكان يقول : (إياكم والإنكارَ على الفقراء ؛ فإني رأيتُ فقيهاً أنكرَ علىٰ فقيرٍ ، فقام الفقيرُ ، وفعل بابه في التحبيظ[1] ، وأجلس الفقيه علىٰ دكان ، فجاء فيلٌ ، فلفَّهُ بزلومته ، وضربه في الأرض حتىٰ مات والناس يضحكون ، فأصبح الفقيه ، فوقع له ذلك ، لفَّه الفيل بزلومته وضربه في الأرض ، فمات ، فدفنوه آخرَ النهار ، فما لكم ولمن يَغضبُ الحقُّ لغضبه) .

وكان يقول : (لا تُنكروا علىٰ إنسانٍ ببادئ الرأي ، فربما كان له عذرٌ فيما فعل) .

قال : ومما وقع لي : أنني مررت علىٰ مارس قمحٍ ، وصبيٌّ يقرط في سنبله ،

(١) في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٤٦) : (أنكر علىٰ فقير صنعة الخيال مع المحبظين) .

فقلت له : هٰذا حرامٌ عليك يا ولدي ، فقال الصبي : حرامٌ عليك أنت هٰذا القول ؛ فإنه واللهِ زرعي وحدي من غير شريكٍ ، فخجلتُ من كلامه بين الفقراء .

وكان يقول : (ثلاثةٌ لا يُفلحون في الغالب : خادمُ الشيخ ، وزوجتُهُ ، وولده)[1] ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٨٦) الشيخ عبدُ الغفَّار القُوصي رضي الله عنه[2]

صاحب كتاب « الوحيد في علم التوحيد » .

كان رضي الله عنه جامعاً بين علمي الحقيقة والشريعة ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، يبيعُ نفسَهُ في طاعة الله عز وجل .

وأكلَ يوماً مع ولده اليقطين ، فقال له : يا ولدي ، إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يحبُّ اليقطين ، فقال : ما هٰذا إلا قذارةٌ ، وأنا أكرهه ، فسلَّ السيفَ ، وضربَ عُنقَ ولده ، وقال : اشهدوا لي عند رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

ومن شعره رضي الله عنه : [من الوافر]

فؤادٌ لا يقرُّ لهُ قرارُ ... وأَجفانٌ مَدامِعُها غِزارُ
وليلٌ طالَ بالأنكادِ حتىٰ ... ظننتُ الليلَ ليسَ لهُ نَهارُ
ولِمْ لا والتُّقىٰ حُلَّتْ عُراهُ ... وبانَ علىٰ بنيهِ الإنكسارُ
لِيبكِ معِي على الدِّينِ البواكي ... فقدْ أضحتْ مواطنَهُ قفارُ
وقدْ هُدمتْ قواعدُهُ اعتداءً ... وزالَ بذاكُمُ عنهُ الوَقارُ
وأصبحَ لا يُقامُ لهُ حدودٌ ... وأَمسىٰ لا يَبينَ لهُ شِعارُ
وعادَ كما بدا فينَا غَريباً ... هنالكَ ما لهُ في الخلقِ جارُ
فقدْ نقضوا عهودَهمُ جهاراً ... وأَسرَوا في العداوةِ ثمَّ سارُوا

---

(١) وقد ذكر في « الطبقات الكبرىٰ » سبب عدم فلاحهم ، فراجعه هناك .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٤٧) (٢٨٧) .

إلىٰ آخر ما قال .

وكان رضي الله عنه يقول : (كلام المُنكرين علىٰ أهلِ الله عز وجل كنفخة ناموسة علىٰ جبلٍ ، فكما لا يزول الجبلُ بنفخة الناموسة كذلك لا يتزلزلُ الكامل عن دينه بكلامِ الناس فيه) .

وكان يقول : كلُّ فقير لا يكون له حالٌ يحميه فليس له التظاهرُ بالطريق ، وتأمَّلوا حالَ ذي النون المصري رضي الله عنه لما وشوا به إلى المتوكل من إخْمِيم إلىٰ بغداد ، وادَّعوا فيه أنه زنديق ، فقال له الخليفة : ما هـٰذا الكلام الذي يُقال فيك ؟! فإنهم يقولون : أنتَ علىٰ مذهبِ الحسينِ الحلاج ! فقال : لا أعرفُ ذلك إلا عند السماع ، فأَرْسِلوا خلفَ قوَّالٍ يُسمعنا شيئاً ، فأرسلوا خلفَ قوَّالٍ ، فلما أنشد بين يديه انتفخَ ذو النون حتىٰ صارَ كالفيل ، وقطرتْ منه كلُّ شعرةٍ مثل الدم ، فقال الخليفة : ما هـٰذا عن أمرِ باطل ، ثم أكرمَهُ وردَّهُ إلىٰ مصر مُكرماً .

توفي الشيخُ عبد الغفار بمصر في سنة ثمانٍ وسبع مئة ، ودُفن بجوار ضريح الشريف الشيخ عبد العزيز المنوفي بالقَرافة الصغرىٰ ، في تربة الشِّهاب القاري[١] ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٨٧) الشيخ أبو الحسن بنُ الصباغ السكندري رضي الله عنه[٢]

هو من أجلِّ أصحابِ الشيخ عبد الرحيم القِناوي .

وكان يقول لأصحابه : (ابكوا علىٰ قلوبكم المحجوبة عن شهود أسرار الله في خلقه ، واللهِ ؛ ما أرادَ اللهُ أن يُحدثَ أمراً في العالم إلا وأعلمني به قبل ظهوره في هـٰذا العالم) .

ونزل مرة كنزاً ، فوجد فيه سبعةَ أرادبَ من ذهبٍ ، فأخذ منه سبعةَ دنانير ، وقال : لم يؤذنْ لي أن آخذَ أكثرَ من ذلك .

---

(١) في (أ ، و) : (القادري) بدل (القاري) ، وفي (ط ، ك) : (القاوي) .
(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٤٩) (٢٨٨) .

وكان يقول : (لا ينبغي للفقراء أن يدعوا الشبابَ المُردَ يجلسون في مجلسِ الرجال إلا لضرورةٍ شرعية ، أو يلتحوا) .

وكان إذا أراد شابٌ جميلٌ أن يُقيمَ بين فقراء الزاوية يقول له : بشرطِ أن تلبسَ المرقعات الغليظة ، ولا تتزيَّنَ بملبسٍ .

وقد وقع : أن شخصاً نظر إلىٰ أمردَ عند قبر الشيخ ، فناداه الشيخُ من القبر : أما تستحي يا فلان من الله عز وجل ؟! فغُشي علىٰ ذلك الشخص .

وقد ذكرنا في « الطبقات الكبرىٰ » جملةً من أحواله ، رضي الله عنه .

مات سنة سبعٍ وثمانين وست مئة ودفن بإسكندرية .

ومنهم :

(٢٨٨) الشيخ أبو السعود بن أبي العشائر رضي الله عنه[١]

هو شيخُ الخرقة السعودية في مصر وقُراها ، وشيخ سيدي داود الأعزب ، وشيخ سيدي خضر الكردي شيخ الملك الظاهر أبي الفتوحات ، وشيخ سيدي شرف الدين الكردي ، وشيخُ الشيخ مبارك الحلاوي ، وغيرهم .

وأصله من باذبين ؛ قريةٍ بقرب واسط العراق .

كان من أجلاء المشايخ ، وكان السلطان بمصر ينزلُ إلىٰ زيارته ، ويتأدَّبُ بين يديه كآحاد الناس .

وكان الناس يسمعون عند خلعِ نعله أنيناً كأنين المريض ، فسألوه عن ذلك ، فقال : هي نفسي ، أخلعُها عند النعال ، فتئنُّ عند زوال تكبُّرها ورئاستها .

وصام في المهد ، رضي الله عنه .

ومات بالقاهرة في يوم الأحد تاسع شوال سنة أربعٍ وأربعين وست مئة ، وقبره بالقَرافة ظاهرٌ يُزار كلَّ يوم أربعاء ، وكلَّ يوم سبت .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥٥٠) (٢٨٩) .

وله كرامات وخوارق مذكورة في « الطبقات الكبرىٰ » .

وكان يقول : (المريدُ الصادقُ كتابُهُ في قلبه) .

وكان يقول : (من كان شغله الطلبَ لطريق الله يُوشك ألا يضلَّ ، ومن كان شغلُهُ اللهَ شغلَهُ يُوشك ألا يقف) .

قال : (والطلبُ شغلُ الظاهر ، والمطلوبُ شغلُ الباطن ، ولا يستقيمُ ظاهرٌ إلا بباطن ، كما لا يسلمُ لأحدٍ باطنٌ إلا بظاهر) .

وكان يقول : (لا تأمنِ الغشَّ ممن يغشُّ نفسه) .

وكان يقول : (من رأيتَهُ يميلُ إليك لأجلِ نفعه منك فلا تركنْ إليه ؛ فإنه بئسَ الصاحب) .

وكان يقول : (من مدحَ الدنيا في مجلسك ففرَّ منه ، ومن أغفلك عن مولاك فأعرضْ عنه) .

وكان يقول : (عليك بالاشتغال بالله ، فإنْ لم تقدر علىٰ ذلك فاشتغلْ بما يقرِّبُكَ إليه ؛ ولا أرىٰ لك عذراً في تركِ ما يقرِّبُك إليه ؛ لأنَها أول الدرجات) .

وكان يقول : (صلاحُ القلب في التوحيد والإخلاص ، وفسادُهُ في الشِّرك والرياء) .

وكان يقول : (إذا لم تستقمْ في نفسك فكيف تقيم غيرك ؟!) .

وكان يقول : (أستغفر الله عددَ أنفاسي في تقصيري في كلِّ عبادةٍ تقرَّبْتُ بها إليه) .

وكان يقول : (جميعُ الأخلاق المحمودة تنشأُ من القلب ، وجميعُ الأخلاق المذمومة تنشأ من النفس) .

وكان يقول : (ما وصلَ أولياءُ الله إلىٰ ما وصلوا بالأعمال ، وإنما وصلوا بالأدب في الأعمال) .

وكان يقول : (الأصولُ التي يَبني عليها المريدُ أساسَه أربعةٌ : اشتغالُ اللسان

والقلب بالذكر ، وجبرُ القلب على مراقبة الربّ ، ومخالفةُ النفس والهوىٰ من أجله ، وتصفيةُ اللقمة من الشُّبهات ؛ وهي القطب ، وبها تزكو الجوارح) .

وكان يقول : (المراقبةُ لله هي مفتاحُ كلِّ سعادةٍ ، وبها يطهرُ القلبُ) .

وكان يقول : (لا يستقيمُ لمريدٍ أمرُهُ في الطريق إلا بإدخال النفسِ في شيءٍ يغمُّها ويؤلمها من الطاعات ؛ وذلك حتىٰ تذلَّ وترجعَ مطيعةً لصاحبها ؛ فإن النفسَ إذا استولتْ على الإنسان أسرته وصارتِ الولايةُ لها على القلب ، فإنْ تحرَّكتْ تحرَّكَ القلبُ ، وإن سكنتْ سكنَ) .

وكان يقول : (من أعرضَ عنه الخلقُ كلُّهم فتغيَّر منه شعرةٌ فهو واقفٌ معهم ، مشركٌ بربِّه ، ومن ابتُليَ بكلِّ مرضٍ فتغيَّر منه شعرةٌ فهو واقفٌ مع نفسه في حجابٍ عن ربِّه ، ومن تغيَّر في حالِ الذلِّ ، ولم يكن كما هو في حال العزِّ فهو محبٌّ للدنيا ، بعيدٌ من حضرة ربِّه) .

وكان يقول : (كلُّ ما أشغلَ القلبَ عن ذكر الله فهو دنيء ، وكلُّ ما أوقفَ القلوبَ عن طلبه فهو دنيء ، وكلُّ ما أنزلَ الهمَّ بالقلب فهو دنيء ، والأمرُ وراء ذلك كله) .

وقد ذكرنا من كلامه جملةً صالحةً في « الطبقات الكبرىٰ » .

وهو من أوسع الأولياء دائرةً في علم السلوك ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٨٩) الشيخ محيي الدين بنُ العربي الصوفيُّ الحاتمي الطائي رضي الله عنه[1]

نسبةً إلىٰ طاية ؛ قريةٍ من قرىٰ أرضِ المغرب .

وشهرته بين العلماء تُغني عن تعريفه .

وهو من أكثر الأولياء كلاماً في الطريق .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ١٨) (٢٩٢) .

وكان أولاً يكتبُ الإنشاءَ لبعض ملوك العرب ، ثم تزهَّد وتعبَّد وساح ، ودخلَ مصر والشام والحجاز والروم ، وله في كلِّ بلدٍ دخلها مؤلفاتٌ جليلة .

وقد أفردنا له كتاباً في المناقب .

مات رضي الله عنه سنة ثمانٍ وثلاثين وست مئة .

ومنهم :

(٢٩٠) الشيخ داود بن باخلا السكندري رضي الله عنه[١]

هو سيدي الشيخُ الكامل الأميُّ المحمدي ، شيخُ الطريق في عصره ، وكان من أجل أصحاب سيدي ياقوت العرشي رضي الله عنه ، انتهت إليه تربيةُ المريدين بالنظر .

وكان مقدَّماً في بيت نائب إسكندرية ، فيجلس تجاه النائب ، وبينه وبينه لغزٌ بالإشارة ، فإن قبضَ بيده على لحيته عرفَ النائبُ أنَّ الرجل المتهوم أخذَ المال أو قتل أو غير ذلك مما مُسِكَ لأجله ، وإن أدخلَ يده تحت لحيته ، ودفعها إلىٰ ناحية النائب يعرفُ أنه بريء فيطلقه .

وله كلامٌ عال في الطريق نحو مجلدٍ ، لخَّصتُ غالبَهُ في « الطبقات الكبرىٰ » واسم الكتاب « عيون الحقائق » .

وكان يقول : (علىٰ قدر ارتقاءِ همَّتِك في نيَّتِكَ يكون ارتقاءُ درجتك في عالم سريرتك) .

وكان يقول : (إنما دخلتِ العللُ في الأعمال لوجودِ البعد والحجاب) .

وكان يقول : (كلما زادَ علمُ العبد زادَ افتقاره ، وعزَّ مطلبُه ؛ لأنه في حالِ الجهل يطلبُ العلمَ ، وفي حال علمه يطلب جلاءَ المعلوم) .

وكان يقول : (عالمُ الظاهر كلما اتَّسعَ علمه كلما اشتَهر في الوجود ، وعالمُ الباطن كلما اتَّسع علمُه كلما خفي) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٠) (٢٩٣) ، وجاء فيها : (ما خلا) بدل (باخلا) .

وكان يقول : (من أَعظم المواهب بعد الإيمان بالله وملائكته وكتبِهِ ورسله الإيمانُ بنورِ الولاية في الخلق ، حتىٰ في نفسه ؛ فإنه كما يجب عليه الإيمان بالولاية في غيره كذلك يجبُ عليه الإيمانُ بها في نفسه علىٰ حدٍّ سواء) .

وكان يقول : (من اشتغل بالدنيا وإقامةِ دولتها فهو في كفالةِ علماء المسلمين ، ومن ارتفعتْ همَّتُهُ بعد معرفته الشريعة إلىٰ فهم أسرارها فهو في كفالة العارفين) .

وكان يقول : (لا تكنْ همَّتُك من العبادة الأجرَ والثوابَ ، وإنما الشأن أن تكونَ همَّتُكَ القربَ من المعبود ، فإذا مَنَّ عليك بالدخول إلىٰ حضرته فهناك الأجورُ وأعلىٰ منها) .

وكان يقول : (إذا نطقَ محجوبٌ بغرائب العلوم فلا تستبعدْ ذلك عليه ؛ فإن قلم مددَ الغيوب فياضٌ) .

وكان يقول : (حاشا قلوب العارفين أن تُخبرَ عن غير يقين) .

وكان يقول : (ربما كتبَ مدادُ قلم شيخك في قلبك شيئاً لم تفهمْهُ إلا بعد أزمان ، فاحتفظ به) .

وكان يقول : (إقبالُ القلب على الله خيرٌ من ملءِ الأرض عبادةً مع الإدبار عن الله) .

وكان يقول : (الذنبُ الأعظم الاعتمادُ علىٰ غير الله) .

وكان يقول : (شهودُ الغافل سمٌّ قاتل) .

وكان يقول : (النبيُّ يُؤمر ، والولي يُلهم) .

وكان يقول : (أعظمُ العارفين من اختفىٰ حالَ ظهوره) .

وكان يقول : (للإنسان في هـٰذه الدنيا حالاتٌ ، فإنْ كان فارغاً من أعمال الدنيا والآخرة فهو كالجماد ، وإن كان مشغولاً بالمعصية دون الطاعة فهو كالشيطان ، وإن كان مشغولاً بأمرِ الدنيا دون الآخرة فهو كالحيوان ، وإن كان قلبُهُ مشغولاً بالله فهو كالملائكة ، فانظر رحمك الله درجةَ مَنْ تُريد أن تلحقَ به) .

وكان يقول : (كلما قويتِ الظلمةُ في قلوب الخلق كلما نطقتْ ألسنُ العارفين بصرائح الحقائق ؛ وذلك لأنها حينئذٍ أمنت من مناظرة النظَّار) .

وكان يقول : (لا يقدرُ مريدٌ علىٰ مجازاة شيخه علىٰ تعليمه منه أدباً واحداً ، ولو عاشَ عمرَ نوح ؛ لأن ما استفاده منه لا يقابل بالأَعْراض الدنيوية) .

وكان يقول : (من تكلَّف خلوصَ أعماله من الشوائب فقد تكلَّف شططاً ، ومنِ اعتمد علىٰ فضل الله حازَ الخيرَ بكلتا يديه) .

وكان يقول : (إذا اشتكيتَ مرضَك إلىٰ وليٍّ ، ووصف لك دواءً تستعمله . . فاعلمْ أن استعدادَك ناقصٌ ، ولو كنتَ كاملَ الاستعداد لداواك في حضرته ، فشُفيتَ قبل أن تقومَ من مقامك) .

وكان يقول : (إن العبدَ ليعانقُ أخاه وبينه وبينه بعدُ المشرقين ؛ وذلك لأن المدارَ على اتفاق الأرواح كالأبدان) .

وكان يقول : (لو علمتْ نفوسُ المريدين نفاسةَ ما تُدعىٰ إليه لسارعتْ إليه قبل داعيها) .

وكان يقول : (ما من وقتٍ جديد إلا وله مددٌ جديد ، يتلقَّاه كبراءُ الوقت في الليل والنهار ، والناسُ غافلون كالبهائم) .

وكان يقول : (من أبدىٰ من أسرار الله ما لا يليقُ إبداؤه ، وأفشىٰ من العلم المكنون ما لا يُناسب إفشاؤه . . عُوقب بسوء الظنون فيه ، أو بما هو فوق ذلك من العقوبات) .

وبقي كلامٌ طويل تركناه لعلوِّ مراقيه في الفهم علىٰ غالب الناس ، والله أعلم .

ومنهم :

(٢٩١) الشيخ أبو الفتح الواسطي رضي الله عنه[١]

هو من أجل أصحاب سيدي الشيخ أحمد بن الرفاعي رضي الله عنه ، وهو الذي أشارَ عليه بالإقامة في مدينة إسكندرية ، وربَّىٰ بها الرجال ؛ كالشيخ عبدِ السلام القليبي ، والشيخ عبد الله البِلتاجي ، والشيخ تاج الدين بكوم النجار ، والشيخ بهرام الدَّميري[٢] ، والشيخ جامع الفضلين بدنوشر ، وغيرهم من مشايخ الغربية .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٥) (٢٩٥) .

(٢) أراد الشيخ تاج الدين بهرام الدميري الولي الصالح البدل ، وسيأتي ذكره ضمن أرجوزة نقلها المؤلف عن الإمام عبد العزيز الديريني يذكر فيها مشايخه . انظر (٤/ ٣٦٦) .

وكلُّ ما في الغربية من المشايخ فهم من تلامذته ، أو تلامذة تلامذته ، رضي الله عنه .

وكان عالماً بالشريعة والحقيقة .

وعقدوا له مجلسَ المناظرة أول مجيئه من بلاد المشرق ، فقطع العلماءَ بالحُجج ، فأذعنوا له إلا شخصاً من خطباء إسكندرية ، فبقي علىٰ إنكاره عليه ، فبينما هو يخطب إذ تذكَّرَ أنه جُنبٌ ، فمدَّ له الشيخُ كمَّهُ ، فوجده كالزقاق ، فدخل فيه ، فانتهىٰ إلىٰ نهرٍ جارٍ ، فاغتسل فيه ، ورجع ، فإذا هو على المنبر ، فأذعن للشيخ واعتقده ، وصار من أجلِّ تلامذته .

ومناقب الشيخ كثيرةٌ مشهورة ، ولم أجدْ له كلاماً في الطريق فأَذكره .

ونقلوا عنه أنه لم يضعْ جنبَهُ إلى الأرض من منذ دخلَ الطريق .

وكان إذا مرض يستندُ إلىٰ مخدَّةٍ ، رضي الله عنه .

مات بإسكندرية ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار .

ومنهم :

(٢٩٢) الشيخ عليٌّ المليجي رضي الله عنه[١]

هو من أجلِّ أصحاب الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر ، وكان معاصراً لسيدي أحمد البدوي .

وهو أولُ المشايخ يُعمل مولده كلَّ سنةٍ قبل جميعِ أشياخ الغربية ، ويحضره خلائقُ وتجارٌ وغيرُهم .

وكان سيدي أحمدُ البدوي إذا أرسل سيدي عبدَ العال في حاجةٍ إلىٰ مصر يقول له : إذا وصلتَ إلىٰ ناحية جمزور فاخلعْ نعلك[٢] ؛ فإن من هناك خيامُ المليجي ضُربت ، فلا تمشِ بين خيامه بنعلٍ .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٥٦) (٢٩٦) .

(٢) جمزور : من القرى القديمة ، تابعة لمركز تلا من أعمال الغربية . « قاموس رمزي » (٢/٢/١٧٤) .

وطلب سيدي أحمدُ شخصاً يبني عنده في مقامه ، فأبىٰ ، وكان يبني عند سيدي علي المليجي في مقامه الذي عمَّره له السُّلطانُ محمد بنُ قلاوون ، فسقطت يدُ البنَّاءِ حين خالفَ سيدي أحمد ، فجاء البناءُ بيده في قفَّةِ النجار مقطوعة ، فأخذها سيدي عليٌّ وبصقَ عليها ، فالتصقتْ بإذن الله تعالىٰ ، وأرسل يقول لسيدي أحمد : ليس الرجلُ من يفصل ، وإنما الرجلُ من يوصل ، وهو يباسطه في الكلام .

وكان رضي الله عنه يقول : (عليكم بكثرة الاحتمال للناس في سائر أصناف الأذىٰ ؛ فإن الرجلَ لا يكملُ عندنا إلا بذلك) .

وكان يقول : (لا ينبغي لفقيرٍ أن يمدَّ يده قطُّ لشبهةٍ ؛ فإنَّ كلَّ لقمةٍ منها تقلبُ قلبَ الفقير ، وتدنِّسه ، شاء أم أبىٰ) .

وكان يقول : (الفقيرُ في حِجْر تربية الحقِّ كاليتيم في حِجْر وليِّهِ ، فإياك أن تؤذي أحداً من الفقراء ؛ فإنك تحاربُ الله) .

وكان يقول : (إذا قلَّتِ البركةُ في رزقك فاعلم أنَّ ذلك من غفلتك عن الله عز وجل) .

ودخل لزيارته السلطان محمد بن قلاوون مرةً علىٰ غفلةٍ ، وكان طعامُ الشيخِ نحوَ قدحٍ من العدس ، بشيءٍ من الدهن ، فقال للسلطان وجماعته : قد عملنا لكم غداءَ كم فلا تطبخوا شيئاً ، فغطَّى الشيخُ القدر ، وصار يغرف منها حتىٰ كفىٰ عسكرَ السلطان كلَّهُ ، فلما استعجبَ الناسُ من ذلك قال : وعزَّة ربِّي ؛ أقدرُ بفضلِ الله أَغرِفُ منها للناس إلىٰ يوم القيامة ، رضي الله عنه .

وكان من أجل أصحاب سيدي عبد العزيز الديريني ، وكان ينسج القطن ويجعل علىٰ كل خيط انعقد نقطة زعفران ويقول للمشتري : تحت كل نقطة خيطٌ معقود .

واشتهر عنه أنه كان ينزل سوق مليج يبيع فيه الخام ثم يرجع بفواكه من الشام ومن بلاد الشرق ، فبلغ ذلك سيدي عبد العزيز الديريني ، فقال : يا علي ؛ الفقير في هٰذه الدار كالجالس في بيت الخلاء ، فيجب عليه ردُّ الباب حتىٰ يقضي حاجته في هٰذه الدار ، فقال : أنا أمشي فلا أحسُّ بنفسي إلا في الشرق أو الشام ولا أقصد ذلك ، فقال : هٰذا عذرٌ لا يكفي من مثلك ، إنما الرجل من يعرف حركاته وسكناته ، فتاب سيدي علي من ذلك ، وستر كراماته حتىٰ مات رضي الله تعالىٰ عنه ، والله أعلم

ومنهم :

(٢٩٣) الشيخ عبد الله البِلْتاجي رضي الله عنه[١]

هو من أجلِّ مشايخ سيدي عبد العزيز الدِّيْريني .

وكان إماماً في العلوم النقلية والكشفية ، صاحبَ التصريف الكبير ، والأنفاس الطاهرة ، وله كراماتٌ كثيرة جُمعت في مجلدٍ ضخم .

وكان سيدي عبد السلام القُليبي يهدي له كلَّ سنةٍ حملَ حمارته بصلاً ، فيحمِّلُها له فاكهةً من فواكه الشام ، وليس ببلاده حينئذ فواكه .

وزاره سيدي يوسفُ العجمي مرةً ، فضاعتْ حمارةُ سيدي يوسف ، فقال له وهو في القبر : يا عبد الله ؛ ردَّ لي حمارتي ، وإلا لم أعدْ أزورك ، فطلع الشيخُ عبدُ الله من القبر ، وأتاه بالحمارة من البرية ، وقد جعل بردعتَها علىٰ رأسه ، وقال : يا يوسف ؛ إذا جئت لزيارتنا مرةً أخرىٰ فقيِّدْ حمارتك بقيدِ حديد ، وهو متبسِّم .

وكان يقول : (لا يبلغُ الرجلُ عندنا مراتبَ الكمال إلا إن علم جميعَ شرائع الأنبياء ، ثم يستخرجها كلَّها من القرآن العظيم) .

وكان يقول : (كلُّ فقيرٍ لا يؤثر إخوانَهُ علىٰ نفسه في جميع الأغراض.. فَرُّوا منه بقلوبهم) .

وكان يقول : (من لم ينظر في أخلاقِ السلفِ الصالح وما كانوا عليه شقي ، ولا يَنفعُهُ عمله) .

وكان يقول : (كلُّ فقير كان له فراشٌ للنوم فهو والبهائم سواء) .

وكان يقول : (من أكلَ من أطعمة الناس اسودَّ قلبُه ، ولا تفي أعمالُه بجلائه ، فالصادقُ من أكلَ من عمل يده ، والسلام) .

وكانت له ابنةٌ ، فقالت أمُّها : لا أزوِّجُ بنتي إلا لشيخ الإسلام ، فقال لها الشيخ :

---

(١) انظر ترجمته في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٨/ ٢١٣) ، و« طبقات الأولياء » (ص ٤٨٦) ، و« طبقات المناوي » (٢/ ٤٣١) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١١٠) .

قد خطبها فلانٌ التاجر ، وأنا أستحي أن أزوِّجَها لغيره ، فقالت : لا بدَّ من تزويجها لشيخ الإسلام ، فقال الشيخ : نولِّيه لأجلك شيخَ الإسلام ، فاستبعد الناس ذلك ، فبلغ الخبرُ للسلطان أن صهرَ الشيخ من العلماء الكبار ، فأرسل وراءه ، وولاه شيخَ الإسلام بمصر ، وقال له الشيخ : كلُّ سؤالٍ جاءك فانظرْ تجدِ الجوابَ مكتوباً في الحائط أمامك ، فلم يزلْ شيخَ الإسلام إلىٰ أن مات بعد ثلاث سنين .

وكراماته كثيرةٌ مشهورة في بلاد الغربية وغيرها ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٩٤) الشيخ عبد السلام القليبي رضي الله عنه[1]

كان من أكابر الأئمَّة الراسخين في علم الظاهر والباطن .

وظهر له كراماتٌ لا تُحصىٰ ، وتواترتِ الأخبار أنه كان يعدِّي من بحر أبيار علىٰ حجرٍ إذا لم يجدِ المعدية .

وفي بعض الأوقات كان ينزلُ البحرَ بثيابه ، فيمشي تحت الماء إلىٰ ذلك البرِّ من غير أن تبتلَّ ثيابُهُ .

وكان يقول : (من لم يقرأ كُتبَ الشريعة والخلافَ العالي بين المذاهب لا يُقتدىٰ به في الطريق) .

وكان يقول : (من شرطِ الفقير : ملازمةُ بابَ الحقِّ دون الخلق) .

وكان يقول : (من غفلَ عن الله تعالىٰ نَفَساً واحداً عُدَّ من الغافلين) .

وكراماته مشهورة في بلاد الغربية ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر ترجمته في « المنهل الصافي » (٧/ ٢٦٢) ، و« طبقات المناوي » (٢/ ٤٤٢ ، ٤/ ٤١٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٦٩)

ومنهم :

(٢٩٥) الشيخ عبد العزيز الدِّيْريني رضي الله عنه[١]

كان شيخاً زاهداً ورعاً ، زائدَ الأحوال والكرامات والخوارق ، وله المصنفات الكثيرة الشائعة في الفقه والتفسير والأصول ، وغير ذلك ، وله نظمٌ كثيرٌ شائع .

وكان مُقيماً ببلاد الريف ، ويقصده الناسُ للزيارة من سائر الأقطار .

وكانوا يُرسلون له مُشكلاتِ المسائل من مصر ، فيجيبُ عنها بأحسنِ جوابٍ .

وكان كلُّ كتابٍ صنَّفه في بلدٍ يتركُهُ فيها ، ولا يَحملُه معه .

وزاره سيدي عليُّ المليجي يوماً ، فذبح له دجاجةً بغير إذنِ زوجته ، فتشوَّشَتْ ، فبلغ ذلك سيدي علي ، فلما قُدِّمتِ الدجاجةُ بين يديه قال لها : قومي حيَّةً بإذن الله تعالىٰ لصاحبتك ، ويكفينا المرقُ .

وطلب منه جماعةٌ مرةً كرامةً ، فقال : يا أولادي ؛ وأيُّ كرامةٍ لعبد العزيز أعظمُ من أنَّ الله تعالىٰ يُمسكُ به الأرض ، ولم يخسفْها به ، وقد استحقَّ الخسفَ به من سنين عديدة ، ثم قال : واللهِ ؛ ما أرفعُ رجلي وأضعها على الأرض وأجدها ثابتةً تحتي ، وفي عيني قطرةٌ ، رضي الله عنه .

مات في حدود الست مئة ، رضي الله عنه[٢]

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٦) (٢٩٧) .

(٢) يوجد اختلاف في سنة وفاته ؛ فقيل : سنة (٦٩٤هـ) وهو الأرجح ، وقيل : سنة (٦٨٩هـ) ، وقيل : سنة (٦٩٠هـ) ، وقيل : سنة (٦٩٧هـ) . انظر « طبقات المناوي » (٢/ ٤٤٦) .

ومنهم :

(٢٩٦) الشيخ عبد الله بن أبي جمرة الأندلسيُّ المرسيُّ رضي الله عنه(١)

الإمامُ القدوة الرباني .

قدم مصرَ ، وله زاويةٌ داخل باب البحر .

وكان ذا تمسُّك بالآثار النبوية ، وتألُّهٍ ، وجمعيةٍ على العبادة ، وشهرةٍ كبيرة بالإخلاص والاستعدادِ للموت ، والفرارِ من الناس ، وانجماع الخاطر عنهم إلا في مجالس الخير .

مات سنة خمسٍ وسبعين وست مئة .

ولهم ابن أبي جمرَة آخر اسمُهُ محمد غير هذا .

حفظ « المدونة » على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه .

مات سنة تسعٍ وتسعين وخمس مئة بمرسية ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٩٧) الشيخ محمد العبدري المالكي المعروف بابن الحاج رضي الله عنه(٢)

أقامَ بمصرَ ومات بها .

وكان عالماً صالحاً يُقتدىٰ به ، وهو أحد أصحاب عبد الله بن أبي جمرة السابق ذكره .

وصنَّف كتاب « المدخل » في الحوادث والبدع .

---

(١) في غير (ز) : (حبرة) أو (جبرة) ، وكذا فيما سيأتي ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٧) (٢٩٨) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٩) (٣٠٢) .

وعاش بضعاً وثمانين سنة ، ومات سنة سبعٍ وثلاثين وسبع مئة ، ودفن بقَرَافة مصر عند قبر شيخه عبد الله بن أبي جمرة رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٩٨) الشيخ صفي الدين ابن أبي المنصور رضي الله عنه[١]

صحب الشيخ [عتيقاً] صاحب قضيب البان[٢] ، والشيخ أبا العباس المرسي ، والشيخ عبد السلام القليبي ، والشيخ أبا الحجاج الأقصري ، وغيرهم من الأولياء .

صنف في الطريق عدة رسائل ، وكان للفقير به حرمة[٣]

وكانت له هيبة عظيمة ، ومع ذلك كان كلامه ألطف من النسيم ، كريم الأخلاق والشيم ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٩٩) الشيخ إبراهيم الجعبري رضي الله عنه[٤]

المدفون بزاويتِهِ خارج باب النصر من القاهرة رضي الله عنه .

كان من الزهاد العُبَّاد ، وكان له مُكاشفاتٌ وأحوال غريبة

وكان مجلس وعظه يُطرب السامعين ، ويَستجلبُ العاصين .

أخبر بموتِهِ عند وفاته ، ونظر إلىٰ موضعِ قبره ، وقال : (يا قُبير جاءك دُبير) .

وكان إذا وعظ يمشي بين الصفوف ، فيضحكُهُم إذا شاء ، ويبكيهم إذا شاء .

وكان له مريدةٌ تسمعُ وعظه من مصر ، وهي بأرض أسوان من الصعيد ، فبينما هو يعظُ الناسَ يوماً وهم يبكون ، أنشد لهم :

يا قاعدةَ في الطاقه ... والكلبُ يأكلُ في العَجين

يا كلبُ كلْ واتهنَّا ... ما للعجينِ أصحاب

---

(١) انظر « تاريخ الإسلام » (١٤/ ٥٥٧) ، و« طبقات الأولياء » (ص٥٤٠) ، و« هدية العارفين » (١/ ٣١٣) ، وكانت وفاته سنة (٦٨٢هـ) صنف كتاب « الرسالة » .

(٢) في النسخ : (عتيق) بدل (عتيقاً) .

(٣) في (ز) وحدها : (للفقراء) بدل (للفقير) .

(٤) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٦٠) (٣٠٣) .

فالتفتت المريدةُ ، فوجدتِ الكلبَ يأكلُ في عجينها ، فورَّخوا الحكاية ، فجاء الخبرُ بذلك .

وهو شيخ الشيخ كمال الدين بنِ عبد الظاهر بإخميم .

ووعظ الناسَ يوماً فبكوا كلُّهم ، فقال لهم : قولوا معي : شقع بقع ، يالله يقع ، من فوق لتحت ، بيبقىٰ قطع(١)

فجاء الخبر : أن بعضَ القضاة من المنكرين على الشيخ طلع للسُّلطان ، وشاوره أنه يمنعَ الشيخَ من الجلوس للوعظ ، فبينما القاضي نازل من الباب المدرج ؛ وإذا به وقعَ فانكسرَ عنقُهُ . وكان قاضي قضاة المالكية .

وكان يُكاتبُ السلطان بما صورته : من إبراهيم الجعبري إلى الكلب الزوبري ، فكان السُّلطانُ يقول : هـٰذا اسمي في بلادي ، فمن أعلمَ الشيخَ به ، ولا يتشوَّش .

فانتصر القضاةُ للسلطان ، وأفتوا بتعزير الشيخ ، فحبَسَ الشيخُ بولَهم ثلاثةَ أيام ، حتىٰ كادوا يهلكوا ، فجاؤوا واستغفروا من فتياهم ، فأمرَهم الشيخُ أن يصبُّوا من إبريقه الماء علىٰ فروجهم ، فانطلقوا كلُّهم .

وحُبس مرةً بولُ السلطان ، فعجز الحكماء عن إطلاقه بكلِّ دواء ، وكان قد رمىٰ علىٰ جماعةِ الشيخ صابوناً ، فأرسل له الإبريقَ ، فغسل منه ذَكَرَهُ ، فانطلق ، وسامحَ جماعة الشيخ من الصابون .

وشكا جماعته مرةً من نصرانيِّ الطور ، فأرسل وراءه ، وهو يبري قلماً ، فقال الشيخ : إن عدتَ تشوِّشُ علىٰ جماعتي قطَّيتُ هـٰذا القلم(٢) ، فقال النصرانيُّ بقلبه : وما لك لا تقطُّه ؟! فقطَّ الشيخُ القلمَ ، فوقعتْ رأسُ النصراني .

وكان رضي الله عنه كالنار الموقدةِ على الظلمةِ والولاة والكشاف ، أمَّاراً بالمعروف .

---

(١) قوله : (شقع بقع ، يالله يقع) إن أراده شعراً فهو من منهوك الرجز ، وقوله : (من فوق لتحت . . .) زيادة انفردت بها النسخة (ي) .

(٢) قطَّ الشيء : أي : قطعه .

وله نظمٌ وسجع كثير وتصوف .

مات في المحرم سنة سبعٍ وثمانين وست مئة ، ودفن بزاويةٍ خارج باب النصر ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار .

وهو الذي حضرَ وفاةَ سيدي عمرَ بنِ الفارض لمَّا سألَ اللهَ عز وجل أن يُرسلَ له شخصاً من الرجال يحضر وفاتَهُ ؛ ليساعده على ذلك المصرعِ المهول .

وكان كثيراً ما يأتي بفواكه لا يعرفُ أحدٌ من الناس أرضها ، فكان بعضُ أَهل الخطوة يقول : إنها من خلف جبل قاف .

وتوضَّأَ فقيرٌ يوماً من ميضأةِ زاويته التي عند الباب ، فنسي عصاهُ ، فقالوا للشيخ ذلك ، فقال : اصبروا حتى يأتي مرةً أخرى ، أعطوها له ؛ فإنه ليس عندنا الآن أحدٌ يحملها إلى المحلِّ الذي هو فيه ، فقيل له : وما ذاك المحل ؟ فقال : أرضٌ يقال لها : الرجراج) .

وكان يقول : (كلُّ فقير لا يقتلُ ـ بإذن الله ـ عددَ شعرِ رأسه من الظلمة فما هو فقير) .

وله النظم الشائع في أحوال أهل الطريق ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٠٠) الشيخ حسين الجاكي رضي الله عنه[1]

كان إماماً وخطيباً بجامع الجاكي .

وكان يعظُ الناس ويذكِّرهم ، وينتفع الناسُ به ، فتعصَّبَ عليه بعضُ الفقهاء وقال : إنه يلحنُ في الحديث ، وأرادوا منعَهُ من الجلوس للوعظ ، فلم يقدروا ، فعقدوا له مجلساً عند السُّلطان ، وحضر القضاةُ الأربع ، فأمر السلطانُ بمنعه ، فبينما هو في الخلاء ؛ إذ خرج له شخصٌ من الحائط ، وبيده مكنسةٌ يكنسُ بها ، فقال للسلطان : إن لم ترجعْ عن الشيخ حسين وإلا قتلتك ، فارتعدَ السُّلطانُ ، ووقع في الخلاء على

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (٢/ ٦٢) (٣٠٥) .

وجهه ، فأرسل يتلطَّفُ بالشيخ ، فبحثوا عن ذلك الرجل الذي خرجَ للسلطان من الحائط ، فوجدوه الشيخَ أيوب شيخَ الشيخ حسين ، وكان يكنسُ المساجد احتساباً لله عز وجل ، فأراد السلطانُ الاجتماعَ بالشيخ أيوب ، فلم يأذنْ له .

مات الشيخ حسين سنة سبعٍ وثلاثين وسبع مئة[١] ، ودفن خارجَ باب النصر في زاوية الشيخ أيوب ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار كلَّ ليلةِ أربعاء وصبيحتها ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٠١) الشيخ خضرُ الكردي رضي الله عنه[٢]

شيخُ الملك الظاهر بيبرس أبي الفتوحات .

كان زاهداً عابداً صالحاً ، وكان كثيرَ العطاءِ للمال ، كثيرَ التصريف والكشف والهمة والمدد .

وكان السلطانُ ينزلُ كثيراً لزيارته ، ويُحادثه بأسراره ، ويستصحبه معه في أسفاره .

وكان معه استخدامٌ ؛ يركبُ في مصر تارةً ، وفي الشام تارةً ، فكان يجدُ الشيخ تارة أمامه يمشي ، وتارةً يركب ، فإذا أرادَ أن يُكلِّمه لا يراه .

فلم تزلِ الحسدةُ يرمون له الفتنةَ مع السلطان حتى نقمَ عليه السلطان ، وحبَسه ، وسافر السلطانُ للشام ، فطلعَ له جمرةٌ رعتْ ظهره[٣] ، فأرسل يطلق الشيخ ويترضَّا خاطرَهُ ، فقال : أجلي أقربُ من أجله ، فلما وصلَ الجوابُ للسلطان ارتعدَ ، فمات ، **ومات الشيخ خضر قبله بأيامٍ في سنة خمسٍ وسبعين وسبع مئة** ، ودفن بزاويته تجاه جامع الظاهر بمصر على الخليج الحاكمي ، وقبرُهُ هناك ظاهرٌ يزار .

ولما أرادَ الاجتماعَ بالسلطان ، وهو في الحبس قال له أصحابه : دعنا نتكلَّمُ عنك غداً ، وإلا قلْ للسُّلطان كذا وكذا ، فقال : كلُّ كلام مُعبأ مفسود ، وقد توكَّلتُ على الله .

---

(١) في « طبقات ابن الملقن » (ص ٥٥١) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٤٢) : (تسع وثلاثين) .
(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (٢/ ٦٣) (٣٠٦) .
(٣) الجمرة : التهاب في الجلد وما تحته من الأنسجة .

وكان يكتبُ المصاحفَ للناس احتساباً ، ويقفُها في الجوامع ، والمصحفُ الكبير الذي على كرسيٍّ قبة الملك الظاهر بمصر بخطه رضي الله عنه .

وكان أصلُ اعتقاد الملك الظاهر فيه : أنَّ الظاهرَ كان رجلاً فقيراً مُلتفاً في عباءةٍ ينامُ في مسجدِ دمشق ، فنظر إليه الشيخ خضر وقال له : سيكون هٰذا سلطاناً ، فكان الأمرُ كما قال .

ومنهم :

(٣٠٢) الشيخ شرفُ الدين الكردي رضي الله عنه[١]

المدفون بظاهر القاهرة بالحُسينية .

له مقامٌ عظيم ، وكراماتٌ كثيرة ، وله وقتٌ كلَّ ليلةِ أربعاء يحضرُ فيه خلائقُ .

وهو أخو الشيخ خضر في الطريق .

وكان من أصحاب سيِّدي أبي السعود بن أبي العشائر رضي الله عنه .

وكان سيدي إبراهيم المتبولي يقول : ما في مصرَ كلِّها وليٌّ بعد الإمام الشافعي والسيدة نفيسة أسرعُ لقضاءِ حوائج الناس من سيِّدي شرف الدين هٰذا ، وعبد الله المنوفي ، رضي الله عنهما .

ومنهم :

(٣٠٣) الشيخ غانم أبو الغنائم رضي الله عنه[٢]

المدفون بسويقة اللبن بمصر .

وله وقتٌ عظيم كلَّ ليلةِ ثلاثاء ، ويحضرُ فيه خلائقُ ، وله نذورٌ ومريدون .

وكان أصلُه من ناحية تفهنا ، بلد سيدي داود الأعزب .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٦٤) (٣٠٧) .

(٢) انظر « تحفة الأحباب » (ص ٢٤) ، و« طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٥٠٣) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٣٠) .

واجتمع بسيدي داود فأشار عليه بالإقامة في مصر .

فكان له عنزٌ يحلبُ للضيف منها ما شاء ؛ من لبنٍ ، وعسلِ نحل ، وزيتٍ ، وشيرجٍ ، وغير ذلك ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٠٤) الشيخ مجد الدين القوصي رضي الله عنه

كان إماماً في العلوم والأسرار .

وكان يقول : (ما بقي أحد يدخل النار أبداً ؛ فإني أطفأتها بقدميَّ هاتين) .

قلت : وهـٰذا منه يدل علىٰ أن رحمة الله غلبت عليه حتىٰ حجبته عن شهود النار ؛ فإنها موجودة بالنصوص القطعية ، وممَّا يدلُّ علىٰ غلبة الرحمة علىٰ قلبه : أنه كان يخدم الكلاب الصغار إذا ماتت أمهم ، ويسقيهم اللبن حتىٰ يكبروا

وعمي كلب في حارته فأدخله تحت سريره ، وخدمه حتىٰ مات .

ومنهم :

(٣٠٥) سيدي محمد بنُ هارون السنهوري رضي الله عنه[1]

الذي أخبرَ بسيدي إبراهيم الدسوقي ، وكان يقومُ لوالده كلما مرَّ عليه ، ويقول : في ظهره وليٌّ يشتهرُ في المشرق والمغرب ، ويقع له كرامات وخوارق ، ويصوم في المهد .

وكان عالماً صالحاً ، جامعاً بين الحقيقة والشريعة .

وكان إذا خرجَ من الجامع يوم الجمعة يشيِّعُهُ جميعُ من حضر في الجامع إلىٰ داره ، يقصدون التبرُّكَ .

فمرَّ علىٰ فقيرٍ جالس تحت حائط يفلي ثيابه ، وقد مدَّ رجليه ، فقال سيدي محمد في نفسه : هـٰذا الفقير قليلُ الأدب ، الذي لم يضمَّ رجليه لمَّا مررنا عليه ، فسُلب

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٦٤) (٣٠٨) .

الشيخُ لوقته ، وتفرَّقَ الناس عنه ، فلم يبقَ منهم أحدٌ ، فعرف الشيخ من أين أُتي ، فطلب ذلك الفقير ، فلم يجدوه ، وقالوا : إنه صبيٌّ القرَّاد ، فذهب الشيخ وراءه إلىٰ إسكندرية والمحلة الكبرىٰ فلم يجده ، فقالوا له : ربما تجده في مصر مع معلِّمه ، فسافر الشيخُ إلىٰ مصر من سنهور ، فوجده مع معلِّمه في رميلة مصر يلعب بالقرود وبالدِّباب ، فوقف الشيخُ خلف الحلقة ، فعرفه المعلِّمُ ، وقال للصبي : قم عينك ، انظر خصمَكَ ، قد جاء يطلبُ رأسَ ماله .

فلما فرغا اجتمعَ به القرَّادُ الكبير ، فقال له : مثلك يا شيخ محمد مع هـٰذا العلمِ العظيم والشهرة يخطرُ في باله أنَّ له فضلاً علىٰ أحدٍ من خلق الله تعالىٰ ، مع أنَّ صبيَّ القرَّاد يقدرُ علىٰ سلب ما عندك من العلوم والمعارف ؟! فاستغفر الله وتاب ، فقال : لصبيه : ردَّ إليه رأسَ ماله ، فقال : ها هو في قلب السحلية ببلده ، يذهبُ إلى الحائط الذي مرَّ عليَّ وأنا جالسٌ تحتها مادٌّ رجلي ، فليقل في الشقِّ الذي هناك : يا سحلية ؛ يا ساكنة في هـٰذا الشقِّ ؛ ردِّي عليَّ رأسَ مالي ، ففعلَ ، فخرجتِ السحليةُ ، ونفختْ في وجه الشيخ محمد ، فردَّ الله إليه رأس ماله ، وقال لنفسه : يا مأوىٰ كلِّ شرٍّ ؛ كيف تري نفسك بعلم يحمله قلبُ سحلية ؟! ومن ذلك اليوم ما خطرَ في باله قطُّ أنه خيرٌ من أحد ، رضي الله عنه .

وحكىٰ لي سيدي الشيخ محمد الشناوي : أنَّ سببَ خراب بلده مدينة سنهور : أنه رأىٰ بلاءً نازلاً علىٰ بلده ، فأمرهم بذبحِ عشرِ بقرات ، وأمرهم ألا يردُّوا فقيراً ؛ ليدفعَ الله عنهم البلاء ، فدخل لهم فقيرٌ مشدود الوسط بحبلٍ علىٰ خيشة ، فأكل نحو عشر مواجير ، فدخل النقيبُ ، فدفعه وأخرجه ، فنزلتْ على البلدِ صاعقةٌ ، فأحرقتِ الناس والبهائم والأسواق ، وخرج الشيخُ وأهله صارخين من البلد ، وأرسلَ خلف النقيب وعزله ، وقال له : شخصٌ يريدُ أن يأكلَ الطعام ويتحمَّلَ عن أهل البلدِ البلاء تمنعُهُ ؟! فطلبوا ذلك الفقير ، فلم يجدوه ، فخربتِ البلد من ذلك الوقت إلىٰ وقتنا هـٰذا ، وكانت مدينةً عظيمة وجدوا في سقوفها موضعَ الأنخاخ الحلفاء ظهوراً من الحرير تحت الترصيص من مكنةِ أهلها .

ومناقبه كثيرةٌ مشهورة في بلاده وغيرها ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٠٦) الشيخ أبو العباس البصير رضي الله عنه[١]

كان من أصحابِ الكشف التامِّ ، والقبول العام .

وكان صاحبَ الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر ، وكان سيدي أبو السعود يُكاتبه بالأوراق أيامَ زيادةِ النيل ، فكان يكتبُ الورقةَ ويرميها في الخليج ، فتقلعُ نحو الشيخ أبي العباس حتىٰ تقفَ علىٰ سلَّم زاويته ، ويرد له الآخر الجواب ، فتقف علىٰ سلم زاويته ، ولا تبتلُّ ورقةٌ واحد منهما .

وجاء شخص إلىٰ سيدي الشيخ أبي السعود يطلبُ الطريق ، فقال : يا أخي ؛ ليس لك عندي وديعة ، وإنما وديعتُكَ عند الشيخ أبي العباس البصير ، وسيأتي من بلاد المغرب ، فلما وصل الشيخ أبو العباس من المغرب إلىٰ ساحل بولاق أرسلَ وراء الرجلِ ، وقال : امض إلىٰ شيخِك ، فقد دخل هـٰذه الليلةَ إلىٰ بولاق ، فمضىٰ إليه ، فأوَّلُ ما رآه قال : جزى الله عني أخي أبي السعود خيراً

وطلب بعضُ الأمراء زوجةَ الشيخ تحضر في عرس ولده ، فقال الشيخ : ليس عند عيالنا ثيابٌ تصلح للعرس ، فقال : لا بدَّ أن تجبروا بخاطري ، فأرسل الشيخُ زوجتَهُ وألبسها مرقعتَهُ ، فقلبها اللهُ تعالىٰ في أعين الحاضرين كامليَّةً من حرير ، مفصَّصةً بالجواهر والمعادن ، فتعجَّبَ الناس من ذلك ، وجاء الأميرُ يعتبُ على الشيخ ، ويقول له : كيف تقولون لنا ما عند عيالنا ثياب تصلح للعرس ، وعليها كامليةٌ من حريرٍ ليس في مصرَ مثلها عند أحدٍ من الأمراء ؟! فأخرجها له الشيخ ، وقال : هـٰذه هي المرقعة التي رأيتموها علىٰ عيالنا .

وقدمَ شخص من أصحاب سيدي أبي العباس على الشيخ عبد الرحيم القناوي ، وهو يأخذ العهود علىٰ جماعةٍ ، فمدَّ الشيخُ عبد الرحيم يده ليأخذ علىٰ ذلك الشخص العهد ، فخرجتْ يدٌ من المحراب ، فمنعت الشيخَ عبد الرحيم ، فقال : رحمَ الله أخي أبا العباس ، يغير علىٰ أولاده حيّاً وميتاً ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٦٦) (٣١٠) .

ومنهم :

(٣٠٧) الشيخُ القدوة عبدُ الله المنوفي رضي الله عنه[١]

شيخُ الشيخ خليل صاحب « المختصر »[٢] رضي الله عنهما ، من شاعتْ بركاتُهُ في أقطار الأرض .

وكان سيدي إبراهيمُ المتبولي يقول : (إذا كان لكم إلى الله تعالىٰ حاجةٌ فتوسَّلوا بسيدي عبد الله المنوفي ؛ فإنْ لم تُقض ، فتوسَّلوا بسيدي شرفِ الدين الكردي بخطِّ الحُسينية ، فإن لم تُقض عليكم بالإمام الشافعي ، فإن لم تُقضَ فعليكم بالسيدة نفيسة) انتهىٰ .

وكان الشيخ عبد الله يُنفقُ نفقة الملوك من غير أن يُعهدَ له معلومٌ ، وكثيراً ما كان يُخرج الذهب والفضة من طيَّاتِ عمامته ، وكثيراً ما يفرشُ له الخادمُ الفروةَ ليجلس عليها ، فيأتيه السائل ، فيصيرُ يُخرجُ الفضةَ من تحت الفروة ، والخادمُ ينظر من غير أن يضع الشيخُ تحتها شيئاً

وربما خرجُ من بيت الخلاء وأصابعُهُ تقطُر ماءً ، وبين أصابعه الفضة ، فيُعطيها لأولِ من يلقاه .

وكان إذا نزلَ بالمسلمين غلاءٌ يصيرُ يُطعم كلَّ ليلةٍ السبعين نفساً وأكثر .

وكثيراً ما كان سيدي يشتري الألفَ رغيف وأكثر ويُفرِّق على الناس في الطرقات .

وكان يُضحِّي بالثمان بقرات ، والاثني عشر خروفاً ، غير ما يُرسله للفقراء من المذبوح .

ولم يكن له زاويةٌ يقصدُها الناس ، وكان يكرَهُ الإقامة في الزوايا وجَمْعَ الفقراءِ عنده ، ويقول : إنما يليقُ ذلك بكُمَّل الأولياء المحفوظين من دسائس النفوس .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٦٢) (٣٠٤) .

(٢) الشيخ خليل بن إسحاق الجندي توفي سنة (٧٦٧هـ) ، وكتابه « المختصر » في فروع المالكية ، وله عدة شروح . انظر « كشف الظنون » (١/ ١٦٢٨) .

وكان كثيراً ما يجلسُ بجانب طاقةٍ في الحائط ، فيخرجُ منها ما تعجزُ الملوكُ عنه من النقود والأطعمة وغير ذلك ، فإذا قام الشيخ لم يجدوا فيها شيئاً ، فكان أكثر نفقته من الغيب .

وأما خُلقُهُ الحسن : فكان عظيماً ، لم يزعجْ أحداً من أجلاف أولاد الفلاحين والمغاربة بكلمةٍ واحدة ، بل كان يتلطَّفُ بالواحد منهم ، ويقول له : الأمرُ ما هو كذا يا حبيبي ، أو يا سيدي .

وكان يُقبِلُ على أصحابه بالملاطفة حتى يظنَّ كلُّ واحدٍ منهم أنه المقدَّمُ على سائر أصحاب الشيخ .

وكان إذا رأى قلوبَ أصحابه قد عمها الحزنُ والكرب يحكي لهم الحكاياتِ المضحكةَ ترويحاً لقلوبهم .

وكان ينشدُ كثيراً : [من السريع]

يـا أيُّهـا الـرَّاضـي بـأحكـامِنـا ... لا بـدَّ أنْ تحمـدَ عُقبـى الـرِّضـا
فـوِّض إلينـا وابـقَ مستسلمـاً ... فـالـراحـة العظمـىٰ لمـن فـوَّضـا
وإنْ تعلَّقْـتَ بـأسبـابِنـا ... فـلا تكـنْ عـنْ بـابِنـا مُعـرضـا
فـإنَّ فينَـا خلفـاً بـاقيـاً ... منْ كلِّ مَا يأتي ومَا قدْ مضَىٰ
لا ينعـمُ المـرءُ بمحبـوبِـه ... حتـىٰ يـرى الخيـرةَ فيمَـا قضَـىٰ

وكان ينشد أيضاً[١] : [من الكامل]

أوليتنـي نعمـاً أَبـوحُ بشُكـرِهـا ... وكفيتَنـي كـلَّ الأُمـورِ بـأسـرِهـا
فلأشكُرَنَّكَ مَا حَييتُ وإنْ أَمتْ ... فلتشكـرنَّـكَ أَعظُمـي فـي قبـرِهـا

وكان ينشد أيضاً : [من الطويل]

إذا ماتَ مَنْ فوقي ومَنْ دونَ مولدِي ... ومُـوِّت أَقـرانِـي فكيـفَ بقـائِـي

(١) البيتان في « المستطرف » (٢/ ١١٦) من دون عزو .

وكان ينشدُ حين لازم سكنى التربة في أواخر عمره[١] : [من الوافر]

أَنستُ بوحدتِي ولزمتُ بيتِي فطابَ الأُنسُ لي ونمَا السرورُ
وأدَّبَني الزمانُ فلا أُبالي هُجِرتُ فلا أُزارَ ولا أَزورُ
ولستُ بسائلٍ مَا صحَّ عقلِي أسارَ الجيشُ أمْ ركبَ الأميرُ

وكان ينشدُ أيضاً[٢] : [من الكامل]

النَّفسُ تكرَهُ أنْ تكونَ فقيرةً والفقرُ خيرٌ من غنىً يُطغيها
فغنى النفوسِ هوَ العفافُ فإنْ أبتْ فجميعُ ما في الأرضِ ما يكفيها

وكان إذا خرجَ في جنازةٍ يتقاتلُ الناسُ على تقبيل يده ، وعلى التبرُّكِ به .

وأكبَّ الناسُ عليه يومَ مات أبو عبد الله بن الحاج ، فقال شخص من الفقراء : إنْ كان الشيخُ عبد الله كاملاً فهو لا يتغيَّرُ من ذلك ، فلم يتغيَّر ، ولا رأىٰ نفسه بذلك .

وكان يقول : (إذا دُعيتَ إلىٰ بيت ظالمٍ لشفاعةٍ في مظلوم فاذهبْ إليه سواء أَقبلك أم ردَّك ، وما ذمَّ العلماءُ التردُّدَ إلىٰ أبواب الظلمة إلا لمن يطلبُ منهم شيئاً ، مع أنه لو قَسَمَ الله تعالىٰ له رزقاً علىٰ يدهم فلا بدَّ له من أكله ، ولو لم يسألْهم في ذلك) .

وكان رضي الله عنه لا يسألُ لأحدٍ من أصحابه شيئاً ، ومع ذلك كان يحصلُ لهم ببركته فوقَ الكفاية .

وكان يقول : (العبدُ تارةً يكون تحت حكم حاله ، وتارةً يغلبُ عليه التفويضُ والتسليم ، وتأمَّلْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء كيف غلبَ عليه الحالُ في الشفقة علىٰ أمَّتِهِ ، فراجع ربَّهُ في تخفيف ما فرضَهَ من الخمسين صلاة بمراجعة موسىٰ عليه السلام في ذلك ، ثم لما غلبَ عليه التسليمُ عند الخمس وقفَ عن السؤال ، وقال : « استحييتُ منْ ربِّي عزَّ وجلَّ »[٣]

---

(١) الأبيات لصالح بن عبد القدوس . انظر « فوات الوفيات » (٢/١١٧) .
(٢) الأبيات لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، انظر « ديوانه » (ص ٤٣٥) .
(٣) هو جزء من حديث المعراج الذي رواه البخاري (٣٤٩) ، ومسلم (١٦٣) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

وكان يزجرُ أصحابَهُ عن ذكر أحوالِ الأمراء والأكابر إلا بخيرٍ ، ويقول : (من سوءِ الأدب مع الله الاشتغالُ عنه بعبيده) .

وكان مجلسُهُ محفوظاً من الغيبة والفسوق وما يقاربُهما

وكان يكرهُ اللَّقبَ بنحو شمس الدين ، ونور الدين ، ونحوهما .

وكان لا يقومُ لأحدٍ من أهل العلم إلا إن عرفَ حاله في العمل بعلمه

وكان يصافح الناس ، فإذا قبَّلَ المصافحُ يدَهُ لم يمنعْه ؛ خوفاً علىٰ يده أن يفكُّوا عقدَ أصابعها لو منعهم ؛ لكثرة ازدحامهم عليه .

وكان يخفِّفُ في صلوات الفرائض ، ويقول : (إنها صلاةُ الأبدال ؛ فإن مثلَنا لا يقدرُ علىٰ طول الوقوف بين يدي الله عز وجل من غيرِ خروجِ قلبه إلىٰ أمور الدنيا) .

وكان يحثُّ أصحابَهُ علىٰ أن يقولوا عقب صلاةِ الصبح : اللهم ؛ اغفرْ لأمة محمدٍ ، اللهم ؛ ارحمْ أمة محمد ، اللهم ؛ استرْ أمةَ محمد ، اللهم ؛ اجبرْ أمة محمد ، ويقول : من واظبَ علىٰ ذلك كُتبَ من الأبدال ، وينقلُ ذلك عن الخضر عليه السلام .

وكان إذا جاءه أحدٌ بطعامٍ نفيس ، أو ثيابٍ نفيسة يقول : ليس لي بذلك حاجة ، فإنْ أبىٰ قال : تصدَّقْ به علىٰ غيري .

وكان يقول : (عليكم بالصدقةِ بالخبز ؛ فإن أحداً لا يستغني عنه) .

وتزوَّجَ مرةً جاريةً نوبية قبيحة المنظر ، فصار يخدمُها ويقول : اجعليني في حلٍّ ؛ فإني لا أصلحُ أن أكون زوجاً لك ؛ جبراً لخاطرها

وكان لا يحتجبُ عن الناس ؛ بل يخالطُهم ، ومع ذلك كان لا يفترُ عن التفكر في أهوال يوم القيامة ، ومحاسبةِ نفسه علىٰ أقوالها وأفعالها وخواطرها .

وكان يُكثر مدحَ من يؤذيه ويخدمه ، ويحسن إليه ، ويتأدَّبُ معه ، ويأمرُ أصحابَهُ بذلك ، ويقول : إنَّ ذلك من أخلاق القوم .

وكان يحملُ الناسَ علىٰ أحسنِ المحامل .

وأشاعوا عنه مرةً : أنه يعملُ الكيمياء ، فقال : مرادهم التقوىٰ ؛ لأنها كيمياء

الفقراء ، فقالوا له : إنهم قالوا : إنَّ زوجَ أختك يبيعُها لك ، فقال : مرادُهم : أنه يتعلَّم مني التقوىٰ ويُعلِّمها للناس .

وأعطاه شخصٌ مرةً إناءً من الإكسير ، فألقىٰ منه شيئاً علىٰ فضةٍ فصارتْ ذهباً ، فألقى الإكسير في الخلاء ، ولم يعمل به .

وكان الغالبُ عليه شهودَ سعة رحمة الله عز وجل ، وكثرةَ الرخاء لعباد الله ، ويضيِّقُ هو علىٰ نفسه .

وكان إذا جاءه أحدٌ بمالٍ من الزكاة ، ورأىٰ كسبَهُ غيرَ صالح ، يقول له : اذهبْ بزكاتك إلىٰ غيرنا ؛ فإن جماعتنا لا يستحقُّون الزكاة ؛ لغناهم ، وإذا جاءه من يرضىٰ كسبَهُ قال له : فرِّقْ زكاتك عليهم ؛ فإنهم مُستحقُّون .

قال الشيخ خليل : وكان سيدي عبد الله كثيرَ المُكاشفات ، وأولُ اجتماعي عليه : أنه قال لي : يا خليل ؛ من أعظمِ الآفات السهرُ في ذكر الخرافات ، وكنت قد قرأتُ (سيرة البطال)[1] فناداني باسمي ، وكاشفني بما كنتُ أقرأُ فيه من غير أنَّ أحداً يُخبره بحالي .

وكان إذا أعلمه أحدٌ بأنه صنعَ له طعاماً ، ثم دعاه إليه يُرسلُ الطلبة ، ولا يحضرُ ويقول : إن نفسي الخبيثة استشرفت إلىٰ ذلك ولم يحضرني نية صالحة .

وكان لا يأتي لطعامِ أحدٍ إلا بعد تعزُّزٍ زائد ، ويقول : أخافُ أن يكونَ تكلُّفَ ما ليس هو من شأنه غالباً .

وامتحنه يوماً شخصٌ ، وعزم عليه وعلىٰ طلبته ، وأجلسه في طاحونٍ خراب ، وقال : اجلسوا ها هنا ، ثم ذهبَ وتركَهم حتىٰ أعجزهم ، فصار الشيخُ يتبسَّمُ ، ولم يتغيَّرْ .

---

(١) **سيرة البطال** : من السير الشعبية ؛ مثل سيرة عنترة ، والزير سالم ، والزيبق المصري ، وبطلها : أبو محمد عبد الوهاب بن نوبخت ، تروي قصة غزو الروم وقتلهم وسبيهم ، وهي قصص باطلة وأكاذيب كما قال أصحاب الحديث ، ونهىٰ عن قراءتها أئمة ؛ منهم الإمام الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ٦٤) ، وانظر « صبح الأعشىٰ » (١/ ٣٩٤) .

وكان إذا عرفَ من صاحب الطعام أنه إنما يدعوه ليقولَ : إن الشيخ عبد الله جاء إلىٰ فلان . . لا يذهب إليه ، ويقول له : (أصلحْ نيّتَكَ ، وأنا آتيك كلَّ يومٍ ولو عشر مرات) .

وبالجملة : فقد كان سيدي عبد الله المنوفيُّ رضي الله عنه صاحبَ علمٍ وأدب ، وزهدٍ وورع .

وقد أفرده بالترجمة تلميذُهُ الشيخُ خليل المالكيُّ صاحبُ « المختصر » **وها أنا مُلَخِّصٌ لك يا أخي بعضَ مقاصده هنا ، فأقول وبالله التوفيق** :

ولد الشيخ عبدُ الله المنوفي بقريةٍ يقال لها : شابور ، من أعمال البحيرة سنة ستٍّ وثمانين وست مئة .

ومات في سابع رمضان سنة تسعٍ وأربعين وسبع مئة ، فكان عمرُهُ يومَ مات ثلاثاً وستين سنة .

وتربَّىٰ يتيماً ، ربَّاه الشيخُ العارف بالله تعالىٰ سُليمان المغربي الشاذلي ، المدفون بمدينة منف ، وقرأ عليه القرآن ، وكان يقول : سيكون لهـٰذا الشابِّ شأنٌ عظيم .

ونظر الشيخُ سليمان يوماً إلىٰ مفتاحٍ كان أبيضَ ، فوضعه في طاقة الفرن ، فصار أسودَ ، فقال : (انظر يا عبد الله ، من يُجالسُ المتلوِّثين يتلوَّثُ) .

وامتلأتْ قناة المرحاض يوماً ، فنزحها سيدي عبدُ الله كلَّها وحده ، وهربتْ صغارُ المكتب ذلك اليوم ، فدعا له الشيخُ سليمان ، وقال له : هلا هربتَ مع الصغار ؟! فقال : يا سيدي ؛ هـٰذا شرفي ، فقال له : لا يفلحُ منهم أحدٌ غيرك .

ولم يزلْ يخدمُ الشيخَ سليمان حتىٰ قال يوماً للناس : قد جاوز عبدُ الله مقامي ، وصار لا يلحقه أنا ولا غيري .

ثم لم يزلْ في ارتفاعٍ ، ثم إنه استأذنَ الشيخَ وسافر إلىٰ مصر ، فأقام بالمدرسةِ الصالحية بخط بين القصرين ، فأخذ العلمَ عن جماعةٍ من مشايخ الإسلام ؛ كالشيخ شهاب الدين ابن المرحل ، والشيخ شرف الدين الزواوي ، وأضرابهما

قال : وكان جميعُ مشايخي يحثُّوني علىٰ مطالعة كتبِ القوم ؛ كـ « الإحياء »

للغزالي ، ويقولون لي : لا يكملُ الفقيه حتىٰ يتصوَّفَ .

قال : الشيخُ خليل تلميذُهُ : (وكان يتكلَّمُ في التصوف ، ويحلُّ رسائلَ القوم حتىٰ كانَ قطبَ رحاها ، وشمسَ ضُحاها) .

قال : وكان كثيراً ما يقرؤون عليه « شرحَ رسالة القُشيري » للشيخ عبد المعطي السكندري ، وكتاب « الشفا » ، و« تفسير الواحدي »[1] ، وغير ذلك ، فيتكلَّمُ علىٰ معاني ذلك بأحسن كلام ، كلما يختمُ كتاباً يبتدئُ بآخر .

وكان يُلقي علمَ الفقه أحسنَ من جميع أشياخه .

ولم يزلْ على الاشتغال بالعلم ليلاً ونهاراً حتىٰ بلغَ الأربعين سنة ، فاشتغل بالعبادة ، وتلاوةِ القرآن ، والتهجد غالب الليل .

قال الشيخ خليل : (وكان صائمَ الدهر ، لا يُفطر إلا في الأيام المنهي عنها ، أو حين يدعوه إنسانٌ إلىٰ دعوةٍ ، بشرط الحلِّ في طعامه) .

وكان ظاهرُهُ مع الطلبة وباطنه مع الله ، فربما سها في الملكوت ساعةً ثم رجع ، ثم يقول : آه آه آه .

وكان ينام ويردُّ الغلطةَ على القارئ ، فكانوا يقولون : إن قلبَهُ لا ينامُ ، بحكم الإرثِ لرسول الله صلى الله عليه وسلم[2]

وكان العلماءُ والصلحاء يدخلون عليه ، فلا يقومُ لأحدٍ منهم ، ولا يحتجبُ عن أحدٍ من المسلمين .

وكان إذا درَّسَ يخرجُ من فيه النورُ ، وما سمعوا منه قطُّ دعوى العلم ، ويقول : (إنما نجلسُ نصحِّحُ على المبتدئين ، ونتذاكرُ معهم في العلم ، وليس أنا بشيخٍ لهم ،

---

(١) للواحدي ثلاثة تفاسير ؛ بسيط ، ووسيط ، ووجيز ؛ وتسمىٰ هـٰذه الثلاث : « الحاوي لجميع المعاني » انظر « كشف الظنون » (١/ ٤٦٠) .

(٢) من خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم أنه تنام عيناه ولا ينام قلبه ؛ فقد روى البخاري (١١٤٧) ، ومسلم (٧٣٨/ ١٢٥) : قالت عائشة : يا رسول الله ؛ أتنام قبل أن توتر ، فقال : « يا عائشة ؛ إن عينيَّ تنامان ، ولا ينام قلبي » .

ولـٰكن كلُّ من أظهرَ الحقُّ تعالى الحقَّ علىٰ لسانه قبلناه) .

وكان قليلَ الكلام والمنام .

وسمع بعضُ الصالحين قائلاً يقول له في المنام : من أحبَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فليسلِّمْ على الشيخ عبد الله المنوفي) .

وكان يقول : (استأذنتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في الانقطاع في بيتي عن الناس ، فلم يأذنْ لي) .

وكان في الورع ليسَ له نظير .

وكان لا يلبسُ إلا من غزل أخته ؛ لعلمه بدينها وخيرها .

وكان كثيراً ما ينساه أهلُ البيت في العشاء ، فيذهب إلى الدستِ أو الزبادي ، فيلحسُ ما يجده ، ويكتفي به .

وكان كثيراً ما يلحسُ فضلةَ الصغار الذين تعافُ الأنفس منهم .

وكان يأكلُ ورق الخسِّ الفوقاني ، ويدعُ الطريَّ لأهل البيت .

وكان ثوبُهُ من قطن ، أو ملحم غليظ ، وعِمامته دون العشرة أذرع ، وأرخىٰ له عذبةً منها لما قرؤوا عليه أنَّها سُنةٌ[1] ، وأمرَ أصحابَهُ بذلك .

وكان إذا لبس ثوباً لا ينزعُهُ ولو اتَّسخَ ، إلا إن نزعوه منه ؛ غفلةً عن أحوال الدنيا .

وكانت هيئتُهُ كهيئة آحادِ الناس ، حتىٰ كانوا يدَّعون عليه في بعض الأوقات : أنه سرقَ لهم أمتعةً ، فيقبضون عليه ، حتىٰ يجيء من يعرفُهُ فيخلِّصه منهم ، وهو ساكت لا يتكلم .

وكان بيته متهدماً ، فيريدُ الناس أن يعمروه له ، فيأبىٰ ويقول : هـٰذا يكفي من الدنيا .

ولم يره أحدٌ قطُّ يكنسُ له بيتاً ، ولا ينفضُ له فرشاً .

---

(١) روى الترمذي (١٧٣٦) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا اعتمَّ سدل عمامته بين كتفيه .

وكان يلبسُ بين ثيابه في الشتاء فروةً لا تساوي أربعةَ دراهم ، أو بُشْتاً كذلك[١]

وكان فرشُهُ يساوي درهماً ، وغطاؤه هو وأولاده وعياله عباءةٌ عتيقة .

وكان يرىٰ حلال الدنيا كالميتة ، لا يأخذُ منها إلا ما يأخذُهُ المضطرُّ .

وكان يمكثُ الأيام لا يشربُ ماءً ، ولا يأكلُ طعاماً إلا مقدارَ زبيبةٍ ؛ خروجاً من الوصال[٢]

وكان ينهىٰ أهلَ داره عن نخلِ الدقيق ، فإن نخلوه أكلَ هو النخالةَ التي يُطعمونها للدجاج .

وكان زاهداً في مناصب الدنيا ، وعرضوا عليه وظائفَ العلماء ، فأبىٰ ، وقال : لستُ عالماً .

وكان إذا بلغه أن أحداً من الأمراء عزمَ علىٰ زيارته يتوجَّهُ إلى الله تعالىٰ في دفعه ، فلا يأتي ، ويقول : ما لنا وللأمراء .

ولم يقبل معلوماً قطُّ علىٰ شيءٍ من القربات الشرعية ، ومع ذلك كان يُنفق نفقة الملوك .

ولما ماتَ لم يجدوا عنده ديناراً ولا درهماً ولا كتاباً ، إلا بعض أجزاء عتيقة لبعض الأصحاب ، ومنديلاً شمطاً كان يتَّزرُ به[٣] ، وعباءة ، وقبع لبدٍ ، وفروة لا تساوي أربعة دراهم ، وأما قميصُهُ وعِمامتُهُ فكُفِّنَ فيهما .

ولم يصنف قطُّ ورقةً ، ولا كتب علىٰ فتوىٰ .

وكان يجلسُ بين يدي بعض العلماء علىٰ ركبته متأدِّباً ، مع شهود كلٍّ من يراه أنه

---

(١) البشت : فارسية معربة ؛ ومعناها : العباءة الواسعة من نسج غليظ كالصوف ، يلبسها الرجال . « المعجم العربي لأسماء المعاجم » (ص ٦٥) .

(٢) روىٰ البخاري في « صحيحه » (١٩٦١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تواصلوا » ، وروىٰ أيضاً (١٩٦٢) ، ومسلم (١١٠٢) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال ، قالوا : إنك تواصل ، قال : « إني لست مثلكم ؛ إني أطعم وأسقىٰ » .

(٣) **الشِّمْطاط** : ثوب متقطع متفرق ؛ وهو الثوب الخَلَق .

أفضلُ من ذلك العالم ، مع أن القضاة والحكام كانوا يشاورونه في المشكلات ، ويرجعون إلىٰ قوله .

وكتب مرةً في حادثةٍ توقَّفَ الحكامُ فيها علىٰ فتوى : الشيخ عبد الله .

وكان يقول : (كلُّ يوم لا يُجالسني فيه أحدٌ من أبناء الدنيا فهو يومُ عيد) .

وقال له شخصٌ يوماً : قد ذكرناك البارحةَ في مجلسِ أمير كبير ، فقال : من ذكرني في مجلس أحدٍ من الأمراء فلا جزاه الله خيراً .

وجاءه شخص من الأكابر ، وقال : إن الحاج آل ملك يطلبُ منكم أنْ تُدرِّسوا المذهبَ في جامعه بالحسينية ، وتحيون المذهب ، فقال : إن كان المذهبُ لا يُحييه إلا مثلي فقد ماتَ ، فراجعه في ذلك ، فقال : هٰذا شيءٌ ما فعلته أولَ عمري ، أفأفعلُهُ آخره ؟! فقال الأميرُ لشخص آخر : إنْ أتيتني بالشيخ يُدرِّسُ في جامعي أعطيتُكَ ألفَ دينار ، فجاء إلى الشيخ ، فردَّهُ كذلك ، وقال له : اطلبْ رزقَك بحيلةٍ خلاف هٰذه .

وجاءه مرة الدوادار الكبير زائراً[١] ، فقال له : يا سيدي ؛ هل لكم حاجةٌ ؟ فقال : نعم ، ألا أراك بعدَ اليوم ولا تراني .

وكان يقولُ في حديث : « اليدُ العليا خيرٌ منَ اليدِ السُّفْلىٰ »[٢] : (الذي ينبغي لمثلنا إذا تصدَّقَ أن يفتح كفَّهُ ، ويأمرَ الفقير أن يأخذَ منه ؛ لتكون يدُ الفقير هي العليا) .

وقيل : إنه كان يقول أيضاً في ذلك : (الذي ظهر لي : أن السُّفلىٰ : هي يد السائل ، والعليا هي يدُ الغني إذا كان هو السائلَ للفقير أن يقبل منه) .

وكان يردُّ المالَ إذا أتوه به ليفرِّقه ، وربما قبلَهُ في بعض الأوقات ، وفرَّقَهُ على المحتاجين ، ولم يتناول منه شيئاً .

---

(١) **الدوادار** : هو الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير ، ويتولّىٰ أمرها ، مع ما ينضم لذلك من الأمور اللازمة لهٰذا المعنىٰ ؛ من حكم وتنفيذ أمور .

(٢) رواه البخاري (١٤٢٧) عن سيدنا حكيم بن حزام رضي الله عنه ، ومسلم (١٠٣٣) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وكان إذا آذاه أحدٌ لا يقابله بشيءٍ ، ويقول : (من أخلاقِ الفقراء ثلاثٌ : تحمُّلُ الأذىٰ ، وتركُ الأذىٰ ، وإدخالُ الراحة على العباد) .

وكان يقول : (لو أن العارفَ طلبَ الانتقام ممن ظلمه لمنعته الرحمة القائمة به ، ولو قدر ألا تقومَ به الرحمة ، فهو يشهدُ أنَّ الله هو الفاعل لما وقع) .

وكان يحتملُ الأذىٰ من الأصحاب وغيرهم ، ويقول : اللهم ؛ اغفرْ لهم ؛ لعلمِهِ بأن كلَّ من لم يقابلْ مَنْ آذاه كانَ اللهُ خصمَهُ ؛ أي : خصم المؤذي ، فيأخذُ لوليِّهِ حقَّهُ .

وكان يقول : (كانتِ امرأةٌ صالحة من بني إسرائيل لها دجاجةٌ ، فسرقها لصٌّ ، فلمَّا نتف ريشَها نبتَ كلُّه في وجهه ، فعجز الناس عن نتفه ، فأشار إليه بعضُ الأحبار : بأن يُغضبَ المرأةَ ، ولا يتركها حتىٰ تدعوَ عليه ، وتنتصر لنفسها ، ففعل ، فلما دعتْ عليه وقعَ الريشُ بنفسه) انتهىٰ .

وكان يقول : (مِنْ خيرِ عباد الله : الذين يَرحمون من ظلمهم) .

وكان يقول : المُراد بقوله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريكَ يا عمرُ أنَّ اللهَ تعالىٰ اطَّلعَ علىٰ أهلِ بدرٍ فقالَ : افعلُوا ما شئتُم ، فقدْ غفرتُ لكمْ »[1] : (الصحابة الذين حضروا وقعةَ بدر ، لا مَنْ يسكن البلدَ إلىٰ يوم القيامة ، لا سيما أهل المعاصي منهم) ، فخالَفَهُ فقيه في ذلك ، فحصل له وجعٌ في بطنه ، وضارب في جنبه حتىٰ كاد أن يموت ، فرجع إلىٰ قول الشيخ ، واستغفرَ .

وجاءته امرأة وقالت : إنَّ إستادار الأمير بشتك حبس ولدي ظلماً[2] ، فذهب الشيخُ إليه ، فلم يقبلْ شفاعتَهُ ، فخرجَ الشيخُ مُغضباً عليه ، فمُسِكَ وصُودر وخربت دياره ، وصار يسأل الناس على الأبواب إلىٰ أن مات .

وحمل الترَّاسون له قمحاً[3] ، فسرقوا منه شيئاً ، فقال لهم الشيخ : هاتوا

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤) عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
(٢) الإستادار : لقب يطلق علىٰ من يتولىٰ قبض المال السلطاني وصرفه ، وتمثيل أوامر السلطان فيه .
(٣) التراس : سائق العربة ، « تكملة المعاجم العربية » (١/ ١٤٤) لدوزي .

ما أخذتموه ؛ فإنه قمح الفقراء ، فلم يرضوا ، فماتتْ حميرُهم كلُّها في ثاني يوم ، ثم أتوا به بعد ذلك .

وكان رضي الله عنه من الصابرين في البأساء والضراء ، وكان من أقوى الناس في الصبر علىٰ أذيةِ أصحابه له ، وعلى الألم الشديد في جسده ، وما قال : آه قطُّ ، وكانتْ في بدنه عدةُ آلام لا يطلعُ عليها إلا الخواصُّ من أصحابه ؛ منها : قطارُ البول ، ومنها : أنه كان له جمرةٌ بين كتفيه ، لم تزلْ تعملُ عليه ، فيحصل له منها ألمٌ شديد .

وحكى القاضي شهابُ الدين بنُ الأعزِّ وكان من أجلِّ أصحاب الشيخ : أن الشيخَ انقطعَ عنَّا مرةً ، فسألنا عنه من الطبيب ، فقال : ما معي إذنٌ من الشيخ أن أخبرَكم بالذي به ، فسكتنا ، ثم سألنا الشيخَ عن ذلك ، فقال لنا : إنما هو دميملٌ في محلٍّ لا ينبغي رؤيته ، فبعد مدَّةٍ قال لنا الشيخ : إنه قد استحقَّ الفتحَ فأتوني بمزيِّنٍ وقصعةٍ[1] ، ففتحه المزيِّنُ ، وأخرج منه مدة نحو ثلاثة أرطال ، فقال المزيِّنُ : لو كان ذلك في جملٍ لبرك .

وكان به أيضاً باسورٌ لم يزلْ ينضحُ دماً ، ويعود هو والخراج الذي في مقعدته ، ويعمل عليه .

وكان به باسورٌ آخرُ من داخلِ السفرة ، لا يصلُ أحدٌ إلىٰ جعلِ لصوقٍ عليه ، ويحرقُهُ حرقاً شديداً .

وكان لا يطلبُ الطبيب إلا بعد جهدٍ شديد ، رضي الله عنه .

وكان من تواضعه : أنه لم يركبْ قطُّ دابّةً في مصر والقاهرة ، بل كان يمشي ويقول : (أستحي أن أمرَّ على الناس وأنا راكبٌ حماراً) .

قالوا : وما سمعنا منه قطُّ دعوىٰ للعلم ، ولا لشيءٍ من مقامات الأولياء .

وكان يقول للطلبة : (إنما نحن نتذاكرُ معكم العلم ، وكلُّ من ظهرَ الحقُّ علىٰ يديه وجبَ علىٰ صاحبه الرجوعُ إليه) .

---

(١) المزين : هو الحلاق ، أو الحجام .

وكثيراً ما كان يقول : (لست بشيخٍ للطلبة ؛ وإنما أنا أصحِّحُ على المبتدئ درسَهُ حتىٰ ينطقَ به من غير لحنٍ) .

وكان يمشي في شوارع مصر والقاهرة في حوائج إخوانه في الحرِّ الشديد المُفرط ، وربما كان حافياً ، ولا يطلبُ قطُّ من صاحبِ الحاجة حماراً يركبه ، ويقول : (من شُكر العافية : المشيُ على الأقدام) .

وكثيراً ما يقول لمن لامَهُ علىٰ عدمِ الركوب : (أرأيتم قطُّ حماراً يركبُ حماراً في حوائجه) .

وكان يكنسُ المراحيض بيده ، ويكتمُ ذلك عن الناس .

وكان يقول : (لولا الناس يمدحوني لكنتُ أملأُ أَزيارَ الأسبلةِ التي على الطرقات)[1]

ومن المشهور : أن الشيخ علاء الدين القُونوي شيخ خانقاه سعيد السعداء ألحَّ على الشيخ عبد الله أن يسكنَ بالخانقاه ، فأبىٰ ، وقال : يا أخي ؛ هـٰذا مكانٌ شرطَ صاحبُهُ ألا ينزلَ فيه إلا صوفيٌّ ، وأنا والله ؛ لست صوفيّاً ، رضي الله عنه .

وكان يحملُ القفَّةَ علىٰ رأسه ، والزبدية علىٰ يده ، واليد الأُخرىٰ فيها نعلُهُ ، وهو يمشي حافياً ، لا يتأثَّرُ بذلك بين الناس ، وربما كان يتلو مع ذلك القرآنَ ، ولا يُمكِّنُ أحداً يحملُ ما كان معه .

وكان أواخرَ عمره يُنفق علىٰ عياله وأصحابه النفقةَ الواسعةَ التي يعجزُ عنها الأمراء ، مع أنه ليس له وظيفةٌ تعمل بالدرهم الفرد .

ووقع الغلاء حتىٰ وصل ثمنُ الإرْدَبِّ مئةَ نصف[2] ، فكان يُطعم كلَّ ليلةٍ عنده السبعين نفساً وأكثر .

وكان عليه مع ذلك مرتباتٌ كثيرةٌ من الخبز للأرامل والأيتام والفقراء .

---

(١) **الأزيار** : جمع زير ؛ وهي الحُبُّ الذي يوضع فيه الماء .

(٢) **الإرْدَبُّ** : مكيال يسع أربعةً وعشرين صاعاً ، **والنصف** : عملة مصرية صغيرة مسبوكة من خليط من الفضة والنحاس ، كانت تساوي قديماً نصف درهم من دراهم السلطان المؤيد .

فكان يُرسل لهم الخبزَ إلىٰ بيوتهم ، ويقول : لا تكلِّفوا نفوسَكم للحضور ، وربما حملَ الخبزَ أو الدقيقَ إلىٰ بيوتهم بنفسهِ ، رضي الله عنه .

وفي هٰذا القدر كفاية .

ومنهم :

(٣٠٨) الشيخ الصالح يحيى الصَّنافيريُّ رضي الله عنه[١]

كانت له مكاشفاتٌ عجيبة وأحوال غريبة ، وكان عالماً صالحاً ، ورعاً زاهداً يقصدُهُ الناس للزيارة من سائر الأقطار ، خضعتْ له رقاب الملوك فمن دونهم .

وانتهت إليه الرئاسةُ في مصر ، حتىٰ جاء زمن دخول شيخ الطريق سيدي يوسف العجمي الكوراني[٢] ، فرأى الكلمةَ فيها للشيخ يحيىٰ ، فلم يدخلْ حتى استأذنه .

وكانت مصر من عهد ذي النون المصري لا يُقيمُ فيها إلا أربابُ الأحوال ، وأول مُسلِّكٍ دخلها هو سيدي يوسف العجمي ، ولما أَذنَ له سيدي يحيىٰ في الدخول أنشد هٰذه الأبيات : [من الوافر]

ألَمْ تَعلَمْ بأنِّي صَيرفيٌّ ... أحكُّ الأولياءَ علىٰ محَكِّي
فمنهم بهْرَجٌ لا خيرَ فيهِ ... ومنهمْ مَنْ أُجوِّزه بشكِّي
وأنتَ الخالصُ الذَّهبُ المُصفَّىٰ ... بتزكيتي ومثلي مَنْ يُزكِّي

مات الشيخُ يحيىٰ رضي الله عنه سنة اثنتين وسبعين وسبع مئة ، ودفن بتربة أبي العباس البصير بالقرَافة ، وكانت جنازتُهُ مشهودةً ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٦٥) (٣٠٩) .

(٢) في (ي) وحدها : (الكيزاني) بدل (الكوراني) .

ومنهم :

(٣٠٩) الشيخ علي السِّدَّار رضي الله عنه[١]

المدفون بزاويته بحارة الديلم والروم ، وعند رأسه عمودٌ من الرخام قائم .

كان رضي الله عنه يبيع السِّدرَ ، ثم انقطع في بيته يُزار إلىٰ أن مات سنة ثمانٍ وسبعين وسبع مئة .

وجاءه مرةً شخصٌ يطلب حنَّاءً ، فأعطاه سدراً ، فردَّه إليه ، وقال : هـٰذا سدرٌ وحاجتنا إنما هي بالحنَّاء للعروس ، فقال : آخر الليل تحتاجون إلى السِّدر ، فمات العريسُ آخرَ الليل ، فغسَّلوه بالسدر .

وكراماته مذكورة في « الطبقات الكبرىٰ » رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٣١٠) الشيخ أبو العباس المُرسي رضي الله عنه[٢]

كان من أكابر العارفين .

وكانوا يقولون : إنه لم يرثْ علمَ الشيخ أبي الحسن الشاذلي غيرُهُ .

وهو أجلُّ من أخذ عن الشيخ أبي الحسن الطريق ، ولم يضعْ له شيئاً قطُّ من الرسائل .

وكان يقول : (علومُ هـٰذه الطائفة علومُ تحقيق ، وعلومُ التحقيق لا يحملُ فهمَها عمومُ الخلق ، والكتابُ يقع في يد أهله وفي يدِ غير أهله) .

وكان يقول : (كتبي أَصحابي) .

ويُحكىٰ ذلك أيضاً عن الشيخ أبي الحسن ، وجميعُ الكلام المنسوب إليهما إنما أخذوه من صدور أصحابهما .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٦٧) (٣١٢) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٨٩) (٣١٤) .

وكان رضي الله عنه يقول : (جميعُ الأنبياء خُلقوا من الرحمة ، ونبيُّنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم هو عينُ الرحمة) .

وكان يقول : (الفقيه : هو مَنِ انفقأ الحجابُ عن عيني قلبه) .

وكان يقول : (كلما أظلمَ الوقتُ قويَ نورُ الوليِّ ؛ كالسراج في الظلمة) .

وكان يقول : (وليُّ الله في حِجر تربية الحقِّ تعالىٰ ؛ كولدِ اللبوة في حجرها ، أفتراها تاركةً ولدها لمن يغتاله ؟! لا والله) .

وكان يقول في معنىٰ : « منْ عرفَ نفسَهُ فقدْ عرفَ ربَّهُ »[1] : (معناه : من عرفَ نفسَهُ بذُلِّها وعجزها عرف ربَّه بعزَّته وقدرته) .

وكان يقول : سمعتُ الشيخَ أبا الحسن يقول : (لو كُشفَ للناس عن نورِ المؤمن العاصي لطبقَ ما بين السماء والأرض ، فما ظنُّكم بنور المؤمن المطيع ؟!) .

وكان يقول : قال ملكُ الغرب للشيخ أبي الحسن : تمنَّ عليَّ شيئاً أُعطيه لك ، فقال : كيف أتمنىٰ عليك ولي عبدان قد مَلكاك ، وصرتَ تحت حكمهما ، فقال : وما هما ؟ فقال : هما الشهوة والحرص ، فكيف أطلبُ من عبدِ عبدي ؟! فاستغفر الملكُ ، وقبَّل رجلَ الشيخ .

وكان يقول : (إذا خرجَ الكلامُ من مأذونٍ له في الكلام خرجَ وعليه طلاوةٌ وحلاوة ، فإذا خرج من غيرِ مأذونٍ له خرجَ وهو مكسوفُ الأنوار) .

وكان يقول : (من أحبَّ الظهورَ فهو عبدُ الظهور ، ومن أحبَّ الخفاء فهو عبدُ الخفاء ، ومن كان عبداً لله استوىٰ عنده الظهورُ والخفاء) .

وكان يقول : (قد يُطلعُ اللهُ بعضَ الأولياء على الغيوب بحكم الإرث للأنبياء ، فينطقُ بالغيوب ، ويُصيب فيها) .

---

(١) قال العجلوني في « كشف الخفا » (٢/ ٢٦٢) : (قال النووي : ليس بثابت ، وقال أبو المظفر بن السمعاني في « القواطع » [٢/ ٦٠] : إنه لا يعرف مرفوعاً ، وإنما يحكىٰ عن يحيى بن معاذ الرازي ، وقال ابن الغرس : لـٰكن كتب الصوفية مشحونة به يسوقونه مساق الحديث ؛ كالشيخ ابن عربي وغيره) ، وتقدم (١/ ٥٨٥) ، و(٢/ ٩٠ ، ١٧٥ ، ٤٩١) .

وكان يقول : (من أدبِ الفقير : أنه إذا فتحَ الله عليه بكلامٍ أن يقول : قال الشيخ كذا ، يُوهم السامعين أن ذلك من كلام غيره من الأشياخ) .

وكان يقول : (لم يزلِ الوليُّ في كلِّ عصرٍ لا يُلقي الناسُ إليه بالاً حتىٰ إذا ماتَ قالوا : كان فلان ، ويمدحونه بما لم يكونوا يمدحونه به قبلَ موته)

وكان يقول : (واللهِ ؛ ما سار الأولياء والأبدالُ إلىٰ جبل قاف مثلاً إلا حتىٰ يلقوا واحداً مثلنا يرشدهم) .

وكان يقول : (الطيُّ علىٰ قسمين : أحدُهما طيُّ الأرض ؛ فتُطوىٰ للولي من المشرق إلى المغرب ، والقسمُ الثاني ؛ وهو الطيُّ الأكبر : أن يطوي اللهُ لأحدِهم أوصافَ النفس كلَّها) .

وكان يقول : (لا يلزم الإنسانَ تعيينُ مشايخه الذين استندَ إليهم إلا إذا كان طريقُه لبسَ الخرقة ؛ وذلك لأنها روايةٌ ، والروايةُ يتعيَّنُ رجالُ سندها ، وطريقُنا هـٰذه إنما هي هداية ، وقد يجذبُ اللهُ تعالىٰ عبدَهُ إلىٰ حضرته ، فلا يجعلُ عليه منَّةً لأستاذٍ ، وقد يجمع شملَهُ بمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فيأخذ عنه العلومَ والآداب ، وكفىٰ بذلك منَّةً ، وكفىٰ به أستاذاً) .

قال : (وأما طريقُنا هـٰذه فلا تُنسبُ إلى المشارقة ولا إلى المغاربة ، إنما تُؤخذُ من واحدٍ إلىٰ واحدٍ إلىٰ عليِّ بنِ أبي طالب الذي هو سيِّدُ الأقطاب) .

وكان يقول : (لي أربعون سنة ليس بيني وبين اللهِ حجابٌ ، ولو حُجب عني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم طرفةَ عينٍ ما عددتُ نفسي من جملة المؤمنين)[1]

وكان يقول : (لو كان الحقُّ تعالىٰ يُرضيه خلافُ السنة لكان التوجُّهُ إلى القطب الغوث في الصلاة أولىٰ من التوجُّه إلى الكعبة) .

---

(١) وهو قريب من قوله في « لطائف المنن » (ص ٩٢) لابن عطاء الله السكندري : (لي الآن أربعون سنة ما حجبت فيها عن الله طرفة عين) ، وقال يوماً : (والله ؛ لو حجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين) .

وكان يقول : (أصحابُ العلم اللَّدُني لا يكونون إلا واحداً بعد واحد إلىٰ علي بن أبي طالب) .

وكان يقول : (لا أعلم أحداً علىٰ وجه الأرض الآن يتكلَّمُ في هـٰذه العلوم غيري) .

وقدَّموا للشيخ أبي العباس مرَّةً طعاماً فيه شُبهةٌ ؛ امتحاناً ، فلم يمدَّ يده إليه وقال : (إن كانَ للحارث المُحاسبيِّ في يده [عرق][1] يَعرفُ به الحرامَ ، ففي يدي ستون عرقاً ، فاستغفرَ الرجلُ ، وتابَ إلى الله عز وجل) .

وكان يقول : (ما تكلَّمتُ حتىٰ قال لي الشيخُ أبو الحسن : تكلَّمْ يا بُني ، فأُعطيتُ العبارةَ من ذلك الوقت ، وذلك بمصر) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ لو علمَ علماءُ العراق والشام ما عندي من العلوم لأتوني ولو حبواً علىٰ وجوههم) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ ما نطالعُ في كلام أهلِ الطريق لنستفيد ما ليس عندنا ، وإنما نطالعه لنرىٰ ما أنعمَ اللهُ به علينا) .

وكان يقول : (قد يُطلعُ اللهُ الولي علىٰ معرفة سائر لغات الخلق ، فيكون سُليمانيَّ المقام) .

وكان يقول : (ما صحب فقيهٌ أهلَ هـٰذه الشأن على الصدق إلا ازداد علمُهُ ظهوراً وقوة) .

وكان يقول : (شاركنا الفقهاءَ فيما هم فيه ، ولم يشاركونا فيما نحن فيه) .

وأنكر عليه شخص وقال : ما ثَمَّ علمٌ إلا بأيدي علماء الشريعة ، فحضره يوماً ، فانبهر عقله ، وقال : هـٰذا رجلٌ يغترف من فيض بحرِ إلـٰهي ، ومددٍ رباني ، وتاب عن الإنكار) .

وكان يقول : (أعرفُ تلامذتي من يوم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، وأعرف من كان عن يَميني هناك ، ومن كان عن شمالي) .

---

(١) في النسخ : (عرقاً) .

وعمل عصيدةَ الشيخِ ياقوت العرشي يومَ ولد في بلاد الحبشة في أيام الصيف ، فقالوا له : إنما تُعمل العصيدةُ في أيام الشتاء ! فقال : هـٰذه عصيدةُ ولدنا ياقوت ، فحسبوا يوم العصيدة ، فوجدوا عمرَهُ من يومها .

وكان يقول : (ورعُ المنقطعين إنما هو من سوء الظنِّ ، وأما ورعُ الصديقين فإنما هو تركُ ما صحَّ بالبراهين كونه شبهةً) .

وكان يقول : (لولا ضعفُ العقول لأخبرتُكم بما يكون من كرمِ الله غداً) .

وكان يقول : (معرفةُ الولي أصعبُ من معرفة الله ، ومتىٰ يعرفُ الإنسانُ ولايةَ مخلوقٍ مثلِهِ يأكلُ كما يأكلُ ، وينامُ كما ينام ، ويتكلَّمُ كما يتكلم ؟!) .

وكان يقول : (إذا ضاقَ الوليُّ هَلَك من يؤذيه في الوقت ، وإذا اتَّسع تحمَّل أذى الثقلين ، ولم يحصلْ لأحدٍ أذىً بسببه) .

وكان يقول : (لحومُ الأولياء مسمومةٌ وإن لم يؤاخذوك ، فإياك ثم إياك) .

وكان يقول : (ما جلستُ للناس حتىٰ هُدِّدتُ بالسَّلب مراراً ، وقيل لي : إن لم تجلسْ للناس سلبناك ما وهبناك) .

وكان صابراً على البلايا ، كان به اثنا عشر مرضاً ؛ منها باصورٌ ، ومرض الحصر ، وجرد الكلىٰ ، والفتاق ، ومع ذلك فكان يتكلَّفُ ويجلسُ للناس .

وكان يكره أن يقول الشيخُ للمريد إذا طلب التوبة : قف يسيراً ؛ خوفاً أن تفتر همَّتُهُ عما جاء يطلبه .

وكان يقول لأصحابه : (أنا لا أمنعكم من صحبة غيري ، ولـٰكن إن وجدتم منهلاً أعذبَ من منهلنا فردوه) .

وكان إذا رأىٰ مُريداً دخلَ في وردٍ يهواه أخرجه عنه .

وكان يقوم للولاة إذا وردوا عليه ، ويمشي معهم خطوات إذا قاموا ، ويقول : إنهم كلفوا نفوسَهم وزارونا ، ونحن لم نزرهم .

وكان لا يأكل من طعام أعلموه به قبل أن يأتيه ، ويقول : إنه حصلَ بعد استشرافِ النفس .

وكان ينشرحُ للهدية القليلة ، وينقبض للهدية الكثيرة ؛ مخافةَ أن يرى المَهديُّ نفسَه بإرسالها) .

وكان يقول : (ما قرأتُ القرآن قطُّ إلا على الله عز وجل) .

وكان إذا سمعَ أحداً يقول : الليلة هـٰذه ليلة قدر يقول : نحن بحمدِ الله أوقاتُنا كلُّها قدر .

وكان إذا سمع جليسه ينطقُ باسمِ الله ، أو النبيِّ يقرِّبُ فمَهُ منه ويلتقطه ؛ غيرةً أن يبرزَ في الهواء ، ويقول : قلوبُنا أولىٰ بأن يكون هـٰذا الاسم فيها .

وكان يقول لمن يرىٰ نفسَه بالزُّهد في الدنيا : (لِمَ جعلتَ يا أخي للدُّنيا قدراً وهي أقلُّ من جناح بعوضة ؟!) .

وكان يقول : (من اشتاق إلىٰ لقاءِ ظالمٍ فهو ظالم) .

وكان يقول : (الهالكُ بهـٰذه الطائفة أكثر من الناجي بها) .

وقد بسَطنا الكلام علىٰ أقواله في « الطبقات الكبرىٰ » ، والله أعلم .

ومنهم :

(٣١١) الشيخ ياقوتُ العرشيُّ الحبشي رضي الله عنه[١]

كان من أجلِّ الأولياء ، صاحبُ كرامات وخوارق ، وعلومٍ ومعارف .

وهو من أجلِّ أصحابِ الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله عنه ، وتقدم في ترجمة شيخه : أنَّه أخبر به يومَ ولِدِ في بلاد الحبش ، وعمل عصيدتَهُ أيام الصيف .

وهو الذي شفعَ في الشيخ شمسِ الدين بنِ اللبان لما أنكر علىٰ سيِّدي أحمدَ البدوي وسُلبَ من العلوم كلِّها ، فقال له الناسُ : ما يقدر علىٰ ترضِّي خاطرِ سيدي أحمد البدوي عليك إلا الشيخ ياقوت .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ١٠٧) (٣١٥) .

ثم إن سيدي ياقوت زوَّج الشيخَ ابن اللبان ابنتَهُ

وأوصى ابنُ اللبان إذا ماتَ أن يُدفن تحت عتبة الشيخ تاج الدين بن عطاءِ اللهِ تلميذِ الشيخ ياقوت .

قال الشيخ تاج الدين بنُ عطاء الله : (وإنما سُمِّي بالعرشي ؛ لأن قلبَهُ كان دائماً ناظراً إلىٰ عرش ربِّهِ ، وليس في الأرض إلا جسدُهُ) .

وقيل : لأنه كان يسمعُ أذانَ ملائكة العرش .

وكان يشفعُ في الحيوانات والطيور ، وجاءته مرةً يمامةٌ ، فجلست علىٰ كتفه وهو في إسكندرية ، فأسرَّت إليه كلاماً ، فقال لها : على الرأس والعين ، فقالت له : في الحال ؟ فقال : نعم ، فركب بغلته من إسكندرية إلىٰ جامع عمرو بمصر العتيق ، وأرسلَ خلف المؤذن ، وقال : إن هـٰذه اليمامة ذكرتْ أنك ذبحتَ أولادها مرتين ، وقد جئناك سياقاً في أنَّك ترجع عن فراخها ، فقال : سمعاً وطاعة ، ثم رجعَ إلىٰ إسكندرية ، ولم يكنْ له في مصرَ حاجةٌ غيرها .

ومناقبه كثيرة مشهورة .

توفي رضي الله عنه بإسكندرية سنة سبعٍ وسبع مئة .

ومنهم :

(٣١٢) الشيخ تاج الدين بنُ عطاء الله الشاذلي رضي الله عنه[١]

تلميذُ الشيخ ياقوت العرشي .

وكان زاهداً ورعاً ، جليلَ القدر ، يذكِّرُ الناس ، ويتوِّبهم .

ومجلسُهُ يُطرب القلوب ، وله حلاوةٌ في النفوس .

مات بالقاهرة سنة تسعٍ وسبع مئة ، وقبره في القَرَافة ظاهرٌ يزار .

وله من المؤلفات : كتاب « التنوير في إسقاط التدبير » ، وكتاب « لطائف

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/١٠٨) (٣١٦) .

المنن » ، وكتاب « الحكم » ، وغير ذلك ، رضي الله عنه .

ولم أرَ كلاماً أوسع من كلامه ، ولا يكادُ أحدٌ يجد فيه ما ينكر من سائر الطوائف ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣١٣) الشيخ مُفرِّج الدَّماميني رضي الله عنه[1]

كان من أرباب الأحوال ، كثير الشفاعات عند الملوك والأمراء ، ولا يقدرون على ردِّ شفاعته ، حتىٰ إنه شفع عند الملك الصالح في ابن الفقيه نصر[2] ، وكان عليه مئةُ ألف دينار ، وعشرون ألف دينار ، فقال له السلطان : هٰذا مالُ بيت المال ، فقال : اتركها لنا ، فتركها ، وأطلقه .

وكان يمشي على الهواء وعلى الماء ، ويُنفق من الغيب ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣١٤) الشيخ موسىٰ أبو العِمْران رضي الله عنه[3]

المدفون بناحية هور ببلاد البهنسا ، وهو جدِّي الخامس .

أخذ الطريق عن الشيخ أبي مَدْين التلمساني المغربي ، ثم أذن له بالسفر إلىٰ مصر ، وقال له : اجلس في ناحية هور ؛ فإن بها قبرَكَ .

وكان والده سُلطان تِلِمْسان ، واسمه أحمد أبو عبد الله الزُّغلي ـ بضم الزاي ـ نسبة إلىٰ قبيلة من الغرب ، لقبهم بني زغلة ، وجدوده كلهم ملوك إلى الجد الخامس ، فهو

(١) انظر « رسالة صفي الدين » (ص ٦٠) ، و« الطالع السعيد » (ص ٦٤٨) ، و« روض الرياحين » (١/ ٤٨٠) (الحكاية ٤٥٩) ، و« طبقات الأولياء » (ص ٤٧٢) ، و« طبقات الأولياء » للسخاوي (ص ٦٤٠) ، و« الكواكب الدرية » (٢/ ٣٠٩ ، ٥٦١) و(٤/ ٦٠٤) ، **والدماميني** : نسبة إلىٰ دَمامين : قرية في شرق النيل بين قوص والأقصر

(٢) انظر « الطالع السعيد » (ص ٦٥٤) ، و« طبقات الأولياء » (ص ٤٧٤) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ١٠٩) (٣١٧) .

موسى بن السلطان أحمد بن السلطان سعيد بن السلطان فاشين بن السلطان محيا بن السلطان زرفا بن السلطان ريان ، وينتهي نسبنا إلى السيد محمد بن الحنفية بن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وله كراماتٌ كثيرة مشهورة في بلاد البهنسا .

وسافر الشام ، فرأى امرأةً تائهة تقول : من يَحملني إلىٰ بلادي بخراسان ؟ فاشترىٰ لها دابّةً ، وحملها إلىٰ بلادها ، ثم رجعَ ليس له حاجةٌ إلا ذلك .

وكلَّمته البهائمُ ، وكان يركبُ على الأسد ، ويدخل البلدَ وهو راكبُهُ .

وساح إلىٰ بلاد الرجراج ، وصين الصين .

وكان يُجيب مريدَهُ إذا ناداه ، وبينه وبينه مسيرةُ سنة وأكثر .

مات سنة سبعٍ وسبع مئة علىٰ ما قيل[1] ، والله أعلم .

ومنهم :

(٣١٥) سيدي محمد وفا رضي الله عنه[2]

كان إماماً في العلوم والمعارف ، وله كلامٌ عظيم ، وموشحاتٌ في التوحيد لم ينسجْ أحدٌ علىٰ منواله .

ومولده سنة اثنتين وسبع مئة ، وتوفي سنة ستين وسبع مئة .

قالوا : وسببُ تسميته (وفا) : أنه كان مُقيماً في روضة المقياس ينسجُ مناديل ، لا يَعرفُه أحدٌ ، فتوقَّف البحرُ أيامَ الزيادةِ حتىٰ فاتت أيامُ الوفاء ، وخاف الناسُ من عدم رِيِّ البلاد ، فتقدَّم سيدي محمد ، ودخل المقياسَ ، وتوضَّأ ، ودعا ربَّه عز وجل ، وفي ظنِّه أن أحداً لا يراه ، فطلع البحرُ معه درجةً ، ثم صعدَ ، فطلع البحرُ معه درجةً

---

(١) كذا في النسخ ، وأبو مدين التلمساني توفي سنة نيف وثمانين وخمس مئة ، وابن عربي يقول : (إنه أكبرُ من لقيه) ، وتوفي ابن عربي سنة (٦٣٨هـ) ، فالصواب : أنه توفي سنة سبع وست مئة ، والله أعلم .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ١١٠) (٣١٨) .

إلىٰ أن أوفىٰ ذلك اليوم وزاد زيادةً كثيرة ، فرآه إنسانٌ والبحرُ طالع معه ، فأخبر السلطان بذلك ، فنزل لزيارته ، واشتهر بوفا من ذلك اليوم ، رضي الله عنه .

وهو شيخ الخرقة الوفائية كلِّها ، وطريقةُ من أحسن الطرق .

ولم يُسمَّ بالسادات في القَرَافة غيرُ ذريته ، ولهم مولدٌ يُعمل كلَّ سنةٍ في أول أو ثاني أربعاء يكون من شهر شعبان ، ويجتمعُ فيه خلائقُ لا يحصون ، وينزل على الخلقِ أمدادٌ ، فيصيرون في بركتها من العام إلى العام .

وكان رضي الله عنه أُميّاً لا يكتب شيئاً ، وجميعُ مؤلفاته إنما كان يُمليها ، وصنَّفَ الكتبَ وهو ابنُ سبع سنين ، وله مؤلفاتٌ لم يفهمْ أحدٌ المراد بها إلىٰ وقتنا هـٰذا ، مع فحولة ألفاظها ، واللذة بسماعها ، ثم يقول للسامع : ما فهمتَ منها ؟ فلا يقدر يعبر عنه .

ولما دنتْ وفاته كان ولده سيدي عليٌّ حملاً لأربعة شهور وشيء ، فخلع سيدي محمد منطقته على الأبزاري بإسكندرية ، وقال له : هـٰذه وديعةٌ عندك ؛ لتخلعَها علىٰ ولدي عليٍّ إذا ولدته أمُّهُ وبلغ سنَّ الكلام ، فعمل الأبزاريُّ الموشحات النفيسة مدَّة صِغَرِ سيدي عليٍّ إلىٰ أن كبر ، وخلعها عليه ، فلم يقدرْ يعمل بيتاً واحداً ، وأتىٰ سيدي علي بالعجائب الغرائب من الموشحات ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣١٦) ولده سيدي علي وفا رضي الله عنه[1]

لم يكن في زمانه أظرف منه ، ولا أجمل ، ولا أحسن ثياباً .

وله نظمٌ شائع ، وموشحاتٌ غريبة في التوحيد وغيرِهِ ، سبكَ فيها أسرارَ الطريق ما سمع السامعون أحلا منها

وله كتابٌ اسمه : « الوصايا » مجلدان ، ورد عليه في ثلاثة أيام ، فأملاه فيها كلَّ يومٍ سبعين ورقة ، وعدُّوا ذلك من كراماته .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (١١٣/٢) (٣١٩) .

وقد لخَّصتُهُ في « الطبقات الكبرىٰ »[١] وها أنا أذكرُ لك هنا عيونَهُ ، فأقول وبالله التوفيق :

ولد رضي الله عنه ليلةَ الأحد حادي عشرين المحرم سنة إحدىٰ وستين وسبع مئة كما رأيته بخطِّه ، وتوفي عام سبعٍ وثمان مئة كما قيل .

وكان رضي الله عنه يقول في معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الصف : ٨] : (يا صاحب الحق ؛ لا تهتمَّ بإظهار شأنك اهتماماً يحملُكَ على الاستعانة بالخلق ؛ فإنك إنْ كنتَ علىٰ نورٍ وهدىً فسوف يظهرُهُ اللهُ ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٤٥] ، وإن كنتَ علىٰ ظلمةٍ وغيٍّ فلا تتسبب في إظهار ذلك وإشاعته ؛ فإنك لا تُمتَّع بذلك إن مُتِّعْتَ به إلا قليلاً ، ثم ﴿ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ [النساء : ٨٤] : ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾ [يونس : ٣٥] ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٨ـ١٩]) .

وكان يقول : (يكون ظهور الأولياء في زمنِ خاتمهم كظهورِ الكواكب مع الشمس) .

وكان يقول : (إنما كانت شريعةُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ليس بعدها شريعةٌ تنسخُها ؛ لأنها نزلتْ من الفَلَكِ الثامن ؛ فَلَكِ الكرسي ، وهو فَلَكٌ ثابتٌ ؛ ولأنها جاءتْ بجميع ما جاءَ به الأنبياءُ قبله وزيادة خاصيته في أمته ونفسه) .

وكان يقول : (لا ينبغي لعبدٍ أن يقولَ في استفتاحه في صلاته : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٩] حتىٰ يغيبَ عن الأكوان ، فاجعلْ ربَّك مشهودَكَ فقط ، وناجِهِ بكلامِهِ القديم) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] : (كلُّ شيءٍ نهاكَ عن ذلك فهو صلاة) .

وكان يقول : (لا يَسُودُ أحدٌ علىٰ قومٍ إلا إن آثرهم علىٰ نفسه ، ولم يُشاركْهم فيما يستأثرون به عليه) .

---

(١) الطبقات الكبرىٰ (٢/ ١١٣) .

وكان يقول : (كنيةُ الشيطان : أبو مُرَّة ، وهي النفسُ الخمائية ، وسُمِّيت مُرَّةً ؛ لأنها ما دخلتْ شيئاً إلا أفسدته ، كما يُفسدُ الحنظل اللبن) .

وكان يقول : (لا تهجرْ من أخيك إلا صفتَهُ المذمومةَ ، لا ذاته ، فإذا تاب منها فهو أخوك) .

وكان يقول : (لا تعبْ أخاك وتعيره بما وقعَ فيه من مصائب الدنيا ؛ فإنه في ذلك ؛ إما مظلومٌ لَيَنصرنَّه الله ، أو مذنبٌ عُوقب ، فطهره الله ، أو مبتلىً قد وقع أجرُهُ على الله ، ومن الرُّعونة : أن يفتخر العبدُ بما لا يأمن سلبَهُ ، أو يُعيِّرَ أحداً بما لا يستحيلُ في حقِّه هو ، وهو يعلمُ أن ما جاز علىٰ مثله جازَ عليه ، وعكسه) .

وكان يقول : (الشيطان نارٌ ، وحضرةُ الربِّ نورٌ ، والنورُ يُطفئ النار ، فلا تجاهده وأنت بعيدٌ عن نور حضرة ربِّك ، بل جاهدْهُ حالَ مواجهتك نور ربِّك الذي هو الشرع) .

وكان يقول في معنىٰ حديث ابن عمرَ : « وعدَّ نفسَكَ منَ الموتَىٰ »[1] : (أي : فإنَّ الميتَ لا يبرحُ في قبره من بين يدي ربِّه لشهوةٍ أو غضب ، ولا يرىٰ سوىٰ ربَّه حيثُ انقلب : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [قٓ : ٢٢]) .

وكان يقول : إذا رأيتَ أنَّ الخضرَ عليه السلام قَسَمَ اللهُ له الحياةَ إلى الزمن المُحمَّدي ، فما طلب موسى السبيل إلىٰ لقياه إلا من باب قول القائل[2] : [من الطويل]

لعـلِّي أراهـمْ ، أوْ أرىٰ مـنْ يراهمُ

قلت : ولعله ببركة صدقِ موسىٰ عليه الصلاة والسلام تكرَّر لقاؤه لمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج أكثر من بقية جميعِ الأنبياء بسبب ما وقعَ له من المراجعةِ ، فليتأمل والله أعلم .

وكان يقول : (الرجالُ أمثالُ الجبال ، فكما أنه لا يزيلُ الجبالَ عن أماكنها إلا

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٣٣) بلفظ : « وعُدَّ نفسَك في أهل القبور » ، ورواه أحمد بلفظ : « واعدد نفسك في الموتىٰ » .

(٢) عجز بيت ، وصدره : أمرُّ على الأبوابِ من غيرِ حاجةٍ ، وتقدم مع تخريجه (٢/ ١٢١) .

الشركُ بالله عز وجل ، كذلك لا يزيلُ همَّةَ الوليِّ عن ملاحظة مريده في الشدائد إلا إشراكُهُ به أحداً غيره من نفس المريد ، أو غيره ، لا يزيل همَّته تقصيرٌ في خدمة ، أو إحسانٌ) .

وكان يقول : (الحظوظُ الدنيوية زبالةٌ ، فمن أظهرَ للناس ما عنده من الخصوصيات الربَّانية ليتوصَّل بذلك إلىٰ حصولِ حظوظه الدنيوية من الخلق فكأنَّه برطَلَ بالمملكة كلِّها علىٰ أنه يكونَ زبَّالاً) .

وكان يقول : (كلُّ ما أرضى العارفَ بالله أرضى اللهَ ، وكلُّ ما أغضب العارفَ أغضب الله ، وفي الحديث : « إنَّ اللهَ يرضىٰ لرضا عمرَ ، ويغضبُ لغضبِهِ »[١] فاعملوا أيُّها المريدون علىٰ رضا مشايخكم تفلحوا) .

وكان يقول : (كلُّ طاعةٍ تنتجُ الدعوىٰ رعونةٌ ، وكلُّ نومٍ يُنتج التقوىٰ معونة) .

وكان يقول : (من استضعفَهُ الناسُ لأجل إيمانه فعاقبته التمكين ، وعلوٌّ الشأن : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص : ٥] ومن استعظمه الناسُ لأجلِ إجرامه رُدَّ أمره إلى الصَّغار ، قال تعالىٰ : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ ﴾ [الأنعام : ١٢٤]) .

وكان يقول : (لا يحلُّ لأحدٍ أن يمكِّنَ الناسَ من تقبيل يده أو رجله إلا إن صحبَهُ من الحقِّ ما صحب الحجرِ الأسود من حفظ عهد الحقِّ في الخلق ، وقصدِ اللهِ وحدَهُ ، والتطهر من لوث تحكُّم الوهم البهيمي ، وعدم الشهوة المغفلة عن الله ، والحظوظ المشغلة عنه ، والرعونات المضلَّة عن طريقه ، وتحمل خطايا الخلق ، ولو اسودَّ بذلك وجهُهُ ، وتذكيرهم بربِّهم حتىٰ تبيضَّ بذلك قلوبُهم ؛ فمن جمع هـٰذه الصفات فهو يمينُ الرحمـٰن في الأرض ؛ كالحجر الأسود : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠]) .

---

(١) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/ ٤٣٠) عن سيدنا علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا غضب عمر ؛ فإن الله يغضب إذا غضب » ، وأخرجه أبو نعيم في « فضائل الخلفاء الراشدين » (٢٧) بلفظ : « اتقوا غضب عمر ؛ فإنه إذا غضب غضب الله له » ، وتقدم تخريجه (٢/ ١٢٤) .

وكان يقول : (لا ينبغي لمريدٍ أن يُسافرَ إلى الحجِّ إلا بإذن أستاذه ؛ فإنَّ مجالسة الأستاذ تفيدُ المريدَ الأدبَ مع ربِّ البيت ، فافهم) .

وسئل رضي الله عنه عن ملك الموت : هل هو باق علىٰ فقءِ عينه من عهد موسىٰ عليه السلام ؟ فقد صحَّ أنه فقأَ عينَ ملك الموت[1] ، فقال : قد ثبتَ أنَّ ملكَ الموت لما رجعَ إلىٰ ربِّه ردَّ له عينَهُ .

فإن قيل : فكيف جاز لموسىٰ فقءُ عينِ رسول ربِّه ؟! فالجواب : إنما سوَّغ له ذلك كونه ملكاً متمثِّلاً عن طبيعة موسىٰ ، فهو من عالمه ، فما وقع الفقء إلا في المثال الناشئ عن ملك الموت ، فلو قدرَ أنَّ الحقَّ تعالىٰ لم يردَّ لذلك الملك عينَهُ لكان في قوة الملك المتمثِّل أن يظهر بعينٍ سليمة مكان العين المفقوءة لقوته على التطور ، وأطال في ذلك .

وكان يقول : (من أراد أن ينقادَ له العالمُ انقياداً ذاتياً فلا يحب إلا الله ، ومن أمره الحقُّ بمحبَّته ، فمن كان كذلك سارعتِ الأكوان كلُّها إلىٰ طاعته) .

وكان يقول : (كلما كان حادي القوم مناسباً لهم في حالهم ، كلما كان أشدَّ تأثيراً في قلوبهم) .

وكان يقول : (من شرطِ الإمام ألا يغفلَ عن المريدين في العمل علىٰ ما يطهِّرُ قلوبَهم ؛ لأنهم طوَّافون علىٰ حضرة الحق ، قال تعالىٰ : ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة : ١٢٥] أي : المقتربين من حضرة حبي إيماناً) .

وكان يقول : (أهلُ الولي حقيقةً : كلُّ من جاء بقلبٍ سليم من الحظوظِ ، والشهوات البهيمية) .

وكان يقول : (لا تطلبْ من شيخك أن يشغلَ قلبَهُ بك ؛ فإنك كونٌ ؛ وقد تنزَّهَ الأشياخُ عن إدخال الأكوان قلوبهم إلا بأمرٍ من الله ، فألزمْ نفسَكَ أنت المحبة لشيخك لتصيرَ تتخيَّلُهُ معك في كلِّ وقتٍ ، وتقضي حاجتك ببركته) .

---

(١) رواه البخاري (١٣٣٩) ، ومسلم (٢٣٧٢/ ١٥٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وكان يقول : (نظِّفوا قلوبَكم لتصلحَ لعلوم الوهب ؛ وذلك ليبقىٰ لكم ؛ فإن جميعَ الأمور الناشئة عن الكسب تضمحلُّ بانقطاع السبب ؛ لأنه كالماءِ للزرع ، متى انقطعَ عنه الماءُ مات ، وذلك كالمتفكِّرين ؛ فإنهم متىٰ تركوا التفكُّرَ تعطَّلت معتقداتُهم النظرية ، وكذلك المتقشِّفون متىٰ أكلوا الشهوات مثلاً بطلتْ تأثيراتُهم الكونية ، ومُكاشفاتهم الصورية) .

وكان يقول : (لا ينبغي لعارفٍ أن يُظهرَ لقومه من معارفه إلا ما يعلم قبولَهم له : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف : ٥]) .

وكان يقول : (من عمل بالقرآن أُوتي كتابَهُ بيمينه ، ومن خالف ما فيه أُوتيَ كتابه بشماله ، ومن ترك تلاوتَهُ والنظرَ لما فيه من الهدىٰ أُوتي كتابه من وراء ظهره ، فليحرر الإنسانُ هنا حسابه : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤]) .

وكان يقول : (كم من شيءٍ كمالٌ في حقِّ الخلق يكون نقصاً في جانب الحق ، وذلك كالأزواج والذرية) وأطال في ذلك .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] : (فيه حثٌّ علىٰ تحصيل مكارم الأخلاق والفضائل والمحامد ؛ فإن هـٰذه من أعظم زينة للإنسان) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام : ٦٨] : (يدخلُ في ذلك من يخوضُ في أولياء الله بالنقص ؛ فإنَّ الأولياءَ من آيات الله الذين يُهتدىٰ بهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة : ٢٥٩]) .

وكان يقول : (ما اشتغلَ متزوِّجٌ عن الله إلا لعدم نيَّته الصالحة في التزوُّج أولاً ، فلو أصلحَ نيتَهُ لم يشغلْه ذلك عن الله أبداً) .

وكان يقول : (نيَّةُ القربات تُصيِّرُ العاداتِ والمباحات عبادات ؛ وذلك كالفقير الذي يلبسُ الجبَّةَ من الصوف تواضعاً لله ؛ فإنها تصيرُ عليه أحسنَ من الحرير علىٰ أهله وأنورَ) .

وكان يقول : (بينك وبين ألا تُدركَ : أن تولِّي حبَّ الدنيا ظهرك) .

وكان يقول : (في معنىٰ قول الشيخ أبي الحسن في حزبه (وأعوذ بك من السبعةِ والثمانية) : (هي السبعُ ليال ، وثمانية أيام حسوماً[١] ؛ وهي مظهر أبواب جهنم ، وإن كانتِ الروايةُ (سبعين) بدل (السبعة) فالمراد بها : السلسلةُ التي ذرعها سبعون ذراعاً[٢] ، وهي مظهرُ الفرق الهالكة) .

وكان يقول : (لكلِّ وليٍّ خضرٌ يتمثَّلُ من روح ولايته علىٰ صورة الخضر المشهور ، كما أنَّ لكلِّ نبيٍّ جبريلَ يتمثَّلُ من روح نبوَّتِهِ علىٰ صورة جبريل النازل بالأحكام ؛ وذلك حتىٰ لا يكونَ كلامُ أهل الله وخاصته في تصرُّفاتهم العادية إلا بإلهامٍ من الله عز وجل) .

وقال في قوله صلى الله عليه وسلم لعمر : « والذي نفسِي بيدِهِ ؛ ما سلكتَ فجّاً إلا سلكَ الشيطانُ فجّاً غيرَ فجِّكَ »[٣] : (المرادُ به : أن ذلك المقام إنما هو له من حينَ أسلمَ ، فلا يُقال : كيف أغوىٰ عمر بالشرك قبل أن يسلم ؟!) .

وكان يقول : (الخنقُ في اللغة : هو الضيق ، والخانقُ : الطريقُ الضيِّقُ ، ومنه سُمِّي المكان الذي يسكنُهُ الصوفية بالخانقاه ؛ لخنقهم نفوسهم بتضييقهم علىٰ أنفسهم بالشروط التي دخلوا عليها في ملازمتها) .

ويقولون أيضاً : من غابَ عن الحضور غابَ عنه نصيبُهُ ، وعندنا : أنَّ كلَّ مَنْ ذكروا أنه غاب فما غاب ، فما قال : من غابَ غاب عنه نصيبُهُ إلا أهل الخوانق ، وهي مضايق) .

وكان يقول : (لا تخرقْ حرمةَ من أمركَ اللهُ باحترامه يبتليك اللهُ بالعقوبات) .

وكان يقول : (حيثُ جاء الخطاب الرباني : بـ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الأعراف : ٢٦] فالمرادُ بهم أهل اليمين) .

---

(١) قال تعالىٰ في سورة (الحاقة) الآية (٧) : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ .

(٢) قال تعالىٰ في سورة (الحاقة) الآية (٣٢) : ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ .

(٣) رواه البخاري (٣٢٩٤) ، ومسلم (٢٣٩٦) بلفظ : « ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً إلا سلك الشيطان فجّاً غير فجك » عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (٢/ ١٣٣) .

وكان يقول : (علمُ العالم هو جهلُ الجاهل ، وعرفانُ العارف : هو نُكرانُ المنكر : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء : ٨٤]) .

وكان يقول : (ما دام المريدُ في يد مربِّيه فهو يُدخله مدخلَ المُقربين ، فإذا خرجَ من يده خسرَ ، فإذا عادَ إلىٰ يده ردَّهُ إلىٰ سيرته الأولىٰ) .

وكان يقول : (ليس للسالك أن يتكلَّمَ بما اطلع عليه للهالك ؛ فإنه يزيدُهُ هلاكاً وإنكاراً ، وما للسالك والهالك !) .

وكان يقول : (من طلبَ ألا يكونَ له حاسدٌ فقد تمنَّىٰ ألا يكونَ عنده من الله نعمة ؛ فإن الحكمَ الوجودي اقتضىٰ مقابلة النِّعمَ بالحسد ، لا بدَّ من ذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق : ٥] فأتىٰ بـ ﴿ إِذَا﴾ ولم يقل : (إن حسد) ، فأمرَ بأنْ يستعيذَ بالله من شر الحاسد لا من وجوده ، فافهم) .

وكان يقول : (لا يكره الناسُ أحداً من المحبوبين لله إلا لجهلهم به ، وظنِّهم فيه خلافَ ما هو عليه ؛ ولذلك سمَّوهم ضلاَّلاً وسحرةً وكهنة ، ولو أنهم اعتقدوا فيهم الخصوصيةَ لأحبوهم) .

وكان يقول : (انظر الحقَّ تعالىٰ قبل خلقِ الخلقِ ، وانظر ماذا ترىٰ ، فلن ترىٰ غيرَه تعالىٰ) .

وكان يقول : (صورةُ صلاةِ كلِّ ربّانيٍّ علىٰ صورةِ إسرائه بقلبه إلىٰ حضرة ربِّه ، وما ثَمَّ أعلا من الإسراء المحمَّديِّ ؛ ولذلك فُرضتِ الصلاةُ فيه تنويهاً بعظمتها ، إذِ المصلي يُناجي ربَّهُ) .

وكان يقول : (إنما كان العارفُ لا يصحُّ في حقه الرياء ؛ لأن الحقَّ تعالىٰ هو مشهوده في عبادته ، فلا يرىٰ سواه حتىٰ يُرائيه) .

وكان يقول : (حبُّك للشيءِ علىٰ قدرِ بغضك لضدِّه وكذلك العكس وزناً بوزن ، مثلاً بمثل ، سواءً بسواء) .

وكان يقول : (لا تستعذْ من الأشياء ؛ ولـكنِ استعذْ من شرِّها فقط) .

وكان يقول في قوله صلى الله عليه وسلم : « الأنصارُ شِعار ، والناسُ دِثار »[١] : (الشعارُ : هو ما مسَّ البَشَرة ، والدِّثار : ما بعده ؛ إذ لا يمسُّ بشرتَك ثوبان معاً) .

قال : وإنما كان الأنصارُ شعاراً ؛ لرضاهم به عما دونه : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ. . . ﴾ الآية [الحشر : ٩] فحبُّهم لا لعلةٍ سوى التحقُّق به ، وإنما كان الناسُ دثاراً ؛ لتعلُّقهم بالعللِ الخارجة عن التحقق به ، « أمَا ترضونَ معاشرَ الأنصارِ أنْ يذهبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ ، وتذهبونَ برسولِ اللهِ إلىٰ رحالِكمْ ؟! »[٢] قالوا : رضينا ، فاعرفْ يا أخي الأنصار بسيماهم ، فهـٰذه آيتهم لمن توسَّمهم ، ولا تُقيِّدْهم بقبيلةٍ ولا طائفة .

وكان يقول : (من أبعدِ المطالب عن الصواب مطالبةُ العبد ربَّهُ بالثواب ؛ فإن الحقَّ يفعلُ ما يشاء ، ويحكمُ ما يريد ، وشأنُ العبدِ امتثالُ أمر ربِّه لا غير) .

وكان يقول : (إنما يأمرُ الحقُّ وينهىٰ منك قلبَك ؛ لأنه هو السامعُ الفاهم ، ولا يؤدِّي عنك ما كُلِّفت به إلا أنت ، فمتىٰ عملَ جسمُك عملاً وقلبُك غافلٌ عنه لم يُحسب لك ، ولم تسقطْ عنك المطالبةُ عند الله ، وإنما سقطَ اللومُ الظاهر عنك بمباشرة الجسم للعمل شرعاً ، لا لظنِّ حضور القلب وقصده إلىٰ ذلك ، فراقبْ علامَ الغيوب ؛ فإنه ناظرٌ إلى القلوب) .

وكان يقول : (احذرْ أن تزدري أصحابَ الخلع الحقية من الفقراء ، الشعثةُ رؤوسهم ، المغبرة وجوههم ؛ فإنهم ناظرون إلىٰ ربِّهم ، وإنما أنت أعشى البصر) .

وكان يقول : (إياك أن تحسدَ من اصطفاه الله عليك ، فيمسخك اللهُ كما مسخَ إبليس من الصورة الملكية إلى الصورة الشيطانية لمَّا حسدَ آدم ، وفي هـٰذا تحذيرٌ لك أن تحسدَ من فضَّلَهُ الله عليك)[٣] .

وقال في حديثِ صوم عاشوراء : « نحنُ أحقُّ بموسىٰ منهمْ »[٤] : أي : من

---

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠) ، ومسلم (١٠٦١) عن سيدنا عبد الله بن زيد رضي الله عنهما ، وتقدم تخريجه (٢/ ١٦٦) .

(٢) هو جزء من الحديث السابق .

(٣) لم يكن إبليس ملكاً ، وإنما جنياً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف : ٥٠] .

(٤) رواه البخاري (٢٠٠٤) ، ومسلم (١١٣٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وتقدم تخريجه (٢/ ١٧١) .

اليهود ، إنما كانت هـٰذه الأمةُ أولىٰ بموسىٰ من أمّة موسىٰ ـ يعني : اليهود ـ لأنا آمنا بموسىٰ كإيمانِ من عاصره ، لدلالة معجزة نبيِّنا التي هي القرآن ؛ فإنا عرفنا إعجازَهُ بالمشاهدة لا بالخبر ، وأما اليهود الذين لم يُعاصروه فإنما آمنوا به تقليداً للخبر الذي أخذوه عمن غيَّرَ وبدَّل فيه ؛ وأين مَنْ يُؤمن تقليداً كمثل هـٰؤلاء ، ممن يؤمن عياناً وتحقيقاً ؟! فنحن أحقُّ بجميع الرُّسلَ ممن لم يعاصرْهم من أُممهم ، ولم يدرك دينهم قبل التبديل ، أما من أدرك أديانهم الصحيحة وتمسك بها فلسنا أولىٰ منه بذلك النبي إلا من حيث كوننا خير أمة . انتهىٰ ، والسلام) .

وكان يقول : (إنما كان يومُ عرفة أفضلَ من يومِ عاشوراء بالحجِّ المشروع فيه ؛ وهو ركنٌ من أركان الإسلام ، فليس في يومِ عاشوراء ركنٌ من أركان الإسلام يختصُّ به كيوم عرفة ، والله أعلم) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] : (﴿ صِدْقًا ﴾ هنا وضع موضع فضلاً ؛ إذ قوبل به ﴿ وَعَدْلًا ﴾ ، فكأنَّ الحقَّ تعالىٰ تفضَّل بصدقها علىٰ قلوب قوم حتىٰ صدَّقوها ، وعدلَ اللهُ بقلوب قوم حتىٰ عدلوا عن تصديقها) .

وكان يقول : (ما دمتَ صاحبَ صفاتٍ كريمة فأنتَ إنسانٌ باق علىٰ إنسانيتك ، لم تُمسخ ، ولم تنسخ ، ومتىٰ نُسختْ منك الكرائمُ بالذمائم فقد نُسختْ عنك الإنسانيةُ بالصورة الشيطانية التي انمسختَ بها ، وإن خلَّطتَ لم تكن إنساناً خالصاً ، ولا شيطاناً خالصاً ، وفيما بينهما يتفاوتُ المتفاوتون ، والحكم للأغلب ، فافهم) .

وكان يقول : في معنىٰ حديث : « القلبُ بيتُ الربِّ »[1] : (فلا ينبغي لعبدٍ أن يُدخلَ قلبَه إلا ما يحبُّه الله ، ولا يجوز له أن يُدخلَ بيتَ ربِّه ما يكرهُهُ ربُّه من المعاصي

---

(١) قال العجلوني في « كشف الخفا » (١٨٨٤) : (قال الزركشي والسخاوي والسيوطي : لا أصل له ، قال النجم : قلت : رواه ابن ماجه عن أبي عنبسة بلفظ : « إن لله آنية من أهل الأرض ، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين ، وأحبها إليه ألينها وأرقها » وهو شاهد لما هو دائر علىٰ ألسنة الصوفية وغيرهم : « ما وسعني سمائي ولا أرضي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن ») ، وتقدم تخريجه (٢/ ١٦٧ ، ١٧٤) .

والقاذورات ، فما أعلمنا الشارع بذلك إلا لنحذر مما يُسخطُ الله) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف : ١٠٧] : (النزلُ : أولُ شيءٍ يوضع للضيف علىٰ وجه الإكرام ، فإذا كان الفردوسُ أولَ درجات الكرامة ، فما ظنُّك بآخرها ؟!) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] : (أي : فينبغي للعالم أن يرى القرآنَ هدىً ورشداً لجميع المسلمين ، ولا يُنكر علىٰ أحدٍ ما فهمه منه من الهدىٰ ؛ أعني : عند الفاهم ، وإن كان مخالفاً لفهمه هو لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ﴾ [آل عمران : ٧] أي : عند كلِّ تأويلٍ فيه هدايةٌ لغيرهم : ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] ، ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] ، ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] فافهم) .

وسئل عن سبب تسمية الملَكَيْنِ بمنكر ونكير ، فقال : (إنما سُمِّيا بذلك لأنهما يأتيان العبدَ في صورة إنكاره وتنكيره ، فإن كانَ مُنكراً للمنكر ؛ متنكراً بالقلب علىٰ أهله ، لا يُؤانسُهم ولا يوادهم . . أتياه في صورةٍ حسنة معروفة ، وإن لم يكنْ مُنكراً للمُنكر ، ولا هاجراً لأهله . . أتياه في صورةٍ مُفزعةٍ لا أنس فيها كصورة المعاصي ، فكانا عليه كالمنكر والنكير ، فافهم) .

وكان يقول : (الزهَّادُ ملوكُ الدنيا على الحقيقة ؛ لأن ملوك الدنيا محتاجون إلى الزهَّادِ ، ولا تحتاجُ الزهَّادُ إليهم)

وكان يقول : (ثقلُ الثواب وخفَّتُه علىٰ قدرِ ثقلِ الأعمال وخفَّتها على البدن ، ومثال ذلك مثال ملِك قال : كلُّ من أتاني بشيءٍ وزنتُ له ثقله ذهباً ، فأتاه إنسان بصخرةٍ ، وأتاه إنسانٌ بريشةٍ ، وهـٰذا مأخوذٌ من قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة : « أجرُكِ علىٰ قدرِ نَصَبِكِ »[1]) .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٧٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، وأصله في « الصحيحين » ، كتاب الحج ، باب أجر العمرة علىٰ قدر النصب ، بلفظ : « انتظري ، فإذا طهُرت فاخرجي إلى التنعيم فأهلي ، ثم ائتينا بمكان كذا ، ولـٰكنها علىٰ قدر نفقتك أو نصبك » .

وكان يقول : (جلوسُك في خرابةٍ وأنت معتوقٌ من رقِّ الشهوات ، خيرٌ لك من جلوسك في قصرٍ مشيد وأنت مسجونٌ في سجنِ الشهوات ، مَحجوبٌ عن محبوبك) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [النور : ٣٧] : (فأما تقلُّب القلوب : فهو أن يصيرَ ما في القلوب هنا ظاهراً على القوالب هناك ، فمن كان في قلبه كمينُ شرٍّ أو خيرٍ هنا ظهر عليه ظاهراً هناك ، وأما تقلُّب الأبصار : فهو أن يظهرَ حكمُ البصائر هنا في الأبصار هناك ، فكلُّ ما لا يصحُّ للعبدِ أن يراه في الدنيا إلا إيماناً يراه يوم القيامة عياناً ، وكلُّ مَنْ كشفَ اللهُ عن بصيرته هنا ، فرأىٰ ما لا يراه الناسُ إلا في يوم القيامة ، فما هو في الدنيا حقيقةً ، وإنما هو في حالٍ قياميٍّ عُجِّل له ، وهو في حال خوفٍ ؛ لأنه في ذلك اليوم ، فافهم) .

وكان يقول في حديث : « إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ »[1] : (فيه دليلٌ علىٰ أن من أراد أن الحقَّ تعالىٰ يحبُّهُ فلا يقعُ في شيءٍ من العيوب والنقائص ؛ لأن اللهَ لا يحبُّ من عبده إلا الجمال والكمال والطهارة) .

وكان يقول : (كلُّ من كانَ أغرقَ في الضلال كان أبعدَ من الإجابة ؛ ولذلك كان أبو بكر أسبق قريشٍ بالتصديق لمحمد صلى الله عليه وسلم لضعف رابطة الضلال عنده ، بخلاف غيره) .

وكان يقول : (الصوم في اللغة : الثبوتُ ، يقال : صام النهار إذا وقفت الشمس في مستواها ، فمعنىٰ : ﴿ نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا ﴾ [مريم : ٢٦] أي : ثبوتاً علىٰ إفراد مشاهدة الرحمـٰن دون غيره) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤] : (اعلم : أنَّ كلَّ من دخل مقام الإحسان فعبدَ اللهَ كأنه يراه فقد بلغ أشدَّه واستوىٰ ، ولو كان صبياً ، كما قال تعالىٰ في هـٰذه الآية ، فما آتاه حكماً وعلماً إلا علىٰ إحسانه ومشاهدته لمعبوده في عبادته) .

وكان يقول : (المحبَّةُ دائرٌ معها حب التوحيد والإخلاص ، فكلُّ مَنْ أحبَّ شيئاً

---

(١) رواه مسلم (٩١/ ١٤٧) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (٢/ ١٧٧) .

فلا يُريدُ أن يكونَ له فيه شريك ، ألا ترى الرجل لا يحب أن يكون له في امرأته شريك ، وكذلك المرأةُ لا تحبُّ أن يكونَ لها شريكٌ في زوجها ؛ من ضرة أو سرية ، ففي كلِّ محبٍّ من الشرك بالله علىٰ قدر ما أخلَّ بالمحبَّة ، والسلام) .

وكان يقول : (نفوس أهلُ الغي والضلال تنفرُ من أهل الهدىٰ والتقوىٰ ، وبالعكس ، فلا يتبعُ إمامَ الهدىٰ إلا المهتدون ، ولا إمامَ الضلال إلا الضالون ؛ ولأن صورة ضلالهم تشكلَّت في إمامهم ، فصَبَوْا إليها ، كلٌّ علىٰ شاكلتِهِ ؛ إيمانُهُ وكفره ، فلا يتبع الدجالُ إلا مَنْ في قلبه كفر ، والسلام) .

وكان يقول : (من أرادَ من الفسقةِ أن يكونَ في حفظِ ربِّ العالمين فليخدم الصالحين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٢] فانظر كيفَ حفظَ اللهُ الشياطين لمَّا خدموا أولياءه العارفين) .

وكان يقول : (جميعُ الأعمال إنما شرعت تذكرةً بمشرعها كي لا ينسوه ، ويَصْبُوا إلىٰ غيره : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه : ١٤] فافهم) .

وكان يقول : (من أراد ثباتَ الإخوان علىٰ ودِّهِ وثنائهم عليه بكلِّ لسانٍ ، فليقابلهم إذا آذوه بالحلم والغفران) .

وكان يقول : (من أشغلَ قلبَهُ بحبِّ شيءٍ من الأكوان ذَلَّ عند الله وهان : ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ ﴾ [الحج : ١٨]) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾ [البقرة : ٣٠] : (إنما خصَّ الأرضَ بالذكر ؛ لأنَّ آدمَ عليه السلام كان خليفةً في الملأ الأعلىٰ ، حيث خرُّوا له ساجدين ، فافهم) .

وكان يقول : (اشتغالُ القلب بهمِّ الرزق مع راحةِ البدن عذابٌ على القلب ، وراحةُ القلب من همِّ الرزق مع تعبِ البدن عذابٌ على البدن ، فالراحةُ في ترك الاهتمام ، والسلام) .

وكان يقول : (الكاملُ : من يهضم نفسَهُ حتىٰ يُزكِّيه ربُّهُ علىٰ ألسنة خلقه ، وتأمَّلوا

إبليسَ لما قال : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف : ١٢] كيف أخرجَهُ الحقُّ من حضرته ولعنه ، وإلىٰ فرعون حين قال : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] كيف أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، وإلىٰ موسىٰ عليه السلام حين قال : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] كيف قال له لما أوجس في نفسه خيفة : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٨] فافهم) .

وكان يقول : (من أراد أن يخلد الله عليه ما أنعم به عليه فليُضفْ ذلك إلىٰ ربّه ، ويُثني عليه ، فيتكرَّمْ ويقول : الفضلُ لله ، ويحسن ويقول : المحسنُ هو الله ، وهـٰكذا) .

وكان يقول : (أفهامُ العارفين تستخرجُ الحكمة والهدىٰ مما اتخذه الغافلون هزواً ولعباً ، فإياك أن تُنكر ذلك على العارفين ، فتخوض في بحر الظلماتِ ؛ بل سلِّم للعارفين ؛ فإنهم في بحر الأنوار خاضوا ، وإنْ أردتَ أن تذوقَ ما ذاقوا فاسلكْ طريقهم) .

وكان يقول كثيراً : (ربَّما تكون جواهرُ قومٍ أصدافَ قوم آخرين : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦]) .

وكان يقول : (إذا ذكرتَ ذنوبك فلا تقلْ عليها « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ، فإن قلت ذلك فكأنك تُبرِّئُ نفسك منها ، وتضيفها إلىٰ حول الله وقوَّته ، وتُريد عدمَ الحجة عليك ؛ بل قل إذا ذكرت ذنوبك : « رب إني ظلمت نفسي ؛ فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم »[(١)])

وكان يقول : (من عملَ بصحبة المعرضين عن ذكر الله أهانَهُ اللهُ في عيون الخلق من الحكام والعلماء والعامة ، وبالعكس) .

وكان يقول : (كلُّ ما أغفلَ قلبَك عن ربِّك ، فهو عدوٌّ لربِّك ، فانظرْ حالك ؛ فإن صديقَ العدو عدو) .

وكان يقول : (مهما أضمرتَهُ في خاطرِك من السيئات ، ولم تتبْ منه توبةً متقبَّلةً ظهرَ يومَ تُبلى السرائر) .

---

(١) قال تعالى في سورة القصص (١٦) : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] : (منَ الناس من يكونُ ردُّهُ بإقامة الأدلَّة عليه ، فإقامةُ الأدلَّة هي أحسنُ ، ومن الناس من يُذعن لأوامر الله بالترغيب أو الترهيب ، فذلك في حقِّه أحسن ، وبالجملة ، ومن الناس من لا يذعن للحق إلا بالقتال فقاتله أحسن ، ومن الناس من يكون الإغضاء والاحتمال في حقه أحسن ، وبالجملة : فكلُّ ما حصلَ به الإذعان للحق فهو مُجادلةٌ بالتي هي أحسن) .

وكان يقول : (لا ينبغي لفقيرٍ أن يتصدَّرَ لإرشاد المريدين إلا بعد إذنٍ إلـهيٍّ علىٰ لسانِ مَلَكِ الإلهام ، قال : ولقد أُلهمتُ إلهاماً في سنة تسعٍ وتسعين وسبع مئة ، صورتُهُ : يا علي ؛ إنَّا اخترناك لنشر الأرواح من ألحاد أجسادها[١] ، فإذا أمرناك بأمرٍ فاستمع : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية : ١٨ـ١٩]) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود : ٢٨] : (اعلمْ : أن السيادة لا تحصلُ لكلِّ من اشتهاها ، ولا يُكره عليها من أباها ، فينبغي للعبد أن يلازم الحبَّ والتمحيص ، والحقُّ تعالىٰ وليُّ الوهب والتخصيص)

وكان يقول : (كلُّ امرأة تعلَّقتْ همَّتُها بالله فهي رجل ، وكلُّ رجلٍ تعلَّقت همَّتُهُ بغير الله فهو امرأة) .

وكان يقول : (لمَّا كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من خُلُقِهِ ألا يواجهَ أحداً بمكروهٍ جازاه الله تعالىٰ بأن ذكَّرَ أمَّتَهَ ووعظهم ونبَّههم علىٰ عيوبهم بذكرِ عيوب الأمم السالفة ؛ وذلك لينزجروا ويعتبروا بغيرهم بحُسن عبارةٍ)[٢]

وكان يقول : (العاقلُ لا يمدحُ نفسَهُ بقاله ، ولا يذمُّها بحاله إلا إذا أمره الشرعُ بذكر كماله ، قال صلى الله عليه وسلم « أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ »[٣]) .

---

(١) كذا في (هـ) وحدها ، وفي باقي النسخ : (من أجسادها) بدل : (من ألحاد أجسادها) .
(٢) في هامش (ي) : (مطلب : كان عليه السلام لا يُواجه أحداً بذنبه) .
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (٢/ ١٢٣)

وكان يقول : (لا تأمنِ المُعتقِدَ فيك ، ولو ظهر لك منه غايةُ السكون والاعتقاد ، فإن نفسَ المعتقد إنَّما سكنتْ حيث عَقَلَها عقلُها النظري بعقالٍ ظنِّي ؛ مَسَدُهُ من لحي[1] عوارض الأحوال والأعمال والأقوال ، والظنون بالتناسخ ، ومعلوم : أن الأعراض لا تبقىٰ ، فكأنَّك بالعقال وقد انحلَّ أو تمزَّقَ ، ورجع المعقولُ إلىٰ توحُّشِهِ وإفساده ، بخلاف المحبِّ لك ؛ فإنَّه لا يُريد إلا ما تريد ، لا يصرفُهُ صارفٌ ، ولا تردُّه السيوف والمتالف) .

وكان يقول كثيراً : (المحبُّون قليلٌ ، والمعتقدون كثير ، وما قلَّ وكفىٰ خيرٌ مما كثُرَ وألهىٰ ، وكفىٰ باللهو ضرراً) .

وكان يقول : (من ظنَّ أنه حصل على المراد بالاعتقاد فذلك الذي ضلَّ بالله عن الله في كلِّ واد ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٣٣]) .

وكان يقول : (ينبغي لكلِّ كبيرٍ أن يتغافلَ عن كلِّ من أتىٰ مخالفةَ أمره متستِّراً ، كما ينبغي معاقبةُ كلِّ من أتىٰ ما يُغضبه مجاهرةً ، ومن هنا لُعن إبليس بتركه سجدةً واحدة ، وكم تركَ غيرُهُ صلواتٍ كثيرةً ، لـٰكنْ علىٰ حجابٍ وجهل ؛ فلذلك أُمهل ولم يُعاجل) .

وكان يقول : (إذا خالقك أحدٌ بأخلاق البهائم فخالقْهُ أنت بأخلاقِ الأكارم ، فكلٌّ يعمل علىٰ شاكلته التي هي جزاؤه) .

وكان يقول : (لا يخلو عبدٌ عن محبّة الحقِّ لعلَّةٍ ، وأما المحبَّةُ الصادقة فهي فوق العلل ؛ ولذلك كان أصحابُها أقلَّ من القليل) .

وكان يقول : (ألسنةُ المحبة أعجميةٌ علىٰ غير أهلها ، وهي علىٰ أهلها عربيةٌ) .

وكان يقول : (من تنبَّهَ لنفسه لم يقنعْ بالقال عن الحال) .

وكان يقول : (كلُّ حجابٍ عن الحبيب عذاب ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان : ١٢] أي من خلف الحجاب) .

وكان يقول : (من أرادَ أن ينالَ مقامَ الرجال فليثبت تحت تربية أستاذه ؛ فإنه

(١) في (هـ ، و ، ي) : (سنده من لجج) بدل (مسده من لحي) .

ما ثبتت شجرةٌ قطُّ قَطعَتْ زمانها في التنقُّلِ من مغرسٍ إلىٰ مغرس) .

وكان يقول : (من كان لا يَرىٰ من أستاذه إلا وجهَ بشريَّته . . فلا يزيدُهُ ما كشف له من الحقِّ البين إلا إعراضاً وتكذيباً ونفوراً ، ومن ثَمَّ لا تجدُ عارفاً محققاً يظهر لقومه إلا مِنْ حيث يشهدونه من ظهور المماثلة ؛ ولذلك قالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم لعموم أصحابه : « لا تُفضِّلوني علىٰ موسىٰ »[١] وقال لخصوصهم لمَّا فارقَ بشريَّته : إنه أفضل من جميع المرسلين والملائكة والمقرَّبين[٢] ، فقبلوا ذلك منه ببشاشةٍ ، ولو أنه قال ذلك لمن هو في بشريَّتِهِ لارتابَ ، وهٰكذا الحكمُ في كلِّ وليٍّ مع قومه ، فافهم) .

وسئل عن الجود والهبة والسماحة والسخاء ، فقال : (الجودُ : هو سعةُ العطاء ، والهبةُ : إثباتُ العطية وإتمامُها علىٰ مَنْ أخذها ، والسماحةُ : سهولةُ العطاء ، والسخاءُ : سرعةُ العطاء للمحتاج لتفريج ما به بتلك العطية)

وكان يقول : (عدمُ مغفرةِ الشيخ للمريد إذا أشركَ به في المحبَّةِ أحداً غيرَه من أخلاق الله تعالىٰ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ . . ﴾ الآية [النساء : ٤٨] فافهم) .

وكان يقول في معنىٰ حديث : « مَنِ اعترفَ بذنبِهِ ثمَّ تابَ تابَ اللهُ عليهِ »[٣] : (اعلموا أنه إنما لم تصحَّ توبةُ من لم يعترف بذنبه ؛ لأنَّ إنكارَ الذنب والاعتذار عنه بالكذب تزكيةٌ للنفس المذنبة ، وشهادةُ زور ، وتجهيلٌ لمن اعتذرت إليه : ﴿ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ ﴾ [فصلت : ٢٣] ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ ﴾ [الأنعام : ٢٤] .

وإيضاحُ ذلك : أنَّ المذنبَ إذا اعترف بذنبه رقَّ له المُؤاخِذُ ، وكره عقوبته وتوبيخه بعد ذلك : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ ﴾ [يوسف : ٩١-٩٢] والعكس بالعكس ، أين هٰذا الجواب من

---

(١) رواه البخاري (٢٤١١) ، ومسلم (٢٣٧٣/ ١٦٠) بلفظ : (لا تُخيِّروني علىٰ موسىٰ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (٢/ ١٨٩) .

(٢) روى الترمذي (٣١٤٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . . . وما من نبي يومئذ ـ آدم فمن سواه ـ إلا تحت لوائي» .

(٣) رواه البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، وتقدم تخريجه (٢/ ١٩٠ ، ١٩٨) .

جواب قولهم : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : ٧٧] حيث لم يعترفوا بأن يوسفَ كان مظلوماً ؟!) .

وكان يقول : (إضافةُ الأموال إلى العبدِ كإضافة الإقليم إلى العامل عليه ، فمن ادَّعىٰ مُلكَ شيءٍ بيده من الأموال دون سيده فقد خابَ وافترىٰ ، وكان عليه فتنةً ، ومن اعترفَ بأنَّ ما في يده كلَّهُ لسيده فليس ذلك بفتنةٍ في حقِّهِ ، ولو مَلَكَ العالم كلَّهُ ؛ لأنَّ ذلك إنما هو لمولاه ، ومولاه تعالىٰ لا يستكثر عليه شيءٌ ، فلا يَنتقصُ وليّاً لله تعالىٰ بكثرةِ ما في يده من المال إلا جاهلٌ ، وتأمل قولَهُ صلى الله عليه وسلم : « أُعطيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرضِ »[1] فكان صلى الله عليه وسلم يعلم أنَّ العبدَ كلما كثرَ مالُ سيده عنده كلما كثرَ فضلُ الله عليه ، وظهرت فضيلتُهُ عند مولاه علىٰ غيرِهِ من العبيد .

فعلم : أن موضعَ فتنة المال إنما هو دعوى المُلْك ، والسلام) .

وكان يقول : (من شرطِ من يطلبُ أن يكونَ إماماً يُقتدىٰ به : أن يهاجرَ بهمَّتِهِ عما تشتهي الأنفس البشرية ، ألا ترىٰ إلىٰ آدم عليه السلام لم يُعطَ الخلافةَ إلا بعد أن هاجرَ من الجنة ، وما فيها من شهوات النفوس إلى الأرض ، وهٰكذا كلُّ من أُريد به أن يكون إماماً حقّاً ؛ فإنه لا يقوم بالحق إلا بعد أن يخرجَ ويهاجرَ بهمَّتِهِ عما يشغلُ قلبَهُ عن ربِّه : ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء : ٨٩] فافهم) .

وكان يقول : (كلُّ يومٍ من يوم الأستاذ في حضرة مراقبته لربِّهِ كألفِ سنة مما يعدُّ المريدُ عند ربِّه) .

وكان يقول : (من رأىٰ من أولياء الله أجسامَهم ، لم يزدْه ذلك إلا غفلةً عن مقامهم ، واستغراقاً في سوء الظنِّ بهم ، وقلَّة الأدب معهم ؛ لأنه حُجب برؤية الجسم عن الحقائق) .

وكان يقول : (جميع ما يراهُ المحجوبُ من العارف فهو صورةُ الرائي لا المرئي ، فإن رآه زنديقاً فهو زنديق في علم الله ، وإن رآه صدِّيقاً فهو صدِّيق في علم الله ؛ لأنَّ العارف مرآةُ الوجود) .

---

(١) رواه البخاري (١٣٤٤) ، ومسلم (٢٢٩٦/ ٣٠) عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (٢/ ١٩١) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ [الضحىٰ : ٣ـ٤] : (القلى : البغض ، والتوديعُ : البعدُ ؛ أي : عدم قلاه لك خيرٌ لك من عدم توديعه لك فـ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ هي الأولىٰ من هاتين الكلمتين ، و﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ هي الأخرىٰ منهما ، وإنما كان ذلك لأن البعدَ مع المحبة والرضا خيرٌ من القرب مع البغض والغضب ، فافهم) .

وكان يقول : (من مشىٰ مع وليٍّ لله تعالى ابتغاءَ مرضاته ، أبعدَ اللهُ وجهَهُ عن النار سبعين خريفاً) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] : (أي : يُريدُ الدنيا للآخرة ، ويُريد الآخرة لله ، ومنكم من لا يُريدُ سوانا ، وفي الآية دليلٌ علىٰ أن المؤمن قد يُريد الدنيا ، ولا يقدحُ ذلك في أصل إيمانه) .

وكان يقول : (امتهان الأولياء بعد معرفتهم سُمُّ ساعة ، فمتىٰ خالطَ القلبَ ماتَ لوقته ، وواضعُ العلم في قلبٍ متدنِّسٍ بالرئاسة وحبِّ الدنيا كواضعِ العسل في قشورِ الحنظل) .

وكان يقول : (لا تكملُ لعبدٍ معرفةُ الله إلا إن نفذ بسره من جميع الأقطار العلويات ، والسفليات ويتجاوز حدَّ الخفض وحد الرفع) .

وكان يقول : (صاحبُ الزمان في كلِّ عصرٍ وأوان واحدٌ ، وإن كانوا كثيراً ، فهم واحدٌ في الصورة باطناً ؛ كموسىٰ وهارون مثلاً ، فهما اثنان حسّاً وواحد في الحقيقة : ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦] كما إذا شئتَ أن تعبِّر عن اسم الذات الأقدس بالعربية فتقول : الله جل جلاله ، كما أنه بالفارسية : خداي ، وبالعبرانية : الوهيم ، وبالتركية : تنغري ، وبالرومية : أربوص ، وبالقبطية : ليلصا[١] ، وفي كلِّ لغةٍ بلفظٍ ، وانظر إلىٰ جبريل حال تمثُّله في صورة البشر لم يخرج عن كونه جبريل ذا الأجنحة والرؤوس المتعدِّدة ، بل هو عينه في كلا الصورتين ، واحدٌ لم يتعدَّدْ) .

---

(١) في (ز) : (ليصا) ، وفي (ي) : (ليلسا) .

وكان يقول : (مخالفةُ الحقِّ لأغراضِ المحبِّين له دليلُ صدقٍ علىٰ محبَّته لهم) .

وكان يقول : (العلمُ في غير حكيم شمسٌ طلعت من مغربها ، والعلمُ في غير آدوب[١] شهدٌ وضع في قشر الحنظل) .

وكان يقول : (من وافقَ أستاذَهُ في أفعاله طابقه فيما أخبر به عن مقاله ، ومن خالفه في أفعاله فقدَ المطابقةَ في فهم معاني أقواله) .

وكان يقول : (لا يخرجُ أحدٌ عن القول بالجهة في شهود الحقِّ إلا من نفذَ من أقطار السماوات والأرض ، ولا ينفذُ مَنْ أقطارها مَنْ حكمتْ عليه بقيَّةٌ جسمانيةٌ ؛ لأن جسم الإنسان هو سجنه ، فإذا فارقَهُ فارقَ السجن) .

وكان يقول : (من التفتَ إلىٰ بشريَّتِهِ بالكلية ، حُجب عن الحقائق الربانية ، وسُلبت عنه الحقيقة الإنسانية) .

وكان يقول : (علامةُ فلاحِ المريد مع أستاذه ثلاثةُ أمور : أن يُحبَّهُ بالإيثار ، ويتلقَّىٰ عنه كلَّ ما سمعه منه بالقبول ، ويكون معه بالموافقة في سائر الشؤون) .

وكان يقول : (من تقرَّبَ من أستاذه بالخدم ، تقرَّبَ الحقُّ إلىٰ قلبه بواسطة الكرم ، ومن آثر أستاذَهُ علىٰ نفسه كشفَ اللهُ عن حظيرة قدسه ، ومن نزَّهَ حضرةَ أستاذه عن النقائص منحه الله بالخصائص ، ومن احتجبَ عنه أستاذُهُ طرفةَ عينٍ ، أوبقه الله في بوائق البين ، ومن لم يستحل مقارعَ الأستاذ لم تُجْلَ له عروسُ الوداد ، تبّاً لمريدٍ جمحَ بطبعه عن الدليل ، لقد ضل عن سواء السبيل ، كتب الله علىٰ نفسه ألا يدخلَ قلباً فيه سواه ، ولا يظهرَ لعينٍ رأت غيرَهُ في مرآه) .

وكان يقول : (قلبُ العارف حضرةُ الله ، وحواسُّهُ أبوابها ، فمن تقرَّبَ إلىٰ حواسِّ العارف بالقُرَبِ بالملائمة فُتحت له أبوابُ الحضرة) .

وكان يقول : (من مَلَكَ أخلاقَهُ فهو عبدُ الله ، ومن ملكته أخلاقه فهو عبدها ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية : ٢٣]) .

---

(١) كذا في جميع النسخ ، ولعلها بمعنىٰ : أديب .

وكان يقول : (من قال عند ظهور براءته من الريب : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ﴾ [يوسف : ٥٣] قال له الملك : ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ ﴾ [يوسف : ٥٤]) .

وكان يقول : (من تجرَّدَ من جميع العلائق فهو مرآة الوجود ، وما قابلتها صورة إلا وانطبعتْ فيها ، فمن رأىٰ خيراً فليحمد الله ، ومن رأىٰ غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه) .

وكان يقول : (يكفيك من الطعام ما يقوِّيك علىٰ فعل ما أمرك الله به ، ومن الملبس ما لا يُسفِّهك به العاقل ، ولا يزدريك به الجاهل ، ومن المسكن ما واراك عمن لا تريد أن يراك ، ومن الأدب ما يقيك من غضب الكريم والعالم ، وجرأة اللئيم والظالم ، ومِنْ حُسْنِ الظنِّ بالله ما لا يجرئ علىٰ معصيته ، ولا يوئس من رحمته) .

وكان يقول : (من قَبِلَ النصيحة أَمِنَ الفضيحة) .

وكان يقول : (محلُّ الشعر ظاهرُ الشخص لا باطنه ، ولو نبت في القلب شعرةٌ واحدة لماتَ صاحبه لوقته ، فلا تشغلْ قلبَك بشيءٍ من الملاذ الدنيوية ؛ فإنها بمنزلة الشعر ، فالقلبُ بيتُ الواحد الذي مَنْ أشركَ معه شيئاً تركَهُ وشريكَهُ) .

وكان يقول : (من أحبَّ اللهَ لم تسو الدنيا عنده رِجلَ ذُبابةٍ من الذباب ، وخضعت له الرقاب ، فكيف تخضعُ لشيءٍ يؤول إلىٰ تراب ؟!) .

وكان يقول : (مخالطةُ الغافلين عن الله عز وجل عقوبةٌ على المريدين ، ورحمةٌ ونعمة للعارفين ؛ ليرشدوهم إلىٰ مسالك المتقين) .

وكان يقول : (النفسُ مطيةُ المؤمن ، فلا تسمح لنفسك بشكاسة خلقها ، وكثرة نفارها ؛ فإنها مطيَّتُكَ على الصراط ، فتتعب بها إذا جريت[١] على الصراط ، وتأخَّرتْ إلىٰ وراء ، وربَّما أوقعتك في النار ، فرُضْها علَّها أن تُوصلَكَ إلى الجنة بلا وقوعٍ في النار : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ ﴾ [آل عمران : ١٨٥]) .

---

(١) في (أ ، و) : (جزت) بدل (جريت) ، وفي (هـ ، ي) : (حرنت) ، وفي (ز) : (فتتعبك إذا جزت) .

وكان يقول : (ما بنى الحقُّ تعالىٰ هٰذا البدن باقتداره ، ووضع فيه منظرةً ، وبادهنجا[1] ، ومنتزهاً ، وخزانة ، ومزبلة ، وبالوعة ، وكنيفاً إلا لحكمةٍ يرضاها ، فلا تيئس من روحه ورضوانه ولو أتيتَ بقُراب الأرض خطايا ما دمتَ تشهدُ أن لا إلٰه إلا الله) .

وكان يقول : (من رضي بشيءٍ تنعَّم به ، ومن سخط علىٰ شيءٍ تعذَّب به ، فالشيءُ الواحد نعيمٌ علىٰ من رضيه ، وجحيمٌ علىٰ من سخطه ، اللهم ؛ هبْ لنا الرضا المطلق بجميع أحكامك) .

وكان يقول : (إنما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ [نوح : ١٩] ليعلِّمَ عباده التواضعَ ، فمن تواضع انبسطَ) .

وكان يقول : (من ركنَ إلىٰ ظالمٍ مسَّتْهُ النارُ إلا من رحم الله : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود : ١١٣] أي : نارُ الفتنة ، وكفىٰ بالخدمة لهم ركوناً ، فعلم : أنَّ من ركنَ إلىٰ ظالمٍ ، وخلص منه سالماً من فتنته فتلك له كرامة إبراهيمية بحسبه) .

وكان يقول : (أصحابُ المكنة عبادُ الله الرزَّاق ، لا عباد الرزق ؛ فمن كان عبد الرزاق فالأرزاقُ محتاجةٌ إليه ، ومن كان عبدَ الأرزاق فهو محتاج إليها ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورىٰ : ٢٧] فالضميرُ في قوله : ﴿ لِعِبَادِهِۦ ﴾ عائدٌ على الرزق ؛ لأنه أقربُ معهودٍ ، وإنما بغوا فيه لسوء تصرُّفهم) .

وكان يقول : (من خافَ ورجا فقد مدحَ وهجا ، ومن رضي وسلَّم فقد حمد وعظَّم ، فانظر ماذا ترىٰ ؛ فإن شدَّةَ الخوف ربما تكون من سوءِ الظنِّ ممَّن خفتَ منه) .

وسُئل رضي الله عنه عن تجمُّل الشاذلية بالثياب والمآكل اللذيذة ، ودعواهم أنهم على الطريقة ، مع أن السلفَ الصالح إنما كانوا متقشِّفين في اللباس والمطعم ، وبذاذة الهيئة ، فقال رضي الله عنه : إنما تجمَّل الشاذليةُ بالثياب وغيرِها إظهاراً للغنىٰ عن

---

(١) بادهنج : معرب بادكير ، وهو المنفذ الذي يجيء منه الريح ، وسُمِّي : راووق النسيم . « شفاء الغليل » (ص ٤١) .

الخلق ، ورضاً بما أعطاهم الحقُّ تعالىٰ في سرائرهم حين لبسَ غيرُهم المرقعاتِ إظهاراً للفاقة ، واستجلاباً لما في أيدي الناس .

وأما السلفُ الصالح فما لبسوا الثيابَ الرثَّة ، وأكلوا خشنَ الطعام إلا حين وجدوا أهلَ الغفلة قد انهمكوا على الدنيا ، واشتغلوا بتحصيل الزينة الظاهرة تفاخراً بالدنيا ، والركون إليها ، فخالفوهم بإظهار حقارة الدنيا التي عظَّمها أهل الغفلة ، وقنعوا بالأطمار الرثة والخليقات(١) ؛ لأنهم كانوا قدوةً للناس .

فعلم : أن الشاذلية ما خالفوا السَّلفَ في رثاثة الحال نفوراً من الاقتداء بهم ، وإنما هو نفورٌ من حالِ فقراء زمانهم الذين جعلوا بذاذةَ هيئتهم حيلةً علىٰ تحصيل الدنيا(٢)

وقد أشار إلىٰ نحو ذلك الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه بقوله لبعضٍ من أنكرَ عليه جمالَ ثيابه من أصحاب الرثاثة : ثيابي هـٰذه تقول : الحمدُ لله ، وثيابك هـٰذه تقول : أَعطوني شيئاً من دنياكم ، والقومُ أفعالُهم دائرةٌ مع مرضاة الله ، فلو خالطْتَهم لعرفتَ مرادَهم ؛ ولذلك كان سيدي الشيخ أبو الحسن يقول لأصحابه : كلوا ألذَّ الطعام ، والبسوا أليَنَ الثياب ؛ فإن العبد منكم إذا فعل ذلك ، وقال : الحمد لله يستجيبُ كلُّ عضوٍ فيه للحمد ، وإذا أكلَ الخشنَ ، ولبسَ الخشن ، وقال : الحمد لله يقولُها وعنده اشمئزازٌ في نفسه ، فلم يخلص له الرضا بما أعطاه الله ، وانشراحُ الأعضاء للحمد أعظمُ أجراً من التقشُّف مع عدمه ، فافهم) .

وسئل عن قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] فإنْ قال قائل : لا مغفرةَ إلا من حيثُ الذنب ، فالأمرُ بالمسارعة إلى المغفرة أمرٌ بالذنب ، قلنا : هـٰذا لا يقوله إمام هدىً رباني إلا علىٰ معنىٰ أنه تعالىٰ أمر عبده بأن يرىٰ نفسه مُذنباً وإن أطاع جهدَهُ ؛ لتحقُّقه عجزه عن قيامه بتمامِ حقِّ ربِّه في كلِّ طاعةٍ ، وأما علىٰ أنه يأتي الذنب فلا ، فافهم ، وإياك والغلطَ) .

وكان يقول في قول أبي يزيد البِسطامي رضي الله عنه : (خضتُ بحراً وقفَ الأنبياء

---

(١) الأطمار ، جمع طمر : وهي الثوب الخَلَق .
(٢) البذاذة : رثاثة الثياب .

بساحله) : (معناه : أن الأنبياء عبروا بحر التكليف إلىٰ ساحلِ السلامة ، ووقفوا علىٰ ساحله الآخر يتلقَّون مَنْ سَلِمَ ، وبهـٰذا أُرسلوا ، وبهـٰذا أُمروا ، وأشهىٰ ما إليهم وصول أممهم إلىٰ محلِّ الخوض الذي هو إشارةٌ إلى القرب من ساحل السلامة ؛ فإن السفينةَ قد انكسرتْ بالخلق من يومَ أكل آدم من الشجرة ، فكان في ذلك إشارةٌ إلىٰ ما يقع فيه بنوه ، وهو عليه السلام ناج بلا شكٍّ ، ولو أكل الشجرةَ كلَّها ، فافهم) .

وكان يقول : (من دعاه المحبوبُ فلا عائقَ ، ومن جذبَهُ داعي الغيوب فما على القلوب دروب) .

وكان يقول : (لا تأمنِ انتقال النفوس التي هي للمنقولات أميل عما كانت معك عليه ؛ فإنها بالطبع منقولة ، ولا ترجو من النفوس التي هي للمعقولات أميل إطلاقاً من عقالها[1] ، وإن أظهرتْ لك الميلَ إلىٰ ذلك ؛ فإنها بالأصل معقولة) .

وكان يقول : (إنما أطلق صلى الله عليه وسلم الغسل في حديث : « فمنْ جاءَ منكمُ الجمعةَ فليغتسلْ »[2] ليشمل غسلَ القُرَبِ كلِّها ، وذلك بالمسارعة إلى امتثال الأمر والعمل به ، فيغسل النفسَ بالتوبة ، ويغسل الهمَّةَ بالإخلاص ، ويغسل القلبَ بالتوحيد) .

وكان يقول لأصحابه : (عليكم بلزومِ ذكرِ المحبوب ؛ فإنه جليسُ مَنْ له ذَكَرَ[3] ، ولن يُعدمَ جليسُ الكريم من ظفر) .

وكان يقول : (من ذاق حقيقةَ الطاعة وصل إلىٰ حضرة ربِّهِ في ساعة) .

وكان يقول : (منِ ادَّعىٰ في نفسه الكبرياء والعظمة فلا فرقَ بينه وبين من قال :

---

(١) في « طبقات المناوي » (٣/ ٢١٣) : (انطلاقاً) بدل (اطلاقاً) .

(٢) رواه البخاري (٨٧٧) ، ومسلم (٨٤٤) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

(٣) إشارة إلى الحديث الذي رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (١٢٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٠) عن كعبٍ قال : قال موسىٰ عليه السلام : أي ربِّ ؛ أقريبٌ أنتَ فأناجيك ، أم بعيدٌ فأناديك ؟ قال ياموسىٰ : « أنا جليس مَنْ ذكرني » ، وعند البيهقي أيضاً في « الشعب » (٦٩٧) أنَّ أبا أسامة قال : قلت لمحمد بن النضر : أما تستوحش من طول الجلوس في البيت ؟! قال : وما لي أستوحش وهو يقول : « أنا جليس من ذكرني » .

« إني إلـٰه من دونه » وكفىٰ بذلك كفراً ، فافهم) .

وكان يقول : (من شرطِ المحقِّق : أن يخاطب أهل كل مرتبة بلسانها ؛ لأن كل شيء عنده بمقدار ، فلا يخاطب أهل الحديث بغير حديثهم ، ولا أهل النظر بغير نظرهم ، ولا أهل الذوق بغير ذوقهم) .

وكان يقول : (مِنْ كمال سياسة الداعي إلى الله تعالىٰ تأليفُ الناس عليه أولاً بالإحسان ، وطيبِ الكلام ، وتخفيف المأمورات ، فإذا رسخوا فله التحكُّمُ فيهم كيف شاء ، وعليه يُحمل أمرُ بعض العارفين مريدَهُ أن يعتزلَ زوجتَهُ وأولاده إذا خاف عليه الفتنةَ ، والاشتغالَ عن الله عز وجل ؛ ولهـٰذا وجبتِ الهجرةُ من أرض العدوِّ الكافر خوفَ الفتنة في الدين) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٨] : (في هـٰذه الآية دليلٌ واضح علىٰ نفي الجهة عن الله تعالىٰ ، وجهُ الدلالة : أنَّ قاعدة الترقِّي تقتضي أن يكونَ الاطلاعُ علىٰ ما في الأرض أقرب من الاطِّلاعِ علىٰ ما في السماوات ، فلو كانتِ السماءُ جهةَ الله لم تُؤخَّر في الآية ؛ إذ لا يحسنُ أن يقالَ : لا يخفىٰ على الملك شيءٌ في البلاد القاصية ولا في بيته أو بلده ، وإنما يحسن أن يقال : لا يخفىٰ عليه شيء في بلده ولا في البلاد القاصية علىٰ بلده ، فلو كان للحقِّ تعالىٰ جهةٌ لاقتضت هـٰذه الآية أن تكون الأرض جهته ، لـٰكنَّ الخلقَ كلَّهم متَّفقون علىٰ أنَّ الحقَّ تعالىٰ منزَّهٌ عن جهة الأرض ، والآيةُ تدلُّ علىٰ أنه تعالىٰ منزَّهٌ عن جهة السماء فما فوقها ، ولا جهة غيرهما تليق به ، فلا جهة للحقِّ أصلاً ، فافهم) .

وكان يقول : (إذا دعوتَ ربَّك في حاجةٍ ولم يُجَب ، فذلك لعدم صدقِكَ في الاضطرار كما وجب) .

وكان يقول : (قوَّةُ الاعتقاد توجبُ قبول النصح ، وبالعكس موجبٌ للردِّ) .

وكان يقول : (لا بدَّ لكلِّ إمامِ حقٍّ من النوَّاب أن يقابلَهُ إمامُ باطلٍ من ثلمة النيابة ، فآدمُ قابلَهُ إبليس ، ونوحٌ قابله حام وغيره ، وإبراهيم قابله نمروذ ، وموسىٰ قابلَهُ

فرعون ، وداود قابله جالوت وأضرابه ، وسليمان قابله صخر ، وعيسىٰ قابله في حياته الأولىٰ بختنصر ، وفي حياته الثانية الدجال ، وأما محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكنْ له مقابلٌ حقيقة لإتيانه بالإحاطة الخفية ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء : ٦٠] بل هو صلى الله عليه وسلم حقٌّ قُذف به على الباطل ، فإذا هو زاهقٌ ، حتىٰ قال أبو جهل : والله ؛ إني لأعلمُ أنَّ محمداً صادق) .

قلتَ : ووجه الاستدلال بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء : ٦٠] من جهة باب الإشارة خفيٌّ جدّاً ؛ فإنه تعالىٰ كما هو ربُّ محمد كذلك هو ربُّ بقيَّةُ الأنبياء ، إلا أنَّ تجلِّي الخفاء لا يلحظه غيرُ أهله من حيث إفرادُهُ تعالى الضمير هنا ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر : ٨٦] فافهم ، فلم يَعدُّو أبا جهل وأضرابَهُ مقابلاً لمحمد ، فافهم .

وكان رضي الله عنه يحثُّ أصحابه علىٰ قراءة حزب العشاء والصبح ، ويقول : لا رخصةَ في تركهما في حضرٍ ولا سفر ؛ فإنهما صدقةُ الله على الصادقين من عباده : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ . . . ﴾ الآية [الكهف : ٢٨] .

وكان يُشير علىٰ أصحابه إذا كتبَ أحدٌ منهم كتاباً أن يجعلَ صدرَ الكتاب : بسم الله الرحمٰن الرحيم ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، يا مولاي ، يا واحد ، يا مولاي يا دائم ، يا عليُّ يا حكيم : مِنْ عبدِ الله فلان ، إلىٰ أخيه أبي فلان ، أمتعه اللهُ بما منَّ به عليه ، وبلَّغه ما وجَّهه منه إليه ، أما بعد : أحمدُ إليك الله الذي لا إلٰه إلا هو ، وهو هو بما هو هو سيِّدي وربِّي وهو مولاي ، وحسبي ليس إلا هو ، وصلَّى الله بذاته ، وسلَّم بأسمائه ، وبارك بصفاته علىٰ أحمد ومحمد ، إحاطة تنزُّلاته ، وحيطة تجلِّياته ، وعلىٰ آله وصحبه ومحبِّيه عيون تعيناته ، ومثل تمثلاته بمحامده وسبحاته ، وكلٌّ من عند الله ، وإلى الله تُرجع الأمور .

وفي هٰذا القدرِ من عيون كلام سيِّدي عليٍّ كفاية ، فمن أراد زيادةً علىٰ ذلك فلينظر في « الطبقات الكبرىٰ »[١]

---

(١) الطبقات الكبرىٰ (٢/ ١١٣) .

وبالجملة : فقد طالعتُ كثيراً من كلام الأولياء فما رأيتُ أكثر علماً ، ولا أرقىٰ مشهداً من كلام سيِّدي عليٍّ رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣١٧) سيِّدي حسن الصائغ رضي الله عنه[1]

المدفون بناحية إخنا[2]

كان مقيماً بطندتا ، فلما قَرُبَ مجيء سيدي أحمد البدوي من العراق صارَ يقول : قد جاء صاحبُ البلاد لها ، فمن شاء دخل تحت حكمه ، ومن شاء رحل .

فأما سيدي سالم المغربيُّ فدخل تحت حكمه فسلم ، وهو مدفون قريباً من مقام سيدي أحمد .

وأما غيرُه فلم يُسلِّم ، فسُلب .

وأما سيدي حسن هـٰذا فرحلَ إلىٰ بلاده ، فكانت إقامتُهُ ببلده حتىٰ مات رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣١٨) سيدي الشيخ عبدُ العال خليفةُ سيدي أحمد البدوي رضي الله عنهما[3]

كان من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد .

وهو صاحبُ البشت الأحمر ، الذي يلبسُهُ الخليفةُ في المولد كلَّ سنةٍ .

---

(١) انظر ترجمته في « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢٥٩)، و« الخطط التوفيقية » (٨/ ١٤١)، وفي (هـ ، و ، ي) : (علي الصائغ) .

(٢) إخنا : كورة من كور الحوف الغربي من مصر ، قرب الإسكندرية . « معجم البلدان » (١/ ١٢٤).

(٣) انظر « السلوك » (٢/ ٢/ ٣٥٥) ، و« النجوم الزاهرة » (٩/ ٢٩٥) ، و« حسن المحاضرة » (١/ ٤٩٥) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٤٦) ، و« طبقات الشاذلية » (ص ٩٩) ، ولا يكاد يخلو كتابٌ ترجم للشيخ أحمد البدوي إلا وذكر الشيخ عبد العال ، وقد تقدم ذكره في « الطبقات الكبرىٰ » . انظر الفهرس العام .

وهو الذي بنىٰ مقام سيدي أحمد والمئذنة ، ورتَّبَ السماط ، والأشائر ، وأصغر الخبزَ .

وهو من أكبر أصحاب السطح الذي صحبوا سيدي أحمد ، وهو مقيمٌ فوق سطح دار ابن شحيطة شيخ طندتا ؛ فإنه رضي الله عنه أقام فوق السطح اثني عشر سنة ، وقيل : عشر سنين ؛ ولذلك سُمِّي السُّطوحي ، وسُمِّي أكابرُ أصحابه السطوحيةَ .

وكان صورةُ صحبتهم له كما أخبرني به شيخُنا الشيخُ محمد الشِّنَّاوي الأحمدي رضي الله عنه : أن سيدي عبد العال كان يأتي إلىٰ سيدي أحمد بالبدويِّ الذي يبول في ثيابه ، فينادي سيدي أحمد من فوق السطح ، فيأتي فينظرُ إلىٰ ذلك الشخص نظرةً واحدةً ، فيملؤه مدداً ، ثم يقول لسيدي عبد العال : أرسله إلى البلد الفلانية ، فيكون فيها مقامُهُ إلىٰ أن يموت .

وكان سببُ اجتماع سيدي عبد العال بسيدي أحمد : أنَّ سيدي أحمد قبل دخوله إلىٰ طندتا مرَّ علىٰ ناحية فيشا المنارة ، وعيناه متورمتان ، فطلب من سيدي عبد العال بيضةً من بيض الدجاج يجعلها علىٰ عينيه ، وسيدي عبدُ العال صغيرٌ يلعب مع الصغار ، فقال لسيدي أحمد : وتعطيني هٰذه الجريدة الخضراء التي معك ؟ فقال سيدي أحمد : نعم .

فذهب سيدي عبد العال إلىٰ أُمِّهِ ، فقالت : ما عندنا بيض ، فرجعَ إلىٰ سيدي أحمد ، وقال : ما وجدتُ لك شيئاً يا عمِّ ، فقال سيدي أحمد : ارجعْ تجدْ الصومعةَ كلَّها بيضاً ، فرجعَ إلىٰ أمِّهِ ، فأخبرها بذلك ، فنظرتْ إلى الصومعة ، فوجدتها ملآنةً بيضاً ، فخرجتْ مع ولدها إلىٰ سيدي أحمد ، ورأت ولدَها يتبعه لا يستطيع أن يمنعَ نفسَهُ من اتباعه ، فقالت : يا بدوي الشؤم علينا ، فقال : قولي : يا بدوي السعادة ، سيصيرُ لولدك هٰذا شأنٌ عظيم ، فقالت : من أين عرفت ولدي ؟ فقال لها : من يوم أخذه الثورُ في قرونه وشردَ ، فما أخذه من قرونه إلا أنا ، فتذكَّرتْ أنها كانت وضعتْ سيدي عبد العال وهو في القماط في معلفِ الثور ، فجاء الثورُ ليأكل ، فدخلتْ قرونُ الثور في قماطه ، فحمله وهاج الثورُ ، فلم يستطعْ أحدٌ أن يُنزله من قرونه ، فمدَّ سيدي أحمدُ يده ـ وهو في ناحية الدهناء قريباً من الينبوع ـ فخلَّصه ، ووضعه علىٰ مصطبةٍ

هناك ، فاعترفتْ أمُّهُ بذلك واستغفرت ، ومضىٰ ولدُها مع سيدي أحمد إلىٰ طندتا إلىٰ أن كان ما كان رضي الله عنه .

ومما شهدتُهُ من كراماته في سنة سبعٍ وأربعين وتسع مئة : أن شخصاً راود امرأةً عن نفسها في قبَّتِهِ ، فسمَّره ، ويبَّسَ أعضاءَهُ ، فكان يصيحُ حتىٰ كاد أن يموت ، فأخبروني به ، فمضيتُ إلىٰ قبره ، وأمرت بعضَ الفقراء أن يسألَ سيدي عبد العال في الصفح عنه ، فقرأ الفاتحة ودعا ، فانتشرتْ أعضاؤه ، وتاب إلى الله من ذلك اليوم ، وصار من الفقراء الملاح .

وكراماته كثيرةٌ مشهورةٌ في بلاده ، وبين الفقراء الأحمدية وغيرهم ، رضي الله عنه .

ورأيت بخطِّ الشيخ جمال الدين سِبط الحافظ ابن حجر رضي الله عنه ما نصُّه : (لمَّا مات سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه في يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول سنة خمسٍ وسبعين وست مئة . . تخلَّف بعده الشيخُ الصالح المُعمَّرُ عبدُ العال ، فشيَّد أركان البيت ، ورتَّبَ الأشائر ، وقصده الناس للزيارة من سائر الأقطار حتىٰ **تُوفي يوم السبت العشرين من ذي الحجة سنة ثلاثٍ وثلاثين وسبع مئة** .

فتخلَّفَ من بعده أخوه شقيقُه الشيخ الصالح **زينُ الدين عبد الرحمـٰن** فعمرَ البيتَ ، وقصدَهُ الناسُ من كلِّ ناحيةٍ للزيارة والتبرُّك بدعائه الصالح والنذور والشفاعات عند الحكام ، حتىٰ تُوفي في الرابع والعشرين من شعبان سنة أربع وخمسين وسبع مئة .

فتخلف من بعده الشيخُ الصالح **نور الدين أبو محمد علي** شقيق الشيخ عبد العال أيضاً ، فلم يزلْ قائماً بشعائر المقام حتىٰ تُوفِّي في ليلة الأحد سابع عشرين رجب سنة تسعٍ وثمانين وسبع مئة .

فتخلَّف من بعده ولدُهُ المُعمَّر **محمدُ شمس الدين** ، فجاد وساد ، وخضعت له رقاب الولاة وغيرهم حتىٰ تُوفي يوم الأربعاء سادس عشرين شعبان سنة اثنين وأربعين وثمان مئة ، ودفن بالمقام .

فتخلَّف من بعده ولده **أحمد** ، فسار سيرةً حسنة في المقام حتىٰ تُوفِّي يوم الثلاثاء

الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ستٍّ وأربعين وثمان مئة .

فتخلَّف من بعده ولد أخيه **عبد الكريم بن علي بن محمد** ، فلم يزل خادماً للمقام حتىٰ توفي مقتولاً يوم الأربعاء في صفر سنة اثنين وستين وثمان مئة) انتهىٰ ما رأيتُه بخطِّ الشيخ جمال الدين سبطِ الحافظ ابن حجر رضي الله عنه

ثم زاد الشيخ زين العابدين السَّخاوي علىٰ ذلك قوله : (ثم إنه جلس بعد عبد الكريم الشيخُ **سالم** قرابة الخواجا شمس الدين المعروف بابن الزكين[1] صاحب المدارس والرُّبط في مصر ومكة والمدينة وغيرها ، ثم عُزل سالم ، وجلس بعده أبوه ، ثم عُزل أبوه ، وتولَّىٰ سالم ولدُهُ بعده ثانياً حتىٰ توفي ، فجلس بعده ولدُهُ **الأسمر** ، وكان سِنُّهُ دونَ سنِّ التمييز ، ثم عُزل عنها بأخيه **الأبيض** ، وأجلسوه وسنُّهُ دون العشر سنين ، قال : ولم أعرفْ اسمَ الأسمر ولا الأبيض حتىٰ أُسمِّيَهُ) انتهىٰ ما ذكره زين العابدين السخاوي سبط الحافظ السخاوي .

قلت : اسمُ الأسمر الشيخ إبراهيم ، والد الشيخ أبي البقاء الموجود الآن ، واسم الأبيض الشيخ محمد ، والدُ الشيخ عبد الكريم ، وقد توفي الشيخ محمد هـٰذا في حلب لمَّا سافرَ مع السُّلطان الغوري في تجريدة قتال السُّلطان سليم بن عثمان .

وتخلَّف بعده ولدُهُ الشيخ **عبدُ الكريم** ، فمكث في الخلافة نحو خمسين سنة ، وكان كثيرَ الاحتمال للأذىٰ ، كثيرَ الحياء ، لا يُواجه أحداً بمكروهٍ ، كثيرَ التواضع مع الناس إلىٰ أن تُوفي رابع عشر رجب سنة إحدىٰ وستين وتسع مئة ، ودفن في زاوية الشيخ يوسف بن أبي الطيب الأحمدي بدرب الكافوري بمصر تجاه المدرسة القادرية ، رضي الله عنه .

ثم تخلَّف بعده ولدُهُ الشيخُ **عبدُ المجيد** على الأثر ، وهو الخليفةُ الآن وهو سنةِ خمسٍ وستين وتسع مئة ، فسار مع الفقراء الأحمدية سيرةً حسنةً .

ونشأ عندنا في الزاوية ، فقرأ القرآن العظيم والعلم ، وما رأينا عليه سوءاً في دينه .

---

(١) في (أ ، ط) : (ابن الزمن) بدل (ابن الزكين) .

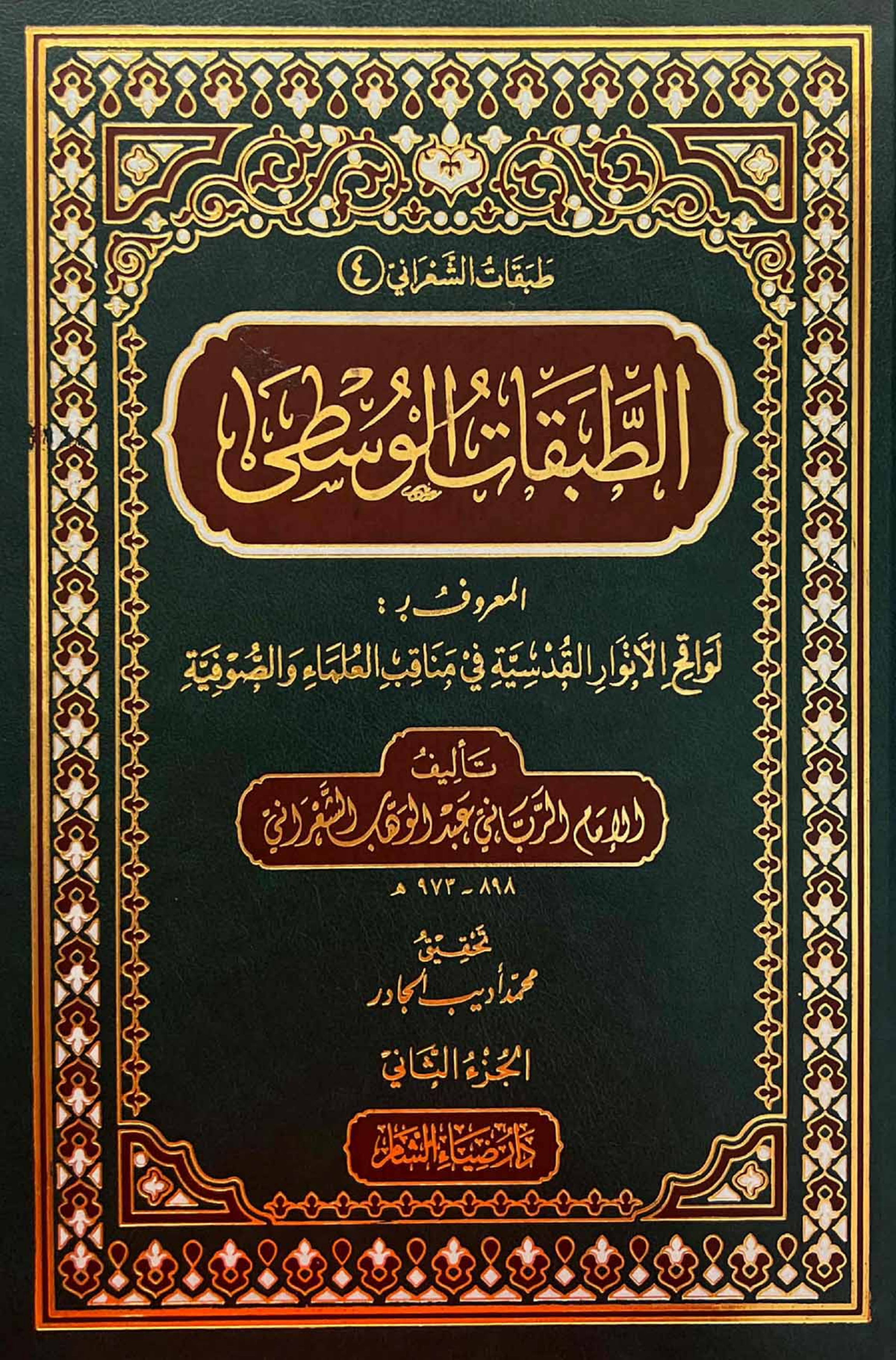
وكان يتهجَّد عندنا في غالبِ الليالي ، ويسهرُ معنا ليلةَ الجمعة من صلاة العشاء إلى الصباح .

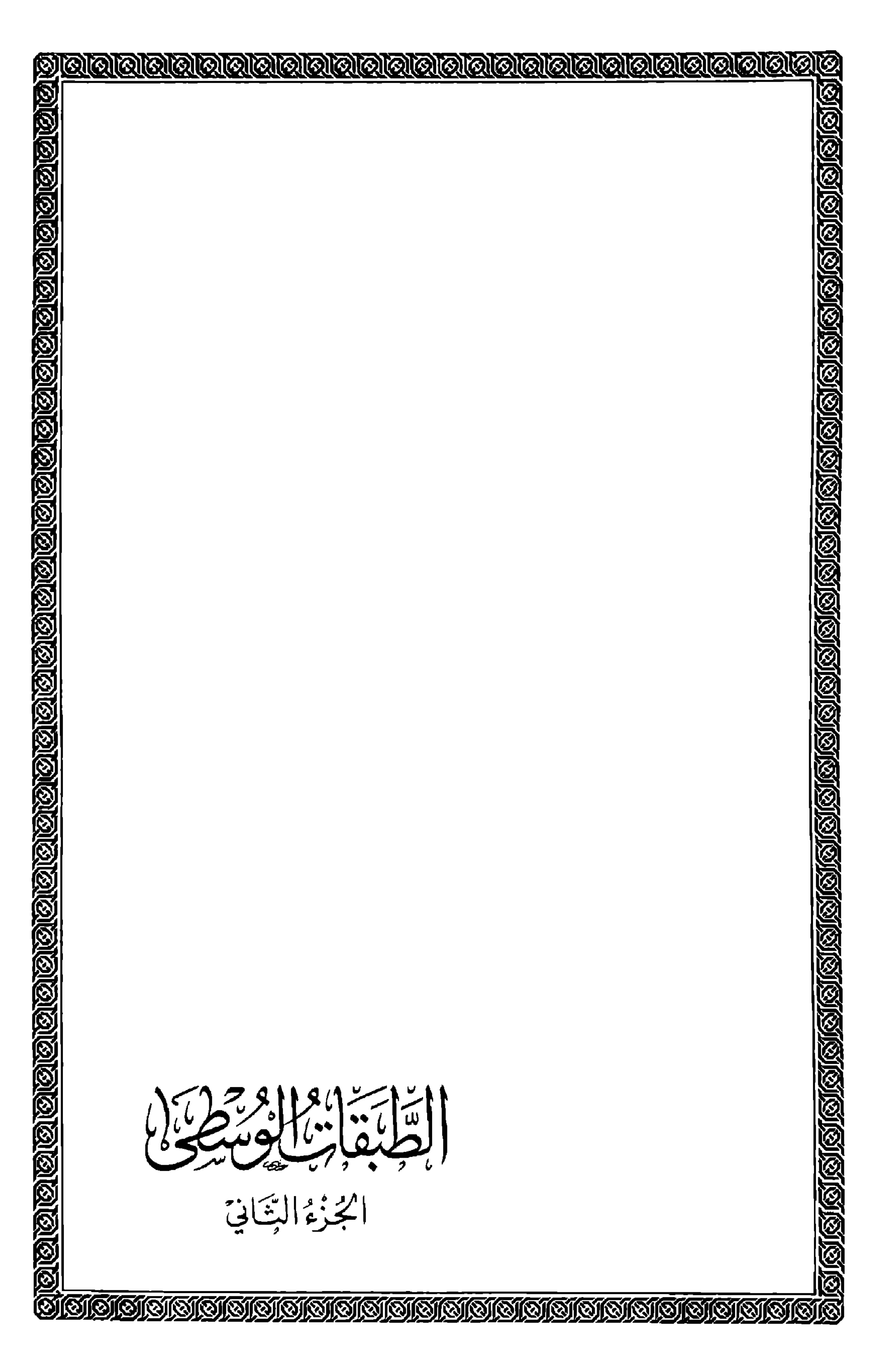
واحتاج فقراءُ المقام إلى القمح ، فأعطاهم تسعين إردبّاً من قمحه ، ولم يأخذْ لها ثمناً .

ولم تزل إخوتُهُ يخاصمونه ويشتكونه للحكام ، ومع ذلك فيصبر على أذاهم ، فاللهُ تعالىٰ يزيدُهُ كرماً وحلماً ، وسعةً في الرزق ، وصبراً على الأذىٰ ، ولو لم يكن من مناقبه إلا اختيار سيدي أحمد البدوي له أن يكونَ خليفتَهُ في مقامه ؛ يلبسُ عمامتَهُ وقميصه وآثاره . . لكان في ذلك كفايةٌ في وجوب تعظيمه واحترامه والتبرك به ؛ فإن هٰذه الخصوصية لم يشاركه فيها أحدٌ من خلفاء الأشياخ في هٰذا الزمان .

وقد كان سيدي الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ محمد الشناوي يقول : كلُّ من لبس أثرَ سيدي أحمد كنَّا خدَّاماً له ، رضي الله عنه ونفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة ، آمين .

* *


طبقات الشعراني ٤
الطبقات الوسطى
المعروف بـ:
لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية
تأليف
الإمام الرباني عبد الوهاب الشعراني
٨٩٨ - ٩٧٣ هـ
تحقيق
محمد أديب الجادر
الجزء الثاني
دار ضياء الشام



الطبقات الوسطى

الجزء الثاني



الكتـــاب : الطبقات الوسطى - الجزء الثاني

(لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية)

المـؤلـف : الإمام الرباني عبد الوهاب الشعراني

تحقيـــق : محمد أديب الجادر

الناشـــر : دار ضياء الشام

التنفيذ الطباعي: مطبعة ضياء الشام

عدد الصفحات : ٥٤٤

سنة الطباعة : ١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

بلد الطباعة : سوريا

الطبعـــة : الأولى

ISBN: 978-9933-9326-1-9





سورية - دمشق - حلبوني

هاتف: ٠٠٩٦٣ ١١ ٢٢٤ ٦٨ ٤٢

جوال: ٠٠٩٦٣ ٩٣٣٨٧٨٠٧٥ / ٠٠٩٦٣ ٩٥٨٨١١٧٠٠

البريد الإلكتروني: deaa.nsr@gmail.com

الطبقات الوسطى

المعروف بـ :

لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية

تأليف

الإمام الرباني عبد الوهاب الشعراني

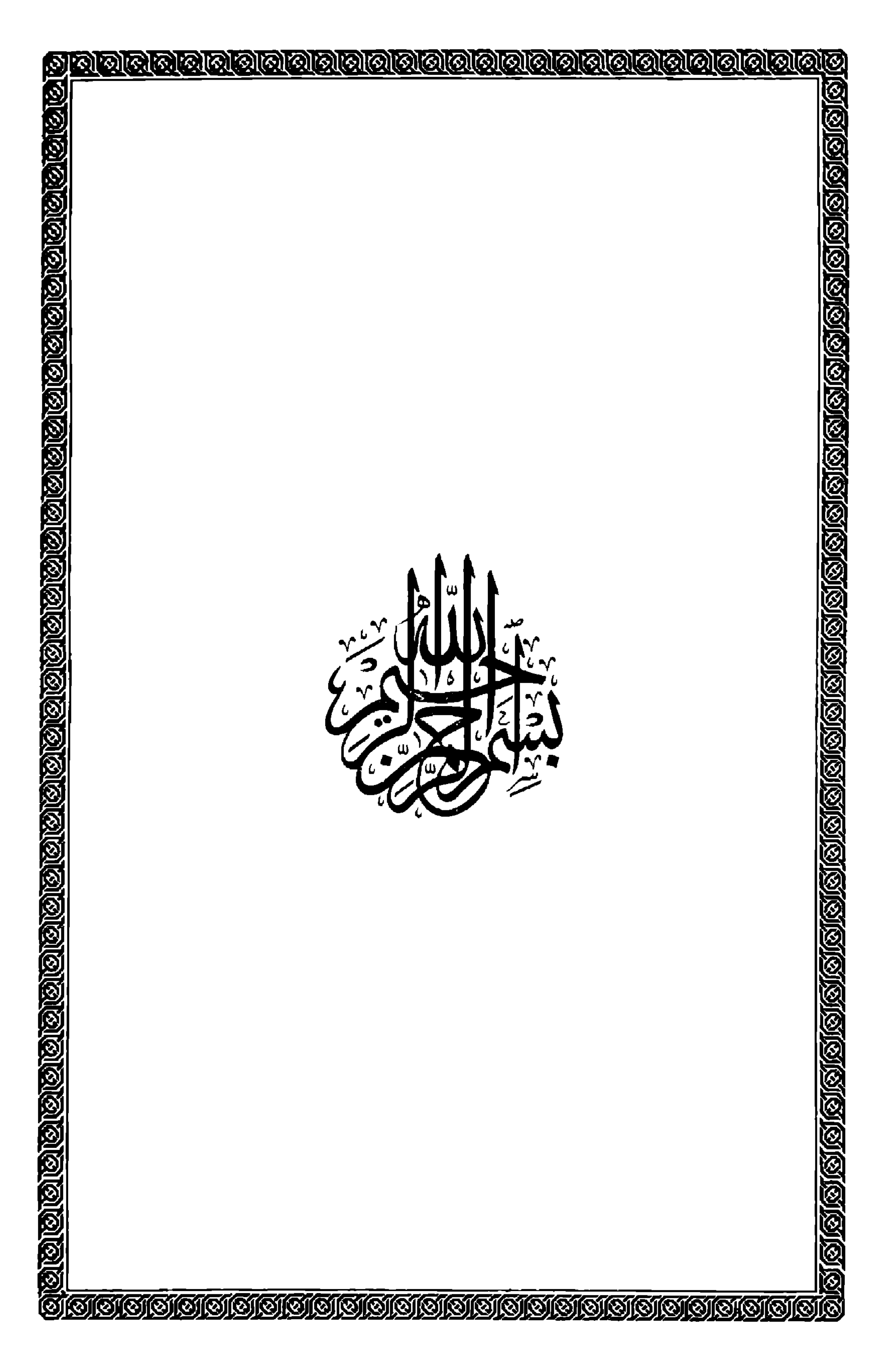
٨٩٨ - ٩٧٣ هـ

تحقيق

محمد أديب الجادر

الجزء الثاني

دار ضياء الشام



قالوا في الإمام الشعراني رحمه الله تعالى :

• قال الإمام الخطيب الشربيني في تفسيره السراج المنير :
شيخ وقته الشيخ عبد الوهاب الشعراني . (٢/٢٩٠)
وقال في موضع آخر :
وحضر عندي سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني نفعنا الله ببركته . (٢/٥٣٦)

• وقال الإمام الغزي في الكواكب السائرة :
الشيخ الإمام العارف الشعراني ... له طبقات الأولياء ثلاث ،
والعهود ، والسنن وغير ذلك ، وكتبه كلها نافعة . (٢/١٥٧)

• وقال الإمام الشرقاوي في التحفة البهية في طبقات الشافعية :
الإمام العالم العامل المعتقد العارف بالله والدال عليه . (٧٠١)

نبذة صالحة

في ذكر أصحاب السطح المتفرقين في أقاليم مصر وغيرها رضي الله تعالى عنهم، آمين(١)

ومنهم :

(٣١٩) الشيخ الصالح الشيخ عبدُ المجيد رضي الله عنه(٢)

أخو سيدي عبدِ العال الخليفةِ الأعظم لسيدي أحمد البدوي .

نشأ هو وأخوه في ناحية فيشا المنارة ، ووقع له ولأخيه وقائعُ كثيرةٌ مع سيدي أحمد البدوي أوَّلَ قدومه إلىٰ ناحية طندتا ، وأحبَّهما وقرَّبهما ، وأخبر والدتهما : أن الشيخ عبد العال هو الخليفة بعده في مقامه ، وأما الشيخ عبد المجيد فكان يتردَّدُ علىٰ سيدي أحمد أيامَ وقوفه على السطح ، ثم انقطعَ إلى الله تعالىٰ ، وصحب سيدي أحمد البدوي مدَّةً طويلةً ، وتأدَّبَ بآدابه ، وعرف إشاراته .

وكان لا ينام الليلَ تبعاً لسيدي أحمد ، فاشتاق يوماً إلىٰ رؤية وجه سيدي أحمد ، وكان سيدي أحمدُ بلثامين ، لا يرى الناسُ منه إلا عينيه ، فقال : يا عبد المجيد ؛ كلُّ نظرةٍ برجل ، فقال : يا سيدي رضيت ، فكشفَ سيدي أحمد له اللثام ، فرآه ، فخرَّ ميتاً ، هٰكذا أخبرني شيخُنا الشيخ محمدٌ الشِّناويُّ رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٢٠) الشيخ عبد الوهاب الجوهري رضي الله عنه(٣)

المدفون بناحية الجوهرية قريباً من محلَّة المرحوم .

كان رضي الله عنه من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد البدوي .

---

(١) أثبتت هٰذه العنونة من النسخة (ي) .

(٢) انظر طرفاً من أخباره في « طبقات المناوي » (٢/ ٣٧٨ـ٣٨٨)، (٣/ ٤٧ـ ٥٢) ، (٤/ ٤٣٦).

(٣) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٥٢) ، (٤/ ٤٣٦) .

وكان يأخذُ العهد على المريدين ، وله نسكٌ وعفَّةٌ ، وزهد وورع .

وكان كلٌّ من أراد أن يأخذَ عليه العهد يقول له : خذْ هـٰذا الوتدَ دقَّهُ في حائطِ هـٰذه الخلوة ، فإن ثبتَ في الحائط أخذَ عليه العهد ، وإن خارَ ولم يثبت يقول له : اذهبْ إلىٰ حالِ سبيلك .

وكراماتُه رضي الله عنه كثيرةٌ مشهورة في بلاده ، والله أعلم .

ومنهم :

(٣٢١) الشيخ قمر الدولة رضي الله عنه[١]

هو من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد البدوي ، ولم يجالسه سوىٰ ساعة فقط ؛ وذلك أنه كان من جند السُّلطان محمد بن قلاوون ، وكان مسافراً في وقتِ الحرِّ ، فطلع طندتا يستريح في ظلِّ شجرةٍ ، فسمع أن سيدي أحمد البدوي علىٰ موت ، فطلعَ يزوره ، فقال لسيدي قمر : يا أخي ؛ شقَّ لي هـٰذه البِطيخة لأشربَ منها ؛ فإن بي حرارةً ، فشقَّها سيدي قمر ، وأسقىٰ سيدي أحمد منها ، فغلبتِ المرَّةُ الصفراء علىٰ سيدي أحمد ، فتقايأها ثانياً في البطيخة ، فشربَ قيئَهُ سيدي قمر الدولة بماء البطيخة كلِّها ، فقال له سيدي أحمد : أنت قمرُ هـٰؤلاء ، وأشار إلىٰ أصحابه ، ولـٰكن اذهبْ إلىٰ ناحية نفيا ، فأقم بها حتىٰ تموت ، ولا ترجعْ إلىٰ طندتا لا مُهنِّي ولا معزِّي ؛ خوفاً عليه من سيدي عبد العال وأصحابه .

فخرج سيدي قمرُ الدولة ، فجاء سيدي عبد العال بعده ، فأخبروه الخبر ، وأنه شربَ قيء سيدي أحمد ، فذهب ليُدركَهُ يأخذ الشربةَ منه غيرةً علىٰ أثر سيدي أحمد أن يأخذه غيرُهُ ، فلحق قمرَ الدولة تحت الكوم الذي فيه التربة النفاضة عند البئر ، فدكس سيدي قمرُ فرسه في البئر ، فغطس بها فيها ، ورمحها تحت الأرض حتىٰ طلعَ من بئر ناحية نفيا ، فأرسل سيدي أحمدُ خلفَ سيدي عبد العال وقال : لا أحد يتعرَّضُ له ، فرجعوا عنه .

وله رضي الله عنه كرامات كثيرة حيّاً وميتاً .

وعمامته ومضرَّبتُهُ وقوسُهُ وجعبته معلَّقة في قبَّته فوق ضريحه ، وله مقام عظيم ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٢/ ٥٥٧) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ١٧٠) .

ومنهم :

(٣٢٢) الشيخ وهيب بناحية برشوب الكبيرة رضي الله عنه[١]

هو من أصحاب سيدي أحمد البدوي .

وكان من أصحاب السطح ، أرسله سيدي عبد العال إلىٰ ناحية برشوب بالقليوبية ، وقال : إن بها قبرَك ، فلم يزل بها إلىٰ أن مات .

وله كرامات كثيرة ؛ وإذا وقع أنَّ أحداً من الظلمة أو الأعداء أرادَ أن يكبس البلدَ وينهبها . . يأتي الناسُ بأمتعتهم وحليِّ النساء والأموال فيضعونها في قبته ، فلا يقدرُ أحدٌ يدخلها من الظلمة ، وإن أرادَ أن يدخلَ يبستْ أعضاؤه .

وطلع الذئب داره مرةً والثعلب ليأخذا الدجاج ، فسمَّرهما على الحائط حتىٰ طلع النهار ، وأمسكَهما الناسُ .

وسرق شخصٌ مرَّةً ثورَ واحدٍ من أولاده من داره وأخرجه ، ومشىٰ به من بعد العشاء إلى الصبح ، فنظر فإذا هو دائرٌ حول البلد لم يتعدَّاها ، فمسكه الناس .

وكراماته كثيرة مشهورة ، ينذره الناس بالنذور في الشدائد ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٢٣) الشيخ يوسف أبو سيدي إسماعيل الأنبابي رضي الله عنه[٢]

كان من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد البدوي أيام السطح .

أرسله سيدي عبدُ العال إلىٰ ناحية أنبابة تجاه بولاق[٣] ، فأقام بها واشتهر ، وزارته

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٤/ ٦٢٢) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٨٢) ، وبرشوب : هو الاسم الأصلي لقرية (برشوم) في مركز طوخ ، ضبطها صاحب « تاج العروس » (ب ر ج م) بضم أوله ، قال : والعامة تفتح أوله . انظر « قاموس رمزي » (١/ ١/ ٤٤) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٢١) (ضمن ترجمة ابنه) ، وذكره الزبيدي في « تاج العروس » (ن ب ب) قال : (أنبابة : ظاهر إطلاقه الفتح) .

(٣) في (ب ، ح ، د ، هـ ، و ، ط ، ي ، ك): (منبوبة) بدل (أنبابة) ، وفي (ز) : (أنبوبة) .

الأمراء والملوك فمن دونهم ، وعملوا له الموائدَ العظام ، وأنفقوا عليه الأموال ، وصار سِماطُهُ مثلَ سماط الملوك ، فلما شاع ذلك قال الشيخُ أحمدُ أبو طرطور لبعض الإخوان : امضوا بنا إلىٰ أخينا يوسف ننظر حالَهُ اليوم ، فلما دخلوا عليه قدَّم إليهم طعاماً فاخراً من حلوٍ وغيره ، وقال : كُلْ يا أبا طرطور هـٰذه الماوردية ، واغسل بها غشَّ البسلة[١] والعدس الذي كنت تأكله في مقام سيدي أحمد ، فغضب الشيخ أبو طرطور ، وامتنع من الأكل ، وقال : ما هو إلا كذا ، تقول غش البسلة ، مع أنه لولا البسلة المذكورة ما وصلتَ إلىٰ ما وصلتَ ، فصالحه ، فلم يصطلح عليه ، وسافر الشيخ أبو طرطور إلىٰ سيدي عبد العال ، فاشتكاه له ، فقال : لا يكنْ خاطرك إلا طيب ، نحن نأخذُ الوديعة التي لنا عنده ، فنعطيها لولده إسماعيل ، فمن ذلك اليوم اختفىٰ يوسف .

[ومنهم :

(٣٢٤) إسماعيل بن يوسف][٢]

واشتهر سيدي إسماعيل ولدُهُ ، وكلَّمته البهائم ، وظهرتْ له الكرامات .

وكان يقول : رأيتُ في اللوح المحفوظ كذا وكذا ، فيأتي الأمرُ كما قال ، فأفتىٰ بعضُ علماء المالكية بتعزيره ، فقال : ومما رأيتُ في اللوح المحفوظ : أنَّ هـٰذا المالكيَّ يموتُ غريقاً ، فخاف القاضي المالكيُّ ، وردمَ الفسقية الماء التي كانت في قاعته ، فقالوا للقاضي : إذا كنتَ تُكذِّبه بأنه لا ينظر في اللوح المحفوظ فكيف ردمتَ الفسقية ؟! فقال : ردمتها احتياطاً ، فأرسل ملكُ الفرنج يطلبُ من سلطان مصر عالماً يُجادل قساقستهم ، ووعدوا بالإسلام إن قطعهم بالحجج ، فقالوا للسلطان : ما في مصر مثلُ فلان المالكي ، فأرسلوه ، فغرقَ في بحر الفرات .

وكرامات سيدي إسماعيل كثيرة مشهورة ، رضي الله عنه .

---

(١) البسلة : البازلاء .

(٢) انظر « تاريخ ابن الفرات » (٩/ ٤٢) ، و« تاريخ ابن قاضي شهبة » (١/ ٢٥٣) ، و« إنباء الغمر » (٢/ ٢٩٧) ، و« الدرر الكامنة » (١/ ٣٨٤) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢١) .

ومنهم :

(٣٢٥) الشيخ أحمد المعلوف رضي الله عنه[١]

هو جد المعاليف ببلاد القليوبية .

وكان سيدي أحمدُ يُباسطه ، حتىٰ لم يكنْ يدخلُ دارَ سيدي أحمد راكباً غيره .

وكراماته كثيرة مشهورة في بلاد القليوبية .

وله أولادٌ علىٰ غير نعت الاستقامة ، وكلُّ من تعرَّضَ لهم بأذىً جاءته الدواهي ، وله نذور ، وكلٌّ من قطعها خربتْ دياره في تلك السنة من الكشاف ومشايخ العرب ، وغيرهم .

[وكان إذا ناداه أحد من القبر أجابه][٢] ، فيقول أحدُهم : يا سيدي أحمد ؛ فيجيبُهُ في الحال ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٢٦) الشيخ علي البريدي رضي الله عنه

كان من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد البدوي .

وهو الذي أرسله السلطان محمد بن قلاوون بريدي إلىٰ سيدي أحمد بالسلام والهدية[٣] .

وله كرامات كثيرة ، ودفن مقابل مقام سيدي أحمد رضي الله عنه .

ينذره الناس بالنذورات .

وكان يقول : (لما اجتمعتُ بسيدي أحمد رأيتُهُ في عيني أعظمَ حرمةً من السلطان محمد بن قلاوون) .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٤/ ٢١٤) .

(٢) ما بين معقوفين مستدرك من « طبقات المناوي » (٤/ ٢١٤) .

(٣) وفاة سيدي أحمد البدوي سنة (٦٧٥هـ) ، وولادة السلطان محمد بن قلاوون سنة (٦٨٤هـ) فلعل هنا وهماً ، أو الإرسال كان لقبره ، والله أعلم .

ولما نزلَ السُّلطان محمد لسيدي أحمد يزوره وجدني أخدمه ، فقال لي : هنيئاً لك ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٢٧) الشيخ عبد العظيم الراعي رضي الله عنه[١]

كان يَرعىٰ بهائمَ سيدي أحمد وغنمَهُ .

وكان إذا غاب يُوصي الذئبَ على الغنم ، فيحرسُها الذئبُ له حتىٰ يحضرَ .

وكان يشارطُ الذئاب : علىٰ أنَّ لهم منها ما يموت فقط .

وكان كثيراً ما يُرسلُ البهائمَ والغنم إلى البرسيم من غير راعٍ ، فتأكل من مارس سيدي أحمد ، ولا تتعدَّىٰ للجارِ ، بل تخلي للجار من البرسيم نحو خط محراث .

وكانت تعرف مارس سيدي أحمد بالإلهام .

وله أولادٌ يقضون للناس حوائجهم عند الحكام ، ويطلعون كلَّ سنةٍ بإشارةٍ عظيمة إلىٰ مولد سيدي أحمد رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٢٨) الشيخ رمضان الأشعث رضي الله عنه[٢]

شيخ الفقراء المنايفة المدفون بمدينة منف .

كان من أصحاب السطح .

وله كرامات ظاهرة ، وتأثيراتٌ غريبة في الكشَّافِ[٣] ، ومشايخ العرب .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٤١٩) .

(٢) انظر « الكواكب السيارة » (٢٨٤) ، و« تحفة الأحباب » (ص ٣٧٥) ، و« طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢٩٥) .

(٣) الكشف : التفتيش علىٰ مستغلات الأراضي ، ومن يقوم بهـٰذا العمل يُسمَّىٰ كاشفاً . وأصبح الكاشف يقوم بإدارة الإقليم ، وهو بمنزلة النائب .

وكان يُرسل عكّازَهُ إلى الكاشفِ مع المظلوم ، فيقضي حاجتَهُ ، فردَّ شفاعتَهُ مرةً كاشفُ منف ، فطلعت له غدَّةٌ في رقبته ، فصارت كالبِطيخة ، فمات في الحال .

ومنهم :

(٣٢٩) الشيخ محمد الفرّان رضي الله عنه[١]

الذي كان يخبزُ لسيدي أحمد رضي الله عنه .

كان يحرِّكُ نارَ الفرن بيده ، ويُخرجُ الخبزَ من الفرن بيده ، وكان يخبزُ الإردبَّ بنحو قدحينِ من الوقيد .

وكان يطبخ أيضاً ، فإذا لم يجدْ أدماً للطعام يملأ الإبريقَ من البئر شيرجاً أو دهناً ، فيجد الفقراءُ له لذةً عظيمة .

وكان يقرصُ جميعَ الخبز مع صغرِهِ بيده ، لا يُساعدُهُ فيه أحدٌ ، وهي كرامةٌ ظاهرة ؛ فإن الرغيفَ أصغر من بيضة الدجاجة .

وكان إذا شفع عند كبيرٍ لا يستطيعُ أحدٌ أن يردَّ شفاعته ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٣٠) الشيخ عمرُ الشناوي الأشعث رضي الله عنه[٢]

وهو جدُّ شيخنا العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد الشناوي .

وله كراماتٌ ظاهرة في ناحية شنو .

ومولده عظيمٌ يُعمل له كلَّ سنةٍ قبل سيدي أحمد بيومين ، ويحصل فيه مددٌ عظيم .

من كراماته : أنه يخرجُ من قبره راكباً فرساً ، ويُخلِّص من قطع العربُ عليه الطريق ، ويطرد العربَ عنه ، ثم يرجع إلىٰ قبره رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٥٨٢) .
(٢) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٤٩٦) .

ومنهم :

(٣٣١) الشيخ خلف[١]

المدفون بقنطرةِ سُنْقر بمصر المحروسة .

كان سيدي أحمد يقول له : (يا خلف ؛ أنت خليفتنا في مصر) .

وكان لا يضعُ جنبَهُ الأرضَ ليلاً ولا نهاراً .

وكان إذا استمعَ مَلَخَ الشجرةَ الكبيرةَ بيده رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٣٢) سيدي محمد الكناس رضي الله عنه[٢]

شيخ الكناسية الذين يكنسون المقامَ كلَّ سنةٍ في المولد .

وكان سيدي أحمد يحبُّهُ محبَّةً شديدةً .

وكان يكنُسُ كلَّ يومٍ مقام سيدي أحمد ، ومقام سيدي عبد القادر الجيلي ، ومقام سيدي أحمد بن الرفاعي ، وعدَّة مقامات في بلاد المغرب وغيره ، ويرجع إلىٰ طندتا في ساعةٍ ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٣٣) الشيخ يُوسف البُرُلُّسي رضي الله عنه[٣]

المدفون ببلاد البُرُلُّس[٤]

وله كراماتٌ عظيمة مشهورة ببلاد البُرُلُّس وغيرها ، وذرِّيةٌ صالحةٌ يُقرون

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢٧٩) .

(٢) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٥٨٣) .

(٣) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٦٣٦) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٩٤) .

(٤) البرلس : بليدة علىٰ شاطئ النيل ، قرب البحر من جهة الإسكندرية . « معجم البلدان » (ب ر ل س) .

الضيف ، ويقضون حوائج الناس عند الحكّام .

ورأوه مراراً عديدة وهو يطلعُ من القبر ويُخلِّصُ مَنْ تعرَّض له قطاعُ الطريق .

ونذر له بدويٌّ مرة مُهراً ، ثم رجع فيه ، فبينما هو مارٌّ علىٰ ضريحه وإذا بالمُهرِ قد رمحَ حتىٰ دخل قبرَ الشيخ[١] ، فلم يعرفْ أحدٌ أين ذهب .

ومن كراماته : أنه كفىٰ أربعين نفساً بكسرة رغيف ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٣٤) الشيخ جمال الدين البُرُلُّسي رضي الله عنه[٢]

له كراماتٌ عظيمة ، وكان يركب الأسدَ ، ويدعو الطيرَ من جوِّ السماء ، فينزل إليه ، ويدعو سمكَ البحر المالح فيطلع له ، رضي الله عنه .

وكان صائمَ الدهر ، قائمَ الليل ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٣٣٥) الشيخ عليُّ أبو جبينة رضي الله عنه

المدفون بالقرب من جنينة الحشيش ببركة القرع بمصر المحروسة .

كان من أصحاب السطح ، وله كراماتٌ عظيمة حيّاً وميتاً .

وسمعت مرَّةً قائلاً يقول لي : صلِّ غداً العصر في جامع أبي جبينة ترى العجب ، فصلَّيتُ فيه ، فرأيت في قلبي انفساحاً وانشراحاً وأُنساً لم أجدْهُ إلا في مقامات الأئمة الكبار ؛ كالإمام الشافعي ، وذي النون المصري ، وأضرابهما ، رضي الله عنه .

---

(١) رمح : أي : ركض .

(٢) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢٤٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣٨٣) .

ومنهم :

(٣٣٦) الشيخ عليٌّ البعلبكي رضي الله عنه

هو مدفون ببعلبك ، وكان من أصحاب السطح .

وله كراماتٌ كثيرة في بلاد بعلبك والشام وغيرهما ، وكان يركبُ الأسود ، ويدخلُ بها بلدَهُ جهاراً

وله كراماتٌ كثيرة مشهورة في بلاده ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٣٧) سيدي مبارك المنوفي رضي الله عنه[١]

كان من أصحاب السطح .

وله كراماتٌ كثيرة ؛ منها : أنه راح بالملوخية إلىٰ سيِّده بعرفات .

ومنها : أنه كان يُخبرُ الناس بما يخطرُ في نفوسهم .

وكان إذا ضاعَ لأحدٍ شيءٌ يقول لصاحبه : امض إلى المكان الفلاني تجدْ متاعَك ، فيذهبُ فيجدُه كما قال .

وكان سيِّدُهُ من أكابر منوف ، فكان يقولُ لأولاده ، والعبدُ المذكور أعجميٌّ : ما يُطفئ اسمَنا إلا هـٰذا العبد ؛ يعني : بالشهرة بالصلاح ، فكانَ الأمرُ كما قال ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٣٨) الشيخ محمد الخرقاني رضي الله عنه[٢]

لما حضرته الوفاة قال : ائتوني بقوسٍ ، فأخذَهُ ورمىٰ نشَّابة ، وقال : ادفنوني في موضع النشابة[٣] ، فوقعتْ في الخرقانية ، بساحل البحر بقرب قليوب ، فنقلوهُ إليها ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٥٢٤) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٤٠) .

(٢) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٥٨٣) .

(٣) في غير (أ ، ج ، ز) : (ادفنوني في موضع تقع) .

ومنهم :

(٣٣٩) الشيخ محمد الششيني رضي الله عنه[١]

صاحبُ الإشارة التي تطلع المولد كل سنة ، وهو من أصحاب السطح .

وكان ورعاً زاهداً ، وكان يُكمِّمُ بهائمه إذا سرحتْ إلى المرعىٰ بالكمائم ؛ خوفاً أن تأكلَ من زرع أحدٍ ؛ من برسيمٍ أو قمح أو فول .

وكان عطَّاباً ، كلُّ من تعرَّضَ له بسوءٍ عُطِبَ ، وكانت عليه تلك السنة أيشمَ السنين[٢]

مكث سنين لا يضعُ جنبَهُ الأرض .

وله ذريةٌ صالحةٌ يُقرون الضيف ، ويَشفعون عند الحكام ، رضي الله عنه .

وشفع مرَّةً عند الكاشف في إنسانٍ ، فأبى الكاشفُ ، وقال له : إن كنتَ شيخاً انفخني ، فقال : باسم الله ، ونفخَ في وجه الكاشف ، فانتفخَ ، وتطرطرتْ يديه ورجليه ، وصار يصيحُ ، فاعتذروا إليه ، واستغفروا ، فمسحَ بيده علىٰ بطنه ، فانفشَّ ، ولم يزلْ مُريداً للشيخ إلىٰ أن مات ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٠) الشيخ سعدون بناحية بِلْبِيس رضي الله عنه[٣]

كان من أصحاب السَّطح ، وله كراماتٌ مشهورة في بِلْبِيس وغيرِها .

وسمَّرَ الذئبَ كذا كذا مرةً لمَّا أراد أن يأكلَ دجاج خادمه .

وكان مقيماً في خرابةٍ بناحية بلبيس إلىٰ أن مات بها ، ولم يرَهُ أحدٌ قطُّ يضحك .

وكان كاشفُ بِلْبِيس إذا جلس عنده يرتعدُ من هيبته ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٥٨٣) .

(٢) أيشم بمعنىٰ : أشأم ضد اليُمن .

(٣) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٣٢٥) .

ومنهم :

(٣٤١) الشيخ خليل الشامي رضي الله عنه

هو من أصحاب السطح .

أقام بالشام بإذنِ سيدي أحمد إلىٰ أن مات ، ودُفن بجنب دار السعادة .

ووقع له كرامات كثيرة مع نائب الشام ، فانجذبَ ، وتبعه وتركَ الإمرةَ ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٢) الشيخ علي الزنكلوني رضي الله عنه[١]

هو من أصحاب السطح كما قيل ، وله مكاشفاتٌ عجيبة .

كان إذا ضاع للإنسان بقرةٌ أو حمارة يقول له : اذهب إلى السوق الفلاني تجدْها مع شخصٍ صفتُهُ كذا يُريد بيعَها ، أو اذهب إلى الجزَّار الفلاني تجده ذبحها ، وهو يُريدُ بيعها ، فيمضون إلىٰ ما قال ، فيجدون الأمرَ كما قال ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٣) الشيخ خلف الحبيشي رضي الله عنه

المدفون بمُنية حِبيش[٢] ، بالقرب من ناحية نِفْيا[٣]

كان من أصحاب السطح ، وله كرامات كثيرة في حياته وبعد مماته .

وكان سيدي محمد الشِّناوي يُسافرُ لزيارته ، ويقرأ عنده ختماً ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٤٦١) ، وزنكلون : قرية من مديرية الشرقية بقسم العزيزية . « الخطط التوفيقية » (١١/ ٢٥٥) .

(٢) منية حِبيش : من أعمال السمنودية ، تابعة لمركز طنطا ، حُرِّف اسمها إلىٰ ميت .

(٣) نِفْيا : من القرى القديمة ، من كورة السمنودية قريبة من مدينة طنطا .

ومنهم :

(٣٤٤) الشيخ علي الكبنيراوي رضي الله عنه[١]

هو من أصحاب السطح ، وله كرامات كثيرة في بلاد اليمن وغيرها .

وكان يركبُ الوحوش ، وإذا قال لها : لا تأكلي الحيوانَ الفلاني ، فيبيتُ ذلك الحيوان عندها فلا تكسره ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٥) الشيخ محمد الصناديدي رضي الله عنه[٢]

شيخُ سيدي عماد الدين رضي الله عنه .

كان له كرامات كثيرة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٦) الشيخ عماد الدين رضي الله عنه[٣]

المدفون بالقرب من بركة الناصرية من مصر .

كان جمَّالاً تُكلِّمُه الجمالُ وغيرها من الحيوانات .

وله كراماتٌ كثيرة في حياته وبعد مماته .

دخل اللصوصُ في الدرب الذي هو فيه ، فسرقوا وأرادوا الخروج ، فلم يجدوا باباً يخرجون منه حتىٰ طلعَ عليهم النهارُ ، فمسكهم الوالي أجمعين بعملتهم ، رضي الله عنه .

---

(١) في (أ) : (الكبراوي) ، وفي (هـ ، ي) : (الكيزواني) .

(٢) في (هـ ، و ، ي) : (الصنافيري) .

(٣) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٤٨٣) ، و« جامع كرامات الأولياء » (ص ٢١٧) .

ومنهم :

(٣٤٧) الشيخ سعد التكروري المدفون بحوران رضي الله عنه(١)

كان له مكاشفات غريبة ، وهو من أصحاب السَّطح .

وكان صائم الدهر متورِّعاً ، لا يأكلُ من طعام أحدٍ من الولاة وحاشيتهم شيئاً .

وكان لا يضعُ جنبَهُ الأرضَ في صيفٍ ولا شتاء .

وكانت الحيواناتُ المتعاديةُ تجتمعُ عنده ، فلا يبغي بعضُها على بعضٍ ؛ كالقطِّ والفأر ، والثعلب والدجاج ، والذئب والغنم .

وكان مكانُهُ كلُّهُ حيَّاتٍ وعقاربَ ، لا يستطيع أحدٌ أن يجلسَ عنده ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٨) الشيخ محمد الزعفراني رضي الله عنه

بناحية طُرَا(٢)

كان وليّاً عظيماً ، وله كرامات كثيرة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٩) الشيخ نعمة رضي الله عنه(٣)

خفيرُ صفد .

كان من أصحاب السطح ، وكان اللصوصُ لا يقدرون يسرقون شيئاً من صفد ؛

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٣٢٢) ، ذكره ابن فضل الله العمري في المزارات في الجزء الأول من « مسالك الأبصار » ، وأنه مدفون بنوى بحوران .

(٢) طُرَا بضم أوله : قرية في شرقي النيل ، قريبة من الفسطاط من ناحية الصعيد . « معجم البلدان » .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (٣/ ٣١١) ، و« طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٦١٩) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٧٧) .

خوفاً من الشيخ ؛ فإما يُسمِّرَهم في الأرض حتىٰ يأتي الوالي فيمسكهم ، وإما يخرجُ من قبره ، فيطردُ اللصوص ، ويخلِّصُ متاع الناس منهم .

وكراماتُهُ مشهورةٌ بصفد ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٠) الشيخ عبد الله اليوناني المدفون ببعلبك رضي الله عنه[١]

كان من أصحاب السطح ، وله كراماتٌ وخوارق في بعلبك ونواحيها .

وكان يحرسُ البساتين وغيرها ، ويأكلُ من كسبه ، ولا يذوقُ من فاكهة البساتين شيئاً ، ويقول لبطنِهِ : يا بطنُ ؛ أمامك في الجنة ما هو أحسنُ من هٰذا ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥١) الشيخ عز الدين الموصلي رضي الله عنه

كان أصلُهُ نائباً في طرابلس ، فهاجر إلىٰ سيدي أحمد لما كان بالعراق فصحبه ، وخرجَ عن الدنيا .

وكان من أوائل أصحاب سيدي أحمد ، مات بالموصل ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٢) الشيخ أحمد بن علوان اليمني بناحية تعز رضي الله عنه[٢]

له كراماتٌ كثيرة .

وتنذرهُ المراكبُ إذا أشرفت على الغرق[٣] ، فيُخلِّصُها من الغرق إلى الآن .

---

(١) في (ج ، ي) : (النوناني) .

(٢) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢١٥) .

(٣) في (أ ، ز) : (وكانت المراكب إذا أشرفت. . .) بدل (وتنذره المراكب. . .) ، وفي (هـ ، و ، ي ، ك) : (تندهه المراكب) ، وتندهه : أي : تناديه .

وجاؤوا إليه بالفيل في الزاوية ، وطلبوا علفه ، فما وجدوا إلا قوتَ الفقراء من الأرز ، فأرادوا أخذه ، فمنعهم الشيخُ ، فأبوا ، فأشار إلى الفيل فغاصتْ قوائمُهُ في الجبل خارج الزاوية ، فعَظْمُهُ غائصٌ في الصخر إلى الآن ، يراه كلُّ من يمرُّ عليه .

وهو من أصحاب سيدي أحمد البدوي بمكَّة أوائل جذبه قبل خروجه إلىٰ بلاد العراق ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٣) الشيخ خوسج المصري رضي الله عنه[١]

المدفون بزَبيد من بلاد اليمن ، رضي الله عنه ، هو من أصحاب السطح .

وكان وَرَدَ علىٰ مصر ، فزار سيدي أحمد بطندتا وهو على السُّطوح ، فأشار عليه بالرجوع إلىٰ زَبيد ، وقال : أقمْ هناك تُذكِّرْ بنا من يزور ليلىٰ[٢] ، وما بقي بيننا اجتماع .

وكان له كراماتٌ ؛ منها : أنه كان يُطعمُ المئةَ من إناءٍ صغير .

ومنها : أنه كان يحملُ معه الركوةَ في البراري ، فيُخرجُ منها ما شاء من الماء ، أو العسل ، أو اللبن ، أو السمن ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٤) الشيخ محمد بطَّالة رضي الله عنه[٣]

بناحية فيشا المنارة[٤] ، كان من أصحاب السَّطح .

---

(١) في (ب ، ج ، د ، هـ ، ز ، ط ، ك) : (خوسح) ، والمثبت من (أ ، و ، ي) ، وانظر ترجمته في « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢٨٢)، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٦) (خولج) .

(٢) في « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢٨٢) (تذكر بنا من يريد زيارتنا) .

(٣) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٥٨١) .

(٤) فيشا المنارة : من القرى القديمة ، من أعمال المنوفية ، تميَّزت بمنارة مسجدها المرتفعة ، فسميت بها . « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ١٠٣) .

وسُمِّي بطَّالة ؛ لأنه كان يقولُ : (جميعُ عبادات هـٰذه الخلائق بطالةٌ بالنسبة إلى التحقيق) .

وكان رضي الله عنه من أشدِّ الناس ورعاً ، وكان يُكمِّمُ بهائمَهُ إذا سرحت الغيط .

وكانت شفاعاته مقبولةً عند الكشَّافِ ومشايخ العرب ، وغيرهم .

وكان كثيرَ العطب لمن يردُّ شفاعتَهُ ؛ إما أن يأتيه بحربةٍ من نار ، ويضيِّقُ عليه حتىٰ يمنعَهُ النومَ ، وإمَّا ببليَّةٍ تنزلُ علىٰ بهائمه وأولاده وبدنه من برصٍ أو جذام ، حتىٰ لا يتهنَّأَ بعد ذلك بعافيةٍ ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٥) الشيخ شعيب رضي الله عنه[1]

المدفون قريباً من باب البحر ، خارج السور ، كان من أصحاب السطح .

وله كراماتٌ كثيرة ؛ منها : أنَّ الظلمةَ بيَّتوا علىٰ قطعِ النخلةِ التي في زاويته ، فأتوها ليقطعوها ، فوجودها ملتويةً كالثعبان ، فرجعوا عنها ، وهي إلى الآن مكوَّعة .

وله نذور كثيرة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٦) الشيخ أحمد أبو طَرْطُور رضي الله عنه[2]

هو من أصحاب السطح .

وهو الذي كان سُلِبَ سيدي يوسف أبو إسماعيل الأنبابي بسببه .

وخدَّامُهُ يقال : إنَّهم لا بدَّ أن يَلُوا خلافةَ سيدي أحمد ، واسمهم : الطراطرة ، وهـٰذا شيخُهم .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٣٤٤) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٤١) .

(٢) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢١٣) .

وكان يملأ على البئر التي هي قريب من مقامه بنواحي أَوْسِيم بالجيزة[١]

وله كرامات كثيرة مع الحكام .

وكان يقول : (كلُّ فقيرٍ لا يقتلُ عددَ شعر رأسه من الظلمة فليس هو بفقير) .

وكان له طُرطورٌ من جلد[٢]

وأقام بالبرية إلىٰ أن مات في مقامه الذي هو فيه الآن ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٧) الشيخ أحمد الأباريقي رضي الله عنه[٣]

المدفون بروضة المقياس .

له كرامات عظيمة مشهورة في الروضة وغيرها .

وكان يُكلِّم الملائكةَ الكرام الكاتبين ، ويتحدَّثُ معهم في أحوال الملأ الأعلىٰ وطبقات مراتبهم .

وبتُّ أنا عنده ليلة[٤] ، فأتاني مَلَكٌ من قبره ، قال لي : اسمعْ مني هٰذا الكلامَ الجامع لكلِّ كلام ، فقلتُ له : نعم ، فقال : ليس لعبدٍ أن يشغلَ قلبَه بالاختيار لفعلِ شيءٍ أو تركه في المستقبل ، وإنما عليه أن يُعطي ما أبرزَهُ الحقُّ تعالىٰ علىٰ يديه من الأعمال حقه ، فإنْ كان طاعةً حمدنا عليها ، واستغفرنا من تقصيره فيها ، وإن كان معصيةً حمدنا علىٰ تقديرها عليه ؛ فإنه حكيمٌ عليم ، واستغفرنا من حيث ارتكابه ما يخالف أمرنا ، وإن كان غفلةً وسهواً فعل ما هو اللائق بمقامه ، وقد قرَّبنا لك طريقَ الأدب معنا في كلِّ ما نجريه علىٰ يديك ، والسلام .

---

(١) **أوسيم** : من المدن القديمة ، في الضفة الغربية من النيل ، دون الجيزة بثلاثة فراسخ . « قاموس رمزي » (٢/ ٣/ ٥٧) .

(٢) **الطُّرطور** : بضم الطاء : قلنسوة للأعراب طويلة الرأس .

(٣) انظر « العهود الصغرىٰ للشعراني » (العهد ١٤٠) ، و« تحفة الأحباب » (ص ١٥٥) ، و« طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢١٣) .

(٤) في غير (هـ ، ي ، ك) : (نمت) بدل (بتُّ) .

فما سررتُ عمري كلَّهُ مثلَ سروري بهـٰذا الخطاب ، ولم أرَ لذَّةً تُعادل سماعَ كلام ذلك الملك ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

ومنهم :

(٣٥٨) الشيخ بشير رضي الله عنه

المدفون بباب المعلىٰ بمكة المشرفة .

أرسله سيدي أحمد البدوي من طندتا إلىٰ باب المعلىٰ عند زاوية والده وعمِّه ، فأقام بها إلىٰ أن مات .

وقبره في باب المعلىٰ في الزاوية ظاهر يُزار .

ومنهم :

(٣٥٩) الشيخ بشير رضي الله عنه[1]

المدفون بدرب النيدي بمصر رضي الله عنه[2]

كان حبشيّاً ، وله مكاشفاتٌ وأحوال غريبة ، وشطحات وزعقات .

وامتحنته أهلُ حارته مرةً ، وذبحوا له حماراً في كشكٍ ، فلما رأى الطعامَ قال : الفقراء لا يأكلوا حميراً ، ثم قال : تَرْ تَرْ تَرْ ، فطارَ لحمُ الحمار من الزبادي ، ووقع على الأرض ، رضي الله عنه .

وقريباً منه سيدي بشير الشامي ، هو أحمديٌّ أيضاً .

فهـٰؤلاء الذين بلغنا أنهم من أصحاب السطح ، ما عدا الشيخَ عماد الدين المتقدِّم[3]

* * *

---

(١) انظر « الطبقات الصغرىٰ للمناوي » (ص ٢٣٧) .

(٢) في (أ) : (الشبري) بدل (النيدي) ، وفي (ط) : (السيدي) .

(٣) تقدم (٤/ ١٩) (٣٤٦) .

أصحاب سيدي أحمد البدوي من غير السطوحية

وأما غيرُ أصحاب السطح من الأحمدية فكثير :

كالفرغل بن أحمد[١] ، والبقلي .

وسيدي إبراهيم المتبولي ، والشيخ نور الدين الشوني ، والشيخ محمد المنير بناحية أبو تيج بالصعيد ، والصامت .

وسيدي علي المجذوب بناحية أسيوط ، وسيدي علي رعية ، وسيدي شعيب الوراق بالمحلة الكبرىٰ .

وبجامع الواسطي ببولاق جماعة ؛ وهم سيدي علي الوراق ، وسيدي علي العريان ، وسيدي علي المجذوب .

وكان صاحب الجامع الذي هو الواسطي يُنكر علىٰ سيدي أحمد أشدَّ الإنكار ، وكان من أكابر أهل العلم ، فسلبه سيدي أحمد ، فتاب وصار من جماعة سيدي أحمد .

وكالشيخ عنتر المدفون بالقربيين خارج باب زُويلة ، وسيدي علي الجيزي بباب القرافة .

وسيدي علي أبو الظهور في طريق أمام الليث ، وسيدي سيف بالميدان .

وكذلك سيدي علي باب الله ، الذي دُفن عنده الشيخ شهاب الدين الرَّمْلي رحمه الله .

وسيدي محمد التمَّار قريباً منه ، وسيدي محمد المغربل بغيط الحمزاوي بالأزبكية ، وسيدي سيف بناحية بيسوس علىٰ شاطئ النيل ، وسيدي غوشتي ببني عدي بالصعيد .

---

(١) في (هـ ، و ، ي) : (كالفرغل بن أحمد بناحية أبو تيج بالصعيد) .

وبالشام منهم : الدليواتي والحبيلاتي والغرابيلي[1]

فهـٰذا ما حضر الآن من جماعة سيدي أحمد المفرقين في البلاد .

وإنما استقصيتُ ذكر أصحاب سيدي أحمد دون غيره ؛ سعياً في مرضاة شيخي الشيخ محمد الشناوي ؛ فإنه عينُ أعيان أتباع سيدي أحمد البدوي ، حتىٰ سمعتُ سيدي أحمد وهو يُكلِّمه من ضريحه ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٦٠) الشيخُ الكبير داودُ الأعزب رضي الله عنه[2]

هو من أجلِّ أصحاب سيدي الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر المدفون بقَرَافة مصر ، رضي الله عنه .

كان رضي الله عنه كثير الكرامات والخوارق .

وذبحوا له مرةً كبشاً يُضيفونه به ، فأتاه شخصٌ وقال له : هـٰذا الكبشُ الذي ذبحوه لك كبشي ، سرقوه من غنمي ، فقال الشيخُ للكبش : قم لصاحبك بإذن الله تعالىٰ ، فقام الكبشُ من الطعام كاملَ الأعضاء ، وسلمه لصاحبه ، وقال : سامحِ الفقراءَ من أكلِ المرق ، فسامحهم ، رضي الله عنه .

وكان في بعض الأوقات ينزلُ البحر بثيابه ، فيمشي تحت الماء حتىٰ يصلَ إلىٰ ذلك البرِّ ، يزورُ بعضَ إخوانه فلا تبتل له ثياب .

وبيَّتوا علىٰ قطعِ السِّدرةِ التي تجاهه في ذلك البرِّ في مقام الشيخ أبي قصيبة ، فاستجارتْ بسيدي داود حين لم يُجِرْها الشيخُ أبو قصيبة ، فمالت يميناً وشمالاً ،

---

(١) في (و) : (الجبيلاتي) بدل (الحبيلاتي) ، وفي (ط) : (الجيلاني) ، والمثبت من باقي النسخ .

(٢) انظر « السلوك لمعرفة دول الملوك » (وفيات سنة ٦٦٨) ، و« الكواكب السيارة » (ص ١٨٦) ، و« تحفة الأحباب » (ص ٣٢) ، و« طبقات المناوي » (٢/ ٤٠٨) ، و« الخطط التوفيقية » (١/ ٨٥) (داود العزب) .

ومشتْ على البحر حتىٰ عدَّتْ ، فلما جاءتْ إلىٰ مقام سيدي داود طارتْ في الهواء ، حتىٰ نزلتْ في صحن المقام ، فهي فيه إلى الآن علىٰ وجه الأرض بلا عروق في الأرض ، وتحتها عمودٌ من رخام حاملاً لبعضها ، وورقُها أخضرُ لم ييبس .

وأخبرني الشيخ إبراهيم السندبصطي : أنه رأىٰ هلالَهُ يدورُ كما يدور حَجَرُ الطاحون إذا نزل ببلده نازلةٌ .

قال : (ورأيتُ الماءَ خرجَ من ضريحه مرةً حتىٰ عامتْ حصرُ الزاوية ، وخرج الناسُ منها) .

ووقع لي أنا مرةً : أنني كنتُ في دمياط ، فرَسَتِ المركبُ بنا تجاه سيدي داود والريحُ خامدٌ ، فقلتُ له : يا سيدي داود ، ما أعرفُ دخولي مصر أذانَ المغرب في هـٰذا اليوم إلا منك ، فأقلعنا ، فبينما نحن داخلون بولاق وإذا بالمؤذِّنِ يؤذِّنُ المغرب ؛ وذلك مع خمود الريح ، مع أنَّ المركبَ لا تصلُ من بلده إلىٰ بولاق إلا في يومٍ وليلة مع قوة الريح .

وأما كون أولاد فتيان النصرانيِّ وذريتهم يدخلون إلىٰ سيدي داود ، فلا يُمنعون ، فهو أنَّ فتيان النصرانيَّ كانتِ المعديّة مشتركةً بينه وبين المسلمين ، لكلٍّ واحدٍ يومٌ يأخذ غلَّته ، فجاء سيدي داود في يوم المسلمين ومعه نحو أربعين نفساً ، فقال النصرانيُّ للمسلمين : لا تأخذوا من الشيخ شيئاً . فلم يرضوا ، فقال للمسلمين : احسبوا عليَّ أجرةَ بكرة النهار إلىٰ آخره . فعدّوا بالشيخ ، فما وصلَ إلى البرِّ إلاّ وأميرٌ جاء من مصر إلىٰ زيارة الشيخ ، ومعه مئة دينار ، فقال : أعطها للنصراني . فأعطاها له ، فهـٰذا كان سببَ اعتقاد النصارىٰ المذكورين للشيخ إلى الآن .

ولما حضرتْ سيدي داود الوفاةُ طلب النقباء أن يحملوه إلى القَرَافة ليدفنوه عند شيخه أبي السعود ، فأبىٰ ودعا عليهم ، فشتَّتَ الله شملَهم من بلدِ الشيخ إلىٰ وقتنا هـٰذا ، وقال : هـٰؤلاء يُريدون أن يجعلوني كالقردِ يجبون عليَّ الدنيا ، رضي الله عنهم[1]

---

(١) في هامش (ي) : (ودفن ببلده تَفَهْنا علىٰ شاطئ بحر النيل ببلاد الغربية تجاه أبو قصيبة =

ومنهم :

(٣٦١) شيخُ سلسلة القوم بمصر سيدي يوسفُ العجمي الكوراني[(١)]

المدفون بالقَرَافة رضي الله عنه .

هو أولُ من أدخل سلسلةَ الصوفية بمصر ، وكان قبلَهُ لا يَسكنُ مصرَ إلا أربابُ الأحوال ، فهو أولُ السالكين بمصر رضي الله عنه بعد اندراس طريقِ القوم بها ، وكان طريقه الانقطاعَ .

وله التلامذةُ الكثيرة ، والكلامُ الدقيقُ في علم التوحيد .

كان رضي الله عنه من المتجرِّدين من أمر الدنيا ، لا يبيت علىٰ معلومٍ ، وعرضوا عليه الرزقَ والإقطاعات ، وإيقاف العقارات فأبىٰ .

وكان كلَّ يومٍ علىٰ فقير ، فيخرجُ ذلك الفقيرُ يطوفُ علىٰ أبواب البيوت والحوانيت ، فكلُّ شيءٍ أعطوه له من لقمةٍ أو بصلةٍ أو زبيبة يضعُهُ في الخرج الذي معه ، فكان يرجعُ كلَّ يومٍ بالحمارةِ محمَّلةً ، فيضعونه بينهم ، ويأكلون هم والشيخ ، قالوا : وكان يومُ الشيخ أقلَّ طعاماً من يوم الفقراء ، فسألوه عن ذلك ، فقال : أنتم بشريَّتُكم باقيةٌ ، فبينكم وبين الخلقِ مشاكلةٌ ، فيعطونكم ، وأنا ذهبتْ بشريَّتي ، فنفروا مني ، فلم يعطوني إلا القليل .

وكان صورةُ سؤال الشيخ وجماعته : أن يقفَ أحدُهم علىٰ باب الدار أو على الدكان ، ويقول : الله ، ويمدُّها حتىٰ يكادَ يسقطُ ، فيقول بعض الناس : هـٰذا العجميُّ نام من بلع الزية[(٢)]

= رضي الله عنهم ، آمين) وتَفِهْنا : هي إحدى القرى التابعة لمركز ميت غمر في محافظة الدقهلية في مصر .

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢١٠) (٣٢٠) ، وكُوران : من قرىٰ أسفرايين ، من نواحي نيسابور . « معجم البلدان » (٤/ ٤٨٩) .

(٢) كذا في النسخ ، وفي « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢١٢) : (راح في الزية) .

وكان في بعض الأوقات يُغلقُ باب الزاوية ، ويطوي هو والفقراء ذلك اليوم .

وكان الشيخُ يأمرُ البوّابَ ألا يفتحَ لأحدٍ من الزائرين إلا إن كان معه شيءٌ للفقراء من طعامٍ أو فلوس ، فإن لم يجدْ معه شيئاً لا يفتحُ له ، فقالوا له : الشيخ بحمد الله ماله رغبةٌ في الدنيا ، فما هـٰذا الحال ؟! فقال : أعزُّ ما عند أهلِ الدنيا دنياهم ، وأعزُّ ما عند الفقراء أوقاتُهم ؛ فإن بذلوا لنا أعزَّ ما عندهم بذلنا لهم أعزَّ ما عندنا ، وإلا فهي زياراتٌ فشارات .

قالوا : ولما وردَ عليه واردُ الحقِّ يأمرُهُ بالسفر من أرض العجم إلىٰ مصر لم يلتفتْ إليه ، فجاءَهُ الواردُ ثانياً ، فلم يلتفتْ إليه ، فجاءه ثالثاً ، فقال : لعله واردُ حقٍّ إن شاء الله تعالىٰ ، ثم قال : اللهم ، إنْ كان هو وارد حقٍّ ؛ فاقلب لي عين هـٰذا النهر لبناً حتىٰ أشربَ منه بقصعتي هـٰذه ، فانقلبَ النهر لبناً ، وشرب منه .

ثم شرعَ في السفر إلىٰ مصر ، فلما دخلها وجد سيدي حسن التُّستريَّ قد سبقه وجلس فيها ، وكان أقدمَ منه هجرةً في الطريق ، وكان يخرجُ من مصر يتلقّىٰ كلَّ قافلةٍ وردتْ ؛ لينظرَ هل فيها سيدي يوسفُ أم لا ؛ عملاً بالوفاء بحقِّ الأخوة ، وكان يعلمُ أنه لا بدَّ من قدوم سيدي يوسف إلىٰ مصر ، فلم يفتحْ بابَ أخذِ العهد علىٰ مُريدٍ حتىٰ يقدمَ سيدي يوسف ويشاوره في ذلك ، فما زال يتلقّى القوافل إلىٰ أن وردَ سيدي يوسفُ ، فأكرمه الشيخُ حسن إكراماً زائداً ، وقال : يا أخي ؛ الطريقُ إنما هي لواحد ، والباقي مساعد ؛ فإمّا أن تبرزَ أنتَ وأنا خادم ، وإما أن أبرزَ أنا وتكونَ خادمي مساعدةً من كلٍّ منّا لصاحبه ، فاستقرَّ الأمرُ علىٰ أن يكون سيدي يوسفُ هو الشيخ ، فشدَّ الشيخُ حسن وسطَهُ ، ووقف في خدمة سيدي يوسف إلىٰ أن تُوفي سيدي يوسف ، وذلك في يوم الأحد النصف من جُمادى الأولىٰ سنة ثمانٍ وستين وسبع مئة ، ودفن بزاويته بالقَرافة الصغرىٰ ، وكانت جنازتُهُ مشهودةً .

وله رسالةٌ عظيمة في آداب الطريق[1]

---

(١) واسمها : « ريحان القلوب في التوصل إلى المحبوب » ، وقد ذكر فيها شرائط التوبة ، ولبس الخرقة ، وتلقين الذكر . « كشف الظنون » (٢/ ٩٤٠) ، وفي دار الكتب المصرية نسختان منها .

وكان إذا خرجَ من الخلوة يخرجُ وعيناه كأنهما قطعةُ دم أو جمر متوقِّدٍ ، فكلُّ من وقعتْ عينُه عليه انقلبَ ذهباً خالصاً في الطريق ، فخرجَ يوماً فتلفَّتَ علىٰ أحدٍ ينظرُ إليه من الناس ، فلم يجد إلا كلباً ، فنظر إلى الكلب ، فانقادتْ جميعُ كلابِ مصر له ، وصاروا إنْ وقفَ وقفوا ، وإن سار ساروا ، فاشتَهر أمرُ هـٰؤلاء الكلاب حتىٰ صار العوام ينذرون لهم ذبحَ البقر والغنم ، فبلغ ذلك سيدي يوسف ، فأرسلَ خلفَ الكلبِ ، فأتىٰ والكلابُ حوله يميناً وشمالاً ، فلما وقع بصرُ الشيخ عليه قال له : اخسأْ ، فأكله الكلاب من وقته ، فكان الشيخُ يتأسَّفُ ويقول : لو وقعتْ تلك النظرةُ علىٰ إنسانٍ لصارَ قدوةً للناس في طريق الله عزَّ وجل .

وكان كلُّ من هربَ من مماليك السُّلطان حسن صاحب المدرسة بالرميلة يقيم عند الشيخ ، فلا يقدرُ السلطانُ أن يأخذَهُ إلا بإذن الشيخ ، فوشى الناس بينه وبين السلطان بالكلام ، حتىٰ أرسلَ السلطانُ يقول للشيخ : أنت تُتلفُ مماليك السلطان ، فقال : أنا ما أُتلفُ إن شاء الله ، وإنَّما أُصلح ، فنزل إليه السلطانُ يزوره في القَرَافة ، فأخرج ذلك المملوكَ من الخلوة ، وقال : تعالَ سلِّمْ علىٰ سيِّدك ، فخرج ، فرآه السلطان ، فكاد أن يخرجَ من المُلك لما رأىٰ علىٰ وجه ذلك المملوك من النور والأنس ، فقال الشيخ للمملوك : قلْ لهـٰذا الحَجَرِ يكون ذهباً ، فقال للحجر : كنْ ذهباً ، فكان ذهباً بإذن الله ، فقال : هـٰذا فساد وإلا صلاح ؟! فاستغفر السلطانُ ، وقبَّل يدَ الشيخ ، فأعطاه الشيخُ الحجرَ الذهب وقال : هـٰذا غداؤك . فوزنوه ، فجاءَ قنطاراً ونصفاً من الذهب .

فعرض السُّلطانُ على الشيخ أماكنَ يُوقفُها على الفقراء ، فقال له الشيخ : ما لك لا تفهم الأمر ؟! إذا كان تلامذتُنا يقولون للحَجَرِ : كن ذهباً فيصيرُ ذهباً ، فكيف نحتاجُ إلىٰ مثل ذلك ؟!

ومع ذلك كان طريقُهُ التجريدَ والسؤالَ كما مرَّ مع قدرته على التكوين المذكور .

ولما دخل مصرَ كان الشيخ يحيى الصنافيري صاحبُ مصر قبله ، فأرسل له سيدي يحيىٰ يقول له : أقمْ في مصر ، وليس لأحدٍ قدرةٌ علىٰ معارضتك ، ثم أنشده :

ألـمْ تعلـمْ بـأنِّـي صَيـرفـيٌّ　　أَحُـكُّ الأوليـاءَ علـىٰ مِحكِّـي

فمنهم بهرجٌ لا خيرَ فيه ومنهمْ مَنْ أجوِّزُهُ بشكٍّ[1]
وأنتَ الخالصُ الذَّهبُ المُصفَّىٰ بتزكيتي ومثلي مَنْ يُزكِّي

رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٦٢) الشيخ حسنُ الششتري رضي الله عنه[2]

المدفون بقنطرة الموسكي بمصر المحروسة ، هو خليفةُ سيدي يوسف العجمي في مصر وقراها ، قصدته الناسُ من سائر الآفاق .

وكان ذا سمتٍ بهيٍّ ، وكمالٍ في العلم والعمل ، وانتهتْ إليه الرئاسة في الطريق بمصر .

وكان السلطان شعبان بن السلطان حسن ينزلُ إلىٰ زيارته ، فلم تزلِ الحسدةُ من أرباب الدولة وغيرهم يرمون بينه وبين السلطان حتىٰ غيَّروا اعتقادَهُ في الشيخ ، وهمَّ بحبسه أو نفيه من مصر ، فأرسل الوزيرُ إلىٰ زاوية الشيخ ليسدَّ بابَها على الفقراء والشيخ ، فوجدوا الشيخَ هو والفقراء في المطرية أيام المشمش[3] ، فسدَّه ، فرجع الفقراءُ ، فوجدوا بابَ الزاوية مسدوداً ، فقال الشيخ : من سدَّ هـٰذا الباب ؟ فقالوا : سدَّهُ الوزير فلان بأمر السلطان ، فقال : ونحن نسدُّ طيقان بدنه ، فعمي الوزيرُ ، وطرشَ وخرس ، وانسدَّ أنفُهُ وقُبُلُه ودُبُرُه عن البول والغائط ، فمات الوزيرُ في الحال ، فبلغ ذلك السلطان ، وقالوا له : كانت هـٰذه المسألة لك ، فحملَها عنك الوزيرُ ، فنزل للشيخ واستغفر ، وتاب إلى الله تعالىٰ ، وفتح البابَ .

وكان عسكرُ السلطان كلُّهُ قد انقاد لسيدي حسن ، وخرجوا من طاعة السلطان إلىٰ طاعة الشيخ ، فهرب للسلطان مملوكٌ كان عزيزاً عنده ، فأرسل يقول للشيخ : أرسلِ

---

(١) في « طبقات المناوي » (٣/ ١٠٩) ، (أجوِّده) بدل (أجوزه) .

(٢) كذا في (أ) : (الششتري) ، وفي باقي النسخ : (التستري) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢١٣) (٣٢١) .

(٣) **المطرية** : من القرى القديمة ، تابعة لمديرية القليوبية . « قاموس رمزي » (٢/ ١/ ١١) .

المملوكَ إلىٰ طاعة أستاذه ، فقال له الشيخ : المملوكُ في طاعة ربِّ أستاذه ، فقال السلطان : هٰذا يُفسدُ عسكر السلطان ، فأرسل الشيخُ يقولُ للسلطان : تعالَ انظر ما أفسدناه ، فنزل السلطانُ إليه ، فأخرج له المملوكَ ، وقال له : دستور يبول بحضرتنا علىٰ هٰذه الحجارة الرصاص ، فبال المملوكُ عليها ، فانقلبتْ كلُّها ذهباً خالصاً ، فقال الشيخ للسلطان : هٰذا إفسادُنا ، فاستغفر السلطانُ وتاب إلى الله تعالىٰ ، وخرج للشيخ عن المملوك ، وأعطى الشيخُ للسلطان ذلك الذهب ، فقدَّروه بنحو خمس قناطير ، وقال : خذْ هٰذا حقُّ طريقك ، فلم يزلِ السلطانُ متأدِّباً مع الشيخ حتىٰ مات[1]

وأعطى السلطانُ مرةً فَصّاً يساوي عشرة آلاف دينار إلىٰ صائغ نصرانيٍّ يجعله له في خاتمه ، فطرقه ، فانكسرَ نصفين ، فخاف النصرانيُّ ، فهرب عند الشيخ ، وأخبره الخبرَ ، فقال : إن نجوتَ من عقوبة السلطان تُسلم ؟ فقال : نعم ، فتنازع سريَّتان من سراري السلطان في ذلك الفصِّ ، وقالت كلٌّ واحدةٍ منهما : هو لي ، فأصلحَ السُّلطانُ بينهما بأن يجعلَهُ نصفين بينهما ، فأرسل السُّلطان يقول للنصراني : اجعله في خاتمين ، فأسلمَ النصراني ، ومكث يخدمُ الشيخ إلىٰ أن ماتَ ، ودُفن تحت رجليه .

ومما وقعَ له من الكرامات بعد موته : أنَّ ابن أبي الفرج صاحبَ المدرسة بالقرب من قنطرة الأمير حسين أرادَ أن يأخذَ زاوية الشيخ ، يجعلها جنينةً يُوسِّع بها جنينته ، وقال للخادم : ننقلُ الشيخَ إلىٰ مكانٍ أحسنَ مما هو فيه ، فجاء الشيخُ إلى الخادم في نومه ، وقال له : قل لابن أبي الفرج : لا تَنقلنا ننقلك ، فأخبر الخادمُ بذلك ابنَ أبي الفرج ، فقال : هٰذا أضغاثُ أحلام ، وأرسل غلمانَهُ يَحفروا قبرَ الشيخ ، فحصل له في جنبه طاعون ، فصار يصيحُ حتىٰ طلعتْ روحُهُ ، وتأمَّلْ مدرستَهُ تجدْها ناقصةَ القمريات[2] ، وكذلك الربعُ الذي رواشنُهُ خارجة ، مات ولم يكمله .

مات الشيخ حسن رضي الله عنه سنة سبعٍ وتسعين وسبع مئة ، ودفن بزاويته بقنطرة الموسكي ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدم شبيه هٰذه القصة في ترجمة يوسف العجمي الكوراني السابقة لهٰذه الترجمة (٤/ ٣٢) .

(٢) في (هـ ، و ، ي) : (العمران) بدل (القمريات) ، والقمريات : الشبابيك .

ومنهم :

(٣٦٣) الشيخ حسين الأَدمي رضي الله عنه[١]

تلميذُ الشيخ حسن التُّستري ، وأحدُ مشايخ سيدي أحمد الزاهد رضي الله عنه .

كان مغربياً ، فأقام بمصر بناحية الحسينية يخيط النعال .

وكان يقول للمطر : انزلْ بإذن الله ينزل ، وارتفعْ بإذن الله يرتفع .

قال سيدي أحمد الزاهد : (وكان للشيخ حسن غنمٌ في مصر يرعاها كلَّ يومٍ في رزقته بمُرَّاكش بأرض المغرب ـ سفر ستةَ أشهرٍ إلىٰ مصر ـ ثم يروحها إلىٰ مصر) .

قال : وكنتُ جالساً عند الشيخ يوماً ، فجاءه نصرانيٌّ ، فقال له : اقطع لي هٰذه الجلدةَ الذي تشوِّش عليَّ في النعل ، ومدَّ رجله في وجه الشيخ ، فزجرتُ النصرانيَّ عن مدِّ رجله ، فقال لي الشيخ : مهلاً يا ولدي ، انظرْ ما يحصلُ له ، ثم أخذ الشفرة وكشطَها ، فصاح النصرانيُّ بأعلىٰ صوته : أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله ، ثم قال لي : يا أحمد ؛ إذا صرتَ شيخاً افعلْ كذا .

وكان يقول : (إن لم يكن الفقيرُ علىٰ مراسم الشريعة فلا تُقيموا له وزناً ، وارفضوه ولو أتاكم بكلِّ كرامةٍ ؛ فإن ذلك من باب الاستدراج ، كما يقعُ مثلُ ذلك علىٰ يد الدجال ، فقيِّدوا حركاتكم وسكناتكم كلَّها بالشريعة تفلحوا) .

مات سنة إحدىٰ عشرة وثمان مئة .

ومنهم :

(٣٦٤) الشيخ أحمد الزاهد رضي الله عنه[٢]

المدفون في جامعه في المقسم رضي الله عنه[٣]

كان رضي الله عنه عالماً زاهداً ، طريقُهُ التقشُّفُ والخمول ، لا يكاد أحد يعرفُ له

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٤٦) (٣٢٣) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٤٧) (٣٢٤) .

(٣) في (ب ، ج ، د ، هـ) : (المقس) بدل (المقسم) .

مقاماً ، ثم إنه اشتَهر لما أخذ عنه سيدي محمد الغَمْري ، وسيدي مَدْين .

وانتهت إليه الرئاسةُ في تربية المريدين بمصرَ بعد سيدي حسن التُّستري .

وكانوا يقولون : إنه جُنيدُ عصره ؛ لتحرير طريقه بالكتاب والسنة ، لا يكادُ ينطقُ بكلمةٍ واحدة فيها رائحةُ شطحٍ .

وكان يقول : (مكثتُ نحو ثلاثين سنة أرىٰ نفسي في ألواحِ السماء من الأشقياء ، فلم أتغيَّرْ لذلك ، حتىٰ منَّ اللهُ عليَّ بمحو اسمي من ديوان الأشقياء) .

وكان رضي الله عنه يعظُ النساءَ في المساجد ، ويعلمُهنَّ أمورَ دينهن ، ويقول : (إن غالبَ العلماء قد غفلوا عن تعليمهنَّ ، وإنما يُعلِّمون الذكور فقط) .

وعندي نحو خمسين كرَّاساً بخطِّه رضي الله عنه ، غالبُها فيما يتعلَّقُ بأمور الصلاة ، والطهارة ، والصيام ، والصدقة ، وحقوق الزوجين ، وغير ذلك من الفضائل الشرعية .

وقيل له مرَّةً : ما كان بدوُّ أمرك ؟ فقال : بينما أنا ذاهبٌ إلى الفقيه في المكتب ، وإذا برجلٍ من أولياء الله تعالىٰ تعرَّض لي في الطريق ، أشعث أغبر ، فطلب مني غدائي ، فأعطيتُه له ، وعزمتُ على الجوع ذلك النهار ، فقال لي : يا أحمد ؛ سوف تصيرُ قدوةً في مصر ، وتَبني لك جامعاً بخطِّ المقسم ، وتُلقَّبُ بالزاهد ، ويُعارضُك في عمارته جماعةٌ ، ويخذلهم الله تعالىٰ ، وتصيرُ المُشارَ إليه في مصر ، وتُربِّي بها المريدين ، ثم فارقني ، فلم أره إلىٰ وقتي هـٰذا ، ووقع بحمد الله جميعُ ما قاله .

ومن جملةٍ من عارضه في بنائه الحافظُ ابنُ حَجَر ؛ لقصَّةٍ يطول شرحها .

وأما جمال الدين صاحبُ المدرسة الجمالية قريباً من الركن المخلق فأرسلَ أخذ الفعلاء والترَّابين لمدرسته ، وقال : كما أنه يُعمِّرُ مسجداً كذلك نحن نُعمِّرُ مسجداً ، فأرسلَ له النقيبُ ، وقال : الناسُ عليك كثيرٌ لكثرةِ مالك ، بخلاف الفقراء ، فلم يرضَ ، فقال سيدي أحمد : اللهم ؛ عوِّقْهُ حتىٰ نفرغَ نعمر الجامع ، فأرسل السلطانُ خلفه ذلك اليوم ، ونقمَ عليه ، وأدخله الحبسَ مدَّةَ تسع شهور ، حتىٰ فرغ سيدي أحمد من عمارة الجامع ، فأطلقه السلطانُ في ذلك اليوم .

وأنكر شيخُ الإسلام سراجُ الدين البُلقيني عليه مرَّةً ، وقال : إنه يلحنُ في الحديث ، ومنعه من الجلوس علىٰ كرسي الوعظ ، فبلغه ، فدخل سيدي أحمد جامعَ الأزهر ، وجلس علىٰ كرسيٍّ في صحن الجامع ، وعيناه كالجمر الأحمر ، وقال : من يسألني عن كلِّ علمٍ نزلَ من السماء أجبه ، فاجتمع عليه خلائقُ ، ثم إنه راقَ ، فقال : من أجلسني ها هنا ؟ فقالوا له القصة ، فقال : لمَّا قلتُ : (من يسألني) هل سألني أحدٌ ؟ فقالوا له : لا ، فقال : الحمدُ لله الذي لم يخرجْ أحدٌ ، لو خرج لنا أحدٌ لاختُطف ، ثم خرجَ من الجامع ، فبلغ ذلك البُلقيني ، فجاءه واستغفرَ .

وقالوا له مرةً : لمَ اشتهرت بالزاهد مع أنَّ جميعَ الأولياء زهَّادٌ بلا شكٍّ ، ولم يشتهروا بذلك ! فقال : دخل عليَّ مغربيٌّ يعرف الكيمياء ، فقال لي : يا أحمد ؛ حولك هـٰؤلاء الفقراء ، وما معك شيءٌ ، وأخافُ عليك أن تنظر لما في أيدي الخلائق ، فقلتُ له : فما العمل ؟ فقال : أعلِّمُكَ صنعةَ الكيمياء ؟ فقلت له : علِّمني ، فاشتريتُ بعضَ حوائج ، وأوقدتُ عليها النار ، فطلعتْ ذهباً خالصاً ، وذلك في الليل ، فأمرتُ النقيبَ أن يَرميها في [سرداب] الخلاء[1] ، وأمرتُهُ ألا يتكلَّمَ بذلك ، فأصبحَ الناسُ يقولون لي : الزاهد ، فعلمتُ أن ذلك أمرٌ من الله تعالىٰ .

وأخبرني الشيخ محمد الحريفيش الدنوشري : أنه سمعَ هـٰذه الحكاية أيضاً من سيدي محمد الغمريِّ

وكان يقول : (ما دخلَ أحدٌ إلىٰ هـٰذا المسجد الذي عمرتُهُ ، وصلَّىٰ فيه ركعتين ، إلا أخذتُ بيده يومَ القيامة) .

وكان إذا سأله أحدٌ حاجةً عند من لا يعرفه من الأمراء وأركان الدولة يقول له : إنْ أردتَ قضاءَ حاجتك يا ولدي فخذْ لك أحداً من وجوه الناس ، واسبقني إلىٰ بيت الأمير ، فقل : سيدي؛ الشيخُ جاءكم، فإذا قالوا : مَنْ هو الشيخ ؟ فقل : سيدي أحمد الزاهد ، هـٰذا رجلٌ عظيمٌ من أهل الصلاح والعلم والدين ، فإذا رأيتني قد جئتُ ، فقم وامش إليَّ ، وقبِّلْ يدي ، والناسُ ينظرون ، فإذا رأى الأميرُ وجماعتُه ذلك عظَّموني ،

---

(١) في النسخ : (سراب) بدل (سرداب) ، والمثبت من « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٥١) .

وقضوا حاجتك ، بخلافِ ما إذا دخلتُ للأمير وأنا مجهولُ الحال ، فإذا قال لي : من أنت ؟ فلا يسعني أن أزكِّي نفسي ، ولو أنَّني زكَّيتُ نفسي لسخروا بي ، والأعمالُ بالنيات .

وكان رضي الله عنه إذا أراد أن يتكلَّمَ بشيءٍ من علوم الكشف الذي كُشف له يقول : كُشف لبعضهم كذا ، ولا يضيفُهُ لنفسه ستراً لنفسه .

وأخبرني الشيخ أمينُ الدين الإمامُ بجامع الغمري : أنَّ سيدي أحمد كان كلَّ قليلٍ يخلِّي ولده سيدي أحمد ، فلا يُفتح عليه بشيءٍ من أحوال القوم ، فيقول : يا ولدي ؛ الأمرُ بالقسمة الأزلية ، ولو كان الأمرُ بيدي ما قدَّمتُ أحداً عليك يا ولدي ، فمات الشيخُ وولده يسوق الثور في ساقية ميضأة الجامع ، ويضفر الخوص وهو والد سيدي أبي العباس الموجود الآن في سنة سبع وعشرين وتسع مئة .

وأخلى الشيخُ مرَّةً مُريداً ، فرأىٰ نفسه من أهل النار ، فتكَدَّرَ ، وخرج من الخلوة ، فقال له الشيخ : يا ولدي ؛ العبدُ عبدٌ ، ولقد وقع لي : أنني رأيتُ نفسي من أهل النار كذا كذا سنة ، فما تغيَّرْتُ ، ولا سألتُ الله في التغيير ، فتقلق أنت من رؤيتك ذلك ساعةً واحدة ؟!

وكان إذا طلبَ أحدٌ منه أن يأخذَ عليه العهد لا يُجيبُهُ إلا بعد سنةٍ وأكثر ، ويقول : (الطريق عزيزةٌ ، وأخاف أن أُدخلَهُ في العهد من غير صدقٍ فيمقته اللهُ عز وجل إذا خان العهد) .

ولما جاءه سيدي محمد الغَمْري يطلبُ الطريقَ وجدَ بابَ الجامع مُغلقاً بعد العشاء ، فقال : افتحوا لنا باب الجامع ، فقال له الشيخ : لا نفتح لأحدٍ ، فقال : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ [الجن : ١٨] ، فقال الشيخ : هـٰذا نَفَسُ فقيه ، افتحوا له ، ففُتح ، فقال له : ما تطلب ؟ قال : أَطلبُ الطريق إلى الله تعالىٰ ، فقال : ما أنت أهلاً لها ، فقال : ببركتكم أكونُ أهلاً لها ، فلقَّنَهُ الشيخُ الذكرَ ، وجعله خادماً للميضأة ، ثم نقلَهُ إلى البوَّابة ، ثم نقله إلى النقابة ، ثم نقله إلى الوقادة ، فمكث في الوقادة عشر سنين ، فنام يوماً عن إيقادِ القناديل الفجرَ ، فخرج الشيخُ ، فقال : أيقظوا محمداً ، فأيقظوه وهو مذعور ، فحوَّق بيده علىٰ قناديل الجامع كلِّها ، فاشتعلت .

فقال له الشيخ : اذهبْ إلىٰ ناحية بِلْبِيس ، فأقم بها ، وما بقي لك عندنا إقامةٌ ، فسافر إلىٰ بِلْبِيس ، فلم يستقم له فيها أمرٌ ، فقال له : امضِ إلى المحلَّة الكبرىٰ ، فذهب إليها ، فلم يستقرَّ له فيها قدمٌ ، فخرج إلىٰ محلَّةِ أبي الهيثم ، فأقام بها تسعَ شهور ، فأرسل الشيخ له سيدي مَدْين ، وقال له : وَطِّن أخاك في المحلة الكبرىٰ ، ولا ترجعْ حتىٰ تأمنَ عليه .

فدخل به المحلة ، فمنعه أولادُ الشيخ الطريني أن يقيمَ داخل المحلة ، فسكن في مدرسة اسمها الشمسية قريباً من المشاهد ، وهي المُسمَّاة الآن بجامع السدِّ ، فصارتِ اللصوص تضربُ أسواق المحلَّة ، فكلَّما دخلوا وجدوا سيدي محمد وجماعته يعارضونهم ، فاجتمع رأيُ اللصوص ليلةً علىٰ أنَّهم يقتلوا الشيخَ وجماعته ، فلما وصلوا إلى الزاوية أرادوا كسرَ باب الزاوية ، فقال الشيخ : لا أحد يخرجُ لهم غيري ، فخرجَ لهم الشيخ ، فأوَّلُ ما وقع بصرُهم عليه تابوا كلُّهم ، وأرموا سلاحهم ، وأقاموا عنده ، وصاروا يكسرون جرارَ الخمر إذا مرَّت عليهم

وقوي شأن الشيخ بالمحلَّةِ ، فاجتمع به أولادُ الشيخ الطريني ، وطابوا هم وإياه ، وعملوا له مولداً ، واصرفوا عليه من مالهم

ثم رجع سيدي مَدْين إلى الشيخ بمصر ، وأخبره الخبر ، ففرح بذلك ، ودعا لسيدي مَدْين بأن يكونَ طريقهُ كلُّها تتفرَّع منه في مصر وقُراها ، وقد استجابَ الله تعالىٰ دعاءه ، فجميعُ أشياخ مصر الآن من فرع سيدي مَدْين ، ومن كان من غيرِ طريقه إنَّما هو كالضيفِ الراحل .

وكان من شأن سيدي أحمد ألا يدخلَ بيته إلا يوم الجمعة بعد الصلاة ، وبقيةُ الجمعة إنَّما هو في خلوته في الجامع ، فكان يُصلِّي الجمعةَ ، ويدخل البيتَ ، فيمكث عندهم إلى العصر ، فدخل يوماً بعد صلاة الجمعة ، فوجد الأولادَ في فرحٍ وسرور ، وبين يديهم لحمٌ كثير وملوخية ، فقال لهم : من أين لكم هـٰذا ؟! فقالوا له : أرسله لنا شخصٌ اسمه عبد الرحمـٰن بن بَكْتَمُر ، فقال الشيخ : اللهم ؛ اجعلْه من إخواننا ، فجاءه بعد المغرب ، وتلقن عليه الذكرَ ، وأخلاه الشيخُ ، وحصلَ له كرامات عظيمة بعد المجاهدات ، فمكث سنةً في خلوته لا يضع جنبه إلى الأرض ، وكان له حبلٌ في

السقف ، يضعُهُ في عنقه إذا دخل الليل حتىٰ لا ينام علىٰ جنبه بالأرض ، ورأيت أنا الحبل الذي كان في سقف خلوته بعيني .

وآخىٰ سيدي أحمد بينه وبين سيدي مَدْين وسيدي محمد الغَمْري ، وكان هـٰؤلاء الثلاثة أجلَّ جماعته بمصر .

فأما سيدي مدين وسيدي عبد الرحمـٰن : فعمَّر كلٌّ واحد منهما له زاويةً بالقرب من جامع سيدي أحمد .

وأما سيدي محمد الغمري : فعمَّر جامعَهُ بخطِّ سوق أمير الجيوش بعيداً عنه ، وكان ذلك قبل أن ينتقلَ إلى المحلَّة الكبرىٰ بالكلية ، ولمَّا أراد أن يعمر جامعَهُ بعد موت شيخه استأذنَ في ذلك شخصاً من أولياء الله تعالىٰ كان يبيع لبن المعزىٰ ، وقال له : شاورْ لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمارة هـٰذا الجامع ، فقال له : قف انتظرني بكرة النهار عند عتبة باب النصر . فانتظره في الوقت المذكور ، فقال له : يقول لك : عمِّرْ وتوكَّل على الله .

قلت : ولعل سيدي محمد إنما شاور النبيَّ بالواسطة حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كان إذ ذاك لم يبلغ إلىٰ مقام الأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا واسطة ، والله أعلم .

ومرض سيدي أحمد مرةً حتىٰ أشرفَ على الموت ، فقال الناس : يا ترىٰ مَنْ هو الخليفة بعد الشيخ من أصحابه ؟ فبلغ ذلك سيدي أحمد ، فأرسل خلفَ سيدي محمد الغَمْري ، وخلف سيدي مدين ، وخلف سيدي عبد الرحمـٰن ، وقال : أريدُ أن أُبيِّنَ لكم ما يؤول إليه أمرُكم : أما أنت يا محمد فخيرُكَ لذرِّيتِكَ ليس لأصحابك منه شيءٌ ؛ يعني به الطريق إلى الله تعالىٰ ، وقال لسيِّدي مدين : خيرُكَ لأصحابك ليس لذرِّيتِكَ منه شيءٌ ، وقال لسيدي عبد الرحمـٰن : خيرُكَ لنفسك ، ليس لأصحابك ولا لذريتك منه شيء ، فكان الأمرُ كما قال ، فلم يزلْ في ذرِّية سيدي محمد الخيرُ والصلاحُ ، وطلبُ العلم والقرآنُ وتعليمُهما .

وتفرَّعتْ الطريقُ كلُّها من سيدي مَدْين لابن أخته سيدي محمد شيخ السروي والمرصفي والحسني ، وغيرهم ، وليس من أولاده أحدٌ تصدَّرَ للطريق ، وإن كان فيهم البركةُ .

وأما أولاد سيدي عبد الرحمـٰن فطلعوا كلُّهم صنايعية .

وكان يقول : (كلُّ الناس جاؤونا ونورُهم مطفي إلا مدين ، فإنه جاءنا ومصباحُهُ موقودٌ ، فقوَّيناه له) .

وكان قد اشتغلَ بالعلم زماناً ، وجاهد نفسَهُ في العمل ، فكان فتحه من ثلاثة أيام كما أخبرني بذلك صاحبُهُ الشيخُ عبد الرحمـٰن المغربي رضي الله عنه .

وأخبرني أيضاً : أنَّ سيدي محمد الغمري سافرَ مرَّةً إلىٰ دمياط ، واشترىٰ لسيدي أحمد علبةَ حلاوة شامية ، فلما أقلعتِ المركبُ إلىٰ مصر ضربها الهواءُ ، فألقاها في البحر ، فغرقتْ ، فلما وصل إلىٰ سيدي أحمد قال له . أين هديتُك ؟ فقال : وقعت في البحر ، وأخبره الخبر ، فقال الشيخُ للنقيب : ادخل به الخلوةَ غدِّيه ، فدخل به ، فإذا بالعلبة الحلاوة على الرفِّ ، وهي تقطرُ ماءً ، فعرفها ، فقال له الشيخ : يا محمد ؛ ما كان على اسمنا لا يضيعُ في الدنيا ولا في الآخرة ، وقد وصلت هديتُكَ .

وكان يخلي كلَّ قليلٍ ولده أحمد ، فلا يُفتح له بشيءٍ ، فيقول : يا مَنْ يُربِّي لنا ولدنا ، ونربِّي له ولده ، ثم يقول لولده : يا أحمد ؛ الطريقُ إنما هي مواهب حقيقة ، ولو كانت بيدي ما قدَّمنا عليك أحداً ، ثم يقول : تمنىٰ بعضُ الأقطاب أن تكونَ القطبية لولده ، فقيل له : ذاك في الإرث الظاهر .

وكان سيدي أحمد يخرجُ كلَّ يومٍ علىٰ باب جامعه في الأسحار يطلب الدعاءَ ممن دخل من نواحي قليوب الذين يحملون اللبن والجبن ، ويقول : إن هـٰؤلاء مرَّ عليهم نسيمُ الأسحار .

وجاءه مرة تاجرٌ بولده ليدعو له ، فقال : اللهم ؛ لا تجعلْ لهـٰذا الولد في هـٰذه الدار كلمة ولا حرمة ، فقال التاجر : لأيِّ شيءٍ يا سيدي ؟! فقال : ليستريحَ من نكد الدنيا ؛ فإن النكدَ تابعٌ للاسم والشهرة .

وكان إذا هجر فقيراً تأديباً يأمرُهُ بالإقامة في ميضأة الجامع ، فيمكث السنةَ وأكثر حتىٰ يطيبَ عليه الشيخ .

وكان يقولُ للفقيه إذا أراد الطريقَ : (لا تجيء حتىٰ تتضلَّعَ من علوم الشريعة ؛ فإن

النفسَ لا تحتمل الاشتغال بطريقين معاً ، فمن دخلَ الطريقَ من غيرِ تضلُّعٍ من الشريعة جذبه التعليمُ عن العمل ، بخلاف ما إذا كمل في العلم وما بقي عليه إلا العمل ؛ فإنه يفلحُ في الطريق) .

قال : (وقد عجز الأشياخ الذين مضوا أن يُسلِّكوا الطريقَ بطالب علمٍ وهو مشتغلٌ به ، فلم يقدروا) .

ومناقبُهُ كثيرةٌ مشهورة في حياته وبعد مماته .

مات رضي الله عنه في سنة عشرين وثمان مئة ، ودفن بجامعه بخطِّ باب المقسم ، وقبرُهُ به ظاهرٌ يُزار ، وعليه الجلالة والمهابة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٦٥) سيدي محمد الحنفي الشاذلي رضي الله عنه[1]

كان من صدور المقرَّبين ، أصحاب الكرامات الظاهرة ، والمقامات الفاخرة ، والسرائر الطاهرة ، والأحوال الباهرة ، والعلوم الزاهرة ، والأنفاس الصادقة ، والهمم العالية ، والرُّتب السنية ، والمناظر البهية ، والإشارات النورانية ، والنفحات القدسية ، والنفحات الروحانية والعلوم اللدنية ، والأسرار الملكوتية ، والمحاضرات الربانية .

انتهت إليه الرئاسةُ في تربية المريدين في مصر وسائر أقطار الأرض ، وخضع له الملوكُ فمن دونهم ، وما سمعنا بوليٍّ قطُّ خضعت له الملوك ، وحصل له من طاعتهم مثل ما حصل لسيدي محمد الحنفي رضي الله عنه .

وقد طالعت مناقبَهُ كلَّها ، فانبهر عقلي منها ، وهي في مجلَّدين[2] ، ولم أطَّلعُ قطُّ علىٰ أحدٍ من الأولياء مناقبُهُ في مجلدين غيره ؛ ولذلك قال شيخ الإسلام العيني في

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٦) (٣٢٩) .

(٢) وهي للشيخ نور الدين علي بن عمر البتنوني كما في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٧) ، واسم كتابه « السرُّ الصفي في مناقب السلطان الحنفي » .

« تاريخه » : (لم نجدْ أحداً من الأولياء أكثرَ كراماتٍ من سيدي محمد الحنفي رضي الله عنه) .

توفي رضي الله عنه سنة سبعٍ وأربعين وثمان مئة ، ودفن بزاويته بسويقة السباعين ، وعلىٰ قبره من الجلالةِ والمهابة ما هو أهلُهُ .

وكان ظريفاً جميلاً في بدنه وثيابه ، وكان جمالي المقام .

وكان الشيخ أبو العباس السِّرْسِي يقول : (إذا جئتُ سيدي محمد الحنفي أستأذنُهُ من عتبة الخلوة ، فإنْ قال ادخلْ ، وإلا رجعتُ ، فدخلتُ يوماً بلا استئذان سهواً ، فوجدتُ في خلوته أسداً عظيماً ، فغُشي عليَّ ، فلما أفقتُ خرجت واستغفرت الله تعالىٰ من دخولي عليه بلا إذنٍ) .

قال الشيخ أبو العباس السِّرْسِي : وكان بدوُّ أمرِ الشيخ محمد الحنفي : أنَّه حفظَ القرآن في المكتب ، وكان رفيقُهُ في الكُتَّاب الحافظَ ابنَ حَجَر ، ثم جلس يبيعُ الكتب في سوق الكتبيين ، فمرَّ عليه بعضُ رجال أهل الله عز وجل ، فقال : يا محمد ؛ ما للدنيا خُلقتَ ، فنزلَ من الدكان ، وتركَ جميعَ ما فيه للناس ، فلم يأخذْ شيئاً منه .

ثم حُبِّبت إليه الخلوةَ ، فاختلىٰ سبع سنين لم يخرج إلا للجمعة والجماعة ، وكانت خلوتُهُ تحت الأرض ، وهي التي دُفِنَ فيها ، وكان دخولُهُ لها وهو ابن أربع عشرة سنة .

فلما خرجَ وجدَ الناس بعمائم بيضاء وزرقاء وصفراء علىٰ صورة ما في قلوبهم ، ورأىٰ مَنْ صورتُهُ صورةُ قردٍ ، ومَنْ صورته صورة خنزير ، وكلب ، وثعلب ، وغير ذلك ، فقال في نفسه : إنَّك قد أطلعَكَ اللهُ عز وجل علىٰ عواقبِ الأمور ؛ وذلك من صفاته تعالىٰ ، لا ينبغي لي أن أقيمَ فيها ، فسأل الله تعالىٰ ، فحُجب ذلك عنه .

قال : ولم يخرجِ الشيخُ من الخلوة حتىٰ سمعَ قائلاً يقول له ثلاث مرات : يا محمد ؛ اخرجْ وانفعِ الناسَ ، وإن لم تخرجْ سلبناكَ المقام ، فقال : ما بعد سلبِ المقام إلا القطيعة .

وكان في خلوته توتةٌ ، فقال لها يوماً : يا توتة ؛ حدِّثيني حدوثة ، فنطقتْ بصوتٍ جهوري وقالت : نعم ، إنهم لمَّا زرعوني سقوني ، فلمَّا سقوني أسست ، فلما أسست

فرَّعت ، فلما فرَّعتُ أورقت ، فلما أورقتُ أثمرت ، فلما أثمرتُ أطعمت ، قال الشيخ : فكان في كلامِ التوتة سلوكي .

قال الشيخ حسن الخباز الشاذلي : (وقد بلغنا : أنَّ سيدي الشيخ أبا الحسن الشاذلي نوَّه بذكر سيدي محمد الحنفي ، وقال : سيظهرُ بمصر رجلٌ يقال له : محمد الحنفي ، يكون فاتحاً لبيتنا ، ويكون له شهرةٌ عظيمة ، حتىٰ يقول الناسُ في الأمر الذي يخالفون فيه : لا بدَّ لنا من فعله ، ولو اغتاظ الحنفي) .

قال : (ومن علامته : أن يكونَ علىٰ خدِّه الأيمن خالٌ ، ووجهه أبيضُ مشربٌ بحمرة ، وفي عينيه حَوَرٌ ، ويُربِّىٰ يتيماً فقيراً) .

وكان يقول : (الحنفي خامسُ خليفةٍ لنا) .

وصدق الشيخُ أبو الحسن ؛ فإن سيدي [محمداً][1] أخذَ الطريق عن الشيخ ناصر الدين ابن المَيْلق ، عن جدِّه الشيخ شهاب الدين بن المَيْلق ، عن الشيخ ياقوت العرشي ، عن الشيخ أبي العباس المرسي ، عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي .

وكان سيدي محمد إذا رأىٰ من أحدٍ من أصحابه رئاسةً وشهامة يأمرُهُ أن يخرجَ يسأل الناس في الأسواق والحوانيت وغير ذلك ، حتىٰ تنكسرَ نفسُه ، ويقول : (رحمَ اللهُ من ساعدَ شيخَهُ علىٰ نفسه) .

وكان يقول : (ظفرتُ في عمري بصاحبَيْنِ ونصفِ صاحب ؛ فأما الصاحبان فهما الشيخ أبو العباس السِّرْسي ، والشيخ شمس الدين بن كتيلة المحلي ، أما الأول : فإنه أنفق جميع ماله عليَّ ، وكان نحو ثلاثين ألف دينار ، وأما الثاني : فإنه تمسك بطريقتي واتبع سنتي ، وأما نصفُ الصاحب فهو صهري سيدي عمر) .

وفي رواية : (ظفرت بصاحب ونصف صاحب وربع صاحب ؛ فالأول أبو العباس السرسي ، والثاني ابن كتيلة ، والثالث سيدي عمر) .

قال الشيخ أبو العباس : قال لي سيدي محمد يوماً : أما ترضىٰ يا أبا العباس أن تكونَ بدايتي نهايَتَكَ ؟ فقلت له : رضيتُ .

---

(١) في النسخ : (محمد) .

وكان يقول : (من أدبِ الفقير إذا دُعيَ إلىٰ وليمةٍ ـ وكان هناك وليٌّ كبير ـ ألا يدخلَ بيتَ الوليمة إلا بعد استئذانه ، فإن أذنَ له دخل ، وإلا رجعَ مُنشرحاً) .

فدُعي يوماً إلىٰ وليمةٍ ، وكان هناك سيدي علي بنُ وفا وجماعتُهُ ، فاستأذن ، فأذن له سيدي علي ، فدخل ، فقام له سيدي علي ، وأجلسَهُ إلىٰ جانبه ، فدار الكلام بينهما ، فقال سيدي علي : ما تقولُ في رجلٍ رحاةُ الكون بيده ، يدوِّرها كيف شاء ؟ فقال له سيدي محمد : فما تقولون فيمن يضع يده عليها فيمنعها أن تدور ، فقال سيدي علي : كنا نتركها لك ونذهب ، فقال سيدي محمد لأصحابه سرّاً : ودِّعوا سيدي [عليّاً][1] ؛ فإنَّه ينتقلُ قريباً ، فكان الأمر كذلك كما قال ، فما مضتْ ليال حتىٰ سمعَ سيدي محمد هاتفاً يقول له في الليل : يا محمد ؛ قد ولَّيناك ما كان بيد علي بن وفا زيادةً علىٰ ما بيدك .

قال سيدي محمد : فعلمتُ أنه انتقلَ إلى الله تعالىٰ ؛ لأن ذلك لا يكون إلا بعد موته ، ثم أرسلَ فقيراً إلىٰ حارة عبد الباسط يسألُ عن سيدي علي ، فذهبَ فوجد الصياحَ ، والناسُ يقولون مات سيدي علي ، رحمه الله .

ودخل في زمنه شخصٌ من العجم يدَّعي الولاية ، فأشكل حالُهُ علىٰ أهل مصر ، وكان يمدُّ يدَهُ في الهواء ، فيأتي بالذهب والفضة ، فقال له سيدي محمد : أكرمنا بشيءٍ ، فمدَّ يده ، فأتاه بثمانين ديناراً ، فطلب سيدي محمد منه حتىٰ أعجزه ، فقبضَ فلم يأت بشيءٍ ، فقال له سيدي محمد : خزائن الله لا تنفد ، وأراك متفعلاً ، ثم صفعَهُ وسلبه ، وأخرجه من مصر ، فلم يعدْ إليها بعدُ .

وكان الشريف النعمانيُّ يرى النبيَّ صلى الله عليه وسلم كثيراً ، فرآه مرةً وسيدي محمد الحنفي بين يديه ، وهو مقبلٌ علىٰ أبي بكر وعمر ، ويقول صلى الله عليه وسلم لهما : إني أحبُّ هـٰذا الرجل ، إلا أنَّ عِمامتَهُ صماء ، وفي رواية : زعراء ، وأشار إلىٰ سيدي محمد ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : أتأذن لي يا رسول الله أن أُعمِّمَه ؟ فقال : نعم ، فأخذ أبو بكر عِمامة نفسه ، وجعلها علىٰ رأس سيدي محمد ، ثم أَرْخَىٰ

---

(١) في النسخ : (علي) .

لها عَذَبَةً عن يسار سيدي محمد ، فلما قصَّ الشريف على سيدي محمد ذلك أرخىٰ العَذَبة لعمامته من ذلك اليوم ، وأمرَ أصحابه بذلك ، وترك الطيلسان الذي كان يركبُ به ، وصار يركبُ بالعَذَبة إلىٰ أن مات ؛ مسارعةً لمرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وطلب سيدي محمد من الشريف أمارةً يُرسلها له النبيُّ صلى الله عليه وسلم تصدِّق تلك الرؤيا ، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : قل له : بأمارة ما تصلِّي عليَّ قبل غروب الشمس في الخلوة كلَّ يومٍ ؛ وهي : اللهم ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ النبيِّ الأمي ، وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم عددَ ما علمتَ ، وزِنَةَ ما علمت ، وملءَ ما علمت ، فقال سيدي محمد : صحيحٌ ذلك ، وصدق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ رضي الله عنه عِمامتَهُ ونزعها ، وأخرجَ لها عَذَبةً ، ونزع كلُّ مَنْ في المجلس عِمامتَهُ ، وأرخىٰ لها عذبةً .

قال الشيخ أبو العباس السِّرْسي : وأولُ شهرةٍ اشتهر بها الشيخُ محمد الحنفي : أن السلطان فرج بن برقوق كان يرمي الرمايا على الناس ، وكان الشيخُ يُعارضه ، فأرسل وراءَ الشيخ ، وأغلظَ عليه القول ، وقال : المملكةُ لي وإلا لك ؟! فقال له الشيخ : ليستْ لي ولا لك ، إنما هي لله الواحد القهار .

ثم قام الشيخُ مُتغيِّرَ الخاطر ، فحصل للسلطان عقب خروجه ورمٌ في محاشمه[1] ، فكاد يهلكُ منه ، فأرسل خلف الأطباء ، فعالجوه ، وعجزوا عن مداواته ، فقال له بعضُ الناصحين : يا مولانا السلطان ؛ هـٰذا من تغيُّرِ خاطر سيدي محمد الحنفي ، فقال : أرسلوا خلفه لأُطيِّبَ خاطرَه ، فنزل إليه الأمراء ، فوجدوه في المطرية خارج مصر ، فأخبروه بطلب السلطان له ، فلم يُجبْهُ إلى الاجتماع به ، فلم يزالوا يترفَّقون بالشيخ حتىٰ حنَّ عليه ، وأرسل له رغيفاً مبسوساً بزيت ، وقال لهم : قولوا له يأكل هـٰذا يبرأ ، ولا يعدْ إلىٰ قلَّةِ الأدب مع الفقراء يملخوا أذانه .

فمن ذلك اليوم اشتهرَ أمرُ الشيخ للخاصِّ والعام ، وصار الناسُ إذا لامَ بعضُهم

---

(١) محاشمه : أي : مذاكيره .

بعضاً على أمرٍ لم يفعله يقولون له : يعني ينغاض الحنفي[١] ، وشاعتْ هٰذه الكلمة بين الناس إلى الآن .

قالوا : ولما جاءَ الإستدارُ إلى الشيخ يدعوه إلى السلطان أغلظ على الشيخ القولَ ، فدعا عليه الشيخ ، فبلغ ذلك السلطانَ ، فأمر بضرب عنق الإستدار ، ثم أرسلَها إلى الشيخ في طبقٍ ، فولَّى الشيخ بوجهه عنها ، وقال : هٰذه من سطوات الحق تعالىٰ عليه ، وليس لي فيه خيرة ، ثم أمروا بدفنها مع جثته .

قالوا : وقد أقام سيدي محمد الحنفي في القطبانية الكبرىٰ ستاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وبعض أيامٍ ، فلم يكن في هٰذه المدة قطبٌ غيره ، وكان يقول : منهم من يكون رضاعُهُ من رجلٍ وفطامُهُ علىٰ رجلٍ آخر ؛ لموت الأول قبل فطمه ، أو غير ذلك .

وسمع شخصاً يقول : كان سيدي شهاب الدين بن المَيْلق يكتبُ الكرَّاسَ بمَدَّةٍ واحدةٍ من الدواة[٢] ، فأمر سيدي محمد بعضَ مريديه أن يكتبَ بمَدَّةٍ واحدة كرَّاسين ، ففعلَ والناسُ ينظرون .

وكان يقول : وجدتُ مقامَ سيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي أعلا من مقام الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه ، ثم قال : وسببُ ذلك : أن سيدي عبد القادر سُئل يوماً عن شيخه ، فقال : أمَّا فيما مضىٰ فكان شيخي الشيخ حمَّاد الدبَّاس ، وأما الآن فإني أستقي من بحرين : بحرِ النبوة ، وبحرِ الفتوة ، يعني ببحر الفتوة : علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأما سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي فقالوا له : من شيخُك ؟ فقال : أما فيما مضىٰ فكان شيخي عبدَ السلام بن مَشيش ، وأما الآن فإني أستقي من عشرةِ أبحرٍ : خمسة سماوية ، وخمسة أرضية ، وقد ذكرناها في « الطبقات الكبرىٰ »[٣]

وكان يقولُ في وعظه للزناة : (أما يخشى الذي يشبكُ الكلبَ في الكلبة أن يشبكَ

---

(١) ينغاض : أي : ينغاظ .

(٢) شهاب الدين بن الميلق : هو شيخ الشيخ محمد بن الحنفي كما في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٧٢)

(٣) « الطبقات الكبرىٰ » : (٢/ ٢٧٣) .

ذَكَرَهُ في فرجِ الزانية حالَ زناه ؟! ثم يقول : هاه هاه ، فيصرخُ الناسُ ، ويكثرُ ضجيجهم) .

وكان رضي الله عنه يتكلَّمُ علىٰ خواطر القوم ، ويخاطبُ كلَّ واحدٍ بشرح حاله .

وقال له رجلٌ مرةً : إن سيدي عبد القادر الجيلي كان يعملُ في بعض الأوقات مِيعاداً سكوتياً ، ونريدُ منكم أن تعملوا لنا ميعاداً كذلك ، فقال : نفعل ذلك غداً إن شاء الله ، فجلس على الكرسيِّ ، وتكلَّم بغيرِ صوتٍ ولا حرف سرّاً ، فأخذ كلُّ واحد من الحاضرين مشروبَهُ ، وصار كلُّ واحدٍ يقول : ألقى الشيخُ في قلبي كذا وكذا ، فيقول له الشيخُ : صدقت ، فحصل الاتِّعاظ لكلِّ الحاضرين ، وكان ذلك من الكرامات .

وكان إذا حضر أحدٌ من المنكرين مجلسَهُ يصيرُ يرتعدُ وينتفضُ ، ويتقلب في الأرض ، ويقول : واللهِ ؛ ما هـٰذا سدىً ، ثم يعتقده ، ويسألُه في الصحبة .

وجاءه رجلٌ ، فقال : يا سيدي ؛ ادع الله لي أن يَرزقني محبَّتَهُ ، فقال له الشيخ : لا أقولُ لك كما قال غيري : عنّي كفنك ؛ ولـٰكن أقولُ لك : احضرِ الميعاد يومَ الأحد في زاويتنا ، فحضرَ الرجل ، فألقى الشيخ عليه بعضَ كلامٍ في المحبة ، فغُشي على الرجل ، فحُمل مغشياً عليه ، فمكث ثمانية أيام ثم ماتَ ، وصلَّى الشيخُ عليه ، وقال للحاضرين : صلُّوا علىٰ قتيلِ المحبَّة . ثم دفنه في القَرَافة .

وكان يلبس الملابسَ الفاخرة التي لا يلبسُها إلا الملوك ، فامتحنَهُ مرَّةً شخصٌ من المنكرين ، وقال : أعطني هـٰذا السلاري[1] ، فأعطاه الشيخُ له ، فباعه في السوق ، فظفر به بعضُ المحبين ، فقال : هـٰذا لا يصلحُ إلا لسيدي الشيخ محمد الحنفي ، فاشتراه ، وأهداه للشيخ ، فلبسه ، فجاء المنكرُ في الميعاد الثاني ، فوجد السلاري على الشيخ ، فتابَ واستغفر .

وكان رضي الله عنه لا تُردُّ له شفاعةٌ عند السلطان فمن دونه ، وكان يشفع عند من يعرفه وعند مَنْ لا يعرفه .

---

(١) السلاَّري : قباء بلا أكمام ، أو بأكمام قصيرة جداً ، استحدثه الأمير سلار في عصر محمد بن قلاوون . « المعجم العربي لأسماء الملابس » (ص ٢٣٨) .

وكان شيخ الإسلام العيني شارح « البخاري » يقول : (طالعنا طبقات الصوفية والعلماء من عهد الصحابة إلىٰ عصرنا هـٰذا ، فلم نر أحداً أُعطي من العزِّ والجاه والرفعة عند الملوك والأمراء مثلَ ما أُعطي الشيخ شمس الدين الحنفي رضي الله عنه) .

ثم قال : (وأبلغُ من ذلك : أنه لو طلبَ السلطانَ أن ينزلَ إليه خاضعاً ، فيجلس بين يديه ، ويقبِّل يديه . . لكان ذلك عنده أسرَّ الأيام) .

قال : ورأيتُ في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلي : (أنه كان إذا بلغه أنَّ الخليفة عزمَ علىٰ زيارته يدخلُ الخلوةَ ، فإذا جاء الخليفةُ خرجَ ؛ حتىٰ لا يقومَ له) .

وكان سيدي محمد الحنفي إذا دخلَ عليه سلطانُ مصر لا يقومُ له ولا لغيره من قضاة الأربع وغيرهم ، ولم يُغيِّرْ قطُّ قعدته لدخول أحدٍ منهم .

وكان الأكابر إذا دخلوا عليه لا يتجرَّؤون أن يجلسوا بجانبه ، وإنما يجلسون بين يديه متأدِّبين خاضعين ، لا يلتفتون يميناً ولا شمالاً

وكان الملكُ الظاهر جقمق سيِّئ الاعتقاد في طائفة الفقراء ، وكان يحطُّ علىٰ سيدي محمد ، ومع ذلك كان يُرسلُ له في الشفاعة ، فيقبلها ، ويقول لمن حوله : كلَّما أقولُ : إني لا أقبلُ لهـٰذا الرجل شفاعةً أقبلُ شفاعته قهراً عليَّ ، ولا أستطيع ردَّها ، وأتعجب من نفسي .

ونزل الملكُ المؤيَّدُ إليه مرةً ، فجاء إلى الزاوية ، فوجد الشيخ فوق السطح ، فطلع إليه سيدي أبو العباس السِّرسي ، وأخبره ، فقال : قل له : إني ما أجتمعُ بأحدٍ في هـٰذا الوقت ، فوضع السلطان يده علىٰ رأسه ، ورجع إلى القلعة ، ولم يتغيَّرْ من الشيخ ؛ إجلالاً له رضي الله عنه .

وأرسل الأمير بيسق[١] إلى الشيخ بشكارة فضة[٢] ، فوجدوه على الكرسيِّ ، فصار يقبض منها ، ويرمي للناس حتىٰ أفناها كلَّها بحضرةِ قاصده ، كأنه يُريه أنَّ الفقراء في غنيةٍ عن أموال الولاة ، فلما رجَعَ القاصدُ إلى الأمير ، وأخبره جاء إلى الشيخ زائراً ،

---

(١) في (ز) وحدها : (يشبك) بدل (بيسق) ، وتقدم الكلام على الأمير بيسق (٢/ ٢٧٦) .
(٢) الشكارة : كيس نقود ، صرة . « تكملة المعاجم العربية » (٦/ ٣٣٩) .

فقبَّلَ يديه ، فقال له الشيخ : قم إلى البئر ، فاملأْ لي منها هـٰذه الحنفية للوضوء ، ويصيرُ ثواب ذلك في صحيفتك ، فخفَّفَ الأميرُ ثيابه ، وملأَ دلواً ، فوجده ثقيلاً ، فعالجه حتىٰ أطلعه ، فوجده ذهباً ، فأخبر الشيخَ بذلك ، فقال : صُبَّهُ في البئر ، واملأه ماءً ، ففعل ثانياً وثالثاً وهو يجده ذهباً ، وهو يقول له : صبَّهُ ، ثم قال له : قلْ للبئر : إنما نحتاجُ ماءً ، فاستحقرَ الأميرُ ما كان أرسله للشيخ من شكارة الفضة .

وطلب الفقراء بالوعةً للميضاة ، فغرز الشيخُ عكَّازَهُ في الأرض وقال : هـٰذه بالوعة ، فهي إلى الآن ينزل فيها ماءُ الوضوء ، ولا يعرفُ أحدٌ أين يذهب .

وكان أمير كبير ططر أيام الملك المؤيد كلَّما يجيءُ يزورُ الشيخ يخلعُ ثيابه ، ويملأُ الفسقيةَ للوضوء بنفسه ، ويعودُ فيلبس ثيابه ، فتسلطنَ الأميرُ ططر بعد السلطان أحمد بن المؤيد ، فكان ينزلُ إلىٰ زيارة الشيخ كلَّ يومين أو ثلاثة ، لا يستطيع أن يتخلَّفَ عنه ، فيقول له الشيخ : إنك صرتَ سلطانَ المسلمين ، فالزمِ القلعة ، فيقول : لا أستطيعُ أن أتركَ زيارتك .

وكان يقبِّلُ يدَ الشيخ ، ويقول له : لا تقطعْ شفاعتك عندنا ولو ألف مرَّة في كلِّ يوم .

ولمَّا عُزلَ شيخُ الإسلام ابنُ حجر أرسل الشيخ جاريته بركة إلى السلطان ططر ، وقال لها : قولي له : رُدَّ الشيخ شهاب الدين إلىٰ ولايته ، فطلعتْ إليه بركةُ ، فكتبَ لها في الحال مرسوماً بولايته ، وأرسل له الخلعةَ ، فكان شيخُ الإسلام لا ينسىٰ ذلك للشيخ .

ومرض السلطانُ ططر مرةً ، فطلع الشيخ يعوده ، وتسامعَ الناسُ بذلك ، فازدحم الناسُ أصحابُ الحوائج في القلعة ، فأمر السلطانُ ألا تُرَدَّ ذلك اليوم قصة ، وسأل الشيخ أن يعلمَ للناس علىٰ قصصهم بدل السلطان ، فعلَّمَ علىٰ خمسة وثلاثين قصة ، فلما أراد الشيخُ النزولَ أخرجَ السلطان له فرساً مسرجاً ، بسرجٍ مُغَرَّقٍ[1] وكنبوشاً ،

---

(١) **المُغَرَّق** : المحلَّىٰ بنحو الفضة ، والكنبوش : ما يستر به ظهر الفرس وكفله ؛ يكون فيه الزركش للملوك والأمراء ، ومن الصوف المرقوم للقضاة وأهل العلم .

وأمر بالقبّة والطير أن يجعلا على رأس الشيخ ، وأمر الأمراءَ كلهم أن يركبوا معه إلى الزاوية ، ففعلوا ، وكان القبة والطير مع أمير كبير برسباي الدقماقي ، ثم تولّى بعد ذلك السلطنة ، فكان هو الملك الأشرف برسباي صاحب المدرسة بقرب الورّاقين .

وجاءه مرةً شخصٌ من علماء المالكية يُريد امتحان الشيخ ، فأعلموا الشيخ بذلك ، فقال : إنِ استطاع أن يسألني ما عدتُ أجلسُ على سجادة الفقراء ، فلما جاء العالم يسأل قال له : ما تقول فيَّ ، ولم يجدْ شيئاً يقوله ، فقال له ثانياً : ما تقولُ فيَّ وسكتَ ، حتى فعلَ ذلك مراراً ، فقال للعالم : ما تسأل ؟ فقال نسيتُ ما كنتُ أريدُ أن أسألَكم عنه ، فتبسَّم الشيخُ ، فكشفَ العالمُ رأسَهُ ، واستغفر ، وتاب من امتحان الفقراء .

وتكلم الشيخُ مرةً في جامع الطريني بالمحلة الكبرى ، فكان المجلسُ كلُّهُ في معنى قولهم :

يا فقيه فقْ فاقهْ   يا صريمَ الناقهْ
قلتُ له[1] قم صلِّ   قامَ جَرَىٰ في الطاقهْ

فأبكى الناسَ كلَّهم ، وزعق بعضُهم ، وتخبَّط عقلُ بعضهم .

وكان من جملة ما قال : (يا فقيه فق) : أي : على أبناءِ جنسك ، (فاقه) : أي ولو مرة في عمرك ، وقولهم : (يا صريم الناقة) : أي : يا زمام الناقة التي هي مطيَّتُكَ ، وبها تبلغ الخير ، وبهما تنجو من الشرِّ ، وقولهم : (قلتُ له قم صل. . .) إلى آخره : معناه أنه أمرٌ بالصلاة فقط ، فزاد على ذلك طاقة من الأذكار والصيام والقيام ، وأكثرَ من الجدِّ والاجتهاد والطاعة ، ومعنى (جرى في الطاقه) : أي : أسرعَ وبادر إلى فعل ما أُمر به ، وزاد في الطاعة جهد طاقته ، وليس المراد بها الكوةُ التي في الحائط .

وكان سيدي أبو بكر الطريني إذا دخل مصر يبدأ بزيارة سيدي محمد الحنفي قبل جميع الناس .

---

(١) في النسخ ما عدا (أ) : (لو) بدل (له) .

وقدَّم سيدي أبو بكر الطريني إلىٰ سيدي محمد الحنفي طعام خُبَّيزة لمَّا قدم المحلة ، فقال له : يا أبا بكر ؛ هل أذن لك صاحبُ الأرض أن تأخذَ من خُبَّيزتهم ؟ فقال : لم أستأذنهم ، فلم يأكل منها سيدي محمد ، وكذلك سيدي أبو بكر حتىٰ مات .

وكان رضي الله عنه إذا نادىٰ مُريداً من مصر ، والمريدُ في أقصىٰ بلاد الريف يُجيبه ، فإن قال له : تعالَ إلينا فَعَلَ ، أو : افعلْ كذا فَعَلَ .

ونادىٰ يوماً القاضي بناحية قطور بالغربية ، فسمع نداء الشيخ ، وجاء إلى القاهرة .

وكان سببُ تسمية هـٰذا القاضي أبا طاقية : أن سيدي محمد كان يخمِّرُ طيناً ، فقال له : يا قاضي ؛ اخلعْ عِمامتك ، وساعدْنا في تخمير هـٰذا الطين ، ففعل ، فقيل له لما فرغ : لِمَ لا تلبسُ عِمامتك ؟! فقال : إن الشيخَ لم يقلْ لي : إذا خمَّرتَ الطين البسْ عمامتك ، فلا ألبسها إلا إنْ قال لي ، فلم يتَّفق أنَّ الشيخَ قال له : البس عمامتك ، فمكث بقيةَ عمره بطاقيته حتىٰ مات .

ومرَّ يوماً بياع الحمص الأخضر ، فقال : يا ملآنة بفُلَيس ، فقال الشيخ : انظروا ما أَرخصَ هـٰذه مع كونها ملآنة ! فكيف لو كانت فارغةً ، فقال بعد ذلك : يا ملآنة بقلبين ، فقال الشيخ : هـٰذا سببُ رخصها .

وركب سيدي محمد مرةً حماراً إلى الروضة ، فأعطاه إنسان عشرين ديناراً في الطريق ، فأعطاها للمكاري .

وكان رضي الله عنه إذا دخل الحمام وحلقَ رأسه يتقاتلُ الناسُ علىٰ شعره ، يتبرَّكون به ، ويدَّخرونه عندهم .

وكان إذا دخل الحمام يدخل بجماعة من الفقراءِ معه جبراً لخاطرهم ، وإشارة لتنظيفهم علىٰ يديه .

وكان الحلاقُ إذا مرَّ بشوارع مصر يصيرُ الناسُ يقبِّلون يده ، ويقولون : إنَّها مسَّتْ بدن سيدي محمد الحنفي ، حتىٰ بلغ ذلك السلطان أبا فارس سلطان تونس ، فأرسل وراء الحلاق من مصر إلى المغرب ، فأكرمه غاية الإكرام ، وتبرَّكَ بيده ، وردَّهُ بهدايا وتحف .

ثم إنَّ السلطانَ أرسل وكيلَهُ إلىٰ مصر ليأخذ له العهدَ بطريق الوكالة ، فأخذ عليه العهد ، وأمره أن يأخذَ العهد على السلطان إذا رجع .

وكان أهلُ المغرب يرسلون قصَّادَهم إلىٰ مصر ؛ ليأخذوا لهم تراباً من تراب زاويته ، ويجعلونه في ورق المصاحف ، وكذا كان أهلُ الروم يكتبون اسمَهُ علىٰ أبواب دورهم يتبرَّكون بذلك .

وكان رجالُ الطيران في الهواء يأتون إليه ، فيعلِّمُهم الأدبَ ، ثم يطيرون في الهواء والناسُ ينظرون إليهم حتىٰ يغيبوا .

وكان رضي الله عنه ينزل البحر بثيابه ، فيزور سكَّانه ، فيمكث ساعةً طويلة في قعر البحر ، ثم يخرجُ ولم تبتلَّ ثيابه .

وقد وقعَ لإمامِ زاويته : أنه خرج للصلاة من بيته ، فنظر في الطريق إلى امرأةٍ جميلة ، فلمَّا دخلَ الزاوية أمرَ الشيخُ غيرَهُ أن يتقدَّم ويُصلي بالناس ، فلما جاء الوقت الثاني فعلَ معه كذلك إلىٰ خمسة أوقات ، فعلم الإمام أنَّ الشيخَ شعرَ بنظره إلى المرأة ، فاستغفر وتاب ، فقال له الشيخ : ما كلُّ مرة تسلم الجرَّة .

وكان كلُّ وليٍّ دخلَ مصر من غير استئذان من سيدي محمد سُلب ، فإنِ استغفرَ ردَّ إليه حالَهُ ، وإلا دام سلبُهُ .

ودخلَ مرةً مصرَ رجلٌ أعجمي كان معه قفَّةٌ يضع يده فيها ، فيُخرجُ منها كلَّ ما أراد ، فأرسلَ الشيخُ خلفه ، فجاء بقفَّتِهِ ، فقال له الشيخ : أكرِمْنا من قفَّتك ، فوضع يده فلم يجد شيئاً .

وكان يقول : (واللهِ ؛ لقد عُرضتْ علينا القطبيةُ ونحن شباب ، فلم نلتفتْ إليها دون الله) .

وكان يقول : (من مرتبة القطبِ أن يتحمَّلَ همومَ أهلِ الأرض كلِّهم ؛ كالسلطان الأعظم ، بل أعظم) .

وكان يتطوَّرُ في بعض الأوقات ، فيملأ الخلوةَ بجميع أركانها ، ثم يصغر قليلاً قليلاً حتىٰ يعودَ إلىٰ حالته المعهودة ، ولما عُلم بذلك سدَّ الطاق التي تُشرف علىٰ خلوته .

وكان إذا تشوَّشَ من شخصٍ يمزِّقه اللهُ كلَّ ممزَّقٍ ولو كانَ مستنداً لأكبرِ الأولياء ، لا يقدرُ يدفعُ عنه شيئاً من البلاء النازل عليه .

وقد وقع لابنِ التمَّار أنه أغلظَ على الشيخ مرَّةً لما شفعَ عنده ، فقال الشيخ : قد مزَّقنا ابنَ التمَّار كلَّ ممزقٍ ، فقيل : إنه مستند للشيخ البِسطامي ، فقال : قد مزَّقناه ولو معه ألفُ بسطامي ، فأرسل السلطان من الصباح إلى ابنِ التمَّار فهدمَ داره ، وأزال نعمتَهُ ، فداره خرابٌ إلى الآن .

وعزم بعضُ الأمراء على سيدي محمد وصنع له طعاماً ، ودسَّ فيه إناءً مسموماً ، وقدَّمه للشيخ ، وكان لا يتجرَّأ أحدٌ أن يأكلَ مع الشيخ في إنائه ، فأكلَ الشيخُ منه شيئاً ، ثم علم بأنه مسموم ، فقام ، وركب إلى زاويته ، واختلطتِ الأواني[1] ، فجاء أولاد الأمير الاثنان، فلعقوا من الإناء الذي أكل منه الشيخ فماتا ، ولم يضرَّ الشيخَ ذلك السمُّ .

وتوضَّأ الشيخُ مرةً في الخلوة ، فأخذ فردَةً من قبقابه ورمى بها في الهواء ، فذهبت ، وليس في الخلوة طاقٌ ، وقال للنقيب : احفظْ هٰذه الفردة الثانية حتى تأتي أختُها ، فبعد مدَّةٍ جاء شخصٌ من أصحاب الشيخ من تجار الشام ومعه فردةُ القبقاب ، وقال : إن اللصَّ لمَّا جلسَ على صدري ليذبحني قلت : يا سيدي محمد يا حنفي ؛ فجاءته الفردةُ ، فوقعتْ في نحره ، فانقلب عني وتخلَّصتُ منه .

وشفع مرةً عند أميرٍ كان اسمه المناطح[2] ؛ كلُّ مَنْ نطحه كسر رأسه ، وكان ينطحُ المماليك بين يدي السلطان الملك الأشرف برسباي ، فقال لنقيب الشيخ : قل للشيخ : اقعدْ في زاويتك ولا تعارضه ، وإلا جاءَ لك ينطحك فيكسر رأسك ، فبلَّغَ النقيبُ ذلك للشيخ ، فسكتَ ، فلما دخل الليل كشفَ ذلك الأميرُ رأسَه ، وصار ينطحُ الحيطان إلى أن ماتَ ، وبلغ ذلك الخبرُ للسلطان ، فقال : قتله الحنفي بلا شكٍّ .

وكان عنده جاريةٌ مباركةٌ اسمها بركة ، أعتقها الشيخُ وتزوَّجها ، وقال : لا تُخبري بذلك أحداً ، فلما طلَّقها أخبرتْ أهلَ البيت ، فقال لها : اقعدي في المكان الفلاني ،

---

(١) المثبت من (و) ، وفي (هـ) : (واختلفت) ، وفي باقي النسخ : (واختطفت) .
(٢) في (أ ، ز ، ي) : (الناطح) .

فتكسَّحتْ ، فلم تُطقِ القيام ، فاستغفرتْ ، وسألت أن يأذنَ لها في المشي ، فقال : قد خرجَ السهمُ من القوس ، فلم تزلْ تقوم فقط من غيرِ مشيٍ إلىٰ أن ماتت .

وكان رضي الله عنه يقرئ الجانَّ في الفقه علىٰ مذهب الإمام أبي حنيفة ، وكان إذا غاب يرسلُ صهرَهُ سيدي عمر فيقرئُهم في بيت الشيخ مكانه .

قال سيدي عمر : وطلبتْ مني مرة جنيَّةٌ أن أتزوَّجها ، فشاورت سيدي محمد ، فقال : هـٰذا لا يجوز في مذهبنا ، فعرضتْ ذلك علىٰ ملكِهم لمَّا نزلتُ معها تحت الأرض ، فقال ملكُهم : لا اعتراض علىٰ سيدي محمد فيما قال ، ثم قال الملك لوزيره : صافحْ صهرَ الشيخ باليد التي صافحتَ بها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؛ ليصافحْ بها سيدي محمد ، فيكون بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم في المصافحة رجلان ، فصافحه ، وأخبر أنَّ بينه وبين وقتِ مصافحة النبي صلى الله عليه وسلم ثمان مئة سنة ، ثم قال للجنية : ردِّيه إلى الموضع الذي جئتي به منه .

ورآه مرةً كاتب السرِّ ابن البارزي وهو راكبٌ ، ومعه جماعةٌ من الأمراء ، فأنكر عليه ، وقال : ما هـٰذه طريقةُ الأولياء ! فقال له ناظرُ الخواص : لا تعترض ؛ فإن للأولياء أحوالاً ، فقال : لا بدَّ أن أرسل أقول له ذلك ، فلما دخل القاصدُ وأخبر بذلك سيدي محمد ، فقال له : قل لأستاذك : أنت معزولٌ عزلاً مؤبَّداً ، فأرسل له السلطان المؤيد ، وقال له : الزمْ بيتك ، فما زال معزولاً حتىٰ قتله الملك المؤيد ، نعوذ بالله من النكران .

وكان سيدي محمد يقول : (عليكم بوضعِ الأُترجِّ في بيوتكم ؛ فإني وضعتُ عندي أترجةً في طبقٍ ، فامتنع الجانُّ الذين كانوا يقرؤون عليَّ من الدخول ، وقالوا : لا نقدرُ ندخل لك حتىٰ تذهبَ رائحةُ الأُترج) .

ودخلتْ عليه مرَّةً امرأةُ أميرٍ ، فرأته نائماً علىٰ سريرٍ ، وامرأةٌ أجنبية جميلةٌ من نساء الأمراء تروِّحُ عليه ، فأنكرتْ عليه ، وقالت : كيف يُمكِّن امرأةً أجنبية من الترويح عليه ، فلحظها الشيخ بعينه ، وقال لها : انظري إلىٰ وجهها ، فنظرتْ ، فإذا وجهُها عظامٌ بالية ، والصديدُ يخرج من فمها ومنخرها ، كأنها خرجت من القبر ، وقال للمرأة : واللهِ ؛ ما أنظرُ للأجانب دائماً إلا بهـٰذه العين ، ثم قال لها : إنَّ فيك ثلاثَ

علامات : علامةً تحت إبطك ، وعلامةً في فخذك ، وعلامةً في صدرك ، فقالت : صدقت يا سيدي ، واللهِ ؛ إنَّ زوجي لم يطَّلعْ علىٰ هـٰذه العلامات إلى الآن ، ثم استغفرتْ وتابت إلى الله تعالىٰ .

وشفع ابنُ كتيلة مرةً عندَ كبيرِ المحلة ، فردَّ شفاعته ، وقال له : إن لم يسكتْ قطعتُ مصارينه قِطعاً قِطعاً ، فأرسلَ أعلمَ بذلك سيدي [محمداً][(١)] ، فقال : هو الذي تتقطَّعُ مصارينُهُ في بطنه ، فأرسل له سيدي محمد جماعةً من الفقراء ، وأمرهم إذا طلعوا المحلَّة أن يمرُّوا علىٰ بيت ذلك الظالم ، ويرفعوا أصواتهم بالذكر ، ففعلوا ، فصار يتقيأ قيحاً ودماً ، ومصارينُهُ تَخرج قطعاً قطعاً إلىٰ أن مات .

وكان رضي الله عنه ربما يأخذُ القطعةَ من البِطِّيخ ويشقُّ منها حتىٰ يملأ كذا كذا طبقاً ، كلُّ طبقٍ له لبٌّ خلافُ الآخر ، حتىٰ إنه شقَّ من البطيخ الأخضر بطيخاً أصفر وعكسه ، حتىٰ يُبهر عقولَ الحاضرين .

ومدحوا مرة عنده سيدي عمر بن الفارض ، فقال : (لو كان عمرُ حيّاً ما وسعه إلا الوقوف ببابنا) .

ومرضتْ زوجةُ الشيخ مرة ، فصارت تقول : يا سيدي أحمد يا بدوي ؛ خاطرك معي ، فجاءها سيدي أحمد وهو ضاربٌ لثامين ، وعليه جبَّةٌ واسعة الأكمام ، وقال لها : كم تُناديني وتستغيثي بي ، وأنت لا تعلمي أنك في حماية رجلٍ من المتمكِّنين ! ونحن لا نُجيب من دعانا وهو في موضعِ أحدٍ من رجال الله ، قولي : يا سيدي محمد يا حنفي يُعافيك الله ، فقالت ذلك ، فأصبحتْ كأن لم يكنْ بها مرض .

وكان الشيخ طلحةُ المدفون بالمنشية الكبرىٰ يقول : (قال لي سيدي محمد الحنفي : خرجَ من زاويتي هـٰذه أربع مئة وليٍّ ، ثلاث مئة وستون علىٰ قدمي ، كلُّهم داعون إلى الله عز وجل ، وأصحابُنا بأرض المغرب كثير ، وبالشام أكثرُ ، وبالروم واليمن والبراري والكهوف والمغارات أكثر وأكثر ، قال : وكان ذلك آخر اجتماعي بالشيخ رحمه الله) .

---

(١) في النسخ : (محمد) .

وكان سيدي محمد يقول في مرض موته : (منْ كانت له حاجةٌ فليأت إلىٰ قبري ، ويطلبْ حاجته أقضها له ؛ فإن ما بيني وبين الناس إلا نحو ذراع من تراب ، ومن حجبه ذراعُ تراب عن أصحابه فليس هو برجل) .

وكان رضي الله عنه يلقِّنُ الخائفَ من ظالم ، ويقول له : (إذا دخلتَ عليه فقل : باسم الله الخالقِ الأكبر ، حرزٌ لكلِّ خائفٍ ، لا طاقةَ لمخلوقٍ مع الله عز وجل) ، فيرجع إليه المظلومُ وعليه الخلعةُ والوصول بالتغليق .

ودخلتْ عليه مرَّةً امرأةٌ ، فرأت قلَّة طعامه في يوم الميعاد ، فقالت : قلة هـٰذا الطعام ولا هو ، ثم ذهبت وعملتْ له طعاماً واسعاً ، ودَعَتْ الفقراء ، فقال الشيخ لسيدي يوسف القطوري : تعال كُلْ وحدك ، فأكل طعامَها كلَّهُ ، وشكا من الجوع ، فأخذته إلىٰ بيتها ، وقدمت إليه أكثر من ذلك الطعام الذي حملته إلى الزاوية ، فأكله وهو يشكو الجوع ، فجاءت مستغفرةً إلى الشيخ ، فقال لها : البركةُ في طعام الفقراء ، لا في أوانيهم الصغار .

وكان الشيخ إذا تذكَّر أحداً من أصحابه غابَ عن السِّماطِ يأكلُ الشيخُ نيابةً عنه لقمةً أو لُقماً ، فيأتي ذلك الشخصُ ، ويخبرُ أنَّ الشيخَ لقَّمه ذلك في وقت كذا وكذا .

وكان إذا سأله منكرٌ عن سؤالٍ يجيبه ، فلا يزال يُجيبه حتىٰ يسكت المنكر ، فيقول له الشيخ : اسأل ، وما لم يكن عندي أجبتك عنه من اللوح المحفوظ .

وحضر الشيخ جلال الدين البُلقيني ، وشيخُ الإسلام العَيني ، وشيخ الإسلام المالكي البِسطامي يوماً مجلسَ سيدي محمد في الميعاد ، فتكلَّمَ على الفاتحة ، فقال الشيخ جلالُ الدين : قد طالعتُ نحو أربعين تفسيراً للقرآن ، فما رأيتُ فيها شيئاً مما ذكره سيدي الشيخ من الفوائد .

وكان إذا استغرقَ في الكلام يقول : (وها هنا كلامٌ ، لو أبديناه لكم لخرجتم مجانين ، فطويناه عنكم رحمةً بكم) .

وكان للشيخ صاحبٌ في مكَّةَ ، فلما ماتَ الشيخ سافرَ من مكة إلىٰ مصر لزيارة قبر الشيخ ، ولم يكن له في مصر حاجةٌ غير ذلك .

وجاءه مرَّةً رجلٌ ، فقال : يا سيدي ؛ أنا رجلٌ ذو عائلةٍ ، وأنا فقيرٌ ، فعلِّمني الكيمياء ، فقال الشيخ : امكثْ عندنا سنةً بشرط أنك كلما أحدثتَ توضَّأتَ وصلَّيتَ ركعتين ، فأقام عنده علىٰ ذلك الشرط ، فلما بقي من المدة يومٌ جاء إلى الشيخ ، فقال له : غداً تقضىٰ حاجتُك ، فلما جاءه قال له : قم فاملأ لنا دلواً من هـٰذه البئر ، فملأه ، فإذا هو ذهبٌ ، فقال : يا سيدي ؛ ما بقي فيَّ الآن شعرةٌ تحبُّ الدنيا ، فقال له الشيخ : صبَّهُ مكانه ، واذهب إلىٰ بلادك ؛ فإنك قد صرتَ كلك كيمياء ، فرجع إلىٰ بلاده ، ودعى الناسَ إلى الله عز وجل ، وحصل به نفعٌ كثير ، رضي الله عنه .

وكان الشيخ شمس الدين بنُ كتيلة المحلي يقول : (ما صلَّىٰ سيدي محمد يوماً إلا وعلىٰ يمينه أربعةٌ روحانيون ، وأربعة جسمانيون ، لا يراهم إلا سيدي محمد ، أو خواصُّ أصحابه) .

ووقعتْ له مرةً ابنةٌ صغيرة من سطوحٍ عالٍ ، فرأوا يداً تناولتها من الهواء ، حتىٰ وضعتها على الأرض برفق ، فقلنا لصاحب اليد : من تكون ؟! فقال : من أصحاب الشيخ من الجنِّ ، وقد أخذ علينا العهد ألا نضرَّ أحداً من أولاده إلىٰ سابع بطن .

وكان سكانُ بحر النيل يطلعون من البحر إلىٰ زيارته في بيته بالروضة والناسُ ينظرون ، قالت ابنتُهُ أمُّ المحاسن : ورأيتُهم مرةً طلعوا من البحر ، وعليهم الثياب النظيفة والطيالسة ، فصلوا معه صلاةَ المغرب ، ثم نزلوا البحرَ بثيابهم ، فقلت لسيدي : ما يمنع ثيابهم من البلل ؟ فقال : إن البحرَ قد سُخِّرَ لهم .

وكان إذا وقع بصرُه علىٰ حَرَامي أو زاني تاب لوقته ، وجلس عنده يتعبَّدُ إلىٰ أن يموت .

وأرسل الشيخُ مرةً ، فنادىٰ في شوارع مصر[1] : يا معشر المسلمين ؛ يقول لكم سيدي محمد الحنفي : واظبوا على الصلوات والصلاة الوسطىٰ[2] ، فاعترضَ علىٰ

---

(١) في (أ) وحدها : (منادي) بدل (فنادىٰ) .

(٢) قال تعالىٰ في سورة البقرة ، الآية (٢٣٨) : ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ .

ذلك بعضُ الشهود ، وقالوا : هـٰذا ما هو للحنفي ، هـٰذا لله ، ثم إنه نادىٰ ثالثَ يومٍ كذلك ، فأنكر على المنادي شخصٌ من أولـٰئك الشهود ، فحصل له شيءٌ ، فمات ، فجاء بقيةُ الشهود ، واستغفروا من إنكارهم الأول .

وكان إذا تظاهر أحدٌ بالصلاح بغيرِ حقٍّ يُرسل وراءه ، فيسأله عن الطريق ، وينهره ، فيتفرق الناس عنه[1] ، ويقول : هـٰذه مائدةٌ لا يجلسُ عليها طُفيلي .

وكان إذا طلبه أحدٌ إلىٰ طعامه من المنكرين يُرسلُ يقول له : (حرِّرِ النية في حضورنا ونحن نحضر ؛ فإن غالبَ الناس لا يقصدون بحضور الناس إلا الفخرَ والخيلاء حتىٰ يُقال : حضر في وليمته فلان وفلان) .

ووقعَ له ذلك مع كاتب السرِّ ابنِ البارزي ، فوقع في حقِّ الشيخ ، فمقتَهُ السلطان المؤيد كما مرَّ[2] ، فلم يزلْ ممقوتاً عنده حتىٰ قتله .

وكان يقول : (أولُ ما تنزلُ الرحمة علىٰ حلقة الذِّكر ، ثم تنتشرُ من الحلقة إلىٰ من هو خارجُها) ، فكان الخارجون عن الحلقة يتزاحمون بأيديهم على الحلقة ، ليصيبَهم من الرحمة .

وكان رضي الله عنه يأمرُ أصحابه في الأسواق بالذِّكر ، وكذا في الخرابات والمساجد المهجورة ، ويقول : إن هـٰذه الأماكنَ تصيرُ تشهدُ لكم .

وكان أصحابُهُ إذا سألوه أن يخرجَ بهم إلىٰ مواضع الفرج والمتنزهات يقول : اصبروا حتىٰ تحضرَ لنا نيةٌ صالحة .

وكان إذا طلبَ كوزَ الماء قام كلُّ مَنْ في المجلس ؛ من أميرٍ أو كبيرٍ أو قاض ، فيصيرون واقفين حتىٰ يفرغَ ويأذن لهم في الجلوس .

وكانت ملوكُ الأرض تُرسلُ له الهدايا ، فيقبلها ويكافئ عليها بالدعاء لهم .

فأهدىٰ له ملك الروم دابةً تمشي علىٰ ثلاث قوائم ، مؤخَّرُها علىٰ رجلين ، وصدرُها علىٰ واحدة ، وكانتْ قدرَ الجدي الصغير ، فأقامتْ عنده ستةَ أشهرٍ وماتت .

---

(١) في (ز) : (ويفرق) ، وفي (ي) : (فينصرف) .

(٢) انظر (٤/ ٥٤) .

وأهدىٰ له سلطان تونس الخضراء مشطاً لتسريح اللحية ؛ إذا أفردوه صار كرسياً للمصحف ، فأهداه الشيخُ إلى الملك الأشرف برسباي ، ففرح به وأعجبه .

وأهدىٰ له ملكُ الهند ثوباً [بعلبكياً] في قصبةٍ[1] ، وشاشاً في جوزة من جوز الهند .

ودخل عليه مرةً فقيرٌ ، فرأىٰ ملابس الشيخ كملابس الملوك ، فقال للشيخ : أيش هٰذه الملابس وطريقُ الفقراء إنَّما هو لبس الخشن ؟! ولٰكن أريدُ منك أن تخلعَ لي هٰذه الثياب ألبسها ، وتلبس أنت جبَّتي ، فأجابه الشيخ ، فخرجا يتماشيان ، وإذا بأميرٍ قد عرف الشيخَ ، فنزل من علىٰ ظهر فرسه ، وخلع على الشيخِ السلاريَّ الذي عليه ، وصار كلُّ أميرٍ رآه ينزلُ ويمشي ، فتعجَّب الفقير من ذلك ، واستغفرَ في حقِّ الشيخ ، وعلم أن الفقراءَ ليس عندهم شيءٌ من الحظوظ النفسانية ، فقال له الشيخ : لا تعدْ إلىٰ مثل ذلك مع أحدٍ غيري ، ولولا أنكَ تحبُّ الفقراء ما حصلَ لك اليوم خيرٌ .

وكان إذا ركبَ قسم جماعته قسمين : قسمٌ يمشي أمامه ، وقسمٌ يمشي خلفه ، ويأمرهم برفعِ الصوتِ بالذكر ، ويقول : هو شعارُنا في الدنيا وحين نقومُ من قبورنا ، فكان الناسُ إذا سمعوا الذكرَ عرفوا أن الشيخَ راكبٌ ، فيصيرون ينزلون من بيوتهم ، ويخرجون من حوانيتهم ، ومن لم يصل إلىٰ يدِهِ رمىٰ رداءَهُ على الشيخ ، ثم يمسحُ به وجهَهُ .

وكان يقول لأصحابه : (أطلعوني علىٰ عدد أموالكم ؛ لأدعو لكم فيها بالبركة) ، وكان كلُّ من كتمَهُ شيئاً ذهب ، وربَّما يصيرُ بعد ذلك يسألُ الناس .

ودخل مرةً الحمامَ هو وأصحابه ، فأخذ ماءً من الحوض ، وقال : (إنَّ النارَ التي يُعذِّبُ الله تعالىٰ بها عصاة أمَّةِ محمدٍ مثلُ هٰذا الماء في السُّخونةِ) ، ففرح الفقراء بذلك أشدَّ الفرح .

وكان رضي الله عنه إذا زار القَرَافة وسلَّمَ علىٰ أحدٍ في القبر يردُّ عليه السلام بصوتٍ يسمعه الحاضرون .

---

(١) في النسخ : (بعلبكي) .

وكان له التصريفُ التام في مصر وقراها ، وكان كلُّ من دخلَ مصر من غير أن يستأذنه لا ينجحُ له أمر .

ودخل الفرغل بنُ أحمد وغالبُ فقراء الصعيد يشفعون في ابن عمر أمير الصعيد ، فقال الشيخ : لا تُقضىٰ لهٰؤلاء حاجةٌ لعدم استئذانهم صاحب البلد ، فكان الأمر كما قال ، ولم تُقضَ لهم حاجة .

وكان رضي الله عنه يكنسُ الزاوية وحده وهو يتلو القرآن إذا رأىٰ فيها تراباً .

وكان من مرتبته : أنه لا يَمدُّ سماطَ مولده الكبير إلا الأمراء مقدمو الألوف[١]

ودخل مرةً فرأى الأمراءَ يبنون الكوانين ، فقال : (لا إلـٰه إلا الله ، لو أمرنا الملوكَ أن يبنوا الكوانين لفعلوا ؛ فضلاً من الله علينا) .

وكان من شأنه إذا شتمه إنسانٌ أن يحتملَه ، ويدعو له بالإصلاح .

وكان بعضُ تجار مصر يُنكر على الشيخ ، وربما جاء إلىٰ باب الزاوية ، ويصيرُ يسبُّ الشيخ ويشتمه ، فدار عليه الزمان ، ونفد مالُهُ كلُّهُ ، فأتى الشيخَ بعد ذلك ، فرحبَّ به وأكرمه ، وجمع له من أصحابه مالاً جزيلاً ، ولم يزل في خدمة الشيخ إلىٰ أن مات .

وكان رضي الله عنه ينهىٰ أصحابَهُ عن حضور الموالد التي فيها آلاتُ اللهو .

ودخل مرةً يزور سيدي عمر بن الفارض ، فرأى المازوني ينشد ، وآلاتُ اللهو تُضرب ، فقال : اصبروا حتىٰ نزور ، فسكتوا حتىٰ زار ، ولم يتعرَّضْ لكسر آلاتهم .

ودخل مرة جامعَ الأزهر ، فسمع بعضَ المدرِّسين من الحنفية يقول : الحكمُ في هـٰذه المسألة كذا خلافاً للشافعي ، فزجره ، وقال : قل : للشافعي رضي الله عنه ، ولا تعد تذكرْ أحداً من الأئمة إلا بالترضي عنه ، فتاب المدرس واستغفر .

---

(١) في النسخ : (مقدمون الألوف) ، **ومقدمو الألوف** (أمراء المئين) : مرتبة يكون في خدمة حاملها مئة مملوك ، ويقع تحت قيادته في الحرب ألف أو ألوف من الجند ، وربما زاد العدد علىٰ ذلك ، وهي أعلىٰ مراتب الأمراء من عهد السلاجقة إلى المماليك بمصر . « دور السلاجقة » (١/ ٢٢٦) .

وكان إذا رأىٰ في جبهة فقيرٍ أثرَ السجود يقول : أخاف عليك يا ولدي أن يكونَ هـٰذا من جملةِ الرياء .

ومدحوا يوماً عنده سيدي عبد القادر الجيلي ، فقال : واللهِ ؛ لو حضر عندنا لتأدَّبَ معنا ؛ فإننا أسرارُ الوجود .

وكان إذا وضع يده على الفرسِ الحرون لم يعدْ إلىٰ حرونته .

وكان يكره للشاب أن يختلي بأمرد في خلوة ، ويقول : (من شرط المريد : أن يخاف علىٰ نفسه من الريب ، وقد دخل الشبلي مرة خرابة ، فرأىٰ فيها حمارة سوداء ، فصاح بأعلىٰ صوته : الحقوني ؛ فإني أخاف أن أقرب الحمارة)(١) ، وإذا كان هذا خوف الأكابر ، فكيف بأمثالنا ؟!

وكان يكره مشايخ العرب والقرىٰ ، ويقول : أنا لا أقول بإسلامِهم .

وكان إذا سمع فقيراً يقول : أنا شيخي سيدي أحمد البدوي ، أو سيدي إبراهيم الدسوقي يقول : (يا ولدي ؛ ليس لك بشيخٍ ، وإنَّما شيخُك الذي تأخذُ عنه الأدب وتقتدي به ، ولـٰكن أنت يا ولدي محبٌّ إن شاء الله تعالىٰ) .

وكان يكره للفقراء لبسَ الطليحية الحمراء ، ويقول : (الفقر في الباطن لا في الظاهر) .

وكان يتكدَّرُ من الفقراء المقيمين عنده في الزاوية إذا عملوا شيئاً ولم يشاوروه ، ويقول : (واللهِ ؛ ما عرف الكيلانيُّ وابنُ الرفاعي وغيرُهما الطريق إلى الله تعالىٰ إلا بالتربية علىٰ يد شيخٍ ، وكم لعبَ الشيطانُ بعابدٍ ! وقطعه عن الله عز وجل !) .

وكان إذا تغيَّرَ علىٰ فقيرٍ ظهرت عليه أمارات المقت .

وكان يقول : (ليس عند الفقراء عصاً يَضربون بها الفقير ، إنما هو تغير قلوبهم)(٢)

ودخل مرةً إلىٰ بستانٍ وساقيةٌ دائرة ، فقالوا له : ما تقول الساقية في نعيرها ؟

---

(١) أثبتت المقولة الأخيرة من (ب ، ج ، ط ، ك) .

(٢) وفي « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٩٢) : (الفقراء ما عندهم عصاً يضربون بها من أساء الأدب في حقهم ، وما عندهم إلا تغير خواطرهم) .

فقال : (تقول : لا ترىٰ ملآن إلا طالع ، ولا فارغ إلا نازل) .

وكانتِ الفضة لا تنقطعُ من جيبه لأجل الفقراء ، فكان لا يقدمُ عليه فقيرٌ إلا وضع يده في جيبه ، حتىٰ كان الذي يلاحظُهُ طولَ النهار يقول : (واللهِ ؛ إن عطايا الشيخ كلَّ يوم أكثرُ من عطايا السلطان) .

وكان من هيبته : أنه إذا ركبَ في شوارع مصر لا يلقاه أميرٌ كبير أو كاتبُ سرٍّ أو ناظرُ الخاص إلا ورجع يُشيِّعُهُ إلىٰ أي مكانٍ أراد .

وكان يقول : (لا يكملُ الفقير في حاله إلا إذا كان يسمعُ ردَّ السلامَ عليه من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إذا قال في الصلاة أو غيرها : السلامُ عليك أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاته ، فمن لم يسمعْ صوتَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بالردِّ عليه فهو ناقص المقام) .

وكان الخضرُ عليه السلام يحضر مجلسَ سيدي محمد ، وزاره مراراً عديدة ، وكان يجلسُ عن يمين الشيخ ، فإذا قامَ الشيخُ قام ، وإذا أرادَ دخولَ الخلوة شيَّعَهُ إلىٰ باب الخلوة ورجع .

وسُئل مرة رضي الله عنه عن الصالح : من هو ؟ فقال : (هو من صلحَ لحضرة الله تعالىٰ ، ولا يصلحُ لها إلا إن تخلىٰ عن الكونين) .

وسئل عن الولي أيضاً ، فقال : من قال لا إلـٰه إلا الله وقامَ بشروطِها ، فقيل : وما شروطُها ؟ فقال : أن يُوالي اللهَ ورسولَهُ ؛ بمعنىٰ : يوادد اللهَ بشهادته لهُ بالوحدانية ، ويوادد رسولَهُ بشهادته له بالرسالة .

وكان يقول : (إذا مات الوليُّ انقطعَ تصرُّفه في الكون ، وعدمُ الإمداد للزائرين ، فإن حصلَ مددٌ للزائر ، أو قضاءُ حاجةٍ فإنما ذلك من الله عزَّ وجل علىٰ يدِ القطب صاحبِ الوقت ، فيُعطي الزائرَ من المددِ علىٰ قدرِ مقامِ ذلك المزور) .

وكان الشيخُ يخرج في بعض الأوقات إلىٰ قبرِ رجلٍ يقال له : (الأبَّار) يزوره ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن هـٰذا القبرَ ممَّا لا يؤبه له ، فقال : بلغني : أنَّه كان يُخبر عن رأس ماله في كلِّ إبرةٍ ثم يبيعها ، فلما علمتُ عناية الله به اعتنيتُ به وبزيارته

وكان يقول : (قوموا لأهل العلوم الربانية ؛ لكراهتهم القيامَ لهم ، ولا تقوموا لمنْ علمتم أنه يُحبُّ القيام له) .

قالوا : وكان بالشيخ عدَّةُ أمراض ؛ كلُّ مرضٍ منها يهدُّ الجبل ، وهو مع ذلك راض منشرحٌ ؛ منها البلغمُ الحار ، والبلغمُ الباردُ ، فلما اجتمعَ عنده الأطباءُ قالوا : إنَّ النصفَ الأعلىٰ قد يحكمُ فيه البلغمُ الحار ، والأسفلَ قد يحكمُ فيه البلغمُ البارد ، فإذا داوينا الأعلىٰ غلب عليه الأسفل ، وعكسه ، فقال : لهم خلُّوا بيني وبين الله يفعلُ في عبده ما يريد ، وأقام بذلك المرض مدَّة سبع سنين ملازماً لفراشِهِ ، فما سمعَهُ أحدٌ يقول آه إلىٰ أن توفَّاه الله إلىٰ رضوانه وجنته .

وكان مع وجود هـٰذا البلاء الشديد يتوضَّأُ لكلِّ صلاةٍ قبل وقتها بخمس درج والأذكارُ والأحزابُ تُتلىٰ حوله في كلِّ صلاةٍ ، ولا يُصلِّي إلا مع الجماعة .

قالوا : ولما دنتْ وفاتُهُ بأيامٍ كان لا يغفُلُ عن البكاء ليلاً ولا نهاراً ، وغلبتْ عليه محبَّةُ الذلَّة والخضوع لله عزَّ وجل ، حتىٰ سألَ اللهَ عزَّ وجل قبل موته أن يبتليه بالقمل والنوم قريباً من الكلاب ، والموت علىٰ قارعة الطريق ، فحصل له جميع ذلك قبيل موته ، فتزايد عليه القملُ حتىٰ صارَ يمشي علىٰ فراشه ، ودخل له كلبٌ فنام معه علىٰ فراشه ليلتين وشيئاً ، وقضىٰ نحبَهُ علىٰ طرف حوشه ، والناسُ يمرُّون عليه في الشارع .

قالوا : وإنما تمنى الشيخُ ما ذكر ؛ ليكونَ له أسوةٌ بالأنبياء الذين ماتوا بالجوع والقمل ، ويحصلُ له نصيبٌ من إرثهم ، فقد كان السيد عيسىٰ عليه السلام يقول للحواريين : بحقٍّ أقولُ لكم : إنَّ النومَ مع الكلاب على المزابل لكثيرٌ علىٰ من يموت .

ولما دنتْ وفاتُهُ قال لزوجته : (لا تتزوجي أحداً بعد موتي ؛ فمن تزوَّجَ بك خربَ اللهُ دياره ، ولا أحبُّ أن تكوني سببَ خرابِ دارٍ لأحد) .

مات رضي الله عنه سنة سبعٍ وأربعين وثمان مئة ، ودُفِنَ بزاويته في سويقة السباعين ، وعلىٰ قبره من الجلالةِ والأُنس ما يعرفُهُ أرباب القلوب العامرة ، رضي الله عنه ، آمين .

ومنهم :

(٣٦٦) الشيخ محمد التونسي
الشهير بأبي المواهب الشاذلي رضي الله عنه[١]

كان من العلماء الراسخين ، وكان ظريفاً ، جميلَ الملبس والصورة ، كثيرَ التطيُّب والعطر في ثيابه ، حتىٰ لو لم يكنْ معه إلا نصفٌ واحد اشترىٰ به طيباً .

وكان في أغلب أوقاته مُستغرقاً مع الله عزَّ وجل ، حتىٰ ربما قامَ يمشي في جامعِ الأزهر ، فيقع في صحن الجامع ، فيقول من لا يعرفُ حاله : لا ينبغي أن يُمكَّن هـٰذا المغربي من عقد مجلسٍ في علمٍ ؛ لأنه يشرب الخمر ، فكان الشيخُ إذا أفاق يخبرونه بذلك ، فيتبسَّمُ ، ولا يتكدَّرُ من القائل .

وكان العلماءُ يقولون : (إنه أُعطي ناطقة سيدي علي بن وفا رحمه الله) .

وعمل الموشحات الربانية التي تُنشد في مصر علىٰ رؤوس العلماء ، فيطربون منها ، ويصيرون يتمايلون كالسكارىٰ .

وكان ساكناً في درب الأتراك ، بالقرب من جامع الأزهر .

وكان له خلوةٌ فوق سطح الجامع ، وقد عمل الغوريُّ مكانَها المنارةَ التي لها رأسان .

وله كتابٌ في علم الطريق سمَّاه : « قانون الإشراق »[٢] لم يُصنَّفْ في الطريق مثله .

وله مؤلَّفٌ في حلِّ سماع العود ، ذكر فيه جملةَ من قال بإباحته من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من المقلدين ، ثم قال : (وآخرُ الأمر : أنَّ ظاهرَ أقوال أهلِ المذاهب الأربع التحريم ، فلا ينبغي سماعُهُ) .

وكان يقول : سمعت شيخنا أبا عثمان المغربي رضي الله عنه يقول : إذا زار شخصٌ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢١٤) (٣٢٢) .
(٢) قوانين حكم الإشراق إلىٰ كافة الصوفية في جميع الآفاق ؛ وهو نثر ممزوج بقليل من الشعر .

قبرَ أحدٍ من الأولياء فليعلمْ أن ذلك الوليَّ يعرفُ زيارته ، ويردُّ عليه سلامه ، وإنْ ذَكَرَ اللهَ علىٰ قبره جلس متربِّعاً ، وصار يذكرُ الله معه ، ثم قال الشيخ أبو المواهب : وحاشا قلوب العارفين أن تُخبرَ عن شيءٍ بغير علمٍ ، ويؤيده قول العارفين : العارفُ لا يموت ، وإنما يُنقَل من دار إلىٰ دار ، فحرمتُهُ ميتاً كحرمته حياً .

قال : (وإذا ماتَ وليُّ الله تعالىٰ صلَّتْ عليه جميعُ أرواح الأنبياء ، لا سيما إنْ كان يُصلِّي عليهم كلَّما صلَّىٰ علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم) .

ثم قال : وعلىٰ ما قرَّرَهُ شيخُنا ينزَّلُ قولُ صاحب « الحقائق والرقائق » : حاشا الولي أن يموت ، وقوله : من الأولياء من يَنتفعُ به مريدُهُ بعد موته أكثر مما ينفعُهُ حالَ حياته ، ومن المريدين : من تولَّى اللهُ تعالىٰ تربيتَهُ من غير واسطة من الأمة حتىٰ لا يكونَ لواسطةٍ عليه منهم منَّةٌ ، ومنهم : من تولاه بواسطة بعضِ الأولياء ولو ميتاً في قبره ، فيربِّي مريدَه وهو في قبره ، ويسمعُ مريدُهُ صوتَهُ من القبر ، ولله عبادٌ يتولَّىٰ تربيتهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنفسه من غير واسطةٍ ؛ لكثرة صلاتهم وتسليمهم عليه صلى الله عليه وسلم .

وكان يقول : (سمعتُ شيخَنا أبا عثمان يقول علىٰ رؤوس الأشهاد في درسه : لعن الله من أنكرَ علىٰ أهل الطريق ، ومن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليقلْ : لعنةُ الله عليه) .

وكان يقول : (ما اعترضَ أحدٌ علىٰ أهل الطريق وأفلح أبداً) .

قال : وسمعتُه أيضاً يقول : (إنما نزلتْ سورةُ (ألم نشرح) عقب قوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحىٰ : ١١] إشارةً إلىٰ أن من حدَّثَ بنعمة الله تعالىٰ فقد شرحَ اللهُ تعالىٰ له صدره ، كأنه تعالىٰ يقول : إذا حدَّثتَ بنعمتي ونشرتَها بين عبادي فقد شرحتُ لك صدرَك ، ثم قال : اعقلوا عني هـٰذا الكلام ؛ فإنه لا يُسمع إلا من الربانيين) .

وكان يقول : كنتُ كثيرَ الرُّؤيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام في بداية أمري ، فقلت له يوماً : يا رسول الله ؛ إنَّ الناس لا يصدِّقوني في رؤيتك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعزَّةِ اللهِ وعظمتِهِ ؛ من لم يؤمنْ بها ، أو كذَّبَكَ في

رؤيتي لا يموتُ إلا يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً . انتهىٰ .

ورأيته أيضاً منقولاً بخطِّ الشيخ أبي المواهب رضي الله عنه ، وكان يقول : رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فوق سطح جامع الأزهر عام خمسة وخمسين وثمان مئة ، فوضع صلى الله عليه وسلم يدَهُ علىٰ قلبي ، وقال : يا ولدي ؛ الغيبةُ حرام ، ألم تسمع قول الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات : ١٢] وكان قد جلس عندي جماعةٌ ، فاستغابوا بعض الناس ، ثم قال لي صلى الله عليه وسلم : وإن كنتَ لا تقدرُ علىٰ منع من يستغيب الناسَ عندك فاقرأ سورةَ (الإخلاص) و(المعوذتين) ، واهدِ ثوابَها للمغتاب ؛ فإن الغيبةَ والثوابَ يتثاوران ويتعالجان بين السماء والأرض حتىٰ يقضي اللهُ بينهما بما يشاء .

وكان يقول : رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : هاتِ يدَك أبايعك ، فقلتُ : يا رسول الله ؛ لا قدرةَ لي ، أخافُ أن تقعَ مني معصيةٌ بعد المبايعة ، فقال : هاتِ يدَك وبايعْني ، ولا تضرُّك الفلتةُ والزلَّةُ إن وقعتْ وتبت منها ، قال : وكأنه صلى الله عليه وسلم يُشيرُ إلىٰ أن العبدَ قد يصلحُ الله حالَهُ بالوقوع في المعصية ؛ ليسدَّ عنه بها ثلمة تحدث في دينه ؛ من عُجْب أو كِبْر أو نحوهما ، وهـٰذا منقولٌ من خطِّه أيضاً ، رضي الله عنه .

وكان يقول : (جاءني مرةً جماعةٌ يأخذون عني الطريق ، فرأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لي : هـٰؤلاء الجماعةُ غيرُ مؤمنين بك إلا واحداً ؛ فإن معه بعضَ إيمانٍ ، فهو يراك بالعين العوراء ، وسيختم له بالموت على الإسلام) .

وكان يقول : (لبستُ خرقةَ التصوف من رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

قال : ورأيتُه صلى الله عليه وسلم مرة في المنام ، فقال لي : قل عند النوم : أعوذُ بالله من الشيطانِ الرجيم (خمساً) ، بسم الله الرحمـٰن الرحيم (خمساً) ، ثم قل : اللهم بحقِّ محمدٍ ؛ أرني وجه محمد حالاً ومآلاً ، فإذا قلتها عند النومِ فإني آتي إليك في المنام من كلِّ بدٍّ ، ولا أتخلَّفُ عنك أصلاً . انتهىٰ ، وهـٰذا منقول من خطِّه رضي الله عنه أيضاً .

وكان يقول : رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقلتُ : يا رسول الله ؛

لا تدعني ، فقال : لا أدعُكَ حتىٰ تَرِدَ عليَّ الكوثرَ وتشربَ منه ؛ لأنك تقرأُ سورةَ (الكوثر) ، وتصلِّي علي ، أما ثوابُ الصلاة فقد وهبته لك ، وأما ثوابُ سورة (الكوثر) فأُبقيه لك ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : ولا تَدَعْ أن تقولَ : أستغفر الله العظيم الذي لا إلـٰه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، وأسألُه التوبةَ والمغفرة ؛ إنه هو التوَّاب الرحيم ؛ مهما رأيت عملك وأعجبت به ، أو وقع خلل في كلامك . هـٰذا منقول من لفظه رضي الله عنه .

وكان يقول : قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة : أنت تشفعُ في مئة ألف ، فقلت له : بمَ استوجبتُ ذلك يا رسول الله ؟ فقال : بإعطائك لي ثوابَ صلاتك عليَّ .

وكان يقول : استعجلتُ مرةً في صلاتي عليه صلى الله عليه وسلم لأُكملَ وردي وكان ألفاً ، فقال لي صلى الله عليه وسلم : أما علمتَ أنَّ العجلةَ من الشيطان ؟! ثم قال لي : قل : اللهم ؛ صلِّ علىٰ سيدنا محمد ، وعلىٰ آل سيدنا محمد ، بتأمُّلٍ وتمهُّلٍ وترتيل إلا إذا ضاق الوقت ، فما عليك إذا عجلت ، ثم قال لي : وهـٰذا الذي ذكرتُهُ لك علىٰ جهة الأفضلية ، وإلا فكيف ما صلَّيت فهي صلاةٌ ، قال صلى الله عليه وسلم : والأحسنُ أن تبدأ بالصلاةِ التامَّةِ أوَّل صلاتك ، ولو مرةً واحدةً ، وكذلك في آخرها تقيمُ بها صلاتك .

قال صلى الله عليه وسلم : والصلاةُ التامَّةُ : هي اللهم ؛ صلِّ علىٰ سيدنا محمد ، وعلىٰ آل سيدنا محمد كما صلَّيتَ علىٰ سيدنا إبراهيم ، وعلىٰ آل سيدنا إبراهيم ، وبارِكْ علىٰ سيِّدنا محمد ، وعلىٰ آل سيدنا محمد كما باركت علىٰ سيدنا إبراهيم ، وعلىٰ آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ، السلامُ عليك أيُّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته . هـٰذا منقول من لفظ الشيخ أبي المواهب رضي الله عنه .

وكان يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : إنَّ شيخك الصفروي يُصلِّي عليَّ الصلاة التامة ، ويكثرُ منها ، فقل له إذا ختمَ الصلاة عليَّ أن يحمدَ الله عز وجل) .

وكان يقول : (رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : إذا كان لك حاجةٌ ،

وأردتَ قضاءها فانذر لنفيسة الطاهرة ولو فَلْساً ؛ فإنَّ حاجتك تقضىٰ) .

وكان يقول لأصحابه : (خذوا من أموالِ السُّلطان دون مال حاشيته ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : اطلعْ إلى السلطان جقمق ، واسأله من الدنيا شيئاً ، فطلعتُ له ، فأعطاني مئة دينار ، واعتذر إليَّ بأنه ليس عنده حاضرٌ غيرها) .

وكان رضي الله عنه قريب الحزن والخشية والبكاء ، لا يسمعُ أحداً يبكي إلا وتَهمُلُ عيناه بالدموع .

وكان يقول : (رأيتُ مرَّةً بمصر امرأةً تدور على الأبواب ، وهي تغني في مدحِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عنها ، فقال : هي وليَّةٌ كبيرة ، ولـٰكنها تتستَّرُ بذكر محبوبها ، ألا تراها لا تذكر في كلامها إلا جدّاً) .

وكان يقول : وقع بيني وبين شخصٍ من جامع الأزهر مجادلةٌ في قول صاحب البردة : [من البسيط]

فمبلـغُ العلـمِ فيـهِ أنـهُ بشـرٌ ... وأنـهُ خيـرُ خلـقِ اللهِ كلِّهـمِ

وقال لي هـٰذا الشخص : ليس لصاحبِ البردة دليلٌ علىٰ ذلك ، فقلت له : قدِ انعقدَ الإجماعُ علىٰ ذلك ، فلم يرجع لقولي ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وهو جالسٌ عند منبر جامع الأزهر ، وقال لي : مرحباً بحبيبنا ، ثم قال لأصحابه : أتدرون ما حدثَ اليوم ؟! قالوا : لا يا رسول الله ؛ قال : إن فلاناً التعيس يعتقدُ أن الملائكةَ أفضلُ مني ! فقالوا بأجمعهم : لا يا رسول الله ؛ ليس علىٰ وجه الأرض أحدٌ أفضلُ منك ، فقال لهم : فما بالُ فلان التعيس الذي لا يعيش ؟! وإن عاشَ عاشَ ذليلاً خمولاً مضيَّقاً عليه ، خامل الذكر في الدنيا والآخرة ؛ لاعتقاده أنَّ الإجماع لم يقعْ علىٰ تفضيلي ، أما علمَ أن مخالفة المعتزلة لأهل السنة لا تقدح في الإجماع ؟! انتهىٰ .

قال الشيخ : ورأيتُهُ مرَّةً أخرىٰ بعد ذلك فقلت : يا رسول الله ؛ قولُ صاحب البردة :

(فمبلغ العلم فيه أنه بشر) معناه عندي : منتهى العلم فيك عندَ مَنْ لا معرفةَ له

بحقيقتك أنك بشر ، وإلا فأنت وراءَ ذلك كلِّه بالروح القدسي والقالب النبوي ، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : صدقتَ ، وفهمتُ مرادك .

وكان يقول : (قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ما أحسن مجلسك ! قد غفرَ اللهُ تعالىٰ لكلِّ من حضره ؛ بذكركم لله تعالىٰ عقبَ فراغِ القارئ) .

وكان يقول : (رأيتُ مرَّةً أنَّ ثعباناً دخل بين ثيابي ، فرأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألته عن ذلك ، فقال : الثعبان هو صاحبُكَ فلان ، قد بدا له فيك ، ورجع يؤذيك ، ولولا خوفه منك لعمل جهده في إيذائك ، فكان الأمرُ كما قال صلى الله عليه وسلم) .

وكان يقول : كنَّاني سيدي يحيى بن أبي الوفا بـ (أبي عابد) ، فرأيتُ سيدي علي بن سيدي محمد وفا وقال : هـٰذه الكنية لا تصلحُ لك ؛ إنما تصلح لأرباب الأثقال ، وإنما كنيتُكَ : (أبو حامد) ، قال : ثم رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال لي : كنيتُك عندنا : أبو حامد ، وكذلك في السماء ، وقد دخلتَ في دائرة بني الوفا ، ومقامُك كبيرٌ ، وأنت وليُّ الله .

وكان يقول : كنتُ أطلبُ من شيخي أبي سعيد الصفروي أن أُقبِّلَ قدميه ، فكان يوعدني بذلك ويقول لي : حتىٰ يجيءَ الوقتُ ، فلما ماتَ سنة إحدىٰ وخمسين وثمان مئة رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : اطلبْ من شيخك ما وعدَكَ به ، فأخذتُ قدميه بعد وفاته وقبَّلتُهما ، وقلت : يا سيدي ؛ هـٰذا إنجازُ وعدك ، وحرمتُكَ عندي ميتاً كحرمتِك عندي حيّاً .

وكان يقول : قلت لشيخي أبي سعيد الصفروي : هل أتركُ أصحابي وأعتزلُ عنهم وخصوصاً الذين يُؤذونني ؟ فقال : لا تتركهم ، وخالطهم بحسب الظاهر ، وجاملهم ، ودمْ علىٰ ما أنتَ عليه ، ثم رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فسألتُهُ عن قول شيخي ، فقال : هو صحيح ، وامشِ علىٰ طريق شيخك .

وكان يقول : (انقطعتْ عني رؤيةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة ، فحصل لي غمٌّ بذلك ، فتوجَّهتُ بقلبي إلىٰ شيخي ليشفعَ لي عند رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ،

فحضر عنده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هـٰأنا ، فنظرتُ فلم أرَهُ ، فقلتُ : ما رأيته ، فقال عليه الصلاة والسلام : سبحان الله ! غلبتْ عليه الظلمةُ ، وكنت قد اشتغلتُ بإقراء جماعةٍ في الفقه ، ووقع بيني وبينهم جدالٌ في إدحاض حجج بعض العلماء ، فتركتُ الاشتغال بذلك ، ثم رأيته ، فقلتُ : يا رسول الله ؛ إنَّ الفقه من شريعتك ؟ فقال : بلىٰ ، ولـٰكن يحتاجُ إلىٰ زيادةِ أدبٍ مع العلماء) .

وكان يقول : (تَفَلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في فمي ، فقلتُ : يا رسول الله ؛ ما ثمرةُ هـٰذا التفل ؟ فقال : لا تتفلُ بعدها علىٰ مريضٍ إلا ويبرأ من مرضه إلا أن يكونَ أجلُهُ قد حضر) .

وكان يقول أيضاً : (امتنعتْ عني رؤيةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إني رأيته ، فقلت له : يا رسول الله ، ما ذنبي ؟ فقال : لأنك لستَ الآن بأهلٍ لرؤيتنا ؛ لأنك تُطلعُ الناسَ علىٰ أسرارنا ، وقد كنتُ أخبرتُ شخصاً من إخواني بشيءٍ من الرؤيا ، فتبتُ إلى الله عزَّ وجل ، فرأيتُهُ بعد ذلك)

وكان يقول : (قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : أنا لا أجتمعُ بمن يجلسُ مجالسَ الغيبة مع الناس ولا يقومُ منها)

وكان يقول : (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي : يا محمد ؛ ما هـٰذه الغفلةُ ؟! ما هـٰذه الرقدةُ ؟! ما هـٰذا الإعراض ؟! تركتَ تلاوةَ القرآن ، وما ورِيداتك في جانب تلاوة القرآن ؟! لا تفعل ذلك أصلاً ؛ بل اتلُ القرآن كلَّ يومٍ ولو حزبين ، لا أقلَّ من ذلك كل يوم) ، قال أصحابُ الشيخ : فما تركَ سيدي أبو المواهب بعد ذلك تلاوةَ القرآن يوماً واحداً ، وكان يردِّدُ بعضَ الآيات مراراً ويبكي ، وتنحدرُ دموعه علىٰ خدَّيه ولحيته ، ويتأوه حتىٰ لا يقدر أحدٌ يتكلَّمُ بحضرته ؛ لما يرىٰ من وَجْدِهِ وكثرةِ بكائه .

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يسجدُ بعد السلام من النافلة سجودَ الشكر بعد ما يدعو .

وكان يقول : (رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقلتُ له : يا رسول الله ، قد وهبتُ لك ثوابَ صلاتي عليك ، وثوابَ كذا وكذا من أعمالي ، فهل ذلك مرادُك بقولك لمن قال لكَ : إذاً أجعلُ لك صلاتي كلَّها ، فقلتَ له : « إذاً تُكفىٰ همَّكَ ،

ويغفرُ ذنبُكَ » ؟[١] فقال صلى الله عليه وسلم : نعم ، هو مرادي ، ولـٰكن أبقِ لنفسِك ثوابَ كذا وكذا ، فإني غنيٌّ عنه) .

وكان يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقبَّل فمي ، وقال : أُقبِّلُ هـٰذا الفم الذي يُصلِّي عليَّ ألفاً بالنهار وألفاً بالليل ، ثم قال : وما أحسن قراءة « إنا أعطيناك الكوثر » لو كانت وردَكَ من الليل) .

ثم قال لي : (ليكن من دعائك : اللهم ؛ فرِّج كرباتنا ، اللهم ؛ أقلَّ عثراتنا ، اللهم ؛ اغفرْ زلاتنا ، ثم صلِّ عليَّ ، وتقول : ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨١ـ١٨٢]) .

وكان يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقلتُ : يا رسول الله ؛ ما تقولُ في صلاة الله عشراً علىٰ من صلَّىٰ عليك مرَّةً واحدة : هل يُشترطُ فيه حضور القلب ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : هو لكلِّ مَنْ صلَّىٰ عليَّ ولو غافلاً ، ويعطيه الله تعالىٰ أمثالَ الجبال من الملائكة بعدد حروف تلك الصلاة ؛ كل ملك يصلي عليه ويستغفر له[٢] ، وأما إذا كان حاضرَ القلب فلا يعلمُ ذلك إلا الله) .

وكان يقول : (قلتُ مرَّةً في مجلسٍ : محمدٌ بشرٌ لا كالبشر ، بل هو كالياقوتِ بين الحجر ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وقال لي : قد غفر اللهُ لك ، ولكلِّ من قالها معك) ، فكان رضي الله عنه لم يزل يقولها بعد ذلك في كلِّ مجلسٍ إلىٰ أن مات .

وكان يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لي : كَنِّ أصحابك ، وأبدِ لهمُ الكُنىٰ[٣] ، وكنِّ فلاناً : أبا الظهور ؛ لأنه يتبع ظهورَ النساء ببصره ، ولا عليك منه) .

وكان يقول : (قلتُ مرَّةً : يا رسول الله ؛ إني مُتطفِّلٌ في علم التصوف ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : اقرأ كلامَ القوم ؛ فإن المُتطفِّلَ علىٰ هـٰذا العلم هو الوليُّ ، وأما

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٧) عن سيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه .
(٢) في (هـ ، و ، ز ، ي) : (ويُعطيه اللهُ تعالىٰ أمثالَ الجبال من الثواب بعددِ حروف تلك الصلاة ، وتُصلِّي عليه الملائكة ، وتستغفرُ له) .
(٣) في (أ ، ب ، د ، ك) : (وابتدِ) بدل (وأبد) ، وفي (ز) : (وانبذ) .

العالمُ به فإنه النجمُ الذي لا يُدرك) هٰذا منقولٌ من لفظه رضي الله عنه .

وكان يقول : (رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وقال لي : يا محمد ؛ ما أنا ميت ، وإنما موتي عبارة عن تسترتي عمن لا يفقه عن الله ، وأما من يفقه عن الله فهو يراني وأراه) .

وكان يقول : (سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن حديث : « أكثِرُوا منْ ذكرِ اللهِ حتىٰ يقولوا مجنونٌ »[1] ، فقال صلى الله عليه وسلم : صدق ابنُ حِبان في روايته ، وصدق راوي « اذكرُوا اللهَ »[2] وإنني قلتُهما معاً ، فمرَّةً قلتُ هٰذا ، ومرَّةً قلتُ هٰذا) .

وكان يقول : رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا تخفْ من الحساد ؛ فإنهم إنْ كادوك فإن الله يكيدُهم ، ألم تسمع قولَ الله عزَّ وجل : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق : ١٥ـ١٧] ؟!) .

وكان يقول : (من أراد أن يرى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فليكثر من ذكره ليلاً ونهاراً ، مع اعتقادِهِ في الأولياء ، وإلا فبابُ الرؤية عنه مسدود ؛ لأنهم ساداتُ الناس ، وربَّما يغَضبُ لغضبهم ، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وأخبرني حفيدُ الشيخ أبي المواهب الشيخُ علي الشاذلي المدفون خارج باب الشعرية من مصر ، قال : رأىٰ بعضُ الفقراء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ ، وإذا بسيدي الشيخ أبي المواهب قد دخل ، فقام له صلى الله عليه وسلم ، فقصَّ هٰذه الرؤيا علىٰ سيدي أبي المواهب ، فقال : يا فلان ؛ اكتمْ هٰذا مدَّةَ حياتي ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قامَ لأحدٍ قامَ له الوجود كلُّهُ ، هٰذا ما رأيتُه في كتاب « مرائيه » رضي الله عنه .

وكان يقول : (لا يأتي النصر لأحدٍ قطُّ إلا بعد الذلِّ لله تعالىٰ ، قال تعالىٰ :

---

(١) صحيح ابن حبان (٨١٧) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩٩) ، وأحمد في « مسنده » (٣/ ٦٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (٢/ ٢٣٣) .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « المسند » (١٣٧٦) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (٢/ ٢٣٣) .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥ـ٢٦]) .

وكان يقول : (قد يَطَّلعُ الأولياءُ علىٰ علوم لم يطَّلعْ عليها العلماء ، فلا يسعُ من خاف علىٰ دينه إلا الأدب والتسليم لهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا أرادَ أحدُكم أن يهجر إخوان السوء ، فليهجرْ قبل ذلك أخلاقَهُ السوء ؛ فإن النفسَ أقربُ الأقربين إلى العبد ، والأقربون أولىٰ بالمعروف) .

وكان يقول : (من علامة عَمَىٰ أهل الدنيا عن رؤية الآخرة كونُهم يُقبلون على الدنيا ، مع أنهم يَرحلون عنها في كل نَفَس) .

وكان يقول : (تَفَاخرَ الغنىٰ والفقرُ ، فقال الغنىٰ : أنا وصفُ الربِّ الكريم[١] ، فمن أنت يا حقير ؟! فقال له الفقر : لولا وصفي ما تميَّزَ وصفُك ، ولولا تواضعي ما رُفعَ قدرك ، وأيضاً فإن وصفي وُسِمَ بِذُلِّ العبودية ، وإنَّ وصفَك نازع أوصاف الربوبية) .

وكان يقول : (لا يكونُ الفقيهُ فقيهاً حقّاً حتىٰ يرتضعَ من لبنِ حيِّ الصدور ، دون قديد ميتِ السطور) .

وكان يقول : (من علامة المُرائي : إجابتُهُ عن نفسه إذا أُضيف إليه نقصٌ ، وينقصُ الصالحين من أهل زمانه إذا ذكروا) .

وكان يقول : (مراءاةُ الفقير تكون بالأحوال ، ومراءاةُ الفقيه تكون بالأقوال) .

وكان يقول : (مِن لازم مَنْ طلبَ الشهرة بين الناس أن يُرضيهم بما يُسخط الله عز وجل ، وأن يصحبَهم للهوىٰ لا لله) .

وكان يقول : (العارفُ ينمو حالُهُ حالَ حياته ، ولـٰكن لا يشتهر إلا بعد مماته) .

---

(١) من أسماء الله الحسنى : (الغني) .

وكان يقول : (العارفُ كلما علا في المقام صَغُرَ في أعين العوام ؛ كالنجم يُرىٰ صغيراً ، وإنما العيبُ من العين) .

وكان يقول : (لو أن الحلاجَ كَمَّل حقيقة الفناء لتخلَّص مما وقع فيه من الغلط بقوله : « أنا هو » ومن قوله : « أدنيتني منك حتىٰ قلت : إني أنت »[1]) .

وكان يقول : (ثَمَّ مَنْ يدخلُ مقامَ البقاء قبل الفناء بحكم الإرث للأنبياء ؛ ولـٰكن قليلٌ ما هم ؛ ولذلك أنكرَهُ غالبُ القوم) .

وكان يقول : (إذا أردتَ أن تفتحَ كنزاً فإياك أن تلهو عن صرفِ العائق ، أو تغفل عن العزيمة قبل حضور صاحب الكنز ، وإياك أن تشتغلَ بشيءٍ من الأمتعة إذا فتحتَ الكنز عن الملك ؛ بل اجعل قصدَكَ الملكَ لا غير ، حتىٰ يهبَكَ خاتمَ الاستخدام ، فإن لم يعطك الملكُ سرَّ الخاتم فإنما ذلك لكونه يريدُ اتخاذك جليساً له ، وذلك أعظمُ من سرِّ الخاتم ؛ فإن جليس الملك لا يحتاج قطُّ إلى استخدام ولا تعب) .

وكان يقول في معنىٰ قول سهل بن عبد الله : (إن للربوبية سرّاً لو ظهر لبطلت أحكامها) : يعني : (لو أُعطي العبدُ سرَّ التكوين لبطل القول بالكسب ، واختلَّ نظام الشريعة) .

وكان يقول في معنىٰ قولهم : (يصلُ الوليُّ إلىٰ حدٍّ يسقطُ عنه التكليف) : (يعني : يسقطُ عنه كلفةُ الأعمال ومشقَّتُها من باب : « أرحْنا بها يا بلالُ »[2]) .

وكان يقول : في معنىٰ قول ابن الفارض رضي الله عنه[3] : [من الطويل]

وكـلُّ بَـلا أيـوب بعـضُ بليَّتـي

(أي : لأن بلاء أيوب كان في الجسد دون الروح ، وبلاءُ العارف فيهما معاً) .

وقال في معنىٰ قول بعضهم :

مقـامُ الـرسـالـةِ فـي بـرزخٍ فـويـقَ النَّبـيِّ ودون الـولـي

---

(١) كذا في النسخ ، ورواية البيت في « ديوان الحلاج » (ص٦٨) :
أَدْنَيْتَنـي منـكَ حتـى ظننـتُ أَنَّـكَ أَنِّـي

(٢) رواه أبو داود (٤٩٨٥) ، عن سالم بن أبي الجعد ، وتقدم (١/ ٣٤٩) ، و(٢/ ٢١٦) ، و(٣/ ٢٣٦) .

(٣) ديوان ابن الفارض (ص ٤٧) ، وهو عجز بيت ، وصدره : وحزنيَ ما يعقوب بثَّ أقلَّهُ .

(يعني : أن النبوة تعطي الأخذ عن الله بواسطة وحي الله ، ومقام الرسالة يعطي تبليغ ما أمره الله به للعباد ، ومقامُ الولاية الخاصة أخذٌ عن الله بالله من الوجه الخاص ، قال : وهـٰذه الحقائق الثلاث كلُّها موجودةٌ فيمن كان رسولاً ، فافهم ، ولا تظنَّ أنَّ أحداً من أهل الله يعتقد تفضيلَ الولاية على النبوة والرسالة) .

وقال في معنىٰ قول الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه : [من الطويل]

توضَّأْ بماءِ الغيبِ إنْ كنتَ ذا سرٍّ ... وإلا تيممْ بالصَّعيدِ وبالصَّخرِ
وقدِّمْ إماماً كنتَ أنتَ إمامَهُ ... وصلِّ صلاةَ الفجرِ في أوَّلِ العصرِ
فهـٰذي صلاةُ العارفينَ بربِّهمْ ... فإنْ كنتَ منهمْ فانضحِ البرَّ بالبحرِ

المراد بـ (الوضوء) : طهارةُ أعضاء الصفات القلبية من النجاسات المعنوية ، و(ماءُ الغيب) : هو خلوصُ التوحيد ؛ فإن لم يخلصْ لك بالعيان فتطهَّرْ بصعيد البرهان ، و(قدِّم إماماً) كان في يوم الخطاب ، ثم صرتَ أنتَ إمامَهُ بعد سدل الحجاب ، و(صلِّ صلاة الفجر) التي هي صلاة نهار كشف الشهود بعد حجابِ ظُلمة الوجود (في أول العصر) الذي هو زمانُ انفجار فجرك ، ولا تتأخَّرْ لآخر دورك ؛ لأنَّ الحكمَ للوقت والتفويت له مقت ، (فهـٰذي صلاةُ العارفين بربِّهم) ، وهم الذين لم يخرجوا عن متابعةِ الأحكام الشرعية في جميع مشاهد الربوبية ، (فإن كنتَ منهم فانضح) يعني : فاغسل بماء بحرِ الحقيقة ما تدنَّسَ بالغفلة من برِّ الشريعة .

وقال في قول بعضهم : (النبيُّ مشرِّع للعموم ، والوليُّ مشرع للخصوص) : (مرادُهُ أن النبيَّ مبيِّنٌ للعوام برسالته والولي مبيِّنٌ للخواصِّ بولايته ، لا أنَّ الوليَّ مشرعُ الأحكام الشرعية ؛ فإنه ليس لوليٍّ ذلك ، وإنما له تبيين الحقائق الكشفية بطريق الوراثة النبوية) .

وقال في إنكارِ بعضهم علىٰ من قال : (الخضر مقامٌ لا إنسان) : (مرادُهُ أن الوليَّ المخصوص بالمحبة يُعطىٰ من الكرامات كما كان للخضرِ من المعجزات ، وذلك عند الوراثة الخضرية قبل الوراثة الموسوية ، والوراثة بلا شك مقامٌ ، فافهم يا غلام) .

وقال في قول بعضهم : (حدَّثني قلبي عن ربي) : (لا إنكار ؛ لأن المرادَ أخبرني

قلبي عن ربِّي من طريق الإلهام الذي هو وحيُ الأولياء ، وهو دون وحي الأنبياء ، ولا إنكار إلا على من قال : « كلَّمني الله تعالىٰ كما كلَّمَ موسىٰ » ففرقٌ بين « أخبر » و« كلم » يا من أنكر وتوهَّم) .

وكان يقول : (أقسم الحيُّ القدُّوس أن لا يدخلُ حضرتَهُ أحدٌ من أهل النفوس) .

وكان يقول : (احذرْ أن تخرقَ سور الشرع ، يا من لم يخرجْ عن عادة الطبع ، وإياك أن تقول : أنا مطلوقٌ من الحدود ؛ لأني دخلتُ حضرةَ الشهود ؛ فإن الذي دعاك هو الذي نهاك) .

وكان يقول : (أهلُ الخصوصية مزهودٌ فيهم أيامَ حياتهم ، يتأسَّفُ الناسُ عليهم بعد مماتهم ، حين لا يجدون عند غيرهم من المعارف والآداب ما كانوا يرونَهُ عندهم) .

وكان يقول لأصحابه : (عليكم بالتسليمِ للفقراء فيما يدَّعونَه من المقامات والأحوال) .

وكان يقول : (الاعتمادُ على العمل أوَّلُ عائقٍ يعرضُ لأصحاب السلوك في بدايتهم ؛ وذلك من غلبةِ الوهم على وجوههم ، وتراكم الخيال في مرايا عقولهم ، فلا يخرجون عن ذلك إلا بنور الكشف بالله تعالى الخالقِ لأعمالهم) .

وكان يقول : (قد ادَّعىٰ قومٌ محوَ آثار البشرية ، فأخطؤوا الطريق ؛ فإن الأكابرَ من الصحابة والتابعين وصلوا إلىٰ محو الصفات البشرية ، وما تركوا قطُّ شيئاً من الواجبات الدينية ؛ علماً منهم أن ذلك من اختيارِ الربِّ لهم ، ودعوته لهم ، ومن كان في أمرِ سيِّدِهِ كان بغير أمرِ نفسه ، فافهم معنى الفنا ، يا من وقع في العنا ، ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣]) .

وكان يقول : (من صدقَ في الزُّهد في الدنيا تعسَّرَ عليه تحصيلُها) .

وكان يقول : (لا تطلبْ شيئاً من الكونين ؛ فإنه ما خُلِقَ بالأصالة إلا لك ، وأنت إنما خُلقت لربك ، فإذا طلبتَ ما خُلق لك ، وتركتَ من خُلقتَ له انعكس بك السيرُ ، وإن أقبلتَ علىٰ ربك طلبتْكَ الأكوانُ بنفسها ، وخدمك كلُّ شيءٍ ، فافهم) .

وقد رأىٰ سيدي أحمد بن الرفاعي ربَّهُ عز وجل في المنام ، فقال له : ماذا تريدُ يا أحمد ؟ فقال : أريدُ ما تريدُ يا رب ، فقال تعالىٰ : لك المرادُ ، ولك مني كلَّ يومٍ مئةُ حاجةٍ مقضية .

وكان يقول : (إذا فتحَ اللهُ تعالىٰ على السالك فتحَ التعرُّف لا يُبالي قلَّ العملُ أو كثر) .

وكان يقول : (لما علم أهل الله عز وجل أن كلَّ نبات لا ينبتُ ويُثمر إلا بجعله تحت الأرض ، تعلوه الأرجل ، جعلوا نفوسهم أرضاً للخلق ؛ ليعطيهم اللهُ ما أعطىٰ أولياءَهُ حين تواضعوا للعباد) .

وكان يقول : بلغني عن الغزالي أنه كان يقول : تعاطي بعضِهم بعضَ المحرَّمات في ظاهر الشرع ليستترَ بها عن أهل الزمان . . يُقاس[1] علىٰ من لم يجدْ ما يسيغُ به اللُّقمةَ إلا الخمر ، بجامع طلب الحياة ؛ فإنه إذا جازَ ذلك خوفاً من فوات حياةٍ دنيوية ، فأولىٰ أن يَجوزَ لمن خافَ حياةً أخروية ، قال الشيخ أبو المواهب : وهو كلامٌ غورُهُ بعيد ، وقواعدُ الشريعة تُحرِّمُ تَعاطي ما يسيء الناس به ظنَّهم ، ولو صفح المتعاطي وعفا ، فافهم .

وكان يقول : (قال علماؤنا : لا تصلحُ العزلةُ إلا لمن تفقَّهَ في دينه ، وكان السَّلفُ يتفقَّهون إلىٰ سنِّ الأربعين) .

وكان يقول : (دليلُنا في الخلوة عن الناس ما صحَّ أنه صلى الله عليه وسلم كان يختلي في غارِ حِراء حتىٰ فجأه الوحي[2] ، فدلَّ علىٰ أنَّ الخلوةَ حكمٌ مرتَّبٌ عليه الوحي ، ووسيلةٌ لمجيء الحقِّ ، وظهور نور الله) .

قال : (وإنما اختار القومُ الخلوةَ بشرط الجوعِ واقتداءً به صلى الله عليه وسلم ، وإنما جعلوا أقلَّ كمالِها أربعين يوماً ؛ لأن في الأربعين يكون نتاجُ النُّطفة علقةً ، ثم مضغةً ، ثم صورةً ، وهي مدَّةُ الدُّرِّ في صدفه أيضاً ، وعددُ أيام توبة داود عليه السلام) .

---

(١) في (هـ ، و ، ز) : (قياساً) .

(٢) أخرجه البخاري (٣) ، ومسلم (١٦٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

وكان يقول : (إذا وردَ عليك واردُ الوقت فاقبله ولا تتعشَّق به ، فإنْ تعشَّقْتَ به حُجبتَ عن الترقي) .

وكان يقول : (إذا وردَ عليك واردٌ فاحفظه ؛ فإنك تحتاجُ إليه في تربية المريدين ، فإن أكثرَ الشيوخ إنما جهلوا طريق التربية للمريدين بتفريطهم فيما ذكرناه ، وزهدِهم فيه) .

وكان يقول : (من المحالِ أن ينفتحَ لقلبٍ بابُ الملك والملكوت وفي القلبِ شهوةٌ ، كما أنَّه من المحال أن يشهدَ القلبُ ربَّهُ وفيه لمحةٌ للعالم الملكي والملكوتي ، فلا بدَّ من غيبته عن العالم بأسره حتىٰ يشهدَ الحقَّ تعالىٰ) .

وكان يقول : (ليس في الوجودِ إلا ما سبقَ به العلم ، وأوجدته القدرةُ ، وخصَّصته الإرادةُ ، ورتَّبته الحكمةُ ، فذرات الوجود ما خرجتْ عن هـٰذا الشهود ، فكيف يكونُ الغيرُ حجاباً عن الحقِّ والغيرُ منفيٌّ بهـٰذا الاعتبار ؟! اللهُ أكبر ، طلعَ النهار ، وأضاءتِ الأنوار ، علىٰ رغم أنفِ الكفار) .

وكان يقول : (كلُّ ما سوى الله فهو لهوٌ ولعب ، ولو أعطاكَ من الشهود ما أعطاك ، ولكل مقام رجالٌ ؛ ولذلك لمَّا سمعتْ رابعةُ العدوية قارئاً يقرأ : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحۡمِ طَيۡرٍ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴾ [الواقعة : ٢٠ـ٢١] قالت : فنحن إذاً صغارٌ حتىٰ نفرحَ بالفاكهة والطير ، فانظر رحمك اللهُ كيف لم تفرحْ بغير الله ، وعلمتَ أن كلَّ ما سواه كالشخشاخة التي يُسكَّتُ بها الأطفال) .

وكان يقول لأصحابه : (احذروا زخارف أقوال[١] أهل الرضا عن نفوسهم من المجادلين الذين اتخذوا العلمَ حرفةً وشبكةً يصطادون بها أمور معاشهم ، مع تكبُّرهم على الناس ؛ فإن هـٰؤلاء قد فاتهم خيرُ الدنيا والآخرة ، اتخذوا حسنَ الزِّيِّ شعاراً ، وتكبَّروا بذلك استكباراً ، وفي كلام الشيخ تاج الدين بن عطاء الله : « لأنْ تصحبَ جاهلاً لا يرضىٰ عن نفسه خيرٌ لك من أن تصحبَ عالماً يرضىٰ عن نفسه » .

وكان يقول : (مما جرَّبناه فصحَّ : أنَّ من أراد قضاءَ حوائجه ودفعَ مضاره فليرفعِ

---

(١) في (و ، ي) : (احذروا أحوال. . .) ، وفي (ط) : (احذروا ردفة أحوال. . .) .

الأمرَ إلى الله تعالىٰ قبل أن يُعلِمَ به أحداً من المخلوقين ، هـٰكذا عادةُ الله مع مَنْ يتعلَّق به أولَ أمره ، فاعمل علىٰ ذلك ؛ فإنه كالكبريتِ الأحمر ، والمعينُ علىٰ ذلك الصبر) .

وكان يقول : (عليك أيُّها المريد بصحبة صاحبِ الحال ، فإن لم تجدْهُ فعليك بصاحبِ القال ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة : ٢٦٥]) .

وكان يقول : (إذا رقي العارفُ المراقي العالية قلَّت أشكاله وأتباعه ؛ لدقَّة مداركه علىٰ غالب الأفهام ، فلا تكاد تجد له تلميذاً) .

وكان يقول : (لا ينبغي لفقيرٍ أن يقولَ عن أحدٍ من الفقراء : فلانٌ من إخواننا إلا إن كان دونه ، فإنْ كان فوقَه فليقل : أنا من خدَّامه) .

وكان يقول : (لا تكتمْ عن شيخك شيئاً من أمرك ، فإنه ربما شفع في زلاتك التي قدَّرها الله عليك في اليقظة أن يجعلَها اللهُ تعالىٰ في النوم ، كما وقع لسيدي عبد القادر الجيلي : أنه كُشفَ له عن حال مريد أنه يزني بامرأةٍ سبعين مرة ، فقال : إلـٰهي ؛ اجعلْها في النوم ، فزنىٰ بها في المنام سبعين مرة) .

قلت : وهـٰذا من باب ترتب الأسباب علىٰ مُسبباتها في الدائرة السفلية ، وإلا فما سبق به العلمُ الإلـٰهي أنه يقعُ يقظةً لا يُمكن تغيُّره ، والله أعلم .

وكان يقول : (إذا جالستَ العلماء فاذكرْ لهم الرواياتِ الصحيحةَ ، والأقوالَ المشهورة في مذاهبهم دون الغريبة ، ولا تذكر لهم شيئاً من علوم الكشف إلا إنْ وافقت نقولهم ، وإذا جالستَ الصوفية فكنْ كيف شئتَ بشرطِ الأدب ، وعدم رؤيتك نفسك عليهم) .

وكان يقول : (عليك بتكثير سواد القوم ؛ فإن : « منْ كثَّرَ سوادَ قومٍ فهوَ منهمْ »(١)) .

وكان يقول : (عليك بصحبة الفقراء ، لو لم يكن إلا أخذهم بيدك في الدنيا والآخرة إذا عثرتَ لكان فيه كفايةٌ) .

---

(١) أورده الديلمي كما في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٥٦٢١) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (١١٧٠) ، وتقدم تخريجه (٢/ ٢٢٦) .

وكان يقول : (ينبغي للفقراء أن يتعاهدوا على أن كلَّ من سبقَ منهم إلى حضرةِ الله تعالىٰ يكون وسيلةً لصاحبه عند الله عزَّ وجل) .

وكان يقول : (إنما كانتِ النارُ تقول للمؤمن يوم القيامة : « جزْ يا مؤمنُ ، فقدْ أطفأَ نورُكَ لهبِي »[1] ؛ لأنه تخلَّق باسمه « المؤمن » وأمَّنه الناسُ على أنفسهم وأموالهم) .

وكان يقول : (بلغنا : أنه يُؤتىٰ بمن اسمُه محمد يوم القيامة ، فيقول الله عزَّ وجل له : أما استحييتَ حين عصيتني وأنتَ سميُّ حبيبي ؛ لـٰكنِ اذهبْ فادخلِ الجنةَ ؛ فإني أستحي أن أعذِّبَ بالنار من اسمُه محمد) .

وكان يقول : (صحبةُ المبتدئ للمنتهي الذي لم يتنزل للمريد غيرُ نافعةٍ ، لا سيما إن كان المنتهي خضريَّ المقام المباين لحكم عالم الملك والشهادة ، وفي قصة موسىٰ مع الخضر كفايةٌ لكلِّ مُعتبر) .

وكان يقول : (التسليمُ للقوم أسلمُ ، لـٰكنَّ الاعتقاد فيهم أغنمُ ، فكم استغنىٰ بصحبتهم فقير ! وكم جُبِرَ بها كسير ! وكم سُترَ بهم شنيع ! وكم ارتفع بهم وضيع ! وكم هلَكَ بهم ظالم ! وكم رَفَعَتْ بهم مظالم !)

وكان يقول : (قد غلطَ أكثرُ الناس في وصف أهلِ الصلاح بالنحول والتقشُّف فقط ، وليس الأمرُ كما ظنوا ، بل فيهم السمينُ والهزيل ، والمترفه والمتقشفُ ، ودليل السمين : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] وكان صلى الله عليه وسلم له عُكَنٌ من السِّمَن ، وكان عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه بديناً عظيمَ البطن ، قال : وكذا ذكرَ الحافظُ ابنُ حجر في صفة الأستاذ الكبير سيدي أحمد البدوي : أنه كان غليظَ الساقين ، عظيمَ البطن ، وأمَّا دليلُ المتقشف فكثيرٌ في السُّنة المحمدية) .

وكان يقول : (إذا صحبتَ القومَ فاحفظْ أسرارهم ، واحذرْ أن تُفشيها لمن ليس

---

(١) حديث رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢/٢٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٦٩) عن يعلىٰ رحمه الله تعالىٰ ، وتقدم تخريجه (١/٤٦٩) ، و(٢/٢٣٤) .

منهم ؛ فإن الله تعالىٰ ربما مقتَكَ علىٰ ذلك فخسرتَ الدنيا والآخرة ، قال : ولا يخفىٰ أن إظهار السر مثل كشفِ عورات الناس سواء ، وقد حرَّمَ الشرعُ كشفَها ، والتحدُّث بها ، وورد : « مَنْ سترَ عورةَ أخيهِ سترَهُ اللهُ في الدنيا والآخرةِ ، ومَنْ كشفَ عورةَ أخيهِ كشفَ اللهُ عورتَهُ حتىٰ يفضحَهُ »[1] وهـٰذا الأمرُ يقعُ كثيراً ممن يدخل طريق الفقراء بغير صدقٍ ويفارقهم بغير جميلٍ) .

وكان يقول : (إذا نقلَ إليك أحدٌ كلاماً عن صاحبك الذي تثقُ به فقل له : يا هـٰذا ؛ أنا من محبَّة أخي ووده علىٰ يقينٍ ، ومن كلامك علىٰ ظنٍّ ، ولا أترك يقيناً لظنٍّ) .

وكان يقول : (إياك وعثراتِ اللسان عند بعض الأصدقاء ، فقد أصيبَ من هـٰذا الباب خلقٌ كثير ؛ لثقتهم بأصدقائهم ، وما علموا أنَّهم جعلوا ذلك سلاحاً لوقت العداوة ، فإياك ثم إياك) .

وكان يقول : (من صحبَ ظالماً فهو ظالم ؛ لأن مشاهدةَ الظالم تُورثُ الغفلةَ عن الله عزَّ وجل والرضا عن النفس) .

وكان يقول : (إياكم وصحبةَ الأحداث والنساء والأمراء والسلطان والأغنياء ؛ فإن ذلك كله أهويةٌ للنفوس) .

وكان يقول : (إذا كثرتِ النياتُ كثرَ معنى العمل وإن كان مفردَ الصورة ؛ وذلك كمن صلىٰ صلاةً واحدةً ناوياً بها أداء الفرض ، وإحياءَ سُنَّة الجماعة ، والاقتداء به في ذلك ، وإظهار أبهة الإسلام[2] ، وتكثير سواد المصلِّين ، مع زيارة الزهدِ في الثناء عليه بذلك ، وعدم الالتفات إليه ، ونحو ذلك ، فهـٰذه حسناتٌ كثيرة خصت عملاً واحداً) .

وكان يقول : (العبادةُ مع محبة الدنيا شغلُ قلبٍ وتعبُ جوارحٍ ، فهي وإن كثرت

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٤٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وتقدم تخريجه (٢/ ٢٣٦) .

(٢) في (هـ ، ي) : (رِبقة) بدل (أبهة) ، والرِّبق في الأصل : حبل فيه عدة عُرىً ، وربقة الإسلام : عقد الإسلام .

قليلةٌ ، وإنما هي كثيرةٌ في وهم صاحبها ، وهي صورٌ بلا أرواح ، ولهـٰذا ترىٰ كثيراً من أرباب الدنيا يصومون كثيراً ، ويُصلون كثيراً ، ويحجون كثيراً ، وليس لهم نورُ الزهاد ، ولا حلاوةُ العبادة) .

وكان يقول : (إنما ضربَ اللهُ تعالىٰ مَثَلَ الحياة الدنيا بالماء ؛ لأن الماء إذا أمسكته تغيَّرَ ونتن ، وكذلك الدنيا إذا أمسكتها تصيرُ كذلك ، وتكونُ بليَّةً) .

وكان يقول : (أعلا الزهدِ زهدُ الرجل في المقامات العليَّةِ والأحوال السنية ، إلا ما استُثني شرعاً) .

وكان يقول : (إنما كانت الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ؛ يعني : من حين يحرمُ بها إلىٰ أن يُسلِّم منها ، لا يصحُّ أن يدخلَها معصيةٌ ؛ لأنها لا تقبلُ غيرَها ، وإنما كان ذكر الله أكبرَ ما فيها ؛ لأن الصلاةَ وإن كانتْ أشرفَ العبادات فقد لا تجوز في بعضَ الأوقات ، بخلافِ الذكر ؛ فإنه لا يمنعُ منه في أعزِّ الحالات التي تُمنع هي فيها) .

وكان يقول : (لا يجدُ أُنسَ الذكر إلا من وجدَ وحشةَ الغفلة) .

وكان يقول : (الذِّكرُ جهراً أفضلُ لمن غلبت عليه التفرقةُ ، والذِّكرُ سرّاً أنفعُ لمن غلبت عليه الجمعية) .

وكان يقول : (إنما اختارَ أهلُ التفريد الذكرَ بلفظِ الجلالة فقط دون « لا إلـٰه إلا الله » لوحشتهم من وجود النفي ، فمن لا يشهدُ إلا الله فلا نفيَ عنده ، وهـٰذا يختلف باختلافِ الأحوال ، فقد تغلبُ الأهواءُ علىٰ قلبٍ في بعض الأوقات ، وقد يغلبُ التوحيدُ ، وقد أوضحنا لك الميزانَ) .

وكان يقول : (كلُّ عمل شهدَ العبدُ له شركةً فيه فهو غيرُ متقبَّل ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر : ١٠] ومن شهد له عملاً فعملُه عند نفسه لم يبرح ، لا عند ربِّه ، ويؤيده قوله تعالىٰ : ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] يعني : ولا نفسه ، فافهم) .

وكان يقول : (الطامعُ كلبُ المطموع فيه ، فإذا لم يكنْ عنده طمعٌ سلم من ذُلِّ الكلاب) .

وكان يقول : (مِنْ لطفِ الله بعبده إذا شردَ عن حضرته أن يردَّهُ إليها بالتعنيف ؛ شفقةً عليه لا نقصاً فيه) .

وكان يقول : (سألتُ ربي ليلةً أن يُلهمني حمداً أحمده به ، فأملىٰ علىٰ لساني الوارد في الحال : الحمد لله ، ولله الحمد بكل المحامد علىٰ كل المحامد ، بجميع المدائح المحمودة ، في جميع الحمد والمدح بما يجب للحمد لك ، حمداً أزليّاً لا أولَ لبدايةِ حمده غير حمده ، بحمده نحمده في جميع المحامد الأزلية والأبدية ، بلسانِ جميعِ الحمد وفوقه في جميع خيرات المحمود بذاته لذاته ، وبصفاته لصفاته ، وبفعله علىٰ فعله) ، وأطال في ذلك في « شرح الحكم » عند قوله : (من لم يشكر النعم فقد تعرَّضَ لزوالها) انتهىٰ .

ومن تأمل من أهل العلم وجد ذلك كله داخل في قوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ، وعلم أنه صلى الله عليه وسلم أُعطي جوامع الكلم .

وكان يقول : احذرْ أن تشكرَ الحق لك ، وذلك بقصد أن يزيدَك من نعمه ، وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى ﴾ [لقمان : ١٤] يعني : قياماً بمجدي ، وامتثالاً لأمري لا غير ، فافهم ، وإن لم تفهم فتفهَّمْ .

وكان يقول : (من خاف علىٰ ذهاب إيمانه ، أو شيءٍ من أعماله الدينية ، أو شيءٍ من أمتعته الدنيوية ، فليقل : « باسم الله ، ما شاءَ الله ، لا قوة إلا بالله » ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف : ٣٩] ؛ أي : لو قالها الرجلُ لسلمتْ جنَّتُهُ من الآفات .

وكانت هـٰذه الآية هِجِّيرَ الإمام مالك[١] ، كان لا يقومُ ولا يقعدُ إلا قالها ، حتىٰ إنه كتبَها علىٰ باب داره ، وقال : جنةُ أحدنا داره .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٢] : (أي : بحقيقة الاستدراج ، وذلك أن يغطِّي عليهم حقائقَ الحقِّ ، ويُلقي في أوهامهم

---

(١) **الهِجِّير والهِجِّيرى** : الدأب والعادة والدَّيدن .

أنهم على صوابٍ وحقٍّ ، وأنهم لا يُؤاخذون على ذلك) .

وكان يقول : (من الذنوب التي لا يشعرُ بها غالبُ المريدين : قولهم لشيخهم : « لِمَ » فإنها تمنعُ المريدَ من المزيد) .

وكان يقول : (الطريقُ كلُّها أدب وتأديب ، ومن دام أدبُهُ دام سترُ عورته ، والعكس بالعكس) .

وكان يقول : (لا تجالسوا العارفَ إلا بالأدب ، فربما مُقتَ من ساء أدبُهُ معه ، ومُحي اسمه من ديوان القرب) .

وكان يقول : (من لم تؤدِّبْهُ الصوفيةُ فليس هو بأديب) .

وكان يقول : (التعبُّدُ مفتاحُ باب الخير ، فمن فاتته الأورادُ في بدايته فقد حُرِمَ الواردات في نهايته ، فعليك أيها السالكُ بالمداومة على الأوراد ، ولو بلغت المراد) .

وسئل مرة عن قولهم : (فلان عنده استعداد) ما حقيقة هـٰذا الاستعداد ؟ فقال : المرادُ به صقلُ القلب بأنواع المجاهدات حتى تصيرَ مرآةً للوجود الذي يقابله .

وكان يقول : (لا تطالبْ شيخَك بالجواب في كلِّ ما سألته عنه ؛ فإنه ثَمَّ من العلوم اللدنية ما لا يُمكنُ الجوابُ عنه حقيقةً ولا شريعةً ، وثَمَّ من الأمور المشهودة ما هو أوسعُ أن يدخل في ضيق العبارة ، وألطف من أن تكتشفه الإشارة) ، وأطال في ذلك بما يُبهر العقول .

وكان يقول : (الدرجاتُ في الدنيا دليلٌ على الدرجات في الآخرة ، والكراماتُ هنا دليلٌ على الكرامات في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] كما أن البعدَ هنا دليلٌ على البعد في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [الإسراء : ٧٢] والمراد بالعمى في الدنيا عَمَى البصيرة بالضلال عن طريق الله عز وجل) .

وكان يقول : (من كان علمُهُ متعلِّقاً بالظواهر فله في الجنة منزلةٌ تناسب الظواهر ، ومن كان علمُهُ متعلِّقاً بالبواطن فله منزلةٌ تُناسب البواطن ، ومن كان علمه بدنياً أو قلبياً

أو روحياً أو سرّياً فله في الآخرة منزلٌ يُناسبُ ذلك) .

وكان يقول : (علىٰ قدر سلوكِ الطريق يكونُ التحقيق) .

وكان يقول : (احذروا من قولكم : « ذهب الأكابر والصادقون من الفقراء » فإنهم ما ذهبوا حقيقةً ، وإنما هم ككنز صاحب الجدار ، وقد يُعطي اللهُ تعالى المتأخِّرَ ما لم يعطِ المتقدِّم ، كما أعطىٰ محمداً صلى الله عليه وسلم ما لم يُعطِ الأنبياء قبله ، ثم إنه قدَّمه في المدح عليهم ، ويا لله العجب من كثيرٍ من الفقهاء ! يُنكرون ما أجمع عليه الأولياء ، ويصدِّقون بما وصلَ إليهم علىٰ لسان فقيه واحد ، وربما يكون استنادُهُ في ذلك القول إلىٰ دليلٍ ضعيف ، ما ذاك والله إلا لغلبة الحرمان ، ثم إنهم مع إنكارهم إذا حصل لأحدهم مصيبةٌ أو تهمةٌ بباطلٍ يأتي إليهم وإلىٰ قبورهم ، يحمِّلُهم الحملةَ ، ولا يأتي إلىٰ ذلك الفقيه الذي قَبِلَ قولَهُ وقدَّمه عليهم ، وإنما كان اللائق به العكسَ ، فإياك أن تُنكرَ علىٰ أصحابِ الوقت ، فتستوجب المقت ، ومن أنكر علىٰ أهل زمانه حُرمَ بركةَ أوانه) .

وكان يقول : (إياك والبحثَ مع الجاهل المركَّب الذي لا يدري ، ويعتقدُ أنه يدري ، فإنْ بحثتَ معه اتَّسع المجال ولم يرجع إليك ، فأرحْ نفسَك منه) .

وكان يقول : (إياك أن تقرأ العلمَ علىٰ من يحبُّ الدنيا ؛ فإنك تسرقُ منه تلك الصفات شئتَ أم أبيت) .

وكان يقول : (إذا رأيتَ نفسَك غيرَ موادِدة لأهل الله فاعلم أنك مطرودٌ عن باب الله) .

وكان يقول : (إذا رأيتَ مَن رُزق العلوم ، وفُتح له خزائن الفهوم ، فلا تحاججْهُ بنقل الطروس ، ولا تُجادلْهُ بعزة النفوس وتقلْ : هـٰذا لم نجده في الأسفار عن أحدٍ من الأخيار ؛ فإن المواهبَ تفوقُ المكاسب) .

وكان يقول : (من أنكر ما لم يجد ، حُرِمَ بركةَ ما وجد ، ومَنْ كان كثيرَ النَّكير ، فهو فاقدٌ للتنوير) .

وكان يقول : (تأوَّلُوا الجميلَ للرجل الجليل) .

وكان يقول : (من علامة من يدَّعي أنه بر أنه لا يؤذي الذر)(١)

وكان يقول : (من علامةِ من أُذن له في الكلام تلذُّذُ السامعين بكلامه) .

وسئل عن قول بعضهم : (ما فعلت كذا إلا بإذنٍ من الله) : (مرادهُ بالإذن : نورٌ يقع في القلب ، فيثلج له الصدر ، وليس ذلك بحجَّةٍ لفقد العصمة ، فافهم) .

وكان يقول : (كلُّ ما تقوله وتفعله في هذا الكون هو كَنَغمَةِ الصَّدىٰ ، ما برز منك رُدَّ عليك مثله) .

وكان يقول : (العابدون في وهمٍ وتقييد ، والعارفون بالله في فرح وتأييد) .

وكان يقول : (لا تكن ممن يعبدُ ليُعبد ، ولا ممن يُسوِّدُ الجباه للجاه ، بل اعبد ربك لا لغرضٍ ولا لعرض) .

وكان يقول : (كلُّ واردٍ لا يوافقُ ميزانَ الشرع فهو ظلمة) .

وكان يقول : (الواردُ لا يُستجلَبُ ولا يُدفع ، فإنْ دُفعَ كان عناءٌ وتعب وعلل)(٢)

وكان يقول : (اتِّباعُ شهوات النفوس هو الذي نكَّس الرؤوس) .

وكان يقول : (ظهورُ الأخيار من غير اختيار) .

وكان يقول : (من علامة المعتنىٰ به في الأزل : ألا يُسلب ما مُنح ، ومن رام مزاحمةَ أهلِ العناية وقع في شِرْكِ العناء والتعب ، ولا يُقضىٰ له أرب) .

وكان يقول : (إذا رأيت نفسَك قليلَ العمل فاستمسك بأهلِ الحسب يُلحقوك بأهل الأعمال ؛ لحديث : الرجل يحبُّ القومَ ولما يلحق بهم ، قال : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ »)(٣)

وكان يقول : (من كان له بالتعظيم بين العوامِ صورة ، لم يكن له بالتخصيص عند

---

(١) في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٤٢) . (من ادَّعىٰ أنه بر ، فلا يؤذي الذَّر) .

(٢) كذا في النسخ بالرفع ، و (كان) هنا تامة .

(٣) روى الحديث البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤٠) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وتقدم (٢/ ٢٧ ، ٧٠ ، ١٩٨) ، و(٣/ ٣٤٢) .

أهل التحقيق صورة ؛ وذلك لأن محبَّ الله مشهور ، ومحبوبَ الله مستور ، وقد يجمعهما اللهُ تعالىٰ لواحدٍ ، فقد كان صلى الله عليه وسلم مشهوراً مستوراً) .

وكان يقول : (إساءةُ الأدب علىٰ أهلِ الرُّتب تُوجب العطب) .

وكان يقول : (من العجبِ ذكرُ الله وهو حاضرٌ قريب ، فما بقي للذِّكر سُلطانٌ إلا علىٰ وجه التعليم ، أو حال غيبة الذاكر عن المذكور) .

وسئل مرة عن المراد بقول القوم : (قيل لنا كذا في الليل) فقال : (مرادُهم بذلك : إما هاتفُ الحقيقة ، أو سماع صوت المَلَكِ من غير رؤية شخصه ، أو رؤيته علىٰ غير صورته الأصلية ، أو مرادهم ما يسمعونه من نطق قلوبهم ، أو ما يُفهم من حال الشيء ، وهٰذا الأخير خاصٌّ بالمريدين) .

وكان يقول : (من كان للناس أرضاً فهو لربِّه أرضىٰ ، ومن على الناس تعالىٰ لا يُقال له تعال) .

وكان يقول : (إذا رأيتَ لنفسِك في المنام مبشرةً حسنة . . فلا ترضَ عن نفسك حتىٰ تعرفَ رضا الله عنها) .

وكان يقول : (رُبَّ شخصٍ مُزار حمَّلَ الزائرَ الأوزار ، وبالعكس ، فتفقَّدوا نفوسَكم عند قدوم الزائر عليكم) .

وكان يقول : (من حمَّلَ الفقيرَ ما وردَ عليه من النكد ، فكأنه بال عليه إذا ورد) .

وكان يقول : (لا تستقلَّ بالعالِم الفقير ، ولا تنظرْ إليه بالتحقير ، فربما تقدَّم علىٰ علماء الزمان ، إذا جاء الأوان) .

وكان يقول : (شيخُ الأمير طبلٌ كبير ، وشيخُ الفقير عبدٌ حقير ، وشيخ السلطان أخو الشيطان) .

وكان يقول : (الأستاذُ : هو من كمل الدوائر ، وانطوىٰ فيه علمُ الأوائل والأواخر ، ويُسمَّىٰ بالعالم المطلق ، فكلُّ أستاذٍ شيخٌ ولا عكس) .

وكان يتمثَّلُ كثيراً بقولِ الشيخ محيي الدين إذا استغربَ أحدٌ قولاً للفقراء : [من الطويل]

تـركنَـا البحـارَ الـزاخـراتِ وراءَنـا   فمنْ أينَ يدري الناسُ أينَ توجَّهنا

وكان رضي الله عنه يقول : (كان سجودُ الملائكة عليهم السلام لآدم عليه السلام إشارةً لتواضع الصغير للكبير ، وإظهاراً للكرامةِ بظهورِ صورته بسِمَة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أن رأسَ آدم عليه السلام ميم ، ويديه حاء ، وسرَّته ميم ، ورجليه دال ، وكذا كان يُكتب في الخطِّ القديم محمد ، وإنما لم تظهرِ اليدُ الأخرىٰ حتىٰ يكون يميناً وشمالاً هـٰكذا محمد ؛ لأن الأولَ أعظمُ في المدح ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينظرُ من خلفه كما ينظرُ من أمامه ، فيصيرُ يسارُ الخلق يميناً لذلك الوجه المختصِّ به صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا قال بعض العارفين : لا يُقال ليدِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يسار ، وإنما يُقال : اليمينُ الأول ، اليمين الثاني ، أو يمين وجهِهِ ، ويمين خلفه .

وللشيخ كلامٌ كثير في كتابه « القانون » وفي « شرح الحكم » .

وفي هـٰذا القدر كفاية ، والله تعالىٰ أعلم .

ودفن رضي الله عنه في تربة السَّادة الشاذلية بالقَرَافة مع جملةِ أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٦٧) الشيخ الصالح سيدي عمرُ الكردي رضي الله عنه[١]

كان مُقيماً بزاويته علىٰ ساحل بركة الخازندار[٢] ، خارج جامع الملك الظاهر بيبرس .

وكان زاهداً ورعاً ، وكان يغتسلُ لكل فريضةٍ صيفاً وشتاءً .

وكان أكابرُ مصر يأتون إلىٰ زيارته ، ويصنعون له الأطعمةَ الفاخرة ، والحلاوات ، وكان لا يأكلُ لأحدٍ منهم شيئاً ، وإنما يفرِّقُهُ علىٰ أصحاب الكتب من الحشاشين ، فكان يضعُ قطعةَ الحلاوة في فمِ الحشاش ، ويقول : يا أخي ؛ ما لي أرىٰ عيونَكَ حمراء ، وهو متبسم .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٥١) (٣٢٥) .

(٢) في مصادر ترجمته : كان يقيم بجامع قيدان ، علىٰ الجانب الشرقي للخليج ، علىٰ باب الفتوح .

وكان عنده جماعةٌ من النقباء لقضاء حوائج الناس عند الأمراء وغيرهم ، وكان لا يمكِّنُهم من الأكل من أطعمة الناس ، ويقول لهم : كلوا من طعامي ، فكانوا يُنكرون عليه ذلك ، فجاءه يوماً مطابقُ حلوىٰ من خوند الخاص بكية ، فقال للنقباء : املؤوا لكم طبقاً من هـٰذا وغطُّوه ، ففعلوا ، ثم قال لهم : احملوه واتبعوني ، فخرجوا معه إلى الجزيرة التي في وسط البركة ، فجلس بهم ، وقال : اكشفوا الطبق وكلوا ، فكشفوه ، فوجدوه كلَّهُ خنفساً يسبح ، فقال لهم : كلوا ، فقالوا : هـٰذا خنفس ، فقال : هـٰكذا يصير في بطونكم ، فكيف تتكدَّرون مني إذا منعتكم من أكله ؟! فاستغفروا وتابوا ، وقبَّلوا رجله ، هـٰكذا أخبرني بذلك شيخُنا الإمام المحدِّث الشيخ أمين الدين إمامُ جامع الغمري ، وكان من أصحابه .

قال : ولمَّا دفناه في تربة السلطان خُشْقَدَم كان حاضراً سيدي إبراهيم المتبولي ، فقال : وعزَّة ربي ؛ ما رأيتُ أصبرَ منه علىٰ دفنه في هـٰذه البقعة التي هي قطعةٌ من جهنم ؛ يعني من جهة كونها عمارةَ السلطان .

مات رضي الله عنه سنة نيف وثمانين وثمان مئة .

ومنهم :

(٣٦٨) السيد الكبير سيدي إبراهيمُ المتبولي رضي الله عنه[1]

كان من أهل دائرة الولاية الكبرىٰ ، كثير التصريف في مصر وقراها .

وأخذ طريقَ القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهو شيخُ شيخنا سيدي عليٍّ الخواص رضي الله عنه .

وكان في بداية أمره يبيع الحمص المصلوق علىٰ باب زاويته بظاهر الحسينية عند جامع شرف الدين الكردي بن قيران[2]

وكان يرى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في منامه كثيراً ، فيُعلم بذلك أمَّهُ رضي الله

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٥٢) (٣٢٦) .

(٢) في (هـ) وحدها : (قيروان) .

عنه ، فتقول له : يا إبراهيم ؛ كل الناس يشاركونك في رؤية النبيَّ صلى الله عليه وسلم في المنام ، وإنما الرجلُ من يراه في اليقظة ، فبعد ذلك كان يراه في اليقظة ، ويحادثُهُ ، ويشاوره في أمورِهِ كما يشاورُ المريدُ شيخَهُ ، واشتهر بذلك بين الأولياء .

وهو صلى الله عليه وسلم هو الذي أشار علىٰ سيدي إبراهيم بحفر بئر الغيط الذي في بركة الحاج ، حين كان سيدي إبراهيم كلما حفرَ بئراً انهالت ، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : غداً أُرسل لك علياً ابنَ عمي يخطُّ لك علىٰ بئرِ شعيب نبي الله الذي كان يسقي منها غنمَهُ ، فخطَّ له الإمامُ عليٌّ علىٰ جدارها المردوم ، فحفر سيدي إبراهيم ، فوجد الجدار .

وهو الذي أمرَ سيدي إبراهيم بعمارة الزاوية التي ببركة الحاج ، وقال : يا إبراهيم ؛ عمِّرْ هناك زاويةً يأوي إليها المنقطعون والأيتام والمساكين ، واجعل فيها سماطاً ، وقل له : ما دام فيها اللقمةُ فبلاء الشرق مدفوع عن مصر[١] ، ويا ويل مصر إنْ رُفعت اللقمةُ منها ، وما دامت عامرةً فمصرُ عامرةٌ .

وأخبرني الشيخ جمال الدين الكردي : أن الغلاءَ وقعَ في عصر سيدي إبراهيم ، فاجتمع خلقٌ كثيرٌ عنده في الزاوية ، فكان يعجنُ لهم كلَّ يوم خمسة أرادب ، فيفرِّقها على الناس من غير إدام ، فاشتكوا من ذلك ، فقال للنقيب : امض إلى الخصِّ الذي في الغيط ، وارفع البرشَ[٢] ، وخذ للناس أدمَ يومهم ، فمضىٰ ، ورفع البرشَ ، فوجد قناةَ ذهبٍ تجري ، فأخذ منها كفايةَ يومهم ، ثم شاور الشيخ في الزيادة ، فقال له : يا ولدي ؛ الأمرُ إنما هو بميزان ، فخالف النقيبُ ومضىٰ ، ورفع البرش ، فلم يجد شيئاً .

وأخبرني أيضاً : أن شخصاً من الخوارج ببلاد الشرق كان اسمه الجعجاع ، وكان قد أفسدَ في البلاد ، وعجز السلطانُ عنه ، فأخذ سيدي إبراهيم عسيباً من النخل ، وجعله قوساً ، وجعل له وتراً ، وأخذ عوداً من القرطم[٣] ، ووضع فيه سلاية من

(١) في (ز ، ي) : (مرفوع) بدل (مدفوع) .
(٢) **البُرْش** : حصير من سعف النخل .
(٣) **القرطم** : حب العصفر .

النخل ، وقال لبعض الفقراء : اسحبْ هـٰذا القوس وسمِّ الله ، وانشبْه ، وقلْ : اللهم ؛ اجعله في نحر الجعجاع ، ففعل ، فأرَّخوا ذلك ، فأتى الخبرُ بأن الجعجاع أتاه سهمٌ فيه سلاية ، فوقع في نحره في الوقت الفلاني ، فمات .

قال الشيخ جمال الدين : وزرتُ السيدة مريم عليها السلام مع سيدي إبراهيم المتبولي ، وقرأ عندها ختماً ، فرأيتُ تلك الليلة السيدَ عيسىٰ عليه السلام وقال لي : سلِّم على الشيخ إبراهيم ، وقل له : جزاك اللهُ عن الوالدة خيراً .

قال الشيخ جمال الدين : واشتقتُ مرةً إلىٰ والدتي ببلاد الأكراد ، وأنا مقيمٌ عند سيدي إبراهيم في زاويته ببركة الحاج ، فشاورت الشيخ ، فقال لي : اصبر ، فدخلتُ الخلوة ، فأخذتُ الحصى الذي أعدُّ به وردي ، وذلك بعد العصر ، فرأيت أني سافرتُ إلىٰ بلاد الأكراد ، واستقبلني أهلي بالأعلام ، وأقاموا الذِّكرَ حتىٰ دخلتُ دار الوالدة ، فسلَّمت عليها ، وأقمت عندها أياماً ، فضعف خطيبُ البلد ، فسألوني أن أخطبَ لهم مكانه ، وأُقرئ الأولاد ، فأقمتُ عندهم تسعة أشهر .

ثم اشتقتُ إلىٰ سيدي إبراهيم ، فقلت لهم : لا بد من سفري ، فقالوا : لا بد من هدية ، وما هنا الآن شيءٌ ، فاصبر حتىٰ يحصلَ لك هديةٌ ، فلم أطعهم ، وخرجتُ من البلد ، ونزلتُ من كومها ، فوجدتُ نفسي في الخلوة في بركة الحاج ، فخرجتُ أُسلِّمُ على الناس ، فقالوا لي : ما لك يا يوسف ؟! فقلت لهم : إني كنتُ مسافراً عند الوالدة ، ولي عنكم غائبٌ تسعة أشهر ، فسخروا مني ، وصاروا يتضاحكون ويقولون : يوسف خفَّ عقلُهُ ، فبلغ الشيخَ ذلك ، فأمرني بالكتمان ، ثم إن الوالدة جاءتْ بعد سنتين ، وأخبرتْ أني مكثتُ عندها تسعة أشهر ، وقالت : ما قدرتُ عليه أن يقعدَ حتىٰ يغلق السنة ، فعلمَ الفقراءُ أنَّ تلك كانت كرامةً لسيدي إبراهيم .

وكان رضي الله عنه كثيرَ العطب لمن يُؤذيه ، أو يؤذي جماعته ، أو يُنكر عليه .

وصلَّىٰ وراءه القاضي ابنُ مظفر مرةً وهو لا يعلم ، فلما سلَّم قالوا له : كان إمامُك سيدي إبراهيمَ ، فأعاد الصلاةَ ، فبلغ الشيخَ ذلك ، فقال : قولوا له : اللقمةُ الكبيرة ما تنزل من الزور ، وقولوا له : يقول لك إبراهيم : إن هـٰذه البوصة التي في يدك تكتبُ

بها أمرٌ من عتلةِ حرامي[١] ، فوقَّع القاضي في تلك الجمعة في كتابة مسطور زورٍ ، أخذ عليه مئة دينار ، فبلغ ذلك السلطان قايتباي ، فعزله عزلاً مؤبداً ونكَّل به ، فلم يزل في بيته حتىٰ مات .

وردَّ الكاشفُ مرةً شفاعته ، وقال : إن كان إبراهيمُ شيخاً ينفخني ، فبلغ الشيخَ ، فقال : ينفخُهُ اللهُ ، فانتفخ تلك الليلة حتىٰ تمزَّقتْ بطنه ومات .

وجاءه مرةً شيخُ المطرية ونازعه في رزقةٍ كان سيدي إبراهيم يزرعُها فولاً للفقراء ، فقال له سيدي إبراهيم : رح في حالك وإلا جاءتك دويدة تقتلك ، فسخرَ بقول الشيخ : (دويدة) ، ثم رقدَ تحت الجُمَّيزة والفقراء ينظرونه[٢] ، فدبَّتْ عليه عقربٌ ولدغته في بيضه ، فمات في الوقت .

وتعرَّضَ له الوزير قانم التاجر[٣] مرةً في فاكهة الغيط ، وأراد أن يجعل عليها مالاً للمكَّاسين ، فأرسل الشيخ له في ذلك ، فقال : هـٰذا مال السلطان ولم يرجعْ ، فوقع في تلك الليلة في الخلاء ، فاندقَّتْ عنقُهُ ، فوجدوه ميتاً ولحيته في حلق السنداس[٤]

وكان يقول : (كل فقير لا يقتلُ من الظلمة بعدد شعر رأسه ما هو فقير) .

وقال له مرةً فقراءُ عصره : الفقراءُ من شأنهم احتمالُ الأذىٰ ، فقال : صحيح ، ولـٰكن الحق تعالىٰ هو الذي ينتصرُ لهم ؛ لاستنادهم إليه ؛ فإنهم كالطفل في حِجْر وليِّه ، أو كولد اللبوة في حِجْرها ، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يأخذه منها

ومكثَ رضي الله عنه عمرَهُ كلَّهُ لم يغتسلْ من جنابةٍ ؛ لأنه لم يُجنبْ قطُّ .

وكانوا إذا قالوا له : يا سيدي ؛ لمَ لا تتزوَّج ؟! يقول : يا أولادي ؛ ما في ظهري ذريةٌ ، ونفسي مشغولةٌ عن الشهوات بما بين يديها من أهوال يوم القيامة .

---

(١) العتلة : هِراوة غليظة من حديد أو خشب يُهدم بها .

(٢) الجُمَّيز : ضرب من الشجر يشبه حمله التين ، ويعظم عِظَم الفرصاد .

(٣) قانم التاجر الجركسي المؤيدي : مملوك ، أصبح أميراً وعظم جدّاً ، وعمّر الأملاك . الضوء اللامع ٦/ ٢٠٠ .

(٤) السنداس : بيت الخلاء .

وكان رضي الله عنه إذا جاءه الشابُّ وقال له : يا سيدي ؛ خاطرك عليَّ يحفظني اللهُ عن الوقوع في الفواحش . . يقول له : في همَّتِكَ أنك تتزوج إذا قدرتَ علىٰ مؤونة التزويج وإلا تكون مثلي ؟ فإن قال له : أريدُ أن أتزوَّجَ يُعطيه حبلاً ، ويقول له : شدَّ بهٰذا وسطَكَ ، فما دام في وسطِك لا تتحرَّكُ لك جارحةٌ ، وإن قال له : أكون مثلَكَ يمسحُ علىٰ ظهره بيده ، فلا تنتشرُ له جارحةٌ ما دام حيّاً ، هٰكذا أخبرني الشيخ بدرُ الدين النشَّار من أصحابه .

وكان إذا بلغَهُ عن أحدٍ أنه أنكرَ عليه شيئاً من أحواله يقول : يا أولادي ؛ أنا سمٌّ ، فما للناس بي ؟!

وكان رضي الله عنه يكره للفقير الفراغ من أعمال الدنيا والآخرة ، ويقول : (يا أولادي ؛ ما خُلقَ العبدُ في هٰذه الدار إلا للحرث ، وعمل الصنائع ، والأكل من عمل يده ، ولا يغرنَّكم رواجُ أمر هٰؤلاء الذين يجلسون في الزوايا يتعبَّدون ؛ فإنهم عَيْلَةٌ على الناس ، وأجر طاعاتِهم يومَ القيامة للذي أطعمهم اللقمة ، بخلاف من أَكَلَ من كسب يده ، فإن عمله له) .

ودخل له مرةً فقيرٌ ، وكان محترفاً ، فترك الحرفة ، وجلس يتعبَّدُ بين الفقراء ، فقال له الشيخ : لِمَ تركتَ حرفتَكَ ؟! فقال : يا سيدي ؛ لمَّا دخلتُ الزاويةَ رأيتُ بومةً عمياء في طاقةٍ ، فنظرتُ من أين تأكلُ ، وإذا بصقرٍ يأتيها كلَّ يوم آخر النهار بلحمٍ تأكله ، فقلتُ في نفسي : أعملُ مثل هٰذه البومة العمياء ، فقال له الشيخ : ولأيِّ شيءٍ يا ولدي لا تعملُ مثل الصقر تأكلُ وتُطعم غيرَك ، فتاب الفقير ، ورجعَ إلى الحرفة .

وكان يقول : (جميعُ الفقراء الذين لا حرفةَ لهم ، ويأكلون من صدقات الناس نساءٌ ، وإن كان لهم لحىً ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء : ٣٤]) .

وكان رضي الله عنه يتفقَّدُ كلَّ من جاور عنده ، ويقول : (لا أحد يُقيم عندي إلا إن كان والداه راضيين عنه ؛ وذلك لأن اللهَ تعالىٰ يغضبُ لغضب الوالدين ، ومَنْ غضبَ اللهُ عليه كيف يقدرُ إبراهيمُ يجلب له خيراً ؟!) .

ورأىٰ مرة شخصاً كثيرَ العبادة ليلاً ونهاراً ، لا يفترُ ، وليس له ترقٍّ بأعماله ، فقال

له : يا ولدي ؛ ما لي أراك كثيرَ العملِ ناقصَ المقام ؟! فقال : يا سيدي ؛ والدي ماتَ وهو ساخطٌ عليَّ ، فقال له : تعرفُ قبرَهُ ؟ فقال : نعم ، فقال : اذهبْ بنا إليه نترضىٰ خاطرَهُ عليك ، فذهبا إلىٰ قبره ، فناداه الشيخُ : يا أبا محمد ؛ فقال : نعم ، فقال : اخرجْ أكلِّمْك كلمةً وترجعُ ، فقامَ من القبر ينفضُ الترابَ عن رأسه ، فقال : ولدك هـٰذا أخبرَ أنك متَّ وأنت ساخطٌ عليه ، فقال : صدق ، فقال : اصفحْ عنه ، فصفح وقال : قد رضي خاطري عليه ، فقال : ارجع إلىٰ مكانك ، فرجع ، فمن ذلك اليوم حصلَ لولده الخير ، هـٰكذا أخبرني سيدي الشيخ جمال الدين الكردي ، وقال : كنتُ رفيقَ الشيخ لما أحيا الميت .

وأخبرني أيضاً قال : اعترضتِ امرأةٌ حمارةَ الشيخ وهو راكبٌ إلىٰ بركة الحاج ، وقالت : يا سيدي ؛ ابني أسير في بلاد الفرنج ، وما أعرفُ مجيئه إلا منك ، فقال : هـٰذه لسيدي أحمدَ البدويِّ ما هي لي ، فعانقتِ الحمارةَ ، فوقف الشيخ ، ونادى ابنَها في بلاد الفرنج ، فأجاب ، فقال لها : ها هو ابنك ، فرأته بعينها ، فتلاقت هي وإياه بحضرة الشيخ ، وذهبت به .

وأخبرني أيضاً قال : كان الشيخُ في وليمةٍ على الخليج أيامَ النيل ، فوقع ولدُ صاحب الوليمة في الخليج ، فغرق ، فتكدَّروا لذلك ، وقالوا للشيخ : ما نعرفه إلا منك ، فقال : اصبروا عليَّ إلىٰ غدٍ ، فصبروا ، فأرسلهم إلى الخليج خارج القاهرة ، فوجدوه جالساً حيّاً ، فأخذوه .

وكان به مرضُ الحصىٰ وأسرُ البول ، فكان يجعرُ كالثور ، ويقول : يا ربِّ ؛ لا أسألُكَ تحويلَ ما قدَّرتَ عليَّ ، وإنما أسألك اللطفَ بي .

وكان إذا أخبرَ بشيءٍ يقعُ ، ولا يُمكن مخالفته .

ووقع فزعٌ كبير بين بني حرام وبني وائل في ناحية قها بالقليوبية ، فأرسل الشيخُ وراءهم ، وأمرهم بالصلح ، فأبىٰ بنو وائل ، فقال : وعزَّةِ ربي ؛ ما بقوا يفلحوا إلىٰ يوم القيامة ، فنفذ الأمر فيهم ، فحركاتُهم دائماً معكوسة ، وبنو حرام لم يزالوا ظافرين عليهم .

وكان يقول : (أنا أمانٌ لمصرَ ما دمتُ فيها ، فإذا مت فيا ويل مصر بعدي) .

وكان يقول : واللهِ ؛ ليوزعن مقامي علىٰ سبعين رجلاً ويعجزوا عن القيام به ، فقال له الشيخ جمال الدين الكردي : فوظيفةُ خدمة الحُجْرة النبوية تكون لمن بعدكم ؟ فقال : لشابٍّ يقال له : محمد بن عنان سوف يظهرُ من بلاد الشرقية .

وأخذ ابنُ البقري المباشرُ بقرةَ رجل من مُحبِّي الشيخ ، فركب الشيخ إليه شافعاً ، فوجده عند شيخه ابن الرفاعي بالقرب من الرميلة ، فكلَّم ابنُ البقري الشيخَ بكلامٍ فيه قلةُ حياء بحضرة ابن الرفاعي ، فقال سيدي إبراهيم : إن شيخَك هـٰذا الذي تتعزز علينا به كان أبوه قرَّاداً في بلاده[1] ، فما فرغ الشيخُ من كلامه إلا وحَوْشُ ابن الرفاعي فيه قرودٌ ، ودباب ، وحمار ، وكلب حتىٰ رآهم جميعُ الحاضرين ، ثم غابوا عن أعين الناس ، فاستغفر ابنُ البقري وشيخُهُ ، وقبَّلوا يدَ سيدي إبراهيم ، وردُّوا للفقير البقرة .

وأخبرني الشيخ أحمد الغزاوي أحدُ أصحابه قال : دخل علىٰ سيدي إبراهيم رجلٌ ومعه ولدٌ صغيرٌ ، فبكىٰ ، فقال لوالده : هزَّ له هـٰذه النبقةَ ، فهزَّها ، فنزل منها ثلاثٌ وثمانون حبة نبق ، فقال : إن ولدَك يتزوَّجُ من النساء بعدد هـٰذا النبق ، فعاش الولدُ حتىٰ تزوجَ ثلاثاً وثمانين امرأة كما قال الشيخ .

وأخبرني الشيخ محمد النامولي أحدُ أصحابه قال : كان الشيخُ كثيرَ التورع ، لا يأكلُ إلا من طعامِ قليلٍ من الناس ، وكنا إذا سافرنا إلىٰ عمارةِ الجامع الذي بناحية طندتا يقول لنا ونحن في بركة الحاج : العشاءُ الليلة عند الشيخ علي بن الصعيدي بساقية أبي شعرة ـ يعني : جدي الأدنىٰ ـ وكان مدققاً في الورع ، وكان سيدي إبراهيمُ يحبُّ الأكل من طعامه .

قال : واعترضنا أهل برشوم التين يُطعموا الفقراء تيناً ، فقال الشيخ : التينُ عند الشيخ عليٍّ في ذلك البر ، فقلنا في أنفسنا : كيف نتركُ بلدَ التين ونطلبه في غيرها ؟! قال : فأول ما لقينا جدَّك أخرجَ لنا قفةً كبيرةً ملآنةً تيناً .

وكان إذا عزمَ عليه أحدٌ من الأمراء ، وتبعه أحدٌ من الفقراء يقول لهم : ارجعوا ؛ فإني عازمٌ علىٰ أكل السُّمِّ .

---

(١) في (ط ، ي) : (تتصرف) بدل (تتعزز) .

وكان يقول : إذا كان طعامُ الأمراء معجوناً بالسُّمِّ فكيف بطعام الملوك ؟! يعني : فإنه كلما عظمتْ سطوةُ صاحب الطعام الدنيوية كلما كثر الحرامُ فيه غالباً .

وكان يقول : ما بيني وبين أهل الجدال عامرٌ ، فسألت الشيخَ جمال الدين عن سببِ ذلك ، فقال : لكثرة إنكارهم عليه بغيرِ حقٍّ .

ونام عنده مرةً منهم اثنان في بركة الحاج ، فرأوا عنده مملوكَيْنِ أمردين هربوا من أستاذهم خوفَ القتل ، ينامُ معهما ، فأنكر الفقيهان عليه ، فقال : إنما أحفظُ هـٰؤلاء من مثلِكما ممن لا يخافُ الله تعالىٰ ، فقالا : تقذف عرضَنا ؟! فقال الشيخ : ما أخبرتُ إلا بما يقعُ لكما ، فكبسَهُما الوالي بعد ليلة بأمرد في جامع الأزهر ، فأرسلا من بيت الوالي يسألانه الشفاعة ، وقالا : تبنا إلى الله عز وجل ، فصفح عنهما .

ثم بعد ذلك ، استفتيا عليه في ذلك ، فأفتى العلماءُ بتعزير الشيخ ، فطلباه برسولين من بركة الحاج إلى الصالحية ، وادَّعيا عليه بين يدي القاضي ، فقبض الشيخ علىٰ لحيته وقال : أما تبتما في بيت الوالي ؟! فقالا : كيف نتوبُ عن الأمرِ بالمعروف ؟! فزعق الشيخُ في وجههما ، فخرجا من الصالحية يجريان ، فاختطفتهما الرجال ، فوضعوهما في بلاد الفرنج ، فأرسلا يستغفران ويقولان : أحدنا يرعى الخنزير ، والآخرُ تنصَّر فتزوَّجَ بصبيةٍ أحبَّها ، ثم انقطع خبرُهما .

وكان سيدي إبراهيم يقول : (حكم أولاد الفلاحين الذين يقرؤون في جامع الأزهر حكمُ من سافر ليتعلَّمَ آلةَ الجهاد في سبيل الله ؛ من الدقاف ، والمصارعة ، ورمي النشاب ، واللعب بالرمح ، فلما صارَ أستاذاً في ذلك سافر للجهاد ، فوجدَ تاجراً معه مالُهُ وحريمه ، فاعترضه إبليسُ وقال : اقطعِ الطريقَ علىٰ هـٰذا ، وخذْ حريمَهُ وماله ؛ لأنك تعرفُ آلات المحاربة وهو لا يعرفها ، فسمع من إبليس ، وأبطلَ الجهاد في سبيل الله ، فكان ثمرةُ اشتغاله بالتعليم للجهاد كله حينئذ معصيةً ، وكذلك هـٰؤلاء المجادلون يتخذون علمَهم آلةً لحرب من يخاصمهم ، وينسون ما شُرع لأجله العلم ؛ من العمل والخشية والورع والزهد وغير ذلك) .

ورماه أهلُ بلدة متبول بولدٍ كان يخدمه ، فقال : هتك اللهُ ذراري من ذكرني بسوء ،

قال الشيخ شمس الدين المتبولي أحدُ أصحابه : فذريةُ هـٰؤلاء الذين دعا عليهم الشيخ [مهتوكون] إلى الآن[١] ؛ ذكورُهم مخنَّثون ، وإناثهم بنات خطا .

ورماه واحدٌ من أهل بلده أيضاً بفاحشة ، فقال : أسألُ الله إن كنتَ كاذباً أن يسوِّدَ نصف وجهك ، فصار له خدٌّ أسود كالزفت ، وكذلك ذريتُهُ إلىٰ وقتنا هـٰذا .

وكان يقول : (آخىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين سيدي أحمد البدوي وقال : يا إبراهيم ؛ قد آخيت بينك وبين رجلٍ ما في الأولياء أكبرُ فتوةً منه ، ولو علمتُ أن في الأولياء من هو أكبر منه فتوةً لآخيت بينك وبينه) .

ومن هنا كان سيدي إبراهيمُ يقول : لا تكبِّروا خبز زاويتي علىٰ خبز سيدي أحمد البدوي .

وشفع مرةً عند الوزير ، فلم يقبلْ شفاعته ، وقال : إن كان شيخاً ينفخني ، فقال الشيخ : ما أنا رايح حتىٰ أنفخك ، وإنما أُفوِّقُ سهمي[٢] ، فلا يُردُّ ، فلحقه تلك الليلة وجعٌ في قلبه ، فأصبحت جنازتُهُ على الباب ، فتأدَّبت الظلمةُ مع سيدي إبراهيم من ذلك اليوم ، فكانوا لا يردُّونَ له شفاعةً .

وكان يقول لأصحابه : (الفقيرُ لا يكون عملُهُ إلا بقلبه ، وليس له يدٌ ولا لسان ، فمن لم يكن له قلبٌ فلا ينبغي له أن يتصدَّرَ للشفاعات عند الظلمة ، فيضحكون عليه ويزدرونه) .

قال الشيخ جمال الدين الكردي : ونزلنا مرةً تحت الجُمَّيزة التي في المطرية ، فجاء جماعةٌ من الجند ، وجلسوا يشربون الخمرَ ، فأراد الفقراءُ أن يكسروا أواني الخمر ، فقال لهم الشيخ : من كان له قلبٌ فليكسرْها به ، فتوجَّه بعضُ الفقراء إلى الله تعالىٰ ، ووضع رأسَه في طوقه ، فانفلقتْ جرارُ الخمر ، وظنَّ كل أحدٍ أن صاحبه هو الذي كسرَ جرَّته ، فتضاربوا بالدبابيس حتىٰ سالَ دمُهم[٣] ، وركبوا ، فقال الشيخ : هـٰكذا غيِّروا

---

(١) في النسخ : (مهتوكين) بدل (مهتوكون) .

(٢) فوق السهم : إذا وضع السهم في الوتر ليرمي به .

(٣) الدبابيس : جمع دبوس : المقامع من حديد وغيره .

منكراتِ هٰذا الزمان ؛ فإن من يفعلُ بقلبه لا يُنسب إليه فعلٌ عند الناس .

قال الشيخ جمال الدين : وجاء جماعةٌ من رعيان غنم الأمراء ، فأطلقوا الغنم في برسيم الشيخ ، فقال لهم الشيخ : يا أولادي ؛ هٰذا برسيمُ الفقراء ، فأغلظوا على الشيخ وعلىٰ جماعته الكلام ، ثم إنهم أطلقوا على الشيخ وعلىٰ جماعته الكلابَ التي معهم في أعناقها أطواقُ الحديد ليعقروا الشيخ ، فجاء الكلابُ حتىٰ وقفوا بين يدي الشيخ [منكسي] الرؤوس[١] ، فصاح بهم الشيخُ ، فرجعوا فعقروا الرعاة ، ثم رجعوا مصاحبين للشيخ إلىٰ بركة الحاج ، فكانوا عنده في الغيط يحرسونه مدَّةَ حياة الشيخ ، وكانوا كلَّ قليل يمسكون له الذئاب .

وكان رضي الله عنه إذا رأىٰ عند المجاورين تقصيراً في الأعمال يخرجُ إلى المطبخ ، ويضرب الدستَ بالعصا ، ويقول : أنت الذي جمعتَ عندي هٰؤلاء المخاميل[٢] ، فلا يطلع النهار حتىٰ يتفرَّقَ ذلك اليوم كلُّ من كان عنده كسلٌ ، ويخرج من الزاوية من غير أنَّ أحداً يخرجه .

قال الشيخ جمال الدين : ودخل على الشيخ مرةً رجلٌ من أرباب الأحوال ، فتحادثَ معه طويلاً ، فقال الرجل لسيدي إبراهيم : إن الله أعطاني نفوذ البصر ، فأنظرُ مسيرة سنة ، ولا تنزلُ قطرةٌ من السماء ولا يطلعُ نباتٌ من الأرض حتىٰ أعلم به ، وذكر أشياءَ كثيرة ، فقال سيدي إبراهيم : وعزةِ ربِّي ؛ هٰذا أمرٌ أُعطيته وأنا طفل ، فلم أرضَ به ، ثم توَّب الرجلَ عن الوقوف مع مثل ذلك ، فولَّىٰ وهو يقول : جزاك الله خيراً يا مكمِّلَ الرجال .

وكان سيدي إبراهيم يُصلِّي الظهر دائماً في الجامع الأبيض برملة لُد ، وكان بعضُ الناس يُنكر عليه ذلك ، فكان إذا دخل وقتُ الظهر دخل الخلوة أو الغيط ، فيغيبُ ساعةً ثم يخرج .

قال الشيخ يوسف الكردي : وحضرتُ معه مرةً ، فقال لي : سلِّمْ على الإمام

---

(١) في النسخ : (منكسين) بدل (منكسي) .
(٢) في (ز) : (المخابيل) .

واسأله الدُّعاء ، فسلَّمتُ عليه ، ودعا لي ، ورأيته شاباً أمردَ نحيفاً ، لونه كلون الزعفران ، وكان [جمعٌ كبير] من الأولياء هناك(١) ، انتهىٰ .

وتبع سيدي إبراهيمَ علىٰ ذلك سيدي عليٌّ الخوَّاص ، فكان بعضُ الفقهاء الذين في حارته يقولون : كأنَّ اللهَ لم يفرضْ علىٰ هـٰذا البُرُلُّسي الظهرَ أبداً .

وكان سيدي إبراهيم يقولُ لمن رآه من أصحابه كثير الدعوىٰ : (يا ولدي ؛ لا تكبر فتفطم) .

وأخبرني سيدي عليٌّ الخوَّاص قال : أمرني سيدي إبراهيمُ أن أنحِّي الحشيش الذي يقطعه من مجاري الماء في الغيط ، فصرتُ أُنظِّفَ القناة وراءه ، فالتفتَ إليَّ وقال : يقولون في المثل : (نظِّفِ القناة يجري الماء) ، وهـٰكذا الفقير إذا نظَّفَ قلبه من مكروهات الحق تعالىٰ جرىٰ ماءُ الإيمان في قلبه جداول جداول .

وكان ينهىٰ أصحابَهُ عن الأخذ عن المتصوِّفة من أهل زمانه المتفعلين في أحوال القوم ، ويقول : إن هـٰؤلاء يُريدون أن يجعلوا شجرَ الشوك تفاحاً أو رطباً .

وكان يقول : (عليكم بمن يُسلِّككم وأنتم في حرفكم ، فإن الكاملَ من يُسلِّكُ الناسَ وهم في حرفهم كما كان صلى الله عليه وسلم) .

ولما وقع الشيخُ برهان الدين البقاعي في جانب سيدي عمر بن الفارض ، وانتصرَ العلماءُ لسيدي عمر ، وقالوا : إنه سلطان العشاق قال سيدي إبراهيم : وعزَّةِ ربي ؛ إنَّ عمرَ هـٰذا لم يُعطَ من علوم الأسرار ما يُغطي شارب ناموسةٍ ، ولو أنه ذاقَ شيئاً من أسرار الله لكتمَهُ عن غير أهله كما كتمَهُ أولياءُ الله تعالىٰ .

وكان يكره من يشتغلُ بأسماء البوني والسُّهْرَوردي ، ويتريض لها لأجل حصول ولايةٍ ، أو اتساع الدنيا عليه ، ويقول : (وعزةِ ربي ؛ عُبَّادُ الأوثان أكبرُ همَّةً من هـٰؤلاء ؛ فإنهم قالوا عن الأصنام : ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر : ٣] وهـٰؤلاء اشتغلوا بأسماء الله لتُقرِّبهم من الدنيا زلفىٰ ، مع أن أسماءَ الله تعالىٰ في غاية

(١) في النسخ : (جمعاً كبيراً) بدل (جمع كبير) .

العظمة ، فكيف يجعلون تلاوتها لحصولِ شيءٍ خسيس ؟! لو أُعطي للعبد بلا سؤال كان من عقله ردُّهُ والزهدُ فيه) .

وكان رضي الله عنه يتعمَّمُ بعِمامة الصوف الأبيض ، وربما يتطيلسُ في بعض الأوقات بالشملة الحمراء ، ويقول : (أنا أحمديُّ المقام) .

وكان إذا رأىٰ أنفَ إنسانٍ يُطلعه اللهُ تعالىٰ علىٰ جميع ما هو مُرتكبه من الفواحش .

وجاءته مرةً امرأةٌ بولدها تطلب أن تُقرئه القرآن ، فقال لها : ابنُك هـٰذا حرامي ، لا يجيء منه شيء ، فقالت : سلامةُ ابني من ذلك ، فخرجتْ به ، فبات في الخانقاه ، فسرق ، فقطعوا يده ثاني يوم .

وخلع عليه مرةً أميرٌ سلاريّاً[١] قيمتُهُ غاليةٌ ، فتحزَّم عليه بحبلٍ ، وعزق به في الغيط[٢] ، فصار كلُّه طيناً ، فقيل له في ذلك ، فقال : هـٰذا لا يُناسب الصلاة ، وإنما يُناسب الحرف .

وأخبرني الشيخ شمس الدين العباسي : أنه خرجَ مرةً إلىٰ سيدي الشيخ مَدْين من غير مشاورة سيدي إبراهيم ، فأخلاه ، وصار يذكرُ في الخلوة عنده ، فقال سيدي إبراهيم : أنا أُريدُ أجعلَهُ رجلاً وهو يريد أن يعملَ كالمرأة العجوز يشتغلُ بالسبحة وغيرُهُ يعولُه ، قال : فخرجتُ من عند سيدي مدين ، ورجعتُ إلىٰ سيدي إبراهيم ، فلم أفارقه حتىٰ مات .

ولما دنتْ وفاتُه خرج إلىٰ نواحي القدس ، وقال : إن متُّ في الطريق فادفنوني أيَّ موضعٍ وقفتْ فيه حمارتي ، فوقفتْ عند سيدي سلمان الفارسي[٣] ، **فدفنوه عنده** ، وعَمَّروا عليه مسجداً وطاحوناً للفقراء ، وعملوا له سماطاً هناك ، **وذلك في سنة نيف وثمانين وثمان مئة** .

---

(١) تقدم شرحها (٤/ ٤٧) .

(٢) عزق الأرض : شقَّها وكربها .

(٣) في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٠) : (فوقفت بإسدود تجاه قبر سلمان الفارسي رضي الله عنه) وإسدود : تقع إلى الشمال الشرقي لغزة ، والمعروف أن سيدنا سلمان دفن بالمدائن .

قال الشيخ أحمد الغزاوي : واشتهينا على سيدي إبراهيم في طريق القدس طعاماً ماوردية ودجاج في أوانٍ صيني ، وكنَّا نزلنا في منزلٍ ، فقال : تفرقوا تطهَّروا وتعالوا ، ففارقناه فتطهَّرنا ورجعنا ، فوجدنا سماطاً عظيماً فيه كلُّ ما اشتهينا ، فأكلنا منه ، ثم قال لنا : لا ترفعوا شيئاً من الأواني ، فتركنا السماط في البرية كما هو .

ومناقبه كثيرةٌ مشهورة في بلاد مصر رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٣٦٩) سيدي حسين أبو علي رضي الله تعالىٰ عنه[١]

المدفون بساحل بولاق .

كان من أكابر الأولياء أرباب التصريف ، وكان كثير التطورات ، يدخل عليه الإنسانُ فيجده سَبُعاً ، ثم يدخل عليه إنسانٌ فيجده جنديّاً أو فلاحاً أو فيلاً ، وهـٰكذا .

ومكث رضي الله عنه في خلوةٍ في غيط خارج باب البحر أربعين سنة لا يأكلُ ولا يشرب ، وبابُ الخلوة مسدود ، وليس له إلا طاقٌ يدخل له منها الهواء ، ثم إنه خرج بعد الأربعين سنة وأظهرَ الكرامات والخوارق .

وكان إذا سأله أحدٌ ذهباً أو فضة قبض من الهواء وأعطاه ما طلب .

وكان من لا يعرفُ حاله يقول : هـٰذا سيماوي[٢] ، وإنَّما كان معه حرف (كن) الذي يُعطيه الله لأوليائه .

ولما صحبه ابن الفنيش عمَّرَ له الزاوية ، وأصرف عليها ثلاثين ألف دينار ، قال الناس : إنما هـٰذا من عمل الكيمياء ؛ فإن ابن الفنيش كان يبيعُ السمك القديد علىٰ رأسه في شوارع مصر ، والحالُ : أن المصروف إنما كان من عند الشيخ .

ولما اتَّسعتِ الدنيا على ابن الفنيش ، وصارت مراكبُهُ تسافر إلى الهند برطلَ أعداؤه الخفراء بألف دينار ليقتلوا لهم الشيخ حسين ، فدخلوا عليه ، فقتلوه ، وحملوه في

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦١) (٣٢٧) .

(٢) نسبة إلى السيماء ، والسيماء مثل الكيمياء .

تليس إلى الكوم[١] ، وحفروا له في الليل ، ودفنوه ، ثم أصبحوا فوجدوه جالساً في الزاوية ، فتحيَّرَ الخفراء فيمَنْ قتلوه ، فحفروا الكَوم ، فلم يجدوا فيه أحداً ، ولعله تطورَ لهم ، فقتلوا الصورةَ المتطوِّرة .

ولما مكثَ في الغيط أربعين سنة كما مرَّ كانت أصحابُهُ عنده في الغيط ، فكانوا يأخذون أولاد النُّموس والثعالب ، وهي صغيرةٌ فيربُّونها ، فتصير تتبعهم حيثما مشوا ، فسُمُّوا نموسية .

وضربَ السُّلطان قايتباي رقابَ بعضهم لمَّا خرجوا عن ظاهر الشريعة .

ومنهم :

(٣٧٠) عبيد[٢]

وكان الشيخ عُبيد أحدُ أصحابه مخروقَ اللسان .

وكان يأمرُ السحابَ أن يُمطرَ فيمطرُ في الوقت .

وكان كلُّ من تعرَّضَ له بسوءٍ قتله بسرِّه في الحال .

وكان يتكلَّمُ في حقِّ الملأ الأعلىٰ بالكلمات التي تؤذن بأنهم تحتَ حكمه وتصريفه .

وطلع مرةً ناحيةَ الجعفرية ، فتبعه صغارُها يضحكون عليه ويستهزؤون به ، فقال : يا عزرائيل ، وعزَّةِ الله ؛ إن لم تقبض أرواح هـٰؤلاء بكرةَ النهار لأعزلنَّكَ من ديوان الملائكة ، فأصبحوا كلُّهم ميتين ، وكانوا سبعاً وخمسين صغيراً .

وقال له مرةً قاض : اسكتْ يا كلب ، فقال : اسكت أنت ، فخرسَ القاضي ، وبطل نصفه ، وعمي ، وصَمَّ إلىٰ أن مات .

مات سنة تسعين وثمان مئة ، وكانت أحواله غريبة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) التليس : وعاء يسوىٰ من الخوص شبه القفة .

(٢) تقدمت ترجمته ضمن ترجمة حسين أبي علي في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٢) (٣٢٧) ، وأفرده بالترجمة : المناوي في « طبقاته » (٣/ ١٩٧) ، والنبهاني في « جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٤١) .

ومنهم :

(٣٧١) سيدي أبو بكر الدقدوسي شيخُ سيدي عثمان الحطَّاب رضي الله عنه[١]

كان من أكابر الأولياء ، وكان يُنفق نفقةَ الملوك من غيرِ أن يكون له معلومٌ ظاهر ، وكان يقول للنقيب : اذهبْ إلىٰ فلان فقلْ له يُقرضني ألفَ دينار ، فيفعل ، فينفقُها على الفقراء والمساكين والأرامل ، ثم يجعلُ في الكيس ألفَ حصاة ، ويقول للنقيب : اذهبْ بها إلىٰ فلان وعدَّها له ، فيعدُّها ، فيجدها ذهباً .

ولما أقام بمكة كان له كلَّ يومٍ إردبُّ قمحٍ يطحنه للفقراء ، وألفُ رغيف .

وكان يأمر سيدي عثمان أن يُعطي كلَّ فقيرٍ صحنَ طعامٍ ورغيفاً ، قال سيدي عثمان : فكثرَ الناسُ عليَّ ، فصرتُ أكسر الرغيف نصفين ، فنهاني الشيخ عن ذلك ، وقال : لو كانوا مئة ألف لكفيناهم بحمد الله تعالىٰ .

قال سيدي عثمان : وكان للشيخ صاحبٌ يصحنُ الحشيش في باب اللوق ، فقال لي يوماً : اخرجْ معي حتىٰ أزوِّرَكَ شخصاً من أولياء الله تعالىٰ ، ففرحت ، فلما وصلنا إلىٰ مكانه وجدناه في خربةٍ يصحنُ الحشيش ، فتشوَّشْتُ في الباطن ، فاطَّلعَ عليَّ الشيخُ ، وقال : لا تتشوش يا عثمان ، فوعزَّةِ ربي ؛ ما أخذها شخصٌ من يدي وعادَ إليها أبداً ، فاستغفرتُ الله من إنكاري عليه ، فقال لي : يا عثمان ، سيصير لك شأنٌ عظيم عند السلطان قايتباي ، فلا يردُّ لك شفاعةً ، فكان الأمر كما قال الشيخ .

قال الشيخ عثمان : ولما حججتُ معه طلبتُ الاجتماع بالقطب ، فقال لي : يا عثمان ؛ لا تستطيعُ رؤيتَهُ ، فقلت : لا بد ، فقال لي : اجلسْ ، وغاب ساعةً ، فصرتُ أَرعدُ من الهيبة ، ورأسي تثقل حتىٰ كادت لحيتي تلتقي علىٰ عانتي ، فجاء هو والقطب ، فجلسا يتحدَّثان ساعةً ، ثم قال القطب لشيخي : يا أبا بكر ؛ استوصِ بعثمان خيراً ؛ فإنه سيصيرُ رجلاً ، ثم لما أراد الانصراف قرأ هو والشيخ الفاتحة ،

---

(١) في (ي) وحدها : (أبو علي) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٣٠٦/٢) (٣٣٤) .

وسورة (لإيلاف قريش) ، ثم انصرفَ الشيخُ يشيِّعُ القطبَ ، ورجعَ إليَّ ، فصار يمرن في رقبتي ويمرخُها[١] ويقول : يا عثمان ؛ هٰذا حالُكَ وأنت لم تره ، فكيف لو رأيتَهُ ؟!

والإيوان السفلي الذي في زاوية سيدي عثمان الحطاب هو زاوية شيخه الشيخ أبي بكر ، وأما الإيوان العالي فهو عمارةُ سيدي عثمان رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٧٢) الشيخ محمد الغَمْري الواسطي رضي الله عنه[٢]

المدفون بالمحلَّة الكبرىٰ في جامعه بالسدِّ ، أحدُ أصحاب سيدي أحمد الزاهد .

كان رضي الله عنه عالماً زاهداً ناسكاً عابداً ، يُضربُ به المثل في اتِّباع السُّنة المحمدية هو وأصحابه .

أقام عند سيدي أحمد الزاهد خمس عشرة سنة حتىٰ فتحَ اللهُ عليه بالطريق .

وعمله وقَّاداً في الجامع ، فنامَ عن إيقاد المصابيح صلاةَ الصبح يوماً ، فناداه الشيخُ : يا محمد ؛ أوقِدِ المصابيح ، فحلَّقَ بيده علىٰ قناديل الجامع ، فاشتعلتْ كلُّها ، فقال : يا محمد ؛ ما بقي لك عندنا إقامةٌ ، اذهب إلىٰ بِلْبِيس ، فذهب ، فلم ينقدْ له أحدٌ من أهلها ، فرجع إلى الشيخ ، فقال له : اذهبْ إلى المحلَّة الكبرىٰ ، فذهب ، فصدَّهُ عن دخولها أولاد الطريني بالحال ، فرجع إلىٰ محلة أبي الهيثم ، فأقام في جامعها عشرةَ أشهرٍ ، ثم أرسلَ له سيدي أحمدُ أخاهُ سيدي مدين ، وقال : وطِّنْ أخاك في المحلة ، فسافر إليه ، ودخل به المحلة ، ولم يرجع حتىٰ طيَّبَ خاطر أولاد الطريني ، وعملوا له المولد من عندهم ، وصرفوا عليه مالاً جزيلاً ، فلم يزلْ في المحلة إلىٰ أن مات ، ودفن بجامعه ، وقبرُهُ عليه جلالةٌ ومهابة .

---

(١) مَرَخَ جسدَهُ : دهنه بالمَروخ ؛ وهو ما يُمرخ به البدن من دهن وغيره . « تاج العروس » (م ر خ) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٢) (٣٢٨) .

وكان رضي الله عنه قد قسَّمَ الفقراءَ المجاورين عنده إلىٰ ثلاثةِ أقسام[١] ، وعيَّن لكلِّ قسمٍ مكاناً يجلسُ فيه ، فكان البالغون في الجامع ومَنْ دون البلوغ في المقصورة ، والكهولُ في رباط وحدهم ، لا يُجالسُ أهلُ قسمِ الآخرَ إلا لضرورة ، ولم يكن يدخلُ للأطفال غير مؤدبهم ، وكان الواحد يأتيه أهله ، فلا يتجرأ يُسلِّمُ عليهم حتىٰ يستأذنَ النقيب .

وكان لهم يوم يتناقشون فيه ، فكان الشيخُ يدخلُ بهم في مكان واسع ، ويُغلقُ البابَ ، ويتحاكمون عنده ؛ فمنهم من يأخذُ له حقَّهُ ، ومنهم من يعفو عن أخيه ، ويخرجون علىٰ قلبِ رجلٍ واحد .

وكان أحدُهم لا يُجيب قطُّ من شتمه ؛ بل يصبرُ إلىٰ يوم المناقشة ، وكان كلُّ من أساء الأدب ينادي النقيب عليه : فلانٌ مهجور ، فلا يجالسه أحد حتىٰ يتأدبَ .

قال الشيخ محمد الطنيخي : وأرسلني النقيبُ مرةً أحملِ الرُّطبَ من الجنينة ، فغلبتني النفسُ ، فأكلتُ ثلاثَ رطبات ، ومسحت فمي ، فلما رجعتُ قال لي النقيب : يا خائن ، ثم شاور الشيخ عليَّ ، فهجروني ثلاثة أيام عن كل رطبة يوماً .

وصنف عدَّةَ كتبٍ ؛ منها : « منح المنة في التلبس بالسنة » ست مجلدات[٢] ، ومنها : « القول المضبوط في الشروط »[٣] جمع فيها شروط أبواب الفقه كلها ، ومنها : كتاب « العنوان في تحريم معاشرة الشباب والنسوان » ، ومنها « قواعد الصوفية » ؛ وهو كتاب نفيسٌ ، قرأه عليه شيخنا شيخُ الإسلام زكريا ، وقرأته أنا علىٰ شيخ الإسلام .

وكان يقضي الحوائجَ بالقلب تارةً ، وتارةً يمشي إلىٰ بيت المشفوع عنده ، ويقول : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : (« مَنْ مشىٰ معَ أخيهِ حتىٰ يقضي حاجتَهُ »[٤]

---

(١) في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٣) : (ثلاثة أقسام : كهول ، وشباب ، وأطفال) .
(٢) في (د ، ز) : (مجلدان) بدل (ست مجلدات) .
(٣) في (ز) : (المنوط) بدل (المضبوط) ، وفي (و ، ي) : (القول في الشروط) .
(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤٥٣) ، ولفظه فيه : أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ أي الناس أحبُّ إلى الله ؟ وأي الأعمال أحب إلى الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحب الناس إلى الله تعالىٰ أنفعُهم للناس ، وأحب الأعمال إلى الله تعالىٰ سرورٌ يدخلُهُ علىٰ مسلم ، أو يكشف عنه كربةً ، أو يقضي عنه ديناً ، أو يطرد عنه=

فربما لا يكون ذلك الأجر لمن يقضي الحوائج من غير مشي) .

وأخبرني الشيخ أحمد بن النحال قال[١] : دخلتُ علىٰ سيدي محمد يوماً الخلوة ، فرأيتُ له سَبْعَ عيون ، فغُشي عليَّ ، فلما أفقتُ قال : (يا أحمد ؛ إن الرجلَ إذا كمل صارَ له سبعُ عيون علىٰ عددِ أقاليم الدنيا) .

قال : ودخلتُ عليه مرةً الخلوة ، فلم أره ، فنظرتُ إلىٰ فوق ، فوجدته متربِّعاً في الهواء تحت السقف .

ونادته مرةً ابنة مريدٍ له ببلاد العجم ، وكان يطبخ خبزاً للفقراء ، فدخل الشيخ من الحائط وخلَّصها ممن يريد بها الفاحشة ، وجاء الخبرُ أن سَبُعاً خرج عليه ويدُهُ مغمَّسةٌ دماً[٢] ، فأرَّخوا الحكاية ، فلم تخط شيئاً .

وكراماته رضي الله عنه كثيرة مشهورة في بلاده .

قالوا : وكان عقيماً في الرجال ، لم يكمل علىٰ يده أحدٌ بعد شيخه ، وإنما تفرعت طريقُ القوم بعد الزاهد عن سيدي مَدْين ، ومقامُ العقم كمالٌ في بعض الرجال ، فافهم .

ومنهم :

(٣٧٣) سيدي الشيخ مدين خليفةُ سيدي أحمد الزاهد رضي الله عنه[٣]

هو أجلُّ من أخذ عن سيدي أحمد الزاهد ، وفُتح عليه في ثلاثة أيام .

فكان سيدي أحمد يقول : (كلُّ الناسِ جاؤونا ومصابيحُهم مطفية ، إلا مدين

= جوعاً ، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في هـٰذا المسجد شهراً ، ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته ، ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيامة ، ومن مشىٰ مع أخيه في حاجة حتىٰ تتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام » .

(١) الخبر في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٤) عن محمد بن شعيب .

(٢) في (أ ، ب ، ج ، د ، و ، ز ، ي) : (حبراً) بدل (دماً) ، وفي (هـ) : (خبزاً) ، والمثبت من (ط) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٩٥) (٣٣٠) .

فجاءنا ومصباحُهُ يضيء ، فقوّينا له نورَهُ) .

عاش رضي الله عنه حتىٰ ماتتْ أقرانُهُ ، وانتهت إليه تربيةُ المريدين في مصر وقُراها ، ومنه تفرّعتْ سلسلةُ أبي القاسم الجنيد في مصر ، فكانت الوراثة بعده لولد أخته الشيخ محمد ، فأخذ عنه شيخُ شيخنا الشيخ محمد السروي ، والشيخ علي المرصفي ، والشيخ نور الدين الحسني ، وخلائق .

قالوا : وكان رضاعُ سيدي مَدْيَن علىٰ سيدي أحمد الزاهد ، وفطامه علىٰ يد سيدي محمد الحنفي ، كما ذكروه في مناقبه ؛ فإنه لما تُوفي سيدي أحمد الزاهد جاء إلىٰ سيدي محمد هو وأصحابه ، وأقام عنده مدةً في زاويته مختلياً في خلوة ، ثم إنه طلبَ من سيدي محمد إذناً بالسفر إلىٰ زيارة الصالحين بالشام وغيره ، فأعطاه الشيخ إذناً بذلك ، فأقام مدةً طويلةً سائحاً في الأرض ، ثم رجع إلىٰ مصر ، فأقام بها واشتهر ، وشاع أمرُهُ وانتشر ، وقصده الناس ، وأخذوا عنه العهود ، وكثرت أصحابه في أقاليم مصر وغيرها .

ولما بلغ أمرُهُ للشيخ أبي العباس السرسي قال : لا إلـٰه إلا الله ظهر مَدْيَنُ بعد هـٰذه المدة الطويلة ، واللهِ ؛ لقد أقامَ عند سيدي محمد الحنفي في زاويته مُختلياً أربعين يوماً حتىٰ كمل ، هـٰكذا هو مشهور بين جماعة سيدي محمد الحنفي .

وهو من ذرية سيدي أبي مَدْين التلمساني ، وجدُّه الأدنىٰ سيدي علي مدفون في طبلية بالمنوفية ، ووالده مدفون بأشمون جريسان ، وكلُّهم أولياء صالحون .

وأول من جاء من بلاد المغرب جدُّهُ الذي في طبلية ، فدخلها ، وهو مغربيٌّ فقير لا يملك شيئاً ، فجاع جوعاً شديداً ، فمرَّ به إنسانٌ يقود بقرةً حلابة ، فقال : احلبْ لي شيئاً من اللبن أشربْهُ ، فقال : إن هـٰذا ثورٌ ، مستهزئاً به ، فصار في الحال ثوراً ، ولم يزل ثوراً إلىٰ أن مات .

ووقع له كراماتٌ كثيرةٌ في طبلية ، فلم يمكنوه أن يخرجَ منها حتىٰ مات فيها .

وأما والد سيدي مَدْيَن فانتقل إلىٰ أشمون ، فولد له سيدي مدين ، فاشتغل بالعلم حتىٰ صار يُفتي الناسَ ، وأسلمَ علىٰ يديه عدَّةُ نصارىٰ من أشمون ؛ منهم أولاد

إسحاق ، وأولاد الصديرية وأولاد المقامقة ، والسماعنة ، كما هو مشهور في أشمون ثم تحرَّك في خاطره طلبُ الطريق إلى الله عز وجل ، واقتفاءُ آثار القوم ، فقالوا له : لا بد لك من شيخٍ ، فخرج يطلب الشيخَ في مصر ، فوافق سيدي محمد الغمري وقد جاء الآخر يطلب الطريق ، فبينما هما يتماشيان بين القصرين إذ لقيهما شخصٌ من أرباب الأحوال ، فقال : اسألا عن الزاهد ؛ فإن فَتْحَكما على يديه ، ولا تطلبا الأبواب الكبار ـ يعني : سيدي محمد الحنفي ـ فإن الفتح على غير يديه ، فرجعا من بين القصرين إلى خطِّ المقسم يسألان عن الزاهد ، فلما دخلا عليه الجامع تنكر عليهما زماناً ، ثم لقَّنهما وأخلاهما ، ففتح على سيدي مدين في ثلاثة أيام ، وعلى سيدي محمد الغمري في [خمسَ عشرة] سنة[1]

ومما وقع من كرامات سيدي مدين : أن منارةَ زاويته الموجودة الآن مالتْ حين انتهى بناؤها ، وخاف أهلُ الحارة منها ، فأجمع المهندسون على هدمها إلى الأرض ، فخرج الشيخُ يمشي على قبقابه ، وقال : اصبروا ، لا تهدموا شيئاً ، ثم أسند ظهرَهُ إليها وهزَّها ، والناس ينظرون إلى أن قعدتْ على الاستقامة إلى وقتنا هـٰذا .

ومن كراماته أيضاً : أن يوسفَ ناظرَ الخاص بمصر ظلمَ شخصاً من تجار الحجاز كان مُستنداً للشيخ عبد الكبير الحضرمي رضي الله عنه[2] ، فسأل الشيخ في التوجه إلى الله تعالى فيه ، فتوجَّه ، فرأى تلك الليلة يوسف في مقصورةٍ من حديد ، مكتوباً عليها من خارج : مدين مدين مدين ، فأصبح وأخبر التاجر بذلك ، وقال : من هو مدين هـٰذا ؟ فقال : شيخٌ من مشايخ مصر يعتقدُهُ ناظرُ الخاص ، فقال : ارجع إلى شيخه ؛ لا طاقة لي به .

ومن كراماته : أن الشيخ محمد الحريفيش الدنوشري سافر إلى بلاده في الريف ليقطع علائقه ويجيء بالكلية إلى الشيخ ، فأذن له ، فباع بقرته وبعضَ أمتعته ، وجعل ثمنَها في صُرَّةٍ ، ووضعها في رأسه ، وسافر في مركب ، فنفض الراجع عمامته بالصرة

---

(١) في النسخ : (خمسة عشر) ، وفي (أ) : (خمسة عشر يوماً) .
(٢) في (أ ، هـ ، و ، ي ، ك) : (الكريم) بدل (الكبير) .

في البحر أيام النيل ، فجاء ورأسُهُ مكشوفٌ ، فأدخله الشيخُ الخلوة ليغدِّيه النقيب وإذا بسيدي مدين بيده العِمامةُ تقطرُ ماءً ، فوجد الصُّرَةَ فيها .

وكان رضي الله عنه يأمرُ جميعَ الفقراء بالزاوية أمراً جزماً : ألا يتخلفَ منهم أحدٌ عن مجلس الذكر ، ومن أبىٰ أخرجه ، فدخل عليه يوماً فقيرٌ ، فلم يحضر ، فقال له سيدي مدين : ما منعك عن الحضور ؟! فقال : الحضورُ إنما هو لضعيف القلب ليتقوَّىٰ بالناس ، وأنا بحمد الله قلبي حيٌّ ، فقال له : اخرج من الزاوية لئلا تتلف حال الفقراء ، ويصير كلُّ واحدٍ يدَّعي حياة قلبه فلا يحضر ، ويبطل شعارُ الزاوية .

وخرج فقيرٌ يوماً من الزاوية ، فرأىٰ جرَّةَ خمرٍ مع إنسان ، فكسرها ، فبلغ الشيخَ ذلك ، فأمر بإخراجه من الزاوية ، فقالوا للشيخ : إنه أزالَ مُنكراً ، فقال : لم آمر بإخراجه لإزالته المنكر ؛ وإنما هو لإطلاق بصره حتىٰ رأى المنكر ، ولو كان بصرُهُ لا يجاوز موضعَ قدميه ما رأىٰ منكراً .

ومما وقع لسيدي مدين : أن ثورَ الساقية انطلقَ يوماً ، فأكل من طحين الفقراء ، فذبحه الشيخ ، وأطعمه لهم ، وقال : قد صار الماءُ الذي يملأه لوضوء الناس فيه شبهةٌ .

وجاءته امرأةٌ مرةً ، فقالت : هـٰذه ثلاثون ديناراً ، تقبلها مني وتضمنُ لي على الله الجنة ، فقال الشيخ مباسطاً لها : لا يكفي ، فقالت : لا أملك غيرها ، فضمنَ لها على الله دخولَ الجنة ، ثم ماتت ، فبلغ ورثتَها ذلك ، فاستفتوا على الشيخ ، فقال العلماء : إن الضمان في مثل ذلك لا يستحقُّ به شيئاً ، فجاء الورثة يطلبون الثلاثين من الشيخ ، فردَّها لهم ، وقال : لا أرجع في ضماني ، فجاءتْ ورثتَها في المنام وقالت لهم : اشكروا لي فضلَ الشيخ ؛ فإني دخلتُ الجنة ، وأعطوه الثلاثين ، فجاؤوا بها إليه ، فردَّها عليهم .

وتوضأ سيدي مدين يوماً في البالوعة التي في رباط الزاوية خلف المحراب ، فأخذ فردَةَ قبقابه ، وضرب بها نحو بلاد المشرق ، فأرَّخوا الحكاية ، فجاء صاحبُ الواقعة من تلك البلاد بعد سنةٍ ، ومعه هديةٌ فيها فردة قبقاب ، وأخبر أن شخصاً من العياق عبث بابنته في البرية ، فقالت : يا شيخَ أبي ؛ لاحظْني ، ولم تعرفْ اسمَهُ ، وإذا بفردة

قبقاب وقعت في نحره ، فغُشيَ عليه منها ، وتخلَّصتِ البنت ، ورأيتُ فردةَ القبقاب عند ذريته إلى الآن حين تزوجتُ بابنة ابنه سيدي أبي السعود رضي الله عنه .

وكان الشيخ عبادة المالكي يُنكر علىٰ سيدي مدين كثيراً ، فدعاه سيدي مدين ليحضرَ عنده في مولده الكبير ، وقال للفقراء : إذا جاء الشيخ عبادة فلا أحد يتحرَّكُ له ، ولا يفسح له ، ففعلوا ، فتميَّزَ الشيخُ عبادة غيظاً ، وجلس في طرف الناس ، وسيدي مدين يُوهمه أنه لم يره ، ثم رفعَ رأسَهُ ، ونهض قائماً ، وأجلسه بجنبه ، وباسطه في الكلام إلىٰ أن غابت نفسُهُ ، فقال له سيدي مدين : الله عليك ، ما تكدَّرتَ لعدم قيامنا لك حين جئت ؟! فقال : نعم ، فقال : أما علمتَ : أن ذلك حرام ؟! فقال : نعم ، فقال : كيف تأمرنا أن نساعدك على الحرام ؟! وكأنَّ لسان حالك يقول : (عظِّموني ، وقوموا لي كما تقوموا لله ربِّ العالمين ، وذلك كفرٌ ، فنهض الشيخُ عبادة قائماً ، وقال : اشهدوا عليَّ أني أسلمتُ إسلاماً جديداً علىٰ يد سيدي مدين ، وطلب منه أخذَ العهد ، فأخذ عليه العهدَ ، وترك الإفتاء والتدريس ، ولم يزل يخدمُهُ إلىٰ أن مات ، وأوصىٰ أن يُدفن تحت عتبة تربته ، ليطأه الفقراءُ بنعالهم ، فهو إلى الآن تحت العتبة بتربة الشيخ في سوق الدريس .

وحكىٰ لي الشيخ محمد الحُريفيش الدنوشري سنة ثلاثة عشر وتسع مئة قال : لما مات شيخُنا سيدي محمد الغمري لم يعجبنا أحدٌ بعده نجتمع عليه ، فأرشدني شخصٌ إلى الاجتماع بسيدي مدين ، فسافرت إليه من المحلة الكبرىٰ ، فوجدته يتوضأ في الرباط ، فدخلت عليه ، فسألته عن نفسه ؛ لكوني لم أجد عليه شيئاً من ملابس الفقراء ، إنما لباسُهُ لباس الأكابر ، فقال لي : أنا مدين ، فقلت في نفسي من غير لفظ[1] : [من البسيط]

لا ذا بذاك ولا عَتَبٌ على الزمن

بفتح التاء المثناة من فوق ، فخاطبني بما في سرِّي ، وقال : (ولا عتْب) بسكون

---

(١) عجز بيت للشافعي في «ديوانه» (ص ١٨٨) ، والبيت بتمامه هو :

فأصبحُوا ولسانُ الحالِ ينشدهمْ هـذا بـذاكَ ولا عتْبٌ على الزَّمنِ

التاء ، فقلتُ : الله أكبر ، فقال : علىٰ نفسك الخبيثة ، تسافر من بلادك إلىٰ هنا تزنُ على الفقراء أحوالَهم بميزانك الجائرة ، قال الشيخ محمد : فقلتُ : تبتُ إلى الله ، ثم أخذَ عليَّ العهدَ ، وعلمتُ أن في الأولياء مَنْ هو جماليٌّ ، ومَنْ هو جلاليٌّ ، والمراد قلوبهم لا لباسهم .

ولما ضاقتِ النفقةُ على السلطان جقمق أرسل يأخذ خاطر سيدي مدين : أن الله تعالىٰ يوسعُ عليه ، فأرسل له نصفَ عمود مع العتَّالين[1] ، فوجده معدناً يثاقل به الفضة ، فباعه وجعلَ ثمنَهُ في بيت المال ، واتسع الحالُ بذلك على السلطان ، فقال السلطان : هـٰؤلاء هم الملوك حقيقة .

وجاءه مرةً شخصٌ قد طعن في السنِّ ، فقال له : أريد أحفظُ القرآن ، فقال له : ادخل هـٰذه الخلوة ، واشتغل بذكرِ الله عزَّ وجل تحفظْه ، فدخلَ تلك الليلة ، فأصبح يحفظُ القرآن كلَّهُ عن ظهر قلب ، فتعجَّبَ الناسُ من ذلك .

وكان في زاويته ضريرٌ اسمه عيسىٰ ، فكان كلُّ مسألة سئل عنها يقول : خذوا جوابها من عيسى الضرير ، فيفكُّ لهم المشكلات ، فجاء جماعةٌ من جامع الأزهر متعنِّتون ، فقال لهم : اسألوا عيسىٰ ، فقالوا : ما نسمعُ الجواب إلا من سيدي الشيخ ، فقال لهم : الجواب عندكم في الكتاب الفلاني الذي عندكم فوق الرفِّ ، فعُدُّوا سابعَ سطرٍ من عاشرِ ورقةٍ من أوله تجدوا الجوابَ ، فوجدوا الأمر كما قال الشيخ ، فاستغفروا الله وتابوا عن امتحان الفقراء .

وكان سيدي مدين لا يخرج من بيته إلا لصلاة الجمعة وعصر كلِّ يومٍ ، وما عدا هـٰذين الوقتين فهو جالسٌ في بيته ، لا يخرج لأحد مطلقاً ، وكذلك أدركتُ سيدي علي المرصفي علىٰ هـٰذه الطريقة ، وللفقراء أعذارٌ .

وقد أدركت من أصحابه جماعةً ؛ منهم : الشيخ محمد الدنوشري ، والشيخ أبو الحمائل ، والشيخ عبد الرحمـٰن المغربي ، وأما الحلفاوي ، والشويمي المدفونان بزاويته تجاه قبره فلم أدركهما ، وكانا وليين عظيمين .

---

(١) **العتال** : كشداد : الحمَّالُ بالأجرة . « تاج العروس » (ع ت ل) .

[ومنهم :

(٣٧٤) محمد الشويمي][1]

أما سيدي محمد الشويمي : فكان من أرباب الأحوال ، وكان يعملُ هلالات القباب والموادن[2] ، وينجِّر الضبب .

وكان يجلس بعيداً من سيدي مدين ، فكل من مرَّ علىٰ خاطره أمرٌ قبيح بين يدي سيدي مدين يقومُ فيضربه ضرباً شديداً بعصاً غليظة ، لا يستطيعُ أحدٌ أن يُخلِّصَ ذلك الشخصَ منه ، إلا إن تركَ ضربَهُ بخاطره ، فكان غالبُ الناس لا يستطيع أن يجلس عند سيدي مَدْين ما دام الشويمي في الزاوية .

وضرب مرةً أميراً كبيراً خطرَ في باله أنه يشرب الخمر ، فكان لا يراعي في الضرب أحداً .

ومرض سيدي مَدْين مرةً حتىٰ أشرفَ على الموت ، فأعطاه عشر حبات ، وقال : تعيش بعددها ، فمرض مَرَضَ الموت بعد العشر سنين ، فمات .

وكان الشويمي غائباً ، فحضر وهم يغسِّلون سيدي مدين ، فشرب ماءَ غسله كلَّهُ ، وكان نحو راويتين[3] ، وقال : وعزَّةِ ربي ؛ لو أدركتُهُ لشفعت فيه عند الله عشرَ سنين أخرىٰ .

وكان يقول : (من طلبَ أن الله يقضي له جميع حوائجه بلا سؤالٍ فليلازمْ ذكر الله ليلاً ونهاراً) .

وجاءه مرةً رجلٌ يحبُّ امرأةً ، وطلب تزويجها ، فأبت ، فقال له : ادخل هـٰذه الخلوةَ واجعلها نصبَ عينيك ، واشتغلْ بذكر اسمها تأتك بنفسها ، فدخل الخلوةَ ، واشتغل باسمها يوماً وليلةً ، فجاءته المرأةُ حتىٰ وقفتْ علىٰ باب الخلوة ، فلما علمَ بها

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٠١) (٣٣١) .

(٢) الموادن : جمع مئذنة ، وأتت هنا على اللغة العامية بقلب الذال دالاً

(٣) الراوية : المزادة فيها الماء .

قال في نفسه : إذا كان هٰذا الأمرُ هٰكذا فالاشتغالُ بالله أولىٰ ، فاشتغلَ بالله ثلاثةَ أيام ، ففُتحَ عليه ، وتحوَّلَ باطنه عن الدنيا وزينتها ، فصارتِ المرأة تسوقُ عليه السياقات ليأخذها ، فلم يرضَ .

وكان الشويمي إذا دخلَ بيت سيدي مدين يجسُّ أدبارَ النساء بيده ، فيتكدَّرْنَ لذلك ، فيقول لهنَّ سيدي مدين : لا تتكدرن ؛ فإنه ما وضع يدَهُ على امرأةٍ إلا وحفظتْ من الفواحش .

وكان يخدم سيدي مدين ، ويشتري له حوائجَ الطعام ، فطلبوا منه قُلْقاساً في غيرِ أوانه[١] ، فأخذ حماراً وخرجاً ، وذهب إلى الحلفاء التي في مقبرة أشمون جريسان ، فحمَّلَ لهم الحمار قُلْقاساً من الحلفاء ، فاعتقدوه النساء من ذلك اليوم .

وهو الذي أجلس ابنَ سيدي مدين المسمىٰ بأبي السعود على السجادة بعد أبيه ، وأخرج سيدي محمد ابنَ أخت سيدي مدين من الزاوية ، وقال : إن جلستَ هنا استلفتُكَ من ربك ، وقرع له العصا على الحائط ، وقال : ابنُ الشيخ أولىٰ بالجلوس .

وكان الشويمي جمَّالاً بناحية أشمون ، وكان يحملُ القمحَ من الغيط أيامَ الحصادِ ، وكان لا يُحمِّلُ جملَهُ سوىٰ قتةً واحدة ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن قتَّتي خمسةُ أرادب ، فإن شككتم في ذلك فدقوا قتَّتي وحِمْلَ غيري ، فوجدوها أكثر من قمح جمل حمل غيره ، فتأدَّبوا معه ، وصار الناس يتقاتلون عليه أن يكون جمَّالاً عندهم .

وأخبرني أصحابه أنه هو الذي زرع الشجرة الخرنوب التي اشتهر بها وادي الخروبة قريباً من تيه بني إسرائيل ، وصبَّ عليها من ماء وضوء سيدي مدين لمَّا سافر معه إلى الحجاز .

ووقائعه كثيرة مشهورة .

---

(١) القلقاس : جذر نبات يؤكل مطبوخاً ، وهو البطاطا الحلوة .

[ومنهم :

(٣٧٥) أحمد الحلفاوي][١]

وأما الحلفاوي الشيخ أحمد فكان صالحاً ، سليمَ الباطن .

وكان يمشي بحلفايته بحضرة الشيخ في الزاوية[٢] ، ويُسلِّم له الشيخ حاله .

وكان الشُّويمي يتكدَّرُ منه لأجل ذلك ، فغضب الشويمي منه يوماً وهجره ، فلما كان آخر اليوم الثالث جاء له الشويمي وصالحه ، وقال : رأيتُ الحقَّ تعالىٰ يغضبُ لغضبك ، ولم يُفتحْ عليَّ بشيءٍ من موارد الحق تعالىٰ من حين هجرتك .

وكان سيدي مدين يقول : (أنا رأيتُهُ يمشي بحلفايته هـٰذه في الجنة) .

توفي سيدي مَدين رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وخمسين وثمان مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٧٦) الشيخ شهابُ الدين المرحومي رضي الله عنه[٣]

أحدُ أصحاب سيدي مدين رضي الله عنه .

وكان من أكابر الورعين .

مكث رضي الله عنه عند سيدي مدين إلىٰ أن تُوفي سيدي مدين لم يذقْ لزاويته طعاماً ، ولا شربَ منها ماءً

وكان يقول : (لا أشركُ في محبَّة شيخي أمراً آخر ، فأقيم عنده لعلةٍ من العلل) .

وكان يأكل ويشرب من السوق .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٠١) (٣٣٢) .

(٢) قال النبهاني في « جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣١٩) : (والظاهر : أن الحلفايةَ التاسومة التي تُلبس في الرجل) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣١٢) (٣٣٨) .

وكان رضي الله عنه كثير المجاهدة متقشِّفاً في ملبسه ومأكله ، ولم يكن له شيءٌ يجلس عليه .

وكان يلبس الفروةَ صيفاً وشتاء ، فيلبسُها في الشتاء من جهة الوبر ، وفي الصيف من جهة الجلد .

وكان من شأنه الإطراقُ على الدوام ، لا تكادُ تراه رافعاً رأسه إلىٰ ناحية السماء أبداً .

ولما مات سيدي مَدْين جلسَ يقرئ الأطفالَ في مصر العتيق في مسجدٍ بالقرب من سيدي ساعي البحر .

وكان رضي الله عنه يقول : (ذهب أهلُ الطريق ، وذهب عشّاقُها ، وما بقي عند أهلها سوىٰ كلام من غير تخلُّق ، وصار أحدُهم يعجز عن حمايتها لو اعترضَ عليه معترضٌ ؛ لعدم الذوق ، بل صار بعض الفقهاء يعدُّ طريقَ القوم من البدع في الإسلام ؛ لعدمِ من يكشفُ له عنها ، ولو أنهم قالوا للمعترضِ : إن طريقَ القوم محرَّرةٌ على الكتاب والسنة تحريرَ الجوهر ، وعدَّدوا لهم أفعالَ أهلها الصادقين . . لحموها من المعترضين ، ولـٰكن كيف يجيبون عن أهل الطريق الذين يزعمون أنهم علىٰ طريقهم ، وأفعالُهم تُكذِّبهم من قلَّة زهدهم وورعهم ، وعدم اشتغالهم بالله عز وجل ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) .

وأخبرني الشيخ نور الدين الشوني شيخُ مجالس الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه دخل يوماً على الشيخ شهاب الدين يطلبُ الطريقَ إلى الله تعالىٰ ، فبكىٰ ، وقال : واللهِ يا ولدي ؛ إني إلى الآن لم يصحَّ لي كمالُ مقام الإسلام ، فكيف تطلبُ مني أن أُدخلك مقامَ الإحسان ؟! فإن بدايةَ الطريق من دخول حضرة الإحسان ، قال الشيخ نور الدين : فلما رأيتُهُ يبكي ، ويفحصُ في الأرض كففتُ عنه ، وخرجتُ من غير أَخذِ عهدٍ عليه .

قال : ودخلتُ عليه مرةً ، فقلت له : يا سيدي ؛ ادعُ لي ، فقال لنفسه : عشتي يا شقية إلىٰ زمان يُطلبُ من مثلِكِ فيه الدعاء ، وصارَ يوبِّخُ نفسه ، فخرجتُ ولم يدعُ لي شيئاً .

وأخبرني الشيخ سليمان الخُضَيْري فسحَ الله في أجله : أن الشيخ كان لا يأكلُ من خبز الأطفال الذين يقرؤون عنده شيئاً ، ولا يأخذ منهم خميساً[١] ، وإنما كان كلُّ من فضلَ منه شيءٌ من الخبز يضعُهُ في ركن الزاوية للضيوف والمحاويج ، وكان كلُّ مَنْ دخل عليه يقدِّمُ له كسيراتٍ منه بصعتر ، وتارةً يبلُّها بالماء ويُقدِّمها لذلك الضيف ، وكان النملُ يدخل فيها .

فدخل عليه أبو البقاء بن الجيعان ، وناظرُ الخواص ، فعزمَ عليهم أن يأكلوا من تلك الكسيرات ، فقالوا : نحن علىٰ كفاية ، ثم ركبوا ، فلحقَهم القولنجُ ، فنزلوا من علىٰ ظهور الخيل ، واضطجعوا على الأرض ، وصاروا يصيحون من الوجع ، فأرسلوا يطلبون خاطرَ الشيخ ، فقال : خذوا لهم الكِسَرَ التي تكبَّروا عليها ، وقل لهم : كلوا منها تشفوا ، فكان الأمرُ كذلك ، فمن ذلك اليوم كان كلُّ شيء قدَّمه الشيخُ لهم أكلوه .

ومن أَجلِّ من أخذ عنه : الشيخ أبو السعود الجارحي ، والشيخ سليمان الخُضَيْري ، والشيخ شرف الدين البوشي المدفون قريباً من جامع ابن طولون رضي الله عنهم أجمعين .

ومنهم :

(٣٧٧) الشيخ محمد ابن أخت سيدي مدين رضي الله عنه[٢]

كان من أجلِّ أصحاب سيدي مدين ، وهو الذي أحيا الطريقَ بعد سيدي مدين في مصر وقراها .

وكان كثيرَ المجاهدة ، وظهر صدقُهُ في تلامذته ، واشتَهر بابن عبد الدائم المديني ، وأخذ عنه خلائقُ من الغرب والشرق .

وكان ذا سمتٍ حسن ، ونظافة وترافة ، أقبل عليه أكابرُ مصر إقبالاً زائداً .

ولما اشتَهر وأخذ عنه الجماعةُ ، وفتحَ اللهُ عليهم علىٰ يديه طردَ الناس عنه

---

(١) الخميس : مبلغ يدفع إلى الشيخ كل يوم خميس لقاء تعليمه .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣١٣) (٣٣٩) .

بالقلب : مَنْ فُتح عليه ومَنْ لم يُفتح عليه ، حتىٰ صارَ كأنه لم يَعرفْ قطُّ أحداً منهم ، وترك اللباسَ الحسن ، والمآكلَ الفاخرة ، ورضي بالجبة والفروة الكباشي ، وصار يخدمُ نفسَه ، ويحمل طبقَ الخبز علىٰ رأسه ، ويشتري حوائجَهُ من السوق إلىٰ أن مات ودفن علىٰ باب تربة سيدي مدين بسوق الدريس خارج باب النصر ؛ عملاً بوصيته ؛ فإنه قال فيها : إن منعني جماعةُ سيدي مدين أني أدفن داخل التربة فادفنوني خارجَها على الباب .

وسببُ ذلك : أن الفقراء تعصَّبوا عليه لما مات سيدي مدين ، وأخرجوه من الزاوية لما أخذ الناس عنه الطريق ، وقالوا : ولدُ الشيخ أَوْلىٰ بالمشيخة ، فلم يمكِّنوه بعد ذلك أن يدخلَ الزاوية إلا زائراً كلَّ شهر مرةً ، وهـٰذا الأمرُ لم يزلْ في أولاد المشايخ وجماعته حميةً جاهلية .

ولما أخرجوه من زاوية سيدي مدين أقام في مدرسة أم خوند بخط بين السورين ، وكانت واقفتُها حيَّةً ، فركب جماعةُ ابن الشيخ مدين ، وراحوا إليها ، فقالوا لها : إنك ما بنيت هـٰذه المدرسة إلا طلباً للأجر ، وقد صارَ الناسُ كلُّهم يقولون : زاويةُ ابنِ أخت مدين ، وما بقي لك اسمٌ ولا أجر ، فركبت بخدمها ، وجاءت إليه ، وأخرجتْهُ من المدرسة ، وقالت : أنا ما عمرتها إلا طلباً للأجر ، فتريدُ أنت تأخذ أجري وتضيِّع تعبي ؟! فقال لها الشيخ : أنا إن شاء الله أُكثِّرُ لك الأجرَ ، فلم يرسخ عندها إلا كلامُ المتعصِّبين ، فأخرجته .

فنزل في المدرسة البقرية بباب النصر ، وبها مات ، وبها حصل الفتحُ لسيدي علي المرصفي ، والشيخ نور الدين الحسني ، والشيخ ابن أبي الحمائل ، والشيخ ياسين البلبيسي[1] ، وأبي علي ناظر الخواص ، وخليل ابن الشيخ بركات بسوق أمير الجيوش وغيرهم .

وأخبرني الشيخ شمس الدين الصعيدي المؤذن بمدرسة أم خوند : أن شخصاً جاء إلى الشيخ محمد ، وقال له : أنت رجلٌ فقير ، وعندك هـٰؤلاء الفقراء ، ولا بد لك من

---

(١) في (أ ، ز) : (يونس) بدل (ياسين) .

شيءٍ يقوم بهم ، وأنا أعرفُ صنعة الكيمياء ، وأريدُ أن أعلِّمَك ، فقال له : ادخل هٰذه الخلوة ، واعمل لنا شيئاً ، ثم أطلعني عليه وبعد ذلك نتعلمه إن شاء الله تعالىٰ ، فلما دخلَ الخلوة وأطلقَ النارَ صعدَ الكبريتُ ، فأحرقَ لحيته وحواجبه ووجهه ، فخرجَ صارخاً ، وكأن الشيخُ ألقىٰ عليه شيئاً من الحال ، فقال له الشيخ : اذهبْ إلىٰ حال سبيلك ، فلا حاجةَ لنا في شيءٍ يحرقُ الحواجب واللحىٰ .

قال الشيخ شمس الدين الصعيدي : ولما دخلَ المغربيُّ الخلوةَ ، قال لنا الشيخُ : في هٰذه الساعة يخرجُ لكم المغربيُّ محروقَ اللحية والوجه ، قال : وإنما لم يردُّهُ أولاً وصبر عليه ؛ إقامةً للحجة وإعلاماً له : بأن الفقراءَ كيمياؤهم الالتجاء إلى الله تعالىٰ في جميع أمورهم ، وكيف يرزقُ الخنازير والكفار ولا يرزق الموحدين ؟! والله أعلم .

ومنهم :

(٣٧٨) سيدي عليٌّ المحلي المقيم بثغر رشيد رضي الله عنه[١]

كان من عباد الله الصالحين ، سافر إلىٰ زيارته الفقراء من أقطار الأرض ؛ منهم : الشيخ حسين أبو علي ، والشيخ محمد بن عنان ، والشيخ علي المحلاَّوي ، وابن داود ، وغيرهم .

وكان صاحبَ حالٍ غريب .

وأخبرني الشيخ أحمد الكعكي : أن الشيخ كان ربعةً في الرجال ، وله عِمامةُ صوفٍ كبيرة ، أكثرُها علىٰ أكتافه ، وهو مشدودُ الوسط علىٰ ثيابه ، ويرفعها إلى الركبتين .

وطلب منه شخصٌ أنه يسافر إلىٰ دمياط ، وقال : إن أهل دمياط كلَّهم يحبُّونك ، فقال : إن شاء الله نحضر إليهم هٰذه الساعة ، فاستبعدَ السائل له ذهابَهُ من رشيد إلىٰ دمياط في ساعةٍ ، فقال له الشيخ : انزل بنا هٰذه المركب ، فنزل هو وإياه ، فقال له : غمِّض عينيك ، فغمَّضهما ، ثم قال له : افتحْ عينيك ، ففتحهما ، فإذا هما بساحلِ دمياط ، فطلع الشيخ يمشي في شوارع دمياط ، فازدحم الخلائقُ عليه يقبِّلون يديه ،

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣١٦) (٣٤٠) .

فأنكر عليه ذلك قاضي المحكمة ، وقال : هـٰذا رجل عاميٌّ لا يُعرف له مذهب ، ثم نادىٰ : يا شيخ ؛ ما مذهبُك ؟ فقال له : حنشي ، فقال : انظروا صدقَ قولي ؛ فإنه لا يعرف اسم المذهب ، فقال له : قل : حنفي ، فقال : إنما أنا حنشي ، قال له : كيف ؟! قال : أنفخُ عليك تموت ، ثم نفخ على القاضي ، فنزعَ لحمَهُ من علىٰ عظمه ، فمات كالذي شرب رطلاً من السُّمِّ ، فزاد اعتقادُ أهل دمياط فيه .

ثم نزل في مركب بساحل دمياط ، وقال لمن معه : غمِّضْ عينيك ، ففعل ، ثم قال له : افتح عينيك فإذا هو برشيد ، فحكىٰ لأهلِ رشيد الخبر ، فمنهم المصدِّقُ ، ومنهم المكذِّب ، حتىٰ جاءَ الخبرُ بعد ذلك من أهل دمياط بصحة الواقعة .

وكان يخلطُ السمك القديد مع التمر والياسمين والورد والقثَّاء كوماً واحداً ، ويبيعه ، فلا يختلطُ طعمٌ بطعم ، ولا رائحة برائحة .

وكان إذا أتاه فقيرٌ أو تاجرٌ انكسرَ يسألُهُ في شيءٍ من الدنيا يقول له : اذهب فائتني بما تقدرُ عليه من الرصاص ، فإذا جاءَهُ به يأمره أن يذوِّبَهُ على النار في إناء ، ثم يُخرجُ شيئاً من تراب معه في عمامته ، ويقول : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، ويقول له : حرِّكْهُ بعود ، فيحرِّكُهُ ، فيصير ذهباً لوقته ، فيقول له : اذهب فأنفق علىٰ نفسك ، وأوفِ دينَك ، ولا تسرف .

وكان إذا دخلَ على العلماء يقول[1] : [من الرجز]

يا معشرَ العُلماءِ يا مِلْحَ البلدْ ما يُصلحُ الملحَ إذا الملحُ فسَدْ

وأرسل إليه مرةً سيدي حسين أبو علي السلامَ ، فقال القاصد : من يعطيني حقَّ طريقي ؟ قال : هو يُعطيكَ ، فلما بلَّغَهُ سلامَ سيدي حسين برشيد قال له : يا سيدي ؛ حقَّ طريقي ، فغرف له من البحرَ جواهرَ حتىٰ ملأَ قفَّتَهُ ، فقال القاصدُ : ليس لي ولا لشيخي حاجةٌ بهـٰذه الجواهر ، فقال له : صبَّها في البحر ، فصبَّها ، ثم قبضَ من الهواء شيئاً وأعطاه له ، فرضي الفقيرُ بذلك وقال : هـٰذا بركةٌ في رزقك ، فلما عرضَ القاصدُ أمرَ الجواهر علىٰ سيدي حسين ، قال له : أصبتَ في ردِّها زهداً فيها .

مات رضي الله عنه سنة إحدىٰ وتسع مئة .

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣١٦) .

ومنهم :

(٣٧٩) الشيخ عثمان الحطَّاب رضي الله عنه[١]

أجلُّ أصحاب سيدي أبي بكر الدقدوسي رضي الله عنه .

كان رضي الله عنه من الزهاد المتقشفين .

وكان له فروةٌ يلبسها صيفاً وشتاءً ، وهو مشدودُ الوسط بمنطقة جلدٍ ، وكان لا يرفعُ بصرَهُ عن الأرض .

وكان أصلُه من الشطَّار ، وكان يلعب اللبخة ، فيغطسوا له عصىً من الشوم في الزيت الطيب سنةً كاملة ، ثم يأخذها ، ويخرجُ له عشرةٌ من عَوالِ المداقفين ، فيصير ماسكاً للعصا من وسطها ، والعشرةُ يضربونه ، وهو يلقىٰ ضربَهم بعصاه ، فلا يُصيبُه واحد منهم ، هٰكذا أخبرني شيخنا الشيخ محمدُ الطنيخي أحدُ أصحابه ، وكذلك أخبرني بهٰذه الحكاية أيضاً الشيخ نورُ الدين الشوني لما جاور عنده .

قال الشيخ محمد الطنيخي : وكان رحيماً بالأيتام والأرامل والمساكين وأصحاب العاهات ، يأكلُ مع الأبرص والمجذوم اللبن وغيره .

قال : وقلتُ له يوماً : ما رأيتُ أرحمَ منك بالأيتام ! فقال : يا محمد ؛ لأني رُبِّيتُ يتيماً ، وذقتُ ذلَّ اليتم ومرارةَ كسر خاطره .

قال : وكنتَ لا تراه قطُّ فارغاً من العمل في مصالح نفسه ، ومصالحِ الفقراء المقيمين في زاويته ؛ إما يغربلُ لهم القمح ، وإما يُنقِّيه ، وإما يعجنه ويخبزه ، وإما يجمع لهم حوائجَ الطعام ، وإما يطبخ لهم ، لا يفتر عن ذلك يوماً واحداً ، ويقول : أحبُّ العباد إلى الله أنفعُهم لعباده .

وكان يسألُ للفقراء من الأغنياء الثيابَ والجببَ والقلانس والنعال ، ويعطيها لهم .

وكان عنده الآلاتُ التي يستعيرها الناس في خلوة ، فكلُّ من احتاج إلىٰ حاجة أخذها ، ثم يردُّها إذا قضىٰ حاجته منها .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣٠٧) (٣٣٥) .

وكان عنده الملحُ ، والفلفل ، والبصل ، والثوم ، والبسلة ، والعدس ، والأرز ، والنعناع ، والحمص ، وغيرُها كلُّهُ للحسنة .

وكان إذا فرغ حطبُ الفقراء يخرج إلى البساتين ، فيحتطبُ لهم .

وكان يَخيط للفقراء ثيابَهم ونعالهم ، ويَعمُرُ لهم قباقيبهم ، ويَحمِي تحت الدست ، ويغسل ماعون الطعام والأواني ، ويحمل القفَّةَ إلى الطاحون .

وكان كلُّ من بارَ عنده شيءٌ من الخضر ؛ من اللفت أو الجزر أو الكرنب أو الرِّجلة[١] أو الملوخية يحفظُهُ للشيخ عثمان ليطبخَهُ للفقراء .

قال الشيخ محمد الطنيخي : وبلغ الفقراء والعميان والأرامل عنده نحو مئة نفس ، ولم يكن له وقفٌ ولا معلومٌ ظاهر ، وإنما كان على ما يفتح به الله عليه كلَّ يوم .

وكان إذا ضاقَ الحالُ عليه يطلع إلى السلطان قايتباي ، يسألُهُ للفقراء ، فيرسم له بالقمح والأرز والعدس وغير ذلك ، فقال له السلطان يوماً : أطلقْ هؤلاء الفقراء الذين عندك إلى حالِ سبيلهم تسترح منهم ، فقال له : وأنت الآخر أطلق هؤلاء الجند إلى حال سبيلهم تسترح من جوامكهم[٢] ، فقال : هؤلاء عسكرُ الإسلام ! فقال : وهؤلاء عسكرُ القرآن الذي هو أصل أحكام الإسلام ! فقال السلطان : غلبتني يا شيخ عثمان .

قال الشيخ محمد الطنيخي : ولما أراد الشيخُ أن يوسِّع زاوية شيخه الشيخِ أبي بكر ، عارضه هناك ربعٌ فيه بنات الخطا ، وهو موضعُ الإيوان القبلي الآن ، فطلع الشيخ عثمان للسلطان قايتباي ، وقال : أعطنا الربع الذي بجوارنا فيه المعاصي نجعله مسجداً ، فرسم له بهدمه ، فشرع الفقراءُ في الهدم ، فكبَّرَ الناس الذين كان الربع في يدهم ، وأرشوا بعض القضاة ، فطلع للسلطان ، وقال : يا مولانا السلطان ، إن الربع لجماعة فقراء ، ولم يرضوا بعوض ، فرجع الشيخ عن الهدم ، فأتاهم شيخٌ من مدينة قليوب قد طعن في السنِّ ، وقال : قد أدركتُ مكان هذا الربع ، وهو مسجدٌ ،

---

(١) الرِّجلة : بقلة ، وتسمى البقلة الحمقاء ؛ لأنها لا تنبت إلا في مسيلٍ .

(٢) الجامكية : رواتب شهرية لأصحاب الوظائف من الأوقاف .

وصلَّيت فيه الجمعة ، فأخذه الشيخ عثمان ، وطلعَ به إلى السلطان ، فقال : اهدموه علىٰ ذمتي ، فهدموه ، فوجدوا فيه محراب الجامع والعمودين الرخام بجانبه ، فنزل السلطان ، ورأى المحرابَ بعينيه ، وقال : الحمد لله الذي خلَّصَ ذمَّتَنا .

وطلب أنه يعمر للشيخ عثمان الزاوية من ماله ، فأبىٰ ، فقال : أكبُّ لك التراب ، فقال : لا ، نحن نسطحُهُ في الجامع ، فهـٰذا كان سببُ علوِّ الإيوان القبلي هـٰذا العلو العظيم ، وأما الزاوية السفلىٰ فهي زاوية شيخه أبي بكر رضي الله عنه .

وأخبرني الشيخ محمدُ الطنيخي : أن سيدي الشيخ أبا العباس الغمري لم يكن يقوم[١] في مصر لأحد من المشايخ غير الشيخ عثمان الحطاب ، كان إذا رآه داخلاً من باب جامعه يقوم له ، ويتلقاه ، ويُجلسه بجنبه .

قال : وكذلك كان سيدي إبراهيمُ المتبولي يفعلُ مع الشيخ عثمان ، وكان بينهما اتحادٌ عظيم ، وكانت أصحابُ هـٰذا كأنهم أصحابُ هـٰذا ، وكان كلٌّ من الشيخين يزور الآخر كلَّ قليل .

وسمع مرة شخصاً يقول وهو مارٌّ في البندقانيين قريباً من حارته : شي لله ، المدد يا شيخ عثمان ، فقال له : وما يُدريك أن عثمان هـٰذا حطبٌ من حطب جهنم ، قل : شي لله ، المدد يا أولياء الله .

وأخبرني الشيخ نور الدين الشوني قال : لما كنتُ مُجاوراً عند الشيخ عثمان خرجتُ إلى الميضأة في ليلة باردة أتوضأُ ، فإذا بشخص ملفوف في نخِّ حلفاء[٢] ، قريباً من الميضأة ، فحرَّكتُهُ برجلي وقلت له : قم ؛ هـٰذا ما هو موضع رقاد ، قال لي : يا ولدي ؛ إن أمَّ أحمد أخرجتني ومنعتني النوم في البيت ، وقالت : ما أذنتُ لك أنك تنام علىٰ فرشي ، وخفت أن أنام في إيوان الزاوية فيخرج مني ريحٌ وأنا نائم ، قال الشيخ نور الدين : فاستغفرتُ الله من تحريكه برجلي .

---

(١) في النسخ غير (و) : (يقم) بدل (يقوم) ، والمثبت من (و) .

(٢) **النخُّ** : فارسي معرب ؛ وهو بساط طويل ، طوله أكثر من عرضه « تاج العروس » (ن خ خ) ، **والحلفاء** : نبت وقلما تنبت إلا قريباً من ماء أو بطن واد .

قال : وكانتْ والدته ترفع صوتها عليه وتضربُهُ علىٰ رأسه وأكتافه ، ويصبرُ عليها ، وكذلك كانت امرأةُ صاحبه الشيخ الحافظ عثمان الديمي ، كانت مُسلَّطةً عليه ، وكانتا صالحتين .

وكان كلٌّ من الشيخين يذهبُ إلىٰ بيت الآخر في غيبته ، ويجلسُ مع عياله ، فلا يسيءُ أحدُهما ظنه بالآخر ؛ لأن قلوبهما كانت مطهَّرةً من الدخائل ، فما مع أحدهما رذيلة يقيس صاحبه عليها[1]

وقد جُرِّبَ إجابةُ الدعاء بين زاوية الشيخ عثمان الحطَّاب والشيخ عثمان الديمي التي هي المسجد المعلَّق تجاه الدرب المجاور لزاوية الشيخ عثمان الحطاب ، فيقرأ صاحبُ الحاجة الفاتحة سبع مرات ، ويُصلِّي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم عشر مرات ، ثم يقول : اللهم ؛ إني أسألُك بحقِّ هـٰذين الشيخين أن تقضي حاجتي .

وأخبرني شيخ الإسلام الطرابلسي ، وكذلك الشيخُ شرف الدين الشريف المالكي : أن كلاً من هـٰذين الشيخين كان يُنادي الآخر بيا عثمان فقط ، من غير لفظ سيادة أو شياخة .

وتقدَّم في ترجمة شيخه الشيخ أبي بكر الدقدوسي اجتماعَ سيدي عثمان بالقطب في مكة[2] ، وأنه وصى الشيخ أبا بكر عليه ، والله تعالىٰ أعلم .

توفي رضي الله عنه بالقدس الشريف ، حين خرج يزور القدس ، ووَدَّعَ الفقراء بمصر ، وقال : (ما بقي لنا اجتماعٌ إلىٰ يوم القيامة) ، فبكىٰ جميعُ أصحابه .

وكان يفرشُ جلدَ بهائم الضحايا ؛ من بقرٍ وغنمٍ وجاموس في صحن الزاوية ، ويجلس عليه ، فدخل عليه مرةً أبو البقاء بن الجيعان ، فصار يقفزُ برجله ؛ خوفاً من التراب الذي على الجلد ، فرفع الشيخُ رأسه ، وكان ينقِّي في الطحين ، فقال : يا مبارك الحال ؛ تخافُ أن تتلوَّثَ رجلُك من تراب بيت الله عز وجل ، إن ترابَ المسجد شفاءٌ ، ثم قال له : تعالَ نقِّ مع الفقراء ، فجلس ينقِّي البخر والطين كآحاد الفقراء .

---

(١) في (أ ، ز) : (يفتش عليها) بدل (يقيس صاحبه عليها) ، وفي (ك) : (يفتش صاحبه عليها) .

(٢) انظر (٤/ ١٠٣) .

ولما وقع فصل قايتباي طلع للسلطان يطلبُ منه شيئاً من مضربات المماليك الذين ماتوا ، فأمر له بحاصل كامل ، فنقله الشيخُ علىٰ حمير ، وصار يُلبسُ منه العميان والأرامل والمساكين ، وألبسَ الفقراء طواقي الكندس[1] التي كان يلبسها المماليك ، فكانوا يكبُّون عليها الرماد والتراب رضي الله تعالىٰ عنه[2]

ومنهم :

(٣٨٠) سيدي عيسى بنُ نجم البُرُلُّسيُّ رضي الله عنه[3]

خفيرُ بحر البُرُلُّس .

كان رضي الله عنه من أكابر الأولياء .

وسمعت سيدي علياً المرصفيَّ رحمه الله يقول : مكث سيدي عيسى بن نجم بوضوء واحدٍ [سبع عشرة] سنة[4] ؛ وذلك أنه وضع جنبَهُ علىٰ سريره حين أذَّن بالعصر ، وقال للنقيب : لا تمكِّنْ أحداً يوقظني حتىٰ أستيقظَ بنفسي ، فمكث [سبع عشرة] سنة[5] ، والناسُ ينظرون النفَسَ خارجاً وداخلاً كالنائم ، ثم إنه قام في ذلك الوقت الذي نام فيه ، فصلى العصر بذلك الوضوء الذي اضطجع به .

قال سيدي عليٌّ : ولما استيقظ رأوا عينيه كالدم الأحمر ، وكان في وسطه حين اضطجعَ منطقةٌ ، ولما استيقظَ وحلَّها تناثر من تحتها الدود ، فقلتُ لسيدي عليٍّ : ما هـٰذه الحالة ؟! فقال : حالةُ شهود حصل للشيخ ، وحالةُ الشهود تمضي على المشاهد ألفَ عام كلحظة . وإليه الإشارةُ بقول سيدي عمر[6] : [من البسيط]

فعامُ إقبالِهِ كاليومِ منْ قِصَرٍ ويومُ إدبارِهِ في الطُّولِ كالحججِ

---

(١) الكندس : طائر يشبه العقعق .

(٢) وكذلك وقع في ترجمة (إبراهيم الرحبي) (٤/ ٢٧٠) ، حيث وقع الفصل في المماليك زمن السلطان قايتباي ، فرسم له بثيابهم ، فحملها علىٰ حمير ، وصار يلبسها للفقراء .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣١١) (٣٣٧) .

(٤) في النسخ : (سبعة عشر) .

(٥) في النسخ : (سبعة عشر) .

(٦) ديوان ابن الفارض (ص ١٤٥)، وفيه : (أعوام) بدل (فعام) ، والحجج مفرد حجة : السنة .

وأخبرني سيدي عليٌّ الخوَّاص البُرُلُّسي رضي الله عنه : أن شخصاً من العرب نذرَ له أنه إن ولدتْ فرسُهُ حصاناً فهو لسيدي عيسىٰ ، فولدت حصاناً ، فلما كبر أعجبَهُ ، وقال : أيش لسيدي عيسىٰ حاجة بالحصان ؟! فبينما هو راكبٌ إذ مرَّ علىٰ زاوية سيدي عيسىٰ ، فرمح الحصانُ ، ودخل الضريحَ ، وصاحبُهُ ينظُر ، فلم يره بعد ذلك .

ومناقبه كثيرة مشهورة في بلاد البُرُلُّس إلىٰ وقتنا هـٰذا رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٨١) الشيخ محمد الخضري رضي الله عنه[١]

المدفون بكوم ناحية نسهنا بالغربية رضي الله عنه .

كان من الأبدال ، صلىٰ يوماً وخطب الجمعة في ثلاثين بلداً

وكان من أصحاب جدي الشيخ عليٍّ الآتي ذكره آخر الباب[٢]

وكان يتكلم بغرائب العلوم والمعارف إذا كان صاحياً ، فإذا استغرق يتكلم في حقِّ الأكابر من أهل السماوات وأهل الأرض بما لا يستطيع أحدٌ أن يسمعه .

وكان يُرىٰ في الليلة الواحدة نائماً في عدَّة بلاد ، وكلُّ بلد يقولون : إن الشيخ [محمداً] كان نائماً عندنا الليلة الماضية[٣]

وكان ملبسُهُ كملابس القضاة ، ويمشي دائماً في قبقاب عال ، فربما تعرَّضَ له قطاع الطريق يريدون أن يَسلُبوه ثيابَهُ ، فيسمِّرُ أيديَهم في جنوبهم ، ويرجع إليهم ، فيصيرُ يضرب أحدَهم بالعصا حتىٰ يستغيثوا ، وبعضهم يقولُ : إنه عفريت .

وكان إذا غلبَ عليه الحال يضرب كلَّ من رآه علىٰ وجهه .

وكان السُّلطان قايتباي إذا رآه ذاهباً نحوه يقوم فيدخل المخدع ؛ خوفاً أن يلطمه علىٰ وجهه بحضرة الناس ، ولا يستطيع أحدٌ أن يمدَّ يده إليه ، بل تُسمَّرُ يداه .

وأخبرني الشيخ أبو الفضل فقيهُ سرس بالمنوفية قال : دخل الشيخ محمد الخضري

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣١٠) (٣٣٦) .

(٢) انظر (٤/ ١٣٥) .

(٣) في النسخ : (محمد) بدل (محمداً) .

لنا الجامع يومَ الجمعة وهو صاحٍ ، فقال الناسُ : ما يخطبُ لنا اليوم إلا الشيخ ، فطلع المنبر ، وأتىٰ بتحميد وتمجيد لله عز وجل حتىٰ كاد الخلقُ يندهشون ، فغلب عليه الحال عند الشهادتين ، فقال : أشهدُ أن لا إلـه لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام ، فصاح الناسُ عليه : كفرتَ ، فنزلَ لهم بالسيف ، فهربوا كلُّهم ، فأغلق باب الجامع ، وجلسَ عند المنبر ، ونحن ننظره من شقوق باب الجامع إلى العصر[1] ، ثم جاء الخبر أنه خطب ذلك اليوم بنحو ثلاثين بلداً ، وصلىٰ بهم الجمعة ، فتعجَّب الناس من ذلك .

ونام مرة بعد الظهر حتىٰ سمع الناس كلهم غطيطه ، ثم قام يصلي بالناس ، فبعضهم سلَّم له الحال وصلىٰ ، وبعضهم أحرم ، ثم تردَّدَ : هل يخرجُ أم لا ؟ فترك المحراب ومشىٰ إلىٰ ذلك الذي تردَّدَ وصار يضربه علىٰ وجهه ، ويبصق عليه ويقول : أنت جَعَلوك بوَّابَ طيزي ؟! ثم أقام الصلاة ، وصلىٰ بنا أجمعين .

قال : وكان في بعض الأوقات يصلي بنا ركعة أو ركعتين ، ثم يخرج من الصلاة ويقول لهم : هاتوا لكم واحداً يكملُ لكم .

وكان يقول : (لا يكملُ الرجلُ عندنا حتىٰ يكونَ مقامُهُ تحت قوائم العرش على الدوام ، وتكونَ الأرضُ كلُّها بين يديه كالإناء الذي يأكلُ منه ، وأجسادُ الخلائق كالبلور يرىٰ ما في بواطنها) .

قال الشيخ أبو الفضل السرسي : وأخرجتُ له مرةً عسلاً في صحن ، فأراني الحوت الذي حاملُ الأرضين في العسل ، فرأيته بعيني ، ثم قال : احرس العسل حتىٰ أرجع ، فخرج من عندي وهو يجري ، فغاب نحو خمس عشرَ درجة[2] ، ثم جاء وقال : صلَّينا على المتبولي في أسدود ودفناه ، ثم أكل من العسل وخرجَ إلى الجامع .

وكراماته كثيرةٌ مشهورة في بلاده .

توفي سنة سبع وتسع مئة[3] ، وضريحه في كوم [نهيا] يُرىٰ من بُعدٍ[4] ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

(٢) في النسخ : (خمسة) بدل (خمس) ، والدرجة : تعادل ما يساوي أربع دقائق .

(٣) في « الطبقات الكبرى » (٢/ ٣١١) : (توفي سنة « ٨٩٧ ») .

(٤) في النسخ : (نسهنا) بدل (نهيا) ، وانظر (٢/ ٣١٠) الحاشية (٣) .

ومنهم :

(٣٨٢) الشيخ الفرغل بن أحمد رضي الله تعالىٰ عنه[1]

المدفون بناحية أبي تيج بالصعيد .

كان رضي الله عنه من أكابر الرجال المتمكنين من أصحاب التصريف ، وكان يشفع عند الملك الأشرف بَرْسْباي ، فلا يردُّ شفاعتَهُ .

وكان إذا طلع للسلطان يقول له : أنت مشد هـٰذا البلد ؟[2] فيقول له السلطان : نعم .

وقال له أولَ طلوعه : كنتُ أحسبُكَ أنك ذَهَبٌ ، وما كنتُ أعرفُ أنك مثلُنا ، فتبسم السلطان .

وأخبرني ولدُ نقيبه مخيمر ـ وكان اسمه الشيخ علي ـ : أن والده أخبر أن امرأة جاءت إلى الشيخ وهي حُبلىٰ ، وقالت : اشتهتْ نفسي جوزة من جوز الهند ، وما وجدنا عند أحد شيئاً ، فقال للنقيب : ادخل هـٰذه الخلوة واقطع لها خمس جوزات من الشجرة التي في الخلوة ، فدخل فقطع لها خمس جوزات ، ثم نظر فلم يرَ هناك شجرةً .

ودخل مرةً مصرَ في شفاعة لأولاد ابن عمر حين عصوا أمر السلطان ، فقال للسلطان : يا مولانا السلطان ؛ أطلق ابن عمر ، وأرسله إلىٰ بلاد الكرك ، وكان السلطان لا يُرسل لها إلا من نفاه ، فقال السلطان : باسم الله يا سيدي الشيخ ، فتشوش جماعةُ ابن عمر وقالوا للشيخ : إنما جئنا بك لتشفع فيه يردُّه بلادَهُ ، فقال : وقد أرسلتُه بلادَهُ التي فيها ترابُهُ ، فسافروا به إلى الكرك ، فمات يومَ الدخول ، فدُفن بالكرك .

ومرَّ عليه شيخ الإسلام ابنُ حجر تحت الرميلة والخلق يُقبّلون يديه ورجليه ، فأنكر

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣٠٣) (٣٣٣) .

(٢) المشدُّ : مسؤول مكلف بأداء مهمة كبيرة في الإدارة ، أو العمارة ، أو نحوهما . « النجوم الزاهرة » (٩/ ١٢٠) .

ذلك عليهم ، وقال : « مَا اتخذَ اللهُ من وليٍّ جاهلٍ ، ولوِ اتَّخذَهُ لعلَّمَهُ »[(١)] ، وهٰذا رجلٌ جاهل بالشريعة ، فقال له : قف يا قاضي ، فتسمَّرتْ به البغلةُ ، فصار يضربُهُ علىٰ وجهه ويقول : بلِ اتَّخذني ، وعلَّمني ، ثم أطلقه ، فعزله السلطان في ذلك اليوم بإنكاره على الشيخ ، فجاء إلى الشيخِ حافياً ، فقال : ولَّيتُكَ ، فذهب إلىٰ بيته ، فوجد السلطانَ قد أرسل له الخلعةَ بالقضاء ، فرجع يشكر فضلَ الشيخ ، فقال له الشيخ : لولا حصل فيك شفاعةٌ من سيدي محمد الحنفي لدفعتُكَ خلف جبل قاف ، ونفيتُكَ من هٰذه الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٨] وأنا مما لا تعلمُ أنت ولا أمثالك .

وأخبرني الشيخ عليٌّ ولدُ النقيب : أن والده أخبره أن بعض الرهبان دخل على الشيخ وقال له : إنَّ نفسي قد اشتهت بِطِّيخاً أصفر ، ولم يكنْ يومئذ بأرض مصر بِطِّيخ ، فدخل الشيخ الخلوة ، وأخرج له بِطِّيخةً ، وقال : وعزَّةِ ربي ؛ ما وجدتُها إلا خلف جبل قاف .

وأخبرني أيضاً : أن التمساح خطف عمَّتَهُ وهي تملأ من البحر ، فجاء إليه والدي وقال : إن التمساح قد خطف أختي ، فقال : امشِ بالعجل نادِ في الموردة : معاشرَ التماسيح ، حسب ما رسم الفرغلُ بن أحمد : أن كلَّ من خطف أختي يأتي بها ، قال : فطلع تمساحٌ أبرص كالمركب الصغير ، ومشىٰ ، والرجالُ والنساء والبنات ينظرون ، حتىٰ وقف علىٰ باب زاوية الشيخ ، فأرسل الشيخ خلف الحداد وقال : اقلع لي أنيابَهُ ، فقلعها والتمساحُ واقفٌ يبكي ويجعر كالثور ، ثم ألقاها حيَّةً علىٰ باب الزاوية ، لم ينصدعْ منها شيءٌ ، ثم ذبح له الشيخُ شاةً وأطعمها له وقال : استوص بالمحبِّين من اليوم ، فرجع التمساحُ[(٢)] والناسُ حوله حتىٰ نزل البحر .

وكان إذا جاءه تاجرٌ مكسور يطلبُ شيئاً من الدنيا يقول له : اذهب إلى الساقية

---

(١) قال العجلوني في « كشف الخفا » (٢١٨٥) : (قال في المقاصد : لم أقف عليه مرفوعاً ، وقال الحافظ ابن حجر : ليست بثابت ، ولـٰكن معناه صحيح) ، وتقدم تخريجه (٢/ ٣٠٣) .

(٢) ترددت النسخ بين (فرجع) وبين (فرد) .

الفلانية ، فنادِ في البئر : يقولُ لك الفرغل املئي قادُوساً ذهباً[1] ، فيطلع له القادوسُ ملآناً ذهباً .

وكان كلَّ قليل يقول : طلعتُ إلى العرش ، ووقفت بين يدي الله تعالىٰ ، وقال لي : كذا وكذا في اليقظة ، فقال له شخصٌ من القضاة : اخرس يا كلب ، فقال : اخرس أنت ، فخرس القاضي وعمي وأُقعد حتىٰ مات .

وكان الشيخُ زَمِناً ، وكانوا يغيِّرون له كلَّ يوم والثاني نعلاً جديداً ، ويجدون فيه حصىً بلاد بعيدة ، وكان يتكلم علىٰ ما يقع في سائر أقاليم الأرض .

وسمعتُ سيدي محمد بنَ عنان يقول : خرجتُ لزيارته من بلاد الشرقية ، فأَعلمَ أصحابَهُ بي حين خرجت ، وصار يقول : فلانٌ وصل إلىٰ بلد كذا ، حتىٰ قال : قد وصل إلىٰ باب الزاوية .

وكانت له نصرانيةٌ تعتقده في بلاد الروم ، فنذرت : إنْ شفى الله ولدها أن تعمل للفرغل بساطاً كبيراً ، فكان يقول : ها هم غزلوا صوف البساط ، ها هم دوَّروه على المواسير ، ها هم شرعوا في نسجه ، ها هم أرسلوه ، ها هم نزلوا المراكب ، هاهم وصلوا إلى المحل الفلاني ، إلىٰ أن قال : ها هم علىٰ باب الزاوية ، قم يا مُخيمر خذِ البساطَ من الرجل ، وأدخله أطعمْه ، وأعطه حقَّ طريقه ، وأمرْه أن يرجع إلى النصرانية في هـٰذه الساعة ، فقال له النقيب : غمِّض عينيك ، ومشىٰ به خطوات وقال له : افتح عينيك ، فإذا هو ببلاد الروم ، فأخبر النصرانية الخبرَ ، فزادت في اعتقاده .

وكان في بداية أمره يحرسُ الجرون في بني صميع[2] ، فأخذ يوماً فريكاً أخضر ، وطلع به فوق جرن القمح يحرقه ، فصاح به الناس ، فقال : إن النار لا تحرق إلا فريكي ، فحرقه فوق الجُرْن ولم تحرقِ النارُ غيرَ فريكه .

وقال مرةً لرجلٍ : زوِّجني ابنتك ، فقال له : ليس معك مهرُها ، فقال له : كم

---

(١) **القادوسُ** : وعاء خزفي كالجرة ، تنتظم منه ومن أمثاله سلسلةٌ تديرها الناعورة ، فتغرف الماء من البئر إلى المزرعة . « المعجم الوسيط » (ق د س) .

(٢) **الجرن** : الموضع الذي يداس فيه البُرُّ ونحوه ، وتجفف فيه الثمار .

مهرُها ؟ فقال : أربع مئة دينار ، فقال له : اذهب إلى الساقية الفلانية وقل لها : املئي للفرغل قادُوسين ذهباً وفضة ، فملأت له قادوسين ؛ أحدُهما [ذهب][1] والآخر فضة ، فقال له : توسَّعْ بهما ، ولم يزلِ الرجل وذريَّتُهُ مستورين إلىٰ وقتنا هـٰذا .

وجاءه شخصٌ اسمه ابن الزرازيري ، فقال : يا سيدي ؛ أنا رجلٌ فقير ، فقال له : قد ولَّيتك من الخلصة للملصة ، فولاه السلطانُ كاشفاً في أربع أقاليم الصعيد .

قال النقيب مخيمر : وأرسلني الشيخ مرةً يشفعُ عند أمير في شخص ، فقال الأمير : قل للشيخ أنت زوكاري[2] ، ما لَكَ بالأمراء شغل ، فنقر الشيخُ بإصبعه في الأرض كهيئة الذي يحفر ، فجاء الخبرُ : أن السلطان غضب علىٰ ذلك الأمير ، وأمر بهدم داره ، فهي خرابٌ إلى الآن في نواحي جامع ابن طولون ، ثم إنه ضرب عنقَهُ بعد ذلك ، فقالوا للسلطان : ما سببُ هـٰذا الأمر ؟! فقال : لا أعلم له سبباً ، إلا أن الله حرَّكني لما وقع ، فجاء الخبرُ إلى السلطان بما فعل مع الفرغل ، فقال السلطان : شي لله يا فرغل .

وقرأ مرةً عنده فقيهٌ ، فأسقط بعضَ آيات ، فقال له الشيخ : إنك نطَّيتَ بعضَ آيات ، فقال له يا سيدي ؛ من أعلمَكَ بهـٰذا وأنت لا تحفظُ القرآن ؟! فقال : كنتُ أرىٰ نوراً مُتَّصلاً وأنت تقرأُ ، فانقطع النورُ ، فعلمتُ أنك نطَّيت .

وكان يقول : (إن الله تعالىٰ جعلني من المتصرِّفين في قبورهم ، فمن كان له حاجةٌ فليأتِ إلىٰ قبالة وجهي ، ويذكرها لي أقضِها له) .

ووقائعه رضي الله عنه كثيرةٌ مشهورة ؛ من رؤيته في بلاد الفرنج ، وذهابه إلى الهند والسند والعراق ، وجبل قاف ، وغير ذلك .

توفي سنة ستين وثمان مئة ، ودفن ببلده أبو تيج رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) في النسخ : (ذهباً) .

(٢) الزوكرة : لفظ يستعمله المغاربة ؛ ومعناه عندهم : المتلبس الذي يظهر النسك والعبادة ويبطن الفسق والفساد . « نفح الطيب » (٦/ ١٢) .

ومنهم :

(٣٨٣) الشيخ إبراهيم بن عبد ربه رضي الله عنه[1]

المدفون على باب جامع سيدي أحمد الزاهد رضي الله عنه ، كان من أرباب الأحوال .

دخل مرةً بيت سيدي مَدْين في مولده الكبير ، فأكل طعام المولد كلَّه ، وما عَشوا الناسَ إلا من السوق .

وكان يأكل في بعض السنين لحمَ بقرة كاملة ، ويطوي بعدها عن الأكل سنةً .

وكان الشيخ أمينُ الدين شيخُنا من المتردِّدين إليه ، فقال له يوماً : يا سيدي ؛ إن عشنا بعدَك فمن نسأله في حوائجنا ومهماتنا ؟ فقال : يا أخي ؛ مَنْ كان بينه وبين أخيه ذراع من تراب فهو يسمعُ كلامه ، فاسألني عن جميع حوائجك .

قال الشيخ أمين الدين : فمرضَتْ ابنتي رحمةُ حتى أشرفَتْ على الموت ، فوصفوا لها البِطِّيخ الصيفي ، وكان عزيزاً تلك السنة ، قال : فمضيتُ إليه بين المغرب والعشاء ، وقلت له : يا سيدي ؛ محتاجين إلى بِطيخة صيفي ، وذكرتُ له الوعد الذي كان وَعَدَنا به ورجعت ، فوجدتُ في سلَّم البيت بعد صلاة العشاء بطيخةً عظيمة ، لم نعرف أحداً أتى بها ، فعلمتُ أنه ما أتى بها إلا الشيخ إبراهيم . انتهى .

ورأيت في المنام مرةً نعشاً على باب جامع الزاهد ، أرادوا أن يجعلوا عليه ميتاً ، فقال الناس : هـٰذا الميتُ لا يحمله إلا مركبٌ ، فجاؤوا بمركب يسحبونها حتى وصلتْ إلى باب الجامع ، فوضعوا الميتَ فيها ، فاستيقظت ، فأخبرت بذلك الشيخ أمين الدين ، وكان أستاذاً في تعبير المنامات ، فقال لي : منامُك صحيحٌ ؛ فإن زينَ الدين الإستادار طلب أن يأخذ سيدي إبراهيم يدفنه في تربته ، فعجز الناس أن يحرِّكوا

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (١/١٨٧) (إبراهيم الرملي نسبة لرملة أتريب من الشرقية) ، و« شذرات الذهب » (٩/٤٨٣) (وفيات ٨٧٨هـ) ، و« طبقات المناوي » (٣/١٣٧) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/٢٤٣) .

النعش ، فلم يقدروا ، فصلُّوا عليه قبالةَ الجامع ، ودفنوه في خد الجامع في المكان الذي هو فيه الآن ، وكان يقول : هٰذا قبري قبل ذلك .

ووقائعه كثيرة مشهورة .

ومنهم :

(٣٨٤) سيدي محمد بنُ صالح رضي الله تعالىٰ عنه[1]

كان من أجلِّ أصحاب سيدي محمد الغَمْري ، وكان مجذوباً[2]

أخبرني الشيخ محمد الطنيخي رضي الله عنه : بأنه كان من شأنه أن كل من رأىٰ وجهَهُ وحواجبه ضحكَ قهراً عليه حتىٰ ولو كان مات له ميت .

وكان يحمل حملات الناس ، ويقوم بها

وشاورته عن سفر الحج ، فقال لي : إنْ سافرتَ غرقتَ ، فقلت له : يا سيدي ؛ كيف تُغرقني وأنا محبُّك ؟! فقال : تطلع علىٰ حمل دقيق للبر ، وتكونُ سنتُكَ أبركَ السنين ، فكان الأمر كما قال ، فغرقت ، وحنَّنَ الله تعالىٰ عليَّ تجارَ مكة ، فكسوني ، وقاموا بي سنة ، وأعطوني هدية أكثر مما غرق مني في البحر .

وأخبرني الشيخ أمينُ الدين إمامُ جامع الغَمْري : أن سيدي أبا العباس لمَّا عمَّرَ جامعَهُ بسوق أمير الجيوش حكمتْ تربيعةُ الجامع من الجانب الشرقي علىٰ بيت امرأة عجوز ، فبذل لها سيدي أبو العباس مالاً جزيلاً أضعاف ثمنه ، ولم ترضَ ، فجاء سيدي محمد بن صالح ، فغمزَ سيدي أبو العباس النقيبَ أن يدخلَ سيدي محمد الخلوةَ ، ولا يفتح له ليلةً كاملة ، فأغلق الباب عليه من المغرب ، فبينما الشيخ يصلي الصبح ، وإذا بالمرأة أتت بمكاتيب بيتها للشيخ ، وقالت : اشهدوا عليَّ أني خرجتُ عنه لله تعالىٰ يعمل في المسجد ، فأمر الشيخ بإخراج سيدي محمد ، وأعطاه نصفَ فضة .

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (٧/ ٢٦٩) ، و« وجيز الكلام » (٢/ ٨٣٦) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢٥٧ ، ٤/ ٥٣٣) .

(٢) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات.

وجاء ابنُ عُلَيْبَة مرةً إلىٰ سيدي أبي العباس الغمري يُحمِّله حملةَ مراكبه في بحر الهند ، فقال : هٰذه ما هي لي ؛ وإنما هي لمحمد بن صالح ، فجاء سيدي محمد ، فقال له : احملْ حملةَ مراكب الخواجا ، فقال : بشرط أن يأتيني في هٰذا الوقت بثلاثة أنطاع جدد ، فقال : يا شيخ محمد ؛ ما عندي سوىٰ نِطعين ، فقال : اشترِ لي نطعاً ، فقال له : يا شيخ محمد ؛ أنت طماع ، فجاء الخبرُ أنّ الثلاثَ مراكب غرقتْ ، وأن طيراً أتاهم بنطعين ، فسدَّ الماء من مركبين ، وغرقت الثالثة أصلاً ، فندم ابنُ عُلَيْبَة الذي لم يكن اشترىٰ له نِطعاً ثالثاً .

ووقائعه كثيرة مشهورة .

مات في سنة نيِّف وثمانين وثمان مئة ، ودفن بتربة حمص أخضر[1] بجوار تربة جامع الأزهر ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٨٥) الشيخ عبد الرحمـٰن بن بَكْتَمُر رضي الله عنه[2]

من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد الزاهد رضي الله عنه ، كانت مجاهداته فوق الحدِّ .

ورأيت بعيني الحبل الذي كان في سقف خلوته ، يضعُهُ في عنقه في الليل والنهار حتىٰ لا يضع جنبه إلى الأرض ، وكانت خلوته فوق بيوت الخلاء بميضأة جامع الزاهد .

وأخبرني الشيخ أمين الدين الإمامُ بجامع الغمري : أن سبب اجتماعه بسيدي أحمد الزاهد أنه كان من جيرانه الأبعدين ، فخطر له يوماً أنه يرسل إلىٰ بيت سيدي أحمد

---

(١) حمص أخضر : هو الأمير : سيف الدين طشتمر حمص أخضر الساقي الناصري ، نائب حلب وصفد ومصر ، قتل سنة (٧٤٣هـ) ، سمي حمص أخضر ؛ لأنه لما كان بالسجن كان يأكله كثيراً .

(٢) انظر « الضوء اللامع » (٤/ ٦١) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ١٩٦) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٦١) .

الزاهد خروفاً وملوخياً أول طلوعها ، فأرسل ذلك ، وكان سيدي أحمد الزاهد لا يدخل البيت لعياله إلا بعد صلاة الجمعة ، فيمكثُ عندهم إلىٰ صلاة العصر ، وما عدا يومَ الجمعة فهو مقيمٌ بالمسجد ، فدخل الشيخ ، فرأى الأولاد يضحكون ، وهم فرحانين ، فقال : ما هٰذا ؟ فقالوا : شخص اسمه عبد الرحمٰن بن بَكْتَمُر أرسل لنا خروفاً وملوخية ، فدعا له أن يكون من جملة أصحابه ، فما مضىٰ يومُ الجمعة حتىٰ جاءه بهمَّةٍ كأمثال الجبال ، يطلبُ الطريقَ ، فلقَّنه الذِّكْر ، وأشغله بالتوحيد ، ففتح الله تعالىٰ عليه ، وصار ينظر في الألواح السماوية .

ومن جملة ما رأى : اسمَ سيدي أحمد الزاهد في الأشقياء ، فتكدَّر لذلك ، وبكىٰ علىٰ شيخه ، فقال له سيدي أحمد : يا ولدي ؛ أنا لي ثلاثين سنة وأنا أنظر ذلك ما تغيَّرتُ ، ثم قال لسيدي عبد الرحمٰن : انظر اسمي الآن ، فنظره ، فرآه في السعداء ، فشكر الله علىٰ ذلك .

قال : ولما حضرتْ سيدي أحمدَ الوفاةُ جمعني أنا وسيدي مدين ، وسيدي محمد الغَمْري وقال : أريدُ أَقسمُ بينكم ميراثي قبل موتي ؛ خوفاً عليكم من تنازع الإخوان بعدي فيكم ، فقلنا : نِعْمَ ما تفعل يا سيدي ، فقال : يا مَدْين أنت مددُكَ لأصحابك ، ما لذريتك منه شيء ، ويا محمد يا واسطي ؛ مددُكَ لذريتك ، ما لأصحابك منه شيء ، ويا عبد الرحمٰن ؛ مددُكَ لنفسك ما لذرِّيتك ولا لأصحابك منه شيء . انتهىٰ .

وصدق الشيخُ في كل ما قال ؛ فإني رأيتُ أولاد سيدي عبد الرحمٰن صنايعية يعملون المكاكيك والمواسير للحياكين في حارة الميدان ، لم يشتهر عنهم شيء من أحوال الفقراء ، وأما ذريةُ الغَمْري : ففيهم البركةُ والمددُ والصلاحُ ، وأما ذريةُ سيدي مدين فكذلك .

وأقام سيدي عبد الرحمٰن بعد سيدي أحمد في الجامع يتعبَّدُ إلىٰ أن مات ، ودُفِنَ عليه تجاه ميضأة الجامع ، وبنوا عليه زاويةً وضريحاً ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٨٦) الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي شهاب الدين رضي الله عنه جدُّ والدي الأدنىٰ[(١)]

كان أمياً ، لا يكتبُ ولا يقرأ ، وكان يستدلُّ بالآيات والأحاديث في الوقائع ، فيتعجبُ الناسُ منه .

وكان إذا خرج لحصاد زرعه يأخذُ معه إبريقاً للوضوء ، فتغافله جماعةٌ من العيَّاق ، وشربوا الإبريق كلَّهُ ، وكفؤه على الأرض[(٢)] ، وصاروا يراقبونه إذا جاء يتوضأ ، وإذا به قد طلب الإبريق ، فوجده ملآناً ، فتوضأ ، فجاؤوا واستغفروا ، وصار يقول لهم : لو شربتموه كلَّهُ لم نجد فيه ماءً ، فكانوا يحلفون له أنهم لم يتركوا فيه شيئاً ، فمن ذلك اليوم تأدَّبوا معه .

ولما حضرته الوفاةُ كان ولدُهُ عليٌّ ـ الآتي ذكره عقبه ـ حملاً ، فقال لمن حضره : قد جعلتُ اللهَ وليَّ ولدي ، فكان الناس يقولون : جميع ما كان فيه الشيخ عليٌّ من بركةِ وصية والده ربَّهُ عليه ، وكفىٰ بالله وليّاً .

توفي سنة ثمانٍ وعشرين وثمان مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٣٨٧) الشيخ علي الشعراني جدي الأدنىٰ رضي الله عنه[(٣)]

كان من رفقة شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري شارح « البهجة » في الاشتغال بالعلم في الجامع الأزهر حال الشباب .

وكان من المدقِّقين في الورع ، حفظ القرآن العظيم و« المنهاج » و« الشاطبية »

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (٤/ ٣٤٥) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٤٣) .
(٢) كفأ الإناء : قلبه .
(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣١٧) (٣٤١) .

و« جمع الجوامع » و« الألفية » و« الملحة » و« الآجرُّومية »[١] و« أبي شجاع »[٢] وهو دون البلوغ ، وشرحها على أشياخ جامع الأزهر ، وأجازوه بالفُتيا وهو ابن عشرين سنة .

وكان لا يأكل لجامع الأزهر خبزاً ، ولا يشرب له ماءً ، إنما كانت والدتُهُ تُرسل له بعضَ كعك تعمله له في الريف ، وترسله له ، وكان يملأ جرَّتَهُ كلَّ يوم والثاني من ساحل بولاق .

وكان يصوم يوماً ، ويفطر يوماً ، ويقومُ كلَّ ليلة يتهجَّدُ بنصف القرآن صيفاً وشتاءً ، حتىٰ بعد موته ، فسمعه بعضُ أهل الكشف وجيرانُ قبره يقرأ من سورة مريم إلىٰ آخر القرآن بصوت حزين بخشوع ، ولا يرون شخصَهُ .

وكان يقول : (مبنىٰ طريق أهل الله عز وجل على الجوع ، والأكل من الحلال) .

وكان إذا طحن في طاحون يقلب الحجر ، ويُخرج من تحته دقيقَ الناس يضعه في إناء في الطاحون ، ثم يطحنُ قمحَه ، ويُبقي للناس من طحينه بقيةً .

ولم يأكل من فراخ الحمام الذي في أبراج الريف إلىٰ أن مات ، ويقول : (إنهم يأكلوا من حَبِّ الناس أيامَ البذر ، وإذا بدا صلاحُهُ في الغيط ، وإذا وضعوه في الجُرْن ، ولو كان الناسُ يسمحون بأكله ما عملوا له أشياء تجفله ، ولا أكروا له ناطوراً) .

وكان والدي رضي الله عنه يأتيه بفتوى الشيخ جلال الدين المَحلِّي ، والشيخ يحيى المناوي وأضرابهما بإباحة ذلك ، فيقول : يا ولدي ؛ هـٰؤلاء يفتون بالرُّخص توسعةً علىٰ أهل الضرورات ، وأما نحن فليس لنا ضرورة إلىٰ أكل مثل ذلك .

ثم تورَّع بعد ذلك عن أكل عسل النحل حين سمع بعضَ أهل برشوم التين يقولون :

---

(١) **الآجرُّومية** : لمحمد بن محمد الصنهاجي ، المعروف بابن آجرُّوم ، ومعناه بلغة البربر : الفقير الصوفي (٦٨٢ـ٧٢٣هـ) ، وهي مقدمة في النحو ، نافعة للمبتدئين . لها عدة شروح . « كشف الظنون » (٢/ ١٧٩٧) .

(٢) مختصر أبي شجاع في فروع الشافعية ، مشهور ألفه أحمد بن الحسن بن أحمد الأصبهاني العباداني المتوفىٰ سنة (٥٠٠هـ) .

إن نحلَ ساقية أبي شعرة يُعدِّي البحر ، ويأكلُ زهر فواكهنا ، وأتاه والدي بفتوى الشيخ يحيى المُناوي بإباحة ذلك ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل : ٦٩] وهو المالكُ الحقيقي ، فلما رآها جدي رحمه الله قال : إن الحق تعالىٰ قد حرَّم علينا أن نأكل مالَ غيرنا بغير حقٍّ ، فالآيةُ كالإطلاق في محلِّ التفصيل ؛ لأنه يحتمل أن يكون المرادُ : (كلي من كلِّ الثمرات المباحة دون المملوكة) فسكت والدي .

ثم إن والدي رأىٰ عبدَ العزيز الدِّيريني في المنام ، وقال له : سلِّمْ لوالدك ؛ فإنه في وادٍ والناسُ في واد ، فمن ذلك اليوم سلَّمَ له والدي ، وعلم أن كلَّ لبنٍ أو عسل تولَّدَ من غذاءٍ حرامٍ ، فهو حرام .

وكان رضي الله عنه يُقرئ الأطفال احتساباً لوجه الله تعالىٰ ، لا يذوق لهم ولا لأهلهم طعاماً ، ولا يقبلُ لهم هديةً ، وكان عنده نحو مئةُ طفل يقرؤون .

وكان يجتمع عنده كلَّ يوم من خبزهم نحو إردبِّ خبزٍ ، فكان يُرسله إلى المساكين والأرامل الذين في البلد ، وتارةً يُرسله إلى المراكب التي يمرُسُ عليها الريح علىٰ ساحل البلد .

ووقع مرةً غلاءٌ ، فباع قمحَهُ للناس ، وصار يجوع مثل الناس ، وصار بعضُ الأطفال يعطيه خبزه ، فلا يقبله ، ويقول : تمامُ الورع إنما هو عند الضرورة دون أيام الرخاء .

وكان لا يأكل قط طعامَ فلاح ، ولا شيخ بلد ، ولا مُباشر بلد ، ولا أحد من أعوان الظلمة من منذ وعىٰ علىٰ نفسه .

وعزم عليه مرةً قبانيٌّ في ساحل بولاق[1] ، فلم يأكل له طعاماً ، فقال له : يا سيدي ؛ هـٰذا من كسبي الحلال ؛ فإني لا أَزنُ إلا حقّاً إن شاء الله تعالىٰ ، فقال : لا آكل لأحد يمسكُ الميزان طعاماً ؛ لعدم تحريرها في الغالب ، وعدمِ تفقُّدها بالمسح من الغبار .

وأخبرني شيخ الإسلام زكريا مرةً : أنه كان له صاحبٌ من بلدنا اسمه الشيخ علي بن

---

(١) القباني : من يزن بالقبان .

شهاب ، فقلتُ له : هو جدي ، ففرح بي ذلك اليوم فرحاً شديداً .

وسألني في المطالعة له لمَّا كُفَّ بصره ، فطالعتُ له عشر سنين ، وكنتُ أتغدَّىٰ معه كلَّ يوم ويقول : أنت من أولاد أخي الصالح .

قال : وكنا نتغافلُهُ بالليل ، ونشربُ من جرَّته التي يملؤها علىٰ كتفه من بولاق ، نبغي بذلك البركة ، فيجيء إليها فيجدها فارغةً ، فيتبسم .

قال : وكان أهل الجامع يضربون به المثلَ في شدَّة الاجتهاد ، وإذا رأوا شاباً عنده اجتهاد قالوا : هـٰذا يريد يعمل مثل علي الشعراوي ؛ وذلك أنهم كانوا لا يجدونَهُ قطُّ في ليل أو نهار فارغاً .

وكان نومه خفقاتٍ يخفِقُها وهو جالس مدَّة إقامته في الجامع الخمس سنين .

وفرغ كعكه الذي كانت والدتُهُ ترسله له ، فلم يأكل في مصرَ خبزاً ، وسافر إلىٰ والدته ، فتغدَّىٰ عندها بعد أن طوىٰ يومين .

وكان يقول : (طعامُ مصرَ سمٌّ في الأبدان ، ما أكله أحدٌ وأفلح في طريق الله عز وجل) .

وأخبرني سيدي خضر الذي كفلني يتيماً قال : كان جدُّكَ إذا جاء مصر في حاجة بعد أن أقام بزاويته في الريف يأتي بجِرابه فيه الخبزُ ومعه إبريقٌ يملؤه من بحر أبي المنجا ، فيشرب منه مدةَ إقامته في مصر .

وأخبرني شيخ الإسلام زكريا رحمه الله : أن سببَ خروجه من مصر إلى الريف أن والدته جاءَتْهُ بزاده من الكعك ، فنزلتْ عند جماعة من بلاده ، فأخذتْ قميصَهُ تغسله له ، فرأت فيه شيئاً يُشبه المنيَّ ، فقالتْ له : يا علي ؛ إنْ كنتَ في طاعتي سافرْ معي في هـٰذه المرة أزوِّجْك ؛ فإني أخافُ عليك من النظر ، قال : وكان بارّاً بوالدته ، فسافر معها ، وتزوج ، وكان يقول : قطعتني والدتي وأنا أخضر قبل أن أدرك مبلغَ الرجال .

وكان خلقٌ كثير يقرؤون عليه في القراءات السبع ، والأصول ، والفقه ، وغير ذلك ، فسألوا والدته أن تُقيم عندهم حتىٰ يفرغوا من قراءة هـٰذه العلوم عليه ، فأبت .

وأخبرني الشيخ زكريا رحمه الله : أن والد جدي هـٰذا توفي وجدي صغير[١] ، فما رباه إلا والدته ، قال : وكانت امرأةً طويلة ، لها قوةُ الرجال ، تحمل الإردبَّ القمح وحدها ، فتضعه علىٰ ظهر الحمارة .

وأخبرني أيضاً : أن جدي لمَّا توفي والده كانت والدته تغزل وتكسيه وتطعمه ، فقال : يا أمي ؛ أكريني أرعى البهائم ، فأكرته ، فصار يرعىٰ بالكراء ، ويكتبُ لوحَهُ في البلد ، ويأخذه معه الغيط ، فيحفظه ، ويكتب غيره حتىٰ حفظ القرآن كلَّهُ ، و« أبا شجاع » و« الآجرُّومية » ، فمرَّ عليه شخصٌ من أرباب الأحوال ، فقال له : يا ولدي ؛ شاور والدتك ، وسافر لجامع الأزهر ، فاشتغل بالعلم علىٰ أهل العلم ، فأجابَتْه لذلك .

وكان صائمَ الدهر من منذ وعىٰ علىٰ نفسه ، وكان يأخذ غداءه وهو يرعى البهائم ، فيُطعمه للصغار في الغيط ويطوي .

وأخبرني عمي الشيخ عبدُ الرحمـٰن رحمه الله قال : كان والدي لا يُمكِّنُ أحداً من البلد يمسك شيئاً مما يقذفُهُ البحرُ من المراكب التي تغرق ؛ من رمان أو قصب أو بطيخ ، ويقول : يا إخواننا ؛ تشغلون ذمَّتكم بشيء غرقَ علىٰ رغم أنف صاحبه ، ولو أخذتموه لا تعرفون له صاحباً حتىٰ تستأذنوه في أكله .

ودعا ربَّهُ ألا يصبح في بيت أحد من ذريته برجُ حمام ، فبنوه بعده كذا كذا مرةً ، فلم يدخلْهُ طيرٌ من الحمام ، وأبراجُ جيرانه معمرةٌ بكثرة ، وعمل والدي له جلباً ولم يصح .

وأخبرني والدي : أن والده رآه يوماً ومعه فولٌ أخضر ، وهو داخلٌ به الدار ، فقال : من أيِّ مكان جئت به ؟ فقال : من الغيط الفلاني ، فأخذه ومضىٰ به إلى الغيط ، فأرسلَ خلفَ صاحبه ، وأعطاه الفول ، فقال : يا سيدي ؛ واللهِ ؛ خاطري طيبٌ بذلك ، فلم يسمع له ، ثم قال له : يا أحمد ؛ مرَّ بعضُ الفقراء بمارس قمح ، ففرك سنبلة ، وعض في قمحة منها ، فتذكر الحساب ، فردها ، فنام ، فرأىٰ صاحبها وهو يطالبه بأرش كسرها .

---

(١) في (ج ، د ، ك) : (حمل) بدل (صغير) .

قال : ووقع لي أنني[١] مررتُ مرةً على مارسِ قمحٍ ، فأعجبتني سنبلةٌ منه ، وهي فريكٌ ، فأخذتها وفركتُها ، ثم تذكرت الحساب يوم القيامة ، فرميتها في مارس صاحبها ، فرأيتُ تلك الليلة كأن القيامة قامت ، ونادى المنادي : ليقم أربابُ الحقوق ، فجاء صاحبُ السنبلة وادَّعى عليَّ بين يدي الله عزَّ وجل وأنا أرعدُ كالقصبة من الخوف ، فقلتُ : يا رب ؛ إني تذكَّرتُ هـٰذا الموقف ، فرميتُها في مارسه ، فقال : يا رب ؛ صَدَقَ ، وصل إليَّ القمح والجريدة الجامعة للبروج ، ولـٰكن يأتيني بتبن البروج الذي طار في الهواء ، قال فعرضْتُ عليه أعمالي الصالحة فلم يرضَ ، وقال : لا آخذ إلا تبني ، فما استيقظت حتى كدتُ أهلك ، فمن ذلك اليوم ما أكلتُ فريكاً ، ولا فولاً أخضر إلا إن أعطاه لي شريكي بيده ، أو يكون ذلك لي وحدي .

وكان إذا زرع مارسَ قمح يجعل بينه وبين مارسِ غيره خطّاً من فول ، أو زرعَ فولاً يجعل بينه وبين جاره خطَّ قمح ، أو غيره ؛ خوفاً من أن يجيء شيءٌ من مارس جاره في زرعه أيام الحصاد ، أو حال رعيه البهائم .

وكان يجعلُ لبهائمه كلِّها كمائمَ ؛ خوفاً أن ترعى في مارس الغير .

ولم يأكل لبنَ الجاموس قطُّ ؛ لعدم ضبطه على مارس صاحبه .

وأخبرني جماعةٌ ممن قرؤوا عليه القرآن وكتاب « المنهاج » وعدة كتب ، فما نظن أن كاتب الشمال كتب عليه شيئاً في ساعة من ليل أو نهار ، وكان يهجرُ الواحدَ منا الأيامَ إذا سمعه يغتاب أحداً .

قالوا : وما رأينا له ساعةَ فراغ قطُّ ؛ لأنه إما يقرأُ القرآن ، أو يضفرُ الخُوصَ يعملُه قففاً للناس ، وإما يعلِّمُ أولاده رسمَ الخطِّ ، وإما [يجوِّدون][٢] عليه القرآن ، وإما يخيطُ ، وإما ينسخُ مصاحف للحسنة ، وإما يملأُ الأسبلة ، وإما يبيع في دكانه على باب الزاوية آلات الطعام بعد صلاته العصر .

قالوا : وكانت طريقتُهُ : أنه يقومُ كلَّ ليلة بعد رقدة من الليل ، فيتوضأ ويصلي

---

(١) من قوله : (مرَّ بعض الفقراء . . .) إلى قوله : (ووقع لي أنني) زيادة من (ب ، ج ، د ، ك) .

(٢) في النسخ : (يجودوا) .

ما شاء الله أنْ يصلي ، ثم يثني ذيله في وسطه ، ويشدُّ وسطه بحزام ، ويأخذ جرَّتين كباراً ، ويبتدئ في القراءة ، فلا يزالُ يملأُ من البحر إلىٰ قريب الفجر ، وربما قرأ نصفَ القرآن في ليال الشتاء الطوال ، فكان يملأ السَّبيلَ الذي في زاويته ، والسَّبيل الذي في الجامع ، والسبيل الذي في البرية .

ثم لمَّا زوَّجَ أولاده الثلاثة ؛ والدي وأخويه صار يملأ لكل واحد جراره ، حتىٰ يملأ مسقاةَ الدجاج والكلاب ، ولا يُمكِّن أحداً من أولاده ولا عيالهم يملأ ، ولا يخرج من الدار إلا لحاجة ، ثم يرجعُ إلىٰ ميضأة الزاوية ، فيملأ الفسقية وبيوتَ الخلاء ، ثم يصعد منارةَ الزاوية ينزِّه الله تعالىٰ ساعةً ، ثم يُسلِّم ويؤذِّن ، فيكون الأولادُ الذين يقرؤون عنده قد حضروا ، فيقرأ بهم سبعاً ثلاثة أحزاب .

ثم يصلي بالناس الصبح ، ثم يجلس يقرأُ القرآن إلىٰ أن تطلع الشمس ، فيشتغل الأولاد بحفظ ألواحهم في القرآن والعلم ، ثم لا يزالُ في سماعِ ألواحهم وماضيهم وتعليمهم الكتابة والخط ورسم الكتب وتجويد القرآن إلىٰ أذان العصر ، فيصلي بالناس العصرَ ، ويفتح باب حانوته ، ويصيرُ يبيع الناسَ حوائج الطعام إلىٰ نصف عصر ، ثم يغلق حانوته ، ويملأُ الميضأةَ والبيوت ، ثم يجلس يستغفرُ الله بالناس إلىٰ غروب الشمس ، فيُصلي بالناس المغرب ، ويجلسُ يقرأ القرآن هو والأولاد إلى العشاء ، ثم يصلي العشاء ، ويتخلَّفُ بعد انصراف الناس لصلاة الوتر إلىٰ ساعة من الليل ، فتارةً يرجع إلى الدار ، وتارةً يهجع في الزاوية هجعةً ، ثم يقوم للتهجُّد وملءِ الأسبلة والجرار التي تقدَّم ذكرها ، هـٰذا شأنه صيفاً وشتاءً .

وكان كلُّ طفل قرأ عليه يسهِّلُ اللهُ عليه القراءة وإن كان أبله ، فيحفظ القرآن في مدَّة يسيرة .

وأخبرني والدي : أنه حفظَ القرآنَ وهو ابنُ سبع سنين ، وصلىٰ به إماماً للناس في ركعتين ، ثم صار يخطبُ بالناس ، ويؤمُّ بهم من حينَ كان عمره سبع سنين .

قال : ولما خطبتُ وأنا ابنُ سبع سنين طلع والدي ، فحملني من فوق المنبر حتىٰ أقامني في المحراب وهو يبكي سروراً بي .

وكانت زوجتُهُ تقول : أشتهي من الله أني أراك ليلةً واحدةً نائماً عندنا طول الليل كما تفعلُ الناسُ ، فيقول لها : نحن ما دخلنا هـٰذه الدار للنوم ، وإنما دخلناها للكدِّ والتعب ، وسوف ننامُ في القبور إن شاء الله تعالىٰ إذا متنا إلىٰ قيام الساعة .

وكان رضي الله عنه إذا وقفَ عليه أحدٌ من شيوخ البلاد أو غيرهم ممن في ماله شبهةٌ يشتري أرزاً أو عسلاً أو زيتاً أو فلفلاً أو غير ذلك لا يردُّه ، بل يُعطيه حاجته ، ويقول : احفظْ لي الثمنَ عندك حتىٰ أحتاج إليه ، ولا ترسله لي حتىٰ أطلبَهُ منك .

وأخبرني الشيخ محمد النامولي : أنه سمع سيدي إبراهيم المتبولي يقول : (ما رأتْ عيني أحداً في هـٰذا الزمان أكثرَ نفعاً للناس من الشيخ عليٍّ بن شهاب) .

ثم قال لي الشيخ محمد : وما قاله سيدي إبراهيم صحيحٌ ، ومن شك في قولنا فليعرضْ صفاته المتقدِّمة علىٰ مشايخ زوايا مصر الآن ، فإنَّ أحدَهم لا يقدرُ على المواظبة علىٰ أعماله جمعةً واحدة .

وكان إذا اقترضَ منه أحدٌ شيئاً لا يطالبه قطُّ إلا إنْ جاء به بنفسه .

وكان يكفِّنُ الفقراء والأرامل احتساباً لله عز وجل .

وكان رضي الله عنه يُؤاكلُ أصحابَ العاهات من المجذومين ، ومن بهم برصٌ ، أو حبٌّ إفرنجي ، ويفتُّ لهم في اللبن ، ويشربُ فضلتَهم توكُّلاً على الله تعالىٰ .

ودخل مرة شخص تقطر أطرافُهُ صديداً ، فجلس يأكل معه ، فهرب الأولاد منه ومن الأكل معه تطيُّراً ، فغسل يديه بالطين لأجلهم مداواةً لخاطرهم .

وأخبرني عمي الشيخ عبدُ الرحمـٰن رحمه الله : أن سبب عمارة بيوت الخلاء في زاويته أن شخصاً يقال له : الشيخ سراج الدين التلواني مرَّ عليه ضيفاً ، وكانت عمامته كبيرةٌ ، فاحتاج إلى البول ، فجلس وأطفال البلد ينظرون إليه ، فقال : والله ؛ إني أودُّ أن الأرض تبتلعني ولا رأيتُ الأطفال يتفرَّجون على الشيخ ، فحفر تلك الليلةَ خمس بيوت خلاء من شدَّة مروءته ، فما مضىٰ عليه جمعةٌ حتىٰ بناها .

وكان إذا سرح للحصاد يأخذُ معه الإبريق للوضوء في بعض الأوقات يملأ جراراً من الماء ، ويدور على الحصادين وقتَ الصبح يوضِّئهم ، ويُصلي بهم الصبحَ في الغيط ،

ويقول : (كلُّ طعام اكتُسب بالمعصية فلا ينبغي أكله ، ومن ضيَّعَ الصلاة لأجل الحصاد فلا ينبغي لمتورعٍ أكله) .

وكان يقول : (بلغني : أن الأرض لا تأكل جسماً نبتَ من حلال ، وإنما تأكل ما نبت من حرام وشبهات) ، وكان بعضُ فقهاء بلادنا ينكر عليه قوله : (إن الأرض لا تأكل جسداً نبت من حلال) ، فحضر ذلك الفقيهُ دَفْنَ جدي ، ثم حضرَ دفن والدي ، فلما أرادوا وضعَ والدي على جدِّي وجدوا جدي طريّاً ، فقالوا للمنكر : تعالَ انظرْ بعينك ، صدق قولُه رحمه الله (إن الأرض لا تأكل جسداً نبت من حلال) ، فاستغفرَ الله في حقِّ جدِّي ، وكان بين دفْنِ والدي ودفن جدي إحدىٰ وعشرون سنة .

ورأيتُ أنا الشيخ نورَ الدين الشوني شيخَ الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته ، فقال لي : جاءني جدُّك الليلةَ ، وقال لي : يا علي ؛ إذا كان لك إلى الله حاجةٌ فنادني أجبْك وأقضْها .

واطَّلع والدي علىٰ نسبتنا ، فرآها تنتهي إلى السيد محمد بن الحنفية ، فصار يكتبُ في كتبه فلان القرشي المطلبي ، فنهاه جدي عن ذلك وقال : لا يا ولدي ؛ لا تُظهرْ شرفَ النسب حتىٰ تجاوز الصراط يوم القيامة .

وكانت أمُّ والدي أنصاريةٌ ، فكتبَ الأنصاري ، فمنعه كذلك .

وكتبوا له مرة مُستنداً ، ولقَّبوه بالشيخ نور الدين ، فضرب علىٰ ذلك وقال : اكتبْ علي بنَ أحمد فقط ؛ فإني لستُ بنور للدين .

وكان يقول : كم من ضريحٍ يزار ، وصاحبه في النار .

وأخبرني عمي الشيخ عبدُ الرحمـٰن قال : لما حضرتْ والدي الوفاةُ دعا بكتاب « طهارة القلوب » للشيخ عبد العزيز الديريني ، وقال لأخي أحمد : إقرأ لي أحوالَ القوم عند طلوع روحهم ، فصار يقرأ وهو يتنهَّدُ ويقول : سبقونا علىٰ خيل دُهم ، ونحن وراءهم علىٰ حمير دبرة[1]

---

(١) الدُّهمة : السواد يكون في الإبل والخيل وغيرهما ، والعرب تقول : ملوك الخيل دهمها ، والحمر الدبرة : التي جرح ظهرها وتقرَّح .

وطلعتْ له في لسانه ذلك الوقت نفاطات ، حتىٰ تهرَّىٰ لسانُهُ ، فصارتْ زوجته تبكي وتقول : واللهِ ؛ ما يستحقُّ هـٰذا اللسانُ الطاهرُ ذلك بعد قراءته ذلك القرآن كلَّ ليلة ، فكان جدي يشير لها : اسكتي ، قد تكلَّمَ لساني بكل كلمة يهوي بها في النار سبعين خريفاً .

وأخبرني سيدي خضرُ الذي رباني يتيماً : أن سيدي محمد بنُ عبد الرحمـٰن نائب جدِّه ، وسيدي أبا البقاء بن الجيعان نزلا إلىٰ ناحية ساقية أبي شعرة ، فأعجبتهم ؛ لكونها على البحر ، فجعلوا فيها تقادم قصب سكر ، وبطيخ ، وسمسم ، وقُلْقَاس ، وطلبوا من يضبط لهم مصروفَ ذلك ، فقال أهل البلد : ما عندنا أدين من الشيخ علي ، فأتوا به إليهم ، فقال : أنا لا أتفرَّغُ لمثل ذلك ، فشدَّدوا عليه ، فأجابهم ، وسافروا ، ثم جاؤوا آخرَ السنة فطلبوا منه الحساب ، فأعطاه لهم ، فرأوا فيه أموراً لا يكادُ يمشي عليها أحدٌ من مشايخ العصر ، فنزلوا من فوق المصطبة التي كانوا عليها ، وقبَّلوا رجلَهُ ، وقالوا له : يا شيخ علي ؛ اجعلنا في حلٍّ ، ما كنا نعرفُ مقامَك ، ومثلُك لا يحلُّ أن يكون يخدم مثلَنا في الدنيا[١]

وكان من جملة ما رأوا في الحساب : أن الثورَ الفلاني ضعفَ في الوقت الفلاني ، ففضلَ من علفه سدسُ قدح ، فأضفناه له علىٰ علفه في الوقت الفلاني لمَّا طاب .

ومن جملة ذلك : أن اليومَ الفلاني طلع بِطِّيخة أو بِطِّيختين معطوبتين لنسياني التقليب لهما في الحاصل ، فناديت عليهما حتى انتهت الرغبات ، فبعتهما بقدحين وسدس قدح[٢] ، وكانا قبل العطب يساويا ثلاثة أقداح وسدس قدح ، فعلي لكم قدح في البطيختين .

ومن جملة ذلك : أن الثور الفلاني مات ، وقد امتنع من علفه يومين وبعض يوم ، ففضل من علفه كذا كذا قدح .

ومن جملة ذلك : أن السوَّاقَ سافر وتركَ مكانه شخصاً يسوق ، فغاب نحو عشرة

---

(١) في (أ) وحدها : (لا يجعل) بدل (لا يحل) .
(٢) في النسخ غير (و) : (بقدحين قمح وسدس قدح) .

أيام ، واستنابه بنصف المعلوم ، فإن شئتم تعطونه الأجرة كاملة ، وإن شئتم تعطوه ما أعطاه لنائبه فقط .

ومن جملة ذلك : إن القواديس[1] حملتهم من عند الفيخراني ، فعثرت حمارتي ، فكسرت ثلاثة قواديس ، فعلي ثمنُهم ؛ لأن الحمارة لو كانت لا تعثر ما انكسر شيء ، فأنا المفرِّط الذي حملتُ القواديس لحمارة تعثر .

ثم إنهم عرضوا علىٰ جدي معلومه في الكتابة ، فأبىٰ أن يقبلَه وقال : ما فعلتُ لكم ذلك إلا لله عز وجل .

ثم صار سيدي أبو البقاء ومحمد بن عبد الرحمـٰن يسبوا الفلاحين الذين لم يعلموهم بمقام الجدِّ رحمه الله ، حتىٰ كانوا لا يستعملونه في مثل ذلك ، ثم فارقهم الجدُّ ، فأرسلوا له ثلاثة أطباق علىٰ رؤوس ثلاثة من العبيد ؛ في واحد أثواب صوف وشاشات وثياب بعلبكي ، وفي الآخر حلوىً ومكسَّرات ، وفي الآخر أنواعٌ من الطيب ، فردَّ القماش ، وقبل الحلوىٰ والطيب ، ففرَّقَ الطيبَ علىٰ صبايا البلد ، والحلوىٰ علىٰ أيتام البلد ، ولم يذق هو ولا أهلُ بيته من ذلك شيئاً .

وأراد عمي عبدُ الرحمـٰن أن يأخذَ له إصبعاً من البانيد ، فمنعه ، وقال : يا ولدي ؛ هـٰذا سمٌّ في الجسد ؛ فإن نائبَ جده يقبضُ العشورَ .

وأخبرني سيدي خضر قال : باشرتُ في الساقية ثلاثين سنة ، فما رأيتُ جدَّك أخذَ عوضاً في كتابته خراج الفلاحين ، ولا وضع يده قطُّ في طعام الوجبة الذي يُعمل لأستاذ البلد .

وكان إذا فضلَ للفلاح درهمٌ من خراج سنة يكتبُهُ له فاضلاً للسنة الجديدة ؛ ليحاسبَ به ، ويقول للفلاح : لو أمكنني تخليصُ الدرهمَ لك من أستاذك لأخذته لك .

وكان مُهاباً ؛ إذا خرجَ للصلاة ولقيه مَنْ ليس عادتُهُ الصلاة يذهبُ معه فيُصلي ، ولا يُمكنه تركُ الصلاة ذلك الوقت .

وأخبرني الجماعةُ الذين كانوا يقرؤون عليه القرآن والعلم : أنهم صحبوه مدة

---

(١) تقدم شرحها (٤/ ١٢٩) .

أربعين سنة ما ضبطوا عليه كلمةً يكتبُها صاحبُ الشمال .

وكان إذا بلغه : أن أحداً اغتابه يقول : اللهم ؛ تُبْ عليه مِنْ قَرْض أعراض الناس إن كان ذلك صحيحاً عنه ، ثم يُرسلُ له هديةً ، وفي أوقات يرسل وراءه فيُطعمه الطعام الفاخر ، فيخجل منه ، ويتوبُ إلى الله تعالىٰ مما كان وقع فيه ، ويقول له : قد سامحتك يا أخي فيما بلغني عنك إن كان صحيحاً ، ولـٰكن أسألُ من فضلك ألا تقعَ في عرض غيري ، فإن جميع ما معك من الأعمال الخالصة التي تبقىٰ ليوم القيامة ربما لا يرضىٰ بها إنسانٌ في غيبة واحدة اغتبتَهُ بها ، ويحكي له أهوالَ يوم القيامة حتىٰ ينصرفَ من عنده تائباً .

وكان يخيطُ العراقي ، وكان يتلو القرآن ، فيُعطيه الناسُ في ثمنها فوق القيمة ويقولون : إن كل طعنة مرقيةٌ بآية من القرآن ، فكان يردُّ عليهم الزائدَ ، ومَنْ حلفَ بالطلاق مثلاً أنه لا يأخذُ الزائد جعله عنده على اسم الصدقة للفقراء والمساكين .

وكان يكتب كتبَ العلم والقرآن وهو يسمعُ القرآن لجماعة ، فلا يغلط في الكتابة ، ويردُّ عليهم كلَّهم اللحنةَ والغلطة .

وما رئي رحمه الله قطُّ نائماً في النهار لا صيفاً ولا شتاءً ، ولا ترك قيامَ الليل أبداً نصف الليل أو أكثر ، وكان لا ينقصُ قطُّ عن قيام ثلث الليل الأخير .

ولما رجع من الحجِّ تلقَّاه الناسُ خارج البلد ، فدخل وقتَ الظهر ، فصار ينادي : الصلاةَ الصلاةَ ، لا تلتهوا بالسلام عليَّ عن صلاتكم ، ثم أَذَّنَ وصلَّىٰ بالناس قبل أن يدخل الدار ، ونوخ الجمال تحت الزاوية ، فلما سلَّم من الصلاة وجدَ الميضأةَ ناقصةً ، فملأها من البئر ، وملأ بيوت الخلاء قبل أن يدخل الدار ، وصار الناس يقولون له : أنت تعبان ، فيقول لهم : ما خُلقنا في هـٰذه الدار إلا للتعب والنَّصَب .

قالوا : ولما رجعَ من الحجِّ لم يزل باكياً ، وما رأوه ضاحكاً حتىٰ مات .

وكان إذا لبس قميصاً أو عمامةً لا ينزعها إذا اتَّسختْ ، ولو مكثت عليه سنة حتىٰ ينزعَها عنه عيالُهُ ؛ شغلاً بما هو فيه من العبادة .

وكان نورُ وجهه يستر الناسَ عن رؤية وسخ ثيابه ، رضي الله عنه .

وكان يقول : (لا يعجبني من إنسان كثرةُ عمله ، وإنما يعجبني منه كثرةُ ورعه وتفتيشِه في اللُّقمة التي يأكلها ، فربما كانت أعمال العبد كالجبال ولا يتحصَّلُ منها يوم القيامة مثقال ذرة) .

وكان يأمرُ بالمعروف ، وينهىٰ عن المنكر ، وإن عاد ذلك عليه بالضرر .

ولعب الفقراءُ البرهانيةُ مرةً في بلده بالنار ، فقال لهم : هـٰذا خروج عن طريق شيخكم رضي الله عنه ؛ فإن من كلام سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه : لا يصحُّ لأحد أن يُنسبَ إلينا إلا إن حبسَ نفسَهُ في قمقمِ الشريعة ، وختم عليها بخاتم الحقيقة ، واتَّبعَ ما جاء به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فتابوا كلُّهم عن مخالفة الشريعة ، وصلح حالهم .

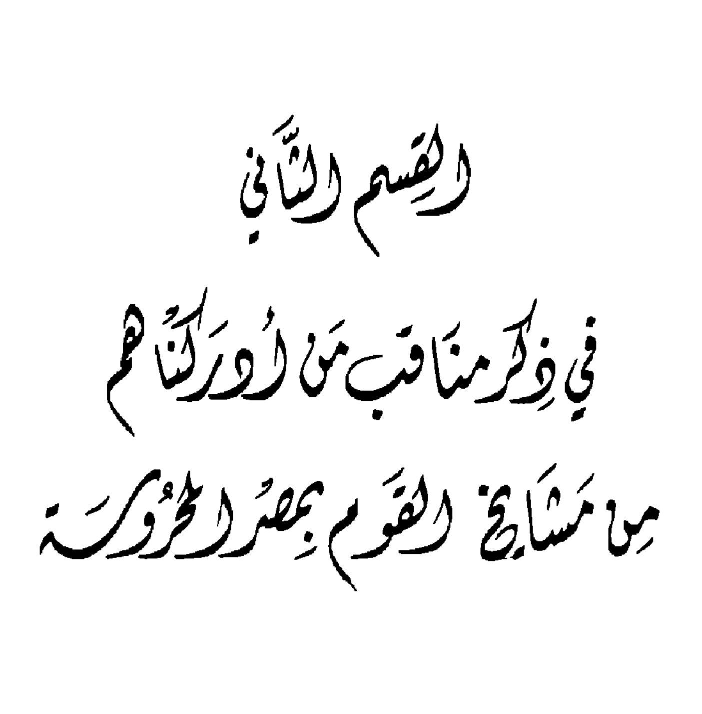
وكذلك تابَ علىٰ يديه جماعةٌ من الفقراء الأحمدية ؛ منهم الشيخ عبدُ الرحمـٰن بن الشيخ وُهيب من برشوب الكبيرة بالقليوبية ، حين رآهم يشتغلون بالهيمان وقت صلاة العشاء ، فقال شيخ السيارة : يا فقراء ؛ الغريب لأهله ، وقد تبت علىٰ يد الشيخ عليٍّ هـٰذا ، ثم إنه عملَ خصّاً في جزيرة وسط البحر تجاه بحر الفيض ، ولم يزل يتعبَّدُ فيها إلىٰ أن مات .

ومناقبه رضي الله عنه في بلادنا كثيرة مشهورة .

توفي رضي الله عنه سنة إحدىٰ وتسعين وثمان مئة ، وله من العمر ثلاثٌ وستون سنة ، ودفن بفناء زاويته بناحية ساقية أبي شعرة بالمنوفية ، رضي الله عنه .

* * *

وليكن ذلك آخرَ من أراد الله تعالىٰ ذكرَهُ من أهل القسم الأول ، ولنشرعْ في القسم الثاني فنقول :


القسم الثاني
في ذكر مناقب من أدركناهم
من مشايخ القوم بمصر المحروسة

الباب الأول
في ذكر مناقب الصحابة من المسلكين

وهم لا يحصرون[1] ، ولـٰكن نذكر لك يا أخي منهم طرفاً صالحاً ممنِ اجتمعنا بهم علىٰ وجه التبرُّك دون مَنْ سمعنا بهم ، ولم نجتمع بهم .

وقد أجمع أهلُ الطريق رضي الله عنهم : علىٰ أن من لم يجتمع بالأشياخ ويأخذْ عنهم طريقَ القوم لا يُقتدىٰ به في طريقهم .

وقالوا : من لم يكن له أبٌ في الطريق فهو دعيٌّ غيرُ نسيب ، بخلاف من له أبٌ في الطريق ؛ فإن مددَهُ يكون متصلاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا طرقَهُ أمرٌ مزعج في الدنيا والآخرة توجَّه إلىٰ شيخه ، فيتحرَّكُ للأخذِ بيده ، فيتحرك مَنْ بعده من الأشياخ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كسلسلة الحديد إذا تحرَّكتْ منها حلقة تحرَّكَ سائرها .

وقد سبقني إلىٰ ذكر مشايخه في التصوف وذكرِ مناقبهم ومفاخرهم الشيخُ الإمام العالمُ الرباني ، المُجمعُ علىٰ جلالته : الشيخُ عبدُ العزيز الديريني رضي الله تعالىٰ عنه ، فذكر مشايخَهُ في التصوف ، ومشايخه في العلوم الظاهرة في أرجوزة ، وهـٰأنا ملخِّصٌ لك ما يتعلق بمشايخه في التصوف هنا ، وما يتعلق بمشايخه في العلوم الظاهرة في الباب بعده .

فأقول وبالله التوفيق : قال سيدي عبد العزيز وهو نحو لسانِ حالي أيضاً : [من الرجز]

اللهَ أرجـو ليـسَ غيـرَ اللهِ   واللهُ حَسْـبُ الطـالـبِ الأوَّاهِ
ثـمَّ الصـلاةُ والسـلامُ النـامـي   علـى النبـيِّ سيـدِ الأنـامِ

---

(١) في (هـ ، و ، ي) : (لا يحصون) .

وآلـــهِ وصحبِـــهِ وعتـــرتِـــهْ ... وكـــلِّ مَـــنْ تـــابعَـــهُ مـــنْ أمتِـــهْ
وهٰـــذهِ أرجـــوزةٌ وجيـــزهْ ... ضمَّنْتُهـــا مقـــاصـــداً عـــزيـــزهْ
فـي ذكـرِ مَـنْ بـالعلـمِ والصـلاحِ ... بـــدا عليـــه علـــمُ الفـــلاحِ
ممـــنْ صحبـــتُ لـــرجـــاءِ النفـــعِ ... ولاجتمـــاعِ الشَّمـــلِ يـــومَ الجمـــعِ
أرجـــو بـــذكـــراهـــمْ بقـــاءَ الـــذِّكـــرِ ... لهـــمْ وفـــوزي بجـــزيـــلِ الأجـــرِ
وكـــلُّ عبـــدٍ مـــع مَـــنْ أحبَّـــهْ ... بصـــادقِ الصحبـــةِ والمحبـــهْ
وحـــرمـــةُ السَّـــاداتِ فـــي الإفـــادهْ ... كحـــرمـــةِ الآبـــاءِ فـــي الـــولادهْ
والحـــرُّ مَـــنْ يَـــرعـــىٰ ودادَ لحظـــهِ ... وينتمـــي لمـــنْ أَفـــادَ لفظـــه
وآنَ أَنْ أذكـــرَ أهـــلَ المعـــرفـــهْ ... والصـــدقِ والحقـــائـــقِ المشـــرَّفـــهْ
لأنهـــمْ عـــاشـــوا بـــأُنـــسِ الـــرَّبِّ ... ســـرّاً وذاقـــوا مِـــنْ شـــرابِ الحـــبِّ
فهمُ جلوسٌ في نعيمِ الحضرهْ ... وجـــوهُهـــمْ فـــي نضـــرةٍ مِـــنْ نظـــرهْ
وكـــلُّ مَـــنْ والاهُ ربُّ العـــزَّهْ ... فهـــوَ الـــذي بعـــزِّهِ أعـــزَّهْ
وقـــدْ تعلَّقنـــا بقطـــبِ العصـــرِ ... منهـــمْ فنحـــنُ فـــي سَنـــاهُ نســـري
شيـــخِ الأنـــامِ أحمـــدَ الـــرِّفـــاعـــي ... حيـــنَ أتـــانـــا مـــنْ حِمَـــاهُ داعـــي
فنحـــنُ بيـــنَ أحمـــدٍ وأحمـــدِ ... نسيـــرُ فـــي نـــورِ هُـــدىً ونهتـــدي
رســـولُنـــا نبيُّنـــا محمـــدُ ... وشيخُنا القطبُ الشريفُ أحمدُ
وشيخُنا الشيخُ أبو الفتحِ الأَسدْ ... لنـــا بـــهِ إلـــى الـــرِّفـــاعـــي مستنَـــدْ
صحبتُـــهُ نحـــوُ ثـــلاثَ عَشَـــرَهْ ... مـــنَ السِّنيـــنَ إذْ أخـــذتُ أمـــرَهْ
ثـــمَّ صحبـــتُ الســـادةَ الكبـــارا ... أصحـــابَـــهُ المشـــايـــخَ الأخيـــارا
الشيـــخَ تـــاجَ الـــدِّيـــنِ والســـراجـــا ... واثنيـــنِ أيضـــاً شـــرَّفـــا بلتـــاجـــا
الشيـــخَ عبـــدَ اللهِ ذا الأحـــوالِ ... والصِّـــدقِ حقّـــاً والمقـــامِ العـــالـــي
قـــدْ كـــانَ فـــي رؤيتِـــهِ ولحظِـــهِ ... مـــا يمـــلأُ القلـــوبَ قَبْـــلَ لفظـــه
فـــإنْ بـــدتْ ألفـــاظُـــهُ الخفيـــهْ ... فيـــا لهـــا مـــنْ حـــالـــةٍ سنيـــهْ
وإنْ بـــدا بـــالنُّطـــقِ فـــي الحقـــائـــقْ ... دقَّـــقَ حتـــىٰ يعجـــمِ الـــدَّقـــائـــقْ
وإنْ سمعـــتَ نطقَـــهُ فـــي العلـــمِ ... جـــاءَ بفتـــحٍ فـــاقَ أهـــلَ الفهـــمِ

صحبتُـهُ نحـوَ ثـلاثيـنَ سَنَـهْ كـأنَّها مـنْ طيبِها كـانـتْ سِنَـهْ
ثـم أخـاه فـي السلـوكِ والسكـنْ ذا الهمةِ العلياء هوْ أبو الحسنْ[١]
ثـمَّ القُليبـيَّ أبـا المعـالـي عبـدَ السـلامِ الصَّادق الأحـوالِ
ذا النَّفْـسِ الطَّـاهـرِ والفضـائـلِ في الخيرِ كمْ أحيا بها منْ غافلِ
ثـمَّ أخـاهُ البَـرَّ إبـراهيمـا كـانَ محبّـاً صـادقـاً كـريمـا
لـهُ مقـامٌ راسـخٌ فـي الصـدقِ فـي كـلِّ حـالٍ صـادعٍ بـالحـقِّ
والشيخُ ضرغامُ المسيريُّ الرِّضا قدْ كانَ ضِرغاماً وسيفاً منتضىٰ
والصـادقُ الـدَّقـاقُ ذا الـوفـاءِ والخُلـقِ الـرَّضـي والحيـاءِ
وقـدْ صحبـتُ حسـنَ الأبيـاري[٢] ذا الصِّـدقِ والأحـوالِ والأنـوارِ
والفهـمِ والعبـارةِ الفصيحـهْ والكشـفِ والفِـراسـةِ الصحيحـهْ
والـزهـدِ والفتـوَّةِ المعتبـرهْ وصحَّـةِ التـربيـةِ المطهَّـرهْ
والنطـقِ بـالحكمـةِ والبيـانِ نطـقَ الحكيـمِ العـالـمِ الـربَّـانـي
قـدْ نلـتُ فـي صحبتـهِ مَـرامـا فـي الخيـرِ نحـوَ أربعيـنَ عـامـا
كـذا ابـنُ عمِّـه أبـو علـيِّ ذو همَّـةٍ ومقصـدٍ علـيِّ
عبيـدُ فـي ديسـط ذو الفتـوهْ والصِّـدقِ والإحسـانِ والمـروَّهْ
وقـد صحبـتُ شيخَنـا الـدكـالـي يعقوبَ في [عمري][٣] التقي العالي
عشـرينَ عامـاً كانَ لي في رؤيتِهْ معنىً كلُقيا البحرِ عندَ صدمتِهْ
قبـضٌ وبسـطٌ معـه اطِّـراح وكـانَ فـي بِلتـاج [الارتيـاحُ][٤]
والشيـخُ قـاسـمُ الـذي اجتهـادُهْ مشتهـرٌ وقـدْ بـدا جهـادهْ

---

(١) وقع البيت في « طبقات الأولياء » (ص ٥٢٩) :

ثـم أخـاه فـي السلـوك والسكـن ذا الهمة العليا الرضي أبا الحسن

(٢) في (هـ ، و ، ي ، ك) : (الأنباري)

(٣) ترددت النسخ بين (نمري) و(غزي) ، والمثبت من « طبقات الأولياء » (ص ٥٣١) .

(٤) في جميع النسخ : (في ارتياح) والتصحيح من « طبقات الأولياء » (ص ٥٣١) .

تلميذُ يعقوبَ العظيمِ القدرِ ... وكان في [عمري][1] لجبر الكسرِ
وقد صحبتُ العارفَ السبتيا ... والشيخَ مرزوقَ البُرُلُّسيا
ثم كثيراً وأبا ماضي معا ... خادمَي الرملي اللذَينِ انتفعَا
ثمَّ الرَّضي مرزوقَ والسُّبكيا ... ثم المصلِّي قاسمَ المرضيا[2]
ثمَّ المليجيَّ عليَّ الصادقا ... ونجلَهُ التاجَ الأخَ الموفَّقا
والعارفَ المحققَ الدَّقاقا ... بشيخِهِ على الرِّجالِ فاقا
هوَ الزكيُّ المرتضى أبو الحسنْ ... أخلاقُهُ تجلو عنِ القلبِ الحَزَنْ
وقدْ صحبتُ العارفَ المغراوي ... وكان فوقَ ما يقولُ الراوي
وقدْ صحبتُ الأقطعَ المجاهدا ... محمَّداً وكانَ فرداً واحدا
صحبتُهُ بالحرمِ الشريفِ ... ووصفُهُ يجلُّ عن تصنيفي
والشيخ نصرٌ جاءنا بالقاهرهْ ... وقد بدانا بكشوفٍ ظاهرهْ
وبعدَ ذا رأيتُهُ على الصفا ... حتى إذا أضمرتُ لقياه اختفى
فهٰؤلاء أنجمٌ ذراري ... أنوارُهم مضيئةٌ للسَّاري
لم يبقَ في السِّتين والست مئهْ ... في الناسِ منْ أصحابهم إلا فئهْ
وإنني لغفلتي أقلُّهمْ ... وقدْ تقضَّى منهمُ أجلُّهم
وكلُّ شيخٍ زرتُهُ للبركهْ ... فقدْ وجدتُ ربحَ تلك الحركهْ
وكلُّ شيخٍ نلتُ منه علما ... أو أدباً فهوَ إمامي حتما
وقدْ عددتُ منهمُ جماعهْ ... اشتهروا بالعلمِ والبراعهْ
وما سكتُّ عنْ سواهمْ صدّا ... ولمْ أطقْ حصرَ الجميعِ عدّا
وإنما ذكرتُ قوماً درجوا ... ومنْ مَضيقِ سجنِهم قدْ خَرَجوا
قدْ كانَ لي بأُنسِهم سلوانُ ... وما نسيتُ ذكرَهم إذْ بانوا
وقدْ بقيتُ بعدَهمْ فريدا ... مخلَّفاً عنْ رِفقتي وحيدا

---

(١) ترددت النسخ بين (نمري) و(غزي) ، والمثبت من « طبقات الأولياء » (ص ٥٣١) .
(٢) في (أ ، ط) : (الصلي) ، وفي (ج) : (العقيلي) ، وفي (ب ، د ، ك) : (العقلي) .

أقطِّعُ الأوقـاتَ بـالـرَّجـاءِ لتحضـرَ الـوفـاةُ بـالـوفـاءِ
فـأسـألُ اللهَ لهـمْ رضـاه فـإنـهُ مـنْ يُـرضـهِ يـرضـاه
وأن يحقـقَ الـذي ذكـرتُـهُ فـي ذكـرِهـمْ بنيـلِ مـا أمَّلْتُـهُ
وأن يُميتنـي علـى الإيمـانِ فـذاكَ رأسُ المـالِ والأمـانـي
وفـي الـزَّمـانِ منهـمُ بقيَّـهْ قليلـةٌ صـالحـةٌ مـرضيَّـهْ
فقـلْ لهـمْ إذا أقـامـوا بعـدَنـا يَـدعـوا لنـا فقـدْ دَعـونـا جهـدَنـا
والحمـدُ للهِ العظيـمِ القـادرِ المُنعـمِ البـرِّ الـرحيـمِ الغـافـرِ
ثـمَّ الصـلاةُ والسـلامُ السـرمـدي علـى النبـيِّ المصطفـى محمَّـدِ
وآلـهِ وصحبـهِ الأبـرارِ السَّـادةِ الأئمـةِ الأخيـارِ
ونسـألُ اللهَ قبـولَ المعـذرهْ والعفـوَ عنَّـا وجميـلَ المغفـرهْ

انتهى ما لخصناه من أرجوزة الشيخ عبد العزيز .

وسيأتي في الباب الذي يليه ما لخَّصناه منها بالنسبة لمشايخنا في الفقه ، فالحمدُ لله رب العالمين .

* * *

واعلم يا أخي : أن شيخنا الحقيقيَّ هو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه هو الشيخُ لجميع أمته على اختلاف طبقاتهم ، بواسطةٍ وبغير واسطة ؛ لاستمداد جميع الأولياء من حضرته صلى الله عليه وسلم ؛ فكلُّ الأمة تلامذتُهُ صلى الله عليه وسلم ، وهو شيخ الكلِّ محسنِهم ومسيئهم .

فإذا خاطبك شيخُك بأمر أو نهي فهو لسانُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحقيقة ، بحكم النيابة عنه صلى الله عليه وسلم ، ومن عقل هـٰذا الأمر تأدَّبَ مع شيخه كما يتأدَّبُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان أدركه ، وإنِ اختلفَ المقامان .

وقد حُبِّبَ لي أن أقدِّمَ علىٰ ذكر أشياخي ذكرَ سندي بواسطتهم في لبسِ الخرقة ، وتلقينِ الذكر ، **فأقول وبالله التوفيق** :

[سند لبس الخرقة]

لبستُ الخرقة وهي عرقية وجبَّةٌ ورداء من يد الشيخ جلال الدين السُّيوطي حين اجتمعتُ به مع والدي في الروضة في ثاني عشر ربيع الأول سنة إحدىٰ عشرة وتسع مئة .

وهو لبسها من يد الشيخ كمال الدين إمامِ الكاملية ، وهو لبسها من يد الشيخ شمس الدِّين ابن الجزري ، وهو لبسها من يد الشيخ زين الدِّين المراغي ، وهو لبسها من يد الشيخ عزِّ الدين الفاروتي[1] ، وهو لبسها من يد والده ، وهو لبسها من يد الشيخ أحمد الرفاعي .

وهو لبسها من يد الشيخ أحمد الواسطي ، وهو لبسها من يد أبي الفضل كامخ بن غلام ، وهو لبسها من يد عليِّ بن بارباي ، وهو لبسها من يد علي العجمي ، وهو لبسها من يد أبي بكر الشِّبلي ، وهو لبسها من يد أبي القاسم الجُنيد .

وهو لبسها من يد السَّري السَّقَطي ، وهو لبسها من يد معروف الكرخي ، وهو لبسها من يد داود الطائي ، وهو لبسها من يد الحسن البصري ، وهو لبسها من يد الإمام

---

(١) في (أ ، ط) : (الفاردني) ، وفي (هـ ، و) : (الفاروقي) .

علي بن أبي طالب ، كما صحَّحه الحافظُ الجلال السيوطي .

وهو لبسها من يد سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب سيد الأولين والآخرين .

وهو لبسها من يد جبريل عليه الصلاة والسلام ، كما قال به الشيخ عبد الغفار القوصي .

[سند تلقين الذكر]

وأما سندُنا بتلقين الذكر : فهو أني تلقَّنتُ كلمة (لا إلـٰه إلا الله) علىٰ جماعة ؛ أعلاهم شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ، عن سيدي محمد الغَمْري الواسطي ، عن سيدي أحمد الزاهد ، عن سيدي حسن التُّستري ، عن سيدي يوسف العجمي الكوراني ، عن الشيخ محمود الأصفهاني ، عن الشيخ نجم الدين الكُبرى الشهيد[1] ، عن الشيخ حسن الشمشيري ، عن الشيخ عبد الصمد الطبري[2] ، عن الشيخ نجيب الدين بن مرعوش الشيرازي ، عن الشيخ شهاب الدين السُّهْروردي ، عن الشيخ أبي النَّجيب السُّهْروردي ، عن القاضي وجيه الدين ، عن الشيخ فرج الزنجاني ، عن الشيخ أبي العباس النهاوندي ، عن محمد بن خفيف الشيرازي ، عن القاضي رُويم ، عن أبي القاسم الجُنيد ، عن سَري السَّقطي ، عن معروف الكرخي ، عن داود الطائي ، عن حبيب العجمي ، عن الحسن البصري ، عن رابعِ الخلفاء ؛ الإمام علي بن أبي طالب ، عن سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، عن جبريل عليه السلام ، عن إذنِ ربِّ العالمين عز وجل .

* * *

إذا علمت ذلك فلنشرع في ذكر مشايخنا في التصوف ، فنقول وبالله التوفيق :

---

(١) نجم الدين الكُبرىٰ ، قبره في الجرجانية بتركمانستان ، مشهور يزار إلىٰ يومنا هـٰذا .

(٢) في (ج ، د) : (النطتري) . وتقرأ (النطنزي) .

ومنهم :

(٣٨٨) الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد المغربي الشاذلي تلميذ سيدي أبي العباس السَّرْسِي تلميذ الشيخ شمس الدين الحنفي رضي الله عنهم[(١)]

اجتمعتُ به مرةً واحدة .

ذكروا أنه أقام في القطبية الكبرىٰ ثلاث سنين .

وكان قليلَ الكلام في الطريق ؛ لعدمِ أهلية غالب الناس لسماع كلام أهلها

وسأله جماعةٌ أن يضعَ لهم رسالةً في طريق القوم ، فقال : أَصفُ الطريق لمن ؟! هاتوا لي صادقاً في طلب الطريق إذا قلتُ له : اخرجْ عن مالك وزوجك في مرضاة الله يجبني بسرعة ، وأنا أصف له الطريق ، فسكتوا ، فقال لهم : واللهِ ؛ لو كانتِ الدنيا بأسرها في يدِ شخص واحد ، فقال له شيخه : أعطني جميع ما بيدك لأُعلِّمك أدباً واحداً من آداب أهل الطريق ودفعه له لكان قليلاً ؛ لأن الدنيا كلها لا تزنُ عند الله جناحَ بعوضة .

وكان يقول : (يجمعُ آدابَ الطريق كلَّها لفظتان : سكتة ولفته ، وقد وصل السالك إلىٰ مقصوده) .

وجاءه الشيخُ إبراهيم المواهبي يطلبُ منه التربيةَ ، فقال : تريد تربيةً بيتيةً وإلا سوقية ؟ فقال له : ما معنىٰ ذلك ؟ فقال : التربية السوقية : أن أُعلِّمَكَ كلماتٍ في الفناء والبقاء ونحوِهما ، وأُجلسَك علىٰ سجادة ، وأقولَ لك : خذْ كلاماً ، وأعط كلاماً من غير ذوق ولا انتفاع ، كما عليه مشايخُ هـٰذا الزمان الذين برزوا بغير إذن .

وأما التربية البيتية : فأن تجلسَ عندي ، وتُفني اختيارك في اختياري حتىٰ لا يبقىٰ لك شهوةٌ من شهوات الدنيا والآخرة إلا وقد وضعتها تحت رجلِكَ ، وتشاركَ أهلَ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٣٢) (٣٤٢) .

البلاء في سائر أقطار الأرض ، وتسمعَ في حقِّك سائرَ ما يقال في القوم الفاسقين فلا تتغيَّر منك شعرةٌ ؛ اكتفاءً بعلم الله تعالىٰ فيك .

فقال : يا سيدي ؛ هـٰذا مقام كبير ، فقال : هو من مقامات إبليس ؛ فإن الوجودَ العلوي والسفلي يلعنُهُ ويسبُّهُ ولا يتغيَّرُ منه شعرةٌ ؛ لعلمه أنه ليس بيد الخلق حلٌّ ولا ربط مع الله تعالىٰ ، فكيف تستبعد مقاماً أُعطيه إبليس ؟! انتهىٰ ، فقال سيدي إبراهيم : يا سيدي ؛ أطلبُ التربيةَ البيتية ، فقال : نعم ، لـٰكنْ لا يكون فطامك بعدي إلا علىٰ يد الشيخ أبي المواهب ، فكان الأمرُ علىٰ ذلك ، ولم يشتهر إلا بالمواهبي .

وكان سيدي محمدٌ كريمَ النفس ، يُعطي السائل الألف دينار كأنه أعطاه بعرةً .

وكان يُنفق النفقةَ الواسعةَ من الغيب ، ولا يأخذُ من أحد شيئاً .

وكثيراً ما يأتيه المديون فيقول : يا سيدي ؛ ساعدني في وفاء ديني ، فيقول له : ارفع طرفَ ذلك الحصير ، وخذ ما تحته ؛ فتارةً يرىٰ تحتها أكثرَ من دينه ، فيقول له : أوفِ دينَك ، وتوسَّعْ بالباقي .

وكان علماءُ مصر قاطبةً يذعنون له في العلوم العقلية والوهبية ، ويستفيدون منه العلمَ الذي لم يطرق سمعهم قطُّ .

وكان رضي الله عنه يقول : (كما أن الكلامَ في أهل الله سمٌّ قاتل ، كذلك هو في علماء الإسلام سمٌّ قاتل ، كلٌّ في دائرته علىٰ حقٍّ وهدىً من الله ، والناسُ في العمل ، والعملُ علىٰ طبقات ، ومن أكثر علىٰ أهل الله الردَّ فهو من أهلِ الطرد) .

وكان يقول : (السالكون علىٰ ثلاثة أصناف : جلالي ؛ وهو إلى الشريعة أميل ، وجمالي ؛ وهو إلى الحقيقة أميل ، وكمالي جامعٌ للمقامين ، وهو منهما أفضلُ وأكمل) .

وكان يقول : (إنما خلق الله تعالىٰ أجساماً وجواهر وأعراضاً نقيض ما هو تعالىٰ موصوف به ؛ ليعلمنا بالفرقان بيننا وبينه) .

وكان يقول في معنىٰ قول حجة الإسلام : (ليس في الإمكان أبدع مما كان) : (أي : لأن الله تعالى امتنَّ علينا بنحو قوله : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧ـ٤٨] ، ومعلوم : أن الامتداحَ لا يقع إلا فيما هو غاية

ونهاية ، وإلا فكيف يمتن الحق تعالىٰ بمفضولٍ ؟! ولا يصدرُ عن الكامل إلا كامل من حيث الحكمة الإلـٰهية) .

وكان يقول : (اطلبْ طريقَ السادات وإن قلُّوا ، وإياك وطريقَ غيرهم وإن جلُّوا ، وكفىٰ شرفاً لعلم القومِ قولُ موسىٰ عليه السلام للخضر : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : ٦٦] قال : وهـٰذا من أعظم دليل علىٰ وجوبِ طلب علم الحقيقة كما يجبُ طلبُ علم الشريعة ؛ لتلازمهما ، وإن لم يشعرْ بذلك حاملها) .

وكان مع وسع عطائه للناس يفتُّ الرغيفَ اليابسَ في الماء ويأكله ، وينشد :

اقنع بلقمة وشرب الماء ولبس الخيش
وقلْ لعقلك ملوك الأرض راحوا بأيش

ولما دخل له السلطانُ الملكُ الأشرف قايتباي يزوره رسمَ له بألف دينار ، فردَّها ، وأنشدَهُ هـٰذا البيت ، فبكى السلطان حتىٰ بلَّ منديله ، فقال له : فرِّقها على المحبين ، فقال : من تَعِبَ في تحصيلها فهو أولىٰ بتفرقتها ، ثم قال : من كانتِ الحقيقةُ تتصرَّفُ فيه فلا اختيارَ له مع الله تعالىٰ ، فلا يُقال : إنَّ أخذَنا لها وتفرقتها أنفعُ لجهة الفقراء .

مات رضي الله عنه في سنة إحدىٰ عشرة وتسع مئة ، ودفن قريباً من باب القَرافة ، وقبرُهُ ظاهرٌ يُزار .

وقد بسطنا الكلامَ علىٰ حاله في « الطبقات الكبرىٰ » ، والله أعلم .

ومنهم :

(٣٨٩) الشيخ العارف بالله تعالىٰ
سيدي أبو العباس الغمري رضي الله عنه(١)

كان ذا هيبة ، ينظرُهُ الإنسانُ فيرعدُ من هيبته .

رأيته مرةً واحدةً في بلاد الريف في سنة أربع وتسع مئة ، فجمعني والدي عليه ، فدعا لي ، ثم إني لما جئتُ إلىٰ مصر لم يُقسم لي الإقامةُ إلا في جامعه ، فأقمت فيه

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٤٥) (٣٤٤) .

سبع عشرة سنة ، وحفظتُ فيه العلمَ ، وشرحت فيه الكتب ، ورتَّبتُ فيه مجلسَ الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة ثمان عشرة وتسع مئة .

وكنتُ إذا راق الليلُ ، وقلَّتِ الجماعةُ أجدُ الشيخ جالساً عن يميني ، فيمكث حتىٰ يستيقظَ الجماعة الذين ناموا ، فإذا قوي الجماعةُ وكثروا اختفىٰ عني .

وحصل لي في جامعه الخير الكثير ببركته .

وكان رضي الله عنه كثيرَ العمارة للمساجد في قرى الريف ، يقال : إنه عمر خمسين جامعاً ، وكان مُعاناً في نقل العُمُد الرخام وغيرها من الكيمان والبلاد الكفرية ، فعُمُدُ جوامعه في مصر والمحلَّة يعجزُ عن نقلها سلطان .

وأخبرني الشيخ محمد الطنيخي أحدُ أصحابه قال : سافرنا مع الشيخ إلىٰ كومٍ عالٍ ، فصار يقيس في الأرض ، ويُعلِّم علامةً ، وقال لنا : احفروا تحت العلامات ، فلم يُخطئ في حفرة واحدة ، وطلع جميعُ الحفر علىٰ رؤوس العمد وهي واقفة .

وأخبرني الشيخ أمين الدين الإمام بجامعه : أن الشيخ أقامَ صفَّ العُمُدِ التي تلي محراب جامعه بمصر كلها في ليلةٍ واحدة ، والناسُ نائمون ، فبيَّت البناء على الفعلاء وغيرهم ليقيموها بكرةَ النهار ، فأصبحوا فوجدوا الصفَّ الأول كلَّهُ قائم ، فقال له شخص ممن يدلُّ على الشيخ : وعزَّةِ ربِّي ؛ لو أنك قلتَ لجميع هٰذه العمد : قومي بإذن الله لم يتخلَّف منها عمود .

وكان رضي الله عنه جبلاً راسياً في العلوم والأعمال وحمل الأثقال .

وله كرامات كثيرة مشهورة بين أصحابه .

وأخبرني ولده الشيخ أبو الحسن نفعنا الله ببركاته ، قال : وقع منا صرَّةُ فضة أيام النيل في بحر سمانود ، فما تذكَّرناها إلا ونحن في المحلة ، فأرسل الشيخ فقيراً بصنارة ، وقال له : قف على الجرف الفلاني ، وارمِ الصنارة تطلع بها ، فذهب وفعل ما أمره الشيخ ، فطلع بها .

مات رضي الله عنه في رابع عشر صفر سنة خمسٍ وتسع مئة ، ودفن بجامعه بمصر ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٩٠) شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالىٰ سيدي محمد بن عنان رضي الله عنه[١]

كان من الزهّاد العباد ، وما كنتُ أمثله وأنا صغير إلا بطاوس اليماني ، وما رأينا في عصره مثله .

وكان مشايخ العصر إذا حضروا عنده صاروا كالأطفال بين يدي مربّيهم .

وكان مواظباً علىٰ قيام الليل صيفاً وشتاءً من حين كان صغيراً .

وكان الفقراء يضربون به المثلَ في قيام الليل ، وفي العفة ، وحفظ الأوقات عن التضييع ، حتىٰ بلغ خبرُهُ الشيخَ كمال الدين إمامَ الكاملية ، رضي الله عنه ، فسافر الشيخ إليه إلىٰ بلاد الشرقية بقصد رؤيته فقط ، فأخذ عليه العهدَ ، وسافر به إلى المحلة ، فآخىٰ بينه وبين سيدي الشيخ أبي العباس الغمري رضي الله عنه ، وأعجبَ به عجباً شديداً .

وأخبرني الشيخ يوسف الحريثي رحمه الله : أن طائفةَ الفقراء وردوا علىٰ سيدي محمد بن عنان علىٰ غفلة وهو شابٌّ ، وكانوا نحو خمس مئة فقير ، فأشبعهم كلَّهم من عجين أمِّهِ ، وكان نصف ويبة[٢] ؛ وذلك أنه غطَّىٰ إناءَ العجين بردائه ، وقال لأمه قرِّصي منه ولا تكشفيه ، فملأتِ الحجيرةَ ونصفَ الدار خبزاً ، فقال لها : اكشفي الإناء ، فكشفته ، فلم تجدْ فيه شيئاً من العجين .

وأخبرني الشيخ علي الإثميدي أجلُّ جماعته قال : كان شخصٌ مزمناً في جامع إسكندرية ، وكان من شأنه : أن كلَّ من غضب عليه قال : يا قمل ؛ رح إليه ، فيمتلئ ذلك الرجل قملاً ، حتىٰ لا يكادُ ينام منه ، ويعجزُ عن تنقيته ، فمضىٰ إليه سيدي محمد وقال : أنت ما رأيتَ تعمل إلا شيخ القمل ؟! فأخذه بيده ورماه في الهواء ، فلم يعرفْ أحدٌ من أهل الإسكندرية خبره إلى الآن .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٣٧) (٣٤٣) .

(٢) الوَيْبَة : اثنان وعشرون ، أو أربع وعشرون مُدّاً بمدِّ النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخبرني الشيخ علي أيضاً : أنه كان يُرسلُ قاصدَهُ إلىٰ سيدي أبي العباس من الشرقية إلى المحلة في الحاجة ، فيقول له الشيخ : من أيِّ المعادي عدَّيت ؟ فيقول : ما رأيتُ في طريقي أبداً معديةً ، فيقول الشيخ : طوى البحر بهمَّتِهِ .

وأخبرني شيخنا الشيخُ أمين الدين الإمام بجامع الغمري قال : كنا في سفر مع سيدي أبي العباس الغمري ، وسيدي محمد بن عنان ، فاشتدَّ الحرُّ علينا ، فنزل الشيخان ، وطرحا علىٰ حمارتيهما بردةً ، وجلسا في ظلِّها ، فعطش سيدي أبو العباس الغمري ، فلم يجد معنا ماءً يشربه ، فأخذ سيدي محمد طاسةً ، وغرف بها ماءً بارداً من الأرض الناشفة ، وقدَّمه لسيدي أبي العباس ، فلم يشرب منه ، وقال : يا شيخ محمد ؛ الظهورُ في هـٰذه الأيام يقطعُ الظهور ، فقال سيدي محمد : وعزَّةِ الله ؛ لولا خوفُ الظهور لسألتُ الله تعالىٰ أن يجعلَها بركةً يشربُ منها البهائمُ إلىٰ يوم القيامة .

وحكىٰ لي الشيخ الصالحُ العالم العامل بدر الدين المتبولي[1] قال : سمعتُ سيدي الشيخ عبدَ القادر الدشطوطي يقول : إنَّ الشيخ محمد بنَ عنان يعرفُ طبقات السماوات وأزقَّتَها وملائكتها ، هـٰكذا قال .

وأخبرني الشيخ محمد الزاهد[2] عن طباخ الشيخ محمد بن عنان : أن شخصاً من أركان الدولة بمصر أرسل للشيخ ثمان جرار عسل لمطبخ الوقت ، فانصبَّت كلُّها على الأرض ، وضاق الوقتُ عن شراء العسل من السوق ، فخرج الشيخُ إلى الخليج ، وقال : اتبعوني بالجرار ، فملأها كلَّها من الخليج ، فوجدوها قطراً ، فطبخوا بها ، وقال الشيخ : الحمدُ لله الذي حمانا من عسل الولاة ، انتهىٰ .

وأخبرني الشيخ الصالح شمس الدين الطنيخي صهر الشيخ محمد قال : نزلنا مرةً مركباً من بلاد المنزلة ، وكان في المركب [شخصٌ أكولٌ أكل موهيتي فسيخ ، وموهيتي تمر][3] ، وخلَّىٰ عظمهم ونواهم في المركب ، وذلك في الليل والناسُ نائمون ،

---

(١) في (هـ ، و) : (نور الدين المشتولي) ، وفي (ب ، ج ، د ، ي ، ك) : (المشتولي) بدل (المتبولي) .

(٢) في (ج ، د ، هـ ، و ، ك) : (محمد الزهار) .

(٣) في النسخ : (شخصاً أكولاً أكل موهيتين فسيخ وموهيتين تمر) .

فأخبروا سيدي محمد بن عنان بذلك ، فقال : ائتوني به ، فأتوه به ، فأطعمه رغيفاً صغيراً لقَّمَهُ له في فمه ، فلم تزل تلك أكلتُهُ حتىٰ مات ، لا يتعدَّىٰ كلَّ يوم أكثر من رغيف .

وأخبرني : أن شخصاً كان في مقبرة برهمتوش يصيحُ كلَّ ليلة في قبره ، فأعلموا الشيخ محمد بذلك ، فمشىٰ إلىٰ قبره ، وقرأ عليه سورةَ (تبارك الذي بيده الملك) ، ودعا الله تعالىٰ ساعةً ، فمن تلك الليلة ما سمعوا له صياحاً .

وكان رضي الله عنه وقتُهُ مضبوطاً ، لا يُضيِّعُ له وقتاً في غير طاعة .

وكان لا يُصغي قطُّ لشيء من كلام اللغو ، ولا لشيء من أخبار الناس ، ولا يسأل قطُّ عمن تولَّىٰ ، ولا عمن عُزل .

وكان يقول : (كلُّ نَفَسٍ مقوَّمٌ عليَّ بسنة) .

وكان يتهيَّأُ للاستعداد لقيام الليل من صلاة العصر ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يُكلِّمه حتىٰ يُصلي الوترَ بعد العشاء ، فإذا قام للتهجد من الليل لا يتجرَّأُ أحدٌ أن يكلِّمه حتىٰ يُصلي الضحىٰ ، وكان هـٰذا دأبَهُ ليلاً ونهاراً ، شتاءً وصيفاً .

وغضب مرةً من أهل بلاده حين لم يسمعوا منه ما يأمرهم به من المعروف ، فجاء إلىٰ مصر ، وسكن فوقَ سطوح جامع الغمري بمصر ، فكنا نراه ونحن شباب يقومُ يتهجد في ليالي الشتاء الباردة فوق السطوح إلىٰ أن يُصلي الصبح ، وكان أحدُنا لا يستطيعُ أن يُخرجَ يده من شدَّة البرد ، وكنا نحفظ ألواحنا في العلم ، ونقرأ ماضينا ، ونكتبُ وننام ، ثم نقومُ فنجدُهُ قائماً يصلي .

وكان سيدي الشيخ محمد بن أبي الحمائل شيخُ الشناوي يقول : (ما رأتْ عيني أعبدَ من ابن عنان) .

وكان رضي الله عنه يحبُّ الإقامة في أسطحة المساجد ، كلُّ مسجد أقام فيه لا يجلسُ إلا علىٰ سطوحه في بلاد الريف وفي مصر ، وكان تارةً يعملُ له خصّاً ، وتارةً خيمةً .

وأخبرني رضي الله عنه : أنه أقام في بدء أمره فوق سطوح جامع عَمْرو ثلاث

سنين ، وفي سطح جامع طولون سنةً ، قال : (وكنتُ لا أنزل من السطح إلا لصلاة الجماعة ، أو سماع درس الشيخ يحيى المناوي رضي الله عنه) .

وكان جامعاً بين طريقي الفقهاء والصوفية .

قال : (وسخَّرَ الله تعالىٰ لي الدنيا مدَّةَ إقامتي علىٰ سطح جامع عمرو في صورة امرأة عجوز ، فكانت تأتيني كلَّ ليلة بإناء فيه طعامٌ ورغيفين ، قال : وما خاطبتها قطُّ ، ولا خاطبتني ، ولـٰكني كنتُ أعرفُ أنها الدنيا) .

وقال لي مرةً : (حفظتُ القرآن وأنا رجل كبير ، فقرأتُ النصفَ الأول أولاً على الشيخ ناصر الدين الأخطابي ، والنصفَ الثاني علىٰ أخي الشيخ عبد القادر) .

وكان رضي الله عنه إذا نزل في مكان كأنَّ الشمسَ حلَّتْ في ذلك المكان ، لا أكادُ أشهدُ غير ذلك ، وذلك وأنا صغير لا أكاد أفرِّق بين مقامات الرجال ، ووالله ؛ إنه ليقعُ لي في الليلة الباردة أو الليلة القصيرة في الصيف : أني أكسلُ عن قيام الليل ، فأنظرُ بعيني في أهل عصري كلهم ، فلا أجدُ حالَ أحد منهم يُنشِّطني إلا حال الشيخ محمد رضي الله عنه ؛ فإني أُقدِّر في نفسي أن لو كان الشيخ محمدٌ في الليل في مثل هـٰذا الوقت : هل كان يعود للنوم من غير وضوء ولا صلاة ؟! فلا أجدُهُ يرجع إلى النوم ، فأنشطُ لوقتي ، ويزولُ عني مرض الكسل .

وسمعتُه مرة يقول : (من منذ دخلتُ طريق الفقراء لا أقدر أجلس علىٰ حَدَثٍ قطُّ ، بل وضوئي دائم ليلاً ونهاراً) .

قال : (ولقد أصابتني مرةً جنابةٌ في ليلة باردة ، وكان علىٰ باب دارنا بركةٌ جَمَدَ ظاهرُها من البرد ، فنزلتُ فيها ، واغتسلتُ ، فوجدتُها من شدَّة الهمَّةِ كأنها مسخَّنةٌ بالنار) .

وكان رضي الله عنه إذا استنجىٰ في الخلاء وأبطأ عليه ماءُ الوضوء يرىٰ أن يضرب بيده الحائطَ ويتيمَّمُ حتىٰ يجدَ الماء ، ولا يجلس علىٰ غير طهارة لحظة .

وكان يقول : (من ادَّعىٰ مجالسةَ الله وهو يمكث علىٰ حَدَثٍ لحظةً واحدة فهو قليلُ الأدب) .

وكان يستدلُّ في صحة هٰذا التيمم : بأنه صلى الله عليه وسلم سلَّمَ عليه شخصٌ ، فضرب بيده على الأرض ، ثم قال : « وعليكم السلام » ، فقيل له في ذلك ، فقال : « السلامُ اسمٌ منْ أسماءِ اللهِ ، فكرهتُ أنْ أذكرَهُ وأنا مُحدثٌ »[١]

ومما وقع لي مع سيدي محمد بن عنان رحمه الله : أنني طلبتُ ليلةً من الليالي مدَّ رجلي للنوم ، فكلُّ ناحية أمدُّها نحوها أجدُ قبرَ وليٍّ من أولياء الله تعالىٰ ، فمددتُها نحو باب البحر ، فرأيت قبر سيدي محمد ، فضممتُ رجلي ، ونمتُ جالساً ، فمدَّ يدَهُ وسحب رجلي نحوه ، فاستيقظتُ ونعومة يده في رجلي .

وكان رضي الله عنه يتكدَّر ممن يُصبِّحُه بشيء من الدنيا ولو من زرعه وماله ، أو ليفرِّقه على الفقراء ، وأتاه ولدُ أخيه عبد الدائم يوماً بصرَّة فيها نحو أربعين ديناراً بعد صلاة الصبح ، فزجره وقال : لا صبَّحَكَ الله بخير ، تُصبِّحُنا بالدنيا ، رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه إذا دعاه أحدٌ إلىٰ طعامه ، وعرف أن في طعامه شبهةً يجيبه ، ولٰكنْ يأخذُ في كمِّه رغيفاً يأكلُ منه على السماط حافاً ، ولا يدعُ أحداً يلحق به إلا من كان فطناً .

وكان رضي الله عنه إذا سأله أحدٌ في حملة يثورُ بها ، وجاءه مرةً الشريفُ بركات سلطان الحجاز وهو فوق سطوح جامع الغمري ، فقال : يا سيدي ؛ أنا شريفٌ ، وأنا في جوارك تجرني من الغوري ؛ فإني عازمٌ على الهروب ، والنوق تنتظرني في تربة العادل ، وأخاف أن يلحقني جماعةُ الغوري ، فقال الشيخ : إن شاء الله يا شريف ما أحدٌ منهم يلحقك ، ثم دخلَ الشيخُ الخلوة والشريف ينتظرُ خروجه ، وكان الوقتُ نصفَ عصر ، فلما أطال عليه قال : انظروا لي الشيخ ، ففتحنا الخلوة ، فلم نجدِ الشيخ ، مع أنها خلوةٌ ضيقة ، فما كان إلا يسيراً وفتح الشيخ ، وخرج وعيناه كالدم الأحمر ، فقال : سافرْ يا شريف ، فما علم به الغوريُّ إلا بعد ثلاثة أيام ، فأرسل خلفَهُ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٧) عن المهاجر بن قُنفُذ ، أنه أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو يبول ، فسلَّم عليه ، فلم يردَّ عليه حتىٰ توضأ ، ثم اعتذر إليه فقال : « إني كرهت أن أذكر الله عز وجل إلا علىٰ طهرٍ ، أو قال : علىٰ طهارةٍ » ، ورواه مسلم (٣٧٠) مختصراً عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رجلاً مرَّ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبول ، فلم يردَّ عليه .

فلم يدركه ، وكان على نوق عشاريات .

وأخبرني ولدُ بنت شيخنا الشيخُ أبو اللطف السنباطي : أنه دخل وهو صغيرٌ على سيدي محمد الخلوة بغير إذن ، فوجدَ الشيخ جالساً ورأسُهُ في طوقه ، فحرَّكه ، فلم يجد في ثيابه أحداً ، وأخبر بذلك جدَّهُ الشيخ أمين الدين ، فقال : يا ولدي ؛ لا تعد إلى مثل ذلك .

وسمعتُ سيدي عليَّ الخواص يقول : أنا ما عرفتُ مقام سيدي محمد بن عنان إلا من سيدي إبراهيم المتبولي ، كان يقول : وعزَّةِ ربي ؛ ليتحمَّلنَّ حملتي من بعدي سبعون رجلاً ويعجزون عنها ، فقال له شخص : فلمن تكون خدامة الحُجرة النبوية من بعدك ؟ فقال : هي لمحمد بن عنان ، فقيل : في أي البلاد ؟ فقال : شابٌّ يظهر من بلاد الشرقية ، قال سيدي علي : فلم أزل أسألُ عنه بعد موت سيدي إبراهيم حتى عرفته .

وسمعت سيدي محمد بن عنان مرةً يقول : ليس للفقيرِ في هٰذه الدار رأسُ مال إلا قلبه ، فكلُّ مَنْ أدخل على قلبه شيئاً يكدِّرُهُ من الدنيا فما عليه من دينه ، فقلت له : ما هو الذي يكدِّرُ الفقير ؟ فقال : يكون في زاوية مثلاً فيأتي شخصٌ ينازعه فيها ، فمن الأدب تركُها له ، وكذلك البيت ، والرزقة ، وأخذ تلامذته ، وغير ذلك . انتهى .

وأخبرني الشيخ العاملُ الصالح شمسُ الدين اللقاني قال : كان عندي وسواسٌ عظيم ، فشكوتُ ذلك لسيدي محمد بن عنان ، فقال : يقولون : إن المالكية ليس عندهم وسواس ، فبمجرَّدِ قوله : (ليس عندهم وسواس) لم يبقَ عندي شيءٌ من الوسواس .

وكان رضي الله عنه إذا سأله أحدٌ عن شيءٍ من أحكام الطريق يزجرُهُ ويقول : تلمذْ للأشياخ واقتدِ بهم يُطلعوك على الطريق ذوقاً ؛ فإن الطريق ما هي كلام .

وكان لا يلقِّنُ أحداً الذكر ، ويقول : (هٰؤلاء الذين يلقِّنون من لا يصلحُ للطريق كالمستهزئين بها) .

ودخل عليه مرةً الشيخُ أحمد النجدي على غفلة وقال : سألتُك بالله تعالى تُلقِّني

الذكر ، فتغيَّرَ وجهُهُ وقال : ما حملك على ذلك ؟! لا تعد إلىٰ مثله ، ولقَّنه ، وبلغنا : أنه لقَّن شخصين آخرين .

وجاءه مرةً شخصٌ من الفقراء ، فقال : يا سيدي ؛ كم عدد الخواطر ؟ فزجره وقال : والله ؛ ما كنا نظنُّ أننا نعيش إلىٰ زمان تصيرُ طريقُ الله فيه كلاماً من غير عمل .

وكان رضي الله عنه إذا أقام بمصر لا يكاد يصلي الجمعة مرتين في جامع واحد ؛ بل كلُّ جمعة في جامع ، وكثيراً ما كان يصلي الجمعة في جامع عمرو ، وفي جامع محمود ، وفي جامع القراء بالقَرافة .

وكان لا يغفلُ عن زيارة القَرافة كلَّ جمعة ، ويختم زيارتَهُ بالإمام الشافعي رضي الله عنه ، ويقول : (إن الأدبَ مع الإمام ألا نزور أحداً بعده) .

وأخبرني الشيخ موسى الدماصي : أنه لم يعرف سيدي محمد بن عنان إلا من ساحل رودس ، فقيل : كيف ذلك ؟ فقال : كنت أذهب مع الفقراء في الغزوات بالليل ، فكنت أجده دائماً أمامَ الناس ، فأعجبني حالُهُ ، فسألتُ عنه ، فقالوا لي : هٰذا من بلادك ، واسمُهُ محمد بن عنان ، فتعرَّفتُ به من هناك .

قال : (وللفقراء في كلِّ ليلة غزوة لا يكادون يتركون الغزو في بلاد الفرنج ليلة واحدة في السنة) .

وكان رضي الله عنه يزور الفقراء الصادقين ، ويكره الفقراء المتسلِّقين على الطريق بالشعرة والعذبة ولبس الصوف ، مع نومهم الليل ، ويقول : ما بيني وبين هٰؤلاء ودٌّ ولا إخاءٌ ؛ لكذبهم في الطريق .

وكان إذا زار أحداً عكف الناسُ عليه من حينِ زيارته ، ويقولون : لولا أن فيه رائحةً ما زاره الشيخ .

وكان إذا مرَّ وهو راكبٌ علىٰ سيدي عليٍّ الخواص وهو في حانوته يقف بالحمارة ، ويقرأ (الفاتحة) ، وكذلك إذا مرَّ على الشيخ أحمد البهلول بباب الخرق ، وهو أحدُ مشايخي ، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالىٰ[1]

(١) انظر (٤/ ٢١٢) .

وزرتُ معه مرةً شخصاً خارج باب القَرافة اسمه الشيخ محمد الدلجي ، فقبَّل سيدي محمد رجلَهُ ، وصار يقول : آنستَ بلادنا يا شيخ محمد[١] ، والشيخ محمدٌ بين يديه كالطفل ، وكان شيخُنا لابساً قلنسوةً بلا عمامة ، وهو جالسٌ علىٰ تخت ، فكنتُ أقول : لولا عظمةُ ذلك الشيخ ما قبَّلَ سيدي محمد رجلَهُ ؛ فإنه ما كان يُعجبُهُ كلَّ أحد ؛ لعلوِّ همَّته .

وكان يُدوِّرُ السبحةَ كثيراً في يده وهو يقرأ القرآن ، فيعتقدُ الناسُ أنه يُسبِّح .

وكان يكره للفقير أن يغتسلَ عُرياناً ولو في خلوة ، ويقول : ما بُنيتِ الطريقُ إلا على الأدب مع الله تعالىٰ .

وأخبرني أخي العبدُ الصالح أبو العباس الحريثي قال : رآني سيدي محمد مرةً وأنا أغتسلُ ، وفي وسطي مئزرٌ ، فأمرني بالغسل في ثوب خَلَق ، وقال : بدنُ الفقير كلُّه عورةٌ ، كبَدَن المخدَّرات .

وكان رضي الله عنه إذا دخلَ علىٰ مريض من إخوانه النافعين للناس يتحمَّلُ عنه المرضَ ، ويضطجع ، فيقوم ذلك المريضُ في الحال كأنه لم يكن به مرضٌ ، أخبرني بذلك الشيخ أمينُ الدين إمامُ جامع الغمري ، قال : وفعل ذلك مع سيدي أبي العباس الغمري ، فقام في الحال بعد أن كان أشرفَ على الموت ، ومرض سيدي محمد نحو أربعين يوماً ، ولعلها المدَّةُ التي كانت بقيت من مرض سيدي أبي العباس . انتهىٰ .

وحضرته أنا مرةً دخل على الشيخ علي البليلي المغربي في باب جامع الأزهر ، فوجدهم يشيلون من تحته عند الشيخ إبراهيم الرحبي[٢] ، فتحمَّلَ عنه ، وقام البليلي في الحال .

وحمل مرةً حملة مريض ، فقام المريضُ ، وحملَ الشيخَ علىٰ حمارته إلىٰ جامع الغمري ، فمكث مدةً وهو مريض .

وكان رضي الله عنه يكرهُ للفقير حبَّ الشُّهرة أو تعاطي أسبابها .

---

(١) في (أ ، ط) : (آنستنا يا محمد) .

(٢) في (أ ، ط) : (الرضي) بدل (الرحبي) .

وحضرتْ صلاةُ العصر ونحن مارُّون على باب جامع الأزهر ، فقالوا له : نصلي في الجامع ، فقال : هذا مكانُ مجمع الناس ، فلم يدخل ، وصلى في مسجدٍ خارجَهُ .

وكان رضي الله عنه يحفظُ ودَّ أخيه حياً وميتاً .

ودُعي مرةً إلى وليمة ، فلما جاء باب الدار قال : مَنْ حضر ها هنا من الفقراء ؟ فقالوا له : سيدي علي المرصفي ، فرجع ، فقيل له : هل بينكم وبينه وقفةٌ ؟ فقال : لا ، وإنما كان بينه وبين أخي الشيخ نور الدين الحسني وقفةٌ ، وصحبته متقدِّمة عليه ، فأحببت الوفاءَ بحقِّ أخي في عدم موادة مَنْ بينه وبينه وقفة ، وإلا فأنا بحمدِ الله لا أكرهُ أحداً إلا لغرض شرعي .

وكان رضي الله عنه يكرهُ أن يتبعَهُ جماعةٌ إذا ركب مكاناً ، ويقول : ارجعوا من خلفي.

وكان إذا ركب لحاجة أخذ معه بعضَ خبزٍ ، وصعتر ، وإبريق ، ويقول : (من شرط الفقير خفَّةُ مؤنته) .

وكان يقول على الخبز : (نعم الرفيق) .

وقيل له مرةً : إن المكان الذي قصدتموه قريبٌ ، فما يحتاجُ أن تحملوا معكم خبزاً ، فقال : قد يطولُ الزمن ، وإنَّ النفسَ إذا جاعت استشرفت للأكل ، فإذا وجدتْهُ أكلتْهُ باستشراف نفس ، وقد أخبر الشارعُ بأن ذلك مذموم .

وكان رضي الله عنه لا ينام قط على طرَّاحة ، ويقول : كلُّ فقير نام على طرَّاحة فلا يجيء منه شيءٌ في الطريق ، فقيل له : فما دليلُكم في ذلك ؟ فقال : ما رواه الترمذي عن أنس قال : حدَّثني بعضُ أزواج النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان له عباءة كان ينامُ عليها [فثنتها][1] أربع ثنيات وقالت : هو أوطأُ لك يا رسول الله ، فنام صلى الله عليه وسلم تلك الليلة عن غالب ورده ، فقال : « ردُّوها إلى حالِها الأول ؛ فإن لينَها منعني عنْ قيامِ ليلتِي »[2]

(١) ما بين معقوفين زيادة لازمة لتمام المعنى .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣١٢) عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، ورواه مختصراً المروزي في « قيام الليل » برقم (٣٦) ، وتقدم تخريجه (٢/ ٣٤٤) .

وكان يقول : (تهيؤ الفقير لقيام الليل متعيِّن عليه ، فلا ينامُ على طراحة إلا من هو عازم على النوم عن تلك المواهب الإلـٰهية) .

وأخبرني الشيخ أمين الدين إمامُ جامع الغمري رحمه الله قال : كان في ناحية شان شلمون بالشرقية شخصٌ أسودُ بدويٌّ اسمه الشيخ فرج ، وكان جالساً في حوَّاقة حوَّقها عليه بشوك في البرية ، وعنده الحيواناتُ التي بينها وبين بعضها عداوةٌ كالقط والحمام ، والقط والفأر ، والحيَّات والعقارب ، والدجاج والثعالب ، وغير ذلك ، وكان عنده جِرارٌ كثيرةٌ فيها الشعير والقمح ، وعنده رحاة ، فإذا جاءه ضيفٌ يقول : مرحباً بضيف الله ، ثم يقوم يأخذ ملء يديه قمحاً أو شعيراً ، فيطحنه على الرحاة ، ثم يضعُهُ في ماء على النار ، ويحرِّكه ، فإذا استوىٰ وضعه بين يدي الضيف ؛ فمنهم من يأكل ، ومنهم من تنفرُ نفسه من ذلك ، فيقول : رح ما حصلَ لك شيء .

وكان لا يستطيع أحد أن يجلسَ قريباً منه ؛ خوفاً من الحيات والثعابين .

وكان إذا سأله أحدٌ في حاجة يُخاطب الثعابين ويقول : يا ملوك الله ؛ اقضوا حاجته ، فتُقضىٰ .

وكان يلتقطُ القمح والشعير الذي يصيف منه في الطرق أيام الحصاد ، فلما زاره الشيخ محمد بن عنان أولَ مرةٍ قال : مرحباً بالجُنيدي ، وثاني مرةٍ قال له : مرحباً بالأمير ، وثالث مرةٍ قال له : مرحباً بالسلطان ، ورابع مرة قال له : مرحباً براعي الصهب ، فكانت هـٰذه آخرَ تحيَّتِهِ له .

ونزل السلطان قايتباي لزيارة الشيخ فرج هـٰذا ، فقال له : ادع لي ، فقال له : رح قلعتك ، أيشٍ تطلب بعد السلطنة ؟! فقال : عفو الله ، فقال : قد عفا عنك . انتهىٰ .

ومناقب سيدي محمد كثيرة ، وفي هـٰذا القدر كفايةٌ .

ولما حضرته الوفاةُ فوق سطوح جامع باب البحر بخط المقسم ماتَ نصفُهُ الأسفل ، وصلىٰ وهو جالسٌ بالإيماء ، فلما فرغَ من الصلاة أشار : أن أضجعوني ، فأضجعناه ، فما زال يُهمهمُ بشفتيه والسُّبحةُ في يده حتىٰ كانت آخر حركة يده وشفتيه طلوع روحه ،

رضي الله عنه ، وكان ذلك بحضرة الشيخ حسن الحديدي ، والشيخ أمين الدين ، والشيخ أبي الحسن الغمري ، وجماعة كثيرة .

ودخل علينا السلطان طومان باي الذي تولى السلطنة بعد الغوري ، فصار يُقبِّلُ بطون أقدام الشيخ ، ويمرِّغُ وجهه على بطون أقدامه ، ويقول : طالما وقفتم بين يدي الله في الظلام .

وجرَّدته من ثيابه أنا والشيخ حسن الحديدي ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة [اثنتين][1] وعشرين وتسع مئة ، وعمره مئة وعشرون سنة ، ودفن خلف محراب جامع المقسم ، وبنى عليه ولدُهُ الشيخ أبو الصفا قبةً عظيمة وزاويةً ، وفيها فقراء ومجاورون رضي الله تعالى عنه ، آمين .

ومنهم :

(٣٩١) الشيخُ الصالح الورع الزاهدُ
الشيخُ نور الدين الحسني رضي الله عنه[2]

كان مُقيماً في مدرسة السلطان حسن ، وهو رفيقُ سيدي علي بن خليل المرصفي في الطريق ، أخذ عنه خلائقُ لا يُحصون .

وكان جميلَ الأخلاق ، إذا جلس عنده أحدٌ لا يكادُ يحبُّ مفارقتَهُ .

وما زال يلقِّنُ الناسَ ويربِّيهم حتى سمع شخصاً معه خشبُ الشيوخ التي يُسرَّحُ بها الكتان يقول : يا قفة شيوخ بعثماني[3] ، فترك التلقين من ذلك اليوم وقال : قد وعظت يا علي ، رضي الله تعالى عنه .

---

(١) في النسخ : (اثنين) .
(٢) في (هـ ، و ، ي) : (بدر) بدل (نور) ، وتقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرى » (٢/٣٤٧) (٣٤٥) .
(٣) العثماني : قطعة نقدية .

ومنهم :

(٣٩٢) الشيخ الصالح سيدي عليُّ بنُ الجمال النَّبْتِيتي رضي الله عنه[١]

رأيتُهُ وأنا صغير وكان رجلاً مُهاباً[٢] ، دعا لي دعوات وجدتُ بركتها .

وكان سيدي أبو العباس الغَمْري يُجلُّه ويعظمه ، ويصفه بالرجولية .

وأودع عنده مرةً سيدي أبو العباس الغمري قفصاً من الدجاج ، فحمله علىٰ رأسه من نبتيت إلىٰ مصر ، ولم يمكن أحداً يحمله علىٰ حمار ، وقال : ليس من الاعتناء بأمر الشيخ أن أحمل وديعتَهُ علىٰ حمار إلا إذا عجزتُ عن حملها .

وكان رضي الله عنه يسافرُ مكة كلَّ سنة بالقمح والحبوب والصدقات والخيرات ، فينفقُ علىٰ نفسه القليلَ من التجارة ، والباقي يُفرِّقه على المحتاجين بطريق خفية لا يكادُ أحدٌ يشعر بها ؛ وذلك أنه يصبُّ القمحَ في المسعىٰ ، ويجلس يبيع ويسوم بالغالي فوق الناس بزيادة ، فكلُّ من ركنَ إلى الشراء بالزيادة يعطيه ما طلب من غير ثمن ، ويقول : لولا شدَّةُ حاجته ما ركنَ للشراء بالزيادة ، فإذا بلغه أنه تكلم بذلك للناس أرسل طالبه بالثمن ، وقال : القمح ليس هو لي ، وإنما أنا وكيلٌ في بيعه ، فلا يعودُ يُخبر بعد ذلك أحداً .

وكذلك كان يفعل في الثياب ، والسكر ، والصابون الذي كان يأخذه معه للفقراء ، كلُّ مَنْ أخبر الناسَ بما أعطاه له يُرسل يسترجعُهُ منه ويقول : أنا غلطتُ فيك .

وحج مرةً مع سيدي أبي العباس الغمري هو وجماعة من أشياخ العصر ، وكانوا نحوَ أربعة عشر شيخاً ؛ منهم : سيدي محمد بنُ عنان ، والشيخ محمد المنير ، والشيخ محمد بن داود ، والشيخ محمد السروي ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ محمد الشناوي ، والشيخ أبو بكر الحديدي ، فجلسوا يأكلون تمراً في ليلة مظلمة ، فلما فرغوا قال : عدُّوا نواكم ، فعدُّوه ، فلم يزدْ واحدٌ علىٰ واحدٍ نواةً .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٥٥) (٣٤٨) .
(٢) ترددت النسخ بين (مهاباً) و(مهيباً) .

وطلبوا من سيدي محمد الغمري أن يأذنَ لهم في المجاورة ، فقال : من كان يستطيع منكم الأدب مع الله ورسوله فليجاور ، فما استطاع منهم أحدٌ أن يقوم بذلك الأدب ، ورجعوا كلُّهم تلك السنة .

وكان الشيخ أبو بكر الحديدي هو الذي يضحكهم ويشرحهم إذا انقبضوا .

وأخبرني الشيخ أمين الدين الإمام قال : بينما الشيخ أبو بكر الحديدي جالسٌ إذ جاءته امرأةٌ من بغايا مكة ، فقالت له : تبغي ؟ فقال : لا ، ولـٰكن روحي لذلك الرجل الذي في الخيمة ، وأشار إلىٰ سيدي محمد بن عنان وهو يُصلي الضحىٰ ، فلما فرغ قالت له : تبغي ؟ فقال : ما مرادُك ؟ فقالت : تفعلُ ما يفعله الرجل بامرأته ، فأخذ الشيخُ العصا ، وهرول وراءها ، فهربت ، فضحك الجماعة ، فقال الشيخ : مَنْ أرسلها لي ؟ فقالوا له : الشيخ أبو بكر ، فقال له : ما حملك علىٰ هـٰذا ؟ فقال : قصدت أنك تنظرُ إليها نظرةً ؛ لعلَّها تتوب مما هي فيه .

وكان سيدي علي النبتيتي رضي الله عنه إذا فرَّقَ شيئاً على الفقراء للناس لا بدَّ أن يخلط عليه شيئاً من ماله ويفرِّقُهُ في حجة مال الناس ، حتىٰ لا يكادُ أحدٌ ينسب إليه شيئاً ، وكان الناس يصفونه بالبخل .

توفي سنة نيفٍ وتسع مئة ، ودفن ببلده نبتيت ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٩٣) الشيخ الصالح الورع الزاهد ، المواظبُ علىٰ تلاوة القرآن ليلاً ونهاراً ، الشيخ عبد القادر بن عنان أخو الشيخ محمد رضي الله عنهما[1]

صحبته سبع سنين .

وكان رضي الله عنه إذا حرث أو حصد ، أو مشىٰ أو جلس لا يدع قراءةَ القرآن ، وكان هو وردَهُ على الدوام ؛ لأنه وردُ الأكابر العارفين بالله تعالىٰ ؛ ولذلك حثَّ

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٥٧) (٣٤٩) .

الأشياخ على أن تكون أورادهم من القرآن ؛ ليجمعوا بين تلاوة القرآن والذكر ، فيثابوا من جهتين .

وكان الغالبُ عليه الاستغراقَ عن أحوال الناس ، لا تكاد تحدثهُ شيئاً من اللغو إلا وتجده مشغولاً عنك ، لا يُصغي لك أبداً .

وكان كثيرَ الشفاعات عند الكشاف ومشايخ العرب .

وطريقه ماشية ، وكلُّ من خالفَهُ عُطب .

وكان الشيخ محمد أخوه يقول : (إن أخي عبدَ القادر عمارةُ هٰذه البلاد) .

وكان يقول : كلُّ فقير لا يقتل الله على يديه بعدد شعر رأسه من الظلمة فما هو فقير ، فقيل له : الصفحُ من أخلاق الرجال ، فقال : الصفح عمن يُرجىٰ خيره ، وهٰؤلاء سَدَاهم ولُحْمَتُهم أذىً للناس .

مات على رأس العشرين وتسع مئة ، ودفن ببلاده ، وقبره بناحية برهمتوش ظاهرٌ يُزار رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٣٩٤) الشيخُ الصالح ، ذو السمت البهي ، والخُلُق الرَّضي ، والنفع التامِّ للخاصِّ والعام ، الشيخ محمد العدل رضي الله عنه[1]

بناحية طناح بالشرقية .

كان كثير النفع للناس ، وله بيتٌ فيه النعناعُ ، والكزبرة ، والملح ، والصعتر ، والفلفل ، والتوتيا ، والأرز ، والعدس ، والزيت ، والشيرج وغير ذلك مما يحتاجُ إليه الفقراء ، فكان كلُّ من احتاج شيئاً أتىٰ إليه ، فقال له : ادخلْ تجد حاجتَك .

وأخبرني أنه تلمذَ في بداية أمره لشخص من أرباب الأحوال ، فقال له : صلِّ في بيتك ، ولا تخرج لجمعةٍ ولا لجماعةٍ ، فمكث نحو عشر شهور كذلك ، فبلغ سيدي محمد بن عنان ذلك ، فجمع له فقراءَ العصر ، وكتبوا له كتاباً وقالوا : نحن ما نعرفُ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣٥٧) (٣٥٠) .

طريقاً إلى الله إلا طريقَ أهل السُّنة والجماعة ، فإن لم تخرجْ وإلا فأنت مهجور ، فخرجَ ، وصحب سيدي محمد بن عنان وغيرَه من أهل الطريق ، وشاع أمرُهُ بين الناس .

وأخبرني الشيخ شمسُ الدين الدواخلي : أن شخصاً رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : قلْ لمحمد العدل بناحية طناح يتبعْ سُنَّتي ، ويطيع محمد بن عنان ، ويقضي حوائج الناس . فقال : سمعاً وطاعة ، فاشتَهر من تلك الليلة باسم العدل .

مات رضي الله عنه ببلده ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٣٩٥) الشيخ الصالحُ ، المحمديُّ السني الشيخ محمد بنُ داود المنزلاوي رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه على السُّنة المحمدية في أقواله وأفعاله .

اجتمعتُ به مرات عديدة في مصر ، ودعا لي بدعواتٍ وجدتُ بركتها مع جملة من دعا لي من الأشياخ الحاضرين عنده ؛ وذلك أن والدي في التربية دخل بي على الشيخ محمد بن عنان وعنده الشيخ محمد بن داود ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ أبو بكر الحديدي ، والشيخ محمد المنير ، والشيخ محمد الشناوي ، وكانوا قد اجتمعوا في مصر للشفاعة في ابن الصندلي عند الغوري لما اتُّهم بالزغل[٢] ، فقال والدي بعد أنْ أوقفني بين أيديهم : أسألُ من كلِّ واحد منكم دعوةً لهـٰذا الولد ، فدعا لي كلُّ واحد دعوةً ، وأمروا والدي أن يُلبسني الجُببَ الصوف الحمر والسود ، فمن ذلك الوقت لم تزلِ الجُبَبُ عندي .

وكان سيدي محمد بن داود ليس له شيخ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصنف رسالةً سمَّاها : « طريقة الفقر المحمدي » ضبط فيها أقوالَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله التي ظهرت للأمة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣٥٨) (٣٥١) .
(٢) الزغل : الغش .

وكان يُضرب به المثلُ في اتِّباع السنة هو والشيخ محمد بن عنان ، والشيخ أبو بكر الحديدي .

وكان رضي الله عنه يخدمُ الفقراءَ والمنقطعين عنده ، وينظِّفُ ما تحتهم من البول والغائط ، ويشتمُهُ الضيفُ ، ويحكم فيه ، وهو راض متبسِّم .

وكان لا يتخصَّصُ عن الفقراء المجاورين عنده أو الضيوف بشيء ، وربما عملت له زوجتُهُ دجاجةً ولا تُعلمُه بها إلا بعد أن ينام الفقراء طلباً لأن يأكلَها وحده ، ويبرَّ بها نفسه ، فيأخذها ويخرج ينبِّه الفقراءَ من النوم ، ويفرِّقُها عليهم نُسيرةً نُسيرةً[1]

وبلغني : أن سيدي إبراهيم المتبولي أرسلَ له نحو عشرة أرادب قمحاً في الغلاء ، ففرَّقها كلَّها على باب الدار ، ففضلَ له منها نحو خمسة أقداح .

ومناقبه في بلاد المنزلة كثيرةٌ مشهورة .

وخلَّف من أولاده على طريقته الشيخ شهاب الدين ولده ، فأحيا السنة بعد والده في البلاد ، وكان سيدي محمد بن عنان يحبُّه محبَّةً شديدة .

وما رأيت بعد الأشياخ في عصرنا هـٰذا أكثرَ اتِّباعاً للسُّنة منه ومن الشيخ يوسف الحُريثي ، كانت أفعالُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأقوالُه نصبَ أعينهما ، وسيأتي إفراده بترجمةٍ إن شاء الله تعالى[2]

مات الشيخ محمد المذكور في بلده النسيمية ، ودفن بجوار الزاوية ، وقبره بها ظاهرٌ يزار .

ورأيتُ ولدَهُ يدعو له باسمه على المنبر فلا يُنكَر عليه .

وأخبرني الحاج محمد المنزلاوي : أن الشيخ محمد كان إذا جاءه الضيف بعد العشاء ولم يجد ما يطبخه علَّقَ الدستَ بالماء ، وأوقد عليه ؛ فتارةً يجدونه أرزاً حلواً ، وتارةً أرزاً بلبن طيب ، وتارة شوربة دجاج أو لحم ، هـٰكذا قال لي .

---

(١) النسيرة : القطعة الصغيرة من اللحم المطبوخ . « المعجم الوسيط » (٢/ ٩١٧) .

(٢) انظر (٤/ ٢٢٦) .

واحتاجَ مرةً إلىٰ شيرج للطعام ، وزاويتُهُ علىٰ ساحل البحر الملح ، فكان يُرسل النقيبَ يملأ له الإبريق من البحر ، ويصبُّ منه على الطعام ، فيجدونه شيرجاً ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٩٦) شيخُنا وقدوتنا إلى الله تعالى ، الشيخ محمدُ السَّروي الشهير بابن أبي الحمائل رضي الله عنه[١]

وهو شيخُ شيخنا أيضاً : الشيخ محمد الشناوي رضي الله عنه ، وشيخ الشيخ أبي بكر الحديدي ، والشيخ علي الحديدي ، وشيخ الشيخ محمد العدل والشيخ عبد الحليم ، وغيرهم .

كان رضي الله عنه عالي الهمة ، كثيرَ الطيران من بلد إلىٰ بلد ، وربما طارَ من بعد العشاء فلا يأتي إلى الفجر ، كما أخبرتني بذلك زوجتُه أمُّ شهاب الدين قالت : وكان يغلبُ عليه الحال في الليل ، فيتكلَّمُ بالألسنة الغريبة ؛ من عجمٍ ، وهندٍ ، وسندٍ ، ونوبةٍ ، وحبشةٍ ، وتارةً يقول : قاق قاق طولَ الليل ، وتارة يُزَغرطُ ، ويُخاطبُ ناساً لا يراهم جليسُهُ .

وأخبرني الشيخ محمد الدِّمياطي قال : بينما سيدي محمد السروي جالسٌ في البرج بدمياط ، وإذا هو بالأمير بيغوت دخل[٢] ، فحصل للشيخ حالٌ ، فركب فرسَ الأمير ، ورمحها علىٰ ظهر البحر حتىٰ غاب ، ثم رجعَ وثيابُهُ مخرَّقة ملطَّخة بالدم ، وفيه كذا كذا طعنة ، فقالوا له : ما هـٰذا الحال ؟! فقال : شخصٌ من التجار من إخواننا خرج عليه سبعُ مراكب من الفرنج ، فأخذوا مركبه ، فذهبت فخلَّصتُهُ منهم ، وضربتُ بحافر الفرس في مقادم المراكب ، فغرقت كلُّها .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٥٩) (٣٥٢) .

(٢) **الأمير بيغوت** : هو سيف الدين بيغوت بن عبد الله المؤيدي الأعرج نائب صفد ، كان رجلاً ديِّناً ، مشهوراً بالشجاعة والإقدام ، وقوراً في الدولة ، توفي سنة (٨٥٧هـ) . انظر « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٧٠) .

وكان له وصلةٌ بسيدي أحمد البدوي .

وكان يُخبر : أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يحضر مولد سيدي أحمد كلَّ سنة .

وكان إذا فاته المولدُ لمرضٍ ونحوه يقول : احملوني إلىٰ طريق الذين حضروا في المولد لأتبرَّكَ بثيابهم ، فكان يلمس ثيابَهم ويمسح بها علىٰ وجهه ويقول[١] : [من الطويل]

لعلي أراهمْ أو أرىٰ منْ يراهمُ

ونزل مرةً من مصر لمولد سيدي أحمد في المركب ، فوقع خاتمُهُ في البحر ، فقال : يا سيدي أحمد ؛ ما أعرفُ خاتمي إلا منك ، فلما وصلَ طندتا نفضَ كُمَّه ، فوقع الخاتمُ منه ، رضي الله عنه .

وأخبرتني زوجته أمُّ شهاب الدين قالت : خرج الشيخُ بعد العشاء من الدار في ناحية فارس كورة ، وترك ثيابه وعمامته في دركة الباب ، فطار هو وجماعة ، ثم رجع بعد الفجر فلبس ثيابه ، فقلت له : أين كنت ؟ فقال : رأيتُ جماعةً خرجوا على المسلمين في البحر ، فاستغاثوا بنا ، فأغثناهم .

وكان إذا قال قولاً في غلبة حال يُنفذُهُ اللهُ تعالىٰ .

وجاءه مرةً ناسٌ من شرق أطفيح[٢] ، فقالوا له : قد أكل الفأرُ القطنَ والسِّمسمَ والعصفر ببلدنا ، فقال لصاحبنا الحاج محمد القاصد : رح يا فلان معهم ، فنادِ في الغيط : معاشرَ الفئران ؛ حسب ما رسم محمد بنُ أبي الحمائل : أنكم ترحلوا من هٰذا الغيط ، وكلُّ من قعدَ بعد الليلة شُنقَ بلا معاودة ، فخرجتِ الفئرانُ كلُّهم إلا سبعَ فئران ، فوجدوهم مشنوقين في عيدان العصفر .

ثم إن تلك البلد التي انتقل الفئرانُ لها جاؤوا وشكوا للشيخ ، وقالوا له : أرسل معنا أحداً ينادي لنا مثل تلك البلد ، فقال : يا أولادي ؛ ذهب ذلك الحال ، فقالوا : لا بد ، فأرسل معهم شخصاً ، فنادىٰ ، فلم يرحل شيءٌ من الفئران .

---

(١) عجز بيت ، وصدره : أمرُّ على الأبوابِ من غيرِ حاجةٍ ، وتقدم مع تخريجه (٢/ ١٢١) .

(٢) أطفيح : إحدىٰ مراكز محافظة الجيزة ، وكانت إحدى الأقسام الإدارية الهامة والقديمة في مصر منذ عهد قدماء المصريين .

وكان رضي الله عنه مبتلىً بالأذىٰ مع زوجته أمِّ شهاب الدين مع قدرته علىٰ هلاكها بعون الله ، ولـٰكنه كان يصبرُ عليها ، وربما أدخلَ الفقير الخلوة ، فتجيء فتخرجُهُ قبل تمام المدة ، فلم يتكلَّم ، وتقول له : قال لك فلان : أنا ما أعمل شيخاً .

وكان رضي الله عنه لا يقرِّب أحداً إلا بعد طول امتحانه .

وأخبرني شيخُنا الشيخ محمدُ الشناوي : أنه لما قدم عليه في بلاد فارس كورة لم يردَّ عليه السلام سوىٰ أول دخوله ، ثم تنكَّر عليه ، فلم يَرَ له وجهاً مدة خمسة شهور ، فلما رأىٰ شدَّةَ إقباله وعدمَ أخذه علىٰ نفسه لقَّنه الذكرَ ، وصحبه مدةً طويلة ، ثم إنه أذن له أن يلقِّنَ الذكرَ ، ولم يعرف شيخنا أنَّ ذلك مكرٌ به ، فنزل بلاد الغربية ، وفتح باب التلقين ، فانقلب أصحابُ شيخه أبي الحمائل كلُّهم وتلقَّنوا عليه إلا واحداً ، فسافر ذلك الواحدُ إلى الشيخ ، فقال له الشيخ : كيف حالُكم في البلاد ؟ فقال : ما بقي لنا حالٌ ، انقلبَ الناسُ كلُّهم عنك ، وتلقَّنوا على ابن الشناوي ، فقال : لا تتشوشوا ، نحن نأخذُ الوداعة التي عنده ، ومدَّ يده ، فأعرضَ أهلُ الغربية من ذلك الوقت عن الشيخ محمد الشناوي ، فلحق بالمسألة .

فأتىٰ إلى الشيخ في الزاوية الحمراء حافياً مكشوفَ الرأس ، فمكث في زاويةٍ منها نحوَ أربعين يوماً ، فشفعتْ فيه زوجةُ الشيخ أمُّ شهاب الدين ، فأرسل خلفه ، وقال : يا محمد ؛ إنما امتحنتُكَ بالإذن لأنظرَ أدبَكَ معي ، ثم قال له : إذا أخذت جماعتي فجعلتهم لك مريدين في حياتي ، فأَصير أنا شيخٌ علىٰ مَنْ ؟! فقال : يا سيدي ؛ العفو ، فعفا عنه ، ثم رجع تاركاً للتلقين إلىٰ أن مات شيخه ، ولم يفلح أحدٌ من الناس الذين كانوا تلقَّنوا عليه ، بل سُلبوا كلُّهم ، فلما مات شيخُه برز في الغربية ، وأخذ الناسُ عنه على القاعدة الصحيحة ، وانتفعَ به الناس كثيراً كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالىٰ[1]

وأخبرني الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الشناوي أخي شيخنا : أن سيدي أبا الحمائل لم يزلْ يمتحن عمِّي الشيخَ محمد إلىٰ أن مات .

قال : ورأيتُهُ مرةً سلك الطريقَ الوعرة وترك الطريقَ الهيِّنةَ ، فتبعه عمِّي زماناً ، ثم

---

(١) انظر (٤/ ١٩٩) .

التفت إليه وقال : أحسنتَ يا محمد الذي تبعتني في الطريق الوعرة ، ولم تفارقني كما فعلَ غيرك ، ثم قال : يا محمد ؛ ما تهتُ شيئاً ؛ فإن العارفَ لا يتوه في طريق ، وإنما أردتُ اختبارك . انتهىٰ .

وأخبرني الشيخ علي الحديدي قال : كان الشيخ محمد السروي جالساً في الدور الأول من منارة جامع فارس كورة ، وإذا بجماعة طيَّارةٍ مرُّوا عليه ، فطار معهم ، فأعجبتْهُ نفسُهُ ، فسقط في البحر المالح قريباً من البر ، فلولا لطفُ الله تعالىٰ به لغرق ؛ فلذلك كان رضي الله عنه يقول : (احذروا غوائل النفوس ؛ فإن الفقير يُؤخذُ عن مقامه إذا أُعجبَ بنفسه) .

وأخبرني الشيخ يوسف الحُريثي قال : (دخلتُ مرَّةً جامع فارس كورة ، فوجدتُ الشيخَ في مجلس الذكر ، فكان يقومُ فيأخذ الرجلين بيد واحدة ، ويصيرُ يجري بهما يميناً وشمالاً ، ثم إنه حمل التيغار الماء الكبير على اليد الأخرىٰ[1] ، وصار يتواجد ويجري ، ولم يكبَّ شيئاً من الماء) .

وقد صحبته رضي الله عنه نحوَ خمسِ سنين لمَّا دخل مصر وسكن الزاوية الحمراء ، ثم زاوية الشيخ المواهبي ، وبها توفي .

وأخبرني الشيخ شهاب الدين الطندتائي خادمُهُ قال : عزمَ أميرٌ على الشيخ ، وأجلسَهُ في مقعده ، فنظر الشيخُ إلىٰ سقف المقعد وقال : هـٰذا يصلحُ لزاويتنا ، وكان إذ ذاك لم يشرع في عمارتها ، قال الشيخ شهاب الدين : فلما تمَّتْ عمارةُ الزاوية أرسلنا الشيخُ رحمه الله نشتري لها سقفاً ، فوجدنا سقفَ ذلك المقعد بعينه ، فاشتريناه ، فهو سقفُ زاويته إلى الآن ، فصحَّ كشفُ الشيخ رحمه الله .

وسمعته يقول : (لقنت نحو ثلاثين ألفاً ، فما عرفني منهم أحدٌ غير ابن الشناوي) .

وكان يكرهُ للمريدين قراءةَ أحزاب الشاذلية ويقول : (ما ثمَّ جلاءٌ للقلوب مثل قول : « لا إلـٰه إلا الله ») .

قال : ومثالُ أحزاب الشاذلية مثالُ زبَّال خطبَ ابنة السلطان وهو علىٰ دناءته ،

---

(١) التِّيغار : كقِيفالٍ : الإجانة « تاج العروس » (ت غ ر) ، وفي « معجم متن اللغة » (ت غ ر) : (مكيال للحبوب ، وفي المصابغ يشبه الخابية المقطوعة من نصفها) .

وصار يقول للسلطان : أعطني ابنتك ، واجعلني جليسك ، وهو لا يعرفُ شيئاً من آداب حضرة الملك) .

وكان يقول : (ما رأينا قطُّ مريداً وصلَ إلىٰ مقامات الرجال بقراءة الأحزاب) .

ودخل مرةً علىٰ جماعة الشيخ إبراهيم الشاذلي وهم يقرؤون الحزب ، ويقولون : اللهم ؛ اجعلنا كذا ، وافعل بنا كذا ، ولم يتفرَّسْ في أحدٍ منهم القبولَ لِمَا طلب ، فزجرهم ، وأقامهم ، وصار يقول لأحدهم علىٰ وجه التوبيخ : اجعلْ لي ، واعملْ لي ، واصطفيني ، واجعلني من خواصِّ حضرتك ، ثم يقول : واللهِ ؛ أنتم لم تصلحوا لخدمة الخلق ، فكيف تصلحون لخدمة الحق ؟!

وسمع مرةً أُخرىٰ شخصاً منهم يقول : اللهم ؛ اجعلني من خيار أهل حضرتك ، فصفعه في قفاه ، وقال : خيارُ أهل الحضرة الأنبياء والملائكة .

وكان يقول : (كيف تلبسون على الله تعالىٰ بلبس الصوف والشعرة ، وتنامون طول الليل ؟! أنتم واللهِ من المنافقين) .

وسمعته مرةً يحكي قال : كنتُ جالساً عند الشيخ يحيى المناوي رضي الله عنه في خلوته بجامع عمرو أقرأُ عليه في الأصول ، وإذا بشخص أسودَ كبيرِ البطن جدّاً عليه خيشة ، وهو متحزِّمٌ بحبلٍ واقف علىٰ رأس الشيخ ، فنظر إلى الكتب التي عند الشيخ ، فقال : يا رسول الله ، ما أكثر هـٰذه الكتب ! هل تحفظُها ؟ فقال : لا ، فقال : أنا أحفظُها كلَّها ، فقال له الشيخ : كيف ذلك ؟! فقال : أنا أعرفُ أن كل حرف منها يقول لي : كنْ رجلاً جيداً ، ثم اختفىٰ فلم نجده ، فسألنا الشيخَ عن كِبَرِ بطنه ، فقال : يا ولدي ؛ هـٰذا إشارةٌ إلىٰ أن السيئة تضيعُ فيها لوسعها ، فلا يؤاخذُ أحداً ، بخلافنا يا ولدي ، بطوننا ضيِّقةٌ أدنىٰ شيء يظهر فيها .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا ينبغي لفقير أن يجتمعَ بشيخ وعنده التفاتٌ إلىٰ فقير أو عالم آخر)[١]

---

(١) وقع في هامش (ز) : (قوله : « أن يجتمع . . . إلخ » أي : اجتماعاً يؤدي لنقص اعتقاده في شيخه ، وإلا فلا محذور فيه ، بل فائدة الزيارة فيه ثابتة لا ينكرها أحد . انتهىٰ كاتبه) .

ويقول : (إذا لم يكنِ الفقيرُ يرىٰ أن شيخَهُ يكفيه فلِمَ يتَّلمذُ له ؟!) .

وكان يقول : (كلُّ فقير اجتمع بغير شيخه لا يفلح ؛ لأن الذي يبنيه شيخه يهدمُهُ غيره) .

وأخبرني خادمه قال : لمَّا حججنا صار المصريون يجتمعون عليه حلقاً حِلقاً يتكلَّمون بالكلام اللغو ، فزجرهم ، فلم ينزجروا ، فأرسل الخادمَ يقول لكلٍّ واحد منهم : الشيخُ يطلبُ منك كذا وكذا من مئة دينار إلىٰ ألف دينار تأتي له بها بكرةَ النهار ، فانقطعوا كلُّهم عنه من تلك الليلة ، فقال : الحمدُ لله ربِّ العالمين[1]

لقَّنني الذكرَ وأنا صغير في سنة اثنتي عشرة وتسع مئة وهو بالزاوية الحمراء .

ووقائعه مشهورة بين أصحاب شيخنا الشناوي ، وبين أهل دمياط ، وفارس كورة ، وطندتا ، رضي الله عنه .

مات رضي الله عنه بمصر ، وصُلي عليه في الجامع الأزهر ، ودفن بزاويته بخطٍّ بين السورين **في سنة [اثنتين] وثلاثين وتسع مئة**[2] ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٣٩٧) الشيخ الكامل الراسخُ ، مربِّي المريدين ، قدوة السالكين سيدي علي المرصفي رضي الله عنه[3]

كان جبلاً راسياً في مصر ، دانت له أشياخ عصره ، وتخرَّجَ به التلامذة الصالحون .

واختصر « رسالة القشيري »[4] وتكلَّمَ علىٰ مشكلاتها ، وقرأت غالبها عليه أنا وأخي الشيخ أبو العباس الحُريثي ، ثم مات الشيخ ، فلم نتمَّها .

وتلقَّنت عليه الذكر ثلاث مرات في أوقات متفرقة ، بين الأولىٰ والثانية [سبع عشرة]

---

(١) وسيمر شبيه هٰذه القصة في ترجمة سيدي إبراهيم الشاذلي (٤/ ٢٢٤) .

(٢) في النسخ : (اثنين) بدل (اثنتين) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٦٢) (٣٥٣) .

(٤) **واسم المختصر** : (الورد العذب) . انظر « هدية العارفين » (١/ ٧٤٢) .

سنة[١] ، وذلك أنني دخلتُ عليه وأنا أمردُ ، وكنت أطالع في رسائل الفقراء كثيراً حتىٰ حفظتُ غالبَ كلامهم ، وما رأيت حصلَ عندي شيءٌ من أحوالهم ، وكنتُ أحسب أن طريقَ القوم طريقُ نقل كلام كغيرها ، فلما جلستُ بين يديه بعد صلاة العصر قلتُ له : يا سيدي ؛ لقِّني بحال ، وما كنتُ أعرفُ ما في ذلك من سوء الأدب ؛ فإن مقامَ الشيخ فوق مقام أصحاب الأحوال ، فقال : باسم الله يا ولدي ؛ اجلس متربِّعاً ، وغمِّض عينيك واسمع مني : (لا إلـٰه إلا الله) ثلاثَ مرات ، ثم اذكرْ أنت ثلاث مرات ، ففعلتُ ، فما سمعتُ من الشيخ سوى المرة الأولىٰ منه وغبتُ ، فما استيقظتُ إلا بعد صلاة المغرب ، ولم أجد أحداً حولي ، فخرجتُ ومكثت [سبع عشرة] سنة[٢] ، لا أقدر علىٰ مقابلته لقوّة الحال الذي وقعَ منه إلا بتكلُّف ، إذِ الكامل لا حال له .

والمرةُ الثانية : لقَّنني ، فسمعتُ منه كلمةَ التوحيد ثلاثَ مرات ، ثم حصل لي غيبة ، فرأيت مع الشيخ ثلاثَ مخارز ، فغرزها في خدي الأيمن إلى النِّصاب[٣] ، فلما أفقتُ ذكرتُ ذلك له ، فقال : الحمد لله ، هـٰذا دليلٌ علىٰ تأثير التلقين فيك .

الثالثةُ : أنني تلقَّنْتُ عليه مع سيدي أبي العباس الحُريثي لمَّا قدم من بلاد الشرقية ، وما عرَّفني مقدارَ الشيخ إلا هو ؛ لكونه كان أكبرَ منِّي سنّاً ، وأنورَ قلباً ، ثم لا زلنا نحضرُ عنده كلَّ يوم من العصر إلى المغرب نقرأ عليه في « مختصره لرسالة القشيري » إلىٰ أن مات رضي الله عنه .

وكان إذا دخل أحدٌ من الفقهاء وهو يتكلم في التوحيد يُعرضُ عن ذلك إلى المسائل الفقهية ، ويقول : (ذكرُ الكلام لغير أهله عورةٌ ، فإذا خرج عاد إلى الكلام الأول) .

وقالوا له مرةً : لِمَ لا تجعلون لكم درساً في الطريق في جامع الأزهر ؟ فقال : ليس ذلك من أخلاق القوم ، إنما كان الجنيد ومن بعده يُدرِّسون علم القوم في قعر بيوتهم ؛

---

(١) في النسخ : (سبعة عشر) ، وفي « الطبقات الكبرىٰ » (خمسة عشر يوماً) .

(٢) في النسخ : (سبعة عشر) .

(٣) **النصاب** من كل شيء : الأصل والمرجع الذي نصب فيه وركب ، وهو المنبت والمحتد .

خوفاً أن يسمع أحدٌ عن القوم كلاماً لا يفهمه فيقعُ فيهم ، فيهلك ؛ وذلك لدقَّة مداركهم ، ومن لا إلمام له بطريقهم ولا بالتردُّد إلىٰ مجالسهم لا يعرف لهم اصطلاحاً أبداً .

ودخل عليَّ سيدي أبو العباس الحُريثي يوماً بعد المغرب ، فجلسَ عندي إلىٰ أن دخل وقتُ العشاء ، فقرأ خمسَ ختمات وأنا أسمع ، فذكرتُ ذلك له ، فقال : يا ولدي ؛ أنا قرأتُ مرةً حالَ سلوكي ثلاث مئة وستين ألف ختماً في يومٍ وليلةٍ ؛ كلُّ درجة ألف ختمة .

وسمعته رضي الله عنه يقول : (إذا فعلَ المريدُ فعلاً ، فقال شيخُه : هو مذموم ، وقال غيرُ شيخه : هو محمود ، فالواجب : الرجوع لكلام شيخه ؛ لأنه أمينٌ عليه ، بخلاف الغير) .

وكان يقول : (إذا خرج مريدٌ عن حكم شيخه ، وصار يقدحُ فيه وفي أصحابه فلا يجوز لأحد تصديقه ؛ لأنه في حال ردَّةٍ عن طريق الله ، وتهمةٍ في حاله) ، قال : (وهـٰذا الأمرُ قلَّ أن يسلمَ مريدٌ خرج عن مرسوم شيخه منه ؛ وذلك لأن القلوبَ تصيرُ تمقتُهُ ، فلا يجدُ له فرجاً إلا الحطَّ في الشيخ وفي أصحابه تصريحاً وتعريضاً) ، قال : (وذلك علامة استحكام المقت فيه ، ولـٰكنْ إذا أراد الله بذلك المريد خيراً جمعه بعد مفارقة شيخه بمن يُحبُّ شيخه ويُجيب عنه ، فهناك تتحرَّكُ همَّةُ المريد إلىٰ شيخه ، ويطلبُ الرجوع إليه) .

وسمعته يقول : (إذا خرج المريد عن حكم شيخه ، وانقطع عن مجلسِهِ ، فإن كان سببُ ذلك الحياءَ من الشيخ ومن أصحابه لزلَّةٍ وقع فيها ، أو فترةٍ حصلتْ له . . فهو كالطلاق الرَّجعي ، فللشيخ أن يقبلَهُ إذا رجع ؛ لأن حرمةَ الشيخ في نفس هـٰذا المريد لم تذهب ، لا سيما وأحوجُ ما يكون المريد إلى الشيخ إذا تعوَّج ، فينبغي للشيخ وأصحابه التلطُّفُ بهـٰذا المريد ، وعدمُ الغلظة عليه ، والهجرِ له ، إلا إن وثقوا به لقوة الرابطة التي بينه وبين الشيخ) .

وسمعته يقول : (ليس للشيخ أن يُبالغَ في التنكر على المريد ؛ لأن ذلك ينفِّرُهُ ، وكذلك لا ينبغي للمريد أن يسأل الشيخ عن سبب غضبه عليه ، وهجرِه له ، بل عدُّوا

ذلك من سوء الأدب ؛ لأنه ربما أقام المريدُ الحجَّةَ علىٰ شيخه بذلك ، فيترقَّىٰ في سوء الأدب إلىٰ أن يقيم الحجَّة علىٰ ربِّه ، فيهلك) .

وسمعته مرةً يقول : (لا يجوزُ للمريد إذا وصفَهُ شيخُهُ بأنه قليلُ الأدب في عبادة أو غيرها أن يجيب عن نفسه ؛ لأن الشيخ يعرف من المريد ما لا يعرفُهُ المريد من نفسه ؛ كبيطار الدواب ؛ فإنه يعرف من أمراض الدابة ما لا يعرف صاحبُها) .

وكلامه رضي الله عنه في الطريقِ كثيرٌ شائعٌ .

وأخبرني رضي الله عنه : أنه كان قبل دخوله في الطريق أُمِّيّاً يخيطُ النعال[1] ، وأنه اجتمع بسيدي مَدْين مع والده وهو ابنُ ثمان سنين ، ولقَّنه الذكر ، ثم إنه لما كبر أخذ بعده عن ابن أخت سيدي مَدْين الشيخ محمد بعد أن أخذ عن سيدي مدين ، وربما يكون الرضاعُ من شخصٍ والفطامُ علىٰ شخصٍ آخر .

وعاش رضي الله عنه إلىٰ أن انقرض جميعُ أقرانه في مصر ، وما بقي فيها أحدٌ يشار إليه في الطريق غيره .

ومن وصيتِهِ لي : (إياك أن تجعل محلَّ إقامتك زاويةً لها وقفٌ ، فيتعب خاطرُك ، وتتلف جماعتُك ، كما وقع لي ذلك في الخانقاه ؛ وذلك لأن أصحاب الوظائف في الغالب من أهل الدنيا ، يشاححون على القيراط ، فيكدِّرون علىٰ شيخ الزاوية وقته بطلبهم منه الالتفات إلى الدنيا وجمعها من الخراج وغيره ، بخلاف ما إذا كان الفقراء في الزاوية علىٰ ما يفتحُ اللهُ تعالىٰ) ، وكذلك أوصاني سيدي علي الخواص .

وقد جرىٰ علي المقدر ، وقاسيتُ في ذلك غايةَ المشقة ، ولولا أن الموتَ قرب لخرجتُ من الزاوية ، فاللهُ يختمُ الأمر بخير .

مات رضي الله عنه سنة نيّفٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بقنطرة أمير حسين بمصر ، وقبره بها ظاهرٌ يزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) في النسخ : (أدمياً) ، والمثبت من « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٦٤) .

ومنهم :

(٣٩٨) شيخُنا وقدوتُنا إلى الله تعالى ، الشيخُ العارف بالله تعالىٰ والدَّاعي إليه ، الشيخ تاجُ الدين الذَّاكر المديني(١)

أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته .

كان وجهُهُ رضي الله عنه كأنه قطعةُ شمس ، أو قمرٌ من النور الذي يسطعُ من قلبه علىٰ وجهه ؛ وذلك من نور الأعمال المرضية ، والأخلاق الحسنة .

وكان ذا سمتٍ حسنٍ ، وشيمٍ محمدية ، تكادُ كلُّ جارحةٍ منه تنطق وتقول : صاحبي وليُّ الله عز وجل .

وكانت تلامذتُهُ في غاية الجمال والكمال ، والسمتِ الحسن .

وكانت زاويتُهُ مفروشةً باللبابيد السود ؛ لئلا يسمعَ الفقراءُ الذين في الخلوة وقعَ أقدام الفقراء إذا مشوا ، ويقول : (حضرةُ الفقراء هي حضرةُ الحقِّ ؛ لعكوف قلوبهم علىٰ حضرته ، ولا ينبغي أن يكونَ في حضرة الحق علوُّ صوتٍ ، ولا حركة قوية لها حسٌّ) .

وكانت تلامذته رضي الله عنه كثير من الأمراء وغيرهم ، وكان كثير الشفاعات عند السلطان فمن دونه .

وكان دائمَ الطهارة ، لا يتوضأ عن حدثٍ إلا كلَّ سبعة أيام ، وسائرُ طهاراته تجديد . وأخبرني خادمُهُ الشيخُ عبدُ الباسط الطلحاوي ، وكان أحدَ العشرة الذين أذن لهم : أنه انتهىٰ أمره في الوضوء آخر عمره إلىٰ أنه يتوضأ كلَّ اثني عشر يوماً ، وهـٰذا أمرٌ ما ظهر عن أحد من أشياخنا غيره ، إلا أن يكون الشيخ أبو السعود الجارحي ؛ فإنه بلغنا : أنه كان يمكث رمضانَ كاملاً بوضوء واحد .

وتنازع في ذلك ـ أي في الحال الذي ذكرناه عن الشيخ تاج الدين ـ جماعةٌ من حارة جامع ابن طولون ، فعزموا عليه في الجيزة أيامَ الربيع ، وصاروا يقدِّمون له الدجاج ، واللحم الضاني ، والأرزَّ باللبن ، والقشطة ، وغير ذلك ، ويأكل مع كل طائفة ، فبعد

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٦٥) (٣٥٤) .

سبعة أيام قالوا له : إنك في امتحانة في ترك الوضوء ، وهم يستهزئون[١] عليك مدَّةَ السبعة أيام ، فقام الشيخ راجعاً إلىٰ مصر ، ودعا على الممتحِنين ، فانقلبتْ بهم المركبُ ، فقالوا له في ذلك ، فقال : ما ثَمَّ غرقٌ ، وإنما هو تأديبٌ فقط ، فكان الأمر كذلك ، انطربوا وبلَّتْ ثيابهم فقط ، ثم إن الشيخَ تداركَ نفسَهُ في دعائه عليهم ، وقال : ما وقعتْ لي مع أحد قبل ذلك ، ولـٰكن لا بد لي من المؤاخذة ، فمرضَ بسبب تلك الدعوة نحو سبعة وأربعين يوماً .

وأخبرني الشيخُ شمسُ الدين المرصفي الواعظُ أحدُ تلامذته رحمه الله قال : دخلتُ علىٰ سيدي تاج الدين في مرض موته ، فقال : أخبرُكم بشيء من أحوالي علىٰ سبيل التحدث بالنعمة ، ولعلَّ أحداً منكم يقتدي بي في ذلك ؟ فقالوا له : نعم ، فقال : للعبد أربعون سنة يُصلي الصبحَ بوضوء العشاء ، وقد طويتُ سجادتي من بعدي ، ولـٰكنَّ ابن أختي يحيىٰ ، والشيخ أحمد الوفائي ، وإبراهيم ، وعبد القادر ، وفلان ، وفلان وعيَّنَ عشرةَ أنفس إذا حضر واحدٌ منهم مجلس ذكر فلهم أن يستفتحوا الذكر ، وإن اجتمع هـٰؤلاء كلُّهم كان ابنُ أختي مقدَّماً عليهم ، بشرط أن يغيِّرَ عمامتَهُ ، وكانت كعمامة جند الأتراك ، فقلتُ له : هل أذنَ لأحد من هـٰؤلاء العشرة أن يُربِّي المريدين ؟ قال : لا ، هـٰكذا قال .

وأخبرني أيضاً : أن الشيخ أخبره أنَّ له خمساً وعشرين سنة لم يضع جنبَهُ الأرضَ علىٰ طراحة ، إنما ينامُ جالساً علىٰ حصير .

وكان يقول : (ليس القناعةُ أن يرضى الإنسان بما وجد من الأكل واللبس ؛ إنما القناعة أن يجد الأكل ولا يأكل إلا كل ثلاثة أيام أُكيلة ، وأكثرها تسع لقيمات) .

وكان يقول إذا قالوا له : مَنْ بعدكم في الطريق ؟ : (يا أولادي ؛ الطريقُ تعرفُ أهلها ، ولو هربوا منها تبعتهم ، وغيرُ أهلِها إذا تبعوها فرَّتْ منهم) .

وكان يقول : (لا يصح لأحد الاتحاد بشيخه إلا إن جرىٰ في جسم شيخه كجريان الدم في العروق) .

---

(١) ترددت النسخ بين (يستهزئون) و(يسهرون) .

ومناقبُهُ كثيرةٌ مشهورة .

صحبته رضي الله عنه نحوَ خمس سنين .

ومات في سنة اثنتين وعشرين وتسع مئة ، ودفن بزاويته قريباً من حمام الدود حين سافر الغوري لقتال ابن عثمان ، وكان قد طلب الشيخَ يسافرُ معه وجميعَ أشياخ البلد ، فأبوا أن يخرجوا معه ، فتوعَّدَهم بالقتل ، فقال الشيخ تاج الدين : ما بقي بيننا وبينه اجتماعٌ ، هو لا يرجعُ ونحن نموت ، فكان الأمرُ كما قال رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٩٩) الشيخ العارف بالله تعالىٰ والداعي إليه ، والمشمر في طاعته ليلاً ونهاراً ، سيدي أبو السعود الجارحي رضي الله عنه(١)

كان من أصحاب الهمم العالية ، وهو أجلُّ من أخذ عن سيدي أحمد المرحومي عن سيدي مدين عن الزاهد .

وكانت له في مصر التلامذةُ الكثيرون ، والكرامات والخوارق ، والقبولُ التام عند السلطان والأمراء وغيرهم .

وكان الأمراء يقفون بين يديه ، فلا يأذن لهم بالجلوس ، وحملوا في عمارة زاويته الطوب وكبوا التراب ، وشنق السلطان طومان باي في باب زويلة وعليه جبَّةٌ حمراء من جبب الشيخ .

وكان رضي الله عنه كثير المجاهدات ، ولم يبلغنا عن أحد من مشايخ عصره ما بلغنا من مجاهداته .

ومكث عشرين سنة صائماً ولا يدري بذلك أهلُهُ ، ومع ذلك كان يُصلي بالقرآن في ركعة أو ركعتين مدة العشرين سنة .

وانتهىٰ أكلُه إلىٰ لوزةٍ ، ثم ترك اللوزة ، وذلك قبل اجتماعه بشيخه المرحومي كما

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣٦٧) (٣٥٥) .

أخبر بذلك عن نفسه ، فلما اجتمع به لقَّنه الذكر ، وأمره بالخلوة في بيته سنةً ، فاختلىٰ في غرفة في كوم الجارح ، ثم خرجَ وأبدى العجائب والغرائب .

وكان مدَّةَ العشرين سنة المتقدِّمة يبيت وحده في المدرسة الرسلانية بالقرب من قصر نائب جده ، فكان يأخذُ عشاءه من البيت كلَّ ليلة ، فيعطيه للفقراء ، ثم يدخلُ الرسلانية يصلي إلى الصباح ، ثم يخرج للدكان يبيع فيه العطر إلى العصر ، هـٰكذا كان شأنه في بدايته ، ومع ذلك كان يحلفُ ويقول : والله ؛ ما بلغتُ الآن مقام مريد .

وكان ينزل سرداباً تحت الأرض من أول ليلة من رمضان ، فلا يخرجُ إلا للجمعة وصلاة العيد ، وربما كان ذلك بوضوء واحد من غير أكل ، وكان يشربُ كلَّ ليلةٍ عند الغروب مقدار أوقية ماء .

وكان إذا سمع كلاماً يأخذ منه ما شاء الله من الاعتبار .

وسمع مرة شخصاً يقول : يا سيدي ؛ فسدتِ المعاملة ، ونودي على الفلوس أنها بطالة ، فصاح وسقط علىٰ وجهه ، ونتف لحيته ، ومكث يصيحُ يوماً كاملاً ، وكان ذلك في بداية أمره .

وجاءه مريدٌ مرة من موضع مسيرة يومين يطلب الاجتماع به ، فلم يأذن له الشيخ ، فقال في نفسه : أجيءُ من موضع بعيد ولا يخرج لي ، فأرسلَ الشيخُ يقول له : تمنُّ عليَّ بسفرك إلىٰ يومين ، كان المريدُ في الزمن الماضي يُسافرُ ثلاثةَ شهور في مسألة واحدة في الطريق ، ثم قال له : اذهب لا أراك ثلاث سنين ، فمكث ثلاثَ سنين ، ثم جاءه ، فأكرمَهُ وانتفعَ به .

وكان لا يقربُ أحداً إلا بعد امتحانِ سنين .

وأخبرني القاضي شمس الدين بن سودي المالكي بناحية المحلة الكبرىٰ : أن شخصاً من تلامذة سيدي أبي السعود قال له : يا سيدي ؛ رأيت صبية من البرابرة فراحت نفسي لها ، فقال له الشيخ : صُم تنفك عنك الشهوة ، فلم يصم وراح إلى الصبية ، فأدخلته خُصَّها ، فأخذ رجليها في وسطه فتأمل ، فوجدها الشيخ ، فخجل وتركها ، فلما رجع قال له الشيخ على الواقعة كلها قبل أن يسأله .

قال : ووقع مثل ذلك لفقير كان يُظهر للشيخ العبادة والعفة ، لـٰكن كان في صورة أمرد ، فخجل كذلك من الشيخ .

وكان كثيراً ما ينظرُ إلى المريد بالحال فيتمزَّقُ لوقته .

وسأله مرةً أجلُّ أصحابه الشيخ شمس الدين البُوصيري رحمه الله وقال : يا سيدي ؛ مقصودُنا أن نسمعَ منك شيئاً من علومِ الأسرار ، فقال : يا محمد ؛ واللهِ ، لا أتمنُكَ علىٰ ريح أُخرجه وأنت حاضر فكيف أذكرُ لك أسرارَ الله ؟! ولم يُطلعْه علىٰ شيء ، هـٰكذا أخبرني الشيخ شمس الدين .

وقال سيدي أبو السعود يوماً : (لي منذ عملتُ شيخاً في مصر سبع وثلاثون سنة ما رأيتُ في المشيخة خيراً قطُّ ، وكنتُ قبل ظهوري في غاية الراحة ورياقة الخاطر بيني وبين الله ، فلما ظهرتُ تكدَّرتْ أحوالي كلُّها ، وكان الأشياخ المتقدِّمون يظهرون لأحد شيئين : إما ليأخذَ الناسُ عنهم الطريق ، وإما لقبول الشفاعات في المظلومين ، ولم يجئني قطُّ مدةَ ظهوري إنسانٌ يطلب الطريق إلى الله تعالىٰ بصدق ، وأما الشفاعات فقد مات من يعتقد في الفقراء ، وما بقي إلا النَّصبُ والزوكرة ، وغالبُ من يلوذ بالفقراء الآن إنما هو لعلل : إما يقول : أستاذي غضبان عليَّ فطيِّبوا لي خاطره ، أو امرأتي تؤذيني ، أو جاري ، ونحو ذلك) .

وكانت مكاشفاتُهُ كثيرةً ، وكان يتكلَّمُ على الخاطر من غير أن يعلمه به صاحبُهُ .

ورأيته في المنام قبل اجتماعي عليه وهو يتوضأُ ، وفي يده شعرٌ نحو شبر ، فأوَّلُ ما اجتمعتُ به بدأني وقال : طولُ الشعر للفقير يدلُّ علىٰ زيادة الدين ، وطوله للأغنياء يدلُّ علىٰ همٍّ وغمٍّ .

وكان يقول للنقيب : إذا طلبني أحدٌ لغير حاجة ضرورية فقلْ له : الشيخُ ما هو هون ، فقال النقيب : كيف أكذب ؟! فقال : لستُ بهون يدقُّ فيَّ الفلفل والثوم للطعام ونحو ذلك .

وكان إذا صحبَهُ شخصٌ وتفرَّس فيه محبَّةَ المشيخة وكثرةَ اعتقاد الناس فيه يُخرجه من ذلك بحيلة يفعلها معه ، فينفرُ منه المعتقدون رحمةً بذلك الشخص .

وأخبرني أحدُ أصحابه الشيخ نورُ الدين الماوردي قال : كان لي شعرةٌ وسمتٌ حسن ، وكنتُ أحبُّ المشيخةَ ، وربما أقول : أيُّ فرقٍ بيني وبين الشيخ ؛ فإني كنتُ أصومُ النهار ، وأقومُ الليل ، ولا آكلُ من يد أحد شيئاً إلا إنْ تحقَّقتُ حلَّه ؟! فمكر بي يوماً ، وقال لي : يا شيخ نور الدين ؛ مقصودي أعتكفُ هـٰذه الأيام كلَّها ، وتقوم عني بكلفة مُلاقاة الناس من الأمراء وغيرهم ، وقال لجميع أصحابه : مَنْ لم يجدني فليكتفِ بالشيخ نور الدين ، ويسأله الدعاءَ ؛ فإنه أعظمُ مني ، قال : فأقبل عليَّ الأميرُ تمراز ، وصار يتردَّدُ إليَّ ، ونسي الشيخ أصلاً ، فجاءني مرةً وأنا واقفٌ أُكلِّمُ الشيخَ وهو في الخلوة ، فقلت له : الأميرُ تمراز جاءَ لكم ، فقال له : قلْ له ما هو هون ، فقلت له : الشيخُ ما هو هون ، فما فرغتُ من كلامي إلا والشيخُ واقفٌ علىٰ كتفي ويقول لي : تكذبُ على الأمير في سبيل الله هـٰذه الشعرة وهـٰذا الطيلسان يا كذاب ، فمن ذلك اليوم ما رآني ذلك الأمير إلا وبصقَ عليَّ ، وقال : آهٍ يا كذاب يا زوكاري يا نصَّاب ؛ ثم قال لي الشيخ : أيشٍ قلتَ يا فلان ، شبكتك وخلصتك .

قال : وقال لي الشيخ مرةً أخرىٰ : إن أميراً كبيراً عازم علىٰ زيارتنا ، ومقصودي تعملُ أنت الشيخ وأنا النقيب ، فما قدرتُ أخالفه ، فأجلسني علىٰ سجادة ، وطرحني بشملة صوف ، وقال : طاطي في الأرض ، وإذا سألك الدعاءَ فقل : الله ورسوله ، واحترص لا تنفكش معه ، فتحزَّم الشيخ أبو السعود بفوطة حمَّامي ، ووقف علىٰ باب الزاوية ، وقال للأمير : هـٰذا الوقت كان سيدي الشيخ في حديثك ، ثم دخلَ معه حتىٰ أوقفه عليَّ ، وقال : قبِّلْ يده تحصل لك البركة ، فقبَّل الأمير يدي ، فكدتُ أذوبُ من الحياء ، ثم قال : يا سيدي ؛ إن ترقَّيتم إن شاء الله إلى السلطنة تعطوا سيدي الشيخ ثلاثين إردباً شعيراً لحمارته ، فقال الأمير : نعم ، قال : وتطبخون له حلواً ، فقال : نعم ، هـٰذا والأميرُ لا يعرفُ من هو الشيخ .

فلما خرج الأمير وشيَّعه الشيخُ رجع وقال لي : أيشٍ رأيتَ نفسَك في المشيخة ؟ فشكوتُ له ما وقع لي ، فقال : فكيف تحسدني علىٰ شيءٍ أُحاسبُ عليه يوم القيامة ؟! فإنَّ الواحد من هـٰؤلاء يلبس هو وغلمانه الحريرَ والذهب ، ويظلم ، ويحبس الناس ظلماً ، ولا قطُّ يُمكننا نصحُهُ بكلمة واحدة ، بل يدخل رأس الواحد منا الجراب ،

ويخرسُ لسانه ، قال الشيخ نور الدين : وقول الشيخ : إني أحسده صحيح ، فتبتُ من ذلك اليوم ، واستغفرتُ الله تعالىٰ .

وكان إذا أخبرَ أصحابه بشيء يقعُ لهم في المستقبل . . فلا بد أن يقع .

وقال لي مرَّةً : (يا ولدي ؛ إيَّاك أن تخبرَ بشيء يقعُ لأصحابك من السوء بالظن ، فيمشِّيه الله لك استدراجاً) .

وأخبرني الشيخ نور الدين الماوردي قال : أنكرتُ علىٰ أصحابه حلقَهم لحاهم ، وقلتُ : هٰذا أمرٌ لا عن الله ولا عن رسوله ، فقال لي : يا نور الدين ؛ لا بد من حلق لحيتك وتكون أنت السائلَ في ذلك ، قال : فحلقتُ لحيتي بعد قول الشيخ بعشر سنين ، وأبى الحالقُ أن يحلقَ لحيتي ، فأكرهتُهُ علىٰ ذلك ؛ تصديقاً لكلام الشيخ .

وسمعته مرةً يقول : إذا ذكرتُم اسمَ ربِّكم فلا تنطقوا به إلا مع التعظيم والخشية ، فقد كان شخصٌ يطيرُ في الهواء ، ويمشي على الماء ، فدخل علىٰ فقير يعودُهُ وهو مريضٌ ، فقال للمريض : قل : يا لطيف ، فسُلب تلك الكرامة ، فلم يُعرف من أين أُتي عليه ، فدلُّوه علىٰ شخص من أهل الكشف ، فسافر إليه ، فقال له : إنك لقَّنتَ مريضاً اسمَهُ تعالى (اللطيف) وأنت غافلٌ عن التعظيم ، فسلبَكَ الكرامةَ ، فتاب واستغفرَ ، فلم تعد إليه الكرامة حتىٰ مات . انتهىٰ .

وسمعتُهُ مرَّةً يقول لفقير : (اسمع يا أخي ؛ لا تجعلْ لك قطُّ مريداً ، ولا رسالة ، ولا زاوية ، وفرَّ من الناس ؛ فإن هٰذا زمانُ الفرار) .

وسمعته مرة يقول لفقيه : (متىٰ تصيرُ هاؤك راءً) ؛ أي : فقيراً .

وطلب شخصٌ من علماء الأزهر الاجتماعَ بالشيخ ، فأرسل يستأذن ، فأذن له الشيخُ ، وقال للحاضرين : هٰذا ليس له عقيدةٌ في شيخ ، فنصبةٌ تودِّيه ، ونصبةٌ تجيبه ، فلما جلس قال الشيخ : [من الطويل]

يظنُّ الناسَ بي خيراً وإنِّي أشرُّ الناسِ إنْ لم تعفُ عني

بنصب (الناس) ، فقام الفقيه وقال : هٰذا عاميٌّ ، ولم يلتفت للشيخ ، فلقيه الشيخُ بعد شهر وقال : (يظنُّ الناسُ بي خيراً) بضم السِّين من (الناس) فقبَّل العالمُ يدَ

الشيخ وقال : أنا أقولُ : أستغفرُ الله ، فقال الشيخ : من أبعدَتْهُ نصبة ، وردَّته رفعة لا يصلحُ لصحبة الفقراء .

وأخبرني الشيخ شمس الدين البوصيري قال : لما حضرتِ الشيخَ الوفاةُ أرسل إلىٰ شيخ الإسلام الحنفي وجماعة ، وقال : اشهدوا عليَّ : أنني لم آذنْ لأحد بعدي أن يجلس للسلوك ، وما منهم أحد ذاقَ مذاقَ القوم ، وتبرَّأ منهم ، فبرز بعده شخص يُسمَّى الشيخ عليَّ المسلميَّ ، وقال : من جاءني باعتقاد أوصلته إلى الله تعالىٰ في ثلاثة أيام ، فأخبرتُ بذلك الشيخ شمسَ الدين المذكور ، فأتاه إلىٰ جامع الأزهر وقال : أنت الذي تقول إنك تُوصلُ الناسَ إلىٰ حضرة الله في ثلاثة أيام ؟ فقال : نعم ، فقال : اللهم ؛ إن كان كاذباً فاقصمْه عاجلاً ، فمات بعد يومٍ ، هـٰذا أمر وقع بحضرتي .

مات الشيخ أبو السعود رضي الله عنه سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بكوم الجارح خارج مصر العتيق ، في السرداب الذي كان ينزله يتعبَّدُ فيه ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٤٠٠) شيخنا الإمام الكامل ، العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد المنير رضي الله عنه[1]

أحدُ أصحاب سيدي الشيخ إبراهيم المتبولي والشيخ كمال الدين بن إمام الكاملية بمصر المحروسة .

وبلغنا : أنه كان يأتي كلَّ يوم من المكان الذي هو فيه اليوم مدفونٌ إلى الكاملية ، فيحضر درسَ الشيخ ، ويرجع ينام في موضعه لأجل السقاية مدة ثلاث سنين ، وذلك قريباً من مرحلتين ذهاباً وإياباً .

وأخبرني ولدُهُ سيدي عليٌّ نفع الله به : أن سببَ إقامة الشيخ في الجبل في هـٰذا المكان أنه كان مُقيماً في بِلْبِيس ، فأخبروه أن امرأةً عطشت في هـٰذا المكان ومعها

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٧٠) (٣٥٦) .

ولدُها ، فمات من العطش ، فقال : أروني ذلك المكان ، فأروه له ، فحفر فيه بئراً ، وجلس يسقي عليها ، وبنىٰ له قريباً منها خُصّاً ، ونقل زوجتَهُ فيه ، وصار سنين بائتاً صابحاً هو وزوجته حتى اجتمع به بعضُ الفقراء ، فعمروا حوله بعضَ دويرات ، حتىٰ صارت قريةً .

وكان يحجُّ كلَّ سنة ويقدِّسُ بعد أن يصل إلىٰ مصر[1] ، ويقيم شهراً .

وسمعته يقول بجامع الأزهر : (لي سبعٌ وستون حجة متوالية) .

وكان يعتكف رمضان كلَّ سنة في جامع الأزهر ، يختمون حوله كلَّ يوم ختماً ، ويحصل علىٰ يديه برٌّ كثير للفقراء ، وصدقات وخيرات .

وبلغني : أنه مكث في بداية أمره ثلاثين سنة يقرأ في النهار ختماً ، وفي الليل ختماً .

وكان يكره الكلامَ في الطريق من غير سلوك ولا عمل ، ويقول : هـٰذا كلُّهُ بطالة .

وكانت عمامتُهُ صوفاً أبيض ، وله شعرةٌ بيضاء ، وكان يلبسُ البشتَ المخطَّط بالأحمر ، ويقول : أنا رجلٌ أحمدي .

اجتمعت به أكثرَ من ألف مرة ، وحججت معه الحجة الأولىٰ سنة خمس عشرة وتسع مئة . وكان إذا حجَّ يحجُّ على التجريد .

وكان لا يركب إلا نادراً ، وكان يحمل الإداوة علىٰ كتفه إذا مشىٰ يسقي منها العطشان .

وبلغني : أنه كان لا يأكل في مكة والمدينة إلا نحو تمرات ؛ خوفاً من أن يحتاج إلى البراز في تلك الأماكن .

وكان رضي الله عنه لا يحلقُ شعر رأسه إلا في نُسكٍ .

---

(١) يقدس : أي : يزور بيت المقدس ، وروى البزار في « مسنده » (٤١٤٢) في فضل زيادته ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فضل الصلاة في المسجد الحرام علىٰ غيره مئة ألف صلاة ، وفي مسجدي ألف صلاة ، وفي مسجد بيت المقدس خمس مئة صلاة » .

وكان عليه القبولُ التام من الخاصّ والعام .

وكان يحمل لأهل مكة والمدينة كلَّ سنة غالبَ ما يحتاج إليه الفقراء ؛ من الزاد والثياب والسكر والصابون والخيط والإبر ، لكل فقير أو فقيرة عنده نصيب ، وكان فقراءُ مكة والمدينة يخرجون يتلقَّونه من نحو مرحلة .

وأخبرني الشيخ محمد بن قفيفيني أحدُ أصحاب سيدي محمد المغربي رحمه الله قال : هرب جمَّالي وأنا مسافر الحجاز في الأزلم[١] ، فمرَّ عليَّ الشيخُ وأنا لا أعرفُهُ ولا يعرفني ، فقال : ما لك ؟ قلت له : هربَ الجمَّال ، فأعطاني خمس مئة دينار ، فلما وصلتُ إلىٰ مكة ذهبتُ بها إليه ، فأبىٰ أن يقبلها وقال : ما أعطيتها إلا لله .

وكان يحمل الفقراءَ إذا انقطعوا علىٰ جماله ، ويمشي هو ، رضي الله عنه .

وأخبرني سيدي على الخوَّاص : أن الشيخ كان سريعَ العطب لمن ينكر عليه ، وما آذاه أحدٌ إلا قصمه الله من غير دعاء عليه .

قال : وهو الذي قتل الشيخ محمد بن عراق ، فقلت : وما ذاك ؟! فقال : كان سيدي محمد يُنكر عليه قبوله الصدقات للفقراء من الأمراء ويقول : هـٰذا يحملُ للفقراء الشبهات ، فبلغ ذلك الشيخ محمد ، فمضىٰ إليه ، وكشف رأسَهُ ، وأخذ عمامته ، وجعلها تحت إبطه ، ووقف علىٰ خلوة ابن عراق وقال قولوا : محمد المنير يريدُ الاجتماع ، فلم يخرج إليه ابنُ عراق ، فرجع الشيخُ محمد ، فاشتكاه للنبي صلى الله عليه وسلم ، فمرض من ذلك الوقت ، فمات بعد عشرين يوماً .

قال سيدي عليٌّ : وكانت هـٰذه عادة الشيخ محمد ، ما كشفَ رأسَهُ لأحد إلا وقتلَهُ الله تعالىٰ بسببه .

وبلغنا : أنه كان يحفظ كتاب « الروضة »[٢] علىٰ ظهر قلب .

---

(١) **الأزلم** : أحد مناهل الحاج المصري ؛ سمي به لأنه لا ينبت به نبات . « تاج العروس » (ز ل م) .

(٢) في (أ ، ز ، ط) : (أنه كان يحفظ كتاب الله) ، وكتاب « روضة الطالبين وعمدة المفتين » للإمام النووي رحمه الله تعالىٰ .

ولما حضرته الوفاة سافرتُ إليه من مصر في أيام الشتاء القصار علىٰ حمار أعرج ، فوصلتُ زاويته ضحوةَ النهار ، فأقمت عنده إلى الظهر ، ورجعتُ إلىٰ مصر قبل المغرب ، وكان ذلك من كرامته ، وسافر أخي أبو العباس من باب النصر ، فما وصل إلىٰ آخر النهار ، وما رجعَ إلا بعد يومين .

ولما دخلتُ عليه أخبروني : أن له ثلاثة أيام لم يتكلم ، فكلَّمني ، ودعا لي : بأن الله يسترني بين يديه ، وقال : كلَّفتَ خاطرك يا ولدي من مصر إلىٰ هنا .

ثم إنه توفي ليلة رجوعي إلىٰ مصر ، وذلك في سنة إحدىٰ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاويته ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، وعلىٰ مكانه الواردون كثير ، وجعل الله في ذرِّيته البركةَ ، لا يخلو موضعهم من فقير يكون ضيفاً فيؤون كل من ورد[1] ، ويطعمونه ، ويدفئونه أيام الشتاء ، وهي من أكثر الزوايا نفعاً ؛ لأنها على الدَّربِ السلطاني ؛ كلُّ من سافر إلىٰ غزة ، أو القدس ، أو الشام ، أو رجع إلىٰ مصر . فلا بد أن يأكلَ في الغالب من سماط الشيخ ، ويشرب من زاويته من الأمراء فمَنْ دونهم .

وبلغني من بعض الأولياء : أن الشيخ وضع فيها اللقمةَ للفقراء ، وقال : ما دامتِ اللقمةُ في هٰذه الزاوية ، فالبلاء الجائي من الشرق مدفوع عن أهل مصر ، فإذا فرغ الطعام جاء البلاء إلىٰ مصر ، وهٰكذا كان يقول سيدي إبراهيم المتبولي عن زاويته في بركة الحاج كما ذكرناه في مناقبه[2]

وبلغني أيضاً : أن سيدي محمد المنير لما وقفَ عليه ملكُ الأمراء خاير بك الرزقةَ المعدة للسماط ، رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقال له : يا محمد ؛ لا يسعىٰ أحدٌ في إخراج هٰذه الرزقة عن زاويتك إلا أهلكه الله تعالىٰ .

ومناقبه كثيرة رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) في (أ ، ط) : (فيروون) بدل (فيؤون) .
(٢) تقدم (٤/ ٨٩) .

ومنهم :

(٤٠١) الشيخ الصالح العابد الزاهدُ الشيخ أبو بكر الحديدي رضي الله تعالىٰ عنه[(١)]

كان رفيقَ الشيخ محمد المنير في الحج كلَّ سنة مدَّةَ أربعين سنة .

وكان من أكرم الناس وأحسنِهم خُلُقاً ، وأشدِّهم ملازمةً للسنة .

وكان في رأسه مقصّاً يحمله دائماً لمن يرىٰ شاربَهُ طويلاً فيقصُّه .

وكان إذا دعىٰ أحداً إلىٰ طعامه ولم يُجبه يصيرُ يتدخَّل عليه وهو مكشوفُ الرأس ، وعمامته في يده حتىٰ يجيبه .

وكان يفعلُ ذلك مع كل مركب مرَّتْ علىٰ زاويته في البحر الصغير ، فلا يزال مكشوفَ الرأس حتىٰ تجيء المركبُ إلى البر ، فيأتيهم بالخبز والأدم .

وكان من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد بن مصلح المنزلاوي أبي الشيخ عبد الحليم .

وكان من طريقته سؤالُ الناس للفقراء سفراً وحضراً في طريق الحاجِّ وغيره .

وكان يحملُ لأهل مكة الثيابَ والقماش والسكر والصابون ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه .

وهو الذي أشارَ عليَّ بلبس الجُبب السُّود والحمر ، وقال : لا تقطعْ لبسَهما أبداً ، وذلك بحضرة سيدي محمد بن عنان ، والشيخ محمد بن داود ، والشيخ محمد العدل الطناحي .

وكان به أسر البول[(٢)] ، فكان يصيحُ كما تصيح النفساء لمَّا يبول .

وكان يَغِير على السُّنة المحمدية ، ولا يسامح أحداً في ترك شيء من آدابها ولو علتْ رتبتُهُ .

وقد رأىٰ مرةً الشيخَ محمد العدل يجسُّ بطنَ امرأةٍ أجنبية ليرقيها من المرض الذي

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٧٢) (٣٥٧) .

(٢) في (هـ ، و ، ز ، ي) : (حصر) بدل (أسر) ، وكلاهما بمعنىً .

بها ، فصاح عليه : وا ديناه ؛ وا محمداه ؛ الله أكبر عليك يا عدل ، فقال : يا شيخ أبا بكر ، واللهِ ؛ ما حصل عندي لذةٌ بذلك ، فقال له : هل أنت معصوم ؟! فقال : لا ، فقال : قفْ عند الحدود .

وكان رضي الله عنه إذا دخل سوقاً يصير يسأل من الحوانيت يميناً وشمالاً : مَنْ عنده شيءٌ لله ؟ فما كان يطلعُ من السوق إلا بدراهم لها جرم ، ثم يشتري بما تحصل الخبز والإدام ، ويحمِّله لشخص معه ، ويصيرُ يفرِّقُ علىٰ كل محتاج ويقول : أخذنا من الناس ما ينفعهم في آخرتهم ، ومنعناهم من البخل .

وكان رضي الله عنه الغالبُ عليه البسطَ والانشراحَ ، حتىٰ كان الشيخ محمد بن عنان إذا وردَ عليه قبضٌ لا يستطيع أحدٌ أن يُكلِّمَهُ ، فيأتي الشيخ أبو بكر ، فبمجرد ما يراه الشيخ محمد يتبسم وينشرح .

ومناقبه كثيرة مشهورة في البحر الصغير ، وفي مكة والمدينة ، وغيرها .

توفي رضي الله عنه بالمدينة النبوية سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن بالبقيع ، وقبره ظاهرٌ مشهور ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٠٢) شيخُنا وقدوتُنا إلى الله تعالى
الشيخُ محمد الشناوي الأحمدي المحمدي رضي الله عنه[١]

كان من السُّنة المطهَّرة علىٰ جانب عظيم .

وكان من أهل الإنصاف والأدب مع الناس على اختلاف طبقاتهم ، لا سيما أولاد الفقراء ، وما رأتْ عيني أكثرَ تعظيماً لأولاد الفقراء منه .

وأخبرني شيخنا أمين الدين إمامُ جامع الغمري بالقاهرة ، قال : سمعتُ الشيخ أبا العباس الغمري يقول : (يموت الأدب في أولاد الفقراء بعد محمد الشناوي) .

وكان رضي الله عنه يعظِّمُ الشيخ محمد علىٰ شيخه السروي ، ومصداقُ ذلك : أنه

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٧٤) (٣٥٨) .

كان يتلقَّاه من باب الجامع إذا جاء ولا يتلقَّىٰ شيخه المذكور . انتهىٰ .

وسمعتُ شيخَنا رضي الله عنه يقول : (ما دخلتُ قطُّ علىٰ فقير إلا وأرىٰ نفسي دونه ، وما فتحتُ قط كلاماً في الطريق من غير سؤال ، وما دخلتُ علىٰ فقير قط أو عالم إلا وخرجتُ بفائدة ، ومن كان كذلك فلا تُحصىٰ أشياخه) .

وكان يقول : (ما ادَّعىٰ أحدٌ قطُّ مقاماً دون النبوة وكذَّبتُهُ ؛ لأن غايتَه أنه ادَّعىٰ مُمكناً) .

وسمعته رضي الله عنه يقول : (ينبغي للفقير : ألا يطلبَ الظهورَ في هـٰذه الدار عند الأمراء أو الملوك ، إلا إن كان يقدرُ علىٰ إظهار كرامة تدلُّ علىٰ صدقه ، وإلا فالستر له أولىٰ) .

قال : ولما ظهر أمري في الغربية ، وكثرتْ شفاعاتي عند الأمير حسام الدين بن بغداد . ردَّ شفاعتي مرةً وقال : هل أنت متميِّزٌ عنَّا ؟! بماذا ؟! إن كنتَ تُصلي في الليل وتذكر الله وتصومُ فنحن نفعلُ ذلك ! فلم أجد له جواباً ، فتوجَّهت إلىٰ سيدي أحمد البدوي ، فقال : بيِّن لك أثراً في ولده سلام أخي حجازي ، فتوجَّهتُ إلى الله تعالىٰ في ذلك ، فلحقه شيءٌ في قلبه ، فخرجتُ من عنده ، فوقع الصياح عليه من النساء ، فأرسلوا خلفي خيلاً يترضَّونَ خاطري ، فرجعتُ ، فرقيتُهُ في ماء ، وصببته عليه ، فشفي في الحال ، فقبَّل الأميرُ حسام الدين يدي ، ثم لم يردَّ لي شفاعةً بعد ذلك اليوم . انتهىٰ .

وسمعته مرةً أخرىٰ يقول : (من علامة ذوق الفقير للطريق : ألا يزدري أحداً ممن انتسب إليها ، بل يجلُّه ويكرمه كما يجلُّ أكبرَ الأمراء) .

وكان يقول : (رأىٰ سيدي عبد الرحيم القِناوي مرةً خرقةَ صوفٍ في عنق كلب ، فقام للكلب ؛ إجلالاً للخرقة الصوف) .

وكان رضي الله عنه قد أقامه اللهُ تعالىٰ في قضاء حوائج الناس ليلاً ونهاراً ، وربما يمكث نحوَ الشهر وهو ينظر إلىٰ بلده ، لا يتمكَّنُ من الطلوع لها ؛ لكثرة الخلق المكبين عليه السائلين له أن يدخل دارهم ليتبرَّكوا به .

وكان أهل بلاد الغربية لا يزوِّجُ أحدٌ ولده إلا بحضوره ، ولا يختن إلا بحضوره .

وكان يلقِّنُ الرجالَ والنساء والأطفال كلمةَ : (لا إلـٰه إلا الله) في أي بلد طلعه .

وكان يرتِّبُ مجالس الذكر للرجال والنساء صباحاً ومساءً ، ويقول : يا فلان ؛ اذكرْ بإخوانك ، يا فلانة ؛ اذكري بجاراتك ، فجميعُ مجالس الذكر التي ببلاد الغربية الآن ترتيبه ، رضي الله عنه .

وسمعتُهُ يقول مرَّةً : (أشعلنا في هـٰذه البلاد نارَ التوحيد ، فلا تنطفئ إن شاء الله إلىٰ يوم القيامة) .

وهو الذي سعىٰ في إبطال سخرة الشعير التي كانت في بلاد ابن يوسف ، ونقشَ بذلك حجارةً ، ووضعها في كراسي البلاد ، وكان يموتُ في تلك السخرة خلقٌ كثيرٌ من الجوع والعطش ، وتنقطعُ الطرقات حتىٰ يفرغَ قلعُ الشعير ، وعزم على السفر إلىٰ إستنبول بسبب ذلك في ليلة من الليالي ، فجاءه سيدي أحمد البدوي ، فقال : يا محمد ؛ لا نحوجُكَ إلى السفر ؛ فإن جميعَ أولياء الغربية معك .

ولما توقف العرض من مصر إلى السلطان ابن عثمان بسبب ذلك قال الشيخ : إن شاء الله يرسل اللهُ للسلطان من يسأله في ذلك ، ففي تلك الليلة رأى السلطان الشيخ محمد الشناوي علىٰ حمارته في ديوان إستنبول وهو يقول : يا مولانا السلطان ؛ أرسلْ مرسوماً إلىٰ مصر بإبطال سخرة الشعير التي في بلاد السباخ ، فأرسل السلطان مرسوماً بذلك من ذات نفسه من غير أن يصلَ له عرضٌ من مصر بذلك ؛ ببركة همَّته ، رضي الله عنه .

وكانت أموالُه كلُّها من بهائم وحبوب وغيرها كلُّها على اسم المحاويج ، لا يتخصص منها بشيء .

وكان لا يقبلُ شيئاً من هدايا العمال والمباشرين وأرباب الدولة ، ويقول : (من شرط الداعي إلى الله أن يُطعمَ الناسَ ولا يُطعمونه) .

وأهدىٰ له نائبُ مصر قاسم كزل أصوافاً وشاشاتٍ وذهباً وفضة ، فردَّ ذلك ، وقال للقاصد : لسنا محتاجين إلىٰ مثل ذلك ، ثم التفتَ إلى الحاضرين وقال : وعزَّةِ ربي ؛

إنْ عندي من جلَّة بهائمي أكثر من هـٰذه الهدية لو بعته[١]

وكان رضي الله عنه لم يزل في مقاعده جبائر القطن ملصوقة من كثرة ركوبه في حوائج الناس ليلاً ونهاراً .

وما رأت عيني في أشياخِ العصر أحداً أوسعَ خُلقاً منه ، ولا أكرم نفساً .

وكان يقول : (الطريقُ كلُّها أخلاق ، لا أقوال ودعاوىٰ) .

وكان إذا جلسَ إليه أبعدُ الناس عنه لا يقوم من مجلسه حتىٰ يعتقدَ أنه ليس عند الشيخ أحدٌ أعز منه ؛ لحسن لفظه ، وكثرة إقباله علىٰ جليسه .

ودخل مرةً القصر لبنت الخليفة زوجة ابن خاص بك ، فلقَّنها الذكرَ ، ولقَّنَ جوارها وخدمَها ، وفتح بهن مجلس الذكر ، فذكرن حتىٰ وقعتْ عصائبُهنَّ من كثرة الاضطراب في الذكر ، فلما نزل قال : الحمد لله الذي لم يحضرنا أحدٌ من المنكرين علىٰ هـٰذه الطائفة .

وكان أكثرُ تربيته بالنظر دون الكلام ، فينظرُ إلىٰ قاطع الطريق وهو مارٌّ عليه ، فيتبعه في الحال ، لا يستطيعُ أن يردَّ نفسَهُ عن الشيخ ، ورأيتُ منهم جماعةً صاروا من أعيان جماعته .

وكان رضي الله عنه وقتُهُ عامراً ليلاً ونهاراً بالذكر وتلاوة القرآن .

وكان إذا افتتحَ المجلس بالفقراء بُعيد العشاء لا يختمُهُ في الغالب إلا مع الفجر ، فإذا صلّى الفجرَ افتتحه إلىٰ ضحوة النهار ، ثم افتتحَ القرآن إلى العشاء ، هـٰكذا كان في أغلب أحواله .

وأخبرني الشيخ شمس الدين السنجيدي من خواصِّ أصحابه قال : كنَّا إذا زرنا الشيخَ محمداً في ابتداء أمره في بلده الحصَّة لا نرجعُ إلا مرضىٰ من السهر ؛ فإننا كنا نمكث عنده اليومين أو الثلاثة أو الأربعة ، لا يمكننا النوم بحضرته لا ليلاً ولا نهاراً ، فكان إذا ختمَ القرآن افتتح بالذكر ، وإذا فرغ من الذكر افتتحَ بالقرآن ، ولم يزل ذلك دأبه إلىٰ أن مات .

وكان رضي الله عنه له مقامٌ عظيم عند سيدي أحمد البدوي ، كأنه ولدُهُ لصلبه ،

---

(١) **الجلَّةُ** : بفتح الجيم وكسرها : البعر والروث .

وسمعتُهُ مرةً يشاور سيدي أحمد البدوي علىٰ حاجة في مصر ، فقال له الشيخ من داخل القبر : سافر وتوكَّلْ على الله .

وهو الذي أبطلَ الفواحشَ والبدع التي كانت بالغربية ، وهو الذي رتَّبَ طلوع إشارة بيتهم بالذكر من ملقة قحافة إلىٰ أن يدخلوا قبّة سيدي أحمد البدوي ، وكانت إشارة الشناوية قبله إذا طلعوا المولدَ ينهبون أمتعة الناس ، ويحصل بذلك مفاسدُ كثيرةٌ ، فأعلمهم بأن ذلك حرام ، وكانوا يعتقدون أن كلَّ شيء أخذوه من الغربية حلالٌ ، ويقولون : هـٰذه بلاد سيدي أحمد ، ونحن فقراؤه .

وكانوا يطلعون المولد بالدُّفِّ والمزمار ، وحمل المحاريث وفروع النبق والسنط ، ويجتمع عليهم عياق كثيرون ، فما يطلعُ الآن من الأشائر إشارةٌ أكثر خشوعاً ولا ذكراً من إشارته ، رضي الله عنه ، وهي ختامُ الأشائر يحصل فيها بكاءٌ ورقَّة ، كل ذلك ببركته .

وكان رضي الله عنه إذا أَذِنَ لفقير في تلقين الذكر يأخذ يدَهُ ، ثم ينشد هـٰذا البيت : [من الطويل]

أهيمُ بليلىٰ ما حَييتُ فإنْ أَمتْ أُوَكِّلْ بليلىٰ منْ يهيمُ بها بعدي

ولما دنت وفاتُهُ أذن لجماعة بتلقين الذكر علىٰ سبيل التشبه بالقوم ؛ منهم : الشيخ عبد الرحمـٰن المناوي ، ومنهم : الشيخ شهاب الدين السُّبْكي ، ومنهم : الشيخ أبو العباس الحُريثي ، ومنهم : الشيخ تاج الدين السقطي ، ومنهم : الشيخ عبد القادر الشيرازي ، ومنهم : الفقير عبد الوهاب الشعراوي مؤلف هـٰذا الكتاب ، وقال لنا : الطريقُ في كلِّ قطر لواحد ، فإنِ اتسعتْ دائرةُ أحد منكم فليترك له أخوه بلاده ، وكان ذلك في ربيع الأول سنة [اثنتين] وثلاثين وتسع مئة[1] ، وفيها مات رضي الله عنه ودفن بزاويته بمحلة روح ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، وزاويته معمورةٌ بالفقراء والمجاورين ، وسِماطه موضوعٌ صباحاً ومساءً للمجاورين والمتردِّدين .

ولما زار قبر شيخه أبي الحمائل بمصر ودَّعتُهُ وقبّلتُ يده ، وكان ضعيفاً ، فقال لي : ليس هـٰذا آخر الاجتماع ، لا بد من الاجتماع مرةً أخرىٰ ، فلما حضرته الوفاة وأنا

---

(١) في النسخ : (اثنين) .

لا أشعرُ وردَ عليَّ واردٌ أن أذهبَ إلىٰ محلة روح ، ولم أستطع أردُّ نفسي عن ذلك الخاطر ، فسافرتُ إليه من غير حاجة أعرفها ، ونسيتُ قوله : (لا بد من الاجتماع) فلما دخلتُ عليه وجدتُهُ مُحتضراً ، ففتح عينيه وقال : الحمد لله ، صدَّقَ اللهُ القول ، ثم دعا لي بدعواتٍ ؛ منها : اللهم ؛ إني أسألك ألا تخلِّي ولدي هـٰذا من نظرك ولا من رعايتك طرفةَ عين ، وأن تسترَهُ بين يديك في الدنيا والآخرة ، ثم قال لي : ارجع إلىٰ مصر ، ففارقتُهُ ، وتوفي تلك الليلة ، ودفن في غفلة من الناس ؛ خوفاً أن يجتمع عليه أهلُ الغربية كاملاً ، فيعجز أهلُ بلده عن قِراهم ؛ فإنه لا يكادُ أحدٌ منهم يتخلَّفَ عن حضور دفنه .

وقد اقتتل الناسُ علىٰ نعشه من شدَّة الوجد الذي حصل لهم عليه ، وذهلت عقول بعض أصحابه ؛ لعظم المصيبة به ؛ لكونه كان معدّاً لتفريج كربهم ، وساعٍ في إرشادهم لمصالح دنياهم وآخرتهم .

وكان كالشمس في بلاد الغربية ، وما رأت عيني كثرةَ الإقبال علىٰ أحد من مشايخ العصر بالصدق والمحبة الخالصة مثله ، رضي الله عنه .

كان لا يتفعل قط في استجلاب أحد إلىٰ صحبته ، بل كان الناس يحضرون إليه قهراً علىٰ نفوسهم ، لا يستطيعون ردَّها عنه .

ومناقبه كثيرةٌ مشهورة في بلاده رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٠٣) الشيخ الصالحُ ، كهفُ الفقراء والمساكين ، والمرضىٰ والمنقطعين عبد الحليم بن مصلح المنزلاوي رضي الله عنه[1]

كان رضي الله عنه علىٰ جانب عظيم من الأخلاق المحمدية ، وكان كثير التواضع والحطِّ علىٰ نفسه في كل فعل ناقص .

وجاءه مرةً شخصٌ يطلب الطريق إلى الله تعالىٰ ، فقال : يا سيدي ؛ خذ عليَّ العهدَ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٧٨) (٣٥٩) .

بالتوبة ، فقال : يا أخي ؛ والله ؛ أنا إلى الآن ما تبتُ ، والنجاسةُ لا تُطهِّرُ غيرها .

وأتاه مرةً إنسانٌ بجبَّة صوف ، فقال : يا سيدي ؛ اقبلْ مني هـٰذه الجبة ؛ لأني رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها هـٰذه الليلة ، وقبَّلني علىٰ صدري فيها ، فأبىٰ أن يقبلها وقال : لا أقدرُ ألبسُ شيئاً مسَّهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ خوفاً أن يقعَ مني معصيةٌ وأنا لابسها ، فأُخطئ طريقَ الأدب معه صلى الله عليه وسلم ، ولـٰكنْ نتبرك بها من غير لبس ، فمسح بيده عليها ، ومسح علىٰ وجهه ، رضي الله عنه .

وكان إذا رأىٰ عند أحد من الفقراء دعوىٰ يُسارقُه بالأدب من طريق خفية[1] ، وذلك أنه يقرأُ عليه شيئاً من آداب القوم التي يرىٰ ذلك المدعي عارياً عنها ، ثم يصير يسأله عنها ، ويعطف له بذكر معانيها ، فيعلِّمُ ذلك المُدَّعي ، ولا يلحق بذلك أحدٌ من الحاضرين ، ولا ذلك المدَّعي .

وكثيراً ما رأيتُهُ يتلقَّنُ الذكر علىٰ ذلك المدَّعي ، ويصير يسألُهُ عن تلك الأخلاق التي يرىٰ ذلك المدعي عارياً عنها ، ويقول : يا سيدي ؛ بي من الأمراض الباطنة كذا وكذا ، ومقصودي التوبة منها ومعرفة الطريق التي توصلني إلى التوبة ، فإذا تاب من تلك الرذائل ، وأراد مفارقتَهُ أحسنَ إليه بالأكل والكسوة والدراهم ، وغيرها .

وكان رضي الله عنه في بداية أمره فقيهاً ، يُقرئُ الأطفال ، ولا يأخذ لهم خميساً ، ولا يأكلُ لهم طعاماً ، ولا يقبلُ من أحد شيئاً ، فاشتَهر بالصلاح في بلاد المنزلة ، فلقيه شخصٌ من أرباب الأحوال اسمه العبيدي ، فقال : يا عبد الحليم ؛ لا تكونُ صالحاً إلا إن صرتَ تُنفقُ من الغيب ، ثم قال : اطلبْ مني شيئاً آتيك به ، فقال : ما أنا محتاجُ إلىٰ شيء ، فمدَّ العبيديُّ يدَهُ في الهواء ، فأتىٰ بدينار ، فأثَّرتْ تلك الكلمة في الشيخ عبد الحليم ، فأخذ في الاجتهاد ، فمكث سنةً كاملةً يصومُ النهار ويقرأُ ختماً في النهار وختماً في الليل ، فجاءه العبيدي وقال : الآن صحَّ لك اسمُ الصلاح ، فمُدَّ يدك هاتِ لي ديناراً ، فمدَّ يده في الهواء فأتاه بدينار ، ففارقه ، واشتهر الشيخ عبدُ الحليم بعد ذلك شهرةً عظيمة .

---

(١) يسارقه : أي : يؤدبه بطريقة غير مباشرة ، تلميحاً لا تصريحاً .

وعمَّرَ عدَّةَ جوامع في المنزلة وغيرها ، وأوقف على شعائرها الأوقاف ، وله في جامع المنزلة سماطٌ عظيم لكلِّ وارد ، وبنى مارستان للضعفاء قريباً من الجامع .

وكان الإنسانُ إذا رآه لا يَمَلُّ منه ، ولا يكاد يقدر يفارقه ، بل يجذبُ قلبَهُ جذبَ المغناطيس للحديد .

وكانتْ نفقتُهُ واسعةً من غير أن يكون له معلومٌ ظاهر .

وأقمتُ عنده نحواً من سبعةٍ وخمسين يوماً ، فما رأيتُ أحداً سأله شيئاً من النفقة إلا ويُخرجُ له ما طلب من كيس صغير في رأسه نحو ثلاث عقد أصابع .

ولمَّا سافرتُ معه إلى دمياط أنفق منه بحضرتي نحواً من خمسين ديناراً .

وأخبرني الشيخ يوسف البشلاوي : أن الشيخ عبد الحليم دخل ضيفاً عند شخص هو والشيخ أبو بكر الحديدي ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ محمد بن داود ، وكان في الدار امرأةٌ قد عميت من منذ سنة ، فأخذ الشيخُ شيئاً من الماء ، ورقاه هو والجماعة ، ثم نضحوه على وجهها ، فأبصرت في الحال ، ولم تزلْ بصيرة حتى ماتت ، رضي الله عنهم .

وكان الشيخ عبد الحليم لا يسألُهُ فقيرٌ شيئاً قطُّ من ملبوسه إلا نزعه له في الحال ، فإذا قال له : إنما قصدتُ امتحانك ، وليس لي به حاجة ، يُلبسُهُ لمن يراه عنده ، ولا يعود يلبسه .

وسأله مرةً فقيرٌ وهو خارج لصلاة الجمعة جميعَ ثيابه التي عليه ، فخلعها له ، وصلى الجمعة بفوطة في وسطه ، ولم يرجع إلى البيت ليلبس غير ذلك .

وكان لا يُخصِّص نفسه بشيء من الهدايا الواصلة إليه ؛ بل يؤثر الفقراءَ بذلك ، أو يشاركُهم فيه أسوة واحد منهم .

واجتمع عنده في سنة الغلاء في الزاوية أكثرُ من مئة نفس ، فأقاموا عنده سنةً كاملة على اشتغالٍ كثير بالعلم والذكر والقرآن ، حتى إن بعض الناس تراهنوا على أنهم يجدوا الزاويةَ ساكنةً في ليل أو نهار ، فلم يجدوا .

وكان لا يبخل على المجاورين بشيء يحتاجون إليه ، بل يُطعمهم ويَكسوهم ويعمِّرُ

لهم قباقيبهم ، ويخصفُ لهم نعالاتهم ، ويشيلُ القذرَ من تحت مرضاهم ، ويغسل لهم ثيابهم ، ويملأُ لهم ماءَ طهارتهم حتىٰ يحصلَ لهم الشفاء .

ولما جاء إلىٰ مصر قلتُ له : أيشٍ حالُكم اليومَ مع الفقراء ؟ فقال : تعسَّرتْ عليهم تلك الأمور ، وما بقوا يجدون لقمةً ، فقلت له : لماذا ؟ فقال : وقف علينا بعضُ الأكابر بعضَ رزق ، فمالوا بقلوبهم إلىٰ ذلك الوقف ، فنزع اللهُ البركةَ من رزقهم ، قال : وقد نصحتُهم ، وقلتُ لهم : ردُّوا ذلك الوقف علىٰ أصحابه ، ودوموا علىٰ توجُّهكم إلى الله تعالىٰ تدرَّ البركةَ عليكم ، فلم يسهل عليهم ذلك ، فهم الآن في أضيق العيش ، وكَثُرَ تنازعهم في الدنيا ، وقلَّ اشتغالهم بالله ، وصاروا ليلاً ونهاراً ما شغلهم إلا الخراج ، الأكل الجابي ، الفلاح الفلاني . قال : وقد انتقلتُ عنهم من زاوية الخرابة ، وسكنت في المنزلة .

وكانت الألف دينار عنده كالبعرة ، لا يُتبع نفسَهُ شيئاً قط يعطيه لفقير ولا غيره .

وجاءه مرةً شخصٌ نصَّاب ، وقال : يا سيدي ؛ أنا من نواحي قطية[1] ، وعندنا بريةٌ قفرة معطشة ، ومقصودي أنك تساعدني علىٰ بناء بئر وحوض هناك للواردين ، فأخذ له من شيخ العرب رميح أربع مئة دينار ، وأعطاها له ، فغاب النصَّابُ نحو سنة ، وأتاه بأباريق ماء حلو من بحر أبي المنجا ، وقال : هـٰذا ماءُ البئر ، ففرح الشيخُ بذلك ، وصار يسقي الناسَ منه .

ثم إن شخصاً جاء من بلاد قطية ، فسأله الشيخُ عن البئر ، فقال : لم يكن هناك بئر ، فقال : إن فلاناً جاءني بأباريقَ من مائها ، وشربنا منه ، فقال : إن فلاناً نصاب ، تزوَّجَ بها عدَّة نساء ، فأرسلوا خلفه ، فاعترف بأنه نصاب ، وقد ضيَّع الفلوس ، فأراد جماعةُ الشيخ أن يحبسوه في المنزلة ، فقال الشيخ : أنا أحبسه عندي في هـٰذه الخلوة ، فأدخله الشيخُ الخلوةَ ، فلما تفرَّقَ الناس أتاه الشيخ بعد العشاء بجبنٍ مقليٍّ ، وعسل وخبز ، فقال : كلْ ، فأكل ، ثم أخرجه من الخلوة وقال : طريقٌ مباركة ، واحذر أن يراك أحدٌ من جماعتنا فيحبسك عند الحكام ، فخرج ، فلم يره أحدٌ ، فقالوا

---

(١) قطية : في الطريق بين مصر والشام ، بين القنطرة والعريش . « قاموس رمزي » .

له في ذلك ، فقال : والله ؛ لو كانت الدنيا كلُّها في يدي وسرقها إنسانٌ ما حبسته ولا أرعبته .

وكان رضي الله عنه يُحبُّني محبَّةً شديدة ، حتىٰ يصرِّح بذلك في مجلسه ، وقال : لا أحبُّ في مصر أحداً مثل فلان .

ومناقبه كثيرة مشهورة في بلاد المنزلة ودمياط ، رضي الله عنه

مات رضي الله عنه سنة نيِّف وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بمقبرة بلده الخرابة ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٠٤) الشيخ الإمامُ القدوة ، العالم الرباني ، سيدي عمر البجائي المغربي(١)

قدم رضي الله عنه إلىٰ مصر في دولة السلطان الغوري رحمه الله .

وكان له القبول التام عند الأكابر وغيرهم .

ولما أقام بجامع محمود أنشد فيه الشيخُ شمس الدين الدِّمياطي أبياتاً من جملتها : [من البسيط]

سألتني أيُّها المولىٰ مديحَ أبي ... حفصٍ وما جمعتْ أَوصافُهُ الغررُ

مكمَّلٌ في معانيهِ وصورتهِ ... كمالَ مَنْ لا بهِ نقصٌ ولا قصرُ

مطهَّرُ القلبِ لا غلٌّ يُدنِّسُهُ ... ولا لهُ قطُّ في غيرِ التُّقىٰ وَطَرُ

فَهَنِّ جامعَ محمودٍ بساكنهِ ... فإنهُ الآنَ محمودٌ ومُفتخرُ

وقلْ له فيكَ بحرٌ ما لغايتِهِ ... حدٌّ فيا لَكَ بحرٌ كلُّهُ دُرَرُ

وللقَرَافةِ عاداتٌ بمثلكَ إنْ ... تحلُّ فيها وأنتَ المنظرُ النضر

إلىٰ آخر ما قال .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٥) (٣٧٨) .

وكان كثيرَ الكشف ، يخبرُ بالوقائع الآتية في مستقبل الزمان للولاة وغيرهم ، فيقع كما أخبر .

وأخبر بزوال مملكة الجراكسة ، وقتالهم لابن عثمان ، وأن الدولةَ للسلطان سليم ، فكان كما قال .

ومرَّ على المعمار وهو يعمِّرُ القبة الزرقاء للغوري تجاه مدرسته ، فقال : ليس هـٰذا قبرَ الغوري ، فقالوا له : وأين قبره ؟ قال : يُقتل في المعركة ، فلا يُعرف له قبر ، وكان كما قال .

وكان وجهُهُ كأنه كوكبٌ دري من النور .

وكان شاباً طويلاً[1] ، جميلَ الصورة ، طيِّبَ الرائحة على الدوام ، حفظ « المدونة الكبرىٰ » للإمام مالك ، وسمع الحديث الكثير .

وكان صائمَ الدهر ، غالبُ قوته الزبيب .

ولم يكن علىٰ رأسه عمامة ، إنما كان له ملاءةٌ عريضة يطرحُها علىٰ رأسه وظهره ، وعليه جبّةٌ سوداء واسعة الأكمام علىٰ جسده من تحت الثياب .

وكان الشيخ محمد بن عنان يعظِّمُهُ ويُجلُّه ، ويذهب إلىٰ زيارته .

أقام بجامع آل ملك بالحسينية مدة ، ثم أقام بجامع محمود بالقَرَافة قريباً من سيدي عمر بن الفارض ، فانقلبت الأمراء والأكابر علىٰ زيارته هناك ، فغار بعضُ فقراء القَرافة منه ، فبلغه ذلك ، فانتقل إلىٰ قبّة الملك المنصور بين القصرين ، **فمكث بها إلىٰ أن مات ، وذلك في سنة تسع عشرة وتسع مئة** ، ودفن بالقَرافة في حوش عبد الله بن وهب بالقرب من قبر القاضي بكار ، وصلىٰ عليه جماهرُ العلماء والأكابر ، وكانت جنازتُهُ حافلةً .

صحبته نحو ثلاث سنين مدَّةَ إقامته بمصر ، ودعا لي دعوات وجدتُ بركتَها ، وأوصاني بألا أقبل ممن أشفع عنده هدية ، ولا آكل له طعاماً ، ولا أشفع عند الحكام إلا برسالة من غير المشي إلىٰ بيوتهم ، رضي الله عنه .

---

(١) في (ب ، ج ، د ، ز ، ك) : (طوالاً) .

ومنهم :

(٤٠٥) الشيخُ الصالح ، العالم القدوة ، مربي المريدين بالنظر سيدي عليٌّ الشرنوبي رضي الله تعالىٰ عنه[١]

أحدُ أصحاب الشيخ شعبان البلقطري الشاذلي .

كان رضي الله عنه الغالب عليه الاستغراق ، لا تكاد تراه إلا ماشياً ، ويلبس الثياب الفاخرة ، إذا رآه من لا يعرفه يعتقد أنه من القضاة .

وكان ينظم الموشحات الغريبة في معالم الطريق .

صحبته نحو عشر سنين ، وقال لي : أنا كيلانيٌّ زماني .

وكان كثيراً ما يحدِّثُ الناس بكراماته ، فيظنُّ مَنْ لا معرفةَ له به أنه مدعٍ ، وإنما كان الشيخُ يرىٰ ذلك من جملة النِّعم عليه ؛ لأن من عرفَ الله لا يبقىٰ عنده رياءٌ لأحد من الخلق .

وأخبرتني زوجته قالت : بينما نحن يوماً في جوف الليل ، وإذا بشخص نازل من الهواء في دور القاعة ، فأشار عليه الشيخ بيده ، فالتصق في الحائط ، فقال : التوبة ، فقال : ارجع وأتِ غداً من الباب ، قالت : فسألتُ الشيخَ عن ذلك : من هو من الأولياء ؟ فقال : هـٰذا الدشطوطي الشيخ عبد القادر .

ومكاشفاته كثيرة مشهورة عند أكابر الدولة بمصر .

مات رضي الله عنه سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بالقَرافة قريباً من الشيخ محمد المغربي الشاذلي رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٩) (٣٨٢) .

ومنهم :

(٤٠٦) الشيخ الصالح ، العالم العابد الزاهدُ ، صاحب الكشوفات والمعارف ، والعبادة الدائمة ليلاً ونهاراً سيدي أحمد الزواوي[١]

المدفون بدَمَنْهور الوحش بالبحيرة[٢]

صحبته مدَّةَ إقامته بمصر كلما جاء من بلده إليها ، وهو أخو الشيخ علي الشرنوبي في الطريق .

وكان وردُهُ رضي الله عنه في اليوم والليلة عشرين ألف تسبيحة ، وأربعين ألف صلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخبرني عن ذلك هو بلفظه .

وسمعته يقول : (طريقُنا : أن تشتغل بالصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ تصيرَ تجالسه على الكشف والشهود ، وتسأله عن أحكام ديننا ، وما لم يبلغِ الشخصُ عندنا هٰذه الدرجة فليس هو معدودٌ من أهل طريقنا ، فليس لنا شيخ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

ولما سافر الغوري إلىٰ قتال ابن عثمان جاء إلىٰ مصر ، فقال : جئتُ أردُّ السلطان ابن عثمان عن مصر ، فعارضه أولياء مصر ، فلحقته البطنُ ، فأشرف على الموت ، فقال : احملوني إلىٰ دمنهور ، فمات في الطريق ، وذلك سنة ثلاثٍ وعشرين وتسع مئة .

وهو من جملة من أخذ عليَّ العهدَ بكثرة الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٠) (٣٨٣) .

(٢) **دمنهور الوحش** : قرية كبيرة بين الإسكندرية ومصر .

ومنهم :

(٤٠٧) الشيخُ الصالح ، العالمُ الرباني ، الشيخ أحمد البهلول[1]

من إخوة الزواوي في الطريق على الشيخ شعبان .

وكان سيدي محمد بنُ عنان يزوره كثيراً ، ويجلُّه ويعظِّمه .

وكان رضي الله عنه جالساً في دكَّان في قنطرة باب الخرق بالقرب من جامع بطيخة ، فكان يجلس وعنده دواة وورقٌ ، فتأتي المرأةُ إليه فتقول : يا سيدي ؛ اشهدْ عليَّ أني غلَّقتُ نفقتي أو كسوتي من زوجي فلان ، فيكتبُ ذلك لها بجديد نقرة ، فإن أعطتْه المرأةُ أكثرَ من جديد لم يأخذه .

وكان له ابنتان جالستان عنده في الدكان طولَ النهار ببراقع ، أقرأهما القرآن العظيم ، وحفَّظَ كلَّ واحدة كتاباً في العلم ، واحدة مالكية وواحدة شافعية .

صحبته نحو سبعة أيام ومات ، فأولُ ما اجتمعت به قال لي : تشتغلُ في أي علم ؟ فقلت له : حفظتُ كتاب « الروض » مختصر « الروضة » إلىٰ باب القضاء على الغائب ، وحفظت قبله عدَّةَ كتب ؛ منها « المنهاج » للنووي ، فقال : ما معك دستور تحفظ شيئاً في « الروض » ، يكفيك كتاب « المنهاج » ؛ فإن صاحبَهُ من أولياء الله تعالىٰ ، فمن ذلك اليوم ما قدرتُ أحفظُ من « الروض » شيئاً ، فكابرتُهُ ، فحصل لي رمي دم من حصر نفسي في الحفظ ، فتركته .

وقال لي : وجهُك ما هو وجه قاضي حتىٰ تحفظ « الروض » .

ثم قال لي : هل تزوَّجتَ شيئاً ؟ فقلتُ : لا ، فقال : تزوَّجْ ، فقلت : ما معي شيء ، وأنا متجرِّدٌ ، فقال : تزوج ورزقُ الزوجة على الله تعالىٰ ، ثم دعا إنساناً مارّاً في الشارع ، فقال : تعال ، فجاء ، فقال : أتشهدُ أن الله تعالىٰ هو الرزاق وإلا العبد ؟ فقال : أشهد أن الله تعالىٰ هو الرزاق دون العبد ، فقال : اذهب ، ثم دعا آخر ثم آخر

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٠) (٣٨٤) .

ثم آخر وهم يشهدون أن الله تعالىٰ هو الرزاق ، فقال : قد شهدَ لك أربعُ شهود على الله تعالىٰ بأنه هو الرزاق ، وما بقي لك عذرٌ ، ثم سكتَ ساعةً ، وقال زوَّجتك زينبَ بنت الشيخ خليل القصبي ، وأعطيتك البيتَ ، وأقبضتُ عنك المهر ثلاثين ديناراً ، قل : قبلت ، فقلتُ له : قبلتُ ذلك ، فقال : الحمدُ لله ، ثم قرأ قوله تعالىٰ : ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران : ١٧٠] ثم قال : عجِّل بطبخ الحلو ، فلعلي آكل منه قبل موتي ؛ فإن أجلي قد قَرُبَ ، ففارقته .

فلما جلستُ في خلوتي في جامع الغمري إذا بشخص يدقُّ الباب ، فقلت : من هـٰذا ؟ فقال : خليل القصبي ، فقلت له : وما حاجتك ؟ فقال : افتح لي ، ففتحتُ له ، فقال : عندي ابنةٌ اسمها زينب بلغت ، وعندنا بيتٌ لها وحدها ، ومقصودي تأخذها ، وتجعلُ مهرها ثلاثين ديناراً ، فقلت له : أنا رجلٌ متجرِّدٌ ، فقال : أنا أشهدُ علىٰ نفسي أنني قبضتُها ، فبينما نحن كذلك إذ جاء شخصٌ من أصحابي ومعه ثلاثون ديناراً ، فأقبضها له ، فكتبنا كتابَها تلك الليلة ، وشرعنا في الطعام ثاني يوم ، وكان طعاماً واسعاً بسهولة ، فأرسلتُ للشيخ سطلاً من الحلو ، فأرسلَ يقول لي : لا بد من الاجتماع قبل الموت ، فعجِّل بالحضور ، فذهبتُ إليه ، فوجدتُهُ ضعيفاً ، فعاش بعد دخولي البيتَ ستة أيام ، وتوفي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ .

وكان أهلُ حارته قد طلبوا أن يدفنوه في جامع بطيخة ، فأبىٰ وقال : ادفنوني خارجَ باب القَرَافة من ناحية حارة عرب اليسار ، فعجز الناسُ أن يحرِّكوا تابوته إلىٰ جامع بطيخة ، فلم يقدروا ، فلما عزموا علىٰ بابِ القَرافة خفَّ عليهم ، فدفنوه في وسط الشارع علىٰ يسار الخارج من باب القرافة ، وأوصىٰ : ألا يُجعلَ علىٰ قبره بناءٌ ولا تابوت ، وقال : خلُّوا الدواب تمشي عليَّ ، وأريحوني من التعب ؛ فإني ما خرجتُ من دار التعب وفي عيني قطرة ، وإذا جعلتم عليَّ تابوتاً وشخاشيخ فكلُّ من دخل يخبط ذلك التابوت ، فلا يتركوني أستريح في قبري ، رضي الله عنه .

وقال لي لما رجعتُ إليه بعد أن زوَّجني ابنة الشيخ خليل : اعلم يا ولدي ؛ أن معي سند بتيسير الرزق ، أخذته عن الشيخ أبي الخير الكليباتي ، وقال لي : إذا ضاقَ عليك الرزق قمْ متوجِّهاً إلى الله تعالىٰ ، فكلُّ شيء طلبه العيال تجده عندك إذا استيقظت ،

فطالما أقوم من النوم فأجدُ السلة العنب ، أو البطيخ ، أو الخبز ، أو الثياب ، لا أدري من جاء بها من الخلق وقد خلعت عليك ذلك ، ولـٰكن أرجو من الله أن يتَّسعَ رزقك فوق ذلك ، ولا تحتاج إلىٰ توجُّهٍ .

ثم قال لي : أُوصيك إذا حدَّثك فقيرٌ بشيء فصدقه ؛ فإني رأيتك ذلك اليوم وأنا أقبض عنك ثلاثين ديناراً في الهواء ، تظنُّ أن ذلك بشارة لك لا حقيقة ؟ فقلت : نعم ، فقال : والله ؛ ما زوجتُكَها إلا بعد أن أطلعني الله تعالىٰ علىٰ جميع ما يتعلَّقُ بها ، وعلىٰ مدَّة إقامتها معك ، ولم يكن لي بها اجتماعٌ في الحسِّ ، ولا كنتُ أعرف أباها .

ثم قال : قد وقعَ لي نظيرُ ما قلته لك مع الشيخ أبي الخير الكليباتي ، وذلك أني قلتُ لشيخي بدمنهور : مرادي أعرف أحداً أزوره إذا قدمت مصر ، فنظرَ إليَّ نظرةَ غضب ، وما عرفتُ ما في ذلك من سوء الأدب ، فسكت عن جوابي نحو سنة ، ثم قال لي : إذا قدمتَ مصر فاسأل عن الشيخ أبي الخير الكليباتي ، واجتمع به ، ومهما أعطاك فاقبله .

وقال لي : إذا طلعتَ من المركب سوف تجدُ الشيخ خروف المجذوب قريباً من الجامع الأخضر والبولُ قد أخذ في أفخاذه طرقاً ، وأظفارُهُ وشواربُه طويلة[١] ، فإياك والاعتراضَ ، فطلعتُ من المركب ، فوجدت الشيخ خروف كما قال الشيخ ، وخطر لي الاعتراضُ ، فمدَّ يده إلىٰ قلبي وقال : هل لنا سبع بلا مخاليب ، ثم قال : لولا شيخك قطعت معاليق قلبك ، فحصل لي منه رعبٌ عظيم .

ثم دخلتُ إلىٰ مصر ، فسألتُ عن الشيخ أبي الخير ، فدلُّوني عليه في ميضأة جامع الحاكم ، فوجدتُهُ في بيت الخلاء واضعاً وجهَه داخل الملاقي مدة ثلاثة أيام ، فرفعَ رأسه وقال : أيشٍ حالُ من وراءك ؟ فقلت : يُسلِّم عليك ، فقال : تعال ورائي ، فأخذني وأتىٰ بي إلىٰ هـٰذا الدكان ، وقال : أعطيتُكه وخلعتُ عليك الرزق الذي قسمه الله لك ، فيأتيك بلا تعب ، تنامُ وتقومُ فتجد جميعَ ما تحتاج إليه ، فما أخذتُ بكلامه ذلك الوقت ولا أعطيتُ ، وقلت : هـٰذا مجذوبٌ ، فإياك يا ولدي أن

---

(١) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

تكذِّبَ فقيراً قطُّ ؛ فإنهم لا يخبرون إلا بما يشهدون ، بخلاف غيرهم يتكلَّمُ على الظن .

قال : ثمَّ وقف علىٰ طباخٍ وقال : اغرف لي ماجوراً طعاماً[1] ، وحمِّله لهـٰذا الفقيه ، فحمَّلني الماجور وقال : تعال ورائي ، فما زال يمشي إلىٰ كيمان الأزبكية قبل أن يعمرها الأمير أزبك رحمه الله ، فقال ضعِ الماجور ، ونادِ يا جيعان ؛ فجاءتِ الكلابُ من كل جانب ، فقال : حلقة عسكرية ، فحلقت الكلاب ، وأجلسني بينهم ، وصار يغرف لكل واحد على الأرض ، وغرفَ لي كذلك ، فأكلتُ خوفاً من الشيخ إلىٰ أن فرغوا ، فقال : انصرفوا ، فانصرفوا ، فلما انصرفَ الشيخ نزلتُ بثيابي في بركة هناك ، وعكرت ماءها ، وصرت أغطسُ سبعاً ، فرجع الشيخُ وقال لي : يا ولدي ؛ هـٰؤلاء إخوانك من الجنِّ ، ما هم كلاب ، هـٰذه حكايته لي رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٠٨) الشيخُ الصالح ، الإمامُ القدوة سيدي الشيخ أبو الفتح الغمري أخو الشيخ أبو الحسن[2]

كان رضي الله عنه علىٰ قدم عظيم ، صحبته نحو ثلاث سنين ، ثم مات .

وكان له الكشفُ الأتمُّ ، والتصريف في عزل الولاة بالمحلة الكبرىٰ .

وكان الناس يقولون : إنه قُطِّب ثلاثة أيام .

مات رضي الله عنه في سنة أربع عشرة وتسع مئة ، ودُفن في جامع السدِّ بالمحلة ، رضي الله عنه .

---

(١) الماجور : إناء من خزف يطبخ فيه اللحم ، أو وعاء يستعمل في مصر استعمال السطل ، ويستخدم لغسل الملابس . « تكملة المعاجم » (١/ ٨٥) .

(٢) انظر ترجمته في « الطبقات الصغرىٰ » للمناوي (٤/ ١٦٥) .

ومنهم :

(٤٠٩) شيخي وقدوتي إلى الله تعالى ، العالمُ العاملُ ، المحدِّثُ المقرئ ، المواظب على العبادة والخدمة للعميان والمساكين ليلاً ونهاراً الشيخ أمين الدين ابن النجار البدراني ثم المصري رضي الله عنه[١]

كان إذا قرأ في المحراب تخرُّ الناسُ إلى الأرض من الخشوع قهراً عليهم .

وانتهت إليه الرئاسةُ بمصر في علوِّ السند بالكتب الستة وغيرها .

وكان يقرأُ بالأربعة عشر رواية للقرآن .

وكان جيرانُ جامع الأزهر وأهلُ بولاق يأتون إليه في صلاة العشاء والصبح ليصلوا خلفه من حُسن صوته وتأديته ، وأجمع الناسُ كلُّهم أنه ليس في مصر أحدٌ يقرأ القرآن مثله .

ولما دخل ابن السلطان قرقط[٢] أخو السلطان سليم أيام الغوري ، أقام ببولاق ، فطلب من الغوري إماماً ، فقال الغوري : انظروا لنا إماماً يُناسبه ، فقال الناس كلُّهم : ما في مصر أحدٌ مثل الشيخ أمين الدين ، فكان يصلي به الجمعة إلى أن سافر .

ومكث إماماً بجامع الغمري سبعاً وخمسين سنة ، ما ضبطوا عليه قطُّ أن وقتاً دخل عليه وهو بلا وضوء .

وكان لا يتركُ قيام الليل لا صيفاً ولا شتاءً ، كان ينام بعد الوتر لحظةً ، ثم ينزل الجامع فيتوضأ ويتهجد ، والباقي نحو سبعين أو ثمانين درجة للفجر ، ثم يصعد الكرسي ، فيتلو القرآنَ بعد أذان الفجر ، فتكادُ القلوبُ تطيرُ من حلاوة تلاوته ، ويصير الناس يبكون .

وسمعه نصرانيٌّ من مباشري السلطان وهو طالع القلعة ، فترك دابَّتَهُ ، وصعد إلى

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (٢/ ٤١١) (٣٨٥) ، وسيأتي (٤/ ٤٢٢) (٥٣٦) وفي « ذيل الطبقات » (٥/ ٧١) (٢٦) .

(٢) في (أ ، ب) : (فرقط) بدل (قرقط) ، وفي (ز) : (فورقد) .

الجامع ، فصغا إلىٰ قراءة الشيخ ، ثم رمىٰ عمامته وأسلم ، وعلَّمه الشيخُ الصلاةَ ، وصلىٰ معه الصبح ، ولم يزل يُصلي خلفه إلىٰ أن مات .

وكان سيدي الشيخ أبو العباس الغمري يقول في حقه : الجامع جثة والشيخُ أمينُ الدين روحه .

ومصداقُ ذلك : أني كنتُ وأنا صغير أرىٰ أهلَ الجامع يخرجون لرؤية المحمل ، أو لكسر البحر ، فلا يبقىٰ في الجامع أحدٌ غير الشيخ أمين الدين ، فلما أجدُهُ جالساً علىٰ باب خلوته . . كأنَّ الجامعَ لم يخرج منه أحد ، وإذا سافر الشيخ يصيرُ كأنَّ ما فيه أحدٌ ، هـٰذا أمرٌ كنت أراه وأنا صغير .

وكان من الجامعين بين الطريقين ؛ فلذلك ذكرتُهُ مع الفقهاء ، ومع الصوفية .

وكان أولياءُ مصر وفقراؤها إذا دخلوا مصرَ يحبُّونه ويجلُّونه مثل الشيخ محمد بن عنان ، والشيخ محمد المنير ، والشيخ أبي بكر الحديدي ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ محمد بن داود ، والشيخ عبد الحليم .

كان مع الفقراء كأمِّ النحل مع أولادها ، ويُقري ويضيف كلَّ واردٍ .

وكانت هيبتُهُ عظيمة ، يكاد من لا يعرفه أن يرعد من هيبته .

وكان يخدم نفسَهُ ، ويخبز الخبزَ علىٰ رأسه في الفرن ، ويحمل حوائج الطعام ، ولا يُمكِّن أحداً يحمل ذلك .

وكان لا يراه كبيرٌ من أركان الدولة إلا وينزلُ من علىٰ دابته يقبِّلُ يده .

وكان الله تعالىٰ قد سخَّرَ له تجارَ مصر في أخذ الزكاة ، فكان يصير عنده أواني كثيرة ملآنة فضة وذهباً ، فيجعلُها في صُريرات ، ويكتبُ اسمَ صاحب كل صرَّة عليها ، حتىٰ إنه كان يرسل لأهلي الصُّريرات في الريف من غير علمي ، وما علمت بذلك إلا بعد موته ، وقالوا : كان الشيخ يأمرنا بالكتمان .

وكان يكرهُ الفقيرَ إذا رآه يدخل الحمام كثيراً من غير حاجة ، ويكره من يصقل ثيابَهُ ، أو ينظر إلىٰ ظاهره ، أو يجلس علىٰ باب الجامع ، أو في شباكه المطلِّ على الشارع ويقول : حكم ذلك كالجالس في السوق .

وكان إذا مقت إنساناً لا يفلحُ بعده أبداً ، مقتَ نحواً من سبعة عشر إنساناً ، فهم إلى الآن في أسوأ حال لا دنيا ولا آخرة .

وكان يقول : (كلما عظمَ الخير كثرتْ عليه الموانع ، فإياك يا فلان أن يتحزَّبَ عليك أحدٌ في إبطال مجلس ذكر ، أو صلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتشغل نفسك بهم ، بل أقبلْ علىٰ عبادة ربك ؛ فإن بيده الحلَّ والربط ، وإنما يُسلِّطُ على العبد الأذىٰ ، لينفر من الناس ، ولا يركنَ إليهم ؛ وذلك ليصطفيه الله تعالىٰ ؛ فإنه لا يصطفي عبداً من عبيده حتىٰ يزهدَ في حمد الناس جملة ، ويصيرَ لا يركنُ إلىٰ أحد منهم ، فهناك يصطفيه) .

وكانت عِمامتُهُ رضي الله عنه قطناً غيرَ مقصور ، وكان يلبس الثياب الزرق والجبب السود .

ومما وقع من كراماته : أنني كنتُ أقابلُ معه في « شرح البخاري » للقسطلاني ، فمررنا علىٰ باب جزاء الصيد ، فقال : وفي التيتل عنزٌ[1] ، فقلت له : ما صفة التيتل ؟ فقال ستراه قريباً ، فلما قربَ انصرافُنا من المقابلة وإذا بالتيتل قد خرج من حائط المحراب ، وجاء حتىٰ وقفَ ، وجعل فمَه علىٰ كتفي ، فرأيتُهُ وتحقَّقتُه ، ثم ذهب ، فخرج من باب جامع الغمري إلى السوق ، فقلت للجماعة الحاضرين : رأيتم التيتل الذي خرج من حائط المحراب ؟ فقالوا : لا ، وصاروا يضحكون منِّي ، فعلمت أنها كرامةٌ من الشيخ .

ورأيتُهُ مرةً أقسمَ علىٰ خشبة أن تأتي إليه ، فزحفت حتىٰ وصلت إلىٰ ركبته .

مات رضي الله عنه سنة تسع وعشرين وتسع مئة ، ودفن بتربته خارج باب النصر ، بالقرب من زاوية سيدي إبراهيم الجعبري رضي الله عنه ، وسيأتي بسط ذلك في ترجمته مع العلماء .

ورأيته رضي الله عنه بعد موته ، فروىٰ لي حديثاً سنده بالسرياني ، ومتنُه بالعربي ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أدمنَ النومَ بعد صلاة الصبح

---

(١) **التيتل** : كحيدر ، لغة في الثيتل بالمثلثة : ذكر الأروىٰ . « تاج العروس » (ت س ل) .

ابتلاه الله تعالىٰ بالبعج ، فقلت له : وما هو البعج ؟ فقال وجعُ الجنب ، وكان جنبي لم يزل موجوعاً ؛ لكوني كنتُ أنام عقب صبح الجمعة ؛ لكونها ليلة سهر في مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فتركتُ النوم ، فزال الوجعُ ، وصرتُ لا أنام إلا بعد طلوع الشمس عند الحاجة إليه ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٤١٠) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهدُ ، الحَيِيُّ المستحيي أن يجلسَ بين الناس من شدَّة الحياء سيدي أبو الحسن بن الشيخ أبي العباس الغَمْري رضي الله عنه[١]

جاورت عنده ثلاثين سنة ، ما رأيتُ أحداً من أهل العصر علىٰ طريقته في التواضع والزهد ، وخفض الجناح ، ولم يصرَّ قطُّ شيئاً من الدنيا .

وكان يقول : (إذا سمعتُ أحداً يعدُّ ذهباً يضيق صدري) .

وكان لا يبيتُ علىٰ دينار ولا درهم ، ويعطي السائل ما وجد حتىٰ قميصَهُ الذي عليه .

وكان يغرفُ لي زبديةَ الطعام ويحملها مع جلالة قدره ، ويأتيني بها إلى الخلوة بحضرة أكابر الناس .

وكان جميلَ المعاشرة لا سيما في الأسفار ، وكان لا يتخصص بشيء عن الفقراء أبداً .

ولما مات والدُه رأىٰ شيخُنا الشيخ محمد الشناوي كأن نخلةً في جامع الغمري قُطعتْ رأسُها ، فطلعتْ لها رأسٌ مكانها في الحال ، قال شيخُنا : فأَوَّلتُ ذلك بسيدي الشيخ أبي الحسن .

وكان سيدي محمد بنُ عنان يقول : (ما رأتْ عيني في أولاد الفقراء أكرمَ نفساً من الشيخ أبي الحسن الغمري ، والشيخ عبد الحليم بن مصلح) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٣) (٣٨٦) .

وكان من أخلاقه رضي الله تعالىٰ عنه : أنه ما دام في البيت يخدمُ مع الخدَّام ، فيقرِّصُ العجين ، ويغسل الأواني ، ويحمي تحت القدر ، ويغرفُ للفقراء بنفسه ، وكنا نتعشَّىٰ معه في البيت نحواً من سبعة عشر نفساً من أولاده وأولاد أخيه .

وكان يغرفُ لنا الطعام في صحن مشبه وسطاً ، فكنا نشبعُ كلُّنا منه ، وهي كرامةٌ ظاهرة .

وكان لا يخرج من البيت إلا وقتَ الصلوات وقراءة الحزب ، أو حاجة ضرورية ، وما عدا ذلك فهو جالسٌ في بيته ، لا تجدُهُ قطُّ في لغو ولا مزح خارج عن السُّنة لا وحده ولا مع الناس .

وكان يستحي أن يركب حماراً أو غيره في مصر إذا خرجَ لحاجة ضرورية ، ويقول : أستحي أن أمرَّ على الناس في حوانيتهم وأنا راكبٌ ، وإذا كانتِ الحاجةُ بعيدةً كبولاق ومصر العتيقة يركبُ ، ويطلبُ الأماكنَ القليلة الناس الذين لا يعرفونه .

ودعوه مرةً إلىٰ وليمة وأجاب ، فلما جلس بين الناس صار يعرقُ جبينُهُ ويمسحه ؛ كالعذراء في خِدرها .

وكان إذا سافر من مصر إلى المحلَّة ونحوها يتركُ الأكل والشرب ، حتىٰ لا يحتاجَ إلى البراز ، سواءً أكان علىٰ حماره أو في المركب ، ويقول : إنْ لم أجلسْ في بيت معدٍّ لقضاء الحاجة لا أستطيع أن يخرجَ مني بول ولا غائط ، وأقول في نفسي : ربما أحدٌ ينظر إليك وأنت جالس ولو علىٰ بُعْدٍ .

وكان لا ينام مع أحد قطُّ في فراش واحد ، ولا ينام بحضرة أحد أبداً ويقول : أخافُ أن يخرجَ مني ريحٌ وأنا نائم .

وكان كثيرَ التحمُّل للبلايا ، ولا يسمح بذكر ذلك البلاء لأحد ، فتربَّتْ في بطنه دبلة قدر البطيخة ، فانفجرتْ علىٰ لوح المغتسل .

وصحبته نحو الثلاثين سنة ما أتذكَّرُ أنه تغيَّرَ مني يوماً واحداً ، وكان ذلك من فضل الله عليَّ .

ولما تحوَّلتُ من الجامع إلىٰ مدرسة أمِّ خوند ؛ لرؤيةٍ رآها الشيخ أحمد الطهوائي الضرير صار يتردَّدُ إليَّ في الليل في مدرسة أم خوند التي انتقلت إليها ؛ وذلك : أن جماعةً من الجامع آذوني كثيراً بغير إذن الشيخ ، وحلفوا علىٰ مصحف : أنهم لا يحضرون معي مجلس الذكر والصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاروا يضربون كلَّ مَنْ جلسَ عندي من المجاورين ، ولم يبقَ معي في السهر سوى الناس الغرباء ، رأى الشيخُ أحمد المذكور النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقال : قل لفلان : ينتقلُ إلىٰ مدرسة أم خوند بخطٍّ بين السورين ؛ فإنها مباركة ، فعزمتُ على العمل بذلك ، فجاءني سيدي الشيخ أبو العباس الغمري في المنام وقال : لا ترحل وأنا أسهرُ معك ، فجلس معي ليلةَ الجمعة ، وأسندَ ظهرَهُ للعمود الذي يستقبل يمين الداخل للجامع من الباب الكبير ، فجلس معي نحو عشر درج ، وكان به صداعٌ ، فانصرفَ رضي الله عنه .

ثم إن جماعةً ممن آذوني اجتمعوا ودعوا ناساً ، وأوقدوا قناديل كثيرةً ، وجلسوا تجاهنا يرفعون أصواتَهم علينا بما نحن فيه ، فانتقلنا وجلسنا في مجلسهم ، وقلتُ لهم : كلُّنا في الخير سواء ، فمنعونا ، فقلت لهم : اخفضوا صوتكم ، فلم يرضوا ، فألقى اللهُ عليهم النوم ، حتىٰ لم يستطع أحدٌ منهم يسهر درجة ، وناموا كلُّهم بعد العشاء بعشرين درجة إلى الصباح حتىٰ صلى الناسُ الصبحَ ، فضحك الناسُ عليهم ، ثم إنهم راحوا إلىٰ عبد الدائم بن بقر وطلبوا منه أن يعملَ مولداً في الجامع ليلةَ الجمعة ؛ بقصد الغوش علينا[1] ، فأتى المقرئون والوعاظ ، فخفضنا أصواتنا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم نبطلِ المجلس ، فجاءَ واحدٌ منهم ، وغوَّشَ علينا لمَّا رآنا لم نُبطل المجلس ، مع أن أصواتنا لا تشوش علىٰ أحد من السامعين للواعظ ، فجاء ووقفَ علىٰ رأسي ، وقال : أنت يا عبد الجعَّاص ؛ ما تسكتُ ، فسمَّىٰ مَنْ أنا عبده بالجعاص ، فنزل الناسُ فيه بالصك والضرب ، فقالوا له : كفرتَ ، فاجتمعوا وضربوا الرأي ، وقالوا : بكرة النهار يضربون رقبةَ صاحبنا ، فأجمع رأيهم علىٰ أن يمضوا به

---

(١) الغوش : إثارة الضوضاء والضجة والصخب والضجيج . « تكملة المعاجم » (٧/ ٤٤١) .

للقاضي يحقن دمه ، فمضوا به في الليل إلى القاضي ابن جبيلات ، فحقن دمَه ، وبطل مولدُهم تلك الليلة ، وتفرَّق المقرئون والوعاظ ، وكان هـٰذا الذي وقعَ في الكفر هو الذي تولَّىٰ أمرَ المولد ، فأصبحتُ منتقلاً إلىٰ مدرسة أم خوند ، فحصل لي فيها راحةٌ عظيمة .

وكان الشيخ بعد أن خرجتُ يطلب مفارقةَ الجامع ويقول : انظرْ لي موضعاً ولو في ربع أسكنُ فيه ؛ من شدَّة الأذىٰ من الجماعةِ الذين كانوا تحزَّبوا عليَّ ، فالحمد لله رب العالمين .

مات رضي الله عنه في سنة تسع وثلاثين وتسع مئة ، ودفن عند والده في المقصورة آخر باب المسجد ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤١١) الشيخ الكاملُ ، العارف بالله تعالىٰ ، صاحبُ الكشوفات الظاهرة ، والمجاهدات الكثيرة الشيخ عبيد الريحاوي ، ثم البلقسي رضي الله عنه[١]

هو من أجلِّ أصحاب الشيخ محمد الكواكبي .

دخل مصرَ من الشام في زمان السلطان قايتباي ، فكان يعتقدُه أشدَّ الاعتقاد .

ودخل مصر حال الجذب وهو عُريان ، ما عدا سراويلَ من جلد ، وطرطورَ جلد[٢] ، ومكث طاوياً عن الخبز سنين ، ولما جاءَه الإذنُ بالسفر إلى الصعيد أعطاه السلطان مرسوماً بالإذن له في عزل جميع كشَّاف الصعيد وقضاته ومشايخ العرب إذا شاء ، فأقام في الصعيد مدَّةً ، ثم رجع إلىٰ مصر ، فسكن في بلقس ، وعمَّر بها زاويةً ، وأقبلت الناس عليه من سائر الآفاق ، ونزلَ السُّلطان إلىٰ زيارته .

---

(١) كذا في النسخ : (البلقسي) ما عدا (ل) ففيها : (النبتيني)، وفي مصادر ترجمته : (البلقيني)، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٥) (٣٨٧) .

(٢) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

فمكث مدةً هناك ، ثم جاءه الإذن بأن يسكنَ مصرَ ، فسكن في الزاوية الحلاوية ، فرآها خربةً ، فعمَّرها له السلطان الغوري .

وكان ينزل هو وولده إليه ، وعمل الأمراءُ فيها فعلاء كالدوادار الكبير ومن دونه ، ثم ترك لباسَ الجلد ، فصار يلبسُ الملابسَ الفاخرة كملابس الملوك ويقول لنفسه : انظري حلاوةَ المجاهدة ، فلولا جاهدتي ما حلاَّك الله تعالىٰ بهٰذه الملابس والأطعمة .

وأعطاه السلطان الغوري سريةً من سراريه .

وكان له سبعُ نقباء مرصدين لقضاء حوائج الناس عند السلطان والأمراء وغيرهم .

وكثير ما يرسمُ السُّلطان بشنق إنسانٍ ، فيرسل له فيخلِّصُه منه .

وكان مع نفاسة ملابسه من الجوخ والفراء السمور والوشق وغيرها له عمامةُ صوف أبيض .

وكان إذا سمع أحداً ينشدُ كلامَ سيدي عمر بن الفارض يصيرُ كالجمل الهائج ، لا يستطيع أحدٌ أن يُقعدَهُ حتىٰ يقعدَ باختياره .

وما منع سائلاً قط ، حتىٰ إن السائل يطلبُ منه النصفَ الواحد ، فيخلعُ له جوخةً تساوي الخمسين ديناراً .

وكان إذا أرسل له أحدٌ من الأكابر صرَّةَ ذهب أو فضة ولو خمس مئة دينار ، يُفرِّقها في المجلس على الحاضرين والنقباء ، ما عدا نفقةَ ذلك اليوم .

وكان فيه خُرَّاجٌ في قفاه لم يزلِ الدودُ يتساقطُ منه ، فربما أَكَلَهُ الدود ، فيضعُ يدَه ويحكُّ ، فتطلع الجلدةُ تغلي دوداً ، فينزع الدودَ ، ويحطه في طين رطب عنده .

وكان له أثرٌ في كاهله من كثرة ما خدم شيخه الكواكبي في حمل الماء علىٰ ظهره وكتفه .

ولم يكن يحضرُ مع أصحاب شيخه أورادَهم قطُّ ، إنما كان مشغولاً بالخدمة ، فلما حضرتْ شيخَهُ الوفاةُ ، وتطاول أصحاب الجندات والعذبات بالإذن لم يلتفتِ الشيخُ

إلىٰ أحد منهم ، وقال : هاتوا عبيد ، فأذن له بحضرتهم ، فغاروا منه حتىٰ كادوا يقتلونه ، فسافر إلىٰ مصرَ .

ومناقبه رضي الله عنه كثيرة مشهورة بين أولاده وأصحابه .

وفَقَدَ ولده في حال حياته وهو والد أخينا الشيخ الصالح زين العابدين ، وكان شابّاً جميلاً ، كريماً ، عابداً ، زاهداً ، سمع شخصاً ينشدُ بيتاً في المحبة ، فخرج علىٰ وجهه هائماً ، فلم يدروا أين ذهب إلىٰ وقتنا هـٰذا ، فلم يتأثَّرْ عليه الشيخ عبيد ، وقال : نحن قومٌ كيلانية ، ما ولِدَ لنا مولودٌ قطُّ إلا وأخرجناه من قلبنا ، فسواءٌ علينا مكثَ عندنا أو فارقنا علىٰ حدٍّ سواء ، رضي الله تعالىٰ عنه .

مات في جُمادى الأولىٰ سنة خمسٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاويته ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤١٢) الشيخُ العارف بالله تعالىٰ ، والداعي إليه سيدي الشيخُ إبراهيم الشاذلي(١)

أجلُّ جماعة سيدي محمد المغربي وسيدي أبي المواهب .

كان رضي الله عنه ينفق نفقةَ الملوك ، ويلبس لباسهم ، ولا يدري له أحدٌ جهةً معينةً يأتيه منها الدنيا ، فكان يُنفق من غيب الله عز وجل .

وسافر مكةَ المشرفة ، فعمل له كلَّ ليلة سِماطاً عظيماً ، فعكفتِ الناسُ عليه ، فما بقي له وقتٌ يتفرَّغُ فيه للطواف ، فقال لبعض أصحابه : مرادي نفرة هـٰؤلاء عني بطريقة أعرفُها ، فكتبَ قائمةً ، وأعطاها للنقيب : علىٰ فلان ألفُ دينار ، علىٰ فلان خمس مئة ، علىٰ فلان مئة ، وقال لهم : يقول لكم الشيخ : كلُّ من لا يأتي في صلاة الصبح

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١١٠) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٩٠) ، و« معجم المؤلفين » (١/ ٣٠) .

بدراهمه لا يُجالسُ الشيخ ، فلم يأت ثاني يوم أحدٌ منهم ، وفارقوه ، فقال : الحمد لله رب العالمين[١]

وأخبرني ولده الشيخُ الصالح سيدي محمود : أن أباه ما أتى الطريقَ إلا بعد أن لحقَهُ الشيبُ ، فأتىٰ إلىٰ سيدي محمد المغربي الشاذلي شيخ الشيخ جلال الدين السيوطي في الطريق رحمهما الله تعالىٰ فقال : يا إبراهيم ؛ تريدُ مشيخة بيتية وإلا سوقية ؟ فقال : بيتية ، فقال : قفْ غلاماً ، اخدمِ البيتَ والبغلة ، وحسِّ الفرسَ[٢] ، ومهِّدْ تحتها الزبل ، وكبَّ الترابَ ، فقال : سمعاً وطاعة ، فلم يزل يخدم الشيخَ إلىٰ أن مات ، فاجتمع علىٰ سيدي أبي المواهب ، فما عُرف إلا به .

وكان الشيخ محمد يقول له : (رضاعُك مني ، وفطامك علىٰ يدي أبي المواهب) ، فكان الأمرُ كذلك .

فلم يزل عند الشيخ أبي المواهب يخدمُ كذلك ، ولم يكن يجتمعُ مع الفقراء في قراءة حزب ولا غيره حتىٰ حضرتْ سيدي أبي المواهب الوفاةُ ، فتطاول الشيخ أحمدُ القسطنطيني وغيرُهُ للإذن ، فقال الشيخ : هاتوا إبراهيم ، فجاء ، فقال : افرشوا له السجَّادةَ ، فجلس عليها ، وقال : تكلَّمْ علىٰ إخوانك في الطريق ، فأبدى الغرائبَ والعجائب نظماً ونثراً ، وموشحات ، فأذعنوا له كلُّهم ، وأوصىٰ لي بالعيون التي كان ينظر بها ، فهي عندي إلى الآن ، ووصلَ إليَّ ديوانُه وموشحاتُه وشرحُهُ لـ « الحكم » بخطِّه[٣] ، ودعا لي بدعوات ، فوجدتُ بركتها .

صحبته نحو ثلاث سنين ، **ثم توفي رضي الله عنه في سنة أربعَ عشرة وتسع مئة** .

ودخل عليه سيدي محمد المغربي وهو في النزع ، فقال : ما تشهد ؟ قال : وحدةً مُطلقةً ، فقال : هنيئا لك ، فطلعتْ روحه رضي الله عنه .

ودفن بزاويته بالقرب من قنطرةِ سُنْقر ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

---

(١) مرَّ شبيه بهـٰذه القصة مع الشيخ محمد السروي (٤/ ١٨٣) .

(٢) **حسَّ الدابة** : إذا نفض عنها التراب .

(٣) **واسم كتابه** : « إحكام الحِكم في شرح الحكم »

ومنهم :

(٤١٣) الشيخ الصالح ، الفقيهُ العابد الزاهدُ ، السُّني المحمَّدي ، جامعُ أشتات الفضائل الشيخ يوسفُ الحُرَيْثي صاحبُ الشيخ محمد بن عنان رضي الله عنه(١)

كان علىٰ قدم عظيم في اتِّباع السُّنة وقيام الليل ، وتلاوة القرآن .

وكان يميل إلىٰ إخفاء العبادة ، ويقول : (لا ينبغي لضعيف مثلي أن يعتد بشيء من أعماله الخفية فضلاً عن الأعمال الظاهرة) .

وأخبرني رضي الله عنه : أنه لما تزوَّج أمَّ أبي العباس ولده مكث يقرأ كلَّ ليلة ختماً مدَّة عشرين سنة ، وقال : ما أظنُّ أنَّها شعرتْ بذلك في ليلة من الليالي .

وكان أكثرُ اشتغاله في تعليم الناس القرآن .

عاش حتىٰ صار الناسُ كذا كذا دوراً من تلامذته في جامع الأزهر والريف ، وعُمِّر نحو التسعين سنة .

وكان الناس يقولون : الطريقُ في الحقيقة في بلاد الشرقية للشيخ محمد بن عنان وجماعته ، هٰكذا سمعتُهُ من الشيخ عبد الحليم بن مصلح رحمه الله .

وكان رضي الله عنه يُحبُّني محبَّةً كمحبَّة ولده أبي العباس ، ويقول لي : لمَّا أراكَ ينشرحُ صدري .

وكان يقول للناس : (أحبُّ من الدنيا ثلاثةَ أنفس : اثنان في مصر ؛ وهما عبد الرحمٰن الأجهوري المالكي ، وعبد الوهاب ، وواحد في الشرقية ؛ وهو يوسف البشلاوي) .

وكانت صُحبتي له بمصرَ حين انتقل من بلاد الشرقية هو والشيخ محمد بن عنان ، فأقام في جامع باب البحر حتىٰ مات الشيخ محمد بنُ عنان ، فعمَّرَ له ابنُ الجيعان جامعَ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٤١٦) (٣٨٨) .

البشيري ببركة الرطلي ، ونقله إليه ، فلم يزل فيه ، والناسُ تقصده للزيارة من سائر الآفاق إلىٰ أن مات ، فدُفن بالجامع .

وحضرتُه أنا وأخي الشيخ عبد الرحمـٰن الأجهوري ليلةَ الوفاة ، فقال لنا : في قلبي غمٌّ من عدم معرفتي بكيفية تخليل اللحية كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخلِّلُ بحديث صحيح[1] ، قال : وقد سألتُ عن ذلك الحافظين الشيخَ عثمان الديمي ، والشيخَ جلال الدين السيوطي ، فما أشفيا غليلي ، فقلنا له : يكفي في مثل ذلك العملُ بالحديث ولو ضعيفاً ، فقال : يا ولدي ؛ من قويَ دليلُهُ قويَ إيمانُه وبالعكس ، فقلنا له[2] : أنت بخير ؟ فقال : وما خيرُ من خرج من الدنيا وهو جاهلٌ بكيفية الوضوء علىٰ وجه السُّنة . انتهىٰ .

فانظر يا أخي محافظتَهُ على السُّنة ، وإخبارَهُ بأنَّ في قلبه [غمّاً][3] من مثل تخليل اللحية الذي هو مستحبٌّ لا واجب ، وهـٰذا التأثير ما رأيناه علىٰ مثل ذلك في أحد ممن صحبناهم .

ولما حصل الإذن لولده الشيخ أبي العباس من سيدي علي المرصفي : بأنه يُلقِّنُ الذكر ، ويربي المريدين تشوَّش غاية التشويش ، وقال له : يا ولدي ؛ ليس لنا حاجةٌ بهـٰذا الباب .

وكان يقول لي : حطَّ علىٰ أخيك حتىٰ يتركَ هـٰذا الباب ؛ فإني أستحي ، ولا تقل إنني قلت لك ؛ فإن فتحَ الطريق في هـٰذا الزمان قليلة النفع ، وهتيكة للفقير ، وما معه رأسُ مال يحمي نفسه لا من أهل الظاهر ولا من أهل الباطن ، فقلت ذلك لأخي أبي العباس ، فقال : أنا عبدٌ مأمور ، وخالَفَ ، ونزلَ بلاد الغربية ، فبينما هو في جامع ناحية إصْطَنْها[4] وإذا به قد حصل له غمٌّ وضيق حتىٰ كادَ يهلك ، فقال : ائتوني

---

(١) روىٰ أبو داود (١٤٥) عن سيدنا أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا توضأ أخذ كفّاً من ماءٍ فأدخله تحت حنكه فخلَّل به لحيته وقال : « هكذا أمرني ربي عز وجل » .

(٢) في (أ ، ط ، ك) : (فقلت له) .

(٣) في النسخ : (غمٌّ) .

(٤) **إصطنها** : من البلاد القديمة ، بمركز قويسنا ، من أعمال المنوفية . « قاموس رمزي » (١٩٩/٢/٢) .

بوعاء ، فقاءَ قيحاً ودماً حتىٰ ملأه ، وما عُرف هـٰذا الأمر من أين أتاه ، وإذا بفقيرٍ نائم في الجامع مغطىً بملاءة مزعفرةٍ كشف عن وجهه وقال : واللهِ ؛ لولا أنك غريبٌ لقطعت معاليق قلبك ؛ تدخلُ بلادَ الناس من غير دستور ، فقبَّلَ يدَه واستغفرَ ، فجاءنا الخبر ، فقال الشيخ : ما قلتُ لك يا ولدي ما ثمَّ حالٌ يحمي مَنْ تظاهرَ بالطريق ، ثم قال لي : يا ولدي ؛ لا أحسدُ إلا مَنْ كان خاملاً في الناس وهو علىٰ سُنَّةٍ إلىٰ أن يأتيه أجلُهُ .

وأخبرني الشيخ عبدُ الباسط بن الشبيه أحدُ تلامذته : أنه أمرَهُ أن يُخرجَ للعيال قمحاً للطحين نحو ملء قفة ، فمكثَ يُخرج منه نحو ستين يوماً من ملء القفة .

وكان يهضم نفسَه على الدوام ، ويقول : (لو أقمنا الميزانَ علىٰ أنفسنا ما صحَّ لنا مقامُ الإسلام ، فضلاً عن الإيمان ، فضلاً عن الولاية الخاصة ؛ لأن في « البخاري » و« مسلم » مرفوعاً : « المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِهِ »[1] ، واللهِ ؛ لا سلمَ المسلمون لا من لساني ولا من يدي) .

مات رضي الله عنه سنة أربع وعشرين وتسع مئة بجامع البشيري ، وقبرُهُ به ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤١٤) الشيخُ الصالح ، الورع الزاهدُ عبدُ الرزاق التُّرابي[2]

أحدُ تلامذة سيدي علي النبتيتي ، والشيخِ العارف بالله تعالى الشيخ أحمد الترابي المدفون بالقرب من جامع شرف الدين بالحسينية ، رضي الله عنه .

صحبته نحو ثلاث سنين .

وكان علىٰ قدم عظيم من الزهد والورع ، وأقبل عليه الناسُ بالاعتقاد بعد موت شيخه سيدي علي النبتيتي .

وألَّف رسالةً في الطريق ، وكان له النظمُ الشائع في طريق القوم .

---

(١) البخاري (١٠) ، مسلم (٤٠) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٤١٧) (٣٨٩) .

ثم انتقل من الريف إلىٰ مصر ، فأقام في زاوية شيخه الشيخ أحمد الترابي ، ثم انتقل إلىٰ قريةٍ بالجيزة ، فأقام بها إلىٰ أن مات بها

وطلع في شفاعةٍ إلى الأمير خايربك ملك الأمراء بمصر ، فأغلظ الأميرُ على الشيخ ، ورسم عليه ، فطلعتْ له جمرةٌ تلك الليلة ، فقال : أطلقوا الشيخَ ، وقولوا له يطلبُ منك الفتوة ، فقال : نفذ السهمُ ، فلم يزل خايربك بها إلىٰ أن مات بعد سبعة أيام .

مات الشيخ عبد الرزاق بساقية مكة بالجيزة ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار **في سنة نيفٍ وثلاثين وتسع مئة .**

وكانت رؤيةُ وجهه رضي الله عنه تنشط لعمل الآخرة ، رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه ، آمين .

ومنهم :

(٤١٥) الشيخُ الصالح ، العابد الزاهد مُحيي السُّنـة في بلاد الغربية بعد موت شيخه أبي الخير بن نصر بمحلَّة منوف الشيخُ مخلص رضي الله عنه[1]

كان مُقيماً بناحية أبشيه الملق .

صحبته نحو ثلاث سنين بعد موت شيخي الشيخ محمد الشناوي ، وكان شيخُنا يجلُّه ويكرمه .

وحضرتُ أنا وإياه وفاة سيدي محمد الشناوي ، وحصل لي منه دعواتٌ صالحة وجدتُ بركتها .

وأوصاني بإيثار الخمول على الظهور ، وبعدم التعرف بأركان الدولة إلىٰ أن يعرفوك من غير تعرُّف منك .

ولم يزل على المجاهدة وكثرة العبادة ، والتقشُّف علىٰ طريقة الفقراء الأُول إلىٰ أن **مات سنة أربعين وتسع مئة** ، ودفن بأبشيه الملق ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٨) (٣٩٠) .

ومنهم :

(٤١٦) الشيخُ الصالح ، العالم العاملُ ، الورع الزاهد الشيخ صدرُ الدين البكري رضي الله تعالىٰ عنه[١]

صحبته نحو سبع سنين .

وكان من أجلِّ أصحاب سيدي إبراهيم المتبولي ، وسيدي أبي العباس الغمري .

وكان كثيرَ الصمت ، يجلس اليومين والثلاثة لا يتكلَّمُ إلا ردَّ جوابٍ لأحد وهو مطرقٌ في الأرض ، لا يكاد يرفعُ بصره إلى السماء في ليل أو نهار .

دعا لي بدعوات صالحة ، فوجدتُ بركتها ، وأوصاني بألا آكل طعاماً للشرع عليه اعتراضٌ ولو سففت الترابَ من الجوع .

ولما حجَّ وزار النبيَّ صلى الله عليه وسلم سمع الناس صوتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بردِّ السلام عليه .

مات رضي الله عنه سنة ثمان عشرة وتسع مئة ، ودفن بالمدينة المشرفة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤١٧) الشيخُ الصالح ، الورع الزاهدُ ، صاحبُ المجاهدات الكثيرة ، والأكل من عمل يده الشيخُ دمرداش المحمدي رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

أجلُّ أصحاب سيدي الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي[٣] المدفون في حوش السلطان برقوق بصحراء مصر المحروسة .

فلما مات شيخُه المذكور ساحَ البلاد إلىٰ أن وصلَ إلىٰ توريز العجم ، فصحب

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٨) (٣٩١) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٩) (٣٩٢) .

(٣) في النسخ : (المغربي) ، ولعل الصواب ما أثبت ؛ فمولده : حضرموت ، وقدم مصر واستوطنها ، وسيذكره المؤلف (٤/ ٢٥٧) بنسبه : (اليمني) .

الشيخ العارفَ بالله تعالىٰ صاحبَ الكشوفات والمعارف سيدي عمر روشني ، فأقام عنده مدَّةً ، ثم رجع إلىٰ مصر .

فنزل بالبرية خارج الحسينية ، فسأل من السلطان قايتباي أن يأذنَ له في إحياء أرض زاويته ، وأرضِ الغيط النخل ، فأذن له ، فأقام يغرسُ ويسقي نحو خمس سنين ، وهو في خصٍّ هو وزوجته أم سيدي أحمد ومصطفىٰ ، فغرس ألف نخلة ، فلم يخبْ منها واحدةٌ ، وليس في مصرَ أحلىٰ ثمرةً منه في الحياني ، حتىٰ إن بعض السوقة يخلطُ منه علىٰ بلحه ، ويبيعُ علىٰ حسِّه من شدة حلاوته .

وقال لي : يا عبد الوهاب ؛ ما غرستُ نخلةً قطُّ إلا على اسم الفقراء والمساكين الذين أنا من جملتهم .

وذكر : أن سيدي إبراهيمَ المتبولي هو الذي أشار عليه بذلك ، وقال له : (يا دمرداش ؛ كلْ من عمل يدك ، وإياك والأكلَ من صدقات الناس ؛ فإنهم يتقاسمون حسناتك في الآخرة) .

وقد وقف رضي الله عنه ما مَلَكَهُ من الغيطان ، وقسمه ثلاثة أثلاث : ثلثٌ يُردُّ علىٰ مصالح الغيط ، وثلثٌ للذرية ، وثلث للفقراء والمساكين القاطنين والواردين .

وجعل على القاطنين كلَّ يوم ختماً يقرؤونه ويهدونه للنبيِّ صلى الله عليه وسلم وللشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه ؛ كلُّ طائفة يقرؤون عشرين حزباً ، ثم يختمون قبيل المغرب .

صحبته نحو خمس سنين ، وبتُّ عنده ليالي كثيرة ، فكان رضي الله عنه لا ينامُ من الليل إلا قليلاً ، وغالبُ لياليه يمشي حولَ الزاوية والغيط وهو يتلو القرآن إلى الفجر ، إلىٰ أن عمل السورَ المحيط على الزاوية ، فكان يجلس طولَ الليل في الخلوة ، ولا ينام في بيته إلا في النادر ، وأراني مرة خشونة يده ، وقال : انظر موضعَ الفأس .

وكان رجلاً مهاباً ، وأمرُهُ كلُّهُ جدٌّ ، لا تكاد تجدُهُ في ليل أو نهار في غير عمل صالح ؛ إما ينجر السواقي بيده ، وإما ينجر النوارج[1] ، وإما يعزقُ حول النخل ، وإما

---

(١) ينجر : ينحت ، والنوارج : جمع النوْرَج : وهي ما تداس به أكداس الطعام حديداً كان أو خشباً ، وهو سكة الحراث . « متن اللغة » (٥/ ٤٣٥) .

يشدُّ القواديس[١] ، وإما يفتل الطونس[٢] ، وإما يدرس ، وإما يطحن ، وإما ينقّي الطحين من البخر والطين ، وإما يبني ، وإما يضرب طوباً ، وإما يكب تراباً ، وإما يقلّم النخل ، وإما يُقرِّصُ العجين .

أقام عنده الفقراء الصادقون ، وانتفعوا به ، واستخلف منهم جماعةً ، وأذن لهم بالتسليك في مصر ؛ منهم : الشيخ حسن الجركسي ، والشيخ محمد الحانوتي ، والشيخ كريم الدين بن الزيات .

وهو الذي أحيا طريقةَ شيخه بعده .

وزاوية الشيخ دمرداش عامرة بالسماط والفقراء ، وليس في مصر زاويةٌ يأكلُ فقراؤها حلالاً مثلها ؛ لأن وقفَها من عمل الشيخ بيده ، لا منَّةَ لأحد فيه على الفقراء ، ولا رياء فيه ولا سمعة ؛ بل عملُ وليٍّ عارف بالله تعالىٰ ، وهـٰذا قلَّ أن يقعَ لشيخ في عصر من الأعصار ، إنما يأكلُ فقراء زاوية ذلك الشيخ من أوقاف الناس من الولاة وغيرهم .

وكان رضي الله عنه إذا غلب عليه الحالُ يأكل نحوَ الإرْدَبِّ من الأرز المفلفل .

وعمل له مرةً الأميرُ أقبردي الدوادار سماطاً ، وأرسل للشيخ يقول له : ائت بجميع أصحابك ، فلم يأت الشيخُ معه بأحد ، فجلس على السِّماط ، ـ ذكروا أنه كان يكفي خمس مئة نفس ـ فقال الأمير : أما تنتظروا الجماعة ؟ فقال الشيخ : أنا أَسُدُّ عنهم ، فصار يأكلُ من الإناء ويلحسُهُ ، حتىٰ أكلَهُ كاملاً ، وقال : لم أشبع ، فأتوه بكسر يابسة وبقية الطعام الذي غرفوه على اسم الغز والعيال ، فأكله ، فاستغفرَ الأميرُ للشيخ ، فقيل للشيخ : كيف أكلتم ذلك كلَّهُ ؟! فقال : رأيتُهُ شبهاتٍ ، فحضرت بطائفة من الجنِّ فأكلوه ، وحميتُ الفقراءَ منه .

مات رضي الله عنه سنة نيفٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاويته ، رضي الله تعالىٰ عنه[٣]

---

(١) **القادوس** : إناء من خزف ، يخرج به الماء من السواقي . « متن اللغة » (٤/ ٥٠٩) .

(٢) **الطونس** : الحبل .

(٣) كذا في النسخ ، ولعله : (نيف وعشرين) ، فقد قال في « الكواكب السائرة » (١/ ١٩٣) : (ذكر العلائي : أنه توفي عصر السبت حادي عشر ذي الحجة سنة تسع ـ بتقديم المثناة ـ=

ومنهم :

(٤١٨) الشيخُ الصالح ، صاحبُ المجاهدات والكشوفات الشيخ إبراهيم العجمي[(١)]

أخو الشيخ دمرداش في الطريق ، وأخو الشيخ شاهين في الطريق علىٰ سيدي عمر روشني بتوريز العجم .

دخل رضي الله عنه إلىٰ مصر في دولة بني عثمان ، وأقام بباب زويلة في المدرسة المؤيدية ، فأخذ عنه خلقٌ كثير من العجم ، ومن عسكر السلطان ، وحصل له الإقبالُ العظيم والخضوع العظيم من التلامذة وغيرهم .

وكان يفسِّرُ القرآن ، ويقرئ في رسائل القوم مدةً طويلة ، ثم بنىٰ له تكية مقابل المؤيدية ، وجعل له فيها مدفناً ، وبنىٰ حوله خلاوي للفقراء ، لكلٍّ واحدٍ قبر في خلوته .

تردَّدتُ إليه مراراً كثيرة ، فقال لي : ليس في مشايخ مصر أحدٌ علىٰ قدم أهل الطريق ، إنما هم مشايخُ قالٍ أو عيشٍ ، وما ثَمَّ حالٌ يؤثِّرُ في مريدهم الخير .

وكان له اليدُ الطُّولىٰ في علم الكلام والمعقولات ، ونظم تائيةً طويلةً جمعَ فيها معالمَ مقامات الطريق .

ولما كثرَ إقبالُ عسكر السلطان عليه ، حتىٰ صاروا يقتتلون علىٰ شرب ماء غسله في الحمام خافتِ الدولةُ من أخذه مصر ، فكاتبوا عليه السلطان ، فنفاه إلىٰ بلاد الروم مدةً ، ثم رجعَ إلىٰ مصر ، فأقام بها حتىٰ مات في سنة أربعين وتسع مئة .

وطردَ غالبَ جند السلطان عنه ؛ امتثالاً لأمر السلطان .

وكان لا يُمكِّنُ أحداً من فقرائه يحج حتىٰ يعرفَ الله تعالى المعرفةَ الخاصة عند

= وعشرين وتسع مئة ، وذكر ابن طولون : أنه صلىٰ عليه غائبة بالجامع الأموي بدمشق يوم الجمعة (١٧) محرم سنة ثلاثين وتسع مئة) .

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٠) (٣٩٣) .

القوم ، ويقول لهم : حجُّوا إليَّ أولاً حتىٰ أُعرِّفَكم بربِّ البيت قبل البيت ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤١٩) الشيخُ الصالح ، الورعُ الزاهد ، صاحبُ المجاهدات والهمة العالية سيدي إبراهيم ، المشهور بمرشد رضي الله عنه[1]

كان قادريَّ الخرقة .

وكان يطوي الأيام والليالي ، بلغني أنه مكثَ أربعين سنة صائماً ، لا يأكلُ عند الإفطار غير زبيبة واحدة ، أو لوزة ، أو تمرة حتىٰ لصقَ جلدُ بطنه علىٰ أمعائه .

وكان يتقوَّتُ من حبك الأردية بجامع ابن طولون

اجتمعتُ به كثيراً ، وكان يُخبرُ كلَّ وارد بما يقع له من الكرامات ، ويرىٰ ذلك من باب التحدُّث بالنعم .

وحدثني مرةً من مبتدأ أمره إلىٰ منتهاه في ذلك الوقت وقال : كأنك الآن كنتَ مُصاحباً لي من صغري إلىٰ هـٰذا الوقت .

وأخبرني أنه أقام في خربة مدَّةَ عشر سنين لا يجتمعُ بأحد ، وسخَّرَ له اللهُ الدنيا تأتيه كلَّ ليلة برغيف وطعام ، قال : فكنتُ أعلمُ أنها الدنيا ، ولا أُكلِّمُها ولا تُكلمني .

وحصل لي منه دعواتٌ وجدت بركتها ، وقال لي : إن طلبتَ يا فلان طاعةَ الخلق لك فأطعِ اللهَ تعالىٰ بظهرِ الغيب ، ولا تجعل لك سريرةً قطُّ تخشىٰ من ظهورها لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فقلتُ : بمددِكُم ، فقال : إن شاء الله .

وكان له مجلسُ ذكر عظيم في جامع الأزهر بعد صلاة الجمعة ، يحضرُ فيه فقراء كثير من الأحمدية وغيرهم .

مات رضي الله عنه سنة نيف وأربعين وتسع مئة ، ودفن بباب الوزير بالقرب من قلعة الجبل بمصر ، وله من العمر ثلاث عشرة ومئة سنة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢١) (٣٩٤) .

ومنهم :

(٤٢٠) الشيخ الصالحُ ، العابد الزاهد الشيخُ ناصر الدين أبو العمائم[١]

كان مقيماً بالنحرارية[٢] ، وبنىٰ له فيها زاويةً ، وغرس له بها بستاناً .

وكان الناسُ يقصدونه من سائر الآفاق بالزيارة ، وكانت خرقتُهُ أحمدية .

وكان بينه وبين شيخنا الشيخ نور الدين الشوني ودٌّ وإخاء عظيم من صغره إلىٰ أن مات .

وكان يتعمَّمُ بنحو ثلاث برد صوف غليظة حمرة وسودة ، حتىٰ إنه من قلة افتقادها وُلِدَ فيها فأرٌ ولم يدرِ به حتىٰ دبَّ علىٰ آذانه ، فقال : انظروا ما هـٰذا ، فوجدوها فأرةً ولدت ثلاث فئران .

وكان لسانه لهجاً بذكر الله عز وجل وتلاوة القرآن .

صحبته نحو عشر سنين ، وحصل لي منه نفحاتٌ وآداب ، ودعا لي بدعوات ؛ منها : اللهم ؛ اجعل هـٰذا الولدَ زاهداً في الدنيا ، لا يطلبُ في الدارين سواك .

مات رضي الله عنه ودفن بالنحرارية ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يزار **في سنة تسع عشرة وتسع** مئة رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٢١) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهد ، الصائم الدهر الشيخُ شرفُ الدين الصعيدي[٣]

كان صاحب كشف عظيم بما يقع للولاة وغيرهم في مستقبل الزمان .

دخل مصر في أيام السُّلطان الغوري ، فأقام بها حتىٰ مات .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢١) (٣٩٥) .

(٢) في (ط) : (النحارية) ، وهو اسمها الحالي ، وهو تحريف ، وهي الآن تابعة لمركز كفر الزيات بمحافظة الغربية . « الخطط المقريزية » (١/ ٦١٣) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٢) (٣٩٦) .

وكان يطوي الأربعين يوماً وأكثر ، وبلغ الغوريَّ أمرُهُ ، فحبسه في بيت ، وأغلق عليه البابَ ، ولم يجعل عنده طعاماً ولا ماء ، فمكث الأربعين يوماً ، ثم خرج فصلى بالوضوء الذي دخل به ، فاعتقدَهُ السُّلطان اعتقاداً عظيماً .

صحبته نحو ثلاث سنين ، ثم مات ، ودفن قريباً من الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه في تربة القاضي شرفِ الدين الصغير رضي الله تعالىٰ عنه[1]

ومنهم :

(٤٢٢) الشيخ العارف بالله تعالى ، الورعُ الزاهد المُكاشَف الشيخُ قاسم المغربي القصري رضي الله عنه[2]

قدم حاجّاً في زمان السلطان الغوري ، فأقام نحو ثلاثةَ أشهر حتىٰ خرج للسفر ، فلم أفارقْهُ إلا قليلاً .

وكان ذا سمتٍ حسن ، وخُلقٍ حسن ، وكرمٍ عظيم ، علىٰ خلافِ أخلاق المغاربة ، فقلت له : يا سيدي ؛ هـٰذه أخلاقٌ غريبة في المغاربة ، فقال وهو متبسم : أخلاقُنا صوريةٌ لا حقيقةَ لها ؛ فإن الغالبَ علينا الماءُ والطين .

ثم لما سافر ورجع من الحج صحبته إلىٰ أن سافر بلده مدينة فاس ، وأرسل لي منها عدةَ كُتبٍ لما وصل ، وأوصاني فيها بعدَّة وصايا ، وحصل لي به نفعٌ عظيم :

منها : أنه قال لي : (إياكَ أن تأكلَ مالَ الولاة ، أو تقبلَ لهم هديةً) .

ومنها : (لا تشتغلْ قطُّ بمن يؤذيك واشتغلْ بالله يردُّهُ عنك ؛ فإنه هو الذي حرَّكَهُ عليك ؛ ليختبر دعواك في الصدق) ، قال : (وقد غلطَ في هـٰذا الأمر خلقٌ كثير ، فاشتغلوا بمقابلة من آذاهم ، فدام الأذىٰ مع الإثم ، ولو أنهم رجعوا إلى الله لردَّ اللهُ عنهم وكفاهم أمرَهم) .

---

(١) ذكره النجم الغزي في « الكواكب السائرة » (١/ ٢١٤) في وفيات قبل العشرين وتسع مئة ، وذكره ابن العماد في « شذرات الذهب » (١٠/ ١٣١) في وفيات سنة (٩١٩هـ) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٣) (٣٩٧) .

ومنها : (إياك أن تترك قيامَ الليل وإن عجزتَ عن القيام صلِّ قاعداً ، وإن عجزتَ عن القعود صلِّ مضطجعاً ، ولا تفوِّتْ موكباً من المواكب ؛ فإن لله تعالىٰ كلَّ ليلة صدقةً ومواهبَ يُفرِّقها علىٰ قلوب المستيقظين) .

ومنها : (مشاركةُ الناس في همومهم بقلبك) .

ولما ورد مصر ، دخل معه خمس مئة فقير ، فلم يسعهم جامعٌ ، فأقاموا في خرابة الأحمدي .

وأخبرني : أنَّ الجهادَ عندهم في الفرنج دائمٌ طول السنة ، لم يزالوا في غزوات ، رضي الله تعالىٰ عنه .

مات رضي الله عنه سنة ستٍّ وخمسين وتسع مئة[1] بمدينة فاس

ومنهم :

(٤٢٣) الشيخُ الصالح ، الورعُ الزاهد سيدي علي البليلي المغربي[2]

من قبيلة من عرب الغرب يُقال لها : بُليلة .

كان علىٰ قدم عظيم من العبادة ، كثيرَ الصيام .

كان يقيم في جامع الأزهر تارةً ، وفي القدس تارةً ، وفي مكةَ أُخرىٰ .

دخل رضي الله عنه أيامَ الغوري مصرَ للحجِّ ، فقال : دخلتُ مصرَ وعلىٰ بطني سبعُ دنانير على اسم الحجِّ ، فكنتُ أسألُ الناسَ وآكل ، فدخلتُ يوماً سوق الجملون ، فقال لي أولُ دكان : يفتح الله ، وثاني دكان كذلك ، فوقفتُ علىٰ تاجر في ثالث دكان ، فقال لي : اصرفْ لك ديناراً من السبعة التي علىٰ بطنك ، ورزقُ الحجِّ على الله ، قال فنزعتُهم من علىٰ بطني ، ورميتُ بهم في الشارع ، فمن ذلك اليوم ما ربطتُ علىٰ دينار ، رضي الله عنه .

---

(١) في (أ ، ز ، ط) : (سنة نيف وتسع مئة) ، وفي (ل) : (سنة خمس وتسع مئة) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٣) (٣٩٨) .

وكان الشيخ محمد بنُ عنان ، والشيخ نور الدين الشُّوني ، وغيرُهما يجلُّونه ويعظِّمونه .

وكان ذا خُلُقٍ حسن ، وعلمٍ وافر .

ومرضَ مرةً في جامع الأزهر ، فأشرفَ على الموت ، فأرسل وراء الشيخ محمد بن عنان فحضرَ ، فحملَ الشيخُ محمدٌ عنه المرضَ ، فقام سيدي عليٌّ ، وحمل الشيخ إلىٰ بيته ، فمكث نحو عشرين يوماً وسيدي عليٌّ يخدمه .

ومن وصيَّتِهِ لي : (إياك وورعَ المتنطِّعين ؛ فتحكم بالتحريم والشُّبهةِ علىٰ طعام إنسان بسوء ظنِّك ، وترده ، بل اعملْ علىٰ جلاء باطنك حتىٰ تعرفَ الحرامَ في نفس الأمر ، فقد يكون ما في يد الصالح حراماً وما في يد الظالم حلالاً) .

وكان يقول : (إن لم تصلْ إلىٰ هـٰذا المقام فأمسك ميزانَ الشريعة ، وطابقْ بين الدارين ، وانظرْ كلَّ شيء عرفتَ بالشرع أن الله تعالىٰ يسألك عنه هناك فاتركْهُ هنا) .

مات رضي الله عنه في القدسِ سنة نيفٍ وعشرين وتسع مئة .

ومنهم :

(٤٢٤) الشيخ الصالحُ ، العالم العامل ، بقيةُ السلف الصالحين سيدي عليٌّ البحيري رضي الله عنه[١]

أخذ العلم عن جماعة من العلماء العاملين ؛ منهم : الشيخ شهاب الدين بن الأُقيطع البُرُلُّسي ، وسيدي علي النبتيتي .

وكان رضي الله عنه علىٰ قدم السَّلفِ الصالح في العلم والزهد ، والورع والبكاء ، والخوف من مواقف القيامة ، لا يكاد يغيبُ شيءٌ من أحوال يوم القيامة عنه كأنه ينظرُهُ رأيَ عين من هـٰذه الدار ليلاً ونهاراً .

صحبته نحو عشرين سنة ، وكان جامعاً بين الحقيقة والشريعة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٧٣) (٤٠٥) .

وكنتَ إذا رأيتَ رثاثةَ ثيابه وسمتَهُ كأنَّك رأيتَ سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله عنه .

وكان أكثر إقامته في الريف ، يدورُ البلاد ، فيعلِّم الناسَ أحكام الدين ، ويرشدهم إلىٰ طريق التقوىٰ ، ولا تكادُ تراه فارغاً من إقراء العلم .

وكان يُفتي في الوقائع التي ليس فيها نقلٌ بالأجوبة الحسنة ، وتُعرضُ علىٰ علماء مصر فيتعجَّبون منها .

وكان الإنسانُ إذا جالسه لا يكادُ يحبُّ أن يفارقَهُ ؛ لما هو عليه من السَّمتِ الحسن ، والخُلق الرَّضي ، والزهد ، والإيثار ، والفتوة ، وهضم النفس ، وتذكُّر أحوال الآخرة .

وبلغ شخصاً من إخواننا من جامع الأزهر : أن بعضَ أصحاب سيدي علي يقول : إن سيدي [عليّاً] من الأربعين[١] ، فأنكرَ ذلك ، فنام تحت دكَّة الجامع الأزهر ، فرأى الأربعين في منامه ، ورأىٰ سيدي عليّاً يُصلِّي بهم ، فاستغفرَ وسافر إليه ، وذكر له القصةَ ، فانتحب سيدي عليٌّ بالبكاء ، وقال : يا ولدي ؛ ربما يكونُ الذين رأيتهم شياطين أرسلوك تفتن عليّاً في دينه .

وكان إذا مشىٰ له أحدٌ من الفقراء أو العلماء ليزوره يصيرُ شهوراً يوبِّخُ نفسَه بذلك ، ويقول : (يزورك مثلُ فلان وفلان ، يا فضيحتك بين يدي الله تعالىٰ يوم القيامة) .

وكان إذا سأله أحدٌ الدعاءَ يقول : كلُّنا يقول : أستغفرُ اللهَ من كلِّ ذنبٍ عملناه إلىٰ وقتنا هـٰذا ، ثم يدعو ويقول : (إن الله لا يستجيبُ دعاءَ مصرٍّ علىٰ معصيةٍ أبداً) .

وكان إذا لاموه علىٰ كثرة البكاء يقول : وهل خلقَ اللهُ النارَ إلا لمثلي ؟!

وكان يقول : واللهِ ؛ ما كنَّا نظنُّ بأنفسنا أننا نعيشُ إلىٰ زمان صار العلماء فيه في غمرة فضلاً عن غيرهم ، وما كان الخلق إلا جازوا الصراط ، ونسوا يوماً يقطرُ فيه الحصا دماً ، وتشيبُ فيه الأطفال ، وتُسيَّرُ فيه الجبال .

وكان إذا مرَّ على الأطفال يغبطهم ، ويُسلِّم عليهم ، ويسألُهم الدعاءَ له وللمسلمين .

---

(١) في النسخ : (عليَّ) .

وكان يحكي عن شيخه سيدي علي النبتيتي : أنه كان يبكي في الليل حتىٰ يصيرَ كالطير المذبوح ، ويقول : (يا نفسُ ؛ توبي إلى الله تعالىٰ قبل أن تموتي) .

وكان يقول : (والله ؛ ما نزلَ ببلادنا هـٰذه قط بلاءٌ إلا وظننتُ أنه بسبب ذنوبي ، ولو أنهم أخرجوني من بلدهم لخفَّ عنهم نزولُ البلاء) .

مات رضي الله عنه في شوال سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة ، ودفن بزاوية سيدي محمد المنير رحمه الله تعالىٰ خارج الخانقاه السرياقوسية ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٢٥) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهدُ ، صاحبُ المجاهدات الكثيرة ، والعبادة الغزيرة ، والسمتِ الحسن ، والكرمِ العظيم ، وطلاقة الوجه ، وحسن الثناء ، أخي أبو العباس الحُرَيْثي رضي الله عنه[١]

صحبته نحو ثلاثين سنة ، فما رأيتُهُ ساعةً واحدةً مدبراً عن الله تعالىٰ .

قرأ الفقهَ والحديث والقراءات علىٰ والده ، ثم على الشيخ شهاب الدين القسطلاني شارح « البخاري » وكتبَ من مؤلَّفاته كثيراً ، وقرأ كتاب « المواهب اللدنية في المنح المحمدية »[٢] هو والشيخ عبد الرحمـٰن الأجهوري المالكي رحمهما الله تعالىٰ .

وأخذ الطريق عن سيدي محمد بن عنان ، ثم عن سيدي علي المرصفي ، وكان فطامه علىٰ يديه ، وأذن له أن يلقِّنَ الذكرَ ويُربِّي المريدين ، فلقَّن في مصر وقراها نحواً من عشرة آلاف نفس ، وعمَّرَ عدة مساجد وجوامع ، وأقام الشعائرَ فيها .

ووقع لي معه كراماتٌ ووقائعُ غريبة :

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٧٥) (٤٠٦) .

(٢) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية في السيرة النبوية ، في مجلد ، للشيخ أحمد بن محمد القسطلاني المصري المتوفىٰ سنة (٩٢٣هـ) ، وهو كتاب جليل القدر ، كثير النفع ، ليس له نظير في بابه ، رتبه علىٰ عشرة مقاصد ، فرغ من تبيضه سنة (٨٩٩هـ) ، وعلى الكتاب حواشٍ وشروح ؛ منها : « شرح الزرقاني » ، وهو شرح حافل جمع فيه أكثر الأحاديث المروية في شمائل المصطفىٰ وسيره وصفاته الشريفة .

منها : أنه جلس عندي بعد المغرب في رمضان ، فقرأ قبل أذان العشاء خمس ختمات .

ومنها : أنه طلع لي بواسير ، وحصل لي منها ضررٌ شديد ، فشكوتُ ذلك إليه ، فقال : غداً تدخل في صلاة العصر فتسلم منها ، فلا تجدُ لها أثراً ، فكان الأمر كما قال .

وكان له القبولُ التام على الخاصِّ والعام ، حتىٰ كان الناسُ يتقاتلون علىٰ شرب غسالة يديه من زفر السمك وغيره .

وكان جميلَ المعاشرة ، وآثارُ الصلاح ظاهرةٌ علىٰ وجهه ، حتىٰ إنه إذا رآه من لم يَرَهُ قط يشهدُ بأنه وليُّ الله تعالىٰ .

وكان في الليل لا يكادُ يجتمع بأحد إلىٰ صلاة الصبح ، وطوى الأربعين يوماً في الخلوة .

ودعاني مرةً إلى النوم معه في منارة جامع البشيري ، فجلستُ معه بعد العشاء حتىٰ طلعَ الفجر ، فكان تلك الليلةُ من حلاوة منطقه كأنها ثلاثُ درج[1]

وكان رضي الله عنه كثيرَ التحمُّل لهموم الناس ، حتىٰ صار جسمُهُ وجلدُهُ كالشنِّ البالي[2]

وما رأيتُ عنده قطُّ دعوىٰ لشيء من مقامات الطريق ، وإذا ذكرتُ له شيئاً من مقاماتهم يقول : استراحتِ العرايا من شراء الصابون .

توفي رضي الله عنه في ثغر دمياط ، ودفن في زاوية الشيخ شمس الدين الديروطي الواعظ ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

---

(١) **الدرجة** : أربع دقائق .

(٢) **الشَّنُّ** : القِربة الخَلَق .

ومنهم :

(٤٢٦) شيخُنا وقدوتنا إلىٰ طريق الله تعالى ، الشيخُ الصالح المجمعُ علىٰ جلالته وصلاحه ، الشيخ نورُ الدين الشوني[(١)]

شيخُ مجالس الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في جامع الأزهر ، وفي مكة ، والقدس ، والشام ، وقرىٰ مصر ، وغيرها ، رضي الله عنه .

خدمته خمساً وثلاثين سنة ، ما أظنُّ أنَّه بحمد الله تغيَّرَ عليَّ يوماً واحداً .

وإنما سُمي بالشُّوني ؛ لأنه ولد في قريةٍ من قرى الغربية اسمها شون .

نشأ رضي الله عنه في الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صغير ببلده ، فكان إذا سرحَ بالبهائم يُعطي غداءَهُ للصغار ، ويقول : تعالوا صلُّوا معي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

ثم انتقل إلىٰ مقام سيدي أحمد البدوي ، فأقام فيه مجلسَ الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةَ الجمعة ويومها .

قال : (وكنَّا كثيراً ما نجلسُ من صلاة العشاء إلى الصبح ، ثم من الصبح حتىٰ نخرج لصلاة الجمعة ، فإذا صلَّينا الجمعة صلَّينا على النبي صلى الله عليه وسلم كذلك إلى العصر ، ومن العصر إلى المغرب) .

قال : (ومكثنا علىٰ ذلك عشرين سنة ، ثم إني خرجتُ أودِّعُ شخصاً من أصحابي في المركب أيامَ النيل كان مسافراً إلىٰ مصر ، فعامتِ المركبُ بنا ، فما رضي الريسُ يرجعُ بنا ، فدخلتُ مصر ، فأقمت في تربة البرقوقية بالصحراء ، وكنت آتي جامع الأزهر للصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعَ عليَّ خلقٌ كثير ، ومماليكُ من مماليك السلطان قايتباي ، فنازعني مجاورو الأزهر ، وكتبوا فيَّ فتاوىٰ بإبطال المجلس ، فلم ألتفتْ إليهم ، وقدَّموا فيَّ سؤالاً لشيخ الإسلام الشيخ برهان الدين بن أبي شريف الشافعي ، فقطعَهُ ، فاستفتوا عليَّ في كثرة الشموع والقناديل التي

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٧٧) (٤٠٧) .

تُوقد في المجلس وقالوا : هـٰذا فعلُ المجوس ، فأفتى الشيخُ برهان الدين : أنه ما دامَ النورُ يزيد بزيادة الشمع والقناديل فهو جائزٌ ولا يحرم ، إلا إنْ وصلَ إلىٰ حدٍّ لا يزدادُ الناسُ به ضوءاً) .

قال : وأفتىٰ شخص من المالكية : بأن هـٰذا السهر مكروه ؛ لأن الله تعالىٰ جعل الليل سكناً ، وأنا لم أجعله سكناً ، فقطعها الشيخُ برهان الدين ، ثم انتصر لي الشيخُ شهاب الدين القسطلاني ، وصنَّفَ كتاباً في الردِّ علىٰ من أنكر ، وحثَّ الناس علىٰ حضور المجلس ، وصار يحضرُ .

ولمَّا شرح « البخاري » كان يأتي بالشرح فيضعه وسطَ الحلقة إلى الصباح رجاءَ القبول ، فوقعتْ فتنةٌ بين الذين تحزَّبوا عليَّ ، فتفرَّقوا كلهم ، لـٰكن بعد نحو عشر سنين وأنا في نزاع وهم يريدون إبطال المجلس ، هـٰذه حكايتُهُ لي رضي الله عنه .

قال : (وكان إنشاء المجلس في جامع الأزهر سنة سبع وتسعين وثمان مئة) ، فله من ابتدائه إلىٰ أن مات الشيخُ [إحدىٰ] وخمسون سنة[1] ، ولم يتزوج رضي الله عنه حتىٰ مضىٰ من عمره تسعون سنة .

وأخبرني رضي الله عنه : أن وردَهُ في الصَّلاةِ على النبي صلى الله عليه وسلم عشرةُ آلاف في الليل وعشرة آلاف في النهار .

وكان رضي الله عنه حسنَ المعاشرة ، جميل الخُلق ، كريمَ النفس ، كثيرَ التبسُّم ، لا يكاد يُسمعُ منه قطُّ كلمة فيها رائحة دعوىٰ لمعرفة شيء من الطريق .

وكان قلبُه من الصفاء علىٰ جانب عظيم ، لا يظنُّ أن أحداً يكذب أبداً ، وكان باطنُهُ كباطن الطفل ؛ لا غلَّ فيه ولا حقدَ ، ولا مكر ولا خديعة ، ولا رياء ، ولا عُجْب ولا كِبْر ، ولا حسد ، ولا غير ذلك ، بل جبلَهُ الله تعالىٰ على الأخلاق المحمدية ، رضي الله عنه .

وكان إذا نزل بالمسلمين همٌّ لا يقرُّ له قرار ، ولا يضحكُ حتىٰ ينجلي عنهم .

وكان الناسُ يُثنون عليه بكثرة رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسكت ،

---

(١) في النسخ : (أحد) بدل (إحدىٰ) .

وكان إذا ذكرَ رؤيا يقول : رأىٰ بعضُهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقال له : كذا وكذا ، ولا يضيفُ لنفسه شيئاً من ذلك .

ورأيته كثيراً مجالساً للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فيقول لي : شبهت بي ، ولم يعترفْ بذلك .

وكان الناس يرونه في عرفات ، وفي الطواف ، ويرسلون يخبرون أهل مصر ، ويقولون : سلَّمنا عليه في الموضع الفلاني ، فيُنكر ذلك ويقول : شبَّهوا بي ، فحلف شخصٌ بالطلاق الثلاث : أنه رآه في عرفات ، فقال الشيخ : أنا ما فارقتُ مصر أبداً في هـٰذه السنة .

وغرقتْ مركبٌ في البحر المالح ، فرأىٰ بعضُهم الشيخَ نور الدين الشوني وهو يأخذ بيد الناس ويُوصلهم إلى البر يقظةً ، وحلفوا بالطلاق ، فصار الشيخُ يتعجَّبُ من حلفهم ويقول : أنا ما علمتُ بغرقهم إلا منهم ، فكيف هـٰذا الحال ؟! فقلتُ له : يا سيدي ؛ هـٰذا من شدَّة اعتقادهم فيك ، فينشئُ الله تعالىٰ من قوَّة توجُّههم إليك شخصاً علىٰ صورتك يقضي حوائجهم ، فقال : الآن زال ما عندي .

ومناقبه كثيرة مشهورة بين أصحابه .

ومما وقعَ لي معه : أنني لما دخلتُ من الريف إلىٰ مصر في سنة إحدىٰ عشرة وتسع مئة لقيني الشيخُ شهاب الطويل المجذوب المدفون في مصر العتيق ، فقال لي : أيشٍ حال أبوك ؟ فقلت له : إن أبي مات ، فقال : لا ، أبوك يعيشُ ، فقلتُ : من هو ؟ فقال : الشوني ، فما عرفتُ الشوني من هو ، ثم بعد سنتين حصلَ الاجتماعُ به في العادلية ، فقالوا لي : هـٰذا اسمُه الشيخ نور الدين الشوني ، فحكيتُ له ما قاله الشيخُ شهاب الطويل ، ففرح بي وأكرمني ، وقال : لا تقطعني ، ففارقته .

فرأيتُ تلك الليلة كأن الشيخ رضي الله عنه في أرض من بلور ، وعليها سورٌ من بلور شاهق نحو السماء ، وإذا بالشيخ يمشي في تلك الأرض ، وأنا وراءه ، ونعلُه يرنُّ ، فامتلأ قلبي أُنساً ، فبينما نحن كذلك إذ نزلتْ سلسلةٌ من ذهب ، وفيها قربةُ ماء صغيرة ، ووقفتْ بقدر ما يصل إليها الفم ، ففتحها الشيخ وشربَ منها ، ثم أسقاني الفضلةَ ، ثم تخلَّف الشيخ ، وفارقتُهُ إلىٰ قدّام ، فلم أزلْ أمشي حتىٰ غابَ عني الشيخ ،

فنزل لي سلسلةٌ من فضة ، وفيها شيءٌ طولُهُ شبرٌ في شبر ، وفيه ثلاثُ عيون تتفجَّرُ ماءً ، مكتوبٌ على العين العليا : مُستمدُّ هـٰذه العين من الله ، وعلى الوسطىٰ : مستمدُّ هـٰذه العين من العرش ، وعلى السُّفلىٰ : مستمدُّ هـٰذه العين من الكرسي ، فألهمني اللهُ أن أشرب من عين العرش ، فشربتُ منها ماءً حلواً بارداً أحلىٰ من العسل ، وأبردَ من الثلج ، وأطيبَ رائحةً من المسك .

ثم استيقظتُ ، فمضيت إلى الشيخ ، وأخبرتُه بما رأيتُ ، وكان عنده الشيخ شهاب الدين مُعبِّرُ المنامات الهرامزي ، فقال : لا أعبِّرُ هـٰذا المنام إلا بدينار ، فأعطاه الشيخ ديناراً ، فقال لي : يحصل لك وصلةٌ عظيمة واستمدادٌ من الشيخ ، ثم تعيشُ بعده زماناً ، وأما شربُك من عين العرش فإنك تتخلَّقُ بالرحمة علىٰ جميع العالم ؛ لأن الله تعالىٰ ما ذكر الاستواءَ على العرش إلا باسمه الرحمـٰن . انتهىٰ .

ومما وقع لي معه أيضاً : أنني سمعتُ في المنام قائلاً يقول لي : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم دخل مصر ، وهو جالسٌ عند الشيخ نور الدين الشوني في المدرسة السيوفية قريباً من الحريريين ، فخرجتُ قاصداً للزيارة ، فوجدتُ السيدَ أبا هريرة واقفاً علىٰ بابها الأول ، فسلَّمتُ عليه ، ثم دخلتُ فوجدتُ المقداد بنَ الأسود واقفاً على الباب الثاني ، فسلَّمت عليه ، ثم دخلتُ لباب صحن المدرسة ، فوجدت السيد عليَّ بنَ أبي طالب ، فسلَّمتُ عليه ، ثم وقفتُ علىٰ باب خلوة الشيخ وأنا ساكتٌ أتأمَّلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عند الشيخ ، فلم أجده ، فقال لي : ما لك ؟ فأمعنتُ النظر في وجه الشيخ ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في جسم الشيخ كالماء الأبيض الشفاف يجري في بدن الشيخ من جبهته إلىٰ قدمه ، وصار جسمُ الشيخ يخفىٰ ويظهرُ جسمُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم حتىٰ غابَ جسمُ الشيخ جملةً وظهر جسمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلَّمتُ عليه .

ثم استيقظتُ فمضيت إلى الشيخ ، وحكيتُ له الرؤيا ، ففرح بذلك ، ثم قال : والله ؛ ما سررتُ بشيء من أحوالي طول عمري مثلَ ما فرحتُ بهـٰذه الرؤيا ، وصار يبكي حتىٰ بلَّ لحيتَهُ بالدموع ، ثم قال : يا فلان ؛ هـٰذا يدلُّ على الاتحاد العظيم بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فالحمدُ لله ربِّ العالمين .

ورأيتُ مرةً الإمام الشافعيَّ رضي الله عنه ، فقال : أنا عاتبٌ عليك في قلّة الزيارة ، وعلى الشيخ نور الدين الشوني ، وعلى الشيخ نور الدين الطرابلسي الحنفي ، وكنتُ نائماً تلك الليلة في الروضة عند سادات بني الوفا ، فقلتُ للإمام إن شاء الله بكرة النهار نزوركم ، فقال : لا ، قمْ معي لأضيفك ، فذهبتُ معه إلىٰ قبته ، فصعد بي من ظهرها من ناحية جامع عمرو حتىٰ وصلنا إلى المركب النحاس التي في الهلال ، ففرشَ لي حصيرةً جديدة هناك ، وقدَّمَ لي بطيخة عبد اللاوي ، وخبزاً ليّناً ، وجبنَ أزرار ، وقال لي : كلْ يا عبد الوهاب هـٰذه الغدوةَ في مكان ماتتْ ملوكُ الدنيا ولم يأكلوا فيه غدوةً ، فأكلتُ معه .

ثم استيقظت ، فعديت من الروضة ، فزرته ، ثم مضيتُ إلىٰ شيخ الإسلام الطرابلسي في زاوية الحطاب ، فأخبرته ، فطلب البغلةَ ، وركب إلى الإمام ، ثم خرجتُ ، فمضيت إلى الشيخ نور الدين الشوني ، فقال إن شاء الله نزوره غداً ، ووجدتُ عنده الشريفَ عرعر وزيرَ السلطان الشريف بركات ، فاستبعد ذلك وقال : هـٰذه أباطيلُ ، الشافعي لا يعتبُ علىٰ مثلك ، فسكتَ الشيخُ ، فبينما الشريفُ عرعر نائم إذ رأى الإمامَ الشافعي ، فقال : عبدُ الوهاب صادقٌ في رؤياه ، نعم أنا عاتبٌ عليهم ، فجاء إلى الشيخ بكرة النهار ، وركبَ هو وإياه لزيارة الإمام ، وأرسل الشريفُ يعتذرُ إليَّ ويقول : ما كنتُ أحسبك إلا [نصاباً] تطلبُ شيئاً من الشيخ[1] ، فلما زار الإمامَ الشافعي رآه الشريف تلك الليلة وهو يقول له : لولا وجود الشوني ومجلسُهُ لهوىٰ بأهل مصر ما هوىٰ .

ولما مرض رضي الله عنه مرضَ الموت مكثَ سبعاً وخمسين يوماً علىٰ جنب واحد ، لم يتقلبْ حتىٰ ذابَ لحمُ ظهره ، وصار النملُ يدخل جسدَهُ ويخرج ، ولم يتأوه قط ، فلما مات ما ضممنا لحم ظهره إلا بالقطن وورق الموز .

ولازمته رضي الله عنه في السهر معه في جامع الأزهر نحو خمس سنين ، ثم قال : أفلا تجمعُ لك جماعةً في جامع الغمري وتسهر بهم ؟! فلعل يحصلُ هناك أحدٌ

(١) في النسخ : (نصاب) بدل (نصاباً) .

يوافقك ، فقلت : نعم ، وذلك في سنة تسع عشرة وتسع مئة ، ففعلتُ ذلك بإشارته ، فاجتمع عندنا في ثاني جمعة خلائقُ كثيرةٌ ، وأوقدوا شموعاً وقناديلَ كثيرة ، ففرح الشيخ بذلك ، فانشرح صدري لقراءة : (إنا أعطيناك الكوثر) ليلة الجمعة ألفَ مرة قبل قراءة : (قل هو الله أحد) ، فرأىٰ جماعةٌ كثيرةٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرتُ بذلك الشيخ ، فقال : إن شاءَ الله نفعلُها في مجلسنا ، ففعلها في مجلس جامع الأزهر .

ثم إن جماعتنا كرَّروا عند ختام القراءة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ساعةً طويلة ، فحصل لهم بذلك بسطٌ عظيم ، فأخبرتُ بها الشيخ ، ففعلها في مجلسه ، وتوارثها عنه جماعتُهُ ، وهـٰذا كان أصل قراءة (إنا أعطيناك الكوثر) وتكرار هـٰذه الآية .

ثم إننا سهرنا العشرَ الأخير من رمضان متوالياً ، وكان الشيخُ لا يسهر إلا ليالي الوتر فقط ، فقلت له في ذلك ، فانشرحَ صدره لسهر العشر كلِّه وقال : إن ليلة القدر واحدةٌ لا تتعدَّدُ ، وربما يكون مطلعُ الهلال مختلفاً ، وربما جاءتْ في الأشفاع بالنظر لمطلع بلادنا ، فهـٰذا كان سببَ سهر العشر كاملاً في الأزهر .

واعلم يا أخي : أن الشيخ أولُ من سنَّ الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعةً ، ولم يبلغنا قط أن أحداً فعله قبله من عهد النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ عصره ، إنما كان الناس يصلون فرادىٰ ، ولم يبلغنا في أوراد المشايخ أن أحداً منهم له وردٌ يشتغل به الفقراء جماعةً إلى الصباح ويستغرق الليلَ كاملاً سوىٰ ورد الشيخ نور الدين الشوني رضي الله عنه ، إنما أوراد المشايخ حزب يُقرأ ، أو مجلس ذكر ساعة بعد العشاء وينامون .

ولما دفن رضي الله عنه رأيته في المنام وهو يقول لي : قد جعلوني بواباً للبرزخ ، فلا يدخلُ عملُ أحد إلى البرزخ إلا وأعرفه ، وما دخل على البرزخ عملٌ أضوءُ ولا أنورُ من عمل أصحابنا ؛ وذلك لأنه تلاوةُ قرآن ، وذكرٌ ، وصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ .

ورأيتُ : أن قبره قد اتَّسع مدَّ البصر ، وهو مغطّىً بلحاف حرير أخضر ، مساحتُهُ

نحو فدان من الأرض ، ثم إنِّي رأيتُه بعد سنتين وشيء ، وهو يقول لي : غطِّني بملاءتك ؛ فإني عريان ، فما أعرفُ ما المُرادُ بذلك ، فمات ولدي محمد تلك الليلة ، فنزلنا به ، فدفنته عنده ، فوجدنا الشيخ عُرياناً على الرمل الأبيض ليس عليه من كفنِهِ خيط واحد ، ووجدناه طريّاً ، وظهرُه يخرُّ دماً مثل ما دفناه سواء لم يتغيَّرْ لحمه ، فغطيته بملاءتي كما قال ، وقلتُ له : هـٰذه وديعةٌ عندك ، فإذا قمت من قبرك ، وألبسوك الخلعةَ أرسلْ لي ملاءتي ، فهي عليه إن شاء الله تعالىٰ إلى الآن .

وهـٰذا من أدلِّ دليل علىٰ أن الشيخ كان اتحد بالنبي صلى الله عليه وسلم اتِّحاداً كلياً بالجسم كما مرَّ في الرؤيا السابقة ؛ ولذلك لم يبل جسدُهُ بعد سنتين وشيء .

ثم إني أرسلتُ وراء البنَّاء ، فبنيتُ عليه حائطاً ، وجعلت فيها طاقةً عالية لا يستطيع أحدٌ أن يدخلَ ميتاً عليه بعد ذلك ؛ قياماً بحرمته ، فليس معه أحدٌ مدفوناً سوىٰ ولدي محمد الأول وأخوه عبد الرحمـٰن ، فإنهما دُفنا قبله بسنتين ، ومكانهما تحت المصطبة التي في الدركاة[1] ، والشيخ تحت الشباك لا تحت التابوت ، ولم يكن علىٰ بال الشيخ الدفن عندنا سوىٰ في مرض موته ، فكنتُ كلما أزوره يقول : الفسقيةُ التي فيها أولادك تسعُ أحداً ؟ فأقول له : نعم ، فلما حضرته الوفاةُ طلب أكابر الدولة أن يدفنوه عندهم ، فقال : إذا متُّ فادفنوني عند عبد الوهاب ، فرضي الله عنه ما كان أكثر محبَّته لنا حيّاً وميتاً !

ثم إني رأيتُه بعد موته بسنتين وهو يقول لي : علِّمني صلاة الشيخ عبد الله العبدوي[2] ؛ فإني وجدتُ ثوابها في الآخرة تعدلُ المرةُ منها عشرة آلاف صلاة من غيرها ، وقد فاتتني في دار الدنيا ، وهي : اللهم ؛ اجعلْ أفضلَ صلواتك أبداً ، وأنمىٰ بركاتك سرمداً . . . إلىٰ آخرها ، فعلمتُ أن الشيخَ إنما يُريد بقوله : (علمني هـٰذه الصلاة) لأُصلِّي أنا بها ؛ فلذلك جعلتُها آخر كيفيات الشيخ التي كان يُصلي بها في حياته ، رضي الله عنه ؛ لأن الشيخَ قد صار لا تكليف عليه .

مات رضي الله عنه سنة أربع وأربعين وتسع مئة ، ودفن بزاويتنا بخطِّ بين السورين ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

---

(١) الدركاة : عتبة الباب .

(٢) في (ج ، د ، هـ ، و ، ك) : (العبدوسي) .

ومنهم :

(٤٢٧) الشيخ الصالح ، العارفُ بالله تعالىٰ ، والداعي إليه الشيخ علي الكازواني رضي الله تعالىٰ عنه[١]

أحدُ أصحاب سيدي علي بن ميمون ، وأخو سيدي محمد بن عراق في الطريق .

كان كثير المجاهدة والرياضة .

أخبرني من لفظه : أنه كان في بداية أمره يمكثُ الخمسَ شهورٍ طاوياً لا ينام إلا جالساً .

صحبته مدةَ إقامتي بمكة في الحجَّتين اللتين حججتُهما سنة سبع وأربعين ، وسنة ثلاث وخمسين وتسع مئة ، وانتفعت بكلامه ولحظه وإشاراته .

وأعطاني رسالةً من رسائله ، فقال : انظر هـٰذه من أولها إلىٰ آخرها ، فطالعتُها كلَّها .

وسمعته يقول : (**الإرشادُ علىٰ ثلاثة أقسام** :

١ ـ **إرشاد العوام** إلىٰ معرفة ما يجبُ على المكلَّف معرفته من الحدود والأحكام في فروض العين والكفاية ، وما لا بد منه من السنن المؤكَّدة .

٢ ـ **وإرشاد الخواص** إلىٰ معرفة النفس ؛ وهو معرفةُ الداء والدواء فيما يردُ على الضمائر والخواطر كلِّها .

٣ ـ **وإرشاد خواصِّ الخواص** إلىٰ معرفة ما يجبُ لله تعالىٰ ، وما يجوز ، وما يستحيل ، وتنزيه صفاته ، وذاته ، وأفعاله عن النقائص) .

وسمعته مرةً يقول : (الطريقُ إلى الله تعالىٰ يكون كمالُها بلزوم الحدود ، وكمال الشهود) .

وسمعته يقول : (لا يُؤذن في الكلام إلا لمن ثبتت استقامته في أفعاله ، وأقواله ، وأحواله ، وإلا فهو فتنةٌ على الناس) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٩٩) (٤١٠) .

وسمعته يقول : (الوقوف مع المظاهر حجابٌ ظاهر ، والترقِّي عن المظاهر كشفٌ ظاهر) .

وسمعته يقول : (من صدَّق ما يُقال فيه من المذموم فقد سَلَكَ ، ومن صدَّق ما يُقال فيه من المحمود فقد هَلَكَ) .

وسمعته يقول : (من كان مجاهداً فسوف يكون مشاهداً) .

وسمعته يقول : (من صَدَقَ في طلب الله لم يُبالِ بترك ما سواه ، ومن بالغ في مدح نفسه فقد بالغ في ذمِّ غيره) .

وسمعته مرة أخرىٰ يقول : (من بالغ في ذمِّ غيره فقد بالغ في مدح نفسه) .

وسمعته يقول : (فسقُ العارف في نهايته[1] : أن يتوسَّعَ في مأكله وملبسه ومسكنه ، وينعِّمُ نفسَه بالمباحات الزائدة عن الضرورة) .

وسمعته يقول : (من نفى السِّوىٰ فقد أثبت ، ومن أثبت فقد نفىٰ ، والكاملُ من أثبت ونفى ؛ امتثالاً لأمر الله تعالىٰ ، مع علمه بما الأمر عليه) .

وسمعته يقول : (الذِّكر علىٰ أقسام : ذكرٌ منك إليه ، وذكرٌ منه إليك ، وذكرٌ منه إليه ، لا منك ولا إليك) .

وسمعته يقول : (من ادَّعىٰ كمال الطريقة بغير آداب الشريعة فلا برهان له ، ومن ادعىٰ وجودَ الحقيقة بغير كمال آداب الطريقة ؛ من النُّسك والعبادة فلا برهان له) .

وسمعته يقول : (من زهد في فضول الثياب كان من الأحباب) .

وسمعته يقول : (إذا طلعتْ شمسُ المعرفة علىٰ وجود العارف لم يبقَ نجومٌ ولا قمر وإن وجد الأثر) .

وسمعته يقول : (من علامة من يدَّعي أنه قطعَ حجب العنصر الناري : أن يترقَّىٰ عن الخواطر الشيطانية ، ومن علامة من قطعَ حجبَ العنصر الترابي : أن يترقَّىٰ عن الخواطر النفسانية ، ومن علامة من قطع حجب العنصر المائي : أن يؤدي

---

(١) في (أ ، ط) : (فقه) بدل (فسق) .

الطاعةَ ويخلصَ فيها ، ولا يقفَ مع شيء ، ومن علامة من قطع حجب العنصر الهوائي أن يعرفَ الله في كلِّ شيءٍ ، وبكل شيء ، وعند كلِّ شيء ، ومن علامة من ترقَّىٰ عن ملاحظة روحه القائم بصورته الجثمانية : أن يترقَّىٰ عن الحجب النورانية) .

وسمعته يقول : (قال الإمام مالك : من تفقَّه ولم يتصوَّفْ فقد تفسَّق ، ومن تصوَّفَ ولم يتفقَّه فقد تزندق ، ومن تفقَّه وتصوَّف فقد تحقَّقَ) .

وسمعته يقول : (كلُّ ما أخفيته عن الظاهر قوي إشراقُهُ في الباطن) .

وسمعته يقول : (كلما تجاهل العارف كلما قويَ في الإخلاص ، وسلمَ من القواطع) .

وسمعته يقول : (من غلبَ نفسَهُ فلا غالب له من الخلق ، ومن غلبته نفسُهُ غلبه كلُّ أحدٍ ، فإياك أيُّها الفقير أن تأكل الشهوات وتطلبَ نفوذَ القول ؛ فإن ذلك محال) .

وسمعته يقول : (الفرقُ المجرَّدُ شركٌ خفي ، والجمعُ المجرَّدُ جحود جلي ، وشهودُ الجمع في الفرق مقامٌ عليٌّ) .

وسمعته يقول : (البعيدُ هنا في عين القرب ، والقريبُ هنا في عين البعد ، وأجرِ علىٰ هـٰذا القياس ، واللهُ يحفظك من الناس) .

وسمعته يقول : (في باطن الزهد طمعٌ ، وفي باطن الطمع زهدٌ ، وفي باطن الكِبْر تواضعٌ ، وفي باطن التواضع كِبْرٌ ، وفي باطن الفقر غنىً ، وفي باطن الغنىٰ فقرٌ ، وفي باطن العزِّ ذلٌّ ، وفي باطن الذلِّ عزٌّ) .

وسمعته يقول : (كل المظاهر لنا ستائر) .

وسمعته يقول : (ما تعسَّرَ مقامٌ أو معنىً غامضٌ على السالك إلا من بقية في وجوده ، فمن طلبَ الوصول إلىٰ مقام أو معنىً فليجتهد في إزالة تلك البقية ، ولا يقف يتفعل بالفكر ؛ فإن ذلك من التلبيس) .

وسمعته يقول : (إذا مرَّ الهواءُ على الجيفة حملَ رائحتها ، وإذا مرَّ على المسك حملَ رائحته ، كما أن الماءَ يكتسبُ قيداً في مقرِّه أو ممرِّه) .

وسمعته يقول : (إنما خُلق الإنسان أولاً في أحسن تقويم ؛ لأنه كان عند الفطرة بلا

شهوة ، فلما ابتُلي بالشهوة رُدَّ إلىٰ أسفل سافلين) .

وسمعته يقول : (من نظر بعين الجمع كانت له الحقائقُ والأسرار أفلاكاً ، ومن نظرَ بعين الفرقِ كانت له المظاهرُ إشراكاً) .

وسمعته يقول : (الحجابُ عن الله بغفلتك عنه ولو قدرَ نَفَسٍ واحدٍ جحود خفي) .

وسمعته يقول : (الكمالُ في شهود الجمع : هو إعطاءُ كل ذي حقٍّ حقَّهُ في مقام الفرق) .

وسمعته يقول : (كلُّ ذرةٍ من الوجود معراجٌ ، والمربي جبريل السالك) .

فهـٰذا ما سمعته منه بمكة في الحجَّتَين .

وكان بدء أمره بمدينة حلب ، وبنىٰ له النائبُ تكيةً عظيمة ، واجتمع عليه خلائقُ لا يحصون ، فوقعتْ فتنةٌ في حلب ، فقُتِلَ الدفتردار وقاضي العسكر ، فقال الناسُ : إن ذلك بإشارة الشيخ ، فأخرجوه من حلب ، ونفوه إلىٰ رودس ، فأقام بها ثلاث سنين ، ثم رأته خوند الخاصبكية وهو يقول لها : أُريد أن أقيمَ بمكة ولا أرجع إلىٰ حلب ، فقالت : من تكون ؟ فقال : الكازواني ، فكلَّمتِ السلطان سليمان ، فأرسل له مرسوماً بأنه يُسافر إلىٰ مكة ويقيم بها ، وعمَّرتْ له خوندُ هناك تكيةً ، وفيها سِماط ، فزاحمه أهل مكة ، فتركها ، وسكنَ في بيت عند الصفا إلىٰ أن **مات بمكة سنة خمسٍ وخمسين وتسع مئة** ، رضي الله عنه .

وأقبل علىٰ ولدي عبد الرحمـٰن بالمحبّة ، ودعا له بدعواتٍ شريفة ، وكان يتكلَّمُ هو وإياه بالإشارة في الطريق وهو ابنُ ثلاث سنين ونصف في الحجة الأولىٰ ، ويعجب به ، وقال : أدبني ولدُك بكلمات .

فلما كانتِ الحجة الثانية قال له : قل لوالدك يجاور بمكة هـٰذه السنة ، فقال له ولدي : إنه ليس معنا شيءٌ يقوم بنا ، فقال : الرزقُ على الله تعالىٰ ، فقال له الولد : إن كنتَ تُريد لنا الإقامة على التجريد فشاركنا في ذلك ، فقال له : وكيف أشاركُكم ؟! فقال تُخرجُ جميع ما عندك من النقد والطعام والثياب لهـٰؤلاء الفقراء الزيالع حتىٰ

لا يبقىٰ عندك في البيت شيءٌ مثلنا ، ونحن نُقيمُ معك ؛ لأنك حينئذ قدوتُنا ، ونصيرُ نتشبَّه بك ، فأرسل يقول لي : قطعني ولدك بالحجة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

وأخبرني بأنه لما دخلَ مكة انقلبت أهلُها إليه ؛ رجاء أن يتوسَّطَ لهم عند السلطان في الأرزاق ؛ لكون الخاصبكية تعتقدَهُ ، قال : فتكدَّرَ عليَّ وقتي بذلك ، فتظاهرت بالرغبة في الدنيا ، وصرتُ كلما يأتي إلىٰ مكةَ صدقةٌ أرسل قاصدي أسألهم أن يُعطوني ، فإذا أعطوني قلت : هـٰذا يسيرٌ ورددته عليهم ، فأنكروا عليَّ ، ولم يصر أحدٌ منهم يقفُ لي علىٰ باب ، فاسترحتُ بذلك ، وراق وقتي للطواف والعبادة ، وإلا فأَنا بحمد الله لا أحتاج إلىٰ صدقة أحد ؛ فإن عندي ما يكفيني ويكفي عيالي من صُررٍ ومسموح ، وغير ذلك . هـٰذا لفظُه لي ، رضي الله عنه ، آمين .

ومنهم :

(٤٢٨) الشيخ الإمام ، العابد الزاهدُ
الشيخ شمس الدين الديروطي الواعظ رضي الله عنه[١]

كان يعظُ الناس بجامع الأزهر وصاحب البرج في دمياط المتهدم الآن .

كان رضي الله عنه مُهاباً عند الملوك والأمراء ، زاهداً مُجاهداً في سبيل الله ، مُرابطاً في ثغر دمياط ليلاً ونهاراً ، والمكحلة[٢] منصوبةٌ في طاقة بيته علىٰ بحر النيل على الدوام .

وكان قوَّالاً بالحقِّ لا يخافُ في الله لومةَ لائم .

وكان إذا تكلَّم على الكرسيِّ بجامع الأزهر يصيحُ الناس ، ويتناحبون بالبكاء والعويل ، حتىٰ كأنهم يشاهدون أهوالَ يوم القيامة رأيَ عين ، وكان أكابرُ الأمراء يحضرونه ، وما رأت عيني من حصلَ له من القبول عند الخاصِّ والعام مثله .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٠٤) (٤١٢) .

(٢) **المكحلة** : المدفع ؛ حيث يوضع كحل البارود مع فتيل صغير لينفجر ، ويقذف القذيفة على الهدف . « معجم الألفاظ التاريخية » (ص ١٣٧) .

كنتَ لا تراه قطُّ ماشياً وحده ، وإنما الناسُ يتبعونه ، ومن لم يحصل جسمَهُ يرمي رداءَهُ على الشيخ حتىٰ يمسَّ ثيابَ الشيخ ، ثم يردُّهُ يمسحُ به علىٰ وجهه .

وكان يختفي إذا شاء في بيته أو غيره ، فيكون يتحدَّثُ مع الناس فلا يجدونه ، ثم يكونون وحدَهم فيجدونه بينهم .

وحكىٰ لي ولده السريُّ نفعَ الله به ، عن جدَّته أمِّ الشيخ : أنها كانت كثيراً ما تضعُ له في المحلِّ الذي كان يجلس فيه ما يأكلُ وما يشرب ، فيأكله وهي لا تراه ، وإنما تسمعُ كلامَهُ فقط .

وكان إذا تكلَّم في علم من العلوم تنصتُ العلماءُ له ، ويقولون : ما سمعنا بهـٰذا العلم قط من أحد ، ويعترفون بفضيلته .

وكان شجاعاً مقداماً في أمور المسلمين وتدبيرِ مصالحهم .

وخرج عليه مرةً لصوصٌ في مركب ، وكان الآخر في مركب ، فخاف أهلُ المركب ، فقال : لا تخافوا ، ثم أشار إليها ، فوقفتْ وتسمَّرتْ في الماء حتىٰ بَعُدَ الشيخُ عنها نحو ميل ، ثم أشار إليها ، فجرتْ ، ثم بعد ذلك جاء اللصوص إلى الشيخ وتابوا ، وصاروا من أصحابه .

وحطَّ مرة على السلطان الغوريِّ في تركه الجهاد على الكرسيِّ ، فبلغه ذلك ، فأرسل إليه ، فحضر ، فقال : ما حملك علىٰ أن تذكرنا بالنقائص بين العوام ؟! فقال : حملني علىٰ ذلك نصرةُ الدين ، فقال : ما عندنا مراكبُ معدةٌ للجهاد ، فقال : عمِّر لك مراكب ، أو استأجر ، وأغلظ على السلطان القولَ ، فاصفرَّ لون السلطان منه ، وأمرَ له بعشرة آلاف دينار ، فردَّها وقال : أنا رجلٌ تاجر ، لا أحتاجُ إلىٰ مالك ، فقال : عمِّرْ بها في البرج ، فقال : لا أحتاج إلىٰ أحد يُساعدني فيه ، ولـٰكن إنْ كنتَ أنت محتاجاً لشيء تصرفُهُ على الجهاد أنا أقرضك ، وأصبرُ عليك .

ثم طال بينهما الكلامُ ، فقال الشيخ للسلطان : أما تؤدي شكرَ بعض ما أنعمَ اللهُ عليك ؟! فقال : فبماذا ؟ فقال : قد كنتَ كافراً ، فمَنَّ اللهُ عليك بالإسلام ، وكنت رقيقاً فمَنَّ الله عليك بالعتق ، ثم جعلك أميراً ، ثم سلطاناً ، ثم عن قريب يُميتك ،

ويجعلون أنفَكَ في التراب ، ثم يُحاسبك على النقير والقطمير ، ويُنادىٰ عليك يوم القيامة : من له حقٌّ على الغوري ؟ فياطول تعبك هناك ، فبكى السلطان وقال : لا تقطعنا ، فقال : لولا أن الله تعالىٰ أمرنا بطاعتك ما طلعتُ لك .

وكان الشيخ يتاجرُ في طبخ الأشربة والخيارشنبر[1]

وكان لا يأكلُ من الصدقات ويقول : إنها تسوِّد قلبَ الفقير .

وكان رضي الله عنه يتواضعُ لأشياخه ، ولو في مسألة واحدة من العلم ، ولا يرىٰ أنه كافأه عليها أبداً .

ورأيتُهُ مرةً نزل عن دابَّتِهِ في دمياط ، وقبَّلَ يدَ رجل رثِّ الهيئة أعمىٰ ، فقلت له : يا سيدي ؛ من هٰذا ؟ فقال : هٰذا أقرأني حزباً من القرآن وأنا صغير ، فلا أقدرُ أمرُّ عليه وأنا راكبٌ أبداً .

وأخبر زوجتَهُ : أن ولدها حمزةَ يُقتل شهيداً بمدفع يطيرُ رأسُهُ معه ، فكان كما قال ، فأتاه مدفعٌ من الفرنج في ليلة وهو في طاق البيت مرابطٌ ، فطارت رأسه .

ولما مرض أخبر والدته أنه يموتُ في تلك المرضة ، فقالت له : من أين لك يا ولدي علمُ ذلك ؟! فقال لها : أخبرني بذلك الخضرُ عليه السلام ، فكان كما قال .

وكانت والدتُهُ تقول : (لما حملتُ به رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأعطاني كتاباً ، فأوَّلتُهُ بولدي هٰذا) .

وأخبرني ولدُه السري : أن والدته أخبرته أنها رأتِ الشيخَ بعد موته في المنام ، فقالت له : كيف كان حالُك مع مُنكرٍ ونكير ؟ فقال : كلَّمونا بكلام مليح ، وأجبناهم بلسان فصيح .

وله من المؤلفات « شرح المنهاج » للنووي ، و« شرح الستين مسألة » لسيدي

---

(١) **الخيارشنبر** : ضربٌ من الخَرُّوب ، والخروب : شجر مثمر من الفصيلة القرنية ، ثماره قرون تؤكل ، وتعلفها الماشية .

أحمد الزاهد ، وكتاب « القاموس في الفقه » وقطعة من « شرح الإرشاد » لابن المقري .

مات رضي الله عنه وله من العمر نيفٌ وخمسون سنة في ربيع الأول سنة إحدىٰ وعشرين وتسع مئة .

وكان سيدي محمد بنُ عنان يحبُّهُ أشدَّ المحبّة ، ويقيمُ عنده في البرج بدمياط الشهرَ وأكثر ، رضي الله عنه .

ودفن بزاويته بدمياط ، ثم دفن عنده أخي الشيخ أبو العباس الحريثي ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٢٩) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهد ، المعمَّرُ الشريف يوسف الهندي(١)

الذي قدم مصرَ في سنة خمسٍ وخمسين وتسع مئة .

وأخبرني أن عمرَه ثلاثُ مئة سنة وشيء .

وكان كثيرَ الصوم والعبادة ، أقامَ بالجبل المقطَّم مدَّةً في زمن السلطان الغوري ، ثم سافر إلىٰ بلاد الروم ، ثم حجَّ ، ثم رجع إلىٰ مصر

وكان إذا دخلَ رمضانُ لا يُكلِّمُ أحداً مُطلقاً حتىٰ ينقضي رمضان .

كان رضي الله عنه حسنَ الخُلق ، كريمَ النفس ، خفيفَ اللحم ، ولحيتُهُ سوداء مع هـٰذا العمر الطويل .

لبس من ثيابي ، ولبستُ من ثيابه ، وأقام عندي مدَّةً ، ثم سافر إلىٰ مدينة إسكندرية ، **فمات بها سنة سبعٍ وخمسين وتسع مئة** ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٧٠) .

ومنهم :

(٤٣٠) الشيخ العابدُ الزاهد ، المنفردُ عن الناس بالجبل المقطَّم الشيخ شاهين رضي الله تعالىٰ عنه[١]

أخذ الطريق عن الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي أحمد بنِ عقبة اليمني المدفون بحوش السلطان برقوق ، فلما مات صحب ستين شيخاً ؛ منهم : الشيخ العارف بالله تعالىٰ حسين جلبي المدفون بزاوية الشيخ دمرداش ، وكان من أجلِّ جماعة سيدي عمر روشني بتوريز العجم رضي الله عنه .

وكان الشيخ شاهين من مماليك السلطان قايتباي ، وكان مقرَّباً عنده ، فسأل السلطان أن يعتقَهُ ويُخلِّيه لعبادة ربه ، ففعل ، فساح إلىٰ بلاد العجم وغيرها ، ثم رجع إلىٰ مصر ، فأقام بالمحل الذي دُفن فيه ، وبنىٰ له فيه معبداً ، وحفر له فيه قبراً .

وكان لا ينزلُ إلىٰ مصر إلا لضرورة شديدة ، ثم انقطعَ لا ينزلُ من الجبل [سبعاً] وأربعين سنة[٢] .

وكانت له الشهرةُ بالصلاح في دولة الجراكسة وبني عثمان .

وكانت نوابُ مصر وقضاةُ عساكرها ودفاترها وسناجقها يزورونه ويتبرَّكون به ، ولم يقع مثلُ ذلك لأحد من أمثال الشيخ من مشايخ مصر الذين أدركناهم غيره .

وكان كثيرَ المكاشفة ، كثيرَ الصمت والسهر والجوع ، متقشِّفاً في الملبس .

وكان يكره تردد الناس إليه ويقول للشيخ جمال الدين : يا ولدي ؛ إنما سكنا في هـٰذا الجبل لأجل قلَّة الناس .

وكان رضي الله عنه يغتسل لكل صلاة ، وبلغنا : أنه قام للوضوء في الليل فلم يجدْ ماءً ، فبينما هو واقف وإذا بشخص طائرٍ في الهواء وفي عنقه قربة ماء ، فأفرغها له في الخابية ، ثم رجع طائراً نحو بحر النيل ، وهـٰذا من صدق الشيخ شاهين ، حيث

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٠٩) (٤١٥) .
(٢) في النسخ : (سبعة) .

سخَّرَ اللهُ له من يأتيه بالماء ولا يتهجد بغير وضوء ويكتفي بالتيمم ، رضي الله عنه

مات رضي الله عنه في رابع شوال سنة أربع وخمسين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بالجبل ، وبنى السلطان عليه قبَّةً ، وأوقف على مكانه أوقافاً .

صحبته في دولة الجراكسة وأنا صبيٌّ أمردُ ، وأوصاني بالبعد عن الناس جهدي إلا لفائدة شرعية .

وقال لي مرةً : عليك بأركان الطريق ؛ فإن من ضيَّعَ الأركان فطريقُهُ باطلةٌ كمن تركَ أركان الصلاة سواء ، فقلتُ له : وما أركان الطريق ؟ فقال : الجوع والسهر والعزلة والصمت ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٣١) الشيخ الصالحُ ، العابد الزاهدُ
الشيخ أحمدُ الرُّومي رحمه الله تعالىٰ[1]

كان وقتُهُ معموراً بقراءة القرآن والذِّكر ، ومطالعة كتب التفسير ، وغير ذلك .

صحبته نحو عشر سنين ، وكان كثيرَ المجاهدات والرياضات .

وأخبرني أن له نحو ثلاثين سنة لم يقرب من النساء .

وكان يحبُّ العزلةَ والخمول ، ويأخذُ في أسباب الخفاء ويقول : (من الخفاء العظيم للفقير في هٰذا الزمان سعيُهُ على الدنيا ، والتظاهرُ بمحبَّتها ؛ فإن الناسَ يقلُّ اعتقادُهم فيه ، فينفرون عنه ، فيستريحُ ؛ وذلك لأن الظهورَ لا يكونُ إلا لأحد شيئين : إما لمن يطلبُ الطريق ، وإما للشفاعة عند الحكام ، وهٰذا أمرٌ تُودِّع منه ما بقيتِ الدنيا) .

وكان غوَّاصاً في علوم النظر والتوحيد ، هيِّناً ليِّناً بشوشاً ، مع كونه غالبَ الأيام صائماً ، وكان كثيراً ما يطوي الأربعين يوماً ، ويكتفي بزبيبة عند الإفطار .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٥٠٨) (٤١٤) .

حججنا بصحبته سنةَ ثلاث وخمسين وتسع مئة ، فما رأيتُ أحسنَ خُلقاً منه ، ولا أكرمَ نفساً ، كان لا يردُّ سائلاً ، وما رأيتُهُ جالساً في المحفَّة قطُّ إلا وهو متوجِّهٌ للقبلة ، مراقبٌ لله تعالىٰ .

مات رضي الله عنه مستهل رمضان سنة سبعٍ وخمسين وتسع مئة ، ودفن قريباً من زاوية سيدي محمد ساعي البحر بمصر العتيق رحمه الله .

ورأى الحفارُ في قبره الذي حفره قدرةَ ذهبٍ[1] ، فأخبروا بها نائبَ مصر علي باشاه ، فقال : فرِّقها على الفقراء الحاضرين جنازته ، ففرَّقوها وقالوا : هٰذه كرامةٌ للشيخ ، وسَّعَ بها علىٰ من صلىٰ عليه ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٣٢) الشيخُ الصالح ، العابدُ الزاهد ، العارف بالله تعالىٰ الشيخ أحمدُ الكعكي رحمه الله تعالىٰ[2]

كان يتكلَّمُ في مشكلات التوحيد بلسان غريب ، لا يكادُ يفهمُهُ أكابرُ العلماء ، فضلاً عن غيرهم .

وحصل له في بداية أمره جذبٌ ، فأقام عُرياناً [سبع عشرة] سنة[3] ، ينام في حوض الماء في الشتاء ، وينام في الفرن في الصيف ، ثم أفاق من الجذب ، ولبس العمامةَ والثياب الحسنة[4]

وكان كريمَ النفس جدّاً ، كثيرَ الافتقاد بالحسنة لأصحابه لا سيما إذا سافرَوا ، فلا يزال يتفقَّدُ أولادَهم بالفواكه وغيرها

وكان وِرْدُهُ في اليوم والليلة أربعين ألف صلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، واثني عشر ألف تسبيحة ، ويقول : إن ذلك كان وردَ أبي هريرة رضي الله عنه .

---

(١) في (ز) : (ورأى الحفار في المحل الذي حفروا فيه قبره قدرة ذهب) .
(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥١١) (٤١٧) .
(٣) في النسخ : (سبعة عشر) .
(٤) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

وكان أكثر أوقاته مُعتكفاً في بيته ، لا يخرج إلا أوقات الصلاة

وكان أولُ ما يتخرَّقُ من ثيابه موضعَ الركبتين من كثرة الجلوس عليهما والسجود .

وكان كثيراً ما يدخلُ في وِردِهِ من اصفرار الشمس بعد العصر ، فلا يفرغُ منه للفجر ، أو ضحوة النهار .

وكان وجهُهُ كأنه كوكبٌ دري ، ورأيتُهُ مرةً وقد خرج من وجهه نورٌ ، فكاد شعاعُهُ أن يمنع من رؤية وجهه ، وكان يقعُ له هـٰذا كثيراً عقبَ فراغه من ورده ، فكانت أورادُهُ تتشعشع نوراً من كثرة الإخلاص فيها

وكانت له سبحةٌ ألف حبة كباراً ، فسرق إنسانٌ منها سبعَ حبات ، فرأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقال له : يا أحمد ؛ فلانٌ سرق من سبحتك سبعَ حبات ، ولك كذا كذا يوماً تُصلِّي عليَّ ناقصاً عن العدد ، فذهبَ إلىٰ ذلك الفقير ، فقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخرجها له من رأسه ، فردَّها إلى السبحة .

وما رأيتُ قطُّ سبحةً أنورَ منها ، تكادُ تضيء من النور من كثرة الأوراد عليها .

وبلغنا : أنها كانت تدورُ بنفسها إذا أبطأ الشيخُ عن وقت الورد ، فيعلم دخول الوقت ، فلا أعلمُ هل ذلك لكونها صارت حيةً ، أو أن الملائكة تُحرِّكُها ، أو أحداً من صالحي الجنِّ .

وكان يكره سُكنى الزوايا والربط ، ويحبُّ سكنى الربوع[1]

وكان كثيراً ما يُخبرني بما أفعلُ مع زوجتي في الليل ، ويقول لي : الليلةَ كنتَ جنباً في الوقت الفلاني

وقد تكاسلتُ في ليلةٍ عن الغُسل من الجنابة ، فلما رآني بصقَ علىٰ وجهي وقال : أُفٍّ عليك تُضيِّعُ وقتك في الليل بشهوة ، وتؤثرُها علىٰ مجالسة ربك .

وكان يتستَّرُ بالشطح في بعض الأوقات ؛ لينفِّر منه الناسَ الذين لا ينفعون ، وكان لا يمزح إلا صدقاً .

---

(١) الربوع : الدار .

وكان يتحمَّلُ حملات الولاة ، ويأخذُ منهم المالَ ، ويراه حلالاً ، ويقول : هٰذا كسبي ، خاطرتُ فيه بروحي .

وكان يؤاخذُ صاحبَهُ بما يخطرُ علىٰ باله ، فكان غالبُ الناس لا يقدرُ علىٰ صحبته .

مات رضي الله عنه خامس عشر رجب سنة [اثنتين] وخمسين وتسع مئة[1] ، ودفن في زاوية شيخه ببيلاق سيدي حسين أبي علي رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٣٣) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهد سيدي علي الهندي رضي الله تعالىٰ عنه[2]

اجتمعتُ به في سنة سبع وأربعين بمكة المشرفة مدَّة إقامتي بها للحج ، وانتفعت برؤيته ولحظه .

وكان قليل اللحم ، بل هو جلدٌ علىٰ عظم ، وكان كثيرَ الصمت والعبادة هو وجماعته .

دخلتُ عليهم في حوش قريباً من دار الشريف بركات ، فوجدت أصحابَهُ نحو خمسين نفساً ؛ كلٌّ واحد حُجر عليه بإبراش من خوص ، وهم يتعبدون ، لا يخرجون إلا للصلاة في الحرم ، ثم يرجعون ، لا يخالط أحدٌ منهم صاحبه إلا لضرورة بإذن الشيخ ، فأعجبني حالُهم .

وأعطاني نصفين[3] ، وقال : هٰذه ضيافتُكَ ؛ فإنا قومٌ متجرِّدون وغرباء ، فلا تؤاخذونا . فوسَّع اللهُ تعالىٰ عليَّ في الرجعة ببركته ، ولم يكن معي شيءٌ لكلفة الرجعة ، وأُعطيتُ فيهما أربعين ديناراً في مكة ، فلم أرضَ ، وقالوا : ما فرحَ منه بهٰذا أحدٌ غيرك ، فلما وقفتُ تجاه قبر النبيِّ صلى الله عليه وسلم جاء شخصٌ ومدحَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بقصيدةٍ ، فأعطيتُهما له .

---

(١) في النسخ : (اثنين) .
(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥١٢) (٤١٨) .
(٣) النصف : قطعة نقدية .

ورأيتُ له عدَّةَ مؤلفات ؛ منها : « ترتيب أبواب الجامع الصغير » للجلال السيوطي رحمه الله ، فرتَّبها كلَّها على أبواب الفقه ، وأحاديثُ الكتاب إنما هي على حروف المعجم ، فلا يكادُ الإنسان يجد حديثاً في باب من الأبواب إلا إن طالع الكتابَ كاملاً ، فبوَّبَ لكلِّ نوع باباً ، وردَّ الأحاديث إليه ، واختصر : « نهاية ابن الأثير في غريب الحديث » ، وأطلعني على مُصحف في ورقةٍ واحدة ستين سطراً ، كلُّ سطرٍ حزبٌ .

ودعا لي بدعوات حول البيت ، وقال : اللهم ؛ اجعل حركاتِهِ وسكناته كلَّها مرضيَّةً عندك يا أرحم الراحمين ، فلما حججتُ سنة اثنتين وخمسين وجدتُه رجعَ إلى بلاد الهند[١] ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٣٤) الشيخُ الصالح ، الورع الزاهد ، مُحيي السُّنة المحمدية في بلاد دمياط والمنزلة الشيخُ شهاب الدين بن داود رحمه الله تعالى[٢]

ما رأت عيني بعد الشيخ محمد بن عنان ، والشيخ يوسف الحريثي أضبطَ لأفعال السنة منه .

وكان يقول : (من أراد ضبطَ أفعال السنة فليعمل بها ، ولا يكتف بالحفظ ؛ فإنها تتقيَّد عند العبد بالعمل ، فلا يكادُ ينساها) .

وكان محدِّثاً ، فقيهاً صوفياً ، كريماً سخياً ، يخدمُ الفقراء بنفسه ، كما كان والده .

وأخبرني رحمه الله : أنه كان كثيراً ما يعلِّقُ الدست للضيف في الليلة ثلاث مرات ، وقال لي : يا طالما علقنا الدست بالماء والأرز فقط ، فيجعل الله تعالى فيه الدسمَ ؛ تارةً لبناً ، وتارة مرقاً ، فتقول الضيوف : ما رأينا ألذَّ من هـٰذا الأرزِّ باللبن ، أو المرق .

وقال لي : يا طالما ملأتُ الإبريق من البئر شيرجاً أو عسلاً للضيوف ، وسترني الله معهم .

---

(١) في ترجمة سيدي علي الكازواني(٤/ ٢٤٩) أن الحجة الثانية كانت سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (٢/ ٥٢١) (٤٢٧) .

صحبته نحواً من أربعين سنة ، وأقمت عنده نحواً من شهر ، ولبس من ثيابي ، ولبستُ من ثيابه .

وماتتِ السُّنةُ بعد موته من بلاد المنزلة ، وكذلك إزالةُ المنكرات ، فما كان أحدٌ يقدرُ يتظاهر فيها بمعصية ، ولا تركِ صلاة ؛ خوفاً منه أن يضربه بالعصا .

وكانت له هيبةٌ عظيمة رضي الله عنه على الحكام .

مات سنة إحدىٰ وخمسين وتسع مئة ، عن نيف وثمانين سنة ، ودُفنَ عند والده في زاويته بالنسيمية ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٣٥) الشيخُ الصالح ، الورع الزاهد ، الفقيه المفنَّنُ في العلوم الشيخ عبد القادر[١]

أخي وشقيقي الذي كفلني بعد موت والدي .

كان علىٰ قدم عظيم من الورع والزهد ، وتركِ الدنيا ، ومع ذلك كان يَقري الضيوفَ مع اختلاف طبقاتهم ، ويقوم بالأرامل والأيتام والمساكين ، ويكسوهم ، ويطعمهم ، ويغسِّل الموتىٰ ويكفِّنهم من عنده .

وكان ليلاً ونهاراً في عبادة ، وكان لا يبيت علىٰ دينار ولا درهم .

وحججتُ معه سنة بلوغي الحلم وذلك في سنة أربعَ عشرةَ وتسع مئة ، فما رأيتُ أوسعَ خُلقاً منه .

وكان معنا ثلاثةُ جمال ، فحصل لهم أمرٌ في وادي المنصرف ، فبركوا الثلاثة ، فتصفى الحجُّ كلُّه ، ودخل علينا وقتَ العشاء وهو يضحك ويقول لي ولزوجته : لا تخافوا فإن معكم الماء والزاد ، فإذا فرغ جلس الإنسانُ مستقبلَ القبلة ومات كما ماتَ الصالحون ، فبينما نحن كذلك إذ جاءنا بدويٌّ فقال : لا تخافوا ، وحوَّلَ أحمالنا

---

(١) لم أجد له ترجمة في المصادر التي بين يدي .

علىٰ جماله ، وساق جمالنا عرياً ، فمشت إلى العقبة ، فأعطى الجمالَ شيئاً ، فلم يرضَ وقال : ما حملتُكم إلا لله تعالىٰ ، فبركَ منا جملٌ آخرُ بعد ذلك فرقدَ ، فتصفَّى الحج ، فأعطونا فيه ديناراً ، فأبيت ، فبينما أنا كذلك إذ جاء البدويُّ الأول ، فقال : كم أعطوكم فيه ؟ فقلت : ديناراً ، فقال عليَّ بذلك ، فأعطاه له الأخ ، فطاب الجملُ ثاني يوم ، وحمَّلَه حملاً من البهار ، فأتى البدويُّ به ، وقال : يا سيدي ؛ جملُكَ طابَ ، فخذه ، فلم يرضَ الأخُ ، فساق عليه العربَ ، فلم يرضَ ، وقال : ما طاب الجملُ إلا علىٰ ذمَّتِك ، فلما وصل إلىٰ مصر باعه بثلاثين ديناراً .

وأخبرني الشيخ أحمد بنُ الشيخ حسن وكان رجلاً صالحاً قال : ذهبت أنا والشيخ عبد القادر ، نفتحَ مطلباً ، وقلت : للشيخ عبد القادر ، اقرأْ أنت العزيمةَ ؛ لكوني لا أعرف الخطَّ ، ونحن إذ ذاك شبابٌ مردٌ ، فلما قربنا من المطلب بعد المغرب ضحك الخدَّام وقالوا لي : أين الزكيبة التي معك للذهب[1] ، ثم قالوا للشيخ عبد القادر : إنا عادة يا شيخ عبد القادر تحبُّ الدنيا ، فخجل الشيخ عبد القادر ورجع ، فما قدرتُ عليه يقرأ العزيمة . انتهىٰ .

فانظر شهادةَ الخدَّام له من الجنِّ بأنه لا يحبُّ الدنيا ، وهي منقبةٌ عظيمة له وهو صغير

وكان إذا زرع يُخرجُ التقاوي لشريكه ، ومن ذلك الوقت لا نعرُفُه حتىٰ يدخل الدار . وقالوا له مرة : أين جرنك ؟ فقال : واللهِ ؛ ما أدري هو في أيِّ ناحية .

وكان يقول : ما قَسمه اللهُ تعالىٰ لنا لا يقدر الشريكُ يأخذَ منه حبَّةً .

وأرسلتُ له مرةً أقول له : انظر للمقاتِّ[2] البطيخ حارساً حتىٰ نُرسل لك المركبَ توسقه فيها ، فقال : قد وصل إلينا كتابُك ، وفهمناه ، والذي نعلمُ به الأخ أنَّ ما قَسمه الله للفقراء في مصر لا يقدرُ أحدٌ من أهل الريف يذوقُ منه شيئاً ، وما قسمه اللهُ لأهلِ الريف لا يقدرُ أحدٌ من أهل المدينة يأخذ منه شيئاً ، فلا حاجة للحارس .

---

(١) **الزكيبة** : غرارة ، وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح والطحين .

(٢) **المقات** : هي المقثأة : موضع زراعته .

وكانت دارُهُ كأنها مارستان ، كلُّ امرأة مرضتْ أو عجزت يُرسلها الناسُ له ، وكذلك الأيتام والأرامل ، وكان يُنفق على الكل ، ويكسوهم ، ولا يعلمُ أحدٌ من أين يأتيه الأكلُ والدجاجُ والإوز والغنم ، مع أنه لا ثورَ له ولا بقرة ولا حمارة ، وكلُّ شيءٍ عنده بالكراء ، ويَقري الضيوف الواردة ولو كثروا .

وأخبرني إنسانٌ قال : أمسيتُ في السفر ، فدلُّوني على دار الشيخ عبد القادر ، فوجدتُ الزُّقاق ملآن رجالاً وبهائم ، وما وجدتُ لي موضعاً أدخلُ بحمارتي فيه ، فأقرى الكلَّ تلك الليلة .

وقالوا له مرةً : لِمَ لا تشتري لك بهائم ؟! فقال : إذا اشتهتِ النفسُ شيئاً من ذلك وقفتُ على كوم البلد وقتَ رجوع بهائمهم من المرعى ، فأقول لها : كل ذلك لكِ ؛ فإنه لا فرقَ عندي بين كون تلك البهائم في داري أو عند الناس ؛ لأني لا أرى لي مُلكاً لشيء مع الله تعالى .

وكان أكثرُ أعماله سريةً .

وكان جميلَ الأخلاق ، حسن المعاشرة ، بشوشاً ، لا تكاد تراه مقبوضَ الخاطر أبداً .

وكان إذا شعرَ شخصٌ بأحواله الذي يُمدح عليها يتعاطى بحضرته أفعالاً تردُّهُ عن ذلك المدح .

وما رأيته قطُّ يدَّعي شيئاً من الكمالات ، إنما الناسُ يصفونه بها ، وربما كان لا يشعرُ هو بكماله .

ولما حججتُ سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة طلب مني الإخوانُ الذين كنا بصحبتهم أن يجتمعوا على أحد من أولياء الله تعالى الذين يحضرون الموسمَ كلَّ سنة ، فقلتُ لهم : اقرؤوا الفاتحة سبعاً ، فقرأناها سبعاً ونحن في الحِجْر تحت الميزاب ، وقلتُ لهم : قولوا : اللهم ؛ اجمعنا في هذه الليلة على أحد من أوليائك ، أو أطلعنا على أحد ممن اصطفيته لحضرتك من أهل بلادنا ، ولا يشعر هو بنفسه .

فبينما نحن بين النائمين واليقظانين إذا رأى جماعةٌ منهم الفقير قائلاً يقول وهو

داخلٌ من فتحة الحِجر يمين المُصلي في الحجر : (هٰؤلاء ممن اصطفاهم الله تعالىٰ لمجالسته في هٰذا الزمان) ، فنظرتُ فإذا خلفه اثنا عشر رجلاً ، فعرفتُ منهم الشيخَ عبد القادر أخي هٰذا ، وعرفتُ منهم القاضي أبا البقاء بن جبيلات[١] صاحبَ محكمة بيت الوالي خارج باب زويلة ، والشيخ حسن الحديدي الفقيه بجامع الأزهر ، والشيخ مبارك التاجر بباب اللوق البُرُلُّسي ، فهٰؤلاء هم الذين عرفتهم[٢]

وقد تتبعتُ صفات هٰؤلاء الأربعة ، فوجدتُهم متقاربين في إخفاء الأعمال ، فلا يكادُ أحدٌ يلحظ بأنهم من الصالحين إلا إن كان من أهلِ الكشف علىٰ مقامات الرجال ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وأخبرني الأمير يوسف من جند السلطان سليمان قال : طفتُ بلاد الشام ، وحلب ، والروم ، والعجم ، ومصر ، وزرتُ فقراءها فما رأيتُ أحداً علىٰ قدم أخيك الشيخ عبد القادر في الأخلاق التي أعطاها الله له ، ثم قال : واللهِ ؛ لو وُضِع الشيخُ عبد القادر في كفَّة ووُضِع جميعُ مشايخ مصر الذين نعرفهم في كفَّة لرجحتْه عليهم ، رضي الله عنه .

وكأنَّ الله تعالىٰ ألقىٰ محبَّتَهُ في سائر القلوب ، فلا تجدُ أحداً ينقصه ، بل يُثنون عليه ، حتى النصارىٰ واليهود والظلمة الذين يردون عليه ، رضي الله عنه .

مات في ثالث عشر صفر الخير سنة ست وخمسين وتسع مئة ودفن بمقبرة بلده .

وطلب أخوه أحمد أن يتزوَّجَ زوجته بعده ، فقلت له : لا تفعل ؛ احتراماً له ، فخالف ، وعقدَ عقده عليها ، فجاءه في النوم بحربة ، وقال : لولا أنت أخي لطعنتك بهٰذه الحربة قتلتك ، ونخسَه بها في ذراعه ، فاستيقظ وأثرُها في ذراعه ، فلم يرجع ، فلم يزالا في خصام وهي تمنعُهُ من نفسها إلىٰ أن طلَّقها ثلاثاً ، ثم ماتتْ عقبَ الطلاق ، رضي الله عنه .

---

(١) ترددت النسخ بين (جيلات) و(حبيلات) ، والمثبت من (د) . وانظر ترجمته (٥/ ١٤٨) .
(٢) سيورد المؤلف هذه الرؤيا (٥/ ١٤٩) .

ومنهم :

(٤٣٦) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهدُ
صاحبُ القدم الراسخ في العبادة مع إخفائها
الشيخُ بدر الدين التوزي رحمه الله تعالىٰ[١]

كان من أولياء الله تعالى المستورين ، الذين لا يكاد جليسُهم يُميِّزُهُ عن العامة ؛ لأنه إن جلسَ مع فقيه كان فقيهاً ، أو مع فقير كان فقيراً ، أو مع عارف كان عارفاً ، أو مع عامي كان عامياً

وكان له خلوةٌ فوق سطح جامع الحاكم ، لا يدخُلُها في الليل أحدٌ غيره ولا ولده ، وكان له فيها عمامةُ شراميط ، ومرقعةٌ بالية ، يلبسها إذا دخل ، فلا يزالُ يتضرَّعُ ويبكي وهم يسمعونه إلى الفجر ، ثم يلبس ثيابَهُ الحسنة ، ويخرجُ لصلاة الصبح .

وكان أكابرُ الدولة كلُّهم يعظِّمونه ، ويبجلونه ، ويكرمونه ، ويهدون إليه الهدايا ، فيفرِّقها على المحاويج ، ولا يأكلُ منها شيئاً .

وكانوا يسمعون أن الشيخ يعرف الكيمياء الصحيحة ، وكان يعرف منهم أنهم لا يعظِّمونه إلا لأجل ذلك ؛ ليعلِّمهم الصنعة .

وخدمه الأمير تغري بردي الأستادار خدمةً طويلة ، فقال له : يا تغري بردي ؛ لا يخلو الأمرُ ؛ إما أن يأذن اللهُ لك في العمل ، فتصحَّ معك ، فيقتلك السلطان ، وإما ألا تصحَ معك فتكون [زغلياً][٢] ، فيقتلك السلطان كذلك ويسلب نعمتك ، فاستغفر عن ذلك الخاطر ، وتابَ إلى الله تعالىٰ .

وكان للشيخ صدقاتٌ عظيمة لا يقدرُ أحدٌ من الأمراء يقوم بها فضلاً عن آحاد الناس .

وكان رضي الله عنه يُغسِّل الأولياء ، فلا يموت وليٌّ إلا ويوصي أنه لا يُغسِّله إلا

---

(١) في (أ) : (النوري) ، وانظر « الكواكب السائرة » (١/ ٩٤) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٥٣) (النوزي)

(٢) في النسخ : (زغلي) .

الشيخ بدر الدين ، يتبرَّكون بيده ، فغسَّل سيدي أبا العباس الغمري ، وغسل الشيخ نور الدين الحسني ، وغسَّل الشيخ قيس ، وغسَّل ابنَ أخت سيدي مدين ، وغسَّل الشيخ أبا السعود الجارحي ، والشيخ محمد السروي ، والشيخ محمد بن عنان ، وغيرهم .

ومن وصيَّتِهِ لي : (يا فلان ؛ من مدَّ يده للأخذ من مال الولاة قصرتْ يدُه عندهم في الشفاعات) .

وكان يقول لي كثيراً : (لا تَصطلحْ مع نفسك أبداً تبعد عن حضرة ربِّك قهراً عليك) .

مات يوم الاثنين خامس ذي الحجة سنة ثلاثين وتسع مئة ، ودفن قريباً من تربة يشبك رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٣٧) الشيخ الصالح ، العارف بالله تعالى
الشيخ أحمد المناوي المغربي رضي الله عنه[١]

شيخُ السوهاجي بنواحي الصعيد .

كان رضي الله عنه مجهولَ الحال عند غالب الناس ، كلُّ أعماله قلبيةٌ ، وملبسه الثياب الرفيعة ، ومأكله الأطعمةُ الفاخرة .

وكان لا يصحبُ أحداً في الطريق إلا بعد طول امتحانه ، فإذا طلب منه إنسانٌ الصحبة يقول له : هات لي مالَكَ كلَّهُ ، وينظر ، فإن سمح بذلك فهو يصلح للطريق ، وإن لم يسمح يقول له : اذهب وإلا يمقتُك اللهُ ، ثم يقول : يبيعُ أحدُهم حضرةَ ربِّهِ بأقلَّ من جناح ناموسة ويُقدِّمُها علىٰ ربِّه ، ويطلب ينصبُ على الفقراء وعلىٰ ربه .

وكان كثيراً ما يغلبُ عليه الاستغراقُ اليومين والثلاثة ، فإذا أفاق يقضي الصلاة .

وكان كثير العطب علىٰ من أنكر عليه ، لا بد أن يحصل له نكدٌ ؛ إما مرضٌ ، وإما سرقة ، وإما موت من يحبُّهُ ، وإما إخراجٌ من وطن ، وإما حبسٌ ، وإما غيرُ ذلك .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢١٥) .

ولو لم يكن من أصحابه الدالِّين علىٰ مقامه إلا الشيخ أبو النجا السوهاجي رضي الله عنه لكان في التنويه بمقامه كفاية .

مات في شهر ربيع الأول ، ودفن بدمياط سنة ستٍّ وأربعين وتسع مئة .

رأيتُهُ في عمري مرةً واحدةً ، ولم يقع بيني وبينه كلام ؛ إنما أخبرني أصحابُهُ بحاله ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٣٨) الشيخ الصالحُ ، المجاهدُ المرابط ، قوَّامُ الليل ، صوَّامُ النهار الشيخ أحمد المغربي الزفتاوي رضي الله تعالىٰ عنه[١]

أجلُّ أصحاب سيدي محمد الغمري المدفون بالمحلة الكبرىٰ .

صحبته نحو ثلاثَ سنين ، وأولُ ما اجتمعتُ به قال لي : ثلاث سنين ، أسألُ الله تعالىٰ أن يجمعني بك قبل الموت ، رضي الله عنه .

مات سنة نيف وعشرين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بزفتا بالغربية ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٣٩) الشيخُ الصالح ، الذي أقامَهُ الله تعالىٰ في نفع الفقراء والمساكين الشيخُ إبراهيم الرحبي[٢]

المُقيم بباب جامع الأزهر الكبير في زاويته .

صحبته نحو أربعين سنة ، يجيء إليَّ وأروحُ إليه .

وكان مجهولَ الولاية عند أكثر الناس ؛ لكونه كان يسأل الناس للفقراء المقيمين عنده الدراهمَ والطعام والثياب والدقيق والشيرج وسائرَ ما يحتاجون إليه ، فيقولون :

---

(١) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من المصادر .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٨٥)

لو كان هـٰذا من الأولياء ما سأل الناس ، ويقيسونه علىٰ مشايخ الناموس ، ولو كشف اللهُ تعالىٰ عن بصيرتهم لرأوا كلَّ يوم للشيخ إبراهيم في هـٰذا الحال أكثرَ من عبادة المنقطع في خلوة سنة وأكثر .

وقد كانت هـٰذه طريقة سيدي عثمان الحطاب رضي الله عنه ، فكان يسأل الخضريةَ في كلِّ شيء بار عندهم ؛ من السلق والرجلة والجزر والكزبرة وغير ذلك ، ويطبخُهُ للفقراء ، وإذا احتاجوا إلىٰ قمح أو بسلة أو كسوة طلع للسلطان قايتباي ، فيأمرُ له بجميع ما يحتاج إليه .

ولما وقع الفصلُ في المماليك رسمَ له بثيابهم ، فحملها علىٰ حمير ، وصار يُلبسها للفقراء حتىٰ طواقيهم الكندس ، ويحملون عليها التراب .

وقال له السلطان يوماً : وأيشٍ تعملِ بحبس هـٰؤلاء الفقراء عندك ؟ فقال للسلطان : وأيش تعملُ أنت بهـٰؤلاء المماليك كلِّها عندك ؟ فقال : هـٰؤلاء عسكرُ السلطان ، فقال : وإخوانُنا عسكرُ القرآن . انتهىٰ[١]

وكانت للشيخ إبراهيم السياحاتُ الكثيرة ، ساح [سبع عشرة][٢] سنة في جبال الشام وغيرها ، واجتمع بمشايخَ لا يحصون ، ثم دخل مصر ، فاجتمع بسيدي الشيخ أبي السعود الجارحي ، فأجلسه في باب جامع الأزهر ، وقال له : كلُّ من رأيتَهُ من العميان أو أصحاب العاهات جاء يطلبُ القرآن ، فردَّهُ أهلُ الجامع ، ولم يُعلِّموه ، فاسألِ الناس ، وأعط فقيهاً الجامكية ، وهو يقرئهم ولا تخيبه .

وكان يخدمُ كلَّ من مرض في الجامع بنفسه ، وينحِّي القذرَ من تحته ، ويعمل له المزاورَ[٣] وغيرها حتىٰ يشفىٰ أو يموت ، فيغسله ويكفِّنه احتساباً لوجه الله .

وكان سيدي محمد بنُ عنان يحبُّه أشدَّ المحبة ، وكان يأتي إلىٰ وقت الشيخ محمد بقِدْرة كبيرة ، فيقول لهم الشيخ : املؤها للشيخ إبراهيم .

---

(١) مرَّ شبيه هـٰذه القصة في ترجمة الشيخ عثمان الحطاب (٤/ ١٢٠) .
(٢) في النسخ : (سبعة عشر) .
(٣) المزوار : طعام لا لحم فيه يتخذ من البقول فقط

وكان عند الشيخ إبراهيم غالبُ الحوائج التي يحتاجُ إليها الفقراء ؛ من سيورِ القباقيب ، ومساميرها ، والصعتر ، والملح ، والغربال ، والمنخل ، والرحىٰ ، والبصل ، كلُّ من احتاج شيئاً يقول له : ادخل خذ حاجتَك .

ولبس من ثيابي ولبستُ من ثيابه .

وكان إذا جاءته هديةٌ ، يُفرِّقها على الفقراء ، ولا يتخصص منها بشيء .

ولم تكن له حرمةٌ على الفقراء المقيمين عنده ، بل كانوا يسبُّونه ويشتمونه ، ويستهزئون به ، ويشتكونه في بعض الأوقات إلى الحكام ولا يؤاخذهم ، ويقول : معاملتي يا أولادي ما هي معكم ، وإنما هي مع الله تعالىٰ ، ثم يزيد في الإحسان إلىٰ من شتمهُ وآذاه ، حتىٰ يظن من لا معرفةَ له بحالِ الشيخ أنه إنما يفعل ذلك معه خوفاً من لسانه ، وليس كذلك .

وكان كثيراً ما يقول : يا أولادي ؛ إنما أنا خادمُكم ، وأنتم مخدومون ، والخادم لا يتعالىٰ على المخدوم ، وتزيدوا عليَّ بحفظ القرآن والعلم ، وأنا لا أُطالعُ في علم ، وأتغلط في القرآن ، فأنتم أحسنُ حالاً مني .

وسمعته يقول حين مدحتُهُ : (والله يا أخي ؛ أودُّ أني أخرج من الدنيا كما دخلتُ لا عليَّ ولا لي ، فما تيسَّر ذلك لي ، بل الذي عليَّ أكثرُ من الذي لي ، فيا فضيحةَ مثلي يوم القيامة) .

وسمعته يقول : (لا تشتغلْ قطُّ بمكافأة الخلق علىٰ ما أحسنوا به إلى الفقراء ؛ فإن الله تعالىٰ يكافئُهم عن الفقراء) .

وكان كثيرَ الامتحان للصبيان المقيمين عنده ؛ خوفاً عليهم من الفواحش ، فكان كلُّ من رأىٰ عنده من أصحابه قلَّة دين توَّبَهَ أو أخرجه ، ويقول : يا ولدي ؛ المساجدُ بيوت الله ، ولا يجلس فيها إلا المطهرون .

مات في أواخر شوال سنة أربعٍ وخمسين وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٤٠) الشيخُ الصالح ، الورع الزاهدُ
الشيخ أبو بكر الأبياري رضي الله عنه(١)

كان فقيهاً عابداً زاهداً مفنَّناً في العلوم ، محدِّثاً صوفياً ، مقرئاً ، نحوياً ، أصولياً ، عالماً بعلم الهيئة

وكان يُقرئ الأطفال احتساباً ، ولم يتناول لهم خميساً قط ، ولا أكلَ لأهلهم طعاماً ، وما قرأ عليه أحدٌ إلا وانتفع .

وكان أصلُ ذلك : أنه رأىٰ وهو صغير أنه يزرعُ شجرَ النبق ، فزرع ستين شجرة ، فلم يخبْ منهن واحدةٌ ، فعرض ذلك علىٰ سيدي الشيخ أبي الخير بن نصر شيخ مشايخ الغربية قبل سيدي محمد الشناوي ، فقال له : تفسيرُ ذلك : أنه لا يقرأُ عليك أحدٌ إلا وينتفع ، فكان الأمر كما قال .

وكان رضي الله عنه مورداً للفقراء الواردين علىٰ بلده ، لا ينقطعُ عنه الضيوف ليلةً واحدة ، ولم يكن له معلومٌ ولا رزقة ، إنما كان ينفق من حيث لا يحتسب إلىٰ أن مات .

وما رأيتُ أصبرَ على البلايا والجوع والمحن منه .

وكان يخدمُ المرضىٰ ، ويزيلُ عنهم القذر ، ومرض مرَّةً عنده فقيرٌ ، وصار موضعه لا يقدرُ أحدٌ على القرب منه لخبث رائحته ، فسدَّ أنفه ، وصار يخدمُهُ إلىٰ أن مات .

وكان واسع الخلق ، يقال : إنه لم يُرَ قطُّ غضبان علىٰ أحد آذاه .

أخذ الطريقَ عن سيدي محمد الشناوي وغيره ، وأذن له في تربية المريدين ، فلم يفعل احتقاراً لنفسه .

وكان يقول : (أنا إلى الآن لم تصحَّ لي توبةٌ ، فكيف أتوِّبُ غيري ؟!) رضي الله عنه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٩٢) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٦٩) .

ومنهم :

(٤٤١) الأخُ الصالح ، العالم العابد ، الورع الزاهد ، الصامتُ الشيخ عبد الرحمـٰن المناوي[١]

أحدُ تلامذة شيخنا سيدي محمد الشناوي ، والمأذون لهم في تربية المريدين ، وهو من أوائل من أذنَ لهم الشيخُ في تلقين المريدين وتربيتهم .

أقام في طندتا مدةً ، ثم انتقل إلىٰ جامع الأزهر ، فأقام فيه مدةً ، وانتفع به خلائقُ ، ثم رجع إلىٰ بلده المناوات[٢] ، فماتَ بها ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار .

وكان جميلَ الأخلاق ، حسنَ المعاشرة ، كريمَ النفس ، حمَّالاً للأذىٰ ، صابراً على البلاء ، كثيرَ الصمت ، كثيرَ الحياء ، غاضَّ الطرف ، لا يكادُ يرفعُ بصره إلى السماء ، ولا إلىٰ جليسه ، ولو طالَ به المجلسُ .

وكنتُ كلما رأيته أتذكَّرُ حال أخي الشيخ أبي العباس الحُريثي ، وكان شبيهاً له في الخَلق والخُلق .

أخذ عنه الطريق جماعةٌ ؛ منهم الشيخ الصالح العالمُ الزاهد الشيخ أحمد القلتاوي المالكي ، وانتفع به خلائقُ .

وكانت أوقاتُهُ كلُّها معمورةً بالعبادات ليلاً ونهاراً إلىٰ أن مات علىٰ نعت الاستقامة رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٤٢) الشيخُ الصالح ، العابدُ الخاشع أحمد المنير أبو طاقية رضي الله عنه[٣]

والدُ الشيخ عتاب ، والشيخ عبد القادر .

صحب رضي الله عنه الشيخ عبدَ القادر الدَّشْطوطي رضي الله عنه ، وساح معه إلىٰ

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٦١) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٠٤) .

(٢) **المناوات** : هي إحدى القرى التابعة لمركز الجيزة في محافظة الجيزة .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٥٥) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٣١) .

بلاد العجم وغيرها مدَّةَ أربعة وعشرين سنة ، ولما دخل إلىٰ مصر لم يزل في صحبته إلىٰ أن مات الشيخ عبد القادر .

وكان الشيخ أحمدُ يُقرئ الأطفال احتساباً لله تعالىٰ بإذن سيدي عبد القادر ، وكان يأتي بأطفاله إلىٰ سيدي عبد القادر كلَّ يوم قُبيل العصر فيختمون عنده القرآن ، فيحصل للشيخ تواجدٌ عظيم عند سماعهم .

وما رأيت عند سيدي عبد القادر أحداً أمثلَ من الشيخ أحمد ، كان موضعَ أسراره ، ولم يكن له عمامةٌ ، إنما كان يلبس طاقيةً بيضاء مضرَّبة علىٰ شعر رأسه الطويل[1]

وكان سببُ وفاته : أنه حضر يوماً جمعٌ من الفقراء في زاوية الشيخ عبد القادر خارج باب الشعرية ، فقام فقيرٌ وضربَ رأسَ نفسه بطبر حديد[2] ، فأنكر عليه الشيخ أحمد ، فقال الشيخ بدرُ الدين السروي الأحمدي : لا تُنكر يا شيخ أحمد ، فقال : بل أنكر عليه ذلك ، فوقع بينهما معارضةٌ ، فوجَّه كلُّ واحد منهما سهمَهُ إلىٰ صاحبه فقتله بالحال ؛ وذلك أن الشيخَ بدر الدين سافر إلىٰ سيدي أحمد البدوي يشتكي الشيخ أحمد ، فمات في الطريق ، ثم مات الشيخ أحمد ثالث يوم ، رضي الله عنهما وغفر لهما ما فعله كلٌّ منهما

مات الشيخ أحمد سنةَ إحدىٰ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بخطِّ المقسم ، بجوار زاوية سيدي الشيخ مدين ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار .

صحبته رضي الله عنه نحو عشرين سنة ، فما رأيتُهُ انحرف عن طريق الشريعة في وقت من الأوقات .

وكان مهيبَ المنظر ، كثيرَ التواجد عند سماع القرآن وكلام القوم ، ربما حمل الرجلين وأكثر ودار بهم في السماع رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) **المضرَّبة** : كل ما أكثر تضريبه بالخياطة .

(٢) **الطبر** : نوع قديم من السلاح يشبه الفأس .

ومنهم :

(٤٤٣) الشيخُ الصالح ، العابدُ الناسك
الشيخ شهابُ الدين السُّبكي رضي الله عنه[١]

أحدُ أصحاب سيدي محمد الشناوي المأذون لهم في تربية المريدين ، رضي الله عنه .

صحبته نحو أربعين سنة ، فما أظنُّ أن كاتبَ الشمال كتبَ عليه خطيئةً واحدة ، ولا ذَكَرَ أحداً بسوء ، كان الناسُ كلُّهم عنده من الأولياء .

وكان يأكلُ من كسب يده بالحياكة ونحوها ، وما كنت أُمثِّله إلا بالسلف الصالح ؛ كسيدي عبد العزيز الديريني ، أو سيدي علي المليجي .

أقام بمصر أواخرَ عمره حتىٰ ماتَ في سنة ثمان وخمسين وتسع مئة ، ودفن بتربةِ الفقراء بجوار الجعبري ، رضي الله عنه

ومنهم :

(٤٤٤) الشيخُ المُعمَّر ، الشيخ علي النجار
المقيم بباب الخرق رحمه الله[٢]

صحبتُهُ ساعةً واحدة ، وذلك في سنة ثلاث وأربعين وتسع مئة ، وذلك أنني كنت مارّاً في الخليج الحاكمي أيام الصيف ، فوجدته نائماً تحت قنطرة سُنقر ، وتحت رأسه حجرٌ ، فقلت له : السلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقال : وعليك السلام ورحمةُ الله وبركاته ومغفرته ، ثم قال لي : ما اسمُك ؟ فقلت له : اسمي عبد الوهاب ، فقال : لي ثلاثُ سنين أسألُ اللهَ تعالىٰ أن أجتمع بك ، اجلسْ ،

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٣٤٥) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢٢٠) .

فجلستُ عنده ، فقبضَ علىٰ أصابع يدي ، فكاد أن يلصقَها ببعضها ، فقال لي : ما تقولُ في هـٰذه القوة ؟ فقلت : شديدة ، فقال : هـٰذه من لُقيمات الزمن الذي أدركناه حالَ الصِّبا من الكسب الحلال ، وأما لقمةُ هـٰذا الزمان فإنها تجعلُ الجسم كالنخالة من خبث المكاسب .

ثم قال لي : يا ولدي ؛ عمري الآن مئة وخمس وثلاثون سنة ، تغيَّر حالُ الناس في هـٰذه الثلاث سنين الأخيرة أكثر ما تغيَّر في عمري كله ، فقد صارَ ولدُكَ كأنه ما هو ولدك ، وأخوك كأنه ما هو أخوك ، وجارك كأنه عدوٌّ لك ، وصار الإنسانُ إذا نزلت به مصيبةٌ لا يجد أحداً من الخلق يشكوها له ؛ لأن الناسَ قسمان لا ثالث لهما : أحدُهما : شامتٌ ، والآخر قلبُه فارغ ، وصارَ الموتُ تحفةً لكل مسلم كما ورد[1]

ثم قال لي : (وأنا أوضِّحُ لك ذلك ، وهو أن أصلحَ أهل زماننا من كان زاهداً في الدنيا ، معمورَ الأوقات بذكر الله تعالىٰ ، وفعل الخيرات ليلاً ونهاراً ، وهو مع ذلك لا يقدرُ علىٰ منع نفسه من سوء الظنِّ والحقد ، أو ازدراء أحد من أعدائه ، فلو وُزِنتْ عبادتُه ليلاً ونهاراً ، ووُضِعت في كفَّة والحقد أو سوء الظن في كفَّة لرجحَ على العبادات المذكورة كلِّها ، فإذا كان أصلحُ الصالحين لا تفي أعمالُه كلُّها بسوء ظنٍّ بمسلم ، فكيف بغير الصالحين ؟!)

ثم دعا لي بدعوات وجدتُ بركتها في تلك الجمعة ، ولم أدرِ الآن هل هو حيٌّ أم ميت ، رضي الله تعالىٰ عنه

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣١٩) ، والطبراني في « المعجم الكبير » كما في « مجمع الزوائد » (٣٨٩٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٤١٨) عن سيدنا عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تحفة المؤمن الموت » .

ومنهم :

(٤٤٥) (٤٤٦) الشيخُ الإمام ، العالمُ الصالح ، العابد الزاهدُ الجامع بين الطريقين الشيخ شمسُ الدين الأبوصيري ، والشيخ أبو الفضل المالكي أحدُ أصحاب الشيخ أبي السعود الجارحي (١)

فأما أبو الفضل : فكان رضي الله عنه عالماً بمذهب الإمام مالك ، ثم أخذ عن سيدي أبي السعود طريقَ القوم ، فازداد علماً ونوراً وهدىً .

وله عدَّةُ مؤلفات جليلة في الطريق ، وله كتابٌ عظيم في الردِّ على النصارىٰ واليهود والفرق الهالكة ، وله نظمٌ بديع في أحوال القوم ومنه :

أُشهِـدتُ هـاتيـكَ المشـاهـدْ والخمـرُ والخمَّـارُ واحـدْ

إلىٰ آخرها

وأما الشيخ شمس الدين الأبوصيري : فكان عالماً بنقول مذهب الإمام الشافعي ، محدِّثاً أُصولياً ، مفسِّراً مقرئاً ، وله النظمُ البديع الشائع ، والصبرُ العظيم علىٰ تغريبات الشيخ أبي السعود عليه .

وكان يفتي على الأربع مذاهب .

وكان يأتيني كثيراً إلى البيت ، وكان له المجاهداتُ العظيمة ، فربما مكثَ الخمس شهور لا يشرب الماء ، ولا يأكل الطعام ، ولا يضع جنبه إلى الأرض .

وحصل له جذبٌ ، فتعرَّىٰ عن اللباس مدة ، ثم لبسَ حين رجع إلىٰ إحساسه .

وما بلغني عن أحد من المريدين أنه صبرَ مع شيخه كما صبر الشيخ شمس الدين هـٰذا والشيخ أبو الفضل ؛ فإن الشيخَ امتحنَهما بالصدود عدَّة سنين ، وأمرهما ألا يدخلا الزاوية ، فأقاما خارجها سنين ، وهما منكس الرأس .

---

(١) تقدم ذكرهما ضمن ترجمة أبي السعود الجارحي (٢/ ٣٦٧) ، (٤/ ١٨٩) .

ولما سافر الشيخُ أبو السعود إلىٰ مكة المشرفة من غير علمهما ، فتبعاه في غير أيام الحجِّ ، فخرجا من مصر بغير زاد ولا راحلة ، فوصلا مكة في خمسة عشر يوماً مشاةً من غير أكل ولا شرب ، فلما قربا من مكَّة تراءىٰ لهما الشيخُ قريباً من مكة ، وقال : اقصدا اليمنَ ؛ فإني مُقيمٌ بزبيد ، فسافرا إلىٰ زبيد ، فلما قربا منها تراءى الشيخُ لهما قبل أن يدخلا زبيد وقال : الذي رأيتماه قبل دخول مكة الشيطانَ ، وأنا مقيمٌ بمكة ، فارجعا ، فرجعا ، فتراءىٰ لهما ثانياً قبل دخول مكة وقال : أنا في زَبيد ، والذي تراءىٰ لكما شيطانٌ ، فما زالا كذلك سنين عديدة ، فلما اجتمعا عليه بمكة أكبَّا عليه يأكلانه من المحبة ، فما أقامهما الناسُ عن الشيخ إلا بجهد عظيم ، فحبسَهما في بيمارستان مكة حتىٰ رجع الشيخُ إلىٰ مصر ، فتبعاه بعد أشهر كما فعلا أول مرة ، فلما دخلا إلىٰ مصر أدخلهما البيمارستان ، فصارا ينظمان موشحاتٍ تُطربُ المجانين ، فصارتِ المجانين يرقصون ، فذُكر ذلك للشيخ ، وشكا قيِّمُ المجانين منهما وقال : أتلفا علينا المجانين ، فأخرجهما وجنزرهما في شجرة توت عظيمة في حوش الأمير علان ، فملخاها بجذورها ، وكان الشيخُ كلَّ قليلٍ يدَّعي عليهما بأنهما أفسدا جاريتَهُ ـ يعني : الدنيا ـ وولفاها ، فيعترفان بذلك عند الحاكم ، فيضربهما ضرباً مبرِّحاً ، وأرياني جوانبهما كالمقارع .

صحبتُهما نحو ثلاثين سنة ، فما رأيتُ لهما نظيراً في جماعة الأشياخ الذين أدركناهم ، وكانا يُكاشفان الناس بما يفعلونه في قعر بيوتهم ، رضي الله تعالىٰ عنهما .

ومنهم :

(٤٤٧) الشيخُ الصالح ، العالمُ الزاهد
الشيخ إبراهيمُ المغربي القيرواني رضي الله عنه[١]

المقيم بباب الخرق ، عُمِّرَ مئةً وخمساً وأربعين سنة ، وكان من أقران الشيخ عرفة رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣١٣) .

صحبته نحو عشرين سنة ، وكان يُحبُّني أشدَّ المحبَّة ، وكثيراً ما كان يأتيني إلىٰ بيتي ماشياً ، يمشي قليلاً ويجلس ، فربما لم يصل إلىٰ داري إلا بعد العصر ، فكان يشقُّ عليَّ ذلك ، فأُقبِّلُ رجلَهُ حياءً منه ، فيقول : الشوقُ يغلبُ عليَّ .

وكان مقرئاً فقيهاً لغوياً أصولياً مفسِّراً .

وذكر لي : أنه ساح في طلب من يدلُّه على الطريق نحو ثلاثين سنة ، حتىٰ وجد الشيخ أبا المواهب الشاذلي ، وسيدي محمد المغربي فأخذ عنهما طريق القوم .

وأقام في مصر إلىٰ أن توفي .

وكان له مكاشفاتٌ غريبة ، وصبرٌ شديدٌ على البلاء ، وعلى الجوع .

وكان يقول : (أوصاني شيخي ألا أسأل ، ولا أردَّ ولا أدَّخر) .

وكان يقول : (الطريقُ كلُّها ترجع إلىٰ شيئين ؛ علم وعمل ، وفي ذلك تفاوتَ المتفاوتون ؛ فكلُّ من زادَ في العلم والعمل كان أفضلَ) .

وسمعتُهُ مرَّاتٍ يقول إذا سُئل عن أولياء الله تعالى : (الأولياء هم العلماء إذا عملوا بما علموا) .

وكان ينكر على الفقير الذي ينقطع في الكهوف والزوايا ويقبلُ معلوماً من مال السلطان أو غيره ويقول : (شرطُ العابد الفرارُ من الخلق إلى الحقِّ ، ومن جعل له معلوماً عند الخلق احتاج ضرورةً إلىٰ مخالطتهم ، وإلىٰ مُداهنتهم ، وإلىٰ ترضِّي خواطرهم) .

وكان يقول : (من ادَّعىٰ أنه من المنقطعين إلى الله ، وعتب علىٰ مَنْ لم يتردَّدْ إليه فهو لصٌّ مراءٍ منافقٌ ، كذابٌ في دعواه أنه من المنقطعين إلى الله تعالىٰ ، ولو أنه كان صادقاً لم يشته قطُّ لقاءَ الناس ، بل كان يفرحُ بنسيانهم له) انتهىٰ ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٤٤٨) الشيخُ الصالح ، الورع الزاهد ، الخاشع ، المقبل على عبادة ربه ليلاً ونهاراً صاحبُ المجاهدات الكثيرة ، والرياضةِ في أكثر أوقاته الشيخ حسن الجركسي رضي الله عنه[١]

أجلُّ خلفاء سيدي الشيخ دمرداش .

صحبته نحو سنتين وكان يحبُّني كثيراً .

ورأيتُه مرَّةً وقد أدخلني بيته[٢] ، وكشفَ عيالَه ، وأطلعني عليهم ، وهذه علامةٌ عندي لصحة الاتحاد في المحبة .

مات رضي الله عنه في ثامن عشرين شعبان سنة خمسٍ وخمسين وتسع مئة ، ودفن بمنزله داخل باب القنطرة ، رحمه الله تعالى .

ومنهم :

(٤٤٩) الشيخ الصالح ، الورع الزاهدُ الخاشع المقبل على عبادة ربه ليلاً ونهاراً ، صيفاً وشتاءً ، سفراً وحضراً الشيخ علي العيَّاشي[٣]

أجلُّ أصحاب سيدي الشيخ أبي العباس الغمري ، وسيدي إبراهيم المتبولي ، وغيرهما .

مكث رضي الله عنه نحو تسعين سنةً لا يضعُ جنبه على الأرض إلا غلبةً ، ولم يكن له قطُّ مخدَّةٌ ولا فروة يجلس عليها ، إنما ينامُ جالساً ، تخفقُ رأسُه بعض خفقات ، ويكتفي بها عن النوم .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٩٣) .

(٢) أي : في الرؤيا .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (٢/ ٥٢١) (٤٢٨) .

صحبته نحو خمسٍ وأربعين سنة ، ما رأيته نقصَ من أوراده شيئاً .

وكان إذا قرأ القرآنَ يُردِّدُهُ ويبكي إلى الصباح ، فلا يزيدُ علىٰ خمسة أحزاب أو ثلاثة ، ويقرأ أحدُنا الختم .

ورأيته مرةً افتتح سورة (طه) من بعد العشاء ، فلم يزل يردِّدُ آياتها ويبكي حتىٰ طلع الفجر .

وكان يصومُ يوماً ويُفطر يوماً ، ولا يُمسك بيده ديناراً ولا درهماً

وكان القملُ لم يزل يتناثرُ من رأسه ولحيته وثيابه لا يتفرَّغُ لتفليتها ، وعمامته يغسلها من العيد إلى العيد .

وكان شيخنا الشيخ أمينُ الدين يُجلُّه ويُكرمه ويعتقدُه اعتقاداً زائداً ويقول : سمعت الشيخ ابن أبي الحمائل يقول : ما رأتْ عيني أعبدَ من الشيخ محمد بن عنان ، وأنا أقول : هـٰذا أعبدُ من ابن عنان .

وكانت أورادُهُ ما بين صلاةٍ ، وتلاوة قرآنٍ ، وذكر ، وصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وتسبيح .

وكان إذا ذَكَر ينطقُ قلبه مع لسانه ، فلا يقولُ السامعُ إلا أنهما اثنان يذكران .

وأولُ اجتماعي عليه سمعتُهُ يذكر في الليل ، فاعتقدتُ أنهما اثنان ، فقربتُ منه فوجدته واحداً .

وكان كثيراً ما يرىٰ إبليس ، فيضربه بالعصا ، فيروغ عنه ، وقال له مرةً : يا علي ؛ لستُ أخاف من العصا ، وإنما أخاف من النور الذي في القلب .

جلس معنا في الصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقام بحزامٍ من ريش ، وقدحَ شخصاً من المغاربة علىٰ كتفه كان يسهرُ معنا ، فقام المغربيُّ ، وقبضَ على الشيخ وقال : تضربني علىٰ ماذا ؟! فقال : إنما ضربتُ إبليس رأيتُهُ راكباً عنقك .

وكان رضي الله عنه يعرفُ أحوال الموتىٰ من معذَّبٍ ، ومرحوم .

ونام مرةً عند قبر جدِّي في زاويتنا ببلاد الريف ، فقرأ هو وجدي من سورة مريم إلىٰ آخر القرآن ، مع أنَّ قبرَ جدي مطموسٌ لا حفيرَ له ؛ عملاً بوصيَّتِهِ .

وأخبرني بصفة لحية جدِّي ووجهه وهو في القبر ، فلم يخطئ شيئاً من صفته ، مع أنه ما اجتمعَ به قطُّ في حال حياته .

وكانتِ الأمواتُ من الأولياء والملائكة يزورونه كثيراً ، لا سيما ذو النون المصري ، والإمام الشافعي ، ويقول : كما ذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فأقول له : يقظة ؟ فيقولُ : يقظة .

وكنا ونحن شباب في جامع الغمري نقوم من الليل فنحفظُ ألواحنا ، ونقرأ ماضينا ، وننام ونقوم وننام ونقومُ في ليالي الشتاء الطِّوال وهو واقفٌ يُصلي من العشاء إلى الصباح ، كان الليلُ والنهار عنده سواء ، ويقول : كلُّه محسوبٌ من العمر ، وكلُّ نَفَسٍ ذهب فارغاً راح .

وكُفَّ بصره آخر عمره ، وأقام عندي في الزاوية نحو الأربع شهور ، ومرضَ مرضاً شديداً ، فلم ينقصْ من أوراده شيئاً .

وكان إذا أبطأ عليه ماءُ الوضوء يتوجَّهُ لأولياء القَرافة ، فيأتونه بالماء ويوضئونه لموضع صدقه في محبة قيام الليل والوقوف بين يدي ربِّه في الظلام ، ويقول : وضَّأني الليلةَ الإمامُ الشافعي ، فخجلتُ منه غايةَ الخجل ، وكان بعضُ الناس يقول : هٰذا خفَّ عقلُهُ .

ثم حُمل مريضاً من الزاوية إلىٰ دمياط ، وقال : أسافرُ لقبري ، فمات عقب وصوله ؛ وذلك في سنة ستٍّ وخمسين وتسع مئة ، وقبرهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٥٠) أخي وصاحبي ، الكامل الراسخُ في سائر العلوم التي ليس للخلق إليها سبيل ، الشيخُ أبو الفضل الأحمدي تلميذُ سيدي علي الخواص والشيخ بركات الخياط ، وغيرهما من الأولياء[1]

كان رضي الله عنه من الراسخين في الطريق ، صاحبَ كشفٍ عظيم ، يرىٰ بواطن الخلق وما فيها ، كما يرىٰ ما في داخل الإناء البلور .

وكان ينظرُ إلىٰ أنفِ الإنسان فيعرفُ جميعَ ما وقع فيه من الزلات .

وكان كالخَضر عليه السلام في كونه لا يستطيعُ مُتشرِّعٌ يصاحبه أبداً ؛ لدقة مداركه وخفاء منازعه في الأحكام .

وكان كلُّ من أنكر عليه عطب ، فأقول له : الحلم مليح ، فيقول : واللهِ ؛ إنما ذلك من الحقِّ تعالىٰ لا بواسطة توجُّهي .

وقد سمعتُ مرةً الهاتفَ يقول لي في آخر الليل : يا فلان ؛ ما صحبتَ مثلَ أبي الفضل ، ولا تصحب ، فأخبرتُهُ بذلك ، فبكىٰ واضطجع على الأرض ، وصار يفحص بيديه ورجليه كالطير المذبوح ويقول : من أين لي أن يتكلم بي الهواتف ؟! انتهىٰ .

وكان أعرفَ من أهل الدنيا بالدنيا ، ويعرفُ عيبَ كل صنعةٍ ، فيأتيه الخياط ، فيتعلَّم منه ، والفيخراني فيتعلَّم منه ، والأدمي فيتعلم منه ، والطباخ فيتعلم منه ، ويقول له : إذا لم تجدِ الحاجةَ الفلانية من حوائج الطعام ، فضع فيه العشبَ الفلاني يقوم مقامها .

وكان له نفوذ البصر في كل شيء للخلق إليه وصول .

صحبته رضي الله عنه نحو [خمس عشرة] سنة[2] ، ووقعَ بيني وبينه اتِّحادٌ عظيم ،

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٨٢) (٤٠٨) .

(٢) في النسخ : (خمسة عشر) .

لم يقعْ لي قطُّ مع أحد من الأشياخ ، وكنتُ إذا جالستُهُ وسرىٰ ذهني إلىٰ مكان أو كلام يقول لي : ارجع بقلبك عن الشيء الفلاني ، فيعرف ما سرحَ قلبي إليه .

وكنت إذا وردَ عليَّ شيءٌ من الحقائق في ليل أو نهار ، وأردتُ أن أشرعَ لأقول له يقول لي : قف ، لا تُخبرني حتىٰ أُسمعَكَ ما وردَ عليَّ أنا الآخر ، فيقولُ لي ما وردَ عليَّ حرفاً بحرف .

وتارة يأتيني بورقة في عمامته ، فيقول : هـٰذا كلامٌ وردَ عليَّ الليلة ، فحرِّرْه لي علىٰ مصطلح النحاة ؛ فإني لا أعرفُ أنطق بالنحو .

ووردَ عليَّ كلامٌ في الليل ، فكتبته في الظلام ، فبينما أنا أقرؤهُ للفقراء إذ دخل رضي الله عنه فقال : اسمعوا هـٰذه الورقة ، فقابلناها عليها ، فلم تخطئ حرفاً واحداً ، وربما كان يظنُّ من لا معرفةَ له بأحوال الفقراء أن أحدَنا كتبَ ورقه من الآخر .

وكان رضي الله عنه يدركُ ببصره تطورات الأعمال الليلية والنهارية ، ويرىٰ صورَها ومعاريجها

وقد سألني مرةً الأميرُ محيي الدين بن أبي إصبع دفتردار مصر كان لطف الله به وهو محبوسٌ في العرقانة[1] : أني أسأل الله تعالىٰ في إطلاقه من السجن ، فتوجَّهتُ إلى الله تعالىٰ في تلك الليلة في الأسحار ، وسألتُ اللهَ تعالىٰ في ذلك ، فجاءني الأخُ المذكور رضي الله عنه وقال : ضحكتُ عليكَ الليلةَ وأنت تدعو للأمير محيي الدين بالخلاص ، ودعاؤك يصعد نحو سبعةِ أذرع إلى السماء ويرجع ، وقد بقي من مدَّةِ حبسه خمسُ شهور ، وسبعةُ أيام ، فلو كنت الشاطر أحمد الدنف[2] لا تقدرُ علىٰ إخراجه حتىٰ تمضي تلك المدَّةُ ، وكان الأمرُ كذلك ، وهـٰذا الأمرُ ما رأيته قطُّ لأحدٍ ممنِ اطَّلعتُ علىٰ طبقاتهم من الأولياء الذين اجتمعتُ بهم .

وكان كثيراً ما يُخبرني بما وقع منِّي في الليل من النوم علىٰ حَدَثٍ ، أو علىٰ طهارة ،

---

(١) **العرقانة** : سجن في مصر . انظر « عجائب الآثار » للجبرتي (١/ ٤٣ ، ٤٩) .

(٢) **أحمد الدنف** : بطل ملحمة شعبية طبعت تحت عنوان : قصة دليلة المحتالة وبنتها زينب النصابة وأخيها زريق السمَّاك مع أحمد الدنف وحسن شومان وعلي الزيبق المصري .

أو قراءة ورد ، أو تركه ، حتىٰ بمقدار ما نمتُ من الدرج .

وكان من شأنه تحمُّلُ هموم الناس ، حتىٰ صار جلْداً علىٰ عظم ، وسمعتُه يقول مرَّةً : (والله ؛ لي نحوُ سبع سنين وأنا أحسُّ بلحمي كأنه في صحن نحاس بلا ماء على النار ، ودهني يُطَشْطِشُ لا أكادُ أرىٰ نفسي خاليةَ من ذلك الألم) .

وكان من شأنه التقشُّفُ في المأكل والملبس ، وخدمة جميع إخوانه ، وتقديم نعالهم للبس ، وتهيئة الماء لطهارتهم ، وملء بيوت الخلاء ، وتنظيف الملاقي[1] ، وملء قعاوي الكلاب .

وكنا إذا خرجنا لمثل القَرافة ، وخلعنا نعالَنا يحملُها كلَّها في خرج معه علىٰ عاتقه حتىٰ يصلَ لموضع لبس النعال ، ولا يُمكِّنُ أحداً يحمل نعلَ نفسه ، ويقسم عليه حتىٰ يأخذَهُ منه .

وكان نومُهُ في الليل نحو عشر درج من غير زيادةٍ صيفاً وشتاءً .

وكان من أكثر الناس تعظيماً للمساجد ؛ لا يتجرَّأ أن يدخل مسجداً إلا تبعاً لغيره ، وكذلك كان سيدي علي الخواص .

وكان يقول : (مثلُنا لا ينبغي له أن يدخل حضرةَ الله تعالىٰ قبل الناس ، وإنما يدخلُ تبعاً) .

ورأيتُ مرةً في ثوبه سواداً ، فقلتُ له : دعني أغسله لك ، فقال : والله ؛ إني لأستحي من الثوب النظيف أن ألبسَهُ علىٰ هـٰذا الجسم القذر العاصي

وقال لي مرةً : أعطاني اللهُ تعالىٰ أنه لا يقع بصري قط علىٰ حَبٍّ ويُسوِّسُ ولو مكث ألفَ عام ، فقلت له : فانظرْ إليَّ ، فتبسَّم .

وكان يعرف أصحابَ النوبة في سائر أقطار الأرض ومَنْ تولَّىٰ منهم ومن عُزل ، وهـٰذا أمرٌ ما رأيتُهُ في أحد من فقراء مصر غيره .

وحج رضي الله عنه ثلاثَ حجَّات على التجريد ، فلما كانتِ الحجَّةُ الأخيرةَ خرجوا

---

(١) الملاقي : فتحة المراحيض المدورة .

به إلى المحارة وهو ضعيفٌ محمول[1] ، فقلت : ما هـٰذا الحجُّ وأنت علىٰ هـٰذا الحال ؟! فقال : إنما أسافرُ لترابي لا للحجِّ ، فقلتُ : كيف ؟ فقال : قد قرُبَ أجلي ، وترابي في تربة بدر عند مسجدِ الغمام ، فكان الأمر كما قال ، فجاءني الخبرُ أنه مات في الطلعة ، ودفن ببدر رضي الله عنه .

فلما حججتُ سنة سبع وأربعين لم أجد أحداً يدلُّني علىٰ قبره ، فتوجَّهت إليه ، وقلتُ : أقسمتُ عليك إلا أعلمتني بمكانك ، فأشار عليَّ بمكانه ، فعرفتُهُ منه ، وهو بجانبِ قبر الشيخ أحمد الرديني ، وعليه صخرةٌ حمراءُ مخضرَّةٌ .

وكان رضي الله عنه يقول : (كلُّ فقير تهاون بالأكل من طعام الناس الذين لا يتورَّعون فلا ترجو له خيراً قط) .

ودخلت أنا وهو مرةً علىٰ شخص تظاهر بالصلاح في مصر وأقبلتْ عليه الناسُ ، فناداه : يا فلان ؛ باسمه ، فتخبَّط ، ففتحنا عليه الباب فلم يفق من صياح الشيخ إلا بعد لحظة ، فقال له : فكيف بكَ إذا سمعتَ صيحةَ الداعي إلى الحشر ؟! ثم قال له : يا أخي ؛ كلُّ هـٰذا من أكلك الشُّبهات ، فلو أكلتَ حلالاً لأفقتَ كأنك مستيقظٌ ، ثم قال له : أما سمعتَ قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] ، وهـٰذا الذي تأكلُهُ قريباً من ذلك ، فتبْ إلى الله تعالىٰ .

وكان رضي الله عنه يكرهُ للفقراء التفعُّل في الطريق في طلب المقامات ويقول : (أخلصوا في العمل لله ، ولا تتَّخذوا الأعمال وسائلَ لمقاصد النفوس تخسروا مع الخاسرين) .

ورأىٰ عند أخي أبي العباس شخصاً قد أخلاه وقد طعنَ في السنِّ ، وهو يذكرُ بصوت خفيٍّ من الجوع والسهر ، فقال : أخرجْ هـٰذا ؛ فإن الله تعالىٰ يكره من يعبدُهُ علىٰ حرف ، والخلقُ كالشجر ؛ فمن خلقه الله تعالىٰ سنطاً لا يصير تفاحاً[2] ، ولو

---

(١) **المحارة** : بفتح الميم : محمل الحاج .

(٢) في (أ ، ط) : (شوكاً) بدل (سنطاً) : والسَّنْطُ ، ويقال : الصنط أيضاً : قَرَظ ينبت بمصر ، وهو أجود حطبهم ، يزعمون أنه أكثره ناراً وأقله رماداً .

فعلتَ معه ما فعلتَ ، ثم قال للمختلي : اخرجْ يا فقير ، كُلْ واشربْ ، وإنْ كان سبق لك من الله شيءٌ سوف تصل إليه ، فأبىٰ ، فدعا عليه بالموت ، فأتانا نعيُهُ بأنه مات آخرَ النهار ، فقالوا للشيخ : صلُّوا علىٰ فلان ، فقال سيدي أبو الفضل : واللهِ ؛ لا أُصلِّي عليه ، قد مات عاصياً ؛ لقتله نفسَهُ بالجوع والسهر الذي لم يأمره اللهُ به .

وكان رضي الله عنه إذا انحرف قلبه من إنسان يخسر الدنيا والآخرة ، ولا يفلحُ بعده في شيء .

وسمعته يقول : (سألتُ الله تعالىٰ أن يحجبَ عني ما يفعله الناسُ في بيوتهم ، فلم يجبني ، ولله في ذلك حكم وأسرار ، وأنا في شدَّةٍ من ذلك) .

وكان يقول : أنا من ورثة أبينا إبراهيم الخليل .

وفسَّر القرآنَ من سورة (الفتح) إلىٰ آخر سورة (الناس) بلسان غريب ، لا يكادُ يفهم أحدٌ منه شيئاً ، وقال : هٰذا من علوم الإرث الإبراهيمي ، واستخرجَ فيه معانيَ كلِّ سورة من اسمها .

ووضع رسالةً كاملة علىٰ لسان السيد إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وكان يقول : (ليس المرادُ من الإيجاد الإلـٰهي الإنساني والتكوينِ الطبيعي الناريِّ إلا معرفة الربوبية بأوصافها ، والعبوديةَ وأخلاقها ؛ فأما أوصافُ الربوبية فيكفيك يا أخي منها ما وصل إليك علمه إلهاماً وتقليداً بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تشبيه ولا تعطيلٍ ، وأما أخلاق العبودية فهي مقابلةٌ لأوصاف الربوبية على السواء ، فكلُّ صفة استحقَّتها الألوهية طلبتِ العبودية حقَّها من مقابلة ذلك الوصف غالباً ، ومن هٰذا المقام كان استغفاره صلى الله عليه وسلم ، فكلٌّ عن مقامه يتكلَّمُ وعما وُصف به يترجم) .

وكان يقول : (مَنْ نظر إلىٰ ثواب أعماله عاجلاً أو آجلاً فقد خرجَ عن أوصاف العبودية) .

وكان يقول : (عليك بحسن الظنِّ بالمسلمين ؛ فإن اللهَ تعالىٰ لا يسألُ عبداً قط في الآخرة : لِمَ حسَّنتَ ظنَّك بالناس) .

وكان يقول : (لا تسبَّ من أحد إلا فعله المذموم لا عينه ؛ لأنك لا تدري بمَ يُختم لك وله ، وتأمَّلْ قوله صلى الله عليه وسلم في شجرةِ الثوم : « إني أكرهُ ريحَها »[1] ، ولم يقل : إني أكرهها ؛ فإن الريحَ من صفاتها) .

وكان يقول لإخوانه : (كونوا عبيداً لله تعالىٰ ، لا عبيدَ نفوسكم ، ولا عبيدَ ديناركم ودرهمكم ؛ فإن كلما تعلَّق خاطرُكم بمحبَّته من محمودٍ أو مذمومٍ يأخذ من عبوديتكم لله تعالىٰ بقدر حبّكم له ، وأنتم لم تُخلقوا للكون ولا لأنفسكم ، فلا تهربوا من الله ؛ فإنكم حرامٌ علىٰ أنفسكم ، فكيف لا تحرموا علىٰ غيركم ؟!) .

وكان يقول : (كفُّوا غضبَكم عمَّن يُسيء إليكم ؛ لأنه متسلط عليكم بإذن ربكم ؛ فإن غضبتم عليه زاد في التسليط عليكم) .

وكان يقول : (افعلوا كلَّ ما قُسم لكم من المأمورات الشرعية ؛ امتثالاً لأمر الشارع لا لعلَّةٍ أخرىٰ ، واتركوا العللَ كلَّها ، واقطعوها بقوله تعالىٰ : ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد : ٣٩]) .

وكان يقول : (لا تركنْ إلىٰ شيءٍ ، ولا تأمن نفسك في شيء ولا تأمنْ من مكر الله لشيء ، ولا لغير شيء ، ولا تخترْ قطُّ لنفسك حالةً تكون عليها مع الله ، بل سلِّم الأمرَ له طوعاً قبل أن تراه له كرهاً ، ثم بتقدير أنك تختارُ لك حالةً تكون عليها مع الله فلا تدري هل تصلُ إلىٰ ما اخترته أم لا ، ثم إذا وصلتَ إليه فلا تدري ألكَ في ذلك خيرٌ أم لا ، ثم إنْ منعَكَ الحقُّ شيئاً فاشكرْهُ علىٰ ذلك المنع ؛ فإنه تعالىٰ ما منعك عن بخل تعالى الله عن ذلك ، وإنما منعك لحكمة) .

وسمعته يقول : (إذا خيَّرك الحقُّ تعالىٰ في شيء فاختر عدمَ الاختيار ، ولا تقفْ مع شيء ، ولا تر لنفسك معه شيئاً ، واحذر أن تحزنَ علىٰ فوات شيء ؛ فإنه لو كان لك ما فاتك) .

---

(١) رواه مسلم (٥٦٥) عن سيدنا أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل من هـٰذه الشجرة الخبيثة شيئاً فلا يقربنَّا في المسجد » ، فقال الناس : حُرِّمت حُرِّمت ، فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : « أيها الناس ؛ إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي ؛ ولـٰكنها شجرة أكرَهُ ريحها » . وتقدم (٢/ ٤٨٦) .

وكان يقول : (اشتغلوا بما يأمرُكم به شيخُكم ، ولا تشتغلوا بقراءة كلام القوم من غير إشارته ؛ فإن كلاً من القوم تكلَّمَ بحسب مقامه ، وليس ذلك المراد من المريدين) .

وكان يقول : (عليكم بحفظ لسانكم مع علماء الشريعة ؛ فإنهم بُوَّابُ حضَرات الأسماء والصفات ، وعليكم بحفظ قلوبكم من الإنكار علىٰ أحد من الأولياء ؛ فإنهم بُوَّابُ حضرة الذات[1] ، وإياكم والانتقادَ علىٰ عقائد أولياء الله تعالىٰ بما علمتموه من أقوال المتكلِّمين بأفكارهم ، فإن عقائدَ الأولياء مطلقةٌ مُتجددةٌ في كل آنٍ علىٰ حسب الشؤون الإلـٰهية ، والمتكلمون ربطوا عقائدَهم بأمر واحدٍ على الدوام ، والحقُّ مع الأولياء ، بدليل نسخ الأحكام ، وضلال من قال بعدم النسخ) .

وكان يقول : (لا تقربوا من الأولياء إلا بالأدب ولو باسطوكم ؛ فإن قلوبَهم مملوكةٌ ، ونفوسهم مفقودة ، وعقولهم غيرُ معقولة ، يمقتون علىٰ أقل من القليل ، ويسامحون في أكثرَ من كثير) .

وكان يقول : (إذا صحبتم كاملاً فلا تؤوِّلوا له كلاماً إلىٰ غير مفهومه الظاهر ؛ فإن الكُمَّلَ لا يسترون لهم كلاماً ولا حالاً) .

وكان يقول : (إذا نزل بكم بلاءٌ فبادروا إلىٰ سؤال الله تعالى العفو والعافية ولو كان أحدُكم صبوراً ؛ إظهاراً للضعف) .

وكان يقول : (الحقيقةُ والشريعةُ كفَّتا الميزان ، وأنت قلبها[2] ؛ فكلُّ كفَّة حصل لك ميلٌ إليها كنتَ من أهلها ، وإن ملتَ إليهما كنتَ حكيمَ الزمان) .

وكان يقول : (عليكم بتنظيف باطنكم من الحرص ، والغلِّ والحقد ، والكِبْر والعُجب ، ونحو ذلك ؛ فإن المَلِكَ لا يرضىٰ أن يسكنَ بجواركم وأنتم علىٰ هـٰذا الحال ، فكيف بالحقِّ تعالىٰ ، قال الله تعالىٰ : « يا داود ؛ طهِّر لي بيتاً أسكنه . . . » الحديث[3]) .

---

(١) في (ز) : (نواب) بدل (بواب) في الموضعين ، وفي (ل) : (بوابون) .
(٢) انظر الحاشية (٢) (٢/ ٤٨٨) .
(٣) أورده ابن عجيبة في « البحر المديد » (٤/ ٦١١) ، وقدم له بقوله : (وفي بعض الأثر) .

وكان يقول : (لا تتركوا النصحَ لإخوانكم ولو ذمُّوكم لأجل ذلك وشتموكم) .

وكان يقول : (أخرجوا من قلوبكم كلَّ شيء علقت به نفوسُكم من علمٍ أو حال ، فضلاً عن الشهوات المحسوسة) .

وكان يقول : (عليكم بإصلاح الطعمة ، فإنها أساسُكمُ الذي تبنون عليه دينكم) .

وكان يقول : (إذا غضب شيخُكم علىٰ أحد فمن الأدب إظهار الغضب عليه تبعاً للشيخ ، ولـٰكن مع الرحمة له بالباطن ، فإن علمت أن غضبَ الشيخ عليه لحظٍّ نفس كما يقع لمثل القاصرين من المتمشيخين بالجدود أو بأنفسهم فإياكم أن تغضبوا عليه) .

وكان يقول : (إذا فاجأك حالٌ من الحقِّ فلا تدفعْه ولا تستجلبه بجمع حواسك وتفعلك ؛ فإن ذلك سوءُ أدب ، واحذر أن تُظهرَ لك حالاً أو وصفاً دون أن يتولّى الله تعالىٰ ذلك من غير اختيارك) .

وكان يقول : (حقيقةُ القرب من الله هو الغيبةُ عن شهودك القرب ؛ فإن شهودَ القرب يمنعُ العلم بالقرب ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٥]) .

وكان يقول : (احذروا أن تركنوا إلىٰ نفوسكم الظالمة ؛ فإنه تعالىٰ قال : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ . . . ﴾ الآية [هود : ١١٣]) .

وفي هـٰذا القدر كفاية من كلامه رضي الله عنه ، وقد بسطنا الكلام علىٰ أحواله في كتاب « المنن والأخلاق » فراجعه .

مات رضي الله عنه سنة اثنتين وأربعين وتسع مئة ، ودفن عند شهداءِ بدر ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٤٥١) شيخي وأستاذي ، الكاملُ الراسخ ، الأميُّ المحمَّديُّ سيدي عليُّ الخوَّاص البُرُلُّسي رضي الله تعالىٰ عنه[١]

صاحبُ الكشوفات التي لا تُخطئ .

وكان أمياً لا يكتب ولا يقرأ إلا من لوح قلبه ، وكان يتكلَّمُ علىٰ معاني الكتاب والسنة كلاماً نفيساً ، وكان مطمحَ بصره اللوحُ المحفوظ من المحو ، كما أخبرني به الشيخ محمد بنُ عنان .

صحبته رضي الله عنه عشر سنين فأكثر ، كأنها كانتْ لحظةً

وكان يطَّلعُ علىٰ خواطر الناس .

وكثيراً ما كنتُ أُرسلُ له الإخوانَ يُشاورونه على الأمور ، فأولُ ما يقف عليه الواحدُ يقول له : سافرْ ، أو لا تسافر ، وتزوَّجْ ، أو لا تتزوج ، فإذا زاحمه الشخص في الكلام يقول له : مفهوم ، كفاية ، ضيَّعتَ علينا الوقت .

وكان إذا وضعَ الحزمةَ الخوصَ التي تدور عليها اليد يضفرُ منها نحو الثلاثين قفَّةً ، فإن شعرَ به أحدٌ وخاف أن يُخبرَ الناسَ بذلك يقول له : اكتم ؛ الكلُّ فعلُ الله .

وكان له طِبٌّ غريبٌ يداوي به أهلَ الاستسقاء ، والجذام ، والفالج ، والأمراض المزمنة التي عجزتِ الحكماءُ عن دوائها ؛ فكلُّ شيء أشار باستعماله يكون الشفاءُ فيه ، فطلب بعضُ أصحابه أن يدوِّنَ ذلك في كتاب ، فقال : يا ولدي ؛ إنما هي أمورٌ بحسب الإذن ، فلو استعملها أحدٌ بلا إذن لا يحصلُ له شفاء .

وكان يعرفُ الأمراضَ التي لا تعرفُ الحكماءُ تشخيصَها بالكشف من غير أن يسأل المريض عن مرضه

وأطعمتْ مرةً ابنةُ شخص من أصحابنا والدَها سمّاً في قَطْر ، من حيث لا يشعر ، فصار ريالُهُ سائلاً ، وطلع في بدنه قروحٌ حتىٰ ذابَ جلده ، فدخل المارستان فما عرفَ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٩) (٤٠٤) .

أحدٌ مرضَه على التعيين ، فجاءني ، فأرسلتُهُ للشيخ ، فأولُ ما وقف عليه قال : الله يُجازيها بما فعلت ، فقال : من هي ؟ فقال : ابنتُكَ أطعمتك سُمّاً في قطر ، فقال : إي واللهِ ؛ كان ذلك ، أطعمتني زلابيةً بقطر أمسِ[١] ، ثم إنها اعترفتْ بعد ذلك ، ثم قال له : أعط صاحب شجر النارنج نصفاً ، وادخلْ فكلْ منه بشحمه ما تقدر عليه من على أمِّه ، ففعل ، فكان الشفاءُ .

وجاءتنا امرأةٌ من ناحية أبيار وبطنُها كالطبل المنفوخ من الاستسقاء ، فقال لها حكماء المارستان : هـٰذا أمرٌ استحكم ، فما ينفعُ فيه دواءٌ ، فرُدَّتْ مكسورةَ الخاطر ، فأرسلتُها للشيخ ، فقال لها : افطري علىٰ عرق سوس وفجل سبعة أيام يذهبْ ذلك ، ففعلتْ ، فكان ذلك .

ومرض ولدي محمد حتىٰ أشرفَ على الموت ، فحُمِلَ إليه ، فقال : خذوا له ورقةً من الشجرة التي في حمام الترجمان ، وعلِّقوها عليه يبرأ ، فكان ذلك .

وسمعتُ الشيخ محمد بنَ عنان رحمه الله يقول قبل موت الشيخ عليٍّ [بخمس عشرة] سنة[٢] : (قد أُعطي الشيخُ عليٌّ الخواص التصريف في ثلاثة أرباع مصر وقُراها) .

وكان إذا أراد أن يشفعَ عند أحد من الظلمة الكبار يدخلُ له بهيئة مزرية ، ويغلظُ على الظالم في القول ، فبمجرَّد ما يزدري الشيخَ ينفذُ فيه السهمُ بالعزل أو الموت .

وكان إذا شفع عند عادل يلبسُ له الثياب الحسنة ؛ رفقاً به ورحمةً .

وكان يكرم أصحابَ الحرف النافعة ؛ كالسقَّاء ، والزبَّال ، والطباخ ، والفيخراني[٣] ، ومقدَّم الوالي ، ومقدَّم أمير الحاج ، والمعدَّاوي[٤] ، والحمَّامي ، والطوَّاف بالبضاعة علىٰ رأسه .

---

(١) **الزَّلابيةُ** : قطائف مقلية ذات طبقات رقيقات كالأوراق محشوة بالعسل واللوز . « تكملة المعاجم » (٥/ ٣٤٤) .

(٢) في النسخ : (بخمسة عشر) .

(٣) **الفيخراني** : نسبة إلىٰ صنعة الفخار .

(٤) **المعداوي** : ربان زورق .

وكان يعظِّم العلماءَ ولو لم يعملوا بعلمهم .

ويقوم للولاة ولو جاروا ، ويقبِّل أيديَهم ويقول : هـٰذا أدبُنا معهم في هـٰذه الدار ، وسيعلِّمنا الحقُّ تعالى الأدبَ اللائق معهم في الدار الآخرة إذا انتقلنا إليها ؛ فإن لكلِّ دار أدباً .

وكان لا يمكِّنُ أحداً من أركان الدولة يذهبُ إلىٰ زيارته أبداً بالحال والمقال ، وإذا بلغَه عن أحد منهم أنه عازمٌ علىٰ زيارته يذهبُ هو إليه يزوره هو في بيته ، ويقول : كلُّ فقير مكَّنَ أحداً من أركان الدولة يمشي إليه فهو قليلُ الدين ، فإنْ عمله في ذلك اليوم لا يجيء حقَّ طريقه .

وكان رضي الله عنه يبيع الجمَّيز وهو شابٌّ عند سيدي إبراهيم المتبولي في بركة الحاج ، ثم أَذِنَ له الشيخُ أن يفتح دكانَ زيات ، فمكث فيها نحو أربعين سنة ، ثم ترك ذلك واشتغل بضفر الخوص إلىٰ أن مات .

وكان لا يأكلُ من كسب أحد إلا إنْ علم ورعَهُ وخوفَهُ من الله تعالىٰ .

وكان يردُّ جميعَ ما يعطيه له الظلمةُ والقضاة وأعوانهم ، ثم قَبِلَ ذلك أواخر عمره ، فكان يضعُهُ عنده في الدكان يُفرِّقُه علىٰ من يمرُّ عليه من العميان والعجائز والشيوخ الذين يسألون الناس ، ويقول : ينبغي للفقير أن يكون كالبنَّاء ، يعرفُ موضع كل طوبة يضعُها فيه .

ورمدتْ عيناه مرةً رمداً شديداً ، فأعطاه شخصٌ من إخواننا ثلاثةَ أنصاف ، وقال : أنفقوها اليومَ ، وأريحوا عينيكم ، فردَّها وقال : يا أخي ؛ أنا باضفر الخوصَ في هـٰذه الحالة ، ولا يعجبني أن آكلَ من كسبي ، فكيف آكلُ من كسبك ؟! فقال : يا سيدي ؛ خاطري طيب ، فقال الشيخ : خاطري ما هو طيب .

وكان من شأنه أن يطوف على المساجد يوم الخميس والجمعة فيكنسها وينظف أخليتها ، ويحمل الكناسة إلى المزابل احتساباً .

وكان ينظِّفُ المقياسَ كلَّ سنةٍ صباحَ نزولِ النقطة[1] ، فيكشطُ سُلَّمَه من الطين ، ثم

---

(١) كانت هناك مقاييس أقيمت على امتداد النيل للتعرف علىٰ مقدار ارتفاعه في أيام الفيضان ،=

ينزل ويتوضَّأُ ويُصلِّي ركعتين ، ثم يدعو ويبكي ، ويتضرَّع إلى الله تعالىٰ في طلوع النيل ، وكان يُرسلُ وراءنا ويقول : تعالوا زوروا محلَّ نزول الرحمة لأهل مصر ، ويأمرنا ألا نُخرجَ في الروضة ريحاً ، ولا نبول فيها ، ويقول : من كان له حاجةٌ إلى البراز فليفعل ذلك في ساحل مصر ، ولا تطلعوا الروضة إلا علىٰ طهارةٍ .

وكان يأخذ معه ذلك النهار الأموالَ الجزيلة ؛ من ذهب وفضة وفلوس مخلوطة ، فيفرِّق علىٰ كل من رآه من الفقراء من حين يخرج إلىٰ حين يرجع ، ويعطي المعدَّاوي بالكبشة[١] ، وكذلك خدَّامَ المقياس ، ويعطي كلَّ من رآه يملأ علىٰ حوض ، ويُطعم الكلاب الخشكنان[٢] ، والكعك الذي يكون عنده من أيام العيد ، فيحمل منه علىٰ رأسه فرداً كبيراً ، ويرمي منه للسمك ، وكنا نعدُّه يومَ عيد .

وكانوا يقولون : إن عليه وظيفةَ سؤال الله طلوع النيل .

وكان من دعائه ما دام البحر زائداً : اللهم ؛ طمِّنْ قلوبنا بوفاء النيل[٣] ، وإن كنا لا نستحقُّ ذلك ، فأنت ذو الفضل علينا وعلى العباد ، فإذا انتهىٰ يقول : اللهم ؛ مُنَّ علينا بريِّ البلاد ، فإذا زرعوا يقول : اللهم ؛ منَّ علينا وعلى الأنعام بختام الزرع ، ولا تعذِّبنا بالغلاء يا أرحمَ الراحمين ، ويقول : باللقمة صلاح الوجود .

وكان لا يدخلُ لمصر نائبٌ إلا بإشارته ، فإذا قال : يخرجُ فلان عنَّا يخرجُ عن قرب .

ولما دخل إبراهيمُ باشاه إلىٰ مصر قال لأخي أفضل الدين : اذهبْ فانظرْ من دخل معه من أصحاب النوبة ، فلقيه وهو داخلٌ من باب النصر ، ورجع وقال : معه سبعةُ أَنفسٍ ، فقال : والله ؛ مغفر ، يرجعُ إن شاء الله سالماً من فقراء مصر .

وكان سيدي محمد بنُ عنان إذا سألوه في الحوائج العظيمة ؛ كقتل إنسان أو عزله

= أو انخفاضه زمن التحاريق ، وأشهرها مقياس جزيرة الروضة ، وكانت الضرائب تقرر عندما يحدد المقياس درجة معروفة لارتفاع النهر . « شرح غريب كتاب النجوم الزاهرة » .

(١) **الكبشة** : الكمشة : مقدار ما تمسكه قبضة اليد من الأشياء الصغيرة .

(٢) **الخشكنان** لغة : الخبز الجاف ، وتطلق علىٰ نوع من المخبوزات يصنع من الدقيق والسكر واللوز . « معجم الألفاظ التاريخية » (ص ٦٩) .

(٣) **وفاء النيل** : أيام فيضانه في شهر (تموز) حيث يصل منسوب الماء إلى (١٦) ذراعاً .

من منصبه ونحو ذلك يُرسلُ أصحابَ الحاجة إلىٰ سيدي علي الخواص ، ويقول : أنا مالي تصريف ، التصريفُ للشيخ علي .

وجاءتِ امرأةٌ إلىٰ سيدي محمد بنِ عنان وقد مسكَ السلطان الغوري ولدَها ، وأمرَ بشنقه ، فرفعت ذيل الشيخ علىٰ رأسها ، فصاح الشيخُ بأعلا صوته : ما هي وظيفتي ، هـٰذه وظيفةُ الخواص ، اذهبي إليه ، فذهبتْ ، فقال لها : روحي قنطرةَ الحاجب ، فإذا جاؤوا بولدك للتوسيط فقولي للوالي[1] : أمهلْ عليَّ حتىٰ أُعانقَ ولدي قبل موته ؛ فإنك لن تفرغي من مُعانقته إلا وقاصد السلطان وصل بالشفاعة فيه ، فكان الأمر كذلك ، فعملتْ للشيخ قفَّةَ كعك ، فقبلها منها ، وفرَّقها علىٰ عجائز الحارة .

وأخبرني الشيخُ الصالح عبدُ الدائم بن عنان قال : رأىٰ عمِّي الشيخُ محمدٌ بلاءً نازلاً علىٰ أهل مصر وهو يُصلي الضُّحىٰ ، فقال : يا عبدَ الدائم ؛ رحْ إلى الشيخ عليٍّ فقل له : أيشٍ هـٰذا ؟ فقال : شيءٌ نزل ، وسيرسل اللهُ له من يحملُهُ ، فبينما الشيخُ محمد يُصلي الظهر وإذا بالبلاء قد ارتفع ، فقال يا عبد الدائم : رحْ انظرْ أيشٍ جرىٰ للشيخ ، فوجده مضروباً مَخزوماً في أنفه وكتفه ، وذلك أنَّ جان بلاط المُحتسب مرَّ على الشيخ وهو زيَّاتٌ ، فقال له : ميزانُك غيرُ صحيحة ، فضربه مقترحاً ، وخزمَهُ في أنفه وكتفه ، وطافَ به مصرَ وبولاق ومصر العتيق ، فما رجع الشيخُ حتىٰ كاد يموت ، وكان الشاكي له شيخَ الإسلام الشيخَ شهاب الدين بنَ النجّار الحنبلي[2] ، وكان في حارته ، ولـٰكن كان لا يعرفُ مقامَهُ ، فلما أخبرتُهُ بمقامه ندمَ كلَّ الندم ، واستغفرَ .

قال الشيخ عبد الدائم : فلما رجعتُ إلىٰ عمي وأخبرتُه خرَّ ساجداً لله عزَّ وجل وقال : الحمد لله الذي جئنا في زمان رجلٍ يتحمَّلُ بلاءَ مصر كاملاً وحده ، رضي الله عنه .

وكان إذا نزلَ بالمسلمين بلاءٌ يصيرُ صامتاً ، لا يكلِّمُ أحداً ، ولا يضحك ، ولا يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام حتىٰ يكشفَهُ اللهُ تعالىٰ .

ورأيتُهُ مرةً يضفرُ الخوصَ وهو يَنعَسُ ضحوةَ النهار علىٰ خلافِ عادته ، فقلتُ له : ما لكم ؟! فقال : الليلة كان نوء ، وجرتْ عادةُ الله تعالىٰ أنَّ زهر الفواكه والقثّاء تقعُ

---

(١) التوسيط : قطع الرَّجل نصفين .

(٢) هو الشيخ شهاب الدين الفتوحي الحنبلي . انظر ترجمته (٤/ ٤٤٧) ، (٥/ ٩٨) .

منه ، فتخسرُ أصحابُ الفواكه وأصحابُ الفلوس الذين يعطون علىٰ ذلك قبل بدوِّ صلاحه ، فما زال النوُّء حتىٰ طلع الفجر ، فخرجتُ للصبح ، فما لحقتُ أنام شيئاً .

وكان إذا سأل اللهَ تعالىٰ في رفع بلاء يكشف رأسَهُ حتىٰ من العرقية[1] ، ويقفُ منكَّس الرأس حافياً ، يبكي ويتضرَّعُ ، رضي الله عنه .

وكان لا يغفلُ عن ملءِ قعاوي الكلاب التي في حارته .

وكان يصلي الظهرَ دائماً في الجامع الأبيض برملة لدٍّ .

وكان إذا أذَّن بالظهر يردُّ باب حانوته ويدخل ، فيغيب ساعةً ، ثم يخرجُ ويجلس ، وكان شخصٌ من العلماء في حارته يُنكر عليه ويقول : كأنَّ اللهَ تعالىٰ لم يفرضْ عليك الظهرَ أبداً ، فيسكتُ الشيخ ، قال سيدي يوسفُ الكردي أجلُّ أصحاب سيدي إبراهيم المتبولي : وكذلك كان سيدي إبراهيم يفعل ، فكانوا لا يرونَهُ في بركة الحاج قطُّ يُصلي الظهر ، كان إذا أذَّنَ بالظهر دخل النخل ، فيغيبُ ساعةً ، ثم يظهر ، قال : وحضرتُ مرةً مع سيدي إبراهيم في صلاة الظُّهر في الجامع الأبيض .

وله رضي الله عنه كلامٌ عالٍ في الطريق ، رقمتُ منه جملةً صالحةً في كتابنا المُسمَّىٰ بـ« الجواهر والدرر » .

وكتب عليه علماءُ مصر ، واستفادوا منه أجوبةً لم تكن عندهم ؛ كالشيخ شهاب الدين الحنبلي ، والشيخ ناصر الدين اللقَّاني المالكي ، والشيخ شهاب الدين ابن الشلبي الحنفي ، والشيخ شهاب الدين الرملي .

وحلف لي الشيخُ شهابُ الدين الحنبلي شيخُ الإسلام : أن له مدةَ ستين سنة يُطالع كتبَ التفسير والحديث ، فما رأىٰ جواباً من كتاب « الجواهر والدرر » مسطوراً[2] .

مات رضي الله عنه في جُمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاوية الشيخ بركات خارج باب الفتوح ، تجاه حوض الصارم بمصر المحروسة ، رضي الله عنه .

* * *

---

(١) **العَرَقية** محركة : ما يلبس تحت العمامة والقلنسوة .

(٢) **يريد** : فما رأىٰ أفضل جواباً من كتاب « الجواهر والدرر » مسطوراً .

الباب الثاني
في ذكر جماعة من أرباب الأحوال ممن النظرة لهم تغني المريد عن المجاهدة ، وهم كثر

فمنهم :

(٤٥٢) الشيخُ الصالح المُكاشَف الشيخ محمد الشربيني رضي الله عنه[١]

اجتمعتُ به مرةً واحدة ، وكان من أرباب الأحوال ، ومن أصحابِ الخطوة .

أخبرني بعض السواح : أن له ذريةً بأرض المغرب من بيت سلطان مدينة مُرَّاكش ، وذريةً في بلاد العجم ، وذريةً في بلاد الهند ، وذريةً في بلاد التكرور ، فكان في ساعة واحدة يطوفُ علىٰ عياله في هـٰذه البلاد ، ويقضي حوائجهم ، وكلُّ أهل بلاد يقولون : إنه مقيمٌ عندنا ليلاً ونهاراً .

وأخبرني ولدُهُ الشيخ أحمد : أن ولدَهَ من بيت[٢] سلطان مراكش جاءه بهديةٍ إلىٰ شربين ، وأقام عنده نحو شهرٍ ، وسافر إلىٰ والدته ، وحكت عنه صورةَ خطبتها ، وقالت : كان صورةُ خطبتي من والدي : أنَّه وردَ علىٰ أبي ، فصلىٰ معه الجمعة ، وعليه مرقعةٌ ، فقال له : زوِّجني ابنتَكَ ، فاستعظمَ الناسُ من الشيخ ذلك ؛ احتقاراً له ، فقال والدي : باسم الله ، ولـٰكن لي بك اجتماعةٌ في البيت ، فلما أتىٰ به البيت أراني له ، وقال للشيخ : أَعْجبتْكَ ؟ فقال : نعم ، فقال : أعطنا المهر ، فقال : وما هو ؟ فقال : عشر جواهر ؛ كلُّ جوهرةٍ بألف دينار ، فقال : أمهلني إلى العصر ،

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٨٢) (٣٦١) .

(٢) في (ج ، ز) : (بنت) بدل (بيت) ، وفي (ك) : (ابن بنت) بدل (من بيت) .

فأتانا العصرَ بجراب فيه ثلاثون جوهرة ، فكتب والدي كتابي عليه ، وأراد أن يغيِّرَ ثيابَهُ ، ويلبسَه ثياباً تناسب صهر السلطان ، فأبىٰ وقال : قولوا لها : إنْ كانت ترضىٰ بمرقعتي كان ، وإلا غيرتُها بملابس تناسب بنت السلطان ، قالت : فاخترتُ دخولَه عليَّ بالمرقعة ، فنام معي ليلةً ، فحملتُ بك يا ولدي ، واسم الولد سيدي إبراهيم .

وأخبرني بعض السُّوَّاح أنه رأىٰ زاويةً عظيمة ، وفيها قبةٌ عظيمة ، وفقراء مقيمون ، وفي هلالها جوهرةٌ يأتي عليها المسافرون في الليل من نحو ميل مفروشةٌ تلك القبة ببُسط نفيسة ، وسترٍ عظيم على التابوت ، مرصَّعٍ بالفصوص والمعادن ، مكتوبٍ عليه : هـٰذا ضريح سيدي محمد الشربيني المصري .

وأخبر أنه يُذبحُ في الزاوية كلَّ يوم عشر رؤوس من الغنم ، وسماطٌ عظيم .

وله ذرِّيةٌ هناك ، وكبيرُهم اسمه سيدي أحمد ، وأختُهُ فاطمة علىٰ زهدٍ وعبادةٍ وصدقات وخير .

وأخبرني ولده الشيخ أحمد : أنه لما حجَّ نامَ قريباً من سيدي مرزوق الكفافي من المغرب إلى الصباح ، فما قام إلا وبينه وبين الحاجِّ مرحلةٌ ، فبينما هو حائرٌ لا يدري أين يتوجَّه وإذا هو بوالده تحت شجرة يقول له : يا أحمد ؛ هـٰذه نومةٌ طويلة ، ثم أخرجَ له لحماً مشوياً ورقاقاً سخناً وقال : والدتُك تُسلِّم عليك ، وذبحت بعدَك الخروفَ المسمن ، وقالت : ما تطيبُ نفسي أن آكلَ منه إلا إن أكل ولدي ، قال فتغدَّيتُ مع الوالد ، ثم أخرجَ لي صُرَّةَ فضة ، وقال : أنفق هـٰذه ، ثم قال لي : اركبْ ، وغمِّضْ عينيك ثلاثين خطوة ، ثم افتحْ عينيك ، ففعلتُ ، فإذا أنا بالحاجِّ نازلٌ ، وما صدَّقتْ أمي بأني أكلتُ منه حتىٰ رجعتُ من الحجِّ ، وأخبرتها بذلك .

قال الحاج علي القاصد : وتنازع اثنان في جزيرة عند الشيخ ، فقال لهما الشيخ : اقسماها نصفين ، فلم يرضيا بذلك ، فمدَّ يده وقال : أنا أنقلُها من تلك الأرض ، فذهبا ، فلم يجدا لها أثراً إلىٰ يومنا هـٰذا .

قال : وقد وقع أن بعضَ الفقهاء بناحية شربين أنكروا على الشيخ عدمَ صلاته للجمعة في شربين ، وأرسلوا يقولون له : الجمعةُ فرضٌ ، فمن جحدَها كفر ، فقال : يا ولدي ؛ إن شاء الله نُصلي عندهم هـٰذه الجمعة ، فبينما هو خارجٌ للجامع إذ قال

لي : يا أحمد ؛ خذ هـٰذه الخمس دنانير ، وغمّض عينيك ، ولا تفتحهما حتىٰ أقولَ لك ، ومتىٰ فتحتَهما قبلَ أن أقول لك أخذتهم منك ، فمشينا خطوات ، ثم قال لي : افتح عينيك ، فوجدتُ نفسي عند الحجر الأسود ، فطفنا قبل صلاة الجمعة أسبوعاً ، وشربنا من ماء زمزم ، وصلّينا الجمعة خلف الإمام ، وغاب عني والدي فلم أجدْه ، فصرتُ حائراً في مكة ، هل أقعد حتىٰ يجيء الحجاج أم أرجعُ في البحر ، فبينما أنا كذلك إذ رأيتُ مبتلىً والدودُ يتناثر من يديه ، فقال لي : اخرج عن الخمس دنانير التي في فمك وأنا أُوصلُكَ إلىٰ أبيك هـٰذا الوقت ، فأعطيتهم له ، فقال : غمّض عينيك ، فدفعني ، فإذا أنا بشربين ، فقال : يا أحمد ؛ إياك أن تخبرَ فقيهك بذلك يشتدُّ إنكارُه علينا ، ويضربُكَ علقة[1] ، فقال لي الفقيه : كيف تترك الجمعة أنت وأبوك ؟! فسكتُّ ، فضربني علقةً وأنا ساكتٌ ، فقال : لا شك أن والدك مرتد .

وأخبرني ولده الشيخ أحمد أيضاً وصدَّقه علىٰ ذلك الشيخُ العالم العلامة شهابُ الدين البُهُوتي الحنبلي قال : مرضتُ مرَّةً حتىٰ أشرفتُ على الموت ، وحضرني عزرائيل ، ورأيتُهُ جالساً عندي لقبض روحي ، فدخل عليَّ والدي ، فقال لعزرائيل : راجعْ ربك ؛ فإن ذلك الأمرَ تغيَّرَ ، فخرجَ عزرائيل ، وأنا أعيش إلى الآن ، والحكايةُ لها أكثر من ثلاثين سنة .

وأخبرني الشيخ شهابُ الدين البُهُوتي نفعَ الله به : أن الشيخَ كان كثيراً ما يقول لنا : يموتُ شخصٌ من عباد الله في ثامن صفر سنة سبع وعشرين ، فكلُّ من أخذ من ماء غسله شيئاً ووضعه عندنا في قنينة ، ومسَّ منه الأبرص ، أو الأجذم ، أو الأعمىٰ ، أو المريض شُفي من مرضه أو عماه ، قال : فما عرفنا أنه يعني نفسَهُ إلا يوم مات ، فلم يقع من ماء غسله نقطةٌ واحدة إلى الأرض .

قال : وكان الشيخُ يقول لعصاه : كوني صورةَ إنسان من الشجعان ، فتتطوَّرُ في الحال إنساناً ، ويُرسلها تقضي الحوائج ، ثم تعودُ عصاً .

وأخبرني الشيخ محمد السروي قال : هرب فقيرٌ مني إلى الشربيني ، ثم جاء ،

---

(١) أي : يضربك بالعصا .

فقلت : أين كنت ؟ فقال : عند الشربيني ، فقلت له : لأضربنك حتىٰ يجيء الشربيني علىٰ صياحك ، فعلَّقته للضرب ، وإذا بالشربيني واقفٌ علىٰ رأسه ، فقال : شفاعة ، فتركته ، واختفى الشيخ .

وكان من شأنه عدمُ النوم في الليل ، فيجلس مع خواصِّ أصحابه يتحدَّثون في الطريق ومقاماتها ، وأحوالِ الفقراء المقيمين في أقطار الأرض إلى الفجر ، ثم يدخلُ الخلوة ، ويُغلق بابَها ، فلا يتجرَّأ أحدٌ يُكلِّمه من الهيبة .

ربما مكثَ الأربعين يوماً في الخلوة لا يخرجُ ، وكانت خلوتُهُ كلُّها ثعابين وحيات ، يدخلون من ذيله ، ويخرجون تارةً من طوقه ، وتارةً من كمِّه ، فيهربُ الناس .

وقال لي ولدُهُ الشيخ أحمد : دخلتُ عليه مرَّةً فإذا بحيَّة لها رأسان خارجة من قفاه ، فقال لي : اسحبْها وأخرجها ، فوجدتُها غلظَ يدي ، فوضع لها فتاتَ خبز وقال : إنها إلى الآن ما تغذَّت .

وكان أحدٌ لا يجدُ مكاناً لقدمِهِ في خلوته من الثعابين والحيات .

وكان السلطانُ الغوري والأمراء يعتقدونه اعتقاداً زائداً .

وكان إذا أرسل يشفعُ عند أميرٍ ولم يقبلْ شفاعتَه نفخَه حتىٰ تكاد بطنه تتمزق ، فيصيح : اقضوا حاجة الشيخ ، غصباً عليه .

وكان إذا أتىٰ للمُعدِّية[1] يعدِّي يقول له المُعدَّاوي : هات كراء حمارتك ، فيقول : عدِّينا لله يا فقير ، فيعدِّيها ، فأتىٰ يوماً وقال : زمقتنا بحمارتك ، فقال : ها الله ، فطأَطأ الإبريقَ ، فأخذ ماءَ البحر كلَّهُ فيه ، ووقفتِ المُعدِّية على الأرض ، فتاب المعدَّاوي واستغفر ، فصبَّ الإبريقَ في البحر ، فرجع الماءُ كما كان .

وكان قط لا يشتري شيرجاً للطعام ، إنما يقول للنقيب : خذ هـٰذا الإبريق املأهُ من البحر ، فيملؤه فيجده شيرجاً ، وتارة يملؤه عسلاً للضيوف ، وتارة لبناً .

---

(١) **المُعدِّية** : المركب يعبر عليه من شاطئ إلىٰ شاطئ .

وكان يقول : اللهم ؛ اجعلنا ممن تزهدُ فيه الدنيا ، ولا تجعلنا ممن يزهدُ هو فيها ، إلا إن سلَّمتنا يا رب من العلل .

وأخبرني ولده الشيخ أحمد قال : كان سببُ اعتقاد أمير كبير قرقماس فيه : أنه حُبس في برجِ الشام حتىٰ أكلَهُ الدَّلَم والقمّل والبق[1] ، فقال يوماً : يا شربيني ؛ أنا فقيرك ، فمدَّ الشيخُ يدَهُ ، فأخرجه من طاقة عالية في البرج ، فما شعروا به إلا وهو في مصر ، فما جاء إلا وقد طيَّبَ عليه خاطر السلطان ، فهٰذا كان سببَ اعتقاده وبنائه الزاويةَ له ، ولٰكنها لم تكمل .

وأخبرني ولده الشيخ أحمد قال : تركتُ والدي في شربين ، وسافرتُ الحجاز ، فدخلتُ مكة ، فوجدت والدي هناك مقيماً ، وفقراءُ مكةَ يحطُّون عليه ، ويضربونه وهو ساكتٌ ، فأشار إليَّ : أن اسكت حتىٰ فرغوا يَصكُّونه ، فقال : يا أحمد ؛ تعالَ مرِّغ لي رقبتي ؛ فإني أحسُّ بها وارمةً قدر البردعة ، فعقدوا لوالدي عقدَ مجلس ، واتفق أصحابُ الحديث أن كلَّ من جلس والخطيبُ يخطبُ ، ولم يحتج إلى الخروج من الحرم فهو شيخُ مكة ، فجلس الفقير الذي كان حزبَ علىٰ والدي الناس والخطيبُ يخطب ، فرأىٰ نفسَهُ قد احتلمَ ، فخرج للغُسل ، فقال الفقراءُ كلُّهم : البلد للشربيني .

ووقع له مرةً أخرىٰ نحوَ ذلك مع خطيب مكة ، وكان يُنكر على الشيخ ، فمدَّ الشيخُ يدَهُ للخطيب ، فوجدَ كمَّ الشيخ كالزقاق ، فدخله ، فوجدَ مطهرةً ، فتطهر وخرجَ من كمِّ الشيخ ، فزال إنكارُ الخطيب واعتقده .

وأخبرني ولده الشيخ أحمد قال : وجدتُ جراباً في طريق الحجاز فيه ذهبٌ كثير ، فحملته ولم أفتحه إلىٰ أن وصلتُ البلاد ، فأرسل والدي إلىٰ تاجر من مصر ، فحضر ، فقال له : كيف تخرجُ للفقراء عن ألف دينار وترجع فيها ، ائتني بها ، فقال : يا سيدي ؛ قد وقع مني مالي كلُّه في طريق الحجاز ، فقال : إن رجع تُعطينا الألف منه ؟ فقال : نعم ، فقال : يا أحمد ؛ هات الجرابَ الذي عندك ، فأخرجتُهُ ، فوالله ؛ ما فتحته ، فأول ما رآه قال : هٰذا جرابي ، وفيه عشرةُ آلاف ذهباً ، فعدُّوها فوجدوها

---

(١) الدُّلَم : ولد الحية . « المعجم الوسيط » (١/ ٢٩٤) .

كما قال ، فأعطى الشيخَ ألف دينار ، وأخذ الباقي ، وجه الكرامة : أن الشيخَ حفظَ عليه ماله مع ولده حتىٰ خلص ذمَّةَ الناذر .

ووقائعُهُ كثيرةٌ مشهورة بين فقرائه .

توفي رضي الله عنه في ثامن صفر سنة سبع وعشرين وتسع مئة ، ودفن في زاويته بشربين ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٤٥٣) صاحبُه العارف بالله تعالى الشيخ علي أبو خودة رضي الله تعالىٰ عنه[(١)]

كان علىٰ رأسه خودة حديد صيفاً وشتاءً وزنها قنطار وثلث .

وكان رجلاً أسمر قصيراً ، و[عيناه][(٢)] كالجمر الأحمر ، وهو مشمِّرٌ إلىٰ ركبتيه ، ومعه شعبةٌ في يده لها رأسان ، كلُّ من ضربه بها صرعه .

وكان له نحو عشر عبيد بخود حديد ، وكلُّ عبدٍ علىٰ حمار ، وتحته خرجٌ يدورُ البلاد يسألُ الناس ، وكلُّ ما حصله يفرِّقه على المحاويج .

وما رُئِيَ ضاحكاً قط ، ولا مُصلِّياً .

وكان أهلُ الحسينية يُنكرون عليه أشدَّ الإنكار ، وكان يأمرُ عبيدَهُ بأن يحكوا للناس : أنَّ الشيخَ يفعلُ فينا الفاحشة ، فيزدادون عليه إنكاراً ، ثم يعطبُ كلَّ مَنْ أنكرَ عليه .

ولما اتَّسعتْ دائرتُهُ وأُعطي دركَ بحر الروم غار منه الفقراء ، فقتلوه بالحال حين اجتمعوا عليه

وكان الشربيني يقول : (يا تعب الناس في بلاد الروم ، ويا طول جهاد ابن عثمان ،

---

(١) كذا في النسخ بالدال المهملة هنا وما بعدها ، وهي عامية لفظة (الخوذة) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٨٠) (٣٦٠) .

(٢) في النسخ : (وعينيه) .

ثم يقول : فرطنا فيه ، فاحتجنا له ، فما سدَّ أحدٌ في دركه بعده ؛ بدليل كثرة التجاريد بعد موته[١] ، بخلافها أيام حياته ، ما كان ابنُ عثمان يجاهد إلا في حين) .

وكان يقول : (أنا غفيرُ الروم ، والشربيني غفيرُ الهند) .

ولما حضرته الوفاة أنشد :

يا سعدُ قلْ لأصحابِ الأدراكِ يرمقوا لأدراكهم إحنا بقينا عواجز

وأخبرني الشيخ أحمدُ الكعكي رحمه الله قال : بينما أنا ماش مع أبي خودة خارج باب الشعرية ، فقربنا من الشيخ عبد القادر الدشطوطي ، فقال أبو خودة : مقصودي أخلي هراره في رجليه[٢] ، فوضع رأسَهُ في طوقه ، فكركبت بطنُ الدشطوطي ، فقال : انظروا من هو مار ؛ لأنه كان ضريراً ، فقالوا له : أبو خودة ، فقال : الله لا يجبر له كسراً ، أيش عملنا له ؟!

وكان إذا رأى امرأةً أو أمردَ حسَّسَ بيده علىٰ مقعدتها ، ولو كانتِ امرأةَ أمير أو ولده ، لا يُراعي أحداً ، ثم إذا أنكروا عليه عطبهم[٣]

وكان إذا حضر قوّال الفقراء يحملُ القوَّالَ علىٰ كتفه ، ويصيرُ يرمحُ به كأنه عصفور .

وأخبرني الشيخ يوسف الحريثي قال : كنتُ في دمياط ، فنزلنا المركب للسفر للقاهرة وإذا بأبي خودة جاء هو وعبيده ، فقال الناسُ : إنْ نزلَ هٰذا الكلبُ معنا غرقتِ المركب ، فأخرجه الريِّسُ من المركب ، فضربها بالعصا وقال : سمَّرتُك ستَّ شهور ، فجرَّدوا ما فيها ، وصارتْ في البرِّ المدةَ المذكورة .

قال : ونزلنا معه في مركب مرةً أُخرىٰ ، فوحلتِ المركبُ في وسط البحر ، فضربها فلم تجرِ ، فنزل هو وعبيدُه يمشون على الماء حتىٰ وصلوا البر والناسُ ينظرون .

وكان يضربُ أميرَ كبير قُرْقُماس بعكَّازه بحضرة الأمراء ، فإذا حرقه الضربُ هرب منه ، ودخل المبيت ، فيجري وراءَه ، فإذا قفلَ البابَ خلعه ودخل ، فلا يزالُ يضربُهُ

---

(١) **التجاريد** : الجيوش .

(٢) **هراره** : برازه .

(٣) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

حتىٰ يقضي وطرَهُ منه ، لا يتجرَّأ أحدٌ أن يمدَّ يده ، ولو مدَّ أحدٌ يده شَلَّت ويبست بجنبه .

اجتمعتُ به كثيراً ، فقلتُ له مرةً : أوصني بوصية ، فقال لي : احترسْ أن تبلعَك أمُّك ، فقلتُ لعبدٍ من عبيده : ما معنىٰ هـٰذا ؟ فقال : يقول لك : احذرْ أن تميل إلى الدنيا بقلبك ، فتحكم عليك بالخنوثة بين الرجال .

وأخبرني بعضُ الثقات أنه دخل يوماً علىٰ بعض أصحابه ، فتركه صاحبُهُ وانصرف ، ثم دخل فوجده يُقبِّلُ زوجته ، فرجع ، فأخبرَ الناس ، فقال له الشيخ : خنَّاقة تأخذ روحك ، فطلعتْ له الخناقة ، فقال له الخادم : اذهبْ بنا ، فقال : حتىٰ نحضرَ دفنه ، فدفنه ، ثم انصرف .

وكان يجبي الفراخَ من البلاد من النساء ، فامتنعتْ منهنَّ واحدةٌ أن تُعطيه عادته ، فلما سافرَ الشيخُ بالدجاج عوىٰ عليه الذئبُ ، فقال : لا تعوي علينا ، واذهبْ إلىٰ فلانة ، فكُلْ دجاجَها ، فنقلها الذئب كلَّها تلك الليلة .

وأخبرني الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الشربيني : أن أبا خودة جاءَ يوماً لزيارة والده ، فقال : يا أحمد ؛ انظر لي أبوك ، فقلت له : أنا رايح الكتَّاب ، قال : فدفعني ، فوجدتُ نفسي في مكة ، فطفت بالبيت ، وإذا أنا بجاريةِ أُمِّي تطوفُ ، وكانتْ مجاورةً مع الوالدة ، فقلت لها : أين الوالدة ؟ فقالت : الوالدة تبخرت من ساعة ، ودخلتْ بيتَ ناسٍ غرب ، قال : فقلتُ لها : أرني البيت ، فذهبتُ معها إليه ، فدخلتُ ، فوجدتها جالسةً علىٰ سرير هي وأبي ، فنظر إليَّ نظرَ الغضب وقال : يا أحمد ؛ تظنُّ السوءَ بأمِّك ؟! فقلت : التوبةَ ، ثم خرج الوالد فلم أجده في مكة ، فعرفتُ أنه رجع إلىٰ شربين ، فخرجتُ أتمشَّىٰ في المسعىٰ ، فوجدتُ شخصاً مبتلىً ، فزاحمته بكتفي ، فدفعني ، فوجدتُ نفسي واقفاً علىٰ باب دارنا في شربين والشيخ أبو خودة واقفٌ على الباب ، فقال : ادخل استأذنْ والدك ، فدخلتُ فوجدتُهُ جالساً يفتُّ للثعابين والحيات الخبز ويُطعمهم ، فخرج والدي ، فقلت له : آللهِ ، هـٰذه الواقعةُ وقعتْ لك ؟ فقال : واللهِ ؛ وقعتْ لي .

مات الشيخ أبو خودة في طريق المحلة الكبرىٰ كما أخبرني الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد الشربيني .

قال : وأخبرنا بكرةَ النهار : بأنه يموتُ ذلك النهار ، فقلنا : كيف نحملُكَ إلىٰ مصر ؟ فقال : علىٰ جملٍ ، فبينما هو سائرٌ إذ ارتفعَ بحمارته في السماء حتىٰ صرنا نراه كالطير الحمام ، ثم هبطَ إلى الأرض بالحمارة ، ومات هو والحمارة ، قال : فحملناه علىٰ جمل إلىٰ مصر كما قال ، وذلك في سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن بزاويته قريباً من جامع شرف الدين آخر الحسينية ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٥٤) الشيخُ الصالح ، ذو الأحوال الغريبة ، والمكاشفات العجيبة سيدي علي الذؤيب رضي الله تعالىٰ عنه(١)

بالبحر الصغير ، كان رضي الله عنه من أكابر الملامتية .

اجتمعت به مرةً واحدةً عقب منام رأيتُهُ ، وذلك أني سمعتُ قائلاً يقول لي في المنام : الشيخ علي الذؤيب قطبُ الشرقية ، ولم أكنْ سمعتُ به أبداً ، فسألت الناسَ عنه ، فقالوا لي : هـٰذا رجلٌ من أولياء الله ، له وجودٌ ، وهو أوَّلُ مشايخ الشيخ محمد العدل الطناحي .

وكان رضي الله عنه يلبسُ لباسَ الجمَّالين تارةً ، والترَّاسين تارة .

وكان يقيم في النهار في البرية ، ولا يدخل بلدَهُ إلا ليلاً .

وكان يمشي كثيراً على الماء ، فإذا أبصرَهُ أحدٌ اختفىٰ .

وأخبرني الشيخ شمس الدين الطنيخي صهرُ الشيخ محمد بن عنان : أن سيدي عليّاً هـٰذا أقام بمصر نحو عشرين سنة ، فكان ليلاً ونهاراً واقفاً تجاه المارستان ، مُعتمداً علىٰ عصاه وهو متلثِّمٌ ، ثم بعد ذلك نزل إلى الريف ، وظهرتْ له كراماتٌ وخوارقُ .

وكان يُخبر الناسَ كلَّ يوم بما وقع في أقطار الأرض ، فيجيءُ الخبرُ بعد ذلك كما أخبر .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٨٣) (٣٦٢) .

ولما مات وجدوا في داره نحو ثمانين ألف دينار ذهباً ، وما عَلمَ الناسُ من أين أتاه ذلك ؛ لكونه كان متجرِّداً من الدنيا ، فأرسلَ نائبُ مصر ، فأخذها لبيت المال .

وأخبرني السيد الشريف البلقسيُّ أنه قال لسيدي عليٍّ : ما هٰذه البطنُ الكبيرة ؟! فقال : يا شريف ، هٰذه أحسنُ من البطن الضيِّقةِ ؛ لأن كلَّ كلمة قبيحة دخلتِ البطنَ الواسعة تغيبُ فيها ولا تظهر ، بخلاف مثل بطنك الضيِّقةِ ، كلمةٌ واحدةٌ تكدِّرُها من أوَّلها إلىٰ آخرها .

وكان يُرىٰ كلَّ سنة بعرفات ، ويختفي من الناس إذا عرفوه .

مات رضي الله عنه سنة سبع وأربعين وتسع مئة ، ودفن بداره ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٥٥) الشيخ الصالحُ ، الجميلُ الأخلاق والشيم ، الصائمُ الدهر الشيخ أحمد السطيحة رضي الله عنه[١]

كان من الفقراء الصادقين .

صحبته نحو عشر سنين ، وأقام عندي بمصر الأيام والجُمع ، وكان يحبُّني كثيراً .

وكان علىٰ قدم الشيخ محمد الفرغل ، وكانوا يلبسونه النعلَ الجديد فيذوب في جمعة ، ويجدون فيه الحصىٰ والرمل ، فكان الناس يتعجَّبون من ذلك .

وأخبرتني زوجتُهُ أمُّ الشيخ سليم : أنه كان ينتشر من بعد العشاء ويصيرُ شابّاً نشيطاً إلى الفجر ، فيعود لحاله من الزمانة ، وكان متزوِّجاً أربع زوجات .

وله الشفاعاتُ المقبولةُ عند الباشوات ومشايخ العرب والكشَّاف ، وكلُّ من ردَّ شفاعتَهُ فلا بدَّ أن يحصل له تلك الجمعة ضرورةٌ .

وقعت له الكراماتُ الكثيرة .

وكان كفُّه ألَينَ من الحرير ، وصوتُه خفيٌّ لا يتكلَّمُ إلا همساً .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٨٤) (٣٦٣) .

وكان كثيرَ المُباسطة لأصحابه ، لطيفَ الذات ، كريمَ النفس ، يكرمُ كلَّ وارد ورد علىٰ زاويته في شبرا قبالة[١] ، ويعلف دوابَّهم[٢] ولو كانوا مئةً .

وكان زرعُهُ واسعاً ، والناسُ يقصدونه بالهدايا والنذور من البلاد .

وكان خادمُهُ يُركبه على الفرس في حضنه كالطفل ، وله طرطورُ جلد طويل[٣] ، وعليه جبَّةٌ حمراء .

وكانت آثارُ الولاية لائحةً عليه ؛ إذا رآه إنسانٌ يأخذُ بمجامع قلبه ، فلا يكاد يُفارِقُهُ .

وسخر به شخصٌ من ناحية بطا بالغربية ، ووضع علىٰ رأسه طرطورَ جلد ، وركب علىٰ فرس في حضن إنسان ، وصار يُحاكي الشيخ ، فحصل له في رقبته وجعٌ وورمٌ حتىٰ كاد يهلك ، فقال : اذهبوا بي إلى الشيخ السطيحة وإلا متُّ ، فذهبوا به إليه ، فضحك الشيخُ وقال : تُزاحمني على الكساح ، تُبْ إلى الله عزَّ وجل ، فتاب واستغفرْ ، فأخذ الشيخُ شيئاً من الزيت وبصقَ فيه وقال : ادهنوا به رقبتَهُ ، وكانتْ وارمةً كخلية النحل ، فدهنوها بالزيت ، فصارتْ تنقصُ شيئاً فشيئاً إلىٰ أن زالَ الوجع ، ونزعَ الطرطورَ ، وصار يخدمُ الشيخَ إلىٰ أن مات .

وأراد أن يُسافرَ في مركب من بولاق ، فنزل هو وجماعتُهُ في غيبة الريِّس ، فجاء الريس ، فقال : اطلعوا أنا لا أحملُ فقراء ، فقال له : نُعطيك أجرتَك ، ولم يعرف قيمةَ الشيخ ، فطلعَ الشيخُ ، فانفتح في المركب فوراً ، وغرقت حوائجُ الركاب ، ولولا تسارعَ الناسُ للبرِّ لغرقوا كلُّهم ، فترضوا خاطره ليرجع ، فأبى الشيخ وقال : سدُّوا مركبَكم وسافروا .

وسخرَ بطرطوره بعضُ الفلاحين ، فأكلَ شوكَ لحلاح ، فوقف في حلقه ، فمات في المجلس .

---

(١) **شبرا قبالة** : إحدىٰ قرىٰ مركز قويسنا التابع لمحافظة المنوفية .

(٢) في (ي) وحدها : (يعلق) بدل (يعلف) .

(٣) **الطرطور** : القلنسوة الطويلة الدقيقة الرأس .

وخطبَ مرَّةً بنتاً بكراً ، فأبتْ وقالت : الدنيا ضاقتْ عليَّ ، أتزوَّج مكسَّحاً سطيحاً ؟! فلحقها الفالجُ في الحال ، فلم ينتفعْ بها أحدٌ حتىٰ ماتت ، فجاءته على الأثر ابنةٌ بكرٌ وسألته بنفسها ، فعايرها البنات وصاروا يقولون لها : يا امرأة المكسح ؛ فلم تلتفتْ لهنَّ ، فأزال بكارتها وحصل لها خيرٌ عظيم ، وكانت أحبَّ نسائه إليه ، وبارتْ جميعُ البنات اللاتي عايرنها ، فلم يخطبهنَّ أحدٌ .

وشفع مرةً عند كاشف مدينة منف في محبوسٍ[1] ، فقبل شفاعتَهُ نفاقاً ، فلما خرجَ الشيخُ ردَّ شفاعته في الحال ، وحبس الرجلَ ثانياً ، فطلعتْ في عنقه غدَّةٌ فخنقته ، فمات الكاشف من يومه .

وتكسَّحتْ في بلاده امرأةٌ ، وعجز الأطباء عن مداوتها أربع سنين ، فأخبروا بها الشيخ ، فأخذ بعضَ زيت ، وبصق فيه ، ثم قال : ادهنوها به ، فدهنوها ، فقامتْ صحيحةً في الحال بحضرة الناس ، قال بعضُ الناس في سرِّهِ : كنتَ عملتَ ذلك لنفسك ، فقال : أنا ما أعتقدُ نفسي ، وأيضاً : فإني مع الإذن من ربِّي لا مع ما تشتهيه نفسي .

وحضر مجلسَ سماع في ناحية دسوق ، فطعنه فقيرٌ عجمي تحت بزِّهِ ، فقال : طعنني العجمي ، اقرؤوا الفاتحةَ ، واسألوا اللهَ أن يأخذَ لنا حقنا منه ، فأصبح العجميُّ مشنوقاً ميتاً علىٰ حائط لا يدرون من شنقه .

ومما وقعَ لي معه : أنه وقفَ علىٰ باب زاويتي بالفرس وهو طالعٌ للقلعة في شفاعة ، فقرأ الفاتحة وقال : خاطرُكُم معنا في قبول هٰذه الشفاعة ، فسرىٰ ذهني إلىٰ مكةَ ، فرأيتُ نفسي واقفاً تجاه باب الكعبة ، فخاطبني وقال : يا هو ؛ ارجعْ ما هو وقت سياحتك ، وعرف مكان خاطري .

وأخبرونا أنه من حين مَيَّزَ وهو صائم الدهر .

توفي رحمه الله سنة اثنتين وأربعين وتسع مئة ، ودفن بزاويته خارج شبرا قبالة بالغربية ، في قبَّة تُرىٰ من بعيد .

---

(١) في (أ ، ز ، ط ، ل) : (منوف) ، بدل (منف) .

وكان جميعُ أهل بلده يُنكرون عليه ، فكانوا يخربون واحداً بعد واحد إلىٰ أن خربتْ كلُّها ، وما بقي ساكنٌ هناك إلا هو وجماعته ، فقلت له : الفقير يحملُ ، فقال : هـٰؤلاء منافقون قليلو الدين والصلاة ، والحرامُ عندهم كثير ، وحاقت دعوتُهُ فيهم ، فأكثر أوقاتها خراب إلىٰ وقتنا هـٰذا ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٥٦) الشيخُ الصالح ، صاحب المكاشفات والخوارق ، الشيخ بهاء الدين المجذوب القادري رضي الله عنه[(١)]

كان من الأكابر العارفين ، وما ضبطوا عليه أنه أخطأ قطُّ في شيء أخبر به .

وكان أولاً خطيباً في جامع ميدان القمح بمصر ، فحضر يوم جمعة في عقد تزويجٍ ، فسمع قائلاً يقول : هاتوا النارَ جاء الشهود ، فصاح وخرج هائماً علىٰ وجهه ثلاثة أيام في الجبل المقطَّم وغيرِهِ ، لا يأكلُ ولا يشرب ، ثم ثقل الحالُ عليه ، فمكث خمسَ سنين لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ، وطلبتْ زوجتُهُ أن تتزوَّجَ لما جُذب ، فلم يتجرَّأ أحدٌ من القضاة يفسخ نكاحها إلا شخص واحدٌ ففسخ نكاحَها ، وعقد عليها ، فلما دخل عليها الزوجُ وعانقها ماتا جميعاً لوقتهما ، وعُزل القاضي ، وتحولت عنه النعمة .

ثم لمَّا زاد عليه الحالُ خرجَ عن الدنيا بالكلية .

وكان من محفوظاته قبل الجذب كتاب « البهجة » لابن الوردي ، فكان لم يزل يقرأُ منها أبياتاً ؛ لكونه جُذب وهو مشغولٌ بها ، وكلُّ شيء جُذب عليه الشخصُ لا يزالُ يتذكَّرُهُ ؛ كما أن الشيخَ فرج المجذوبَ كان الغالبُ عليه قوله : عندك رزقة تبيعها ؟ عندك إقطاعُ تبيعه بشرطِ أن يكونَ فيه ضيافةٌ من فراخ وإوز وغنم ؟ لكونه جُذب وهو مشغولٌ بذلك ، وكذلك إذا جُذبَ الشخصُ في حال قبضٍ أو بسط فلا يزالُ ذلك

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٨٧) (٣٦٤) .

دأبَهُ ، ثم إن الألفَ سنة عند المجاذيب كأنها لمحة في حضرة الله ، لا يَدرون بمضيِّ الزمان .

ورأيت القاضي ابن عبد الكافي لمَّا جُذب يدخلُ الخلاءَ ، فلا يزالُ يقول : لا حقّاً ولا استحقاقاً ، ولا دعوىٰ ولا طلباً ؛ لكونه جُذب وهو قاضي .

ورأيت ابنَ البجائي لمَّا جُذب وأُعطي دركَ بحر الهند ، لم يزلْ يقول : بابُ النكرة ، النكرة : كل أمر شائع لا يختصُّ به واحد دون آخر ؛ لكونه جُذب وهو يقرأُ في النحو ، فاعلم ذلك .

ومما وقعَ لنا مع الشيخ بهاء الدين : أنَّنا بتْنَا نحن وإياه في وليمة وكان جالساً في شباك علىٰ بركة الرطلي ، فأخذَ قلَّةَ ماءٍ ، وضرب بها نحوَ السقف ، فقال فقيهٌ : كسر القلة ، فقال الشيخ : تكذبُ ، فنزلتْ على الأرض صحيحة ، ثم إن ذلك الفقيهَ اجتمعَ به بعد [سبع عشرة] سنة[١] ، فقال : أهلاً بشاهد الزور الذي يشهدُ بغير علم ، مع أنَّ القاعةَ كانت ملآنةً خلقاً ، وهو ظلام .

وكان إذا قال لأمير : عزلناك يُعزلُ في يومه ، أو جمعته ، أو قال : ولَّيناك الشيءَ الفلاني تولاه عن قريبٍ .

وكانت مكاشفاته مع الأكابر لا تُحصىٰ .

صحبته نحو ثلاث عشرة سنة .

وأوصاني بتحمّل الأذىٰ من جميع الخلق ؛ إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

توفي رضي الله عنه سنة اثنتين وعشرين وتسع مئة ، ودُفن بزاويته قريباً من باب الشعرية ، رحمه الله تعالىٰ .

---

(١) في النسخ : (سبعة عشر)

ومنهم :

(٤٥٧) الشيخ الصالحُ الراسخ ، ذو المكاشفات الكثيرة ، والقبول التامِّ عند الخاصِّ والعام من الملوكِ فمن دونهم الشيخُ عبدُ القادر الدَّشْطُوطي رحمه الله(١)

كان رضي الله عنه مشهوراً بالكرامات والخوارق ، وعمَّر عدَّةَ جوامع في مصر وقُراها ، وأوقف الناسُ عليها الأوقافَ الكثيرة ، وكان مقبولَ الشفاعة ، لا يُخالفُهُ أحدٌ من الولاة .

وأخبرني الشيخ أبو الطيب نقيبُهُ قال : دخلتُ الميدان في شفاعة على السلطان الغوري وهو جالسٌ ، والأمراء المقدَّمون ، والعساكر بين يديه ، فهرعَ الناس إلى الشيخ يُقبِّلون يده ، حتىٰ لم يبقَ عند السلطان أحدٌ ، فقال الغوري : هـٰذا هو السلطان ، واحتقر نفسه ، فقامَ الآخرُ ومشىٰ له ، وقبَّل يده ، وقبلَ شفاعتَهُ .

صحبته رضي الله عنه نحو عشرين سنة ، وكان يُقبلُ عليَّ إقبالاً كثيراً إذا وردت عليه .

وأول ما اجتمعتُ عليه وأنا شابٌّ أمردُ أوصاني بوصايا ، وقال لي : أنا أعرفُ أنَّ عقلَكَ الآن ما يحملُ هـٰذا الكلام ، ولـٰكنْ هاتِ الدواة والقلم واكتبْها ، فأتيته بالدَّواةِ والقلم ، فكتبتُها ، وقال : احفظْ هـٰذه الوصية حتىٰ تكبرَ وتعرفَ معناها ، وتدعو لمن علَّمَك ؛ من تلك الوصايا :

(أوصيك بعدم الالتفات لغير الله عز وجل في شيء من أمورك في الدنيا والآخرة ؛ فإنَّ جميعَ الأمور لا تبرزُ إلا بأمره ، فارجع في الأمور إلىٰ من قدَّرها) .

ثم قال : (يقول اللهُ في بعض كتبِهِ المنزلة : يا عبدي ؛ لو سقتُ إليك ذخائرَ الكونين ، فنظرتَ بقلبك إليها طرفةَ عينٍ فأنت مشغولٌ عنَّا لا بنا) .

وكان من صفاته رضي الله عنه : أنه صاحٍ لأمور الدنيا والآخرة ، وملبسُهُ وهيئتُهُ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٨٨) (٣٦٥) .

كالمجاذيب ؛ حافٍ ، مكشوفُ الرأس ، عليه جبّةٌ حمراء ، وتارة جبّتان ، وكان إذا لبسَ واحدةً تعمَّمَ على رأسه بالأخرى .

وكان لقبُهُ بين الأولياء صاحبَ مصر .

توقَّفَ البحر يوماً ، ثم هبطَ أيامَ الوفاء[١] نحو ثلاثة أذرع ، فجاء الناس إليه ، فذهب إلى شاطئ النيل ، فخاض فيه ، وقال : اطلعْ بإذن الله تعالى ، فطلع البحرُ ، وأوفى ذلك الوقت ، فكاد الناسُ أن يتقاتلوا عليه ، يتبرَّكون به .

واتفق الناسُ على أنه ما رئي قط في معدية في البحر ، لا في الجيزة ، ولا في أنبابة ، إنما كانوا يرونه في هذه البرِّ ، أو في هذا البر .

وحجَّ مرَّةً حافياً ماشياً طاوياً ، فلما وصلَ إلى باب السلام انطرحَ بخدِّه على العتبة ثلاثة أيام حتى أفاقَ ، ثم دخل للطواف والسعي .

ولمَّا زارَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وضعَ خدَّه على بابِ السلام مُستغرقاً إلى أن رحل الحجاج ، ولم يدخل المسجدَ .

وكانوا يرونه أمام الدليل تارةً ، وفي ساقةِ الحجِّ تارةً ، وكان يظهر إذا شاء ويختفي إذا شاء .

وكان السلطانُ قايتباي إذا رآه يمرِّغُ وجهَهُ على أقدامه .

ولما اشتهر كثرة اعتقاد السلطان فيه زوَّرَ الشياطينُ على السُّلطانِ شخصاً على صورته وأتوا له به أجلح الرأس ، وأجلسوه في القَرَافة ليلاً ، وأرسلوا إلى السلطان : أن الشيخَ عبد القادر ينتظركُ في المكان الفلاني ، فتوضَّأ السُّلطانُ ، ونزل ليلاً ، وصارَ يمرِّغُ وجهَه على باطن أقدام الشيخ ، فقال للسلطان : الفقراءُ مُحتاجون لعشرة آلاف دينار في هذا الوقت وأنت جالس ، فحضر بها الخازندارُ ، ورجع السلطان ، فاشتاعَ الخبرُ بذلك ، فبلغَ الشيخَ عبد القادر ، فأرسل يقول للسلطان : نصبوا عليك ، فأرسل السلطان وراء الفقير ، وضربَهُ حتى أشرفَ على الهلاك ، وقال : أما تستحي من شيبتي وأنا أُمرِّغُها على أقدامك القذرة ، وقيل : إنه مات من الضرب .

---

(١) وفاء النيل : تقدم شرحها (٤/ ٢٩٤) .

وأخبرني الأمير يوسف بن أبي إصبع رحمه الله : أن السلطان قايتباي لمَّا أرادَ السفر لنواحي بحر الفرات استأذنَ سيدي عبد القادر ، فأذن له ، قال : فلما سافرنا مع السلطان كنا نجدُهُ ماشياً قدَّام السلطان في البرية ، وبيننا وبينه نحو عشرة أذرع ، فإذا نزلنا نُسلِّم عليه اختفىٰ ، فلما دخلنا حلبَ وجدنا زحمةً علىٰ باب زاويةٍ ، فقلنا : ما هـٰذا ؟ فقالوا : سيدي عبد القادر الدشطوطي له هنا خمس شهور ضعيف في هـٰذه الزاوية ، فقلنا : نحن فارقناه في مصر من نحو خمسةٍ وعشرين يوماً ، وكنا نراه أمامنا في الطريق ، فدخلنا ، فوجدناه ضعيفاً كما قالوا ، وتحيَّرنا في أمره .

ودخلتُ عليه مرةً وأنا شابٌّ أعزب ، فقال لي مبادرةً : تزوَّجْ ابنةَ الشيخ محمد بنِ عنان ؛ فإنها صبيةٌ هائلةٌ ، وتجمعُ أصحابَ الشيخ عليك ، فقلت له : يا سيدي ؛ ما معي شيءٌ ، فقال : ما معك خمس دنانير وشيء ؟ فتذكَّرتُ أنَّ لي عند إنسان من بلاد المنزلة هـٰذا المبلغ ، وتعجَّبتُ من صحَّة كشفه لحالي .

ثم أُذِّنَ بالظهر علىٰ جامع المغاربة ، فاضطجعَ ، وتغطَّىٰ بملاءةٍ ، فصارت الملاءة تنتفش حتىٰ لم أجدْ تحتها أحداً ، فغاب نحو خمس عشرة درجة ، ثم حضر ، فانتفختِ الملاءة ، فقام ، فذكرتُ ذلك لسيدي محمد بن عنان ، فقال : إن الشيخَ صلى الظهرَ في الجامع الأبيض برملةِ لُدٍّ بطريق الشام .

ودخلتُ مرةً علىٰ سيدي عبد القادر ، فقال : يا ولدي ؛ كلُّ من قال إن سعادته بيده كَذَبَ ، وأذكرُ لك بدايةَ أمري ؟ فقلت : نعم ، فقال : كنتُ في دشطوط لا أهجعُ من السعي في الدنيا، وأنا راكبٌ علىٰ ظهر الفرس من الغيط إلى السواقي إلى التقدمة ، وكان المثلُ يُضرب بي في الجهد في الدنيا ، فبينما أنا راكبٌ فرسي يوماً وأنا ذاهبٌ إلى الغيط فحصل لي جاذبٌ إلـٰهي ، فصرتُ أغيبُ عن إحساسي اليومين والثلاثة ، ثم أفيقُ فأجدُ الناسَ حولي وأنا في بلدٍ أُخرىٰ غير بلدي ، ثم أغيب حتىٰ صرت أغيبُ من الجمعة إلى الجمعة ، ثم من الشهر إلى الشهر ، لا آكلُ ولا أشرب ، فأفقتُ يوماً ، فقلت : اللهم ؛ إنْ كان هـٰذا واردَ حقٍّ منك فاقطعْ علائقي من الدنيا ، فرجعتُ إلىٰ بلدي بعد تسعة أشهرٍ ، فوجدتُ الأولاد والبهائم والعيال كلَّهم ماتوا ، فقلتُ للناس : هل وقعَ فصلٌ في البلد ؟ فقالوا : لا ، إنما وقعَ ذلك في دارك فقط ، فعلمتُ أنه واردُ حقٍّ ،

فأخذت في السياحة إلىٰ يومي هـٰذا ، ليس لي علاقةٌ من الدنيا سوىٰ هاتين الجُبَّتين اللتين عليَّ ، هـٰذه حكايتُهُ لي بلفظه .

ودخلتُ عليه مرةً وهو يُعمِّرُ في زاويته التي دُفن فيها وهو يقول للشيخ جلال الدين البكري : عجِّلوا بعمارة القبَّة ؛ فإن الوقتَ قد قربَ ، ولا تجعلوا قبري يَسعُ أحداً يُدفن معي ، وإياك يا جلال الدين أن تجعلَ لأحد من الشهود أو القضاة وظيفةً في زاويتي هـٰذه ، إنما جعلتُ وقفها [لمكشوفي] الركب من المقيمين والواردين(١) ، فمات الشيخُ ، وبقي من ختام القبة عمارةُ يوم واحد .

وأخبرني الشيخ أبو الطيب نقيبُهُ : أن الشيخ كان ينام عند نصرانيٍّ بباب البحر ، ويخصُّه بالنوم عنده ، ويسألُه جارُهُ القاضي أن ينامَ عنده فلا يرضىٰ ، فإذا قيل له في أمر النصراني يقول : هـٰذا ما هو نصراني ، إنما هو مسلمٌ ، فأسلم النصرانيُّ عن قريب ، وحَسُنَ إسلامُه كما قال الشيخ ، فكان يُخبرُ عن عاقبة أمره .

وحضرتُ عنده مرةً والشيخ شمسُ الدين البهنسي عنده ، فقال : يا سيدي ؛ بعد عمرٍ طويلٍ نجتمعُ بعدكم علىٰ مَنْ ؟ وذكرَ له مشايخَ العصر ، فقال : يا ولدي ؛ اجتمع بفلان الفلاني في باب اللوق ، ولا تجتمع بهـٰؤلاء المتظاهرين بالصلاح في الزوايا الجالسين بغير إذنٍ من الأشياخ ؛ فإنهم واللهِ ؛ لم يشمُّوا القشرَ البرَّاني للطريق ، فضلاً عن اللب .

وأحوالهُ ومناقبُهُ كثيرةٌ مشهورة ؛ كنومِهِ في مكانين وأكثر من العشاء إلى الصباح ، حتىٰ صنَّفَ في ذلك الجلالُ السيوطي مصنَّفاً وسمَّاه : « تطور الولي » .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة ، وصلَّىٰ عليه خاير بك ملكُ الأمراء نائب مصر ، وأركانُ الدولة ، والعلماء ، والعامة ، وكانت جنازتُهُ حافلةً .

ودفن خارجَ باب الشعرية بمصر المحروسة رضي الله عنه .

---

(١) في النسخ : (لمكشوفين) بدل (لمكشوفي) .

ومنهم :

(٤٥٨) الشيخ الصالح ، العابدُ الزاهد ذو الكشف الصحيح ، والحال العظيم الشيخ حسن العراقي (١)

المدفون فوق الكوم المشرف على بركة الرطلي .

كان رضي الله عنه قد عُمِّر نحو المئة سنة وثلاثين سنة .

ودخلتُ عليه مرةً أنا وسيدي أبو العباس الحريثي ، فقال : أحدِّثُكم بحديثٍ تعرفون به أمري من حين كنتُ شاباً إلى وقتي هٰذا ؟ فقلنا : نعم ، فقال : كنت شاباً أمردَ أَنسجُ العباءَ في الشام ، وكنت مُسرفاً على نفسي ، فدخلتُ جامع بني أمية ، فوجدتُ شخصاً على الكرسيِّ يتكلم في أمر المهدي وخروجه ، فتشرَّبَ حبَّهُ قلبي ، فصرت أدعو في سجودي : بأن اللهَ تعالى يَجمعني عليه ، فمكثتُ نحو سنة وأنا أدعو ، فبينما أنا بعد المغرب في الجامع إذ دخلَ شخصٌ عليه عمامةٌ كعمامة العجم وجبَّةٌ من وبر الجمال ، فمسَّ بيده على كتفي وقال لي : ما لك بالاجتماع بي ؟! فقلتُ له : من أنت ؟ فقال : أنا المهدي ، فقبَّلتُ يده ، وقلت له : امض بنا إلى البيت ، فأجاب ، وقال : أخلِ لي مكاناً لا يدخلُ عليَّ فيه أحدٌ غيرك ، فأخليتُ له مكاناً ، فمكث عندي سبعةَ أيام ، ولقَّنني الذكرَ ، وأمرني بصوم يوم وإفطار يوم ، وبصلاة خمس مئة ركعة في كلِّ ليلة ، وألا أضعَ جنبي الأرضَ للنوم إلا غلبةً ، ثم طلب الخروجَ وقال لي : يا حسن ؛ لا تجتمعْ بأحد بعدي ، ويكفيك ما حصلَ لك مني ، فما ثَمَّ إلا ما هو دونَ ما وصل إليك من قِبلي ، فلا تتحمَّلْ منةً لأحدٍ بلا فائدة ، فقلتُ : سمعاً وطاعةً ، فخرجتُ أودِّعُهُ ، فأوقفني عند عتبة باب الدار وقال : من هنا ، فأقمت على ذلك سنين عديدة .

ثم شرعتُ في السياحة ، فخرجتُ إلى مكة ، ورحت إلى اليمن ، ثم إلى الهند ، ثم إلى السِّند ، ثم إلى بلاد الصين ، ثم رجعتُ إلى بلاد العجم ، ثم سافرتُ إلى بلاد الروم ، ثم عدَّيتُ إلى الغرب حتى وصلت إلى البحر المحيط ، ثم رجعتُ إلى بلاد

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (٢/ ٣٩١) (٣٦٦) .

التكرور والسكوت ، ثم رجعتُ إلىٰ مصر ، وكانتْ مدَّةُ سياحتي سبعاً وخمسين سنة .

فلما دخلتُ مصرَ وجدتُ نفوذ الكلمة والشهرة لسيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه ، فاستأذنتُهُ في دخول مصر ، فلم يأذن لي وقال : اسكنْ في القَرافة ، ولا تجتمع بأحد ، فأقمت في قبَّةٍ مهجورة عشر سنين ، وسخَّرَ اللهُ لي الدنيا في صفة امرأةٍ عجوز تأتيني كلَّ يوم بإناء فيه طعام وبرغيف ، ولم أكلِّمْها ، ولم تُكلِّمني أبداً .

ثم أذن لي في دخول مصر ، فعارضني بعضُ الفقراء ، فأشار عليَّ بعضُ الإخوان بسُكنَى الحسينية خارج باب الشعرية ، فأقمتُ فيها في دكان سقاء سبع سنين .

ثم جاء الدشطوطي يريد يُعمِّرُ له جامعاً علىٰ بركة القرع ، فعارضني في الإقامة هناك ، فلم أزل أنا وإياه في نزاع ، فقلتُ لنفسي : يا حسن ؛ ابعدْ عنه ، فطلعتُ هٰذا الكوم ، فأقمت فيه ثلاث سنين ، فبينما أنا جالسٌ إذ طلع الدشطوطي إليَّ وقال : ارحلْ من هٰذا الكوم ، فما رضيتُ ، فمنِّي كلمةٌ ومنه كلمة ، فدعا عليَّ بالكساح ، فتكسَّحتُ ، ودعوتُ عليه بالعمىٰ فعمي ، فها هو في بيت المهندس أعمىٰ ، وها أنا مكسح ، وأوصيكَ يا عبدَ الوهاب بالتحمُّلِ للأذىٰ ، كلُّ من نازعك في مكان فاتركْهُ له ؛ فإن الدنيا ما هي دار إقامة . هٰذه حكايتُهُ لي بلفظه .

قال : وسألتُ المهديَّ عن عمره ، فقال : يا ولدي ؛ عمري الآن ست مئة سنة وعشرين سنة ، ولي عنه الآن مئة سنة ، فقلتُ ذلك لسيدي علي الخواص ، فوافقه علىٰ عمر المهدي رضي الله عنه .

وكان من طريقته رضي الله عنه إذا أتاه أحدٌ بشيء من الأثواب النفيسة ويقول : هٰذه نذرٌ لك يا شيخ حسن . . يقبلُها ، ثم يأخذُ السكينَ فيشرحُها شرائحَ شرائحَ ، ثم يخيطُها بخيط دارج ومسلَّة ، ويقول : إنَّ العبدَ إذا لبس جديداً تصير النفس تُسارقه بالنظر إليه والعُجب به ، فإذا قطعناه انقطعَ خاطرُ النفس .

توفي رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن في القبة التي فوق الكوم ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٥٩) الشيخ الصالح ، المجذوبُ الصاحي
ذو الأحوال الغريبة ، والكشوفات العجيبة
الشيخُ إبراهيم عُصيفير رضي الله عنه[١]

كان من أهل الكشف الكامل ، وكان كثيرَ العطبِ لمن يؤذيه ، وأصله من نواحي البحر الصغير .

وكان ينامُ مع الذئاب في البرية ، ويمشي على الماء جهاراً ، وينام في الكنائس مع الرهبان ، فقالوا له في ذلك ، فقال : نمتُ مرةً في جامع الأزهر ، فسرقوا عمامتي ونعلي ، وهـٰؤلاء الرُّهبان لي مدَّةَ عشر سنين أنامُ عندهم ما سرقوا لي شيئاً

وكان بوله يُرىٰ كاللبن الحليب .

وكان إذا غلب عليه الحالُ يدورُ يُغلقُ علىٰ أهل الحارة أبوابَ دورهم ويقول : نمنعهم من أذىٰ بعضهم بعضاً .

وكان يتشوَّشُ من قول المؤذن : (الله أكبر) ويقول : إنما يُكبِّرُ الناسُ على النصارىٰ ، ويرجمُ المؤذِّن بالحجارة[٢]

ومزحَ معه شخصٌ في الحمام ، فقال : اسكتْ وإلا كسرتُ رجل ثور السَّاقية ، فقال : ما أسكت ، فزلق ثور ساقية الحمام ، فوقعَ في بيت الترس ، فانكسرَ فخذُهُ ، فجاء الحمامي إليه ، فقال : يا سيدي أيش ذنب الثور ؟! فقال : اشترِ له بطيخة صيفي واسقها له يبرأ ، ففعل ، فبرئ في الحال .

ومزح معه مرةً شخصٌ يُسمَّى القلعي كان عالية العوال في الدقاف[٣] ، فقال : الله يرزق البعيد في رجله بلاءً لا يخرجُ منه إلا بالموت ، فحصل له ورمٌ في رجليه ، حتىٰ صار إذا ركب يحطُّ كلَّ رجلٍ في خرجٍ ، وتفتَّحتْ كلُّ رجلٍ ، وصار يحشي فيها

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٩٤) (٣٦٧) .
(٢) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .
(٣) **الدقاف** : نوع من أنواع القتال .

الشراميط والمشاق[١] ، ولا يقدرُ قطُّ يستنجي ، فكانت ثيابُهُ ملطخةً عذرة ، ولم يُصلِّ لله ركعةً بعد الدعاء عليه إلىٰ أن مات علىٰ أسوء حال .

وجاءه ابن موسى المحتسب مرَّةً ، فقال : ادعُ لي ، فقال : الله يبليك بقاتل يقتلك قريب ، فكان الأمرُ كذلك ، فقُتل تلك الليلة .

وقال له صاحبُنا الشيخُ محمد المنوفي : ادع لبنتي ، فقال : اللهُ يجعل بعد غدٍ ثالثها ، فماتَتْ لوقتها .

ومرَّ على الأمير سودون أمير كبير وهو يُعمِّرُ في جدار المدرسة المتعلِّقة بِنَا قبل بنائها مدرسة ليعمله قصراً له ، فرجمَهُ وقال : أنتم فرغتْ مدَّتُكم ما بقيتم تلحقوا تسكنوا ، فكان الأمر كذلك ، فسافر الغوريُّ لقتال ابن عثمان ، فقُتل وخربتْ دورُ عسكره كلِّهم ، واشترينا تلك الخرابةَ ، فجعلناها مسجداً .

وجاءه جانمُ الحمزاوي مرَّةً فقال : خاطرُك عليَّ ؛ فإني مسافرٌ إستنبول ، فقال تروحُ وتجيء طيب ، ولـٰكن ابنِ لي مدفناً ، فأمرَ له بعمارة المدفن الذي دُفن فيه ، فمات الشيخ قبل دخول الأمير جانم من الروم بيومين .

وكان الشيخُ مُحيسن قال لجانم : إن قعدتَ هنا قطعوا رأسَك ، وإن رحتَ الروم شنقوك ، فصدق الشيخ عصيفير ، وصدق الشيخ محيسن ؛ فإنهم قطعوا رأس جانم في مصر هو وولده ، وصدق الشيخُ عصيفير في قوله إنه يجيء من الروم في تلك السفرة سالماً .

ووقف ليلة السابع عشر من رمضان تجاه مدرسة أم خوند بخطٍّ بين السورين ، وكنَّا مقيمين بها ، فأخذ نصفين من شخصٍ من القضاة فأعطاهما للسقاء وقال : صبَّ لي هنا راويتين على هـٰذا الحريق يُطفيه ، فصب لي راويتين ، فأنكر الناسُ على القاضي الذي أعطى الشيخ النصفين ، وقالوا : كنتَ أخذتَ بهما خبزاً للفقراء ، فبينما نحن في صلاة التراويح إذا بالنارِ مطلوقة في المنارة ، وكانت ثلاثة أدوار من خشب وبوص ، وذلك أن

---

(١) **المشاق** : حشوة الصوف أو الوبر أو الحرير أو الكتان .

الوقادَ أوقدَ القناديل ، وغرز العودَ الذي أوقد به في المنارة فوق الريح[١] ، ونزل ، فطلع يُطفئ القناديل ، فوجد المنارة مشتعلةً بالنار ، وشررها طائرٌ ، وكانت ليلةَ ريحٍ ، فما استطاع أحدٌ أن يطلع من سلالمها بالماء ، ولا أنْ ينصبَ خارجها إسقالة[٢] ، فتدوَّرت من الدور الأسفل ، وارتمت في الشارع على الماء الذي صبَّه الشيخُ تجاه المدرسة ، فكأنَّ أحداً ملخها وأرقدها في الزقاق ؛ كالشخص النائم ، لم تؤذِ شيئاً من الربوع التي تحتها ، ورأيتُ أنا قناديل رأسِ المئذنة وقد وصلوا إلى الأرض ولم ينطفوا .

وسمعتُه مرَّةً يقول : (صوم هٰؤلاء المسلمين عندي لا ثوابَ فيه ؛ لأن أحدَهم يشتري يومَ صومه الخمسةَ أرطال لحم ، ويأكلُ بعد العشاء ، وقبل الفجر ، فلو حسب أكلَهُ في رمضان لوجدَهُ أكثرَ من الأكل في الإفطار ، ويا ليتهم [يصومون][٣] مثلَ صوم النصارىٰ ، فيفطرون علىٰ زيتٍ أو خلٍّ) .

وكان إذا مرَّتْ عليه جنازةٌ يمشي أمامها ، ويجمعُ أطفالاً ، ويقول : زلابية هريسة ، زلابية هريسة .

وكان ينامُ على التبن صيفاً وشتاءً في المخزن ، وأوقاتاً في الكنيسة ، وأوقاتاً في الفرن .

ورأىٰ مرَّةً جرو كلب ، فرماه في دستِ طباخ ، فبحثَ الناسُ عن ذلك ، فوجدوه لحم ميتةٍ .

ومرَّ عليه مرة شخصٌ بإناء فيه لبن ، فرماه منه ، فكسرَهُ ، فوجدوا فيه حيَّةً ميتة .

وكراماته ومكاشفاته كثيرة .

وكان له جارٌ يُصلي في المسجد ، فقال له : لا تعدْ تُصلِّي يأخذوا حوائجك من الحانوت ، فبينما هو يُصلي الجمعة إذ خرج من الصلاة ، فوجد اللصوصَ لم يخلُّوا في دكانه شيئاً .

---

(١) في (أ ، ط) : (الزرب) بدل (المنارة) ، وفي (ب ، ج ، د ، ك) : (الفرد) ، وفي (ل) : (الفرز) .

(٢) **الإسقالة** : ما يربطه المهندسون من الأخشاب والحبال ليصلوا بها إلى المحال المرتفعة .

(٣) في النسخ : (يصوموا) .

وكان يقول : (أنا أكره من يُصلِّي وهو يأكلُ الحرام) رضي الله تعالىٰ عنه .

مات سنة [اثنتين][١] وأربعين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بخطٍّ بين السورين تجاه زاوية الشيخ أبي الحمائل شيخ الشناوي رحمه الله .

رأيته بعد موتِهِ ، فألبسني طاقيَّتَهُ وعمامته ، وأخذ طاقيتي فلبسها[٢] ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٤٦٠) الشيخُ شهابُ الدين الطويل المجذوب النَّشيلي[٣]

من أولاد الشيخ خليل النَّشيلي أحدِ أصحاب سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه .

صحبته من أوائل جذبه إلىٰ أن مات ، وأوَّلُ ما اجتمعتُ عليه كان أهلُهُ يعلِّقون عليه الحروز والهياكل ، يظنُّون أن الذي به جنونٌ .

وأوَّلُ ما سلَّم عليَّ قال : أهلاً بابن الشوني ، وما كنتُ قط اجتمعتُ بالشوني ، ولا سمعتُ به ، فكان الأمرُ كما قال ، فاجتمعتُ به بعد ذلك ، وحصلَ لي منه مددٌ وخير .

وكان يأتيني البيتَ ، فأقدِّمُ له خبزاً وبيضاً ، فيأكلُ البيض أولاً ، ثم يأكل الخبز حافاً .

وكان إذا راق يتكلَّمُ بكلام يُشبه كلام الأنبياء في الأدب مع الله ومع خلقه .

ورأىٰ مرَّةً وهو خارجٌ من عندنا قاضياً طالعاً للجامع ، فضربَهُ فرمىٰ عمامته وقال : رح الحمام ، فتأمَّل القاضي فإذا هو جنبٌ .

---

(١) في النسخ : (اثنين) .

(٢) في (ط) : (وأخذ طاقيتي وعمامتي فلبسهما) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣٩٦) (٣٦٨) .

وسمعتُ سيدي عليَّ الخوَّاص يقول : (تولى الشيخُ شهاب من أصحاب النوبة سبع سنين ، ثم عُزل بولد البجائي) .

وكان رضي الله عنه يحبُّ دخولَ الحمام إلىٰ أن مات لا يزال فيه .

وكان يدعو خادمَهُ وهو في الصلاة ، فإن أبى الخادمُ أخرجَهُ من الصلاة غصباً .

ونزل له شخصٌ مرَّةً من فوق بغلته ، فلطمه علىٰ وجهه بالنعل وقال : يا كلب ؛ تفعلُ في عبدك الفاحشة ، فاعترف الشخص بذلك ، واستغفرَ ، وافتضح بين الناس .

وكان يقول : (أنا أعرفُ رائحةَ العاصي والطائع) .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وأربعين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بمصر العتيق قريباً من شون السلطان رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٦١) الشيخُ الكامل الراسخُ ، المستغرق في أكثر أوقاته الشيخ عبدُ الرحمـٰن المجذوب رضي الله عنه[(١)]

كان من الأولياء الأكابر .

وكان سيدي عليُّ الخواص رحمه الله يقول : (ما رأيتُ أحداً قط من أرباب الأحوال دخلَ مصرَ إلا ونقصَ حالُهُ إلا الشيخ عبد الرحمـٰن المجذوب) .

وكان مقطوعَ الذَّكَرِ ، قطعه بيده أوائل جذبه لمَّا فُتنَتْ به امرأةٌ .

وكان جالساً في خلوة مفروشة من الرمل صيفاً وشتاءً .

وكان إذا جاع أو عطش يقول : أطعموه اسقوه .

وكان يمكثُ ثلاثةَ أشهر يتكلَّم وثلاثةً يسكت ، وكان يتكلَّمُ كثيراً بالسرياني .

وسمعتُ سيدي عليَّ الخَّواص رحمه الله يقول : (ما مثَّلتُ نفسي إذا جلستُ عند الشيخ عبد الرحمـٰن إلا كالقطِّ عند السَّبُع) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٩٧) (٣٦٩) .

وكان يُرسل لي السلامَ ، ويُخبر خادمَهُ بوقائعي في الليل على التفصيل ، فكنتُ أتعجَّبُ من قوة اطِّلاعه .

وحصل لي مرَّةً واردٌ صار جسمي كالنار ، فنزعتُ ثيابي ، ومررتُ في حارته في الليل ، فصار يقول لخادمه من داخل الدار التي هو فيها : اذهبْ بهذه البردة والحقْ بها عبدَ الوهاب غطِّيه بها ، فما أخبرني الخادم إلا بعد أيام وقال : إن الشيخ قال له في ذلك الوقت ذلك الكلام ، وقال : قلتُ في نفسي : إنه مجذوبٌ ، يتكلَّم بمهما طلع على قلبه .

ومكث مقعداً نحو خمس وعشرين سنة ، أقعده الفقراءُ .

وكان يُخبرُ بوقائع الناس في سائر أقطار البلاد .

مات رضي الله عنه سنة أربع وأربعين وتسع مئة ، ودفن بزاويته قريباً من جامع الملك الظاهر بالحسينية ، وقبرُه ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالى عنه .

ومنهم :

(٤٦٢) الشيخُ الصالح ، المجذوب
سيدي محمد الرُّويجل العُريان رضي الله تعالى عنه[١]

كان من أرباب الكشف التام .

رأيتُهُ مرَّةً من بعيدٍ بيني وبينه نحو مئةُ قصبة ، فقال لي رفيقي : يا تُرى هل يحسُّ بأحدٍ إذا ضربه ؟ فلما وصلنا إليه التفتَ إلى رفيقي وقال : تضربني على أيِّ شيء ؟!

وكان ينامُ في كانون الطبَّاخ وهو جمرٌ فلا يحرقه .

وأخبرني شيخنا الشيخ شهابُ الدين الرملي رحمه الله قال : أصلُ ما حصلَ لي من الخير والفتوى بمصر من دعوة سيدي محمد الرُّويجل ؛ فإنه دخل عليَّ في بيتي وقتَ القائلة إلى أن وقف على رأسي ، وقال : الله يفتح عليك ، ثم خرجَ .

وأخبر قبل موته عن قطع رقبته لما دخل عسكرُ ابن عثمان إلى مصر ، فوقفَ على

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (٢/ ٣٩٨) (٣٧٠) .

شبَّاك ضريح سيدي محمد بنِ عنان ، وصار يُكلِّمُ الشيخ في الضريح ويقول : أيشٍ عملَ الرُّويجل يا سيدي حتىٰ يقطعوا رأسه ؟! ثم خرجَ من جامع باب البحر ، فقطعوا رأسه في طريق بيلاق ، ودفن في مقبرة الجزيرة .

مات رضي الله عنه في سنة ثلاثٍ وعشرين وتسع مئة .

ومنهم :

(٤٦٣) الشيخُ الصالح ، سيدي حبيبُ المجذوب رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه كثيرَ العطبِ للناس .

وكان سيدي عليٌّ الخواص يُحذِّرُ الناسَ من القرب منه ويقول : إنه حيَّةٌ نقطاء ، خلقه اللهُ لهلاك قوم .

وكان إذا رآه يقول : اللهم ؛ اكفنا السُّوء ؛ خوفاً أن يخطرَ في باله شيء فيؤاخذه عليه .

مات في سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن بالكوم خارج باب الشعرية في الحُسينية ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٦٤) الشيخ الصالحُ الزاهد ، سيدي فرج المجذوب[٢]

كان له الكشفُ التام ، والكراماتُ الخارقة .

وكان طولَ نهاره يجمعُ من الناس الدراهم ، ويفرِّقها علىٰ محاويج الناس ممن لا يملكُ عشاءَ ليلةٍ من غيرِ سؤالٍ منهم ، وكثيراً ما كان يدفنُها في جدار حائط بحضرة الناس ، فيأخذها كلٌّ من له فيها نصيب .

وأخبرني الشيخ جمالُ الدين ولدُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله قال : لقيني

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٩٩) (٣٧١) .
(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٠) (٣٧٢) .

الشيخ فرج وفي رأسي أربعون نصفاً ، فقال : أعطني نصفاً ، فأعطيتُهُ ، فلا زال يقول لي : أعطني نصفاً ، حتىٰ بقي منها نصفٌ واحدٌ على اسم الحمام ، فتبعني للحمام وقال : أعطني النصفَ الآخر وأنا أعطيك وصولاً علىٰ شموالَ اليهوديِّ بأربعين ديناراً ، قال : فلم أعطه النصف ، فلما خرجتُ من الحمام وجلست في البيت إذا بشخص يستأذن في الدخول ، فقلت : من هـٰذا ؟ فقال : شموال اليهوديُّ ، فقلتُ : ما حاجتك ؟ فقال : كنت اقترضت من والدك أربعين ديناراً ، وليس بها شاهدٌ إلا الله ، وقد تحرَّكَ عندي الخاطرُ بقضائها هـٰذا اليوم ، وعجزتُ عن دينار واحد ، وها هي ، فأعطاني تسعةً وثلاثين دينار ، فندمتُ الذي لم أكن أعطيته النصفَ الآخر .

وله وقائع كثيرة مع أهل مصر ، رضي الله عنه .

انقطع آخرَ عمره في المارستان إلىٰ أن مات ، ودفن في زاوية الشيخ بهاء الدين المجذوب بباب الشعرية ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٦٥) سيدي إبراهيمُ المجذوب الشهير بـ (ابنِ خريطتي)(١)

كأن الله تعالىٰ قد سخَّر له أهلَ الدنيا ، وكان كلُّ دراهم أعطوها له دعا المطبِّلين والمزمِّرين ، فقال لهم : دقوا الطبلَ والزمر ، ويُعطيهم كلَّ ما معه ولو عشرَ دنانير .

وسمعت سيدي عليَّ الخوَّاص يُخبر : أنه من أصحاب النوبة والتصريف بمصر .

وكان كلُّ قميص لبسه يخيطه علىٰ دائر رقبته بخيطٍ دارج ؛ فإن خَرَقَه قويّاً حصل للناس شدَّةٌ عظيمة ، وإن خرقَهُ يسيراً حصلَ للناس شدَّةٌ يسيرة ، وإن قطعَ الخياطة انفرجتْ عن الناس .

وكان سيدي عليٌّ الخوَّاص إذا شكَّ في أمر نزل بالمسلمين يقول : انظروا طوقَ الشيخ إبراهيم ، فيعرفُ ذلك الأمر من طوقه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٠) (٣٧٣) ، وفي « طبقات المناوي » (٣/ ٣٢٢) : (ابن خرطتي) .

صحبته نحو سبع سنين ، وكان كلَّما رآني يتبسَّم .

مات سنةَ نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن خارجَ باب الفتوح في زاويته ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٦٦) الشيخُ الصالح أحمد المجذوب ، المشهور بـ (حبِّ رُمَّانتي)[١]

كان يلبسُ قمصَ الحرير ، لا يلبس غيرَها ، وعليه قبعٌ طويل حرير .

وكان محبوباً لكل الناس ، يراه الناسُ في أماكن مختلفةٍ في وقتٍ واحد .

وكان يستخرجُ من الناس المالَ الكثير ، فيعطيه للمحاويج ؛ من العجائز والعميان وأرباب الديون .

وكان إذا لم يُعطه أحدٌ شيئاً ، يقفُ على رأسه ، ويصيح بأعلىٰ صوته : يا مالي ومال السلطان عند هـٰذا ، فإن لم يُعطه شيئاً أخذه الولاةُ ، وسلبوا نعمتَهُ .

وكان له كراماتٌ كثيرة .

مات سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن بباب اللوق رحمه الله .

وصحبته نحو عشر سنين .

ومنهم :

(٤٦٧) الشيخ إبراهيم العريان[٢]

كان من أصحاب سيدي محمد الشناوي ، ثم حصل له جذبٌ ، فتعرَّىٰ الثياب جملةً .

وكان يأتيني إلى البيت ، فيطلبُ ما يأكل وما يشرب .

وكان محبوباً للناس ، لا تكادُ تجدُ أحداً إلا وهو يحبُّهُ ويعتقده .

وكان إذا دخل حارةً أو بلداً يُسلِّم علىٰ أهلها كباراً وصغاراً ، نساءً وذكوراً بأسمائهم ، حتىٰ كأنه تربَّىٰ بينهم .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠١) (٣٧٤) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٢) (٣٧٥) .

وكان كلُّ جامع دخله يطلعُ يخطبُ عُرياناً ما عدا شدٌّ على رقبته فقط[١] ؛ فيخطبُ للناس ، ويذكرُ لهم الوقائعَ المستقبلة في تلك الجمعة أو الشهر ، فيقعُ الأمرُ كما قال .

وكان إذا صحا من الجذب يتكلَّمُ بكلام حلو حتى لا يكاد الشخصُ يُفارقه .

وكان إذا دخل لنا البيتَ يقول لي : أيشٍ حالك يا عبد الوهاب ؟ ثم يقولُ في الحال : قلْ لي على اسمك .

وكانوا يغلقون عليه البابَ ، فيجدونه خارجه ، وكان له مكاشفاتٌ كثيرة .

مات سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بالروضة ، رحمه الله تعالى .

ومنهم :

(٤٦٨) الشيخُ الصالحُ مُحيسن البُرُلُّسيُّ المجذوبُ[٢]

كان من أصحاب الكشف التامِّ ، وكان مُقيماً أولاً ببيلاق ، ثم انتقلَ إلى الرميلة .

وكان كثيراً ما يربط عنده العنزَ والديك في حبلٍ .

وكان يوقدُ النارَ عنده كثيراً ، فيعرفُ أصحاب الحديث من الأولياء أنه لا بدَّ من وقوع فتنةٍ ، وكان إذا صبَّ عليها الماءَ انطفأتِ الفتنةُ .

وسمعت سيدي عليَّ الخوَّاص رحمه الله يقول : (إن الشيخ مُحيسنَ معه دركُ بحر الهند بعد سيدي محمد الشربيني) .

وجلستُ عنده مرَّةً ، فجاءه فقيرٌ يُثاقله ، فقال له : قم ، فقال : ما لي ، فقال : مسكتَ امرأةَ جارك فوقَ الفرن وجئت تُثاقلني ؟! ـ كهيئة من يستفهمُ غيرَهُ الاستفهامَ الإنكاري ـ فاصفرَّ لونُ الفقير ، وقال لي : واللهِ ؛ وقعَ لي ذلك وأنا شابٌ ، ولها سبعٌ وخمسون سنة في نواحي دمياط ، فقلتُ للفقير : تبْ إلى الله عن مُثاقلة المجاذيب ، وإلا فضحوك بين الناس ؛ فإن قلوبَ الناس عندهم مكشوفةٌ ، ويعرفون ما يخطرُ على بال المارِّ عليهم .

---

(١) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات ، والشدُّ ، وجمعه شدود : رباط ولفافة .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (٢/ ٤٠٢) (٣٧٦) .

صحبته رضي الله عنه نحو عشرين سنة .

وكان إذا رأىٰ صغيراً يريدُ أبوه أن يُقرئهُ القرآن يقول له : اذهبْ إلىٰ زاوية عبد الوهاب ، فيحصلُ لذلك الولدِ الخيرُ ببركة إشارته

ومما وقع لي معه : أن الأمير جانم الحمزاوي أرسلَ يطلب خاطرَ الفقراء حين عزم على السفر إلىٰ إستنبول ، وقال : اكتبْ لي شيئاً أحمله فوقَ رأسي ، فكتبتُ له ورقةً فيها : الفقيرُ عبدُ الوهاب يقبِّلُ الأرض بين يدي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بين يدي سائر الأنبياء على اختلاف طبقاتهم ، ثم بين يدي أصحاب النوبة بنواحي الروم ، ثم بين يدي مولانا السُّلطان سليمان ، ثم بين يدي الوزراء ، ويسألُهم أن يشملوا الأمير جانم بالنظر ، ويسمعوا منه أخبارَ مصرَ مفصَّلةً ؛ فإنه إن شاء الله صادقٌ فيما يخبر به ، وطويتُها ، وأرسلتُها للأمير جانم ، فوضعها في رأسه ، فبعد نحو خمس درج أرسلَ الشيخ مُحيسن قاصدَه يقول لي : أنت الذي صرتَ ترى الناسَ في عينك كالتراب ، تُكاتب أولياءَ الروم من غير مشورةِ أصحاب النوبة بمصر ، فنبَّهني علىٰ قلَّة أدبي ، وصرتُ بعد ذلك لا أُكاتبُ أحداً خارج درك مصر إلا بعد استئذان أولياء مصر بالقلب .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وأربعين وتسع مئة ، ودفن في تربة الأمير جانم المجاورة لقبة الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٦٩) الشيخُ الصالح الكبير ، صاحبُ الكشوفات والمعارف والخوارق والأحوال الغريبة ، الشيخ أبو الخير الكُلَيباتي[1]

كان لا تُفارقه الكلابُ في أيِّ محلٍّ جلس حتىٰ في جامع الحاكم .

وأنكر عليه بعضُ القضاة ذلك ، فقال : هم أولىٰ بالجلوس في المسجد منك ؛ فإنهم لا يأكلون حراماً ، ولا يشهدون زوراً ، ولا يستغيبون أحداً ، ولا يدَّخرون

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٤) (٣٧٧) .

عندهم شيئاً من الدنيا ، ويأكلون الرِّممَ التي تضرُّ رائحتُها بالناس[١]

وأخبرني سيدي علي الخواص : أنهم لم يكونوا كلاباً حقيقة ، وإنما كانوا جنّاً سخَّرهم الله تعالىٰ له يقضون حوائجَ الناس .

فكان كلُّ من راحَ له بغلةٌ أو بقرة أو جاريةٌ أو غيرُ ذلك وحمَّلَ الشيخَ الحملةَ يقول : اشترِ لهـٰذا الكلب رطلَ لحمٍ أو شوربة أو شواء وهو يدلُّكَ علىٰ ضائعك ، فإذا أكلَ ذلك ذهبَ وصاحبُ الحاجة وراءه حتىٰ يقفَ على المكان الذي فيه الضائعُ ، فيجده .

وكان لم يزل يحطُّ علىٰ نفسه ، وربما جلس في بيت الخلاء من ميضأة جامع الحاكم الأيام المتتابعة ، لا يرفعُ رأسَه من الملاقي ، ويقول لنفسه : تستأهلي يا خبيثة .

وأخبرني الشيخُ محمد الغزاوي : أن امرأته اشتهتْ مامونيةَ حموي ، وما رأىٰ زوجُها في مصرَ شيئاً ذلك الوقت ، قال : فأتيتُ الشيخ أبا الخير ، فأخبرتُهُ بذلك ، فقال : ائتني بصحنٍ ، فأتاه به ، فولاه ظهرَهُ ، وشمَّرَ وتغوَّطَ له مامونية سخنة بعسل نحل ، قال : فأكلنا منه ، وأطعمنا الجيرانَ ، واستحلفتُهُ علىٰ ذلك ، فحلف أنَّ ذلك حقٌّ[٢]

وأنكر عليه شخصٌ من الجامع الأزهر إدخالَهُ الكلاب في الجامع ، فقال : رح وإلا جرَّسوك علىٰ ثورٍ ، فشهدَ ذلك النهار زوراً ، فجرَّسوه دائرَ مصر علىٰ ثور كما قال .

وكانت صفةُ الشيخ : أنه رجلٌ قصير ، يعرجُ بإحدىٰ رجليه ، وله عصاً فيها حلقٌ وشخاشيخ .

صحبته أولَ دخولي مصرَ سنة إحدىٰ عشرة وتسع مئة .

فمات بعد سنةٍ[٣] ، ودفن في الدير الذي كان يجلسُ فيه قريباً من زيادة جامع

---

(١) الرِّمم جمع الرِّمَّة : وهي العظام البالية .

(٢) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات

(٣) قال الغزي في « الكواكب السائرة » (١/ ١٢٠) بعد ما ذكر أن الحمصي قال في « تاريخه » : بأنه توفي سنة (٩٠٩هـ) ، وأن الشعراني قال : إنه توفي سنة (٩١٢هـ) : (وكان الحمصي يومئذٍ بمصر ، وما قاله أصح ؛ لأنه يتقيد بالوقائع والحوادث يوماً يوماً ، وأكثر ما أرخه الشعراوي رحمه الله في « طبقاته » تقريب) أقول : وقد أرَّخ الشعراني وفاته في « طبقاته الكبرىٰ » سنة (٩١٩ هـ) .

الحاكم ، وبنوا عليه زاويةً ، وأقيمتْ بها الشعائر رحمه الله .

وله مكاشفاتٌ غريبة مع أركان الدولة .

دعا لي رحمه الله بدعواتٍ منها : الله يصبِّرك علىٰ ما ابتلاك ، فالحمدُ لله رب العالمين .

ومنهم :

(٤٧٠) الشيخُ الصالح ، المجذوب الصاحي سيدي سعود رضي الله عنه(١)

كان مُقيماً بسويقة العزي بالقرب من مدرسة السلطان حسن .

اجتمعتُ به وصحبتُهُ من أول جذبه إلىٰ أن مات .

وكان ملازِمَهُ في أولِ جذبه كلبٌ أصفر كبير يُقارب السَّبُعَ العظيم ، فكان لم يزل واقفاً عند كتفه .

وكان من أهل الكشف الكامل ، وأرسل لي السلامَ مرات ، وجاءني مرات .

وكان يُخبر عن وقائع أقاليم الأرض كلِّها ويقول : مات اليوم فلان ، وتولّى اليومَ فلان ، عُزِلَ اليوم فلان ، فيأتي الأمرُ كما قال .

مات رضي الله عنه سنة إحدىٰ وأربعين وتسع مئة ، ودفن بالزاوية التي بناها له الباشا سليمان رحمه الله ، وجعل له قبةً خضراء ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٧١) الشيخُ الصالح ، صاحبُ الكرامات والخوارق والمكاشفات الكثيرة الشيخُ سويدان(٢)

أقام مدةً طويلة بالخانقاه السرياقوسية ، وبنوا له هناك زاويةً خارج الخانقاه مما يلي مصر ، ثم انتقلَ أيام السُّلطان الغوري ، ثم انتقل إلى المدرسة الزمنية برصيف بولاق

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٦) (٣٧٩)

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٦) (٣٨٠) .

عمارة الخواجا ابن الزمن ، ولازمته فيها ملازمةً كبيرة بالأيام والليالي .

وكان كثيرَ التحمُّل لحملات الناس وهمومهم من أركان الدولة وغيرهم .

وكان كلُّ من حمَّله حملةً يحطُّ في فمه حِمِّصةً يتذكَّر بها حملته ، فربما امتلأ فمُهُ حبَّاتِ حمص ، ويمكثُ في فمه نحو الشهر حتىٰ يقضي تلك الحوائج .

وكانوا يرونه بمكَّةَ تارةً وبمصر أخرىٰ .

وأخبر بموت أمِّهِ يوم ماتت بمصر وهو بمكَّةَ ، ودخل زمزم بكفنِها ، فغسله منها ، ورماه لهم في مصر مبلولاً وهم يغسِّلونها ، وما عرف الناسُ مَنْ رماه حتىٰ جاء الخادمُ من مكة ، وأخبر الناس بذلك .

وكان مكشوفَ الرأس على الدوام ، وله شعرٌ طويل ملبَّدٌ قروناً قروناً من قلَّةِ التسريح ، وكان كثَّ اللحية ، ضربه الشيبُ .

وكان له علىٰ خوند امرأةِ سلطان مصر جوخةٌ حمراء كلَّ سنة ، فيخلعُ العتيقة ، فيأخذها النقباءُ ، ويُلبسونه الجديدة .

وكان أكثرُ كلامه إشاراتٍ لا يفهمها عنه إلا الفقراء الصادقون .

وكانوا يدخلون عليه ، تارةً يجدونه سَبُعاً ، وتارةً فيلاً ، وتارة أميراً ، وتارةً فقيراً ، فكان كثيرَ التطور ، رضي الله عنه .

مات سنة تسعَ عشرة وتسع مئة ، ودفن بزاويته بالخانقاه السرياقوسية ، وقبره خارجُ البلد ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٧٢) الشيخ الصالح المجذوب أحمد البجائي [١]

جُذب رحمه الله وهو يقرأ في علم النحو ، فكانَ دائماً تجدُهُ يُعرب الكلام .

وكان اللهُ قد أطلعَهُ علىٰ معاصي العباد ، فكان كلُّ من لقيه من العصاة يبصقُ علىٰ وجهه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٢٦) (النجائي) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣٢٧) (البخاتي) .

وأُعطي دركَ بحر الهند .

وكان كلما مرَّ علىٰ سيدي علي الخواص يقول : (سبحان المعطي بفيضهِ على الحال الذي هو فيه) .

ومكاشفاتُهُ كثيرة .

مات سنة خمسٍ وأربعين وتسع مئة ، ودفن بسويقة اللبن في زاوية والد الشيخ أفضل الدين الأحمدي ، وقبرُه بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٧٣) الشيخُ المجذوبُ محمد بنُ القاضي رضي الله عنه[١]

الذي كان يجلسُ علىٰ دكان باب القنطرة عرياناً ، مكشوفَ الرأس .

كان الغالبُ عليه الصمتَ .

صحبته حالَ صحوه وحالَ جذبه ، وأعطاني جزءاً من كتاب « الإحياء » أوائلَ جذبه .

وكان كثيرَ الكرامات .

مات رحمه الله سنة تسعٍ وأربعين وتسع مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه

ومنهم :

(٤٧٤) الشيخُ الكامل ، ذو الأحوال العظيمة ، والمكاشفات الغريبة مع الحال المستور الشيخ بركات الخياط[٢]

الذي كان مقيماً بالدَّربِ الأحمر ، خارجَ باب زُويلة .

كان أُستاذاً في تفصيل الثياب للأكابر ، يقصدونه من سائر الحارات .

وكان عليه جبَّةٌ كأنها جُبَّةُ سمَّاك .

وكان يقول لمن طلبَ أن يخيطَ له : (هات لي فوطةً أضعها علىٰ ركبتي ، حتىٰ أخيط لك ؛ خوفاً أن تتسخ ثياب الناس منه) .

---

(١) انظر استئناساً من هذا الجزء (٣٥٩) (٥٠٤) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٤٠٧) (٣٨١)

وكان كلُّ كلبٍ أو حمارٍ أو قطٍّ رآه ميتاً يحملُهُ ويضعُهُ عنده في الدكان ، فكان لا يستطيعُ أحدٌ أن يجلسَ عنده من تلك الرائحة .

وكان فقراء مصر يحمِّلونه حملاتهم حتىٰ سيدي علي المرصفي رأيتُهُ مرة حمَّله حملةَ ابن كاتب غريب لمَّا كتبوا اسمَه مع المتوجِّهين إلىٰ إستنبول لمَّا دخلَ ابنُ عثمان سليم مصر ، فقال سيدي علي : أنا ما لي تصريفٌ ، ثم أخذ حجراً وجه الصبح ووضعَهُ علىٰ دكان الشيخ بركات ، فأول ما جاءَ الشيخُ عرفَ الحملة ومَنْ جاء بالحجر ، فقال : الاسم لطوبىٰ والفعائل لأمشير[1] ، يأكلون هدايا الناس ، ويجعلونهم من مريديهم ، وإذا لحقهم بلاءٌ يجيؤوا لبركات ، أيش أكل بركات حتىٰ يحملَ ؟! فقال له أخي أفضلُ الدين : هـٰذا رجلٌ عظيم ، وأذلَّ نفسه وجاءَ لكم ، فلا تخيِّبوا ظنَّ مريده فيه ، فقال : باسم الله ، فنسيه جماعةُ السلطان من ذلك اليوم ، ولم يطلبوه للسفر ، مع أنه مكتوبٌ عندهم في أسماء من ينفونه من مصر ، رضي الله عنه .

وأخبرني الشيخُ عبد الواحد أحدُ أصحاب سيدي أبي السعود الجارحي قال : أثنيتُ على الشيخ بركات بحضرة الشيخ جمال الدين الصاني المُفتي بجامع الأزهر ، فقال : لا بدَّ أنك تجمعني عليه أزوره ، وكان يومَ جمعة ، فجمعتَهُ عليه ، فمكثَ حتىٰ أُذِّنَ بالجمعة ، فما وجد علىٰ بال الشيخ صلاة ، فقال : يا سيدي ؛ أما تخرجوا لصلاة الجمعة ؟ فقال الشيخ بركات : ما لي عادةٌ بذلك ، ولـٰكن لأجلِكم أُصلِّي هـٰذا اليوم ، فقال له الشيخ جمال الدين : أنتم متوضئون ؟ فقال : عمري ما توضَّأتُ ، فعلِّمني ، فأتوا بالماء ، وصار الشيخُ جمال الدين يُعلِّمه حتىٰ فرغ ، ثم خرجوا لجامع المارداني يُصلون الجمعة ، فوجد الشيخُ شخاخَ حمارٍ ، فأزاحه بيده عن الطريق ، فقال الشيخ جمال الدين : اغسلوا يدكم ، فأدخلها في قعوةٍ من قعاوي الكلاب ، فأنكر عليه الشيخُ جمال الدين ، وسبَّ الشيخ عبدَ الواحد الذي أتىٰ به إلىٰ مثلِ هـٰذا ، وصار الشيخُ بركات يسبُّ عبدَ الواحد ويقول : أنت ما وجدتَ إلا هـٰذا المنكر تأتي به إليَّ ، ثم قال : ما تركتُ صلاةَ الجمعة قطُّ ، وإنما وَرَّيتُ له في الكلام ، وشخاخ الحمار الذي

---

(١) طوبىٰ : شهر قبطي يوافق شهر كانون الثاني (يناير) ، وأمشير : شهر قبطي أيضاً يوافق شهر شباط (فبراير) .

رآه هو صورةُ اعتقاده ، وقعاوي الكلاب هي مشربُهُ . انتهىٰ

فما كان غالبُ الناس يقدرُ علىٰ صحبته .

ووقع لي معه : أنني زرتُهُ بعد موته ، فأخرج لي الخادمُ طعاماً فيه أعضاءُ آدميٍّ وذراعه ورجلاه ، فنفرتْ نفسي من أكله ، فقال لي : الشيخُ يُباسطك ، فصار النقيبُ يأكلُ من ذلك الآدميِّ ويقول : هـٰذا لحمٌ ضاني ، وأنا أرىٰ مشطَ رِجلِ الطِّفلِ وأصابعَهُ وذراعَهُ ويديه ، فقلتُ ذلك لأخي أفضل الدين ، فقال : هـٰكذا كانَ حالُهُ في حال حياته ، كنَّا نأكلُ معه مرَّةً طيورَ حمام ، فيقلبُها في الحال سمكاً ، ثم قلبها دجاجاً ونحن نرىٰ ، وربما ذبحَ خروفاً ، فوضعوه في الدست فصار كلباً ، فيأكلُهُ وحده ، ولا يُطعمُ أحداً منه شيئاً .

وأخبرني أخي أفضل الدين قال : بينما نحن مع الشيخ بركات خارجَ باب زويلة وإذا بتاجرٍ مغربي من تجار جامع طولون راكباً بغلةً ، ومعه عبدٌ حبشي ، وإذا بالشيخ بركات مسكَهُ من طوقه وقال : أنا وإياك بيت الوالي يا حرامي ، سرقتَ لي عشرةَ آلاف دينار ، فما قدرَ أحدٌ يُطلقه منه ، حتىٰ دخل به للوالي ، فادَّعىٰ عليه بالعشرة آلاف دينار وقال : عاقبه ، وإن مات عليَّ ديتُهُ ، فجرَّدَ الوالي ذلك المغربيَّ من ثيابه ، وضربه مقارع وكسارات حتىٰ كاد يهلك والمغربيُّ يقول : يحلُّ لك من الله ؟ فيقول الشيخ : نعم ، فلما عصروا رأس المغربي ، جاء الشيخُ ونظرَ في وجه المغربي وقال للوالي : يا سيدي ؛ أنا غلطتُ في المغربيِّ ، ما هو الذي سرقَ فلوسي ، وذلك بعد أن علمَ الشيخُ أن العقوبةَ قد أخذت حدَّها ، فضربَ الوالي الشيخَ بالخيزران علىٰ رأسه ، فخرج الشيخُ ، فنام علىٰ عتبة باب الوالي وقال : واللهِ ؛ ما أقومُ إلا إنْ عُزل الوالي ، فأرسلَ السُّلطانُ ، فعزله في الساعة ، فقال له سيدي أفضلُ الدين : أيشِ هـٰذا الحال ؟ فقال : إنَّ هـٰذا المغربي ادَّعىٰ علىٰ شخص باطلاً أنه أخذَ مالَهُ ، فعاقبه الوالي ظُلماً ، فأخذتُ له حقَّهُ ، وأما الوالي فإنَّ الغالبَ عليه أن يحكمَ وهو سكران ، فلا يصلحُ للولاية . انتهىٰ .

وكان يتعمَّمُ بالشدود المخطَّطة بالأزرق ؛ كعمامة النصراني ، فيقولُ الناس له : حاشاك يا معلم .

وأخبر بدخول ابن عثمان وأخذه مصر في الوقت الذي دخلَ لها فيه ، وهو آخرُ يومٍ

من سنة [اثنتين] وعشرين وتسع مئة[١] ، فكان الأمر كما قال .

وكان له كلامٌ عالٍ في الطريق ، لا يفهمه غالبُ فقراء مصر .

وحلفَ لي سيدي أفضلُ الدين : أن مشايخَ مصر لا يصلحون أن يكونوا مُريدين له ؛ لأن شرطَ المريدِ أن يفهمَ كلامَ شيخه .

وكان يعدُّ نهايات مشايخ زمانه بداياتٍ للطريق .

مات ثالث شهر من دخول ابن عثمان مصر سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة ، ودفن بالزاوية التي عمَّرها له الشيخُ رمضان تلميذُهُ ، ودُفن معه عدَّةُ أشياخ ؛ منهم : سيدي عليٌّ الخواص ، والشيخ ناصرُ الدين النحاس ، والشيخ عبد القادر الظاهري ، والشيخ عبد الرحمـٰن المجذوب ، وغيرُهم رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين .

ومنهم :

(٤٧٥) الشيخ الصالحُ المجذوب الصاحي سيدي خال رضي الله عنه[٢]

كان مُقيماً في القلعة ، ثم لمَّا قربتْ دولةُ ابن عثمان قال للغوري : هات مفاتيح القلعة ، ثم نزل مصر فأقام بها إلىٰ أن مات رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٧٦) سيدي إبراهيم أبو لحاف[٣]

كان رحمه الله من أوسع الناس خُلقاً ، لا يكاد أحدٌ يُغضبه أبداً .

وكان أول جذبِهِ مُقيماً في البرج الأحمر من قلعة الجبل نحو عشرين سنة ، فلما قربَ زوالُ دولة الجراكسة أرسل يقول للغوري : تحوَّلْ من القلعة ، وأعط مفاتيحَها

---

(١) في النسخ : (اثنين) .

(٢) انظر « طبقات المناوي الكبرىٰ » (٣/ ٣١٩) ، و« الصغرىٰ » (ص ٢٧٥) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ٨٥) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٤) (٣٩٩) .

لأصحابها ، فلم يُلقِ الغوريُّ إلىٰ كلامه بالاً وقال : هـٰذا : مجذوبٌ ، فنزل الشيخُ إلىٰ مصر ، فزالتْ دولة الجراكسة بعد سنةٍ .

وكان يقيم عندنا في الزاوية الشهرَ وأكثر ، ولا ينامُ في الليل أبداً ، بل يجلسُ يُهمهمُ بالذكر إلى الفجر صيفاً وشتاءً ، وأوقات يقول : (الله الله) من العشاء إلى الفجر .

وكان حافياً مكشوفَ الرأس ، وأكثرُ إقامته في بيوت الأكابر .

وكان من تسبيحه أن يقول : سبحانَ مَنْ خلقَ الخلقَ احتياط علم خبر فقط .

وكان رضي الله عنه ينظرُ ما ينزل من البلايا على الإنسان في المستقبل ، فيأتي إلىٰ ذلك الشخص ويقول : نازلٌ عليك كذا في الوقت الفلاني ، هاتِ عشرةَ ذهب ، وإلا نزل عليك ، فإنْ أعطاه تحوَّل البلاء .

وكثيراً ما كان يأخذُ العبدَ من الإنسان إذا لم يجد عنده غيره ، فيُعطي العبدَ للطباخ ، ويصيرُ يستجرُّ به طبيخاً إلىٰ أن يفرغ ثمنه .

وكان يضبطُ على الإنسان القولَ لا ينساه ، وإن أعطاه شيئاً يجيء إليه في مثل ذلك الوقت من السنة الآتية ، ويقول : أنتَ كنتَ أعطيتني في السنة الماضية كذا وكذا ، فهاته .

مات رضي الله عنه سنةَ أربعين وتسع مئة ، ودفن بقنطرة السدِّ في طريق مصر العتيق في الشبَّاك المجاور للسبيل العالي ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٧٧) الشيخُ الصالح ، ذو المكاشفات والأحوال سيدي محمد بنُ زرعة[١]

أحدُ أصحاب سيدي حسين أبو علي ، وسيدي إبراهيم المتبولي .

كان رضي الله عنه مُزمناً ، أقعدَهُ الفقراءُ في قنطرة قُديدار ، وكان لم يزل جالساً في الشباك الذي دُفن الآن فيه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٥) (٤٠٠) .

وكان يتكلمُ ثلاثة أيام ويسكتُ ثلاثة أيام ، وكان يتكلَّمُ علىٰ ما يخطرُ للإنسان في نفسه .

زرته مرات ، ودعا لي بدعواتٍ ؛ منها : (اللهم ؛ اجعلْ هـٰذا الولد من حزب محمد صلى الله عليه وسلم) .

وسمعتُ بعضَ الفقراء الصادقين يقول : كان الشيخُ عبدُ القادر الدَّشْطُوطي من سعاة سيدي محمد بن زرعة ، فكان يطوفُ قدَّام روحه إذا جالت في الأرض .

مات رضي الله عنه سنة ثلاث عشرة وتسع مئة ، ودفن ببيته قريباً من القنطرة المذكورة .

ومنهم :

(٤٧٨) الشيخ الصالح ، المجذوبُ الصاحي ، سيدي وحيش[١]

أقام بمصرَ أيام السلطان الغوري ، ثم انتقل إلى المحلة الكبرىٰ ، فأقام بها مدَّةً ، ثم رجع إلى النحرارية ، فأقام بها حتىٰ مات .

واجتمعتُ به في مصر مرَّاتٍ ، وكان له كشفٌ عظيم .

وأخبرني سيدي محمدُ بنُ عنان رحمه الله : أن الشيخ وحيش كان لابساً للثياب دائماً ، وإنما الناسُ كانوا يرونه عُرياناً ؛ لأن بدنَهُ تَجوهَرَ حتىٰ صار كالمرآة .

وكان جالساً عنده الشيخ العلامةُ الشيخُ شهاب الدين المسيري المُفتي بجامع الأزهر ، فقال : يا سيدي ؛ هـٰذا أمرٌ يُخالف الحسَّ ، فقال : أنا وضعتُهُ في رسالتي ، فقال : إروها لي ، فضربَ الشيخ شهاب الدين علىٰ ذلك ، فهو إلى الآن مضروبٌ عليه في النسخة التي بخطِّ الشيخ يوسف الحُرَيْثي .

وكان الشيخ محمد ذكرَ أنَّ من شأن المجاذيب أنك ترىٰ أحدَهم ماشياً وهو راكب ، وتراه يأكلُ في رمضان وهو صائم لم يُفطر

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٦) (٤٠١) .

فأخبرني الشيخ محمدُ الطنيخي : أنَّ الشيخ وحيش مرَّ على بنات الخطا في المحلة ، فقال لهم : اخرجوا ؛ فإن الخانَ رايح يطبق عليكم ، فقالت بنات الخطا : لا يبشرك بخير يا شيخ وحيش ، فسمعتْ منه واحدةٌ ، فخرجتْ ، فسَلِمتْ ، وتطبَّقَ على الباقيات ؛ وهو موضعُ جامع التوبة الآن بالمحلة الذي عمَّره سيدي أبو العباس الغمري رضي الله عنه .

وأخبرني أيضاً أنه طلع ناحية نمرة ، فوجد شخصاً يبيع فاكهةً في ظلِّ المئذنة ، فقال : قوموا وإلا وقعتْ عليكم رأسُ المئذنة ، فلم يسمعوا ، فوقعت عليهم في الحال ، فمات منهم جماعةٌ ، وهي إلى الآن بلا رأس .

وكان يجلسُ على باب الخان ويقول لكلِّ مَنْ خرج من عند بنات الخطا : قفْ حتى أشفعَ فيك ، وإلا مسكك الوالي ، فمن لم يُطعه يمسكه الوالي ذلك اليوم .

وله أحوال غريبة ، مات بالنحرارية سنة سبع عشرة وتسع مئة ، وقبرهُ هناك ظاهرٌ يُزار .

ومنهم :

(٤٧٩) الشيخُ بركات المجذوبُ[(١)]

كان يقيم في الأخلية ، وكان أكثرُ إقامته في ميضأة الكاملية وميضأة الحجازية .

وكان يُري الناسَ أموراً لا حقيقةَ لها

وسلَّ عليه شخصٌ سيفاً وقال : كيف أنت شيخ وتأكلُ حشيشة ؟! فقال : هـٰذا ما هو حشيشة ، وأعطاه للجندي ، فوجدها مامونية سخنة .

وله كرامات كثيرة .

صحبته نحو سبع سنين حتى **مات سنة خمسَ عشرةَ وتسع مئة** .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٦٧) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٥٠) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣٦٦) .

ومنهم :

(٤٨٠) الشيخُ الصالح ، المجذوبُ الشريف ، هاشم[١]

المُقيم في المارستان ، وحاصله قدَّام باب المجانين .

وكان له كشفٌ عظيم ، ويؤاخذ الناسَ بما يخطر في سرائرهم ويضربُهم .

وكان أصحابُ النوبة بمصر يجلُّونه ويعظِّمونه .

وكان يحلقُ رأسَه ولحيته وحواجبه ، ويدَّهِنُ بالسمن أو الشيرج ، وعلىٰ رأسه قبعٌ من غير عمامة .

ويأكل في رمضان جهاراً ويقول : أنا معتوق ، وكان كلُّ مَنْ أنكر عليه يعطبه[٢]

وله وقائعُ غريبةٌ ومكاشفاتٌ عجيبة مع الأكابر وغيرهم .

ولمَّا طُعن سيدي علي الخواص من أصحاب النوبة وكانوا أعجاماً . . كان يقول : لولا الشريفُ هاشم قُتلت .

مات رضي الله عنه ببلده أتليدم بالصعيد ، ودفن بها سنة ثمان وأربعين وتسع مئة .

ومنهم :

(٤٨١) الشيخُ الصالح ، سيدي علي الدَّمِيري المجذوب رضي الله عنه[٣]

كان مُقيماً في دكَّان العجمي الذي يعملُ الرقاق ، وكان جالساً ليلاً ونهاراً مدَّةَ ثلاثين سنة .

وكان لا يتكلَّمُ إلا نادراً كلماتٍ خفيفات .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٧) (٤٠٢) .

(٢) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٨) (٤٠٣) .

وكان مكشوفَ الرأس ملفوفاً في بُردةٍ ، فكان كلُّ من رآه يعتقدُ أنه أعجمي .

وذكروا أنه كان لا يدخلُ الخلاءَ إلا كل نحو ثلاثة أشهر مرةً .

وكنتُ كلما أَمرُّ عليه يتبسمُ لي .

مات رضي الله عنه سنة أربع وعشرين وتسع مئة ، ودفن في المسجد المقابل لبابِ ابن خاص بك بخطِّ بين القصرين ، وقبرهُ ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٨٢) الشيخ الصالحُ ، الشيخ ناصر الدين النحاس رضي الله عنه[١]

كان صانعاً عند الشيخ أبي النجا النحاس يأكلُ من عمل يده ، ومهما فضلَ عن نفقته تصدَّق به .

فسافر الشيخ أبو النجا لإستنبول يطلبُ له جوالي[٢] ، فخرج الشيخُ ناصر الدين من عنده وهجرَهُ إلىٰ أن مات .

صحبته نحو خمسَ عشرَة سنة حتىٰ مات .

وكان يذهب كلَّ يوم إلى المذبح ، فيأتي بالشغت[٣] والطحالات وغير ذلك يُطعمه للقطط والحدادي[٤] ، فيحملُ القفَّة علىٰ رأسه ، وهي تخرُّ عليه الدمَ والفرثَ ، ثم يذهب فيغتسل ويلبس ثيابه للصلاة .

وحجَّ مرَّةً على التجريد من غير مالٍ ولا زاد ، ولا قبولِ شيءٍ من أحد ، فطوىٰ من مصرَ إلىٰ مكة ، فمرض هناك ، فذهب إليه سيدي علي الخواص ليلاً بقشطة ودبس

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٩٨) (٤٠٩) .

(٢) **الجوالي** : الجزية ، وكانت تصرف أجوراً للعلماء والمدرسين . « معجم الألفاظ التاريخية » (ص ٥٦) .

(٣) **الشغت** : هي بقايا اللحم التي لا تُؤكل ، وفي دمشق يسمونها الشخت .

(٤) **الحدادي** : مفرد حُديًا ، وأصله الحدأة مفرد الحِدأ : وهو طائر يصيد الجرذان .

ورغيفين من مصر ، فأطعمَهُ ومسحَ عليه ، فطاب ، فلما جاء إلىٰ مصر أخبرَ الناسَ بذلك ، فقال سيدي علي الخواص : (الإنسان إذا ضعف خَرِفَ) .

وأخبر الشيخُ ناصر الدين بيوم ماتَ أخي أفضلُ الدين ببدر وقال : مات أفضلُ الدين اليوم ، ودفنَّاه ببدر ، فجاءتْ كتبُ الحاج بذلك كما قال .

ووقع لنا معه عدَّةُ كرامات ، فتركنا ذكرها ؛ لكونه كان يكرَهُ الشهرة .

مات رحمه الله سنة خمسٍ وأربعين وتسع مئة ، ودفن عند سيدي علي الخواص خارجَ باب الفتوح .

ومنهم :

(٤٨٣) الشيخ الصالحُ ، المجذوبُ الصاحي ، شعبان رضي الله تعالىٰ عنه[١]

صاحبُ تصريفٍ عظيم بمصر المحروسة إلىٰ أن مات ، وكانت مكاشفاتُه غريبةً .

وكان يلبس الزُّنوطَ الحُمْر[٢] ، يفردها ويجعلُ قطعةً علىٰ قُبُله وقطعةً علىٰ دُبُره .

وكان يرىٰ حلالَ الدُّنيا حساباً

وكان يفتح كحالاً في البيمارستان بين الكحالين ، وبين يديه كومُ جير وقصرمل[٣] ، ومِزْود قدر وتد الثور ، ويقول : هـٰذا يقطعُ عروقَ السبل[٤] والجرب من العين ، فمن أطاعَهُ وكحَّله زال ما كان في عينه ، ومن أبىٰ خسر وقطعوا عينه بالفولاذ .

وكان يعرفُ جميع ما يُحدثُهُ الله تعالىٰ في السنة من رؤية هلالِها .

وكان سيدي علي الخواص إذا شكَّ في أمرٍ يحدثُ في تلك السنة ، أرسل إليه يستفهمُ منه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥١٣) (٤١٩) .

(٢) **الزُّنُوط** جمع زنط : وهي الطربوش في مصر .

(٣) **القصرمل** : هو الخلطة الناتجة عن مزج الرماد مع الفخار المطحون والجير

(٤) **السَّبَل** : داء يُصيب العين ، قيل : غشاوة كأنها نسج العنكبوت من انتفاخ عروقها الظاهرة في سطح الملتحمة . « متن اللغة » (٣/ ٩٩) .

وقالوا مرةً لسيدي علي الخواص أول يومٍ في السنة : إنه لبسَ جلدَ بقر ، فقال الشيخُ عليٌّ : هـٰذه سنة يموت فيها البهائم ، فكان الأمرُ كذلك ، ومرَّةً لبس جلدَ عنز ، فمات المَعِيزُ تلك السنة ، ومرَّةً جلدَ غنمٍ ، فماتت الغنمُ ، ومرَّةً لبس شبكة جمال من الليف ، فانفتح على الجمال سخرةُ السويس ، ومرَّةً أوقدَ النار ، فقال الشيخُ عليٌّ : لا بدَّ من فتنةٍ تقعُ في مصر ، فوقعتْ فتنةُ أحمد باشاه[١]

وكان يطَّلعُ علىٰ ما في ضمائر الخلق .

وجاءتني امرأةٌ مرَّةً باتتْ عندي ، وما أعرف حاجتها ، فأرسل الشيخُ يقول لي مع النقيب : لا تُفرِّق بين رأسين في الحلال ، فما عرفتُ معنىٰ ذلك ، فلما طلعَ النهارُ قالت لي تلك المرأةُ : لي بنت وكتب شخص كتابه عليها ، وله مدَّةُ ثلاث سنين غائبٌ ، ومقصودي أن تُرسلوا أحداً معي إلى القاضي يفسخ عليه ، فإنَّ مصالحها ضاعتْ ، فتذكَّرتُ قولَ الشيخ : (لا تفرق بين رأسين في الحلال) ، فقلتُ لها : إنَّ بعض الفقراء يقول لكِ : اصبري ؛ فإن زوجَها يأتي عن قريبٍ ، فسافرتِ المرأةُ إلى البلاد ، فبعد شهرٍ حضر زوجُ البنت ، فانظر يا أخي اطِّلاعَهُ علىٰ ما في ضمير المرأة التي باتت عندي .

وكان أهلُ مصر كلُّهم مطبقين على الاعتقاد فيه .

صحبته نحو خمسٍ وثلاثين سنة .

وأرسل لي السلامَ مع النقيب مرَّات ، وقالَ مرَّةً للنقيب : ما في فقراء مصر كلِّها أكثرُ تعبُّداً من عبد الوهاب ، هـٰذا ساكن علىٰ بركةِ الدم من حملات الناس .

ومصداق ذلك : أن الماء الذي تحت بيتنا في الخليج يصير من حملات الناس كلَّ سنة كماء المصبغة الأحمر ، حتىٰ يعتقد الناسُ أنه خارجٌ من المصبغة ، ويتكابرون في ذلك ، مع أن الخليجَ فيه أماكنُ كثيرةٌ فيها الماء لا يحمرُّ أبداً .

---

(١) **فتنة أحمد باشا** : كان من خواص مماليك السلطان سليم ، تقلَّد نيابة مصر ، وأظهر الطغيان والتجبُّر ، وصادر الأموال ، وقتل الأمراء ، وأظهر أعمال التعذيب ، حصل بينه وبين العثمانيين مقتلة عظيمة ، وحاصروه في القلعة حتىٰ قتلوه سنة (٩٣٠هـ) . انظر « الكواكب السائرة » (١/١٥٦) ، و« الخطط التوفيقية » (١٤/٧٦) .

وسألتُ أهلَ بين السورين عن احمرارِ هـٰذا الماء : هل كان يحمرُّ قَبل سكننا هناك أم ذلك خاصٌّ بمدَّةِ أيامنا ؟ فقالوا كلُّهم : هـٰذا خاصٌّ بأيامكم .

مات رضي الله عنه رابع شهر شعبان سنة سبع وخمسين وتسع مئة ، ودفن بزاويته في درب الإبزاريين ، بالقرب من سويقة اللبن .

وكانت جنازتُهُ حافلةً ، وغَفَّروها بجند السلطان[١] ؛ خوفاً أنَّ الناسَ يتقاتلون علىٰ دفنهم له ، فكلُّ جماعة يقولون : ندفنه في حارتنا تبرُّكاً به ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٨٤) الشيخُ الصالح عبدُ العال المجذوب[٢]

كان له كراماتٌ ومكاشفات .

وكان عرياناً مكشوفَ الرأس ما عدا ملاءة يسترُ بها عورتَهُ ، ومسواكُهُ مربوطٌ فيها ، والإبريقُ معه دائماً للوضوء والشرب .

وكان الخلقُ كلهم مكبين على الاعتقاد فيه .

ولما دنتْ وفاتُهُ جاءني إلى الزاوية وقال : الفقراء يُريدون أن يموتوا في قليوب ، فبعدَ جمعة جاءنا الخبرُ بأنه ماتَ في ناحية قليوب ، وعملوا له هناك ضريحاً ، وقبرُهُ يُزار قريباً من القنطرة .

وكان مُحافظاً على الوضوء والصلاة مع الجذب ، وكانتْ صلاتُهُ بخشوع وخضوع ، حتىٰ كأنَّه جذعُ نخلة .

وكانوا يرونه كثيراً في عرفة أيامَ الموسم .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة ، والله تعالىٰ أعلم .

---

(١) غَفَّروها : أي : حرسوها .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥١٧) (٤٢٢) .

ومنهم :

(٤٨٥) الشيخ الصالح عامرُ المجذوب البيجوري[1]

كان أكثر إقامته في مدينة منف ، وفي سِرْس الليانة[2]

وكان علىٰ رأسه عمامةٌ من هُدَّاب القماش ، لا يكادُ الرجلُ الشديد يحملها من الأرض إلا بعسرٍ ، فكان يلبسُها ويدورُ بها البلاد ، وأوقاتاً يأخذُ حجراً كبيراً يربطه بحبال ، ويقفُ فوق الكومَ يحرِّكُهُ يميناً وشمالاً ، ويخاطبُ الفقراء في أقاليم الأرض .

وأخبرني الشيخُ أحمد السطيحة : أنه لما سافرَ الصعيد وعارضه فقراء الصعيد بالحال ، فتوجَّه إلىٰ أشياخ مصر ، فما أجابَهُ أحدٌ غير الشيخ عامر هـٰذا .

وكان لا يأكلُ إلا إن وضع أحدٌ له طعاماً ، فإنْ لم يضع أحدٌ له طعاماً لا يأكل ولو مكثَ شهراً .

صحبته سنين عديدة .

وكان له خلوةٌ مملوءةٌ شراميط ، فدخلَ رجلٌ يقلي الزَّلابية ، يأخذُ من شراميطه شيئاً ، فوجدَها كلَّها ثعابين ، رضي الله عنه .

مات في بلده البيجور سنة ستٍّ وخمسين وتسع مئة ، ودفن بها رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٨٦) الشيخُ الصالح ، المجذوبُ مروان رضي الله عنه[3]

كان رحمه الله قاطعَ طريقٍ من بلاد الشرقية ، وكان مشهوراً بالفروسية ، فلما جُذب دخلَ مصر ، فكان طولَ نهاره دائراً في الأسواق ؛ كمرجوش والوراقين ، وباب

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥١٨) (٤٢٤) .

(٢) سِرْس : قرية من أعمال المنوفية ، ويقال لها : سِرْس القثاء ؛ لشهرتها بزراعة القثاء ، وسِرْس الليانة ؛ باسم ترعة قديمة بها . « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ٢١٨) .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢٥٠) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٤٥٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٤٢) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٥١) .

الشعرية ، وكان ينامُ دائماً في مدرسة ابن مزهر بسويقة اللبن .

وكان كثيرَ الكرامات والخوارق ، كثيرَ العطب لمن أساءَ به الظنَّ .

وكان إذا لقي أحداً فعلَ معصيةً ذلك النهار يصيرُ يصكُّه حتىٰ يفرغَ خاطرُهُ ، فإن أراد أحدٌ أن يردَّه عنه شَلَّت يدُهُ .

وأخبرني الشاطر علي المداقف قال[١] : شتمني الشيخُ مروان بحضرة مشاديدي[٢] ، فعزمتُ علىٰ ضربه ، فلقيتُهُ عند قناطر الإوز ، فقلتُ : اليومَ أضربُهُ حتىٰ أشبع منه ، فلما قربتُ منه نحو سبعةِ أذرعٍ التفتَ إليَّ وقال : أنت هنا ؟ فقلت : نعم ، فيبستْ يدي في جنبي ، وصار يصكني في عنقي حتىٰ شبعَ ، ثم بعد ذلك ما لقيني قطُّ إلا وصكَّني إلىٰ وقتي هـٰذا .

وكان بدنُهُ لم يزل فيه الطلوعات[٣] ، يتناثرُ منها الدود وهو صابرٌ .

وكان اللهُ قد سخَّر له الخلقَ ، فلا يطلب ثياباً أو دراهمَ إلا وأعطوه ، فوجدوا بعده حاصلاً ملآنَ قَباطيَّ[٤] وجُبباً وثياباً .

وكان له كلَّ يوم نعلٌ جديد يُشترىٰ له ، ويبيع العتيق الذي باتَ عنده ، فيأخذُ النعلَ بعشرة أنصاف ، ويبيعُهُ تارةً بجديد نقرة ، وتارةً بعثماني .

وكان كلُّ من طلب منه شيئاً ومنعه فلا بدَّ له من بليَّةٍ في تلك الجمعة ، فكان الناسُ يخافون من مخالفته .

وسمعت سيدي عليَّ الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول : (إن الشيخَ مروان لا يفوتُهُ غزوةٌ في الكفار ولا يوماً واحداً ؛ فإنَّ للفقراء الصادقين في كل يوم غزوةٌ بعد العشاء في بلاد الفرنج ، وتلك الجروح التي به إنما هي من الكفار ، وحضر رودس) .

وكان له الصيتُ بين الفقراء فيما فعل في الكفار أيامَ دولة السلطان سليمان بن عثمان .

---

(١) **المداقف** : الولع في الشجار .

(٢) **المشاديدي** : رجل مسلح من قبل شخص آخر فهو تابع له .

(٣) **الطلوعات** : جمع طلوع : وهو خرَّاج عظيم في البدن .

(٤) **القَباطي جمع قِبْطي** : وهو ثوب من كتَّان رقيق يعمل بمصر نسبة إلى القبط .

وأرسلَ مرَّةً يطلبُ مني جبَّةً سوداء ، وأرسلَ لي مع النقيب صرَّةً فيها فضةٌ وفلوس ، فأرسلتُ له الجبة ، ورددتُ عليه الفلوس ، فضحك ، وعرف أني عرفتُ منه أنَّ تحتها حملاتِ الناس .

وكان عندي مرَّةً صحنُ شهدٍ على رفٍّ داخلَ البيت ، فأرسل يقول لي : أرسل القطعة الشهد التي على الرفِّ ، فرآها وهو في مكانه .

ومكاشفاتُهُ كثيرةٌ مشهورة بين أهل مصر .

مات رضي الله عنه سنةَ خمسٍ وخمسين وتسع مئة ، ودفن في جامع البنهاوي خارج باب الفتوح ، وقبرُهُ به ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٨٧) الشيخ الصالح أحمد المجذوب الشِّبيني رضي الله عنه[(١)]

كان رضي الله عنه مجذوباً غارقاً لا يصحو إلا وقتَ الوضوء والصلاة .

وكان يودُّني ويُسافر من بلده إلىٰ مصر بقصد زيارتي ، وكلُّ من رآه لا يزورني يعتبُ عليه .

وكان له كلَّ سنةٍ جبَّةٌ وفوطة ، ونعلٌ وزنط أبيض وشدٌّ ، لابدَّ أنه في كلِّ سنة يبدلهم .

وكان لا يُصلِّي صلاةً إلا ويؤذِّن لها برفعِ الصوت .

وكان إذا دخلَ لنا مجذوب لا يُصلِّي يقول : هـٰذا قليل الدين ، ما مجذوبٌ على الصحة إلا الذي مثلي لا يعرفُ سوى الماء والمحراب والأذان .

ووقع من المنارة العاليةِ من مدينة منف إلى الأرض فلم ينكسر من أعضائه شيء ، ونزل واقفاً ، ومشىٰ على الأثر .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١١٩) ، و« شذرات الذهب » (٨/ ٣١٥) ، و« الطبقات الصغرىٰ » للمناوي (ص ٢٢٠) ، والشيبيني : نسبة إلىٰ شيبين الكوم ؛ بلدة كبيرة ، مركز ديوان مديرية المنوفية . انظر « الخطط التوفيقية » (١٢/ ٣٨٩) .

صحبته نحو عشرين سنة ، فما أظنُّ كاتبَ الشمال كتبَ عليه كلمةً واحدة .

مات رضي الله عنه سنة سبعٍ وخمسين وتسع مئة ، ودفن بناحية شِبِين .

وكان محبوباً لجميع الناس .

وكان إذا دخل لنا أحدٌ فيه ريبةٌ بين المجاورين يقول : أخرجوا هـٰذا ؛ فإنه ميشوم[١] ، فيظهرُ الأمر بعده كما قال ، ويخرجُ بريبة يقع فيها ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٨٨) الشيخُ الصالح ، المجذوب الصاحي ، الشيخُ نصر[٢]

الذي كان يركبُ الفيل في مصر أيام السُّلطان الغوري .

كان من الملامتية ، وكان عرياناً دائماً ، ليس عليه إلا سراويلُ من جلدٍ وطرطور من جلدٍ ، وهو محلوقُ اللحية .

وكان زفرَ اللِّسان مع السلطان فمَنْ دونه ، يشتمُ ويسبُّ ، وكلُّ من أنكرَ عليه عطبَهُ[٣] .

وقد يتظاهرُ بالخطأ في الكشف عمداً حتىٰ لا يعتقدَهُ أحدٌ .

صحبته نحو سنة ، ثم مات سنة [اثنتين] وعشرين وتسع مئة[٤] ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٨٩) الشيخُ الصالح ، المجذوب دنكر[٥]

كان محلوقَ الرأس واللحية ، ويركب الجريدةَ ، فيطوف الشرقَ والغرب ويرجعُ في لحظة .

---

(١) الميشوم : تحريف مشؤوم ، كما نبه عليه الزبيدي في « تاج العروس » (١/ ٨٩) .

(٢) انظر « الطبقات الصغرىٰ » للمناوي (ص ٦١٨) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٣١١) .

(٣) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات.

(٤) في النسخ : (اثنين) بدل (اثنتين) .

(٥) انظر « الطبقات الكبرىٰ » للمناوي (٣/ ٣٦٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٠) ، وفيهما وفي (و ، ز ، ط) : (دنكز) .

وكان يُكاشف كلَّ من مرَّ عليه بما يفعله في قعر بيته .

وكان يلبسُ الثياب بحاشية الحرير .

صحبته نحو ثلاث سنين ، ثم قتله جماعةُ السلطان سليم لمَّا فتحَ مصر سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة ، ودفن بمصر ، وأخبر بقتله قبل موتِهِ بساعةٍ

وقتل عسكرُ ابنِ عثمان عدَّة مجاذيب لمَّا دخلوا مصر ، فقال الشيخ علي الخواص : قد طاب الرحيل من هـٰذا البلد .

ولولا خشية الإطالة لذكرتهم ، رضي الله عنهم أجمعين .

ومنهم :

(٤٩٠) الشيخُ الصالح ، عبد الله رضي الله عنه[١]

الذي كان يصحنُ الحشيشَ في خرائب الأزبكية[٢] ، وكلُّ من أخذها منه يتوبُ من وقته ، فلا يعودُ لها أبداً ، وكان من الراسخين .

وكان سيدي علي الخواص يُرسل له الحوائجَ المهمة فيقضيها ، وإذا عجز عنها يُرسلُ صاحبَ الحاجة إلىٰ شخص آخرَ يصحنُ الحشيش في باب اللوق[٣]

وكان كثير الكشف .

وكان إذا دخل وقتُ الصلاة غسلَ يدَيه وتوضأ ، وقام إلى الصلاة .

وسمعته يقول مرَّةً : (وعزَّةِ ربِّي ؛ ما أخذها أحدٌ من هـٰذه اليد وعادَ إليها) يعني : الحشيش .

مات رحمه الله سنة سبعٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن في خرائب الأزبكية مع الغرباء ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٣٩٠) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ١٥٥) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣١٠) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٢٥) .

(٢) يصحن : تحريف يطحن . انظر « تكملة المعاجم » (٦/ ٤٢٤) .

(٣) تقدم شبيه هـٰذه القصة في ترجمة سيدي أبي بكر الدقدوسي (٤/ ١٠٣) .

دعا لي مرَّةً بأنَّ اللهَ تعالىٰ يسترني بين يديه يوم القيامة ، وأوصاني ألا أتخلَّفَ عن حملة أحد من المسلمين ؛ إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم :

(٤٩١) الشيخُ الصالح ، الشيخُ علي المجذوب رضي الله عنه[١]

كان يجلسُ علىٰ بابِ سوق أمير الجيوش ، وهو محلوقُ الرأس واللحية والحواجب .

وله كل يوم قميصٌ يلبسُهُ علىٰ أهل السوق ، فيجيء الواحدُ إليه ويقول له : زرُّ قميصك مرخي ما هو مليح ، فيخلع القميص ، ويأتونه بخلافِهِ .

وكان إذا مسَكَ أحدٌ أذنَهُ يعضُّ من يجدُهُ بجنبه ، ولا يُكلم الذي مسكَ أذنَهُ .

وكان كثيرَ المكاشفات ، ويدخلُ الحمام كلَّ يومٍ .

مات سنة ثلاث عشرة وتسع مئة ، ودفن بالروضة خارجَ باب النصر ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار

صحبته نحو سنتين ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٩٢) الشيخُ الصالح سيدي محمدُ فرفور رضي الله عنه[٢]

كان محلوقَ اللحية ، ويلبس الثوب الأبيضَ النظيف .

ولم يزل في عبِّهِ الليمون يبيعُ كلَّ واحدة بجديد[٣] ، وكان كلُّ من أكلَ من ليمونه وبه مرضٌ شُفي لوقته .

---

(١) انظر « الطبقات الصغرىٰ » للمناوي (ص ٤٧٤) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٤٨) (قرقور) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ١٧٧) .

(٣) **الجديد** : اسم نقد من النحاس .

وكان له أخٌ يبيعُ الفجلَ علىٰ باب جامع الأزهر ، فكان كلُّ من أكلَ ورقة من فجله وبه مرضٌ عوفي ، سواء الرمد ، والحب ، وضربان المفاصل ، والرأس ، والاستسقاء ، وغير ذلك .

ووقعتْ في حَلْقِ شخصٍ من حارة سيدي علي الخواص علقةٌ ، فكبرتْ حتىٰ سدَّتْ حلقَهُ ، فقال له سيدي عليٌّ : رح إلىٰ عند الشيخ الذي يبيع الفجل علىٰ باب الأزهر وخذْ منه ورقةَ فجلٍ وكُلْها تقع العلقة ، ففعلَ ، فوقعتْ في الحال ببركة الشيخ .

صحبت الشيخ فرفور رضي الله عنه عشر سنين إلىٰ أن توفي سنة أربعٍ وعشرين وتسع مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٩٣) الشيخُ الصالح ، العابدُ الزاهد ، صاحبُ الكشوفات التامة ، والكرامات الخارقة الشيخ حسنُ بن إبريق(١)

الذي كان يملأُ على البئر التي في حارة الحمصانيين خارج باب الفتوح ، رضي الله عنه .

كان الشيخ علي الخواص ، والشيخ محمدُ بن عنان ، ومشايخ العصر يقصدونه بالزيارة ، ويسألونه الدُّعاء .

وكان إذا وقع منه الدَّلوُ في البئر يأمر البئرَ أن ترفعَ ماءَها ، فيرتفعُ الماءُ إلى الخرزة ، فيأخذ الدلو بيده .

وسمعتُ سيدي عليَّ الخواص رضي الله عنه يقول : (إن الله تعالىٰ أعطى الشيخَ حسن هـٰذا معرفةَ أنساب الحيوانات كلِّها ، فكان يعرفُ أبا كلِّ حيوانٍ وأمهاتِهِ إلى الأب والأم الأصلية) .

وكان شيخاً كبيرَ السنِّ ، علىٰ رأسه قلنسوة ملبَّدة ، وعيناه حمرٌ كالدم الأحمر .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٥٨) .

توفي بناحية الخُصُوص[1] ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار .

صحبتُهُ نحو ثلاث سنين .

وتوفي سنة إحدىٰ وعشرين وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٩٤) الشيخُ الصالح ، العابدُ الزاهد الورع
الشيخُ عبد الودود[2]

المُقيم بنواحي قلعة الجبل .

كان من أعزِّ أصحاب سيدي محمد بنِ عنان رضي الله عنه ، وكان يقصده بالزيارة .

وكان عازباً ، وله فرنٌ يَخبِزُ فيه في التربة التي هو فيها .

وزرته مرة مع سيدي محمد بنِ عنان ، فقال : لا بدَّ أن تأكلوا عندي ، فعجن لنا فطيراً ، وخبزه في الفرن ، وبسَّهُ بسمنٍ وعسلٍ[3] ، وأطعمنا أجمعين ، وكنا نحو عشرين رجلاً .

وكان ينسجُ الصوفَ ويتقوَّتُ منه في التربة التي هو فيها .

وكانت عمامته من شراميط الصوف الأحمر .

وغضب مرَّةً علىٰ عبد الدائم بن بقر فحبسَهُ السلطانُ الغوري ثاني يوم ، وصارَ الشيخُ محمد بنُ عنان يترضَّىٰ خاطرَ الشيخ عبد الودود على الأمير عبد الدائم ، فيقول له : حتىٰ يتوبَ عن ظلم الفقراء .

---

(١) **الخُصُوص** : قرية من مديرية القليوبية في بحري منية السيرج . انظر « الخطط التوفيقية » (١٠/٢٢٨) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (١/٢٥٧) ، و« شذرات الذهب » (١٠/١٠٢) ، و« الطبقات الصغرىٰ » للمناوي (ص ٤٤٦) .

(٣) **البسُّ** : الخلط .

وكان له مكاشفاتٌ غريبة ، وإذا رآه الفقيرُ حصل له أنسٌ عظيم برؤيته .

توفي سنة خمس عشرة وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٩٥) الشيخُ الصالح العابدُ ، الورع الزاهد ، الحافظُ لسانه ويده الشيخ علي الإثميدي[١]

من أجلِّ أصحاب سيدي محمد بنِ عنان .

كان يقرئ القرآن للمجاورين في زاوية الشيخ .

صحبته نحو أربعين سنة ، ما أظنُّ كاتبَ الشمال كتبَ عليه كلمةً واحدة .

وكانت أفعالُهُ وأقواله محرَّرَةً على الكتاب والسنة ، ولو أخذتُ أذكر صفاته الحسنة لَكَلَّ لساني[٢]

ولم يزل مقبلاً على الله عز وجل حتىٰ تُوفي ويدُهُ تتحرَّكُ بالسُّبحة مع لسانه حتىٰ طلعتْ روحُهُ ، فكان آخر حركة يده ولسانه طلوع روحه ، وهـٰذا أمرٌ لم يُنقل إلا عن أكابر الأولياء ؛ كالجُنيد ، وسيدي محمد بنِ عنان ، وأضرابهما ، رضي الله عنهم أجمعين .

توفي بجامع الغمري ، ودفنَ خارجَ باب النصر سنة سبعٍ وخمسين وتسع مئة[٣] ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) كذا في النسخ عدا (ك) : (الإتميدي) ، والمثبت من (ك) ومصادر ترجمته . انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢٢٣) ، و« شذرت الذهب » (١٠/ ٤٤٧) ، و« معجم المؤلفين » (٢/ ٣٩٠) .

(٢) كَلَّ : أعياد وتعب .

(٣) ذكره ابن العماد في « شذرات الذهب » ضمن وفيات سنة (٩٥٦هـ) .

ومنهم :

(٤٩٦) الشيخ الصالح ، العابدُ الزاهد ، ذو الأخلاق المرضية ، والشِّيمِ الحسنة ، الشيخ عبدُ القادر الشاذلي رضي الله عنه[١]

كان عبداً صالحاً عالماً بفقه الإمام مالك رضي الله عنه .

وله الباع الطويل في علم الحديث ، كثير الصيام والقيام ، كريم النفس ، لو لم يكن في يده إلا روحه لجاد بها علىٰ أصحابه .

صحبته رضي الله عنه نحو خمسَ عشرةَ سنة ، وكان يزورني وأزوره ، وتفضَّل بلبسِ قميصي ، وأوصىٰ أن يُكفَّنَ فيه ، ففعلوا .

وهو الذي أقرأَ أولادَ الشيخ شمس الدين الحنفي القرآنَ والعلم .

وكان يعظُ على الكرسي في المساجد وفي زاوية الشيخ الحنفي يوم المولد كلَّ يوم أحد .

وكتبَ الحديث الكثير ، واختصرَ غالبَ مؤلفات سيدي الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله .

وله عدَّةُ مؤلفات حسنة[٢] ، وكتبَ علىٰ بعض مؤلَّفاتي أحسنَ كتابة .

وما كان جليسُهُ يملُّ من مجالسته ولو طالتْ ؛ من حُسْنِ سمته وأدبه ، وحلاوة منطقه ، رضي الله عنه .

ماتَ رضي الله عنه ودُفن بجوار قبر الشيخ جلال الدين السُّيوطي خارجَ باب القَرافة بجوار تربة قوصون ، وقبرُهُ ظاهرٌ يُزار ، رحمه الله رحمة واسعة ، آمين[٣]

---

(١) انظر « كشف الظنون » (٤٠٩ ، ١٠٥٦) ، و« إيضاح المكنون » (١/٢٠٢ ، ٢/٦٠٣) ، و« هدية العارفين » (١/٥٩٨) ، و« معجم المؤلفين » (٢/١٩٤) (عبد القادر بن محمد بن أحمد) ، وله ذكر في « الكواكب السائرة » (٢/٢٢٨ ، ٢٢٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٧٧).

(٢) من مؤلفاته : « بهجة العابدين بترجمة الحافظ السيوطي جلال الدين » ، وقد صدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق الدكتور عبد الإلـه نبهان .

(٣) ذكر عمر رضا كحالة في « معجم المؤلفين » (٥/٢٩٨) وفاته سنة (٩٣٥هـ) .

ومنهم :

(٤٩٧) الشيخُ الصالح ، سيدي محمد بنُ عزٍّ رضي الله عنه[١]

كان صاحبَ كشوفات ومعارف .

صحبته نحو عشرين سنة .

وكان ساكناً في الزاوية الحمراء خارج مصر ، وكان يأتيني في مدرسة أمِّ خوند ، فيبيت عندي الليالي ، فكنت لا أراه ينام شيئاً من الليل من العشاء إلى الفجر ، تارةً يضحك ، وتارةً يبكي حتىٰ أرقَّ له .

وكان أكابرُ مصرَ يحترمونه .

وكان يلبسُ ثيابَ الجند ، وله مقلبٌ خلف ظهره[٢] ، وعمامة هوَّارية ، وكان يمشي بالسلاح والسيف .

وله الاعتقادُ التامُّ في قلوب الناس .

زاحمه إنسانٌ في بين القصرين ، فرماه علىٰ وجهه ، فدعا عليه بالتوسيط[٣] ، فوسَّطه الباشاه آخرَ النهار .

وكان مُجاب الدعوة ، ودعا لي بدعواتٍ صالحة ، فوجدتُ بركتها

وكان إذا أخبر بولاية أحدٍ أو عزله في وقتٍ لا يُخطئ أبداً .

مات رضي الله عنه غريقاً في الخليج بالقرب من الزاوية الحمراء في سنة ثلاثين وتسع مئة ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٥٧) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٤٣) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٤٤٨) .

(٢) في « تكملة المعاجم » (٨/ ٣٥٥) : (مقلب : قطعة من البندقية يضرب عليها ديك البندقية) ، وقال الزبيدي في « تاج العروس » (ق ل ب) : (**المقلب** كمنبر : حديدة تقلب بها الأرض لأجل الزراعة) .

(٣) **التوسيط** : قطع الرجل نصفين من وسطه .

ومنهم :

(٤٩٨) ومنهم الشيخُ الصالح ، صاحبُ الكشوفات ، والكرامات والخوارق ، الشيخ حسن المطراوي[١]

كان مقيماً في جامع محمود بالقَرافة ، والناسُ يقصدونه بالزيارة .

وزرته مع سيدي محمد بن عنان كذا كذا مرة .

وكان له جاريةٌ تخدمه لا يقرب منها .

ولما زرته أقبلَ عليَّ إقبالاً زائداً ، وباسطني بالكلام ، وأخرجَ لنا خبزاً وزيتوناً وخلطه ، وقال لي : (اسمع يا عبد الوهاب مني هٰذه الكلمات : الحلو شفاء ، والمالحُ أذىٰ ، والحامض غذاء) .

وكان شيخاً قد طعن في السنِّ أشرفَ على المئة سنة ، وكان يقومُ الليلَ على الدوام ، وأخبرني أنه فقدَ الماءَ الذي يتوضَّأُ به في ليلة من الليالي ، فتوجَّه إلى الله تعالىٰ وإذا بشخص من أرباب الأحوال طائراً في الهواء ، وفي عُنقِهِ قربةُ ماء ملأها من بحر النيل ، ونزل عليه ، وصبَّها له في الخابية ، وصعد في الهواء ، ثم قال لي : يا ولدي ؛ مَنْ صدق مع الله تعالىٰ سخَّرَ له الوجودَ ؛ فإني أعلمُ لو كنتُ غيرَ صادقٍ معه في قيام الليل ، وقمتُ لعلَّةٍ ما سخَّر لي بعضَ أوليائه .

صحبته رضي الله عنه نحو خمسَ سنين ، ثم مات ، وذلك أيام سياحتي .

وكان أوَّلُ فتحي في البقعة التي تجاه جامع محمود ، وما عندي في القَرافة أعزُّ منها ، وهي بقعةٌ نيِّرةٌ .

وسألتُه مرَّةً عن قبور إخوة يوسف المجاورة لجامع محمود : هل لذلك صحة ؟

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٨٢) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٥٩) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣٩٩) .

فقال : لا ، وإنما بلغنا : أنَّ شخصاً قرأ سورةَ يوسف في هـٰذه البقعة ونامَ ، فجاءه جماعةٌ في المنام وقالوا : نحن من إخوة يوسف ، فمن أعلمَكَ بقصتنا ؟ فإنَّ جميعَ ما قصصتَهُ حقٌّ ، فأعلمَ الرائيُّ بذلك نائبَ مصر ، فبنىٰ عليهم قبّةً ومزاراً ، فهـٰذا ما بلغنا من أمرهم ، رضي الله عنهم .

ومنهم :

(٤٩٩) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهد العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد الدَّلْجي[1]

كان مُقيماً في تربةٍ خارج باب القَرافة في الزُّقاق الأول علىٰ يمين الخارج من الباب .

زرته مرَّاتٍ مع سيدي محمد بنِ عنان ، وكان مهاباً .

ولما جلس عنده سيدي محمد بنُ عنان صار كالولد مع الوالد ، فصار يقولُ له : آنست بلادنا يا محمد ، وسيدي محمد يُقبِّل رجلَهُ .

وكان شيخاً قد طعنَ في السن ، وكان جالساً في دهليزِ التربة علىٰ تختٍ من جريد ، وعلىٰ رأسه قلنسوة خضراء بلا عمامة .

وزرته وحدي مراتٍ ، وحصل لي منه خيرٌ كبير ، ودعا لي بدعوات .

مات رضي الله عنه سنة ثلاث عشرة وتسع مئة ، ودفن بالقرب من قبور الخَولانيين الذين حفروا قبورَهم بأيديهم ، وقبورُهم على الشارع ، وعلىٰ رأسهم لوحٌ كبير من حجر مكتوب فيه أسماؤهم وتواريخهم بالكوفي ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٧٩) ، و« طبقات المناوي » (٤/ ٤٥٧) ، والدَّلْجي : نسبة إلىٰ دَلْجا ؛ قرية بصعيد مصر من غربي النيل . « قاموس رمزي » (٢/ ٤/ ٤٦) .

ومنهم :

(٥٠٠) الشيخ الصالح ، ذو المفاخر والمآثر ، ختامُ الدوائر سيدي محمد أبو الفضل شيخ بيت بني الوفا والدُ سيدي إبراهيم الموجود الآن رضي الله عنه[١]

صحبتُهُ عشر سنين ، فرأيتُه على قدم عظيم في الطريق .

وله مكاشفاتٌ كثيرة ، وخوارقُ وكراماتٌ مشهورة بين تلامذته .

وكان قوالاً بالمعروف[٢] ، ناهياً عن المنكر ، شجاعاً ، عالماً ، كريماً ، حليماً ، حسنَ الشمائل .

وكان في بداية أمره يصطادُ السمك في بحر النيل في مركبٍ ، ويتقوَّتُ منه ، ولا يأكل لأحد مُطلقاً طعاماً إلىٰ أن اتَّسع حالُهُ ، وعَمَّر له عدةَ مراكبَ كثيرةٍ تحمل مغلَ السلطان[٣] ، فكان يأكلُ منها إلىٰ أن مات ، ويتصدَّقُ منها ، ويُنفق منها علىٰ أصحابه ، وعلىٰ موالد السادات ، رضي الله عنهم أجمعين .

وكانت له مكاشفات غريبة لا تُخطئ ، وكان قد أُعطي حرفَ (كن) ؛ فإذا قال للجبل : كن ذهباً صار ، كما أخبرني بذلك ولده سيدي أبو المكارم رضي الله عنه .

وأخبرني بيوم موته فلم يتعدَّهُ ؛ وذلك أني زرتُهُ وهو جالسٌ على الدكة في طاحونة بالروضة ، فقال لي : أوصيك يا ولدي بوصية ، فاحتفظْ بها ، ولا تخالفْها تندمْ ، فقلت له : وما هي يا سيدي ؟ فقال : لا تدخل قطُّ في حملة أحد من هٰؤلاء الظلمة في هٰذا الزمان ، وإياك أن تَرِقَّ لهم ؛ فإنهم مؤاخذون بأعمالهم السيئة ، فربَّما دخلوا تحت ذيل الفقير ، فيرقُّ لهم ، وينسىٰ ما عملوه من ظلمهم العباد والبلاد ، ويدخلُ في التوجُّه إلى الله تعالىٰ في ردِّ العقوبة الدنيوية التي أنزلها الحقُّ تعالىٰ بهم ، فيعارض القدرةَ ، فيهلك .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ١٧٦) .

(٢) في (ز) : (آمراً) بدل (قوالاً) .

(٣) مغل السلطان : غلال السلطان ؛ أي : محصوله .

وقد دخلتُ يا ولدي في حملة جانم الحمزاوي ، وما معي أحدٌ يساعدني في مصرَ ، وما أظنني إلا ميت بعد خمسة أيام ، فكان الأمرُ كما قال .

وأوصاني ألا أقبلَ من الولاة هدية أبداً وقال : من أكلَ الغفارة وجبَ عليه يردُّ الغارة ، بخلاف مَنْ لا يقبل لهم هديةً ، فإنه متطوعٌ بالحملة ، ثم قال : إنْ أردتَ يا ولدي أن تسعىٰ في تنفير الولاة والمباشرين عنك في هـٰذا الزمان فافعلْ ؛ فإنَّ القربَ منهم نار .

وكان عنده غيرةٌ شديدةٌ علىٰ عياله ، لا يمكِّنُ أحداً من الخدم يدخل عليهنَّ أبداً ، إنما يقضون الحاجةَ من باب الدار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٠١) الشيخُ عمر البوصيري رضي الله تعالىٰ عنه[١]

صحبته نحو عشرين سنة ، ورأيتُ منه كشوفات ، ولم يأذن لي في إفشاء شيء منها ؛ لأنه من الرجال الملامتية ، رضي الله عنه .

وجمعني على الأولياء الذين يشفعون في أهل الموقف بعرفة كلَّ سنة في سنة سبع وأربعين وتسع مئة في مسجد منىً ، وكانوا كلهم من اليمن ، أحدُهم أمردُ ، ألوانهم كالزعفران من الصفرة ، رضي الله عنهم ، ونفعنا ببركاتهم ، آمين .

ومنهم :

(٥٠٢) الشيخ يونس الدنوشري
المشهور بالشيخ مضيها رضي الله عنه

صحبته مدةً ، فرأيته علىٰ قدم عظيم في دوام الطهارة ، والكشف بأحوال الخلق ، لا تحجبه الجدرانُ عما يفعلُهُ الناسُ في بيوتهم ، وله اعتناء عظيم بقضاء حوائج الناس ، لا سيما النساء الجميلات ، فيدخلُ بيوتَهن ، ويقضيهنَّ الحوائج ، وإذا مزحَ

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٢٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٢٤) .

معه صاحبُ البيت وقال : أيش دخلك بيتي بغير إذني ؟! يقول له : أنا عبدُك وخادمك ، وإذا دعاه زوجُ العجوز إلىٰ خدمتها يشتمه ولا يجيبه ، فينبسطُ الناسُ عليه ، ويعتقدونه مع ذلك أشدَّ الاعتقاد .

وأكثرُ إقامته في بلد سيدي أحمد البدوي ونواحيها .

ولـٰكن إذا تحوَّلَ بقلبه علىٰ أحد من الأكابر تخربُ داره بسرعة ، وتدورُ عليه الدوائر .

أقام عندي في مصر مدَّةً ، وطلب مني زنطاً يلبسه[١] ، وسكَّراً ، وغيرَ ذلك ، فاشتريتُ له ذلك ، فدعا لي بدعوات وجدتُ بركتها ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٠٣) الشيخ عبد الله الخوانكي رضي الله عنه[٢]

دخلَ مصر أواخر سنة تسع وخمسين وتسع مئة ، فأقام خارجَ باب الفتوح علىٰ باب خان الحصريين .

وله حالٌ عظيم ، وتعاريض للناس ، ولِمَا يقعون فيه من الأمور المستقبلة .

لا يكادُ يَعرف أنه من الرجال إلا قليلٌ من الفقراء الصادقين ؛ لأنه ليس له علامةٌ تميِّزُهُ عن العامة في عبادةٍ ولا ملبسٍ ، وإنما يعرفُهُ بعضُهم برؤية عينيه ؛ لأن نظرةَ الوليِّ لها هيبةٌ ؛ لأن مطمحَ بصره القلبي دائماً إلىٰ حضرة الله تعالىٰ ، بخلاف غيره ؛ فإن مطمحَ أبصارهم إلى الكون الفاني أو الآخرة ، فلا يكتسبُ أحدُهم من الكون هيبة .

وقد أرسل لي السلام مرَّةً مراسلةً قلبية ، فوجدتُ منها الراحة رضي الله عنه ، ومثلُ هـٰذا لا يزورُهُ الزائرُ إلا بالقلب فقط ، فينبغي للمارِّ أن يحفظ قلبه عن الخواطرِ الرديئةِ ، ومرورِ شيءٍ من المعاصي علىٰ قلبه ؛ تعظيماً لحضرته ، فربما مقتَ من مرَّ عليه وهو غافلٌ ، أو متلطِّخٌ بمعصية ، أو شهوة لها ، والله يحفظُ من يشاء عن مثل ذلك ، والله أعلم .

---

(١) تقدم شرحها قريباً (٤/ ٣٤٠) حاشية (٢) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٥٦) .

ومنهم :

(٥٠٤) الشيخ محمد بنُ القاضي رضي الله تعالىٰ عنه[1]

كان أكثرَ إقامته في نواحي جامع الملك الظاهر ، وفي كوم الحاجب ، وكان له مكاشفاتٌ عجيبة .

يقفُ الإنسانُ عنده من غير لفظٍ ، فيخبرُهُ بما في باطنه وبما جاء لأجله ويقول له : افعل أو : لا تفعل .

وأرسل لي السلامَ مراتٍ علىٰ لسان الشيخ حسن الريحاني .

وربما عزمتُ علىٰ أمر في نفسي ، فيرسل يقول لي : لا تفعل كذا وكذا ، واصبر واحتمل .

ودخلتُ مرَّةً أنا وأخي أفضلُ الدين جامعَ شرف الدين بالحُسينية ، فقال لنا : إياكم والإنكارَ على الناس بسوء الظنِّ ، فإذا رأيتم مثلاً حشَّاشاً يبلعُ الحشيش ، فعظوه برفقٍ ورحمة ، وإن كان لكم حالٌ مع الله تعالىٰ فاسألوه يرفعْ عنه ذلك البلاء إن كان سبقَ في علمه تعالىٰ أن يرفعَه بسؤالكم ، وإلا فليس في كلامكم باللسان إزالةُ المنكر الذي كلَّفكم الشارع بإزالته ، فأحدُكم معافىً ، وذلك مبتلىً ، وما عند أهل الجنة خبرٌ من حال أهل النار ، فحصل لنا من كلامه رعبٌ في الباطن ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٠٥) العبَّادُ الثلاثون نفساً رضي الله عنهم أجمعين

المُقيمون بآخر الجبل المقطم الذي يُشرف على السويس .

صحبتهم صحبةً برزخيَّةً ، وأرسلوا لي السلامَ مع الشيخ حسن الريحاني مرات ، وذكروا له أنهم مرُّوا عليَّ قبل انقطاعهم في الجبل ، وذكروا معنا في المجلس من حيث لم أشعر بهم .

وهم الآن قد تركوا الطعامَ والشراب ما عدا نسيمَ السحر ، فيفتحُ أحدُهم فمَهُ في

---

(١) انظر ما تقدم (٤/ ٣٣١) (٤٧٣) .

السحر ، فيغتذي بنسيمه ، هٰكذا أخبرني الشيخ حسن المذكور ، وأقام عندهم أياماً طاوياً ، فلم يقدر يُوافقهم ، فرجع ، وقالوا له : سلِّم لنا علىٰ عبد الوهاب ، فأسألُ اللهَ من فضله أن ينفعنا ببركاتهم في الدنيا والآخرة ، آمين .

ومنهم :

(٥٠٦) الشيخ شُرَيْف رضي الله تعالىٰ عنه[١]

بضمِّ الشين وإسكان التحتية .

صحبته نحو عشرين سنة .

وكان في ابتداء أمره جالساً في طريق أجهور الكبرىٰ ليلاً ونهاراً[٢] ، فكلُّ من مرَّ عليه يقول له : من أين ؟ إلىٰ أين ؟ لا غير ، ثم إنه انتقلَ إلىٰ ناحية النعناعية عند والدته[٣] ، فأقام علىٰ جسر بين البلاد يأوي إليه الذئاب بالليل .

ولما نزلتُ من مصرَ إلىٰ عمارة زاوية جدِّي رضي الله عنه جاءني وطلب مني كتاباً لعامر بن بغداد بكلام فصيح ، حتىٰ تعجَّبَ الناسُ منه ، فقلتُ له : تحوَّلْ عليه بالقلب يقضي لك حاجتك ، فقال لي : مع وجودك لا يحتاج إلىٰ مثل ذلك ، وقد أرسلَ الكتابَ إلىٰ عامر ، فسامح حاملَهُ بخراجه كلِّه تلك السنة ، مع أنه لا يعرفُ شخصَ هٰذا الشيخ أبداً ، فعرفتُ أنَّ ذلك من صدق حاله ، نفعنا الله ببركاته والمسلمين ، آمين .

ومنهم :

(٥٠٧) الشيخ محمد رضي الله عنه

الذي هو نازل قريباً من قنطرة السدِّ .

صحبتُهُ صحبةً قلبية ، فرأيتُ له حالاً عظيماً لا يُطيق المتشرِّع المشي معه عليه .

---

(١) انظر « الطبقات الصغرىٰ » للمناوي (ص ٣٤٢) .

(٢) أجهور الكبرىٰ : من البلاد القديمة بمركز قليوب . « قاموس رمزي » (٢/ ١/ ٥٣) .

(٣) النِّعناعية : تقع في مركز أشمون . « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ١٦٧) .

يُراسل المارِّين بالخواطر طولَ النهار ؛ فمنهم : من يُجذب ، ومنهم : من يتمزَّقُ عن أحوال الدنيا ، ولا يصير له شهوةٌ إلىٰ شيء فيها ، ومنهم : من يمسح اللهُ من قلبه الإنكار على الأولياء ، ومنهم : من يستغرقُ في حضرة الله تعالىٰ ، فلا يخرج بعد ذلك منها لا دنيا ولا أخرىٰ .

أرسل لي السلامَ مرَّاتٍ مع خادمه ، ودعاني إلىٰ طريقه ، فأبيت ، وقلتُ له : هـٰذه طريقٌ قليلةُ السالك ، فلا حاجةَ لي بها ، فضحك ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٠٨) الشيخ عبد الله الفيومي رضي الله تعالىٰ عنه[١]

الذي كان جالساً تحت قنطرة قديدار ، وعنده القوارير ، والشقف ، وتأوي إليه الكلابُ والقطط ؛ كالمجذوب الذي هو الآن في نواحي باب اللوق .

كان يترحَّبُ بي كلما أمرُّ عليه ويقول لي : سلمْ لي على الشيخ خروف المدفون قريباً من الجزيرة الوسطانية[٢]

وكان حالُه قوياً .

جلس بعد سيدي محمد بن زرعة ، وقالوا : إنه ورث مقامَهُ .

وهو كثيرُ العطب لمن يمرُّ عليه من أهل المعاصي ، رضي الله عنه ، ونفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة ، آمين .

* * *

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٣٩٠) .

(٢) ذكر ترجمة الشيخ خروف المناوي في « طبقاته » (٣/ ٣٦٢) ، وقد تقدم في ترجمة الشيخ أحمد البهلول قصة حصلت بين المؤلف والشيخ خروف (٢/ ٢١٤) ، فلتنظر .

القسم الثالث (*)

في ذكر مناقب العلماء الذين صحبناهم

(*) هذا القسم حتى الصفحة (٣٧٩) سيرد في بداية الذيل (٥/ ٩)
حتى (٥/ ٢٩) ومنه أثبت فروق النسخ .

الباب الأول

في ذكر مناقب العلماء الذين قرأنا عليهم العلوم الشرعية ومتعلقاتها ؛ من نحوٍ ، وأصول ، ومعانٍ ، وبيان ، وغير ذلك .

وقد ذكرنا الكتبَ التي شرحناها عليهم في كتاب « المنن » .

الباب الثاني

في ذكر مناقب من صحبناه ، ولم نقرأ عليه ؛ إما لاستغنائنا عنه بأقرانه أو بأشياخه ، أو لمخالفته لنا في المذهب .

الباب الثالث

في ذكر مناقب من صحبناه من الأقران المدرسين والمفتين إلىٰ ختام سنة ستين وتسع مئة ، ولم نلتزم فيه تقديمَ الأفضل علىٰ غيره ؛ لجهلنا بمراتبهم الآن[١] ، أو بما ينتهي أمرُهم إليه عند طلوع الروح .

وقد سبقني إلىٰ نحو ذلك سيدي عبدُ العزيز الديريني رضي الله عنه ، فذكر مشايخَهُ في العلم في أرجوزةٍ ، وهـأنا ملخِّصٌ لك يا أخي عيونَها ؛ تبرُّكاً بها ، فأقول وبالله التوفيق :

قال سيدي عبد العزيز وهو لسانُ حالي أيضاً بعد الحمد والصلاة ، وذكر بعضَ حكم وآدابٍ : [من الرجز]

وأذكـرُ الآنَ رجـالاً كـانـوا	كـأنجـمٍ يـزهـو بهـا الـزمـانُ
مشـايخـاً صحبتُهـمْ زمـانـاً	أو زرتُهـم تبـرُّكـاً أحيـانـا
منهـمْ سـراجُ الـدِّيـنِ عبـدُ اللهِ	كنَّـا بفضـلِ علمِـهِ نُبـاهـي
صحبتُـهُ سبـعَ سنيـنَ أولا	وكنـتُ فـي خـدمتِـهِ تفضُّـلا
أعنـي مـنَ اللهِ علـيَّ فضـلا	مـا كنـتُ فـي القـدرِ لـذاكَ أهـلا
وكـان بحـراً فـي علـومِ النظـرِ	والفقـهِ والتحقيـقِ ذا تَبَحُّـرِ
والـزهـدِ والفتـوةِ المـذكـورهْ	والصـدقِ والعبـارةِ المشهـورهْ

(١) من قوله : (مناقب) إلىٰ قوله : (تقديم) زيادة من (ز ، ك) فقط .

والشيخُ تاجُ الدينِ بهرامُ البدلْ كانَ إماماً في العلومِ والعملْ
أوصافُهُ في فضلِهِ مشهورهْ وكمْ لهُ كرامةٌ مأثورهْ
صحبتُهُ خمساً وعشرينَ سَنَهْ كأنَّها مِنْ طيبِها كانتْ سِنَهْ
والشيخُ زينُ الدِّينِ بالمحلَّهْ أعني أبا بكرٍ فما أَجَلَّهْ
وعلمُهُ وزهدُهُ معروفُ ونسكُهُ بينَ الورىٰ مَوصوفُ
قدْ نلتُ منهُ دعوةً مُجابَهْ وصحبةً لي معَهَا قرابَهْ
وشيخُنا عبدُ الوهابِ بنُ خلفْ كانَ شبيهاً في السُّلوكِ بالسلفْ
لهُ علومٌ جمَّةٌ وزهدُ وورعٌ وخشيةٌ وقصدُ
والشيخُ مجدُ الدِّينِ ذو الفنونِ هوَ ابنُ عبدِ الصَّمدِ الأمينِ
محمدُ المنتسبُ الأنصاري كالبحرِ في معرفةِ الآثارِ
رويتُ عنهُ كلَّ ما يَرويهِ منْ سائرِ العلومِ أو يُمليهِ
وقدْ صحبتُ الشرفَ ابنَ ثعلبِ ونلتُ منْ جَدواهُ أيَّ مطلبِ
صحبتُهُ عامَ بلوغي طالبا مهاجراً إلىٰ حماهُ راغبا
وجامعُ الفضلينِ عبدُ المعطي أنفاسُهُ كأسهمٍ لا تُخطي
أفادني في مدَّةٍ قليلهْ فوائداً عظيمةً جليلهْ
والشيخُ عزُّ الدِّينِ تاجُ العُلما بدرُ الزمانِ إذا قامَ العلما
لاحتْ لنا منْ نحوِهِ المسرَّهْ طُوبىٰ لعينٍ نظرتْهُ مرَّهْ
والعالمُ العاملُ إبراهيمُ ومنْ قليلٍ فضلُهُ معلومُ
عاشَ سليماً منْ جميعِ الرِّقِّ مُستغنياً باللهِ لا بالخلقِ
ذو الخُلُقِ المُستحسنِ الرَّضيِّ والمنظرِ المُستعظمِ البهيِّ
عُمِّرَ في نزاهةٍ وطاعهْ وعفَّةٍ يزينُها قناعهْ
والشيخُ إسماعيلُ منْ قطورِ راوي شفاء غلَّةِ الصدورِ
وقدْ صحبتُ العالمَ الصَّفراوي ثم الزكيَّ العالمَ المنشاوي
كذلكَ البرهانُ بالمحلَّهْ وبعدَ داودَ ارتقىٰ مَحلَّهْ
كذا الإمامُ الظَّاهرُ المحلِّي خطيبَ مصرَ الطاهر المحلِّ
وصهرُه المجدُ هوَ الإخميمي لقيتُهُ بمصرَ للتسليمِ

فهٰـــؤلاءِ كلُّهـــمْ أبـــرارُ ... أئمـــةٌ لـــدينِنـــا أخيـــارُ
غطَّـاهـمُ العلـمُ فهمْ فـي سترِ ... والنَّجـمُ لا يَظهـرُ وقـتَ الظهـرِ
لأنَّ نـورَ علمِهـمْ كـالشَّمـسِ ... فـزهـدُهـمْ مُستتـرٌ فـي طمـسِ
وفضلهمْ يُغني الورَىٰ عنْ شاهدِ ... فليـسَ يُخفيـهِ سـوىٰ معـانـدِ
وإنمـا يحتـاجُ للكـرامـةْ ... مَـنْ لـمْ يكـنْ لفضلِـهِ عـلامـةْ

وأطال في ذلك ، ثم قال :

وعلـمُ تفسيـرِ الكتـابِ أعلـىٰ ... مـا يَعتنـي المـرءُ بـهِ وأَغلـىٰ
لأنَّـهُ فهـمُ خطـابِ المـولـىٰ ... فكـانَ أَوفـىٰ مطلـبٍ وأولـىٰ
وكـلُّ علـمٍ فمِـنَ القُـرآنِ ... وفيـهِ أصـلُ سـائـرِ المعـانـي
ثـمَّ حـديـثِ المصطفىٰ محمَّـدِ ... فـإنَّـهُ نـورٌ لكـلِّ مُقتـدي
والفقـه فـي معـرفـةِ الأحكـامِ ... والفصـلِ بيـنَ الحِـلِّ والحـرامِ

وأطال في ذلك ثم قال :

ثم العلومُ ليس يُحصىٰ حدُّها ... ولا يُطـاقُ حصـرُهـا وعـدُّهـا
وعمـرُ كـلِّ واحـدٍ يَضيـقُ ... عـنْ كـلِّ علـمٍ رامَـهُ الفـريـقُ
وكـانـتِ الـرِّجـالُ مـنْ قـديـمِ ... مـنْ قـوَّةِ الهمَّـةِ والتعليـمِ
ليـسَ لهـمْ عـلاقـةٌ دنيَّـهْ ... تشَغلُهـمْ بـلْ همَّـةٌ عليَّـهْ
وصـارَ أهـلُ عصـرِنـا فـي غمـرهْ ... وغفلـةٍ طـويلـةٍ وسكـرهْ
فقـدِّمِ الأهـمَّ ثـمَّ الأحسنـا ... مِـنْ كـلِّ علـمٍ حَسَـنٍ إنْ أَمكنـا
لٰكـنْ أُنـاسٌ عكسُـوا التَّـرتيبـا ... فـأهملـوا الأَهـمَّ والمطلـوبـا
وكـلُّ علـمٍ حسنُـهُ فـي مطلبِـهْ ... معتبـرٌ بقـدرِ قبـحِ الجهـلِ بـه
والعلـمُ زادٌ للسُّلـوكِ والعمـلْ ... ومـا رأينـا بـالكـلامِ مَـنْ وصـلْ
كـواصـفِ الأطعمـةِ الـرَّفيعـهْ ... واللبـسِ والأبنيـةِ المنيعـهْ
وهوَ منَ الجوعِ وتضييعِ الفرصْ ... والفكرِ والهمِّ العظيمِ في غُصصْ
وآخـرونَ حُـرمـوا الإخـلاصـا ... فمـا رأوا مـنَ الهـوىٰ خـلاصـا
والعـالـمُ المحفـوفُ بـالتـوفيـقِ ... مَـنْ جـرَّهُ العلـمُ إلـى التَّحقيـقِ

فجـاهـدَ النَّفـسَ وسَـلَّ السيفـا ... ولَـمْ يُعلِّـلْ بعسـى وسـوفـا
ولا تـذوقُ النَّفسُ طعـمَ التقـوىٰ ... إلا إذا منعتَهـا مـا تهـوىٰ
والشهـواتُ كـالسِّبـاعِ الكـاسـرهْ ... فصفقـةُ الهـالـكِ منهـا خـاسـرهْ
والعبـدُ لا يَصيـرُ حـرّاً عنهـا ... وقلبُـهُ فـي أسـرِ شـيءٍ منهـا
ومَـنْ نفـى المـذمـومَ بـالـرِّيـاضـهْ ... طهَّـرَ مِـنْ أسـرارِهِ رِيـاضـهْ
وصـار مَـوطنـاً لكـلِّ غـرسِ ... ولاجتنـاءِ ثمـراتِ الغَـرْسِ
إذا بـدا بـادٍ مـنَ الحقـائـقِ ... لسـالـكٍ فـرَّ مـنَ العـلائـقِ
وصـارَ مـا يقصـدُ بـالمجـاهـدهْ ... ميسَّـراً سهـلاً بـلا مكـابـدهْ
مثـلُ الملـوكِ نـزلـوا ببقعـهْ ... فارتحلتْ عنها الرعاع سُـرْعَهْ[1]
وبثَّـتِ الجنـودُ والعسـاكـرُ ... فـي الأرضِ واستقـامـتِ الأوامـرُ
وجـاءَ جيـشُ العـزمِ والإنـابـهْ ... والصـدقِ والتـوبـةِ والإجـابـهْ
والـذِّكـرِ والقـرانِ والـزهـادهْ ... والخـوفِ والخشـوعِ والإرادهْ
والصبـرِ والـرِّضـا وشكـرِ النعمـهْ ... وخشيـةِ اللهِ وحفـظِ الحـرمـهْ
والقصـدِ والهيبـةِ والحيـاءِ ... والأُنـسِ بـالمحبـوبِ والـرجـاءِ
وصحَّـةِ الإخـلاصِ والتـوكُّـلِ ... والشـوقِ والتسليـمِ والتبتُّـلِ
والجمـعِ والعـرفـان والمحبَّـهْ[2] ... ثـمَّ الفنـا عـنْ سـائـرِ الأحبَّـهْ
ثـمَّ الفنـا عـنْ رؤيـةِ الفنـاءِ ... والشُّغـلِ بـالمعطـي عـنِ العطـاءِ
وصحـةِ التجـريـدِ والتفـريـدِ ... والفَـرَقِ الـدائـمِ والتـوحيـدِ
فهـٰذهِ معـالـمُ الطـريقـهْ ... والجمـعِ بيـن العلـمِ والحقيقـهْ
ولا تُنـالُ دونَ بـذلِ الـرُّوحِ ... فأغنَ عنِ التصريحِ بالتلويحِ
والحمـدُ للهِ علـى التَّحقيـقِ ... فهـوَ غيـاثـي وبـهِ تـوفيقـي

انتهىٰ كلام سيدي عبد العزيز رضي الله عنه ملخَّصاً .

ولنشرع في مقصود الكتاب فنقول وبالله التوفيق :

---

(١) في (أ ، ز ، ط) : (الرعاة) بدل (الرعاع) .
(٢) في (ج ، د ، ل) : (الفرقان) بدل (العرفان) .

البَابُ الأوَّل
فِي ذِكرِ جملةٍ مِن مَشايخِ الإِسلامِ الّذِينَ أدرَكنَاهم وَأخذنَا عَنهم العُلومَ مِن فقهاءَ ومحدِّثِين، ونحَاةٍ وَأُصُولِيّين، ونَحوِهم رَضيَ اللهُ عَنهم أجمَعِين

وقد حُبِّبَ لي أن أصدِّرَ هـٰذا الباب بذكر سندنا بالفقه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ليعرف الطالب أباه في العلم ، فقلَّ من الطلبة من يعرفُ ذلك ، فأقول وبالله التوفيق :

أخذتُ علم الفقه والتفسير والحديث وغير ذلك عن جماعةٍ بأسانيد مختلفة ، أخصرُها طريقُ شيخ الإسلام زكريا رضي الله عنه ، وقد خدمتُهُ وقرأتُ عليه مدة عشر سنين ، وقد ذكرتُ في كتاب « المنن » عدة الكتب التي قرأتُها عليه ، فراجعه .

وقد أخبرني بلفظه : أنه أخذَ علمَ الفقه عن شيخ الإسلام جلال الدين البلقيني ، والحافظ ابن حجر ، والشيخ جلال الدين المحلِّي .

وأخذ هـٰؤلاء الثلاثةُ الفقهَ عن الشيخ عبد الرحيم العراقي ، عن الشيخ علاء الدين بن العطار ، عن محقِّق المذهب ومرجِّحه العالمِ الصالح يحيى بن شرف النووي ، عن الشيخ الإمام كمال سلار الإربلي ، عن الشيخ محمد بن محمد صاحب « الشامل الصغير » ، عن الشيخ عبد الغفار القزويني صاحب « الحاوي » ، عن أبي القاسم الرافعي شيخ المذهب ، عن الإمام محمد أبي الفضل ، عن محمد بن يحيىٰ ، عن حجة الإسلام أبي حامد الغزالي ، عن أبي المعالي محمد إمام الحرمين ، عن والده الشيخ أبي محمد الجُويني ، عن أبي بكر القفَّال المروزي ، عن أبي زيد المروزي ، عن أبي العباس بن سريج ، عن أبي سعيد الأنماطي ، عن أبي إسحاق إبراهيم المزني ، عن الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعي ، عن الإمام مسلم بن

خالد الزَّنْجي ، عن محمد بن جُريج ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين وعلىٰ آلهم وصحبهم أجمعين .

ولم أذكرْ من أشياخي إلا من كان جامعاً بين العلم والعمل .

فأولهم :

(٥٠٩) والدي، الشيخُ الإمام العلامة الفقيه المحدِّث، النحوي المقرئ، الورع الزاهد الشيخُ شهابُ الدين أحمد الشعراني رضي الله تعالىٰ عنه[١]

قرأتُ عليه النِّصفَ الآخر من القرآن ، وسمعتُ منه الحديثَ .

وسأل لي الإجازةَ من الشيخ جلال الدِّين السُّيوطي ، فأجازني بجميع مروياته وعمري إذ ذاك نحو عشر سنين .

وكان رضي الله عنه قوَّاماً بالليل ، صواماً بالنهار ، لا يأكلُ لأحد من الولاة وأعوانهم طعاماً .

وسمعتُهُ مرَّةً يقول : (قد جمعتُ بحمد الله من العلوم ما لو اجتمعَ عليَّ سائرُ علماء الجامع الأزهر لقطعتهم بالحجج) .

مات رضي الله عنه خامسَ شهر صفر سنة سبعٍ وتسع مئة ، ودفن بجنب قبر والده بزاويته في ناحية ساقية أبي شعرة ، رضي الله عنه

وكان إذا صلىٰ بالليل وقرأ القرآنَ يُبكي الناسَ من الخشوع ، ويخرُّ بعضُهم إلى الأرض .

فصلَّىٰ خلفه الشيخ كمالُ الدين الطويل فكاد أن يخرَّ إلى الأرض ، فقال له : أنت لا يُناسبك إلا الإمامة بجامع الأزهر لا بالريف .

وكان له الباعُ الطويل في إنشاء الخطب ، والنظم ، وفي علم الفلك ، والفرائض .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٣٨) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٩) ، وستأتي ترجمته (٥/ ١٨)(١) .

وكان يعملُ الدوائر ، ويشدُّ المناكيب ، وهو مع ذلك لا يخلُّ بأمرِ معاشه ؛ من حرثٍ ، وحصادٍ ، ودياس ، وشهادة بين الناس في ضبط خراجهم احتساباً .

وكان ينشئ الخطبةَ حالَ صعوده المنبر .

وبلغه أنَّ الإمامَ عليَّ بن أبي طالب خطَبَ مرَّةً بخطبة لا ألفَ فيها ، حين تذاكرَ عنده العرب أنَّ الألفَ أدخل الحروف في الكلام ، فأنشأ خطبةً ليس فيها حرفُ الألف ، وجمع فيها الأركان .

أولها : (حمدتُ ربِّي وربَّ كلِّ مخلوق بحمد عظيم صَدَرَ من قلب مؤمن صدوق ، يُسبِّحُ بحمده شجرٌ ومدرٌ ، ونجوم وغيوب وبروقٌ ، وشمس وقمر ، وبحر وبرٌّ في غروب وشروق) .

ومن جملة وعظها : (عليكم بتطهير قلبٍ شُغف بحبِّ كلِّ فسوق ، مسودٌ من غلٍّ وحقد وحسد ، ودنس به معلوق ، فقد علمتُم سرعةَ مسيركم للمحشر ودموعُكم دلوق ، مع كلِّ شخصٍ منكم شهيدٌ يشهدُ عليه وحثيث له يسوق ، يومئذٍ تُعرضون ثم تتميَّزون فمؤمن مع نبيه ، ومجرم معه يغوث ويعوق . . .) إلىٰ آخر ما قال .

وكان له توجُّهٌ صادق في قضاء حوائج الناس ، وقيامٌ طويل في الليل بثلث القرآن وأكثر في كلِّ ليلةٍ .

وأتاه مرَّةً شخصٌ من العصاة الذين يقطعون الطريق ، فقال : اكتبْ لي ورقةً بأنَّ لي عند فلانٍ ثمنَ ثور ، فقال : حتىٰ يأتي أحدٌ يشهد لك ، فغضب العاصي ، وتوعَّده بالقتل ، وصار يكمنُ لقتله كلَّ ليلة ، فقال له أخي الشيخ عبد القادر : يا سيدي ؛ ادعُ علىٰ هـٰذا المنافق ، فقال : يا ولدي ؛ في الله كفايةٌ ، ثم نام تلك الليلة ، فرأىٰ هاتفاً يقول له : بعد غدٍ تقطعُ رأس عدوِّك في ساحل البحر قبل طلوع الشمس ، فكان الأمرُ كذلك ، فبينما نحن معه راجعون من الجامع بعد صلاة الصبح إذ وجدهُ حسامُ الدين بن بغداد ، فقطعَ رأسَهُ .

وكان اشتغالهُ بالعلوم علىٰ والدِهِ ، ووالدُهُ أخذ العلم عن شيخ الإسلام صالح البلقيني ، وعن الشيخ يحيى المناوي ، وعن الحافظ ابن حجر

وقد كنتُ أقرأُ عليه مرَّةً في سورة (والصافات) ، فلما بلغتُ قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ [٥٥ـ ٥٦] فبكىٰ حتىٰ أُغمي عليه ، وصار يتمرَّغُ في الأرض كالطير المذبوح ، وكان عمري إذ ذاك نحو ثمان سنين .

وصنَّف عدَّةَ مؤلفات في علم الحديث والنحو والأصول والمعاني والبيان ، فنُهبتْ مؤلفاته كلُّها فلم يتغير وقال : قد ألَّفناها لله ؛ فلا علينا أن يَنسبَها الناسُ إلينا أم لا ، والحمد لله رب العالمين .

ومنهم :

(٥١٠) شيخُنا العالم الصالح ، المفنن في العلوم ، والمعدُّ لحلِّ المشكلات سيدي علي النَّبْتِيتي الضرير رضي الله عنه[١]

كان له مكاشفاتٌ غريبة ، وأخلاق شريفة ، وخوفٌ عظيم من الله تعالىٰ حتىٰ كأنَّ النارَ لم تُخلق إلا له وحده .

وكان علىٰ قدم عظيم في العلم والعمل ، جبلاً في العلوم الظاهرة والباطنة والأخلاق المرضية .

وكان مخصوصاً في عصره بالاجتماع بالخضر عليه السلام من بين العلماء ، وذلك من علامة كماله وتمكُّنِهِ في مقام الولاية ؛ فإن أشياخَ الطريق أجمعوا أنه لا يقدرُ علىٰ صحبة الخضر في اليقظة إلا من حُقَّ له مقامُ الولاية الكبرىٰ ؛ لعزَّةِ اجتماعه ، وعزَّة شرائطه في صحة الاجتماع به ، وكيف لأحدٍ أن يصحبَهُ وقد وقعَ له مع السيد موسىٰ ما وقع ، وكان آخرُ أمره أن قال : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : ٧٨] ؟! لٰكنْ يراه بعضُ المريدين في المنام ؛ لعجزهم عن مجالسته في اليقظة .

وقد رأيته عليه السلام في بداية أمري ، وعلَّمني ميزاناً في العقائد ، وميزاناً في الشريعة يردَّانِ جميع أقوال العلماء إلىٰ مرتبتين :

أما ميزان العقائد في الله تعالىٰ فقال لي : كلُّها ترجعُ إلى الإطلاق والتقييد ؛ أي :

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٥٣) (٣٤٧) ، وستأتي في « الذيل » (٥/ ٢١) (٢)

التنزيه والتشبيه ؛ فالتنزيه : علمُ الله تعالىٰ بنفسه ، والتشبيهُ علمُ الخلق بربهم ؛ فكل ما جاء في الكتاب والسنة وأقوال الأئمة مما يعطي ظاهره التشبيه فرجِّعه إلىٰ علم الخلق ، وكلُّ ما جاء من التنزيه رجِّعه إلىٰ معرفة الحقِّ تعالىٰ بنفسه ، ولا يحتاجُ مع ذلك إلىٰ تأويل أبداً .

فأما ميزان الشريعة : فكلُّها ترجعُ إلىٰ مرتبتين ؛ تخفيفٌ ، وتشديد ؛ أي : عزيمةٌ ورخصةٌ ، فمن قَويَ من الخلقِ خُوطب بالعزائم ، ومن ضعفَ منهم خُوطب بالرخصة بشرطها المعروف عند العلماء .

ثم قال لي : امتحنْ ذلك بمذهبك مع غيره ، أو بالقول الأصحِّ في مذهبك ، مع مقابله يتَّضحْ لك ذلك ؛ لأنَّ أحدَ القولين لا بدَّ أن يكونَ مائلاً إلى التشديد ، والآخرَ إلى التخفيف ، فمن ذاقَ ذلك لم يرَ في الشريعة المطهَّرةِ تناقضاً أبداً . انتهىٰ .

وقد شرحتُ هٰذين الميزانين بنحو كرَّاستين ، وكتب عليهما علماءُ مصر ، وأذعنوا لهما تسليماً وتقليداً ، لا ذوقاً ، فالحمدُ لله ربِّ العالمين .

وكان أول اجتماعي بسيدي علي في المدرسة الكاملية بخطِّ بين القصرين ، وأملاني حديثَ عائشة رضي الله عنها الذي رواه الطبراني وغيرُهُ مرفوعاً ، « مَنْ أرضى الناسَ بسخطِ اللهِ سخطَ اللهُ عليهِ ، وأَسخطَ عليهِ الناسَ ، ومَنْ أرضى اللهَ بسخطِ الناسِ رضيَ اللهُ عنه ، وأرضىٰ عنهُ الناسَ »[1]

ثم قرأتُ عليه بعضَ دروسٍ من كتاب « المنهاج » في الفقه ، لتكون له شياخةٌ عليَّ .

وسألتُهُ عن شروط الاجتماع بالخضر عليه السلام ، فقال لي : (هي ثلاثةُ شروط :

الأولىٰ : أن يكونَ علىٰ سُنة في جميع أحواله .

والثاني : ألا يكون له حرصٌ على الدنيا ، ولا يبيتَ علىٰ دينار ولا درهم إلا لدينٍ .

---

(١) المعجم) الكبير (١١/٢٦٨) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » : (١٠/٣٨٦) : (رجاله رجال الصحيح) ورواه عن عائشة الترمذي (٢٤١٤) بلفظ مقارب .

والثالث : أن يكونَ سليمَ الصدر لأهل الإسلام ، ليس في قلبه غلٌّ ، ولا حقدٌ ، ولا حسدٌ لأحد منهم .

ثم قال : فمن لم تجتمع فيه هٰذه الشروطُ لا يجتمعُ به الخضرُ ، ولو كان على عبادةِ الثقلين) انتهى .

وقد رأيتُ في « رسالة القشيري » ما يؤيِّدُ الشرطَ الثاني ، وذلك أنَّ أبا عبيدِ الله البُسري رضي الله عنه كان يجتمع بالخضر عليه السلام يقظةً ، ويحادثُهُ كثيراً ، ثم انقطعَ عنه الخضرُ ، فصار يراه في النوم دون اليقظة ، فقال في نفسه : لابدَّ أن يكون سبق منكِ هفوةٌ ، ثم إنه رأى الخضر ، فسأله عن سبب انقطاعه عنه في اليقظة ، فقال : أَتَذْكُرُ يوماً قلتَ فيه لزوجتك : ضعي هٰذا الدرهمَ على الرفِّ إلىٰ بكرةِ النهار ؟ فقال : نعم ، فقال : نحن لا نصحبُ من يدَّخرُ قوتَ غدٍ ، ثم لم يزل يراه في المنام دون اليقظة إلىٰ أن مات البسريُّ رحمه الله .

وسيأتي في ترجمة شيخ الإسلام زكريا رضي الله عنه[1] : أن سيدي علياً سأل الخضرَ عليه السلام عن حال الشيخ زكريا ، فقال : ونعم منه ، إلا أن عنده نُفيسةً تزولُ إن شاء الله تعالىٰ ، فلما أعلمه سيدي عليٌّ بذلك تكدَّرَ وصار كلَّ ناقصةٍ وقعَ فيها يقول : لعلَّ هٰذه هي مرادُ الخضر ، فأرسلَ يسألُ سيدي علياً أن يسأل له الخضرَ عن تلك النفيسة ، فرآه بعد سبع شهور ، فقال : إنه يرسلُ قاصدَهُ إلى الأمراء ويقول لأحدهم : قل للأمير : يقولُ لك الشيخُ زكريا : كذا وكذا ، ويُسمي نفسَهُ شيخاً ، فقال الشيخ زكريا : صدق عليه السلام ، ومن ذلك اليوم صار يقولُ : (زكريا) من غير لفظ شيخ .

وأخبرني الشيخ عمرُ المفتي ولدُ الشيخ سيدي عليٍّ : أن يدَ والده لم تزل ممدودةً نحو السماء ؛ إذا جلس ، وإذا مشىٰ ، وإذا اضطجع ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن الحقَّ تعالىٰ عطاؤه فيَّاض في الليل والنهار علىٰ عباده ، فأنا أتعرَّضُ لذلك في كل الأوقات ، فكما لا يملُّ تعالىٰ من العطاء ، فكذلك العبدُ من شدَّةِ فاقته لا يملُّ من الأخذ . انتهىٰ .

---

(١) انظر (٤/ ٤٠١) .

وعارضه السلطانُ قايتباي في طاحونه بالخانقاه السرياقوسية ، وأراد هدمَها وإعطاءه رزقةً مكانها ، وكان صوتُها يشوِّشُ على السلطانُ وهو جالسٌ في قصره الذي بناه عند البحرة بالخانقاه ، فقال له سيدي علي : يا قايتباي ؛ ليس لك قدرةٌ علىٰ توجُّه الفقراء إلى الله فيك ، فاكفهم شرَّك ، فارتعدَ السُّلطان من كلامه ، ورجع عما كان أراد وقال : هـٰذا نَفَسُ من لا يخاف إلا الله . انتهىٰ .

وكانت إقامةُ الشيخ رضي الله عنه بناحية نبتيت ، والناسُ يقصدونه للعلم والاستفتاء والتبرُّك من سائر الآفاق .

وكانت الأسئلةُ تأتيه من مصر والشام والحجاز في المشكلات ، فيجيبُ عنها نظماً ونثراً بأوضح جواب .

وكان إذا دخلَ مصرَ تهرعُ إليه الخلائقُ من العلماء والأكابر يزورونه .

وكان يجلس في الصُّفَّة التي علىٰ يسار الداخل للإيوان الذي فيه المحراب من المدرسة الكاملية ؛ لكونه كان مجلسَ شيخه الشيخِ كمالِ الدين إمامِ الكاملية ، رضي الله عنه .

وكانت نصوصُ الإمام الشافعي وأقوالُ مقلِّديه من المتقدِّمين والمتأخِّرين كأنها نصبُ عينيه .

وكان إذا سُئل عن مسألة يقول للطالب : افتح الكتاب الفلاني ، وعدَّ كذا كذا سطراً من الورقة الفلانية تجدِ المسألةَ ، فيجدها الطالب كما قال من شدَّة نور قلبه ، رضي الله عنه .

وكان إذا نزلَ ببلده أو إقليمه بلاءٌ يقول : (هـٰذا كلُّهُ بذنب عليٍّ ، فلو أخرجتموه من بلادكم لخفَّ عنكم البلاء) .

وكان إذا نزلَ بالمسلمين بلاءٌ لا يأكلُ ، ولا ينام ، ولا يضحك ، ويقول : هـٰذا من شرط المؤمن .

وكان يفحصُ في الأرض ويبكي كالطير المذبوح في الليل .

وكان وقتُه كلُّهُ معموراً بالعبادة ليلاً ونهاراً .

وكان يقول لأصحابه : (إياكم أن تغترُّوا بكثرة طاعاتكم وتقولوا : ما بقي لإبليس علينا سبيل ، فيغويكم ويأخذُكم إلى النار وأنتم لا تشعرون) .

وكان يقول : (لا يكمل الرجلُ في العقل إلا إن كان كاتبُ الشمال لا يجد شيئاً من أعماله يكتبه) .

ومناقبه رضي الله عنه في بلاده كثيرةٌ مشهورةٌ ، ومن نظمه : [من الوافر]

وما لِيْ لا أنوحُ علىٰ خطائِي ... وقدْ بارزتُ جبَّارَ السَّماءِ

قرأتُ كتابَهُ وعصيتُ سرّاً ... لعظمِ بليَّتِي ولشؤمِ رائي

بلائِي لا يُقايسُهُ بلاءٌ[1] ... وأعمالِي تدلُّ علىٰ شقائِي

فيا ذُلِّي إذا ما قالَ ربِّي ... إلى النيرانِ سُوقوا ذا المُرائِي

فهٰذا كانَ يَعصيني جهاراً ... ويزعمُ أنَّهُ منْ أوليائِي

تصنَّعَ للعبادِ ولمْ يُرِدْني ... وكانَ يُريدُ بالمعنىٰ سوائي

إلىٰ آخر ما قال .

توفِّي رضي الله عنه يومَ عرفة سنة سبعَ عشرةَ وتسع مئة ، ودفن ببلده ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥١١) شيخي وقدوتي إلى الله تعالى ، الشيخُ العلامة ، الورع الزاهد الشيخ حسن الشامي ثم الغمريُّ الضرير رضي الله تعالىٰ عنه[2]

كان عالماً عاملاً ، حافظاً لمتون الكتب الشرعية وآلاتها علىٰ ظهر قلب .

وكان حافظاً للسانه ، ملازماً لشأنه ، مواظباً على الطهارة الظاهرة والباطنة ، غزيرَ الدمعة ، لا يسمعُ آيةً أو حديثاً أو شيئاً من أحوال السلف أو أحوال أهوال يوم القيامة إلا بكىٰ حتىٰ أرحمُهُ من شدَّة البكاء .

---

(١) في (ز) ، و« الطبقات الكبرىٰ » : (لا يقاس به) بدل (لا يقايسه) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٣٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤١٣) ، وفيهما : (حسن بن إسكندر بن حسن بدر الدين النصيبي الحلبي) ، وسترد ترجمته في « الذيل » (٥/ ٢٦) (٣) .

وكان كريمَ النفس ، جميلَ المعاشرة ، أمّاراً بالمعروف ، لا يُداهن أحداً في دين الله عز وجل .

وهو أكثرُ أشياخي نفعاً لي ، قرأتُ عليه القرآن بعد والدي تجويداً ، وقرأتُ عليه « المنهاج » و« الألفية » و« الشاطبية » و« التوضيح » و« جمع الجوامع » و« تلخيص المفتاح » و« قواعد الإعراب » ، وكنت أقرأ عليه الماضي ، ويُعْلِمني بمتشابهاتها كأنها قرآن ، وربما ختمتُ أنا وإياه كتاب « المنهاج » في مجلس واحد .

وقد ذكرتُ عدَّةَ الكتب التي شرحتها عليه في كتاب « المنن » .

وكان يُحبُّني محبّة الوالد لولده ، ويُطعمني كلَّ ما اشتهته نفسي وأنا صغير ، ويقول : (يا ولدي ؛ مقصودي لك أن تُحيطَ علماً بكلِّ علمٍ ، وبكلِّ مطعمٍ وملبس قطعاً لخاطر النفس) .

وكان كثيراً ما يقولُ لي : مقصودي اليومَ آكلُ أنا وإياك من الحلال ، فأقول له : في أيِّ المواضع ؟ فيقول : في بركة الخازندار خارجَ مصر ، فأقودُه إليها ، فيجلس علىٰ شاطئها ويقول : اجمع لي من ورق الخسِّ والجزر والفجل ما تراه في جانب الشطِّ مما تساقطَ من الذين يغسلون الخضراوات من الطين ، فألتقطُ له شيئاً من ذلك ، فيأكله ، ويشربُ من البركة ويقول : الحمد لله الذي أَطعمنا هـٰذا اليوم حلالاً لا شُبهة فيه ، فلا أزال أُطالع له حتىٰ تصفرَّ الشمس ، ثم يرجعُ إلىٰ جامع الغمري ، وربما واظبنا علىٰ مثل ذلك الأسبوع كاملاً لا يذوقُ طعاماً ولا شراباً غير الورق والشرب من البركة ، ولم أجد في عصره أحداً من العلماء يفعلُ مثلَ ذلك .

وكان رضي الله عنه إذا أعطاه أحدٌ شيئاً وشكَّ فيه يشتري به حطباً للطعام ، أو صابوناً لغسيل الثياب ويقول : إنه أهونُ من الأكل والشرب من حيث الحساب .

وكان رضي الله عنه لا يتركُ قيامَ الليل في شتاء ولا صيف ، ويأمرني بذلك ، فربما كنتُ أقوم الليل بكلِّ القرآن في ركعةٍ .

وكان مواظباً علىٰ قراءة الأوراد والأذكار الواردة في سائر الأحوال سفراً وحضراً في أوقاتها ، لا يكاد يخلُّ منها بشيء إلا لمرضٍ ، رضي الله عنه

مات رضي الله عنه في سنة نيّفٍ وخمسين وتسع مئة[١] ، ودفناه في مقبرة الفقراء المتعلِّقة بزاويتنا خارج باب النصر رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٥١٢) شيخنا الإمامُ العلامة ، المحققُ الصالح ، الزاهد الصوفي المحدِّث الشيخ شمسُ الدين الدَّواخلي[٢]

نسبةً إلىٰ محلة الداخل[٣] ، قريباً من المحلة الكبرىٰ .

أخذ العلم عن شيخ الإسلام زكريا ، وعن شيخ الإسلام الشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، وعن الشيخ كمال الدين الطويل ، وعن الشيخ شمس الدين بن قاسم ، وعن الشيخ شمس الدين الجوجري ، وعن الشيخ فخر الدين المقسي ، وعن الشيخ عبد الرحيم الأَبناسي ، وعن الشيخ شمس الدين بن المغربل ، وخلائق .

ودرَّس العلومَ بجامع الغَمْري وغيره ، وانتفع به خلائقُ لا يُحصون .

وكان مخصوصاً بالفصاحة في قراءة الحديث وكتب الرقائق والسير ، يقولُ سامعُهُ : ما سمعت أحداً ألذَّ قراءةً منه .

وكان حلوَ اللِّسان ، كثيرَ الأدب ، كريمَ النفس ، جميلَ المعاشرة ، كثيرَ العبادة وقيام الليل .

وكان لا ينامُ في شيء من ليالي رمضان كلِّها .

وكان قلبُهُ خزانةً للعلوم الشرعية .

وصحب سيدي الشيخ أبا العباس الغَمْري وغيرَهُ من أولياء العصر .

وكان يُصبح وجهُهُ كلَّ ليلة كأنه قطعةُ شمس أو قمر من كثرة قيام الليل .

---

(١) ذكره ابن العماد في « الشذرات » (١٠/ ٤١٣) ، ضمن وفيات سنة (٩٥١هـ) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٦٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٣٠) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٢٨) (٤) .

(٣) الداخل : من القرى القديمة ، حسنة ، لها بساتين وجنات ، حُرِّفَ اسمها إلى الدواخلية . « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ١٥) .

لازمتُهُ نحو عشرين سنة ، فما أظنُّ أن كاتبَ الشمال كتب عليه خطيئةً واحدةً من شدَّة ضبط لسانه .

وكان كثيرَ البكاء من خشية الله ، يحبُّ الخمولَ وعدمَ الشهرة إلىٰ أن مات رضي الله عنه سنة تسعٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بتربة دجاجة ، خارج باب النصر رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥١٣) شيخُنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ جلالُ الدين السُّيوطي رحمه الله[١]

قد كان رضي الله عنه يقول : (قد أشاع الناسُ عني أنني ادَّعيت الاجتهادَ المطلق كأحدِ الأئمة الأربعة ، وذلك باطلٌ عني ، إنما مُرادي بذلك المجتهد المنتسب ؛ فإن **الاجتهادَ علىٰ نوعين :**

أحدهما : المجتهد المطلق المستقلُّ : وهـٰذا النوعُ قد فُقِدَ من القرن الرابع ، ولا يُتصوَّر وجوده الآن ، ولم يدَّعه أحدٌ بعد الإمام الشافعي رضي الله عنه إلا ابن جرير خاصة .

النوع الثاني : المجتهد المطلق المنتسب : وهـٰذا هو المستمرُّ إلىٰ أن تقوم الساعة ، وفي أصحاب الشافعي من أهل هـٰذا النوع كثيرٌ ؛ كالمزني ، وابن سريج ، والقفَّال ، وابن خزيمة ، وابن الصباغ ، وإمام الحرمين ، وابن عبد السلام ، وتلميذه ابن دقيق العيد ، والشيخ تقي الدين السُّبكي ، وولده عبد الوهاب ؛ فإنه كتبَ مرَّةً لنائب الشام : أنا مجتهد الدنيا على الإطلاق ، لا يقدر أحدٌ يردُّ عليَّ هـٰذه الكلمة ؛ فكلُّ هـٰؤلاء مجتهدون منتسبون ، وكذلك القولُ في أصحاب الإمام مالك ؛ كابن وهب

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (٤/ ٦٥) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٢٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٧٤) ، و« البدر الطالع » (ص ٣٦٧) ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/ ٣٠) (٥) .

وأضرابه ، بلغوا الاجتهاد المُطلق في مذهب مالك ، وكذلك أبو يوسف ومحمد بلغا الاجتهاد المطلق ، قال الشيخ جلال الدين : ومع ذلك فلم يخرج هٰؤلاء عن تبعيَّتهم لإمامهم ، فمن أنكر الاجتهاد مطلقاً فهو جاهل . انتهىٰ .

فنزِّل يا أخي هٰذا علىٰ ما تنقله عنه في شأن الاجتهاد كذلك .

وقد كان الشيخُ جلالُ الدِّين رحمه الله تعالىٰ علىٰ قدم السلف الصالح من العلماء العاملين ، والأكابر من العارفين .

وكان رضي الله عنه له مكاشفاتٌ غريبةٌ ، وخوارقُ وعلومٌ جمَّة ، ومصنفاتٌ جيدة كثيرةُ الفوائد .

أرسل لي ورقةً مع والدي بإجازته لي بجميع مروياته ومؤلفاته ، ثم لما جئتُ إلىٰ مصر قُبيل موته اجتمعت به مرةً واحدةً ، فقرأتُ عليه بعضَ أحاديث من الكتب الستة ، وشيئاً من « المنهاج » في الفقه تبرُّكاً ، ثم بعد شهر سمعتُ ناعيَه ينعي موته ، فحضرتُ الصلاة عليه عند الشيخ أحمد الأباريقي بالروضة عقبَ صلاة الجمعة ، وفي سبيل المؤمنين ، وعند الجامع الجديد بمصر العتيق ، رضي الله عنه .

بعض مناقب السيوطي رحمه الله تعالىٰ :

وقد جمع الشيخ عبد القادر الشَّاذليُّ بعضَ مناقبه في جزءٍ ، وهٰأنا ملخِّصٌ لك عيونَهُ ، فأقول وبالله التوفيق :

كان الشيخ جلال الدين رحمه الله مجبولاً على الخصال الجميلة : من صفاء الباطن ، وسلامة السريرة ، حَسَنَ الاعتقاد ، زاهداً ، ورعاً ، مجتهداً في العلم والعمل ، لا يتردَّدُ إلىٰ أحد من الأمراء والملوك وغيرهم مدَّةَ حياته رضي الله عنه .

وكان يُظهر كلَّ ما أنعم الله تعالىٰ به عليه من العلوم والأخلاق ، ولا يكتم منها إلا ما أُمِرَ بكتمه ؛ عملاً بقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحىٰ : ١١] .

وكان من لا يعرفُ مقصدَهُ يقول : فلان عنده دعوىٰ عظيمة ، وسيأتي ما يشهدُ له أوائل خاتمة هٰذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

وكان رضي الله عنه يُفتي بتحريم الاشتغال بعلم المنطق ، وينقلُ تحريمَ ذلك عن

شيخه علم الدين البُلقيني ، وألَّفَ كرَّاسةً في ذلك سمَّاها « الغيث المُغدق في تحريم المنطق » وكتبه جماعة ، قال : وهـٰذه الواقعةُ من أول وقائعي التي قام الناسُ عليَّ فيها .

وكان يقول : (ينبغي للمدرِّس أن يقرأ سورة : « تبارك الذي بيده الملك » وسورة « الإخلاص » و« المعوذتين » و« الفاتحة » كلما أراد أن يُدرِّسَ) ، وينقلُ فعل ذلك عن شيخ الإسلام علم الدين صالح البُلقيني رحمه الله .

وكان يقول : (أخذتُ علمَ الحديث عن ست مئة نفس) .

وقد نظمَهُم في أرجوزةٍ قال : (وهم أربعُ طبقات :

الأولىٰ : من يروي عن أصحاب الفخر بن البخاري ، والشرف الدمياطي ووزيره ، والحجَّار ، وسليمان بن حمزة ، وأبي نصر بن الشيرازي ، ونحوهم .

الثانية : من يروي عن السراج البُلقيني ، والحافظ أبي الفضل العراقي ، ونحوهما ، وهي دون التي قبلها في العلوِّ .

الثالثة : من يَروي عن الشرف بن كويك ، والجمال الحنبلي ، ونحوهما ، وهي دونَ الثانية .

الرابعة : من يروي عن أبي زُرعة العراقي ، وابن الجزري ونحوهما ، وهـٰذه لتكثير العدةِ ، وتكبير المعجم ، ولم أروِ عنها شيئاً لا في الإملاء ، ولا في التخريج ، ولا في التأليف) .

وصنَّفَ رحمه الله في مكةَ لما حجَّ وجاور كراسةً علىٰ نمط « عنوان الشرف »[1] في يوم واحدٍ ، يحتوي علىٰ نحوٍ ، ومعانٍ ، وبديع ، وعروض ، وتاريخ .

وكان يقولُ : (لما حججتُ شربتُ ماءَ زمزم علىٰ نيَّة أن أكون في الفقه كالشيخ سراج الدين البُلقيني ، وفي الحفظ للحديث كالحافظ ابن حجر) .

---

(١) عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي : لشرف الدين ابن المقري إسماعيل اليمني المتوفىٰ سنة (٨٣٧هـ) كتاب بديع في مجلد صغير . انظر « كشف الظنون » (٢/ ١١٧٥) .

وكان يقول : (انقطع إملاءُ الحديث بالديار المصرية بعد الحافظ ابن حجر عشرين سنة ، فابتدأت في إملاء الحديث مُستهلَّ سنة [اثنتين][١] وسبعين وثمان مئة في جامع ابن طولون) ، قال : (وأولُ من أملى الحديثَ فيه الربيعُ بنُ سليمان صاحبُ الإمام الشافعي رضي الله عنه) .

قال : (وإنما اخترتُ الإملاء يومَ الجمعة بعد الصلاة اتباعاً للحفَّاظ المتقدِّمين ؛ كالخطيب البغدادي ، وابن السمعاني ، وابن عساكر ، خلافَ ما كان عليه العراقي ، وولده ، وابنُ حجر ؛ فإنهم كانوا يُمْلون يوم الثلاثاء) .

قال : (وكان في بداية إفتائي سنة إحدىٰ وسبعين وثمان مئة ، وخالفني أهلُ عصري في خمسين مسألة ، فألَّفتُ في كلِّ مسألةٍ مؤلفاً بيَّنتُ فيه وجهَ الحق) .

قال : (ولما بلغتُ مرتبةَ الترجيح لم أخرج في الإفتاء عن ترجيح النووي وإن كان الراجحُ عندي خلافَهُ .

ولما بلغتُ إلىٰ رتبة الاجتهادِ المطلق لم أخرج في الإفتاء عن مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، كما كان القفَّال يُفتي بعد بلوغه درجةَ الاجتهاد المطلق ، فكان يُفتي بمذهب الإمام الشافعي ، لا باختياره ، ويقول : السائلُ إنما سألني عن مذهب الإمام الشافعي ، لا عمَّا عندي أنا من العلم ، مع أني لم أخترْ شيئاً خارجاً عن المذهب إلا يسيراً جداً ، وبقيَّةُ ما اخترتُهُ هو من المذهب ؛ إما قول آخر للشافعي ؛ قديم أو جديد ، أو وجه في المذهب لبعض أصحابه ، وكل ذلك راجع إلى المذهب ، وليس بخارج عنه) .

وله من المؤلفات أربع مئة وستون مؤلفاً ، مذكورة في كتاب « فِهْرِسْت » كتبه ، من عشر مجلدات إلىٰ ما دونها ، وانتشرت مؤلفاته في البلاد الحجازية ، والشامية ، والحلبية ، وبصرىٰ ، والروم وبلاد التكرور ، والمغرب ، والهند ، واليمن ، وغيرها

وكان يقول : (مما أنعمَ اللهُ به عليَّ هـٰؤلاء الجماعة الذين انتصبوا لعداوتي

---

(١) في النسخ : (اثنين) .

وآذوني ؛ وذلك ليكون لي أسوةٌ بالأنبياء والمرسلين ، وقد كان أبو الحسن الشاذليُّ يقول : لمَّا علمَ اللهُ عزَّ وجل ما سيُقال في أنبيائه وأصفيائه من الزُّور والبهتان قضىٰ علىٰ قوم بالشقاء ، فنَسَبُوا له زوجةً وولداً ، ونسبوا الأنبياء إلى السحر والجنون ، حتىٰ إذا ضاقَ ذرعُ الوليِّ من كلام قيل فيه نادته هواتفُ الحقِّ : أما تَرضىٰ أن يكونَ لك أسوةٌ بي وبأنبيائي فيما نُسب إليَّ وإليهم من البهتان ، فهناك يسكنُ قلبُ الولي ، فالحمدُ لله ربِّ العالمين) .

وكان يقول : (قد رزقني اللهُ التبحُّرَ في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع علىٰ طريقة العرب والبلغاء ، لا علىٰ طريقة المتأخرين من العجم وأهل الفلسفة) .

قال : (ودون هـٰذه السبعة في المعرفة : أصولُ الفقه ، والجدل ، والتصريف ، والفرائض ، والإنشاء ، والترسُّل ، والقراءات ، والطب ، والحساب) .

وكان يقول : (قد بلغتُ مقامَ الكمال في جمع آلات الاجتهاد المطلق المنتسب ، وصرَّحتُ بذلك تحدُّثاً بنعمة الله عز وجل ، لا فخراً بالدنيا ، وأيُّ قدر للدنيا حتىٰ يُطلبَ تحصيلها بالفخر ، وقد أزف الرحيل ، وبدأ الشيبُ ، وذهب العمر ، ولو أني أردتُ أن أكتب في كلِّ مسألة مُصنَّفاً يحتوي علىٰ أدلَّتِها وتفاصيلها وفروعها لفعلتُ ، كلُّ ذلك بفضل الله لا بحولي وقوتي) .

وكان يقول : (قد استنكرَ جماعةٌ بلوغي مرتبةَ الاجتهاد المطلق في الفقه والحديث والعربية ؛ لظنِّهم انفرادي بذلك بعد الأئمة المجتهدين ، وغاب عنهم أنها كانت مجتمعةً في الشيخ تقيِّ الدين السُّبكي رحمه الله ، وقبله جماعةٌ اتَّصفوا بالاجتهاد المطلق ؛ لـٰكن في الفقه فقط ، وأما الجامعون بين هـٰذه الثلاثة علوم فقليلٌ ، ولم تجتمع في أحد بعد السُّبكي غيري) .

قال : (ولا يُظَنَّ أن من لازمِ المجتهد المطلق : أن يكونَ مجتهداً في الحديث ، مجتهداً في العربية ؛ لأنهم قد نصُّوا علىٰ أنه لا يشترطُ في الاجتهاد المطلق التبحُّرُ في العربية ، بل يكتفىٰ فيها بالتوسُّط .

ونصُّوا في الحديث علىٰ ما يؤدِّي إلىٰ مثل ذلك ، والاجتهاد في الحديث : هو المرتبةُ الذي إذا بلغها الإنسان سُمِّي في عرف المحدِّثين بالحافظ ، وقد وُصِفَ بالاجتهاد المطلق من لم يُوصف بالحافظ ؛ كالشيخ أبي إسحاق الشِّيرازي ، وأبي نصر ابن الصباغ ، وإمام الحرمين ، والغزالي ، وقد روىٰ هـٰؤلاء في مؤلفاتهم أحاديثَ احتجُّوا بها وهي مُنكرةٌ نبَّه عليها ابنُ الصلاح وغيره ؛ كالنووي .

فعُلم : أن خفاءَ بعضِ الأحاديث لا يقدحُ في مقام الاجتهاد ، إذ ليس من شرط المجتهد أن يُحيطَ علماً بكل حديث في الدنيا ، وقد علَّقَ الإمامُ الشافعيُّ الأخذَ بعدَّة أحاديث خفيتْ عليه علىٰ صحَّتها بعده وقد صحَّتْ عند غيره ، بل وقعَ ذلك لأكابر الصحابة ؛ كعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه ، فكان يقضي بأشياءَ تُخالف الحديثَ حتىٰ يُحدِّثوه بها ، فيرجع عن أقضيته) .

قال : (وقد بلغ الشيخُ أبو محمد الجُويني رتبةَ الاجتهاد المطلق ، وألَّفَ كتابه « المحيط » والتزم فيه الوقوفَ مع الحديث وعدم التقيد بالمذهب ، فوقع للإمام البيهقيِّ منه ثلاثةُ أجزاء في حياة المصنف ، فتعقب فيه أوهاماً حديثية ، وأرسلَ بذلك إلى الجويني ؛ من جملتها : الشيخُ أهلٌ أن يجتهدَ ويتخيَّرَ ، ولـٰكن يحتاجُ إلىٰ ثبوت الحديث الذي احتجَّ به ؛ فإنه غيرُ ثابت ، فانظر كيفَ سلَّمَ له رتبة الاجتهاد مع خفاء أمر تلك الأحاديث عليه) .

قال : (وقد كان سراجُ الدين البُلقيني مُجتهداً مُطلقاً ، وكان من حفَّاظ الحديث أيضاً ، ووصفه تلميذُهُ الحافظ ابنُ حجر بالحفظ ، وذكرَهُ في « طبقات الحفَّاظ » ، ولـٰكن لم يكن في الرتبة العليا من الحفظ والتعديل ، كان معاصرُهُ الحافظُ أبو الفضل العراقي أحفظَ منه ، وأجلَّ في الفنِّ الحديثي والنقد بكثير ، وكانت عربيَّةُ البلقيني وسطىٰ ، وأما بقيَّةُ من جاءَ من المجتهدين بعد السُّبكي إلى اليوم فلم يكن فيهم من يبلغ رتبة البُلقيني في الحديث ، وأما قبل السُّبكي فاجتمعَ الاجتهادُ في الأحكام والحديث لخلق ؛ منهم ابنُ تيمية ، وابن دقيق العيد ، والنووي ، وقبله أبو شامة ، وقبله ابن الصلاح ، وأما قبلَه من المتقدمين فكثيرٌ جدّاً .

وأما الاجتهادُ في العربية فلم يجئ بعد ابنِ هشام من يصلحُ لأن يُوصف به غيري ،

إلا ما بلغني عن الغماري ، وقبل ابن هشام خلائقُ ؛ كأبي حيان ، والأُبَّذي[١] ، وابن الضائع[٢] ، وابن مالك) .

قال : (وغالبُ الناس لا يعرفون الاجتهاد في الحديث والعربية ، وإنما يعرفون الاجتهاد في الشريعة فقط ، وقد قال الإمامُ الرازي في « المحصول » ما نصُّه : « المعتبرُ في الإجماع وكلِّ فنٍّ مَنْ كان من أهل الاجتهاد في ذلك ، وإن لم يكونوا من أهل الاجتهاد في غيره ») انتهىٰ .

وألَّف الشيخُ كتباً في بيان شروطِ الاجتهاد المطلق ؛ منها : « إرشاد المهتدين إلىٰ نصرة المجتهدين » ، ومنها : « تيسير الاجتهاد وبيان ما له من الاستناد » ، ومنها : « الردُّ علىٰ من أخلد إلى الأرض ، وجهل أن الاجتهادَ في كل عصر فرض » ، وأطال في ذلك .

ثم قال : (فالعبرةُ في مسائل الكلام بالمجتهد في الكلام ، وفي مسائل الفقه بالتمكُّن من الاجتهاد في مسائل الفقه ، فلا عبرةَ بأهل الكلام إذا تكلَّموا في الفقه ، ولا بأهلِ الفقه إذا تكلَّموا في علم الكلام ؛ بل من تمكَّنَ في الاجتهاد في الفرائض دون المناسك يُعتبر وفاقه وخلافه في الفرائض دون المناسك) .

وقال أبو الحسين البصري : (لا يجوزُ التقليدُ في أصول الفقه ، كما لا يجوز الاجتهادُ في أصول الدين ، ولا يكون كلُّ مجتهد فيه مصيباً ، بل المصيبُ فيه واحدٌ ، بخلاف الفقه في الأمرين) . قال : (والمخطئ في أصول الفقه غير معذور ، بخلاف الفقه ؛ فإنه معذورٌ غيرُ ملوم ، فهـٰذه ثلاثُ قواعد خالف فيها الفقه ؛ لأن أصولَ الفقه ملحقٌ بأصول الدين ، ومطالبه قطعية) انتهىٰ . فانظر يا أخي إلىٰ كلام الإمام وأبي الحسين كيف أطلقا الاجتهادَ والمجتهد في أصول الفقه وسائر الفنون .

ثم قال : (ولنتكلم علىٰ هـٰذه الاجتهادات الثلاث :

---

(١) في النسخ : (الأبدي) بالدال ، والصواب بالذال : الأبذي ـ نسبة إلى أُبَّذة بالأندلس ـ : علي بن محمد بن محمد نحوي من أحفظ الناس بكتاب سيبويه ، والواقفين على غوامضه ، توفي سنة (٦٨٠هـ) . انظر « بغية الوعاة » (٢/ ١٩٩) .

(٢) في النسخ : (الصائغ) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وهو : علي بن محمد ابن الضائع الإشبيلي عالم بالعربية شرح «كتاب سيبويه» و«جمل الزجاجي» ، توفي سنة (٦٨٠هـ) .

فأما الاجتهادُ في العربية : فهو أن يحيط بنصوص أئمةِ الفنِّ من سيبويه إلىٰ زمانه هـٰذا ، ويحفظ غالبَ شعر العرب الذين يحتجُّ بأشعارهم في العربية ، ولا يضرُّ خفاءُ بعض ذلك عليه ، وليس المرادُ حفظها عن ظهر قلب ، وإنما المرادُ أن يكون له اطِّلاعٌ علىٰ دواوينهم ، بحيث يعرفُ محلَّ الاستدلال بذلك من الكتب ، ويكون مع ذلك مُحيطاً بقواعد النحاة التي بنوا تصرُّفاتهم عليها ، غير القواعد المذكورة في واضحات الكتب ؛ فإن تلك كالأصول لهـٰذه القواعد ، وهـٰذا لا يعرفُهُ الآن إلا مُتبحِّرٌ في الفن) .

قال : (وقد ألفتُ في هـٰذه القواعد كتاباً يجمع أصولَ النحو علىٰ مصطلح قواعد الفقه .

وأما الاجتهاد في الحديث : فقال الحافظ المِزِّي : أقلُّ مراتب الحافظ أن يكون الرجالُ الذين يعرفُهم ويعرفُ تراجمَهم وأحوالَهم وبلدانهم أكثرَ من الذين لا يعرفهم ؛ ليكونَ الحكمُ للغالب ، وأما ما يُحكىٰ عن المتقدِّمين من قولهم : كنا لا نعدُّ صاحبَ حديث من لم يكتب عشرين ألف حديث ، فهو بحسب زمانهم .

وكان الحافظ ابنُ حجر يقول : « الشروط التي إذا اجتمعتْ في الإنسان سُمي حافظاً هي الشهرةُ بالطلب ، والأخذ من أقوال الرجال ، والمعرفة بالجرح والتعديل ، والمعرفة بطبقات الرواة ومراتبهم ، وتمييز الصحيح من السقيم ، حتىٰ يكونَ ما يستحضرُهُ من ذلك أكثرَ مما لا يستحضره ، مع استحضارِ الكثيرِ من المتون ، فهـٰذه الشروط من جمعها فهو حافظ ») .

قال : (وكان الحافظُ ابنُ حجر يحفظُ ما يزيد علىٰ مئة ألف حديث ، وكان الشيخ عثمان الديمي يحفظ عشرين ألف حديث) .

قال : (وأما أنا فأحفظ مئتي ألف حديث ، ولو وجدتُ أكثرَ لحفظته ، ولعله لا يوجد علىٰ وجه الأرض الآن أكثرُ من ذلك .

وأما الاجتهاد في الفقه : فقد ألَّفنا فيه كتباً) .

قلت : وله رضي الله عنه سبعُ سؤالات أوردها علىٰ علماء العصر ، ولم يجيبوا عليها ، وهي : (ما يقول علماء عصرنا [المدعون][1] للعلم والفهم في هـٰذه الأسئلة

(١) في النسخ : (المدعين) .

المتعلقة بألف باء تاء ثاء. . . إلىٰ آخرها ؟ وما هـٰذه الأسماء ؟ وما مسماها ؟ وهل هي أسماءُ أجناس أو أسماء أعلام ؟ فإن كان الأول : فمن أيِّ أنواع الأجناس هي ؟ وإن كان الثاني : فهل هي شخصيةٌ أم جنسية ؟ فإن كان الأول : فهل هي منقولةٌ أو مُرتجلة ؟ وإن كان الأول : فممَّ نُقلت ؟ أمن حروف ، أم أفعال ، أم أسماء أعيان ، أم مصادر ، أم صفات ؟ وإن كانت جنسيةً : فهل هي من أعلام الأعيان أو المعاني ؟

السؤال الثاني : من وضع هـٰذه الحروف ؟ وفي أيِّ زمنٍ وضعت ؟ وما مستندُ واضعها ؟ هل هو العقل أو النقل ؟

الثالث : هل هـٰذه الحروف مختصةٌ باللغة العربية أم عامة في جميع اللغات ؟

الرابع : هل الألفُ والهمزة مترادفان ، أم مفترقان ؟ وعلى الثاني : فما الفرقُ ؟ وأيُّهما الأصل ؟

الخامس : لِمَ أجمع علماءُ اللغة والعدد وغيرهم من المتكلمين على المفردات على الابتداء بحرف الهمزة ؟ وهل هو أمرٌ اتِّفاقيٌّ أو لحكمة ؟

السادس : كلماتُ أبجد هوز. . . إلىٰ آخرها : هل هي مهملةٌ أو مستعملة ؟ وما عني بها ؟ وما أصلها ؟ وكيف نقلت إلى المراد بها ؟ وما ضبطُ ألفاظها ؟

السابع : ما حكمُها في الابتداء والوقف ، والمنع والصرف ، والتذكير والتأنيث ، والإعراب والبناء ، والنقط والرسم ، وعند التسمية بها ؟ وما حكمُها شرعاً عند نقشها علىٰ ثوب أو بساط ، أو حائط أو سقف ؟ وهل لها من الحرمة ما للحروف المجتمعة أم لا ؟

فمن أجابَ عن هـٰذه الأسئلة فهو من الرجال ، وإلا فلا مزيةَ له على الأطفال ، ومن عجزَ عن معنىٰ ألف باء تاء ثاء فلا ينبغي له أن يقرِّرَ أبحاثاً) ، انتهىٰ ما نقلته من خطِّه رحمه الله[1]

وكان الشيخ شمس الدين الداودي يقول : (عاينت الشيخَ وقد كتب في يوم واحد ثلاثةَ كراريس تأليفاً وتحريراً ، وكان مع ذلك يُملي الحديث ، ويُجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة من غير تكلُّف) .

---

(١) وقد أجاب على هذه الأسئلة وشرحها الشيخ أبو بكر بن إسماعيل الشنواني، المتوفى سنة (١٠١٩هـ) .

وكان يقول : (ما أجبتُ قطُّ عن مسألة جواباً إلا وأعددتُ جوابها بين يدي الله إنْ سُئلت عنه) .

وكان إذا عارضَهُ أحدٌ في أجوبته يردفُها بأجوبةٍ غيره حتىٰ يبهرَ العقولَ .

وغسَلَ قُبيل موته عدَّةَ كُتبٍ لا يعلم أهلُ عصره لها نظيراً .

وسرقَ بعضُ المعاصرين له كتاباً ونسبه لنفسه ، ولم يكن عند الشيخ غيره ، فألَّفَ كتاباً في ذلك سمَّاه : « البارق في قطع يد السارق » ثم قال : (ولعمري ؛ إن المؤلِّفَ إنما يطلبُ أجرَهُ من الله في تأليفه ، فكيف يطلب أجرَ ما لم يعمله ؟!) .

وكان رضي الله عنه أعلمَ أهل زمانه بعلوم الحديث وفنونه ، حافظاً متقناً ، يعرفُ غريبَ ألفاظه ، واستنباط الأحكام منه .

وقد بيَّضَ ابنُ حجر لعدَّةِ أحاديث لم يعرف من خرَّجَها ولا مرتبتها ، فخرَّجَها الشيخُ وبيَّن مرتبتها ؛ من حسنٍ وضعيفٍ ، وغير ذلك .

وأخبرني الشيخ سليمان الخضيري الصوفي قال : (أرسلَ شيخُ الإسلام الأوجاقي معي عدَّة أحاديث بيَّضَ لها الحفاظُ ولم يعرفوا مرتبتها إلى الشيخ جلال الدين ، وقلبَ رواتها ، فردَّهم الشيخُ إلىٰ من لهم رواية عنه ، وبيَّن مرتبتها ، فذهب شيخُ الإسلام إليه ، وقبَّل يده وقال : واللهِ ؛ ما كنتُ أظنُّ أنك تعرف شيئاً من هـٰذا ، فاجعلني في حلٍّ ، فطالما تغديت وتعشَّيت بلحمك ودمك) .

وأخبرني الشيخ سليمان أيضاً قال : (بينما أنا جالسٌ في الخضيرية علىٰ باب الإمام الشافعي رضي الله عنه إذ رأيتُ جماعةً عليهم بياضٌ ، وعلىٰ رؤوسهم عِمامة من نور يقصدوني من ناحية الجبل ، فلما قربوا مني فإذا هم النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُهُ ، فقبَّلتُ يدَهُ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : امض معنا إلى الروضة ، فذهبتُ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ بيت الشيخ جلال الدين ، فخرج إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقبل يده ، وسلم علىٰ أصحابه ، ثم أدخله الدار وجلس بين يديه ، فصار الشيخ جلال الدين يسألَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن بعضِ الأحاديث وهو يقول له : هات يا شيخ السُّنة) انتهىٰ .

وذكر لي الشيخُ عبد القادر الشاذلي رحمه الله عن الشيخ : أنه رأىٰ هـٰذه الرؤيا بعينها وقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : هات يا شيخ الحديث كما سيأتي .

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يُجيب السائلَ على البديهة ، ثم يقول : الذهنُ خوَّان ، افتحِ الكتابَ الفلاني ، وعدَّ من الصفحة الفلانية كذا كذا سطراً تجدِ المسالةَ إن شاء الله كما قلتُ لك ، فيفتح الكتاب ، فيجد الأمرَ كذلك .

وكان رضي الله عنه يقول بنجاة أبوي النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وأنهما في الجنة ، ووافقَهُ علىٰ ذلك مِن أهل عصره الشيخ عثمان الديمي ، وخالفه الحافظ السخاوي ، وصنَّفَ الشيخُ جلال الدين في ذلك ستَّ مؤلفات ، وذكر فيها مَنْ وافقَهُ علىٰ ذلك من الحفَّاظ .

وكان رضي الله عنه يجتمعُ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم يقظةً .

وأخبرني الشيخُ عبد القادر الشاذلي : أنه رأىٰ بخطِّ الشيخ جلال الدين ورقةً كتبها لبعض أصحابه حين سألَهُ أن يقضيَ له حاجةً عند السلطان الغوري : يا أخي ؛ إني أرى النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقظةً ، وأخافُ أن أُجالسَ الغوري ، فيحجبَ عني عقوبةً لي ، ولـٰكن أسأل لك النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، قال : فقلت له : يا سيدي ؛ فكم رأيتَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقظةً ؟ فقال : بضعاً وسبعين مرة .

قال : وقد ألف الشيخُ كتاباً سماه : « تنوير الحلك في إمكان رؤية النبيِّ والملَك » ، وذكر فيه من كان يجتمعُ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم وبالملَكِ في اليقظة لا في المنام من الأولياء والصحابة والعلماء ، ولم يذكر شيئاً مما ذكره في هـٰذه الورقة التي ذكرناها .

وكان رضي الله عنه يقول : رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقظةً ، فقال لي : يا شيخَ الحديث ، فقلت له : يا رسول الله ؛ أمنْ أهل الجنة أنا ؟ فقال : نعم ، فقلتُ : من غير عذاب يسبق ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لك ذلك .

وكان الشيخُ عطية الأبناسي يقول : قال لي الشيخُ جلالُ الدين لما سألتُه يقضي لي حاجةً عند السلطان ، يا عطية ؛ إني أجتمعُ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم يقظةً ، وأخافُ

أن أجتمعَ به فيحتجب عني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لي : اكتمْ عني ذلك ، ولا تخبر به إلا بعد موتي .

قال الشيخ قاسم المالكي الإمام بمقام الإمام الشافعي رضي الله عنه : (ومراد من قال : إنه رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقظةً انكشافُ حجاب القلب ، وليست كرؤية أحدنا صاحبه الآن) ، فالله أعلمُ بالحال .

وأخبرني خادمُ الشيخ جلال الدين ـ وكان اسمه محمدَ بنَ علي الحبَّاك ـ قال : لما وقعتْ فتنة الشيخ برهان الدين البُقاعي في إنكاره على سيدي عمر بن الفارض قال لي الشيخُ جلال الدين : قم بنا إلى زيارة سيدي عمر ، وكان ذلك وقتَ القيلولة ، فزرناه ، وطلعنا للشيخ عبد الله الجيوشي فوقَ الجبل ، فوجدنا الظلَّ تحت حائط الزاوية نحو ذراع ، فجلسنا ساعةً ، فقال لي : نريدُ نُصلي في مكة صلاةَ العصر بشرطِ أن تكتمَ ذلك عليَّ حتى أموت ، فقلت له : نعم ، فأخذ بيدي وقال لي : غمِّض عينيك ، فغمَّضتُهما ، فرمل بي نحو سبع وعشرين خطوة ، ثم قال لي : افتح عينيك ، فإذا نحن بباب المعلى ، فزرنا أمَّنا خديجة ، والفضيل بنَ عياض ، وسفيانَ بن عيينة ، وغيرَهم .

ثم دخلنا الحرمَ ، فطفنا وشربنا من ماء زمزم ، وجلسنا خلف المقام حتى صلينا العصر ، وطفنا وشربنا من ماء زمزم ، ثم قال لي : يا فلان ؛ ليس العجب من طيِّ الأرض لنا ، وإنَّما العجب من كون أن أحداً من أهل مصر المجاورين لم يعرفنا .

ثم قال : إن شئتَ تمضي معي ، وإن شئتَ تقيم حتى يأتي الحاجُّ ، فقلت : بل أذهبُ مع سيدي ، فمشينا إلى باب المعلى ، وقال لي : غمِّض عينيك ، فغمَّضتهما ، فهرول بي سبع خطوات ، ثم قال لي : افتحْ عينيك ، ففتحتُهما فإذا نحن بالقرب من الجيوشي ، فنزلنا إلى سيدي عمر ، فركب الشيخُ حمارته ، وذهبنا إلى بيته في جامع طولون . انتهى .

قلت : ورأيتُ الشيخَ مرَّةً ومعه مفاتيحُ كثيرةٌ ، فأعطاها لي وقال : هـٰذه مفاتيح علومي ، فخذها لك .

وأخبرني شيخُنا الشيخُ أمين الدين الإمام بجامع الغَمْري قال : سمعتُ الشيخ جلال

الدين يقول في سنة عشرٍ وتسع مئة : (اسمع مني هـٰذا الكلام ، ولا تخبرْ بذلك أحداً حتىٰ أموت ، فقلت له : نعم ، فقال : يدخلُ سليمُ بنُ عثمان مصرَ افتتاح سنة ثلاث وعشرين ، وتنقرضُ بياضاتها من ذوي البيوت سنة ثلاثٍ وثلاثين ، فلا يصيرُ أحدٌ يُسأل الله منهم شيئاً فيجاب ، وتخرب خراباً وسطاً سنة سبعٍ وخمسين ، ويقفُ خراجُ غالب رزقها ، وتخربُ خراباً أشدَّ من ذلك سنة سبعٍ وستين) انتهىٰ .

قلت : وسمعتُ أنا هـٰذا الكلام من الشيخ أمين الدين سنةَ خروج السلطان الغوري لقتال السلطان سليم ، فأخبرتُ بذلك بعضَ العلماء الذين كانوا يُنكرون على الشيخ جلال الدين ، فقال : هـٰذا أمرٌ لا يجوزُ تصديقه ، فلما قُتل الغوري ودخل عسكرُ السلطان افتتاح سنة ثلاث وعشرين ، وصاروا يحرقونَ أبواب بيوت الجراكسة ، ويقتلونهم ، ويسبون حريمهم ، فقال لي الشيخ أمين الدين : اذهبْ إلىٰ ذلك المُنكر فقل له : انظرْ صدقَ ما أخبر به الشيخ لم يخط يوماً واحداً ، فقال بكل شيء فيه ، وهو يرعدُ : هـٰذا موافقةُ قدر ، فرددتُ جوابَهُ على الشيخ أمين الدين ، فتبسَّم وقال : وانشقاقُ القمر للنبيِّ صلى الله عليه وسلم بقدرِ الله عز وجل أيضاً ، وإنما المعجزةُ فيه إجابةُ الحقِّ سؤالَهُ والانتصارَ له ، وكذلك القول في كرامات الأولياء ، ثم قال : يا سبحان الله ! والحسدُ يؤدي إلىٰ هـٰذا كلِّهِ ؟

قلت : وقد صدقَ الشيخُ في العلامة الثانية والثالثة أيضاً ، ووقف غالبُ خراج رزق مصر في سنة سبع وخمسين ، وبقيت العلامةُ الرابعة ، والله أعلم .

وأخبرني الشيخ عبدُ القادر الشاذلي قال : لما بلغَ الشيخُ جلال الدين أربعين سنة أخذَ في التجرُّدِ للعبادة ، والانقطاع لله عزَّ جل ، والاشتغالِ به صرفاً ، والإعراض عن الدنيا وأهلها ، حتىٰ كأنه لم يعرف أحداً منهم ، وشرعَ في تحرير مؤلفاته ، وتركَ الإفتاء والتدريس ، وألَّفَ في ذلك كتاباً سماه : « التنفيس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس » ، وأقامَ في روضة مقياس النيل ، فلم يتحوَّل منها إلىٰ أن مات .

وبلغنا : أنه لم يفتح طاقاتِ بيته التي علىٰ بحر النيل مدَّةَ سكناه .

وكانتِ الأمراءُ والأغنياء يأتون إلىٰ زيارته ، ويُعرضون عليه الأموالَ النفيسة ، فيردُّها .

وأرسل له السلطانُ الغوري خَصِياً وألفَ دينار ، فردَّ الألفَ ، وأخذ الخَصيَّ ، فأعتقه ، وجعله خادماً في الحجرة النبوية ، وقال لقاصده : لا تعدْ تأتينا قطُّ بهديةٍ ؛ فإنَّ الله قد أغنانا عن مثل ذلك .

وقالوا له مرَّةً : إن بعض الأولياء كان يتردَّدُ إلى الملوك والأمراء في حوائج الناس ، فقال : اتِّباعُ السلف الصالح في عدم تردُّدِهم أسلمُ لدين المسلم ، وكذلك في ردِّ أموالهم عليهم .

وأخبرني الشيخ أمينُ الدين : أن الشيخ جلالَ الدين طلع للسلطان قايِتْباي في حادثةٍ وعلىٰ رأسه الطيلسان ، فقال له السلطان : أنت مالكيٌّ حتىٰ تلبس الطيلسان ؟! لظنِّه أنه خاصٌّ بالمالكية ؛ لكونه كان لا يطلعُ له بالطيلسان إلا القاضي المالكي فقط ، فقال له الشيخ : هـٰذه عادة حدثتْ قريباً ، وكان في الزمن الماضي الطيلسانُ خاصّاً بالشافعي إلىٰ أيام الشيخ تقيِّ الدين السبكي ، فطال بينهما الكلام ، فقال الشيخُ للسلطان : الطيلسانُ سُنَّةٌ في كلِّ مذهب ، لا يختصُّ بالمالكية ، فقال : هـٰذا تكبُّرٌ وتجبُّر ، وبالغ في النكير ، فقال له الشيخ : معاذ الله ! بل هو سنةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ولم أُؤاخذِ السلطانَ علىٰ ذلك ؛ لكونه كان محذوفاً عليَّ من بعض القضاة[1] ، ثم إنه تأدَّب معه في آخر المجلس ، وانصرف .

فلما كان بعد أيام بلغ الشيخَ أن إمامه إبراهيمَ الكركي قال له : ليس الطيلسانُ سُنَّةً ، ولو كنتُ حاضراً عند قوله : (إنه سنة) لقلتُ له : يعني : سنة اليهود ، فقال الشيخ : بل هو يكفرُ لردِّه سنَّةً ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم إن الشيخ جلال الدين صنَّفَ كتاباً حافلاً سماه : « الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان » ، ثم إن السلطان مرضَ مرضاً أشرفَ فيه على الموت ، وطلعَ له العلماء وغيرُهم يهنئونه بالسلامة ، فلم يطلعِ الشيخُ إليه ، فأرسل له قاصده يطلبُه ، فأبىٰ ، فأوقد ابنُ الكركي عليه النار ، وقال : هـٰذا عاص لله ولرسوله في عدم إجابة وليِّ الأمر .

---

(١) الحذف : الرمي والقذف .

قال الشيخ : ثم إن السلطان أرسلَ قاصدَه إليَّ يُخوِّفني بأمورٍ يوقعها فيَّ ، فقلتُ لقاصده : قل له : إن لك سلطاناً نيفاً وعشرين سنة ما رأينا منك سوءاً ، فإن لم ترجع عني وإلا توجَّهت فيك لرسول الله صلى الله عليه وسلم يحكمُ بيني وبينك ، فسكتَ حتىٰ طلعَ مشايخُ الإسلام يهنئونه بالشهر ، فاستفتاهم عليَّ في عدم الطلوع له لسلوكي طريق السلف في ذلك ، فما منهم أحدٌ نصرَ الحقَّ ولا قال بما يلزمُهُ ؛ من أن عدم دخول العلماء على الملوك سنة ، ولا قال هو سنةُ السلف الصالح ، فعَزلتُ نفسي من سائر الوظائف التي لهم عليها ولاية ، وألَّفتُ في ذلك كتاباً سميته : « ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين » .

فلما بلغَ السلطانَ ذلك شقَّ عليه ، وأرسل إليَّ أميرآخور كبير[1] ، وتمراز أمير كبير ، والإمام الذي يُصلي بالسلطان بكلام طيب ، يطلبوا مني الطلوعَ ، فلم أُجبهم ، وأرسلت للسلطان رسالةً سمَّيتها : « الرسالة السلطانية » ، فيها جملةٌ من الأحاديث الواردة في منع العلماء من التردُّدِ للسلاطين ، فلما قرأها عليه أمير كبير قال السلطان : واللهِ ؛ لو أنَّ الشيخَ هـٰذا أخذ الآن عَصاً وضربني لأذعنتُ له ولم أُقابله ، فساء ذلك ابنَ الكركي ، وأخذ يُغري السلطان عليَّ[2] ، فرجع عن قوله الأول ، وصار يتوعَّدُني بالقتل ، فقال لي شيخُ الإسلام الشافعي : لا بأس بأن تتلافىٰ خاطرَ السلطان ؛ بإرسال كلامٍ طيِّب علىٰ لسان أمير كبير ، فإننا نخافُ عليك من السلطان ، فقلت له : إني متمسِّكٌ بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزالُ طائفةٌ منْ أمتي ظاهرينَ على الحقِّ حتىٰ يأتيَ أمرُ اللهِ ، لا يضرُّهمْ مَنْ خذلهمْ »[3] ، ثم إني توجَّهت فيه إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فمرض بعد يومين ، واشتدَّ به المرضُ إلىٰ أن مات بعد أيام . انتهىٰ .

قلتُ : ولما عمَّرَ السلطانُ الغوري مدرستَهُ ومدفنه القبة الزرقاء بعث للشيخ

---

(١) أمير آخور : رئيسُ الإصطبل ، ومُروِّضُ الجياد .

(٢) في (ز) : (يقوي) بدل (يغري) .

(٣) رواه البخاري (٧٣١١) عن سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، دون لفظ : « لا يضرهم من خذلهم » ، ورواه مسلم (١٩٢٠) بلفظ المؤلف عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه .

بمشيختها ، فلم يقبلْ ، فقال : نرتِّبُ لك جوالي كلَّ شهرٍ[١] ، فلم يقبل ، وكان يعتقدُهُ اعتقاداً عظيماً .

ولما قامَ عليه صوفيةُ الخانقاه والبيبرسية ، وكان قال لهم : إنكم لستم بصوفية ، وإنما الصوفيُّ من تخلَّق بأخلاق الأولياء ، كما يشهدُ لذلك كتابُ « الحلية » لأبي نُعيم و« رسالة القشيري » وغيرُهما من الكتب ، ومن يأكلُ المعلومَ بغيرِ تخلُّق بأخلاقهم أكلَ حراماً .

فلما اشتدَّ الأمرُ وسعوا في قتله عند السلطان ، قال الشيخ : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أني منصورٌ عليهم ، ولم يتغيَّرْ منه شعرةٌ ، ثم إن جميع من قام على الشيخ حصلَ له مقتٌ بين العباد ، ومات علىٰ أسوءِ حالٍ .

وقد رأيتُ أنا بعيني مَنْ صار ينصِبُ علىٰ من يبيعُ الدجاج والمآكل[٢] ، ويدخلُ بها بيته ، فلا يعودُ يخرجُ حتىٰ يتعبَ صاحبُها ، وييئسَ من ثمنها ، ويأكلَها حراماً سُحتاً .

وبعضهم ابتُلي بالإنكار على العلماء والأولياء ، حتىٰ ظهرت عليه أمارات الشقاء عند الموت من عقد لسانه عن الشهادتين[٣] ، وزرقة عينيه ، وسواد جبهته ، نسألُ الله العافية .

ولما أجَّجوا النارَ على الشيخ عند السلطان العادل ، وقالوا له : إنه يحط عليك كثيراً ، فقال : لئن رأيتُهُ لأقطعنَّه قطعاً قطعاً ، فقال الشيخ : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أن رأسَه تُقطع في يوم كذا وكذا ، فكان الأمرُ كما قال ، لم يتخلَّفْ يوماً واحداً ، وصدق الشيخ .

قال الشيخ عبد القادر : وامتُحن الشيخ بمحن كثيرة ، وما سمعتُهُ يوماً واحداً يدعو علىٰ من آذاه من الحسدة ، ولا يُقابله بكلمة سوءٍ ، وإنما يقولُ : حسبنا اللهُ ونعم الوكيل ، وصنَّفَ في ذلك كتاباً سماه : « تأخير الظلامة إلىٰ يوم القيامة » .

---

(١) **الجوالي** : الأجر الشهري .

(٢) **النصب** : الخديعة والاحتيال .

(٣) **عقد لسانه** : أي : عجز عن الكلام .

وأخبرني الشيخُ بدر الدين بنُ الطباخ نفع الله به قال : لما قامتْ صوفيةُ البيبرسية على الشيخ جلال الدين ، وصنف فيهم كتاباً سألوني أن أُعارضَه بكتاب ، فشرعت تلك الليلة فيه ، وإذا بورقةٍ نزلتْ في حِجري في الليل ، مكتوبٌ فيها : عبدي يا مؤمن ؛ لا تؤذِ أحداً ممن عمل بسنتي ، فرجعتُ عن التأليف ، وعلمتُ أن الشيخَ جلال الدين محقٌّ .

وكان الشيخُ تقيُّ الدين الأوجاقي يحطُّ على الشيخ جلال الدين كثيراً لما أملى الحديث ، وكان يقول : ما بقي يُعجبني أحدٌ يُملي الحديثَ بعد شيخنا الحافظ ابنِ حجر ، فحضر يوماً إملاءَ الشيخ جلال الدين ، فاعترفَ بفضله واستغفر ، وقال : الأمور لله يُعطي العلمَ لمن يشاء ، لا تحجيرَ ، ولم يزل يعترفُ بفضله إلىٰ أن مات .

ومناقبُ الشيخ كثيرةٌ مشهورة ، ولو لم يكنْ له من الكرامات إلا إقبالُ الناس في سائر أقطار الأرض علىٰ كتابة مؤلفاته ومطالعتها . . لكان كفايةً ؛ لما اشتملتْ عليه من العلوم والمعارف .

فممَّ انفرد به من التأليف ولم يُسبق إليه كتاب : « المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة » ، و« أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب » ، وكتاب « تزيين الأرائك في إرسال نبيِّنا إلى الملائك » ، وكتاب « نشر العلمَيْنِ في إحياء الأبوين »[1] ، وكتباً كثيرة تُعلم من كتاب « الفهرسة » .

مات رضي الله عنه في سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جُمادى الأولىٰ سنة إحدىٰ عشرة وتسع مئة ، وكان مرضُهُ سبعةَ أيام بورمٍ شديد في ذراعه اليسار ، يقال إنه : خلط أو انحدار ، وقد استكملَ من العمر إحدىٰ وستين سنة وعشرةَ أشهر وثمانية عشر يوماً .

وكان له مشهدٌ عظيم ، ودفن بحوش قوصون خارجَ باب القَرافة ، رضي الله عنه ، وقبرُهُ ظاهرٌ ، وعليه قبة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) واسم الكتاب كاملاً : (نشر العَلَمين المنيفين في إحياء الأبوين الشريفين) .

ومنهم :

(٥١٤) شيخُنا وقدوتُنا إلى الله تعالىٰ ، شيخُ مشايخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصاري رضي الله عنه[١]

شارح « البهجة »[٢] و« الروض » ، وغير ذلك .

انتهت إليه الرياسةُ في مصر ، حتىٰ إنه لم يبق في مصر أواخر عمره إلا طلبتُهُ أو طلبةُ طلبتِهِ .

وقرئ عليه « شرح البهجة » سبعاً وخمسين سنة في حياته ، حتىٰ حُرِّرَ أتمَّ تحرير ، ولم يُنقل ذلك عن أحد من المؤلفين ، وغالبهم يموتُ عقبَ مؤلفاته من غير تحرير .

وكان رضي الله عنه مهيبَ المنظر ، مع أنه إذا رآه الإنسانُ امتلأ أنساً ، وذلك من علامة ولايته ؛ فإن الهيبةَ قلَّ ما تجتمع مع الأنس في شخص .

وكان يُدرِّسُ في علم الفقه والتصوف .

وطالعتُ له لما كُفَّ مدةَ عشر سنين كأنها من طيبها كانت سِنَةً ؛ لكوني ما كنتُ أجدُ عند غيره ما أجدُ عنده ، بل أقول : طوبىٰ لعين نظرته في عمرها مرَّةً واحدة .

وكان رضي الله عنه مقبلاً علىٰ ربِّه على الدوام ، لا تكادُ تجدُهُ غافلاً من عبادة ربِّه لحظةً واحدةً .

وكنتُ إذا أصلحتُ شيئاً في الكتاب الذي أقرؤه عليه يصير يقول بخفض صوت : الله الله !

ولا يمكثُ غافلاً عن الذكر لحظة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٣٤٨/٢) (٣٤٦) ، وسترد في « ذيل الطبقات » (٤٦/٥) (٦) .

(٢) البهجة : للعلامة ابن الوردي ، نظم فيها « الحاوي الصغير » للقزويني مع زيادات ، واسم الشرح : « الغرر البهية في شرح البهجة الوردية » .

وكان يشرحُ كلامَ أهل الطريق على أتمِّ حال ، ويُجيب عنهم الأجوبة الحسنة إذا أشكلَ على الناس شيءٌ من كلامهم .

وكان يقول : (إن الفقيه إذا لم يكن له معرفةٌ بمصطلح ألفاظ القوم فهو حاف ؛ كالخبز الحاف من غير إدام) .

ولما وقعت فتنة البُقاعي في كلام سيدي عمر بن الفارض خطب للسلطان خطبة بليغة[١] ، وبيَّن فيها : أن من لا يعرفُ مصطلحَ القومِ لا يجوزُ له أن يتكلَّمَ في حقِّهم بشيءٍ[٢] .

وكان يُلقِّنُ الذكر ، ويُلبسُ الخرقة .

وكان رضي الله عنه من أهل الهمم العالية ، ورأيتُهُ بعد بلوغ عمره أكثرَ من مئة سنة يُصلي النوافلَ حالَ مرضه قائماً ، فيصير يميلُ يميناً وشمالاً ، لا يتمالكُ أن يقفَ من غير ميلٍ ، فقلتُ له يوماً : مثلُكم لا يُكلِّفُه اللهُ تعالى الصلاةَ قائماً ، فقال : يا ولدي ؛ النفسُ من شأنها الكسل ، وأخافُ أن تغلبني ، فأختم عمري بذلك .

وكان إذا طوَّل عليه أحدٌ في الكلام يقول : عجِّل ، فقد ضيَّعتَ علينا الزمان .

ومكثتُ أتغذى معه مدة عشر سنين ، فما كان يزيدُ على ثلث رغيف من خبز خانقاه سعيد السعداء .

وكان يقول : (إنما خصصتُها بالأكل من خبزها ؛ لكون صاحبها كان رجلاً صالحاً) ، وذكرَ أنه عمَّرها بإشارة النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

وكان إذا حضر عنده أكابرُ العلماء يُخفونَ في نوره ، حتى كأنهم بين يديه أطفال ،

---

(١) في (أ ، ز ، ط) : (رجع السلطان إلى فتيا الشيخ دون جميع الأشياخ) بدل (خطب للسلطان خطبة بليغة) .

(٢) في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٤٧) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٠٣) : (أرسل السلطان إلى العلماء ، فكتبوا بحسب ما ظهر ، وامتنع الشيخ زكريا ، ثم اجتمع بالشيخ محمد الإستنبولي ، فقال لي : اكتب وانصر القوم ، وبيَّن في الجواب أنه لا يجوز لمن لا يعرف مصطلح القوم أن يتكلم في حقهم بشرٍّ) .

وكانت هيبتُهُ فوقَ هيبة السلطان ، وقد جالستُ السلطان الغوري والسلطان طومان باي بعد الغوري فكانت هيبةُ الشيخ ترجحُ علىٰ هيبتهما .

وكان رضي الله عنه كثيرَ الكشف ، لا يكاد يخطرُ في قلبي شيءٌ بين يديه إلا قال لي : قل ما في نفسك .

وكنت إذا حصلَ عندي صداعٌ في رأسي ، وتأوَّهتُ وأنا أطالعٌ له يقول لي : انو الاستشفاء بالعلم يذهب ، فإذا نويتَ ذلك شُفيت ببركة إشارته ، لا ببركة إخلاصي ، وهـٰذا دليل علىٰ إخلاص الشيخ في العلم ؛ فإن الإنسانَ لا ينوي الشفاءَ بعمل لا إخلاص فيه ، بدليل الثلاثة الذين دعوا الله بصالح أعمالهم لما انحدرتْ عليهم الصخرةُ ، فسدَّتْ عليهم فمَ الغار[1]

وأخبرني بأنه من حين كان شاباً وهو يحبُّ طريقَ الصوفية ، ويحضرُ مجالسَ ذكرهم ، حتىٰ كان الأقران يقولون : زكريا لا يجيء منه شيءٌ في طريق الفقهاء ؛ لكوني كنتُ مكبّاً علىٰ مطالعة رسائل القوم ، مواظباً علىٰ مجالس الذكر ، بحيث كان يذهب غالبُ الوقت في ذلك .

وأخبرني أنه سافر من مصر إلىٰ سيدي محمد الغمري في المحلة الكُبرىٰ ، وتلقَّن عليه ، وأقام عنده أربعين يوماً ، وقرأ عليه كتاب : « قواعد الصوفية » له كاملاً ، ثم رجع إلىٰ مصر .

وأخبرني رضي الله عنه أنه دخل مرَّةً علىٰ سيدي محمد الغمري الخلوةَ علىٰ غفلة ، فرأىٰ له سبعَ عيون ، قال : فلما بهتُّ منه قال لي : يا زكريا ؛ إن الرجلَ إذا كمل صارَ له عيون بعدد أقاليم الدنيا .

قال : (ودخلتُ عليه مرةً أخرىٰ ، فرأيته متربِّعاً في الهواء ، قريباً من سقف الخلوة) .

قال ولما اشتغلتُ بالعلم ، وبرعت فيه بحمد الله شرحتُ « البهجة » فلما أتممتُ

---

(١) وكان هـٰؤلاء النفر من بني إسرائيل ، روىٰ حديثهم البخاري (٢٢١٥) ، ومسلم (٢٧٤٣) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

شرحَها غارَ بعضُ الأقران ، فكتبَ على بعض نسخ الشرح : كتاب الأعمى والبصير ؛ تعريضاً بأني لا أقدرُ أن أشرح « البهجة » وحدي ، وإنما ساعدني فيه رفيقٌ أعمى ، كنتُ أطالعُ أنا وإياه ، فاحتسبت بالله ، ولم ألتفت إلى مثل ذلك ؛ اقتداءً بإمامي الشافعي رضي الله عنه في قوله : « أحبُّ أن يقرأَ الناسُ هذه العلوم ولا يُنسب إليَّ منها شيءٌ ») .

قال : (وكان تأليفي لـ « شرح البهجة » في يوم الاثنين أو الخميس ؛ لكونهما ترفعُ فيهما الأعمال ، كما ورد في الحديث[1] ، وكان تأليفي له فوقَ سطح الجامع الأزهر) .

قال : (وكان وقتي رائقاً من الكدورات النفسانية ؛ لقلة علائقي في الدنيا ، وكان ظاهري بحمد الله محفوظاً من الأعمال الرديئة ، وكنت قليلَ اللهو واللعب ، قليلَ الذهاب إلى مواضع التنزهات ، وما سكنتُ قطُّ بيتاً على بحر ولا خليج ، ولكن كان الطلبةُ إذا أرادوا رؤيةَ البحر أذهبُ بهم إلى ناحية مسجد الآثار ببركة الحبش ، فنجلس على البحر ، ويقرؤون دروسَهم هناك) .

قال : (وكنتُ أعومُ البحرَ إلى ذلك البر كلَّ سنة مرة ؛ خوفاً أن ينفك إدماني على العوم ؛ فإنه كمالٌ في الرجل والمرأة) .

قال : (وكنتُ مجابَ الدعوة ، لا أكاد أدعو على من ظلمني إلا ويقصمه الله تعالى ، ولا لمريض إلا شفاه الله عز وجل ، فلما اشتَهر ذلك عني أشارَ عليَّ بعضُ الفقراء بستر حالي) .

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يحكي لي شيئاً من أحواله ، ثم يقول : يا ولدي ؛ اكتم ذلك أيامَ حياتي ؛ فإني لم أَنطقْ بذلك إلا لك ، فيحصل لي بذلك غايةُ السرور حيث جعلني محلاً لموضع أسراره .

---

(١) روى الحديث مسلم في « صحيحه » (٢٥٦٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « تُعرض الأعمال في كل يوم خميس واثنين ، فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً ، إلا امرأً كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقال : اركُوا هذين حتى يصطلحا ، اركُوا هذين حتى يصطلحا » ، ومعنى اركُوا : أخِّروا .

وقال لي مرَّةً : هل هنا أحدٌ غيرك ؟ فقلت : لا ، فقال : أُريد أذكر لك بداية أمري لتحيطَ بذلك علماً ، فقلت له : نعم ، فقال : جئت من البلاد إلىٰ جامع الأزهر وأنا شابٌّ ، فلم أعكف على الاشتغال بشيءٍ من أمور الدنيا ، وكنتُ إذا جعتُ في الجامع ، واشتدَّ عليَّ الجوعُ أخرج في الليل إلى الميضأة ، فأغسل قشيرات البطيخ الذي حولَ الميضأة وآكلها ، وأقنعُ بها عن الخبز ، فأقمتُ علىٰ ذلك الحال سنين .

ثم إن الله عز وجل قيَّضَ لي شخصاً من أولياء الله تعالىٰ كان يعملُ في الطواحين في غربلة القمح ، فكان يتفقَّدني ، ويشتري لي ما أحتاج إليه من الأكل والشرب والكسوة والكتب ، ويقول : يا زكريا ؛ لا تُخفِ عني من أحوالك شيئاً ، فلم يزل معي كذلك عدَّة سنين ، فلما كان ليلةٌ من الليالي أخذ بيدي ، وأتىٰ بي إلىٰ سلَّم الوقادة الذي في صحن جامع الأزهر ، فقال لي : اصعدْ هـٰذا الكرسيَّ ، فصعدتُ ، فلا يزل يقول لي : اصعد إلىٰ آخر درجة ، ثم قال لي : انزل ، فنزلت ، ثم قال لي : يا زكريا ؛ إنك تعيشُ حتىٰ يموتَ جميعُ أقرانك ، ويرتفعُ شانُك ، وتتولَّىٰ شيخَ الإسلام مدةً طويلة ، ثم انقطعَ عني ، فلم أره بعد ذلك إلىٰ يومي هـٰذا . انتهىٰ .

وكانت أولُ شهرة الشيخ بالصلاح أيام السلطان خُشْقَدَم ، وذلك أنه كان في باب النصر رجل مشهور بالصلاح ، وكان السلطان إذا رآه يقول له : ادعُ لنا ، فيقول له : إذا كان لك حاجة فاسأل فيها الشيخ زكريا ، فركب السلطان إليه فزاره ، فأسرع الناس إليه ، فمن ذلك اليوم اشتَهر بالصلاح .

وقال مرةً : إنما كانتْ غلطةً ، فقلت له : ما هي ؟ فقال : توليتي للقضاء صيَّرتني وراء الناس ، مع أني كنتُ مستوراً من السلطان قايِتْباي ، فقلت له : يا سيدي ؛ إني سمعتُ بعضَ الأولياء يقول : كانتْ ولايةُ الشيخ للقضاء سترةً لحاله ؛ لما شاع عند الناس من صلاحه ، وزهده ، وورعه ، ومكاشفاته ، فقال : الحمد لله ، خفَّفتَ عني يا ولدي .

وقال لي مرةً : لما سألني السلطان في القضاء أَبَيتُ ، فغمز النقيبَ ، فأخرج لي الخلعةَ ووضعها علىٰ ظهري مفاجأة ، وطلبَ لي بغلةً أركبها ، فقلتُ : لا أُغيِّرُ حمارتي ، فركبتُ الحمارة وأنا لابسُ الخلعة ، فجاءتني البغلةُ في بعض

الطريق ، وغلبوني على ركوبها ، فركبتُها إلى البيت .

وقال لي السُّلطانُ مرةً : لقد شاورتُ نفسي أني آخذُ بلجام بغلتك ، وأمشي معك إلى بيتك ، وليَ الشرفُ بذلك .

قال : (ولم يكن أحدٌ يحمل نُصحي بالكلام الجافي الخالي من المداهنة مثلَ السلطان قايِتْباي ، لو قلتُ لأحد من علماء الزمان ما قلتُ له لعاداني طولَ عمره) .

قال : (وكنتُ إذا تعذَّر عليَّ مشافهته بالنصح أَتعرَّضُ في الخطبة لذلك الأمر خطاباً عامّاً للحاضرين ، فيلحق هو بذلك ، فإذا سلَّمتُ من صلاة الجمعة قام لي وسلَّم عليَّ ، وقال : جزاك الله تعالىٰ عنَّا في هـٰذا النصح خيراً) .

ثم لم تزلِ الحسدةُ يُوحون إلى السلطان ، ويظهرون له المحبةَ ، والتأثير من وعظي له ، وأنَّه يُرسل يمنعني من التعرُّض له في الخطبة ، حتىٰ قال لهم يوماً : فماذا أفعل ، أقولُ لشخصٍ يبصِّرُني بعيوبي : لا تعدْ تنصحني ؟!

قال : ثم إني أغلظتُ عليه يوماً في النصيحة بحضرة بعض الأمراء الأكابر ، فتطوَّرَ مني ، فتقدَّمتُ إليه ، ثم مسكتُ يدَهُ ، وقلتُ : يا مولانا السلطان ؛ إنما أعظك بأمور أعرفُ أنها تُغطي عليك ، وأخاف علىٰ جسمك هـٰذا أن يكون فحماً من فحم جهنم ، فصار السلطانُ ينتفضُ ويبكي .

وقلت له مرَّةً في الخطبة : تنبَّه لنفسك يا مَنْ ولاه اللهُ أمورَ العباد ، وتذكَّر بدايةَ أمرك وما كنتَ فيه ، وحالَكَ اليوم ، قد كنتَ عدماً فصرت وجوداً ، وكنت كافراً فصرت مُسلماً ، وكنت رقيقاً فصرتَ حرّاً ، وكنت مأموراً فصرت أميراً ، وكنتَ أميراً فصرتُ سلطاناً ، فلا تقابلْ هـٰذه النعم بالتكبُّر والتجبُّر ، وتنسىٰ مبداك ومنتهاك ، ووَضْعَ أنفِك في التراب حين تموت ، ثم يأكلُكَ الدُّودُ وتصير تراباً ، فبكى السلطان ، ثم قال لمن حوله من الأمراء : إذا أبعدتُ هـٰذا عني فمن يقولُ لي هـٰذا الوعظ .

وأخبرني يوماً أن الخضرَ عليه السلام كان يجتمعُ بسيدي علي الضرير النبتيتي ، فسأله يوماً عن أحوال علماء العصر ، فصار يقول : ونعم منهم ، فسأله عني ، فقال : ونعم منه إلا أن عنده نُفيسةً ، فقلْ له يتوبُ عنها ، ولم يعيِّنْ له الخضرُ ذلك ، فتنكرتْ

عليَّ أفعالي ، وصار عندي تطيُّرٌ من جميع أفعالي ، فأرسلتُ أقولُ لسيدي علي : إذا رأيتَهُ مرَّةً فاسأل فضلَه أن يُعيِّنَ لي النفيسةَ ؛ لأتوبَ عنها ، فرآه ، فأخبره وقال : إنه إذا كاتبَ الأمراءَ في حاجة يقول لقاصده : قلْ : هٰذا الكتاب من عند الشيخ زكريا ، فيُسمِّي نفسَهُ شيخاً ، فمن ذلك اليوم ما تلفَّظتُ بهٰذه الكلمة .

وحكىٰ لي مرةً قال : كنتُ كثيرَ الاعتكاف في خلوتي فوق سطح جامع الأزهر ، فدقَّ عليَّ رجلٌ الباب ، ففتحتُ له ، فقلت له : ما حاجتُك ؟ فقال : قد كُفَّ بصري ، ودلَّني الناسُ علىٰ فضلك تدعو لي بالشفاء ، فيردُّ اللهُ عليَّ بصري ، قال : وكان لي علامةٌ في إجابة الدعاء المجاب وغير المجاب ، فتوجَّهتُ إلى الله تعالىٰ ، فرأيتُ علامةَ الإجابة ، وخفتُ من الشهرة ، فقلت له : خذ هٰذا الدرهم ، وامض به إلى العجميِّ الذي تحت البرقوقية ، فقل له : بَعثني زكريا إليك لتُعطيني بهٰذا الدرهم توتياء حاف ، قال : فمضى الرجل ، وأخذ التوتياء ، ورجع إليَّ ، فقلتُ له : لا يردُّ الله عليك بصرَك في مصر ، وإنما يردُّه عليك في قطية[1] فسافرْ ، وإذا ردَّ بصرَك فلا ترجع إلىٰ مصر في هٰذه السنة ، قال الشيخُ : فوصل إلى القدس بصيراً ، ومكث يكتبُ مصاحفَ وكُتُبَ علمٍ ، وأرسل لي كذا كذا كتاباً بخطه ، ولم يزل بصيراً حتىٰ مات .

وكان رضي الله عنه كثيرَ الصدقة سرّاً وجهراً ، ولٰكن كانت صدقتُهُ سرّاً أكثرَ ، وما رأيتُ في العلماء والصالحين أكثرَ صدقةً منه ، كان له جماعةٌ يتصدَّقُ عليهم كفايتَهم ؛ من يومٍ ، أو جمعةٍ ، أو شهرٍ .

وكان كثيراً ما يعطي كلَّ وارد عليه يوم تهنئته بالشهر ، ولكلِّ أحدٍ مقامٌ عنده في العطاء من القضاة والعلماء ، وطلبة العلم والمساكين ؛ فمنهم من له كل رأس شهر عشرةُ أنصاف ، ومنهم من له خمسة أنصاف ، إلىٰ نصف ، إلىٰ عثماني ، وكان غالبُ الناس يعتقدُ في الشيخ قلَّةَ الصدقة من كثرة إخفائها .

وكان إذا جاءه فقيرٌ يطلبُ شيئاً ، يقول لي : هل هنا أحدٌ ، فإن قلتُ له : نعم قال لي : قل له : يأتينا في غير هٰذا الوقت .

---

(١) قطية : قرية في الطريق بين مصر والشام ، بين القنطرة والعريش . « قاموس رمزي » (١/ ٣٥٠) .

وكان فقيرٌ من الصعيد له عليه مرتب كل يوم ، فيقول له : زرتُ سيدي عبدُ القادر الجيلاني البارحة ، زرتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم البارحةَ ، زرتُ سيدي أبا الحجاج الأقصري والشيخُ ساكتٌ ، فقلت له يوماً : إنه لم يلحق يصل إلىٰ هـٰذه الأماكن ، فقال الشيخ : يحتملُ أن يكونَ صادقاً ، فإن الأمرَ مُمكنٌ ، فإن الدنيا خطوةُ مؤمن .

ورأيتُ له مرةً رؤيا حسنة ، ولم أذكرها له ، فلما جلستُ بين يديه للمطالعة في « شرح البخاري » قال لي من ذات نفسه : قفْ واذكر لي ما رأيتَ الليلة ، فقلتُ له : رأيتُ أني معكم في مركب ، وأنت جالسٌ عن يسار الإمام الشافعي ، فقلتَ لي : سلِّم على الإمام الشافعي ، فسلَّمتُ عليه ودعا لي ، والمركبُ مقلعةٌ في بحر مثل عباب النيل ، ورأيتُ المركبَ كلَّها مفروشةً بالسُّندس الأخضر ، وكذلك القلع ، وحبالهُ كلُّها حريرٌ أخضر ، ومتكآت خضر ، فلا زلنا مُقلعين حتى انتهينا إلىٰ جنينة عظيمة ، أصولُها في ساحل البحر ، وثمارُها مدلاة من شراريف الحائط(١) ، فطلعتُ أنا من المركب إلى البستان ، فرأيتُ حوراً حساناً يجنين من الزعفران في قفافٍ بيض ، علىٰ رؤوسهنَّ كلُّ قُنبعة من الزعفران قدرُها في الجرم أسباطة البلح(٢) ، فاستيقظتُ ، فقال لي : إنْ صحَّ منامُك سوف أُدفن بالقرب من الإمام الشافعي رضي الله عنه ؛ لكون المركبِ جمعتني أنا وإياه ، وكان حاضراً عندنا الشيخُ جمالُ الدين الصاني ، والشيخ أبو بكر الظاهري .

فلما تُوفي الشيخُ فتحوا له فسقيةً في باب النصر ، فقال لي الشيخ جمال الدين : أين رؤياك ؟ فقلتُ له : إن الشيخَ قال : إنْ صحت رؤياك ، فبينما نحن كذلك وقد كُفِّنَ الشيخُ ، وما بقي إلا الحمل جاءَ قاصدُ ملك الأمراء خايربك ، فقال : إن ملكَ الأمراء ضعيفٌ ، ولا يستطيعُ أن يأتي إلىٰ باب النصر ، ومقصودُهُ من فضلكم أن تحملوه لسبيل المؤمنين يُصلِّي عليه ، فحملوه للرُّميلة ، فلما صلىٰ عليه ملكُ الأمراء قال : ادفنوه عند

---

(١) الشراريف : جمع شُرَّافة : زوائد توضع في أطراف الشيء تحلية له . « المعجم الوسيط » (١/ ٤٨٠) .

(٢) القنبعة : الورقة السفلى التي تخرج الزهرة من إبطها في نباتات الفصيلة النجيلية . « المعجم الوسيط » (٢/ ٧٦١) .

الإمام الشافعي تجاه قبر الشيخ نجم الدين الخَبُوشاني المطل عليه الشباك ، قبالة وجه الإمام ، فكان الأمر كذلك .

وكانتْ جنازتُهُ مشهودةً ، ما رأيتُ أكثرَ خلقاً منها .

وقد ألبسني الخرقةَ الصوفية ، وأرخىٰ لي العذبَةَ ، ولقَّنني الذكرَ ، فبيني وبين سيدي أحمد الزاهد رجلان ؛ لأن الشيخَ أخذَ عن سيدي محمد الغمري عن سيدي أحمد ، ولا أعلمُ الآن في مصر أعلا من هـٰذا السند ؛ فإن غالبَ الناس بينه وبين الزاهد أربعُ رجال أو ثلاثة .

ولما تُوفي رضي الله عنه أظلمتْ مصرُ ؛ فإنه كان فيها كالشمس ، فطوبىٰ لعينٍ رأته مرَّةً .

مات رضي الله عنه في ذي الحجة عام نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، رضي الله عنه[1]

ومنهم :

(٥١٥) شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالىٰ ، شيخ الإسلام الشيخ برهانُ الدين بن أبي شريف الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه[2]

كان شيخاً عالماً صالحاً ، ورعاً زاهداً ، متمكِّناً في علوم الظاهر والباطن .

صحبته رضي الله عنه نحو خمس سنين .

وكان من المُقبلين على الله عز وجل ليلاً ونهاراً ، لا تكادُ تسمع منه كلمة يكتبها كاتب الشمال .

---

(١) ذكر نجم الدين الغزي في « الكواكب السائرة » (١/١٩٨) ، وفاته سنة ست وعشرين وتسع مئة .

(٢) إبراهيم بن محمد بن أبي شريف المقدسي المصري الشافعي . انظر « الكواكب السائرة » (١/١٠٢) ، و« شذرات الذهب » (١٠/١٦٦) ، وسيذكره المؤلف ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/٥٥) (٧) .

وكان لا يتردَّدُ لأحد من الولاة أبداً .

وكان الإنسانُ إذا عرض عليه محفوظاته يتلجْلَجُ من شدَّةِ هيبته ، فيباسطُ الصغير حتىٰ يسكنَ روعه .

وكان له صبَّانةٌ في القدس يُعمل فيها الصابون ، ويتقوَّتُ منها .

وكان لا يأكل من معاليم مشيخة الإسلام .

وكان قوَّالاً بالحقِّ ، آمراً بالمعروف ، لا يخافُ في الله لومةَ لائم .

وعارضه السُّلطانُ الغوري في واقعة ، فما أفلحَ بعدها أبداً ، وسُلب ملكُهُ ، فكان الناسُ يقولون : جميعُ ما وقع للغوري ببركة الشيخ برهان الدين .

توفي سنة نيف وعشرين وتسع مئة[1] ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥١٦) شيخنا الشيخ كمالُ الدين الطويل القادري ، شيخ الإسلام رضي الله تعالىٰ عنه[2]

كانتِ الأنوارُ تخفقُ علىٰ وجهه ، وكان إماماً في العلومِ والمعارف ، مُتواضعاً عفيفاً ظريفاً ، لا يكادُ جليسُه يملُّ من مجالسته .

انتهت إليه الرئاسةُ في العلم ، ووقف الناسُ عند فتاويه ، وكانت كتبُ مذهب الشافعي كأنها نُصبَ عينيه ، لا سيما كتب الأذرعي والزركشي .

وكان من أولاد الترك ، وبلغنا أنه كان في صباه يلعبُ بالحَمَام في الريدانية[3] ، فمرَّ عليه سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه وهو ذاهبٌ إلىٰ بركة الحاج ، فقال له :

---

(١) في « الكواكب السائرة » (١/ ١٠٥) ، و« شذرات الذهب » : أن وفاته : سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة .

(٢) واسمه : محمد بن علي الطويل ، وانظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٤٥) ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٥٥) (٧) .

(٣) الريدانية : موضع خارج مصر .

مرحباً بالشيخ كمال الدين شيخ الإسلام ، فاعتقدَ الفقراءُ أن الشيخ يمزحُ معه ، إذ لم يكن عليه أمارات الفقهاء ، فمن ذلك اليوم تركَ لعبَ الحمام ، واشتغل بالقرآن والعلم .

وعاش جماعةُ سيدي إبراهيم الذين ظنوا أن الشيخَ كان يمزحُ معه حين لقَّبه بشيخ الإسلام حتىٰ رأوه تولَّىٰ مشيخة الإسلام ، وظهر لهم صدقُ كلام الشيخ .

ولما دنتْ وفاةُ الشيخ كمال الدين رأيتُ سيدي إبراهيم المتبولي في المنام ، وقال : قل للشيخ كمالِ الدين يتهيَّأ للموت ، ويكثر من الاستغفار ؛ فقد دنا أجلُهُ ، فأعلمتُه بذلك ، فقال : سمعاً وطاعة ، فعاش بعد ذلك شهراً ونصفَ شهرٍ ، فانظر يا أخي ملاحظة سيدي إبراهيم له أولَ أمره وآخره .

ومناقبه كثيرة .

توفي بعد دخول ابن عثمان مصر[١] ، ودُفن بتربته خارج باب النصر قريباً من المدرسة الحاجبية ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥١٧) شيخُنا شيخ الإسلام برهان الدين القلقشندي الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

كان عالماً صالحاً زاهداً ، قليلَ اللغو والمزح ، مقبلاً علىٰ أعمال الآخرة ، حتىٰ ربما يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل .

انتهتْ إليه الرئاسة وعلوُّ السند في الكتب الستة والمسانيد والأجزاء .

وسمعت عليه بقراءة الشيخ شمس الدين المظفري « الغيلانيات »[٣] ، و« مسند

---

(١) دخل العثمانيون مصر آخر سنة (٩٢٢هـ) .

(٢) **واسمه** : إبراهيم بن علي ، وانظر « الكواكب السائرة » (١/١٠٨) ، و« شذرات الذهب » (١٠/١٤٩) ، و« النور السافر » (ص ١١٠) . وستأتي ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/٥٧) (٩) .

(٣) **الأجزاء الغيلانيات** : وهي أحد عشر جزءاً ، تخريج الدارقطني من حديث أبي بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي البزار ، المتوفىٰ سنة (٣٥٤هـ) ، وهو القدر المسموع لأبي طالب=

عبد بن حميد » ، وأجازني بمروياته كلِّها .

وكان لا يخرج من داره إلا لضرورة شرعية ، وليس له تردُّدٌ لأحد من الأكابر .

وكان إذا ركب بغلتَهُ وتطيْلَسَ يصيرُ الناسُ كلهم ينظرون إليه من الخفر والهيبة التي عليه[1] .

مات رضي الله عنه قبل دخول السلطان سليم مصر ، وكأنَّ الشمسَ كانت في مصر ، فغربتْ ، رضي الله عنه .

وكانت جنازتُهُ خاصةً بالأمراء والعلماء والصالحين ، رضي الله عنه[2]

ومنهم :

(٥١٨) شيخُنا وقدوتنا إلى الله تعالىٰ ، شيخُ الإسلام الشيخ شهاب الدين الشيشيني الحنبلي رضي الله عنه[3]

كان عالماً زاهداً ، تقيّاً نقيّاً ، عفيفاً ، متواضعاً ، طالما رأيتُهُ يُدرِّسُ العلم علىٰ نخٍّ حلفاء[4] ليس فوقه شيءٌ ، وكان إماماً في التفسير والمذهب .

وكان إذا دخل جامعاً وقتَ صلاة عصرٍ مثلاً يصعد الكرسيَّ بعد الصلاة ويتكلَّمُ علىٰ تفسير آية أو آيتين كلاماً مشحوناً بالمواعظ والزواجر ، حتىٰ يُبكي الناس ، ثم يدعو وينزل .

وكان لا يأكلُ من معاليم مشيخةِ الإسلام شيئاً .

= محمد بن إبراهيم بن غيلان البزار ، المتوفىٰ سنة (٤٤٠هـ) من أبي بكر المذكور ، وهي من أعلى الحديث وأحسنه . انظر « الرسالة المستطرفة » (ص ٩٢) .

(١) الخَفَر بفتحتين : شدة الحياء .

(٢) وكانت وفاته سنة اثنتين وعشرين وتسع مئة .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٥١) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٣٠) ، و« السحب الوابلة » (١/ ١٨٩) ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/ ٥٨) (١٠) .

(٤) تقدم شرح النخّ (٤/ ١٢٢) ، والحلفاء : وزان حمراء : نبات معروف .

ودخلتُ له مرَّةً فوجدتُه يُدوِّرُ مواسيرَ الغزل للحياكين في حارته ، ويتقوَّتُ منها ، وكذلك كان ولدُه الشيخ عزُّ الدين يفعلُ لما تولَّىٰ بعد والده مشيخة الإسلام ، وعزل وتركَ ذريّةً طاهرةً طيبة ، رضي الله عنهم .

مات سنة تسع عشرة وتسع مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه[١]

ومنهم :

(٥١٩) شيخنا الإمام العالم ، الصالح الورع الزاهد نور الدين الأشموني الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

كان متقشِّفاً في مأكله وملبسه وفرشه .

صحبته نحو ثلاثَ سنين ، كأنها كانتْ سِنَةً من حُسْنِ سمته ، وحلاوة منطقِهِ ، وقلَّة كلامه ، ولم يزل علىٰ ذلك حتىٰ مات رضي الله عنه .

نظم « المنهاج » في الفقه وشَرَحَهُ ، ونظمَ « جمع الجوامع » في الأصول وشَرَحَهُ ، وشرح « ألفية ابن مالك » شرحاً عظيماً ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٢٠) شيخ الإسلام والمسلمين ابن النقيب رحمه الله[٣]

هو الشيخ محيي الدين ، قرأ العلمَ علىٰ جماعةٍ من الأعلام ؛ منهم : الشيخ كمال الدين بن أبي شريف ، والشيخ زكريا ، وأضرابهما .

---

(١) تحرفت في « الكواكب السائرة » إلىٰ : (سبع عشرة) .

(٢) انظر « الضوء اللامع » (٦/٥) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٨٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٢٩) ، و« كشف الظنون » (١/ ١٥٣) ، و« الخطط التوفيقية » (٨/ ٧٤) ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٥٨) (٩) .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٢٥٣) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٥٦) (عبد القادر المعروف بابن النقيب) ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/ ٥٩) (١٢) .

تولَّىٰ قاضي القضاة مرات ، وكان لا يُصلي الصُّبحَ صيفاً ولا شتاءً إلا في جامع الأزهر ، يمشي كلَّ يوم من المدرسة الناصرية إليه .

وكان مُتواضعاً كثيرَ البكاء من خشية الله ، رضي الله تعالىٰ عنه

ومنهم :

(٥٢١) شيخُنا وقدوتنا إلى الله تعالى
العالم الصالح ، الورع الزاهد العابد
الشيخُ سعدُ الدين الذهبي الشافعي رضي الله عنه[١]

كان وِردُهُ كلَّ يوم ختماً شتاءً وصيفاً .

وكان خُلُقُه واسعاً إذا تجادلَ عنده الطلبةُ ، يشتغلُ هو بتلاوة القرآن حتىٰ يفرغَ جدالُهم .

وكان يقضي جميعَ حوائجه من السُّوق ويحملُها ، ولا يمكِّنُ أحداً يحملها معه ، ولم تزلِ القفَّةُ بيده إذا مشىٰ وهو يتلو القرآنَ سرّاً .

وكان لا يقبلُ من أحد صدقةً علىٰ خلاف ما عليه الفقهاء .

وكان كثيرَ الصدقة ، وأوصىٰ بمال جزيل للفقراء والمساكين ، رضي الله عنه .

مات سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة[٢] ، ودفن خارج باب النصر رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٤٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٣٠) ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٥٩) (١٣) .

(٢) في « الكواكب السائرة » : (٩٣٨هـ) أو (٩٣٩هـ) ، وفي « الشذرات » : (مات سنة ٩٣٩هـ ») .

ومنهم :

(٥٢٢) شيخنا الشيخُ الإمام ، العالم الصالح الشيخُ عبدُ الحقِّ السنباطيُّ الشافعي رضي الله عنه[١]

كان صالحاً عابداً ، مُتواضعاً ، طارحاً للتكلف .

انتهتْ إليه الرئاسةُ في الفقه والأصول وغيرِهما من العلوم .

وكنتَ إذا رأيتَهُ شهدتَ له بالصلاح قبل أن تُخالطه .

مات رضي الله عنه بمكة المشرفة ، ودفن بباب المعلىٰ رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

ومنهم :

(٥٢٣) الشيخُ الإمام ، العالم العامل الورع الزاهد ، جامعُ أشتات الفضائل الشيخُ جلال الدين البكري[٣]

والد الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه .

كان من العلماء العاملين ، وله القدمُ الراسخة في علم التصوف والفقه والأصول ، وغير ذلك .

أخذ العلم عن جماعة ؛ منهم : الشيخُ جلال الدين البكري الكبير ، وشيخ الإسلام الشيخ كمال الدين بن أبي شريف ، وشيخ الإسلام يحيى المُناوي ، وأضرابهم ، وأجازوه بالفتوىٰ والتدريس وهو ببلاد الفيوم ، فأفتىٰ بها ودرَّسَ العلوم ، وانتفع به خلائقُ لا يُحصون .

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (٤/ ٣٧) ، و« النور السافر » (ص ١٥٢) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٢١) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٤٨) ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٠) (١٠) .

(٢) وكانت وفاته سنة (٩٣١هـ) .

(٣) لم أجد له ترجمة في المصادر التي بين يدي ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦١) (١٥) .

ثم رحل إلىٰ مصر بأولاده وعياله بإشارة الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي عبد القادر الدَّشْطُوطي رضي الله عنه ، فاستخلفه علىٰ عمارة الجوامع التي عمَّرها بمصر وغيرها ، فعمرها كلَّها من فيض فضل الله تعالىٰ من حيث لا يحتسب ، واشترىٰ لها الأوقاف ، وأقام بها الشعائرَ ، ولم يشاركه أحدٌ في ذلك إلا من كان من طلبته وتحت تربيته ، فكلُّ الأماكن المنسوبة إلىٰ سيدي عبد القادر عمارةُ الشيخ جلال الدين رضي الله عنه ، وجميعُ ما فيها من الخيرات والأرزاق في صحائف الشيخ جلال الدين ؛ لأنها من كسبه واجتهاده .

وكان الشيخ غارقاً فيما هو فيه من الجذب لا يفيقُ إلا قليلاً ، فالاسمُ له والمعنىٰ للشيخ جلال الدين .

وسمعتُهُ رضي الله عنه يقول مرَّةً للشيخ جلال الدين : إياكَ أن تُدخلَ في المقام أحداً من أبناء الدنيا ، واجعلْ جميعَ وظائفه وخبزه وطعامه للفقراء والمساكين و[مكشفي] الركب(١) ، والواردين ، فامتثل الشيخ جلال الدين ذلك ، وسار في المقام سيرةً عظيمةً حتىٰ صارَ يُضرب بالمقام المثل من كثرة الاشتغال الذي فيه .

وكان لا يتناولُ منه معلوماً علىٰ نظره ، ولا يُزاحم الفقراء في الوقف .

وكان يُكرمُ كلَّ واردٍ عليه ؛ من أمير ، أو فقير ، أو غني ، أو صغير ، ويُقدِّمُ لكل واحد ما يناسبه .

وكان كثيرَ الحياء والأدب ، كريمَ النفس ، جميلَ المعاشرة ، حلو الكلام ، كأنَّ اللهَ تعالىٰ عجنَ طينةَ جسده من سائر المحاسن .

وكان يتفقَّدُ كلَّ من نام في المقام ، ويسأل عن القيام بواجبه وإكرامه ، فباتَ عنده جماعةٌ مرَّةً ، واشتروا عشاءَهم من السوق ، فتكدَّرَ غايةَ التكدير ، وكان علىٰ طريقة العرب في الكرم والنخوة والمروءة .

وكان كثيرَ الشفاعات عند الأمراء وغيرهم ، وكانوا يهابونه ويجلُّونه .

---

(١) في النسخ : (مكشفين) أو (مقشفين) بدل (مكشفي) .

وكان مهيبَ المنظر ، عليه خفرُ العلماء العاملين ، والأولياء والصالحين ، كثيرَ الصيام والقيام ، زاهداً ورعاً عفيفاً ، متقشِّفاً في ملبسه ومأكله ، لا يدَّخرُ شيئاً من الدنيا ، ولا يبيتُ علىٰ دينارٍ ولا درهم ، يكسي الفقراء والمساكين ، ويفتقدُ الأيتام والأرامل .

وكثيراً ما يغرفُ الماجور الكبير من الطعام[1] ، ويضعُهُ علىٰ باب الزاوية بعد المغرب ، فكلُّ من رآه ذاهباً إلى السوق يشتري عشاءَهُ يقول له : تعالَ ، فيغرفُ له ما يكفيه ويكفي عياله ويقول له : توسَّعْ بما كنتَ عازماً علىٰ شراء عشائك به .

وأوصافه الحسنة تجلُّ عن تأليفي ، فأسألُ اللهَ تعالىٰ أن ينفعنا ببركاته وبركات أسلافه الطاهرين ، آمين .

مات رضي الله عنه ودُفن في القبة الكبيرة التي في الجامع الأبيض ، وكانت جنازتُهُ مشهودةً .

ورأيتُه بعد موته بشهور وهو في نعشه طائراً في الهواء حتىٰ جاء إلىٰ مقام سيدي عبد القادر ، فدخلَ من شباك القبة ، فقلتُ له : يا سيدي ما لك انتقلتَ ؟! فقال : إن الفسقيةَ التي أنا فيها يدخلها الماء من بركة القرع ، فقلت ذلك لولده الشيخ أبي الحسن ، فقال لي : لعل منامَكَ [صحيح][2] ، ثم فتحَ الفسقية ، فوجدَ الشيخ عائماً بكفنه ، فعملَ للشيخ دكَّةَ خشبٍ معلَّقة[3] ، ووضعه عليها ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) **الماجور** : إناء من خزف يطبخ فيه اللحم .

(٢) في النسخ : (صحيحاً) .

(٣) **الدَّكَّة** : ضرب من العربات النقالة توضع عليها النواويس ـ الأضرحة ـ قبل نقلها إلى القبر .

ومنهم :

(٥٢٤) الشيخ الإمام ، الفقيه الصوفي النحويُّ
الشيخ شهابُ الدين الحسامي رضي الله عنه[(١)]

صحبتهُ نحوَ عشر سنين ، فما رأيتُ وقتاً دخلَ عليه وهو مُحدِثٌ ، كان دائمَ الطهارة ، كثيرَ الصمت والحياء والأدب ، يمكثُ اليومين وأكثر لا يتكلَّمُ بكلمة لغو .

وكان زاهداً ورعاً ، كثيرَ الصيام ، طويلَ القيام ، يقومُ للتهجد من أول النصف الثاني من الليل .

وكان نهارُهُ كلُّه في طاعة ؛ إما في علم ، أو قراءة قرآن ، أو قراءة أوراد .

يقول مَنْ عاشره : ما ضبطنا عليه قطُّ ساعةً هو فيها غافلٌ عن مصالح دنياه أو آخرته .

وكان لا يأكلُ شيئاً من صدقات الناس ، ولا يقبلُ هديةَ أحد من الولاة ، أو القضاة ، أو المباشرين ، أو التجار الذين لا يتورَّعون في كسبهم .

أخذ طريقَ التصوف عن جماعة ؛ منهم : سيدي الشيخ علي السمرصفي رضي الله عنه ، وكان يذهبُ إلىٰ مجلسه كلَّ يوم جمعة .

وكان رجلاً مهيبَ المنظر ، يتعمَّمُ بالقطن من غير قصارة ، وثيابُهُ قصيرةٌ على السُّنَّةِ المحمدية .

وكان يخدمُ نفسَهُ ، ويشتري حوائجَهُ من السوق بنفسه ، ولا يمكِّنُ أحداً يحملها معه .

وكان العلماءُ يرجعون إليه في المعقولات ، ويعدلونه بابن مالك ، أو ابن هشام ، رضي الله تعالىٰ عنه .

مات سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة[(٢)] ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٥٣) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٨٤) ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٤) (١٧) .

(٢) ذكرت مصادر ترجمته وفاتَهُ يوم الثلاثاء (١٥) ربيع الأول سنة (٩٢٥هـ) .

ومنهم :

(٥٢٥) الشيخُ الإمام ، العالم المحقِّق ، الورع الزاهد الشيخُ صلاح الدين القليوبي الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه(١)

صحبته عشرَ سنين ، وقرأت عليه عدَّة كتب .

وكان حسنَ الخلق ، كريمَ النفس ، يتفقَّدُ جيرانَهُ كلَّ ليلة بالطعام ، ويقوم بأيتام حارته وأراملها خارج باب النصر .

وكان من أجلِّ جماعة مولانا الشيخ زكريا وشيخ الإسلام ابن أبي شريف ، وشيخ الإسلام الشيخ كمال الدين الطويل .

وكان مهيبَ المنظر ، عليه خفرُ أهل العلم بين الأكابر .

وكان إذا خرج من بيته للصلاة يزدحمُ الناسُ عليه يتبرَّكون به .

وكان يباشر وظائفَهُ ؛ من تدريس علمٍ وغيره ، ويتصدَّقُ بمعلومها على الفقراء ، ويحسبُ الأيام التي لم يباشرها يوفِّرُها للوقف ، رضي الله عنه .

مات في سنة ثلاثين وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٢٦) الشيخ العالم الصالح الشيخ شمسُ الدين الدِّمياطيُّ الشافعي(٢)

المقيم بخانقاه سعيد السعداء .

كان محقِّقاً للعلوم ، كثيرَ البكاء من خشية الله ، زاهداً ورعاً ، عابداً ، لا يكادُ ينام من الليل إلا قليلاً .

---

(١) لم أجد له ترجمة في المصادر التي بين يدي .

(٢) لم أجد له ترجمة في المصادر التي بين يدي ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/٦٣) (١٦) .

أخذ العلم عن جماعة ؛ منهم : الشيخ زكريا ، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، والشيخ كمال الدين الطويل ، والشيخ عبد الحقِّ السنباطي ، وأخذ التصوفَ عن سيدي محمد الإستنبولي ، وعن الشيخ نور الدين الحسني .

وكان سمتُهُ سمتَ الصالحين ، وأعمالُه أعمالَ المتقين .

وكان يعيب على الفقهاء الذين يتوسوسون في ماء الطهارة ولا يتوسوسون في اللقمة ، ويقول لهم : لو عكستم الأمرَ لأفلحتم .

صحبته نحو خمس سنين ، ثم مات ، وكانت جنازتُهُ مشهودةً .

وكان عزباً لم يتزوج قطُّ ، وكان يطبخُ بنفسه ، ويفرِّقُ على جيرانه ، ويُطعم طلبته ويقول : ما أحوجني الله تعالىٰ إلى النساء ، كابدتُ العزوبةَ سنةً ، ثم ذهبتْ عني شهوة الوطء .

وكان كثير الذكر لله تعالىٰ ، لا يكادُ يغفُلُ عن قول : (الله الله) في حال درسه ، وفي حال عمله الشغل ، رضي الله عنه .

ولمَّا ماتَ أخبرَ عنه جماعات كثيرة أنه كان يَعولُهم ، فيحملُ إليهم بالليل ما يأكلون وما يلبسون ، ويأمرُهم بكتمان ذلك ، فلم يظهر الأمر إلا بعد موته ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٢٧) الشيخُ الإمام ، العالم الصالحُ
الشيخ عبد الخالق الميقاتي الحنفي رضي الله عنه[١]

صحبته نحو [خمس عشرة] سنة[٢]

وكان عالماً بمذهب الإمام أبي حنيفة ، وله الباعُ الطويل في المعقولات ، وعلم الهيئة ، وعلم التصوف .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٢٢٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٥٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٥) (١٨) .

(٢) في النسخ : (خمسة عشر) .

وكان وقتُهُ كلُّهُ معموراً بذكر الله عز وجل أو غيره من الطاعات .

وكان كريمَ النفس ، لا ينقطعُ عنه الواردون في ليلة من الليالي .

وكان للفقراء عنده في الجمعة ليلةٌ يتذاكرون عنده في أحوال الطريق إلى الصباح ، وله سماطٌ من أول رمضان إلىٰ آخره .

وكان دائمَ الصمت ، لا يتكلَّمُ إلا لضرورة ، يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ، لا تأخذُهُ في الله لومةُ لائم .

وكان علىٰ طريقة الفقراء الأقدمين ، لا يعجبه أحدٌ من فقراء الزمان وعلمائه ، ويقول : إنه لا ينبغي لأحد أن يتظاهرَ بأنه من قوم إلا إن صدقَ في طريقهم .

وكان يكره لبسَ الزِّيِّ ويقول : ليستِ الطريقُ بمثل ذلك ، وإنما كان السلفُ يلبسون الصوف والمرقعاتِ لقلة الحلال المناسب لمقامهم ، ثم يقول : وماذا يُغني لبسُ مئزرِ الصوف والجبة وصاحبُهما ينام الليلَ ويفطر النهار[١] ، ولو أنه عكسَ الأمر لكان خيراً له .

مات رضي الله عنه ودفن قريباً من جامع آل ملك[٢] ، وكانت جنازتُهُ مشهودة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٢٨) الشيخُ الصالح ، العالمُ الزاهد

الشيخ شمسُ الدين الجزيري الشافعي الغمري رضي الله عنه[٣]

كان علىٰ قدم عظيم في ضبطِ اللسان والجوارح ، لا يكادُ كاتبُ الشمال يجدُ شيئاً يكتبه الجمعةَ وأكثر .

وكان وقتُه كلُّهُ معموراً بالعلم والعمل والأوراد ، وما سمعتُهُ قطُّ يذكرُ أحداً بسوء ، ولا يأكلُ لأحد من المتهوِّرين في مكاسبهم طعاماً .

---

(١) في (ب ، ج ، د ، ك) : (يعني) بدل (يغني) .

(٢) ذكره ابن العماد ضمن وفيات سنة (٩٣١هـ) وقال : (وفيها تقريباً) .

(٣) لم أجد له ترجمة ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/٦٦) (١٩) .

وكان يحسبُ ماله ، ويخرجُ زكاته على التمام والكمال .

وكان كثيرَ الصدقة سرّاً ، ويتفقّدُ جيرانه بالطعام كلَّ ليلة .

وكان حلوَ اللسان ، كثيرَ الحياء ، كثيرَ الأدب ، كثيرَ الحلم والعلم .

وبالجملة : فقد كان عديمَ النظير في عصره ، وأوصافُه كثيرةٌ رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٢٩) شيخُنا العالمُ العلامةُ ، حافظة العصر الشيخ نورُ الدين بنُ ناصر الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه[١]

كان يحفظُ نصوصَ مذهب الشافعي وأقوالَ مقلِّديه عن ظهر قلب ، لا يحتاجُ حالُ قراءته إلىٰ نظر في كراس[٢]

وكان جميلَ المعاشرة ، حسنَ الأخلاق والشيم ، لا تكاد تجده إلا متبسماً .

وكان النورُ يخفق علىٰ وجهه ، يُدركُهُ كلُّ المؤمنين .

وكان محفوظُهُ أكثره من « الروضة » كان في تدريسه كالبحر الهدّار في العلم ، رضي الله عنه .

مات سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٣٠) شيخُنا العالم العلامة الشيخ مجلي الشافعي رضي الله عنه[٣]

كان يُفتي في المدرسة الصالحية وعلىٰ بابها عن ظهر قلب في جميع الوقائع التي يُسأل فيها ، وقلَّ أن يكشف ؛ لأن مذهبَ الشافعي كان نُصبَ عينيه ، ومكث يُفتي

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٣/ ١٧٧) ، وسيذكره المؤلف ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٦) (٢٠) .

(٢) في (أ ، ز ، ط) : (لا يحتاج إلىٰ نظر في كراس) .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (٣/ ١٧٧) ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٧) (٢١) .

الناسَ أكثر من خمسين سنة كما أخبرني بذلك في مرض موته .

وكان ورعاً زاهداً ، قليلَ الكلام ، ربما يمكثَ اليومَ كاملاً لا يتكلَّمُ بكلمة لغو[١]

وكان يشهد في الصالحية ولا يقضي ، وسألوه بالقضاءِ فأبىٰ .

وكان بيته خالياً من أمتعة الدنيا ، لا تكاد تجد فيه غير الإبريق ، ونخٌّ حلفاء[٢] مفروشٍ تحته ، وإبريق يتوضَّأُ منه .

وكان ملبسُه إذا دخلَ بيته هُديمات ، وعِمامة شراميط .

ودخلتُ عليه في مرض موته ، فقال : يا ولدي ؛ خيرُ الناس من خرج من الدنيا لم يأخذ من أجر عمله شيئاً ، لي خمسون سنة أُفتي في هـٰذه البلد ومع ذلك لم يتفقَّدني أحدٌ في هـٰذه الضعفة برغيف ، ولا بجديد ، ولا بقطعة سكر ، فالحمدُ لله رب العالمين .

مات رضي الله عنه قريباً من عشرين وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٣١) شيخُنا العالمُ الصالح ، الشيخ عيسى الإخنائي الشافعي رضي الله عنه[٣]

كان عالماً صالحاً ، ورعاً زاهداً في الدنيا ، قليلَ اللعب والغفلة وتناولِ الشهوات ، لا يبدأ أحداً بكلام إلا إن سأله عن مسألة .

وما سمعتُهُ قطُّ يغتابُ أحداً من أقرانه الذين كانوا يُؤذونه ، بل يسكتُ إذا بلغه عنهم كلامٌ ويقول : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وعرضوا عليه الدنيا فردَّها ، ورضي بأكلِ الكسر اليابسة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) في (ب ، ج ، د) : (اليومين) بدل (اليوم) .
(٢) النخُّ : فارسي معرب ؛ وهو بساط طويل ، طوله أكثر من عرضه . تقدم (٤/ ١٢٢) .
(٣) انظر « الكواكب السائرة » (٣/ ١٧٦)

ومنهم :

(٥٣٢) الشيخُ الإمام المحقق ، الشيخ شهاب الدين القسطلاني شارح « البخاري » رضي الله عنه[١]

كان عالماً صالحاً محدِّثاً مُقرئاً ، وكان من أهل الإنصاف ، كلُّ من ردَّ عليه سهواً أو غلطاً يزيدُ في محبته وتعظيمه .

ولما طالعت « شرحه للبخاري » سألني بالله أَنْ أُنبِّهَه علىٰ كل موضع وقفت فيه

ولما وضع شيخُ الإسلام زكريا رحمه الله شرحاً على « البخاري » أخبرتُهُ بذلك ، فسألني أن أحضرَ معي « بشرحه » ، فكلُّ شيء عدلَ عنه الشيخ زكريا من عبارته أكتبُهُ له في ورقة ، فكنتُ أجمعُ له في كل جمعة عدَّةَ أوراق ؛ تارةً يأتي فيأخذها ، وتارةً يُرسل عبدَهُ فأُعطيها له .

وجاءني مرةً إلىٰ باب خلوتي ، فقال : بلغني أن في يدك علامةً ، فأريتُها له ، وكان لإصبعي اليمين الخنصر أربعُ عقد ، فظننتُ أنه يريد رؤيتَهُ ، فأخذ بيدي وقبّلها سبعَ مرات ، وقال : لا تَغفُلْ عن كتابة ما يُخالفني فيه الشيخ ؛ فإنه يا ولدي لا يحرِّرُ الكتابَ إلا الطلبةُ ، وليس لي طلبة .

وكان رضي الله عنه من أزهد الناس في الدنيا ، وأحسنِهم وجهاً ، طويلَ القامة ، حسنَ الشيب ، يقرأ [بالأربع عشرة] رواية[٢]

وكان صوتُهُ بالقرآن يُبكي القلبَ القاسي ؛ إذا قرأ في المحراب يتساقطُ الناسُ من الخشوع والبكاء .

وأقام عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم سنين ، فحصل له جذبٌ ، فصنَّف « المواهب

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (٢/١٠٣) ، و« الكواكب السائرة » (١/١٢٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/١٦٩) ، و« خطط مبارك » (٦/١١) ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/٦٨) (٢٢)

(٢) في النسخ : (بالأربعة عشر) .

اللدنية » لمَّا صحا ، وأوقف خصياً كان معه على خدمة الحجرة النبوية ، رضي الله عنه .

مات رضي الله عنه في شهر ربيع الأول قريباً من العشرين وتسع مئة(١) ، ودفن في مدفن المدرسة العينية قريباً من الجامع الأزهر ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٥٣٣) شيخُنا الإمام العالم المحدث ، خطيبُ الجامع الأزهر الشيخُ شمس الدين السمنودي الشافعي رضي الله عنه(٢)

كان عالماً ، ورعاً زاهداً ، لم يأكل من معلوم وظائفه الدينية شيئاً ، إنما كان يُنفقه على العيال .

ومرض مرةً ، فلم يستنبْ في الحضور ، فردَّ معلومَ ذلك الشهر حين أتوه به .

وكان يقول : (جهدتُ أني آكل من معلوم فلم يتيسَّرْ لي ، إنما آكل من حيث لا أحتسب) .

وانتهتْ إليه الرئاسة في الفتيا بمصر مدَّةً طويلة ، ثم انتقل إلى المحلة الكبرىٰ ، فأقام بجامع سندفا(٣) ، فلم يزل يُفتي ويدرس العلم به إلىٰ أن مات سنة إحدىٰ وعشرين وتسع مئة(٤) ، ودفن بمقبرة الشيخ الطريني .

وكان لا يُفتي أبداً في الطلاق ، ويقول : إنهم ينهون في مسائل الطلاق خلاف الواقع(٥) ، فيعملوا بفتياي بالباطل ، رضي الله عنه .

---

(١) ذكره ابن العماد في وفيات سنة (٩٢٣هـ) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (١/٨٦) ، وسيذكر المؤلف رحمه الله ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/٦٩) (٢٣) .

(٣) في « الطبقات الصغرىٰ » ، و« الكواكب السائرة » : (السر) بدل (سندفا)

(٤) في (أ ، ز ، ط ، ك) : (وستين) بدل (وعشرين) ، وفي (هـ ، و ، ي) : (وثلاثين) ، والمثبت من « الطبقات الصغرىٰ » ، و« الكواكب السائرة » .

(٥) في « الكواكب » : (يسألونني) بدل (ينهون) .

ومنهم :

(٥٣٤) شيخُنا الإمام العلامةُ المحقق ، الشيخُ جمال الدين الصاني الشافعي المدرسُ بجامع الأزهر رضي الله عنه(١)

كان عالماً صالحاً مُهاباً .

قرأت عليه نحو خمس سنين ، ثم مات رضي الله عنه .

لم يزلْ يُفتي ويُدرِّس بالجامع الأزهر حتىٰ مات ، وتخرَّج به جماعةٌ كثيرة .

وهو من أجلِّ طلبة شيخنا شيخ الإسلام زكريا رضي الله عنه

وكان قوَّالاً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، يُواجه بذلك الملوك فمن دونهم ، حتىٰ أدَّاه ذلك إلى الحبس والضيق ، وهو مصمِّمٌ على الحقِّ ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٣٥) شيخُنا الإمام ، العلامة في فنون العلم الشيخ شمسُ الدين الغزِّي رضي الله عنه(٢)

كان حسنَ الصوت بالقرآن ، فجعلَه السُّلطان الغُوري إماماً في مدرسته بغير سؤال منه ، وقدَّمه علىٰ سائر علماء البلد الذين سألوا .

وكان مُهاباً لا يكادُ أحدٌ ينظر إليه إلا ارتعدَ من هيبته .

وكانوا يحذِّرون الصبيانَ الذين يعرضون عليه محفوظاتهم منه ، ويقولون لهم : لا تنظروا إلىٰ وجه الشيخ تذهلوا عن حفظكم من هيبته .

وكان صوتُهُ في المحراب غريباً لا يكاد المصلون يملون من سماعه ولو قرأ بنحو حزب .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٢٥٣) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٥١) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٧٠) (٢٥) ، والصاني : نسبة إلىٰ صانية ؛ قرية داخل الشرقية ، من أعمال مصر .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٨٢) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٩) (٢٤) .

وكان يفتي ويُدرِّس طولَ النهار على طهارة كاملة ، ولم يضبطوا عليه قطُّ غيبةً في أحدٍ من أقرانه ولا غيرهم .

وسمعتُهُ يقول مرَّةً : جميعُ أعمال العبدِ إذا قبلَها اللهُ يوم القيامة ربما لا يرضىٰ بها إنسانٌ في غيبة واحدة ، فكيف يليقُ بعاقلٍ أن يصنع بنفسه ما يؤدِّيه إلىٰ ذلك ؟! رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٣٦) الشيخ الإمامُ ، العالم العلامة ، المحدِّثُ الفقيه المقرئ الأُصولي ، النحوي الصوفي ؛ الشيخ أمينُ الدين إمامُ جامع الغَمْري بالقاهرة رضي الله عنه[١]

كان زاهداً ، ورعاً ، كريماً ، واسطةَ خيرٍ للناس في قضاء الحوائج والبرِّ والإكرام .

وكان لا يدخلُ أحدٌ مصرَ من الأولياء والعلماء إلا ويَرِدُ عليه ، ويُكرمه ويُجلُّه ؛ كسيدي محمد بنِ عنان ، وسيدي محمد المنير ، وسيدي محمد بن داود ، وسيدي أبي بكر الحديدي ، وسيدي محمد الشناوي ، وسيدي عبد الحليم ، وسيدي علي بن الجمال ، وأضرابهم .

وهو من أول من أخذتُ عنه الحديثَ ، والفقه ، والتفسير ، والأصول ، والنحو ، والسند بكتب الحديث من أهل مصر .

وكان كثيرَ الكشف والكرامات ، والاعتقاد التامَّ من الخاص والعام .

وكان وقتُهُ محفوظاً من تضييعه فيما لا ينبغي ، لا تكاد تجده قطُّ في ليل أو نهار إلا في طاعة .

وممَّا رأيتُه من كراماته : أني كنتُ أعارضُ[٢] معه في « شرح البخاري » للقسطلاني

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١١) (٣٨٥) و« الوسطىٰ » (٤/ ٢١٦) (٤٠٥) وسترد في « ذيل الطبقات » (٥/ ٧١) (٢٦)

(٢) في (أ ، ز ، ط) : (أقابل) بدل (أعارض) .

في باب جزاء الصيد ، فمررتُ علىٰ قوله فيه : (وفي التَّيْتَل عنز[1]) فقلتُ له : ما صفة التَّيْتَل ؟ فقال : إن شاء الله تراه في هـٰذا الوقت ، فما مضىٰ نحوُ درجة إلا والتَّيْتَلُ خرج من حائط الجامع ، حتىٰ وضع فمَهُ علىٰ كتفي ، فرأيتُه ، ثم خرج التَّيْتَلُ من باب جامع الغَمْري والناسُ ينتظرون صلاة العصر ، فلما انقضتِ الصلاة قلتُ لجماعةٍ كانوا هناك : أرأيتم التَّيْتَلَ الذي خرجَ من المحراب ؟ فأنكروا ذلك وضحكوا ، فقصصتُ عليهم القصَّةَ مع الشيخ ، فقالوا : هـٰذه كرامة له .

وكان يقرأ بالسبع في المحراب بصوت حسن ما سُمع في مصر مثلُهُ .

ولما وردَ قرقط أخو السلطان سليم إلىٰ مصر طلبوا له إماماً يؤمُّ به في الجمعة ، فاتفق أهلُ مصر على الشيخ أمينِ الدين ، فشاوروا السلطان الغوري عليه ، فأمره بذلك إلىٰ أن رجع إلى الروم .

وسمع قراءتَهُ في صلاة الصُّبح نصرانيٌّ من مباشري السلطان ، فطلع الجامعَ وأسلمَ ، ورقَّ قلبُهُ للإسلام من حُسْنِ صوت الشيخ ، ورأيتُهُ يصلي خلفه إلىٰ أن مات .

وكان الشيخ أبو العباس الغمري يقول : (جامعُنا هـٰذا جثةٌ ، وروحُهُ الشيخ أمين الدين) .

ومكث إماماً فيه سبعاً وخمسين سنة ما ضبطوا عليه أن الوقتَ دخل وهو علىٰ غير طهارة ، وما ضبطوا عليه قطُّ أنه نام عن قيام الليل في صيف ولا شتاء .

ورأيتُ جماعةً يأتون إليه من بيلاق يصلون خلفه الصبحَ ويرجعون ، وكذلك جماعة من الخرَّاطين بالقرب من الجامع الأزهر .

وكان يقرأ بالأنغام المختلفة في الصلاة ، لا يتكلَّفُ لها .

وكان جماعةُ السُّلطان الغوري الذين يَنشدون عنده يأتون إليه ، فيتعلمون منه الأنغام .

وكان إذا مرض يتكلَّفُ الوضوء ولا يتيمَّم .

---

(١) التَّيتل : كحيدر ، لغة في الثيتل بالمثلثة : ذكر الأروىٰ « تاج العروس » (ت ت ل) .

ورأيتُهُ ليلةَ توفي زحفَ إلىٰ ميضأة الجامع وتوضأ ، وغلبَ عليه المرض ، فوقعَ في الميضأة بثيابه وعمامته ، فطلع وثيابه تقطرُ ماءً ، فأحرم بالناس في صلاة المغرب ، وصلىٰ بهم كذلك ، ولم يترك صلاة الجماعة ، ثم ماتَ بعد صلاة العشاء تلك الليلة[١] ، رضي الله عنه .

وكان ملبسُه الثيابَ الشمط الزرق[٢] والعمامة القطن بلا قصارة .

وله هيبةٌ تؤثِّرُ في قلوب الأكابر ، ومع ذلك كان في غاية التواضع مع العميان والأرامل والمساكين ، ويقضي حاجته من السوق ، ويخبزُ الخبزَ على رأسه في الفرن ، ولا يمكِّنُ أحداً يفعلُ معه ذلك .

وكان كلُّ من رآه من الأكابر وهو حاملٌ طبقَ الخبز ينزلُ من علىٰ فرسه ، ويقبِّلُ يده ، ويُسايره ، ولا يقدرُ على الركوب حتىٰ يفارقَهُ الشيخ .

وكان يجمع الزكاة ويفرِّقُها على المحاويج ، حتىٰ يرسل لأهلي صريراتٍ إلىٰ بلاد الريف ، ولم يأكل منها شيئاً .

وكان يقول : (بمجرَّد ما أرى الفقيرَ لبس الثياب الرفيعة ، ويحبك شدَّهُ ، ودخل الحمام للترفه ، وجلس علىٰ باب الجامع ينظر الناس ، لا يبقىٰ بيني وبينه رابطةٌ) .

وكان إذا مقتَ إنساناً لا يفلحُ بعدها أبداً ، مقتَ نحو سبعةَ عشر نفساً ، فرأوا في أنفسهم العبر ، ولم يفلحوا لا في أعمال الدنيا ولا في أعمال الآخرة .

وكان كلَّ يوم يفتُّ الخبزَ اليابس ويسقيه بالشوربة ، ويجمعُ العميانَ والأيتام ويتغذّىٰ معهم ، ولا يأكلُ وحده إلا لضرورة .

---

(١) في (أ ، ج ، د ، هـ) : (صلاته العشاء) بدل (صلاة العشاء) .

(٢) قال الصغاني في « العباب الزاخر » (ش و ط) : (وصار الثوب شماطيط : إذا تشقق) .
وقال ابن السكيت في « كتاب الألفاظ » (ص ١٦٠) : (قد صار شماطيط ؛ أي : قد تخرق) .

وكان إذا قلَّ المرقُ عن تسقية الخبز يصبُّ عليه من الإبريق ويأكله .

ومناقبه كثيرةٌ مشهورة .

مات رضي الله عنه في ذي القعدة سنة تسعٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن بتربته خارج باب النصر ، رضي الله عنه .

ورأيته بعد موته ، وروىٰ لي حديثاً بالسرياني ، ففهمتُ معناه ، وهو قوله : روىٰ أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه ، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : مَنْ واظبَ على النومِ بعد الصُّبح ابتلاه الله تعالىٰ بوجع الجنب ، وكان بي وجعُ الجنب قبل ذلك ، وما كنتُ أعرفُ سببَهُ ، فتركتُ النوم بعد الصبح ، فزال الوجعُ ، مع أني ما كنتُ أنام بعد صلاة الصبح إلا يوم الجمعة ؛ لكونها ليلةَ سهرٍ من العشاء إلى الفجر .

ورأيتُهُ مرةً أخرىٰ ثاني ليلةٍ من دفنه وجبهتُهُ تقطرُ دماً حتىٰ ظهر لونُهُ من الكفن ، فقلتُ ذلك لولد ابنته الشيخِ أبي اللطف ، فقال : رؤياك صحيحة ؛ فإننا لمَّا أنزلناه القبرَ صدمَ حجرٌ جبهتَهُ ، فخرج منه الدم ، رضي الله عنه .

وإلىٰ وقتي هـٰذا ما كنتُ في شدَّة إلا ورأيته في منامي ، وحصل لي الفرجُ ، فالحمد لله رب العالمين .

ومنهم :

(٥٣٧) الشيخ الإمام ، العالم العامل ، الزاهد الصالح الشيخ نور الدين السَّنهوري الضرير إمام جامع الأقمر رضي الله عنه[١]

قرأتُ عليه عدة كتب في النحو والفقه وعلم الحديث .

وكان الخلائقُ مقبلين عليه ، ولا تقومُ طائفةٌ إلا ويدخلَ عليه أُخرىٰ ، حتىٰ إن بعضَهم يُكمِّلُ درسَهُ على السِّراج .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٧٢) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٧١) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٧٤) (٢٧) ، واسمه : جعفر نور الدين .

وألَّف عدَّة مؤلفات في القراءات ، وفي النحو ، ونظم « الآجرُّومية » على رَوِيِّ « الشاطبية » وشَرَحَها .

ورأيتُهُ مراتٍ وهو يأكلُ والناسُ يقرؤون عليه ، لا يجدُ وقتاً خالياً للأكل من كثرة اشتغال الناس عليه .

وكان له فروةُ كبش يلبسُها صيفاً وشتاءً ، مغشَّاة بثوب طرح غليظ[1] ، وكانت عمامتُهُ من غليظ المحلاوي يغسلُها مرةً في السنة .

وكنتُ إذا دخلتُ بيته أتذكَّرُ أحوالَ السلف ، ليس فيه طرَّاحةٌ ولا صندوق ، ولا شيءٌ من أمتعة أهل الدنيا .

وكان كثيرَ الصمت والخشية لله تعالىٰ ، لا تزالُ عيناه تهملُ بالدموع .

وكان يقول : (ما بقي للفقيه في هـٰذا الزمان أحسنُ من الوحدة وعدمُ التردُّد إلى الناس ، وما دام الناسُ غافلين عنه فهو بخير ، والفتنةُ كلُّها في الشهرة) .

وكان يُدمن التدفِّي بالنار في الشتاء ، حتىٰ صارت أوراكُه سوداً من ذلك ، فطلبوا أن يشتروا له شيئاً يُدفئه ، فقال : ما لي وللدنيا ، ما بقي إلا القليلُ ونقدمُ على الله وننسىٰ كل بؤس في الدنيا .

مات رضي الله عنه سنة ثلاثٍ وعشرين وتسع مئة .

ومنهم :

(٥٣٨) الشيخُ الإمام ، العالم العلامة ، المحقق ، الفقيه الصوفي المفننُ في العلوم الشيخ ملا علي العجمي[2]

الذي كان مُقيماً بتربة نائب جدِّه خارج باب القَرافة ، رضي الله عنه .

كان إماماً في الفقه والتفسير ، والمعقولات ، والتصوف .

قرأتُ عليه عدَّةَ كتب ، وانتفعتُ بصحبته .

---

(١) **الطرحة** : الطيلسان . « القاموس المحيط » (ط ر ح) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (١٧٦/٣) (منلا) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٧٥/٥) (٢٨) .

وكان كثيرَ الأدب والحياء ، كثيرَ الصمت ، لا يكادُ يتكلَّم إلا إن كلَّمَهُ أحدٌ .

وكنتُ أُشبِّهُهُ بسيدي الشيخ علي المرصفي في الهيبة والوقار .

وكان حَسَنَ الاعتقاد ، تابعاً هديَ أهل السنة والجماعة ، محبّاً لجميع الصحابة ، عابداً ، ناسكاً ، خاشعاً ، خائفاً ، مجلسُهُ كلُّه مجلسُ علم وأدب ، وحياء ووقار ، يُجيب عن الأئمة المخالفين لإمام مذهبه بأحسن جواب .

مات رضي الله عنه ، ودُفن في محلِّ إقامته خارج باب القرافة ، وكانت جنازتُهُ مشهودةً ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٣٩) الشيخ العلامة ، المحدث الفقيه الصوفي الشيخ بدرُ الدين المشهدي رضي الله عنه[1]

كان عالماً صالحاً ، كثيرَ العبادة ؛ من صيام ، وقيام ، وكفٍّ لسان ، محباً للخمول وعدمِ نشر الصيت ؛ إن رأىٰ أحداً يقرأ عليه فتحَ له ، وإلا أغلقَ باب داره ، فقلتُ له يوماً : ما أصبرَكَ يا سيدي على الوحدة ؟! فقال : من كان مجالساً لله تعالىٰ فما ثَمَّ وحدةٌ ، وقد جاوزتُ الأربعين سنةً ، وما بقي يناسبني إلا الجدُّ والاجتهاد وعدمُ الغفلة عن الله تعالىٰ .

ثم قال لي : (هكذا أدركنا الأشياخَ ، خلافَ ما عليه أهلُ هـٰذا الزمان ، يتعلَّمُ أحدُهم بعضَ مسائل ، فيودُّ أن لو عرفَ به جميعُ أهل الأرض) .

ثم قال : (يا ولدي ؛ والله ؛ إني إلى الآن في غمٍّ شديد ؛ لفقد تلك الأشياخ الذين كانت رؤيتُهم عبادةً) .

وكان يقول : (مدحُ الناس للعبد قبل مروره على الصراط كلُّهُ غرورٌ ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٢٧) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٥٩) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٧٦) (٢٩) .

ومنهم :

(٥٤٠) الشيخُ الإمام ، العلامةُ ، محقِّقُ الديار المصرية الشيخ نورُ الدين المحلِّي الشافعي رضي الله عنه[١]

كان كالجبل الراسي في كمال العقل والهيبة ، علىٰ وجهه الخشيةُ والوقار ، غزيرَ الدمعة إذا ذُكرتْ أحوالُ السلف .

وكان مشهوراً في مصر بحلِّ مشكلات العبارات في الفقه ، والأصول ، والمعاني ، والبيان ، وغير ذلك .

وتفقَّه عليه خلائقُ لا يُحصون ؛ منهم : الشيخ شهاب الدين عميرة ، والشيخ عبد الحميد السمهودي رضي الله عنهما .

ولم يزل علىٰ نعت الاستقامة من الزهد في الدنيا ، والاعتقادِ الحسن في طائفة الصوفية عكس ما كان عليه شيخُهُ الشيخُ برهان الدين البِقاعي .

وأخبرني مرَّةً أن شيخَهُ قال له : (يا ولدي ؛ إنما أُنكرُ علىٰ هـٰؤلاء القوم ؛ خوفاً علىٰ عقائد الناس أن تَتلفَ ؛ لعدم سلوكهم الطريق ، وتعذُّر معرفة كلِّ أحد اصطلاحهم في ألفاظهم ، فرأيتُ التنفيرَ عن كلامهم أحسنَ للناس وأصلحَ ، وإلا فأنا بحمد الله معتقدٌ في الشيخ محيي الدين بن عربي ، وفي سيدي عمر بن الفارض ، وبتقدير عدم الاعتقاد فيهما فإنما أنكرتُ على العبارة التي نُسبت إليهما ، وقد لا يكونُ ذلك كلامَهما ، وقد دسَّ الملاحدةُ شيئاً كثيراً في كلام الأئمة بغير علمهم) انتهىٰ .

ولما وقعتِ المحنةُ أيام السُّلطان الغوري في أمر الرجل الذي اعترف بالزنا ، ثم رجعَ ، وعَزَلَ السلطانُ فيها القضاةَ الأربع . . أرسل يسألُهُ أن يتولىٰ قاضي القضاة في مذهب الإمام الشافعي ، تغيَّر وعبسَ في وجه قاصد السلطان وقال له : قل للسلطان : إن كان عليٌّ المحلِّي ضيَّقَ عليك في مصر فهو يرحلُ عنك إلىٰ بلاد التكرور ، ولم يُجبِ السلطانَ إلىٰ ذلك ، رضي الله عنه .

---

(١) ستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٧٦) (٣٢) .

ومنهم :

(٥٤١) الشيخُ الإمام ، العالم الزاهد الصالح الشيخ شهابُ الدِّين المسيري الشافعي رضي الله عنه[(١)]

كان جبلاً راسخاً في العلوم الشرعية والعقلية ، وهو مع ذلك لا يغفُلُ عن قضاء حوائج الناس عند الأمراء والأكابر ، وكانوا كلُّهم مُنقادين له ؛ لعفَّته وزهده فيما بأيديهم ، فكم أطعمَ جائعاً ! وكم كسا عارياً ! وكم وزن مهر فقير ! وكم أوفىٰ دَيْناً !

وكان كثيراً ما يأتيه الفقيرُ يسأله في شفاعة وهو يدرسُ ، فيترك الدرسَ ، ويقومُ معه ويقول : هٰذه ضرورةٌ ناجزةٌ ، وضرورةُ الحاجة إلىٰ هٰذا العلم مُتراخية ، وقد لا يحتاج أحدٌ إلىٰ تلك المسائل التي نبحث فيها .

وكان رضي الله عنه قوَّاماً بالليل ، صوَّاماً بالنهار ، رثَّ الهيئة في الثياب مع الهيبة والوقار ، صغيرَ العمامة علىٰ عَرَقية جوخ[(٢)]

لا تكاد تجدُهُ في ليل أو نهار إلا مشغولاً في مصالح نفسه وغيره ، حتىٰ كأنَّ سَداه ولُحمته خيراً[(٣)] ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٤٢) الشيخ الإمام ، الفقيه المحدث الصوفي ، المفننُ في سائر العلوم التي بأيدي الناس اليوم ، الشيخُ أبو النجا الفُوِّي رضي الله تعالىٰ عنه[(٤)]

صحبته سبعةَ أيام ، وكان جبلاً راسخاً في علم القراءات ، وفي الحديث ، والتفسير .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/١١٧) (المنيري) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٢٨١) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/٧٧) (٣١) .

(٢) العرقية : محركة : ما يلبس تحت العمامة والقلنسوة .

(٣) السَّدَىٰ من الثوب وِزان الحصىٰ : خلاف اللحمة ؛ وهو ما يمد طولاً في النسج .

(٤) انظر « الضوء اللامع » (١١/١٤٣) ، و« بدائع الزهور » (٢/٣٠٧) ، و« كشف الظنون » (٢/١٧٥٤) ، و« طبقات المناوي » (٣/٣٤٤ ، ٤/١٩٦) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/٢٨٨) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/٧٨) (٣٢) .

كان يعظ الناسَ في جامع الأزهر وغيره ، وحضرتُ مجلسَهُ في جامع الأزهر ، ففسَّرَ من أول سورة (الهمزة) إلىٰ آخر القرآن ، وتكلَّمَ في ذلك المجلس علىٰ أربعة عشر علماً في كلِّ آية حتىٰ بهرَ العقول ، وحضرَهُ جميعُ المدرِّسين بالجامع ، وكان ذلك آخرَ مجالسه بالجامع ، ثم سافر إلىٰ بلاده ، فمات .

وكان له القبولُ التامُّ عند الخاصِّ والعام ، وكان كثيرَ الكرامات .

أخبرني سبطُه أن شخصاً عملَ له كعكَ العيد ، فقال للشيخ : نحتاج لي شيرجاً ، فأرسلَ شخصاً ، فملأ شيرجاً من البحر الذي تحت بيته في مدينة قليوب إلىٰ أن اكتفىٰ ، وقال : إني لما غرفتُ من البحر نظرتُ إلى الإناء ، وهو يسيل من جوانبه شيرجاً .

وكان إذا بلغَ أهلُ مصر أن الشيخَ وصلتْ مركبُهُ إلىٰ ساحل بولاق يذهبون إليه فوجاً فوجاً يتلقَّونه ، ويفرحون به كيوم العيد .

وفي ليلة موته شاع في بلاده أنه قُطِّبَ تلك الليلة ، فمكثَ في القُطبية دون الليلة ؛ فلذلك كان هجِّيرُ أصحابه في طريق جنازته :

هٰـــذه جنـــازة عـــاشـــق ليلـــة وصـــالـــو مـــات

ولم يزالوا علىٰ ذلك حتىٰ دُفن رضي الله عنه .

وكان كثيرَ الكشف ، لا يكادُ يخطرُ علىٰ جليسه خاطرُ سوء إلا قال له : إلزم الأدب ، فكان لا يتجرَّأُ علىٰ مجالسته إلا قليلٌ من الناس .

قلت : وأخذ عنه خلائقُ طريقَ القوم .

وكان رحمه الله تعالىٰ إذا لقَّنَ إنساناً يصيرُ يسمعُ نُطقَ الموجودات كلِّها والجمادات .

وكان لطيف المزاج ، يكادُ إذا سمعَ صوتاً طيباً أن يذوب عشقاً ، وذلك من علامات القطب .

وله نظمٌ كثير ، نظم « الروضة » في الفقه ، ونظم « المنهاج » ، وشرح « المغني » لابن هشام في ست مجلدات ، وأكثرُ مؤلفاته في التصوف .

وكان له موشحات غريبة ؛ منها قوله :

أتَــاك النــامــوس	يطلــعُ كـــالقـــادوس
مـــــــلا	وانـــــــدق روس
دخـــان المشعــــل	ودقــات الطبـــول
وافعــــل لا تفعــــل	تحيَّـــر فيهـــا العقــول
مـــا أســـرع مـــا يعــزل	ومــن بعـد الــوصــول
تهنــوا قـــال محبــوس	فـــي قيـــدو يـــدوس
يـــا جـــانـــم يـــا دوس	أجـــزْ مـــن كـــلِّ بـــوس
اِجـــلِ مـــرآتـــك	تـــرى الحـــق اليقيـــن
واخـــرج عـــن ذاتـــك	لتفـــرح يـــا حـــزيـــن
تنظـــر مـــا فـــاتـــك	علـــىٰ طـــولِ السنيـــن
يـــا عبـــد الحنـــدوس	لفقـــــدو عبـــــوس
تحمـــد للـــدبـــوس	وللمسكيـــن تـــدوس

إلىٰ آخر ما قال .

ومناقبه مشهورة بناحية فُوَّة ، رضي الله تعالىٰ عنه

ومنهم :

(٥٤٣) الشيخ الإمام ، العالم العلامة القاضي شمس الدين بن عبد الكافي [1]

كان يقضي في مجلسه داخلَ باب القوس والناس يقرؤون عليه العلم ، وكان لا يأخذُ على القضاء أجراً .

وكان طويلاً سميناً ، ومحاشمُهُ قدرَ بطيختين كبيرتين ، ومع ذلك كان يتوضأ لكل

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٥٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٦٣) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٨٠) (٣٤) .

صلاةٍ من الخمس ، وكانت دائماً مشدودة بفوطةٍ مربوطة في تِكَّة في وسطه حتىٰ يقدرَ علىٰ الاستنجاء[١]

وكنتُ أستدلُّ علىٰ شدَّةِ دينه وكثرةِ تقواه بذلك ؛ فإني رأيتُ من كان بحاله ترك الصلاةَ والاستنجاء في أغلب أوقاته ، رضي الله عنه .

وما سمعتُه مدَّةَ قراءتي عليه يذكرُ أحداً من أقرانه الذين يرون نفوسَهم عليه إلا بخير .

وكان كثيرَ الصمت ، وكان كثيرَ الصيام ؛ طلباً للهزال ، فيزيده سمنة .

وكان حلوَ المنطق ، جميلَ المعاشرة ، كريمَ النفس ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٤٤) الشيخ الإمامُ ، العالمُ العلامة ، المقرئ المحدث الفقيه النحوي ، الشيخ نور الدين الجارحي رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

كان قليلَ الضحك ، مهيبَ المنظر ، كثيرَ الصمت ، قليلَ المخالطة للناس ، ليلُهُ ونهارُهُ في طاعة ربِّه ، وكان يتهجَّدُ كلَّ ليلة بثلث القرآن .

وكان قد انفرد في مصر بعلم القراءات هو والشيخ نور الدين السَّنْهُوري[٣]

وكان يُقرئ الأطفال تجاه جامع الغَمْري ، فكان إذا نظر إلى الطفل يرعدُ من هيبته ، وكان مذهب الإمام الشافعي كله نصبَ عينه .

وما دخل عليه قط وقتٌ وهو علىٰ غير طهارة رضي الله عنه .

---

(١) التِّكَّة بالكسر : رباط السراويل .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٢٨٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٥٢) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٨٠) (٣٣) .

(٣) تحرفت في مصادر ترجمته إلى : (السمنهودي) . انظر ترجمته في « الكواكب السائرة » (١/ ١٧٢) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٧١) .

ومنهم :

(٥٤٥) الشيخ الإمامُ ، العالمُ الصالح ، خاتمةُ المحقِّقين بمصر والحجاز والشام ، الشيخ شهابُ الدِّين الرَّملي الأنصاري الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه(١)

وبلدُهُ قريةٌ صغيرة على البحر قريباً من مُنية العطار تجاه مسجد الخضر عليه السلام بالمنوفية .

كان رضي الله عنه ورعاً زاهداً ، عالماً صالحاً ، حسنَ الاعتقاد للخلق ، لا سيما طائفة الصوفية ، يُجيبُ عن أقوالهم بأحسن الأجوبة ، ويذكرُ عنهم المستظرفات من الحكايات .

انتهت إليه الرئاسةُ في العلوم الشرعية ، وعاش حتىٰ صارَ علماءُ الشافعية بمصر كلُّهم تلامذتَهُ إلا النادر ، فلا يوجدُ الآن عالمٌ شافعيٌّ إلا وهو من طلبته ، أو طلبة طلبته .

وأُرسلتْ إليه الأسئلةُ من سائر الأقطار ، ووقفَ الناس عند قوله أكثر ممن أدركناهم من أشياخه .

وكان يخدمُ نفسَهُ ، ولا يُمكِّن أحداً يشتري له حاجةً من السوق إلىٰ أن كبر سنُّهُ وعجز ، رضي الله عنه .

وكان جميعُ أولياء مصر حتى المجاذيب يجلُّونه ويعظِّمونه ، لا سيما الشيخ نور الدين المرصفي ، وسيدي علي الخواص رضي الله عنهما .

ورأيت مرَّةً سيدي عليَّ الخواص رضي الله عنه وهو يقول له : شكرَ اللهُ تعالىٰ فضلَكم ، فقلتُ له : ما سببُ ذلك ؟ فقال : إنه سمعَ شخصاً من إخوانه يذكرني بعد

---

(١) انظر « المنهل الصافي » (١/ ٢٨٧) ، و« السلوك » (٤/ ١٢٣٥) ، و« الضوء اللامع » (١/ ٢٨٢) ، و« وجيز الكلام » (٢/ ٥٧٠) ، و« الأنس الجليل » (٢/ ١٧٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٥٤) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ١٦٠) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٨١) (٣٥) .

موتي بسوء ، فعاداه من أجلي ، فقلتُ له : وهل يبلغُكم ما يفعلُه الناسُ معكم بعد موتكم ؟ فقال : نعم ، فقلتُ ذلك للشيخ شهاب الدين ، فقال لي : أمارةٌ صحيحة ، وعيَّنَ لي ذلك الشخص .

ومن خصائصه : أن شيخ الإسلام زكريا أذنَ له أن يصلِّحَ في مؤلفاته حياتَهُ ومماتَهُ ، ولم يأذن لأحد سواه في ذلك ، وأصلحَ عدَّة مواضع في « شرح البهجة » و« شرح الروض » في حياة شيخ الإسلام وأنا حاضرٌ أُطالعُ له ، يقول من رآه : ما رأيتُ مثلَهُ .

وشرح كتاب « الزبد » في الفقه شرحاً عظيماً ، وكتبه الناسُ ، وقرؤوه عليه ، جمعَ فيه غالبَ ترجيحاته وتحريراته .

وجمع شمسُ الدين الخطيب فتاويه ، فصارت مجلداً .

وكان يقول : (الشيخ نور الدين الطندتائي محقِّقُ الدرس ، والشيخ شمس الدين الخطيب جامعُ المسائل النوادر في الدرس) ، سمعت هـٰذا القول منه مراراً .

وكان رضي الله عنه يحبُّني أشدَّ المحبة محبَّةَ السيد لعبده .

وحصل لي مرةً مرضٌ أشرفتُ منه على الموت ، وأوصيتُ ، فجاءني عائداً هو وولده سيدي محمد ، فصار الشيخُ يدعو وولده يُؤَمِّن ، وأنا أشهدُ دعاءَ الشيخ صاعداً إلىٰ جهة السماء كالصواعق من شدَّةِ الهمة والعزم ، فما فارقني حتىٰ خلصتُ من ذلك المرض .

مات رضي الله عنه في مستهل جُمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وتسع مئة ، وصلوا عليه يوم الجمعة في الجامع الأزهر .

وما رأيتُ قطُّ في عمري جنازةً اجتمعَ فيها خلائقُ مثل جنازته ، وضاقَ الجامعُ عن صلاة الناس فيه الجمعةَ ذلك اليوم ، حتىٰ إن بعضَهم خرج فصلىٰ في غيره ، ثم رجع للجنازة ، ثم دُفنَ رضي الله عنه بتربته قريباً من جامع الميدان خارجَ باب القنطرة ، وأظلمتْ مصرُ وقراها يومَ موته ؛ لكونه كان مرداً للعلماء في تحرير نقول المذهب .

وإنما ختمنا به هـٰذا الباب لتأخُّر وفاته عمن ذُكر قبله ، وإلا فهو أعلمُ في اعتقادنا من جميع أقرانه ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

* * *

الباب الثاني

في ذكر جماعة من العلماء والمجاذيب، والصحاة، ممن أدركناهم وفزنا بصحبتهم وانتفعنا بهم، من غير أن نقرأ عليهم شيئاً من العلوم؛ إما لاستغنائنا عن القراءة عليهم بالقراءة على مشايخهم، وإما لكونهم مخالفين لنا في المذهب، لكننا نراجعهم في وقائع الأحوال، رضي الله عنهم أجمعين.

فمنهم :

(٥٤٦) شيخُ الإسلام ، العاملُ العالم ، الورعُ الزاهد الشيخ جلال الدين بن قاسم المالكي رضي الله تعالىٰ عنه[(١)]

صحبته سنين ، وتردَّدتُ إليه كثيراً ، وانتفعتُ بلحظه ، وبحسن سمته .

وكان كثيرَ المراقبة لله تعالىٰ في أحواله ، وكانت أوقاتُهُ كلُّها معمورةً بذكر الله عزَّ وجلَّ .

شرح « المختصر » و« الرسالة » ، وانتفع به خلائقُ لا يُحصون ، وولاه السلطان الغُوري القضاء مكرهاً .

وكان حسنَ الاعتقاد في طائفة القوم .

ولما أنكرَ الشيخُ محمد التكروري المالكي علىٰ سيدي عمرَ بنِ الفارض قال له : يا محمد ؛ ما لك وللسُّمِّ تجرِّبه في نفسك ، فلم يرجع عن إنكاره ، فما مضىٰ ثلاثةُ أيام

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٥٧) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣١٧) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٨٦) (٣٦) .

إلا وفرَّ الناس من هـٰذا التكروري ، ولم يصرْ أحدٌ يقرأ عليه علماً .

وكان يحفظُ « مدونةَ الإمام مالك » وشروحَ مذهبه عن ظهر قلب .

وأقبل عليه أهلُ مصر إقبالاً عظيماً قبل إنكاره ، ثم إنه خرج إلىٰ بلاده ، فقُتل في الطريق .

وكان الشيخُ جلالُ الدين أكثر أيامه صائماً ، لا يكادُ يفطرُ من السَّنَةِ إلا العيدين ويومي التشريق .

وكان حافظاً للسانه في أقرانه ، لا يسمعُ أحداً يذكرُهم إلا ويبجلُّهم ويعظِّمُهم ويقول : نفعنا الله ببركاتهم ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٤٧) شيخ الإسلام ، المجمعُ علىٰ صلاحه وعلمه وزهده وصيامه وقيامه وضبطِ لسانه ، الشيخ نورُ الدين الطرابلسي الحنفي[(١)]

كان مفنناً في العلوم .

وكتبَ لي علىٰ عدَّةَ مؤلفاتٍ ، وزارني كثيراً في بيتي لـمَّا أنقطعُ عنه لعذر ، فكنتُ أكادُ أذوبُ من الحياء منه لمَّا يأتيني .

وكان مُتواضعاً حسنَ الظنِّ بالمسلمين .

وكان يؤذِّنُ في شباك زاويته عند كلِّ وقتٍ من الخمس بصوت حسن بخشوع وتدبُّرٍ أيام ولايته وبعدها إلىٰ أن مات .

وكان لا يأكل قطُّ من معلوم محكمته شيئاً ، مع أنه وُلِّي كرهاً .

وكان كثيرَ الصدقة سرّاً وجهراً ، ولما عُزل بقضاة العساكر لم يزل مُلازماً بيته على النُّسك والعبادة والإفتاء والتدريس إلىٰ أن مات .

وأنكر عليه قضاةُ الأروام بإفتائه بمذهبه الراجح عنده ، وكاتبوا فيه السلطان ،

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢١٣) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٥١) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٨٧) (٣٧) .

وجرحوه بما هو بريء منه ، فأرسل السلطان يأمر بنفيه أو قتله ، فوصلَ المرسومُ يوم موته بعد أن دفناه ، فكانتْ هـٰذه كرامةً له ، رضي الله عنه .

ولمَّا اشتدَّتِ المحنةُ عليه قبل موته بثلاثة أيام رأيتُ في المنام لوحاً نزلَ من السماء في سلسلةٍ تجاه بيت الشيخ محب الدين ابن الدَّهَّانة مكتوب فيه : أيدنا عليَّ الطرابلسيَّ بمحبِّ الدين ابن الدهانة ، فكان الأمرُ كذلك ، وحصل له الفرجُ على يديه ، رضي الله عنهما .

ومنهم :

(٥٤٨) سيِّدُنا ومولانا ، شيخُ الإسلام ، الشيخ شمس الدين [السَّمديسي] الحنفي رضي الله عنه(١)

صحبته نحو عشرين سنة ، فما أظنُّ أن كاتبَ الشمال كتبَ عليه فيها شيئاً .

وكان كثيرَ الصمت ، لا تكادُ تَسمع منه كلمةَ لغوٍ أبداً .

وأخبرني جماعةٌ كانوا يقرؤون عليه : أن من كرامته : أن الله تعالىٰ كان يأخذُ بسمعه إذا كلَّمَهُ أحدٌ بغيبة ، أو كلامٍ فاحش ، حتىٰ كأنه أصمُّ ، وهـٰذا حفظٌ من الله عظيم ، ما سمعناه إلا عن سيدي محمد بن زين بالنحرارية رضي الله عنه .

وكان عالماً بالقراءات السبع .

وولاه السلطان الغوري مشيخةَ الإسلام كرهاً عليه .

وكان عامَّةُ ليله بكاء ومراقبة وتهجُّد إلى الصباح ، فيكحِّل عينيه ، ويدْهن وجهَهُ حتىٰ كأنَّهُ كان نائماً طوالَ الليل .

شرح كتاب « المختار » شرحاً عظيماً(٢) ، وسافر إلىٰ مكة المشرفة فمات بها رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) ترددت النسخ بين (السبريسي) و(الشبريسي)، وفي « ذيل الطبقات » (٥/ ٨٨) : « السرسي »، والمثبت من مصادر ترجمته . انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٩٨) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٦٦) ، و« ديوان الإسلام » (٣/ ٤٨) ، و« هدية العارفين » (٢/ ٢١٧) ، توفي سنة (٩٣٢هـ) ، والسمديسي : نسبة إلى سمدية ؛ قرية من كورة البحيرة بمصر .

(٢) واسم الكتاب : « فيض الغفار » .

ومنهم :

(٥٤٩) الشيخ الإمام العلامة ، الشيخ شمس الدين التتائي المالكي رضي الله عنه[1]

المقيم في المدرسة الشيخونية .

شرح « الرسالة » شرحاً عظيماً ، وشرح عدَّةَ كتب ، ولم يزل علىٰ قدم الزهد والورع ومحبَّةِ الخمول ، وعدمِ التردُّدِ للأكابر إلىٰ أن مات .

وكان وقتُهُ كلُّهُ معموراً بالعلم والعمل والأوراد .

ما زرته قطُّ إلا ورأيتُهُ مشغولاً بالله عز وجل .

وأخبرني جماعة الصوفية من جيرانه : أنه لا ينامُ من الليل إلا قليلاً على الدوام .

وكان كثيرَ الصيام ، لا يأكلُ لأحد من الظلمة وأعوانهم طعاماً .

وأجمعَ الناسُ علىٰ جلالته وتحريره لنقول مذهبه ، وحفظه لجوارحه الظاهرة والباطنة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٥٠) الشيخُ الإمام ، العالمُ الصالح ، الخاشعُ الناسك ، المجمعُ علىٰ جلالته الشيخ الكبير شهاب الدين بنُ الشلبي الحنفي رضي الله عنه[2]

كان علىٰ جانب عظيم من الخشية والخوف من الله عز وجل .

وحلف ألا يأتيَني للزيارة إلا ماشياً ، ووفَّىٰ بذلك إلىٰ أن مات ، هـٰذا مع تفتُّح بطونُ رجليه من أثر الحب ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢٠) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣١٤) (الشنائي) ، و« الخطط التوفيقية » (١٠/ ٦٧) ، و« معجم المؤلفين » (٣/ ٢٦) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٨٩) (٣٩) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١١٥) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٨٢) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٨٩) (٤٠) .

وكان كثيرَ الصدقة على الفقراء والمساكين ، لم يكن في أقرانه أكثرُ صدقة منه

وكان حسنَ الاعتقاد في طائفة الفقراء والمجاذيب وأرباب الأحوال ، كثيرَ الحياء والحلم والعفو والصفح ، لا يواجه أحداً بمكروهٍ ولو فعل معه ما فعل

ورأىٰ مرةً شخصاً يشتمُ آخرَ ، فوقف وقال : يا أخي ؛ تأدَّب مع الملكين الكاتبَيْنِ ، أيسرُّكَ أن ترىٰ يوم القيامة هـٰذه الألفاظَ في صحيفتك ؟! فاستغفر الشخص وقبَّل يدَ الشيخ .

وزرتُ أنا وإياه رأسَ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وكان عنده شكٌّ في أن الرأسَ هناك ، فلما أخذَ الشيخُ في التوجُّه إلىٰ حضرة الإمام الحسين رآه مقطوعَ الرأس ، فقال : يا إمامُ ؛ أين رأسُك ؟ فسمع الصوتَ من باطنه يقول : إن رأسي في مصر ، وعمَّرَ عليها طلائعُ بنُ رُزِّيك مسجداً عظيماً ، فأفاقَ من التوجُّه وأخبرني بالقصة .

ثم ثَقلتْ رأسُ الشيخ ، فبينما هو بين النائم واليقظان إذ رأىٰ خادمَ الحسين خرج من الضريح ودخلَ في حائط القبلة ، وصار يمشي وبصر الشيخ يتبعُهُ إلىٰ أن دخل الحجرةَ النبوية ، فقال : يا رسول الله ؛ إن أحمد بنَ الشلبي وعبد الوهاب الشعراني يزوران رأسَ الحسين ، فقال : تقبَّلَ الله منهما ، ثم أفاقَ الشيخُ فتواجدَ ، ووقعتْ عمامتُهُ ، وقال : قد تحقَّقتُ أن رأسَ الإمام هنا ، وما زال يزورُها إلىٰ أن مات ، رضي الله عنه .

وكتبَ علىٰ عدَّةٍ من مؤلفاتي أحسنَ كتابة .

ورأىٰ في كتاب « العهود » موضعاً لم يفهمْهُ ، فأرادَ أن يُصلحَهُ ، فنام ، فسمع قائلاً يقول له : إن أصلحتَ في هـٰذا الكتاب شيئاً سلبناك الإيمان ، فجاءني بكرةَ النهار وهو يرعدُ ، وحكىٰ لي القصة ، فقلت له : مرادُ القائل سلبُ إيمانك بصدق كلام عبد الوهاب ، وهـٰذا أمرٌ لم يكلفك الله به ، فقال : فرَّجتَ عني فرَّج الله عنك كُرَبَ يوم القيامة ، ثم قلت له : مرادي بهـٰذا الكلام كذا وكذا ، فكشفَ رأسَهُ واستغفرَ ، وقال : أنا جاهلٌ بمصطلح القوم ، رضي الله عنه .

وكان مرضُهُ الذي ماتَ فيه حصرَ البول ، فلم يزل به حتىٰ مات .

وكانت جنازتُهُ حافلةً بالأمراء والعلماء والقضاة والتجار ، حتىٰ ما وجدَ أحدٌ في باب النصر مكاناً خالياً من الناس .

ودُفن خارجَ باب النصر بحارة الحوارنة[١] ، وقبرُهُ ظاهرٌ يُزار رضي الله عنه وأرضاه ، ونفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة ، آمين .

ومنهم :

(٥٥١) السيدُ الشريف ، الفقيه النحوي الصوفي الشيخ شرفُ الدين المدرِّس بزاوية الحطَّاب رضي الله عنه[٢]

صحبته نحو [خمس عشرة] سنة[٣] ، فما رأيتُ في أقرانه أكثرَ صمتاً ، ولا محبَّةً لعزلته عن الناس منه .

وكان وقتُهُ كلُّهُ مشغولاً بالعلم ، والعبادة ، وتلاوة القرآن .

وأخبرني الشيخ بدرُ الدين الشهاوي الحنفي : أنه أخبرَهُ أن وردَهُ كلَّ ليلة قبل النوم ربعُ القرآن ، وقال له : ما أستحضرُ أني تركتُهُ صيفاً ولا شتاءً .

وأخبرني أيضاً أن خادمَ حمارته كان إذا نسيَها بلا علف أو بلا سقي تأتي إليه في المنام وتقول : يا سيدي ؛ الخادم نسيني بلا علف ، أو بلا شرب ماء .

وكان علىٰ مجلسه الخشيةُ والوقار والأدب .

وكان إذا سمع كلامَ أحد من القوم يصير يتواجدُ كالجمل الهائج .

وكان يحبُّني أشدَّ المحبة ، وربما أبطأتُ عن زيارته ، فيأتيني في جامع الغَمْري ويقول : اشتغلَ سرِّي عليك

وأوصافه الحسنةُ لا تُحصر .

توفي سنة أربعين وتسع مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) في «ذيل الطبقات» (٥/٩١) : (خارج باب النصر ، تجاه المدرسة الحاجبية) ، وفي «الكواكب السائرة» : (الحوازية)

(٢) انظر «الكواكب السائرة» (٢/١٥١) ، و«شذرات الذهب» (١٠/٣٣٨) ، وستأتي ترجمته في «ذيل الطبقات» (٥/٩١) (٤١) .

(٣) في النسخ : (خمسة عشر)

ومنهم :

(٥٥٢) الشيخ الإمام ، العلامة المحقق
الشيخ شهاب الدين البُرُلُّسي الملقب بعميرة الشافعي رضي الله عنه[١]

صحبتُهُ نحو عشرين سنة .

وكان عالماً ، زاهداً ورعاً ، حسنَ الأخلاق والشيم ، ذا سمتٍ حسن .

وانتهت إليه الرئاسةُ في تحقيق المذهب ، ولم يزل يُدرِّس ويفتي الناسَ حتىٰ مرضَ مرض الموت ، وكان مرضُهُ بالفالج ، فأقام به نحو سنة ، ثم مات[٢] .

أخذَ العلمَ عن جماعة ؛ منهم : شيخ الإسلام الشيخ عبد الحق السنباطي .

ومنهم : شيخُ الإسلام الشيخ برهان الدين بنُ أبي شريف .

ومنهم : الشيخ نورُ الدين المحلي ، رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين .

وكتب علىٰ بعض مؤلفاتي أحسنَ كتابة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٥٣) الأخُ الصالح ، العالم الزاهدُ ، المتمسِّك بالسنة المحمدية
الشيخ محمد الشامي نزيلُ التربة البرقوقية رضي الله عنه[٣]

كان عالماً صالحاً مُفنِّناً في العلوم ، وألَّف السيرة المشهورة التي جَمعها من ألفِ كتاب[٤] ، وأقبلَ الناسُ علىٰ كتابتها ، ومشىٰ فيها علىٰ أُنموذَجٍ لم يُسبق إليه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١١٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٥٤) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٢) (٤٢) .

(٢) ذكر وفاته ابن العماد في « الشذرات » سنة (٩٥٧هـ) .

(٣) هو شمس الدين محمد بن يوسف الشامي . انظر « شذرات الذهب » (١٠/ ٣٥٣) ، و« فهرس الفهارس » (٢/ ١٠٦٣) ، و« الأعلام » (٧/ ١٥٥) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٢) (٤٣) .

(٤) قال الكتاني في « فهرس الفهارس » : في نحو سبع مجلدات ضخمة ، واسمه : « سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله في المبدأ والمعاد » تحرَّىٰ فيها=

وكان رضي الله عنه عزباً لم يتزوَّج قطُّ .

وكان إذا قدم عليه الضيفُ يعلّق القدرَ ويطبخُ له .

وكان حلوَ المنطق ، مهيبَ المنظر ، كثيرَ الصيام والقيام ، بِتُّ عنده الليالي ، فما كنتُ أراه ينامُ من الليل إلا قليلاً .

وكان إذا ماتَ أحدٌ من طلبة العلم وخلَّفَ أولاداً قاصرين وله وظائفُ . . يذهب إلى القاضي ، ويتقرَّرُ فيها ويباشرها ، ويُعطي معلومَها للأيتام حتىٰ يصلحوا للمباشرة .

وكان لا يقبل من مال الولاة وأعوانهم شيئاً ، ولا يأكل من طعامهم .

وذكر لي شخصٌ من الذين يحضرون قراءة « سيرته » في جامع الغَمْري : أنْ أسألَهُ في اختصار السيرة ، وترك ضبطِ ألفاظ غريبها ، وأن يحكي « السيرة » علىٰ وجهها كما فعل ابنُ سيد الناس ، فرأيتُهُ بين القصرين ، وأخبرته الخبر ، فقال : قد شرعتُ في اختصارها من مدة يومين ، فرأيت ذلك هو الوقتُ الذي سألني فيه ذلك الرجل .

وكانت عمامته نحوَ سبعة أذرع علىٰ عَرَقيةٍ .

لم يزل غاضّاً طَرْفَهُ سواء أكان ماشياً أم جالساً ، رضي الله تعالىٰ عنه .

وأخلاقُه الحسنةُ كثيرة مشهورة بين أصحابه ومعارفه ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٥٤) الشيخُ العالمُ ، الفقيه النحوي الصوفي الشيخ عبد الرحمـٰن الشامي المدرس بخانقاه سعيد السعداء رضي الله عنه[١]

وكان يتعمَّمُ بالصوف ، وله كشفٌ تام ، وتحقيقٌ في العلوم الشرعية والعقلية .

وأقبلتِ الأمراءُ والأكابر عليه ، واعتقدوه اعتقاداً تاماً

= الصواب ، وختمَ كل باب بإيضاح ما أشكل فيه مع بيان غريب الألفاظ ، وضبط المشكلات ، والكتاب يُعرف بـ« السيرة الشامية » ، قلت : هو مطبوع في القاهرة بثلاثة عشر مجلَّداً .

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٧٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٠٢) وفيات سنة (٩٣٦هـ) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٣) (٤٤) .

ورأيتُ مرةً أمير كبير قُرْقُماس وهو جالسٌ عنده على التراب ، والشيخ مادٌّ رجليه وهو يقول : مرحباً بقرقماس .

صحبته نحو سبع سنين حتىٰ مات ، ودفن قريباً من تربة السُّلطان أينال(١)

وكانت الوحوش تنزلُ من الجبل فتقف علىٰ باب تربته في الليل ، فيخرجُ إليها ويكلِّمها ، فترجع ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٥٥) الشيخُ الإمام العلامةُ ، فخر الدين السنباطي الشافعي رضي الله عنه(٢)

كان عالماً صالحاً ، عابداً ورعاً زاهداً

ولما ضربوا القانون على القضاة عزلَ نفسَهُ من القضاء ، وكان يقضي في بلاده قياماً بفرض الكفاية لا يأخذ علىٰ ذلك عِوضاً ، فقلت له : يتعيَّنُ عليك ذلك ، فرجع وطلب الولاية .

وكان يفصلُ بين الأخصام ، ويغدِّيهم ويعشِّيهم ، ويعلفُ دوابَّهم .

وبتُّ عنده ليالي ، فما رأيتُهُ ينامُ من الليل إلا قليلاً ، بل طول قيامه يتهجَّدُ ويتلو القرآن ويبكي حتىٰ يكادُ يخرُّ من البكاء .

وكان قليلَ الكلام ، حسنَ السمت .

أخذ العلوم عن جماعة ؛ منهم : الشيخ كمال الدين الطويل ، والشيخ برهان الدين ابن أبي شريف ، والشيخ زكريا

وصحبَ شيخنا الشيخَ محمدَ الشناوي ، وانتفع به ، رضي الله عنه .

---

(١) أينال : هو الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين العلائي الظاهري (٧٨٤ـ٨٦٥هـ) من ملوك دولة الجراكسة بمصر والشام والحجاز .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٩٠) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣١٠) وفيات سنة (٩٣٧هـ) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٤) (٤٥) .

ومنهم :

(٥٥٦) الشيخُ الإمام ، العالم الصالح ، المرابطُ الشيخ شمس الدين الرحماني الشافعي رضي الله عنه[(١)]

كان رفيقاً للشيخ فخر الدين السنباطي وللشيخ ناصر الدين الطبلاوي .

وأفتىٰ ببلاده ودرَّس ، وانتفع به خلائقُ .

وكان آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، حتىٰ أزالَ منكراتِ بلاده كلَّها .

وكان شجاعاً رامياً لا يكادُ سهمُهُ يخطئ .

وكان إذا جاء إلىٰ مصر يزورني تفضُّلاً منه .

صحبته رضي الله عنه عشر سنين إلىٰ أن مات ، رضي الله عنه وأرضاه .

ومنهم :

(٥٥٧) الشيخُ الإمام ، العالمُ العامل ، الورع الزاهد ، الآمرُ بالمعروف والناهي عن المنكر ، الشيخُ شهابُ الدين بن الشيخ عبد الحقِّ السنباطي الواعظ بجامع الأزهر رضي الله عنه[(٢)]

لم أرَ أحداً من الوعاظ أقبل عليه الخلائقُ مثله .

وكان إذا نزلَ من فوق الكرسي يقتتل الناسُ عليه ، ومن لا يصلُ إليه يرمي رداءه عليه حتىٰ يلمسَ ثيابه ، ثم يأخذُهُ ، فيمسح بها وجهه .

وكان مفنَّناً في العلوم الشرعية ، وله الباعُ الطويل في الخلاف العالي ومعرفة مذاهب المجتهدين .

وكان من رؤوس أهل السنة والجماعة ، ومن نسبَهُ إلىٰ ضدِّ ذلك فقد افترىٰ إثماً عظيماً .

---

(١) ستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٥) (٤٦) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١١١) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٠٢) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٥) (٤٧) .

وطالع كتابي « العهود » من أوَّله إلىٰ آخره ، وأُعجبَ به ، ونقل منه على الكرسي عدَّةَ عهود وأنا أسمع ، ولما رماني بعضُ مَنْ لا يخشى الله تعالىٰ ببعض بهتانٍ انتصر لي فوق الكرسي ثلاثة مجالس حتىٰ رجعَ ذلك المُفتري عني .

ولما مات أظلمتْ مصرُ لموته ، وانهدمَ ركنٌ عظيم من الدين .

وكان الشيخُ قد اشتَهر في أقطار الأرض ؛ كالشام ، والحجاز ، واليمن ، والروم ، وصاروا يضربون به المثلَ ، وأذعنَ له علماء مصر : الخاصُّ منهم والعام .

وعمل الحسدةُ له المكايدَ عند نوَّاب مصر ، ونجَّاه الله تعالىٰ ، وهدمَ كذا كذا كنيسة وبيعة ، رضي الله عنه .

وما رأيتُ في عمري كلِّهِ أكبرَ من جنازته إلا جنازة الشيخ شهابِ الدين الرَّملي ؛ لكونهم صلوا عليه في جامع الأزهر يومَ الجمعة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٥٨) الشيخُ الإمام ، الفقيهُ الصوفي المحدِّثُ ، نادرةُ الزمان الشيخ أبو الحسن البكري الصديقي الشافعي رضي الله عنه[1]

أخذ العلمَ عن جماعة من مشايخ الإسلام ، والتصوفَ عن الشيخ رضي الدين الغزي .

وتبحَّرَ في علوم الشريعة ؛ من فقهٍ وتفسيرٍ وحديثٍ ، وغير ذلك ، وكان إذا تكلَّمَ في علم منها كأنه بحر زاخر ، لا يكاد السامعُ يتحصَّلُ من كلامه علىٰ شيءٍ ينقله عنه ؛ لوسعه ، إلا إنْ كتبَهُ في قرطاس .

وأخبرني بلفظه ونحن بالمطاف : أنه بلغَ درجة الاجتهاد المطلق ، وقال : إنما

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٩٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤١٩) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٢٣) ، و« كشف الظنون » (١/ ٣٧٦) ، و« خطط مبارك » (٣/ ١٢٧) ، و« تاريخ بروكلمان » (٨/ ٢٤٨) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٦) (٤٨) .

أُخفي ذلك عن الأقران ؛ خوفاً من الفتنة بسبب ذلك ، كما وقع للجلال السيوطي رحمه الله ، هـٰذا لفظه

وكانت مدةُ اشتغاله على الأشياخ نحو سنتين ، ثم جاءه الفتحُ من الله تعالىٰ ، فاشتغل بالتأليف ، ولم يزل علىٰ ذلك إلىٰ أن مات .

وهو أوَّلُ من حجَّ من علماء مصر في عصره في محَفَّةٍ[1] ، ثم تبعه الناسُ .

وقد عاشرته من حينَ كان بلا لحيةٍ ، فما رأيتُ عليه شيئاً يشينه في دينه ، بل رُبِّي في نزاهةٍ وعفَّة وطاعة ، وعزة نفس علىٰ أهل الدنيا ، لم يذلَّ قطُّ في تحصيل أمر معاشه كغيره ، بل كانتِ الدنيا تأتيه وهي راغمةٌ ، وذلك دليلٌ علىٰ كمال زهده فيها .

وحججتُ معه مرةً فما رأيتُ أوسعَ خُلقاً منه ، ولا أكثرَ صدقةً في السرِّ والعلانية .

وكان لا يُعطي أحداً شيئاً في النهار إلا نادراً ، وأكثرُ صدقته ليلاً .

وكان له الإقبالُ العظيمُ من الخاصِّ والعام في مصر والحجاز ، وشاع ذكره في أقطار الأرض ؛ كالشام ، والروم ، واليمن ، وبلاد التكرور ، والمغرب مع صغر سنه رضي الله عنه .

وكانت له كراماتٌ كثيرةٌ وخوارقُ وكشوفات ، فما قاله أو وعد به لا يخطئ .

وترجمه الناس بالقطبية العظمىٰ ، ويدل علىٰ ذلك ما أخبرني به الشيخُ خليل الكشكاوي قال : رأيتُ الشيخ أبا الحسن البكري وقد تطوَّرَ ، فصار كعبةً مكان الكعبة ، ولبس سترَها كما يلبسُ الإنسان القميص .

وكان له النظمُ الشائع في علوم التوحيد .

وأطلعني مرةً علىٰ تائية عملها نحو خمسة آلاف بيت أوائل دخوله في طريق القوم ، ثم إنه غسلَها وقال : إن أهلَ زماننا لا يحتملون سماعها ؛ لقلَّة صدقهم في طلب الطريق .

---

(١) المِحَفَّة بكسر الميم : مركب من مراكب النساء كالهودج إلا أنها لا تُقَبَّب كالهودج « مختار الصحاح » (ح ف ف) ويستخدمه كبار السنِّ في طوافهم حول الكعبة .

وأوصافه الحسنة تضيقُ عنها الدفاتر .

مات رضي الله عنه سنة نيّفٍ وخمسين وتسع مئة[1] ، ودُفن بجوار الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وكانت جنازتُهُ مشهودة .

وكان يُحبُّني كثيراً ، وأخبرني مرةً بأنه يدعو لي في سجوده ، ولما أشاع بعضُ الحسدة عنه أنه يكرهني أرسل لي ورقةً بخطِّه يحلفُ فيها بالطلاق أنني عنده بمنزلة ولده سيدي محمد ، وهي عندي بخطِّه إلى الآن ، رضي الله عنه وحشرنا في زمرته ، آمين آمين آمين .

ومنهم :

(٥٥٩) شيخُ الإسلام ، العالمُ الصالح ، ذو الأخلاق الحسنة والإنصاف من نفسه ، بقيّةُ السلف الصالح الشيخُ شهاب الدين الفُتوحي الحنبلي رضي الله عنه[2]

كان من العلماء العاملين ، ولاه السُّلطان الغوري القضاءَ كرهاً عليه بعد أن قال للسلطان مراتٍ : أنا لا أصلح للقضاء ، وتوليةُ مثلي لا يُخلِّص ذمتك عند الله تعالىٰ .

أقبل على العبادة أواخر عمره ، وصار كأنه لم يشتغل قطُّ بعلم ، مع أنه انتهت إليه الرئاسة في تحقيق نقول مذهبه ، وفي علوِّ السند في الحديث ، وفي علم الطب والمعقولات ، رضي الله عنه .

وجاءه مرَّةً شخصٌ يريد أن يقرأ عليه شيئاً من المنطق ، فقال له : يا ولدي ؛ قد صار الفقه ثقيلاً علىٰ قلبي ، فكيف بعلم أفتىٰ بعضُ العلماء بتحريم الاشتغال به ؟! فقال له الشخص : يا مولانا ؛ إن العلمَ عبادة ، فقال : صحيحٌ ذلك ، ولـٰكن ما وجدنا به

---

(١) ذكر وفاته الغزي كما في « الكواكب السائرة » سنة (٩٥٢هـ) .

(٢) واسمه : أحمد بن عبد العزيز . انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١١٢) ، و« النعت الأكمل » (ص ١١٣) ، و« الضوء اللامع » (١/ ٣٤٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٩٦) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٨) (٤٩) .

رقَّةَ قلب ، بخلاف الذكر والاستغفار ، مع أن فضلَ العلم علىٰ غيره مشروطٌ بحصول الإخلاص فيه ، وما أظن أن عندي إخلاصاً . انتهىٰ .

وكان الشيخ رضي الله عنه أول عمره يُنكر طريق الصوفية ويقول : وهل لله تعالىٰ طريقٌ آخرُ تقرِّبُ إليه غير العلم الذي بأيدينا ؟! فلما جمعتُه علىٰ سيدي علي الخوَّاص اعترفَ لأهل الطريق بالفضل ، وقال : هـٰؤلاء قد قطعوا مقامَنا وتعدَّوه إلىٰ ما وراءه ، ويتأسَّف علىٰ عدم اجتماعه بالقوم من أول عمره ، رضي الله عنه .

ولما أرسلت له كتاب « الجواهر والدرر » الذي التقطتُهُ من مجالسة سيدي علي الخواص كتبَ عليه أحسنَ كتابة ، وقال لي بصريح لفظه : والله ؛ إنني طولَ عمري أُطالع في كتب الشريعة فلم يخطر في بالي سؤالٌ منه ولا جوابٌ ، ثم أخبرني بأنه اشتكى الشيخَ عليَّ الخواصِ مرةً للمحتسب حين كان الشيخ زيَّاتاً ، وضربه المُحتسبُ وجرَّسه ، ثم صار يبكي ويقول : مثلي يشتكي أولياءَ الله ، ولم يزل يزور قبرَ سيدي عليٍّ إلىٰ أن مات .

وقال لي مرَّةً : لمَّا طالعتُ في قول الشيخ عليٍّ في كتاب « الجواهر » : (كلُّ علم استفاده صاحبُهُ من كلام غيره فليس ذلك من علمه هو ، إنَّما هو حاملٌ له فقط ، ومن أراد أن يعلمَ رتبته في العلم الذي يُبعث عليه يوم القيامة فليردَّ كلَّ قول عَلِمَهُ إلىٰ قائله ، وينظر بعد ذلك ، فما بقي معه فهو علمُهُ الذي يُبعث عليه) انتهىٰ .

قال الشيخُ شهاب الدين : (ففعلتُ كما قال الشيخ ، فرأيتُ نفسي قد صرتُ جاهلاً ، وتسميتي شيخ الإسلام زورٌ وبهتان) انتهىٰ .

ولم يزل رضي الله عنه من حينَ جمعتُهُ علىٰ سيدي عليٍّ الخوَّاص يتردَّد إليَّ ويقول : لا يُجازيكَ عني إلا الله تعالىٰ ؛ فإني كنتُ تائهاً عن طريق أولياء الله تعالىٰ .

وصار له كشفٌ عظيم قبيل موته ، وكاشفني بما في سري مرات ، فعرفتُ حينئذ قول الإمام الشافعي رضي الله عنه : إذا لم يكن العلماءُ العاملون أولياءَ الله تعالىٰ فليس لله ولي .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وأربعين وتسع مئة[1]

---

(١) ذكره ابن العماد في « شذرات الذهب » ضمن وفيات سنة (٩٤٩هـ) .

وهو آخرُ مشايخ الإسلام من أولاد العرب انقراضاً ، فأسأل الله تعالىٰ أن يجمعنا عليه يومَ القيامة ؛ ليأخذَ بيدنا في تلك الشدائد ، آمين .

ومنهم :

(٥٦٠) الإمامُ العلامة ، الشيخُ سراجُ الدين العبادي رضي الله عنه[١]

المقيمُ بالبرقوقية بالصحراء .

صحبته نحو أربعين سنة ، فرأيتُهُ علىٰ قدم عظيم في العبادة والزهد والورع والعلم والخشية ، وضبطِ اللسانِ ، وسائرِ الجوارح عن المخالفات ، حتىٰ لا يكادُ يتكلمُ إلا نادراً لضرورة شرعية .

وكانت نقولُ مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه نصبَ عينه .

وشرح : « قواعد الزركشي »[٢] شرحاً عظيماً في مجلدين ، وأتىٰ فيه بتحقيقات ونكت وفوائد .

أخذ رضي الله عنه العلم عن الشيخ سراج الدين العبادي الكبير ، وعن الشيخ شمس الدين الجوجري ، وعن شيخ الإسلام يحيى المناوي وغيرهم ، وأجازوه بالفتوىٰ والتدريس .

وكان صاحبَ توجُّهٍ كامل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان مجابَ الدعوة في حقِّ من يُؤذيه أو يؤذي أحداً من المسلمين .

ولما حجَّ وزارَ رسول الله صلى الله عليه وسلم طلبَ من الخدام أن يفتحوا له بابَ مقصورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبوا ، فلما كان الليلُ توجَّهَ إلى النبيِّ

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢٢٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٨٥) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٠٠) (٥٠) .

(٢) كتاب « القواعد » في الفروع للشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفىٰ سنة (٧٩٤هـ) رتَّبها علىٰ حروف المعجم ، وقد شرحها صاحب ترجمتنا ، واختصره الشيخ عبد الوهاب الشعراني . انظر « كشف الظنون » (٢/ ١٣٥٩) .

صلى الله عليه وسلم وغالبُ الناس نيام ، ففُتحتْ الأقفالُ بنفسها ، ودخل وزار ثم خرج ، وعادت الأقفالُ إلىٰ ما كانت عليه .

توفي رضي الله عنه سنة نيّفٍ وأربعين وتسع مئة[١]

ومنهم :

(٥٦١) الشيخُ الإمام ، العالم الصالحُ
الشيخ شهابُ الدين بن الصائغ الحنفي رضي الله عنه[٢]

كان حَسَنَ الأخلاق والشيم ، مهيبَ المنظر ، قليلَ الكلام ، كثيرَ العبادة في الليل والنهار ، حلوَ اللسان ، كثيرَ التواضع ، قليلَ التردُّد لأكابر الدنيا .

وكان عالماً بالعلوم الشرعية والطبية ، فجمع بين طبِّ الأديان وطب الأبدان ، ولم أرَ في عصره من جمعَ بينهما سوى الشيخ شهاب الدين الحنبلي الفتوحي رضي الله عنه .

أخذ رضي الله عنه العلوم عن الشيخ أمين الدين الأقصرائي ، وعن الشيخ تقي الدين الشُّمُنِّي ، وعن الكافيجي ، وعن شيخ الإسلام الأمشاطي ، وأجازوه بالفتوىٰ والتدريس .

وحضرتُ مرةً درسَهُ في « تفسير البيضاوي » فأبدىٰ من نكته العجائب .

وكان يصبرُ علىٰ جفاء السائل ، ويوجِّه له السؤال .

وكان يحبُّ الخمول ، ويقول : أحبُّ شيء إليَّ أن ينساني الناس ، فلا يأتوني ولا آتيهم ؛ لعلة قلة نفع الاجتماع الآن .

وما زاحمَ قطُّ علىٰ شيء من وظائف العلماء ، وعرضوا عليه عدَّةَ وظائف فلم يقبلها رضي الله عنه .

مات سنة نيّفٍ وثلاثين وتسع مئة[٣]

---

(١) ذكره ابن العماد في « الشذرات » ضمن وفيات سنة (٩٤٧هـ) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/١١٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٨٠) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/١٠١) (٥١) .

(٣) ذكره ابن العماد ضمن وفيات سنة (٩٣٤هـ) ، قال : (وفيها تقريباً) .

ومنهم :

(٥٦٢) الشيخ الإمامُ العلامة ، الورعُ الزاهد ، المُجمعُ علىٰ جلالته الشيخ شمسُ الدين اللقاني المالكي رضي الله عنه[١]

كانت له مكاشفاتٌ غريبة ، وكان كريماً ، سخيّاً ، مهيباً ، حافظاً لنقول المذهب كأنها كلِّها نصبُ عينيه .

وكان يواجهُ الأكابر والأصاغر بالأمر بالمعروف ، لا يخافُ في الله لومةَ لائم .

وكان لا يبيتُ علىٰ دينار ولا درهم .

وأخبرني من أثقُ به من طلبته أن شخصاً أعطاه سبعةَ عشرَ ديناراً وهو في الدرس ، فقال : الهديةُ لمن حضر ، ففرَّقها على الطلبة ، فأصاب كلُّ واحد ديناراً ، وفضل دينارٌ ، فأرسل إلى السوق ، فاشترىٰ به موزاً وشوىً وحلوىٰ ، وجمعهم عليه فأكلوا وانبسطوا ، وقال مُباسطاً لهم : السلطانُ إذا لم يُنفق علىٰ عسكره خرجوا عن طاعته ، وعصوا أمره ، ولو أن أهل العلم فعلوا كما فعلنا لعكف عليهم الطلبةُ ، وحملوا عنهم العلم ، ونفعوا الناسَ وأنفسَهم وشيخَهم رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه حزينَ القلب ، كثيرَ البكاء والخشية لله عز وجل .

وكان إذا سمع أحداً يذكرُ شيئاً من أهوال يوم القيامة يمكثُ الأيام لا ينتفعُ به أحدٌ في أمر الدنيا .

وقرأ عليه مرةً شخصٌ شيئاً من « تذكرة القرطبي في أحوال الموتىٰ »[٢] فمرض نحو خمسين يوماً .

وكان كثيراً ما يغلبُ عليه التعظيمُ لله عز وجل ، فيذهلُ عن نفسه ، وربما خرج من

---

(١) انظر « شجرة النور الزكية » (ص ٢٧١) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/١٠٢) (٥٢) .

(٢) التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة : لمحمد بن أحمد الأندلسي القرطبي المتوفىٰ سنة (٦٠١هـ) جمع من كتب الأخبار والآثار ما يتعلق بذكر الموت والموتىٰ ، والحشر ، والجنة والنار ، والفتن والأشراط . انظر « كشف الظنون » (١/ ٣٩٠) .

جامع الأزهر فلا يهتدي أين بيتُهُ ، فيأخذ به الأطفالُ فيوصلونه إلىٰ بيته .

ومناقبه كثيرة بين طلبته وغيرهم .

صحبته رضي الله عنه نحو ثلاثين سنة ، وانتفعتُ بلحظه ، فأسأل الله تعالىٰ أن يحشرنا في زمرته ، آمين .

ومنهم :

(٥٦٣) الشيخُ الإمام ، الورعُ الزاهد ، المجمعُ علىٰ جلالته الشيخ ناصر الدين اللقاني المالكي رضي الله عنه[١]

انتهت إليه الرئاسةُ بعد أخيه الشيخِ شمس الدين في العلم والعمل ، والتحقيق والوقوف عند قوله .

وجاءته الأسئلة من بلاد الغربِ ، والتكرور ، واليمن ، والحجاز ، والشام ، والروم .

وتخرَّج به جماعةُ مذهبه الموجودون الآن ، فلا يوجد مالكيٌّ إلا وهو من طلبته ، أو طلبة طلبته .

وكان من أعظم الناس اعتقاداً في طائفة القوم .

وما دخلتُ قطُّ عليه وهو جالسٌ علىٰ فروته إلا قامَ وأجلسني عليها ، وجلس على الأرض ، وأظن أن تلامذةَ طلبتِهِ لا تفعل ذلك مع مثلي الآن .

ولما دسَّ بعضُ الحسدة في كتابي « العهود » وغيره مسائلَ خارجةً عن ظاهر الشريعة أجاب عني بتقدير صحتها عنِّي بأحسنِ جواب ، ثم إني اجتمعتُ به وأخبرتُه بأن تلك المسائلَ مدسوسةٌ ، وأطلعتُهُ على النسخة التي خطُّهُ عليها ، ففرح بذلك أشدَّ الفرح ، وكان يقول لي : والله ؛ ما نصحبُ مثلَكم لأمر دنيوي ، وإنما نصحبُكم لتأخذوا بيدنا يوم القيامة .

---

(١) انظر « شجرة النور الزكية » (ص ٢٧١) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/١٠٣) (٥٣) .

ولما ردَّ الشيخُ محمد التونسي فتواه في حادثةٍ رأيتُ تلك الليلةَ الشيخَ ياقوت العرشي وهو يقول للشيخ محمد التونسي : ما لَكَ ولشيخِ المذهب تردُّ عليه بغيرِ علمٍ ؟! وزجره أشدَّ الزجر ، فشهد له بأنه شيخُ المذهب .

وزرته مرةً ، فوقفتُ على الباب ساعةً وأنا ساكتٌ لم أدقَّ عليه الباب أدباً معه ، فخرجَ وهو مذعور وقال : قد سمعتُ قعقعةً في سقفِ القاعة وحيطانِها حتى خفتُ من أنها تنطبقُ عليَّ ، ثم صار يحكي ذلك لجماعته ، وواللهِ ؛ إني لم أتوجَّهْ إلى الله فيما وقع ، وإنما ذلك أمرٌ من الله ابتداء .

مات رضي الله عنه سنة ثمانٍ وخمسين وتسع مئة .

ومنهم :

(٥٦٤) الإمام العلامةُ ، مُفتي المسلمين الشيخ شهاب الدين الفيشي المالكي[١]

صحبتُه رضي الله عنه نحو سنة بعد أن عرضتُ عليه محفوظاتي ، وأجازني ، ودعا لي بدعواتٍ وجدتُ بركتهنَّ .

وكان مذهبُ الإمام مالك نصبَ عينه ، وأكثرُ أيامه صائماً

وكان يتهجَّدُ كلَّ ليلة بثلث القرآن ، وأوصاني بوصية ، فانتقشتْ في قلبي إلى الآن ، فانتفعتُ بها .

وقال لي مرَّةً : يا ولدي ؛ لا تعوِّلْ على حفظ العلم من غير عمل كما عليه الناس اليوم تخسرْ دينك .

وكان مجلسُه مجلسَ هيبة ووقار ، وعلم وأدب .

وكان دائمَ الطهارة ، لا يحدثُ إلا ويتوضَّأ ، هكذا قال لي أصحابه ، رضي الله تعالى عنه .

---

(١) في (أ ، ب ، ج ، د ، ط ، ك) : (القيسي) بدل (الفيشي) ، وانظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٥٣) ، وستأتي ترجمته : في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٠٥) (٥٤) .

ومنهم :

(٥٦٥) أخي المحبُّ الصادق ، الشيخُ العالم العامل الزاهد مفتي المسلمين الشيخُ عبدُ الرحمـٰن الأُجهوري المالكي رضي الله عنه[١]

أخذ العلومَ عن الشيخ شمس الدين اللَّقاني ، وعن أخيه الشيخ ناصر الدين ، وغيرهما ، وأجازوه بالفتوىٰ والتدريس ، فدرَّسَ العلم ، وأفتىٰ في حياة أشياخه .

وكان الشيخُ ناصر الدين إذا جاءَتْه الفتيا يُرسلها إليه ، وكفىٰ بها منقبة ، رضي الله عنه .

وما زارني أحدٌ من العلماء قدرَ ما زارني ، كان لا يكادُ يتخلَّفُ عن زيارتي كلَّ يوم أربعاء .

وكان الشيخ يوسف الحُريثي والد الشيخ أبي العباس المدفون بثغر دمياط يقول كثيراً : (أحبُّ من الدنيا ثلاثةً من الفقراء : الشيخ عبد الرحمـٰن الأُجهوري المالكي ، والشيخ يوسف البشلاوي المقيم بالنحارية ، وعبد الوهاب الشعراني) انتهىٰ .

وكان الشيخ عبد الرحمـٰن هـٰذا كريمَ النفس ، حافظاً للسانه وبقيةِ جوارحه ، ما ضُبطتْ عليه وقوعه في غيبة أحد من أقرانه الذين يؤذونه ويحسدونه .

وكان كثيرَ القيام والتهجد في الليالي الباردة ، فضلاً عن غيرها .

انتفع به خلائقُ لا يحصون في جامع الأزهر وغيره .

صحبته رضي الله عنه أربعينَ سنة فما سمعتُهُ ذكر أحداً من أعدائه بغيبةٍ ، ولا يحسده علىٰ ما آتاه الله من فضله .

وما جاءني قطُّ زائراً ورأى البابَ مردوداً إلا قرأ الفاتحةَ ودعا لي ورجع قائلاً لرفيقه : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ ﴾ [النور : ٢٨] .

ودخلتُ عليه في مرض موته ، فوجدتُهُ لا يقدرُ علىٰ بلع الماء من غصَّة الموت ،

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٦٠) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٧٦) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٠٥) (٥٥) .

فدخل عليه شخصٌ بسؤال يكتب له عليه ، فأشار أقعدوني ، فأقعدوه ، فنظر السؤال ، وكتب عليه ، وقال : نودِّعُ الدنيا ، فتوفي تلك الليلة .

وكانت جنازتُهُ مشهودةً ، ودفن في القرافة تجاه جامع محمود وإخوة يوسف عليه السلام في سنة نيِّفٍ وخمسين وتسع مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه[١]

ومنهم :

(٥٦٦) الشيخُ العلامة المحققُ ، الورع الزاهد الشيخ شمسُ الدِّين العبادي الشافعي رضي الله عنه[٢]

صحبته نحو عشر سنين ، فما رأيتُ أكثر صمتاً منه .

ثم ضعفَ ، فأكل حامضاً ، فثقلَ لسانُه أكثر

أفتىٰ ودرَّس في الأزهر ، وانتفع به خلائقُ ، ولم يزل في ازدياد حتىٰ مات ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٦٧) الأخُ الصالح العلامة ، الورعُ الزاهد ، المُجمع علىٰ جلالته الشيخ شهاب الدين البُلقيني رضي الله عنه[٣]

كان غريباً في أقرانه ؛ لكثرة زهده وورعه ، وحُسنِ خلقه ، وحلاوةِ لسانه ، وضبطه .

أخذ العلومَ عن عدَّةٍ من العلماء الأعلام ، ومن أجلهم الشيخ شهاب الدين الرملي رضي الله عنه ، لازمَهُ ملازمةً شديدة حتىٰ أجازه بالفتيا والتدريس ، فدرَّس وأفتىٰ في حياته ، وانتفع به خلائقُ ، حتىٰ كانت حلقتُهُ أوسعَ من حلقة شيخه .

---

(١) في « الطبقات الصغرىٰ » ، و« الكواكب السائرة » : (نيف وستين) ، وجعله ابن العماد ضمن وفيات (٩٦١هـ) .

(٢) ستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٠٧) (٥٦) .

(٣) ستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٠٧) (٥٧) .

وأخذ طريقَ القوم عن سيدي علي المرصفي ، ثم عن تلميذه الشيخ نور الدين الشوني شيخ مجلس الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في جامع الأزهر ، وأحبَّهُ غايةَ المحبة ، واستخلفَه في مجلسه في حياته وبعد مماته ، وقدَّمَهُ علىٰ جميع أصحابه ، وقال : ما قدَّمته للمجلس إلا بمشاورة النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

واعتقد علمه وصلاحَهُ الخاصُّ والعام ، واشتَهر في مصرَ وقراها ، والشام ، والحجاز ، والروم .

صحبته رحمه الله نحو أربعين سنة ، فما رأيتُ عليه شيئاً يشينه في دينه .

وما ذكره أحدٌ قطُّ بسوء من الحسدة إلا ورآه تلك الليلة وعليه ثيابٌ خضر وبيض نقيَّةُ الخضرة والبياض ، فأعرفُ بذلك كذبَ الحاسد وصدقَ الشيخ شهاب الدين ، وشدة إخلاصه .

وما رأيتُهُ قطُّ التفتَ إلىٰ شيءٍ من وظائف الفقهاء ؛ بل تربَّىٰ على العفة والورع والزهد في الدنيا حتىٰ أتته وهي راغمة .

ووقع لي مرَّةً معارضةٌ من أصحاب النوبة من العجم ، فما كنتُ إلا هلكت ، فأتاني يزورني هو والشيخ نور الدين الشوني ، والشيخ أبو العباس الحريثي ، والشيخ شهاب الدين الوفائي ، وجماعةٌ فلما أرادوا الانصرافَ قال لهم شهابُ الدين الديسطي : كيف تذهبون وأنتم مشايخُ مصر والرجل بمرضه ما حملتم عنه شيئاً ؟! فصار كلُّ واحد منهم يقول لصاحبه : احمل أنت عنه ، فيردُّ الآخر عليه ، فقال الشيخ شهاب الدين : مدُّوني وأنا أحمل عنه ، ثم وضع رأسَهُ في طوقه مقدارَ درجةٍ ، فخلصتُ من المرض ، حتىٰ كأن لم يكن بي مرضٌ ، وجلستُ أطلبُ الأكلَ ، وحَمى الخرقة رضي الله عنه ، فقمت ، فشيَّعتُهم إلىٰ خارج الدار ، وكان لي تسعة أيام لا أنامُ ولا آكلُ ولا أشرب .

ورأيتُ مرةً في المنام أن الشيخ نور الدين الشوني جالسٌ في مجلسه بالجامع الأزهر ، والمقصورةُ كلُّها مفروشةٌ بالحرير الأخضر ، والعمد كلُّها مستورةٌ كذلك بالحرير ، ورأيتُ خلف ظهر الشيخ نور الدين بشخانةً خضراء إلى السقف[1] ، فبينما

(١) **البشخانة** : الناموسية .

هو جالسٌ إذ نزل في الأرض ، فابتلعته ، فجاء الشيخ شهاب الدين البلقيني ، فجلس مكانه مدَّةً ، ثم ابتعلته الأرضُ كذلك ، ثم جاؤوا بي ، فأجلسوني مكانهما ، فاستيقظتُ ، فقصصتُ ذلك على الشيخين ، فقالا : إن صدقتْ رؤياك أنت تقبرنا وتعيشَ بعدنا . انتهىٰ ، فكان الأمرُ كما قالا رضي الله عنهما .

وللشيخ شهاب الدين وقائعُ غريبة مع الجانِّ ، وكانوا يخدمونه ويوضئونه .

وكان إذا رأىٰ مَركوباً يقول للراكب[1] : اخرجْ عنه ، فيخرجُ الراكبُ في الحال من غير عزيمةٍ عليه .

وكذلك بلغنا : أنه كان يجتمعُ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم يقظةً كثيراً ، ويُحادثه ويسألُه عن أحوال أمَّتِهِ .

توفي رضي الله عنه سنة ستين وتسع مئة ، ودفن قريباً من تربة السلطان قايتباي ، رحمه الله رحمة واسعة .

ومنهم :

(٥٦٨) الشيخُ العلامة الشيخُ عبدُ الحميد السَّمْهودي رضي الله تعالىٰ عنه[2]

صحبته نحو خمس وأربعين سنة ، ما رأيتُ عليه شيئاً يشينه في دينه .

وكان كريمَ النفس ، متردِّداً إلى الناس ، أمَّاراً بالمعروف ، لا يخافُ في الله لومةَ لائم .

وكان وجهُهُ كأنه قطعةٌ من الشمس ؛ لما هو عليه من الأخلاق الحسنة

قرأ العلومَ علىٰ مشايخ الإسلام ؛ كالشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، والشيخ نور الدين المحلِّي ، والشيخ كمال الدين الطويل ، ومُلا علي العجمي ، والشيخ عبد الحقِّ السنباطي .

---

(١) مركوباً : أي : رجلاً قد ركبته الجن .

(٢) ستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٣٩) (٧٩) .

وأجازوه بالفتوىٰ والتدريس ، فدرَّس العلمَ وأفتىٰ نحو خمسين سنة .

وتوفي سنة خمسٍ وستين وتسع مئة .

* * *

وليكن ذلك آخرَ ما أرادَ الله تعالىٰ ذكرَه ممن أدركناهم من العلماء والصالحين[١] ، وقد تركنا ذكرَ كثير من العلماء والصالحين خشيةَ الإطالة ، لا استهانة بجنابهم .

والحمد لله الذي هدانا لهـٰذا ، وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

فنسأل اللهَ تعالىٰ ببركتهم وبركةِ أنفاسهم أن يميتنا على الإسلام ، وأن يُدخلنا دارَ السلام ، آمين اللهم آمين .

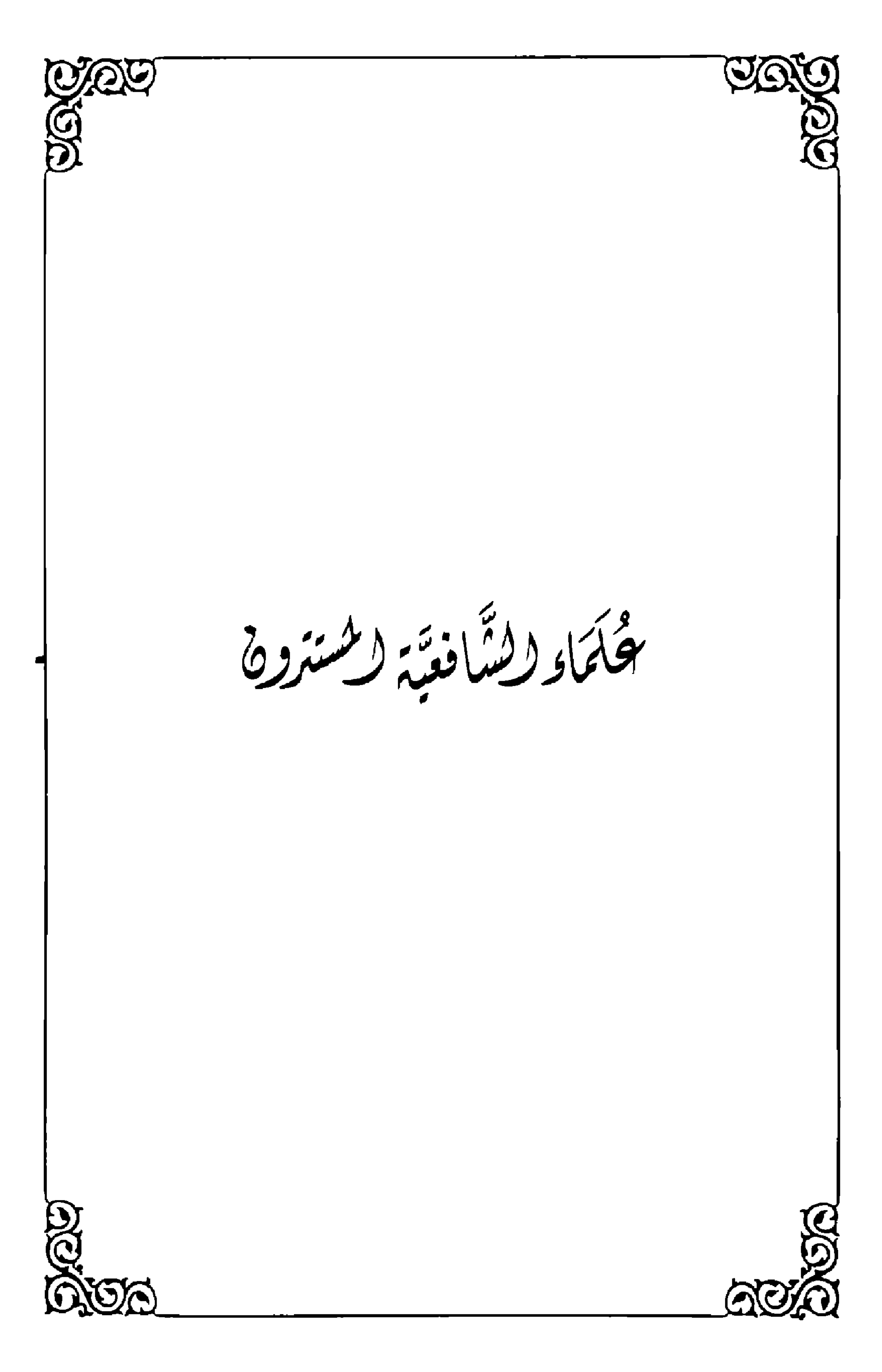
* * *

وقد حُبِّب إليَّ أن أختم هـٰذه الطبقاتِ بذكر جماعة من علماء الشافعية ، الذين لم يشتهروا بزهد ولا ورع ، ولا كثرة عبادة .

ولا يكادُ أحدٌ يعرفُ مقامَهم ؛ لاستتارهم في عملهم بعلمهم رضي الله تعالىٰ عنهم :

---

(١) في بعض النسخ زيادة : (وممن لم ندركهم) بعد قوله : (والصالحين) ولعل ما أثبتناه أليق ؛ لأن المؤلف التزم في هـٰذا الباب ذكرَ مَنْ أدركهم وفاز بصحبتهم .



عُلَمَاءُ الشَّافِعِيَّةِ المستدركون

فمنهم :

(٥٦٩) الشيخُ الإمام ، الورعُ الزاهد أحمد بنُ سُريج رضي الله عنه[1]

صحب الإمام أبا القاسم الجنيد .

وكان يقول : (ما عرفنا الإسلامَ إلا من حينَ صحبنا الجنيد رضي الله عنه) .

وكان لا يترك قيامَ الليل في سفر ولا حضر ويقول : (كيف ينبغي لمن يدَّعي محبَّةَ الله عز وجل أن ينام عن خدمته أوقاتَ المواكب الإلـٰهية) .

وكان مُفنِّناً في جميع العلوم النقلية والعقلية .

وكان إذا لم يجد شيئاً حلالاً يأكله يمكثُ الليالي والأيام طاوياً ، فإذا خاف علىٰ ذهاب روحه أكلَ بقدر سدِّ الرمق .

وكان حافظاً للسانه ، ملازماً لشأنه ، عارفاً بزمانه ، لم تزل عيناه تذرفان بالدموع ، وإذا لامَهُ أصحابُهُ علىٰ كثرة البكاء يقول : قد بكىٰ من كان قبلنا الدَّمَ علىٰ تفريطه في جانب الله عز وجل ، والله أعلم .

ومنهم :

(٥٧٠) الإمامُ العلامة ، أبو زيد المروزي رحمه الله تعالىٰ[2]

كان عالماً زاهداً ، عابداً متقشِّفاً في ملبسه ومأكله وأمتعة داره ، حتىٰ ربَّما دخلَ اللصُّ داره فلم يجد فيها شيئاً يُسرقُ .

---

(١) هو أحمد بن عمر بن سُرَيْج البغدادي أبو العباس (٢٤٩ـ٣٠٦هـ) فقيه الشافعية في عصره ، له نحو (٤٠٠) مؤلف ، لُقِّب بالباز الأشهب ، نصر المذهب الشافعي ، فنشره في أكثر الآفاق . انظر « تاريخ بغداد » (٤/ ٢٨٧) ، و« وفيات الأعيان » (١/ ٦٦) ، و« سير أعلام النبلاء » (١٤/ ٢٠١) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ٢١) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٦) (٤٣٣) .

وكان كثيرَ الصمتِ ، ربما يمكث اليومَ كاملاً ساكتاً إذا لم يكلمه أحد .

وكان لا يضعُ جنبَهُ الأرضَ في ليل ولا نهار إلا غلبةً .

وكانوا يقولون في عصره : إنه علىٰ قدم التابعين في العلم والعمل .

وكان أصحابهُ يقولون : عاشرناه إلىٰ أن مات ، فما نظنُّ أن كاتبَ الشمال كتبَ عليه خطيئةً رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٧١) الشيخُ الإمام محمد بنُ خزيمة رضي الله عنه[١]

كانوا يلقِّبونه بشيخ الشيوخ ، وكانوا يضربون به المثلَ في كثرة الخشية والخوف من الله ، وكثرةِ الأدب مع أقرانه فضلاً عن أشياخه ، حتىٰ إنهم سألوه يوماً عن لحية شيخه : هل كان شعرُها الأبيض أكثرَ أم الأسود ؟ فقال : لم أُحقِّقِ النظرَ في وجهه قطُّ حتىٰ أعرفَ ذلك .

ولم يُفتِ في حياة شيخه أبي علي البوشنجي لا سرّاً ولا جهراً

وسئل عن مسألة وهو في جنازة شيخه ، فقال : اصبر حتىٰ نُواريَهُ التراب ؛ فإني لا أقدرُ أفتيك وشيخي علىٰ وجه الأرض .

وكان صوَّاماً للنهار قوَّاماً لليل ، لا يأكلُ إلا كلَّ ثلاثة أيام لقيماتٍ يُقمن صلبه ، ويقول : أستحي من الله تعالىٰ أن أتردَّدَ كثيراً للخلاء .

وكان يتهجَّدُ كلَّ ليلة بثلث القرآن .

وكان كثيرَ البكاء ، حتىٰ صار له خطَّان أسودان في وجهه من الدموع رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٤/٥٢٦) (٤٣٦) .

ومنهم :

(٥٧٢) أبو بكر بن الحداد رضي الله عنه[1]

كان إماماً في العلوم ، زاهداً ورعاً ، عابداً كثيرَ العزلة عن الناس .

وكان لا يغسلُ ثوبَهُ ولا عمامته إلا في عيد الفطر .

وكان يختم القرآن كلَّ يوم وليلة من حينَ بلغَ إلىٰ أن مات ، فكان كثيرَ البكاء عند تلاوة القرآن .

وكان يصومُ يوماً ، ويُفطر يوماً .

وإذا كان يوم الجمعة يختمُ القرآنَ قبل الزوال ؛ هـٰذا مع اشتغاله بتدريس العلوم والتأليف .

وكان يأمرُ بالمعروف ، وينهىٰ عن المنكر ، لا يخاف في الله لومةَ لائم .

وكانت له هيبةٌ عظيمة على الناس ، خصوصاً الذين يقرؤون عليه .

وهجر مرةً شخصاً شهراً ؛ لكونه ضحكَ وهو يقرأ في العلم ، وقال له : العلمُ حجةُ الله تعالىٰ على العبد ، فكيف يليقُ بصاحبه الضحكُ وهو لم يعلم ما إليه مصيره ؟! رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٧٣) الإمام أبو نصر بن الصباغ[2]

كان حافظاً لمذهب الإمام الشافعي ، حتىٰ قيل : إنه كان يحفظُ وقرَ مئة بعيرٍ من كتب العلم في فنون شتَّىٰ .

وكان صائمَ الدهر ، وإدامُهُ الملحُ تارةً ، والخلُّ تارةً ، والزيتُ تارةً .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٦) (٤٣٤) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٥) (٤٣٠) .

وكان لا يأكلُ إلا الخبزَ اليابس دون الليِّنِ ، فيبلُّه بالماء ، ويغمسُ اللقمة في الملح أو الخلِّ مثلاً ، ولا يزيدُ علىٰ تسع لُقم .

وكان قليلُ الكلام اللغو ، وما سمعوه يغتابُ أحداً من المسلمين قط .

وكان يقول : (لا ينبغي لأحد من حملة القرآن أن يقع في غيبة أحد من المسلمين ، فهي في حقِّه أعظمُ إثماً من غيره) .

وكان السُّلطانُ يعرضُ عليه العطايا ، فيردُّها ويقول : (إن أموالَ السلطان لا تخلو من الشبهة) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٧٤) الشيخُ نجم الدين القَمُولي
صاحبُ « الجواهر »[١] رحمه الله تعالىٰ[٢]

كان لسانُه لا يَفتُر ليلاً ولا نهاراً عن قوله : (الله الله) ، وكان إذا نام يسمعون قلبَهُ يقول : (الله الله) بصوت وحرف ، وربما طالع العلم وفهم معانيَهُ مع قوله : (الله الله) لا يشغلُه أحدُ الأمرين عن الآخر ، وربما درَّس العلومَ وردَّ على السائل الجوابَ بسرعة ، ثم يقول : (الله الله) ، وكذلك كان لا يَفتُرُ في حال أكله وشربه عن قوله : (الله الله) بعد التسمية والحمدلة .

وكانوا يقولون : إن بعض العارفين نظرَ إليه نظرةً أشعلَ قلبه بنار التوحيد ، رضي الله عنه .

---

(١) للغزالي كتاب الوسيط في الفروع ، وهو أحد الكتب الخمسة المتداولة بين الشافعية ، وقد شرحه أحمد بن محمد القمولي في مجلدات سماه : « البحر المحيط » ، ثم لخصه وسمَّاه : « جواهر البحر المحيط » . انظر « كشف الظنون » (٣/ ٢٠٠٨) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٥) (٤٣١) **والقَمُولي** : بلدة في البر الغربي من عمل قوص .

ومنهم :

(٥٧٥) الإمام أبو العباس الدَّيْبُلي رضي الله عنه[١]

كان من أكابر العلماء العاملين .

وكان يُدرِّسُ العلمَ حال كونه يتلو القرآنَ ، حال كونه يخيطُ الثياب ، حال كونه يُسمِّعُ القرآن لغيره ، لا يشتغلُ بشيء عن شيء ، وهو مقامٌ غريب ، ولـٰكن الله تعالىٰ علىٰ كلِّ شيءٍ قدير ، هـٰذا دأبُهُ من طلوع الشمس إلىٰ غروبها .

وكان إذا صلَّى المغربَ تهيَّأَ لقيام الليل ، فلا يزال مُصلِّياً إلى الصباح ، وليس له ساعةٌ يضع فيها جنبَهُ الأرضَ في ليل أو نهار ، إنما كان نومُهُ خفقاتٍ يخفقها كما كان الإمام أبو حنيفة يفعل ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٧٦) الإمام أبو جعفر الترمذي رضي الله عنه[٢]

كان رضي الله عنه عالماً ، زاهداً ، ورعاً ، عابداً ، صائمَ الدهر ، وكانت نفقتُهُ أربعةَ دراهم في كل شهر .

وكان كثيراً ما يجوعُ حين لا يجد عنده شيئاً في البيت ، فيصبر على الجوع أياماً ، ولا يسألُ أحداً من أصحابه رغيفاً ولا يُعلِمهم بذلك .

وكان غالبُ أيامه يكتفي بالحبة الواحدة من الزبيب ، وكان مع ذلك شجاعاً ذا قوةٍ شديدة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٥) (٤٣٢) والديبلي نسبة إلىٰ ديبل بتقديم الياء على الباء كما في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ٥٥) لابن السبكي ، و« طبقات الفقهاء الشافعية » (١/ ٤٠٣) : وهي كراتشي اليوم ؛ بلدة علىٰ ساحل البحر من بلاد الهند ، قريبة من السند .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٦) (٤٣٥) .

ومنهم :

(٥٧٧) الإمام أبو العباس النيسابوري رضي الله عنه[١]

كان عالماً عاملاً ، لا يفتُرُ عن العمل بعلمه ، فلا يخلو عن أن يكونَ في واجبٍ ، أو مندوب ، ويقول : (ما فائدة العلم إلا العمل به ، ومن لم يعملْ بعلمه وينتفعْ به الناسُ لا يُكتب عند الله عاملاً ، ومن لم ينفعه علمُهُ لا ينفعُ غيرَهُ) .

وكان يقول : (ختمتُ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم [اثنتي عشرة] ألف ختمة[٢] ، وضحيت عنه [اثنتي عشرة] ألف أضحية[٣] ؛ لكونه صلى الله عليه وسلم كان سبباً لهدايتي وعملي بشريعته صلى الله عليه وسلم) .

ومنهم :

(٥٧٨) الإمامُ محمدُ بنُ إسماعيل البخاري رضي الله عنه[٤]

صاحب « الصحيح » ، كان وردُهُ كلَّ يوم ختمةً ، ويتهجَّدُ كلَّ ليلة بثلث القرآن .

وكان قليل الأكل ، وبلغنا أنه انتهىٰ أكلُهُ في اليوم والليلة إلىٰ لوزةٍ أو زبيبة .

وكان يقول : واللهِ ؛ إني قد استحييتُ من الله تعالىٰ من كثرة تردُّدي إلى الخلاء ، وانتهىٰ أمرُهُ بعد ذلك إلىٰ أن صار يدخلُ الخلاء في الشهر مرةً كما كان عليه الإمام عبد الرحمـٰن الأوزاعي .

وكان إذا دخل الخلاءَ في الشهر مرتين يقول لأصحابه : ادعوا لي ؛ فإن بي وجعَ البطن .

وكان حافظاً للسانه ، ويقول : أرجو من الله أني ألقاه ولا يُطالبني بغيبةٍ في أحدٍ من

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٥٢٧) (٤٣٧) .

(٢) في النسخ : (اثني عشر) .

(٣) في النسخ : (اثني عشر) .

(٤) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (١/٢٦٩) (١١٥) ، و(٢/٥٢٧) (٤٣٨) ، و« الطبقات الوسطىٰ » (٣/١٦٠) (١١٢) ، و(٤/٤٦٦) (٥٧٤) .

المسلمين ، فقيل له : فكيف ذلك مع تجريحكم لبعض الرواة ؟! فقال : ذلك من الدِّين وحفظ الشريعة .

وكان يُصلي عند كتابة كل حديث من « الصحيح » ركعتين رحمه الله تعالىٰ ، آمين .

ومنهم :

(٥٧٩) الشيخ الإمام تقي الدين بن دقيق العيد[١]

كان مُجتهداً في العبادة مع قراءة الحديث والفقه وغيرهما من العلوم .

وحكم مرةً بالحقيقة لما تولَّى القضاء في الوجه القبلي بمصر ، وذلك أن شخصاً سرقَ ثوراً وأنكره ، فقال له : تُنكر الثورَ وقرناه خارجَيْنِ من عينيك ، فخرج القرنان في عينيه حتىٰ رآه الحاضرون ، فاعترف بالثور ، وأتىٰ به إلىٰ صاحبه ، وفُقدتِ القرون فلم تُوجد .

وكان يقول : (ما تكلَّمتُ قطُّ كلمةً ، ولا فعلتُ فعلاً إلا بعد أن أعددْتُ له جواباً بين يدي الله عز وجل موافقاً لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم)

ومنهم :

(٥٨٠) الإمامُ محمدُ النيسابوري الكبيرُ[٢]

كان يصلي طولَ نهاره وطولَ ليله ، ويصوم الدهرَ ، ولا يكادُ أحدٌ يدخلُ عليه في ليلٍ أو نهارٍ إلا ويجده في صلاة ما عدا أوقاتِ الضرورة .

وكان إذا سأله شخصٌ عن مسألة يُسلِّم من صلاته بسرعة ويردُّ عليه الجواب ، ثم يعودُ للصلاة مسرعاً .

ويقال : إنهم وجدوه مُصلِّياً في قبره مثل ما وقع لثابت البُناني رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٧) (٤٣٩) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٧) (٤٤٠) .

ومنهم :

(٥٨١) الإمامُ محمد الملقب بفقيه الحرم[(١)]

كان إماماً عالماً عاملاً

وكان من وردِهِ كلَّ يوم ستة آلاف مرة (قل هو الله أحد) .

وهو شيخُ أبي إسحاق الشيرازي رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٨٢) الإمام [الحسن] الأصبهاني رضي الله عنه[(٢)]

كان إماماً في العلوم والعمل .

لم يزل يبكي علىٰ نفسه حتىٰ ذهبتْ إحدىٰ عينيه من البكاء ، فصار يبكي الدَّمَ من العين الأخرىٰ حتىٰ مات .

وربما كان جالساً يدرِّسُ العلمَ فيغلب عليه البكاءُ ، فيُغمىٰ عليه ، فتتفرَّقُ الطلبةُ عنه ، ويتركونه علىٰ حاله حتىٰ يفيقَ ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٨٣) الإمام زين الأمناء الدمشقي[(٣)]

كان إماماً في جميع العلوم .

وكان قد جزَّأَ الليل ثلاثة أجزاء : ثلثاً لتلاوة القرآن والتسبيح ، وثلثاً للنوم ، وثلثاً للتهجد .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٧) (٤٤١) .

(٢) في النسخ : (أبو الحسن) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وتقدمت في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٨) (٤٤٢) .

(٣) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٨) (٤٤٣) .

وكان يُقال له : السجَّاد ، فإذا أصبح جزَّأ نهارَه كذلك مثلَ الليل ، فلا يزالُ كذلك إلى الغروب .

وكان يقول : (النومُ أخو الموت ، فمن نامَ أكثر من ثلث عمره فهو مفتون) .

ومنهم :

(٥٨٤) الإمام [الحسن] بن سَمعون رضي الله عنه(١)

كان إماماً ، زاهداً ، ورعاً ، كثيرَ التهجد والعبادة والأورادِ والصوم ، وضبطِ الجوارح عن المخالفات والمكروهات ، حتىٰ كان جسمُهُ يضيء كالبلَّور الذي في داخله ضوء .

وكان لا يخرجُ من بيته إلا لصلاة الجماعة .

ولما وقعتِ الفتنةُ في بلده لزمَ قعرَ بيته ، واشتغلَ بربِّه وحده ؛ من قراءة كلامه ، أو مراقبته ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٨٥) الإمام أبو علي بنُ خَيْران رضي الله تعالىٰ عنه(٢)

كان إماماً ، زاهداً ، ورعاً ، خاشعاً ، ناسكاً ، كثيرَ الصمت ، حتىٰ أعجبَ الخليفة حالُهُ ، فعزم علىٰ توليته القضاء ، فأبىٰ ، فوكَّل علىٰ بابه حرَّاساً خوفَ الهرب ، وختم علىٰ باب داره بالطين بضعةَ عشر يوماً ، ثم أعفاه وأخرجَهُ ، فلما خرجَ قال [الوزير](٣) لبعض أصحابه : إنما فعلتُ ذلك رحمةً بكم حتىٰ لا تقتدوا بي في تولية القضاء ، وحتىٰ يصير الناس يتحدَّثون من بعدي أن بعضَ السلفِ أُكره على القضاء ، وختموا علىٰ بابه ، ولم يرضَ أن يتولىٰ ، وأنشدوا :

---

(١) في النسخ : (أبو الحسن) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وتقدمت في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٥٢٨) (٤٤٤) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٥٢٨) (٤٤٥) .

(٣) ما بين معقوفين مستدرك من « سير أعلام النبلاء » (١٥/٥٩) .

وطيَّنوا الباب على أبي علي عشرين يوماً ليلي فما ولي

وكان رضي الله عنه يعيبُ على أبي العباس بن سُريج في توليته القضاءَ ويقول : إن هٰذا الأمرَ لم يكنْ في أصحاب الشافعي رحمه الله ، وإنما كان في أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٨٦) الإمام حسين النيسابوري رضي الله عنه[١]

كان إماماً في العلوم ، محدِّثاً فقيهاً

وكان أبو عبد الله الحاكم يقول : صحبتُهُ حضراً وسفراً نحوَ ثلاثين ليلة ، فما رأيتُهُ تركَ قيامَ الليل من أول النصف الثاني ليلةً واحدةً .

وكان وردُهُ في كلِّ ركعة سبعة أحزاب ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٨٧) الإمامُ العالم الصالحُ ، المفسِّرُ المحدِّث ، اللغوي النحوي الزاهدُ العابد [أبو محمد] البَغوي شيخُ السنة ، رضي الله عنه[٢]

كان من أكابر الزهاد ، وبلغ من زهدِهِ : أنه كان يأكل الخبزَ من غير إدام ، فلامه أصحابُهُ ، وقالوا له : نخافُ على عقلك ، فصار يأكلُهُ بالزيتِ حتى مات ، لم يزد عليه .

وكان صائم الدهر ، قائم الليل ، خائفاً ، خاشعاً حتى كأنَّ النارَ لم تُخلق إلا له ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرى » (٢/ ٥٢٩) (٤٤٦) .

(٢) في النسخ : (أبو القاسم) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وتقدمت في « الطبقات الكبرى » (٢/ ٥٢٩) (٤٤٧) .

ومنهم :

(٥٨٨) الإمامُ العالمُ الكبير ، القفَّال المروزي[١]

كان الغالبُ عليه الحزنَ والبكاء من خشية الله ليلاً ونهاراً ، حتىٰ صار له خطَّان أسودان في وجهه من الدموع .

وكان كثيراً ما يبكي وهو في الدرس ، حتىٰ يكادَ أن يُغشىٰ عليه ، وكثيراً ما يُحمل إلىٰ بيته مغشيّاً عليه .

وكان يقول : ما أغفلَنا عمَّا إليه مصيرنا ! رضي الله عنه ورحمه .

ومنهم :

(٥٨٩) الإمامُ العالم الصالح ، أبو بكر النيسابوري رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

كان يقوم الليل ويصوم النهار دائماً حتىٰ مات .

ومكث نيِّفاً وأربعين سنة يصلي الصبحَ بوضوء العشاء ، كما أخبر عن نفسه من باب التحدُّث بالنعم .

وكان يقول : (والله ؛ ما أظن إلا أن سيِّئاتي في صلاتي أكثر من حسناتي) رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٩٠) الإمام العالم الصالحُ عبدُ الله الأصبهاني المشهور بابن اللبان[٣]

كان إماماً يصلي بالناس في المسجد .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٩) (٤٤٨) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٩) (٤٤٩) .

(٣) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٩) (٤٥٠) .

وكان إذا صلىٰ بهم التراويح في رمضان وانصرفوا ينتصبُ للصلاة إلىٰ طلوع الفجر

وما ضَبطَ عليه أصحابُهُ قطُّ غفلةَ عن الله تعالىٰ ، بل وقتُهُ كلُّهُ في عبادة .

وكان يُصلي طولَ الليل ، فإذا صلى الصبحَ جلس لتدريس العلم طولَ نهاره .

وكان يقول : (ينبغي للعالِم ألا ينامَ في رمضان ليلاً ولا نهاراً حتىٰ يَنقضي الشهر) رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٩١) الإمامُ العالم الصالحُ ، المحدث الزاهد العابد المشهور بابن أبي حاتم[١]

مكثَ نحو ثلاثين سنة لا يرفعُ طرفَهُ إلى السماء ؛ حياءً من الله عز وجل .

ودخل عليه رجلٌ وهو في درسه ، فقال : إن سورَ طَرَسوسَ انهدمَ ، فقال الشيخُ : من يساعد المسلمين في بنائه ؟ فقال رجل : أنا أساعدهم بألف دينار ، بشرط أنَّ الشيخَ يضمن لي دخولَ الجنة ، فكتب له الشيخُ بذلك ورقةً ، فأوصى الرجلُ أنها تُدفن معه ، فلما ماتَ طارتِ الورقةُ حتىٰ نزلت في حِجْر الشيخ ، وإذا في ظاهرها مكتوبٌ : قد وفَّينا بما ضمنتَ ولا تعُدْ ؛ فإننا لا ندخل تحت التحجير ، رضي الله عنه

ومنهم :

(٥٩٢) الإمامُ عبدُ الرحمـٰن بن الأنباري رضي الله عنه[٢]

كان عالماً ، فقيهاً ، محدِّثاً ، نحوياً زاهداً ورعاً ، حتىٰ بلغَ من زهده : أنه كان لا يوقدُ في بيته سراجاً ، لا صيفاً ولا شتاءً حتىٰ مات .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٠) (٤٥١) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٠) (٤٥٢) .

وكان يقول : (لم يصفُ لي ثمنُ الزيت من حلال) .

وكان فرشُهُ حصيراً من قصب .

وكان يلبسُ قميصاً وعمامةً من غليظ القطن .

وكان ملازماً قعرَ بيته لا يخرجُ منه إلا لصلاة الجمعة فقط .

وكانت هيئتُهُ كهيئة الشحاذين على الأبواب ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٩٣) الإمامُ العالم الصالح ، عبدُ الرحمـٰن الداودي البوشنجي[١]

كان زاهداً ورعاً ، لم يأكل اللحمَ منذ أربعين سنة من حين نهبتِ التركُ بهائم بلده .

وكان يأكل لحم السمكِ بدلَ لحم الأنعام ، فنفضَ جندي لُباب سفرته في النهر ، فلم يأكل من سمكه إلىٰ أن مات ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٩٤) الإمامُ أبو عبد الله الرازي رضي الله عنه[٢]

كان عالماً ورعاً زاهداً .

حجَّ مرةً ، فعطش الحجاجُ ، فقالوا له : استسقِ لنا يا فقيه ، فرفعَ رأسَهُ إلى السماء ، فأرعدتِ السماءُ ، وأمطرتْ في الحال ، حتىٰ شربَ الناسُ ، وسقوا دوابَّهم ، وملؤوا مزاداتِهم ، فلما علمَ بذلك قال : ليس ذلك بدعائي ، وإنما هو من رحمة الله لعباده ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣١) (٤٥٣) .

(٢) كذا في جميع النسخ : (أبو عبد الله الرازي) ، والقصة الواردة هنا وردت في حق (عبد الواحد الدسكري) كما في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٥/ ٢٢٤) ، وهو من تلامذة أبي إسحاق الشيرازي رحمهم الله تعالىٰ ، وتقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣١) (٤٥٤) (عبد الله الرازي) .

ومنهم :

(٥٩٥) الإمام أبو الحسن المقرئ رضي الله عنه(١)

كان صائمَ النهار ، قائمَ الليل .

وكان قليلَ الثياب ، حتىٰ بلغ من زهده أنه لم تصفُ له دراهمُ يشتري له بها قميصاً ، فكان عنده قميصٌ من حلال يلبسُهُ تارةً ، وتلبسه زوجتُه تارةً ، فإذا لبسَهُ أحدُهما دخل الآخر خزانةً وأغلقَ عليه البابَ .

ودخلوا عليه مرَّةً فوجدوه عُرياناً ، فأنشدوا قولَ أبي الطيب الطبري : [من الكامل]

قــومٌ إذا غسلــوا الثيــابَ رأيتَهُــمْ لبسُــوا البيــوتَ وزرَّروا الأبــوابــا

فرضي الله عنه وعن أتباعه أجمعين .

ومنهم :

(٥٩٦) الإمامُ أبو الحسن الإسْتراباذي رضي الله عنه(٢)

كان إماماً عالماً عاملاً ، زاهداً ورعاً ، مجتهداً في العبادة ليلاً ونهاراً .

وكان ينسخُ كتبَ الحديث والعلم طولَ نهاره وهو يقرأُ القرآنَ بصوتٍ حزين ، لا تشغلُهُ الكتابةُ عن التلاوة .

وكان إذا دخل عليه أحدٌ ولغا في الكلام زجرَهُ ، وأمرَهُ بالقيام من عنده .

قالوا : وكان يختِمُ كلَّ يوم ختمةً وهو ينسخُ كتب الحديث ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٢٩) ، و(٢/ ٥٣١) ، و(٣/ ٢٢٤) (٤٥٥) .
(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٢) (٤٥٦) .

ومنهم :

(٥٩٧) الإمامُ علي بنُ المرزبان رضي الله تعالىٰ عنه(١)

كان إماماً ، ورعاً ، زاهداً .

وكان يقول : (لا أعلمُ بحمد الله لأحدٍ عليَّ مظلمةً في مالٍ ، أو عرضٍ ، ولا سوء ظن بمسلمٍ ، ولو أني علمتُ أن لأحد عليَّ حقّاً لتحاللته في الدنيا قبل الآخرة ، في يوم يشيبُ فيه الوليد) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٩٨) الإمامُ العظيم الشأن ، الذي أجمعَ الخلائقُ علىٰ جلالته الشيخُ أبو الحسن الأشعري ، إمامُ السنة ، رضي الله عنه(٢)

مكث رضي الله عنه نحو ثلاثين سنة يُصلي الصبحَ بوضوء العشاء .

وكانت نفقتُهُ في كلِّ سنة سبعة عشر درهماً ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٩٩) الإمامُ الفقيه المحدِّثُ ، أبو القاسم ابن عساكر رضي الله تعالىٰ عنه(٣)

كان إماماً في جميع العلوم ، صائماً قائماً .

وكان يختِمُ القرآن في التهجد في كل أسبوع .

وكان أصحابُهُ يُحدِّثون عنه أنهم لم يجدوا في عصره مثلَهُ في الإقبال على الله عز وجل ، لا يكاد يغفُلُ لحظة عن ربّه في ليل أو نهار ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٢) (٤٥٧) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٣) (٤٥٨) .

(٣) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٣) (٤٥٩) .

ومنهم :

(٦٠٠) الإمامُ أبو الحسن بن القزويني رضي الله عنه[١]

كان يُكاشفُ الناسَ ، ويتكلَّمُ علىٰ خواطرهم .

وكان ملازماً للصمت والعزلة والصوم ، لا يخرجُ من بيته إلا لصلاة الجماعة ، ويُفتي ويدرس الناس في بيته ، رضي الله عنه .

وعرضوا عليه الدنيا ومناصبَها فأبىٰ ، وقنعَ بالخبز والملح ، رضي الله تعالىٰ عنه .

* * *

فهٰؤلاء جملة من العلماء العاملين الذين لم يشتهروا بالصلاح كغيرهم ، قصدنا ختامَ « الطبقات » بذكرهم ؛ استجلاباً لتنزُّل الرحمة ، ولم نذكر أحداً ممنِ اشتهروا من علماء مذهبنا بعلم أو صلاح ؛ كالغزالي ، والشيرازي ، والرافعي ، والنووي رضي الله عنهم ؛ اكتفاءً باشتهار صلاحهم وزهدهم عند الخاصِّ والعام ، بخلافِ هٰؤلاء الذين ذكرناهم ، فالحمد لله رب العالمين .

* * *

وليكنْ ذلك آخرَ ما التزمنا ذكرهَ في « طبقاتنا » ؛ من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والعلماء العاملين **إلىٰ عصرنا هٰذا ؛ وهو سنةُ خمس وستين وتسع مئة ،** ولم أذكر من علماءِ القرن العاشر إلا من لي به صحبةٌ ، أو قرأتُ عليه شيئاً من العلوم ، أو أخذَ عليَّ عهداً دون أضداد هٰؤلاء .

كما أني لم أذكر ممن لم أذكرهم إلا من كان له كلامٌ في الطريق ، أو حال يُنهضُ المريدَ ، ويُقوِّي همَّتَهُ .

وما سكتُّ عن ذكر سوىٰ هٰؤلاء استهانةً بحقِّهم ، ولا غفلةً عنهم ؛ وإنما ذلك لعدم قدرتي علىٰ حصرهم في كتاب ؛ إذ لا يخلو الزمانُ عن أربعةٍ وعشرين ألف وليٍّ لله عز وجل من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ قيام الساعة .

فأسألُ اللهَ تعالىٰ أن ينفعنا ببركاتِ كلِّ وليٍّ لله تعالىٰ ، وأن يحشرنا في زمرتهم ،

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٣) (٤٦٠) .

وتحت ألويتهم ، ولا يخالفَ بنا عن طريقهم ؛ فإن من أشقى الناس منِ اجتمعَ بالعلماء والصالحين ، وطالعَ مناقبهم وأحوالهم ولم ينتفع منهم بشيء .

وقد أنشد سيدي عبد العزيز الديريني آخرَ منظومته التي ذكرَ فيها مشايخَهُ في الفقه والتصوف وغيرِهما من العلوم ، وهو لسانُ حالي أيضاً : [من البسيط]

يا ويحَ قلبي وهىٰ جسمِي وهىٰ شغفِي ... بالقلبِ باقٍ كعانٍ باتَ مسجونا[1]
مضى الصِّبا وزماني والكهولةُ في ... عزمٍ يزيدُ علىٰ طولِ المدىٰ لينا
والحالُ ما حالَ والتبريحُ ما برحتْ ... آثارُهُ والهوىٰ قدْ زادني نونا[2]
عبدَ العزيزِ صحبتَ الصالحينَ فهلْ ... وفَّيتَ توفيةَ القومِ المُجدِّينا
هلِ اتَّبعتَ الذي عاهدتَهم أبداً ... عليهِ أمْ خنتَ إسرافاً وتلوينا

والحمد لله الذي هدانا لهٰذا ، وما كنَّا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله .

وكان معظمُ قصدي بذكر طبقات العلماء الأحياء من أهل عصري تعطيرَ الكون بذكرهم ، وفتحَ بابَ الاعتقاد فيهم ؛ فإنهم قالوا : المعاصرةُ حجابٌ إلا علىٰ من عافاه اللهُ من الحسد ، فلا يكادُ معاصرٌ يذكرُ مناقبَ معاصره إلا قليلاً ، فقصدتُ بذكر أقراني إعلامَ الإخوان بخلوِّي من الحسد حتىٰ يقتدوا بي في ذلك ؛ فإن من لم يعتقد في علماء عصره فاتَهُ مددُهم .

فالحمدُ لله ربِّ العالمين .

* * *

وكان الفراغ من تبييض هٰذه « الطبقات » علىٰ يد مؤلفها وكاتبها عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الشافعي في ثالث عشر رجب سنة ست وستين وتسع مئة بمصر المحروسة .

وصلى اللهُ علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين ، وعلىٰ آلهم وصحبهم أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، أستغفر الله .

---

(١) في (أ ، هـ ، ي ، ك) : (مشجونا) .
(٢) أي : أصبح الهوىٰ هواناً .

وأُوصي جميعَ الإخوان بكثرة احتمال الأذىٰ من أقرانهم ، وذكرِ جميل صفاتهم ؛ عملاً بحديث الطبراني مرفوعاً : « وإن أحدٌ عيَّركَ بما ليسَ فيكَ فلا تعيِّرْهُ بما هوَ فيهِ »[1]

وقد ذكرت في هٰذه « الطبقاتِ » جماعةً من الأقران آذوني أشدَّ الأذىٰ ، وعملوا الحيلة علىٰ قتلي ونفيي من مصر مراتٍ ، فلم أقابلهم علىٰ ذلك لا بنفسي ولا بوكيلي من الخلق ، بل ذكرتُ صفاتِهم الحسنةَ ، ورددت عن عرضهم كلَّ الردِّ ، ولا أعلم أحداً من أقراني سلك مثلَ ذلك في حقِّ عدوِّه أبداً ، بل لا يقدر على النطق بشيء من محاسنه .

فاتبعوني أيها الإخوان علىٰ ذلك ، واعملوا بمثل ذلك مع أعدائكم ، وأجركم على الله تعالىٰ ، والحمد لله ربِّ العالمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وسلم .

---

(١) المعجم الكبير (٦٣٨٥) عن سيدنا جابر بن سليم رضي الله عنه ، بلفظ : « وإن امرؤٌ شتمك بما فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه ؛ فإنه يكون لك أجرُهُ ، وعليه وزرُهُ »

خَوَاتِيم النُّسَخ الخَطِّيَّة

خاتمة النسخة (أ)

وكان **الفراغ** من كتابة هـٰذه الطبقات المباركة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه يوم الخميس المبارك أوائل رجب الفرد سنة **تسعة عشر وألف من الهجرة** (١٠١٩) علىٰ يد الفقير أحمد بن سليمان الدَّرازي المالكي البحري ، غفر الله له ، آمين .

خاتمة النسخة (ب)

وكان **الفراغ** من كتابة هـٰذه النسخة في يوم الاثنين المبارك ، تاسع جمادى الأولىٰ **سنة ست وعشرين وألف** ، علىٰ يد أضعف العباد وأحوجهم إلىٰ ربه ؛ محمد زين العابدين القلقشندي الشعراوي ، غفر الله له ولوالديه ولمن اطلع علىٰ عيب وستره ، أو نقص وكمله ، ولجميع المسلمين ، آمين آمين آمين .

خاتمة النسخة (ج)

وكان **الفراغ** من كتابة هـٰذه النسخة في يوم الجمعة المبارك تاسع عشر ربيع الأول **سنة خمس وثلاثين وألف** ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

خاتمة النسخة (د)

وكان **الفراغ** من كتابة هـٰذه النسخة المباركة يوم السبت المبارك ، تاسع عشرين شهر شوال المبارك **سنة سبعة وثلاثين وألف من الهجرة النبوية** ، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

غفر الله لمؤلفها وكاتبها وللمسلمين ، آمين آمين .

خاتمة النسخة (هـ)

وقد وافق الفراغ من كتابة هـٰذه النسخة المباركة **في** يوم الاثنين المبارك سادس عشر رجب الفرد الحرام الأصم ، **سنة تسع وخمسين وألف** ، علىٰ يد كاتبها العبد الضعيف الذليل أحمد بن المرحوم الشيخ علي الدنوشري الحنبلي ، لطف الله به ، وعامله بخفي لطفه ، ورحم والديه والمسلمين أجمعين ، آمين .

خاتمة النسخة (و)

وكان الفراغ من تعليق هـٰذه النسخة في أواسط جمادى الآخر من شهور **سنة اثنين وسبعين وألف** ، ختمت بخير ، آمين .

خاتمة النسخة (ز)

قال كاتبها العبد الفقير إلىٰ رحمة الله سبحانه وتعالىٰ يوسف بن محمد الشهير بابن الوكيل : **فرغت من كتابتها** صبيحة يوم الاثنين المبارك خامس شهر جمادى الأول من شهور **مئة وعشرين بعد الألف من الهجرة النبوية** ، علىٰ مهاجرها أشرف التحية ، وأسأل الله تعالىٰ أن يرزقني شفاعة النبي الكريم ومَنْ ذُكر في هـٰذا الكتاب من العلماء والصالحين ، آمين .

خاتمة النسخة (ح)

تمت في شهر صفر الخير سنة (١١٢١هـ) .

خاتمة النسخة (ط)

ووافق الفراغ من تعليق هـٰذه النسخة يوم الاثنين .

خاتمة النسخة (ي)

تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه علىٰ يد أفقر العباد وأحوجهم إلى الله تعالى الفقير الحقير ، المعترف بالعجز والتقصير ؛ علي بن علي الشافعي مذهباً ، الأحمدي خرقة ، غفر الله له ولوالديه ، ولمن طالع في هـٰذه الطبقات ، ولجميع المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات .

وإن تجـدْ عَيبـاً فسُـدَّ الخَلَـلا ... وقلىٰ جلىٰ من لا فيه عَيبٌ وعلا[1]

وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

خاتمة النسخة (ك)

قال : وكان الفراغ من كتابة هذا النسخة من خط المصنف رضي الله عنه في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الثاني ، سنة أحد وعشرين بعد الألف ، على يد الفقير الحقير أحمد بن علي الشبراهارسي بلداً، والشعراوي وطناً وتلميذاً وخرقة، غفر الله له ولوالديه وللمسلمين، ولمن دعا له بالمغفرة، آمين اللهم آمين آمين .

* * *

خاتمة النسخة (ل)

وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة المباركة يوم الأربعاء المبارك تاسع شهر الله المحرم الحرام ، افتتاح عام أربعة وأربعين بعد الألف .

وكتبها بيده الفانية ، الفقير الحقير المعترف بالعجز والتقصير محمد بن عمر بن محمد الفيومي ، غفر الله له ولوالديه ولكل المسلمين ، آمين آمين .

* * *

---

(١) قوله : (وقلىٰ وجلىٰ) هكذا وقع في خاتمة النسخة (ي) ، والمعروف بدون : (وقلىٰ) ، والبيت بكماله :

وإن تجـدْ عيبـاً فسـدَّ الخللا ... جـلَّ مَـنْ لا عيـبَ فيـه وعـلا

إجازات وسماعات النسخة (أ ، ط)

بلغ الأخ الصالح العالم العلامة ، الشيخ نور الدين النجاري ـ نسبة إلىٰ قرية من قرى الغربية ، اسمها كوم النجار ـ نفع الله بعلومه ؛ قراءة لهٰذه الطبقات المباركة من أولها إلىٰ آخرها قراءة بحث وتدقيق[١] ، وأجزت له روايتها وإقراءها وجميع مؤلفاتي ومسموعاتي بشرطه المعروف بين العلماء ، وحضر مجلس الختم من أول مشايخ الحنفية الأحياء إلىٰ ختامه جماعةٌ من العلماء والأفاضل :

منهم : الشيخ الإمام العالم مفتي المسلمين الشيخ أبو الفتح المالكي الدميري ، نفع الله به ، ومنهم : الشيخ الصالح العالم سيدي عمر الحنفي الشهير بابن الأمير ، ومنهم : الشيخ الصالح شرف الدين المادح في سيدي قمر الدولة ، ومنهم : سيدي كريم الدين الفوي الشهير بابن خليل ، وسيدي علي ابن القاضي بناحية المنصورة ، وسيدي أبو القاسم ابن العزي .

ومنهم : عبد العال الهلالي المقيم بالعينية ، وسيدي علي ابن الشيخ إبراهيم الشهير بابن الناظم ، وسيدي عمر بن أبي بكر الثابتي ، والشيخ عبد الرحمٰن بن الشيخ عطية البهوتي[٢] ، وسلامة بن محمد السندبصطي ، وعلي التلباني النقيب ، والشيخ محب الدين البصير بن الشيخ شمس الدين البوصيري ، والشيخ عبد الله بن الشيخ زين الدين بن الجنيد القادري الأبشيهي ، وخلائق لا يحصون في جميع المجالس السابقة .

وأجزت لهم نفع الله بعلومهم برواية جميع هٰذا الكتاب عني[٣] ، ويزيد القادري ، والشيخ أبو الفتح المالكي ، والشيخ عمر الحنفي علىٰ بقية الحاضرين إجازتهم بإقرائها

---

(١) في (ط) زيادة : (وتحقيق) بعد قوله : (بحث) .

(٢) في (ط) : (القهاوي) بدل (البهوتي) .

(٣) في (ط) : (رواية) بدل (برواية) .

لمن يرونه أهلاً لذلك ، والحمد لله الذي هدانا لهٰذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وذلك قبيل العصر من يوم الثلاثاء رابع شهر صفر الخير سنة إحدىٰ وستين وتسع مئة ، بمنزله بالمدرسة القادرية بخط بين السورين من القاهرة المحروسة .

تمت بحمد الله[1]

* * *

(١) قوله : (تمت بحمد الله) : ليست في (ط) .

فهرس أسماء مترجمي الطبقات الوسطى حسب ترتيب المؤلف

القسم الأول مناقب بعض الصحابة والتابعين

ذكر التابعين وتابع التابعين رضي الله عنهم

ذكر جماعة من عبّادِ النساء وزهّادهنّ رضي الله عنهن

ذكر أولياء الرجال

نبذة صالحة في ذكر أصحاب السطح

الباب الثاني
في ذكر جماعة من أرباب الأحوال
ممن لهم النظرة تغني المريد عن المجاهدة

القسم الثالث

الباب الأول

في ذكر جملة من مشايخ الإسلام الذين أدركناهم
وأخذنا عنهم العلوم من فقهاء ومحدثين ونحاة
وأصوليين ونحوه

الباب الثاني

علماء الشافعية العاملين

* * *

فهرس أسماء مترجمي الطبقات الوسطى ألفبائيًا

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- ق -

- ك -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

* * *